مجمع الأحباب

وتذكرة أولي الألباب

تأليف

الشيخ الإمام العالم الورع

الشريف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي

رحمه الله تعالى

(٧١٧ - ٧٧٦ هـ)

عُني به

محمد إبراهيم الخضر — محمد زكريا قاسم المقداد

محمد مصطفى الخطيب — عبد الله عبد السلام حميدان

الجزء الثاني

دار المنهاج

الطبعة الثانية
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - جدة - حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655 - المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص. ب 22943 - جدة 21416

مجمع الأحباب

وتذكرة أولي الألباب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

يحوي هذا السِّفْر الأثريّ .. سِيَر الصَّفْوة من الجيل المثاليّ ، ومَنْ ترسَّم خطاهم .

فهو دستورٌ وضّاءٌ ، تجلَّتْ فيه حقائقُ التّنزيل ، وازْدان بحقائق المعْرفة ومحاسِنِ أولئك العِظام الّذين هُدُوا إلى الكَلِم الطّيّب ، ونسجوا روائع الحِكَم .. ممّا يهْدي إلى النّهْج القويم .

وما من مُخلصٍ نَهَلَ من مَعِينه .. إلّا وبرقتْ أساريرُ الإيمان في أعماقه ، وسرتْ روحُ التّوفيق في أوصاله .. وكأنّما خُلِقَ خَلْقًا جديدًا .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الرحمـٰن طاووس بن كيسان
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن ابن شَوْذَب قال : شهدت جنازة طاووس بمكة سنة خمس ومئة ، فجعلوا يقولون : رحم الله أبا عبد الرحمـٰن لقد حج أربعين حجة .

ومات طاووس بمكة ، ولم يصلوا عليه حتىٰ بعث ابن هشام بالحرس ، قال : فلقد رأيت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي واضعاً السرير علىٰ كاهله ، وسقطت قلنسوة كانت عليه ، ومُزِّق رداؤه من خلفه .

قالوا : وكان طاووس يصلي في غداة باردة معتمة ، فمر به محمد بن يوسف أخو الحجاج أو أيوب بن يحيىٰ وهو ساجد ، فأمر بساج[1] أو طيلسان مرتفع ـ يعني : له قيمة كثيرة ـ فطرحه عليه ، فلم يرفع رأسه حتىٰ فرغ من حاجته ، فلما سلم . . نظر ، فإذا الساج عليه ، فانتفض ، فوقع الساج ولم ينظر إليه ، ومضىٰ إلىٰ منزله .

وعن عطاء ، عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : إني لأظن طاووساً من أهل الجنة .

قال طاووس : ما من شيء يتكلم به ابن آدم . . إلا أحصي عليه ، حتىٰ أنينه في مرضه .

وقال رجل لطاووس : ادع الله عز وجل لنا ، قال : ما أجد لقلبي خشية فأدعو لك .

ومر طاووس بروَّاس[2] وقد أخرج رأساً ، فغشي عليه .

زاد في رواية : كان له طريقان إلى المسجد ، طريق في السوق ، وطريق آخر ، فكان يأخذ في هـٰذا يوماً وفي هـٰذا يوماً ، فإذا مر في طريق السوق فرأىٰ تلك الرؤوس المشوية . . لم ينعس ـ أو لم يغف ـ تلك الليلة .

وكان طاووس يجلس في بيته ، فقيل له في ذلك ، فقال : حَيف الأئمة ، وفساد الناس .

---

(١) **الساج** : الطيلسان الأخضر .

(٢) **الرَّواس** : بائع الرؤوس المطبوخة .

وقال : لما خلقت النار . . طارت أفئدة الملائكة ، فلما خلق آدم . . سكنت .

وقال مجاهد لطاووس : رأيتك تصلي في الكعبة ، والنبي صلى الله عليه وسلم علىٰ بابها يقول لك : « اكشف قناعك ، وبيِّن قراءتك » ، فقال : اسكت ، لا يسمعن هٰذا منك أحد .

وجاء طاووس إلىٰ رجل في السَّحَر ، فقالوا : هو نائم ، قال : ما كنت أرىٰ أن أحداً ينام في السحر .

وقال : لا يتم نسك الشاب حتىٰ يتزوج .

وقال طاووس : حَجُّ الأبرار على الرحال .

وعن عمران بن خالد الخزاعي قال : كنت عند عطاء ، فجاء رجل ، فقال : يا أبا محمد ؛ إن طاووساً قال : من صلى العشاء ثم صلىٰ بعدها ركعتين يقرأ فيهما في الأولىٰ : (الم تنزيل) السجدة ، وفي الثانية : (تبارك الذي بيده الملك) . . كتب له مثل وقوف ليلة القدر ، فقال عطاء : صدق طاووس ، ما تركتها .

وقيل لطاووس : إن منزلك قد استرم(١) ، قال : قد أمسينا .

وكان من دعاء طاووس : اللهم ؛ احرمني كثرة المال والولد ، وارزقني الإيمان والعمل .

وقيل لعبيد الله ابن أبي يزيد : مع من كنت تدخل على ابن عباس ؟ قال : مع عطاء والعامة ، وكان طاووس يدخل مع الخاصة .

وعن حبيب قال : قال لي طاووس : إذا أخبرتك أني أُثبتُ شيئاً . . فلا تسأل عنه أحداً غيري .

وقال طاووس : أدركت خمسين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن طاووس : قلت لأبي : أريد أن أتزوج فلانة ، قال : اذهب فانظر إليها ، فذهبت ، فلبست من صالح ثيابي ، وغسلت رأسي ، وادَّهنت ، فلما رآني في تلك الهيئة . . قال لي : اقعد لا تذهب .

وأقام طاووس رحمه الله لأجل رفيق له يمرضه حتىٰ فاته الحج .

وعن عبد الله بن طاووس قال : كان سيرنا إلىٰ مكة مع أبي شهراً ، فإذا رجعنا . . سار بنا

---

(١) **استرم الحائط** : حان له أن يُرَمَّ ، وذلك إذا بَعُد عهده بالتطيين .

شهرين ، فقلنا له ، فقال : بلغني أن الرجل لا يزال في سبيل الله حتىٰ يأتي بيته .

وكان إذا خرج من اليمن . . لم يشرب إلا من تلك المياه القديمة الجاهلية .

وعاد مريضاً ، فقال له المريض : ادع الله لي ، فقال : ادع لنفسك ؛ فإنه يجيب المضطرَّ إذا دعاه .

وقال أبو عبد الله الشامي : أتيت طاووساً ، فخرج إليَّ ابنه شيخ ، فقلت له : أنت طاووس ؟ فقال : أنا ابنه ، قلت : إذاً إن الشيخ قد خَرِفَ ، فقال : إن العالم لا يَخْرَفُ ، فدخلت ، فقال لي طاووس : سل وأوجز ، قلت : إن أوجزتَ . . أوجزتُ لك ، قال : تريد أن أجمع لك في مجلسي هـٰذا التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، قلت : نعم ، قال : خف الله مخافة لا يكون عندك شيء أخوف منه ، وارجه رجاء هو أشد من خوفك إياه ، وأحب للناس ما تحب لنفسك .

وعن عطاء قال : جاءني طاووس ، فقال لي : يا عطاء ؛ إياك أن ترفع حوائجك إلىٰ من أغلق دونك بابه ، وجعل دونه حجاباً ، وعليك بطلب حوائجك ممن بابه مفتوح لك إلىٰ يوم القيامة ، أمرك أن تدعوه ، ووعدك بالإجابة .

وقال : إن الموتىٰ يفتنون في قبورهم سَبْعاً ، وكانوا يستحبون أن يُطعَم عنهم تلك الأيام .

وقال طاووس : ما تعلمت فتعلمه لنفسك ؛ فإن الأمانة والصدق قد ذهبا من الناس .

وسأل سالم بن قتيبة طاووساً عن مسألة أو عن شيء ، فانتهره ، فقيل له : هـٰذا سالم بن قتيبة صاحب خراسان ، قال : ذاك أهون له عندي .

وقال طاووس : حلوُ الدنيا مُرُّ الآخرة ، ومُرُّ الدنيا حلوُ الآخرة .

وعن ابن أبي روَّاد قال : رأيت طاووساً وأصحاباً له ، إذا صلوا العصر . . استقبلوا القبلة ، ولم يكلموا أحداً ، وابتهلوا في الدعاء .

وقال طاووس : لم يجهد البلاء من لم يتول اليتامىٰ ، أو يكون قاضياً [بين الناس في أموالهم] ، أو أميراً علىٰ رقابهم .

وحج سليمان بن عبد الملك ، فخرج حاجبه ذات يوم فقال : إن أمير المؤمنين قال : ابعثوا لي فقيهاً أسأله عن بعض المناسك ، فمر طاووس ، قالوا : هـٰذا طاووس اليماني ، فأخذه الحاجب ، فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال له : اعفني ، فأبىٰ ، فأُدخل عليه ، قال طاووس : فلما وقفت عنده . . قلت : إن هـٰذا المجلس يسألني الله عز وجل عنه ،

فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن صخرة كانت علىٰ شفير جب في جهنم هوت في الجب سبعين خريفاً حتى استقرت ، أتدري لمن أعدها الله سبحانه وتعالىٰ ؟ قال : لا ، لمن أعدها ؟ قال : لمن أشركه الله عز وجل في حكمه فَجَارَ ، قال : فبكىٰ لها .

وعن الزهري قال : نظر سليمان بن عبد الملك إلىٰ رجل يطوف بالكعبة ، لَهُ جمَال وتمام ، فقال : يابن شهاب . . مَن هـٰذا ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ؛ طاووس اليماني ، وقد أدرك عدة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فأرسل إليه سليمان ، فأتاه ، فقال : حدثني ، فقال : حدثني أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أهون الخلق على الله تعالىٰ من ولي من أمر المسلمين شيئاً فلم يعدل فيهم »(١) ، فتغير وجه سليمان ، وأطرق طويلاً ، ثم رفع رأسه ، وقال : حدثنا ، فقال : حدثني علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ طعام في مجلس من مجالس قريش ، ثم قال : « إن لكم علىٰ قريش حقاً ، ولهم على الناس حق ما استرحموا فرحموا ، واستحكموا فعدلوا ، وائتُمِنوا فأدَّوا ، فمن لم يفعل ذلك . . فعليه لعنة الله ، والملائكة ، والناس أجمعين »(٢) ، فتغير وجه سليمان طويلاً ، ثم رفع رأسه ، فقال : حدثنا ، فقال : حدثني ابن عباس رضي الله عنهما : أن آخر آية نزلت : ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وعن ابن عيينة قال : قال عمر بن عبد العزيز لطاووس : ارفع حاجتك إلىٰ أمير المؤمنين ؛ يعني : سليمان بن عبد الملك ، فقال طاووس : ما لي إليه حاجة .

قال سفيان : حلف لنا إبراهيم بن ميسرة ـ وهو مستقبل الكعبة ـ فقال : ورب هـٰذه البَنِيَّة(٣) ؛ ما رأيت أحداً الشريف والوضيع عنده بمنزلة واحدة . . إلا طاووساً .

وقال سفيان : جاء ابن لسليمان بن عبد الملك فجلس إلىٰ جنب طاووس ، فلم يلتفت إليه ، فقيل له : جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه ؟! فقال : أردت أن يعلم أن لله عز وجل عباداً يزهدون فيما في يديه .

---

(١) يوافق المعنى العام للحديث ما أخرج مسلم (١٨٢٨) عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم ؛ من ولي من أمر أمتي شيئاً فشَقَّ عليهم . . فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم . . فارفق به » .

(٢) أخرج بنحوه ابن حبان (٤٥٨١) .

(٣) البنيَّة : هي الكعبة المشرفة ، ودار الندوة في الحرم ، فكأنه ينظر إليها وهو يقسم بها .

وعن عبد الرزاق ، عن معمر قال : قال عبد الله بن طاووس : كنت لا أزال أقول لأبي : ينبغي لنا أن نخرج علىٰ هـٰذا السلطان ونفعل به ، فخرجنا حجاجاً ، فنزلنا في بعض القرىٰ ، وفيها عامل لمحمد بن يوسف ـ أو أيوب بن يحيىٰ ـ يقال له : ابن نَجيح ، وكان من أخبث عمالهم ، فشهدنا صلاة الصبح في المسجد ؛ فإذا ابن نجيح قد أخبر بطاووس ، فجاء ، فقعد بين يديه ، فسلم عليه ، فلم يجبه ، ثم كلمه ، فأعرض عنه ، ثم عدل إلى الشق الآخر ، فأعرض عنه ، فلما رأيت ما به . . قمت إليه ، فمددت بيده وجعلت أسائله ، وقلت له : إن أبا عبد الرحمـٰن لم يعرفك ، فقال : بلىٰ ، معرفتُه بي أوجبت هـٰذا الفعل ، ثم مضىٰ ـ وأبي ساكت لا يقول شيئاً ـ فلما دخلت المنزل . . التفت إليَّ ، فقال : يا لكع ؛ بينما أنت زعمت أنك تريد أن تخرج عليهم بسيفك . . لم تستطع أن تحبس عنهم لسانك .

أدرك طاووس جماعة من الصحابة ، رضوان الله عليهم .

وروىٰ عنه خلائق من التابعين .

فمن أحاديثه : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجد . . قال : « اللهم ؛ لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيُّوم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، ومحمد حق ، والنبيون حق .

اللهم ؛ لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إلـٰه إلا أنت » أو قال : « لا إلـٰه غيرك »[١] شك سفيان ، قال سفيان : وزاد فيه عبد الكريم : « ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وعنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بمنىٰ يقول : « لو يعلم أهل الجمع بمن حلُّوا . . لاستبشروا بالفضل بعد المغفرة »[٢] .

وعنه عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٥٣) .

أخذ على القرآن أجراً . . فقد تعجل حسناته في الدنيا ، والقرآن يخاصمه يوم القيامة »[1] غريب من حديث طاووس . انتهىٰ [« الحلية » ٤/٣ـ٢٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال عمرو : ما رأيت أحداً أشد تنزهاً عما في أيدي الناس من طاووس .

وقال يوسف بن أسباط : مر طاووس بنهر قد أكراه السلطان ، فأرادت بغلته أن تشرب منه ، فأبىٰ أن يدعها .

وقال إدريس : صلىٰ وهب بن منبه وطاووس الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة .

وقال أبو سليمان : كان طاووس يفترش فراشه ، ثم يضطجع عليه ، ويتقلّىٰ كما تتقلّى الحبة ، ثم يثب ، فيدرجه ، ثم يصلي حتى الصباح ، ويقول : طيَّر ذِكرُ جهنم نومَ العابدين .

مات وهو ابن بضع وتسعين سنة ، سنة ست ـ أو خمس ـ ومئة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٧١ـ١٧٣] .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : فإن قيل : قد كان علماء السلف رضي الله عنهم يدخلون على السلاطين . . فأقول : نعم ، تعلَّم الدخول منهم وادخل ؛ فقد حكي أن هشام بن عبد الملك قدم حاجّاً إلىٰ مكة ، فلما دخلها . . قال : ائتوني برجل من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقيل : يا أمير المؤمنين ؛ قد ماتوا ، قال : من التابعين ، قال : فأتي بطاووس اليماني ، فلما دخل عليه . . خلع نعليه بحاشية بساطه ، ولم يسلم بإمرة المؤمنين ، وإنما قال : السلام عليكم ، ولم يُكَنِّهِ ، وجلس بإزائه ، وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضباً شديداً حتىٰ هَمَّ بقتله ، فقيل له : أنت في حرم الله وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا يمكن ذلك ، فقال له : يا طاووس ؛ ما الذي حملك علىٰ ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعتُ ؟ فازداد غضباً وغيظاً ، فقال : خلعت نعليك بحاشية بساطي ، ولم تقبِّل يدي ، ولم تسلم بإمرة المؤمنين ، ولم تُكَنِّني ، وجلست

---

(١) لم يخرجه بهـٰذا اللفظ سوىٰ أبي نعيم رحمه الله ، ولـٰكن أخرج البخاري (٥٤٠٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحق ما أخذتم عليه أجراً . . كتاب الله تعالىٰ » وذلك في قصة اللديغ الذي رقاه ابن مسعود بفاتحة الكتاب علىٰ قطيع من الغنم ، فبرىء ؛ فأخذها ، وكره منه أصحابه ذلك ، وقالوا له : أخذت أجراً علىٰ كتاب الله ؟! ، حتىٰ قدموا المدينة فقالوا : يا رسول الله ؛ أخذ علىٰ كتاب الله أجراً ! ! . . . فذكره .

بإزائي بغير إذن ، وقلتَ : كيف أنت يا هشام ؟! فقال : أما ما خلعت نعلي بحاشية بساطك . . فإني أخلعها بين يدي رب العزة جل جلاله في بيته كل يوم خمس مرات ، ولا يعاقبني ولا يغضب عَلَيَّ ، وأما قولك : لم تقبِّل يدي . . [فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول] : (لا يحل لرجل أن يقبِّل يد أحد إلا لوالد أو زوجة من شهوة[1]) ، وأما قولك : لم تسلم بإمرة المؤمنين . . فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكرهت أن أكذب ، وأما قولك : لم تُكَنِّني . . فإن الله عز وجل سمَّىٰ [أنبياءه و] أولياءه [فقال] : يا داوود ، يا يحيىٰ ، يا عيسىٰ ، وكنَّىٰ أعداءه فقال : ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ وأما قولك : جلست بإزائي بغير إذني . . فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : (إذا أردت أن تنظر إلىٰ رجل من أهل النار . . فانظر إلىٰ رجل جالس وحوله قوم قيام) ، فقال له هشام : عظني ، فقال : سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : (إن في جهنم حيات كالقلال[2] وعقارب كالبغال ، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته) ثم قام ، وهرب .

وقال الغزالي ـ رحمه الله ـ : فهٰذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ، لٰكنهم اتكلوا علىٰ فضل الله أن يحرسهم ، ورضوا بحكم الله إن رزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا فيه النية . . أثر كلامهم في القلوب القاسية ، فليَّنَها وأزال قساوتها ، وأما الآن . . فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء ، فسكتوا ، وإن تكلموا . . لم تساعد أقوالهم أحوالهم ، فلم ينجحوا ، ولو صدقوا الله عز وجل وقصدوا أداء حق العلم . . لأفلحوا ، ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولىٰ عليه حب الدنيا . . لم يقدر على الحسبة على الأراذل ، فكيف على الملوك والأكابر ؟! والله المستعان علىٰ كل حال . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/١٤٦ـ٣٥٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) في « الإحياء » : (إلا لزوجة من شهوة ، أو لولد من رحمة) .

(٢) **القلال** : جمع قلة ، وهي : قمة الجبل ؛ يشير إلىٰ ضخامة الحيات .

ومنهم الإمام :

محمد بن عبد الرحمـٰن بن المغيرة بن الحارث ابن أبي ذئب

رضي الله عنه

قال النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو من تابعي التابعين ، سمع نافعاً ، وعكرمة ، وغيرهما .

وروىٰ عنه جماعات من الأئمة الكبار تابعي التابعين ، منهم : معمر ، والثوري ، ووكيع ، ويحيى القطان ، وابن المبارك .

واتفقوا علىٰ إمامته وجلالته .

روىٰ له البخاري ومسلم في « صحيحيهما » .

قال أحمد ابن حنبل : يشبه بسعيد بن المسيب .

قيل لأحمد : هل خلف ببلاده مثله ؟ قال : لا ، ولا بغيرها .

وكان ثقة صدوقاً .

وقال يحيى بن معين : كل من روىٰ عنه ابن أبي ذئب . . ثقة ، إلا أبا جابر البياضي .

ولد محمد بن عبد الرحمـٰن ابن أبي ذئب سنة ثمانين ، وأقدمه المهدي بغداد ، فحدث بها ، ثم رجع يريد المدينة ، فتوفي بالكوفة ، سنة تسع وخمسين ومئة ، وهو ابن تسع وسبعين سنة ، وكان يفتي بالمدينة .

ذكر له الخطيب ترجمة نفيسة[1] ، منها : أنه قال : كان ثقة ، صالحاً ، ورعاً ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر .

قال مصعب الزبيري : كان ابن أبي ذئب فقيهَ المدينة .

---

(١) انظر « تاريخ بغداد » (٣/ ٩٧ـ١٠٦) .

وعن محمد بن القاسم قال : لما حج المهدي . . دخل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق أحد إلا قام له . . إلا ابن أبي ذئب ، فقال له المسيب بن زهير : قم ، هٰذا أمير المؤمنين ، فقال : إنما يقوم الناس لرب العالمين ، فقال المهدي : دعه ؛ فلقد قامت كل شعرة في رأسي عند رؤيته .

وعن أبي نعيم قال : حججت سنة حج أبو جعفر وأنا ابن إحدىٰ وعشرين سنة ، ومعه ابنُ أبي ذئب ومالك بن أنس ، فدعا ابن أبي ذئب ، فأقعده معه في دار الندوة ، ثم قال له : ما تقول في الحسن بن زيد بن الحسن ابن فاطمة ؟ فقال : إنه ليتحرى العدل ، فقال : ما تقول فيَّ ؟ ـ مرتين أو ثلاثاً ـ فقال : ورب هٰذه البَنِيَّة ؛ إنك لجائر ، فأخذ الربيع بلحيته ، فقال أبو جعفر : كف يابن اللخناء(١) ، وأمر له بثلاث مئة دينار .

وكان يصلي الليل أجمع ، ويصوم يوماً ويفطر يوماً ، ثم سرد الصوم .

وكان مجتهداً في العبادة ، ولو قيل له : إن القيامة تقوم غداً . . ما كان فيه مزيد اجتهاد .

وكان يقول الحقَّ ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر على الخلفاء وغيرهم ، لا تأخذه في الله عز وجل لومة لائم ، وتميز علىٰ علماء عصره في ذلك ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٨٦ـ٨٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

❊ ❊ ❊

(١) اللَّخَنُ : نتن الريح عامة ، وقيل : قبح ريح الفرج ، ورجل أَلْخَن وأمة لَخْناء : لم يختنا ، ومن شتم العرب يابن اللخناء كأنهم يقولون يا دني الأصل أو يا لئيم الأم .

ومنهم الإمام :

أبو بكر أيوب السَّخْتِياني
رضي الله عنه

قال ابن سعد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في « الطبقات » : أيوب ابن أبي تميمة السختياني ، يكنىٰ : أبا بكر ، مولىٰ لعنزة ، واسم أبي تميمة : كيسان .

وكان أيوب ثقة ، ثبْتاً في الحديث ، جامعاً ، عدلاً ، ورعاً ، كثير العلم .

قال حماد بن زيد : ولد أيوب قبل الجارف بسنة ، وكان الجارف سنة سبع وثمانين .

وعن حماد بن زيد قال : حدثنا ميمون قال : كنا عند الحسن وعنده أيوب ، فسأله عن شيء ، ثم قام ، فأتبعه الحسن بصره ، حتىٰ إذا كان لا يسمع أيوب . . قال : هـٰذا سيد الفتيان .

وعن محمد بن سيرين : أنه حدث يوماً حديثاً ، فقالوا : عمن هـٰذا يا أبا بكر ؟ قال : حدثنيه أيوب السختياني ، فعليك به .

وعن حماد بن زيد ، عن أيوب قال : لما قرأ محمد بن سيرين وصيته . . فذهبت أتنحىٰ ، قال : ادنه ، فليس دونك سر .

وقال حماد : ما رأيت أحداً أكثر من قول (لا أدري) من أيوب ويونس ، وأما ابن عون . . فكان شيئاً عجيباً .

وقال حماد : كان الرجل إذا سأل أيوب عن شيء . . استعاده ، فإن أعاد عليه مثل ما قال أولاً . . أجابه ، وإن خلط عليه . . لم يجبه .

وكان أيوب إذا سئل عن الشيء ليس عنده فيه شيء . . قال : سل أهل العلم .

وقال أيوب : ومن يَسْلَمْ ؟ يعني : من آفة العلم ، إن الرجل ليحدث بالحديث ، فيرىٰ أنه قد وقع من القوم موقعاً ، فيخالط قلبه من ذلك شيء .

وسئل أيوب عن شيء ، فقال : لم يبلغني فيه شيء ، فقال : قل فيه برأيك ، فقال : لم يبلغه رأي .

وقال حماد بن زيد : فقهاؤنا : أيوب ، وابن عون .

وقال حماد بن سلمة : كان أيوب يوفر شعره من السنة إلى السنة .

وفي رواية أخرىٰ : فكان ربما طال ، فيصنع به هـٰكذا كأنه يفرقه .

وقال أيوب : **إن قوماً يريدون أن يرتفعوا ، فيأبى الله إلا أن يضعهم ، وآخرين يريدون أن يتواضعوا ، ويأبى الله إلا أن يرفعهم** .

وقال حماد بن زيد : وكان أيوب يأخذ بي في طريق بَعُدَ ، فأقول : هـٰذا أقرب ، فيقول : هـٰذا أتقىٰ ، أو كما قال .

قال حماد : وكان أيوب إذا سلم . . يردون عليه سلاماً فوق ما يردون علىٰ غيره ، فيقول : اللهم ؛ إنك تعلم أني لا أريده ، اللهم ؛ إنك تعلم أني لا أريده .

قال حماد بن زيد : وكان النساك يومئذ يشمرون ثيابهم ـ يعني : قمصهم ـ وكان أيوب يجر قميصه .

قال : وقال عبد الرزاق : رأيت علىٰ أيوب قميصاً يجره ، فقلت له فيه ، فقال : يا أبا عروة ؛ كانت الشهرة فيما مضىٰ في تذييلها ، فالشهرة اليوم في تشميرها .

وقال حماد بن زيد : تلقاني أيوب وأنا أذهب إلى السوق وهو في جنازة ، فرجعت معه ، فقال : اذهب إلىٰ سوقك .

وقال الربيع بن مسلم : سافرنا مع أيوب السختياني ، فلما كنا بالأبطح ؛ إذا رجل عليه ثياب غلاظ من القطن ، قال : فجعل يتتبع رجال البصريين ، ويقول : ألكم علم بأيوب ابن أبي تميمة ؟ قال : فقلت لأيوب : هـٰذا رجل يريدك ، فلما رآه . . أسرع إليه ، فتعانقا ، قال : فسألت عن الرجل ، فقالوا : هـٰذا سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم .

وقال حماد بن زيد : ما رأيت أحداً أعظم رجاء لأهل القبلة من أيوب وابن عون .

وقال حماد : ما رأيت أحداً أشد تبسماً في وجوه الرجال من أيوب إذا لقيهم ، وهارون بن رئاب كان شيئاً عجيباً .

وقال حماد : قال أيوب : لأَن يستر الرجل زهده . . خير له من أن يظهره .

وقال حماد بن زيد : كنت أمشي مع أيوب ، فيأخذ في طريق إني لأعجب له كيف يهتدي لها ؛ فراراً من الناس أن يقال : هـٰذا أيوب .

وقال ابن عون : لما مات محمد . . قلنا : مَن لنا ؟ فقلنا : لنا أيوب .

وقال شعبة : قال أيوب : ذُكِرت وما أحب أن أُذكر .

قال : وربما ذهب في الحاجة ، فأريد أن أمشي معه ولا يدعني ، فيأخذ هـٰهنا وهـٰهنا ؛ كي لا يُفطَنَ به .

وقال حماد بن زيد : قال أيوب : ما علىٰ ظهر الأرض رجل أحب إلي من بكر ـ يعني : ابنه ـ ولأَن أدفنه . . أحب إلي من أن يأتيني هشام أو بعض الخلفاء .

وقال حماد بن زيد : حدثني بعض جيران أيوب ، أن قصاع أيوب كانت تختلف في جيرانه يوم الفطر قبل أن يَغدُوَ إلى المصلىٰ .

وقال حماد : قال لي أيوب : اشتر لي إما قبطية[1] وإما كساء أعلف عليها الناقة ـ حين أراد الخروج إلىٰ مكة ـ قال : فلما قدم . . رأيتها عليه تحت قميصه ، ففطن ، فقال : لو خَفِيَتْ . . لسرني ألاَّ ألزمها .

وقال حماد بن زيد : كان لأيوب بُرْد أحمر ، وكان يلبسه إذا أحرم ، وكان يعده للكفن ، وكان إذا كان ليلة ثلاثٍ وعشرين وأربع وعشرين من رمضان . . لبسه ، فقالت امرأته : خرج أيوب الليلة في ثوب معصفر ، قال حماد : فسُرقت عيبته[2] وذلك البرد فيها ، فذهب .

وقال إسماعيل بن إبراهيم : قال أيوب : إن أبا قلابة أوصىٰ لي بكتبه ، فلما حملت إلي من الشام . . أَعطيت كراها بضعة عشر درهماً .

وقال حماد بن زيد : كان أيوب ربما حمَّر[3] رأسه ولحيته .

وقال حماد بن زيد : أنا زررت علىٰ أيوب ، يعني : القميص الذي كفن فيه .

قال : وأجمعوا علىٰ أن أيوب مات في الطاعون بالبصرة ، سنة إحدىٰ وثلاثين ومئة ، وهو ابن ثلاث وستين ، رحمه الله .

---

(١) **القبطية** : ثوب من كتان أبيض رقيق كان ينسج في مصر منسوب إلى القبط .

(٢) **العيبة** : وعاء يجعل فيه المتاع .

(٣) في بعض النسخ : (خمَّرَ) .

وقال حماد بن زيد : قدم علينا البصرة حماد ابن أبي سليمان ، فلم يأته أيوب ، فلم نأته ، وكان إذا لم يأت أيوب أحداً . . لم نأته .

قال : وقدم علينا ليث ابن أبي سليم ، فأتاه أيوب ، فأتيناه . انتهىٰ [٧/ ٢٤٦ـ٢٥١ و٢٨٦] .

وقال الحافظ أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمـٰن بن يوسف المزي رحمه الله في كتابه « تهذيب الكمال » : رأىٰ أيوب السختياني رحمه الله أنس بن مالك رضي الله عنه .

وروىٰ عن إبراهيم بن مرة ، وإبراهيم بن ميسرة الطائفي ، وأبي الشعثاء جابر بن زيد الأزدي ، والحسن البصري ، وحميد بن هلال العدوي ، وخالد بن دُرَيْك ، وذكوان ابن أبي صالح السمان ، وزيد بن أسلم ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن ميناء ، وأبي الخليل صالح ابن أبي مريم ، وأبي الوليد عبد الله بن الحارث البصري ، وأبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي ، وعبد الله بن سعيد بن جبير ، وعبد الله بن شقيق ، وعبد الله بن عبيد ابن أبي مليكة ، وعبد الله بن كثير القارىء ، وعبد الرحمـٰن بن القاسم ، وعبد الرحمـٰن بن هرمز الأعرج ، وعبد الكريم بن مالك الجزري ، وعدي بن عدي الكندي ، وعطاء ابن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعمرو بن دينار ، والقاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق ، وقتادة بن دعامة ، ومجاهد بن جبر ، ومحمد بن سيرين ، والزهري ، وهشام بن عروة ، ووهب بن كيسان ، وأبي حيان يحيى بن سعيد بن حيان التيمي ، ويحيى بن عروة بن الزبير ، وحفصة بنت سيرين ، ومعاذة العدوية ، وخلائق لا يحصون كثرة .

وروىٰ عنه إبراهيم بن طهمان ، وإسماعيل ابن علية ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وحميدٌ الطويل ـ وهو من أقرانه ـ وسفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، وسفيان بن موسىٰ ، وسليمان الأعمش ـ وهو من أقرانه ـ وشعبة بن الحجاج ، وعبد الله بن عون ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وعمرو بن دينار ، وقتادة ـ وهُما من شيوخه ـ ومعمر بن راشد ، وهشام الدَّسْتُوائي ، وجماعات .

قال البخاري : عن علي بن المديني : له نحو ثمان مئة حديث .

وقال بشر بن آدم : سمعت إسماعيل ابن علية يقول : كنا نقول : حديث أيوب ألفَا حديث ، فما أقل ما ذهب عليَّ منها .

وقال وهيب بن خالد : عن الجعد أبي عثمان : سمعت الحسن يقول : أيوب سيد شباب أهل البصرة .

وقال أبو الوليد : عن شعبة : حدثني أيوب ، وكان سيد الفقهاء .

وقال أبو داوود : عن شعبة : ما رأيت مثل أيوب ، ويونس بن عبيد ، وابن عون .

وعن حماد بن زيد : كان أيوب عندي أفضل من جالسته ، وأشده اتباعاً للسنة .

وقال أبو بكر الحميدي : لقي ابن عيينة ستة وثمانين من التابعين ، وكان يقول : ما لقيت فيهم مثل أيوب .

وقال مُعَلَّى بن منصور : سألت إبراهيم[1] ابن علية عن حفاظ البصرة ، فذكر أيوب ، وابن عون ، وسليمان التيمي ، وهشاماً الدستوائي ، وسليمان بن المغيرة .

وقال عثمان بن سعيد الدارمي : قلت ليحيى بن معين : [أيوب] أحب إليك عن نافع ، أو عبيد الله ؟ قال : كلاهما ، ولم يفضِّل .

وقال أبو بكر ابن أبي خيثمة : عن يحيى بن معين : أيوب ثقة ، وهو أثبت من ابن عون ، وإذا اختلف أيوب وابن عون . . فأيوب أثبت منه .

وقال أبو حاتم : سئل ابن المديني ، مَن أثبت أصحاب نافع ؟ قال : أيوب وفضلُه ، ومالكٌ وإتقانُه ، وعبيد الله وحفظُه .

وقال محمد بن أحمد بن البراء : عن علي بن المديني : وليس في القوم ـ يعني : هشام بن حسان ، وسلمة بن علقمة ، وعاصماً الأحولَ ، وخالداً الحذَّاءَ ـ مثل أيوب ، وابن عون ، وأيوب أثبت في ابن سيرين من خالد الحذاء .

وقال محمد بن سعد : كان ثقة ، ثبْتاً في الحديث ، جامعاً ، كثير العلم ، حجة ، عدلاً .

وقال أبو حاتم : هو أحب إلي في كل شيء من خالد الحذَّاء ، وهو ثقة لا يُسأل عن مثله ، وهو أكبر من سليمان التيمي . انتهىٰ [٣/٤٥٧ـ٤٦٣] .

---

(١) كذا في ما لدينا من النسخ ، وفي « التهذيب » : (إسماعيل ابن علية) ، ولعله الصواب ؛ لأن اسمه إسماعيل بن إبراهيم ، ويلقب بابن علية . .

وقال حماد بن زيد : غدا عليَّ ميمون أبو حمزة يوم الجمعة قبل الصلاة فقال : إني رأيت البارحة أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في النوم ، فقلت : ما جاء بكما ؟ قالوا : جئنا نصلي علىٰ أيوب السختياني ، قال : ولم يكن عَلِم بموته ، فقلت له : قد مات أيوب البارحة[1] ، رضي الله عنهم أجمعين .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) انظر « الحلية » (٣/ ٥) و« سير أعلام النبلاء » (٦/ ٢٣) .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله وَهْبُ بن مُنَبِّه

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان وهب بن منبه يقول في موعظة له : يا بن آدم ؛ إنه لا قوي أقوىٰ من الخالق جل جلاله ، ولا ضعيف أضعف من المخلوق ، ولا أقدر ممن طَلِبَتُه في يده سبحانه وتعالىٰ ، ولا أضعف ممن هو في يد طالبه .

وقال ابن منبه لعطاء : قرأت نيفاً وتسعين كتاباً من كتب الله عز وجل ، منها سبعون أو نيف وسبعون ظاهرة في الكنائس ، ومنها عشرون لا يعلمها إلا قليل من الناس ، فوجدت فيها كلها : أن من وكَّل إلىٰ نفسه شيئاً من المشيئة . . فقد كفر .

وقال : لا يشك ابن آدم أن الله عز وجل قسم الأرزاق متفاضلة ، فلتكن رغبتك إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

واعلم : أن الله تعالىٰ هو الذي خلق ذلك وقدره ، أَوَلا يعتبر ابن آدم في غير ذلك مما يتفاضل فيه الناس من الأجسام ، والألوان ، والعقول ، والأحلام ؟! فإن الذي فضله عليه في ذلك . . هو الذي فضله عليه في رزقه ، أَوَلا يعلم أن الذي رزقه في ثلاثة أوان من عمره لم يكن له في واحدة منهن كسب ولا حيلة . . أنه هو الذي يرزقه في الزمن الرابع ، أولُ زمانٍ من أزمانه يوم كان في رحم أمه ، يُخلَق فيه ويُرزَق في قرار مكين ، لا يؤذيه فيه حر ولا برد ، ولا شيء أهمه ، ثم يحوله من ذلك الموضع إلىٰ غيره ، ويحدث له في الزمن الثاني رزقاً من أمه يكفيه ويغنيه من غير حول ولا قوة ، ثم يفطمه من ذلك اللبن ويحوله في الزمن الثالث في رزق يحدثه له من كسب أبويه ، يجعل له الرحمة في قلوبهما حتىٰ يؤثرانه علىٰ أنفسهما حتىٰ يعقل ، ويحدث نفسه أن له حيلة ومكسباً ، ومعلوم أنه لا يغنيه في الزمان الرابع . . إلا الذي أوجده وأغناه في الأزمان الثلاثة ، وهو الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال عطاء الخراساني : قلت لابن منبه : حدثني حديثاً أحفظه عنك ، وأَوجِزْ ، فقال : أوحى الله عز وجل إلىٰ داوود عليه الصلاة والسلام : (يا داوود ؛ أما وعزتي وعظمتي ؛

لا ينتصر بي عبد من عبادي دون خلقي ـ أعلم ذلك من نيته ـ فتكيده السماوات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن . . إلا جعلت له فرجاً ومخرجاً ، أما وعزتي وعظمتي ؛ لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني ، أعلم ذلك من نيته . . إلا قطعت أسباب السماوات من يده ، وأسخت الأرض من تحته ، ولا أبالي في أي واد هلك) .

وقال ابن منبه : يقول الله عز وجل : (كفىٰ بي للعبد مآلاً ، إذا كان عبدي في طاعتي . . أعطيته قبل أن يسألني ، وأستجيب له قبل أن يدعوني ؛ فإني أعلم بحاجته من نفسه) .

وقال : قرأت أحداً وسبعين كتاباً ، فوجدت في جميعها : أن الله عز وجل لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقل محمد صلى الله عليه وسلم إلا كحبة رمل من بين جميع رمال الدنيا ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم أرجحُ الناس عقلاً ، وأفضلُهم رأياً .

وقال ابن منبه : لإزالةُ الجبلِ صخرةً صخرةً وحجراً حجراً . . أيسرُ على الشيطان من مكايدة المؤمن العاقل ذي البصيرة ، وهو أثقل على الشيطان من الجبال ، وأصعب من الحديد ، وإنه ليزاوله بكل حيلة ، فإذا لم يقدر عليه . . قال : يا ويله! ما له[1] ولهـٰذا ، لا حاجة لي بهـٰذا ، فيرفضه ويتحول إلى الجاهل ، فيستأسره ، ويستمكن من قياده ، حتىٰ يسلمه إلى الفضائح التي يحصل عاجلها في الدنيا وآجلها في الآخرة ، وإن الرجلين ليستويان في أعمال البر ، ويكون بينهما كما بين المشرق والمغرب أو أبعد ؛ إذا كان أحدهما أعقل من الآخر .

وقال : يقول الله عز وجل : (ابن آدم ؛ ما قمت لي بما يجب لي عليك ، تذكرني وتنساني ، وتدعوني وتفر مني ، خيري إليك نازل ، وشرُّك إليَّ صاعد ، لا يزال ملك كريم قد أنزلته إليك من أجلك ويصعد إلي بقبيح عملك ، أحبُّ ما يكون مني إذا رضيتَ بما قسمت لك ، وأبغض ما يكون إلي إذا سخطت ما قسمت لك ، أطعني فيما أمرتك ، ولا تعلمني بما يصلحك ، إني عالم بخلقي) جل الله العظيم الديان سبحانه وتعالىٰ .

وروى ابن منبه : أنه لقي راهباً ، فقال له الراهب : إنك إن ضحكت وأنت معترف بخطيئتك . . خير لك من أن تبكي وأنت مُدِلٌّ بعملك ؛ فإن المُدِلَّ لا يُرفع له عمل ، وازهد في الدنيا ، ولا تنازع أهلها فيها ، وكن فيها كالنحلة ، إن أكلَتْ . . أكلَتْ طيباً ، وإن

---

(١) كذا في « الحلية » ، ولعل الصواب : (ما لي ولهـٰذا) ، والله أعلم .

وضعَتْ . . وضعَتْ طيباً ، وانصح لله عز وجل نصح الكلب لأهل يجيعونه ويطردونه ويضربونه ، ويأبىٰ إلا أن ينصح لهم .

وكان وهب إذا ذكر هٰذا . . يقول : واسوأتاه إذا كان الكلب أنصح لأهله منك!

وقال وهب : لما أُهبط آدم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض . . استوحش لفَقْدِ أصوات الملائكة عليهم الصلاة والسلام ، فهبط عليه جبريل ، فقال : ألا أعلمك شيئاً تنتفع به ؟ قل : اللهم ؛ تمم النعمة علي حتىٰ تهنئني المعيشة ، اللهم ؛ اختم لي بخير حتىٰ لا تضرني ذنوبي ، اللهم ؛ اكفني مؤونة الدنيا ، وكل هول في القيامة حتىٰ تدخلني الجنة في عافية .

وقال وهب لعطاء الخراساني : كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم ، فكانوا لا يلتفتون إلىٰ دنيا غيرهم ، وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم ، فلا يقبَلونها ، فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم ، فزهد أهل الدنيا في علمهم ؛ لما رأوا من صنيعهم ، فإياك وأبواب السلطان ؛ فإن عند أبوابهم فتناً كمَبَارِكِ الإبل ، لا تصيب من دنياهم شيئاً . . إلا أصابوا من دينك مثله ، ثم قال : يا عطاء ؛ إن كان يكفيك ما يغنيك . . فكلُّ عيشك يكفيك ، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك . . فليس شيء يكفيك ، إنما بطنك بحر من البحور ، أو واد من الأودية ، لا يشبعه إلا التراب .

وقال : مرَّتْ بنوح عليه الصلاة والسلام خمس مئة سنة ، لم يقرب النساء ؛ وجلاً من الموت .

وقال : مكث داوود عليه الصلاة والسلام بعدما أذنب مدة حياته لا يشرب ماء . . إلا مزجه بدموعه ، ولا يأكل طعاماً . . إلا مزجه بدموعه ، ولا يضطجع علىٰ فراش . . إلا عراه بدموعه[1] ، حتىٰ كان لا يدفئه لحافه .

وقال وهب : ما عُبِدَ اللهُ عز وجل بشيء أفضل من العقل ، وما يتم عقل امرئٍ حتىٰ يكون فيه عشر خصال :

حتىٰ يكون الكِبر منه مفقوداً ، والرشد فيه موجوداً ، راضياً من الدنيا بالقوت والفاضل يبذله محباً لذلك ، الذل أحب إليه من الشرف ، والفقر أحب إليه من الغنىٰ ، لا يسأم من طلب العلم دهره ، ولا يتبرم مِنْ طلب الخير ، يستكثر قليل المعروف من غيره ، ويستقل

(١) عراه : أصابه .

كثير المعروف من نفسه ، **والعاشرة** هي ملاك أمره : أن يرىٰ جميع الناس من المسلمين خيراً منه وأفضل .

وقال : من خصال المنافق : أن يحب الحمد ويكره الذم .

وقال : أوحى الله عز وجل إلىٰ داوود عليه الصلاة والسلام : (يا داوود ؛ هل تدري من أَغْفِر له ذنوبه من عبادي ؟ قال : أنت أعلم يا رب ، مَن هو ؟ قال : الذي إذا ذكر ذنوبه.. ارتعدت فرائصه من خوفي ، فذلك الذي آمر ملائكتي أن تمحي عنه ذنوبه) .

وقال وهب : أَعْوَن الأخلاق على الدين.. الزهادة في الدنيا ، وأسرعها ردىً[1].. اتِّباع الهوىٰ ، ومِن اتباع الهوىٰ : حب المال والشرف ، ومِن حب المال والشرف تنتهك المحارم ، ومِن انتهاك المحارم يغضب الله عز وجل ، وغضب الله عز وجل لا يقوم له شيء ، وليس له دواء .

وقال وهب رحمه الله : يقول الله عز وجل : (إني إذا أُطعت.. رضيت ، وإذا رضيت.. باركت ، وليس لبركتي نهاية ، وإذا عُصيت.. غضبت ، وإذا غضبت.. لعنت ، وإن اللعنة مني تبلغ السابع من الولد) .

وقال وهب : كان في بني إسرائيل رجل عصى الله عز وجل مئتي سنة ، ثم مات ، فأخذوا برجله ، وألقوه علىٰ مزبلة ، فأوحى الله عز وجل إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام : (أن اخرج ، فصلِّ عليه) ، فقال : يا رب ؛ بنو إسرائيل شهدوا أنه عصاك مئتي سنة ، فأوحى الله عز وجل إليه : (هٰكذا كان ، إلا أنه كان كلما نشر التوراة ونظر إلى اسم محمد.. قبَّله ، ووضعه علىٰ عينيه ، وصلىٰ عليه ، فشكرت له ذلك ، وغفرت له ذنوبه ، وزوجته سبعين حوراء) .

وقال : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : يا رب ؛ احبس عني كلام الناس ، فقال الله عز وجل : (لو فعلت هٰذا بأحد.. لجعلت ذلك لي) .

وعن وهب قال : لما دعي يوسف عليه الصلاة والسلام إلى المَلِك.. وقف بالباب وقال : حسبي ديني من دنياي ، وحسبي ربي عز وجل من خلقه ، عز جاره ، وجل ثناؤه ، ولا إلٰه غيره ، ثم دخل ، فلما أن نظر المَلِك إليه.. نزل عن سريره ، وخر له ساجداً ، ثم أقعده على السرير معه ، فقال : إنك اليوم لدينا مكين أمين ، فقال : اجعلني علىٰ خزائن

---

(١) رَدَىً : سقوطاً وهلاكاً .

الأرض إني حفيظ عليم ، حفيظ بهٰذه السنين وما استودعتني عليه ، عليم بلغة من يأتيني .

وسئل وهب عن رجلين : أحدهما أطول قنوتاً وصمْتاً ، والآخر أطول سجوداً ، أيهما أفضل ؟ قال : أنصحهما لله عز وجل .

وقال وهب : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : إلٰهي ؛ ما جزاء من ذكرك بلسانه وقلبه ؟ قال : يا موسىٰ ؛ أظله يوم القيامة بظل عرشي ، وأجعله في كنفي ، قال : يا رب ؛ أي عبادك أشقىٰ ؟ قال : من لا تنفعه موعظة ، ولا يذكرني إذا خلا .

وقال وهب بن منبه في المسجد الحرام : وجدت في آخر زبور داوود عليه الصلاة والسلام ثلاثين سطراً :

يا داوود ؛ اسمع مني والحقَّ أقول : من لقيني وهو يحبني . . أدخلته جنتي .

يا داوود ؛ اسمع مني والحقَّ أقول : من لقيني وهو يخاف عذابي . . لم أعذبه .

يا داوود ؛ اسمع مني والحقَّ أقول : من لقيني وهو مستحي من معاصيه . . أنسيت حافظيه ذنوبه ، ولم أسأله عنها .

يا داوود ؛ اسمع مني والحقَّ أقول : لو أن عبداً من عبادي عمل حشو الدنيا ذنوباً ، مشارقها ومغاربها ، ثم ندم حَلْبَ شاة ، واستغفرني مرة واحدة ، فعلمت ذلك من قلبه ألاَّ يعود إليها . . ألقيتها عنه أسرع من هبوط المطر من السماء إلى الأرض .

يا داوود ؛ اسمع مني والحقَّ أقول : لو أن عبداً أتاني بحسنة واحدة . . حكمته في جنتي .

قال داوود : من أجل ذلك لا يحل لمن عرفك أن يقطع رجاءه منك ؟ قال : يا داوود ؛ إنما يكفي أوليائي اليسير من العمل ، كما يكفي الطعام من الملح .

يا داوود ؛ هل تدري متىٰ أتولاهم ؟ إذا طهروا قلوبهم من الشرك ، ونزعوا قلوبهم من الشك ، وعلموا أن لي جنة وناراً ، وأني أحيي وأميت ، وأبعث من في القبور ، وأني لم أتخذ صاحبة ولا ولداً ، فإن توفيتهم بيسير من العمل وهم موقنون بذلك . . جعلته عظيماً عندي .

هل تدري يا داوود من أسرع مَرّاً على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمي ، وألسنتهم رطبة من ذِكري .

يا داوود ؛ أعظم المؤمنين منزلة عندي . . الراضي الذي هو بما لم يُعطَ أشد فرحاً بما أعطي .

يا داوود ؛ أفضل الفقراء عندي . . الذين يرضون بحكمي وقسمتي ، ويحمدوني علىٰ كل حال ، وأحب المؤمنين إلي أن أطيل حياته الذي إذا قال : لا إلـٰه إلا الله . . اقشعر جلده ؛ فإني أكره له الموت ، ولا بد له منه ؛ لأني أريد أن أسره في دارٍ نعيمُها لا يفنىٰ .

يا داوود ؛ إني أثيب المؤمن علىٰ عثرة يعثرها ، فكيف إذا ذاق الموت ، وهو من أعظم المصائب ، ويبقىٰ جسده بين أطباق الثرىٰ ؟! إنما أحبسه طول ما أحبسه ؛ لأُعظِمَ له الأجر ، وأجري عليه أحسن ما كان يعمله إلىٰ يوم القيامة .

قال داوود : إلـٰهي ؛ لك الحمد ، من أجل ذلك سميت نفسك أرحم الراحمين ، إلـٰهي ؛ فما جزاء من يعزي الحزين على المصائب ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن ألبسه رداء الإيمان ، ثم لا أنزعه عنه أبداً .

قال : إلـٰهي ؛ فما جزاء من شيع الجنازة ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن تشيعه ملائكتي يوم يموت ، وأصلي علىٰ روحه في الأرواح .

قال : إلـٰهي ؛ فما جزاء من سدد الأرملة واليتيم ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن أظله في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي .

قال : إلـٰهي ؛ فما جزاء من يبكي من خشيتك حتىٰ تسيل دموعه علىٰ وجنتيه ؟ قال : جزاؤه أن أحرم وجهه على النار .

وقال وهب رحمه الله : كان رجل من أفضل أهل زمانه يزار فيعظهم ، فاجتمعوا إليه ذات يوم ، فقال في موعظته : إنا قد خرجنا من الدنيا ، وفارقنا الأهل والأموال مخافة الطغيان ، وقد خفت أن يكون قد دخل علينا في حالنا هـٰذه من الطغيان أكثر مما يدخل علىٰ أهل الأموال في أموالهم ؛ فإن أحدنا يحب أن تُقضىٰ له حاجته ، وإن اشترىٰ شيئاً . . يُقارب لمكان دِينه ، وإن لُقي . . حُيي ووُقِّر لمكان دِينه .

فشاع هـٰذا الكلام حتىٰ بلغ المَلك . . فعجب به ، ثم ركب المِلك ليسلم عليه وينظر إليه ، فأسرعت البشرىٰ إلى الراهب بذلك ، فلما كان اليوم الذي ظن أنه يأتيه فيه . . خرج ذلك العابد إلىٰ متضحّىٰ له قدام مصلاه ، وأخرج بمنسف فيه بقل وزيت وحمص ، فوضعه قريباً منه ، فلما رأى المَلِك مقبلاً ومعه سواد من الناس قد أحاطوا به بحيث لا يُرىٰ سهل

ولا جبل إلا قد مُلِيءَ من الناس. . أخذ العابد يجمع من تلك البقول والطعام ، ويعظم اللقمة ، ويغمسها في الزيت ، ويأكل أكلاً عنيفاً ، وهو واضع رأسه لا ينظر إلىٰ من أتاه ، وكان يصوم النهار ولا يفطر ، فقال الملِك : أين صاحبكم ؟ قالوا : هو هٰذا ، قال الملِك : كيف أنت يا فلان ؟ فقال العابد وهو يأكل ذلك الأكل : كالناس ، فرد الملك عنان دابته ، وقال : ما في هٰذا من خير ، فلما ذهب. . قال الراهب : الحمد لله الذي أذهبه عني وهو لي لائم .

زاد في رواية أخرىٰ : أنه قال : الحمد لله الذي صرفك عني بما صرفك به .

وقال وهب بن منبه : إن أزهد الناس في الدنيا وإن كان مكباً عليها حريصاً : من لم يرض منها إلا بالكسب الحلال الطيب .

وإن أرغب الناس فيها وإن كان عنها معرضاً : من لم يبال من أين كان كسبه فيها حلالاً أو حراماً .

وإن أجود الناس في الدنيا : من جاد بحقوق الله تعالىٰ وإن رآه الناس بخيلاً فيما سوىٰ ذلك ، وإن أبخل الناس في الدنيا : من بخل بحقوق الله عز وجل وإن رآه الناس جواداً فيما سوىٰ ذلك .

وقال : إن موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام لم يقرب النساء منذ كلمه الله عز وجل ، وإن الله عز وجل كلمه في ألف مقام ، وكان إذا كلمه. . رئي النور علىٰ وجهه ثلاثة أيام .

وقال : إن للنبوة أثقالاً ومؤونة لا يحملها إلا القوي ، وإن يونس بن متَّىٰ كان عبداً صالحاً ، وكان في خلقه ضِيق ، فلما حملت عليه النبوة. . تفسخ تحتها ، فرفضها من يده ، وخرج هارباً ، فقال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ .

وقال : مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين ؛ إن أرضيتَ إحداهما. . أسخطت الأخرىٰ .

وقال : **إن أعظم الذنوب عند الله سبحانه وتعالىٰ بعد الشرك بالله. . السخرية بالناس** .

وقال : إذا صام الإنسان. . زاغ بصره ، فإذا أفطر علىٰ حلاوة. . عاد بصره .

وقال : كان عابد جاءه الشيطان من قبل الشهوة والرغبة والغضب ، فلم يقدر عليه ، فقال له : قد بدا لي أن أصادقك ؟ قال : ما لي في مصادقتك حاجة ، قال : ألا تسألني ما صُنع

بمَالِكَ بعدك ؟ قال العابد : لو أردت ذلك . . لما فارقته ، قال : أفلا تسألني عن أهلك من مات منهم بعدك ؟ قال : أنا مت قبلهم ، قال : أفلا تسألني عما أُضِلُّ به بني آدم ؟ قال : بلىٰ ، قال : في ثلاثة أخلاق : الشح ، والحدة ، والسكْر ؛ فإن الرجل إذا كان شحيحاً . . قللنا ماله في عينه ، ورغبناه في أموال الناس ، وإذا كان حديداً . . تداورناه بيننا كما يتداور الصبيان الكرة ، ولو كان يحيي الموتىٰ بدعوته ، ولم نيأس منه ، كل ما يبني . . نهدمه بكلمة ، وإذا سكر . . قدناه إلىٰ كل سوء كما تقاد العنزة بأذنها .

وقال : مثل الذي يدعو بغير عمل . . كمثل الذي يرمي بغير وَتَر .

وكتب وهب إلىٰ مكحول : إنك قد أصبت بما ظهر فيك من علم الإسلام عند الناس محبة وشرفاً ، فاطلب بما يُظَن فيك من علم الإسلام محبة وزلفىٰ ، واعلم : أن إحدى المحبتين سوف تمنعك من الأخرىٰ .

وقال : إن للعلم طغياناً كطغيان المال .

وقيل لوهب بن منبه : كنت ترى الرؤيا ، فتخبرنا بها ، فلا نلبث أن نراها ، قال وهب : ذهب ذاك عني منذ وُلِّيت القضاء .

وقال : من أصيب بشيء من البلاء . . فقد سُلك به طريق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقال وهب لسعيد بن جبير في يوم عرفة : يا أبا عبد الله ؛ كم لك منذ خِفْت [من] الحجاج ؟ قال : خرجت عن امرأتي وهي حامل ، فجاءني ولد ، وقد نبت الآن عذاره ، فقال له وهب : إن من كان قبلكم كان إذا أصاب أحدهم بلاء . . عده رخاء ، وإذا أصابه رخاء . . عده بلاء .

وقال : دخول الجمل في سَمِّ الخياط . . أيسر من دخول الأغنياء الجنة ، إلا من قال هـٰكذا وهـٰكذا . أو كما قال .

وقال : من يتعبد . . يزدد قوة ، ومن يكسل . . يزدد فترة .

وقال : إياكم وهوىً متبعاً ، وقرين سوء ، وإعجاب المرء بنفسه .

وقال : إن الله عز وجل يحفظ بالعبد الصالح القبيل من الناس .

وقال : ليس أحد إلا ومعه شيطان موكل به ، أما الكافر : فيأكل معه من طعامه ، ويشرب من شرابه ، وينام معه علىٰ فراشه ، وأما المؤمن : فهو مجانب له ، ينتظر متىٰ

يصيب منه غفلة ، فيثب عليه ، وأحب الآدميين إلى الشيطان الأكول النؤوم .

وقال : كان لسليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام ألف بيت ، أعلاه قوارير ، وأسفله حديد ، فركب الريحَ يوماً ، فمرَّ بحرَّاث ، فنظر إليه الحرَّاث ، فقال : لقد أوتي آل داوود مُلكاً عظيماً ، فحملت الريح كلامه ، فألقته في أذن سليمان ، قال : فنزل حتىٰ أتى الحرَّاث ، ومشىٰ معه ، وقال : إني سمعت قولك ، وإنما مشيت معك ؛ لئلا تتمنىٰ ما لا تقدر عليه ، لَتسبيحة واحدة يتقبلها الله منك . . خير مما أوتي آل داوود ، فقال الحرَّاث : أذهب الله همَّك كما أذهبت همِّي .

وقال : قال الله سبحانه وتعالىٰ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام : أتدري لِمَ اتخذتك خليلاً ؟ قال : لا يا رب ، قال : لذلِّ مقامك بين يديَّ في الصلاة .

وقال وهب : إن لله عز وجل في السماء السابعة داراً يقال لها : البيضاء ، تجتمع فيها أرواح المؤمنين ، فإذا مات الإنسان من أهل الدنيا . . تلقته الأرواح ، فيسائلونه عن أخبار الدنيا كما يسائل الغائب أهله إذا قدم إليهم .

وقال : من جعل شهوته تحت قدمه . . فزع الشيطان من ظله ، ومن غلب عملُه هواه . . فذلك العالم .

وقال : قال الله عز وجل لموسى بن عمران عليه الصلاة والسلام : (يا موسىٰ ؛ لو أن النفس التي قتلتَها اعترفَتْ لي ساعة من ليل أو نهار بأني لها خالق أو رازق . . أذقتك فيها طعم العذاب ، ولـٰكني عفوت عنك ؛ لأنها لم تعترف بأني لها خالق أو رازق) .

وقال : أوحى الله عز وجل إلىٰ بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام : (لِيَهُنْ ما يتحمل المتحملون من أجلي ، وما يكابد المكابدون في مرضاتي ، فكيف بهم إذا صاروا إلىٰ داري ، وتبحبحوا في رياض رحمتي ، أتراني أنسىٰ لهم عملاً ؟! فكيف وأنا ذو الفضل العظيم ، أجود على المُوَلِّين عني ، فكيف بالمقبلين عليَّ ؟! وما غضبت علىٰ شيء كغضبي علىٰ من أخطأ خطيئة ، فاستعظمها في جنب عفوي ، ولو تعاجلتُ بالعقوبة أحداً ، أو كانت العجلة من شأني . . لعاجلت القانطين من رحمتي ، ولو رأى المؤمنون كيف أستوهبهم ممن اعتدوا عليه ، ثم أحكم لمن وهبهم بالخلد المقيم . . ما اتهموا فضلي وكرمي ، وأنا الديان الذي لا تحل معصيتي ، وأنا الذي أُطاعُ برحمتي ، ولا أهين من خاف مقامي ، ولو رآني عبادي يوم القيامة كيف أرفع قصوراً تحار فيها الأبصار ، فيسألوني : لمَن هـٰذا يا رب ؟

فأقول : لمن وهب لي مظلمة أخيه ، ولمن لم يجمع علىٰ نفسه معصيتي والقنوط من رحمتي ، وإني مكافىء على الحمد . . فاحمدوني) الحمدُ لله عدد عفوه عن خلقه .

وعن وهب قال : مر عيسىٰ عليه الصلاة والسلام بقرية قد مات أهلها ، إنسها وجنها ، وهوامها وأنعامها وطيرها ، فقام عليه الصلاة والسلام ينظر إليها ساعة ، ثم أقبل علىٰ أصحابه ، فقال : مات هٰؤلاء بعذاب الله عز وجل ، ولو ماتوا بغير ذلك . . ماتوا متفرقين ، ثم ناداهم عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : يا أهل القرية ؛ فأجابه مجيب : لبيك يا روح الله ، قال : ما كانت جنايتكم ؟ قال : عبادة الطاغوت ، وحب الدنيا ، قال : وما كانت عبادتكم الطاغوت ؟ قال : الطاعة لأهل معاصي الله ، قال : فما كان حبكم للدنيا ؟ قال : حبُّ الصبي لأمه ، كنا إذا أقبلت . . فرحنا ، وإذا أدبرت . . حَزِنًا ، مع أمل بعيد ، وإدبار عن الله سبحانه وتعالىٰ ، وإقبال في سخطه سبحانه وتعالىٰ ، قال : فكيف كان شأنكم ؟ قال : بتنا ليلة في عافية ، وأصبحنا في الهاوية ، قال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : وما الهاوية ؟ قال : سجِّين ، قال : وما سجِّين ؟ قال : جمرة من نار مثل أطباق الدنيا كلها ، دفنت أرواحنا فيها ، قال : فما لأصحابك لا يتكلمون ؟ قال : لا يستطيعون أن يتكلموا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنهم ملجمون بلجام من نار ، قال : فكيف كلمتني أنت من بينهم ؟ قال : إني كنت فيهم ، ولم أكن علىٰ حالهم ، فلما جاء البلاء عمني معهم ، وأنا معلق بشعرة في الهاوية ، لا أدري أأُكَرْدَسُ[1] في النار أم أنجو ؟ فقال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : بحقٍّ أقول لكم : لأَكل خبز الشعير ، وشرب الماء القراح ، والنوم على المزابل مع الكلاب . . لَكَثير مع عافية الدنيا والآخرة .

وقال وهب : إذا قامت الساعة . . صرخت الحجارة صراخ النساء ، وقطرت العِضَاهُ[2] دماً .

وقال وهب : ربما صليت الضحىٰ بوضوء العتمة .

وقال : إني لأتفقد أخلاقي ، ما فيها شيء يعجبني .

وقال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام للحواريين : إن أشدكم جزعاً على المصيبة . . أشدكم حباً للدنيا .

---

(١) **المكردس** : الذي جمعت يداه ورجلاه وألقي في موضع .
(٢) **العِضَاهُ** : كل شجر له شوك .

وقال : أوحى الله عز وجل إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام : (يا موسىٰ ؛ إذا دعوتني . . فكن خائفاً مشفقاً ، وعفر خدك بالتراب ، واسجد لي بمكارم وجهك وبدنك ، وسلني حين تسألني بخشية قلب وَجِلٍ ، واخش مني كل الخشية ، وعلِّم الجاهل الأبيَّ[1] ، وقل لعبادي : لا يتمادَوا في غي ما هم فيه ؛ فإن أخذي أليم شديد) .

وقال : اتخذوا يداً عند المساكين ؛ فإن لهم يوم القيامة دولة .

وقال وهب : قرأت في الكتب : ابن آدم ؛ اِحتَلْ لدينك ؛ فإن رزقك قد فرغ منه سيأتيك .

أسند وهب عن عدة من الصحابة ، رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين .

وروىٰ عنه جماعة من التابعين . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٢٤ـ٧٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال وهب : الإيمان عريان ، ولباسه التقوىٰ ، وزينته الحياء ، وماله الفقه .

وقال في موعظة له : يا بن آدم ؛ إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك ، وأقام معك ما سيذهب عنك ، أَقصِرْ عن تناول ما لا ينال ، وعن طلب ما لا يدرك ، وعن ابتغاء ما لا يوجد ، واقطع الرجاء منك عما فقدت من الأشياء ، واعلم أنه رُبَّ مطلوب هو شر لطالبه .

يابن آدم ؛ إنما الصبر عند المصيبة .

يابن آدم ؛ قد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفرع بعد أصله .

يابن آدم ؛ إنما البقاء بعد الفناء ، وقد خُلقنا ولم نك شيئاً ، وسنبلىٰ ثم نعود ، ألا إنما العواري[2] اليوم ، والهبات غداً .

أيها الناس ؛ إنما أنتم في هـٰذه الدار غرض ، فيكم المنايا تنتضل ، وإن الذي أنتم فيه من دنياكم نهب للمصائب ، لا تنالون منها نعمة . . إلا بفراق أخرىٰ ، ولا يستقبل معمر منكم من عمره يوماً . . إلا بفراق آخر من أجله ، ولا يحييٰ له أثر . . إلا مات له أثر ، فنسأل الله العظيم أن يغفر لنا ولكم ما مضىٰ من هـٰذه الغفلة .

وقال : مر عابد علىٰ عابد ، فقال : ألا تعجب من فلان ؟ إنه كان بلغ من عبادته كذا ،

---

(١) في « الحلية » : (آلائي) .

(٢) جمع عاريَّة .

فمالت به الدنيا ، فقال له الآخر : لا تعجب ممن مالت به الدنيا ، ولٰكن اعجب ممن استقام .

وقال داوود عليه الصلاة والسلام : إلٰهي ؛ أين أجدك إذا طلبتك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم من مخافتي .

وقال وهب : إن منادياً ينادي من السماء الرابعة كل صباح : أبناءَ الأربعين ؛ زرع قد دنا حصاده ، أبناءَ الخمسين ؛ ماذا قدمتم ؟ وماذا أخرتم ؟ أبناءَ الستين ؛ لا عذر لكم ، ليت ذا الخلق لم يُخلقوا ، وإذا خلقوا . . علموا لماذا خلقوا ، وقد أتتكم الساعة ، فخذوا حِذركم .

وأقام وهب عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً .

وأتاه شخص فقال : إني مررت بفلان وهو يشتمك ، فغضب ، وقال : أمَا وجد الشيطان رسولاً غيرك ، ثم ما قام من موضعه حتىٰ جاءه ذلك الشاتم ، فسلم عليه ، فرد عليه السلام ، ومدَّ يده ، وصافحه ، وأجلسه إلىٰ جنبه .

وقال وهب : **إذا مدحك الرجل بما ليس فيك . . فلا تأمنه أن يذمك بما ليس فيك .**

توفي بصنعاء، سنة عشر [ومئة] ، وقيل : أربع عشرة ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٧٤ـ١٧٧] .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال وهب بن منبه : وجدت علىٰ حاشية التوراة أسطراً كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرؤونها ويتدارسونها ، وهي : لا كنزَ أنفعُ من العلم ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا حسَبَ أبلغُ من ترك الغضب ، ولا قرين أزين من العمل ، ولا رفيق أقبح من الجهل ، ولا شرفَ أعزُّ من التقوىٰ ، ولا كرم أوفىٰ من ترك الهوىٰ ، ولا عمل أفضل من الفكر ، ولا حسنة أعلىٰ من الصبر والرضا ، ولا سيئة أخزىٰ من الكبر ، ولا دواء ألين من الرفق ، ولا شيء أعدل من الصدق ، ولا فقر أذل من الطمع ، ولا معيشةَ أهنأُ من القناعة والعفة ، ولا عبادة أحسن من الخشوع ، ولا زهد أعلىٰ من ترك الرئاسة ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت . أو كما قال . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ٣٨٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو أيوب ميمون بن مهران
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : ما كان ميمون بن مهران بكثير صلاة ولا صيام ، ولـٰكنه كان يكره أن يعصي الله عز وجل .

وقال عمرو بن ميمون : خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة ، فمررت بجدول ، فلم يستطع أن يتخطاه ، فاضطجعت له ، فمر علىٰ ظهري ، ثم أخذت بيده إلىٰ منزل الحسن ، فطرقت الباب ، فخرجت جارية سداسية[1] ، فقالت : مَن هـٰذا ؟ قلت : ميمون بن مهران يريد لقاء الحسن ، فقالت : كاتب عمر بن عبد العزيز ؟ فقلت : نعم ، قالت : يا شقي ؛ ما بقاؤك إلىٰ هـٰذا الزمان السوء ؟ فبكى الشيخ ، فسمع الحسن بكاءه ، فخرج إليه ، فاعتنقا ، ثم دخلا ، فقال ميمون : يا أبا سعيد ؛ إني قد آنست من قلبي غلظة ، فاستلن لي ، فقرأ الحسن : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ ، قال : فسقط الشيخ ، فرأيته يفحص برجليه ولا كفحص الشاة المذبوحة ، فأقام طويلاً ، ثم أفاق ، فجاءت الجارية ، وقالت : قد أتعبتم الشيخ ، فقوموا ، فأخذتُ بيد أبي ، فخرجت به ، ثم قلت : يا أبتاه ؛ هـٰذا الحسن ، قد كنت أحسب أنه أكبر من هـٰذا ، فوكز في صدري وكزة ، ثم قال : يا بني ؛ لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك . . لجعلَتْ فيه كُلوماً .

وقال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ عن ميمون بن مهران : إذا ذهب هـٰذا وضرباؤه . . لم يبق من الناس إلا رجاجة[2] .

---

(١) **جارية سداسية** : طولها ستة أشبار .

(٢) **رجاج الناس** : هم رعاع الناس وجهالهم .

وقال ميمون بن مهران : لا خير في الدنيا إلا لرجلين : رجل تائب ، أو رجل يعمل في الدرجات .

وقال : لا يسلم للشخص الحلال حتىٰ يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال .

وقال : ما بلغني عن أخ مكروه قط . . إلا كان إسقاط المكروه عنه أحب إلي من تحقيقه عليه ، فإن قال : لم أقل . . كان قوله : لم أقل أحب إلي من ثمانية تشهد عليه ، فإن قال : قلت ، ولم يتعذر . . أبغضته من حيث أحببته .

وقال : **سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول : ما بلغني عن أخ مكروه . . إلا أنزلته أحد ثلاثة منازل : إن كان فوقي . . عرفت له قدره ، وإن كان نظيري . . تفضلت عليه ، وإن كان دوني . . لم أحفل به ، هٰذه سيرتي في نفسي ، فمن رغب عنها . . فإن أرض الله واسعة .**

وكان إذا ودعه رجل . . لا يزيده علىٰ كلمتين ؛ يقول له : اتق الله ، ولا يغيرك غضب ولا طمع .

وكان يقول : العلماء ضالتي في كل بلدة ، وهم بغيتي ، ووجدت صلاح قلبي في مجالسة العلماء .

وقال : وددت أن إحدىٰ عيني ذهبت وبقيت الأخرىٰ أتمتع بها ، وأني لم أَلِ عملاً لأحد قط ، قيل : ولا لعمر بن عبد العزيز ؟ قال : ولا لعمر بن عبد العزيز ، لا خير في العمل لعمر ولا لغيره .

وقال : ما عرضت قولي علىٰ عملي . . إلا وجدت في نفسي اعتراضاً .

وحدثنا جعفر بن برقان ، قال : قال لي ميمون : يا جعفر ؛ قل لي في وجهي ما أكره ؛ فإن الرجل لا ينصح أخاه حتىٰ يقول له في وجهه ما يكره .

وقال : أول من مشت معه الرجال وهو راكب . . الأشعث بن قيس الكندي[1] ، ولقد

---

(١) الأشعث بن قيس الكندي ، له صحبة ورواية ، أصيبت عينه يوم اليرموك ، وكان أكبر أمراء علي رضي الله عنه يوم صفين ، توفي سنة أربعين بعد وفاة علي بأربعين ليلة ، وصلّىٰ عليه الإمام الحسن ، حفيده عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث صاحب المواقع المشهورة مع الحجاج ، والذي كانت له فيها الغلبة حتى انكسر بموقعة دير الجماجم .

أدركت السلف وهُمْ إذا نظروا إلىٰ رجل راكب ورجل [ماشٍ] يحضر معه.. قالوا : قاتله الله ، جبار .

وقال : لأَن أتصدق بدرهم في حياتي.. أحب إلي من أن يُتصدق عني بعد موتي بمئة درهم .

وقال : الذِّكر ذِكران : ذكر الله عز وجل باللسان ، وبالقلب ، وأفضل من ذلك : أن تذكره عند المعصية إذا أشرفتَ عليها .

وقال ميمون : بعث الحجاج إلى الحسن وقد همَّ به ، فلما دخل عليه.. قام الحجاج بين يديه ، فقال له الحسن : يا حجاج.. كم بينك وبين آدم من أب ؟ قال : كثير ، قال : فأين هم ؟ قال : ماتوا ، فنكس الحجاج رأسه ، وخرج الحسن .

وولىٰ عمرُ بن عبد العزيز لميمون بن مهران قضاء الجزيرة وخراجها ، فكتب إليه يستعفيه وقال : كلفتني ما لا أطيق ، أقضي بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق ؟ فكتب إليه عمر : اِجْبِ من الخراج الطيب ، واقض ما استبان لك ، فإذا التبس عليك أمر.. فارفعه إلي ؛ فإن الناس لو كانوا إذا كبر عليهم أمر تركوه.. ما قام دين ولا دنيا .

وقال ميمون : لا يُضرب المملوك في كل ذنب ، ولـٰكن احفظ له ذاك ، فإذا عصى الله عز وجل.. فعاقبه علىٰ معصية الله سبحانه وتعالىٰ ، وذكره الذنوب التي أذنب بينك وبينه .

وقال : لا يكون الرجل من المتقين حتىٰ يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، وحتىٰ يعلم من أين مطعمه ، ومن أين ملبسه ، ومن أين مشربه ، أمن حلال ، أم من حرام ؟

وقال : في المال ثلاث خصال ، إن نجا من خصلة.. لا ينجو من اثنتين ، وإن نجا من اثنتين.. لا ينجو من الثالثة ، ينبغي أن يكون أصله حلالاً ، فإن حصل ذلك.. فيؤدي منه الحقوق ، فإن حصل ذلك.. فينبغي أن يكون في نفقته ليس بمسرف ولا مقتر .

وقال : أهون الصيام.. ترك الطعام والشراب .

وأتاه رجل فقال له : لا يزال الناس بخير ما كنت فيهم ، فقال : لا يزال الناس بخير ما اتقَوُا الله .

وعن عمرو بن ميمون قال : كنت مع أبي ونحن نطوف بالكعبة ، فلقي أبي شيخ ، فعانقه أبي ، ومع الشيخ فتىً نحواً مني ، فقال له أبي : من هـٰذا ؟ فقال : ابني ، فقال : كيف رضاكَ عنه ؟ قال : ما بقيت خصلة من خصال الخير.. إلا وقد رأيتها فيه إلا واحدة ، قال :

وما هي ؟ قال كنت أحب أن يموت ، فأؤجر فيه ، ثم فارقه أبي ، فقلت : من هـٰذا الشيخ ؟ قال : هـٰذا مكحول .

وعن ميمون : أن راهباً دخل علىٰ عمر بن عبد العزيز ، فقال له عمر : ألم أُخبَرْ أنك تديم البكاء ؟ فممَّ ذاك ؟ قال : إني ـ والله يا أمير المؤمنين ـ عهدت الناس وما شيء آثر عندهم من دينهم ، وما شيء اليوم آثر عندهم من دنياهم ، فعلمت أن الموت اليوم خير للبر والفاجر ، فلما خرج . . قال عمر : صدق الراهب .

وقال : من سره أن ينظر إلىٰ منزلته غداً . . فلينظر في عمله في الدنيا ، فعليه ينزل في الآخرة .

وقال جعفر : قلت لميمون : إن فلاناً يستبطىء نفسه في زيارتك ، قال : إذا ثبتت المودة . . فلا بأس وإن طال المكث .

وقال : لا تجد غريماً أهون عليك من بطنك أو فرجك .

وعن حبيب ابن أبي مرزوق قال : رأيت علىٰ ميمون جبة صوف تحت ثيابه ، فقلت : ما هـٰذا ؟ قال : لا تخبر به أحداً .

وقال : من أساء سراً . . فليتب سراً ، ومن أساء علانية . . فليتب علانية ؛ فإن الله عز وجل يغفر ولا يعيِّر ، والناس يعيرون ولا يغفرون .

وقال فرات بن السائب : سألت ميمون بن مهران قلت : أَعَلِيٌّ عندك أفضل ، أم أبو بكر وعمر ؟ قال : فارتعد حتىٰ سقطت عصاه من يده ، ثم قال : ما كنت أظن أن أعيش إلىٰ زمان يعدل بهما ، ذَرْهُما ، كانا رأسي الإسلام ورأسي الجماعات ، قلت : فأبو بكر كان أول إسلاماً ؟ أم علي ؟ قال : والله لقد آمن أبو بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم زمن بَحِيرة الراهب حين مر به ، واختلف فيما بينه وبين خديجة حين أنكحها إياه ، وذلك قبل أن يولد علي رضي الله عنهم أجمعين .

أسند ميمون بن مهران عن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، رضي الله عنهم .

فمن أحاديثه : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلما يوجد في آخر الزمان درهم حلال أو أخ يوثق به »[1] .

---

(١) أخرجه الديلميُّ (٣/ ٢٢٣) .

وعنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلكم علىٰ كلمة تنجيكم من الإشراك ؟ (قل يا أيها الكافرون) عند منامكم »[1] . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٨٢ـ٩٦] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كان عند ميمون بن مهران ضيف ، فاستعجل علىٰ جاريته بالعَشاء ، فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة ، فعثرت ، وأراقتها علىٰ رأس سيدها ميمون ، فقال : يا جارية ؛ أحرقتني ، فقالت : يا معلم الخير ومؤدب الناس ؛ ارجع إلىٰ ما قال الله تعالىٰ ، قال : وما قال سبحانه وتعالىٰ ؟ قالت : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ، قال : قد كظمت غيظي ، قالت : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ ، قال : قد عفوت عنك ، قالت : زد ؛ فإن الله يقول : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، فقال : أنت حرة لوجه الله عز وجل . [انتهىٰ « الإحياء » ٢/ ٢٢٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٢٤١) .

ومنهم الإمام :

أبو وائل شقيق بن سلمة
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أبو عاصم : كان أبو وائل إذا صلىٰ في بيته . . ينشج نشيجاً[1] ، ولو جعلت له الدنيا علىٰ أن يفعله وأحد يراه . . ما فعله .

وقال مغيرة : كان إبراهيم التيمي يذكِّر في منزل أبي وائل ، وكان أبو وائل ينتفض انتفاض الطير .

وقال شقيق : خرجنا في ليلة مخوفة ، فمررنا بأَجَمَة[2] فيها رجل نائم ، وقد قيد فرسه ، وهي ترعىٰ عند رأسه ، فأيقظناه ، وقلنا له : أتنام في مثل هـٰذا المكان ؟ قال : فرفع رأسه وقال : إني لأستحيي من ذي العرش جل جلاله أن يعلم أني أخاف شيئاً دونه ، ثم وضع رأسه فنام .

وقال عاصم ابن أبي النجود : كان عطاءُ شقيقٍ في كل عام ألفين ، فإذا خرج عطاؤه . . أمسك ما يكفي أهله سنة ، ثم يتصدق بما سوىٰ ذلك .

وقال عاصم : ما رأيت أبا وائل ملتفتاً في صلاة ولا في غيرها ، ولا قائلاً لأحد : كيف أصبحت ؟ ولا كيف أمسيت ؟ ولا يسب قط شيئاً ، إلا أنه ذكر الحَجاج يوماً فقال : اللهم ؛ أطعم الحجاج طعاماً لا يسمن ولا يغني من جوع ، ثم تداركها ، فقال : إن كان ذلك أحب إليك .

وكان أبو وائل يقول لجاريته : يا بركة ؛ إذا أرسل ابني يحيىٰ شيئاً . . لا تأخذيه ، وإذا جاءك أصحابي بشيء . . فخذيه ، وذاك لأن ابنه كان قاضياً .

وقال أبو وائل : إن أهل بيت يضعون علىٰ مائدتهم رغيفاً حلالاً . . لأهل بيت غرباء .

---

(١) **نشج نشيجاً** : تردد البكاء في صدره من غير انتحاب .
(٢) **الأجمة** : الشجر الكثير الملتف .

وقال أبو وائل للذي أخبره بأن ابنه ولي القضاء : والله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ لو أخبرتني بموته . . كان أحب إلي ؛ لأني أكره أن يدخل بيتي مَن عَمِل عملهم .

وعن عاصم : أن أبا وائل كان له خص من قصب ، فكان يسكن فيه هو وأهله ، فإذا غزا . . نقضه وتصدق به ، فإذا رجع . . بناه .

وكان يقول في دعائه : **اللهم ؛ إن كنت كتبتنا عندك أشقياء . . فامْحُنَا ، واكتبنا سعداء ، وإن كنت كتبتنا سعداء . . فأثبتنا ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب** .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ قال : القربة في الأعمال .

أدرك زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلقه .

وأسند عن الأكابر من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وعن جماعة من التابعين .

فمن أحاديثه : عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالىٰ : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ قال : « يدخلهم الجنة » ، ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ قال : « الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا »[1] هـٰذا حديث غريب ، تفرد به الأعمش . انتهىٰ [« الحلية » ٤/١٠١ـ١٠٨] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال سعيد : كان أبو وائل يؤمُّ جنائزنا وهو ابن مئة وخمسين سنة .

وتوفي في زمان الحجاج ، بعد الجماجم[2] ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة : ٣/١٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٦/ ٥٣) .

(٢) **الجماجم** : وقعة كانت بين جيش الحجاج بن يوسف الثقفي وجيش القرَّاء بقيادة عبد الرحمـٰن بن محمد بن الأشعث الكندي .

ومنهم الإمام :

خيثمة بن عبد الرحمن
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الأعمش : ورث خيثمة مئتي ألف درهم ، فأنفقها على الفقهاء والفقراء .

وكان له سلة يضع فيها الفالوذج(١) والخبيص(٢) والطعام الطيب ، ثم يدعو إبراهيم النخعي وأصحابه ، فيقول : كلوا ، ما أشتهيه ، إنما أصنعه من أجلكم . أو كما قال .

وكان يصر صرراً فيها الدراهم ، فإذا رأىٰ رجلاً من أصحابه قد تخرق قميصه أو شيئاً من ثيابه . . يقصده ، فإذا خرج من باب . . أتاه من باب آخر ، حتىٰ يلقاه ويعطيه ، ويقول له : اشتر بهـٰذا كذا ، واشتر بهـٰذا كذا .

وعن الأعمش قال : رأيت علىٰ إبراهيم ثياباً بياضاً ، فسألته عنها ، فقال : كسانيها خيثمة .

وعن الأعمش قال : نفست امرأة المسيب بن رافع ، فاشترىٰ لها خيثمة خادماً بست مئة .

وكان يُجري على المسيب بن رافع في كل شهر خمسين .

وكان يتمنى الموت في كل عام مرتين .

ولقي خيثمة محارب بن دثار فقال له : كيف حبك للموت ؟ فقال : ما أحبه ، فقال خيثمة : إن هـٰذا بك لنقص كثير .

وقال خيثمة : كان يعجبهم أن يموت الرجل عند خير يعمله ، إما حج ، وإما عمرة ، وإما غزاة ، وإما صيام رمضان .

---

(١) **الفالوذج** : حلواء هلامية رجراجة تعمل من الدقيق والماء والعسل ومواد أخرىٰ ، وتصنع الآن من النَّشَا والماء والسكر ومواد أخرىٰ .

(٢) **الخبيص** : الحلواء المخبوصة من التمر والسَّمن .

وعن محمد بن خالد قال : لم يكن يعلم الناس كم كان خيثمة يقرأ كل يوم من القرآن حتىٰ مرض ، فجاءته امرأته ، فبكت ، فقال : ما يبكيكِ ؟! الموت لا بد منه ، فقالت : الرجال بعدك علي حرام ، فقال لها خيثمة : ما كل هـٰذا أردت منكِ ، إنما كنت أخاف رجلاً واحداً ، وهو أخي محمد ، وهو رجل فاسق يشرب الشراب ، فكرهت أن يشرب في بيتي الشراب بعد تلاوة القرآن في كل ثلاث .

وربما قالت امرأة خيثمة : يا جارية ؛ أسلمي ذلك الدلو ، فيقول خيثمة : كم تعطون عليه ؟ فيقولون : دانقاً ونصفاً أو دانقين ، فيقول لها : أنا أرقعه ، فيرقعه ، ثم يقول : انظروا ماذا أردتم أن تعطوا عليه ، فأعطوه بعض من يأتيكم من المساكين .

وتخرق دلو لخيثمة ، فبعث به إلى الخراز ، فسأله صاعاً من تمر ، فخرزه خيثمة بيده ، وتصدق بالصاع .

وعن الأعمش قال : دعاني خيثمة ، فلما جئت ؛ إذا أصحاب العمائم والمطارف على الخيل ، فحقرت نفسي ورجعت ، فلقيني بعد ذلك ، فقال لي : لِمَ لا تجيء ؟ قلت : جئت ، ولـٰكن رأيت أصحاب العمائم والمطارف على الخيل ، فحقرت نفسي ، قال : فأنت والله أحب إلي منهم .

وأوصىٰ أن يدفن في مقبرة فقراء قومه .

وقال خيثمة : مكتوب في التوراة : ابن آدم ؛ تفرَّغ لعبادتي . . أملأ قلبك غنىً ، وأسد فقرك ، وإن لم تفعل . . أملأ قلبك شغلاً ، ولا أسد فقرك .

وقال : طوبىٰ للمؤمن كيف يُحفظ في ذريته من بعده .

وعن خيثمة قال : تقول الملائكة عليهم الصلاة والسلام : يا رب ؛ عبدك المؤمن تزوي عنه الدنيا وتعرضه للبلاء ؟! قال : فيقول الله عز وجل للملائكة : انظروا ثوابه ، فإذا رأوا [ثوابه] . . قالوا : يا رب ؛ لا يضره ما أصابه في الدنيا ، ويقولون : عبدك الكافر تزوي عنه البلاء ، وتبسط له الدنيا ؟! [قال] : فيقول [للملائكة] : انظروا عقابه ، فإذا رأوا [عقابه] . . قالوا : يا رب ؛ لا ينفعه ما أصابه في الدنيا .

وقال : قال سليمان عليه الصلاة والسلام : كل العيش قد جربناه ، لينه وشديده ، فوجدناه يكفي منه أدناه .

وقال خيثمة في قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ قال : ينادي مناد يوم القيامة :

ليخرج بعث النار من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون إلى النار ، مِن ذلك يشيب الولدان .

وقال خيثمة : إذا سألت الله عز وجل شيئاً فوجدته . . فاسأل الله تعالى الجنة ، فلعله أن يكون يومك الذي يستجاب لك فيه .

أسند عن جماعة من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وروىٰ عنه جماعة من التابعين . انتهىٰ [« الحلية » ٤/١١٣ـ١٢١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو أمية شريح القاضي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : اشتكىٰ شريح رجله ، فطلاها بالعسل ، وجلس في الشمس ، فدخل عليه عُوَّاده ، فقالوا : كيف تجدك ؟ فقال : صالح ، فقالوا : ألا نطلب طبيباً ؟ قال : قد فعلت ، قالوا : ما قال لك ؟ قال : وعد خيراً .

وفي رواية : خرج بإبهامه قرحة ، فقالوا : لو أريتها الطبيب ؟ قال : هو الذي أخرجها .

وكانت فتنة ابن الزبير تسع سنين ، فمكث شريح لا يُخبَر ولا يَستَخبِر .

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لشريح : أنت أقضى العرب .

وعن شريح قال : كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الكوفة ، فقال علي كرم الله وجهه لقاص رآه يقص : ما ثبات الإيمان وزواله ؟ فقال القاص : ثبات الإيمان بالورع ، وزواله بالطمع ، قال علي رضي الله عنه : فمثلك من يقص .

أسند شريح عن البدريين ، منهم : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم ، وجماعة آخرون .

فمما رواه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من شاب يدع لذة الدنيا ولهوها ويستقبل شبابه بطاعة الله عز وجل . . إلا أعطاه الله أجر اثنين وسبعين صديقاً » ، ثم قال : « يقول الله تبارك وتعالىٰ : (أيها الشاب التارك شهوته من أجلي ، الباذل شبابه لي ؛ أنت عندي كبعض ملائكتي)[1] هـٰذا غريب .

وعن إبراهيم بن يزيد التيمي ، عن أبيه قال : وجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه درعاً له عند يهودي ، فقال : هـٰذا الدرع درعي ، سقط عن جمل لي أورَقَ ، فقال اليهودي : درعي وفي يدي ، فقال علي رضي الله عنه : تصير معي إلى القاضي ، فأتيا شريحاً ، فلما

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٤/ ١١٢) .

رأىٰ علياً قد أقبل . . تحرف عن موضعه وجلس عليٌّ فيه ، ثم قال علي رضي الله عنه : لو كان خصمي من المسلمين . . لساويته ، فقال شريح : ما تشاء يا أمير المؤمنين ؟ قال : درعي سقط عن جمل لي أورَقَ ، والتقطها هـٰذا اليهودي ، فقال شريح : ما تقول يا يهودي ؟ قال : درعي وفي يدي ، فقال شريح : صدقت والله يا أمير المؤمنين ؛ إنها لدرعك ، ولـٰكن لا بد من شاهدين ، فدعا قنبراً مولاه والحسن ابنه ، فشهدا أنها درعه ، فقال شريح : أما شهادة مولاك . . فقد أجزناها ، وأما شهادة ابنك لك . . فلا نجيزها ، فقال عليٌّ : ثكلتك أمك ، أمَا سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » ؟[1] قال : اللهم نعم ، قال : أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة ؟ ثم قال عليٌّ رضي الله عنه لليهودي : خذ الدرع ، فقال اليهودي : إن أمير المؤمنين جاء معي إلىٰ قاضي المسلمين ، وقضىٰ لي عليه ورضي ، أشهد أن هـٰذا الدين هو الدين الحق ، وصدقت والله يا أمير المؤمنين ؛ الدرع درعك ، سقطت عن جمل أورَقَ ، وأنا التقطتها ، أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فوهب علي رضي الله عنه الدرع له ، وأجازه بتسع مئة ، وقتل معه يوم صفين[2] . غريب من حديث الأعمش . انتهىٰ [« الحلية » ٤/١٣٢ـ١٤٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٩٥٩) .

(٢) أي : اليهودي ، أما شريح . . فقد مات سنة ثمانين أو تسع وسبعين أو ما يقاربها .

ومنهم الإمام :

أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان عمرو بن شرحبيل إذا أوىٰ إلىٰ فراشه . . يقول : وددت أني لم أك شيئاً .

وقال شقيق : ما ولدت هَمْدانية قط أحب إليَّ أن أكون في مِسلاخِهِ[1] من عمرو بن شرحبيل .

وكان من أفاضل أصحاب عبد الله بن مسعود .

وعن مرة بن شرحبيل قال : سئل سلمان بن ربيعة عن فريضة ، فأجاب فيها ، فخالفه عمرو بن شرحبيل ، فغضب سلمان بن ربيعة ، ورفع صوته ، فقال عمرو بن شرحبيل : لَكذلك أنزلها الله سبحانه وتعالىٰ ، فأتيا أبا موسى الأشعري ، فقال : القول ما قال أبو ميسرة ، وقال لسلمان : ما كان ينبغي لك أن تغضب إن أرشدك رجل ، وقال لعمرو : كان ينبغي أن تساره ؛ أي : لا ترد عليه والناس يسمعون . رواه الثوري .

ودخل شريح علىٰ أبي ميسرة يعوده ، فقال : أتصلي إيماء ؟ قال : نعم ، قال : أنت أعلم مني .

وقال أبو معمر عبد الله : لما مات أبو ميسرة . . قال : يا أصحاب عبد الله ؛ اِمشوا خلف أبي ميسرة ؛ فإنه كان يستحب أن يمشي خلف الجنائز ، وأوصىٰ أبو ميسرة أن يصلي عليه شريح .

وقال أبو ميسرة : رأيت في المنام كأني دخلت الجنة ، فإذا قباب مضروبة ، فقلت : لمَن هـٰذا ؟ فقيل : لذي الكلاع وحوشب ، وكانا ممن قتل مع معاوية ، قلت : فأين عمار

---

(١) أي : في هديه سمته .

وأصحابه ؟ فقالوا : أمامك ، قلت : وقد قَتل بعضهم بعضاً ، فقال : إنهم لقوا الله عز وجل ، فوجدوه واسع المغفرة .

أسند عن كبار الصحابة ، رضوان الله عليهم ، منهم : عمر بن الخطاب ، وجماعة آخرون . انتهىٰ [« الحلية » ٤/١٤٢ـ١٤٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عمرو بن عتبة بن فرقد
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن عبد الرحمـٰن بن يزيد قال : خرجنا في جيش ، فيهم : علقمة ، ويزيد بن معاوية النخعي ، وعمرو بن عتبة ، ومِعْضَد العجلي ، قال : فخرج عمرو بن عتبة وعليه جبة جديدة بيضاء ، فقال : ما أحسن ما ينحدر الدم علىٰ هـٰذه ، قال : فأصابه حجر ، فشجه ، فرأيت الدم ينحدر على المكان الذي وضع يده عليه ، فمات منها ، فدفناه ، رحمه الله .

وعن الأعمش قال : قال عمرو بن عتبة : سألت الله عز وجل ثلاثاً ، فأعطاني اثنتين ، وأنا أنتظر الثالثة : سألته أن يزهدني في الدنيا . . فلَمْ أُبالِ ما أقبل منها وما أدبر ، وسألته أن يقويني على الصلاة . . فرزقني منها ما سألت ، وسألته الشهادة . . فأنا أرجوها .

وحدثني ابن عم عمرو بن عتبة قال : نزلنا في مَرْجٍ حَسَنٍ ، فقال عمرو : ما أحسن هـٰذا المرج! لو أن منادياً ينادي : يا خيل الله اركبي ، فخرج رجل وكان أول من لقي المشركين ، فأصيب ، ثم جيء به ، فدفن في هـٰذا المرج . قال : فما كان بأسرع من أن نادىٰ مناد : يا خيل الله اركبي ، فخرج عمرو في سرعان الناس في أول من خرج ، فأُخبر والدهُ عتبةُ بذلك ـ وكان هو أمير الجيش ـ فقال : عَلَيَّ بعمرو ، عَلَيَّ بعمرو ، فأرسل في طلبه ، فما أُدرِك حتىٰ أصيب ، قال : فما أراه دفن إلا في موضع مركز رمحه .

وفي رواية : أصابه جرح ، فقال : والله ؛ إنك لصغير ، وإن الله تبارك وتعالىٰ ليبارك في الصغير ، دعوني في مكاني هـٰذا حتىٰ أمسي ، فإن أنا عشت . . فارفعوني ، قال : فمات في ذلك المكان .

وعن عبد الله بن ربيعة قال : قال عتبة بن فرقد لعبد الله : يا عبد الله ؛ ألا تعينني على ابن أخيك يعينني علىٰ ما أنا فيه من عمل ؟ فقال له عبد الله : يا عمرو ؛ أطع أباك ، قال : فنظر إلىٰ مِعْضَد وهو جالس معه ، فقال له معضد : لا تطعهم واسجد واقترب ، فقال عمرو : يا أبت ؛ إنما أنا عبد أعمل في فكاك رقبتي ، فدعني أعمل في فكاك رقبتي ، قال : فبكىٰ

أبوه عتبة ، ثم قال : يا بني ؛ إني لأحبك حبين : حباً لله عز وجل ، وحب الوالد لولدِه ، قال عمرو : يا أبت ؛ إنك كنت أتيتني بمال قد بلغ سبعين ألفاً ، فإن كنت سائلي عنه . . فهو ذا فخذه ، وإلا . . فدعني أُمْضِهِ ، فقال له عتبة : أمضه ، فأمضاه حتىٰ ما بقي منه درهم .

وخرج عمرو ، فاشترىٰ فرساً بأربعة آلاف درهم ، فعنَّفوه ـ يسْتغْلونه ـ فقال : ما [من] خطوة يخطوها إلىٰ أعداء الله تعالىٰ . . إلاَّ وهي أحب إلي من الأربعة آلاف .

وكان له كل يوم رغيفان ، يتسحر بأحدهما ، ويفطر على الآخر .

وكان يشترط علىٰ أصحابه أن يكون خادمهم .

قال : فخرج في الرعي في يوم حار ، فأتىٰ بعض أصحابه ، فرأىٰ عليه سحابة غيم وهو قائم يصلي ، فقال له : أَبْشر يا عمرو ، لقد رأيت سحابة غيم وأنت قائم تصلي ، قال : فأخذ عليه عمرو ألاَّ يخبر بما رأىٰ ما دام حياً .

وكان يصلي والسَّبُع حوله يضرب بذنبه يحميه ، قالوا : فكان يصلي ليلة ، فسمعنا زئير الأسد ، فهربنا وهو قائم يصلي لم ينصرف ، فقلنا له : أما خفت الأسد ؟! فقال : إني لأستحيي من ربي عز وجل أن أخاف شيئاً سواه .

ولما توفي عمرو بن عتبة . . دخل بعض أصحابه علىٰ أخته فسألها من وراء حجاب عنه ، فقالت : قام ذات ليلة فاستفتح (حم) ، فلما أتىٰ علىٰ هـٰذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ﴾ . . فما جاوزها حتىٰ أصبح .

وكان يخرج علىٰ فرسه ليلاً ، فيقف على القبور ، فيقول : يا أهل القبور ؛ قد طُويَت الصحفُ ، وقد رُفعت الأعمالُ ، ثم يبكي ، ويَصُفُّ قدميه يصلي حتىٰ يصبح ، فيرجع ، فيشهد الصبح .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عمرو بن عتبة من كبار تابعي أهل الكوفة ، مشهور بالتعبد والزهد ، شغلته العبادة عن الرواية ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الحلية » ٤/١٥٥ـ١٥٨] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : استشهد في غزاة أَذْرَبِيجان ، وذلك في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٣٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

❊ ❊ ❊

ومنهم الإمام :

أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود
رضي الله عنهما

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن أبي عبيدة[1] قال : ما دام قلب الرجل يذكر الله سبحانه وتعالىٰ . . فهو في الصلاة وإن كان في السوق ، وإن يحرك به شفتيه . . فهو أعظم .

وقال : لو أن رجلاً جلس في الطريق ومعه دنانير ، لا يمر إنسان إلا أعطاه ديناراً ، وآخر إلىٰ جنبه يكبر الله تعالىٰ . . كان صاحب التكبير أعظم أجراً .

قال : وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يقولون في أحد شيئاً حتىٰ يعلموا علىٰ ما يموت ، فإن ختم له بخير . . علموا أنه أصاب خيراً ، وإن ختم له بشر . . خافوا عليه .

وعن أبي عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود قال : رجلان يضحك الله عز وجل إليهما :

رجل تحته فرس في غزاة ، فلقيهم العدو ، فانهزموا وثبت هو ، إن قتل . . قتل شهيداً ، فذلك يضحك الله عز وجل إليه .

ورجل قام من الليل لا يعلم به أحد ، فأسبغ الوضوء ، وصلىٰ علىٰ النبي صلى الله عليه وسلم ، وحمد الله ، واستفتح القراءة ، فيضحك الله إليه ، فيقول : انظروا إلىٰ عبدي ، لا يراه أحد غيري[2] .

---

(١) قال المزي في « تهذيب الكمال » (١٤/ ٦١) : عامر بن عبد الله بن مسعود الهذلي ، أبو عبيدة الكوفي ، ويقال : اسمه كنيته ، وهو أخو عبد الرحمـٰن بن عبد الله بن مسعود .

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٥٩) ، وهـٰذا الحديث من أحاديث الصفات ، وفيها مذهبان ـ كما قال النووي في « شرح صحيح مسلم » (٥/ ٢٤) ـ :
أحدهما : الإيمان به من غير خوض في معناه مع اعتقاد أن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء ، وتنزيهه عن سمات المخلوقين .
والثاني : تأويله بما يليق به . انتهىٰ .
ومنهم من أوَّل الضحك بمعنى الرضا ، فقال ابن حجر في « فتح الباري » (٧/ ١٢٠) في شرحه لحديث =

أسند عن أبيه ، فمن أحاديثه عن أبيه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استحيوا من الله حق الحياء » ، قالوا : يا رسول الله ؛ كيف ذاك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « من استحيىٰ من الله حق الحياء . . فليحفظ الرأس وما وعىٰ ، والبطن وما حوىٰ ، وليذكر الموت والبلىٰ ، ومن أراد الآخرة . . ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك . . فقد استحيىٰ من الله حق الحياء »(١) .

ومن أحاديثه أيضاً : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « التائب من الذنب . . كمن لا ذنب له »(٢) . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٢٠٤ـ٢١٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

❊ ❊ ❊

= « ضحك الله من فعالكما » : ونسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية ، والمراد بها : الرضا بصنيعهما . انتهىٰ ، والله أعلم .

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الصغير » (١/ ٢٩٨) ، والحاكم (٤/ ٣٥٩) عن مرة الهمداني ، عن عبد الله بن مسعود .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٥٠) .

ومنهم الإمامان :

يزيد بن شريك التَّيْمي وابنه إبراهيم
رضي الله عنهما

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن يزيد بن شريك قال : قدمت البصرة ، فربحت فيها عشرين ألفاً ، فما اكترثت بها فرحاً .

وقال : ما أريد أن أعود إليها ؛ لأني سمعت أبا ذر يقول : صاحب الدرهم يوم القيامة أخف حساباً من صاحب الدرهمين .

وقال : إني لأقعد من امرأتي مقعد الرجل من أهله ، فأذكر الموت ، فما أنا بأقدر عليه مني من أن أمس السماء .

وقال إبراهيم التيمي بن يزيد : مثَّلت نفسي في النار أعالج أغلالها وسعيرها ، وآكل من زقومها ، وأشرب زمهريرها[1] ، فقلت : يا نفس ؛ أي شيء تشتهين ؟ قالت : أرجع إلى الدنيا ، فأعمل عملاً صالحاً ؛ لعلي أنجو به من هـٰذا العذاب ، ومَثَّلت نفسي في الجنة مع حورها ، وأَلْبَس من سندسها وإستبرقها وحريرها ، فقلت : يا نفس ؛ أي شيء تشتهين ؟ قالت : أرجع إلى الدنيا ، فأعمل عملاً أزداد به من هـٰذا الثواب ، قلت : فأنت في الدنيا وفي الأمنية .

وقال إبراهيم التيمي : ما عرضت عملي علىٰ قولي . . إلا خشيت أن أكون مكذباً .

وربما قيل لإبراهيم : تكلم ، فيقول : ما يحضرني نية .

وكان من دعائه : اللهم ؛ اعصمني بكتابك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم من الاختلاف في الحق ، ومن اتباع الهوىٰ بغير هدًىٰ منك ، ومن سبل الضلالة ، ومن شبهات الأمور ، ومن الزيغ واللَّبس والخصومات .

---

(١) **الزمهرير** : هو ريح جهنم ، وقيل هو : الصديد وما يسيل من دموع وغُسالة أهل النار ، ولعله المراد هنا ، أعاذنا الله والمسلمين منها .

وقال : ما أكل آكل أكلة تسره ، ولا شرب شربة تسره . . إلا نقص بها من حظه في الآخرة .

وكان إذا سجد . . تجيء العصافير ، فتنقر على ظهره ، كأنه جِذمُ[1] حائط .

وقال : كم بينكم وبين القوم ؟! أقبلت عليهم الدنيا فهربوا منها ، وأدبرت عنكم فاتبعتموها .

وقرأ في قصصه : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ ، فقال إبراهيم : سبحان من قطَّع من النيران ثياباً .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ، قال : حتىٰ من موضع كل شعرة ، وقال الحسن بن هارون : من أطراف كل شعرة .

وقال إبراهيم النخعي : ما أحد ممن يتكلم أحرىٰ أن يُطلَب به وجهُ الله من إبراهيم التيمي .

وعن العَوَّام بن حوشب قال : ما رأيت رجلاً قط خيراً من إبراهيم التيمي ، وما رأيته رافعاً بصره إلى السماء في صلاة ولا في غيرها ، وسمعته يقول : إن الرجل ليظلمني فأرحمه .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : ما طول يوم القيامة على المؤمنين إلا ما بين الظهر والعصر .

وقال إبراهيم التيمي : رأيت في المنام كأني وردت علىٰ نهر ، فقيل لي : اشرب واسق من شئت ؛ بما صبرتَ وكنتَ من الكاظمين . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٢١٠-٢١٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : توفي إبراهيم التيمي في حبس الحجاج ، سنة اثنتين وتسعين ، قال علي بن محمد : كان سبب حبس إبراهيم التيمي : أن الحجاج طلب إبراهيم النَّخعي ، فجاء الذي طلبه ، فقال : أريد إبراهيم ، فقال : أنا إبراهيم ، فأخذه وهو لا يعلم أنه إبراهيم التيمي ، ولم يَستحِلَّ أن يدل عليه[2] ، فجاء الحجاج ، فأمر بحبسه في الديماس[3] ، ولم يكن له ظل من الشمس ، ولا كِنٌّ من البرد ، وكان كل اثنين في سلسلة ،

---

(١) **جذم الحائط** : بقيته .

(٢) أي : لم يُبح لنفسه أن يدل رسولَ الحجاج علىٰ إبراهيم النخعي .

(٣) **الديماس** : البيت المظلم في جوف الأرض وأيضاً : الحمَّام .

فتغير إبراهيم ، فجاءته أمه في الحبس ، فلم تعرفه حتىٰ كلَّمَها ، فمات في السجن ، فرأى الحجاجُ في منامهُ قائلاً يقول له : مات في هـٰذه البلدة الليلة رجل من أهل الجنة ، فلما أصبح . . قال : مات الليلة أحد بواسط ؟ قالوا : نعم ، إبراهيم التيمي مات في السجن ، فقال : حُلُمٌ ، نَزْغَةٌ من نزغات الشيطان ، فأمر به ، فأُلقي على الكناسة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٤٤] .

وقال الحافظ : قال الأعمش : قلت لإبراهيم التيمي : بلغني أنك تمكث شهراً لا تأكل شيئاً ، قال : نعم ، وشهرين ، ما أكلت منذ أربعين ليلة ، إلا حبة عنب ، ناولنيها أهلي ، فأكلتها ، ثم لفظتها .

ومن كلامه : أي حسرة على امرىء أكبر من أن يكون له غلام في الدنيا يراه يوم القيامة أفضل منزلة منه عند الله عز وجل! وأي حسرة على امرىء أكبر من أن يصيب مالاً ، فيرثه غيره ، فيعمل فيه بطاعة الله ، فيصير وزره عليه وأجره لغيره! وأي حسرة على امرىء أكبر من أن يرىٰ من كان مكفوف البصر ، ففتح له عن بصره يوم القيامة وعمي هو! إن من كان قبلكم يفرون من الدنيا وهي مقبلة عليهم ، ولهم من القَدَم ما لهم ، وأنتم تتبعونها وهي مدبرة عنكم ، ولكم من السيئات ما لكم ، فقيسوا أمركم وأمْرَ القوم .

وقال : بلغني أنه يقسم للرجل من أهل الجنة شهوة مئة وأكلهم ونهمتهم ، فإذا أكل . . سقي شراباً طهوراً ، فخرج من جلده رشح كرشح المسك ، ثم تعود شهوته .

وقال : **إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولىٰ . . فاغسل يدك منه** .

وقال : **ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار ؛ لأن أهل الجنة قالوا : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ ، وينبغي لمن لم يشفق[1] أن يخاف ألاَّ يكون من أهل الجنة ؛ لأنهم قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾** .

وقال : أعظم الذنب عند الله عز وجل . . أن يُحدِّث العبد بما ستر الله سبحانه وتعالىٰ عليه .

أسند إبراهيم بن يزيد عن جماعة ، وأكثر روايته عن أبيه ، وعن الحارث بن سويد . انتهىٰ [« الحلية » ٤/٢١٣ـ٢١٥] .

---

(١) **يشفق** : الشفقة هنا بمعنى الخوف من الله عز وجل ، وبسبب هـٰذه الشفقة منَّ الله على المؤمنين بالمغفرة والرحمة .

وقال أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كان إبراهيم التيمي يسأل أصحابه الدرهمين ونحوهما ، ويعرض عليه غيرهم المئتين فلا يأخذ ، وإنما فعل ذلك لشدة ورعه ؛ فإنه يراعي ـ بعد سلامته عن الآفات ـ التخلص عن المنة .

وقد قال العارفون : متىٰ علم المُهدىٰ إليه حصول المنة . . فالأولى الترك ، فإن كانت المنة في البعض دون البعض . . فليرد ما فيه المنة .

جاءت صرة إلىٰ فتح الموصلي فيها خمسون درهماً ، فأخذ درهماً ورد سائرها ، فجمع بين الرد والقبول ، وما ذاك إلا لحذر الآفة من الرد والآفة من القبول ، ولا شك أن أعمالهم دقيقة جليلة في جميع أفعالهم .

وقد حكي عن بعض العارفين : أنه أعطاه صديقه شيئاً ، فقال له : اتركه عندك ، ثم انظر : إن كنتُ عندك بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول . . فأخبرني حتىٰ آخذه ، وإلا . . فلا ، وأمارة هـٰذا أن يشق عليه الرد لو رده ، ويفرح بالقبول ، ويرى المنة علىٰ نفسه في قبول صديقه هديته ، فإن علم أنه يمازجه منة . . فأخْذه مباح ، ولـٰكنه مكروه عند الفقراء الصادقين ، ولهـٰذا قال بشر بن الحارث رحمه الله : ما سألت أحداً قط شيئاً إلا سريّاً السقطي ؛ لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا ، فهو يتبرم بما يبقىٰ عنده ، ويفرح بإخراجه ، فأكون عوناً له علىٰ ما يحب . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/٢٠٧ـ٢٠٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عمران إبراهيم بن يزيد النَّخعي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الأعمش قال : كان إبراهيم يتوقى الشهرة ، وكان لا يجلس إلى الأسطوانة ، وكان إذا سئل عن مسألة . . لم يزد علىٰ جوابها ، فأقول له في الشيء يُسأل عنه ، أليس فيه كذا وكذا ؟ فيقول : إنه لم يسألني عن هـٰذا .

وكان إبراهيم صيرفي الحديث[1] ، وكنت إذا سمعت الحديث . . أعرضه عليه .

وقال منصور : ما سألت إبراهيم قط عن مسألة . . إلا رأيت الكراهية في وجهه ، يقول : أرجو أن تكون وعسىٰ .

وعن الأعمش قال : كنت عند إبراهيم وهو يقرأ في المصحف ، فاستأذن عليه رجل ، فغطى المصحف ، وقال : لا يحسَب هـٰذا أني أقرأ فيه كل ساعة .

وأرسل إليه المختار ابن أبي عبيد يطلبه ، فطلىٰ وجهه بطلاء ، وشرب دواء ، ولم يأتهم ، فتركوه .

وعن شعيب قال : كنت فيمن صلىٰ علىٰ إبراهيم ليلاً ، ودفن في زمان الحجاج ، إما تاسع تسعة ، وإما سابع سبعة ، ثم أصبحت ، فغدوت على الشعبي فقال : دفنتم ذاك الرجل الليلة ؟ قال : قلت : نعم ، قال : دفنتم أفقه الناس ، قلت : ومِنَ الحسن ؟ قال : أفقه من الحسن ، ومن أهل البصرة ، وأهل الكوفة ، وأهل الشام ، وأهل الحجاز .

وعن عبد الله بن أشعث قال : قلت للحسن : مات إبراهيم ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إن كان لَقَديمَ السن لَكَثيرَ العلم .

---

(١) **الصيرفي** : النَّقَّاد الذي يبين زيف الدراهم والدنانير .
والمقصود هنا : الإمام الذي يبين ضعف الحديث دون أن يشير إلى العلة ؛ لخفائها وعدم القدرة علىٰ بيانها ، لـٰكنه يعرفها بالخبرة والممارسة .

وكان الشعبي وأبو الضحىٰ وإبراهيم وأصحابنا يجتمعون في المسجد ، فيتذاكرون الحديث ، فإذا جاءتهم فتيا ليس عندهم منها شيء . . رموا بأبصارهم إلىٰ إبراهيم النخعي .

وقال الأعمش : ما عرضت علىٰ إبراهيم حديثاً قط . . إلا وجدت عنده منه شيئاً .

وعن عبد الملك ابن أبي سليمان قال : سمعت سعيد بن جبير يُسأل ، فيقول : تستفتوني وفيكم إبراهيم النخعي ؟!

وعن الأعمش قال : رأيت علىٰ إبراهيم قباء محشواً ، وملحفة حمراء .

وعن مغيرة ، عن إبراهيم قال : كان أصحابنا يكرهون تفسير القرآن ، ويهابونه .

وقال إبراهيم : وددت أني لم أكن تكلمت ، ولو وجدت بُدّاً من الكلام . . ما تكلمت ، وإن زماناً صرت فيه فقيهاً . . لزمان سوء .

وذُكِر عثمانُ وعليٌّ رضي الله عنهما ، ففضل رجل علياً علىٰ عثمان ، فقال له إبراهيم : إن كان هـٰذا رأيك . . فلا تجالسنا .

وكان إبراهيم يصوم يوماً ويفطر يوماً .

ولما احتُضر . . بكىٰ ، فقيل له في ذلك ، فقال : كيف لا أبكي وأنا أنتظر رسولاً من ربي يبشرني إما بهـٰذه وإما بهـٰذه ؟!

وقال : كانوا يقولون ويرجون إذا لقي اللهَ الرجلُ المسلمُ وهو نقي الكف من الدم . . أن يتجاوز الله تعالىٰ عنه ، ويغفر له ما سوىٰ ذلك من ذنوبه .

وكانوا إذا أتوا إلى الرجل ليأخذوا عنه . . نظروا إلىٰ صلاته ، وإلىٰ هديه ، وإلىٰ سمْته .

وقال إبراهيم : إني لأسمع الحديث ، فأنظر إلىٰ ما يؤخذ به ، فآخذ به ، وأدع سائره .

وقال إبراهيم : من جلس ليُجلَسْ إليه . . فلا تجلسوا إليه .

وسئل إبراهيم عن شيء ، فجعل يتعجب ، ويقول : احتيج إليَّ ، احتيج إليَّ .

وعن أبي حصين قال : أتيت إبراهيم أسأله عن شيء ، فقال : أمَا وجدت أحداً فيما بيني وبينك تسأله غيري ؟!

وعن أشعث بن سوار قال : جلست إلىٰ إبراهيم ما بين العصر إلى المغرب ، فلم يتكلم ، فلما مات . . سمعت الحكم وحماداً يقولان : قال إبراهيم ، فأخبرتهما بجلوسي إليه وأنه لم يتكلم ، فقالا : إنه كان لا يتكلم حتىٰ يُسأل .

وعن الأعمش ، عن إبراهيم قال : يكره أن يقال : حانت الصلاة .

وعن الأعمش قال : قلت لإبراهيم : يمر الكَحَّال وهو نصراني ، فأسلم عليه ؟ فقال : لا بأس أن تسلم عليه إذا كانت لك حاجة إليه ، أو بينكما معروف .

وقال إبراهيم : إذا قرأ القرآن الرجل نهاراً . . صلت عليه الملائكة حتىٰ يمسي ، وإذا قرأه ليلاً . . صلت عليه الملائكة حتىٰ يصبح ، قال الأعمش : فرأيت أصحابنا يعجبهم أن يكون ختمهم أول النهار وأول الليل .

وقال إبراهيم : إذا قال الإنسان حين يصبح : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم عشر مرات . . أجير من الشيطان حتىٰ يمسي ، وإذا قاله ممسياً . . أجير من الشيطان حتىٰ يصبح .

وكان رجل[1] آخذاً بيد إبراهيم وهما ماشيان إلى المسجد ، فذكر رجلاً ، فتنقصه ، فلما دنا من المسجد . . انتزع إبراهيم يده من يده ، وقال : اذهب فتوضأ ، قد كانوا يعدون هٰذا هجراً .

وقال إبراهيم : الكذب يفطِّر الصائم .

وقال إبراهيم : كانت تكون فيهم الجنازة يظلون الأيام محزونين ، يُعْرَف ذاك فيهم .

وقال إبراهيم : لو أن عبداً اكتتم بالعبادة كما يكتتم بالفجور . . لأظهر الله عز وجل ذلك منه .

وقال إبراهيم : ما ذكرت هٰذه الآية الكريمة . . إلا ذَكَرْت بَرْدَ الشراب : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ .

وقال : من ابتغىٰ شيئاً من العلم يبتغي به وجه الله عز وجل . . آتاه الله منه ما يكفيه .

وقال : إذا دعا أحدكم . . فليبدأ بنفسه ؛ فإنه لا يدري أي دعاء يستجاب له .

وعن إبراهيم قال : كانوا يكرهون إذا اجتمعوا أن يُخْرِجَ الرجل أحسن حديثه ، أو من أحسن ما عنده .

وعن الأعمش : أن رجلاً أعطاه مالاً يخرج به إلىٰ ماه[2] يشتري به زعفراناً ، قال :

---

(١) الحارث العكلي .

(٢) ماه : اسم يعني : قصبة البلد ، يضاف لكثير من المواضع فيقال : ماه البصرة وماه الكوفة وماه فارس . . . إلخ ، والمراد هنا : ماه الكوفة والله أعلم ، انظر « معجم البلدان » مادة (ماه) .

فذكرت ذلك لإبراهيم فقال : ما كانوا يطلبون الدنيا هٰذا الطلب .

وعن إبراهيم قال : إن الرجل ليتكلم بالكلام علىٰ كلامه المقت ينوي به الخير ، فيُلقي الله عز وجل له العذر في قلوب الناس ، حتىٰ يقولوا : ما أراد بكلامه إلا الخير ، وإن الرجل ليتكلم بالكلام الحسن لا يريد به الخير ، فيلقي الله عز وجل في قلوب الناس ما أراد ، حتىٰ يقولوا : ما أراد بكلامه الخير .

وقال إبراهيم : [قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه] : كل نفقة ينفقها العبد . . فإنه يؤجر عليها ، غير نفقة البناء ، إلا بناء مسجد يراد به وجه الله عز وجل ، فقيل لإبراهيم : أرأيت إن كان بناء كفافاً ؟ قال : لا أجر ولا وزر .

وقال : **إن مَن كان مِن قبلكم كان خصبهم في بيوتهم ، وفي لباسهم تَجَوُّزٌ ، فإذا فضل عنهم شيء . . فعلى الأقارب ، وإن فضل عنهم . . فعلىٰ الجيران ، وإن فضل . . فهٰهنا وهٰهنا من مسكين وفقير .**

وكان يعجبهم أن يكون في بيوتهم التمر للزائر والسائل .

وقال : كانوا يكرهون أن يصغروا المصحف ، وكان يقال : عظموا كتاب الله عز وجل . انتهىٰ [« الحلية » ٤/٢١٩ـ ٢٣٠] .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : استأجر إبراهيم النخعي دابة ، فسقط سوطه من يده ، فنزل وربط الدابة موضع نزوله ، ورجع وأخذ السوط ، فقيل له : لو حولت الدابة إلى الموضع الذي سقط فيه السوط فأخذتَه ، فقال : إنما استأجرتها لأمضي هٰكذا لا هٰكذا . انتهىٰ [« الرسالة » ٩٢ـ٩٣] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : وقال إبراهيم : كانوا يكرهون أن يسموا العبد عبد الله ؛ يخافون أن يكون ذلك عتقاً ، وكانوا يكرهون أن يظهروا صالح ما يسرون ، يقول الرجل : إني لأستحب أن أفعل كذا وكذا ، وأصنع كذا وكذا ، وكانوا يعطون الشيء ويكرهون أن يقولوا : أعطيتك أحتسب بك الخير ، أو يقول : هو حر لوجه الله ، وكانوا يعطون ويسكتون ، ولا يقولون شيئاً .

قال الحافظ : قال إبراهيم : وإني لأرى الشيء أكرهه في نفسي ، ما يمنعني أن أعيبه . . إلا كراهية أن أبتلىٰ بمثله .

وعن خلف بن حوشب أن جواباً التيمي كان يرتعد عند الذِّكر ، فقال له إبراهيم : إن كنت

تملكه . . فما أبالي ألاَّ أعتد بك ، وإن كنت لا تملكه . . فقد خالفت من هو خير منك .

وقال : كان يقال : (الحمد لله) أكثر الكلام تضعيفاً .

وقال : العتل : الفاجر ، والزنيم : اللئيم في أخلاف الناس .

وقال : كانوا يرون أنه سبحانه وتعالىٰ يفرغ من حساب الناس يوم القيامة في مقدار نصف النهار ، ثم يَقِيل هـٰؤلاء في الجنة وهـٰؤلاء في النار .

وقال : كانوا يستحبون شدة الفزع للسيئة قد عملها لتكون بها .

وعن إبراهيم والحسن قالا : كفىٰ بالمرء إثماً أن يشار إليه بالأصابع في دين أو دنيا ، إلا من عصم الله تعالىٰ ، التقوىٰ هـٰهنا . يومىء إلىٰ صدره ثلاث مرات .

وعن مغيرة قال : كان رجل علىٰ حال حسنة ، فأحدث ـ أو أذنب ذنباً ـ فرفضه أصحابه ونبذوه ، فبلغ ذلك إبراهيم ، فقال : تداركوه وعظوه ، ولا تدعوه .

وقال إبراهيم : كانوا يكرهون التلون في الدين .

أدرك إبراهيم جماعة من الصحابة ، رضوان الله تعالىٰ عليهم ، وأكثر روايته عن علماء التابعين .

فمن أحاديثه : عن الأسود ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ إنك لأحب إلي من نفسي ، وإنك لأحب إلي من أهلي ، وإنك لأحب إلي من ولدي ، وإني لأكون في البيت فأذكرك ، فما أصبر حتىٰ آتيك فأنظر إليك ، فإذا ذكرت موتي وموتك . . عرفت أنك إذا دخلت الجنة . . رفعت مع النبيين ، وإني وإن أدخلت الجنة . . خشيت ألاَّ أراك ، فلم يَرُدَّ إليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ، حتىٰ نزل جبريل عليه الصلاة والسلام بهـٰذه الآية : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1] . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٢٣٠ـ٢٤٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : عن مغيرة : أن إبراهيم كان يلبس الثوب المصبوغ بالزعفران أو بالعصفر ، وكان من يراه لا يدري من القراء هو أم من الفتيان .

وعن الأعمش قال : جهدنا بإبراهيم أن يستند إلىٰ سارية ، فأبىٰ علينا ، وكان يتوقى

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١/ ١٥٣) .

الشهرة ، ولا يجلس إلى الأسطوانة ، وكان يجلس مع القوم ، فيجيء الرجل ، فيوسع له ، فإذا اضطره المجلس إلى الأسطوانة . . قام .

وقال مغيرة : كنا نهاب إبراهيم كما نهاب الأمير .

وقال سفيان : قال إبراهيم : إنه ليطول عليَّ الليل حتىٰ ألقىٰ أصحابي فأذاكرهم .

توفي سنة خمس وتسعين ، وهو ابن أربع وأربعين[1] ، وقيل : نيف وخمسين سنة ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٤٢-٤٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) وجاء في « الصفوة » : (وهو ابن تسع وأربعين) .

ومنهم الإمام :

عون بن عبد الله بن عتبة
رضي الله عنهم

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عون بن عبد الله : إن لكل رجل سيداً من عمله ، وإن سيد عملي الذِّكر .

وقال : مجالس الذكر . . شفاء القلوب .

وقال : ذكر الله عز وجل . . صقال القلوب .

وقال : ذاكر الله في الغافلين . . كالمقاتل عن الفارِّين ، والغافل في الذاكرين . . كالفارِّ عن المقاتلين .

وفي رواية : ذاكر الله في غفلة الناس . . كمثل الفئة المنهزمة يحميها الرجل ، ولولا ذلك الرجل . . لهزمت الفئة ، ولولا من يذكر الله عز وجل في غفلة الناس . . هلك الناس .

وقال : لو يأتي على الناس ساعة لا يُذكر الله عز وجل فيها . . هلك من في الأرض جميعاً .

وعن مسعر ، عن عون قال : كانوا يتلاقَون فيتساءلون ، وما يريدون بذلك إلا أن يحمدوا الله عز وجل .

ووصل إلىٰ عون بن عبد الله أكثر من عشرين ألف درهم [فتصدق بها] ، فقال له أصحابه : لو اعتقدت عُقْدَةً[1] لولدك ، فقال : أعتقدها لنفسي ، وأعتقد الله عز وجل لولدي ، قال أبو أسامة : فلم يكن في المسعوديين أحسن حالاً من عبد الله بن عون ، وإنه لما حضرته الوفاة وكانت له ضيعة . . أوصىٰ أن تباع ويُتصدق بها عنه ، فقيل له : أتتصدق بضيعتك وتدع عيالك ، فقال : أقدم هـٰذه لنفسي ، وأدع الله سبحانه وتعالىٰ لعيالي ، وكان

---

(١) **العقدة** : كل ما يمتلكه الإنسان من ضيعة أو عقار أو مال أو متاع .

مَن قبلنا يجعلون للدنيا ما فضل عن آخرتهم ، وإنكم اليوم تجعلون لآخرتكم ما فضل عن دنياكم .

وقال : لو تنظرون إلى الأجل ومسيره . . لأبغضتم الأمل في غروره .

وكان أحياناً يلبس الخز ، وأحياناً يلبس الصوف ، فقيل له في ذلك ، فقال : الخز لئلاَّ يستحي ذو الهيئة أن يجلس إلي ، والصوف لئلاَّ يهابني ضعفاء الناس أن يجلسوا إلي .

وقال : إن من تمام التقوىٰ طلب علم ما لم يعلم ، وإن من نقص التقوىٰ . . ترك الزيادة فيه ، وإنما يحمل الرجل علىٰ ترك ابتغاء الزيادة فيه . . قلة الانتفاع بما قد علم .

وكان يقول : اليوم المضمار ، وغداً السباق إلى الجنة ، والغاية الجنة أو النار ، فبالعفو تنجون ، وبالرحمة تدخلون ، وبالأعمال تقتسمون المنازل .

وقال : كفىٰ بك من الكبر . . أن ترىٰ لك فضلاً علىٰ من هو دونك .

وكانوا يقولون : ذلوا عند الطاعة ، وعزوا عند المعصية .

وقال : إن الله عز وجل ليُدخل الجنة خلقاً ، فيعطيهم حتىٰ يتملوا ، وفوقهم ناس في الدرجات العلىٰ ، فلما نظروا إليهم . . عرفوهم ، فيقولون : يا ربنا ؛ إخواننا كنا معهم فضلتهم علينا ؟ فيقول الرب جل جلاله ، ولا إلـٰه غيره : هيهات ، هيهات! إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون ، ويظمؤون حين تروون ، ويقومون حين تنامون ، ويبذلون حين تحفظون[1] .

وقال : كان الفقهاء يتواصون بينهم بثلاث ، ويكتب بعضهم إلىٰ بعض : مَن عمل لآخرته . . كفاه الله عز وجل دنياه ، ومَن أصلح سريرته . . أصلح الله سبحانه وتعالىٰ علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله تعالىٰ . . أصلح الله تعالىٰ ما بينه وبين الناس .

وعن عون قال : قال رجل من الفقهاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ قال الفقيه : والله ؛ إنه ليجعل لنا مخرجاً ، وما بلغنا من التقوىٰ ما هو أهله ، وإنه ليرزقنا وما اتقينا كما ينبغي ، وإنه ليجعل لنا من أمرنا يسراً وما اتقينا ، وإنا لنرجو الثالثة ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ .

وكان عون بن عبد الله يحدث ولحيته تَرْتَشُّ بالدموع .

(١) جاء في نسخة : (يُذَلُّون حين تُحفَظون) وفي « الحلية » : (ويشخصون حين تخفضون) .

وقال : جالسوا التوابين ؛ فإنهم أرق الناس قلوباً .

وقال : فواتح التقوىٰ . . حسن النية ، وخواتمها . . التوفيق ، والعبد فيما بين ذلك هلكات وشبهات .

وقال : صدأ القلوب من كثرة رين الذنوب[١] ، وجلاؤها بالتوبة ، حتىٰ تدع القلوب كالسيف النقي المرهف .

وقال : دواء الذنوب بالتوبة ؛ فلرب تائب دعته توبته إلى الجنة حتىٰ أدخلته فيها .

وقال : جالسوا التوابين ؛ فإن رحمة الله تعالىٰ إلى التائبين أقرب .

وقال : اهتمام العبد بذنبه . . داع إلىٰ تركه ، وندمه عليه . . مفتاح للتوبة ، ولا يزال العبد يهتم بالذنب يصيبه حتىٰ يكون أنفع له من بعض حسناته .

وكان يقول : إن العباد في فسحة من ستر الله عز وجل ما أقاموا العبادة ، ولم يهرقوا دماً حراماً .

وكان إذا خرج من بيته . . قال : بسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، قال محمد بن كعب القرظي : هـٰذا في القرآن ﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ ، وقالوا : ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ .

وقال رجل لعون بن عبد الله : إني أخاف أن أكون منافقاً ، فقال : لو كنت منافقاً . . ما خفت ذلك .

وقال : يخرج لابن آدم يوم القيامة دواوين ، ديوان فيه الحسنات ، وديوان فيه السيئات ، وديوان فيه النعم ، فلا تخرج حسنة . . إلا خرجت نعمة تستوعبها ، وتبقى السيئات عليه ، لله عز وجل فيه المشيئة .

وقال : كان رجل يجالس قوماً ، فترك مجالستهم ، فأُتي في منامه ، فقيل له : تركت مجالستهم ، لقد غُفر لهم بعدك سبعين مرة .

وعن يحيى بن جابر قال : قدم علينا عون بن عبد الله ، فقعدنا إليه في المسجد ، فوعَظَنا بموعظة لم نسمع بمثلها ، ثم قال أين مسجدكم الذي كان يصلي فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فذهبنا به إليه ، فصلىٰ فيه ركعتين ، ثم قال : هل من مريض نعوده ؟

---

(١) ران ذنبه علىٰ قلبه : غلب عليه وغطاه ، قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتىٰ يسوادَّ القلب .

قلنا : نعم ، فأتينا يزيد بن ميسرة ، فلما قعدنا . . وعظَنا موعظة أخرىٰ أُنسينا التي كانت قبلها ، فاستوىٰ يزيد بن ميسرة وهو مريض ، فقال : بخٍ بخٍ! لقد استعرضتَ بحراً عريضاً ، واستخرجتَ منه نهراً غزيراً ، ونصبتَ عليه شجراً كثيراً ، فإن كان شجرك مثمراً . . أكلت وأطعمت ، وإن كان شجرك غير مثمر . . فإن في أصل كل شجرة فأساً ، قال عون لابن ميسرة : ثم ماذا ؟ قال : ثم تقطع ، فقال ابن عون : ثم ماذا ؟ قال ثم توقد في النار ، فقال عون : ما وقعت من قلبي موعظة كموعظة يزيد بن ميسرة .

وقال عون : اجعلوا حوائجكم التي تهمكم في الفريضة ؛ فإن الدعاء فيها كفضلها على النافلة .

وقال : إذا أعطيت المسكين شيئاً ، فقال : بارك الله فيك . . فقل : أنت بارك الله فيك ، حتىٰ تخلص صدقتك .

وقال عون : المؤمن يألَف ، ولا خير فيمن لا يألَف ولا يؤْلَف .

وقال : صِلْ من كان أبوك يصله ؛ فإن صلة الميت في قبره . . أن تصل من كان أبوك يواصل .

وقال : الخير الذي لا شر فيه . . الشكر مع العافية ، فكم من مُنعَم عليه غير شاكر ، وكم من مبتلًىٰ غير صابر .

وكان يقول : الحمد لله علىٰ كل حال .

وكان يقول : يا ويح نفسي! كيف أَغفل ولا يُغفَل عني ؟! أم كيف تهنئني المعيشة واليوم الثقيل ورائي ؟! أم كيف يشتد عجبي بدار في غيرها قراري وخُلدي ؟!

وكان يقول : ويحي! بأي شيء أستقبل ربي سبحانه وتعالىٰ ؟! بلساني ، أم بيدي ، أم بسمعي ، أم بقلبي ، أم ببصري ؟! ففي كل هـٰذا له الحجة عليَّ سبحانه وتعالىٰ .

وكان يقول : اقبل توبتي ، واستجب دعوتي ، ولا تخذلني بالمعاصي التي كانت مني ، ولا تجعلني لنار جهنم وقوداً بعد توحيدي وإيماني بك ، واغفر لي ولوالدي ولجميع المسلمين يا أرحم الراحمين ، آمين .

ومن وصيته لابنه : إياك ومَن زهادته فيما أُمر به من العمل ، وإياك ومَن يتفرغ لما فُرِغ له من الرزق ، وتخشى الخلق ولا تخشىٰ من الموت ، نعوذ بالله من ذلك .

وقال عون بن عبد الله : ما كان الله عز وجل لينقذنا من شيء ثم يعيدنا فيه ؛ قال الله

تعالىٰ : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ ، وما كان الله عز وجل ليجمع أهل قَسَمين في النار ؛ قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ ، ونحن نقسم بالله العظيم الذي لا إلـٰه إلا هو وهو سبحانه وتعالىٰ يعلم جَهد أيماننا ؛ ليبعثن الله من يموت ؛ أي : والله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ ليبعثن الله من يموت .

أدرك عون جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وصحب كبار التابعين وعلمائهم .

روىٰ عنه جماعة من التابعين ، فمن حديثه : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : بينما نحن نصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ قال رجل من القوم : الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن القائل كذا وكذا ؟ » فقال رجل من القوم : أنا يا رسول الله ، قال : « عجبت لها ؛ فُتحت لها أبواب السماء » ، قال ابن عمر رضي الله عنهما : فما تركتهن منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك[1] .

وعن عون بن عبد الله ، عن ابن أبي فاختة ، عن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله بن مسعود : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ قال : يقول الله تبارك وتعالىٰ يوم القيامة : من كان له عندي عهد . . فليقم ، قالوا : يا أبا عبد الرحمن ؛ فعلِّمنا ، قال : قولوا : **اللهم ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ؛ إني أعهد إليك في هـٰذه الحياة الدنيا أنك أنت الله الذي لا إلـٰه إلا أنت ، وحدك لا شريك لك ؛ فإنك إن تكلني إلىٰ نفسي . . تقربني من الشر ، وتباعدني من الخير ؛ فإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة ؛ إنك لا تخلف الميعاد** . انتهىٰ [« الحلية » ٤/٢٤١ـ٢٤٢] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كان عون بن عبد الله إذا عصاه مولاه . . قال له : ما أشبهك بمولاك ، مولاك يعصي مولاه جل جلاله ، وأنت تعصي مولاك .

وأغضبَه يوماً ، فقال : إنما تريد أن أضربك ، اذهب فأنت حر . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/٢٢٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه مسلم (٦٠١) .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله سعيد بن جبير
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كان سعيد بن جبير يبكي حتىٰ عَمِشَ ، وكان يردد هٰذه الآية في الصلاة بضعاً وعشرين مرة : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

ودخل الكعبة ، فقرأ القرآن في ركعة ، وكان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء في رمضان .

وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه . . يقول : أليس فيكم ابن أم الدهماء ؟

وعن سفيان ، عن عمرو بن ميمون ، عن أبيه قال : لقد مات سعيد بن جبير وما علىٰ ظهر الأرض أحد . . إلا وهو محتاج إلىٰ علمه .

ولما أخذ الحجاج سعيد بن جبير . . قال : ما أراني إلا مقتولاً ، وسأخبركم أني كنت أنا وصاحبين لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء ، ثم سألْنا اللهَ تعالى الشهادة ، فاستُشهِدا ، وأنا أنتظرها .

فكان يرىٰ أن الإجابة عند حلاوة الدعاء .

وقال سعيد : اللهم ؛ إني أسألك صدق التوكل عليك ، وحسن الظن بك .

وعن أبي حصين قال : أتيت سعيد بن جبير بمكة ، فقلت : إن خالد بن عبد الله قادم[1] ، ولا آمنه عليك ، فأطعني واخرج ، فقال : والله ؛ لقد فررت حتى استحييت من الله

---

(١) خالد بن عبد الله القسري الدمشقي : أمير العراقين لهشام حتىٰ سنة عشرين ومئة ، وولي قبل ذلك مكة للوليد بن عبد الملك ، ثم لسليمان ، وذلك من سنة تسع وثمانين إلىٰ سنة ست ومئة ، وفي أخبار وفاته خلاف .

تبارك وتعالىٰ ، فقلت له : والله ؛ إني لأراك كما سمَّتك أمك سعيداً .

قال : فقدم خالد مكة ، فأرسل إليه ، فأخذه . زاد في حديثه : فأخبرني يزيد بن عبد الله قال : أتينا سعيد بن جبير حين جيء به ؛ فإذا هو طيب النفس ، وبُنَيَّة له في حجره ، فنظرَتْ إلى القيد ، فبكت ، وشيعناه إلىٰ باب الجسر ، ودعا سعيد بن جبير ابنه حين دعي ليُقتل ، فجعل ابنه يبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ ما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة .

وعن هلال بن خباب قال : خرجت مع سعيد بن جبير في أيام مضين من رجب ، فأحرم من الكوفة بعمرة ، ثم رجع من عمرته ، ثم أحرم بالحج في النصف من ذي القعدة .

وكان يخرج في كل سنة مرتين : مرة للحج ومرة للعمرة .

وقال كثير بن تميم الداري : كنت جالساً مع سعيد بن جبير ، فطلع عليه ابنه عبد الله ، وكان به من الفقه ما به ، فقال : إني لأعلم خير حالاته ، قال : وما هو ؟ قال : أن يموت فأحتسبه .

وقال سعيد بن جبير : لدغتني عقرب ، فأقسمَتْ عَلَيَّ أمي أن أسترقي ، فأعطيت الراقي يدي التي لم تلدغ ، وكرهت أن أحنِّثَها .

وقال سعيد بن جبير : اعلم : أن كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة .

وقال : إن الخشية أن تخشى الله تعالىٰ حتىٰ تحول خشيتك بينك وبين معصيتك ، فتلك الخشية ، والذِّكر هو طاعة الله عز وجل ، فمن أطاع الله عز وجل . . فقد ذكره ، ومن لم يطعه . . فليس بذاكر وإنْ أكثر التسبيح وتلاوة القرآن .

وقال : ما رأيت أرعىٰ لحرمة هـٰذا البيت ، ولا أحرص عليه من أهل البصرة ، لقد رأيت جارية ذات ليلة تعلقت بأستار الكعبة ، فجعلت تدعو وتبكي وتتضرع حتىٰ ماتت .

وقيل له : ما علامة هلاك الناس ؟ قال : إذا ذهب علماؤهم .

وقيل له : من أعبد الناس ؟ قال : رجل اجترح من الذنوب ثم تاب ، فكلما ذكر ذنوبه . . احتقر عمله .

وقال : لو فارق ذِكرُ الموت قلبي . . خشيت أن يَفْسُدَ عَلَيَّ قلبي .

وقال : إنما الدنيا جمعة من جمع الآخرة .

وكان لا يرىٰ أن يوتر مرتين ، ويقول : إنه من البدع ، ولـٰكن يصلي شفْعاً ما شاء .

وكان إذا طلع الفجر . . لا يتكلم ، ولا يزال يذكر الله عز وجل حتىٰ يصلي الصبح .

وقال : ما زال البلاء في أصحابي حتىٰ رأيت أن ليس لله عز وجل فيَّ حاجة حتىٰ نزل بي البلاء .

وسئل : الشكر أفضل ، أم الصبر ؟ فقال : الصبر ، والعافية أحب إلي .

وسئل عن أولاد المؤمنين ، فقال : هم مع خير آبائهم ؛ فإن كان الأب خيراً من الأم . . فهُم مع الأب ، وإن كانت الأم خيراً من الأب . . فهُم مع الأم .

وقال : وددت أن الناس أخذوا ما عندي ؛ فإنه مما يهمني .

وقال : كنت أسمع الحديث من ابن عباس رضي الله عنهما ، فلو يأذن لي . . لقبَّلت رأسه .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾ قال : إذا عُمل في أرض بالمعاصي . . فاخرجوا .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ ﴾ قال : ما سَنُّوا .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴾ قال : أردفه جبريل عليه الصلاة والسلام حتىٰ سمع صرير القلم ، والتوراة تُكتَب له .

وقال : لما خلق الله عز وجل آدم . . نفخ الروح في رأسه قبل جسده ، فعطس ، فقال : الحمد لله الذي خلقني ، فقالت له الملائكة : يرحمك الله يا أبا محمد . أو كما قال .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا ﴾ : كان يؤدي الأمانات والودائع إلىٰ أهلها ، فحفظ الله له كنزه حتىٰ أدرك ولداه ، فاستخرجا كنزهما .

وقال سعيد بن جبير : نخل الجنة كَرَبُها(١) ذهب أحمر ، وجذوعها زمرد أخضر ، وسعفها(٢) كسوة لأهل الجنة ، منها مُقطَّعاتهم(٣) وحللهم ، وثمرها أمثال القلال والدلاء ، أحلىٰ من العسل ، وألين من الزُّبْد ليس له عَجَم(٤) .

---

(١) **الكَرَبُ** ـ بالتحريك ـ : الأصل العريض للسعف إذا يبس .

(٢) **السعف** : جريد النخل وورقه .

(٣) **المقطعات** : كل ما يفصَّلُ من الثياب ويخاط .

(٤) **العَجَمُ** : النوىٰ .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ : الأرض : الجنة ، وهي فضة .

وقال في قوله تعالىٰ عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال : إنه يومئذ لفقير إلىٰ شق تمرة .

وسئل عن فريضة من فرائض الجَد فقال : يابن أخي ؛ إنه كان يقال : من أحب أن يتجرأ علىٰ حَرِّ أثيمِ جهنم . . فليتجرَّأ علىٰ فرائض الجَد .

وعن خلف بن خليفة ، عن أبيه قال : شهدت مقتل سعيد بن جبير ، فلما بان رأسه . . قال : لا إلـٰه إلا الله مرتين ، ثم قالها الثالثة ، فلم يتمَّها .

وعن يحيى بن سعيد ، عن كاتب للحجاج قال : كنت أكتب للحجاج ، وكان يستحسن كتابتي ، فأدخل عليه بغير إذن ، فدخلت عليه يوماً بعد قتل سعيد بن جبير ، وهو في قبة لها أربعة أبواب ، فدخلت مما يلي ظهره ، فسمعته يقول : ما لي ولسعيد بن جبير ، ما لي ولسعيد بن جبير ، فخرجت ، وعلمت أنه إن علم بي . . قتلني ، فلم يَنْشَبِ[1] الحجاج بعد ذلك إلا يسيراً .

وعن عون ابن أبي شداد قال : أرسل الحجاج إلىٰ سعيد بن جبير قائداً من أهل الشام من خاصة أصحابه ، يسمىٰ : المُتَلَمِّس بن الأحوص ، ومعه عشرون رجلاً من أهل الشام من خاصة أصحابه ، فبينا هُم يطلبونه ؛ إذا هُمْ براهب في صومعة ، فسألوه عنه ، فقال الراهب : صِفُوه لي ، فوصفوه له ، فدَلَّهم عليه ، فانطلقوا ، فوجدوه ساجداً يناجي ربه عز وجل بأعلىٰ صوته ، فدنوا منه ، فسلموا عليه ، فرفع رأسه ، فأتم بقية صلاته ، ثم رد عليهم السلام ، فقالوا : إنا رسل الحجاج إليك ، فأجبه ، قال : ولا بد من الإجابة ؟ قالوا : لا بد ، فحمد الله تعالىٰ ، وأثنىٰ عليه ، وصلىٰ علىٰ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قام ، فمشىٰ معهم حتى انتهىٰ إلىٰ دير الراهب ، فقال الراهب : يا معشر الفرسان ؛ أأصبتم صاحبكم ؟ قالوا : نعم ، فقال لهم : اصعدوا الدير ؛ فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير ، فعجِّلوا الدخول قبل المساء ، ففعلوا ذلك وأبىٰ سعيد أن يدخل الدير ، فقالوا : ما نراك إلا وأنت تريد الهرب منا ، قال : لا ، ولـٰكن لا أدخل منزل مشرك أبداً ، قالوا : فإنا لا ندعك ؛ فإن السباع تقتلك ، قال سعيد : لا ضير ، إن معي ربي فيصرفها عني ، ويجعلها

---

(١) لم يَنْشَبْ : لم يلبَث .

حرساً حولي يحرسونني من كل سوء إن شاء الله تعالىٰ ، قالوا : أفأنت من الأنبياء ؟! قال : ما أنا من الأنبياء ولـٰكن عبد من عبيد الله خاطىء مذنب ، قال الراهب : فليعطني ما أثق به ، فعرضوا علىٰ سعيد أن يعطي الراهب ما يريد ، فقال سعيد : إني أعطي العظيم الذي لا شريك له ألاَّ أبرح من مكاني حتىٰ أصبح إن شاء الله تعالىٰ ، فرضي الراهب بذلك ، فقال لهم : اصعدوا وأوتروا القسي[1] لتُنَفِّروا السباع عن هـٰذا العبد الصالح ؛ فإنه كره الدخول عليَّ في الصومعة . فلما صعدوا وأوتروا القسي ؛ إذا هُم بلبوة قد أقبلت ، فلما دنت من سعيد . . تحاكَّت به وتمسحت به ، ثم ربضت قريباً منه ، وأقبل الأسد ، فصنع مثل ذلك ، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا . . نزل إليه ، فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم ، ففسر له سعيد ذلك كله ، فأسلم الراهب ، وحسن إسلامه ، وأقبل القوم علىٰ سعيد يعتذرون إليه ، ويقبِّلون يديه ورجليه ، ويأخذون التراب الذي وطئه بالليل ، ويقولون : يا سعيد ؛ قد حلَّفنا الحجاج بالطلاق والعتاق إن نحن رأيناك لا ندعك حتىٰ نشخصك إليه ، فمُرنا بما شئت ، فقال : امضوا لأمركم ؛ فإني لائذ بخالقي عز وجل ، لا راد لقضائه .

فساروا حتىٰ بلغوا واسطاً ، فلما انتهوا إليها . . قال لهم سعيد : يا معشر القوم ؛ لست أشك أن أجلي قد حضر ، وأن المدة قد انقضت ، فدعوني الليلة حتىٰ آخذ أهبة الموت ، وأستعد لمنكر ونكير ، وعذاب القبر ، وما يحثىٰ من التراب عليَّ ، فإذا أصبحتم . . فالميعاد بيني وبينكم الموضع الذي تريدون .

قال بعضهم : لا نريد أثراً بعد عين ، وقال بعضهم : قد بلغتم مأمنكم ، واستوجبتم جوائزكم من الحجاج ، فلا تعجزوا عنه ، وقال بعضهم : يعطيكم ما أعطى الراهب ، ويلكم! أما لكم عبرة بالأُسد كيف تحاكت به وتمسحت وحرسته إلى الصباح ؟! وقال بعضهم : هو عليَّ ، أدفعه إليكم إن شاء الله تعالىٰ .

فنظروا إلىٰ سعيد ، وقد دمعت عيناه ، وشعث رأسه ، واغبرَّ لونه ، ولم يأكل ولم يشرب ولم يضحك منذ لقوه وصحبوه ، فقالوا له جميعاً : يا خير أهل الأرض الآن ؛ ليتنا لم نعرفك ، ولم نُسَرِّحْ[2] إليك ، الويل لنا ويلاً طويلاً كيف ابتلينا بك ؟! اعذرنا عند خالقنا يوم الحشر الأكبر ؛ فإنه الحكم العدل الذي لا يجور .

فقال سعيد : ما أعذرني لكم ، وأرضاني لما سبق من علم الله سبحانه وتعالىٰ فيَّ .

---

(١) القِسِيُّ : جمع قوس ، والمعنىٰ : شدوا أوتار أقواسكم لتستعدُّوا للدفاع عنه .

(٢) سرَّح الرسول : أرسله في حاجة .

فلما فرغوا من البكاء والكلام فيما بينهم . . قال كفيله : أسألك بالله يا سعيد ؛ لما زودتنا من دعائك وكلامك ؛ فإنا لن نلقىٰ مثلك أبداً ، ولا نرىٰ أنه نلتقي إلىٰ يوم القيامة ، قال : ففعل سعيد ذلك ، فخلَّوا سبيله ، فغسل رأسه ومدرعته وكساءه ، وباتوا وهم خائفون الليل كله ، ينادون بالويل واللهف .

فلما انشق عمود الصبح . . جاءهم سعيد ، فقرع الباب ، فقال : صاحبكم ورب الكعبة ، فنزلوا إليه ، وبكوا معه طويلاً ، ثم ذهبوا به إلى الحجاج وآخرَ معه ، فدخلا على الحجاج ، فقال : أتيتموني بسعيد بن جبير ؟ قالوا : نعم ، وعاينَّا منه العجب ، فصرف بوجهه عنهم ، فقال : أدخلوه عليَّ ، فخرج المتلمِّس ، فقال [لسعيد] : أستودعك الله ، وأقرأ عليك السلام ، فأُدخل عليه ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : سعيد بن جبير ، قال : أنت الشقي بن كسير ، قال : بل أمي كانت أعلم باسمي منك ، قال : شقيْتَ وشقيَتْ أمك ، قال : الغيب يعلمه غيرك ، قال : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظَّىٰ ، قال : لو علمت أن ذلك بيدك . . لاتخذتك إلـٰهاً ، قال : فما قولك في محمد ؟ قال سعيد : نبي الرحمة وإمام الهدىٰ صلى الله عليه وسلم ، قال : فما قولك في عليٍّ ؟ هو في الجنة أو في النار ؟ قال : لو دخلتُها فرأيتُ أهلها . . عرفتُ من فيها ، قال : فما قولك في الخلفاء ؟ قال : لستُ عليهم بوكيل ، قال : فأيهم أعجب إليك ؟ قال : أرضاهم لخالقي ، قال : فأيهم أرضاهم لخالقك ؟ قال : عِلْم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم ، قال : أبيت أن تَصدُقَني ، قال : إني لم أحب أن أكذِبك ، قال : فما بالك لم تضحك ؟ قال : وكيف يضحك مخلوق من الطين ، والطين تأكله النار ، قال : فما بالُنا نضحك ؟ قال : لم تستوِ القلوب .

قال : ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، فجمعه بين يدي سعيد بن جبير ، فقال له سعيد : إن كنت جمعت هـٰذا لتفتدي به من فزع يوم القيامة . . فصالح ، وإلا . . ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، ولا خير في شيء جُمع للدنيا إلا ما طاب وزكا .

قال : ثم دعا الحجاج بالعود والناي ، فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي . . بكىٰ سعيد بن جبير ، فقال : ما يبكيك عند اللهو ؟! قال : هـٰذا هو موضع الحزن ، أما النفخ . . فذكرني يوماً عظيماً يوم ينفخ في الصور ، وأما العود . . فشجرة قطعت في غير الحق .

فقال الحجاج : ويلك يا سعيد! فقال سعيد : الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار ، قال الحجاج : أخبرني أي قتلة تريد أن أقتلك ؟ قال : أنت اختر لنفسك يا حجاج ، فوالله ؛

ما تقتلني قتلة.. إلا قُتلت مثلها في الآخرة ، قال : فتريد أن أعفو عنك ؟ قال : إن كان العفو. فمن الله سبحانه وتعالىٰ ، وأما أنت.. فلا براءة لك ولا عذر ، قال : اذهبوا به فاقتلوه ، فلما خرج من الباب.. ضحك ، فأُخبِر الحجاج بذلك ، فأمر برده ، فقال : ما أضحكك ؟ قال : عجبت من جرأتك على الله عز وجل وحلم الله تعالىٰ عنك ، فأمر بالنِّطْع[1] ، فبسط ، قال : اقتلوه ، فقال سعيد : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ، حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين ، فقال : حولوه عن القبلة ، قال سعيد : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ، قال : كبوه لوجهه ، قال سعيد : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، قال الحجاج : اذبحوه ، قال سعيد : أما إني أشهد وأحاجّ أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، خذها مني حتىٰ تلقاني بها يوم القيامة .

ثم دعا سعيد الله عز وجل ، وقال : اللهم ؛ لا تسلطه علىٰ أحد يقتله بعدي . فذبح على النِّطْع ، رحمه الله تعالىٰ .

وبلغنا : أن الحجاج عاش بعده خمس عشرة ليلة ، ووقعت الأكلة في بطنه ، فدعا بالطبيب لينظر إليه ، فنظر إليه ، ثم دعا بلحم منتن ، فعلقه في خيط ، ثم أرسله في حلقه ، فتركه ساعة ، ثم استخرجه وقد لزق به من الدم ، فعلم أنه ليس بناج .

وبلغنا أنه كان ينادي بقية حياته : ما لي ولسعيد بن جبير ، كلما أردت النوم.. أخذ برجلي . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٢٧٢_٢٩٤] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان سعيد بن جبير مولىٰ لبني والبة بن الحارث .

وعن عبد الله بن مسلم قال : كان سعيد بن جبير إذا قام إلى الصلاة.. كان كأنه وتد ، وكان يختم القرآن في كل ليلتين ، وقرأ القرآن كله في ركعة في جوف الكعبة ، وفي الثانية : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

أسند سعيد بن جبير عن علي ، وابن عمر ، وأَبي موسىٰ وغيرهم ، رضي الله عنهم ، وأكثر رواياته عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقتل سنة أربع ، وقيل : خمس وتسعين ، وله تسع وخمسون سنة ، وقيل : غير ذلك . والله أعلم . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٣٧_٤١] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : ومما رواه سعيد بن جبير : عن ابن عمر رضي الله عنهم :

---

(١) **النطع** : بساط من الجلد ، كثيراً ما كان يُقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل .

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الحياء والإيمان قُرِنا جميعاً ، فإذا رفع أحدهما . . رفع الآخر »[1] .

وعنه عن ابن عمر رضي الله عنهم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن للمرأة في حملها إلىٰ وضعها إلىٰ فصالها من الأجر كالمرابط في سبيل الله ، فإن هلكت فيما بين ذلك . . فلها أجر شهيد »[2] .

وعنه عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام : « يا جبريل ؛ ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » قال : فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[3] .

وعنه عن ابن عمر رضي الله عنهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعوِّذ حسناً وحسيناً ، يقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامَّة ، ومن كل عين لامَّة »[4] .

وعنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل ، لتَقرَّ بهم عينه »[5] ثم قرأ : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[6] قال : ما أنقصنا الآباء مما أعطينا البنين .

وعنه عن ابن عباس رضي الله عنهم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يجيء الحجر يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ، ولسان ينطق به ، يشهدان لمن استلمه بحق »[7] انتهىٰ [« الحلية » ٤/٢٩٧ـ٣٠٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٧٣) .

(٢) أخرجه بنحوه الديلمي (١/ ٢٠٨) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٤٦) .

(٤) أخرجه ابن حبان في « الإحسان » (١٠١٢) .

(٥) أخرجه بنحوه الديلمي (٢/ ٢٤٥) ، والحاكم (٢/ ٥٠٩) ، والبيهقي في « السنن » (١٠/ ٢٦٨) .

(٦) هٰذه الآية علىٰ قراءة أبي عمرو .

(٧) أخرجه بنحوه أحمد (١/ ٢٤٧) .

ومنهم الإمام :

أبو عمرو عامر بن شَراحيل الشَّعْبي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن عاصم قال : حدثت الحسن بموت الشعبي ، فقال : رحمه الله ، إن كان لمن الإسلام بمكان .

وفي رواية : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إن كان لَقديمَ السن كثيرَ العلم[1] ، وإنه لمن الإسلام بمكان . ثم أتيت محمد بن سيرين ، فأخبرته ، فقال مثلما قال الحسن .

وعن ابن سيرين قال : قدمت الكوفة وللشعبي حلقة عظيمة ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ كثير .

وعن عاصم بن سليمان قال : ما رأينا أحداً كان أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز والآفاق من الشعبي .

وعن أبي مجلز قال : ما رأيت أفقه من الشعبي .

وقال له رجل : يا معشر الفقهاء والعلماء ، فقال : لسنا بفقهاء ولا علماء ، ولـٰكنا قوم قد سمعنا حديثاً ، فنحن نحدثكم بما سمعنا ، إنما الفقيه من وَرِعَ عن محارم الله عز وجل ، والعالم من خاف الله سبحانه وتعالىٰ .

وفي رواية : ما أنا بعالم وما أرىٰ عالماً ، وإن أبا حصين رجل صالح .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قال : بيان للناس من العمىٰ ، وهدىٰ من الضلالة ، وموعظة من الجهل .

وقال : ما ترك أحد في الدنيا شيئاً لله عز وجل . . إلا أعطاه الله في الآخرة ما هو خير له .

وقال : يشرف قوم دخلوا الجنة علىٰ قوم دخلوا النار ، فيقولون : ما لكم في النار ،

---

(١) ذكر ابن منظور في « مختصره علىٰ تاريخ دمشق » (١١/٢٥٣) سبب كثرة علم الشعبي ـ رحمه الله ـ فقال : قيل للشعبي : من أين لك كل هـٰذا العلم ؟ قال : بنفي الاغتمام ، والسير في البلاد ، وصبر كصبر الحمار ، وبكور كبكور الغراب .

وإنما كنا نعمل بما تعلموننا ؟! فيقولون : إنا كنا نعلمكم ولا نعمل به .

وقال الشعبي : تعايَشَ الناس بالدِّين زمناً طويلاً حتىٰ ذهب الدين ، ثم تعايش الناس بالمروءة زمناً طويلاً حتىٰ ذهبت المروءة ، ثم تعايش الناس بالحياء زمناً طويلاً حتىٰ ذهب الحياء ، ثم تعايش الناس بالرغبة والرهبة ، وأظن أنه سيأتي بعد ذلك ما هو أشد منه .

وقال : كانت العرب تقول : إذا كانت محاسن الرجل تغلب مساوئه . . فذلك الرجل الكامل ، وإذا كانا متقاربين . . فذلك المتماسك ، وإن كانت المساوىء أكثر من المحاسن . . فذلك المتهتك(١) .

وقال : ليتني لم أتعلم علماً .

وفي رواية : وددت أني أنجو كفافاً ، لا عليَّ ولا لي .

وقال : ما ترك عبد مالاً هو فيه أعظم أجراً من مال يتركه لولده يتعفف به عن الناس .

وقال : كان عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إذا ذُكر عنده الساعة . . صاح ، وقال : لا ينبغي أن تذكر الساعة عند ابن مريم ، فيسكت .

وقال : العلم أكثر من عدد القطر ، فخذ من كل شيء أحسنه ، ثم تلا : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ .

وقال : من زوج كريمته من فاسق . . فقد قطع رحمها .

وعن الشعبي قال : كان يقال : التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، وإذا أحب عبداً . . لم يضره ذنب ، وذنب لا يضر كذنب لا يُعمل .

وقال : البس من الثياب ما لا تزدريك فيه السفهاء ، ولا تعيبه عليك العلماء .

وقال : إني لا أدع(٢) اللحم مخافة النسيان .

وعن صالح بن مسلم قال : سألت الشعبي عن مسألة ، فقال : قال فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه كذا ، وقال فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه كذا ، فقلت للشعبي : ما ترىٰ ؟ قال : ما تصنع برأي بعد قولهما ؟! إذا أخبرتك بِرَأْيي . . فَبُلْ عليه .

---

(١) كذا في « الحلية » ، وفي النسخ : (المستهلك) ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

(٢) كذا في النسخ ، وفي « الحلية » (٣١٨/٤) : (إني لأدع . . .) .

وقال : ما كتبت سوداء في بيضاء قط ، وما سمعت من رجل حديثاً فأردت أن يعيده عليَّ(١) .

وقال : إن الذي يفسر القرآن برأيه إنما يرويه عن ربه عز وجل .

وقال : أدركت خمس مئة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال الشعبي : ما بكيت من زمان . . إلا بكيت عليه . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٣١٠-٣٢٣] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ :

وقد نظم بعضهم في هـٰذا المعنىٰ :

عجباً للزمان في حالَتَيْهِ	ولأَمرٍ دُفعت منه إليهِ
رب يوم بكيتُ منه فلما	صرتُ في غيره بكيت عليهِ(٢)

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال رجل للشعبي : إن فلاناً عالم ، قال : ما رأيت عليه بهاء العلم ، قيل : وما بهاؤه ؟ قال : السكينة ، وإذا علَّم . . لا يعنِّف ، وإذا عُلِّمَ . . لا يأنف .

وقال : إنما كان يَطلُب هـٰذا العلمَ من اجتمع فيه خصلتان : العقل والنسك ، فإن كان عاقلاً ولم يك ناسكاً . . قيل : هـٰذا أمر لا يناله إلا النساك ، فلِمَ تطلبه ؟! وإن كان ناسكاً ولم يك عاقلاً . . قيل : هـٰذا أمر لا يناله إلا العقلاء ، فلِمَ تطلبه ؟! قال الشعبي : فقد صار اليوم يطلبه من ليس فيه واحدة منهما لا عقل ولا نسك .

وقال : لا تمنعوا العلم أهله فتأثموا ، ولا تحدثوا به غير أهله فتأثموا .

وقال الشعبي : أتي بي إلى الحجاج موثقاً ، فلما انتهيت إلىٰ باب القصر . . لقيني يزيد ابن أبي مسلم ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون يا شعبي ؛ لما بين جنبيك من العلم ، وليس بيوم شفاعة ، قال : فلما دخلت عليه وكفاني الله سبحانه وتعالىٰ أمره ، ثم سألني عن فريضة ، فقال : ما تقول في أخت وأم وجد ؟ قلت : اختلف فيها خمسة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عثمان ، وعلي ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وابن

---

(١) وتتمة القول : ولا حدثني رجل بحديث قط . . إلا حفظته .

(٢) وجد في هامش نسخة :

(بكيت زمان الوصل خوف التفرق	فها أنا فيما كنت أخشىٰ وأتقي
فلا في زمان الوصل ألفيت راحة	ولا راحةٌ في في زمان التفرق)

عباس رضي الله عنهم ، قال : فما قال فيها ابن عباس إن كان لمنقباً ؟ قلت : جعل الجد أباً وأعطى الأم الثلث ، ولم يعط الأخت شيئاً ، قال : فما قال فيها أمير المؤمنين عثمان ؟ قلت : جعلها أثلاثاً ، قال : فما قال فيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؟ قلت : جعلها من ستة ، فأعطى الأخت ثلاثاً ، وأعطى الجد سهماً ، وأعطى الأم سهمين ، قال : فما قال فيها زيد بن ثابت ؟ قلت : جعلها من تسعة ، أعطى الأم ثلاثاً ، وأعطى الجد أربعاً ، وأعطى الأخت سهمين ، قال : فما قال فيها ابن مسعود ؟ قلت : جعلها من ستة ، أعطى الأخت ثلاثاً ، وأعطى الأم سهماً ، وأعطى الجد سهمين ، قال : مر القاضي فليمضها علىٰ ما أمضاها عليه أمير المؤمنين عثمان .

قالوا : وكان الشعبي من أولع الناس بهـٰذا البيت :

ليست الأحلام في حين الرضا   إنما الأحلام في حين الغضب

أدرك الشعبي أكابر الصحابة وأعلامهم ، وروىٰ عنه جماعة من التابعين .

فمما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تبارك وتعالىٰ ليعمر بالقوم الديار ، ويثمر لهم الأموال ، وما نظر إليهم منذ خلقهم ؛ بغضاً لهم »(١) حديث غريب .

وعنه عن ابن عمر رضي الله عنهم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من صلى الضحىٰ ، وصام ثلاثة أيام من الشهر ، ولم يترك الوتر في حضر ولا سفر . . كتب له أجر شهيد »(٢) حديث غريب ، تفرد به أيوب . انتهىٰ [« الحلية » ٤/٣٢٣ـ٣٣٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : توفي بالكوفة ، فجأة ، سنة أربع أو خمس ومئة ، وهو ابن سبع وسبعين سنة ، وقيل : اثنتين وثمانين سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٣٧] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : حكي أن عمر بن هبيرة دعا فقهاء البصرة والكوفة والمدينة والشام ، فجعل يسألهم ، فكلم الشعبي ، فجعل لا يسأله عن شيء . . إلا وجد عنده فيه علماً ، ثم أقبل على الحسن البصري فسأله ، ثم قال : هُما هـٰذان ، فأقبل على الشعبي ، وقال : يا أبا عمرو ؛ إني أمين أمير المؤمنين على العراق ، وعامله عليها ، ورجل مأمور على الطاعة ، ابتليت بالرعية ، ولزمني حقهم ، فأنا أحب حفظهم ، وتعهد

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٨٥) .

(٢) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٢/ ٢٤١) ، وعزاه للطبراني في « الكبير » .

ما يصلحهم مع النصيحة لهم ، وقد يبلغني عن العصابة من أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه ، فأقبض طائفة من عطاياهم ، فأضعه في بيت المال ، ومن نيتي أن أرده عليهم ، فيبلغ أمير المؤمنين أني قبضته علىٰ ذلك النحو ، فيكتب إلي ألاَّ ترده ، فلا أستطيع رد أمره ، ولا إنفاذ كتابه ، وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة ، فهل علي في هـٰذا تبعة ، وفي أشباهه من الأمور ، والنية فيه علىٰ ما ذكرت ؟

قال الشعبي : فقلت : أصلح الله الأمير ، إنما السلطان والد يخطىء ويصيب ، قال : فسُرَّ بقولي وأعجب به ، ورأيت البشر في وجهه ، وقال : فللّٰه الحمد .

ثم أقبل على الحسن فقال : ما تقول يا أبا سعيد ؟ فقال : حق الرعية لازم لك ، وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة ؛ فإني سمعت عبد الرحمـٰن بن سمرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من استرعي رعية فلم يحطها بالنصيحة . . حرم الله عليه الجنة »[1] ، وتقول : إنما قبضتَ من عطاياهم إرادة صلاحهم واستصلاحهم ، وأن يرجعوا إلىٰ طاعته ، فيكتب إلي ألاَّ أرده ، فحق الله عز وجل ألزم من حق أمير المؤمنين ، والله أحق أن يُطاع ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل ، اعرض كتاب أمير المؤمنين علىٰ كتاب الله عز وجل ، فإن وجدتَه موافقاً لكتاب الله . . فخذ به ، وإن وجدتَه مخالفاً لكتاب الله . . فانبذه ، يابن هبيرة ؛ اتق الله ، فإنه يوشك أن يجيئك رسول من الله ، يزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك إلىٰ ضيق قبرك ، فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك ، وتقدم علىٰ ربك ، وتنزل علىٰ عملك ، يابن هبيرة ؛ اتق الله ، فإن الله يمنعك من يزيد ، ويزيد لا يمنعك من الله ، وإن أمر الله فوق كل أمر ، وإني أحذرك بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

فقال ابن هبيرة : اربع علىٰ ظلعك[2] أيها الشيخ ، وأعرض عن ذِكر أمير المؤمنين ؛ فإن أمير المؤمنين صاحب العلم ، وصاحب الحكم ، وصاحب الفضل ، وإنما ولاه الله أمر هـٰذه الأمة لعلمه به ، وما يعلم من نيته ، فقال الحسن : يابن هبيرة ؛ الحساب من ورائك سوط بسوط ، وغضب بغضب ، والله عز وجل بالمرصاد ، يابن هبيرة ؛ إنك إن تلقىٰ من ينصحك في دينك ويحملك علىٰ أمر آخرتك . . خير من أن تلقىٰ رجلاً يغرك ويمنِّيك ، فقام ابن هبيرة قد بَسَرَ[3] وجهَهُ ، وتغير لونه .

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٧٣١) ، ومسلم (١٤٢) .

(٢) هـٰذا مثلٌ يقال لمن يحمِّل نفسَه أكثر مما تطيق .

(٣) بَسَرَ : قطَّبَ .

قال الشعبي : قلت : يا أبا سعيد ؛ أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره ، وحرمتنا معروفه وصلته ، فقال : إليك عني يا عامر ، قال : فخرَجتْ إلى الحسن التُّحفُ والطُّرفُ وكانت له المنزلة ، واستُخِفَّ بنا وجُفينا ، فكان أهلاً لما أُدِّي إليه ، وكنا أهلاً أن يُفعل بنا ذلك .

قال الشعبي : فما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء ، وما شهدنا مشهداً . . إلا برز علينا ، وقال لله عز وجل ، وقلنا مقارَبة لهم ، وأنا أعاهد الله عز وجل ألاَّ أشهد سلطاناً بعد هـٰذا المجلس فأُحابِيَهُ . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/٢٤٦-٢٤٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق عمرو بن عبد الله السَّبيعي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال شريك : ولد أبو إسحاق في خلافة عثمان رضي الله عنه ، لثلاث سنين بقين منه .

وعن مغيرة قال : كنت إذا رأيت أبا إسحاق . . ذكرت الضرب الأول .

وعن جرير قال : كان يقال : من جالس أبا إسحاق . . فقد جالس علياً وعبد الله(١) رضي الله عنهم .

وروىٰ أبو إسحاق عن أربعة ـ أو ثلاثة ـ وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الأعمش : كنت إذا اجتمعت أنا وأبو إسحاق . . جئنا بحديث عبد الله طرياً(٢) .

وعن يحيى بن آدم : قال أبو بكر ابن عياش : دَفَنَّا أبا إسحاق أيام الخوارج سنة ست أو سبع وعشرين ومئة .

واجتمع الشعبي وأبو إسحاق ، فقال الشعبي : أنت خير مني يا أبا إسحاق ، فقال : لا والله ؛ ما أنا خير منك ، بل أنت خير مني وأسن .

وقال أبو بكر ابن عياش : سمعت أبا إسحاق يقول : ما أقلت(٣) عينيَّ غمضاً منذ أربعين سنة .

وعن العلاء بن سالم العبدي قال : ضعف أبو إسحاق قبل موته بسنتين ، فما كان يقدر أن يقوم حتىٰ يُقامَ ، فكان إذا استتم قائماً . . قرأ وهو قائم ألف آية .

وقال عون بن عبد الله لأبي إسحاق : ما بقي منك ؟ قال : أصلي فأقرأ البقرة في ركعة .

---

(١) أي : الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٢) طَرِيّاً : أي كأنه حديث السمع به .
(٣) أقلت : حَمَلَت ، والمعنىٰ : أنها لم تصب نوماً .

وفي رواية أخرىٰ : ذهبتِ الصلاةُ مني وضَعُفْتُ ، وإني لأصلي وأنا قائم ، فما أقرأ إلا البقرة وآل عمران .

وفي رواية : ضعفت عن الصوم ، فما أصوم إلا ثلاثة أيام من الشهر ، والإثنين والخميس والأشهر الحرم .

وقيل له : كيف أنت يا أبا إسحاق ؟ قال : مِثْلُ الذي أصابه الفالج ، ما تنفعني يد ولا رجل ، وهو ابن مئة سنة يومئذ تقريباً .

وقال الأعمش : كان أصحاب عبد الله إذا رأوا أبا إسحاق.. قالوا : هـٰذا عمرٌو القارىء ، هـٰذا عمرو الذي لا يلتفت .

وقال أبو إسحاق : إذا استيقظت بالليل.. لم أرجع أقل عيني .

وقال أبو إسحاق : كانوا يعدون الغنىٰ عوناً على الدين .

وعن سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق... فذَكر مثله .

وقال أبو بكر ابن عياش : دخل الضحاك بن قيس الكوفة يوم مات أبو إسحاق رحمه الله ، فرأى الجنازة وكثرة من فيها ، فقال : كان هـٰذا فيكم ربَّانيّاً .

أسند عن جماعة من الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم ، وتفرد بالرواية عن جماعة من الصحابة والتابعين ، لم يشاركه فيها أحد .

فمن أحاديثه : عن عمرو بن الحارث الخزاعي قال : قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً ، ولا أوصىٰ بشيء إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً تركها صدقةً صلى الله عليه وسلم[1] . انتهىٰ [« الحلية » ٤/٣٣٨-٣٤٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٥٨٨) .

ومنهم الإمام :

أبو عيسىٰ عبد الرحمـٰن بن أبي ليلىٰ
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : امتحن ابن أبي ليلىٰ بالحكم والقضاء .

وعن ثابت البناني ، عن ابن أبي ليلىٰ قال : طفت هـٰذه الأمصار ، فلم أر مصراً أبكر علىٰ ذكر الله عز وجل ولا أكثر تهجداً بالليل من أهل البصرة .

وكان ابن أبي ليلىٰ يصلي ، فإذا دخل الداخل. . نام علىٰ فراشه .

وكان له بيت تجتمع فيه القراء ، فيه مصاحف ، فقَلَّما تفرقوا إلا عن طعام .

ولما ولي القضاء. . ركب أول يوم للقضاء ، فاصطف له الناس ينظرون إليه ، فقال مجنون من مجانين أهل الكوفة : انظروا إلىٰ من جمع الله له سرور الدنيا بحزن الآخرة ، فقال ابن أبي ليلىٰ : لو قد سمعتها قبل أن ألي. . ما وليت لهم شيئاً .

وقال : أدركت مئة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال : ما علىٰ أحدكم إذا أصبح أن يقول للحافظين : اكتبا رحمكما الله ، فيُملي خيراً .

ولد في خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

وأسند عن علماء الصحابة وأعلامهم ، وروىٰ عنه جماعات من التابعين .

فمن أحاديثه : عن كعب بن عجرة قال : (جلسنا يوماً أمام بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد في رهط[1] منا معشرَ الأنصار ، ورهط من المهاجرين ، ورهط من بني هاشم ، فاختصمنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أيُّنا أولىٰ به وأحب إليه ؟ قلنا : نحن معاشر الأنصار ، آمنا به ، واتبعناه ، وقاتلنا معه ، وكتيبته في نحر عدوه ، فنحن أولىٰ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبهم إليه ، وقال إخواننا من المهاجرين : نحن الذين

---

(١) **الرَّهْط** : ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة .

هاجرنا إلى الله وإلىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفارقنا العشائر والأهلين والأموال ، قد حضرنا ما حضرتم ، وشهدنا ما شهدتم ، فنحن أولىٰ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبهم إليه ، وقال إخواننا من بني هاشم : نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد حضرنا الذي حضرتم ، وشهدنا الذي شهدتم ، فنحن أولىٰ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبهم إليه ، فخرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل علينا ، وقال : « إنكم لتقولون شيئاً » ، فقلنا له مثل مقالتنا ، فقال للأنصار : « صدقتم ، مَن يَرُدُّ هـٰذا عليكم ؟! » وأخبرناه بما قال إخواننا من المهاجرين ، فقال : « صدقوا وبروا ، من يرد هـٰذا عليهم ؟! » وأخبرناه بما قال بنو هاشم ، فقال : « صدقوا وبروا ، من يرد هـٰذا عليهم ؟! » ثم قال : « ألا أقضي بينكم ؟ » قلنا : بلىٰ بأبينا أنت وأمنا يا رسول الله ، فقال : « أما أنتم معشر الأنصار . . فإنما أنا أخوكم » فقالوا : الله أكبر ، ذهبنا به ورب الكعبة ، « وأما أنتم معشر المهاجرين . . فإنما أنا منكم » ، فقالوا : الله أكبر ، ذهبنا به ورب الكعبة ، « وأما أنتم بنو هاشم . . فأنتم مني وإليَّ » فقمنا وكلنا راض مغتبط برسول الله صلى الله عليه وسلم[1]) غريب من حديث ابن أبي ليلىٰ عن كعب ، لم نكتبه إلا من هـٰذا الوجه . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٣٥٠ـ٣٥٨] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قال شيخنا شيخ الإسلام برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمـٰن الفزاري قدس الله روحه ونور ضريحه ـ ومن خطه نقلت ـ : قال الخطابي ـ رحمه الله ـ في كتاب « معالم السنن » في (باب بيع وشرط) :

حدثني محمد بن هاشم بن هشام ، حدثنا عبد الله بن فيروز الديلمي ، حدثنا محمد بن سليمان الذهلي ، حدثنا عبد الوارث بن سعيد قال : قدمت مكة ، فوجدت بها ابن أبي ليلىٰ وأبا حنيفة وابن شبرمة ، فسألت أبا حنيفة عن رجل باع بيعاً وشرط شرطاً ، فقال : البيع باطل ، والشرط باطل ، ثم أتيت ابن أبي ليلىٰ ، فسألته ، فقال : البيع جائز ، والشرط باطل ، ثم أتيت ابن شبرمة ، فسألته ، فقال : البيع جائز ، والشرط جائز ، فقلت : يا سبحان الله! ثلاثة من فقهاء العراق اختلفوا عليَّ في مسألة واحدة .

فأتيت أبا حنيفة ، فأخبرته ، فقال : ما أدري ما قالا ، حدثني عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : (أن النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ عن بيع وشرط) البيع باطل والشرط باطل .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٩/ ١٣٣) .

فأتيت ابن أبي ليلىٰ ، فأخبرته ، فقال : ما أدري ما قالا ، حدثني هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنهم قالت : (أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أشتري بريرة ، فأُعتِقَها)[1] وقال : يعني : اشترطي الولاء لأهلها ، البيع جائز ، والشرط باطل .

ثم أتيت ابن شبرمة ، فأخبرته ما قالا ، فقال : لا أدري ما قالا ، حدثني مسعر بن كدام ، عن محارب بن دثار ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم قال : (بعت النبي صلى الله عليه وسلم ناقة أو جملاً ، وشرط لي حُملانه إلى المدينة) ، البيع جائز ، والشرط جائز[2] . انتهىٰ .

وقال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ :

اسم أبي ليلىٰ : يسار ، وهو صحابي ، شهد أحداً وما بعدها من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم انتقل إلى الكوفة ، فسكنها ، وحضر مع علي بن أبي طالب مشاهده كلها ، وقتل معه بصفين .

وأما ابنه عبد الرحمـٰن صاحب الترجمة . . فتابعي كبير جليل ، ولد لست سنين بقيت من خلافة عمر رضي الله عنه .

وروىٰ عن عمر[3] ، وعثمان ، وعلي ، وسعد ، وأُبي بن كعب ، وابن مسعود ، رضي الله عنهم ، وخلائق من الصحابة .

وروىٰ عنه ابنه عيسىٰ ، ومجاهد ، وثابت ، والحكم ، والشعبي ، وابن سيرين ، وعمرو بن ميمون ، وعمرو بن مرة ، وآخرون من التابعين .

واتفقوا علىٰ توثيقه وجلالته .

قال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ وغيره : لم يدرك ابن أبي ليلىٰ بلالاً ؛ لأن بلالاً توفي سنة عشرين بالشام ، وولد ابن أبي ليلىٰ قبل ذلك بنحو سنة بالكوفة .

وقال عطاء بن السائب : قال ابن أبي ليلىٰ : أدركت عشرين ومئة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم من الأنصار .

---

(١) أخرج حديث بريرة بنحوه البخاري (١٤٢٢) .

(٢) أخرج حديث سيدنا جابر رضي الله عنه ، بنحوه البخاري (٢٥٦٩) والطبراني في الأوسط (٤٣٥٨) .

(٣) في « تقريب التهذيب » : (اختلف في سماعه من سيدنا عمر) .

وقال عبد الملك بن عمير : رأيت عبد الرحمـٰن ابن أبي ليلىٰ في حلقة فيها نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمعون لحديثه ، وينصتون له ، منهم البراء بن عازب .

وقال عبد الله بن الحارث : ما شعرت أن النساء ولدن مثل ابن أبي ليلىٰ .

توفي سنة ثلاث وثمانين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٣٠٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو صالح الحنفي ماهانُ

رضي الله عنه

وقيل : إن اسمه عبد الرحمـٰن بن قيس أخو طليق[1] .

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال ماهان الحنفي : أما يستحيي أحدكم أن تكون دابته وثوبه الذي يلبس أكثر ذكراً لله عز وجل منه[2] .

وكان لا يفتر من التكبير والتسبيح والتهليل .

وقال إبراهيم مؤذن بني حنيفة : رأيت أبا صالح ماهان لما صلبه الحجاج علىٰ بابه ، فلما رفع علىٰ خشبة . . رأيته يسبح ويهلل ويكبر ويعقد بيده حتىٰ بلغ تسعاً وعشرين ، قال : فطعنه الرجل علىٰ تلك الحال ، فلقد رأيته بعد شهر معقوداً بيده تسعاً وعشرين ، وكنا نرىٰ عنده الضوء بالليل شبه السراج .

وعن أبي إسحاق الشيباني قال : دنوت من ماهانَ أبي صالح لما أراد ابن أبي مسلم أن يقطعه ويصلبه ، فقال : تنح يابن أخي ، لا تُسأل عن هـٰذا المقام .

وقال : ما أبالي ما قالت ابنتي ، أعافىٰ فأشكر ، أو أبتلىٰ فأصبر .

وقال : الحق ثقيل ، وابن آدم ضعيف ، والذِّكر ساعة بعد ساعة .

وسئل ماهان : ما كانت أعمال القوم ؟ فقال : كانت أعمالهم قليلة ، وكانت قلوبهم سليمة .

---

(١) وفرق ابن سعد في « الطبقات » (٦/٣٣٧) بين اثنين كنية كل منهما أبو صالح الحنفي ، فسمىٰ واحداً أبا صالح الحنفي عبد الرحمـٰن بن قيس أخا طليق بن قيس ، والآخر أبا صالح الحنفي واسمه ماهان .
وكذلك فعل الحافظ المزي في « تهذيب الكمال » .

(٢) لعله أشار بذلك إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ . ومنه سماع تسبيح الحصىٰ في يد المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، وتأويب الجبال مع سيدنا داود عليه السلام ، وتأمين اسكتة الباب ، وغير ذلك كثير .

أسند ماهان عن علي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وحذيفة ، رضي الله عنهم .

فمما رواه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبي بكر يوم بدر : « علىٰ يمين أحدكم جبريل ، والآخر ميكائيل ، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ويكون في الصف »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٣٦٤-٣٦٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٧٢) .

ومنهم الإمام :

رِبْعيُّ بن حِراش
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن ربعي بن حراش قال : كنا أربعة إخوة ، وكان الربيع أكثرنا صلاة وصياماً في الهواجر ، فتوفي ، فبينا نحن حوله وقد بعثنا من يشتري كفناً . . إذ كشف الثوب عن وجهه فقال : السلام عليكم ، فقال القوم : وعليكم السلام ، أَعَيشٌ بعد الموت الآن ، فقال : نعم ، إني لقيت ربي عز وجل ، فلقيت رباً غير غضبان ، استقبلني بروح وريحان ، وإستبرق مختلفٍ ألوان ، وإن أبا القاسم محمداً صلى الله عليه وسلم ينتظر الصلاة عليَّ ، فعجلوا بي ولا تؤخروني ، ثم كان بمنزلة حصاة رُمي بها في طست ، فوصل الحديث إلىٰ عائشة رضوان الله عليها ، فقالت : أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يتكلم رجل من أمتي بعد الموت » .

وفي رواية أخرىٰ : وإنه كساني ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ، وإن الأمر أيسر مما في أنفسكم فلا تغتروا[(١)] .

وكان ربعي بن حراش لم يكذب قط ، فسعىٰ به ساع إلى الحجاج ، وقالوا : هٰهنا رجل من أشجع ، زعم قومه أنه لم يكذب قط ، وإنه سيكذب لك اليوم ؛ لأنك ضربت على ابنيه البعْثَ[(٢)] فعصيا ، وهما في البيت ، فبعث إليه ، فلما حضره . . قال له : ما فعل ابناك ؟ قال : هما هٰذان في البيت ، قال : فحمله وكساه وأوصىٰ به خيراً لصدقه .

أسند ربعي عن عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وحذيفة ، وغيرهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

---

(١) وقد روىٰ هٰذه القصة ابن عبد البر في « الاستيعاب » (١/ ٥٤١ـ ٥٤٣) في ترجمة زيد بن خارجة الصحابي ، والذي تكلم أيضاً بعد الموت ، وللحافظ ابن أبي الدنيا رسالة سماها : « من عاش بعد الموت » ، ذكر فيها كثيراً ممن تكلم بعد موته .

(٢) **البَعْثُ** : بعث الجند إلى الغزو ؛ أي : أنه ألزمهما الجندية .

فمما رواه عن حذيفة : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيأتي عليكم زمان لا يكون فيه شيء أعز من ثلاثة : من أخ يستأنس به ، أو درهم حلال ، أو سنة يُعمل بها »[1] غريب من حديث الثوري ، تفرد به روح بن صلاح عنه . انتهىٰ [« الحلية » ٤/٣٦٧-٣٧٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : آلىٰ ربعي بن حراش ألاَّ يضحك حتىٰ يعلم أيصير إلى الجنة أم إلى النار ، قال : فلقد أخبر غاسله أنه لم يزل متبسماً علىٰ سريره ونحن نغسله حتىٰ فرغنا منه .

توفي سنة أربع ومئة ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١/ ٣٥) .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله محمد بن سوقة
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال يعلى بن عبيد : دخلنا علىٰ محمد بن سوقة ، فقال لنا : قال لي عطاء : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وهو ما عدا آية من كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو أمراً بمعروف ، أو نهياً عن منكر ، وأن ينطق بحاجته التي لا بد منها : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته في آخر نهاره وقد أملىٰ فيها ما ليس له فيه حاجة من حاجات الدنيا والآخرة .

وقال محمد بن سوقة : أمران لو لم نعذب إلا بهما . . لكنا مستحقين بهما العذاب : يزداد أحدنا في دنياه فيفرح فرحاً يعلم الله عز وجل أنه لم يفرح بمثله لزيادة في دينه ، وينقص من دنياه فيحزن حزناً يعلم الله عز وجل أنه لم يحزن بمثله علىٰ نقص دينه .

وكان محمد بن سوقة وضرار بن مرة إذا كان يوم الجمعة . . اجتمعا يبكيان .

وعن جعفرٍ الأحمرِ قال : كان أصحابنا البكاؤون أربعة : مطرف بن طريف ، ومحمد بن سوقة ، وعبد الملك بن أبجر ، وضرار بن مرة .

وقال طلحة : لا أعلم بالكوفة رجلين يريدان الله عز وجل إلا : محمد بن سوقة ، وعبد الجبار بن وائل .

وقال سفيان : ما أرىٰ كان يُدفع عن أهل هـٰذه المدينة . . إلا بمحمد بن سوقة ، ورث عن أبيه مئة ألف ، فتصدق بها كلها .

واشترىٰ محمد بن سوقة من غزوان خزّاً[1] بوزن معلوم ، فدفعه إليه بالوزن الذي اشتراه به ، فوزنه ، فوجده يزيد ثلاث مئة دينار ، فقال محمد بن سوقة لغزوان : اشتريت منك كذا

---

(١) الخَز : نوع من الثياب .

وكذا مَنّاً[1] ، فوجدته كذا وكذا مَنّاً ، فقال له غزوان : لا أدري ما تقول ، اشتريتَ كذا وكذا مَنّاً ، فدفعت إليك بالوزن الذي اشتريت فمكثا يترادّان الكلام ، محمد بن سوقة يريد أن يرد الفضل علىٰ غزوان ، وغزوان يأبىٰ أن يقبله ، فقال له غزوان : يا هـٰذا ؛ إن يكن لي . . فهو لك ، وإن يكن لك . . فهو لك .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : ما رأيت بالكوفة شيخاً أفضل من محمد بن سوقة ، كان له مال ، فلم يزل يحج ويغزو .

وقال أبو حنيفة رحمه الله وهو في جنازة محمد بن سوقة : لقد دخل مكة ثمانين مرة ما بين حجة وعمرة .

وعن سفيان ، عن ابن سوقة أنه كان يحج وعليه دَين ، فيقول : أتحج وعليك دَين ؟ فيقول : الحج أقضىٰ للدين .

وطلب رجل من ابن سوقة شيئاً ، فبكىٰ ، فقال له الرجل : والله يا عم ؛ لو علمت أن مسألتي تبلغ منك هـٰذا . . ما سألتك ، قال : ما بكيت لسؤالك ، إنما بكيت لأني لم أبتدئك قبل سؤالك .

وكان ابن سوقة يعجن في جفنة ودموعه تسيل ، وهو يقول : لما قَلَّ مالي . . جفاني أحبابي .

وقال سفيان بن عيينة : عن ابن سوقة : دخلت مع عمر[2] قصراً بالكوفة ، فقلت له : رأيتُنا في زمان الحجَّاج وقد جيء بنا ونحن في هـٰذا المكان محبوسين مرعوبين ، نَفْرَق فرقاً شديداً ، فمررتَ كأنك لم تدعه إلىٰ ضر مسَّك ، ارجع إلىٰ ذلك المكان ، فادعه واحمده واشكره علىٰ ما أعطاك .

وقال محمد بن سوقة : ما استفاد رجل أخاً في الله عز وجل . . إلا رفعه الله بذلك درجة .

أدرك محمد بن سوقة من الصحابة رضي الله عنهم أنسَ بن مالك ، وأبا الطفيل عامر بن واثلة ، وسمع منهما .

---

(١) المَنُّ : كيل ، وهو رطلان .

(٢) في هامش نسخة : (عمر بن عبد العزيز) .

وأكثرُ روايته عن عِلْيَةِ التابعين رضي الله عنهم أجمعين .

فمن أحاديثه : عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عبد الله قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم جلوساً ، فجاء سائل ، فسأل ، فناوله رجل درهماً ، فأخذه رجل ، فناوله إياه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من فعل مثل هٰذا . . كان له مثل أجر المعطي ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً » هٰذا حديث غريب .

وعنه عن الحارث ، عن علي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من اشتاق إلى الجنة . . سارع في الخيرات ، ومن أشفق من النار . . لَهِيَ عن الشهوات ، ومن ترقب الموت . . هانت عليه اللذات ، ومن زهد في الدنيا . . هانت عليه المصائب »[1] حديث غريب .

وعنه عن نافع ، عن ابن عمر قال : (إن كنا لَـنَعُدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد يقول : « رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم »[2] مئة مرة) .

وعنه عن نافع ، عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأىٰ مبتلىً فقال : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه به ، وفضلني عليه وعلىٰ كثير ممن خلق تفضيلاً ، عافاه الله عز وجل من ذلك البلاء كائناً ما كان »[3] انتهىٰ [« الحلية » ٥/٣-١٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الديلمي (٣/ ٦٠٢) .

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٤٣٤) .

(٣) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٤٠١) ، والطبراني في « الأوسط » (٥/ ٢٨٣) .

ومنهم الإمام :

أبو محمد طلحة بن مصرِّف
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : أرسل طلحة بن مصرف رحمه الله إلىٰ جارٍ له يستأذنه في أن يَتِدَ في جداره وتداً ، فأرسل إليه الجار : نعم ، وافتح فيه كوة .

ودخلت جارية منزل طلحة تقتبس ناراً وطلحة يصلي ، فقالت لها امرأته : مكانك يا فلانة حتىٰ نشوي لأبي محمد هٰذا القديد[1] علىٰ قصبتك يفطر عليه ، قال : فلما قضى الصلاة. . قال : ما صنعت ؟ لا أذوقها حتىٰ ترسلي إلىٰ سيدتها فتستأذنيها حبْسَكِ إياها وشواءك علىٰ قصبتها .

وقال طلحة بن مصرف : **لولا أني علىٰ وضوء . . لأخبرتك بما تقول الرافضة** .

وقيل له : لو ابتعت طعاماً[2] فربحت فيه ، قال : إني أكره أن يعلم الله عز وجل من قلبي إرادة غلاء على المسلمين .

وقال : يستحب من الدعاء أن يقول العبد : اللهم ؛ اجعل صمتي تفكُّراً ، واجعل نظري عِبَراً ، واجعل منطقي ذِكراً .

وقال الفضيل بن عياض : بلغني عن طلحة أنه ضحك يوماً ، فوثب علىٰ نفسه ، وقال : فيم الضحك ؟ إنما يضحك من قطع الأهوال ، وجاز الصراط ، ثم قال : آليت ألاَّ أَفْتَرَّ ضاحكاً حتىٰ أعلم بمَ تقع الواقعة ، فما رئي ضاحكاً حتىٰ صار إلى الله عز وجل .

وكان يقول في دعائه : اللهم ؛ اغفر لي ريائي وسمعتي .

وعن الفضيل قال : دخلنا علىٰ طلحة بن مصرف نعوده ، فقال له أبو كعب : شفاك الله ، قال : أستخير الله .

---

(١) **القديد من اللحم** : ما قطع طولاً وملِّح وجُفِّف في الهواء والشمس .

(٢) في هامش نسخة : (الطعام : هو القمح في عرف أهل العراق) .

وسمع طلحة رجلاً يعتذر إلىٰ رجل ، فقال : لا تكثر الاعتذار إلىٰ أخيك ؛ أخاف أن يبلغ بك الكذبَ .

وعن ليث قال : كنت أمشي مع طلحة ، فقال : لو علمت أنك أسن مني في ليلة . . ما تقدمتك .

وقال أبو خالد : أُخبِرتُ أن طلحة اشتُهِر بالقراءة ، فقرأ على الأعمش ؛ ليزول ذلك عنه .

وقال الأعمش : كان طلحة يجيء ، فيجلس على الباب ، فتخرج الجارية وتدخل لا يقول لها شيئاً ، حتىٰ أخرج ، فيجلس ، فيقرأ ، فما ظنكم برجل لا يخطىء ولا يلحن ، فإن استندت إلى الحائط . . قال : السلام عليكم ، ثم يذهب .

قالوا : وسبب قراءته عليه ما ذكرناه من الشهرة ، فأحب زوالها عنه .

وعن ليث قال : حدثت طلحة في مرضه الذي مات فيه : أن طاووساً كان يكره الأنين ، قال : فما سُمع طلحة يئن حتىٰ مات ، رحمه الله .

وكان طلحة إذا ذكر عنده الاختلاف . . قال : لا تقولوا الاختلاف ، ولٰكن قولوا السَّعة .

وعن أبي حصين وطلحة ، قال أحدهما : لقد أدركت أقواماً لو رأيتَهم . . احترقت كبدك ، وقال الآخر : لقد أدركت أقواماً ما كنا في جنبهم إلا لصوصاً .

وقال طلحة : إذا أكلنا بالدَّين . . ائتدمنا بالخل ، وإذا لم نأكل بالدَّين . . أكلنا بالإدام .

وقال عبد الملك بن أبجر ، عن أبيه قال : ما رأيت طلحة بن مصرف في ملأ . . إلا رأيت له الفضلَ عليهم .

أدرك طلحة جماعة من الصحابة ، وسمع من بعضهم ومن كبار التابعين ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ١٤ـ٢٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : خرج طلحة مع قراء الكوفة إلى الجماجم أيام الحجاج ، وتوفي بعد ذلك سنة اثنتي عشرة ومئة ، رحمه الله . [انتهىٰ « الصفوة » ٣/ ٤٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الرحمـٰن زُبَيْدٌ اليامي

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال إسماعيل بن حماد : كنت إذا رأيت زبيداً مقبلاً من السوق . . رجف قلبي .

وقال شعبة : ما رأيت رجلاً خيراً وأفضل من زبيد .

وعن سفيان قال : كان لزُبَيد جارية أعجمية ، فكان إذا فرغ من صلاته . . يقول : سبحان الملك القدوس ، فتقول الجارية : رُوزْ آمَد(١) ؛ يعني : جاء النهار .

وعن سفيان قال : دخلنا علىٰ زبيد وهو مريض ، فقلنا له : استشف الله أو شفاك الله تعالىٰ ، فقال : أستخير الله .

وقال سفيان : رأىٰ زبيد في بيته بعراً ، فقال : ما يسرني أن لي عدد كل بعرة ديناراً .

وكان يؤذن في مسجده ، ويقول للصبيان : تعالوا صلوا حتىٰ أهب لكم الجوز ، فيجيئون ، فيصلون ، ثم يحيطون حوله ، فقلنا : ما تصنع ؟ فقال : وما عليَّ أن أشتري لهم جوزاً بخمسة دراهم ويتعودون الصلاة ؟!

وكانت له شاة داجن(٢) في البيت ، وعنده بعر كثير ، فيقول : ما أحب أن لي بكل بعرة منها درهماً .

وإذا كانت الليلة المطيرة . . أخذ شعلة نار ، ويطوف علىٰ عجائز الحي ، ويقول لهم : أوكف(٣) عليكم ؟ أتريدون ناراً ؟ فإذا أصبح . . طاف عليهم ، ويقول : ألكم في السوق حاجة ؟ أتريدون شيئاً ؟

---

(١) كلمة فارسية .

(٢) **الداجن** : الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم .

(٣) وَكَفَ الماء وغيره : سال وقطَرَ ، ووكف البيت بالمطر : تقاطر سقفه .

وعن وكيع قال : حدثني أبي قال : كنت جالساً مع زبيد ، فأتاه رجل ضرير يريد أن يسأله ، فقال له زبيد : إن كنت تريد أن تسألني عن شيء . . فإن معي غيري .

وعن الأشعث بن عبد الرحمـٰن بن زبيد ، عن أبيه قال : كان زبيد قد قسم علينا الليل أثلاثاً ، ثلثاً عليه ، وثلثاً علىٰ أخي ، وثلثاً عليَّ ، فكان زبيد يبدأ ، فيقوم ثلثه ، ثم يضربني برجله ، فإذا رأىٰ مني كسلاً . . قال : نَمْ يا بني ، فأنا أقوم عنك ، قال : ثم يجيء إلىٰ أخي ، فيضربه برجله ، فإن رأىٰ منه كسلاً . . قال : نَمْ يا بني ، فأنا أقوم عنك ، قال : فيقوم حتىٰ يصبح .

وعن يحيى بن كثير الضريرِ قال : رأيت زبيداً في النوم ، فقلت له : إلىٰ ماذا صرت يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، قلت : فأي العمل وجدت أفضل ؟ قال : الصلاة ، وحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

أدرك من الصحابة ابن عمر ، وأنس بن مالك ، رضي الله عنهم ، وسمع أبا وائل ، والشعبي ، ومرة الهمداني .

وروىٰ عنه من التابعين جماعة ، رضي الله عنهم أجمعين .

فمن روايته : عن أنس بن مالك قال : (من قال سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . . غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ، قال : فقال معاذ : ألا أدلك علىٰ ما هو أهون من ذلك ؟ ما من عبد يقول : أستغفر الله العظيم الذي لا إلـٰه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، ثلاث مرات . . إلا غفرت ذنوبه وإن كان فر من الزحف[(١)]) حديث غريب .

وعنه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزالون مدفوعاً عنهم البلاء بلا إلـٰه إلا الله ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم ، فإذا فعلوا ذلك . . ردها الله عليهم وقال : لستم من أهلها » .

وعن زبيد ، عن مرَّة ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَسِرُّوا ما شئتم ، فوالله ؛ ما أسرَّ عبد ولا أمة سريرة . . إلا ألبسه الله عز وجل رداءها ، خيراً فخيراً ، أو شراً فشراً ، حتىٰ لو أن أحدكم عمل خيراً من وراء سبعين حجاباً . . لأظهر الله ذلك الخير

---

(١) أخرج الشطر الأخير منه مرفوعاً بنحوه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الحاكم (١/ ٦٩٢) .

حتىٰ يكون ثناؤه في الناس خيراً ، ولو أن أحدكم أسر شراً من وراء سبعين حجاباً . . لأظهر الله ذلك الشر حتىٰ يكون ثناؤه في الناس شراً »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٥/٢٩-٣٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : توفي زبيد سنة اثنتين وعشرين ومئة ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٤٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٢/ ١٧١) .

ومنهم الإمام :

أبو غياث منصور بن المعتمر
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الثوري رحمه الله قال : لو رأيتَ منصوراً يصلي . . لقلتَ : يموت الساعة .

وعن أبي بكر ابن عياش قال : لو رأيت منصور بن المعتمر وعاصماً[1] والربيع ابن أبي راشد في الصلاة وقد وضعوا لحاهم علىٰ صدورهم . . عرفت أنهم من أبرار الصلاة .

وقالت ابنة لجار المنصور بن المعتمر : يا أبت ؛ أين الخشبة التي كانت في سطح منصور ؟ قال : يا بنية ؛ ذاك منصور كان يقوم الليل .

وفي رواية أخرىٰ : كان منصور يصلي في سطحه ، فلما مات . . قال غلام لأمه : يا أماه ؛ الجذع الذي كان في سطح منصور ما أراه ؟ قالت : يا بني ؛ ليس ذاك بجذع ، ذاك منصور قد مات رحمه الله .

وعن ابن عيينة قال : رأيت منصور بن المعتمر في المنام ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : كدت أن ألقى الله عز وجل بعمل نبي .

قال سفيان : إن منصوراً صام ستين سنة ، يقوم ليلها ويصوم نهارها .

وكان يبكي ، فتقول له أمه : يا بني ؛ قتلت قتيلاً ؟ فيقول : أنا أعلم بما صنعت بنفسي ، فإذا كان الصبح . . كحل عينيه ، ودهن رأسه ، وبرق ثناياه ، وخرج إلى الناس .

وكان قد عمش من البكاء ، وكانت أمه تقول له : إن لعينك عليك حقاً ، ولجسمك عليك حقاً ، فكان يقول لها : دعي عنك منصوراً ؛ فإن بين النفختين نوماً طويلاً .

وقال أبو عوانة : لما أُجلس منصور بن المعتمر على القضاء قهراً . . كان يأتيه الرجل ، فيقص عليه ، فيقول : قد فهمت ما قلت ، ولا أدري ما الجواب فيه . وكان يفعل ذلك ،

---

(١) أي : عاصم بن أبي النجود .

فذُكر ذلك لابن هبيرة ـ وكان هو الذي ولاه ـ فقال : هٰذا أمر لا يصلح إلا أن يعين عليه صاحبه بشهوة ، فتركه ، وكان قد حبسه شهراً قبل ذلك يريده على القضاء ويأبىٰ عليه .

وعن أبي بكر ابن عياش قال : ربما كنت مع منصور في منزله جالساً ، فتصيح به أمه ـ وكانت غليظة عليه ـ تقول : يا منصور ؛ يريدك ابن هبيرة على القضاء فتأبىٰ عليه ؟! وهو واضع لحيته علىٰ صدره ما يرفع طرفه إليها .

وعن سفيان ، عن منصور قال : كان يقال : للأم ثلاثة أرباع البر .

وقال حسن بن صالح : كان منصور في الديوان ، فقال له إنسان : ناولني الطين أختم به ، قال : أرني كتابك حتىٰ أنظر أي شيء فيه .

وروىٰ عن أنس بن مالك ، ورأى ابن أبي أوفىٰ ، وحدث عن جماعة من التابعين ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ٤٠ـ٤٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال زائدة بن قدامة : أخذ يوسف بن عمر عامل الكوفة منصوراً يريده على القضاء ، فامتنع ، فدخلت عليه وقد جيء بالقيد ليُقَيَّد ، قال : فجاءه خصمان ، فقعدا بين يديه ، فلم يسألهما ولم يكلمهما ، فقيل ليوسف : إنك لو نثرت لحمه . . لم يل لك قضاء ، فخلىٰ عنه .

وقال زائدة بن قدامة : كنت إذا رأيته . . قلت : رجل قد أصيب بمصيبة ، منكسر الطرْف ، منخفض الصوت ، رطب العينين ، إن حركته . . جادت عيناه بالدموع .

وكان إذا صلى الصبح . . أظهر النشاط لأصحابه فيحدثهم ، ولعله إنما بات قائماً علىٰ أطرافه ، يفعل كل ذلك ليُخفِي عليهم العمل .

وسألوا أمه عن عمله ، فقالت : كان ثلث الليل يقرأ ، وثلثه يصلي ويبكي ، وثلثه يدعو .

توفي سنة اثنتين وثلاثين ومئة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٥٤ـ٥٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

سليمان بن مِهْران الأعمش

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الأعمش قال : قرأت القرآن علىٰ يحيى بن وَثَّاب ، وقرأ يحيىٰ علىٰ علقمة أو مسروق ، وقرأ هو علىٰ عبد الله بن مسعود ، وقرأ ابن مسعود علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عيسى بن يونس قال : ما رأينا في زماننا مثل الأعمش ، ولا الطبقة الذين كانوا قبلنا ، ما رأينا الأغنياء والسلاطين في مجلس قط أحقر منهم في مجلس الأعمش ، وهو محتاج إلىٰ درهم ، رحمه الله .

وكان القاسم بن عبد الرحمـٰن يقول : ليس أحد أعلمَ بحديث عبد الله من الأعمش .

وقال شريك : ما كان العلم إلا في العرب وأشراف الناس ، فقال له رجل من جلسائه : وأي نُبل كان للأعمش ؟ فقال شريك : أمَا لو رأيت الأعمش ومعه لحم يحمله ، وسفيان الثوري عن يمينه ، وشريك عن يساره ، وكلاهما ينازعه حمل اللحم . . لعلمت أن ثَمَّ نُبلاً كثيراً .

وقال الأعمش : نقض العهد وفاء بالعهد لمن ليس له عهد .

وبعث عيسى بن موسىٰ إلى الأعمش ألف درهم ، وصحيفة ليكتب له فيها حديثاً ، فأخذ الأعمش الدراهم ، وكتب في الصحيفة : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلىٰ آخرها ، وطوى الصحيفة ، وبعث بها إليه ، فلما نظر . . قال : ظن أني لا أحسن كتاب الله عز وجل ؟ فبعث إليه الأعمش ، أظننت أني أبيع الحديث ؟! ولم يكتب له ، وحبس المال لنفسه .

وقام الأعمش من النوم لحاجة ، فلم يصب ماء ، فوضع يده على الجدار فتيمم ، ثم قام ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني أخاف أن أموت علىٰ غير وضوء .

وقال عبد الرزاق : وربما فعله مَعْمَر .

وقال وكيع : كان الأعمش قريباً من سبعين سنة ، لم تفته التكبيرة الأولىٰ ، واختلفت إليه قريباً من ستين سنة ، فما رأيته يقضي ركعة .

وكان يحافظ على الصلاة في جماعة ، وعلى الصف الأول .

وقال الأعمش : إن كنا لنشهد الجنازة فما ندري من نعزي من حزن القوم .

وسئل عن قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ فقال : سمعتهم يقولون : إذا فسد الناس . . أُمِّرَ عليهم شرارهم .

وقال أبو بكر ابن عياش : دخلت على الأعمش في مرض موته ، فقلت : أدعو لك الطبيب ؟ فقال : ما أصنع به ؟! فوالله ؛ لو كانت نفسي في يدي . . لطرحتها في الحش[1] ، إذا أنا مت . . فلا تؤْذن بي أحداً ، واذهب بي واطرحني في لحدي .

وكان يلبس القميص مقلوباً ، ويقول : الناس مجانين يجعلون الخشن يلاقي جلودهم .

وكان إذا حَدَّث . . يتخشع ويعظم العلم .

وكان ربما يحدثنا بالحديث ، ثم يقول : بقي رأس المال ؛ يعني : الإسناد .

واكترى الأعمش إلى الحج من أعرابي ، وخرج معه قوم يرجون أن يسمعوا منه ، قال : فلما أحرم ـ وكان الجمَّال يؤذيهم ـ اجتمعوا يوماً في خيمة ، فجاء إليهم وهم مجتمعون ، فآذاهم ، فقام الأعمش ، فشد إزاره ، وقام إليه بعمود الخيمة ، فضربه وشجه ، فقالوا : يا أبا محمد ؛ تقوم إليه فتشجه وأنت محرم ؟! فقال : إن من سنة الإحرام ضرب الجمَّال . انتهىٰ [« الحلية » ٥/٤٦ـ٥٣] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : يحتمل أن يكون الأعمش رحمه الله تعالىٰ أخذ بما روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان محرماً مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وأضل غلامه بعيراً له ، فقام إليه ، فضربه ، ويقول له : بعير واحد وأضللته ؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يضحك ، ويقول : « انظروا إلىٰ هـٰذا المحرم »[2] انتهىٰ .

وقال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قيل لقيس ابن أبي حفص الأبار : رأيت الأعمش ؟

---

(١) **الحشُّ** : مكان قضاء الحاجة .

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (١/٦٢٣) ، وابن خزيمة (٤/١٩٨) .

قال : نعم ، وسمعته يقول : إن الله يرفع بالعلم أو بالقرآن أقواماً ويضع به آخرين ، وأنا ممن رفعني الله تعالىٰ به ، ولولا ذلك. . لكان علىٰ عنقي صحن أطوف به في سكك الكوفة .

أدرك عدة من الصحابة ، رضوان الله عليهم .

وتوفي أنس بن مالك وللأعمش ثلاث وثلاثون سنة ، سمعه يقرأ [ولم يحمل عنه شيئاً مرفوعاً] .

وأرسل عن ابن أبي أوفىٰ .

ومولده عام قتل الحسين رضي الله عنه ، سنة ستين ، ووفاته سنة ثمان وأربعين ومئة .

وروىٰ عن الأعمش جماعة من التابعين ، رضي الله عنهم أجمعين .

قال الحافظ ـ رحمه الله : وكان الأعمش إذا قام من الليل. . يقرأ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ ، ثم يقول : وأنا أشهد بما شهد الله به وشهدت به ملائكته وأولو العلم من عباده ، وأستودع الله عز وجل هـٰذه الشهادة عنده إلىٰ وقت خروج روحي ، ودخول قبري ، ولقاء ربي سبحانه وتعالىٰ .

ثم قال : عن شقيق بن سلمة ، عن عبد الله بن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتىٰ بقائلها يوم القيامة ، فيقول الله عز وجل : إن عبدي له عندي عهد عهده إليَّ في الدنيا ، وأنا أحق من وفىٰ بعهده ، أدخلوه الجنة »[1] غريب من حديث الأعمش . انتهىٰ [« الحلية » ٥/٥٤ و٦/١٨٧ـ١٨٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (١٠/١٩٩) .

ومنهم الإمام :

مُجَمِّع بن صمغان التيمي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أبو بكر ابن عياش : رأيت مجمعاً التيمي كأني أنظر إليه في سوق الغنم ، قالوا له : كيف شاتك هـٰذه ؟ قال : ما أرضاها لنفسي! قال أبو بكر : ومَن كان أورع من مجمع ؟!

ودخل سفيان الثوري علىٰ مجمع التيمي ؛ فإذا في إزار سفيان خرق ، قال : فأخذ أربعة دراهم ، فناول سفيان فقال : اشتر إزاراً ، قال سفيان : لا أحتاج إليها ، قال مجمع : صدقت ، أنت لا تحتاج ، ولـٰكني أحتاج ، قال : فأخذها ، فاشترىٰ بها إزاراً ، فكان سفيان يقول : كساني أخي مجمع جزاه الله خيراً .

وقال سفيان : ليس من عملي شيء أرجو ألاَّ يشوبه شيء كحبي مجمعاً التيمي .

وقال سفيان : حلف لنا أبو حيان التيمي ، قال : ما من عملي شيء أوثق في نفسي من حبي مجمعاً التيمي .

وعن الأعمش قال : كنت مع مجمع التيمي ، فاشترىٰ تمراً بدرهم ، فجاء سائل يسأل التَّمَّار(١) ، فقال مجمع للتمار : أعطه بنصف ، وأعطني بنصف .

وقال مجمع التيمي : ذِكر الموت غنىٰ .

وعن أبي حيان التيمي قال : رأيت مجمعاً يبكي في جنازة ابنه ، فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : إني أجد له ما يجد الوالد لولده ، وأبكي عليه ، لا أدري إلىٰ جنة يصير أم إلىٰ نار ؟

وقال أبو بكر ابن عياش : قيل لمجمع : أيسرك أن يكون لك مال ؟ قال : لا ، قيل : تحج وتعتق وتتصدق ، قال : شيء ليس عليَّ ، ما أرجو به ؟!

وذُكر عنده الحب في الله والبغض في الله ، فقال : ما من شيء يعدله عندي .

---

(١) **التَّمَّار** : بائع التمر .

وقال أبو بكر : ما نرىٰ بالكوفة أحداً خيراً من مجمع .

وعن الأعمش قال : نزل علىٰ مجمع ضيف ، فما سأله من أين جئت ولا ما حالك حتىٰ خرج من عنده . انتهىٰ [« الحلية » ٥/٨٩ـ٩١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : مجمع بن صمغان[١] ، كنيته : أبو حمزة .

وقال مسعر : جاء مجمع بشاة إلى السوق يبيعها ، فقال : يخيل إلي أن في لبنها ملوحة .

وقال أبو حاتم : دعا مجمع ربه سبحانه وتعالىٰ أن يتوفاه قبل الفتنة[٢] ، فمات من ليلته ، وخرج زيد بن عليٍّ من الغد . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٥٢ـ٥٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) مجمع بن صمغان : كذا في النسخ « والحلية » ، وفي « الصفوة » : (مجمع بن يسار) ، وفي كتاب « الجرح والتعديل » (٨/ ٢٨٥) لابن أبي حاتم الرازي : (ابن سمعان) والله أعلم بالصواب .

(٢) وهي الخروج علىٰ هشام بن عبد الملك .

ومنهم الإمام :

عمرو بن قيسٍ المُلائيُّ
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال سفيان الثوري رحمه الله : خمسة من أهل الكوفة يزدادون كل يوم خيراً : فذكر ابن أبجر ، وأبا حيان التيمي ، وعمرو بن قيس ، وابن سوقة ، وأبا سنان .

وقال سفيان الثوري : عمرو بن قيس هو الذي أدبني ، علمني القرآن ، وعلمني الفرائض ، وكنت أطلبه في سوقه ، فإن لم أجده في سوقه . . وجدته في بيته إما يصلي ، وإما يقرأ في المصحف ، كأنه يبادر أموراً تفوته ، فإن لم أجده في بيته . . وجدته في بعض مساجد الكوفة في زاوية من زوايا المسجد ، كأنه سارِقٌ قاعد يبكي ، فإن لم أجده . . وجدته في المقبرة قاعداً ينوح علىٰ نفسه ، فلما مات عمرو بن قيس . . أغلق أهل الكوفة أبوابهم ، وخرجوا لجنازته ، فلما أخرجوه إلى الجبّان[1] وبرزوا بسريره . . كان قد أوصىٰ أن يصلي عليه أبو حيان التيمي ، فتقدم أبو حيان ، وكبر عليه أربعاً ، وسمعوا صائحاً يصيح : قد جاء المحسن ، قد جاء المحسن عمرو بن قيس ، وإذا البرِّيَّةُ مملوءة من طيور بيض لم يُرَ علىٰ خلقتها وحسنها ، فجعل الناس يتعجبون من حسنها وكثرتها ، فقال أبو حيان : من أي شيء تعجبون ؟! هـٰذه ملائكة جاءت فشهدت عَمراً رحمه الله .

وكان عمرو بن قيس الملائي[2] يؤاجر نفسه من التجار ، ولما مات . . رُئِيَتِ الصحراء مملوءة من رجال عليهم ثياب بيض ، فلما صُلي عليه . . فُقدوا ، فكتب صاحب البريد إلىٰ عيسى بن موسىٰ يذكر له ذلك ، فقال عيسى بن موسىٰ لابن شبرمة وابن أبي ليلىٰ : لِمَ لَمْ تكونوا تذكرون لي هـٰذا الرجل ؟ فقالوا : كان يقول لنا : لا تذكروني عنده .

---

(١) **الجبّان أو الجبّانة** : المقبرة .
(٢) **الملائي** : نسبة لبيع المُلاء : وهو نوع من اللباس .

وقال عمرو بن قيس : ثلاث من رؤوس التواضع : أن تبدأ بالسلام علىٰ من لقيت ، وأن ترضىٰ بالمجلس الدون من الشرف ، وألاَّ تحب الرياء والسمعة والمدحة في عمل الله عز وجل .

وكان عمرو يقرىء الناس القرآن ، ويجلس بين يدي رجل رجل حتىٰ يفرغ منهم ، وإذا مشىٰ . . لا يمشي أمامهم ، يقول : تعالوا نمشي جميعاً .

وكان إذا أتى الرجلَ من أهل العلم . . جثا علىٰ ركبتيه ، ويقول : علمني مما علمك الله تعالىٰ ، ويتأول قوله تعالىٰ : ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ .

وقيل له : ما الذي نرىٰ بك من تغير الحال ؟ قال : رحمة للناس من غفلتهم عن أنفسهم ، وكان إذا نظر إلىٰ أهل السوق . . بكىٰ ، ويقول : ما أغفلَ هـٰؤلاء عما أُعدَّ لهم!

وقال : إذا اشتغلت بنفسك . . ذهلت عن الناس ، وإذا اشتغلت بالناس . . ذهلت عن نفسك .

وكان يقول : إذا سمعت بالخير : فاعمل به ولو مرة واحدة . . تكن من أهله .

وكان إذا بكىٰ . . حوَّل وجهه إلى الحائط ، ويقول لأصحابه : الزكام لا يخلو منه أحد .

وقال : لا تجالس صاحب زيغ ؛ فيزيغ قلبك .

وقال : من احتكر طعاماً عشرين ليلة ثم تصدق به . . لم يكن كفارة له .

وكان سفيان الثوري يجيء إلىٰ عمرو ينظر إليه لا يكاد يصرف بصره عنه ، أظنه يحتسب في ذلك .

وقال سفيان : عمرو بن قيس أستاذي ، سمعته يقول : ينبغي لصاحب الحديث أن يكون مثل الصيرفي(١) ؛ ينتقد الحديث كما ينتقد الصيرفي الدراهم ، فيها الزائف والبهرج ، وكذلك الحديث .

أسند عن عدة من التابعين ، رضي الله عنهم . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ١٠٠ـ١٠٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أقام عمرو بن قيس عشرين سنة صائماً ما يعلم به أهله ، يأخذ الغداء ويغدو إلى الحانوت فيتصدق به وأهله لا يدرون .

---

(١) **الصَّيرفي** : النقاد الذي يبين زيف الدراهم ، وصير في الحديث : الذي يعرف أن الحديث معلول من مجرد سماعه إياه .

وجاءت امرأة إلىٰ عمرو بثوب ، فقالت : يا أبا عبد الله ؛ اشتر هـٰذا الثوب واعلم أن في غزله ضعفاً ، قال : وكان إذا جاءه إنسان يعرضه عليه ويقول له بما أخبرته صاحبته ، فأقام مدة ، حتىٰ جاءه رجل ، فاشتراه علىٰ هـٰذا العيب ، وقال : قد أبرأناك منه .

وقال حفص بن غياث : لما احتُضر عمرو بن قيس . . بكىٰ ، فقال له أصحابه : علام تبكي من الدنيا ؟ فوالله ؛ لقد كنتَ فيها منغَّص[1] العيش أيام حياتك ، فقال : والله ؛ ما أبكي على الدنيا ، إنما أبكي خشية أن أحرم خير الآخرة .

وقال محمد بن يزيد : سمعت من لا أحصي كثرة يقول : لما مات عمرو . . اجتمع علىٰ جنازته من الخلائق ما لا يحصىٰ ، ولا يُعرَفون ، فلما دفن . . ذهبوا ولم يُرَوا .

سمع من عكرمة وعطاء في خلق من التابعين .

وتوفي بسجستان ، ويقال : بالكوفة ، ويقال : بالشام ، ويقال : ببغداد ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٦١-٦٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) مغَّص : مكدَّر .

ومنهم الإمام :

أبو ذر عمر بن ذر
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : لما مات ذر بن عمر الهمداني ـ وكان موته فجأة ـ جاء أبوه ، فوجدهم يبكونه ، فقال : ما لكم ؟ إنا ـ والله ـ ما ظُلمنا ، ولا قُهرنا ، ولا ذُهب لنا بحق ، ولا أُريدَ غيرُنا ، فلما وضع في قبره . . قال : رحمك الله يا بني ، والله ؛ لقد كنت بي بارّاً ، ولقد كنت عليك حدباً[1] ، ومابي إليك من وحشة ، ولا إلىٰ أحد بعد الله عز وجل من فاقة ، ولا ذهبتَ لنا بعزٍّ ، ولا أبقيتَ علينا من ذل ، ولقد شغلني الحزن لك عن الحزن عليك ، يا ذر ؛ لولا هول المطلع ومحشرُه . . لتمنيتُ ما صرتَ إليه ، فليت شعري ، يا ذر! ما قيل لك وماذا قلت ، ثم قال : اللهم ؛ إنك وعدتني الثواب بالصبر علىٰ ذر ، اللهم ؛ فعلىٰ ذر صلواتُك ورحمتك ، اللهم ؛ إني قد وهبت ما جعلتَ لي من أجر علىٰ ذر لذر صلة مني ، فلا تعرِّفه قبيحاً ، وتجاوز عنه ؛ فإنك أرحم به مني ، اللهم ؛ وإني قد وهبت لذر إساءته إليَّ ، فهب له إساءته لنفسه ؛ فإنك أنت الجواد الكريم ، فلما ذهب لينصرف . . قال : يا ذر ؛ انصرفنا وتركناك ، ولو أقمنا . . ما نفعناك .

وفي رواية : اللهم ؛ إني قد وهبت لذر ما فرَّط منه في حقي ، فهب له ما فرَّط فيه من حقك يا أرحم الراحمين .

وفي رواية : لما مات ذر بن عمر . . قال أصحابه : الآن يضيع الشيخ ؛ لأنه كان باراً بوالديه ، فسمعهم الشيخ ، فبقي متعجباً يقول : أنّىٰ أضيع والله تبارك وتعالىٰ حي لا يموت ؟! فسكت القوم ، فلما واراه في التراب . . قام أبوه فذكر مثله .

وقال عمر بن ذر رحمه الله : اعملوا لأنفسكم ـ رحمكم الله ـ في هـٰذا الليل وسواده ؛ فإن المغبون : من غُبن خير الليل والنهار ، والمحروم : من حرم خيرهما ، وإنما جُعِلا سبيلاً للمؤمنين إلىٰ طاعة ربهم سبحانه وتعالىٰ ، ووبالاً للآخَرين للغفلة عن أنفسهم ، فأحيوا

---

(1) حَدِباً : عطوفاً .

أنفسكم بذِكره ؛ فإن القلوب إنما تحيا بذكر الله عز وجل ، وكم من قائم لله عز وجل في الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حفرته ، وكم من نائم في الليل قد ندم علىٰ طول نومه عندما يرىٰ من كرامة الله عز وجل للعابدين غداً ، فاغتنموا ممر الساعات والليالي والأيام ؛ رحمكم الله تبارك وتعالىٰ .

وكان عمر بن ذر إذا قرأ قوله تعالىٰ : ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ . . قال : يا لك من يوم ما أملأَ ذِكرك لقلوب الصادقين!

وقال ذر لأبيه عمر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد ، فإذا تكلمت أنت . . سُمع البكاء من هٰهنا وهٰهنا ، فقال : يا بني ؛ ليست النائحة المستأجَرة كالنائحة الثكلىٰ .

وقال عمر بن ذر رحمه الله تعالىٰ : آنسك جانبُ حلمه ، فتوثبت علىٰ معاصيه ، أَفَأَسَفَهُ تريد ؟ أما سمعت قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ ؟ أيها الناس ؛ أجِلُّوا مقام الله عز وجل بالتنزه عما لا يحل ؛ فإن الله تعالىٰ لا يؤمَنُ إذا عصي .

وقال : ما دخل الموت دار قوم . . إلا شتت جمعهم ، وقَنَّعهم بعيشهم بعد أن كانوا يفرحون ويمرحون .

وقال : مَن أجمع على الصبر في الأمور . . فقد حوى الخير ، والتمس معاقد البر وكمال الأجور .

وكان إذا نظر إلى الليل قد أقبل . . قال : جاء الليل ، ولليل مهابة ، والله عز وجل أحق أن يُهاب .

وكان عمر بن ذر يقول في دعائه : اللهم ؛ إني أسألك خيراً يبلِّغُنا ثواب الصابرين لديك ، وأسألك اللهم شكراً يبلغنا مزيد الشاكرين ، وأسألك اللهم توبة تطهرنا بها من دنس الآثام . . حتىٰ نَحِلَّ بها عندك محل المنيبين إليك ، فأنت ولي جميع النعم والخير ، وأنت المرغوب إليه في كل شديدة وكرب وضر ، اللهم ؛ هب لنا الصبر علىٰ ما كرهنا من قضائك ، والرضا بذلك طائعين ، وهب لنا الشكر علىٰ ما جرىٰ به قضاؤك من محنتنا ، والاستكانة لحسن قضائك ، متذللين لك خاضعين ، رجاء المزيد والزلفىٰ لديك يا كريم ، اللهم ؛ فلا شيء أنفع لنا من الإيمان بك ، وقد مننت به علينا ، فلا تنزعه منا ، ولا تنزعنا منه حتىٰ تتوفانا عليه موقنين بثوابك ، خائفين لعقابك ، صابرين علىٰ بلائك ، راجين لرحمتك يا كريم .

وقال الربيع ابن أبي راشد ـ رحمه الله ـ : يا أبا ذر ؛ من سأل الله عز وجل الرضا . . فقد سأله عظيماً .

وقال ابن ذر : لولا أني أخاف ألاَّ يكون براً من القسم . . لأقسمت ألاَّ أفرح بشيء من الدنيا حتىٰ أعلم ما لي في وجوه رسل الله عز وجل .

وسمع عمر بن ذر قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ فقال عمر : الجهل .

ووعَظ عمر بن ذر ، فجعل فتًىٰ من بني تميم يصرخ ويتغير لونه ، ولا أرىٰ له دمعة تسيل ، ثم سقط مغشياً عليه ، ثم رأيته في مجلس آخر لابن ذر يبكي ، حتىٰ أقول : الآن تخرج نفسه ، فذكرت ذلك لابن ذر ، فقال : إن العقل إذا طاش . . فُقدت الحرقة ، وقلصت الدمعة ، وإذا ثبت العقل . . فَهِمَ صاحبه الموعظة ، فأحرقته ـ واللهِ ـ فحزن وبكىٰ .

وكان شخص يشتم عمر بن ذر ، فلقيه عمر بن ذر ، فقال : يا هـٰذا ؛ لا تفرط في شتمنا ، وأبق للصلح موضعاً ؛ فإنَّا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله تعالىٰ فيه .

وسمع عمر بن ذر قوله تعالىٰ : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ ، فقال : وعزتك وجلالك يا رب ؛ لا نحتمل وعيد من لا يضر ولا ينفع ، فكيف نحتمل وعيد الضار النافع ؟ لـٰكنك أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين ، وأنت الجواد الكريم . أو كما قال .

وشهد ابن ذر جنازة رجل والناس حوله ، فلما وضع الميت على القبر . . بكىٰ عمر ، ثم قال : أيها الميت ؛ أما أنت : فقد قطعت سفر الدنيا ، فطوبىٰ لك إن توسدت في قبرك خيراً .

أسند عمر عن عطاء ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم من التابعين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ومما رواه عن عكرمة : عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « موت الغريب شهادة »[1] حديث غريب من حديث عمر ، لم نكتبه إلا من هـٰذا الوجه . انتهىٰ [« الحلية » ٥/١٠٨ـ١١٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١/٢٤٦) .

ومنهم الإمام :

أبو إدْريس الخَولاني[1]
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن ضرار بن مرة رحمه الله قال : لقيت الضحاك بخراسان وعليَّ فرو خَلَقٌ[2] ، فقال لي الضحاك : قال أبو إدريس : قلب نقي في ثياب دنسة . . خير من قلب دنس في ثياب نقية .

وعن أبي إدريس قال : المساجد مجالس الكرام .

وقال : ما تقلد امرؤ قلادة أفضل من سكينة مع تقوىٰ ، وما زاد الله عبداً قط فقهاً . . إلا زاده الله قصداً . أو كما قال .

وقال : لأَن أرىٰ في طائفة المسجد ناراً تَقِدُ . . أحب إلي من أن أرىٰ فيها رجلاً يقص ليس بفقيه .

وقال : من تتبع الأحاديث ليحدث بها . . لا يجد ريح الجنة ؛ يعني : لغير الله عز وجل .

وقال : لا يهتكُ الله ستر عبد في قلبه مثقالُ ذرة من خير .

وقال : يُرفع من هـٰذه الأمة الخشوع حتىٰ لا ترىٰ خاشعاً .

وقال : ما علىٰ ظهرها من بشر لا يخاف علىٰ إيمانه أن يذهب . . إلا ذهب .

أسند عن معاذ بن جبل ، وجماعة من الصحابة ، رضي الله عنهم .

وروىٰ عنه جماعة من التابعين . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ١٢٢ـ١٢٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) وهو عائذ الله بن عبد الله ، ويقال فيه : عيِّذُ اللهِ بنُ إدريس بن عبد الله بن عتبة ، قاضي دمشق وعالمها ، ولد عام حنين ، ولأبيه صحبة .

(٢) خَلَقٌ : بالٍ .

ومنهم الإمام :

عبد الله بن مُحَيْرِيزٍ
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : ذهب ابن محيريز إلىٰ بزّاز[1] يشتري منه ثوباً ، والبزّاز لا يعرفه ، وعنده رجل يعرفه ، فقال : بِكَمْ هـٰذا الثوب ؟ قال التاجر : بكذا وكذا ، فقال الرجل الذي يعرفه : أحسِن إلى ابن محيريز ، فقال ابن محيريز : إنما أنا جئت أشتري بمالي ، ولم [أجىء] أشتري بدِيني ، فقام ولم يشتر .

وقيل له : إن الناس يقولون : إنما يدعوك إلىٰ هـٰذه الثياب الخَلَقَةِ البخل ليس القصد ، فاشترىٰ ثوبين أبيضين ، قال : أردُّ بهما عني ألسنة الناس .

ودخل ابن محيريز علىٰ سليمان ، فقال له : بلغني أنك زوجت ابنك ، قال : نعم ، قال : فقد أصدقنا عنه ، فقال ابن محيريز : أما العاجل . . فقد دفع إليهم ، وأما الآجل . . فهو عليه ، وهم لا يطالبونه الآن ، فليس ثَمَّ حاجة ، ولم يقبَلْ ، وكان بلال ابن أبي بردة معه على السرير ، فقال بلال : يابن محيريز ؛ اقبل عطية الأمير ، فلم يجبه ، قال بلال : فلما خرج . . تبعته ، فقال لي : متىٰ كان ابن أبي بردة شرطياً لسليمان .

وأرسل عبد الملك بن مروان جارية إلى ابن محيريزٍ ، فترك ابن محيريز منزله ، فلم يكن يدخله ، فقيل : يا أمير المؤمنين ؛ أخرجت ابن محيريز عن منزله ، قال : ولِمَ ؟ قال : من أجل الجارية التي بعثت بها إليه ، قال : فبعث عبد الملك مَن يأخذها .

وكان يقول : اللهم ؛ إني أسألك ذِكراً خاملاً .

وكان إذا مُدح . . يقول : وما يدريك ؟ وما علمك ؟

وقال : كلُّكم يلقى الله عز وجل غداً كاذباً ، وذلك أن أحدكم لو كانت إصبعه من ذهب . . أشار بها وأظهرها ، ولو كان بها شلل . . لسترها وواراها .

---

(١) البزّاز : بائع البزِّ ، والبزُّ : الثياب .

وقال له رجل : أوصني ، قال : إن استطعت أن تَعْرف ولا تُعْرف . . فافعل ، وإن استطعت أن تمشي ولا يُمشىٰ إليك . . فافعل .

وعن أبي زرعة قال : لم يكن بالشام أحد يظهر عيب الحَجَّاجِ . . إلا ابن محيريزٍ وأبو الأبيض العنسي .

وقال : من مشىٰ أمام أبيه . . فقد عقَّه ، إلا أن يميط الأذىٰ عن طريقه ، ومن دعا أباه باسمه أو كنيته . . فقد عقَّه ، إلا أن يقول : يا أبت .

وقال رجاء بن حَيوَة رحمه الله : كنا في مجلس ابن محيريز ، فأتانا نعي ابن عمر رضي الله عنهما ، فقال ابن محيريز : والله ؛ لقد كنت أَعُدُّ بقاءه أماناً لأهل الأرض .

وقال رجاء بن حيوة لما مات ابن محيريز : والله ؛ لئن كنت أعد بقاء ابن محيريز أماناً لأهل الأرض .

وعن الأوزاعي قال : كان عبد الله ابن أبي زكرياء إذا قدم فرأى ابن محيريز . . صغرت إليه نفسه ؛ لما يرىٰ من فضله .

وقال ابن محيريزٍ : إذا رأيت خيراً . . فاحمد الله عز وجل ، وإذا رأيت منكراً . . فَألْطَأْ[1] بالأرض ، وسَلِ الله تعالىٰ أن يخفف البلاء عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان يختم القرآن في كل سبع .

وكان ابن محيريز يجيء إلىٰ عبد الملك بصحيفة فيها النصيحة يقرئه ما فيها ، فإذا فرغ منها . . أخذ الصحيفة .

ومر برجل يكلم امرأة ، فَهَمَّ بأن يكلمهما ، ثم قال : الله أعلم بما يقولان ، فمضىٰ ولم يكلمْهما .

وكانت فيه خصلتان : كان أبعد الناس عن أن يسكت عن حق ، إذا تبين له . . يتكلم فيه ، غضب من غضب ورضي من رضي ، وكان من أحرص الناس أن يكتم من نفسه أحسن ما عنده .

أسند ابن محيريز عن عدة من الصحابة ، وروىٰ عنه من التابعين جماعة ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٥/١٣٨ـ١٤٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) الطأ : الصق بالأرض ، وكن كالتراب .

ومنهم الإمام :

عبد الله بن أبي زكرياء

رضي الله عنه

وروى الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الأوزاعي قال : لم يكن بالشام رجل يفضل على ابن أبي زكرياء .

وقال : عالجت لساني عشرين سنة قبل أن يستقيم لي .

وفي رواية : عالجت الصمت عشرين سنة ، فلم أقدر منه علىٰ ما أريد .

وكان لا يذكر في مجلسه أحداً ، يقول : إن ذكرتم الله عز وجل . . أعنَّاكم ، وإن ذكرتم الناس . . تركناكم .

وقال : واللهِ ؛ لَلُبْسُ المسوح ، وسف الرماد ، والنوم على المزابل مع الكلاب . . ليسيرٌ في مرافقة الأبرار .

وقال ابن أبي زكرياء : من قال : **سبحان الله وبحمده عند البرق . . لم تصبه صاعقة** .

وقال حسان بن عطية : تذاكروا في مجلس فيه ابن أبي زكرياء ومكحول : أن العبد إذا عمل الخطيئة . . لم تكتب عليه ثلاث ساعات ، فإن استغفر الله تعالىٰ ، وإلا . . كتبت عليه .

وقال ابن أبي زكرياء : ما مَسِسْت ديناراً ولا درهماً قط ، ولا اشتريت شيئاً ، ولا ساومته ، إلا مرة رأيت جوربين معلقين ، فقلت : بكم هـٰذا ؟ ثم ذكرت ، فسكتُّ .

وكان من أبشِّ الناس ، وأكثرهم تبسمًّاً .

وكان له إخوة يكفونه .

وقال : لو خيرت بين أن أعمر مئة سنة في طاعة الله سبحانه وتعالىٰ ، أو أقبض في يومي هـٰذا ، أو ساعتي هـٰذه . . لاخترت أن أقبض في يومي هـٰذا ؛ شوقاً إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وإلىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإلى الصالحين من عباده ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وكان عنده مصاحف كثيرة ، فقيل له في ذلك ، فقال : أمَّا واحد . . فأقرأ فيه ، والآخر للمرأة ، والآخر لابني .

وكنتَ لا تراه أبداً إلا وثيابه كأنما غسلت يومئذ ؛ لشدة نقائها .

أسند عن عبادة بن الصامت ، وأبي الدرداء ، وأم الدرداء ، ومن التابعين عن رجاء بن حيوة ، رضي الله عنهم . انتهىٰ [« الحلية » ٥/١٤٩-١٥٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد رب عبيدة بن المهاجر

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : إن أبا عبد رب[1] خرج من عشرة آلاف دينار ، أو من مئة ألف .

وكان يقول : لو سالَتْ بَرَدىٰ أمثال الذهب . . ما كنت أول الناس يقوم إليها ، ولو قيل : إن الموت في هـٰذا العُود . . ما سبقني إليه أحد إلا بفضل قوة .

وكان يشتري الرقاب فيعتقهم ، فاشترىٰ يوماً عجوزاً رومية ، فأعتقها ، فقالت له : ما أدري أين آوي ، فبعث بها إلىٰ منزله ، فلما انصرف من المسجد . . أُتي بالعشاء ، فدعاها ، فأكل معها ، ثم راطَنُوها[2] ، فإذا هي أمه ، فسألها الإسلام ، فأبت ، فكان يبلغ من برها ما يبلغ ، فأُتي يوماً بعد العصر يوم الجمعة ، فأُخبر أنها أسلمت ، فخرَّ ساجداً حتىٰ غربت الشمس .

وعن ابن جابر : أن أبا عبد رب كان من أكثر أهل دمشق مالاً ، فخرج إلىٰ أذربيجان في تجارة ، فأمسىٰ إلىٰ جانب مرعًىٰ ونهر ، فنزل به ، قال أبو عبد رب : فسمعت صوتاً يكثر حمد الله سبحانه وتعالىٰ في ناحية ، فاتبعته ، فوجدت رجلاً في حَفِير من الأرض ملفوفاً في حصير ، فسلمت عليه ، وقلت له : من أنت يا عبد الله ؟ قال : رجل من المسلمين ، قال : قلت : ما حالك هـٰذه ؟ قال : نعمة يجب عليَّ حَمْدُ الله فيها ، قال : قلت : وكيف وإنما أنت في حصير ؟ قال : وما لي لا أحمد الله عز وجل أن خلقني فأحسن خلقي ، وجعل مولدي ومنشئي في الإسلام ، وألبسني العافية في أركاني ، وستر عليَّ ما أكره ذِكره أو نشره ، فمَن أعظمُ نعمة ممن أمسىٰ في مثل ما أنا فيه ؟! قلت : رحمك الله ، إن رأيت أن

---

(١) اختلف في كنيته ، ففي « تهذيب الكمال » و« تاريخ ابن عساكر » : أبو عبد ربه ، وأبو عبد رب العِزَّة ، واسمه : عبد الجبار بن عبيد الله بن سلمان .

(٢) **راطَنُوها** : كلمة أعجمية معناها : كلموها .

تقوم معي إلى المنزل ؛ فإنَّا نُزولٌ على النهر هـٰهنا ، قال : ولِمَ ؟ قلت : لتصيب من الطعام ، ونعطيك ما يغنيك عن لبس الحصير ، قال : ما بي حاجة ، إن لي في أكل العشب كفاية ، فأردته علىٰ أن يتبعني ، فأبىٰ ، وقال : ما لي به من حاجة .

قال أبو عبد رب : فانصرفت ، وقد تقاصرَتْ إلي نفسي ومقتُّها ؛ لأني لم أخلِّفْ بدمشق رجلاً في الغنىٰ يكاثرني ، وأنا أطلب الزيادة ، قال : ثم قلت : اللهم ؛ إني أتوب إليك من سوء ما أنا فيه ، قال : فبتُّ ولم يعلم إخواني ما أجمعت عليه ، فلما كان من السحر . . رحلوا وقدَّموا لي دابتي ، فركبتها ، وصرفتها إلىٰ دمشق ، وقلت : ما أنا بصادق في التوبة إن مضيت معهم ، فسألني القوم ، فأخبرتهم ، وعاتبوني على المضي معهم ، فأبيت ، قال ابن جابر : فلما قدم دمشق . . تصدق بصامت ماله[1] ، وتجهز به في سبيل الله تعالىٰ .

قال ابن جابر : فحدثني بعض إخواني قال : ماكَسْتُ[2] صاحب عباء بدانق في عباءة ، أعطيته ستة ، وهو يقول : سبعة ، فلما أكثرت . . قال : مِمَّن أنت ؟ قلت : من أهل دمشق ، قال : أمَا تشبه شيخاً وفد عليَّ أمس ، يقال له : أبو عبد رب ، اشترىٰ مني سبع مئة كساء بسبعة سبعة ، ما سألني أن أضع له درهماً ، وسألني أن أحملها له ، فبعثت أعواني ، فما زال يفرقها بين فقراء الجيش ، فما دخل منزله منها بكساء .

وقال ابن جابر : قد تصدق ـ كما ذكرنا ـ بصامت ماله وباع عُقَدَهُ[3] ، فتصدق بها إلا داراً بدمشق .

وكان يقول : والله ؛ لو أن نهركم هـٰذا ـ يعني : بردىٰ ـ سال ذهباً وفضة ، من شاء خرج إليه فأخذه . . ما خرجت إليه ، ولو أنه قيل : من مس هـٰذا العود لمات . . لسرني أن أقوم إليه ؛ شوقاً إلىٰ لقاء الله ، وإلىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن جابر : وافيتُه ذات يوم يتوضأ علىٰ مِطهرة دمشق ، فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام ، فقال : يا طويل ؛ لا تعجل ، فانتظرته ، فلما فرغ من وضوئه . . أقبل عليَّ ، فقال : إني أريد أن أستشيرك ، فأشر عليَّ ، قال : قلت : اذكر ، قال : خرجت من صامت مالي وعقدي ، ولم يبق إلا داري هـٰذه أعطيت بها كذا وكذا ألفاً ، فما ترىٰ ؟ قال : قلت :

---

(١) **المال الصامت** : الذهب والفضة ، **والناطق** : الإبل والغنم .

(٢) **المماكسة** : في انتقاص واستحطاطه في البيع .

(٣) **العُقَدَةُ** : كل ما يمتلكه الإنسان من ضيعة أو عقار أو مال وغيره .

والله ؛ ما ندري ما بقي من عمرك ، وأخاف أن تحتاج إلى الناس ، وفي غَلَّتها قوام لعيشك ، وتسكن طائفة منها تسترك وتغنيك عن منازل الناس ، قال : وإن هـٰذا لرأيك ، قلت : نعم ، قال : أصابك ـ والله ـ المَثَل ، قلت : وما ذاك ؟ قال : لا يخطئك من طويل حمق ، بالفقر تخوفني ؟! قال ابن جابر : فباعها بمال عظيم ، وفرقه ، وكان مع ذلك موته ، فما وُجِدَ من ثمنها إلا قدر الكفن .

أدرك بعض الصحابة ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ١٦٠-١٦٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

يزيد بن مَرْثَد
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عبد الرحمـٰن بن يزيد بن جابر : قلت ليزيد بن مرثد : ما لي أرىٰ عينيك لا تجف ؟ قال : وما مسألتك عنه ؟ قلت : عسى الله أن ينفعني به ، قال : يا أخي ؛ إن الله عز وجل قد توعدني إن أنا عصيته . . أن يسجنني في النار ، واللهِ ؛ لو لم يتوعدني إلا أن يسجنني في الحَمَّام . . لكنت حرياً ألاَّ تجف لي دمعة عين ، قال : فقلت له : فهـٰكذا أنت في خلوتك ؟ قال : وما مسألتك عنه ؟ قلت : عسى الله أن ينفعني به ، فقال : والله ؛ إن ذلك ليعرض لي حين أسكن إلىٰ أهلي ، فيحول بيني وبين ما أريد ، وإنه ليوضع الطعام بين يدي ، فيعرض لي ، فيحول بيني وبين أكله . . حتىٰ تبكي امرأتي ، ويبكي صبياننا ، ما يدرون ما أبكانا ، ولربما أضجر ذلك امرأتي ، فتقول ـ يا ويحها ـ : ما خُصِصتُ به من طول الحزن معك في الحياة الدنيا ؟! ما تقر لي عين معك .

وعن يزيد بن مرثد : أن أبا الدرداء قال لمعاوية : والذي نفسي بيده ؛ لا تنقصون من أرزاق الناس شيئاً . . إلا نقص من الأرض مثله .

وأراد الوليد بن عبد الملك أن يولي يزيد بن مرثد القضاء ، فلبس يزيد فرواً قد قَلَبَه ، فجعل الجلد علىٰ ظهره والصوف خارجاً ، وأخذ بيده رغيفاً وعَرْقاً(١) ، وخرج بلا رداء ، ولا قلنسوة ، ولا نعل ، ولا خف ، وجعل يمشي في الأسواق ، ويأكل الخبز واللحم ، فقيل للوليد : إن يزيد بن مرثد قد اختُلِط ، وأُخبر بما فعل ، فتركه .

أسند عن معاذ بن جبل ، وأبي الدرداء ، وغيرهما ، رضي الله عنهم أجمعين .

فمما رواه عن أبي ذر : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن داوود عليه الصلاة

---

(١) **العَرْقُ** ـ بسكون الراء ـ : العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم .

والسلام قال : إلـٰهي ؛ ما حق عبادك عليك إذا هم زاروا بيتك ؟ فإن لكل زائر على المزور حقاً ، قال : يا داوود ؛ إن لهم عليَّ أن أعافيهم في الدنيا ، وأغفر لهم إذا لقيتهم »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ١٦٤ـ١٦٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٦/ ١٤٤) .

ومنهم الإمام :

رَجَاء بن حَيْوَة
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن مطرٍ الورَّاق قال : ما رأيت شامياً أفضل من رجاء بن حيوة رحمه الله .

وقال ابن عون : ثلاثة لم أر مثلهم ، التقوا فتواصوا : ابن سيرين بالعراق ، وقاسم بن محمد بالحجاز ، وأبو المقدام رجاء بن حيوة بالشام .

وعن عبد الرحمـٰن بن عبد الله : أن رجاء بن حيوة قال لعدي بن عدي ولمعن بن المنذر يوماً وهو يعظهما : انظرا إلى الأمر الذي تحبان أن تلقيا الله عز وجل عليه . . فخذا فيه الساعة ، وانظرا إلى الأمر الذي تكرهان أن تلقيا الله عز وجل [عليه] . . فدعاه الساعة .

وعن المُعلَّى بن رؤبة[1] ، قال : كانت لي حاجة إلىٰ رجاء بن حيوة ، فسألت عنه ، فقالوا : هو عند سليمان بن عبد الملك ، قال : فلقيته ، فقال : ولىٰ أمير المؤمنين اليوم ابن موهب القضاء ، ولو خيرت بين أن أَلِيَ وبين أن أُحمل إلىٰ حفرتي . . لاخترت أن أحمل إلىٰ حفرتي ، قلت : إن الناس يقولون : إنك أنت الذي أشرت به ، قال : صدقوا ، إني نظرت للعامة ولم أنظر له .

وعن رجاء بن حيوة قال : إني لواقف مع سليمان بن عبد الملك ، وكانت لي منه منزلة ؛ إذ جاء رجل حسن الهيئة ، قال : فسلم عليَّ ، فقال : يا رجاء ؛ إنك قد ابتليت بهـٰذا الرجل وفي قربه الوقع[2] ، يا رجاء ؛ عليك بالمعروف وعون الضعيف ، واعلم يا رجاء : أنه من كانت له منزلة من السلطان فرفع إليه حاجةَ إنسانٍ ضعيف لا يستطيع رفعها . . لقي الله عز وجل ـ يوم يلقاه ـ وقد ثبَّتَ قدميه على الصراط ، وخفف عليه الحساب ، واعلم يا رجاء :

---

(١) في « الحلية » : (العلاء بن روبة) .

(٢) في نسخة : (الواقع) ، وفي « سير أعلام النبلاء » : (الوتغ) ، **والوقع** : السقوط ، **والوتغ** : الهلاك .

أنه من كان في حاجة أخيه المسلم.. كان الله في حاجته، واعلم يا رجاء: أن مِن أحبِّ الأعمال إلى الله سبحانه وتعالىٰ.. فرحاً أدخلته علىٰ مسلم. ثم فقده، فكان يرىٰ أنه الخضر.

ووفد يزيد بن عبد الملك بيت المقدس، فسأل رجاء بن حيوة أن يصحبه، فأبىٰ واستعفاه، فقال له عقبة بن وساج: إن الله ينفع بمكانك، فقال: إن أولـٰئك الذين تريد قد ذهبوا، فقال له عقبة: إن هـٰؤلاء القوم ما باعدهم رجل بَعْدَ مقاربة.. إلا ركبوه، فقال: إني لأرجو أن يكفِيْنِيَهُم الذي أَدَعُهم له سبحانه وتعالىٰ[1].

وكان رجاء بن حيوة رحمه الله يصلي ما بين الظهر إلى العصر.

وقال: الحلم أرفع من العقل؛ لأن الله تبارك وتعالىٰ تَسَمَّىٰ به.

وقال سعيد بن عبد العزيز: رأىٰ إنسان في منامه أن إنساناً من الأبدال قد مات، فكُتب رجاء بن حيوة مكانه.

وودع رجلٌ رجاءَ بن حيوة فقال: حفظك الله يا أبا المقدام، فقال: يا أخي؛ لا تسأل عن حفظي، ولـٰكن قل: يحفظ الله عليك الإيمان.

وقال رجاء: ما أكثر عبدٌ ذِكر الموت.. إلا ترك الحسد والفرح.

وعن رجاء قال: ما أحسنَ الإسلامَ يزينه الإيمان، وما أحسن الإيمان يزينه التقىٰ، وما أحسن التقىٰ يزينه العلم، وما أحسن العلم يزينه الحلم، وما أحسن الحلم يزينه الرفق.

أسند عن عبد الله بن عمرو بن العاصي، وأبي الدرداء، وأبي أمامة، وغيرهم من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين. انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ١٧٠-١٧٣].

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) قال الذهبي في « السير » (٤/ ٥٦٠): (كان رجاء كبير المنزلة عند سليمان بن عبد الملك، وعند عمر بن عبد العزيز، وأجرى الله علىٰ يديه الخيرات، ثم إنه بعد ذلك أُخِّر، فأقبل علىٰ شأنه، فعن ابن عون قال: قيل لرجاء: إنك كنت تأتي السلطان فتركتهم! فقال: يكفيني الذي أدعهم له) انتهىٰ.

ومنهم الإمام :

فقيه الشام أبو عبد الله مكحول

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أبو عبد الله مكحول : من لم ينفعه علمه . . ضَرَّه جهله .

وقال عبد ربه بن صالح : دخلت علىٰ مكحول في مرض موته ، فقلت : أحسَنَ الله عافيتك أبا عبد الله ، فقال : الإلحاق بمن يُرجىٰ عفوه سبحانه وتعالىٰ . . خير من البقاء [مع من لا يؤمن شره] .

وقيل لمكحول : يا أبا عبد الله ؛ أتحب الجنة ؟ قال : ومن لا يحب الجنة ؟ قال : فأَحِبَّ الموت ؛ فإنك لن ترى الجنة حتىٰ تموت .

وقال [علي بن حوشب : سمعت مكحولاً يقول] : قدمت دمشق وما أنا بشيء من العلم ـ أراه قال : أعلم مني بكذا ـ فأمسك أهلها عن مسألتي حتىٰ ذهب .

وعن مكحول : أنه عاد حكيم بن حزام ، فقال : أتراك مرابطاً العام ؟ فقال له : كيف تسألني عن هـٰذا وأنا علىٰ هـٰذا الحال ؟ قال : وما عليك أن تنوي ذلك ؟ فإن شفاك الله عز وجل . . مضيت لوجهك ، وإن حال بينك وبينه أجل . . كُتبت لك نيتك .

وعن بركة الأزدي قال : وَضَّأت مكحولاً ، فأتيته بمنديل ، فأبىٰ أن يمسح به وجهه ، ومسح وجهه بطرف ثوبه ، وقال : الوضوء بركة ، وأنا أحب ألاَّ تعدُوَ ثوبي .

وعن الزهري قال : العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، وعامر الشعبي بالكوفة ، والحسن البصري بالبصرة ، ومكحول بالشام .

وقال مكحول : لا يؤخذ العلم إلا عمن شُهد له بالطلب .

وقال مكحول : لأَن يضرب عنقي . . أحب إلي من أن أَلِيَ القضاء ، ولأَن أَلِيَ القضاء . . أحب إلي من بيت المال .

وقال مكحول : أرق الناس قلوباً أقلهم ذنوباً .

وقال مكحول : من أحب رجلاً صالحاً . . فإنما أحب الله عز وجل ، ومن ذهب إلىٰ علم يتعلمه . . فهو في طريق الجنة إلىٰ أن يرجع .

وكان يصوم الإثنين والخميس .

وقال : من أحيا ليلة في ذِكر الله عز وجل . . أصبح كيوم ولدته أمه .

وقال : من قال : أستغفر الله العظيم الذي لا إلـٰه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه . . غفرت ذنوبه ولو كان فاراً من الزحف .

وقال : عينان لا يمسهما العذاب : عين بكت من خشية الله عز وجل ، وعين باتت من وراء المسلمين .

وقال : المؤمنون هيِّنون ليِّنون ، مثل الجمل الأَنِفِ(١) ، إن قُدْتَهُ . . انقاد ، وإن أنختَه علىٰ صخرة . . استناخ .

وقال : إن كان الفضل في الجماعة . . فإن السلامة في العزلة .

وعن مكحول قال : بينما سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام علىٰ بساط من شعر وأصحابه حوله ؛ إذ أمر الريح ، فاستقلته ، وسارت الجن والإنس أمامه ، والطير تظله ؛ وإذا حرَّاث يحرث علىٰ جانب الطريق ، فقال الحرَّاث : لو أن سليمان بن داوود عندي . . كلمته بثلاث كلمات ، فأوحى الله عز وجل إلىٰ سليمان : أن ائت الحرَّاث ، قال : فركب علىٰ فرس له حتىٰ أتاه ، وقال : السلام عليك يا حرَّاث ، أنا سليمان بن داوود ، فقل ما أردت أن تقول ، قال : فرد عليه السلام ، وقال : وما علمك أني أردت أن أقول ؟ قال : الله عز وجل أعلمني بذلك ، قال الحرَّاث : أشهد أنه بكل شيء عليم ، ثم قال : والله ؛ لما رأيتك فيما أنت فيه . . قلت : والله ؛ ما يجد سليمان لذة أَمس ، ولا نعيماً نَعِمَهُ أمس ، وأنا لا أجد تعباً تعبته أمس ولا نصباً نصبته أمس ، فما أنا وإياه إلا سواءً ؛ لأنه لا يجد لذة ما مضىٰ ، وأنا لا أجد تعب ما مضىٰ ، قال : وقلت : إن سليمان يموت وأنا أموت ، قال : صدقت ، ثم قال : قلت : يا سليمان ؛ كلمة طابت بها نفسي ، قلت : سليمان عليه الصلاة والسلام يُسأل غداً عما أعطي ، وأنا لا أُسأل ، قال : فخرَّ سليمان ساجداً علىٰ فرسه يبكي ، وهو يقول : يا رب ؛ لولا أنك جواد كريم لا ترجع فيما وهبت . . لسألتك أن تنزع مني ما أعطيتني ، قال : فأوحى الله عز وجل إليه : يا سليمان ؛ ارفع

---

(١) أَنِفَ البعير : ذلَّ وانقادَ .

رأسك ؛ فإني لم أنعم علىٰ عبد لي نعمة فتكون تلك النعمة رضا ، فأحاسبه عليها . انتهىٰ
[« الحلية » ٥/ ١٧٧ـ١٨٣] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا ليس بصحيح ، وذلك لأنه لا خلاف في أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لا يُسألون عن معجزاتهم ، ومعلوم أن ما أوتيه سليمان عليه الصلاة والسلام من المُلك كان معجزة له ، وقد نطق القرآن بذلك فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فلو كان هـٰذا صحيحاً . . لقال سليمان عليه الصلاة والسلام للحرّاث : إنك قد أخطأت في قولك ، أنّي أُسأل ؟! فإن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يُسألون عن معجزاتهم ، وهـٰذا معجزتي ، فكيف أُسأل عنه ؟! والله سبحانه أعلم . انتهىٰ .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : وعن مكحول قال : كان من دعاء داوود عليه الصلاة والسلام : يا رازق [الغراب] النَّعّاب في عشه ، وذلك أن الغراب إذا فقَّص عن فراخه . . فقَّص عنها بيضاء ، فإذا رآها كذلك . . نفر عنها ، فتفتح أفواهها ، فيرسل الله عز وجل عليها ذباباً يدخل في أفواهها ، فيكون ذلك غذاء لها حتىٰ تسودَّ ، فإذا اسودَّت . . انقطع الذباب عنها ، فعاد الغراب إليها ، فغذاها .

وقال : **إذا كان في أمة خمسة عشر رجلاً يستغفرون الله عز وجل كل يوم خمساً وعشرين مرة . . لم يؤاخذ الله تعالىٰ تلك الأمة بعذاب العامة** .

وقال مكحول : بر الوالدين كفارة للكبائر .

وعن مكحول قال : من مات مُدارياً . . مات شهيداً .

وعن [ابن] جابر قال : أقبل يزيد بن عبد الملك بن مروان إلىٰ مكحول ومعه أصحابه ، فلما رأيناه . . هممنا بالتوسعة له ، فقال مكحول : مكانكم ، دعوه يجلس حيث أدرك . . يتعلم التواضع .

وقال مكحول في قوله تعالىٰ : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ ، قال : تكونون في كل عشرين سنة علىٰ حال لم تكونوا علىٰ مثلها .

وقال مكحول : من طاب ريحه . . زاد في عقله ، ومن نظف ثوبه . . قلَّ همه .

وقال : الطيب غذاء الصائم .

وقال مكحول : رأيت رجلاً يصلي ويبكي في ركوعه وسجوده ، فاتهمته أنه يرائي ببكائه ، فحُرمت البكاء سنة .

وقال مكحول : لا تعاهدوا السفيه ولا المنافق ، فما نقضوا من عهد الله تعالىٰ أكبر من عهدكم .

أسند عن عدة من الصحابة ، منهم : أنس بن مالك .

وروىٰ عن حذيفة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، في آخرين رضي الله عنهم أجمعين .

فمما رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يصبح أو يمسي : اللهم ؛ إني أصبحت أشهدك ، وأشهد حملة عرشك ، وملائكتك ، وجميع خلقك ، أنك أنت الله الذي لا إلـه إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك . . أعتق الله رُبْعه من النار ، ومن قالها مرتين . . أعتق الله نصفه من النار ، ومن قالها ثلاثاً . . أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار ، ومن قالها أربعاً . . أعتقه الله من النار »[(١)] .

وعنه عن واثلة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تظهر الشماتة لأخيك ؛ فيعافيه الله ويبتليك »[(٢)] .

وعنه عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُحضروا موتاكم ، ولقنوهم لا إلـه إلا الله ، وبشروهم بالجنة ؛ فإن الحليم من الرجال والنساء يتحيرون عند ذلك المصرع ، وإن الشيطان أقرب ما يكون من ابن آدم عند ذلك المصرع ، والذي نفسي بيده ؛ لمعاينة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف ، والذي نفسي بيده ؛ لا تخرج نفس عبد من الدنيا . . حتىٰ يألم كل عرق منه علىٰ حياله »[(٣)] .

وعنه عن واثلة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يبعث الله عز وجل عبداً يوم القيامة لا ذنب له ، فيقول له الله تبارك وتعالىٰ : أي الأمرين أحب إليك : أن أجزيك بعملك ، أو بنعمتي عليك ؟ فيقول : يا رب ؛ إنك تعلم أني لم أعصك ، قال : خذوا عبدي بنعمة من نعمي ، فما تبقىٰ له حسنة إلا استغرقَتْها تلك النعمة ، فيقول : يا رب ؛

---

(١) أخرجه أبو داوود (٥٠٦٩) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦/٦) بنحوه .
(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/٥٣) ، والترمذي (٢٥٠٦) بلفظ : « فيرحمه » بدل « فيعافيه » .
(٣) أخرجه بنحوه الديلمي (٤/٣٦٥) .

بنعمتك ورحمتك ، فيقول تبارك وتعالىٰ : بنعمتي ورحمتي ، ويؤتىٰ بعبد محسن في نفسه ، لا يرىٰ أن له ذنباً ، فيقول له : هل كنت توالي أوليائي ؟ فيقول : كنت سِلماً من الناس ، قال : فهل كنت تعادي أعدائي ؟ قال : رب ؛ لم يكن بيني وبين أحد شيء ـ والرب جل جلاله أعلم بذلك ـ فيقول الله تبارك وتعالىٰ : لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعادي أعدائي »[1] .

وعنه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أخلص لله تعالىٰ أربعين يوماً . . ظهرت ينابيع الحكمة علىٰ لسانه »[2] .

وعنه عن أبي أيوب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل صلاة تحط ما بين يديها من الخطيئة »[3] .

وعن مكحول ، عن شرحبيل بن السمط قال : مر بي سلمان فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « رباط يوم وليلة . . خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات . . جرىٰ عليه عمله الذي كان يعمل ، وأمن الفتَّان ، وجرىٰ عليه رزقه »[4] انتهىٰ [« الحلية » ١٨٣/٥ـ١٩٠] .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : كان الغالب علىٰ مكحول الحزن ، فلما كان في مرض موته . . وجدوه ضاحكاً ، فقيل له في ذلك ، فقال : ولِمَ لا أضحك وقد دنا فراق من كنت أحذره ، وقدومي علىٰ من كنت أرجوه وأؤمله ، وهو الله سبحانه وتعالىٰ . [انتهىٰ « الرسالة » ٢٣٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٥٩/٢٢) .
(٢) أخرجه الديلمي (٣/ ٥٦٤) .
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٣) ، والطبراني في « الكبير » (٤/ ١٢٦) .
(٤) أخرجه مسلم (١٩١٣) ، أحمد (٥/ ٤٤٠) ، **والفُتَّان** ـ بالضم ـ : جمع فاتن ، وهو الذي يضل الناس ، وبالفتح : الشيطان .

ومنهم الإمام :

أبو عثمان عطاء بن ميسرة الخراساني

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عبد الرحمـٰن بن يزيد بن جابر : كنا نغازي مع عطاء ، فكان يحيي الليل صلاة ، فإذا ذهب من الليل ثلثه أو نصفه . . نادانا وهو في فسطاطه يسمعنا : يا عبد الرحمـٰن بن يزيد بن جابر ، ويا يزيد بن يزيد ؛ ويا هشام بن الغاز ، ويا فلان ، ويا فلان ؛ قوموا وصلوا ؛ فإن قيام هـٰذا الليل وصيام هـٰذا النهار . . أيسر من شراب الصديد ومقطعات الحديد ، الوَحاءَ الوَحاء(١) ، النجاء النجاء ؛ ثم يقبل علىٰ صلاته .

وقال ابن جابر : كان عطاء يقول : إني لا أوصيكم بدنياكم ؛ أنتم بها مستوصون ، وأنتم عليها حراص ، ولـٰكن إنما أوصيكم بآخرتكم ، اعلموا : أنه لن يُعتَق عبد ـ وإن كان في الشرف والمال ، وإن قال : أنا ابن فلان ـ حتىٰ يعتقه الله سبحانه وتعالىٰ من النار ، فجدُّوا في دار العمل لدار الثواب ، وفي دار الفناء لدار البقاء ، وإنما سُمِّيَتِ الدنيا ؛ لأنها أُدنيَ فيها العمل ، وإنما سُمِّيَتِ الآخرة ؛ لأن كل شيء فيها مستأخِرٌ ، وهي دار جزاء وثواب ، ليس فيها عمل ، فإذا أذنبتم . . فألصِقوا إلىٰ كل ذنب : اللهم ؛ اغفر لي ؛ فإنه التسليم لأمر الله سبحانه وتعالىٰ ، وألصِقوا إلى الذنوب : لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله رب العالمين ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأستغفر الله تعالىٰ وأتوب إليه ، فإذا نشرت الصحف ، وجاء هـٰذا الكلام قد ألصق عنده . . رُجي لصاحبه المغفرة ، وأذَهبت هـٰذه الحسنات سيئاته ؛ فإن الله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ ، فمن خرج من الدنيا بحسنات وسيئات . . رُجي له مغفرة سيئاته ، ومن أصر على الذنوب ولم يستغفر . . كان في مشيئة الله سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنه تبارك وتعالىٰ لذو مغفرة للناس علىٰ ظلمهم ، وهو سريع الحساب ، واجعلوا الدنيا كشيء فارقتموه ، فوالله ؛ لتفارقُنَّها ، واجعلوا الموت كشيء ذقتموه ،

---

(١) الوَحاءَ : الإسراع .

فوالله ؛ لتذوقُنَّه ، واجعلوا الآخرة كشيء نزلتموه ، فوالله ؛ لتنزلُنَّها ، وهي دار للناس كلهم ، وأكيس الناس : من تجهز لسفر لا بد منه ، فأخذ في الدنيا لما يجده في الآخرة من الكرامة والزلفىٰ . أو كما قال .

وقال عطاء الخراساني : مَجالس الذكر هي مَجالس الحلال والحرام .

وقال : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ، ألم تر إلىٰ قول يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ، وقال يعقوب عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

وقال : نسجت العنكبوت مرتين : مرة علىٰ داوود عليه الصلاة والسلام لما كان طالوت يطلبه ، ومرة على النبي صلى الله عليه وسلم في الغار(١) .

وقال : يحاسَب العبد يوم القيامة عند معارفه ؛ لتكون أشد عليه .

وقال : إن استطعت أن تخلو بنفسك عشية عرفة . . فافعل .

وقال : أبى الله عز وجل أن يأذن لصاحب بدعة بتوبة .

وقال : قالت امرأة سعيد بن المسيب : ما كنا نكلم أزواجنا إلا كما تكلمون أمراءكم : أصلحك الله ، عافاك الله .

وقال : إن أوثق عملي في نفسي . . نشر العلم .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ قال : من طول ما اغبرَّتْ في سبيل الله عز وجل .

وقال : إن ساعة ما بين المغرب والعشاء ساعة الغفلة ، وهي صلاة الأوابين ، ومن جمع القرآن ، فقرأ من أوله إلىٰ آخره في الصلاة . . كان في رياض الجنة .

أسند عن أنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وأبي هريرة ، وغيرهم من الصحابة ، رضي الله عنهم أجمعين ، وجُلُّ سماعه وأخذه العلم عن كبار التابعين .

توفي سنة خمس وثلاثين ومئة .

ومما رواه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا

---

(١) جاء في نسخة : (وعلىٰ ثالث ، وهو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين صلب عرياناً ، فنسجت العنكبوت علىٰ عورته) اهـ

معاذ ؛ تحب أن يقضي الله دَينك ؟ » قال : نعم يا رسول الله ، فقال : « ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، رحمـٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطي منهما من تشاء ، وتمنع منهما من تشاء ، اقض عني الدَّين ، فلو كان عليك ملء الأرض ذهباً . . لأداه الله عز وجل عنك »[(١)] حديث غريب .

وعن عطاء ، عن أبي رزين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشعرت أن العبد إذا خرج يزور أخاه . . شيعه سبعون ألف ملك ، يقولون : اللهم ؛ صله كما وصل فيك »[(٢)] .

زاد في رواية : « فإن كان صباحاً . . صلَّوا عليه حتىٰ يمسي ، وإن كان مساء . . صلَّوا عليه حتىٰ يصبح ، فإن قدرت أن تعمل جِدَّكَ في ذلك . . فافعل » .

وعن عطاء ، عن نعيم ابن أبي هند ، عن أبي مسهر ، عن حذيفة قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي توفي فيه وعليٌّ مسنده إلىٰ صدره ، فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، كيف تجدك ؟ قال : « صالح » ، فقلت لعليٍّ : ألا تَدَعُني فأُسنِد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ صدري ؛ فإنك قد سهرت وأعييت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ، هو أحق بذلك ، يا حذيفة ؛ ادن مني » فدنوت منه ، فقال : « يا حذيفة ؛ من خُتم له بصوم يوم يبتغي به وجه الله تعالىٰ . . أدخله الله تعالى الجنة ، يا حذيفة ؛ من خُتم له بصدقة علىٰ مسكين يبتغي بها وجه الله . . أدخله الله الجنة » ، قلت : بأبي وأمي ، أُعْلِنُ أم أُسِرُّ ؟ قال : « أَعْلِنْ »[(٣)] هـٰذا حديث مشهور من حديث نعيم ، غريب من حديث عطاء ، تفرد به داوود . انتهىٰ [« الحلية » ٥/١٩٣ـ٢٠٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٤٥) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦/ ٤٩٣) .

(٣) أخرجه بنحوه البزار (٧/ ٣٢٠) .

ومنهم الإمام :

خالد بن معدان

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كان خالد بن معدان يسبح في اليوم والليلة أربعين ألف تسبيحة ، سوىٰ ما يقرأ من القرآن ، فلما مات ووضع علىٰ سريره ليغسل . . جَعل بأصبعه كذا يحركها ؛ يعني : بالتسبيح ، ومات وهو صائم .

وقال خالد بن معدان : قرأت في بعض الكتب : أجع نفسك وأَعْرِها ؛ لعلك ترى الله عز وجل .

وكان إذا أوىٰ إلىٰ فراش مقيله . . ذكر شوقه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلىٰ أصحابه من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين ، ثم يُسَمِّيهم ، ويقول : هم أصلي وفصلي ، وإليهم يحن قلبي ، طال شوقي إليهم ، فعجل ربي قبض روحي إليك ، حتىٰ يغلبه النوم وهو في بعض ذلك .

وقال : والله ؛ لو كان الموت في مكان موضوعاً . . لكنت أول من يسبق إليه .

وقال : إن أدنىٰ حالات المؤمن أن يكون نائماً ، وخير حالات الفاجر أن يكون نائماً .

وقال : إذا فتح الله لأحدكم باب خير . . فليسرع إليه ؛ فإنه لا يدري متىٰ يغلق عنه .

وقال : من قال : سبحان الله وبحمده ، من غير تعجب ، ولا سمعها منه أحد . . جُعل لها عينان وجناحان ، ثم صارت تسبح مع المسبحين .

وقال : إنه ليُشكَر للعبد إذا قال : الحمد لله ، وإن كان علىٰ فراش وَطِيء(١) ، وعنده شابة حسناء .

وعن خالد بن معدان قال : كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ خليلُ الله ـ إذا أُتِيَ بقطف من العنب . . أكل حبة حبة ، وذَكر اسم الله علىٰ كل حبة .

---

(١) وَطِيء : لا يؤذي جنب النائم ، والمعنىٰ : ولو كان في رفاهية من العيش .

وقال خالد : لا يفقه الرجل كل الفقه حتىٰ يرى الناس في جنب الله أمثال الأباعر[1] ، ثم يرجع إلىٰ نفسه ، فيكون لها أحقر حاقر .

وقال : ما من عبد إلا وله أربعة أعين : عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا ، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة ، فإذا أراد الله بعبد خيراً . . فتح عينيه اللتين في قلبه ، فيبصر بهما ما وُعِد بالغيب [ـ وهما غيب ـ فآمن الغيب بالغيب][2] .

وعن خالد بن معدان : عن كثير بن مرة قال : إن من المزيد : أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول : ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يتمنون شيئاً إلا مطروا ، قال خالد : قال كثير : لئن أشهدني الله عز وجل ذلك . . لأقول : أمطرينا جوارٍ مزيَّنات .

وروىٰ خالد بن معدان عن معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبي عبيدة ابن الجراح ، في آخرين من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وأكثر روايته عن جبير بن نُفَيْر ، وغيره من التابعين ، رضي الله عنهم أجمعين .

فمن أحاديثه : عن كثير بن مرة ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذي امرأةٌ زوجَها في الدنيا . . إلا قالت زوجته من الحور العين : لا تؤذيه ـ قاتَلَكِ الله ـ فإنما هو عندك دخيل ، أوشَكَ أن يفارقك إلينا »[3] غريب من حديث خالد عن كثير .

وعنه عن عبد الله بن بسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من وَقَّرَ صاحب بدعة . . فقد أعان علىٰ هدم الإسلام »[4] .

وعنه عن عتبة بن عبد الله : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن رجلاً يخر علىٰ وجهه من يوم ولد إلىٰ أن يموت في مرضاة الله تعالىٰ . . لَحَقَرَ ما عمل يوم القيامة »[5] .

وعنه عن عبد الله ابن أبي بلال الخزاعي ، عن العرباض بن سارية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يختصم الشهداء والمتَوَفَّوْن علىٰ فرشهم في الذين

---

(١) **الأباعر** : جمع بعير .
(٢) الغيب الأول : عينا قلبه ، والثاني : أمر الآخرة .
(٣) أخرجه الترمذي (١١٧٤)، وابن ماجه (٢٠١٤) .
(٤) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٩٦) .
(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٥) .

طعنوا وماتوا علىٰ فرشهم إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، فيقول الشهداء : إخواننا قتلوا كما قتلنا ، ويقول المتوفون علىٰ فرشهم : إخواننا ماتوا علىٰ فرشهم كما متنا ، قال : فيقضي الله عز وجل بينهم ، فيقول : انظروا إلىٰ جراح المطعونين ، فإن أشبهت جراح الشهداء.. فهم منهم ، فينظروا إلىٰ جراح المطعونين ، فإذا هي قد أشبهت جراح الشهداء ، فيلحقون بهم »[1] غريب من حديث عبد الله عن العرباض ، تفرد به خالد . انتهىٰ [« الحلية » ٥/٢١٠ـ٢٢١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٤/١٢٨) .

ومنهم الإمام :

بلال بن سعد
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الأوزاعي : كان بلال بن سعد من العبادة علىٰ شيء لم أسمع أحداً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان مثله .

وكان له في كل يوم وليلة اغتسالة .

وقال الأوزاعي : سمعت بلال بن سعد ولم أسمع واعظاً قط أبلغ منه . انتهىٰ [« الحلية » ٥/٢٢٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال عبد الله بن المبارك : كان محل بلال بن سعد بالشام ومصر كمحل الحسن البصري بالبصرة .

وعن الأوزاعي قال : سمعت بلال بن سعد يقول : واحزناه علىٰ أني لا أحزن! انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٤٩] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : هلك ابن لبلال بن سعد بالقسطنطينية ، فجاء رجل يدعي عليه بضعة وعشرين ديناراً ، فقال له بلال : ألك بينة ؟ قال : لا ، قال : فلك كتاب ؟ قال : لا ، قال : فتحلف ؟ قال : نعم ، فدخل منزله ، وأعطاه الدنانير ولم يحلِّفه ، فقال : إن كنتَ صادقاً . . فقد أديتُ عن ابني ، وإن كنت كاذباً . . فهي عليك صدقة .

وعن الأوزاعي ، عن بلال بن سعد قال : إن الخطيئة إذا أخفيت . . لم تضُرَّ إلا أهلَها ، وإذا ظهرت فلم تُغيَّر . . ضَرَّتِ العامة .

وقال بلال بن سعد في قصصه ـ وكان قاصاً لأهل دمشق ـ : قال الله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فكيف بإيمان قوم متباغضين ؟!

وقال بلال بن سعد : لا تنظر إلىٰ صغر المعصية ، ولـٰكن انظر إلىٰ من عصيته .

وقال بلال بن سعد : رُبَّ مسرورٍ مغبونٌ ، ورب مغبون لا يشعر ، فويل لمن له الويل

وهو لا يشعر ، يأكل ويشرب ، ويضحك ويلعب ، وقد حق عليه في قضاء الله سبحانه وتعالىٰ أنه من أهل النار .

وقال بلال بن سعد : أدركت الناس يتحاثُّون على الأعمال الصالحة : الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، وفِعل الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإنهم اليوم يتحاثون على الرأي .

وعن بلال قال : كفىٰ به ذنباً أن الله عز وجل يزهِّدُنا في الدنيا ونحن نرغب فيها .

وعن الأوزاعي ، عن بلال قال : أدركتهم يضحك بعضهم إلىٰ بعض ، فإذا كان الليل . . كانوا رهباناً .

وقال بلال بن سعد : إذا تقاربت الأعمال . . اشتد البلاء .

وقال بلال : الذِّكر ذِكران : ذكر الله عز وجل باللسان حسن جميل ، وذِكر الله سبحانه وتعالىٰ عند ما أَحَلَّ وحَرَّم أفضل .

وقال بلال : لو أن دلواً من الغساق(١) وضع على الأرض . . لمات مَن عليها .

وقال بلال : زاهدكم راغب ، ومجتهدكم مقصر ، وعالمكم جاهل ، وجاهلكم مغتر .

وقال بلال : أخ لكِ كلما لقيك ذَكَّرك بحظك من الله عز وجل . . خير لك من أخ كلما لقيك وضع لك في كفِّك ديناراً .

وقال بلال : يا أيها الناس ؛ ألستم تقرون بالإساءة ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم ؛ إنك قلت : ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ ، وكل عبادك مُقِرِّين لك بالإساءة ، فاغفر لنا ، واسقنا ، قال : فسُقُوا .

وقال بلال : يا أيها الناس ؛ اتقوا الله فيمن لا ناصر له إلا الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال بلال : إن الله سبحانه وتعالىٰ يغفر الذنوب ، ولـٰكن لا يمحوها من الصحيفة حتىٰ يوقفه عليها يوم القيامة وإن تاب .

وقال بلال : يأمر الله عز وجل بإخراج رجلين من النار ، فيخرجان بسلاسلهما وأغلالهما ، فيوقفان بين يديه عز وجل ، فيقول الله عز وجل : (كيف وجدتما مقيلكما ومصيركما ؟) ، فيقولان : شر مقيل وأسوأ مصير ، فيقول الله عز وجل : (بما قدمت

---

(١) الغسَّاق : ما يسيل من صديد أهل النار وغسالتهم ، وقيل : ما يسيل من دموعهم .

أيديكما ، وما أنا بظلام للعبيد) ، فيأمر بهما إلى النار ، فأما أحدهما . . فيمضي بسلاسله وأغلاله حتىٰ يقتحمها ، وأما الآخر . . فيمضي وهو يلتفت ، فيأمر الله عز وجل بردِّهما ، فيقول الله سبحانه وتعالىٰ للذي غدا بسلاسله وأغلاله حتى اقتحمها : (ما حملك علىٰ ما صنعت وقد اختبرتها ؟) وهو سبحانه أعلم ، فيقول : يا رب ؛ قد ذقت من وبال معصيتك ما لم أكن أتعرض لسخطك ثانياً ، ويقول للذي مضىٰ وهو يلتفت : (ما حملك علىٰ ما صنعت ؟) ، قال : لم يكن هـٰذا ظني بك يا رب ، وأنت أعلم ، قال : (فما كان ظنك ؟) وهو سبحانه وتعالىٰ أعلم ، قال : كان ظني حيث أخرجتني منها أنك لا تعيدني إليها ، قال : فيقول سبحانه وتعالىٰ : (أنا عند ظن عبدي) ، ويأمر بصرفهما إلى الجنة .

وعن الأوزاعي ، عن بلال قال : تُنادى النار يوم القيامة : يا نار أحرقي ، يا نار اشتفي ، يا نار أنضجي ، يا نار كلي ولا تقتلي .

وقال بلال : لكأنا قوم لا يعقلون ، ولكأنا قوم لا يوقنون .

وقال بلال بن سعد في قوله تعالىٰ : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ ، قال : يلتقي أهل السماء والأرض .

وقال بلال : إذا رأيت لَجوجاً ممارياً معجَباً برأيه . . فقد تمت خسارته .

وقال بلال بن سعد : لا تكن ولياً لله عز وجل في العلانية ، وعدوه في السر .

وقال : إن أحدكم إذا لم تنهه صلاته عن ظلمه . . لم تزده عند الله سبحانه وتعالىٰ إلا مقتاً ، وكان يتأول هـٰذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ .

وعن بلال قال : كان أبو الدرداء يقول : (اللهم ؛ إني أعوذ بك من تفرقة القلب ، قيل : وما تفرقة القلب ؟ قال : أن يوضع لي في كل واد مال) .

وكان بلال في دعائه يقول : اللهم ؛ إني أعوذ بك من زيغ القلوب ، ومن تبعات الذنوب ، ومن مرديات الأعمال ، ومضلات الفتن .

وقال بلال في مواعظه : إنكم لم تخلقوا للفناء ، وإنما خلقتم للخلود والأبد ، ولـٰكنكم تنقلون من دار إلىٰ دار .

زاد في رواية : كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ثم الخلود في الجنة أو النار .

وقال بلال : يا عباد الرحمن ؛ يقال لأحدنا : أتحب أن تموت ؟ فيقول : لا ، فيقال :

لِمَ ؟ فيقول : حتىٰ أعمل ، فيقال له : اعمل ، فيقول : سوف أعمل ، فلا يحب أن يموت ، ولا يحب أن يعمل ، وأحب الأشياء إليه . . أن يؤخر العمل لله عز وجل ، ولا يحب أن يؤخر عنه عرض الدنيا .

وقال : مِنَ النِّعم الجاريات عليكم من الرحمـٰن تبارك وتعالىٰ ـ مع ظلمكم أنفسكم وخطاياكم ـ : رزقه سبحانه وتعالىٰ دارٌّ عليكم ، ورحمته غير محجوبة عنكم ، وستره سبحانه وتعالىٰ سابغ عليكم ، وعقابه لم يعجل لكم ، ثم أنتم علىٰ ذلك لأَهْون .

وقال : لو سلِمتم من الخطايا ، فلم تعملوا فيما بينكم وبين الله عز وجل خطيئة ، ولم تتركوا لله عز وجل طاعة إلا أجهدتم أنفسكم في أدائها ، ولم يبق فيكم إلا حب الدنيا . . لَوَسعكم ذلك شراً ، إلا أن يتجاوز الله عز وجل عنكم ويعفو .

وقال : أترغبون عن طاعة الله عز وجل لتعجيل دنيا تفنىٰ عن قريب ؟ ولا ترغبون ولا تنافسون في جنة ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ﴾ والله ؛ لو عُجِّل لكم الثواب في الدنيا . . لاستقللتم جميع ما افترض الله عز وجل عليكم بالنسبة إليه .

وعن الأوزاعي ، عن بلال بن سعد قال : لما حضرت أبي الوفاة . . قال : يا بني ؛ ادع بنيك ، فأمرت أهلي ، فألبَسُوهم قمصاً بيضاً ، فقال : اللهم ؛ إني أعيذهم بك من الكفر ، وضلالة العمل ، ومن السِّباء[1] والفقر إلىٰ بني آدم .

أسند بلال بن سعد عن أبيه سعد بن تميم السكوني ، وعن ابن عمر بن الخطاب ، وجابر بن عبد الله ، رضي الله عنهم أجمعين .

فمن أحاديثه عن أبيه : قال : قيل : يا رسول الله ؛ ما للخليفة بعدك ؟ قال : « مِثلُ الذي لي ما عدل في الحكم ، وأقسط في القسم ، ورحم ذا الرحم ، فمن فعل غير ذلك . . فليس مني ولست منه »[2] انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ٢٢٢ـ٢٣٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) السِّباء : الأسر .

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٤٥) .

ومنهم الإمام :

أبو يوسف يزيد بن ميسرة
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الأوزاعي قال : قدم عطاء الخراساني علىٰ هشام[1] ، فنزل علىٰ مكحول ، ثم قال له : هل هٰهنا أحد يحركنا ؟ قال : نعم ؛ يزيد بن ميسرة ، فأتوه ، فقال له عطاء : حرِّكنا رحمك الله ، قال : نعم ، كانت العلماء إذا علموا . . عملوا ، فإذا عملوا . . شغلوا بأنفسهم ، فإذا شغلوا . . فُقِدوا ، فإذا فُقِدوا . . طُلِبوا ، فإذا طُلِبوا . . هربوا ، قال : أعد عليَّ ، فأعاد عليه ، فرجع عطاء ولم يلق هشاماً .

وقال يزيد بن ميسرة : لا تبذل علمك لمن لا يسأله ، ولا تنثر الدر أو اللؤلؤ عند من لا يلتقطه ، ولا تنشر بضاعتك عند من يكسدها عليك .

وقال : كان أشياخنا يسمون الدنيا : الدنية ، ولو وجدوا لها اسماً شراً منه . . لسموها به ، وكانوا إذا أقبلت علىٰ أحدهم دنيا . . قالوا : إليكِ إليكِ عنا يا خنزيرة ، لا حاجة لنا بك ، إنا نعرف إلـٰهنا .

وقال : البكاء من خمسة أشياء : من الفرح والحزن ، والفزع ، والوجع ، والرياء ، والشكر .

وبكاء من خشية الله سبحانه وتعالىٰ ، فذلك الذي تطفِىء الدمعةُ منه أمثالَ الجبال من النار .

وقال : لا تضر نعمة معها شكر ، ولا بلاء معه صبر ، ولَبلاء في طاعة الله سبحانه وتعالىٰ . . خير من نعمة في معصية الله تعالىٰ .

وقال : كل مَهْرٍ لا يوضع لله عز وجل منه شيء . . فهو غير مبارك .

وقال : المرأة الفاجرة كألف فاجر ، والمرأة الصالحة يكتب لها عمل مئة صدِّيق .

---

(١) ابن عبد الملك ، وهو والي أمور المسلمين يومئذ .

وقال : كانت أحبار بني إسرائيل الصغير منهم والكبير لا يمشي إلا بالعصا ؛ مخافة أن يختال في مشيته إذا مشىٰ .

وقال : إن ظللت تدعو علىٰ رجل ظلمك . . فإن الله عز وجل يقول : إن رجلاً آخر قد ظلمته يدعو عليك ، إن شئت . . استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت . . أخرتكما إلىٰ يوم القيامة ، ووَسِعَكُما عفوي . أو كما قال .

وعن يزيد بن ميسرة رحمه الله : أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام كان يقول لأصحابه : (إن استطعتم أن تكونوا بُلْهاً في الله عز وجل مثل الحمام . . فافعلوا ؛ فإنه لا شيء أبْلَهُ من الحمام ، تأخذ فرخيه من تحته ، فتذبحهما ، ثم يعود إلىٰ مكانه ذلك ، فيفرِّخ فيه .

وقال أبو راشد : بعثني يزيد بن ميسرة إلىٰ غريم له ، فلزمته ، فقال لي غريمه : مُرْ أبا يوسف يأتي ليقبض حقه ، فأخرجته من المسجد ، فقعد علىٰ موضع ، ثم قال لغريمه : أعطني حقي ، قال له : ائت القاضي ، قال : ولِمَ ؟ قال : أخاصمك إليه ، قال له : ادفع إليَّ حقي ، وإلا . . فانطلِقْ ، فقلت له : يا أبا يوسف ؛ ائت القاضي ، فقال : وما يؤمنني أن يكلمني القاضي بكلام لا أرضىٰ به ؟! وقد قال الله عز وجل : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

وعن يحيى بن جابر : أن يزيد بن ميسرة سأل العباس بن الوليد أن يطرح عطاءه ، وأنه باع جميع ما كان له ، وتصدق به ، حتىٰ باع منزله الذي كان يسكنه ، وكان يقول بعد ذلك : اللهم ؛ لا تجعل لي حاجةً إلىٰ غير وجهك الكريم ، اللهم ؛ عجل قبضي إليك ، فلم يلبث إلا يسيراً حتىٰ قبضه الله عز وجل .

أسند ابن ميسرة عن أم الدرداء رضي الله عنها .

فمن أحاديثه عن أم الدرداء : عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من شيء أثقل في الميزان من الخُلُق الحَسن »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٥/٢٣٤ـ٢٤٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه أبو داوود (٤٧٩٩) ، وأحمد (٦/٤٤٨) .

ومنهم الإمام :

إبراهيم ابن أبي عبلة
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : أمر الوليد بن عبد الملك إبراهيم ابن أبي عبلة أن يتكلم ، قال : فتكلمت ، فلقيني عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقال : يا إبراهيم ؛ لقد وعظت موعظة وقعت من القلوب .

زاد في رواية : قال لي الوليد بن عبد الملك : في كم تختم القرآن ؟ قلت : في كذا وكذا ، فقال : إن أمير المؤمنين علىٰ شغله يختم القرآن في كل سبع أو ثلاث .

وبعث لي هشام بن عبد الملك فقال : يا إبراهيم ؛ إنا قد عرفناك صغيراً ، واختبرناك كبيراً ، فرضينا سيرتك وحالك ، وقد رأيت أن أخلطك بنفسي وخاصتي ، وأشركك في عملي ، وقد وليتك خراج مصر ، فقال إبراهيم : أمَّا الذي عليه رأيك يا أمير المؤمنين . . فالله يجزيك ويثيبك ، وكفىٰ بالله سبحانه وتعالىٰ جازياً ومثيباً ، وأما الذي أنا عليه . . فما لي بالخراج بَصَرٌ ، وما لي عليه قوة ، قال : فغضب حتى اختلج[1] وجهه ، ونظر إلي نظراً منكراً ، ثم قال : لَتَلِيَنَّ طائعاً أو لَتَلِيَنَّ كارهاً ، قال : فأمسكت عن الكلام حتىٰ رأيت غضبه قد انحدر ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن الله عز وجل قال في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ، فوالله يا أمير المؤمنين ؛ ما غضب الله عليهن إذ أبين ، وهو سبحانه وتعالىٰ خالقهن ، قال : فضحك ، ثم قال : يا إبراهيم ؛ قد أبيت إلا فقهاً ، قد رضينا عنك وأعفيناك .

وقال إبراهيم : رحم الله الوليد ، فأين مثل الوليد ، هدم كنيسة دمشق ، وبنىٰ مسجد دمشق ، وكان يعطيني قصاع الفضة أقسمها علىٰ قراء بيت المقدس .

---

(١) **اختلج لحم وجهه** : أي ضمر وتقبض .

أدرك إبراهيم عدة من الصحابة ، منهم : أنس بن مالك ، وغيره ، رضي الله عنهم أجمعين ، وروىٰ عن عبادة بن الصامت ، وغيره . انتهىٰ [« الحلية » ٥/٢٤٣ـ٢٤٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق كعب الأحبار
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال كعب : المؤمن الزاهد والمملوك الصالح . . آمنان من الحساب ، وطوبىٰ لهم كيف يحفظهم الله تعالىٰ في ديارهم ، إن الله إذا أحب عبده المؤمن . . زوىٰ عنه الدنيا ؛ ليرفعه درجاتٍ في الجنة ، وإذا أبغض عبده الكافر . . بسط له من الدنيا ؛ حتىٰ يسفله درجات في النار ، ويقول الله عز وجل لعباده الصابرين الراضين بالفقر : أبشروا ولا تحزنوا ؛ فإن الدنيا لو وزنت عندي جناح بعوضة مما لكم عندي . . لما أعطيتهم منها شيئاً .

وقال كعب : إذا اشتكى الفقراء الفقر والحاجة إلى الله عز وجل . . قيل لهم : أبشروا ولا تحزنوا ؛ فإنكم سادة الأغنياء ، والسابقون إلى الجنة يوم القيامة .

وقال كعب : كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بالفقر والبلاء أشدَّ فرحاً منهم بالرخاء ، وكان البلاء عليهم مضعَّفاً ، حتىٰ إن كان أحدهم ليقتل في الله عز وجل ، فإذا رأىٰ رخاء . . ظن أنه قد أصاب ذنباً .

وقال : مَن تضعضع[1] لصاحب دنيا أو مال . . تضعضع دِينه ، ومن التمس الفضل عند غير الله عز وجل . . مَقَتَه الله تعالىٰ ، ولم يصب من الدنيا إلا ما كتب الله له ، وإن الله تبارك وتعالىٰ ليبغض كل جمَّاع للمال ، منَّاع للخير مستكبر ، ويبغض كل حبر سمين .

وقال كعب : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الجبارين والذئاب الضواري ! ! فإن أحببتم أن تبلغوا ملكوت السماوات . . فأميتوا قلوبكم لله عز وجل .

وقال كعب : ما كَرُمَ عبد على الله عز وجل . . إلا زاد البلاءُ عليه شدة ، ولا أعطىٰ رجل

---

(١) تَضعضَع : خضع وذلَّ .

صدقَةَ مالِهِ فنقصت من ماله ، ولا حبسها فزادت في ماله ، ولا سرق سارق . . إلا حسب من رزقه .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً لكعب : يا كعب ؛ حدثنا عن الموت ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ غصن كثير الشوك ، يدخل في جوف الرجل ، فتأخذ كل شوكة بعرق ، يجذبه رجل شديد الجذب ، فأخذ ما أخذ ، وأبقىٰ ما أبقىٰ .

وقال كعب : ما من رجل بكىٰ من خشية الله عز وجل ، فتسيل دموعه على الأرض ، فتقطر ، فتصيبه النار أبداً . . حتىٰ يرجع قطر السماء إذا وقع على الأرض إلى السماء .

ودخل جماعة علىٰ كعب وهو مريض ، فقيل له : كيف تجدك ؟ قال : جسد أُخِذ بذنبه ، فإن قُبض علىٰ هٰذه الحالة . . فإلىٰ رحيم ، وإن يعافيه . . ينشئه خَلْقاً لا ذَنْب له .

وعن كعب قال : ما استقر لعبد ثناء في الأرض . . حتىٰ يستقر له في السماء .

وقال : وددت أني كبش أهلي ، فذبحوني ، فأكلوا ، وأطعموا ضيفهم .

وقال : أنيروا بيوتكم بذِكر الله عز وجل ، واجعلوا في بيوتكم حظّاً من صلاتكم ، فوالذي نفس كعب بيده ؛ إنكم لمعروفون في أهل السماء ، فلان بن فلان يعمر بيته بذكر الله عز وجل .

وقال كعب : الرعية تصلح بصلاح الوالي ، وتفسد بفساده .

وقال : يأتي على الناس زمان ، ترفع فيه الأمانة ، وتنزع فيه الرحمة ، وتكثر فيه المسألة ، فمن سأل في ذلك الزمان . . لم يبارَكْ له فيه .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ : أتدرون ما ورودها ؟ تبرز جهنم للناس كأنها متن إهالة[1] ، حتىٰ تستوي عليها أقدام الخلائق ، برهم وفاجرهم ، فينادي مناد : أن خذي أصحابك ودعي أصحابي ، فيخسف بكل ولي لها ، فلهي أعرف بهم من الرجل بولده ، ويخرج المؤمنون منها ندية ثيابهم .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب : خوِّفنا يا كعب ، قال : والله ؛ إن لله تعالىٰ ملائكة قياماً ، منذ خَلَقَهم ما ثنوا أصلابهم ، وآخرين ركوع ما رفعوا أصلابهم ، وآخرين

---

(١) **الإهالة** : للشحم أو ما أذيب منه ، أو الزيت وكل ما ائتدم به ، **والمتن** : ما صلب من الأرض وارتفع ، فكأنه شبه جهنم بالشحم الصلب المتجمد ، ما أن يذوب حتىٰ يغور فيه كل ما كان عليه لميوعته عند ذوبانه .

سجود ما رفعوا رؤوسهم ، حتىٰ يُنفَخَ في الصور النفخة الأخيرة ، فيقولون جميعاً : سبحانك وبحمدك ، ما عبدناك حق عبادتك ، ثم قال : والله ؛ لو أن الرجل يومئذ عمل عمل سبعين نبياً . . لاستقل عمله ؛ من شدة ما يراه يومئذ ، والله ؛ لو دُلِّيَ من غِسلين[1] دلو واحد في مطلع الشمس . . لغلت منها جماجم قوم في مغربها ، والله ؛ لتزفرن جهنم زفرة لا يبقىٰ ملَك مقرَّبٌ ولا غيره إلا خرَّ جاثياً علىٰ ركبتيه ، يقول : رب ؛ نفسي نفسي ، وحتىٰ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال : فأبكى القومَ ، فقال عمر رضي الله عنه : بشِّرْنا ، فقال : أبشروا ؛ فإن لله سبحانه وتعالىٰ ثلاث مئة وأربع عشرة شريعة ، لا يأتي بواحدة منهم مع كلمة الإخلاص رجل ؛ إلا أدخله الله تعالى الجنة ، ولو تعلمون كل رحمة . . لأبطأتم في العمل ، والله ؛ لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت من السماء في ليلة ظلماء . . لأضاءت لها الأرض ، ووالله ؛ لو أن ثوباً من ثياب أهل الجنة نشر اليوم في الدنيا . . لصعق مَن ينظر إليه وما حملته أبصارهم .

وقال عمر رضي الله عنه لكعب : خوِّفنا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ اعمل عمل رجل لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبياً . . لازدريت عملك مما ترىٰ ، فأطرق عمر ملياً ، ثم أفاق ، فقال : زدنا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجلٌ بالمغرب . . لغلىٰ دماغه حتىٰ يسيل من حرها .

وقال كعب رحمه الله : إن الخازن من خزان جهنم مسيرة ما بين منكبيه سنة ، وإن مع كل واحد منهم لعموداً له شعبتان من حديد ، يدفع به الدفعة ، فيكب في النار سبع مئة ألف .

وقال كعب : يحشر الجبارون يوم القيامة مثل الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل ـ أو قال : يأتيهم ـ من كل مكان ، يسلكون في سقر ، ويسقون من طينة الخبال ، [وهي] : عصارة أهل النار .

وقال كعب : إذا كان يوم القيامة . . جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فنزلت الملائكة ، فصاروا صفوفاً ، فيقول الله عز وجل : يا جبريل ؛ ائت بجهنم ، فيأتي بها جبريل تقاد بسبعين ألف زمام ، حتىٰ إذا كانت من الخلائق علىٰ قدر مئة عام . . زفرت زفرة طارت لها أفئدة الخلائق ، ثم زفرت ثانية ، فلا يبقىٰ ملَك مقرَّب ، ولا نبي مرسل . . إلا جثا لركبتيه ، ثم تزفر الثالثة ، فتبلغ القلوب الحناجر ، وتذهل العقول ، فيفزع كل امرىء إلىٰ

---

(١) الغِسلين : ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم ، وهو شر طعام أهل النار .

عمله ، حتىٰ إن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يقول : بِخلَّتي لا أسألك إلا نفسي ، ويقول موسىٰ : بمناجاتي لا أسألك إلا نفسي ، وإن عيسىٰ ليقول : بما أكرمتني لا أسألك إلا نفسي ، لا أسألك مريم التي ولدتني ، ومحمد صلى الله عليه وعلىٰ سائر النبيين وسلم يقول : أمتي ، أمتي لا أسألك نفسي اليوم ، إنما أسألك أمتي ، قال : فيُجيبه الجليل جل جلاله : ألا إن أوليائي لا خوف عليهم ولا هم يحزنونْ ، فوعزتي وجلالي . . لأقِرَّنَّ عينيك في أمتك ، ثم تقف الملائكة بين يدي الله عز وجل ينتظرون ما يؤمرون ، فيقول الله تبارك وتعالىٰ : معاشر الزبانية . . انطلقوا بالمُصِرِّين من أهل الكبائر من أمة محمد إلى النار ، فقد اشتد غضبي عليهم بتهاونهم بأمري في دار الدنيا ، واستخفافهم بحقي ، وانتهاكهم حرمتي ، يستخفون من الناس لا يستخفون مني ، ويبارزونني بالمعاصي مع كرامتي لهم ، وتفضيلي إياهم على الأمم ، ولم يعرفوا فضلي وعظيم نعمتي ، فعندها تأخذ الزبانية بلِحى الرجال وذوائب النساء ، فتنطلق بهم إلى النار .

وما من عبد يساق إلى النار من غير هـٰذه الأمة . . إلا وهو مُسْوَدٌّ وجهه ، قد وضعت الأنكال في قدمه ، والأغلال في عنقه . . إلا من كان من هـٰذه الأمة ، فإنهم يساقون بألوانهم ، فإذا وردوا علىٰ مالك عليه السلام . . قال لهم : معاشر الأشقياء ؛ من أي أمة أنتم ، فما ورد عليَّ أحسنُ وجوهاً منكم ؟ فيقولون : يا مالك ؛ نحن أمة القرآن ، فيقول لهم مالك : أَوَليس القرآن أنزل علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فيرفعون أصواتهم بالنحيب والبكاء ، فيقولون : وا محمداه ، يا محمد ؛ اشفع لمن أُمر به إلى النار من أمتك ، قال : فيُنادىٰ مالك بتهدد وانتهار : يا مالك ؛ من أمرك بمعاتبة أهل الشقاء ومحادثتهم والتوقف عن إدخالهم العذاب ؟! يا مالك ؛ لا تسود وجوههم ، فقد كانوا يسجدون لي في دار الدنيا ، يا مالك ؛ لا تغلهم بالأغلال ، فقد كانوا يغتسلون من الجنابة ، يا مالك ؛ لا تقيدهم بالأنكال ، فقد طافوا حول بيتي الحرام ، يا مالك ؛ لا تلبسهم القطران ، فقد خلعوا ثيابهم للإحرام ، يا مالك ؛ مُرِ النار لا تحرق ألسنتهم ، فقد كانوا يقرؤون القرآن ، يا مالك ؛ قل للنار تأخذهم علىٰ قدر أعمالهم ، والنار أعرف بهم وبمقادير استحقاقهم من الوالدة بولدها ، فمنهم من تأخذه النار إلىٰ كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلىٰ ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار إلىٰ سرته ، ومنهم من تأخذه النار إلىٰ صدره .

فإذا انتقم الله عز وجل منهم علىٰ قدر كبائرهم وعتوهم وإصرارهم . . فتح بينهم وبين المشركين باباً ، فرأوهم في الطبق الأعلىٰ من النار ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ،

يبكون ، ويقولون : يا محمداه ؛ ارحم من أمتك الأشقياء ، واشفع لهم ، فقد أكلت النار لحومهم ودماءهم وعظامهم ، ثم ينادون : يا رباه ، يا سيداه ؛ ارحم من لم يشرك بك في دار الدنيا ، وإن كان قد أساء وأخطأ وتعدىٰ ، فعندها يقول المشركون لهم : ما أغنىٰ عنكم إيمانكم بالله ومحمد ، فيغضب الله سبحانه وتعالىٰ لذلك ، فيقول : يا جبريل ؛ انطلق ، فأخرج مَن في النار من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيخرجهم ضبائر قد امتحشوا[١] ، فيلقيهم علىٰ نهر علىٰ باب الجنة يقال له : نهر الحياة ، فيمكثون حتىٰ يعودوا أنضر ما كانوا ، ثم يأمر بإدخالهم الجنة ، مكتوب علىٰ جباههم هـٰؤلاء الجهنميون ، عتقاء الرحمـٰن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيُعرفون من بين أهل الجنة بذلك ، فيتضرعون إلى الله عز وجل أن يمحو عنهم تلك السِّمَةَ ، فيمحوها الله تعالىٰ عنهم ، فلا يُعرفون بها بعد ذلك من بين أهل الجنة .

وقال كعب : إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان إذا ذكر النار . . قال : أواه من النار ، أواه من النار ، فقال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ ﴾ .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ : في الساعة الواحدة عشرين ومئة مرة .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ : لو أن حلقة منها وزن بجميع حديد الدنيا . . ما وزنها .

وعن كعب قال : يؤمر بالرجل إلى النار ، فيبتدره مئة ألف ملَك ، أو أكثر من مئة ألف ملك .

وقال : من أراد أن يبلغ شرف الآخرة : فليكثر التفكر . . يكن عالماً ، وليرض بقوت يومه . . يكن غنياً ، وليكثر البكاء عند ذكر خطاياه . . يطفىء الله عز وجل [عنه] بُحور جهنم .

وقال : طلب العلم مع السمت الحسن ، والعمل الصالح . . جزء من النبوة .

وقال : يوشك أن تروا جُهَّال الناس يتباهَون بالعلم ، ويتغايرون عليه كما تتغاير النساء على الرجال ، فذلك حظهم من العلم .

---

(١) **الضبائر** : جماعات الناس ، **وامتحشوا** : احترقوا .

وكان يقول : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . . من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر الشيطان وحزبه .

وقال : لو حَبس الله الريح عن الناس ثلاثة أيام . . لأنتن ما بين السماء والأرض .

وقال : ما نظر الله عز وجل قط إلى الجنة . . إلا قال : طيبي لأهلك ، فزادت طيباً علىٰ ما كانت عليه حتىٰ يدخلها أهلها .

وقال : إن لله تعالىٰ لداراً ، درة فوق درة ، أو لؤلؤة فوق لؤلؤة ، فيها سبعون ألف قصر ، في كل قصر سبعون ألف دار ، في كل دار سبعون ألف بيت ، لا يسكنها إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عادل ، وقال : يطاف عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ، في كل صحفة لون وطعم ليس في الأخرىٰ ، وقال قتادة : ألف غلام ، كل غلام علىٰ عمل ليس عليه صاحبه .

وقال كعب : في الجنة عمود من ياقوتة حمراء ، في أعلاه سبعون ألف غرفة ، هي منازل المتحابين في الله تعالىٰ ، مكتوب علىٰ جباههم : المتحابون في الله ، إذا أشرف الرجل منهم علىٰ أهل الجنة . . أضاء لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا ، فيقولون : هـٰذا رجل من المتحابين في الله عز وجل .

زاد في رواية : إذا اطلع . . ينظرون في وجهه مثل القمر ليلة البدر .

وقال : إن أدنىٰ أهل الجنة منزلة يوم القيامة ليؤتىٰ بغدائه في سبعين ألف صحفة ، في كل صحفة لون ليس في الآخر ، فيجد لذة آخره كأوله .

وقال : جنة المأوىٰ فيها طير خضر ، يرفع فيها أرواح الشهداء .

وقال : إذا كان يوم القيامة . . ينادي مناد : ليقم أهل الظمإ والذين جوعوا أنفسهم لله عز وجل ، فيقومون من بين الصفوف ، فيؤتىٰ بهم إلىٰ مائدة منصوبة ، لم تر العيون ، ولم تسمع الآذان بمثلها ، فيجلسون عليها والناس في الحساب .

وقال : إن جبريل عليه الصلاة والسلام علَّمَ آدم عليه الصلاة والسلام أن يقول : اللهم ؛ اكفني مؤونة الدنيا ، وأهوال يوم القيامة ، وأدخلني الجنة التي قدَّرْتَ عليَّ الخروج منها .

وقال : صلاة بعد صلاة لا يحدث بينهما لغو . . كتاب في عليين .

وقال : كان داوود عليه الصلاة والسلام يستقبل الليل والنهار ، ويقول : اللهم ؛ خلصني اليوم من كل مصيبة نزلت من السماء إلى الأرض ، اللهم ؛ اجعل لي سهماً في كل حسنة نزلت من السماء إلى الأرض (ثلاث) مرات .

وعن عطية العوفي قال : قام كعب الأحبار ، فأخذ بيد العباس رضي الله عنهما فقال : ادخرها لي عندك تشفع لي يوم القيامة ، فقال العباس : وهل لي شفاعة ؟ فقال كعب : نعم ؛ إنه ليس أحد من أهل بيت نبي يُسلِمُ . . إلا كانت له شفاعة يوم القيامة .

وقال : لا يذهب ألم الموت عن الميت ما دام في قبره ، وإنه لأشد ما يمر على المؤمن ، وأهون ما يصيب الكافر .

أسند عن أكابر الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وتوفي قبل مقتل عثمان رضي الله عنه بسَنَة . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ٣٦٤ـ٣٨٤ و ٦/ ٢٦ـ٤٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الرحمـٰن بن عمرو الأوزاعي
رضي الله عنه

قال شيخ الإسلام محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : كنيته أبو عمرو الشامي الدمشقي ، كان إمام أهل الشام في عصره بلا مدافعة ولا مخالفة .

وكان أهل الشام والمغرب علىٰ مذهبه قبل انتقالهم إلىٰ مذهب مالك رحمه الله تعالىٰ .

وكان يسكن دمشق خارج باب الفراديس ، ثم تحول إلىٰ بيروت ، فسكنها مرابطاً إلىٰ أن مات بها .

وهو من تابعي التابعين .

سمع جماعات من التابعين ؛ كعطاء ابن أبي رباح ، وقتادة ، ونافع مولى ابن عمر ، والزهري ، ومحمد بن المنكدر ، وغيرهم .

وروىٰ عنه جماعة من التابعين وشيوخه : كقتادة ، والزهري ، ويحيى ابن أبي كثير ، وجماعات من أقرانه وكبار العلماء : كسفيان ، ومالك ، وشعبة ، وابن المبارك ، وخلائق لا يحصون .

واختلفوا في الأوزاع التي نسب إليها ، فقيل : بطن من حمير ، وقيل : من همْدان ـ بإسكان الميم ـ وقيل : إن الأوزاع قرية كانت عند باب الفراديس من دمشق ، وهو نسبة إلىٰ أوزاع القبائل ؛ أي : فرقها وبقايا مجتمعة من قبائل شتىٰ .

ولد سنة ثمان وثمانين ، ومات سنة سبع وخمسين ومئة .

قال أبو زرعة الدمشقي : كان اسم الأوزاعي عبد العزيز ، فسمىٰ نفسه : عبد الرحمـٰن

قلت : وقد أجمع العلماء علىٰ إمامة الأوزاعي ، وجلالته ، وعلو مرتبته ، وكمال فضيلته ، وأقوال السلف فيه كثيرة مشهورة ، مصرِّحة بورعه ، وعبادته ، وقيامه بالحق ، وكثرة أحاديثه ، وغزارة فقهه ، وشدة تمسكه بالسُّنَّة ، وبراعته في الفصاحة ، وإجلال أعيان

الأئمة في عصره ـ من الأقطار ـ له ، واعترافهم بمرتبته ومنزلته .

رُوِّينا عن هِقْل ـ بكسر الهاء وإسكان القاف ، وهو أثبت الناس في الرواية عن الأوزاعي ـ قال : أجاب الأوزاعي في سبعين ألف مسألة أو نحوها .

وعن غيره : أنه أفتىٰ في ثمانين ألف مسألة .

وقال عبد الحميد بن حبيب ابن أبي العشرين : سمعت أميراً كان بالساحل وقد دفنَّا الأوزاعي ، ونحن عند القبر يقول : رحمك الله يا أبا عمرو ، فقد كنت أخافك أكثر ممن ولاَّني .

وعن عبد الرحمـٰن بن مهدي قال : ما كان بالشام أحد أعلم بالسُّنَّة من الأوزاعي .

وعن محمد بن شعيب قال : قلت لأمية بن يزيد : أين الأوزاعي من مكحول ؟ فقال : هو عندنا أرفع من مكحول ، قلت له : إن مكحولاً قد رأىٰ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : وإن كان قد رآهم ؛ فأين فضل الأوزاعي في نفسه ؛ فَقَدْ جمع العبادة والورع والقول بالحق .

وعن عبد الرحمـٰن بن مهدي قال : الأئمة في الحديث أربعة : الأوزاعي ، ومالك ، وسفيان الثوري ، وحماد بن زيد .

وقال أبو حاتم : الأوزاعي إمام متبع لما سمع .

وعن سفيان الثوري : أنه بلغه مَقْدَمُ الأوزاعي ، فخرج حتىٰ لقيه بذي طوىٰ ، فحل سفيان رأس البعير عن القطار[1] ووضعه علىٰ رقبته ، وكان إذا مر بجماعة . . قال : الطريق للشيخ .

وذَكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله في « الطبقات » : أن الأوزاعي سئل عن الفقه ـ يعني : استُفْتِيَ ـ وله ثلاثَ عشرة سنة .

وأقوال السلف في أحواله ومناقبه كثيرة .

وكان مولده ببعلبك ، ومات في حمَّام بيروت ، دخل الحمام ، فذهب الحمَّامي في حاجة ، وأغلق عليه الباب ، ثم جاء ، ففتح الباب ، فوجده ميتاً ، متوسداً يمينه ، مستقبل القبلة ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢٩٨ـ٣٠٠] .

---

(١) القطار من الإبل : عدد منها بعضه خلف بعض علىٰ نسق واحد .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال الأوزاعي : ليس ساعة من ساعات الدنيا . . إلا وهي معروضة على العبد يوم القيامة ، يوماً يوماً وساعة ساعة ، فالساعة التي لا يذكر الله عز وجل فيها إذا مرت به . . تقطعت نفسه عليها حسرات ، فكيف إذا مرت ساعة مع ساعة ويوم مع يوم ؟!

وقال موسى بن أعين : قال لي الأوزاعي : يا أبا سعيد ؛ كنا نمزح ونضحك ، فلما صرنا يقتدىٰ بنا ما أرىٰ يسعنا التبسُّم .

وكان لا يكلم أحداً بعد صلاة الفجر ، فإن كلمه أحد . . أجابه ، وقال : من أطال قيام الليل . . هون عليه موقفه يوم القيامة .

وقال : رأيت رب العزة جل جلاله في المنام ، فقال لي : يا عبد الرحمـٰن ؛ أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر ؟ قلت : بفضلك يا رب ، ثم قلت : يا رب ؛ أَمِتْني على الإسلام ، فقال جل جلاله : وعلى السُّنَّة .

وقال المعافى بن عمران(١) : قال الأوزاعي : كان السلف إذا طلع الفجر أو قبله بشيء كأنما علىٰ رؤوسهم الطير ، مقبلين علىٰ أنفسهم ، حتىٰ لو أن أحدهم كان غائباً وقدم إذ ذاك . . ما التُفت إليه ، ولا يزالون كذلك حتىٰ يكون قريباً من طلوع الشمس ، ثم يقوم بعضهم إلىٰ بعض ، فيتحلقون ، وأول ما يفيضون فيه أمر معادهم وما هم صائرون إليه ، ثم يفيضون في الفقه والقرآن .

وقال يزيد بن مذكور : رأيت الأوزاعي في منامي ، فقلت : يا أبا عمرو ؛ دُلَّني علىٰ أمر أتقرب به إلى الله عز وجل ، فقال لي : ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلم لله عز وجل ، قلت : ثم ما بعدها ؟ قال : درجة المحزونين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٧٩ـ١٨١] .

وقال الأوزاعي للمنصور : يا أمير المؤمنين ؛ قد كنتَ في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس ، الذين أصبحت تُسأل عن كل واحد منهم ، وعن نصيبه من العدل منك ، فكيف بك إذا قاموا وهم متعلقون بك كل واحد منهم يشتكي ظلامته منك إلى الله سبحانه وتعالىٰ ؟! انتهىٰ [« الحلية » ٦/١٣٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) في « الصفوة » : (عن مسلمة بن علي) . وذكر المعافىٰ في خبر قبله .

ومنهم الإمام :

أبو بكر حسان بن عطية
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الأوزاعي قال : كان حسان بن عطية يتنحىٰ إذا صلى العصر في ناحية المسجد ، فيذكر الله عز وجل حتىٰ تغيب الشمس .

وقال حسان : من أطال قيام الليل . . يهُون عليه طول القيام يوم القيامة .

وقال الأوزاعي : كان لحسان غنم ، فلما سمع ما جاء في المنائح[1] . . تركها ، قيل للأوزاعي : وما جاء فيها ؟ قال : يوم له ويوم لجاره .

وعن الأوزاعي ، عن حسان قال : لقد غرب الخير اليوم فيمن يرىٰ أنه من أهل الخير .

وقال حسان : صلاة الرجل عند أهله من عمل السر .

وعن الأوزاعي ، عن حسان رحمه الله قال : ثلاثة ليس عليهم حساب في مطعمهم : الصائم حين يفطر ، و[الصائم] حين يتسحر ، وطعام الضيف .

وعن الأوزاعي قال : قدم غيلان القدري في خلافة هشام بن عبد الملك ، فتكلم وكان رجلاً مفوهاً ، فلما فرغ من كلامه . . قال لحسان : ما تقول فيما سمعت ؟ فقال حسان : يا غيلان ؛ إن كان لساني يَكِلُّ عن جوابك . . فإن قلبي ينكر ما تقول .

وفي رواية أخرىٰ : إنا لنعرف باطل ما تأتي به .

وقال حسان : ما ابتُدِعت بدعة . . إلا ازدادت مضياً ، ولا تُرِكت سُنَّة . . إلا ازدادت هرباً .

وقال : يفضل دعاء السر على العلانية سبعين ضعفاً .

وكان إذا أمسىٰ . . قال : الحمد لله الذي ذهب بالنهار ، وجاء بالليل سكناً نعمة منه

(١) **المنائح** : مفردها منحة ، وهي : الشاة أو الناقة المعارة للبن خاصة .

وفضلاً ، اللهم ؛ اجعلنا لك من الشاكرين ، الحمد لله الذي عافاني في يومي هـٰذا ، فرُبَّ مبتلىً قد ابتلي فيما مضىٰ من عمره ، اللهم ؛ عافني فيما مضىٰ من عمري في الدنيا والآخرة ، وقني عذاب النار ، وإذا أصبح . . قال ذلك ، إلا أنه يقول : وجاء بالنهار مبصراً .

وقال : ما جلس قوم مجلس لغو فختموه بالاستغفار . . إلا كتب مجلسهم ذلك استغفاراً كله .

وكان يقول : اللهم ؛ إني أعوذ بك من الشيطان ، ومن شر ما تجري به الأقلام ، وأعوذ بك أن تجعلني عبرة لغيري ، وأعوذ بك أن تجعل غيري أسعد بما آتيتني مني ، وأعوذ بك أن أستعين بشيء من نعمك علىٰ معاصيك ، وأعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك ، وأعوذ بك أن أقول قولاً أبتغي به غير وجهك ، اللهم ؛ اغفر لي ؛ فإنك بسِرِّي عالم ، ولا تعذبني ؛ فإنك علىٰ كل شيء قدير .

وقال : ما سلك عبد وادياً فرفع يديه فرغب إلى الله عز وجل حيث لا يراه أحد . . إلا ملأ الله ذلك الوادي حسنات ، كبيراً كان ذلك الوادي أو صغيراً .

وقال حسان : خمس من كن فيه . . فقد جمع الله له الإيمان : النصيحة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وحب الله ورسوله ، وأن يبذل للناس من نفسه الرضا ويكف عنهم السخط ، وأن يصل ذا رحمه ، ومَن كان ذِكره في السر كذِكرِه في العلانية .

وقال : إن حملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت حسن رخيم ، قال : فيقول أربعة منهم : سبحانك وبحمدك علىٰ حلمك بعد علمك ، ويقول الأربعة الآخرون : سبحانك وبحمدك علىٰ عفوك بعد قدرتك .

وقال : ما ازداد عبد علماً . . إلا ازداد الناس منه قرباً ورحمة من الله عز وجل .

وقال حسان : إن العبد إذا قال عند طعامه : اللهم ؛ اجعله رزقاً طيباً لا تبعة فيه ولا حساب . . فقد أدىٰ شكره .

وقال : يعذب الله الظالم بالظالم ، ثم يدخلهم النار جميعاً .

وقال حسان : قيل لعثمان بن عفان رضي الله عنه : ما يمنعك أن تكون مثل عمر رضي الله عنه ؟ فقال : وأنىٰ لي ذلك ، وكان قد أوثقت الشياطين في مدة خلافته حتى انقرضت ؟!

وقال : بكىٰ آدم على الجنة سبعين عاماً ، وبكىٰ علىٰ خطيئته سبعين عاماً ، وبكىٰ على ابنه حين قتل أربعين عاماً ، وأقام بمكة مئة عام .

أسند حسان عن أنس بن مالك ، وجماعة من الصحابة ، رضوان الله عليهم .

وروىٰ عن جماعة من التابعين ، منهم : سعيد بن المسيب ، في آخرين . انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٧٠ـ٧٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عروة القاسم بن مُخَيْمِرة

رضي الله عنه

كوفي الأصل ، نزيل الشام .

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال القاسم : ما اجتمع علىٰ مائدتي لونان من طعام واحد ، ولا أغلقت بابي ولي خلفه هَمٌّ .

وكان إذا دعي إلى الولائم . . يجيب ، ولا يأكل إلا من لون واحد .

وكان يرابط متطوعاً ، فإذا أراد أن ينصرف . . استأذن ، وكان يستأنس بهٰذه الآية : ﴿ لَمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ .

وقال : لأَن أطأ علىٰ سنان مُحمىً حتىٰ ينفذ من قدمي . . أحب إليَّ من أن أطأ علىٰ قبر مؤمن متعمداً .

وقال لأم ولد له : يا فلانة ؛ ما لي كنت أتمنى الموت ، فلما نزل بي . . كرهته .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ : أي : لا تتركوا النفقة في سبيل الله عز وجل[1] . أو كما قال .

وعن القاسم : أنه كره صيد الطير أيام فراخه .

وقال : دخلت علىٰ عمر بن عبد العزيز وفي صدري حديث يتجلجل[2] أريد أن أقذفه إليه ، فقلت : بلغنا أنه من ولي على الناس سلطاناً فاحتجب عن حاجتهم وفاقتهم . . احتجب الله عز وجل عن حاجته يوم يلقاه ، فقال : ما تقول ؟ فأطرق طويلاً ، ثم عرفتها فيه ؛ فإنه برز للناس ، وأجازه عمر بن عبد العزيز بجائزة ، ثم سأله أن يحدثه حديثاً ، فكره

---

(١) كذا في النسخ ، وجاء في نسخة : (التفقه في دين الله) ولعل الصواب ما أثبت ؛ لأنه المعنى المناسب للآية الكريمة : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ .

(٢) **يتجلجل** : يتردد في نفسي .

القاسم ذلك ، ثم قال لعمر : هنئني عطيتك ، وكره أن يحدثه علىٰ هـٰذا الوجه .

روىٰ عن عبد الله بن عمرو بن العاصي الصحابي ، وأسند عن شريح ، وجماعة من التابعين .

فمن أحاديثه عن عبد الله بن عمرو بن العاصي : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أحد من المسلمين يصاب ببلاء في جسده . . إلا أمر الله تعالى الحفظة الذين يحفظونه فيقول : (اكتبوا لعبدي كل يوم وليلة مثلما كان يعمل من الخيرات ما دام محبوساً في وثاقي)[1] .

ثم قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قد تقدم ذِكر طبقاتٍ من الصحابة والتابعين وتابعيهم حسب ما أذن الله سبحانه وتعالىٰ .

وقد عزمنا علىٰ ذِكْر طوائفَ من جماهير النُّساك والعلماء والعباد ، وعدَلْنا عن ترتيب أيامهم وبلادهم علىٰ حسب ما يقدره الله عز وجل . [انتهىٰ « الحلية » ٦/١٤٨ـ١٤٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) الحلية (٦/ ٧٩ـ٨٣) ، والحديث أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٩) .

ومنهم الإمام :

أبو محمد حبيب الفارسي [العجمي]
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان حبيب من ساكني البصرة ، وكان صاحب كرامات ، مجاب الدعوة .

وكان سبب إقباله على الآجلة ، وانتقاله عن العاجلة : أنه حضر مجلس الحسن ، فوقعت موعظته من قلبه ، فخرج عما كان يتصرف فيه ؛ ثقة بالله تعالىٰ ، ومكتفياً بضمانه سبحانه وتعالىٰ ، واشترىٰ نفسه من الله عز وجل بأربعين ألف دينار في أربع دفعات ، تصدق بعشرة آلاف في أول النهار فقال : يا رب ؛ قد اشتريت نفسي منك بهٰذا ، ثم أتبعتها بعشرة آلاف أخرىٰ وقال : هٰذا شكر لما وفقتني له ، ثم أخرج عشرة آلاف أخرىٰ فقال : يا رب ؛ إن لم تقبل مني الأولىٰ والثانية . . فاقبل هٰذه ، ثم تصدق بعشرة آلاف أخرىٰ فقال : يا رب ؛ إن قبلت الثالثة . . فهٰذه شكر لها .

وفي رواية يونس بن محمد : قال : سمعت مشيخة يقولون : كان الحسن في مجلس وعظه يأتيه فيه أهل الدنيا والتجار ، وكان حبيب غافلاً عما فيه الحسن ، لا يلتفت إلىٰ شيء من مقالته ، فقال له أصحابه يوماً : إن الحسن يذكِّر بالجنة والنار ، ويرغب في الآخرة ، ويزهد في الدنيا ، فوقر ذلك في قلبه ، وقال بالفارسية : امضوا بنا إليه ، فأتاه ، فقال جلساء الحسن : يا أبا سعيد ؛ هٰذا أبو محمد حبيب قد أقبل إليك ، فعظه ، وأقبل عليه ، فوقف عليه ، وتكلم بالفارسية ، فقال الحسن : أيش[1] تقول ؟ قالوا : إنه يقول : عظني موعظة بليغة ، قال : فوعظه الحسن ، ثم ذكَّره بالجنة وخوفه النار ، ورغبه في الخير ، وزهده في الدنيا ، فقال أبو محمد بالفارسية : كيف أَصِل إلىٰ ذلك ؟ فقال الحسن : أنا ضامن لك على الله سبحانه وتعالىٰ ذلك إن أَنَبْت إلى الله عز وجل ، واتبعت رضوانه ، واجتهدت في

---

(١) أيش : منحوت من (أيِّ شيء) بمعناه .

عبادته ولزوم طاعته سبحانه وتعالىٰ ، قال : فلما سمع ذلك . . انصرف من عنده وقد وقر ذلك في قلبه ، فلم يزل في تفريق ماله في سبيل الله تعالىٰ حتىٰ لم يبق له شيء ، ثم بعد ذلك جعل يستقرض على الله عز وجل حتىٰ كان منه ما كان .

وجاء رجل إلىٰ حبيب ، فشكا إليه ديناً عليه ، فقال له : اذهب واستقرض ، وأنا أضمن ، فأتىٰ رجلاً فأقرضه خمس مئة درهم وضمنها أبو محمد حبيب ، ثم جاء الرجل بعد حين ، فقال : يا أبا محمد ؛ دراهمي ، فقد أضرَّ بي حبسها ، فقال : نعم ، في غد إن شاء الله تصل إليك ، فتوضأ أبو محمد ، ودخل المسجد ، وصلىٰ ، ودعا الله تعالىٰ أن يؤدي عنه ما ضمن ، ثم راح إلىٰ منزله ، وجاء الرجل ، فقال له حبيب : اذهب فإني وجدت في المسجد شيئاً فخذه ، فذهب الرجل ؛ فإذا هي صرة فيها خمس مئة درهم ، فوجدها زائدة ، فقال : يا أبا محمد ؛ تلك الدراهم زائدة علىٰ خمس مئة درهم ، فقال : اذهب فهي لك ، الذي وَزَنَها وَزَنَها راجحة .

وعن السري بن يحيىٰ وغيره ، عن حبيب : أنه أصاب الناس مجاعة ، فاشترىٰ حبيب دقيقاً وسويقاً بنسيئة ، وعمد إلىٰ خرائط[1] ، فخيطها ووضعها تحت فراشه ، ثم دعا الله عز وجل ، فجاء أرباب الديون بعد مدة يطلبون الثمن ، فأخرج تلك الخرائط وقد امتلأت ، فقال لهم : زنوا ، فوزنوا حقوقهم .

وعن السري بن يحيىٰ ـ أيضاً ـ قال : قدم رجل من أهل خراسان ، وكان قد باع ما كان له بها ، وعزم علىٰ سكنى البصرة ، فلما قدم البصرة . . كان معه عشرة آلاف درهم ، فأراد الخروج إلىٰ مكة هو وامرأته ، فسأل الناس لمن يودع العشرة آلاف ؟ فقيل له : لأبي محمد حبيب ، فأتاه ، فقال له : إني قاصد وامرأتي مكة ، وهـٰذه عشرة آلاف أريد أن أشتري بها منزلاً في البصرة ، فإن وجدت منزلاً وَيخِفُّ عليك أن تشتري لنا بها . . فافعل ، ثم سافر الرجل إلىٰ مكة ، فأصابت الناس بالبصرة مجاعة ، فشاور حبيب أصحابه أن يشتري بالعشرة آلاف دقيقاً ويتصدق به عنه ، فقالوا له : إنما وضعها لمشترىٰ منزل ، فقال : أنا أتصدق بها عنه وأشتري له بها من ربي منزلاً في الجنة ، فإن رضي ، وإلا . . دفعت إليه دراهمه ، قال : فاشترىٰ بها دقيقاً وخَبَزَهُ وتصدق به .

فلما قدم الخراساني من مكة . . أتىٰ حبيباً ، فقال : يا أبا محمد ؛ اشتريت لنا منزلاً أو

(١) خرائط : مفرده خريطة ، وهو : وعاء من جلد أو نحوه يشد علىٰ ما فيه .

تردها عليَّ فأشتري أنا بها ؟ فقال : قد اشتريت لك منزلاً فيه قصور وأشجار وثمار وأنهار ، فانصرف الخراساني إلى امرأته فرحاً مسروراً ، فقال : قد اشترىٰ لنا أبو محمد حبيب منزلاً أراه كان لبعض الملوك ؛ فإنه قد عظم أمره وما فيه من أشجار وثمار وأنهار ، ثم أقام الخراساني يومين أو ثلاثة ، وجاء إلىٰ حبيب ، فقال : يا أبا محمد ؛ أين المنزل الذي اشتريت لي ؟ فقال أبو محمد : اشتريت لك من ربي عز وجل منزلاً في الجنة بقصوره وثماره وأنهاره ووصفائه[1] ، فانصرف الرجل إلى امرأته أشد فرحاً من الأول ، وقال لها : إن حبيباً اشترىٰ لنا المنزل من ربه عز وجل في الجنة ، فقالت امرأته : يا فلان ؛ أرجو أن يكون قد وفق الله سبحانه وتعالىٰ حبيباً ، وما قدر ما يكون لبثنا في الدنيا ؟! فارجع إليه ، فليكتب لنا كتاباً بعهدة المنزل ، فرجع الخراساني إلىٰ حبيب ، فقال : يا أبا محمد ؛ قد قَبِلْنا ما اشتريت لنا ، فاكتب لنا كتاباً بعهدة المنزل ، فقال : نعم ، فدعا من يكتب له الكتاب ، فكتب : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، هـٰذا ما اشترىٰ أبو محمد حبيب من ربه عز وجل لفلان الخراساني ، اشترىٰ له منزلاً في الجنة بقصوره وأنهاره وأشجاره ووصفائه بعشرة آلاف درهم ، فعلىٰ ربه سبحانه وتعالىٰ أن يدفع هـٰذا المنزل إلىٰ فلان الخراساني ، ويبرىء حبيباً من عهدته ، فأخذ الخراساني الكتاب ، وانطلق به إلى امرأته ، فدفعه إليها ، ثم أقام الخراساني نحواً من أربعين يوماً ، ثم حضرته الوفاة ، فأوصى امرأته إذا أنا غسلتموني وكفنتموني . . فاجعلوا هـٰذا الكتاب في أكفاني ، ففعلوا ذلك ، فلما دفن الرجل . . وجدوا علىٰ ظهر قبره رقاً مطوياً فيه مكتوب ، ليس يشبهه مكاتيب الدنيا ، فنشروه ؛ فإذا فيه : براءة لحبيب أبي محمد من المنزل الذي اشتراه لفلان الخراساني بعشرة آلاف درهم ، فقد دفع ربه سبحانه وتعالىٰ إلى الخراساني ما شرط له حبيب ، وأبرأه منه ، فأُتي حبيب بالكتاب ، فجعل يقرؤُه ويقبله ويبكي ، ويروح إلىٰ أصحابه ، ويقول : هـٰذه براءتي من ربي عز وجل .

وجاء رجل إلىٰ أبي محمد ، فاشتكىٰ وجَعاً في رجله ، وسأله أن يدعو له وكان في مجلسه ، فلما تفرق الناس . . أخذ المصحف ، وعلقه في عنقه ، وقال : يا الله ؛ لا تسود وجه حبيب ، ثم قال : اللهم ؛ عافه حتىٰ ينصرف ولا يدري في أي رجليه كان الوجع ، فوجد الرجل العافية في الحال ، فسألناه في أي رجليك كان الوجع ؟ فقال : لا أدري .

وقال أبو محمد حبيب : أتانا سائل ، وكان قد عجنت امرأتي عمرة وذهبت تجيء بنار

(١) **الوصيف** : الخادم غلاماً كان أو جارية .

لتخبزه ، فقلت للسائل : خذ العجين ، فأخذه ، فجاءت عمرة ، فقالت : أين العجين ؟ فقلت : ذهبوا يخبزونه ، فلما أكثرت عليَّ . . أخبرتها ، فقالت : سبحان الله! لا بد من شيء نأكله ؛ فإذا برجل قد جاءنا ومعه جفنة عظيمة مملوءة خبزاً ولحماً ، فقالت عمرة : ما أسرع ما ردوه عليك وقد خبزوه وجعلوا معه لحماً .

وقال حبيب : إن من سعادة المرء إذا مات . . ماتت معه ذنوبه .

وكان حبيب يأخذ متاعاً من التجار يتصدق به ، فأخذ مرة ، فلم يجد شيئاً يعطيهم ، فقال : يا رب ؛ إن الناس يحسنون ظنهم بي ، وأنت فعلت بي ذلك من سترك عليَّ ، فلا تخلف ظنهم بي ، فينكسر وجهي عندهم ، ثم دخل داره ، فإذا هو بجوالق[1] من شعر ، كأنه نُصِبَ من أرض البيت إلىٰ قريب من السقف وقد ملىء دراهم ، فقال : يا رب . . ليس أريد هـٰذا كله ، ثم أخذ حاجته ، وترك الباقي .

وكان يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، خلقت فسويت ، وقدرت فهديت ، وأعطيت فأغنيت ، وعفوت وعافيت ، فلك الحمد علىٰ ما أعطيت ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً ، حمداً لا ينقطع أولاه ، ولا ينفد أخراه ، حمداً أنت منتهاه ، فتكون الجنة عقباه ، أنت الكريم الأعلىٰ ، وأنت جَزْلُ العطاء ، وأنت أهل النعماء ، وولي الحسنات ، لا يبلغ مدحَك قولُ قائل ، سجد وجهي لوجهك الكريم الباقي ، ثم يخر ساجداً ، ثم يقوم ، فيفرق الصدقة على المساكين .

وكان يُرىٰ بالبصرة يوم التروية ، ويُرىٰ بعرفات عشية عرفة .

وعن عباد قال : ذهبت مع سليمان التيمي إلىٰ حبيب ، فقال له : يا أبا محمد ؛ ادع الله تعالىٰ لنا ، فقال : يا أبا المعتمر ؛ البشكار[2] لا يتقدم ، البشكار يتأخر .

وقال حبيب : لا قرة عين لمن لم تقر عينه بك ، ولا فرح لمن لا يفرح بك ، وعزتك وجلالك ؛ إنك لتعلم أني أحبك ، وأنت فعلت ذلك بي .

وكان رقيقاً ، من أكثر الناس بكاء ، فبكىٰ ذات ليلة بكاء كثيراً ، فقالت له عمرة

---

(١) **الجوالق** : وعاء من صوف أو شعر .

(٢) **البشكار** : كلمة فارسية ، وهي ما يكون من مقدمات العمل ، والمقصود هنا : أنه تواضعاً منه جعل نفسه متأخراً لا يتقدم .

بالفارسية : لِمَ تبكي يا أبا محمد ؟ فقال لها بالفارسية : دعيني ؛ فإني أريد أن أسلك طريقاً ما سلكته قبل ذلك . [انتهىٰ « الحلية » ٦/١٤٩ـ١٥٤] .

وقال الخطيب : عن المعتمر بن سليمان ، عن أبيه : ما رأيت أحداً قط أعبد من الحسن البصري ، وما رأيت أحداً أورع من ابن سيرين ، [وما رأيت أحداً] أزهد من مالك بن دينار ، ولا أخشع من محمد بن واسع ، ولا أصدق يقيناً من حبيب العجمي رحمهم الله تعالىٰ .

وقال المعلى الوراق : كنا إذا دخلنا علىٰ حبيب . . قال : افتح جونة المسك ، وهات الترياق المجرَّب ـ جونة المسك : المصحف ، والترياق المجرب : الدعاء ـ ولما احتضر . . جزع ، فقيل له : ما هٰذا ؟ فقال : أريد أن أسافر سفراً ما سافرته قط ، وأسلك طريقاً ما سلكته قط ، وأوقف بين يدي الله عز وجل ، فأخاف أن يقول لي : يا حبيب ؛ هات تسبيحة واحدة سبحتني في ستين سنة لم يظفر بك الشيطان فيها بشيء ، فماذا أقول وليس لي حيلة ؟ أقول : يا رب ؛ هو ذا قد أتيتك مقبوض اليدين إلىٰ عنقي يا أرحم الراحمين .

توفي أبو محمد حبيب سنة خمس وأربعين ومئة ، رحمه الله .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الواحد بن زيد
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : أصاب عبد الواحد بن زيد الفالج ، فسأل الله تعالىٰ أن يطلقه في وقت الوضوء ، فكان إذا أراد أن يتوضأ . . أُطلق ، وإذا رجع إلىٰ سريره . . عاد إليه الفالج .

وقال عبد الواحد : عليكم بالخبز والملح ؛ فإنه يذيب شحم الكِلىٰ ، ويزيد في اليقين .

وقيل لعبد الواحد بن زيد : يا أبا عبيدة ؛ ما تقول في رجلين ، أحدهما أحب البقاء ليطيع ، والآخر أحب الخروج شوقاً إلى الله عز وجل ؟ أيهما أفضل ؟ قال : الذي أحب الخروج أفضل ، فقيل : هل ثَمَّ منزلة ثالثة ؟ فقال : ما أعرفها ، فقيل له : بلىٰ ، لا يحب البقاء ليطيع ، ولا يحب الخروج شوقاً ، أحب ذلك إليه أحبه إلى الله عز وجل ، إن أبقاه . . أحب ذاك ، وإن أماته . . أحب ذاك .

وقال عبد الواحد : الرضا باب الله تعالى الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين .

وقال : خرجت أنا وفرقد السبخي ومحمد بن واسع ومالك بن دينار نزور أخاً لنا بأرض فارس ، فرأينا في الطريق في سفح جبل رجلاً مجذوماً ، يقطر قيحاً ودماً ، فقال له بعضنا : يا هـٰذا ؛ لو دخلت المدينة فتداويت وتعالجت مما أنت فيه ، فرفع طَرْفه إلى السماء ، ثم قال : إلـٰهي ؛ أتيت بهـٰؤلاء يسخطوني عليك ؟ لك الكرامة والعتبىٰ بألاَّ أخالفك أبداً ، فوفِّقْني لما تحب .

وقال : خرجت أنا ومحمد بن واسع ومالك بن دينار نؤم بيت المقدس ، فلما كنا بين الرصافة وحمص . . سمعنا منادياً ينادي من بين تلك الرمال : يا محفوظ ، يا مستور ؛ اعقل في ستر من أنت ، فإن كنت لا تعقل . . فاحذر الدنيا ، وإن كنت لا تحسن أن تحذرها . . فاجعلها شوكة وانظر أين تضع رجلك .

وكان عبد الواحد يدعو ، ويقول : وعزتك وجلالك ؛ ما أعلم لمحبتك فرحاً دون

لقائك والاشتفاء من النظر إلىٰ جلال وجهك في دار كرامتك . اللهم ؛ يا من أحل الصادقين محل الكرامة ، وأورث البطالين منازل الندامة ؛ اجعلني ومن حضرني من أفضل أوليائك زلفىٰ ، وأعظمهم منزلة وقربىٰ ، تفضلاً منك علىٰ عبدك وعلىٰ إخواني من عبيدك ، يوم تجزي الصادقين بصدقهم يا أرحم الراحمين .

وقال عبد الواحد : مَن قوي علىٰ بطنه . . قوي علىٰ دِينه ، ومن قوي علىٰ دِينه . . قوي على الأخلاق الصالحة ، ومن لم يعرف مضرته في دِينه من قبل بطنه . . فذلك رجل في العالمين أعمىٰ .

وعاد عبد الواحد مريضاً ، فقال له : ما تشتهي ؟ قال : الجنة ، قال : فعلام تأسىٰ من الدنيا ؟ قال : آسىٰ ـ والله ـ علىٰ مجالس الذكر ، ومذاكرة الرجال بتعدادهم نعم الله عز وجل ، فقال عبد الواحد : هـٰذا ـ والله ـ خير الدنيا ، وبه يدرك خير الآخرة .

وقال : نمت ليلة عن وردي ؛ فإذا بجارية لم أر أحسن منها ، عليها ثياب من حرير أخضر ، وفي رجليها نعلان تقدس بأطراف أزمتها[١] ، فالنعلان يسبحان ، والزمامان يقدسان ، وهي تقول : يا بن زيد ؛ جُدَّ في طلبي ؛ فإني في طلبك ، ثم جعلَتْ تقول بصوت رخيم :

مـن يشتـرينـي ومـن يكـن سكنـي ... يـأمـن فـي ربحـه مـن الغَبَـنِ

فقلت : يا جارية . . ما ثمنك ؟ فأنشأت تقول :

تـودُّد الله مَـعْ محبتـه ... وطـول شكـر يشـاب بـالحَـزَنِ[٢]

فقلت : لمن أنت يا جارية ؟ قالت :

لمـالـك لا يـرد لـي ثمنـاً ... مـن خـاطـب قـد أتـاه بـالثَّمَـنِ

قال : فانتبهت ، وآليت علىٰ نفسي ألاَّ أنام بالليل .

وقال عبد الواحد : سألت الله عز وجل ثلاث ليال أن يريني رفيقي في الجنة ، فرأيت كأن قائلاً يقول : يا عبد الواحد ؛ رفيقك في الجنة ميمونة السوداء ، فقلت : وأين هي ؟ فقال :

---

(١) زمام النَّعل : ما يشد به الشسع .

(٢) كذا في « الحلية » ، وفي النسخ :

دوام طـاعـة الله مـع محبتـه ... وطـول فكـر يشـاب بـالحـزن

في آل بني فلان بالكوفة ، قال : فخرجت إلى الكوفة ، فسألت عنها ، فقيل : هي مجنونة بين ظهرانينا ترعىٰ غنيمات لنا ، فقلت : أريد أن أراها ، قالوا : اخرج إلى الجبَّان ، فخرجت ، فإذا بها قائمة تصلي ، وإذا بين يديها عكازة لها ، وعليها جبة صوف ، مكتوب عليها : لا تباع ولا تشترىٰ ، وإذا الغنم مع الذئاب ، لا تضرها ولا تفزع منها ، فلما رأتني . . أوجزت في صلاتها ، ثم قالت : ارجع يا بن زيد ، ليس الموعد هـٰهنا ، إنما الموعد ثَمَّ ، فقلت لها : رحمك الله تعالىٰ ، وما يعلمك أني ابن زيد ؟ فقالت : أما علمت أن الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها . . ائتلف وما تناكر منها . . اختلف ؟! فقلت لها : عظيني ، فقالت : وا عجباه لواعظ يُوعَظ! ثم قالت : يا بن زيد ؛ إنك لو وضعت معايير القسط علىٰ جوارحك . . لخبرتك بمكتوم مكنون ما فيها ، يا بن زيد ؛ إنه بلغني أنه ما من عبد أُعطي من الدنيا شيئاً فابتغىٰ إليه ثانياً . . إلا سلبه الله تعالىٰ حب الخلوة معه ، وبدله بَعد القرب البعد ، وبَعد الأنس الوحشة ، ثم أنشأت تقول :

يـــا واعظـــاً قـــام لاحتســـابٍ … يـــزجـــر قـــومـــاً عـــن الـــذنـــوبِ
تنهـــىٰ وأنـــت السقيـــم حقـــاً … هـٰـــذا مـــن المنكـــر العجيـــبِ
لـــو كنـــت أصلحـــتَ قبـــل هـٰـــذا … غيـــك أو تبـــتَ مـــن قـــريـــبِ
كـــان لمـــا قلـــت يـــا حبيبـــي … مـــوقـــع صـــدق مـــن القلـــوبِ
تنهـــىٰ عـــن الغـــي والتمـــادي … وأنـــت فـــي النهـــي كـــالمـــريـــبِ

فقلت لها : إني أرى الذئاب مع الغنم ، لا الغنم تفزع من الذئاب ولا الذئاب تأكل الغنم ، فأَيش هـٰذا ؟ فقالت : إليك عني ؛ فإني أصلحت ما بيني وبين سيدي سبحانه وتعالىٰ فأصلح ما بين الذئاب والغنم .

وقال الحارث بن عبيد : كان عبد الواحد يجلس إلىٰ جنبي عند مالك بن دينار ، وكنت لا أفهم كثيراً من موعظة مالك بن دينار ؛ لكثرة بكاء عبد الواحد .

وشهد عبد الواحد جنازة حوشب ، فلما دفن . . قال : رحمك الله يا أبا بشر ؛ فلقد كنت حذراً من مثل هـٰذا اليوم ، رحمك الله يا أبا بشر ؛ فلقد كنت من الموت جزعاً ، أما والله ؛ لئن استطعتُ ووفقني ربي عز وجل . . لأعملن علىٰ رحيلي بعد مصرعك هـٰذا ، ثم اجتهد وشمَّرَ .

وعن حصين بن القاسم الورَّاق قال : كنا في مجلس عبد الواحد وهو يعظ ، فناداه رجل

من ناحية المسجد : كُفَّ عنا يا أبا عبيدة ؛ فقد كشفت قناع قلبي ، قال : فلم يلتفت عبد الواحد إلىٰ ذلك ، ومَرَّ في الموعظة ، فلم يزل الرجل يقول : كف عنا يا أبا عبيدة ؛ فقد كشفت قناع قلبي ، وعبد الواحد لا يقلع عن موعظته.. حتىٰ ـ والله ـ حشرج[1] الرجل حشرجة الموت ، ثم خرجت نفسه ، قال : فإنا ـ والله ـ ممن شهد جنازته يومئذ ، فما رأيت بالبصرة أكثر باكياً من يومئذ .

وقال عبد الواحد : جالِسوا أهل الدِّين ، فإن لم تجدوهم.. فجالِسوا أهل المروءات ؛ فإنهم لا يرفثون في مجالسهم .

وقال عبد الواحد : سألت زياداً النميري فقلت : ما منتهى الخوف ؟ قال : الإجلال لله عز وجل عن مقام السَّوْءَات والمخالفات ، قلت : فما منتهى الرجاء ؟ قال : تأميل الله عز وجل علىٰ كل الحالات .

وقال مسلم بن العباداني : قدم علينا صالح المري وعبد الواحد بن زيد وعتبة الغلام وسلمة الأسواري ، فنزلوا على الساحل ، فهيأت لهم ذات ليلة طعاماً ، فدعوتهم ، فجاؤوا ، فلما وضعت الطعام بين أيديهم.. إذا قائل يقول مِن عُرْض الناس وهو على الساحل ماراً رافعاً صوته :

ويلهيك عن دار الخلود مطاعم ولـذة نفـس غيُّهـا غيـر نـافـع

قال : فصاح عتبة صيحة ، فسقط مغشياً عليه ، وبكى القوم ، ورفعنا الطعام ، وما ذاقوا والله منه لقمة .

وقال عبد الواحد : يا إخوتاه ؛ ألا تبكون شوقاً إلى الله عز وجل ؟ ألا وإنه من بكىٰ شوقاً إلىٰ سيده ومولاه سبحانه وتعالىٰ.. لم يحرمه النظر إليه ، يا إخوتاه ؛ ألا تبكون خوفاً من النيران ؟ ألا وإنه من بكىٰ خوفاً من النار.. أعاذه الله سبحانه وتعالىٰ منها ، يا إخوتاه ؛ ألا تبكون خوفاً من شدة العطش يوم القيامة ؟ يا إخوتاه ؛ ألا تبكون ؟ بلىٰ ، فابكوا على الماء البارد أيام الدنيا ؛ لعله أن يسقيكموه في حظائر القدس مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ثم جعل يبكي حتىٰ غُشي عليه .

وقال حصين بن القاسم الورَّاق : لو قُسِّم بَثُّ[2] عبد الواحد علىٰ أهل البصرة..

---

(١) حشرج : ردَّد نَفَسَه في حلقه وأوشك أن يموت .
(٢) البثُّ : أشد الحزن .

لوسعهم ، كان إذا أقبل سواد الليل . . نظرت إليه كأنه فرس رهان[1] مضمر محتزم ، ثم يقوم إلىٰ محرابه ، فكأنه رجل مخاطب .

وقال عبد الواحد : أصابتني علة في ساقي ، فكنت أتحامل عليها للصلاة ، قال : فقمت عليها من الليل ، فأجهدت وجعاً عظيماً ، فجلست وعليَّ إزاري في محرابي ، ووضعت رأسي عليه ، فنمت ، فبينا أنا كذلك ؛ وإذا بجارية تفوق الدمىٰ حسناً[2] ، تخطِر[3] بين جوارٍ مزينات ، حتىٰ وقفت عليَّ ، وهُنَّ خلفها ، فقالت لبعضهن : ارفعنه ولا تُهِجْنَهُ ، قال : فأقبلْنَ نحوي ، فاحتملنني عن الأرض ، وأنا أنظر إليهن في منامي ، ثم قالت لجَوارٍ أُخر من الجواري اللاتي معها : افرشنه ، ومهدنه ، ووطئن له ، ووسدنه ، قال : ففرشن تحتي سبع حشايا لم أر لهن في الدنيا مثلاً ، ووضعن تحت رأسي مَرافق خضراً حساناً ، ثم قالت : اجعلنه على الفرش رويداً لا تُهِجْنَهُ ، فجُعِلْتُ علىٰ تلك الفرش ، وأنا أنظر إليها ، وما تأمر به من شأني ، ثم قالت : احففنه بالياسمين والريحان ، قال : فأُتي بالياسمين والريحان ، فحُفَّت به الفرش ، ثم قامت إليَّ ، فوضعت يدها علىٰ موضع علتي التي كنت أجد في ساقي ، فمسحَتْ ذلك المكان بيدها ، ثم قالت : قم شفاك الله تعالىٰ إلىٰ صلاتك غير مضرور ، فاستيقظت وكأني ـ والله ـ قد أُنشطت من عقالٍ فما اشتكيت تلك العلة بعد ليلتي تلك ، ولا ذهبت حلاوة منطقها من قلبي : قم شفاك الله تعالىٰ إلىٰ صلاتك غير مضرور .

وقال عبد الواحد : كنا في غزاة لنا ونحن في العسكر الأعظم ، فنزلنا منزلاً ، فنام أصحابي وقمت أقرأ جزئي ، فجعل النوم يغالبني وأغالبه حتى استتممت جزئي ، فلما فرغت . . قلت : لو نمت كما نام أصحابي . . كان أروح لبدني ، قلت ذلك في نفسي ، ثم نمت ، فرأيت في منامي شاباً جميلاً ، بيده ورقة ، وقف عليَّ والورقة في يده بيضاء كأنها الفضة ، فقلت : يا فتىٰ ؛ ما هـٰذه الورقة ؟ فدفعها إلي ، فنظرت ، فإذا فيها مكتوب :

ينـــام مـــن شـــاء علـــىٰ غفلـــة ... والنـــوم كـــالمـــوت فـــلا تَتَّكـــلْ

تنقطـــع الأعمـــال فيـــه كمـــا ... تنقطـــع الـــدنيـــا عـــن المنتقـــلْ

---

(١) **فرسُ رِهان** : الخيل التي يُراهن علىٰ سباقها بمال أو غيره .

(٢) **الدمىٰ** : جمع دمية ، وهي : الصورة الممثلة من العاج وغيره ، يضرب بها المثل في الحسن .

(٣) **تخطِر** : تتبختر .

قال : وتغيَّب الفتىٰ عني ، فلم أره ، قال : فكان عبد الواحد يردد هٰذا الكلام كثيراً ويبكي ، ويقول : فرق الموت بين المصلين وبين لذتهم في الصلاة ، وبين الصائمين وبين لذتهم في الصيام . . . ويذكر أصنافاً من الخير .

وقال عبد الواحد : الإجابة مقرونة بالإخلاص لا فرقة بينهما .

وقال : ما أعلم درجة أرفع ولا أشرف من الرضا ، وهي رأس المحبة .

وقال : كان يقال : مَن عمل بما علم . . أورثه الله تعالىٰ علم ما لم يعلم . أو كما قال .

وصلىٰ عبد الواحد الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة .

وقال : من نوى الصبر علىٰ طاعة الله تعالىٰ . . صبَّره الله تعالىٰ عليها وقواه لها ، ومن عزم على الصبر عن معاصي الله تعالىٰ . . أعانه الله تعالىٰ علىٰ ذلك وعصمه منها ؛ نعمة منه غادية ورائحة علىٰ أهل معصيته ، فكيف ييأس من رحمته أهل محبته ؟!

وقال عبد الواحد : قال الحسن البصري رحمه الله : السهو والأمل نعمتان عظيمتان علىٰ بني آدم .

أسند عبد الواحد رحمه الله عن الحسن البصري ، وغيره ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« الحلية » ٦/١٥٥ـ١٦٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو بشر صالح المُرِّي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال صالح المري رحمه الله : يا عجباً لقوم أُمِرُوا بالزاد وأُذِّنوا بالرحيل ، وحبس أوائلهم عن أواخرهم ، وهم مع ذلك يلعبون!

وعن الحسن بن حسان قال : كنا يوماً عند صالح المري وهو يعظ ، فقال لرجل بين يديه : اقرأ يا بني ، فقرأ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فقطع عليه صالح القراءة فقال : وكيف يكون لظالم حميم أو شفيع والمُطالِب له رب العالمين جل جلاله ؟! إنك والله ؛ لو رأيت الظالمين وأهل المعاصي يساقون في السلاسل والأغلال إلى الجحيم ، حفاة عراة ، مسودة وجوههم ، مزرقَّة عيونهم ، ذاهبة أجسامهم ، ينادون : يا ويلاه! يا ثبوراه! ماذا نزل بنا ؟ وماذا حل بنا ؟ أين يُذهَب بنا ؟ ماذا يُراد منا ؟ والملائكة عليهم الصلاة والسلام تسوقهم بمقامع من النيران ، فمرة يجرون علىٰ وجوههم فيُسحبون علىٰ وجوههم ، ومرة يقادون إليها مقرنين من بين باكٍ دماً بعد انقطاع الدموع ، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت ؛ إنك والله لو رأيتهم علىٰ ذلك . . لرأيت منظراً لا يقوم له بصرك ، ولا يثبت له قلبك ، ولا يستقر لفظاعة هوله علىٰ قرارٍ قدمُك ، ثم نَحَبَ ، وصاح : يا سوء منظراه ، ويا سوء منقلباه ، وبكىٰ وبكى الناس .

فقام شاب به تأنيث ، فقال : كل هـٰذا في القيامة يا أبا بشر ؟ فقال : نعم ، والله يابن أخي ؛ وما هو أكثر من ذلك ، لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتىٰ تنقطع أصواتهم ، فلا يبقىٰ منها إلا كهيئة الأنين من المدنف ، فصاح الفتىٰ : إنا لله ، واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة! ويا أسفىٰ علىٰ ما فرطت من طاعتك يا سيداه! ويا أسفىٰ علىٰ تضييع عمري في دار الدنيا! ثم بكىٰ واستقبل القبلة ، فقال : اللهم ؛ إني أستقبلك في يومي هـٰذا بتوبة لك لا يخالطها رياء لغيرك ، اللهم ؛ فاقبلني علىٰ ما كان مني ، واعف عني عما تقدم من فعلي وجرمي ، وأقلني عثرتي ، وارحمني ومن حضرني ، وتفضل علينا أجمعين بجودك وكرمك

يا أرحم الراحمين ، لك ألقيت معاقد الآثام من عنقي ، وإليك أنبت بجميع جوارحي ، صادقاً لك بذلك من قلبي ، فالويل لي إن أنت لم تقبلني ، ثم غُلب ، فسقط مغشياً عليه ، فمات ، فحمل بين القوم صريعاً والناس يبكون عليه ، ويدعون له .

وكان صالح كثيراً ما يَذْكُره في مجلسه ويدعو الله تعالىٰ له ، ويقول : بأبي قتيل القرآن ، بأبي قتيل المواعظ والأحزان ، فرآه رجل في منامه ، فقال له : ما صنعت ؟ قال : عمَّتْني بركة مجلس صالح ، فدخلت في سعة رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء .

وقال الحسن بن حسان : كنا في مجلس صالح المري ، فأخذ في الدعاء ، فمر رجل مخنَّثٌ ، فوقف يسمع الدعاء ، ووافق صالحاً يقول : اللهم ؛ اغفر لأقسانا قلباً ، وأَجْمَدِنا عيناً ، وأحدثنا بالذنوب عهداً ، فصاح المخنَّثُ صيحة ، وما زال مغمىً عليه حتىٰ مات ، فرئي في المنام ، فقيل له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ قال : غفر لي ، قيل : بماذا ؟ قال : بدعاء صالح المري ، لم يكن في القوم أحدث عهداً بالمعصية مني ، فوافقت دعوته الإجابة ، فغُفر لي .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : جلست مع سفيان الثوري في مجلس صالح المري ، فتكلم صالح ، فرأيت سفيان الثوري يبكي ، وقال : هـٰذا ليس بقاص ، هـٰذا نذير قوم .

وكان صالح المري إذا قص . . قال : هات جونة[1] المسك والترياق المجرَّب ـ يعني : القرآن ـ فلا يزال يقرأ ويدعو ويبكي حتىٰ ينصرف ، فكان إذا أخذ في قصصه . . كأنه مذعور يفزعك أمره ؛ من حزنه وكثرة بكائه ، كأنه ثكلىٰ .

وكان شديد الخوف من الله عز وجل ، كثير البكاء .

وقال : للبكاء دواع ، منها : الفِكْرة في الذنوب ، فإن أجابت القلوب إلىٰ ذلك ، وإلا . . فانقلها إلى الموقف ، وذكِّرها الشدائد والأهوال ، فإن أجابت إلىٰ ذلك ، وإلا . . فاعرض عليها التقلب بين أطباق النيران ، ثم بكىٰ ، وغشي عليه ، وتصايح الناس .

وقال صالح المري رحمه الله : دُفِعَتْ إليَّ صحيفة في المنام فيها : ما تخوَّفْتَ عواقبه . . فوطن نفسك علىٰ أن تجتنبه في الدنيا ، فتأمن . أو كما قال .

وقال : قال لي قائل في منامي : إذا أحببت أن يستجاب لك . . فقل : اللهم ؛ إني

---

(١) **الجُونةَ** : سُليلة مستديرة مغشاة أَدَماً ، تكون مع العطارين .

أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطهر الطاهر المقدس ، قال : فما دعوت به في شيء . . إلا تعرفت الإجابة .

وكان يقول : اللهم ؛ إنا نسألك صبراً علىٰ طاعتك ، وصبراً عن معصيتك .

وقال عباد بن جرير وغيره من المشايخ : كنا نجلس إلىٰ صالح المري ، فكان أول ما يبتدىء به فيقول : الحمد لله ؛ فإذا أَعْيُنُ الناس قد سالت بالدموع .

وقال صالح المري : وقفت في دار المرزباني حين خربت ، فعرَضَتْ لي فيها بضع عشرة آية : ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ ، و﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ، وما أشبه ذلك ، قال : فبينا أنا أقرأ ؛ إذ خرج عليَّ أسوَد من ناحيتها ، فقال : يا عبد الله ؛ هـٰذه سخطة مخلوق علىٰ مخلوق ، فكيف بسخط الخالق جل جلاله على المخلوق ؟! قال : ثم ذهب ، فاتبعته ، فلم أر أحداً .

وقال سعيد بن سليمان : رأيت صالحاً ـ وكان رجلاً محزوناً ـ وما سمعت كلام رجل قط أحسن منه .

وقال صالح المري : قدم علينا ابن السماك مرة ، فقال : أرني بعض عجائب عُبَّادكم ، فذهبت به إلىٰ رجل في بعض الأحياء في خُصٍّ له ، فاستأذنَّا عليه ، فدخلنا ؛ فإذا رجل يعمل خوصاً[1] ، فقرأت : ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ، فشهق الرجل شهقة ، فخرَّ مغشياً عليه ، فخرجنا من عنده ، وتركناه علىٰ حاله ، وذهبنا إلىٰ آخر ، فاستأذنَّا عليه ، فقال : ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا سبحانه وتعالىٰ ، فدخلنا ؛ فإذا رجل جالس في مصلىٰ له ، فقرأت : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ فشهق شهقة بَدَرَ الدم من منخريه ، ثم جعل يتشحط في دمه حتىٰ يبس ، فخرجنا من عنده ، وتركناه علىٰ حاله ، حتىٰ أَدَرْتُه علىٰ ستة أنفس كل يخرج من عنده وهو علىٰ هـٰذه الحال ، ثم أتيت به السابع ، فاستأذنت ؛ فإذا امرأة في خُصٍّ ، تقول : ادخلوا ادخلوا ، فدخلنا ، فإذا شيخ فانٍ جالس في مصلاه ، فسلَّمْنا عليه ، فلم يعقل سلامنا ، فقلت بصوت عال : إن للخلق غداً مقاماً ، فقال الشيخ : بين يدي مَن ويحك ؟ ثم بقي مبهوتاً ، فاتحاً فاه ، شاخصاً بصره ، يصيح بصوت له ضعيف حتى انقطع ، فقالت امرأته : اخرجوا عنه ؛ فإنكم ليس تنتفعون به الساعة ، فلما كان بعد ذلك . . سألت عن القوم ، فإذا ثلاثة منهم قد

---

(١) **الخُصُّ** : بيت من قصب ، **والخوص** : ورق النخل ؛ أي : يعمل منه أشياء يتقوت من بيعها ، ويسمى العامل بها : الخوَّاص .

أفاقوا وثلاثة لحقوا بالله عز وجل ، وأما الشيخ . . فإنه مكث ثلاثة أيام علىٰ حالته مبهوتاً متحيراً لا يؤدي فرضاً ، فلما كان بعد ثلاثة . . عقل .

وقال صالح المري رحمه الله : دخلت المقابر يوماً في شدة الحر ، فنظرت إلى القبور جامدة كأنهم قوم صموت ، فقلت : سبحان الله! مَن يجمع بين أرواحكم وأجسامكم بعد افتراقها ، ثم يحييكم وينشركم من بعد طول البلىٰ ؟ قال : فنادىٰ منادٍ من بين تلك الحفر : يا صالح ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فسقطت ـ والله ـ لوجهي جزعاً من ذلك الصوت .

وقال صالح : أصاب أهلي ريح الفالج ، فقرأت عليها القرآن ، فأفاقت ، فحدثتُ به غالباً القطان ، فقال : وما تعجب من ذلك ؟ والله ؛ لو أنك حدثتني أن ميتاً قرىء عليه القرآن بالصدق والإخلاص فأُحْيِيَ . . لما كان ذلك عندي عجباً .

وعن السائب العبدي قال : أتانا صالح ، فدخل علينا ، فقلت : مِن أين أقبلْتَ يا أبا بشر ؟ قال : أقبلت من منزلي أخوض المواعظ حتىٰ صرت إليكم ، مررت بدار فلان ، فنادتني : يا صالح ؛ خذ موعظتك مني ، فقد نزلني فلان ، فارتحل وتركني ، ونزلني فلان ، فارتحل وتركني ، ومررت بدار فلان ، فنادتني : يا صالح ؛ خذ موعظتك مني ، فقد نزلني فلان ، فارتحل وتركني ، ونزلني فلان ، فارتحل ، فجعل يعد الدور داراً داراً حتىٰ وصل إلينا .

وقال صالح : عن حوشب ، عن الحسن قال : تفقدوا الحلاوة في ثلاث : في الصلاة ، وفي القرآن ، وفي الذِّكر ، فإن وجدتموها . . فامضوا وأبشروا ، وإن لم تجدوها . . فاعلم : أن بابك مغلق[1] .

وقال صالح : ما بينك وبين أن ترىٰ أثر الله عليك فيما تحب . . إلا أن تعمل فيما بينك وبين خلقه فيما يحب سبحانه وتعالىٰ ، فحينئذ لا تفقد بِرَّهُ ولا تعدم في كل أمر خيره سبحانه وتعالىٰ .

وقال صالح : لو كان الصبر حلواً . . لما قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿وَٱصْبِرْ﴾ ، ولـٰكن قال له : اصبر ، فإن الصبر مُرٌّ .

وقال صالح : إن قوماً أرادوا سفراً فاستصحبهم فتىً وكان شاباً ، فمات الشاب في طريقهم ، فلما شرعوا في تغسيله . . وجدوا علىٰ قدميه مكتوباً : أحسنوا غسله ؛ فإنه صلىٰ علىٰ جنازة فغُفِر له .

---

(١) وفي رواية أخرىٰ : (فاعلموا أن الباب مغلق) .

وقال : عَزَّىٰ رجلٌ رجلاً في ابنه ، فقال له : لئن كانت مصيبتك في ابنك لم تحدث لك موعظة في نفسك . . فمصيبتك في ابنك جلل[1] في مصيبتك في نفسك ، فإياها فابك ، فهي أولىٰ بالبكاء . أو كما قال .

وقال صالح المري : لما مات عطاء السليمي . . حزنت عليه حزناً شديداً ، فرأيته في منامي ، فقلت : يا أبا محمد ؛ أَلَستَ في زمرة الموتىٰ ؟ قال : بلىٰ ، قلت : فإلىٰ ماذا صرت ؟ فقال : صرت ـ والله ـ إلىٰ خير كثير ورب غفور شكور ، قال : أمَا والله ؛ لقد كنتَ طويل الحزن في دار الدنيا ، قال : فتبسم وقال : أمَا والله يا أبا بشر ؛ لقد أعقبني ذلك راحة طويلة ، وفرحاً دائماً ، قلت : ففي أي الدرجات أنت ؟ قال : مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولـٰئك رفيقاً .

أسند صالح عن الحسن البصري ، وجماعة من التابعين .

فمن أحاديثه عن جعفر بن زيد : عن أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتىٰ بابن آدم يوم القيامة ، فيوقف بين كفتي الميزان ، ويوكل به ملك ، فإن ثقل ميزانه . . نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : سَعِدَ فلان سعادة لا يشقىٰ بعدها أبداً ، وإن خَفَّ ميزانه . . نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : شَقِيَ فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً »[2] .

وقال صالح المري : كان عطاء السليمي لا يسأل الله تعالى الجنة ، قال : فقلت له : إن أبَانَاً حدثني عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تبارك وتعالىٰ : انظروا في ديوان عبدي ، فمن رأيتموه سألني الجنة . . أدخلوه إليها ، ومن استعاذني من النار . . فاصرفوه عنها »[3] ، فقال لي عطاء : كفاني أن يجيرني من النار . غريب من حديث صالح ، لم نكتبه إلا من حديث إسماعيل بن نصر . انتهىٰ [« الحلية » ٦/ ١٦٥ـ١٧٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) جلل : صغيرة ، وهو من الأضداد .

(٢) أخرجه بنحوه الديلمي (٥/ ٤٦٢) .

(٣) ذكره بنحوه ابن رجب في « التخويف من النار » (٤٤) .

ومنهم الإمام :

أبو المهاجر رياح بن عمرو القيسي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال مالك بن ضيغم : جاءنا رياح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر ، فقلنا : هو نائم ؟ فقال : أنوم هـٰذه الساعة ؟ أهـٰذا وقت نوم ؟ ثم ولىٰ ، فأتبعناه رجلاً ، فقلنا : الحقه ، فقل : نوقظه لك ، قال : فجاءنا بعد المغرب ، فقلنا له : أَبْلَغتَهُ ؟ قال : هو أشغل من أن يفهم عني ، أدركته وهو يدخل المقابر ، وهو يوبخ نفسه ، ويقول لها : تقولين : أنوم هـٰذه الساعة ؟ وما يدريك أنها ليست وقت نوم ؟ تتكلمين فيما لا تعلمين ؟ وتسألين عما لا يعنيك ؟ لينم الرجل متىٰ شاء ، تسألين عما لا يعنيك ؟ أمَا إن لله عز وجل عليَّ عهداً لا أنقضه إن شاء الله تعالىٰ فيما بيني وبينه أبداً ، لا أُوَسِّدك لنوم حولاً ، قال : فلما سمعتُ هـٰذا . . تركته وانصرفْتُ .

وكان رياح القيسي ليلة خلف المقام يصلي ، فسمع شخصاً يقول بصوت حزين : سبقني العابدون وبقيت وحدي ، وَا لَهْفَ نفساه ، فشهق شهقة ، وخر علىٰ وجهه مغشياً عليه إلى الصباح ، ثم أفاق .

وقال الحارث بن سعد : أخذ بيدي رياح القيسي يوماً ، فقال : هلم يا أبا محمد ؛ حتىٰ نبكي علىٰ ممر الساعات ونحن علىٰ هـٰذه الحال ، قال : فخرجت معه إلى المقابر ، فلما نظر إلى القبور . . صرخ ، ثم خرَّ مغشياً عليه ، قال : فجلست ـ والله ـ عند رأسه أبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ قلت : لما أرىٰ بك ، قال : لنفسك فابك ، ثم قال : وا نفساه وا نفساه ، ثم غشي عليه ، قال : فرحمته ـ والله ـ مما نزل به ، فلم أزل عند رأسه حتىٰ أفاق ، قال : فوثب ، وهو يقول : ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، ومضىٰ وأنا أتبعه ، لا يكلمني حتىٰ دخل منزله وأغلق بابه ، فرجعت إلىٰ أهلي ، ولم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتىٰ مات .

وقال رياح القيسي : أتيت الأبرد بن ضرار في بني سعد ، فقال لي : يا رياح ؛ هل طالت

بك الأيام والليالي ؟ فقلت له : بِمَ ؟ قال : بالشوق إلىٰ لقاء الله عز وجل ، قال : فسكتُّ ولم أقل شيئاً ، حتىٰ أتيت رابعة فقلت لها من وراء حجاب : قد سألني الأبرد بن ضرار مسألة لم أقل فيها شيئاً ، فقالت : ما سألك ؟ فقلت : قال لي : هل طالت بك الأيام والليالي بالشوق إلىٰ لقاء الله عز وجل ، فقالت لي رابعة : ماذا قلتَ ؟ قلت : سكتُّ ، فلم أقل شيئاً ، قال : فسمعت تخريقَ قميصها من وراء الحجاب ، وهي تقول : لٰكني ـ والله ـ نعم قد طالت قد طالت .

وقال أبو عون الضرير : كنت قريباً من الجبَّان ، فكان يمر بي رياح القيسي بعد المغرب إذا خلت الطريق ، وكنت أسمع نشيج بكائه وهو يقول : إلىٰ كَمْ يا ليل ويا نهار تحطان من أجلي وأنا غافل عما تريدان بي ؟! إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا يزال كذلك حتىٰ يغيب عني .

وقال رياح القيسي : لي نيّف وأربعون ذنباً قد استغفرت الله عز وجل لكل ذنب مئة ألف مرة ، وما ثَمَّ إلا عفوه ومغفرته سبحانه وتعالىٰ .

وقال : لا تجعل لبطنك علىٰ عقلك سبيلاً ، إنما الدنيا أيام قلائل ، فكان لا يشبع ، إنما يأكل قَدْرَ ما يمسك الرمق .

وقال عبد المؤمن الصائغ : دعوت رياحاً ذات ليلة إلىٰ منزلي ونحن بعبادان ، فجاء في السَّحَر ، فقرَّبْتُ إليه طعاماً ، فأصاب منه شيئاً ، فقلت له : ازدد ، فما أظنك شبعت ، قال : فصاح صيحة أفزعتني ، وقال : كيف أشبع في أيام الدنيا وشجرة الزقوم طعام الأثيم بين يَدَيَّ ؟! قال : فرفعت الطعام من بين يديه ، وقلت : أنت في شيء ونحن في شيء آخر .

وقال رياح القيسي : كما لا تنظر الأبصار إلىٰ شعاع الشمس . . كذلك لا تنظر قلوب محبي الدنيا إلىٰ نور الحكمة أبداً .

وقال رياح القيسي : سمعت مالك بن دينار يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتىٰ يترك زوجته كأنها أرملة ، وأولاده كأنهم يتامىٰ ، ويأوي إلىٰ مزابل الكلاب .

وروىٰ رياح عن الحسن قال : كانت الدودة تقع من جسد أيوب ، فيأخذها ويعيدها إلىٰ مكانها ، ويقول : كلي من رزق الله تعالىٰ(١) .

---

(١) مما يجدر بالذكر وينبغي الإشارة إليه : أنه مما يستحيل في حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم الأمراض المنفرة ، والأمراض التي تعيقهم عن الدعوة إليه ، وما ورد هنا مخالف لما قرر في كتب العقيدة ، فليتنبه .

وقال أبو معمر عبد الله بن عمرو : نظرَتْ رابعة إلىٰ رياح وهو يقبِّل صغيراً من أهله ويضمه إليه ، فقالت له : أتحبه ؟ قال : نعم ، قالت : ما كنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غير الله سبحانه وتعالىٰ ، فصرخ رياح وسقط مغشياً عليه ، ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، ويقول : رحمة منه سبحانه وتعالىٰ ألقاها في قلوب العباد لمحبة الأطفال .

وقال مسعر رحمه الله : كان لرياح غِلٌّ من حديد ، فكان إذا جنه الليل . . وضعه في عنقه ، ويبكي ويتضرع حتىٰ يصبح .

وقال رياح : والله ؛ ما سمعت الحسن ذاكراً الدنيا في مجلسه قط ، وسمعته يقول : أدركت سبعين بدرياً وصليت خلفهم .

وكان رياح يأكل خبزاً وملحاً ، ويقول : نأكل الخبز والملح في هـٰذه الدار حتىٰ ندرك الشواء والعرس في الدار الأخرىٰ .

وخرج رياح غازياً ، فاستشهد ، رضي الله عنه .

أسند عن حسان ابن أبي سنان ، وغيره . انتهىٰ [« الحلية » ٦/١٩٢ـ١٩٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو بشر حوشب بن مسلم
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن جعفر بن سليمان قال : كنا جلوساً إلىٰ مالك بن دينار في عشية ، فجاء رجل ، فقال : رأيت في المنام كأن منادياً ينادي : يا أيها الناس ؛ الرحيل إلى الله عز وجل ، فرأيت حوشباً أول من شد رحله ، فلما سمع مالك هـٰذه الرؤيا . . استقبل القبلة ولم يزل باكياً ، ثم قال : ذهب حوشب بالدست(١) ، ذهب حوشب بالدست . أو كما قال .

وقال أبو بشر : عن الحسن قال : إن هـٰذا الحق أجهد الناس ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، فوالله ؛ ما صبر عليه إلا من عرف فضله ، ورجا عاقبته بتوفيق الله سبحانه وتعالىٰ . أو كما قال .

وعن أبي بشر قال : سألت الحسن ، فقلت : يا أبا سعيد ؛ رجل آتاه الله مالاً يحج منه ، ويصل رحمه ، ويتصدق منه ، أَلَهُ أن يتنعم فيه ؟ فقال الحسن : لا ، لو كانت الدنيا كلها له . . ما كان له منها إلا الكفاف ، ويقدِّم فضل ذلك ليوم فقره وفاقته ، ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أخذ عنهم من التابعين يكرهون أن يتخذوا العُقدَ والأموال في الدنيا ؛ لئلا يركنوا إليها ، فكان ما آتاهم الله من رزق . . أخذوا منه الكفاف ، وقدموا فضل ذلك ليوم فقرهم وفاقتهم .

وقال أبو بشر : سمعت الحسن يقول : والله ؛ لقد عبدَتْ بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمـٰن جل جلاله ؛ بحبهم الدنيا .

وقال : سمعت الحسن يقول : دخل أهل النار النار ، وإن الله عز وجل لمحمود في صدورهم ، ما وجدوا على الله سبحانه وتعالىٰ من حجة ولا سبيل .

---

(١) الدِّست : معربة عن الفارسية ، وهي : المحل المخصص للسيد الكبير في صدر المجلس .

قال : سمعت الحسن يقول : ابن آدم ؛ إن قرأت هـٰذا القرآن ثم آمنت به . . ليطولن في الدنيا حزنك ، وليشتدن في الدنيا خوفك[1] ، وليكثرن في الدنيا بكاؤك .

وعنه عن الحسن قال : مخالطة الأغنياء . . مسخطة للرزق .

وقال عبد الواحد بن زيد لحوشب رحمهما الله : يا أبا بشر ؛ إن قدمت علىٰ ربك عز وجل قَبْلَنا فقدرت علىٰ أن تخبرنا بالذي صرت إليه . . فافعل ، قال : فمات حوشب رحمه الله في الطاعون قبل عبد الواحد بزمان ، قال عبد الواحد : فرأيته في منامي ، فقلت : أبا بشر ؛ ألم تَعِدْنا أن تأتينا ؟ قال : بلىٰ ، إنما استرحت الآن ، فقلت : كيف حالكم ؟ فقال : نجونا بعفو الله سبحانه وتعالىٰ ، قال : قلت : فالحسن ؟ قال : ذاك في عليين ، لا نراه ولا يرانا ، قلت : فما الذي تأمرنا به ؟ قال : عليك بمجالس الذِّكر ، وحُسن الظن بمولاك سبحانه وتعالىٰ ، وكفاك بهما خيراً .

وروىٰ عن الحسن ، وغيره .

فمن أحاديثه عن الحسن : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستفتح مشارق الأرض ومغاربها علىٰ أمتي ، وعمالها في النار ، إلا من اتقى الله عز وجل وأدى الأمانة »[2] انتهىٰ [« الحلية » ٦/١٩٧ـ١٩٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) فيها إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۞ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ أي : أن الخوف في الدنيا من الله سبب للنجاة يوم القيامة والمغفرة ، والقرآن يزيد هـٰذا الخوف ؛ لكثرة ما فيه من آيات الوعيد وأهوال القيامة ، وإهلاك الأمم السابقة ، ومواقف الحساب ، وما سيصير إليه الكفار والمنافقون من العذاب مما يورث من آمن به وصدق بما فيه حق الإيمان والتصديق الخوف والحزن والبكاء خشية المصير إلىٰ شيءٍ من ذلك .

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في « الزهد » (٢٧٧) .

ومنهم الإمام :

أبو مسعود سعيد بن إياس الجُرَيْريّ
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن سلام ابن أبي مطيع قال : أتينا الجُرَيري وكان من مشايخ أهل البصرة ، وكان قدم من الحج ، فجعل يقول : أبلانا الله سبحانه في سفرنا بكذا ، وأبلانا الله في سفرنا بكذا ، ثم قال : كان يقال : إن تِعداد النعم من الشكر .

وعن الجريري قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ؛ الرجل يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب ، حتىٰ متىٰ ؟ قال : ما أعلم هـٰذا إلا أخلاق المؤمنين .

وقال سعيد : بلغني أن أبا الدرداء حُبس عاماً عن الغزو ، فدفع دراهم إلىٰ رجل ، وأمره أن يقسمها في الناس ، ودفع إليه صرة ، وقال له : انظر رجلاً يسير حجزة[1] من الناس في هيئَته بذاذة ، فادفع إليه هـٰذه الصرة ، وانظر ما يقول ، فمضى الرجل ، فصنع ما أمره ، ونظر ؛ فإذا هو برجل يسير حجزة من الناس وفي هيئته بذاذة ، فوضع الصرة في يده ، قال : فما نظر إليه ، ورفع بصره إلى السماء ، فقال : إلـٰهي ؛ أراك لا تنسىٰ جُريرك ، فاجعل جُريراً لا ينساك ، قال : فرجع إلىٰ أبي الدرداء ، فأخبره ، فقال : وليُّ النعمة ربُّها .

وقال الجريري : بلغني أن ملَك الموت عليه الصلاة والسلام جاء إلىٰ عبدٍ مؤمن ، فسلم عليه ، فرد عليه السلام ، ثم قال له : لي إليك حاجة ، فقال : اذكر حاجتك ، قال : إنها سِرٌّ فيما بيني وبينك ، فأدنى المؤمن رأسه إليه ، فسارَّهُ ، وقال : أنا ملَك الموت ، فقال : مرحباً بك وأهلاً ، مرحباً بمن طالت غيبته عليَّ ، فوالله ؛ ما كان في الأرض غائب أحب إلي أن ألقاه منك ، فقال له ملَك الموت : اقض حاجتك التي خرجت لها ، قال : ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب إليَّ من لقاء ربي عز وجل ، قال : فاختر علىٰ أي شيء أقبض روحك فيه ، قال : وتقدر علىٰ ذلك ؟ قال : نعم ، أُمرت بذلك ، قال : فدعني أتوضأ ثم أصلي

---

(١) حِجْزَة من الناس : أي : في ناحية منهم .

لربي عز وجل ، فإذا ركعت ثم سجدت . . فاقبض روحي علىٰ تلك الحال ، قال : نعم ، فقام ، فتوضأ ، ثم ركع وسجد ، فلما رآه ساجداً . . قبض روحه .

وعن الجُرَيري قال : بلغنا أن داوود عليه الصلاة والسلام سأل جبريل عليه الصلاة والسلام : أيُّ الليل أفضل ؟ فقال : ما أدري ، إلا أن العرش يهتز من السَّحَر .

أسند الجريري عن الجماهير من التابعين ، وأدرك من الصحابة أبا الطفيل ، وسمع منه .

وقال الجريري : حدثني أبو الطفيل رضي الله عنه وهو آخذ بيدي ، ونحن نطوف بالكعبة فقال : لا ، والله ؛ لا يحدثك اليوم رجل علىٰ وجه الأرض أنه رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم غيري[1] .

وعن الجريري : عن معاوية بن قرة ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض ، لا ، والله ؛ إنها لسائحة علىٰ وجه الأرض ، حافتاها خيام اللؤلؤ ، وطينها المسك الأَذْفَر » ، قلت : يا رسول الله ؛ وما الأذفر ؟ قال : « الذي لا خلط معه »[2] .

وعن الجريري : عن عبد الله بن شقيق ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحْرَسُ حتىٰ نزلت هـٰذه الآية : ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ، فأخرج صلى الله عليه وسلم رأسه من القُبَّة ، وقال : « انصرفوا ، فقد عصمني الله عز وجل من الناس »[3] انتهىٰ [« الحلية » ٦/ ٢٠٠ـ٢٠٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **أبو الطُّفيل** : عامر بن واثلة الليثي ، آخر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم موتاً ، مات سنة مئةٍ من الهجرة .

(٢) أخرجه الديلمي (٣/ ٤٥٦) ، **مسك أذفر** : أي جيد إلى الغاية .

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٢) .

ومنهم الإمام :

عطاء السَّلِيمي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال بشر بن منصور : قلت لعطاء السليمي : أرأيت لو أن ناراً أوقدت فقيل : من دخل هٰذه النار. . دخل الجنة ، ترىٰ أحداً من الناس يدخل عليها ؟ قال : إني أظن لو قيل لي ذلك. . لخرجَتْ نفسي فرحاً قبل أن أصل إليها .

وفي رواية : عن بشر بن منصور ـ أيضاً ـ قال : كنت أوقد ناراً بين يدي عطاء في غداة باردة ، فقلت : يا عطاء ؛ أَيَسُرُّكَ الساعة أنك أُمرت أن تلقي نفسك في هٰذه النار ولا تُبعث إلى الحساب ، فقال : إي ، ورب هٰذه الكعبة .

وكان قد أقعد من الخوف لله عز وجل .

وكان يقول في دعائه : اللهم ؛ ارحم غربتي في الدنيا ، وارحم مصرعي عند الموت ، وارحم وحدتي في قبري ، وارحم قيامي بين يديك .

ومكث عطاء السليمي أربعين سنة علىٰ فراشه لا يقوم من الحزن ، ولا يخرج ، وكان يُوَضَّأُ علىٰ فراشه ، ثم قال عليُّ بن بكار : وأي شيء أربعين سنة ؟ لقد أطاع الله عز وجل عدد شعر رأسه .

وكان لا يسأل الله عز وجل الجنة ؛ لشدة خوفه ، فإذا ذكرت عنده الجنة. . قال : نسأل الله العفو .

وكان يقول : التمسوا لي هٰذه الأحاديث التي في الرخص ؛ عسى الله تعالىٰ أن يروِّح عني بعض ما أنا فيه من الغم .

وكان إذا فرغ من وضوئِه. . انتفض وارتعد ، وبكىٰ بكاء شديداً ، فيقال له في ذلك ، فيقول : إني أريد أن أَقْدُمَ علىٰ أمر عظيم ، أريد أن أقوم بين يدي الله عز وجل .

وقال العلاء بن محمد : دخلت علىٰ عطاء السليمي وقد غُشي عليه ، فقلت لامرأته :

ما شأن عطاء ؟ فقالت : سجرنا التنور[1] ، فنظره ، فخر مغشياً عليه .

وكان إذا بكىٰ . . يبكي ثلاثة أيام وثلاث ليالي ، وكان إذا بكىٰ . . رأيت حوله بللاً ، تظن أنه أثر وضوء ، فقالت عجوز معه في الدار : هـٰذا أثر دموعه .

وعن صالح المري قال : كان عطاء قد أضر بنفسه حتىٰ ضعف ، فقلت له : إنك قد أضررت بنفسك ، وأنا أصنع لك شيئاً ، فلا ترد عليَّ كرامتي ، قال : أَفعلُ ، قال : فاشتريت سويقاً وسمناً ، وجعلت له شريبة ، فلتَتُّها وحلَّيْتُها ، وأرسلت بها مع ابني وكوزاً من ماء ، فقلت لابني : لا تبرح حتىٰ يشربها ، قال : فرجع وقال : قد شربها ، فلما كان من الغد . . جَعلْتُ له نحوَها ، ثم سرَّحت بها مع ابني ، فرجع بها ولم يشربها ، قال : فأتيته ، فلُمْتُه ، وقلت له : سبحان الله! رددتَ عليَّ كرامتي ، إن هـٰذا مما يُعينك ويقويك على الصلاة وعلىٰ ذكر الله تعالىٰ ، فلما رآني قد وَجِدْتُ من ذلك . . قال : يا أبا بشر ؛ لا يسوؤك الله ، قد شربتها أول ما بعثت بها ، فلما كان من الغد . . زاولت نفسي علىٰ أن أسيغها ، فما قدرت علىٰ ذلك ، كلما أردت أن أشرب . . ذكرت قوله تعالىٰ : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ ، فبكىٰ صالح عند هـٰذا ، وقال في نفسه : أنت في واد ونحن في واد آخر . أو كما قال .

وقال أبو يزيد الهدادي : انصرفت في يوم جمعة ؛ فإذا عطاء السليمي وعمر بن درهم يمشيان ، وكان عطاء قد بكىٰ حتىٰ عمش ، وكان عمر قد صلىٰ حتىٰ دَبَر[2] ، فقال عمر لعطاء : حتىٰ متىٰ نسهو ونلعب وملك الموت في طلبنا لا يكف ؟ قال : فصاح عطاء صيحة خر مغشياً عليه ، فانشجَّ مُوْضِحَةً[3] ، واجتمع الناس ، وقعد عمر عند رأسه ، فلم يفق إلى المغرب ، فحُمل .

وعن بكار بن شقير[4] قال : مررت بعطاء السليمي ، فقال : مِن أين جئت ؟ فقلت : من عند أخيك الحسن ، قال : فما قال لك ؟ قلت : قال : الدنيا مطية المؤمن إلىٰ ربه عز وجل ، عليها يرتحل المؤمن إلىٰ ربه تعالىٰ ، فأصلِحوا مطاياكم . . تبلغكم إلىٰ ربكم عز وجل ، قال : فخر عطاء مغشياً عليه .

---

(١) سَجَرْنا التنور : أحميناه .

(٢) دَبَر الرجل : ولّىٰ وشيَّخَ .

(٣) أي : الشجة التي تبدي وَضَحَ العظم .

(٤) في « الحلية » : (عن الصلت بن حكيم عن بكار عن سعير) والله أعلم بالصواب .

وقال العلاء بن محمد البصري : شهدت عطاء السليمي وقد خرج في جنازة ، فغشي عليه أربع مرات ، حتىٰ صلىٰ عليها ، كل ذلك يغشىٰ عليه ، ثم يفيق ، فإذا نظر إلى الجبان . . خر مغشياً عليه .

قال أبو عبيدة : انقطع عطاء قبل موته بثلاثين سنة .

قال : وما رأيت عطاءً . . إلا وعيناه تفيضان ، وما كنت أشبِّه عطاء إذا رأيته إلا بالمرأة الثكلىٰ ، قال : وكأن عطاء لم يكن من أهل الدنيا .

وعن بشر بن منصور قال : كنت أسمع عطاء كل عشية بعد العصر يقول : غداً عطاءٌ في القبر .

وعن حماد بن زيد قال : كان عطاء لا يتكلم ، فإذا تكلم . . قال : غداً عطاءٌ في القبر ، ولم يرفع رأسه إلى السماء ، ولم يضحك أربعين سنة ، ورفع رأسه مرة ففزع ، فسقط ، ففتق فتقاً في بطنه .

وعن العلاء بن محمد قال : رأيت عطاء السليمي كالشن[1] البالي .

وكنت إذا رأيت عطاء . . كأنه ليس من أهل الدنيا .

ودخلت عليه مرة ، فقالت لي امرأته : أمَا ترىٰ عطاء يبكي الليل والنهار لا يفيق ؟

وكان عطاء إذا هبت ريح وبرق ورعد . . يقول : هـٰذا من أجلي يصيبكم ، لو مات عطاء . . استراح الناس .

قال : وكنا ندخل إليه ، فنقول : زاد سعر الطعام ، فيقول : هـٰذا من أجلي غلا الطعامُ ، لو مت أنا . . لاستراح الناس .

وقال عطاء لمالك بن دينار : يا أبا يحيىٰ ؛ شوِّقْنا ، فقال : إن في الجنة حوراء يتباهىٰ أهل الجنة من حسنها ، لولا أن الله تعالىٰ كتب علىٰ أهل الجنة ألاَّ يموتوا . . لماتوا عن آخرهم من حسنها ، قال : فلم يزل عطاء كمداً من قول مالك .

وكان عطاء يقول : مات حبيب ، مات مالك ، مات فلان ، ليتني مِتُّ فكان أهون لعذابي .

ودخل يوماً في الماء وكان صائماً في حر شديد ، فسكن عنه العطش ، فقال : يا نفس ؛

---

(١) الشَّنُّ : القِربة الخَلَق الصغيرة .

إنما طلبت لك الراحة ، لا دخلتِ بعد هـٰذا اليوم الماء أبداً إن شاء الله تعالىٰ .

وكان يمس جسده بالليل خوفاً من ذنوبه ؛ مخافة أن يكون قد مسخ ، فكان إذا انتبه . . يقول : يا ويحك يا عطاء ، ويحك يا عطاء!

وقال بشر بن منصور رحمه الله : كان عطاء يرىٰ أو يقول إنه شر من أَبِي مُسْلم(١) بستين مرة .

وعن معتمر بن سليمان قال : قلت لجار عطاء : مَن كان يستقي لعطاء وضوءه ؟ قال : كان في داره مخنَّثون ، وكانوا يستقون له ، فقلت : أما كان يقذرهم ؟ قال : كانوا عنده خيراً من نفسه بكثير .

وقال عبد الخالق : قال رجل لعطاء يوماً : ما هـٰذا الذي تصنع بنفسك ؟ أقتلت نفساً ؟ أو أي شيء صنعت ؟ قال : إني اصطدت حمَاماً لجار لي منذ أربعين سنة ، قال : ثم قال : إني قد تصدقت بثمنه ؛ كأنه لم يعرف صاحبه .

وقال مُرجًّى بن وداع : قال عطاء : كنت أشتهي الموت وأتمناه ، فأتاني آت في منامي ، فقال : يا عطاء ؛ أتتمنى الموت ؟ فقلت : أنىٰ لي ذلك ، قال : فقطَّب في وجهي ، ثم قال : لو عرفت شدة الموت وكَرْبَهُ حتىٰ يخالط قلبك معرفته . . لطار نومك أيام حياتك ، ولذهل عقلك ، حتىٰ تمشي في الناس والهاً ، فكان عطاء يقول بعد ذلك : طوبىٰ لمن استغنم حياته ، فكان طول عمره في طاعة الله عز وجل ، ووالله ؛ ما أرىٰ عطاء كذلك ، ثم بكىٰ .

وقال مخلد : ما رأيت أحداً كان أفضل من عطاء ، ولقد كانت الفاكهة تمر بما فيها لا يعرف بسعرها ولا بمجيئها .

وقال صالح المُري : قال لي عطاء : يا أبا بشر ؛ أشتهي الموت ولا أراني أرىٰ لي فيه راحة ، غير أني قد علمت أن الميت قد حيل بينه وبين الأعمال ، فاستراح من أعمال المعاصي ، فتخف حملته ، والحي كل يوم هو من نفسه علىٰ وَجَلٍ ، وآخر ذلك الموت .

وقال صالح المري : قلت لعطاء : ما تشتهي ؟ فبكىٰ ، فقال : أشتهي والله يا أبا بشر أن

---

(١) واسمه عبد الرحمـٰن الخراساني الأمير ، صاحب الدعوة ، وهازم الجيوش الأموية ، والقائم بإنشاء الدولة العباسية توفي سنة (١٣٧ هـ) .

أكون رماداً لا يجتمع منه سفة أبداً ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، قال صالح : فأبكاني والله ، وعلمت أنه إنما أراد النجاة من عسر يوم الحساب .

وقال عبد الواحد بن زيد : دخلنا علىٰ عطاء وهو في الموت ، فنظر إلي أتنفَّسُ ، فقال : ما لك ؟ قلت : من أجلك ، قال : والله ؛ لوددت أن نفسي بقيت بين لهاتي وحنجرتي تتردد إلىٰ يوم القيامة ، مخافة أن تخرج إلى النار .

وكان إذا قيل له ادع لنا . . قال : اللهم ؛ لا تَمْقُتنا ، فإن كنت مَقَتَّنَا . . فاغفر لنا .

وقال عطاء : مرَّ رجل بمجلس ، فأثنوا عليه خيراً ، فلما جاوزهم . . قام ، وقال : اللهم ؛ إن كان هـٰؤلاء لا يعرفونني . . فأنت تعرفني .

وقال حماد بن زيد : قلت لعطاء السَّليمي : أعندك عن أنس شيء ؟ فقال : اذهب إلىٰ فلان ، اذهب إلىٰ فلان ، قال : وأرشدني إلىٰ شيخ ، وأبىٰ أن يعترف إليَّ بشيء يرويه عن أنس .

أدرك عطاء السليمي أنس بن مالك ، ولم يسند عنه شيئاً ، ولقي جماعة من التابعين ، منهم : الحسن البصري ، رضوان الله عليهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٦/٢١٥-٢٢٥] .

قال في « **لوامع أنوار القلوب** » : روي عن الأصمعي قال : اعتل عطاء السليمي رحمه الله ، فدخل عليه طبيب ، فاتصل ذلك بسعدون[(١)] ، فأتاه ، فقال : يا عطاء ؛ هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه ، يدخل عليك طبيب ؟! فقال له عطاء : إنما أُدخِل عليَّ علىٰ كُرْهٍ مني ، فقال له سعدون : أمَا أصف لك شربة إن استعملتها . . برئت في الدنيا والآخرة إن شاء الله عز وجل ؟ فقال عطاء : صف ، قال سعدون : خذ بزرة الفقر ، وأصل الصبر ، واهليلَج[(٢)] الخلوة ، وبلبلج الكتمان ، وغار معول الفكر ، وأبارح الأحزان ، وامزجه بماء الأسف والندم ، واغلِهِ في طنجير القلق ، وأوقد تحته نار الشوق ، واشربها على الريق . . تبرأ بُرْءَ الدنيا والآخرة إن شاء الله عز وجل ، وتمتلىء جوارحك من محبة الله سبحانه وتعالىٰ ، فلا تُؤْثِرُ علىٰ لقائه شيئاً ، ثم انصرف .

وقال عطاء السليمي لعمر بن ذر رحمهما الله تعالىٰ : أوصني ، فقال : يا أبا محمد ؛

---

(١) هو من عقلاء المجانين ، وسيأتي بعض أخباره في تراجم العباد المجهولين آخر هـٰذا الكتاب .

(٢) **الإهليلَج** : اسم دواء ، وهو معرَّب .

الدنيا بلاء في بلاء ، مع هوى النفس ومقارنة الشيطان ، والآخرة نعيم في نعيم ، لـٰكن بعد الموقف والحساب ، فيا لها من نفس مضمحلة فيما بينهما ، يا أبا محمد ؛ فحتىٰ متىٰ نسهو ونلعب وملَك الموت عليه الصلاة والسلام في طلبنا لا يغفل ، والملائكة عليهم الصلاة والسلام يكتبون أنفاسنا ؟ قال : فخر عطاء مغشياً عليه ، رضي الله عنهما .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عُتبة بن أَبان الغلام
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : سأل رجلٌ رياحاً القيسي ، فقال له : يا أبا المهاجر ؛ لأي شيء سمي عتبةُ : الغلامَ ؟ فقال : ما كان نصفاً من الرجال ، ولـٰكنا كنا نسميه الغلام ؛ لأنه كان في العبادة كأنه غلام رِهان .

وقال عبيد الله بن محمد : هو عتبة بن أبان بن صَمْعَة ، مات قبل أبيه رحمه الله .

وعن شعيب بن محرز قال : حدثنا حسين قال : قال لي عبد الواحد بن زيد : بمن تشبَّه حزن هـٰذا الغلام ؟ يعني : عتبة ، قلت : بحُزن الحسن ، قال : والله ؛ ما أبعدْتَ .

وقال رياح القيسي : بات عندي عتبة ، فسمعته يقول في سجوده : اللهم ، احشر عتبة من حواصل الطير وبطون السباع .

وقال مخلد بن الحسين : خرجت أنا وعتبة الغلام ويحيى الواسطي ورياح القيسي ، فنزلنا المَصِّيْصة[1] في الحصن ، فرأيت ليلة في المنام كأن ملكاً نزل من السماء ، ومعه ثلاثة أكفان من أكفان الجنة ، فألبس عتبة كفناً ، ويحيىٰ كفناً ، ورجلاً آخر كفناً ، قال : فلما أصبحت . . دعوتهم لأحدثهم بالرؤيا ، فقال لي عتبة : يا أبا محمد ؛ لا تذكر الرؤيا ، قال : فمكثت أشهراً ، فإني لنائم علىٰ سريري ليلة ؛ فإذا إنسان يحركني ، فرفعت رأسي ؛ فإذا عتبة ، فقلت : ما حاجتك ؟ فقال : اجلس قص عليَّ الرؤيا ، قال : فجلست ، فحدثته ، فرفع يده ، وقال شيئاً لا أدري ما هو ، ثم قام ، ووضعت رأسي ، فلما انتبهت . . إذا صاحب التنور قد نور ، قال : فأسرجت دابتي ، وخرجت ؛ فإذا بعتبة جالس على الباب بيده عنان فرسه .

وكان لما ورد إلىٰ حلب . . قال : اشتروا لي فرساً يغيظ المشركين ، فاشتروا له فرساً ،

---

(١) المصِّيصة : ثغر من ثغور بلاد الشام ، بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرطوس .

فركبه ومضينا معه ، حتى انتهينا إلىٰ أذنة[1] ؛ فإذا آثار عدو ، فقال لي الوالي : مَن يجيئنا بخبر هـٰؤلاء ؟ فقال عتبة : أنا ، فخرج في أناس من أصحابه يتبع الأثر ، فخرج عليهم العدو ، فقتلوا جميعاً ، إلا رجلاً أفلت رجع إلينا ، قال : ومضينا ، فأول ما رأيت بياض جسد عتبة رحمه الله ، وقد قتل وسلب ، وفي صدره ست طعنات أو سبع ، وإذا يده علىٰ فَرْجِه ، قال : فدفنته .

قال مخلد : وكنت أعرف شاباً قتل في معركة المشركين ، فرأيته في منامي بعد سنة ، فقلت له : ما صنع الله بك ؟ قال : ألحقني بالشهداء المرزوقين ، قلت : فأخبرني عن عتبة وأصحابه ، ألك بهم علم ؟ قال : نعم ، قتلىٰ قرية الحُباب ؟ قال : قلت : نعم ، قال : إنهم معروفون في ملكوت السماوات .

وفي رواية أخرىٰ : عن مخلد بن الحسين ـ أيضاً ـ قال : جاء عتبة الغلام ، فقلت له : ما حاجتك ؟ قال : جئت أغزو ، قال : قلت : أمثلك يغزو ؟ قال : إني رأيت في المنام أن آتيَ المصيصة وأغزوَ فأُستَشْهَد ، فنودي يوماً في الخيل ، فنفر الناس ، وجاء عتبة راجعاً من حاجته ، فلما دخل من باب الجهاد . . استقبله رجل ، فقال : هل لك في فرسي وسلاحي ؛ فإني قد اعتللت ؟ قال : نعم ، فنزل الرجل عن فرسه ، ودفعه إليه ، قال : فمضىٰ عتبة مع القوم ، فلَقُوا الروم ، فكان أولَ رجل استشهد رحمه الله .

وقال عبد الواحد بن زيد : رأيت عتبة في يوم شديد البرد وهو يرفَضُّ عرقاً ، فقلت له : كيف هـٰذا ؟ في مثل هـٰذا اليوم تَعْرَقُ ؟! قال : خير ، فأقسمت عليه لَتُخبِرَنِّي ، فقال : إني ذكرت ذنباً أصبته في هـٰذا المكان ، فهـٰذا الذي رأيت من أجل ذلك .

وكان عتبة يعجن دقيقه ويجففه في الشمس ، ثم يأكله ، ويقول : كسرة وملح حتىٰ يتهيأ في الدار الآخرة الشواء والطعام الطيب .

وفي رواية أخرىٰ : إذا قيل له في ذلك ، يقول : يا فلان ؛ قد سددت عني كلب الجوع .

وكان يصوم الدهر ، وقد قوَّت نفسه علىٰ ستين فلقة ، يتعشىٰ كل ليلة فلقة ، ويتسحر بأخرىٰ .

وقال أبو عمر البصري : كان رأس مال عتبة فلساً ، يشتري بالفلس خوصاً ويَسَفُّهُ[2] ،

---

(١) أَذَنَة : بلد قرب المصيصة ، وهو ثغر من الثغور ، خرج منها جماعة من أهل العلم .
(٢) يَسَفُّهُ : ينسجه .

فإذا عمله . . باعه بثلاثة أفلس ، ففلس يتصدق به ، وفلس يتخذه رأس ماله ، وفلس يشتري به شيئاً يفطر عليه .

وقال أبو يوسف : أظن أن الدانق كان يومئذ ثلاثةَ أفلس كباراً .

وعن محمد بن مستور ـ وكان رجلاً عابداً ـ قال : جاءنا عتبة ، فلما أمسينا . . قلت لأصحابه : اشتروا لحماً واطبخوه سكباجاً[١] حتىٰ يتعشىٰ به عتبة ، قال : فلما صلى العشاء . . فقدناه ، قلت : اطلبوه ، فطُلب ، فوُجد في بيت قد أخذ سويق دقيق كان معه ، فجعله في خرقة ، فصب عليه ماء ، وهو يأكل منه وعيناه تذرفان ، فقلت له : سبحان الله! إخوانك قد عملوا لك شيئاً ، قال : هٰذا يكفيني .

وقال أبو عبد الله اليربوعي : نازعَتْ عتبةَ الغلامَ نفسُهُ لحماً ، فقال لها : اندفعي عني إلىٰ قابل ، فما زال يدافعها سبع سنين ، حتىٰ إذا كان في السابعة . . أخذ دانقاً ونصفاً ، فأتىٰ به صديقاً له من أصحاب عبد الواحد بن زيد خبازاً ، فقال : يا أخي ؛ نفسي تنازعني لحماً منذ سبع سنين ، وقد استحييت منها كم أعدها وأخلفها ، فخذ لي رغيفين وقطعة من لحم بهٰذا الدانق والنصف ، فلما أتاه به ؛ إذا هو بصبي ، فقال : يا فلان ؛ ألست ابن فلان ، وقد مات أبوك ؟ قال : بلىٰ ، قال : فجعل عتبة يبكي ويمسح رأس اليتيم ، وقال : قرة عيني من الدنيا أن تصير شهوتي من الدنيا في بطن هٰذا اليتيم ، فناوله ما كان معه ، ثم قرأ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ .

وخرج عتبة إلىٰ صديق له بواسط ، قال : فتزود كُسَيباً[٢] بدرهم ، فكان زادَه من البصرة إلىٰ واسط .

وصنع عبد الواحد بن زيد طعاماً وجمع عليه نفراً من إخوانه ، وكان فيهم عتبة ، قال : فأكل القوم غير عتبة ، فإنه كان قائماً علىٰ رؤوسهم يخدمهم ، قال : فالتفت بعضهم إلىٰ عتبة ، فنظر إلىٰ عينيه والدموع تنحدر منها ، فسكت ، وأقبل على الطعام ، فلما فرغ القوم من طعامهم . . تفرقوا ، وأخبر الرجلُ عبدَ الواحد بنَ زيد بما رأىٰ من عتبة ، فقال له عبد الواحد : بأبي لم بكيت والقوم يطعمون ؟ قال : ذكرت موائد أهل الجنة والخدم قيام علىٰ رؤوسهم ، فشهق عبد الواحد شهقة خرَّ مغشياً عليه .

---

(١) السِّكْباج : طعام يُعمل من اللحم والخل مع التوابل ، معرَّب .
(٢) الكُسَيب : مصغر كُسْب وزان قُفْل ، عصارة الدُّهن .

وحدثني حصين بن القاسم ، قال : ما رأيت عبد الواحد بعد ذلك دعا إنساناً إلىٰ منزله قط ، ولا أكل طعاماً إلا دون شبعه ، ولا افترَّ ضاحكاً حتىٰ مضىٰ لوجهه ، وأما عتبة . . فإنه جعل لله عز وجل علىٰ نفسه ألاَّ يأكل إلا أقل من شبعه ، ولا يشرب إلا أقل من رِيِّه ، ولا ينام من الليل والنهار إلا يسيراً مغلوباً ، فكنتَ إذا رأيتَه . . رأيته شبه الواله ، فما ظنك برجل لا ينام إلا مغلوباً ؟!

قال : وكان يلبس الشعر تحت ثيابه ، فإذا كان يوم الجمعة . . ألقاه عنه ، ولبس من صالح ثيابه .

وقال إبراهيم بن عبد الرحمـٰن بن مهدي : سألت يوسف بن عطية ، فقلت له : ما كان لباس عتبة ؟ قال : كان يلبس كساءين أغبرين ، يتزر بواحد ، ويرتدي بالآخر ، إذا رأيتَه . . قلتَ : بعض الأَكَرَة[1] ، قال إبراهيم : وكان عتبة عربياً شريفاً من عَوْد .

وقال عتبة لبعض أصحابه : يا فلان ، كدت ألاَّ تراني ، كدت ألاَّ تراني ، قلت : ولِمَ ذاك ؟ قال : كادت الأرض تأخذني ، قلت : فأي شيء صنعت ؟ قال : رأيت أخاً لي ، فقال لي : يا عتبة ؛ أنت في كساءين وأنا في هـٰذا ، فلولا أني أعطيته ـ أظنه قال : أحدهما ـ ظننت أن الأرض تأخذني .

وقال رياح القيسي : قال لي عتبة : يا رياح ؛ إن كنتُ كلما دعتني نفسي إلى الكلام تكلمت . . فبئس الناظر أنا لها ، يا رياح . . إن لها موقفاً تَغتبط فيه بطول الصمت عن الفضول .

وقال أحمد بن زهير المروزي : ركب عتبة في زورق مع قوم ، قال : فأراد الملاح أن يعدل ببعضهم السفينة ، قال : فلم يجد أحداً أحقر في عينه من عتبة ، قال : فضرب جنبه ، وقال : استوِ ، فقال عتبة : الحمد لله الذي لم ير فيهم أحقر مني .

وقال سليمان بن علي لبعض أصحابه : أرِني عتبة الذي قد افتتن به أهل البصرة ، قال : فخرج به في الجيش حتىٰ أتىٰ به الجبَّان ، فوقف به علىٰ عتبة ، وعتبة لا يعلم ، منكِّسٌ رأسَهُ ، بيده عود ينكت به الأرض ، فوقف عليه ، وسلم ، فرفع رأسه ، ونظر إليه ، وقال : وعليكم السلام ورحمة الله ، قال : كيف أنت يا عتبة ؟ قال : بحال بين حالين ، قال : ما هُما ؟ قال : قدوم على الله عز وجل بخير ، أم بشر ، ثم نكَّسَ رأسَهُ ، وجعل ينكت

---

(١) الأَكَرَة جمع أكَّار ، وهو الحراث .

الأرض ، فقال سليمان : أرىٰ عتبة قد أحرز نفسه ، فلا يبالي فيما أصبحنا فيه وأمسينا ، ثم قال : يا عتبة ؛ قد أمرتُ لك بألفي درهم ، قال : أَقبلُها منك أيها الأمير علىٰ أن تقضي لي معها حاجة ، قال : نعم ـ وسُرَّ سليمان بذلك ـ فقال : وما حاجتك ؟ قال : تعفيني منها ، قال : قد فعلت ، ثم ولىٰ عنه منصرفاً وهو يبكي ، ويقول : قصَّر إلينا عتبة ما نحن فيه .

وقال رجل لعبد الواحد بن زيد : أتعلم أحداً يمشي في الطريق مشغولاً بنفسه ، لا يعرف أحداً ممن يراه من اشتغاله بنفسه ؟ قال : ما أعرف إلا رجلاً واحداً ، الساعة يدخل عليكم ، فبينا هو كذلك ؛ إذ دخل عتبة ـ وطريقه على السوق ـ فقال له عبد الواحد : يا عتبة ؛ من رأيت ؟ ومَن تلقاك في الطريق ؟ قال : ما رأيت أحداً .

وقال عبد الواحد : كان عتبة يجيء يوم الجمعة ، وقد أخذ الناسُ الظل ، فيقوم على الحصا ، ويسجد السجدة الطويلة ، قال عبد الواحد : ما أراه يعقل بِحَرِّهِ .

وقال رياح القيسي : قال لي عتبة : لولا ما قد نهينا عنه من تمني الموت . . لتمنيته ، قلت : ولِمَ تتمنى الموت ؟ قال : فيه خلتان حسنتان ، قلت : وما هُما ؟ قال : الراحة من معاشرة الفجار ، ورجاء لمجاورة الأبرار ، قال : ثم بكىٰ ، وقال : أستغفر الله ، وما يؤمنني أن يُقرَن بيني وبين الشيطان في سلسلة من حديد ، ثم يقذف بي في النار ، ثم غشي عليه .

وعن جعفر بن محمد قال : كان عتبة يقطع الليل بثلاث صيحات ، يصلي العتمة ، ثم يضع رأسه بين ركبتيه يفكر ، فإذا مضىٰ من الليل ثلثه . . صاح صيحة ، ثم يضع رأسه بين ركبتيه يفكر ، فإذا مضىٰ ثلثا الليل . . صاح صيحة ، ثم يضع رأسه بين ركبتيه يفكر ، فإذا كان السَّحَر . . صاح صيحة ، قال أحمد ابن أبي الحواري : فحدَّثْتُ به عبد العزيز ، فقال لي : حدثْتُ به بعض البصريين ، فقال : لا تنظر إلىٰ صيحته ولـٰكن انظر إلى الأمر الذي كان منه بين الصيحتين .

وقال سليم النحيف : رمقت عتبة ذات ليلة ، فما زاد ليلته تلك حتىٰ أصبح علىٰ هـٰذه الكلمات : إن تعذبني . . فإني لك محب ، وإن ترحمني . . فإني لك محب ، قال : فلم يزل يرددها ويبكي حتىٰ طلع الفجر .

وعن عنبسة الخواص قال : كان عتبة يزورني ، فربما بات عندي ، فبات ليلة ، فبكىٰ من السَّحَر بكاء شديداً ، فلما أصبح . . قلت له : قد فزَّعْتَ قلبي الليلة ببكائك ، ففيمَ ذاك

يا أخي ؟ قال : يا عنبسة ؛ ذكرت ـ والله ـ يوم العرض على الله عز وجل ، ثم مال ليسقط ، فاحتضنته ، وجعلت أنظر إلىٰ عينيه تتقلبان ، قد اشتدت حمرتهما ، وجعل يخور ، فناديته : عتبة ، عتبة ، فأجابني بصوت خفي : ذِكْرُ يوم العرض على الله عز وجل قطع أوصال المحبين ، ثم جعل يبكي بكاء شديداً ، ويقول : تراك يا مولاي تعذب محبيك ، وأنت الحي الكريم ؟! فلم يزل يرددها حتىٰ ـ والله ـ أبكاني .

وفي رواية أخرىٰ : عن عتبة قال : ربما جاءني ممسياً ، فيقول لي : أخرج إليَّ شربة من ماء أو تمرات أُفطِر عليهن ، فيكون لك مثل أجري .

وقال عتبة : من سكن حبُّ الله عز وجل قلَبه . . لم يجد حراً ولا برداً .

وقال : مَن عرف الله سبحانه وتعالىٰ . . أحبه ، ومَن أحبه . . أطاعه ، ومَن أطاع الله تعالىٰ . . أكرمه ، ومَن أكرمه . . أسكنه في جواره ، ومَن أسكنه في جواره . . فطوباه وطوباه أربعاً ، ولم يزل يقول : طوباه حتىٰ خر مغشياً عليه .

وقال عبد الواحد بن زيد : ربما سهرت مفكراً في طول حزنه ـ يعني عتبةَ ـ ولقد كلمته ليرفق بنفسه ، فبكىٰ وقال : إنما أبكي علىٰ تقصيري .

وقال إسماعيل القاري : سمعتهم يذكرون بعَبادان أنه قيل لعتبة في مرضة مرضها : ألا تتداوىٰ ؟ فقال عتبة : دائي هو دوائي .

قال : وسمعتهم أيضاً يذكرون عن عتبة أنه قال : كيف يصلح إنسان يسره ما يضره ؟! يعني : أن الدنيا تَسر قليلاً وتُحزن طويلاً ، فهي تسر وتضر .

وكان جار لعتبة ، فقال ليلة : سبحان الله جبار السماء ، إن المحب لفي عناء ، فسمعه عتبة ، فقال : صدقت والله ، ثم غشي عليه .

ودعا عتبة ربه عز وجل أن يمن عليه بصوت حزين ، ودمع غزير ، وغذاء من غير تكلف ، قال : فكان إذا قرأ . . بكىٰ وأبكىٰ ، وكانت دموعه جارية دهره ، وإذا أوىٰ إلىٰ منزله . . يصيب قوْتَهُ ولا يدري من أين يأتيه .

وقيل لمخلد بن الحسين : قد صحبت إبراهيم بن أدهم وعتبة الغلام ، فأيهما كان أفضل : عتبة ، أم إبراهيم ؟ فقال : ما رأت عيناي رجلاً كان أفضل من عتبة .

وقال مسلم بن إبراهيم : رأيت عتبة ، وكان يقال : إن الطير تجيبه ، وبلغني عن بعض

أصحابنا أنه قال : دعا عتبة هـٰذا الطيرَ الأقمر ، فقال : تعال وأنت آمن ، فجاء حتىٰ وقع في يده ، ثم خلَّىٰ سبيله ، وقال لصاحبه الذي رآه : لا تحدث بهـٰذا أحداً .

وقال مهدي بن ميمون : خرجت في بعض الليل إلى الجبَّان ؛ فإذا عتبة ، فقال لي : قد دعوت الله تعالىٰ أن يجيء بك ، قال : فقلت : ادع الله أن يطعمنا رطباً ، قال : فدعا الله سبحانه وتعالىٰ ؛ فإذا دوخلة[1] رطب بين يديه ، فأكلنا منه .

وقال عبد الخالق العبدي : كان لعتبة بيت يتعبد فيه ، فلما خرج إلى الشام . . أقفله ، وقال : لا تفتحوه إلىٰ أن يبلغكم موتي ، فلما بلغهم موته . . فتحوه ، فوجدوا فيه قبراً محفوراً ، وغِلاًّ من حديد .

وسئل يوسف بن عطية ، هل كان عطاء السَّلِيْمِي يَقبَلُ من أحد هدية ؟ قال : نعم ؛ هدية عتبة ، قيل : فأي شيء كان يهدي له ؟ قال : هـٰذه الجرار التي فيها الزيتون والكامَخ[2] يجيء بها تحت كسائه .

وكان قدامة بن أيوب العتكي من أصحاب عتبة ، قال : فرأيت عتبة في المنام ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ ما صنع الله بك ؟ قال : يا قدامة ؛ دخلت الجنة بتلك الدعوات المكتوبة في بيتك ، قال : فلما أصبحت . . جئت إلىٰ بيتي ؛ فإذا خط عتبة في حائط البيت مكتوب : اللهم ، يا هادي المضلين ، وراحم المذنبين ، ومقيل عثرات العاثرين ؛ ارحم عبدك ذا الخطر العظيم ، والمسلمين كلهم أجمعين ، واجعلنا من الأحياء المرزوقين ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، آمين يا رب العالمين . انتهىٰ [« الحلية » ٦/٢٢٦ـ٢٣٨] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : إنما سمي عتبة الغلام ؛ لجِدِّه واجتهاده في العبادة ، لا لصغر سنه ، وكان يفتل الشريط[3] .

وقال سوار أبو عبيدة : بكىٰ عتبة في مجلس عبد الواحد بن زيد تسع سنين ، لا يفتر من البكاء ، من حين يبدأ عبد الواحد الموعظة إلىٰ أن يقوم ، لا يكاد يفتر عنه ، فقيل

---

(١) **الدوخلَّة** : ما ينسج من الخوص ، ويجعل فيه الرطب .
(٢) **الكامَخ** : نوع من الإدام .
(٣) **الشريط** : الحبل المفتول .

لعبد الواحد : إنا لا نفهم كلامك من بكاء عتبة ، فقال : فما أصنع أنا ؟ ما أعمل ؟ أيبكي عتبة علىٰ نفسه وأنهاه أنا ؟ لبئس واعظ القوم أنا .

وقال عتبة : كابدت الصلاة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة .

اشتغل عتبة بالعبادة عن الرواية ، وقد ذكرنا أنه قتل شهيداً في بعض الغزوات ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٢١٩-٢٢٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام أمير المؤمنين في الحديث :

أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن عبيد الله بن سعيد قال : سمعت عبد الرحمـٰن بن مهدي يقول : أدركت من الأئمة أربعة : مالك بن أنس ، وحماد بن زيد ، وسفيان بن سعيد ، وذكر الرابع ونسيته ، إن لم يكن ابن المبارك . . فلا أدري .

وقال يعقوب بن إسحاق الحضرمي : قال : سمعت شعبة يقول : سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث .

قال أبو أسامة : كنت بالبصرة حين مات سفيان الثوري ، فلقيت يزيد بن إبراهيم صبيحة الليلة التي مات فيها سفيان ، فقال : قيل لي الليلة في منامي : مات أمير المؤمنين ، فقلت للذي يقول في المنام : مات سفيان الثوري ؟ فقال : قد مات الليلة ، وكان قد مات تلك الليلة .

وقال سفيان بن عيينة : أئمة الناس ثلاثة : ابن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه ، والثوري في زمانه .

وعن المثنى بن صباح وذكر سفيانَ الثوري فقال : عالم الأمة وعابدها .

وقال محمد بن عبيد الطنافسي : لا أذكر سفيان الثوري إلا وهو يفتي منذ ستين سنة ، ونحن في الكُتَّاب تمر بنا المرأة والرجل ، فيسترشدونا إلىٰ سفيان ليستفتوه فيفتيهم .

وقال بشر بن الحارث : كان سفيان الثوري رحمه الله إمام الناس .

وعن مبارك بن سعيد قال : رأيت عاصم ابن أبي النجود يجيء إلىٰ سفيان يستفتيه ، ويقول : أتيتنا يا سفيان صغيراً ، وأتيناك كبيراً .

وعن سهل قال : سمعت يوسف بن أسباط رحمه الله يقول : إني لأرىٰ أهل زمان سفيان سيُعاتَبون بسفيان ، فيقال : ألم يكن فيكم مِثل سفيان ؟!

وقال الحسن بن شقيق : سمعت عبد الله بن المبارك يقول : ما أعلم على الأرض أعلم من سفيان .

وقال الأوزاعي : لو قيل لي : اختر للأمة رجلاً يقوم بكتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . . لاخترت لهم الثوري .

وقيل لابن المبارك : أرأيت مثل سفيان الثوري ؟ فقال : وهل رأى الثوري مثل نفسه ؟

وقال أبو بكر بن عياش : إني لأرى الرجل يحدث عن سفيان فينبل في عيني .

وعن عبد الرحمن بن مهدي ، عن يحيى القطان قال : قال لي ابن المبارك : إذا لقيت سفيان . . فلا تسأله عن شيء إلا عن رأيه .

وقال ابن المبارك : تعجبني مجالس سفيان ، كنت إذا شئت . . رأيته في الورع ، وإذا شئت . . رأيته مصلياً ، وإذا شئت . . رأيته غائصاً في الفقه .

وقال مؤَمِّل : ما رأيت عالماً يعمل بعلمه إلا سفيان .

وعن أيوب بن سويد قال : ما سألنا سفيان الثوري عن شيء . . إلا وجدْنا عنده أثراً ماضياً ، أو أثراً من عالم قبله .

وعن عبد الرزاق قال : كنت جالساً عند الكعبة مع أبي حنيفة ، فجاء رجل ، فقال : يا أبا حنيفة ؛ ألا أعجبك من الثوري ؟! رأيته يلبي على الصفا ، قال : اذهب ويحك فالزمه ؛ فإنه لا يلبي على الصفا إلا بعلم ؟!

وقال عبد الرزاق : فتعجب منه ، فقلت : ألم تسمع حديث مسروق عن عبد الله أنه لبىٰ على الصفا[1] ؟

وقال أبو أسامة : سفيان الثوري حجة .

وقال أحمد بن يونس : ما رأيت أحداً أعلم من سفيان ، ولا أورع من سفيان ، ولا أفقه من سفيان ، ولا أزهد من سفيان .

وقال يحيى بن سعيد : ما كتبت عن سفيان عن الأعمش . . أحب إلي مما سمعت من الأعمش .

---

(١) أخرج الشافعي في « المسند » (١/ ٣٩٠) عن عبد الله بن مسعود : أنه لبىٰ على الصفا في عمرة بعد ما طاف بالبيت ، والله أعلم .

وقال أبو أسامة : من أخبرك أنه نظر بعينيه إلىٰ مثل سفيان الثوري . . فلا تصدقه .

وعن عبد الرحمـٰن بن مهدي قال : ما رأيت أعقل من مالك ، ولا رأيت أعلم من سفيان .

وعن سهل بن عاصم قال : سمعت ثابتاً أو إسماعيل الزاهد يقول ، وذكر سفيان الثوري فقال : رحم الله أبا عبد الله ، يا زين الفقهاء ، يا سيد العلماء ، يا قرير العيون ؛ تبكي العيون لفقده علىٰ واصل الأرحام ، ثم قال : أصيب المسلمون بعمر بن الخطاب رضي الله عنه في زمانه ، وأصبنا بأبي عبد الله في زماننا .

وعن سهل بن عاصم ، عن عبد الكبير بن معافى بن عمران ، سمعت أبي يقول : لقد مَنَّ الله علىٰ أهل الإسلام بسفيان الثوري .

وقال يحيى بن سعيد وسئل عن سفيان وشعبة فقال : ليس الأمر بالمحاباة ؛ إذ لو كان الأمر بالمحاباة . . لقدَّمْنا شعبة علىٰ سفيان ، سفيان يرجع إلىٰ كتاب ، وشعبة لا يرجع إلىٰ كتاب ، وسفيان أحفظهما ، قد رأيناهما يختلفان ، فوجدنا الأمر علىٰ ما قال سفيان .

وكان يحيى بن سعيد لا يعدل بسفيان الثوري أحداً .

وعن الهيثم بن جميل قال : سمعت شريكاً يقول : إن الله لا يدع الأرض من حُجة تكون لله علىٰ عباده ، يقول : ما منعكم أن تكونوا مثل فلان ؟ قال شريك : ونرىٰ أن سفيان منهم .

وعن أبي المثنىٰ قال : سمعت الناس بمرو وهم يقولون : قد جاء الثوري ، قد جاء الثوري ، فخرجت أنظر إليه ؛ فإذ هو غلام قد بقل وجهه(١) .

وقال أيوب السختياني : ما قدم علينا من الكوفة أفضل من سفيان الثوري .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي وذكر سفيان وشعبة ومالكاً وابن المبارك فقال : أعلمهم بالعلم سفيان .

وقال إسحاق بن راهويه : قال يحيى بن سعيد : كان الثوري أبصرَ بالرجال من شعبة .

وقال : سمعت سفيان الثوري يقول : كان الرجل لا يطلب الحديث حتىٰ يتعبد قبل ذلك عشرين سنة .

---

(١) أي : نبت شعره .

وقال سفيان الثوري : زينوا العلم بأنفسكم ، ولا تتزينوا بالعلم .

وقال سفيان : الأعمال السيئة داء ، والعلماء دواء ، فإذا فسد العلماء . . فمن يَشفي الداء .

وقال : العالم طبيب الدِّين ، والدرهم داء الدِّين ، فإذا اجتر الطبيب الداء إلىٰ نفسه . . فمتىٰ يداوي غيره .

وقال ابن المبارك : سمعت سفيان الثوري يقول : ما أطاق أحد العبادة ولا قوي عليها . . إلا بشدة الخوف .

وقال سفيان : إنما يُطلب العلم ليُتَّقَى الله تعالىٰ به ، فمن ثَمَّ فضل ، ولولا ذلك . . لكان كسائر الأشياء .

وقال سفيان الثوري : كان يقال : حسن الأدب يطفىء غضب الرب عز وجل .

وقال : تعلموا العلم ، واكظموا عليه ، ولا تخلطوه بضحك ؛ فتمجه القلوب .

وقال : إنما هو طلبه ، ثم حفظه ، ثم العمل به ، ثم نشره وتعليمه .

وقال : مَن حدث قبل أن يُحتاج إليه . . ذلَّ .

وقال سفيان الثوري : ليس عمل بعد الفرائض أفضل من طلب العلم .

وقال : لا نزال نتعلم ما وجدنا من يعلمنا .

وقال : الحديث أكثر من الذهب والفضة وليس يُدرَك ، وفتنة الحديث أشد من فتنة الذهب والفضة .

وقال : من ازداد علماً . . ازداد وجعاً .

وقال : لو لم أَعْلَم . . لكان أقلَّ لحزني .

وقال : وددت أني أنجو من هـٰذا الأمر كفافاً لا علي ولا لي .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : كنا نكون عند سفيان وهو يحدثنا ، ثم يثب ، ويقول : إن النهار يعمل عمله .

وقال يحيى بن يمان : ما سمعت سفيان يعيب العلم قط ، ولا من يطلبه ، قالوا : أليست لهم نية ؟ قال : طلبهم العلم نية .

وعن عيسى بن يونس قال : مات سفيان مختفياً ، وقد جعل قميصه خريطة قد ملأها كتباً .

وعن حماد بن دليل قال : ما كنا نأتي سفيان إلا في خُلْقان ثيابنا .

وقال قبيصة : ما رأيت الأغنياء أذل في مجلس من مجلس سفيان الثوري ، ولا الفقراء أعز منهم في مجلس سفيان .

وفي رواية : كان يقول لأصحاب الحديث : تقدموا يا معشر الضعفاء .

وقال خلف بن تميم : سمعت سفيان الثوري بمكة وقد كثر الناس عليه فسمعته يقول : ضاعت الأمة حين احتيج إليَّ .

وكان سفيان الثوري إذا لقي شيخاً . . سأله : هل سمعت من العلم شيئاً ؟ فإن قال : لا . . قال : لا جزاك الله عن الإسلام خيراً .

وقال الثوري : ينبغي للرجل أن يُكرِهَ ولده علىٰ طلب العلم والحديث ؛ فإنه مسؤول عنه .

وقال : إن هـٰذا الحديث عِزٌّ ، من أراد به الدنيا . . فدنيا ، ومن أراد به الآخرة . . فآخرة .

وقال سفيان : ليس شيء أنفع للناس من الحديث .

وقال سفيان : لو لم يأتني أصحاب الحديث . . لأتيتهم في بيوتهم .

وقال : لو أني أعلم أن أحداً يطلب الحديث بِنية . . لأتيته في منزله حتىٰ أحدثه .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : رأيت سفيان الثوري في المنام ، فقلت له : أي شيء وجدت أفضل ؟ قال : الحديث .

وقال سفيان : ما من عمل أفضل من طلب الحديث إذا صحت النية فيه ، قال أحمد ابن أبي الحواري : قلت للفريابي : وأي شيء النية فيه ؟ قال : تريد به وجه الله عز وجل والدار الآخرة .

وقال سليمان بن حيان : كنا نصحب سفيان الثوري ، وقد سمعنا ممن سمع منه إنما نريد منه تفسير الحديث .

وقال عبد الرزاق : سألت الثوري في الموسم عن شيء ، فقال : هيهات! أنت من أصحاب السلاح ، أراه يعني : الإسناد .

وقال سفيان الثوري : **إنما العلم عندنا الرخصة عن الثقات ، فأما التشديد . . فكل إنسان يحسنه** .

وقدم سفيان الثوري الرملة أو بيت المقدس ، فأرسل إليه إبراهيم بن أدهم ؛ تعال حدِّثْنا ، فقيل له : يا أبا إسحاق ؛ تبعث إليه بمِثل هـٰذا ؟! قال : إنما أردت أن أعلم كيف تواضعه ، قال : فجاء ، فحدثهم .

وقال الثوري : طلبت العلم ولم يكن لي نية ، ثم رزقني الله تعالى النية .

وقال يحيى بن يمان : سمعت الثوري يقول : ما أُحدِّث من كل عشرة أحاديث إلا بواحد ، وقد كتبنا عنه عشرين ألفاً ، وأخبرني الأشجعي أنه كتب عنه ثلاثين ألفاً .

وقال حفص بن غياث : سمعت الثوري يقول : إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختُلف فيه وأنت ترىٰ غيره . . فلا تنهه .

وقال سفيان : ما استودعت أذني شيئاً قط . . إلا حفظته ، حتىٰ أني أمر بكذا كلمة قالها قائل ، فأسد أذني خشية أن أحفظ ما يقول .

وقال سفيان لرجل من العرب : اطلبوا العلم ويحكم! فإني أخاف أن يخرج منكم ، فيصير في غيركم ، اطلبوه ويحكم! فإنه عز وشرف في الدنيا والآخرة .

وقال سفيان : يعجبني أن يكون صاحب الحديث مكفياً ؛ فإن الآفات إليهم أسرع ، وألسنة الناس إليهم أسرع .

وقال محمد بن يوسف الفريابي : كان سفيان الثوري لا يحدث النبط[1] وسَفِلَ الناسِ ، وكان إذا رآه . . ساءه ، وقيل له في ذلك ، فقال : إنما العلم أخذ عن العرب ، فإذا صار إلى النبط وسَفِلَ الناسِ . . قلَبوا العلم .

وقال رجل لسفيان الثوري : لو أنك نشرت ما عندك من العلم . . رجوت أن ينفع الله به بعض عباده ، وتؤجَر علىٰ ذلك ؟ فقال سفيان : والله ؛ لو أعلم بالذي يطلب هـٰذا العلم

---

(١) هم أخلاط الناس وعوامهم من غير العرب .

لا يريد به إلا ما عند الله عز وجل . . لكنت أنا الذي آتيه في منزله ، فأحدثه بما عندي مما أرجو أن ينفعه الله تعالىٰ به .

وقال سفيان : ليس طلب العلم فلان عن فلان ، إنما طلب العلم الخشية لله عز وجل .

وقال الثوري : كان يقال : لا تكونن حريصاً على الدنيا . . تكن حافظاً .

وقال عبد الرزاق : قال صاحب لنا لسفيان : يا أبا عبد الله . . حدثنا كما سمعت ، فقال : لا والله ما إليه سبيل ، وما هو إلا المعاني .

وقال : لو قلت لكم : إني أحدثكم كما سمعت . . فلا تصدقوني .

وقال : إني لأظن أن رجلاً لو هَمَّ بالكذب . . عُرِفَ ذلك في وجهه .

وقال سفيان الثوري : لما أردت طلب العلم . . قلت : يا رب ؛ إنه لا بد لي من معيشة ، وأحب درس العلم ، فقلت : أُفرِّغ نفسي لطلبه ، وسألت ربي عز وجل الكفاية والتشاغل بطلب العلم ، فما رأيت إلا ما أحب إلىٰ يومي هـٰذا .

وقال سفيان : طلبت هـٰذا الأمر لغير الله ، فأعقبني ما أرىٰ .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : كنا نكون عند سفيان الثوري وكأنه قد أوقف للحساب ، فلا نجترىء أن نكلمه ، فنعرض بذكر الحديث ، فيذهب ذاك الخشوع ، فإنما هو حدثنا وحدثنا .

وعن ضمرة بن ربيعة قال : كان سفيان ربما حدَّث بعسقلان يبتدئهم يقول : انفجرت العين ، انفجرت العين ، يعجب من نفسه ، وربما حدَّث الرجل بحديث ، فيقول له : هـٰذا خير لك من ولايتك عسقلان وصُور .

ونظر حماد بن زيد إلىٰ سفيان الثوري مسجًّىً على السرير ، فقال : يا سفيان . . لست أغبطك اليوم بكثرة الحديث ، إنما أغبطك بعمل صالح قَدَّمْتَ .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : لما مات سفيان . . أخرجناه بالليل من أجل السلطان ، فحملناه بالليل ، فما أنكرنا الليل من النهار ، قال : وسمعته يقول في علته ـ وكان به البَطَن[1] ـ : ذهب الستر ، ذهب الستر .

وقال يحيى بن سعيد : رأيت الثوري فيما يرى النائم ، فنظرت إلىٰ صدره ، فإذا في صدره مكتوب في موضعين : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

---

(١) أي : داء البطن .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : لما أن غسلت سفيان الثوري . . وجدت في جسمه مكتوباً : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : جاءني جرير بن حازم وحماد بن زيد من الغد يوم دفنا سفيان ، فقالا : اخرج بنا ، فخرجت معهما ، فبينما نحن نمشي . . قال جرير بن حازم :

من كان يبكي علىٰ حي لمنزلة بكى الغداةَ على الثوريِّ سفيانا

قال : ثم سكتَ ، فظننت أنه كان هيأ أبياتاً يقولها ، فسكت ، فقال عبد الله بن الصباح :

أبكي عليه وقد ولىٰ وسؤدده وفضله ناضر كالغصن ريّانا

وعن أحمد بن سعيد الرباطي ، قال أبو داوود : مات سفيان رحمه الله بالبصرة ، فدفن ليلاً ، ولم نشهد الصلاة عليه ، فغدونا علىٰ قبره ومعنا جرير بن حازم وسلام بن مسكين ، فتقدم جرير ، وصلىٰ علىٰ قبره ، ثم بكىٰ ، وقال :

إذا بكيتَ علىٰ مَيْتٍ لمكرمة فابك الغداةَ على الثوريِّ سفيانا

وقال خلف بن تميم : كان سفيان الثوري رحمه الله يتمثل بهـٰذه الأبيات :

أطريفُ إن العيش كَدَّرَ صَفْوَه ذكرُ المنية والقبورِ الهُوَّلِ
دنيا تَداولها العباد ذميمة شيبت بأكره من نقيع الحنظل
وبنات دهر لا تزال ملمَّةً ولها فجائع مثلُ وقع الجندل

وقال محمد بن بشر : سمعت سفيان الثوري يقول :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقىٰ ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت علىٰ ألاَّ تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

وقال سفيان بن عيينة : جاع سفيان الثوري جوعاً شديداً مكث ثلاثة أيام لا يأكل شيئاً ، فمر بدار فيها عرس ، فدعته نفسه إلىٰ أن يدخل ، فعصمه الله تعالىٰ بالورع ، ومضىٰ إلىٰ منزل ابنته ، فأتته بقرص ، فأكله وشرب ماء ، فتجشأ ، ثم قال :

سيكفيك مما أُغلق البابُ دونه وضن به الأقوام ملح وجردق(١)
تَجَشَّأْ إذا ما هُمْ تَجَشَّوْا كأنما ظللت بألوان الخبيص تفتَّق

---

(١) **الجردق** : الرغيف .

وكان سفيان يقول :

إن كنت ترجو الله فاقنع به ... فعنده الفضل الكبير الغزيرْ
من ذا الذي تلزمه فاقة ... وذخره الله العلي الكبيرْ

وقال سفيان الثوري : حدثنا المغيرة بن مقسم ، عن إبراهيم النخعي ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اقتحم علىٰ أهل الجنة نور في قبابهم كاد أن يخطف نور أبصارهم ، فنظروا ؛ فإذا نور سن حوراء ضحكت في وجه وليها »(١) ، وفي رواية : « في وجه زوجها » .

وقال محمد بن غالب : بَرقت برقة في الجنة ، فقالوا : ما هـٰذا ؟ فقالوا : حوراء ضحكت في وجه زوجها .

وطاف سفيان الثوري ذات ليلة ، فأكثر الطواف ، ثم صلىٰ ، فأطال الصلاة ، ثم اضطجع ، قال الراوي : فقلت هـٰذه ضجعته حتىٰ يصبح ، فما كان إلا قليلاً حتىٰ هبَّ من نومه ، ثم أخذ نحو الجبل الذي كان يأوي إليه ، فأصاب إبهام قدمه حجر ، فدَمِيَتْ ، فاضطجع ، ثم قال : أف لها ما أكثر كدرها ، عجباً لمن يحبها!

وكان الثوري يتمثل :

أرىٰ رجالاً بدون الدِّين قد قَنِعوا ... وليس في عيشهم يَرْضون بالدونِ
فاستغن بالدِّين عن دنيا الملوك كما ... اسْتغنى الملوك بدنياهم عن الدِّين

وعن محمد بن إسحاق الباهلي ، عن أبيه قال : سمعت سفيان الثوري يتمثل :

إنـي وجـدت فـلا بِظَنِّـي غيـره ... أنَّ التنسـك عنـد هـٰذا الـدرهـم

وقال يحيى بن آدم : كان سفيان الثوري رحمه الله يتمثل :

أُبْلُ الرجال إذا أردت إخاءهمْ ... وتوسَّمَنَّ أمورهمْ وتفقَّدِ
وإذا وجدت أخا الأمانة والتقىٰ ... فبه اليدين قريرَ عين فاشدُدِ
ودع التخشع والتذلل تبتغي ... قرب امرىءٍ إن تدن منه يَبعُدِ

---

(١) أخرج الديلمي (٢/٣٣٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « سطع نور في الجنة ، فرفعوا رؤوسهم ؛ فإذا هو من ثغر حوراء ضحكت في وجه زوجها » .

وعن حفص بن عمرو ـ وهو ابن أخي سفيان الثوري رحمهما الله ـ قال : كتب سفيان الثوري إلىٰ عباد بن عباد :

أما بعد : فإنك في زمان كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذون أن يدركوه ، ولهم من العلم ما ليس لنا ، ولهم من القَدَم ما ليس لنا ، فكيف بنا حين أدركناه علىٰ قلة العلم ، وقلة صبر ، وقلة أعوان على الخير ، وفساد من الناس ، وكدَر من الدنيا ؟! فعليك بالأمر الأول ، والتمسك به ، وعليك بالخمول ؛ فإن هـٰذا زمان خمول ، وعليك بالعزلة ، وقلة مخالطة الناس ، فقد كان الناس إذا التقوا . . ينتفع بعضهم ببعض ، فأما اليوم . . فقد ذهب ذاك ، فالنجاةُ في تركهم فيما نرىٰ ، وإياك والأمراء أن تدنُوَ منهم أو تخالطهم في شيء من الأشياء ، ويقال لك : تشفع وتدرأ عن مظلوم ، أو ترد مظلمة ؛ فإن ذلك خديعة إبليس ، وإنما اتخذها فُجَّار القراء سُلَّماً .

وكان يقال : اتقوا فتنة العابد الجاهل والعالم الفاجر ؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، وما كُفِيتَ من المسألة والفتيا . . فاغتنم ذلك ، ولا تنافسهم فيه ، وإياك أن تكون ممن يحب أن يُعمَل بقوله ، أو يُنشر قولُه ، أو يُسمَع من قوله ، وإياك وحب الرئاسة ؛ فإن الرجل تكون الرئاسة أحب إليه من الذهب والفضة ، وهو باب غامض ، لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة ، فتفقد نفسك ، واعمل بنية ، واعلم أنه قد دنا من الناس أمور يشتهي الرجل أن يموت قبلها . والسلام .

وقدم المهدي مكة وسفيان الثوري بها ، فدعاه ، فلما جاءه . . قال له سفيان : احذر هـٰذا ـ كاتباً لشخص كان إلىٰ جنبه ـ ثم قال له : اتق الله ، واعلم : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حج ، فأنفق ستة عشر ديناراً ، ثم حدثه بحديث أيمن فقال : حدثني أبو عمران ولم يقل أيمن ، فقيل له : لِمَ لم تقل أيمن ؟ قال : لعله يدعوه فيفزع الرجل .

وعن سفيان بن عيينة قال : قال سفيان الثوري : دخلت على المهدي ، فرأيت ما قد هيأه للحج ، فقلت : ما هـٰذا ؟ حَجَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأنفق ستة عشر ديناراً .

وفي رواية أخرىٰ : وأنت فيما أنت فيه!! فغضب ، وقال : تريد أن أكون في مثل الذي أنت فيه ؟! قال : قلت : فإن لم تكن في مثل الذي أنا فيه . . ففي دون ما أنت فيه ، فقال لي أبو عبيد الله وزيره : يا أبا عبد الله . . قد جاءتنا كتبك ، فأنفذناها ، قال : فقلت له : ما كتبت إليك شيئاً قط .

وقال داوود بن يحيى بن يمان : سمعت أبي يقول : سمعت سفيان الثوري يقول : قال لي المهدي : يا أبا عبد الله ؛ اصحبني حتىٰ أسير فيكم سيرة العُمَرين رضي الله عنهما ، قال : قلت : أمَا وهـٰؤلاء جلساؤك . . فلا ، قال : فإنك تكتب إلينا في حوائجك فنقضيها ، قال سفيان : والله ؛ ما كتبت إليك كتاباً قطُّ ، قال : فأي شيء دخله ؟!

وقال سفيان لبعض الأمراء : إن اقتصرت علىٰ خبزك وبقلك . . لم يستعبدْك هـٰؤلاء .

وقال عباد بن السماك : قال سمعت سفيان الثوري يقول : أئمة العدل خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر بن عبد العزيز ، مَن قال غير هـٰذا . . فقد اعتدىٰ .

وقال علي بن ثابت : رأيت الثوري في طريق مكة ، فقومت كل شيء عليه حتىٰ نعليه درهماً وأربعة دوانق .

زاد محمد بن علي في حديثه : وما رأيت الثوري في صدر مجلس قط ، إنما كان يقعد إلىٰ جنب الحائط ، ويجمع بين ركبتيه .

وقال الثوري : لا يأمر السلطانَ بالمعروف . . إلا رجلٌ عالم بما يأمر ، عالم بما ينهىٰ ، رفيق فيما يأمر ، رفيق فيما ينهىٰ ، عدل فيما يأمر ، عدل فيما ينهىٰ .

وقال خلف بن تميم : قال رجل لسفيان الثوري : ذهب الناس يا أبا عبد الله ، وبقينا علىٰ حُمُرٍ دَبِرَة(١) ، فقال الثوري رحمه الله : ما أحسن حالها لو كانت على الطريق .

وعن عبد الله بن المبارك قال : قلت لسفيان الثوري : أيؤاخذ العبد بالهمة ؟ قال : إذا كانت عزماً . . أخذ بها .

وقال يحيى بن المتوكل : مررت مع سفيان برجل يبني بناء قد شيده وزوّقه ، فقال لي : لا تنظر إليه ، قلت : لِمَ يا أبا عبد الله ؟ قال : **هـٰذا إنما بناه ليُنظَرَ إليه ، ولو كان كل من مَرَّ لا ينظر إليه . . لم يكن هـٰذا البناء** . انتهىٰ [« الحلية » ٦/٣٥٦-٣٨٠] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا المعنىٰ صحيح يمكن إحالة الحكم عليه ، وهو معنىً غامض دقيق يُستأنَس به ؛ لما رتب عليه بعض الأصحاب رضي الله عنهم من الحكم حين سئل ـ وهو شيخ عصره ـ نجم الدين بن الرفعة رحمه الله ؛

(١) الدَّبَر : القرح الذي يكون في ظهر البعير .

فإنه لما استفتي في جواز النظر إلىٰ تلك الزينة التي كانت في القاهرة وكانت قد زينت إذ ذاك . . أفتىٰ بتحريم النظر إليها ، وعلل بهـٰذا المعنىٰ ؛ فإنه قال : لو أن كل من يمر لم ينظر إليها . . لم تكن هـٰذه الزينة . انتهىٰ .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال سفيان الثوري رحمه الله : بلغني أن الإنسان خلق أحمق ، ولولا ذلك . . لم يهنِهِ العيش[1] .

وكان الثوري إذا بلغه عن قرية فيها رُخْصٌ . . انتقل إليها ليقيم فيها ، فقيل له في ذلك ، فقال : إذا بلغك عن قرية فيها رخص . . فأقم بها ؛ فإنه أسلم لقلبك ودِينك ، وأقل لهمك[2] .

وروي أن سفيان الثوري قدم عسقلان ، فمكث أياماً لا يسأله إنسان ، فقال : اكتروا لي لأخرج من هـٰذا البلد ، هـٰذا بلد يموت فيه العلم[3] .

قال الغزالي : وإنما قال ذلك حرصاً علىٰ فضيلة التعليم ، واستيفاء العلم . انتهىٰ [« الإحياء » ١/١١] .

قال في « بهجة الأسرار » : قال بشر : كتب سفيان الثوري رحمه الله إلىٰ أخ له بأربعة أشياء : استغفر عند المعصية ، وذل عند الطاعة ، وجالس الناس علىٰ قدر تقواهم ، وملاك ذلك كله . . الزهد .

وسئل سفيان الثوري عن المواساة ، فقال : هـٰذا طريق قد نبت عليه العوسج[4] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال وكيع : سمعت سفيان الثوري يقول : لا تجيبوا إلا دعوة من ترون أن قلوبكم تصلح علىٰ طعامه .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : حدثني محمد قال : مَرَّ شيخ من الكوفيين ، فقال له سفيان : يا شيخ ؛ وَلِيَ فلان ، فكتبتَ له ، ثم عزل ، وولي فلان ، فكتبتَ له ، ثم عزل ، وولي فلان ، فكتبتَ له ، ثم عزل ، وولي فلان ، فكتبتَ له ، وأنت يوم القيامة أسوَؤُهم حالاً ، يدعىٰ بالأول فيسأل ، ويدعىٰ بك معه ، فتُسأل عما جرىٰ علىٰ يديك ، ثم يذهب ،

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٥٤) .
(٢) الإحياء (١/ ٢٤٤) .
(٣) الإحياء (١/ ١١) .
(٤) **العوسج** : نبات شائك .

وتُوقَف أنت حتىٰ يُدعىٰ بالآخر ، فيُسأل وتُسأل أنت عما جرىٰ علىٰ يديك ، ثم يذهب ، وتُوقَف أنت حتىٰ يُدعىٰ بالآخر ، فأنت يوم القيامة أسوَؤُهم حالاً ، قال : فقال الشيخ : كيف أصنع يا أبا عبد الله بعِيالي ؟ فقال سفيان رحمه الله : اسمعوا ، هـٰذا يقول : إذا عصى الله تعالىٰ . . رَزَق عياله ، وإذا أطاع الله تعالىٰ . . ضيع عياله ، قال : ثم قال : لا تقتدوا بصاحب عيال ، فما كان عذرُ مَن عوتب . . إلا أن قال : عيالي .

وقال أحمد ابن أبي الحواري أيضاً : سمعت بشر بن السري رحمه الله يقول : اجتمعتُ أنا وسفيان ويحيى بن سليم في الحِجر ـ أو قال : في الحطيم ـ فحدث سفيان عن ابن المنكدر يرويه قال : « لو أن عبداً جاء يوم القيامة قد أدىٰ إلى الله عز وجل جميع ما افترض عليه ، إلا أنه محب للدنيا . . إلا[1] أمر الله تعالىٰ منادياً ينادي به علىٰ رؤوس أهل الجمع : ألا إن هـٰذا فلان بن فلان قد أحب ما أبغض الله عز وجل »[2] .

وعن عيسى بن يونس قال : لقيت سفيان الثوري ، فقال لي : لا تغتر بصاحب عيال ، فقلَّ صاحب عيال . . إلا خلط ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ بلغني أن لك بضاعة نحو مئتي دينار يُعمل لك بها ، قال : فخرجت إلى الثغر ، ثم قدمت ، فأتيته ، فقال : أشعرت أن قرة عيني مات ، فاسترحت ، قال : وكان له ابن يقال له : سعيد ، مات .

وقال حذيفة بن قتادة المرعشي : قال لي سفيان الثوري : لأَن أُخلِّفَ عشرة آلاف درهم أحاسب عليها . . أحب إلي مِن أن أحتاج إلى الناس .

وقال روَّاد بن الجراح : سمعت سفيان الثوري يقول : كان المال فيما مضىٰ يكره ، فأما اليوم . . فهو ترس المؤمن .

وقال عبد الله بن محمد الباهلي : جاء رجل إلى الثوري ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ تمسك هـٰذه الدنانير ؟ فقال : اسكت ، فلولا هـٰذه الدنانير . . لتمندل[3] بنا هـٰؤلاء الملوك ، قال : وقال سفيان : من كان في يده من هـٰذه شيء . . فليصلحه ؛ فإنه زمان إن احتاج فيه . . كان أول ما يبذل فيه دِينه .

وجاءه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله . . إني أريد الحج ، فقال : لا تصحب من يَكْرُمُ

---

(١) من أحوال (إلا) : أن تكون زائدة لفظاً كما في هـٰذا الحديث الشريف .

(٢) أخرجه بنحوه الديلمي (٣/ ٣٦٣) ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٣) تمندل : تمسح به من أثر الوضوء أو الطهور .

عليك ؛ فإنك إن ساويته في النفقة . . أضر بك ، وإن تفضل عليك . . استذلَّك .

وقال أبو الأحوص سلام بن سليم : قال لي سفيان الثوري : عليك بعمل الأبطال : الكسب من الحلال ، والإنفاق على العيال .

وقال شعيب بن حرب : قال لي الثوري : يا صالح ؛ احفظ عني ثلاثاً : إن احتجت إلىٰ شسع . . فلا تسأل ، وإن احتجت إلىٰ ملح . . فلا تسأل ، واعلم : أن الخبز الذي تأكله . . بملح عُجن ، وإن احتجت إلىٰ ماء . . فاستعمل كفك ؛ فإنه يجري مجرى الإناء .

وكان الثوري يقول : الحلال لا يحتمل السرف . انتهىٰ [« الحلية » ٦/ ٣٨٠ـ٣٨٢] .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كان سفيان الثوري رحمه الله يَرُدُّ ما يُعطىٰ ، ويقول : لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به . . لأخذت .

[قلت][1] : وهـٰذا معنىً غامض دقيق ، يدل علىٰ شدة ورعه ، قد فَعله غير واحد من العارفين .

وكان بعضهم يَرُدُّ ما يأتيه من صلة ، فعوتب في ذلك ، فقال : إنما أرده عليهم إشفاقاً ونصحاً ؛ لأنهم يذكرون ذلك ، ويفتخرون به ، ويحبون أن يُعلَمَ به ، فتذهب أموالهم ، وتَحبَط أجورهم .

[قلت] : ولعل لهـٰذا المعنىٰ قال سفيان الثوري رحمه الله : لا أجد أحداً أفزع إليه في قرض عشرة دراهم فيكتم عليَّ ، بل يروح إلى الناس ، ويقول : جاءني سفيان ، واقترض مني ، فنترك الاقتراض لذلك ، كل ذلك من باب الشفقة والنصيحة للمؤمنين ؛ والله سبحانه وتعالىٰ أعلم[2] .

وقال موسى بن مسعود رحمه الله : كنا إذا جلسنا إلى الثوري . . كأن النار قد أحاطت بنا ؛ لما نرىٰ من خوفه وجزعه[3] .

وجاء قوم إلىٰ منزل سفيان الثوري رحمه الله ، فلم يجدوه ، ففتحوا الباب ، وأنزلوا السفرة ، وجعلوا يأكلون ، فدخل الثوري ، فجعل يقول : ذكَّرْتموني أخلاق السلف ، هـٰكذا كانوا رضي الله عنهم . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/ ١٠] .

---

(١) أي المؤلف رحمه الله تعالىٰ .

(٢) الإحياء (٤/ ٢٠٨) .

(٣) الأحياء (٤/ ١٨٤) .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال علي بن بشر : أتاني إبراهيم بن عيسى الزاهد الأصبهاني ، فقال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم ، فقال : « عليكم بجامع سفيان » .

وقال يزيد ابن أبي حكيم : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : يا رسول الله ؛ رجل من أمتك ، يقال له : سفيان الثوري لا بأس به ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « نعم ، لا بأس به » ، فقلت : إنه حدثنا عنك أنك رأيت يوسف النبي عليه الصلاة والسلام في السماء حين أسري بك ، فقال : « صدق » .

وفي رواية أخرىٰ عنه : قلت : حدثنا عن أبي هارون ، عن أبي سعيد حديث المعراج ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدق الثوري ، وصدق أبو هارون ، وصدق أبو سعيد » .

وقال ابن عيينة رحمه الله : رأيت سفيان الثوري في المنام ، فقلت : أوصني ، فقال : أقلل من معرفة الناس . أو كما قال .

وقال إبراهيم بن أعين البجلي : رأيت سفيان الثوري في المنام ، ولحيته حمراء صفراء ، فقلت له : ما صنعتَ فديتُك ؟ فقال : أنا مع السَّفَرة ، قلت : وما السَّفَرة ؟ قال : الكرام البررة .

وعن زائدة ابن أبي الرُّقاد قال : رأيت الثوري في المنام ، فقلت : ما فعل بك ربُّك ؟ قال : أدخلني الجنة ، ووسَّع عليَّ ، وجعل يومىء بيده إلىٰ كُمِّهِ ، فجعل يقول : ما نلت من دنياهم إلا هـٰذه الخرقة ، وإن ما نلنا لمردود عليهم .

وقال مؤمل بن إسماعيل : رأيت سفيان الثوري في المنام ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ ما صنع بك ربُّك ؟ فقال : غفر لي ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ لقيتَ محمداً صلى الله عليه وسلم وحزبه ؟ قال : نعم .

وقال عبد الله بن المبارك : رأيت سفيان الثوري في المنام ، فقلت : ما فعل بك ربُّك ؟ قال : لقيت محمداً صلى الله عليه وسلم وحزبه .

وعن عثمان بن زائدة قال : رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة ؛ فإذا سفيان يطير من شجرة إلىٰ شجرة ، وهو يقول : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

وعن حفص بن نفيل المرهبي قال : رأيت داوود الطائي في منامي ، فقلت : هل لك علمٌ بسفيان بن سعيد ، فقد كان يحب الخير وأهله ؟ قال : فتبسم ، ثم قال : رقَّاه الخير إلىٰ درجة أهل الخير .

وقال صخر بن راشد : رأيت عبد الله بن المبارك في منامي بعد موته ، فقلت له : أليس قد مِتَّ ؟ قال : بلىٰ ، قلت : فما صنع بك ربُّك ؟ قال : غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب ، قال : قلت : فسفيان الثوري ؟ قال : بخ بخ! ذاك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولـٰئك رفيقاً .

وقال سيف بن هارون البُرْجُمي : رأيت في المنام كأني في موضع علمت أنها ليست الدنيا ؛ فإذا أنا برجل لم أر قط أجمل منه ، فقلت : مَن أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا يوسف بن يعقوب ، فقلت : قد كنت أحب أن ألقىٰ مثلك ، فأسأله ، قال : فسل ، فقلت : ما الرافضة[1] ؟ فقال : يهود ، قلت : فالإباضية[2] ؟ قال : يهود ، قلت : فإن قوماً عندنا نصحبهم ، قال : من هم ؟ قلت : سفيان الثوري وأصحابه ، فقال : أولـٰئك يُبعثون علىٰ ما بعثنا عليه معاشر المرسلين .

وقال مصعب بن المقدام : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم آخذاً بيد سفيان الثوري ، وهو يجزيه خيراً ، ويقول : « حَسَنُ الطريقة » .

وقال الحسن بن السماك : رأيت سفيان الثوري فيما يرى النائم كأنه علىٰ عرش يُهادىٰ بين السماء والأرض ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قلت : فهل كان ثَمَّ شيء تكرهه ؟ قال : نعم ، الإشارة بالأصابع ، قال أبو العباس : أي : هـٰذا سفيان الثوري .

وقال سفيان الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الجشب[3] ، ولا لبس الغليظ والعباء .

---

(١) **الرافضة** : سمّوا بهـٰذا الاسم ؛ لأنهم جاؤوا إلىٰ زيد بن علي بن الحسين حين خرج ، فقالوا : تبرأ من أبي بكر وعمر حتىٰ نكون معك ، فقال : بل أتولاهما وأبرأ ممن تبرأ منهما ، قالوا : إذاً نرفضك ، فسميت الرافضة . انظر « تهذيب الكمال » (١٠/ ٩٧) .

(٢) **الإباضية** : تنسب إلىٰ عبد الله بن إباض الذي أعلن دولته في عهد آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد ، لهم مبادئهم الخاصة ، وأماكنهم حالياً في الجزائر وعُمان .

(٣) أي : الغليظ الخشن من الطعام .

وقال : ازهد في الدنيا وَنَمْ .

وكتب سفيان إلىٰ أخ له : احذر حب المنزلة ؛ فإن الزهادة فيها أشد من الزهادة في الدنيا.

وكان سفيان الثوري إذا ذكر الموت. . لا يُنتَفَعُ به أياماً ، فإذا سئل عن الشيء. . قال : لا أدري ، لا أدري .

وقال : إذا رأيت القارىء يلوذ بباب السلطان. . فاعلم أنه لص ، وإذا رأيته يلوذ بالأغنياء. . فاعلم أنه مُرائي .

وقال أحمد بن يونس : سمعت الثوري يقول : إذا لم يكن لله في العبد حاجة. . نبذه إليهم ، يعني : السلطان .

وقال سفيان : لو خيرت بين ذهاب بصري وبين أن أملأ بصري منهم. . لاخترت ذهاب بصري .

وعن وهب بن إسماعيل قال : كنا يوماً عند سفيان ، فمر رجل مِن هـٰؤلاء الجند ، فجعل سفيان ينظر إليه ، وينظر إلينا ، ثم قال : يمرُّ بكم المُبتلىٰ والمكفوف والزَّمْنى الذين يؤجرون علىٰ بلائهم ، فتسألون الله تعالى العافية ، ويمرُّ بكم هـٰؤلاء فلا تسألون الله تعالى العافية ؟!

وعن بشر بن الحارث رحمه الله قال : قيل لسفيان الثوري : أيكون الرجل زاهداً ويكون له المال ؟ قال : نعم ، إن كان إذا ابتلي. . صبر ، وإذا أعطي. . شكر .

وقال سفيان : ما أَحسنَ تذلل الأغنياء عند الفقراء ، وما أقبح تذلل الفقراء عند الأغنياء .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : قال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والمال فيه داء كبير ، قيل : يا روح الله ؛ ما داؤه ؟ قال : لا يؤدىٰ حقه ، قيل : فإن أُدِّي حقه ؟ قال : لا يسلم صاحبه من الخيلاء والفخر ، قيل : فإن سلم صاحبه من الفخر والخيلاء ؟ قال : يشغله استصلاحه عن ذِكر الله عز وجل .

وقال عيسى بن حازم : خرج إبراهيم بن أدهم وإبراهيم بن طهمان وسفيان الثوري إلى الطائف ، ومعه سُفْرَةٌ فيها طعام ، فوضعوها ليأكلوا ، وإذا أعراب قريب منهم ، فناداهم إبراهيم بن طهمان : يا إخوتاه ؛ هلموا ، فقال لهم سفيان : يا إخوتاه ؛ مكانكم ، ثم قال سفيان لإبراهيم : خذ من هـٰذا الطعام ما طابت به أنفسنا ، فاذهب به إليهم ، فإن شبعوا. . فالله أشبعَهم ، وإن لم يشبعوا. . فهم أعلم ، أخاف أن يجيئوا ويأكلوا طعامنا ، فتتغير نياتنا ، ويذهبَ أَجْرُنا .

وقال يوسف بن أسباط : كنت مع سفيان الثوري في المسجد الحرام ، فقال : والله الذي لا إلـٰه إلا هو ، وربِّ هـٰذه الكعبة ؛ لقد حلت العزلة .

وقال سفيان الثوري : أُحب أن أكون في موضع لا أُعرف ولا أستذل .

وقال سفيان : وددت أني أخذت نعلي هـٰذه ثم جلست حيث شئت لا يعرفني أحد ، ثم رفع رأسه ، فقال : بعد ألاَّ أستذل .

وقال : أقلل من معرفة الناس . . يَقِلُّ عيبك .

وقال يوسف بن أسباط : سمعت الثوري يقول : ثلاثة من الصبر : لا تحدث بمصيبتك ، ولا بوجعك ، ولا تُزَكِّ نفسك .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : حدثنا يحيى ابن أبي ثابت قال : أُتي سفيان الثوري رحمه الله وهو في المسجد الحرام بسويق في قدح فيه سكَّر كثيرٌ ، قال : فشربه حتىٰ حل إزاره ، قال : ثم شد إزاره ، وقال : أشبعِ الزنجيَّ وكُدَّهُ[١] ، ثم قام من أول الليل إلىٰ آخره . أو كما قال .

وقال عبد الرزاق : دعا سفيان بطعام ، فأكله ، وبتمر وزبد ، فأكله ، ثم قام يصلي من حين زالت الشمس إلى العصر ، ثم قال : أحسنوا إلى الزنجي وكُدُّوْهُ .

وقال أبو منصور الواسطي : زارني سفيان إلىٰ واسط ، فأتيته بثريد ، فأكل ، وأتيته بطباهج[٢] ، فأكل ، وأتيته برطب ، فأكل ، وأتيته بعنب ، فأكل ، وأتيته برمان ، فأكل ، فلما رآني أنظر إليه . . قال : يا أبا منصور ؛ إنما هي أكلة ؛ فإذا أكلت . . فاشبَعْ .

وقال سفيان : إذا زهد العبد في الدنيا . . أنبت الله الحكمة في قلبه ، وأطلق بها لسانه ، وبصَّرَه بعيوب الدنيا ودائها ودوائها .

وقال سفيان رحمه الله : إني لأفرح إذا جاء الليل ، وما ذاك إلا أني أستريح من رؤية الناس .

وكان سفيان يقول : إذا عرفت نفسك . . لا يضرك ما قيل فيك .

وقال سفيان : **وجدنا أصل كل عداوة . . اصطناع المعروف إلى اللئام .**

---

(١) **كدَّه** : أتعبه .

(٢) **طباهج** : لحم مشرَّح ، معرَّب .

وقال سفيان : إذا رأيت الرجل حريصاً علىٰ أن يؤم . . فأخِّرْهُ .

وقال سفيان : من جاع فلم يَسأل ، فمات . . دخل النار .

وقال أبو شهاب : كنت مع سفيان في المسجد الحرام ، فقمت ، فصليت ركعتين ، فالتفتَ إلي سفيان ، فقال : يا أبا شهاب ؛ ما أجرأك! تصلي والناس ينظرون إليك .

وعن محمد بن مزاحم قال : جعل سفيان الثوري علىٰ نفسه ثلاثة أشياء : ألاَّ يخدمه أحد ، وألاَّ يطوىٰ له ثوب ، وألاَّ يضع لبنة علىٰ لبنة .

وقال سفيان الثوري : هـٰذا زمان خاصة ليس زمان عامة ، أقبل الرجل علىٰ خاصة نفسه وترك عوامهم .

وقال سفيان الثوري : ما من نفس تخرج أحب إلي من نفسي ، ولو كانت في يدي . . لأرسلتها .

وقال سفيان الثوري لأخ له : عافانا الله وإياك من الدنيا برحمته ، ارتحِل إلى الآخرة قبل أن يُرحَلَ بك ، وسل ربك ، فنسأل الله عز وجل الذي مَنَّ علينا بمعرفته . . ألاَّ يكلنا وإياك إلىٰ أنفسنا ، وأن يتولىٰ منا ومنك ما يتولىٰ من أوليائه وأحبائه ، ثم قال : إياك وما يفسد عليك عملك ؛ فإنما يفسد عليك عملك . . الرياء ، فإن لم يكن رياء . . فإعجابك بنفسك حتىٰ يخيل إليك أنك أفضل من أخ لك ، وعسىٰ ألاَّ تصيب من العمل مثل الذي يصيب ، ولعله أن يكون أورع منك عما حرم الله عز وجل ، وأزكىٰ منك عملاً ، وإن لم تكن معجباً . . فإياك أن تحب محمدة الناس ، ومحمدتهم : أن تحب أن يكرموك بعملك ، ويروا لك به شرفاً ومنزلة في صدورهم ، أو حاجة تطلبها إليهم في أمور كثيرة ، واجتهد ألاَّ تريد بعملك إلا وجه الله عز وجل ، وكفىٰ بذِكر الموت مزهِّداً في الدنيا ، ومرغِّباً في الآخرة ، وكفىٰ بِطول الأمل قلة خوف وجرأة على المعاصي ، وكفىٰ حسرة وندامة يوم القيامة لمن كان يعلم ولا يعمل .

وقال أبو أسامة : ما رأيت أحداً أخوف لله عز وجل من سفيان .

وقال سفيان : ما أنفقت قط درهماً في بناء .

وقال سفيان : كان يقال : يا حملة القرآن ؛ لا تتعجلوا منفعة القرآن ، وإذا مشيتم إلى الطمع . . فامشوا رويداً .

وقال أحمد بن عبد الله بن يونس : سمعت سفيان الثوري رحمه الله ما لا أحصي يقول :

اللهم ؛ سلِّم سَلِّم ، اللهم ؛ سلمنا منها إلىٰ خير ، اللهم ؛ ارزقنا العافية في الدنيا والآخرة .

وقال سفيان : لو أن البهائم تعقل من الموت ما تعقلون . . ما أكلتم منها سميناً .

وكان سفيان يأخذ في التفكر ، فينظر إليه الناظر فيقول : إنه مجنون .

وقال سفيان : ترك الذنوب هو الدعاء .

وقال : لا يحرز المؤمن إلا قبره .

وقال : من دعاك وأنت تخاف أن يفسد عليك قلبك ودينك . . فلا تجبه .

وكان إذا أكل . . قال : الحمد لله الذي كفانا المؤونة ، وأوسع علينا في الرزق .

وقال سفيان : إني لأريد شرب الماء ، فيسبقني الرجل إلى الشربة ، فيَسقينيها ، فكأنما حَمَّىٰ ضلعاً من أضلاعي لا أقدر له علىٰ مكافأة ما فعله .

وقال أبو السري : قيل لفضيل بن عياض في بعض ما كان يذهب إليه من الورع : مَن إمامُك في هـٰذا ؟ فيقول : سفيان الثوري .

وقال ابن يمان : ما رأينا مثل سفيان ، ولا أبصر سفيان مثل نفسه ، أقبلَتِ الدنيا عليه . . فصرف وجهه عنها .

وأُهدي لسفيان ثوب . . فرده .

وقال للمَهدي : قد علمت أنك لست ممن يسمع الحديث ، ولـٰكن أخوك يسمع مني الحديث ، فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره .

وجاء رجل إلىٰ سفيان ببَدْرة[1] أو بَدْرتين ، وكان أبو الرجل صديقاً لسفيان ، وكان سفيان يأتيه كثيراً ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ أَفِي نفسك من مال أبي شيء ؟ فقال سفيان : رحم الله أباك ، كان وكان . . . وأثنىٰ عليه ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ قد عرفت كيف صار هـٰذا المال إلي ، فأنا أحب أن تأخذ هـٰذه تستعين بها علىٰ عيالك ، فقبل سفيان ، وقام الرجل ، فلما كاد أن يخرج . . قال : يا مبارك ؛ الحقه فرُدَّهُ عليَّ ، فلما رجع . . قال : يا بن أخي ؛ أحب أن تأخذ هـٰذا المال ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ أَفي نفسك منه شيء ؟ قال : لا ، ولـٰكن أحب أن تأخذه ، فما زال به حتىٰ أخذه ، فذهب ، فلما خرج . . قلت له : قَلْبُكَ هـٰذا

---

(١) البَدرة : كيس فيه عشرة آلاف درهم .

من حجارة ، أما ترحم عيالك ؟ أما ترحم إخوتك ؟ فلما أكثرتُ عليه . . قال : يا مبارك ؛ تأكلها أنت هنيئاً مريئاً ، وأنا أُسأَلُ عنها ؟!

وقال أبو أحمد الزبيري : كنت في مسجد الخَيْف[1] مع سفيان الثوري ، والمنادي ينادي : مَن جاء بسفيان . . فله عشرة آلاف .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : سمعت سفيان الثوري يقول : طُلِبْتُ في أيام المهدي ، فهربت ، فأتيت اليمن ، فكنت أنزل في حي حي ، وآوي إلىٰ مسجدهم ، فسُرِقَ في ذلك الحي ، فاتهموني ، فأتوا بي معن بن زائدة ، وكان قد كُتب إليه في طلبي ، فقيل : إن هـٰذا قد سَرق متاعَنا ، فقال : لِمَ سرقت متاعهم ؟ فقلت له : ما سرقت شيئاً ، فقال لهم : تنحوا لأسأله ، ثم أقبل عليَّ ، فقال : ما اسمك ؟ قلت : عبد الله بن عبد الرحمن ، قال : يا عبد الله بن عبد الرحمن ؛ نشدتك بالله لما نسبت لي نسبتك ، قلت : أنا سفيان بن سعيد بن مسروق ، قال : الثوري ؟ قلت : الثوري ، قال : أنت بغية أمير المؤمنين ؟ قلت : أجل ، فأطرق ساعة ، ثم قال : ما شئت فأقم ، أوِ ٱرحل متىٰ شئت ، فوالله ؛ لو كنت تحت قدمي . . ما رفعتها .

وقال يحيى بن يمان : سمعت الثوري وهو يقول : سِترك الجميل الذي لم يزل ، سِترك الجميل الذي لم يزل .

وكان سفيان أبداً يُخرجُ رقعة ينظر فيها ؛ فإذا فيها مكتوب : سفيان ؛ اُذكُر وقوفَك بين يدي الله عز وجل . انتهىٰ [« الحلية » ٦/ ٣٨٣ـ٣٩٣ و٧/ ٣ـ٥] .

وقال شيخ الإسلام الإمام محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة ابن أبي عبد الله بن منقذ بن نصر بن الحارث بن ثعلبة بن ملكان بن ثور بن عبد مناة بن أُدِّ بن طابخة بن إلياس بن مضر الثوري ، الكوفي ، الجامع لأنواع المحاسن ، وهو من تابعي التابعين ، ولد سنة سبع وتسعين .

سمع الثوري أبا إسحاق السَّبيعي ، وعبد الملك بن عمير ، وعمرو بن مرة ، وخلائق من كبار التابعين ، وغيرهم .

وروىٰ عنه محمد بن عجلان ، والأعمش ـ وهما تابعيان ـ ومعمر ، والأوزاعي ، وابن

---

(١) **الخَيْف** : ما ارتفع من الوادي قليلاً من مسيل الماء ، ومنه مسجد الخَيْف بمنًىٰ ؛ لأنه بني في خيف الجبل .

أبي إسحاق ، ومالك ، وابن عيينة ، وشعبة ، والفضيل بن عياض ، وأبو الأحوص ، وأبو إسحاق الفزاري ، وابن المبارك ، وزائدة ، وابن مهدي ، ووكيع ، وأبو نعيم ، ويحيى القطان ، ومحمد بن يوسف ، وخلائق .

واتفق العلماء علىٰ وصفه بالبراعة في العلم بالحديث والفقه ، والورع ، والزهد ، وخشونة العيش ، والقول بالحق ، وغير ذلك من المحاسن .

قال أحمد بن عبد الله : أحسن إسناد الكوفة : سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن ابن مسعود .

وقال أبو عاصم : سفيان الثوري . . أمير المؤمنين في الحديث .

وقال ابن المبارك : كتبت عن ألف ومئة شيخ ، ما كتبت عن أفضل من الثوري .

وقال يونس بن عبيد الله : ما رأيت أفضل من الثوري ، فقيل له : قد رأيت عطاء وسعيد بن جبير ومجاهداً وتقول هٰذا ؟! فقال : هو ـ والله ـ ما أقول ، ما رأيت أفضل من الثوري .

وقال يحيى بن معين : كل من خالف الثوري . . فالقول قول الثوري .

وقال ابن مهدي : ما رأيت أحفظ للحديث من الثوري .

وقال ابن عيينة : كان ابن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه ، والثوري في زمانه .

وقال عباس الدوري : رأيت ابن معين لا يقدم على الثوري في زمانه أحداً في كل شيء .

وقال القطان : ما رأيت أحفظ من الثوري .

وقال ابن عيينة : أنا من غلمان الثوري ، وما رأيت أعلم بالحلال والحرام منه .

وقال الأوزاعي وقد ذكر ذهاب العلماء : لم يبق منهم من يجتمع عليه العامة بالرضا والصحة إلا الثوري .

وقال الوليد بن مسلم : رأيت الثوري يستفتىٰ بمكة ولم يختط وجهه(١) .

رُوِّينا عن عبد الرزاق قال : بعث أبو جعفر أمير المؤمنين الخشابين قُدَّامه حين خرج إلىٰ مكة ، وقال : إذا رأيتم سفيان . . فاصلبوه ، فوصلوا مكة ونصبوا الخشب ، فنودي سفيان ، فإذا رأسه في حِجْرِ الفضيل بن عياض ، ورجله في حِجْرِ سفيان بن عيينة ، فقالوا : يا أبا

---

(١) أي : لم ينبت عذاره .

عبد الله ؛ اتق الله ، ولا تُشْمِتْ بنا الأعداء ، فتقدم إلىٰ أستار الكعبة ، فأخذها ، وقال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، فمات أبو جعفر قبل أن يدخل مكة .

وأحوال الثوري والثناء عليه أكثر من أن تحصر ، وأوضح من أن تشهر ، وهو أحد أصحاب المذاهب المتبوعة .

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين : خرج الثوري من الكوفة إلى البصرة سنة خمس وخمسين ومئة فما رجع إليها .

وقال محمد بن سعد : أجمعوا علىٰ أنه توفي بالبصرة سنة إحدىٰ وستين ومئة رحمه الله . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٢٢ـ٢٢٣] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال سفيان الثوري : ما عالجت شيئاً قط أشد عليَّ من نفسي ، مرة عليَّ ، ومرة لي .

وكتب إلىٰ أخ له : عافانا الله وإياك من السوء كله ، يا أخي ؛ إن الدنيا غمها لا يفنىٰ ، وفرحها لا يدوم ، وفِكرُها لا ينقضي ، فاعمل لنفسك حتىٰ تنجو ، ولا تتوان فتعطب . والسلام .

وقال الثوري : لقيت أبا حبيب البدوي ، فقال : يا سفيان ؛ مَنْعُ الله لك عطاء ، وذلك أنه لا يمنعك من بخل ولا عدم ، ولـٰكن نظراً لك واختياراً ، ثم قال : يا سفيان ؛ إن فيك لأُنساً ، وإن عنك لشُغلاً .

وقال القاسم بن عثمان الدمشقي : قلت ليمان أبي معاوية الأسود العابد : رأيت إبراهيم بن أدهم ؟ فضحك ، فقال : وأكبر من إبراهيم ، قلت : مَنْ ؟ قال : سفيان الثوري ، ثم قال : سمعت أخي سفيان الثوري يقول : ما كان الله لينعم علىٰ عبد في الدنيا . . فيفضحه في الآخرة ، ويحق على المنعِم أن يتم علىٰ من أنعم عليه نعمته .

وقال سفيان : لقد أنعم الله علىٰ عبد في حاجة أكثر تضرعه إليه فيها .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : الستر من العافية .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، قال : يسبغ عليهم من النعم ، ويمنعهم من الشكر .

وقال عثمان بن زائدة : كتب إليَّ سفيان : إن أردتَ أن يصح جسمك ، ويقل نومك . . فأقلل من الأكل .

وقال الأصمعي : بلغني أن سفيان الثوري كان يضع غداءه وعشاءه رغيفين ، فإذا جاءه سائل . . أعطاه نصف رغيف .

وقال : صابروا الأغنياء في الطعام ما بين الشفة واللهاة ؛ فإنه إذا جاوز ذلك . . لم يعرف لَيِّنه من خشنه .

وقال سعيد بن صدقة أبو مهلهل : أخذ بيدي سفيان الثوري ، فأخرجني إلى الجبَّان ، فاعتزلنا ناحية عن طريق الناس ، فبكىٰ ، ثم قال : يا أبا مهلهل ؛ إن استطعت ألاَّ تخالط في زمانك هـٰذا أحداً . . فافعل ، وليكن همُّك مَرَمَّةَ جهازك ، واحذر إتيان هـٰؤلاء الأمراء ، وارغب إلى الله عز وجل في حوائجك ، وافزع إليه فيما ينوبك ، وعليك بالاستغناء عن جميع الناس ، وارفع حوائجك إلىٰ من لا تعظم الحوائج عنده ، فوالله ؛ ما أعلم اليوم بالكوفة أحداً لو فزعت إليه في قرض عشرة دراهم أقرضني ، ثم كتمها عليَّ . . حتىٰ يذهب ويجيء ، ويقول : جاءني سفيان ، واستقرض مني ، فأقرضته .

وقال : اصحب من شئتَ ، ثم أغضبه ، ثم دُس إليه من يسأله عنك .

وقال سفيان للحسن بن رشيد : يا حسن ؛ لا تتعرفَنَّ إلىٰ من لا يعرفك ، وأنكر معرفة من يعرفك .

وقال سفيان لرجل : أخبرني ، أيأتيك ما تكره ممن تعرف منهم أو ممن لا تعرف ؟ قال : بل ممن أعرف ، قال : فما قَلَّ مِن هـٰؤلاء . . فهو خير .

وقال سفيان : دخلت علىٰ بنت أم حسان الأسدية وفي جبهتها مثل ركبة العنز من أثر السجود ، فقلت : يا بنت أم حسان ؛ ألا تأتين عبد الله بن شهاب يعطيك من زكاة ماله ما تغيرين به بعض هـٰذه الحالة التي أراها بك ؟ فقالت : يا سفيان ؛ قد كان لك في قلبي رُجحان كثير ـ أو كبير ـ فقد أذهب الله تعالىٰ رُجحانَك من قلبي ، أتأمرني أن أسأل الدنيا ممن لا يملكها ؟! وعزته وجلاله ؛ إني أستحيي أن أسأله الدنيا وهو يملكها سبحانه وتعالىٰ .

قال سفيان : وكانت إذا جن عليها الليل . . دخلت محراباً لها ، وأغلقت عليها ، ثم نادت : إلـٰهي ؛ خلا كل حبيب بحبيبه ، وأنا خالية بك يا مولاي ، سبحانك لا إلـٰه إلا أنت إني كنت من الظالمين .

وقال سفيان رحمه الله : دخلت عليها بعد ثلاث ؛ فإذا الجوع قد أثَّر في وجهها ، فقلت لها : يا بنت أم حسان ؛ إنك لم تؤتي أكثر مما أوتي موسىٰ والخضر عليهما الصلاة

والسلام ، إذ أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فقالت : يا سفيان ؛ قُلْ : الحمد لله ، فقلت : الحمد لله ، قالت : اعترفت له بالشكر ؟ قلت : نعم ، قالت : وجب عليك من معرفة الشكر شكرٌ ، وبمعرفة الشكرين شكر لا ينقضي أبداً .

قال سفيان : فقصر ـ والله ـ علمي ، وفَهَّ[1] لساني ، وما أقوم بشكر ، كلما اعترفت له سبحانه وتعالىٰ بنعمة ، وجب عليَّ بمعرفة النعمة شكر ، وبمعرفة الشكر شكر ، فوليت وأنا أريد الخروج ، فقالت : يا سفيان ؛ كفىٰ بالمرء جهلاً أن يُعجَب بعمله ، وكفىٰ بالمرء علماً أن يخشى الله عز وجل ، اعلم : أنه لن تنقى القلوب من الردىٰ . . حتىٰ تكون الهموم كلها لله عز وجل هَمّاً واحداً ، قال سفيان : فقصُرَتْ ـ والله ـ إليَّ نفسي .

وعن سفيان الثوري قال : أتدرون ما تفسير : لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ يقول : لا يُعطي أحد إلا ما أَعطيت ، ولا يَقي أحد إلا ما وَقيت .

ودخل إياس بن عمر[2] مسجد سفيان الثوري ، فقال : أبلغك يا أبا عبد الله أن قول : لا إلـٰه إلا الله عشر حسنات ، والحمد لله والله أكبر عشر حسنات ؟ فقال : نعم ، فقال : ما تقول فيمن كسب ثلاثين ألف درهم من غير حقها ؟ وقال : أسبح وأكبر حتىٰ أعمل من الحسنات بقدر هـٰذه ، فقال سفيان : فليردها قبل ذلك ؛ فإنه لا يُقبل له ذِكر إلا بعد ردِّها .

وقال سفيان : إنما سميت الدنيا دنيا ؛ لأنها دنية ، وسمي المال مالاً ؛ لأنه يميل بأهله .

وقال سفيان : كان أقوام يُدعون إلى الحلال فلا يقبلونه ، ويقولون : نخاف منه علىٰ أنفسنا .

وقال أبو حماد : سمعت سفيان الثوري يقرأ علىٰ [علي] بن الحسن : يا أخي ؛ اطلب العلم لتعمل به ، ولا تطلبه لتباهي به العلماء ، وتماري به السفهاء ، وتأكل به الأغنياء ، وتستخدم به الفقراء ؛ فإن لك مِن علمك ما عملت به ، وعليك ما ضيعت منه ، فقد بلغنا ـ والله أعلم ـ : أنه من طلب الخير . . صار غريباً في زمانه ، فلا تستوحش لقلة السالكين ، واستقم علىٰ سبيل ربك ؛ فإنك إن فعلت ذلك . . كان مولاك الله وجبريل وصالح المؤمنين ، واشتغل بذِكر عيوب نفسك عن ذكر عيوب غيرك ، واحزن علىٰ ما قد مضىٰ من عمرك في غير

---

(١) فَهَّ : عيي .
(٢) في « الحلية » : (ابن عمرو) .

طلب آخرتك ، وأكثر من البكاء علىٰ ما أوقرت[1] به ظهرك ؛ لعلك تخلص منها ، ولا تَمَلَّ من الخير وأهله ، ولا تَباعَد عنهم ، واحذر كل من سواهم ؛ فإنه لن ينجوَ من جاوزهم إلا من عصمه الله سبحانه وتعالىٰ ، وإن أردت اللحاق بالصالحين . . فاعمل بأعمال الصالحين ، واكتف بما أصبت من الدنيا ، ولا تنس من لا ينساك ، ولا تغفل عمن قد وَكَّل بك مَن يحصي عليك أثرك ، ويكتب عملك ، وراقب الله تعالىٰ في سريرتك وعلانيتك ، وهو رقيب عليك ، واستح ممن هو معك ، وهو أقرب إليك من حبل الوريد سبحانه وتعالىٰ ، اعرف فاقة نفسك ، وحقارة منزلتها ؛ فإنك حقير فقير إلىٰ ربك ، وأبك علىٰ نفسك وارحمها ؛ فإنك إن لم ترحمها . . لم تُرْحَم ، ولا تغُشَّها ولا توردها موارد الردىٰ ، وخذ منها لك قَبْلَ أن يفجأك أمر الله تعالىٰ ، فكأن الموت قد نزل بك ، فلا تغفل غفلة الغافلين والجاهلين ، وأكثر من البكاء علىٰ نفسك ، فلست من الضحك بسبيلٍ إن عَقَلْت ؛ فقد بلغنا ـ والله أعلم ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ عزَّىٰ أقواماً في كتابه بالضحك وتَرْكِ البكاء ، فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ ، ومدح أقواماً في كتابه العزيز ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ ، وقد بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أحب الله أقواماً . . ابتلاهم ، فمن رضي . . فله الرضا ، ومن سخط . . فله السخط »[2] ، وقد بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كم من نعمة لله تعالىٰ في عِرْقٍ ساكن وغير ساكن » .

وقال أبو إسحاق الفزاري رحمه الله : سمعت سفيان الثوري يقول : البكاء عشرة أجزاء ، تسعة لغير الله تعالىٰ ، وواحد لله عز وجل ، فإذا جاء الذي لله سبحانه وتعالىٰ في السَّنَة مرة . . فهو كثير .

وقال يوسف بن أسباط : عن سفيان قال : يأتي على الناس زمان لا تَقَرُّ فيه عين حكيم .

وقال سفيان : من أحب أفخاذ النساء . . لم يفلح .

وقال عبد الله بن المبارك : سئل سفيان : أيما أحب إليك ؛ طلب العلم ، أو العمل به ؟ فقال : إنما يراد العلم للعمل ، لا تدع طلب العلم للعمل ، ولا تدع العمل لطلب العلم .

---

(١) أَوْقَرت : الأصل فيها تُستعمل في حمل بعض الدواب ، واسْتُعيرت لبيان ثقل ما يحمله الإنسان في الحياة الدنيا من التَّبعات إلىٰ يوم القيامة .

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٣٩٦) ، وابن ماجه (٤٠٣١) .

وقال ابن مهدي رحمه الله : بات سفيان رحمه الله عندي ، فلما اشتد به الأمر . . جعل يبكي ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ؛ أراك كثير الذنوب ، فرفع رأسه ، وأخذ تبنة من الأرض ، وقال : والله ؛ لذنوبي عندي في جنب عفو الله عز وجل أهون من هٰذه ، وإنما أخاف أن أُسلَب الإيمانَ قبل أن أموت .

وقال ابن مهدي : سمعت سفيان الثوري يقول : لو كانت نفسي في يدي . . لأرسلتها .

قال : وسمعته مرة أخرىٰ يقول : ما علىٰ وجه الأرض نفس تخرج أحب إلي من نفسي .

وقال سفيان : عليك بالقصد في معيشتك ، وإيَّاك أن تتشبه بالجبابرة ، وعليك بما يُعرف من الطعام واللِّباس والمركب ، وليكن أهل مشورتك أهل التقوىٰ وأهل الأمانة ومن يخشى الله عز وجل .

وعن عمار ، عن سفيان قال : من أخذ من ظالم كراعاً أو مالاً أو سلاحاً فغزا به في سبيل الله تعالىٰ . . لُعِنَ بكل قدم يرفعه ويضعه حتىٰ يرجع .

وعن المفضَّل بن مهلهل قال : قال سفيان : فيمَ السلامة ؟ قلت : ألاَّ تُعرَف ، قال : هٰذا ما لا يكون ، ولٰكن السلامة في ألاَّ تحب أن تُعرَف .

وقال ابن مهدي : قدم سفيان البصرة والسلطان يطلبه ، فآجر نفسه في بعض البساتين علىٰ أن يحفظ ثمارها ، فمرَّ به بعض العشَّارين[1] ، فقال له : مِن أين أنت يا شيخ ؟ فقال : من أهل الكوفة ، فقال : أخبرني أرطب البصرة أحلىٰ ، أم رطب الكوفة ؟ فقال : أما رطب البصرة . . فلم أذقه ، فقال له : ما أكذبك من شيخ! البرُّ والفاجرُّ يأكلون الرطب بالبصرة ، وإنك تزعم أنك لم تذقه ؟ فرجع إلى العامل ، فأخبره بما قال ؛ ليعجبه ، فقال : ثكلتك أمك أدركه ، فإن كنت صادقاً . . فإنه سفيان الثوري ، فخذه لتتقرب به إلى المهدي أمير المؤمنين ، فرجع في طلبه ، فما قدر عليه .

وعن الوليد بن شجاع قال : كنت أخرج مع سفيان الثوري ، فما يكاد لسانه يفتر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهباً وراجعاً .

وقال يحيى بن عبد الملك ابن أبي غَنِيَّة : ما رأيت أحداً أصفق[2] وجهاً في ذات الله عز وجل من سفيان الثوري .

---

(١) أي : قابض العشر من أموال الزكاة .

(٢) أصفق وجهاً : أي أوقع وجهاً في ذات الله .

وعن نصر بن قديد بن نصر بن سيار قال : حدثني أبي قال : قدمت المدينة ؛ فإذا حلقة سفيان الثوري ، فجئت فجلست إليه ، فقال له بعض أهل الحلقة : يا أبا عبد الله ؛ هـٰذا ابن نصر بن سيار ، فقال لي : قد رأيت أباك نصراً ، فقلت : يا أبا عبد الله. . أين ؟ قال : بخراسان ، كان لي حق فآجرت نفسي من قوم حمَّالين حتىٰ توصلت إلىٰ حقي ، ثم قال لي سفيان : لو لم ينبغي للأشراف أن يزهدوا في الدنيا إلا لأنها تضعهم وترفع السِّفْلة عليهم. . كان يحق لهم أن يزهدوا فيها .

وقال رجل لسفيان : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال : تسألني كيف أصبحت وقد ـ والله ـ تحيرت ، اللهم ؛ أبرم لهـٰذه الأمة أمراً رشيداً ، يُعَز فيه وليك ، ويُذَل فيه عدوك ، ويؤمر فيه بالمعروف ، ويُنهىٰ فيه عن المنكر ، ثم تنفس سفيان ، فقال : كم من مؤمن قد رأيناه مات غيظاً .

وقال إبراهيم بن أَعْيَن : كنت مع سفيان وإسحاق بن القاسم والأوزاعي ، فدخل علينا عبد الصمد بعد المغرب ـ وهو أمير مكة ـ وسفيان يتوضأ ، وأنا أصب عليه ، وهو يقول : لا تنظر إلي أنا مبتلىٰ[1] ، فجاء عبد الصمد ، فسلم علىٰ سفيان ، فقال له سفيان : مَن أنت ؟ قال : أنا عبد الصمد بن علي ، فقال : كيف أنت ؟ اتق الله ، اتق الله ، وإذا كبَّرتَ. . فأَسمِع .

ومرض سفيان بالكوفة ، فبعث بمائه إلىٰ متطبب ، فلما نظر إليه. . قال : بَول مَن هـٰذا ؟ فقالوا : ما تسأل انظر ما ترىٰ فيه ، قال : أرىٰ بول رجل قد أحرق الحزنُ والخوفُ جوفَهُ .

وقال يحيى بن يمان : لقيني سفيان الثوري عند جبل بني فزارة ، فقال : أتدري مِن أين جئت ؟ قلت : لا ، قال : جئت من دار الصيادلة[2] ، نهيتهم عن كذا إثم ، قال : إني لأرى الشيء يجب عليَّ أن آمر فيه وأنهىٰ عنه. . فلا أُمَكَّن ، فأبولُ دماً .

وكان سفيان يقول للغلام إذا رآه في الصف الأول : أحتلمت ؟ فإذا قال : لا ، قال : تأخر .

وقال سفيان : الملكان يجِدان ريح الحسنات والسيئات إذا عقد القلب علىٰ ذلك .

---

(١) أي : موسوس في الوضوء .

(٢) **دار الصيادلة** : الدار التي كان يُصنع فيها الدواء المتعارف عليه قديماً كالأشربة والأدهان والكحل وما شابهها .

وقال سفيان : إذا طلعت الشمس من مغربها . . طوت الملائكة صحفها ، ووضعت أقلامها .

وسئل سفيان عن رجل إذا كسب درهماً كان فيه قُوتُه وقوت عياله ولا يدرك صلاة الجماعة ، وإن كسب أربعة دوانيق . . أدرك الصلاة في الجماعة وليس فيه ما يقوته ويقوت عياله ، أيهما أفضل ؟ قال : يكسب الدرهم الحلال ، ويصلي وحده .

وقال سفيان : إني لألقى الرجل أُبغضه ، فيقول لي : كيف أصبحت ؟ فيلين له قلبي ، فكيف بمن أكَلَ ثريدهم ووطِىء بساطهم ؟!

وقال سفيان : حُرِمتُ قيام الليل خمسة أشهر بذنب أحدثته ، وذلك إنِّي لم أُصَلِّ العشاء الآخرة في المسجد الحرام .

وصلَّىٰ سفيان المغرب بقوم ، فلما بلغ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . . بكىٰ حتى انقطعت قراءته ، ثم عاد ، فقرأ ، حتىٰ إذا بلغ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ . . بكىٰ حتى انقطعت قراءته ، ثم عاد ، فقرأ (الفاتحة) كلها .

وقال سفيان : لو أن اليقين استقر في القلب كما ينبغي . . لطار فرحاً وحزناً شوقاً إلى الجنة ، أو خوفاً من النار .

وقال سفيان : إذا أردت أن تتعبد . . فأحرز الحنطة(١) .

وفي رواية : حتىٰ لا تمتد عينه إلىٰ أحد .

وقال سفيان : كُلْ ما شئت ، ولا تشرب ماء ؛ فإنك إذا لم تشرب . . لم يجئك النوم .

وعن عبد الرزاق قال : كان سفيان إذا اغتم . . رمىٰ بنفسه عند وهيب بن الورد ، فقال له : يا أبا أمية . . أترىٰ أحداً يتمنَّى الموت ؟ فقال وهيب : أما أنا . . فلا ، قال سفيان : أما أنا . . فوددت أني مِتُّ .

وقال سفيان : ما خالفتُ رجلاً في هواه . . إلا وجدته يغلي عليَّ .

وكان سفيان يديم النظر في المصحف ، فيوم لا ينظر فيه . . يأخذه فيضعه علىٰ صدره .

---

(١) **أحرز الحنطة** : ادخرها لوقت الحاجة إليها ، ويقصد بذلك : أن يعفه عما في أيدي الناس ، وأن يبعد همَّ طلب الرزق عن فكره حتىٰ لا ينشغل به عن العبادة .

وسئل الثوري : مَن آل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال سفيان : لو حدثت عن صاحب العيال أنه كَفَرَ . . ما أبعدت .

وقال سفيان : ما أعطي رجل شيئاً من الدنيا . . إلا قيل له : خذه ومثله حرصاً[1] .

وقال سفيان لرجل : أتحب أن تخشى الله عز وجل حق خشيته ؟ قال : نعم ، قال : أنت أحمق ، ولو خفته حق خوفه . . ما أديت الفرائض .

وقال سفيان : إني لأسأل الله عز وجل أن يُذهِب عني من خوفه .

وقال قتيبة بن سعيد : لولا سفيان الثوري . . لمات الورع .

وقال سفيان : خذ لبدنك من الدنيا ما لا بد لك منه ، ومن الآخرة لقلبك ما لا بد لك منه .

وقال سفيان : عليك بالزهد . . يبصرك الله تعالىٰ عورات الدنيا ، وعليك بالورع . . يخففِ الله حسابك ، ودع ما يَريبك إلىٰ ما لا يَريبك ، وادفع الشك باليقين . . يَسلَمْ لك دينك .

وقال سفيان : إذا أردت أن تعرف قدر الدنيا . . فانظر عند مَن هي .

وقال سفيان : خير الدنيا لكم . . ما لم تبتلوا بها ، فإذا ابتليتم بها . . فخيرها لكم ما خرج من أيديكم منها .

وقال أبو أسامة : كان مَن يرىٰ سفيان الثوري يحسب أنه في سفينة يخاف الغرق ؛ لأنه أكثر ما تسمعه يقول : يا رب ؛ سَلِّمْ سَلِّمْ . انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٥ـ٢١] .

وقد روي : أن بعض الخلفاء كان مؤاخياً لسفيان الثوري رحمه الله قبل الخلافة ، فلما ولي الخلافة . . زاره العلماء وهنوه بما صار إليه وفيه ، وفَتح بيوت الأموال ، وأقبل يجيزهم بالجوائز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ، ويظهر النسك والتقشف ، فلما صار خليفة . . هجره سفيان الثوري ولم يزره ، وطال ذلك على الخليفة ، فاشتاق إليه وإلىٰ رؤياه وإلى الحديث معه والأنس به ، فلم يزره ، ولم يعبأ بموضعه ، ولا بما صار إليه ،

---

(١) في « الحلية » : (حزناً) .

فاشتد ذلك على الخليفة ، فكتب إليه كتاباً أوله :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، من أمير المؤمنين فلان إلىٰ أخيه سفيان :

أما بعد : يا أخي ؛ فقد علمت أن الله تبارك وتعالىٰ آخىٰ بين المؤمنين ، وجعل ذلك فيه وله ، واعلم : أني قد واخيتك مؤاخاة لم أصرم منها حبلك ، ولم أقطع منها وُدَّكَ ، وإني منطوٍ لك علىٰ أفضل المحبة والإرادة في الأخوة ، ولولا هـٰذه القلادة التي قلدنيها الله عز وجل . . لأتيتك ولو حبواً ؛ لما أجد لك في قلبي من المحبة والإرادة ، واعلم يا أبا عبد الله : أنه ما بقي من إخواني وإخوانك أحد . . إلا وقد زارني وهنأني بما صرت إليه ، وقد فتحت بيوت الأموال ، وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي ، وقرَّتْ به عيني ، وإني استبطأتك ، فلم تأتني ، وقد كتبت إليك كتاباً شوقاً مني شديداً ، وقد علمتَ ـ يا أبا عبد الله ـ ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته ، فإذا ورد عليك كتابي هـٰذا . . فالعجل العجل . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال : فلما كتب الكتاب . . التفت إلىٰ من عنده ؛ فإذا كلهم يعرفون سفيان وخشونته ، فقال : عليَّ برجل من الباب ، فأُدخل عليه رجل يقال له : عبَّاد الطالقاني ، فقال : يا عبَّاد ؛ خذ كتابي هـٰذا ، فانطلق به إلى الكوفة ، فإذا دخلتها . . فسل عن قبيلة بني ثور ، ثم سل عن سفيان الثوري ، فإذا رأيته . . فادفع كتابي هـٰذا إليه ، وَعِ بسمعك وقلبك جميع ما يكون منه ، فأحْصِ عليه دقيق أمره وجليله ؛ لتخبرني به ، فأخذ عبَّاد الكتاب ، وانطلق به حتىٰ ورد الكوفة ، فسأل عن القبيلة ، فأُرشد إليها ، ثم سأل عن سفيان ، فقيل له : هو في المسجد .

قال عبَّاد : فأقبلت إلى المسجد ، فلما رآني . . قام قائماً ، وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وأعوذ بك اللهم من طارق يطرقنا إلا بخير ، قال عبَّاد : فوقَعتِ الكلمة في قلبي ، فلما رآني نزلت بباب المسجد . . قام يصلي ولم يكن وقت الصلاة ، فربطت فرسي عند باب المسجد ودخلت ، فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم كأن علىٰ رؤوسهم الطير ، فسلمت ، فما رفع أحد منهم رأسه ، ولـٰكن ردوا السلام عليَّ [برؤوسهم] ، قال عبَّاد : فبقيت واقفاً ما منهم من أحد يعرض عليَّ الجلوس ولا يكلمني ، وقد علاني من هيبتهم الرعدة ، ومددت عيني إليهم ، فقلت في نفسي : إن المصلي هو سفيان ، وألقيت الكتاب إليه ، فلما رآه . . ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في

محرابه ، فركع وسجد ، ثم سلَّم ، وأدخل يده في كمه ، ثم دحاه[1] إلىٰ من كان خلفه ، وقال : يأخذه أحدكم يقرؤه ؛ فإني أستغفر الله أن أمس شيئاً مسه ظالم بيده .

قال عبَّاد : فمدَّ بعضهم يده إليه ، وفتحه ، وهو كالخائف الوجل ، ثم قرأ ما فيه ، وأقبل سفيان يسمع ويتبسم تبسم المتعجب ، فلما فرغ من قراءته . . قال سفيان : اقلبوه ، واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه ، فقيل له : يا أبا عبد الله ؛ إنه خليفة ، فلو كتبت إليه في قرطاس نقيٍّ ، قال : اكتبوا له في ظهر كتابه ؛ فإنه إن كان اكتسبه من حلال . . فسوف يُجزىٰ به ، وإن كان اكتسبه من حرام . . فسوف يَصلىٰ به ، ولا يبقىٰ عندنا شيء مسه ظالم بيده ، فيفسد علينا حالنا ، فقيل له : ما نكتب ؟ قال : اكتبوا :

بسم الله الرحمٰن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد الثوري إلى العبد المغرور بالآمال ، الرافل[2] في أثواب النعم وهو من الشكر عريان ، فلان :

أما بعد : فإني قد كتبت إليك أُعلمك بأني قد صرمت حبلك[3] ، وقطعت وُدَّك ، وقليت[4] موضعك ، وإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك علىٰ نفسك بما هجمتَ به علىٰ بيت مال المسلمين فأنفذته في غير حقه ، وأنفقته بغير حكمة ، ثم لم ترضَ بما فعلته ، وأنت ناء عني ، حتىٰ كتبت إلي تشهدني علىٰ نفسك ؟! أمَّا أنا . . فقد شهدت عليك مع إخواني الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنؤدي الشهادة عليك غداً بين يدي الله سبحانه وتعالىٰ ، بأنك هجمت علىٰ بيت مال المسلمين عن غير مشورة منهم ولا رضاهم ، هل رضي بذلك الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ؟ أم هل رضي بذلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله ؟ أم رضي بذلك المجاهدون في سبيل الله وأبناء المهاجرين والأنصار الذين بهم جلست هٰذا المجلس ؟ أم رضي بذلك أهل العلم وحملة القرآن والأرامل والأيتام ؟ هل رضي بذلك خلق من رعيتك ؟ فشُدَّ مئزرك للحساب ، وأعِدَّ للمسألة جواباً .

واعلم بأنك موقوف ومسؤول بين يدي الله الحكم العدل سبحانه وتعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، وقبل هٰذا فقد سُلِبْتَ حلاوةَ العلم والزهد ،

---

(١) **دحاه** : رماه .
(٢) **الرافل** : المتبختر الذي يجر ثوبه من العجب .
(٣) **صرم الحبل** : قطعه ، والمعنىٰ : قاطعتك وهجرتك .
(٤) **القلىٰ** : البغض .

ولذيذ مناجاة القرآن ، والتفكر في معانيه ، والجلوس مع الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً ، وللظالمين إماماً ، ما أرىٰ غرك إلا عاجل زينة الدنيا من الجلوس على الأسرة ، والأمر والنهي ، ولبس الحلل الفاخرة ، ولو لم يكن في ذلك إلا أنك قد تعجلت حظك من الآخرة . . لكان خسرانك في ذلك أكبر من الربح ، هٰذا إن نجوت ، وكيف ينجو من كثر خصماؤه عند الله عز وجل ؟!

أمَا والله ؛ ما من أحد زِيْدَ في دنياه شيء . . إلا نقص من درجاته في الآخرة وإن كان عند الله كريماً ، كأني بك وقد أسبلت علىٰ أبوابك الستور ، وأجلست الأجناد الظلمة علىٰ تلك الأبواب ، وقلت : لا يدخل إلي إلا فلان وفلان ، واحتجبت عن ذوي الحاجات وأرباب الظُّلامات ، فلا يصل المظلوم إليك ، ولا مَن له حاجة يمكنه أن يتوصل إليك ، فإن جاء مظلوم . . طرده الأجناد الذين أقمتهم ببابك وأنت محجوب .

ثم إن هٰؤلاء ـ مع ما فيهم من الظلم لأنفسهم ولك ـ قد أساؤوا التدبير ، وزادوا في العدوان ؛ فإنهم يَضرِبون الناس ولا يُضرَبون ، ويَشتِمون الناس ولا يُشتَمون ، ويَظلِمون الناس ولا يُظلَمون ، ويَشرَبون الخمر ويَضرِبون مَن شربها ، ويَزْنون ويحدون الزاني ، ويسرقون ويقطعون السارق ، أمَا علمت أن هٰذه الأحكام عليك وعليهم سواء قبل أن تحكم [بها] على الناس ؟! وأنت المسؤول عن جميع ذلك ؛ فإنهم بك قاموا هٰذا المقام ، فاستيقظ من غفلتك ، وتفقد أمور رعيتك ، وعُمَّهُم بالنصيحة ، ولا تحتجب عنهم ، وَبِعْ دنياك بآخرتك . . تَربحْهما جميعاً ، ولا تَبِعْ آخرتك بدنياك . . فتخسرهما جميعاً .

فكيف بك إذا نادى المنادي[1] من قبل الله تعالىٰ : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ ، أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فجيء بك ويداك مغلولتان إلىٰ عنقك ، لا يطلقهما إلا عدلك هٰذا ، والظالمون حولك ، والمظلومون متعلقون بك ، وكل واحد من رعيتك يسألك حظه من العدل منك ، وأنت تُساق إلى الحساب ، وقد أخذت بضيق الخناق ، فعند ذلك تعلم يقيناً أن الهول الأعظم ومفظعات الأمور أمامك ، فتدارك فوات حظك من الله عز وجل ، قبل ألاَّ يمكن التدارك ، ولا تُقال العثرات .

واعلم : أن حياتك أمامك ، فلا تتوانَ . . فتعطب ، وأنت ترىٰ حسناتك في ميزان

---

(١) في بعض النسخ : (إذا نادى المنادي : ليقم الظلمة وأعوان الظلمة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ . . . ﴾) .

غيرك ، وسيئات . . غيرك في ميزانك علىٰ سيئاتك . . بلاء علىٰ بلاء ، وظلمة فوق ظلمة ، فاحتفظ بوصيتي ، واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها ، فاتق الله فيما استرعاك ، واحفظ محمداً سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم في أمته ، وأحسن خلافتك عليهم ، واحذر أن تكون له بالرسالة شاهداً ، ويكون صلى الله عليه وسلم عليك بسوء الخلافة شهيداً .

واعلم : أن هٰذا الأمر لو دام لغيرك . . ما وصل إليك ، وهو صائر إلىٰ غيرك ، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها من شخص إلىٰ آخر ، فمنهم من يتزود زاداً ينفعه ، ومنهم من يخسر دنياه وآخرته ، وإني أخاف عليك أشد الخوف ، أعاذنا الله وإياك من السوء كله ، ووفقنا وإياك لما يرضيه عنا ، واحذر أن يراك الله عز وجل حيث نهاك ، ويفقدك حيث أمرك ، وقد نصحتك ، وما أبقيت لك في النصح غاية ، وإياك إياك أن تكتب إليَّ كتاباً بعد هٰذا ، فلا أجيبك عنه . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال عبَّاد : ثم ألقى الكتاب إليَّ منشوراً غير مطوي ولا مختوم ، ولم يتكلم معي بشيء .

قال عبَّاد : فأخذت الكتاب ، وجئت إلىٰ سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي ، فناديت : يا أهل الكوفة ؛ فأجابوني ، فقلت لهم : يا قوم ؛ من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله ؟ فأقبَلوا إليَّ بالدنانير والدراهم ، فقلت : لا حاجة لي في المال ، ولٰكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية .

قال : فأُتيتُ بهما ، فلبستهما بعد أن نزعت ما كان عليَّ من اللباس الذي كنت ألبسه عند أمير المؤمنين ، ثم أقبلت أقود البرذون ، وعليه السلاح الذي كنت أحمله ، حتىٰ أتيت باب أمير المؤمنين حافياً راجلاً ، فلما رآني مَن بالباب . . هزأ بي ، ثم استؤذن لي ، فدخلت ، فلما نظر الخليفة إليَّ علىٰ تلك الهيئة . . قام قائماً ، ثم قعد ، ثم قام ثانياً ، وجعل يضرب بيديه ، ويقول : انتفع الرسول وخاب المرسِل ، ما لي وللدنيا ، ما لي ولمُلْك يزول عني سريعاً ؟!

قال عبَّاد : فألقيت الكتاب إليه كما دفعه إلي منشوراً ، فأقبل الخليفة يقرؤه ، وأنفاسه تتصعَّد ، ودموعه تنحدر من عينيه علىٰ خديه ، وهو يقرؤه ، ويشهق ، فقال بعض الحاضرين : يا أمير المؤمنين ؛ لقد اجترأ عليك سفيان ، فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد ، وضيقت عليه السجن . . كنت تجعله عبرة لغيره .

فقال الخليفة : اتركونا يا عبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه ، والشقي من أهلكتموه ، إن سفيان أمة وحده ، فاتركوا سفيان وشأنه .

ثم إنه سألني عمَّا جرىٰ لي معه ، فحكيت له جميع ذلك ، ولم يزل كتاب سفيان إلىٰ جانب الخليفة يقرؤه في غالب الأوقات إلىٰ أن توفي رحمه الله تعالىٰ ، فرحم الله عبداً نظر لنفسه قبل حلول رمسه . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وقد حكى الغزالي وغيره : أن هـٰذه الحكاية جرت لهارون الرشيد مع سفيان رحمه الله ، وهو وَهَمٌ من ناسخ أو سبق قلم ؛ فإن سفيان الثوري لم يدرك خلافة الرشيد ، فإنه توفي سنة إحدىٰ وستين ومئة باتفاق المؤرخين في خلافة المهدي ، والصواب المقطوع به : هو ما ذكرناه ، فاعتمده ، وكذلك جميع ما تراه في كتابنا هـٰذا مما فيه مخالفة لما هو موجود في الكتب ؛ فإني حررت ذلك ، وفحصت عنه أشد الفحص ، فعليك به ، والله أعلم[(١)] .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : يروىٰ عن سفيان الثوري أنه قال : لما حج المهدي . . رأيته في جمرة العقبة والناس يُخبَطون يميناً وشمالاً بالسياط ، فوقفت ، وقلت : يا حسن الوجه ؛ حدَّثَنا أيمن بن نائل ، عن قدامة بن عبد الله قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمي الجمرة يوم النحر علىٰ جمل ، لا ضَرْبَ ، ولا طَرْدَ ، ولا إليك إليك[(٢)] ، وها أنت تخبط الناس بين يديك يميناً وشمالاً ، فقال لرجل : مَن هـٰذا ؟ قال : سفيان الثوري ، فقال : يا سفيان ؛ لو كان المنصور . . ما احتملك علىٰ هـٰذا ، فقلت له : لو أخبرك المنصور بما لقي . . لأقصرتَ عما أنت فيه ، قال : فقيل له : إنه قال لك : يا حسن الوجه ، ولم يقل لك يا أمير المؤمنين ، فقال : اطلبوه ، فطلب سفيان ، فاختفىٰ رحمه الله[(٣)] .

وعن سفيان قال : أُدخِلت علىٰ أبي جعفر المنصور بمنىٰ ، فقال : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت له : اتق الله ، قد ملأت الأرض ظلماً وجوراً ، قال : فطأطأ رأسه ، ثم رفعه ، وقال : ارفع إلينا حاجتك ، قال : فقلت له : إنما أُنزِلْتَ هـٰذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار ، وأبناؤهم يموتون جوعاً ، فاتق الله ، وأوصل إليهم حقوقهم ، قال : فطأطأ رأسه ، ثم رفعه ، وقال : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت : حَجَّ عمر بن الخطاب رضي الله

---

(١) الإحياء (٢/٣٥٣) .
(٢) أخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (٢/٤٣٦) ، وابن ماجه (٣٠٣٥) .
(٣) الإحياء (٢/٣١٧) .

عنه ، فقال لخازنه : كم أنفقت ؟ قال : بضعة عشر ديناراً[1] ، وأرىٰ هٰهنا أموراً لا تطيقها الجبال . ثم خرج .

قال الغزالي : فهٰكذا كانوا يدخلون على السلاطين إذا أُكرِهوا ، فكانوا يخاطرون بأرواحهم في الانتصار لدِين الله عز وجل ، ويعلمون أنهم يُسألون عن هٰذا الدخول ، وعما قالوا ، وأنه يجب عليهم النصح من حين يدخلون إليه إلىٰ حين يخرجون ، والله تعالىٰ أعلم . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/١٤٦] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : وعن محمد بن رافع قال : سئل عبد الرزاق يوماً : هل كان في سفيان الثوري شيء من العصبية ؟ قال : لا أدري ، إلا أنه قال يوماً : حدَّثَنا منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ، هات هٰهنا مولىٰ .

وقال عبد الرزاق : اجتمع سفيان وأصحابه ، فقال سفيان : حدَّثَنا منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ، ثم قال : هٰذا الشرف على الكراسي .

وقال سعد بن إبراهيم بن سعد عن أبيه قال : كنت مع سفيان الثوري في المسجد الحرام ، وكوَّم كومة من الحصباء ، فاتكأ عليه ، ثم قال : يا إبراهيم . . هٰذا خير من أرمنيهم[2] .

وقال سفيان : وقع عندنا من هٰذا الأمر شيء ، فوددنا أنا وجدنا من يرضىٰ حتىٰ نرمي به إليه .

وقال سفيان : لأن تدخل يدك في فم التنين . . خير لك من أن ترفعها إلىٰ ذي نعمة قد عالج الفقر .

وقال ابن المبارك : نظر سفيان الثوري بمكة إلى السودان[3] ، فقال : إن ذُنوباً سُلِّط علينا بها هٰؤلاء . . لَذُنوب عظام .

وقال سفيان : الكتاب صلة الغياب ، وسمعت من يقول : صلة العتاب .

وعن وكيع قال : خرجنا مع الثوري في يوم عيد ، فقال : إن أول ما يُبدأ به في يومنا هٰذا غض البصر .

---

(١) في « الإحياء » : (درهماً) .

(٢) في « الحلية » : (أسرَّتهم) . والأرمنية : نوع من الوسائد .

(٣) لعله قصد بالسودان : العباسيين ؛ لأن شعارهم كان الرايات السوداء .

وقال سفيان : ما شبهت خروج المؤمن من الدنيا إلى الآخرة . . إلا مثل خروج الصبي من بطن أمه من ذلك الغم إلىٰ روح الدنيا .

وقال ابن المبارك : قال لي سفيان : إياك والشهرة ، فما أتيت أحداً . . إلا وقد نهاني عن الشهرة .

وقال علي بن حمزة ابن أخت سفيان : ذهبت بِبَوْلِ سفيان إلى الديراني ، وكان لا يخرج من باب الدير ، فأريته ، فقال : ليس هـٰذا بول حنيفي ، قلت : بلىٰ والله من أفضلهم ، قال : فأنا أجيء معك إليه ، فقلت لسفيان : قد جاء ، قال : أدخله ، فأدخلته ، فمس نبضه ، وجس عرقه ، ثم خرج ، فقلت : أَيش رأيت ؟ فقال : ما ظننت أن في الحنيفية مثل هـٰذا ، هـٰذا رجل قد قطع الحزن كبده .

وقال يوسف بن أسباط : كان سفيان من شدة تفكره يبول الدم .

وعن إبراهيم بن بسام قال : سمعت سفيان يقرأ علىٰ علي بن الحسن : يا أخي ؛ لا تغبط أهل الشهوات بشهواتهم ، ولا ما يتقلبون فيه من النعمة ؛ فإن أمامهم يوماً تُزَلزَل فيه الأقدام ، وترعد فيه الأجساد ، وتتغير فيه الألوان ، ويطول فيه القيام ، ويشتد فيه الحساب ، وتتطاير فيه القلوب ، حتىٰ تبلغ الحناجر ، فيا لها من ندامة علىٰ ما أصابوا من هـٰذه الشهوات ، واجعل كسبك فيما يكون لك ، ولا تجعل كسبك فيما يكون عليك ؛ فإن الذي يقدم ماله ويعطي حق الله تعالىٰ منه . . فمالُه له وأفضل منه ، والذي يخلف ماله ويضيع حق الله تعالىٰ فيه . . فمالُه وبالٌ عليه يوم القيامة ، اكسب حلالاً ، واجلس مع مَنْ كسبُه حلال ، وكُلْ طعامَ مَنْ كسبُه حلال ، وليكن أهل مشورتك مَنْ كسبُه حلال ؛ فإن الورع ملاك الدين واستكمال أمر الآخرة .

واعلم يا أخي : أنه لا يمتنع أحد عن الحرام . . إلا مَن هو مشفقٌ علىٰ لحمهِ ودمه ، فإنما دِينك لحمك ودمك ، واجتنب الحرام ، ولا تجلس مع من يكسب الحرام ، ولا تأكل مع مَن كسبُه حرام ، ولا تَدُلَّ أحداً على الحرام ، وانصح لكل بر وفاجر أَلاَّ يأخذه ، فإن فعلت من ذلك شيئاً . . فأنت عون له ، والعون شريك ، وإياك والظلم ، وأن تكون عوناً للظالم ، أو أن تصحبه ، أو تؤاكله ، أو تبتسم في وجهه ، أو تنال منه شيئاً ، فتكون عوناً له ، والعون شريك ، ولا تخالفن أهل التقوىٰ ، وإياك والأهواء ؛ فإن أولها وآخرها باطل ، ولكل ذنب توبة ، وترك الذنب أيسر من طلب التوبة ، وإن الله سبحانه غفور لأهل المعاصي ، رحيم

للتوابين ، حليم ودود ، فإياك أن تزداد بحلمه عنك سبحانه وتعالىٰ جرأة علىٰ معصيته ؛ فإن الله عز وجل لم يرض لأحد من رسله ، ولا من أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين شيئاً من النقائص ، ولا لأحد من خلقه وعباده شيئاً من المعصية والحرام والظلم ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ، ثم قال للمؤمنين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ ، ثم أجملَها فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

وإياك أن تتهاون بالذنب الصغير ، فتقدم عليه ولا تتداركه ، فلا تنظر إلىٰ صغره ، ولـٰكن انظر إلىٰ عظمة من عصيت ، إنما الذي عصيتَه ربّاً عظيماً سبحانه وتعالىٰ ، يعاقب على الصغير ، ويتجاوز عن الكبير(١) ، وإن أكيس الكَيْس من يدخل الجنة بذنب قد عمله فنصبه بين عينيه ، ثم لم يزل حذراً علىٰ نفسه من تلك الخطيئة ، حتىٰ فارق الدنيا ، فدخل الجنة ، وإن أحمق الحمق من دخل النار بحسنة واحدة ، نصبها بين عينيه ، ولم يزل يذكرها ، ويرجو ثوابها ، ويتهاون بالذنوب ، حتىٰ فارق الدنيا ، ودخل النار .

فكن ـ يا أخي ـ كيِّساً حذِراً علىٰ ما قد زل منك ومضىٰ ، لا تدري ماذا يفعل بك ربك سبحانه وتعالىٰ فيه ، وما بقي من عمرك لا تدري ماذا يحدث لك فيه ؛ فإن إبراهيم خليل الرحمـٰن عليه الصلاة والسلام حذر علىٰ نفسه ، فسأل ربه سبحانه وتعالىٰ فقال : ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ ، وقال يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ، وقال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وقال شعيب عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ .

فهـٰؤلاء أنبياؤه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، خافوا علىٰ أنفسهم ، وإنما المسلم مَن سَلِمَ المسلمون من يده ولسانه .

وعن الفريابي قال : قدم سفيان الثوري بيت المقدس ، فأقام ثلاثة أيام ، وصلىٰ عند باب الرحمة ، وعند محراب داوود عليه الصلاة والسلام ، ورابط بعسقلان أربعين يوماً .

قال : وصحبت سفيان الثوري من عسقلان إلى المدينة ، فكان يخرج النفقة ، ونخرج

---

(١) جاء في هامش نسخة : (قال صاحب « الحكم » رحمه الله : لا صغيرة إذا قابلت عدله ، ولا كبيرة إذا واجهت فضله) .

معه نفقتنا ، فندفعها إلىٰ رجل ، فينفق علينا ، فكنا إذا وضعنا سفرتنا . . لم يَرُدَّ أحداً من السُّؤَّال إلا أعطاه ، حتىٰ لا يبقىٰ شيء ، فكان بعضنا إذا رآه يصنع ذلك . . يأخذ خبزه ، ويتنحىٰ فيأكل .

وقال سفيان : ما رأينا للإنسان شيئاً خيراً له من أن يدخل جحراً .

وقال سفيان : الناس عندنا مسلمون مؤمنون ، ولـٰكن ما ندري ما هم عند الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال وكيع : سمعت سفيان الثوري يقول : الناس عندنا مؤمنون في المناكحة والأحكام والطلاق ، وأما عند الله عز وجل . . فلا ندري ، نحن أهل ذنوب .

وعن عبد الله بن يونس : سمعت رجلاً يقول لسفيان : رجل يكذِّب بالقَدَرِ ، أصلي وراءه ؟ قال : لا تقدِّموه ، قال : هو إمام القرية ، ليس لهم إمام غيره ، قال : لا تقدموه ، لا تقدموه ، وجعل يصيح .

وفي رواية أخرىٰ : قال : البدعة لا يُتاب منها ، وهي أحب إلىٰ إبليس من المعصية ؛ لأن المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها .

وقال يحيى بن يمان : من أصغىٰ بسمعه إلىٰ صاحب بدعة . . فقد خرج من عصمة الله عز وجل .

وقال سفيان : إذا ذُكر الرجل الذي مات . . فلا تنظر إلىٰ قول العامة فيه ، ولـٰكن انظر إلىٰ قول أهل العلم والعقل .

وعن عطاء بن مسلم قال : قال لي سفيان : إذا كنت بالشام . . فاذكر مناقب علي رضي الله عنه ، وإذا كنت بالكوفة فاذكر مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وقال عمرو بن حسان : كان سفيان الثوري رحمه الله نِعم المداوي ، إذا دخل البصرة . . حدث بفضائل علي رضي الله عنه ، وإذا دخل الكوفة . . حدث بفضائل عثمان رضي الله عنه .

وعن محمد بن الصباح قال : سمعت شعيب بن حرب يقول : ذكروا سفيان الثوري عند عاصم بن محمد ، فذكروا مناقبه ، حتىٰ عدوا خمس عشرة منقبة ، فقال لهم : فرغتم ؟ إني لأعرف فيه فضيلة أفضل من هـٰذه كلها ؛ سلامة صدره لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال سفيان الثوري : منعَتْنا الشيعة أن نذكر فضائل علي رضي الله عنه .

وقال سفيان : مَن قدَّم علياً رضي الله عنه علىٰ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . . فقد أزرىٰ على المهاجرين والأنصار ، وأخشىٰ ألاَّ ينفعه مع ذلك عمل .

وقال سفيان رحمه الله تعالىٰ : ما أحب الله عز وجل عبداً فأبغضه أحد ، ولا أبغضه فأحبه أحد ، وإن الرجل ليعبد الأوثان وهو عند الله سبحانه وتعالىٰ محبوب سعيد .

وكان الثوري حَسَنَ المطعم ، وقال : إن الدابة إذا لم تحسِنْ إليها في علْفِها . . لم تعمل .

وقال سفيان : خالفَتْنا المرجئة[1] في ثلاث : نحن نقول : الإيمان قول وعمل ، وهم يقولون : الإيمان قول بلا عمل ، ونحن نقول : يزيد وينقص ، وهم يقولون : لا يزيد ولا ينقص ، ونحن نقول : نحن مؤمنون بالإقرار ، وهم يقولون : نحن مؤمنون عند الله عز وجل .

وقال سفيان : ليس أحد أبعد عن كتاب الله عز وجل من المرجئة .

وقال سفيان الثوري : عليكم بما عليه الحمالون والنساء في البيوت والصبيان في الكتَّاب من الإقرار والعمل .

وعن يحيى بن المتوكل قال : سمعت سفيان الثوري يقول : إذا أثنىٰ على الرجل جيرانه أجمعون . . فهو رجل سوء ، قالوا لسفيان : كيف ذاك ؟ قال : يراهم يعملون بالمعاصي ، فلا ينكر عليهم ، ويلقاهم بوجه طلق .

وقال سفيان : كان يقال : من كانت سريرته أفضل من علانيته . . فذلك الفضل ، ومن كانت سريرته شراً من علانيته . . فذلك الجور .

وقال سفيان : بلغني أن العبد يعمل العمل سراً ، فلا يزال به الشيطان حتىٰ يغلبه ،

---

(١) **المُرْجِئَة** : مِن الإرجاء وهو التأخير ، وسميت هـٰذه الفرقة بالمرجئة ؛ لأنهم يعتقدون أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي ، وقيل أيضاً في سبب تسميتهم بهـٰذا الاسم : إنهم قالوا : الإيمان قول بلا عمل ، فكأنهم قدموا القول وأرجؤوا العمل ؛ أي : أخَّروه ، فلا يضر مع الإيمان معصية ، وهـٰذا يتنافىٰ مع ما ورد في كتاب الله عز وجل من اقتران الإيمان مع العمل الصالح كوحدة أساسية للنجاة يوم القيامة ، والشواهد كثيرة ، منها : قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ .
ويقال : إن أول من وضع أسس الإرجاء : غيلان الدمشقي .

فيكتب فيه العلانية ، ثم لا يزال الشيطان به حتىٰ يحب أن يحمد عليه ، وينسخ من العلانية ، ويثبت في الرياء .

وجاء زائدة بن قدامة إلىٰ سفيان الثوري ، فلما رآه.. انتهره وصاح به ، فقيل له : ما شأنه ؟ فقال : إن شريكاً أُمر بمال يقسمه ، فولاَّه هـٰذا ، ثم قال له سفيان : إن شريكاً لم يُصِبْ لدنسه أحداً غيرك .

وقال سفيان : ما قاتل علي رضي الله عنه أحداً.. إلا كانوا هم الفئة الباغية .

وقال سفيان : لا يجتمع حُبُّ علي وعثمان.. إلا في قلوب نبلاء الرجال .

وقال سفيان : لا يستقيم قول.. إلا بعمل ، ولا يستقيم قول وعمل.. إلا بِنيَّة ، ولا يستقيم قول وعمل ونية.. إلا بموافقة السُّنَّة . انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٢١ـ٣٢] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كان سفيان الثوري رحمه الله يقول : من دعا رجلاً إلىٰ طعامه وليس له رغبة في أن يأكل ، إن أجابه.. فعليه وزران ، وإن لم يأكل.. فعليه وزر واحد ، أراد بأحد الوزرين النفاق ، والوزر الثاني تعريضه أخاه لما يكره لو علمه(١) .

وقال سفيان : كثرة النساء ليس من الدنيا ؛ لأن علياً رضي الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرِّية(٢) ، فالنكاح سنة ماضية ، وخلق من أخلاق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين(٣) .

وقال سفيان : من أنفق من الحرام في طاعة الله عز وجل.. كان كمن طهَّر الثوب بالبَول(٤) .

ولقد سئل سفيان رحمه الله عن ظالم أشرف على الهلاك في بريَّة : هل يسقىٰ شربة ماء ؟ فقال : لا ، دعه يموت ؛ فإن ذلك إعانة له(٥) .

وكان سفيان رحمه الله يبكي ، فقيل له : علىٰ ماذا تبكي ؟ فقال : بكينا على الذنوب زماناً ، فالآن نبكي على الإسلام(٦) .

---

(١) الإحياء (٤/ ٣٧٣) .
(٢) السُّرِّيَّة : الجارية المملوكة .
(٣) الإحياء (٢/ ٢٣) .
(٤) الإحياء (٢/ ٩١) .
(٥) الإحياء (٢/ ٤٤) .
(٦) الإحياء (٤/ ١٧٨) .

وقال سفيان : هٰذا زمان سوء ، لا يأمن فيه الخامل ، فكيف على المشهورين ؟! هٰذا زمان ينتقل فيه الرجل من بلد إلىٰ بلد ، كلما عُرِف في موضع . . تَحوَّل إلىٰ غيره . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/٤٨] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال سفيان الثوري : من سمع ببدعة . . فلا يحكها لجلسائه ، ولا لغيرهم ، ولا يُلقِها في قلوبهم . أو كما قال .

وقال سفيان ليوسف بن أسباط : يا يوسف ؛ إذا بلغك عن رجل بالمشرق أنه صاحب سُنَّة . . فابعث إليه بالسلام ، وإذا بلغك عن آخر بالمغرب أنه صاحب سُنَّة . . فابعث إليه بالسلام ؛ فقد قَلَّ أهل السُّنَّة والجماعة .

وقال سفيان : إذا أحببت رجلاً في الله سبحانه وتعالىٰ ثم أحدث حدثاً في الإسلام ، فلم تُبغِضه عليه . . لم تكن محبتك لله عز وجل .

وعن عبد الواحد ، عن سفيان قال : إنما هو اختيار ، أو اختبار ، أو عقوبة ، قال : فحدثت به محموداً وناظرته فيه ، فقلت له : الاختيار ينبغي أن يرضىٰ به ، والاختبار ينبغي أن يصبر عليه ، والعقوبة ينبغي أن يتوب منها .

وقال سفيان : كان بعض الفقهاء يتوضأ من الغِيبة كما يتوضأ من الحدث .

ثم قال : أحسِن سريرتك . . يُحْسِنِ الله علانيتك ، وأحسن فيما بينك وبين الله . . يُصلِحِ الله فيما بينك وبين الناس ، واعمل لآخرتك . . يَكْفِكَ الله أمر دنياك ، بِعْ دنياك بآخرتك . . تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك . . فتخسرهما جميعاً .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : الذي أنا عليه ، بل كل الذي أنا عليه « جامع سفيان » رحمه الله .

وقال سفيان الثوري : ما سألت أبا حنيفة عن شيء قط ، وربما لقيني سألني .

وعن أبي إسحاق الفزاري قال : سمعت الأوزاعي يقول : إذا مات ابن عون وسفيان الثوري . . استوى الناس .

وقال سفيان : كان يقال : تعوذوا بالله عز وجل من فتنة العابد الجاهل والعالم الفاجر ؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

وقال سفيان الثوري : إني لأعرف حب الرجل للدنيا بتسليمه علىٰ أهل الدنيا .

وعن عيسى بن يونس قال : كان سفيان إذا رأىٰ رجلاً عليه قلنسوة شاشية . . لم يحدثه .

وقال سفيان : جالَست يوماً سعيد بن السائب الطائفي ، فجعل سعيد يبكي حتىٰ رحمته ، فقلت له : يا سعيد ؛ ما الذي يبكيك إذا سمعتني أذكر أهل الجنة ؟ فقال : يا سفيان ؛ وما يمنعني أن أبكي وإذا ذُكِرَتْ مناقب أهل الخير . . رأيتُني منها بمعزِل ؟!

وقال سفيان : بلغني أنه يأتي على الناس زمان تمتلىء قلوبهم في ذلك الزمان من حب الدنيا ، فلا تدخله الخشية .

وقال محمد بن النعمان : كان سفيان بمكة فمرض ، ومعه الأوزاعي ، فدخل عليه عبد الصمد بن عليٍّ ، فحول وجهه إلى الحائط ، فقال الأوزاعي لعبد الصمد : إن أبا عبد الله سهر البارحة ، فلعله أن يكون نائماً ، فقال سفيان : لست بنائم ، لست بنائم ، فقام عبد الصمد ، فقال الأوزاعي لسفيان : أنت رجل مستقتل ، لا ينبغي لأحد أن يصحبك .

وعن مفضل بن مهلهِل قال : خرجت حاجّاً مع سفيان ، فلما صرنا إلىٰ مكة . . وافينا الأوزاعي بها ، فاجتمعنا في دار ، وكان على الموسم عبد الصمد بن عليٍّ الهاشمي ، فدق الباب ، قلنا : مَنْ ؟ قال : الأمير ، فقام الثوري ، فدخل المخرج[1] ، وقام الأوزاعي فتلقاه ، فقال له عبد الصمد : مَن أنت أيها الشيخ ؟ قال : الأوزاعي ، قال : حياك الله بالسلام ، أمَا إنَّ كتبك كانت تأتينا ، فنقضي حوائجك ، ما فعل سفيان الثوري ؟ قال : قلت : دخل المخرج ، قال الأوزاعي : ثم دخلت في إثره ، وقلت له : إن هـٰذا الرجل ما قصد إلا قَصْدَك ، فخرج سفيان مقطِّباً[2] ، فقال : السلام عليكم ، كيف أنتم ؟ فقال له عبد الصمد : أتيتك أكتب هـٰذه المناسك عنك ، فقال له سفيان : أَوَلا أدلك علىٰ ما هو أنفع لك منها ؟ قال : وما هو ؟ قال : تدع ما أنت فيه ، قال : كيف أصنع بأمير المؤمنين أبي جعفر ؟ فقال : إن أردت الله عز وجل . . كفاك أبا جعفر ، فقام عبد الصمد وخرج ، فقال الأوزاعي لسفيان : يا أبا عبد الله ؛ إن هـٰؤلاء لا يَرضَون منك إلا بالإعظام لهم ، فقال له : يا أبا عمرو ؛ إنا لسنا نقدر علىٰ أن نضربهم ، وإنما نؤذيهم بمثل هـٰذا الذي ترىٰ ، قال مفضل : فالتفتَ إلي الأوزاعي ، وقال : قُمْ بنا مِن هـٰهنا ؛ فإني لا آمن أن يبعث عبد الصمد من يضع في رقابنا حبالاً ، وإن هـٰذا ما يبالي .

---

(١) **المخرج** : موضع قضاء الحاجة .
(٢) **مُقَطِّباً** : عابساً .

وقال سفيان : ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرئاسة ، نرى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب ، فإذا نوزع الرئاسة . . حامىٰ عليها وعادىٰ .

وقال : النظر إلىٰ وجه الظالم خطيئة ، ولا تنظروا إلى الأئمة المضلين إلا بالإنكار من قلوبكم عليهم ؛ لئلا تحبط أعمالكم .

وقال : لا تنظروا إلىٰ دورهم ولا إليهم إذا مروا على المراكب .

وبعث محمد بن إبراهيم الهاشمي إلىٰ سفيان الثوري بمئتي دينار ، فأبىٰ أن يقبلها ، فقيل له : يا أبا عبد الله ؛ كأنك لا تراها حلالاً ، فقال : بلىٰ ، ما كان آبائي وأجدادي . . إلا في العطية ، ولـٰكن أكره أن أذل لهم .

وقال أبو شهاب : كنت ليلة مع سفيان الثوري ، فرأىٰ ناراً من بعيد ، فقال : ما هـٰذا ؟ فقلت : نار صاحب الشرطة ، فقال : اذهب بنا في طريق آخر حتىٰ لا نستضيءَ بنارهم .

وعن عطاء بن مسلم قال : لما استُخلف المهدي . . بعث إلىٰ سفيان ، فلما دخل . . خلع خاتمه ، فرمىٰ به إليه ، وقال : يا أبا عبد الله ؛ هـٰذا خاتمي ، فاعمل في هـٰذه الأمة بالكتاب والسُّنَّة ، فأخذ الخاتم بيده ، وقال : أتأذن في الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال عبيد : قلت لعطاء : يا أبا مخلد ، قال له : يا أمير المؤمنين ، قال : نعم ، قال : أتكلم علىٰ أني آمن ؟ قال : نعم ، قال : لا تبعث إلي حتىٰ آتيك ، ولا تعطني شيئاً حتىٰ أسألك ، قال : فغضب مِن ذلك وَهَمَّ به ، قال له كاتبه : أليس قد أمَّنته يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلىٰ ، ثم قام ، فخرج ، فلما خرج . . حف به أصحابه ، فقالوا : ما منعك يا أبا عبد الله وقد أمرك أن تعمل في هـٰذه الأمة بالكتاب والسُّنَّة ، قال : فاستصغر عقولهم ، ثم خرج هارباً إلى البصرة .

وقال داوود ، عن أبيه قال : كنت مع سفيان الثوري رحمه الله ، فمررنا بشرطي نائم ، وقد حان وقت الصلاة ، فذهبت أحركه ، فصاح سفيان : مَهْ ، قلت : يا أبا عبد الله ؛ يصلي ، قال : دعه لا صلى الله عليه ، فما استراح الناس حتىٰ نام هـٰذا .

وقال سفيان : إن استرشدك أحد من هـٰؤلاء الطريق . . فلا تُرشده .

وقال ابن مهدي : سمعت سفيان الثوري يقول : لما أُخِذت فأُدخلت على المهدي . . قلت : قد وقعتِ يا نفس فاستمسكي ، فلما دخلت . . فإذا إلىٰ جنبي وزيره أبو عبيد الله ، فقال لي أبو عبيد الله : ألست سفيان الثوري ؟ قلت : بلىٰ ، فقال : إن كتبك لتأتينا أحياناً ، فنقضيها ، قلت : ما كتبت إليك كتاباً قط ، قال : فأي شيء دخله ؟!

وقال سفيان : ما يريد مني أبو جعفر ؟ فوالله ؛ لئن قمت عنده . . لأقولن له : قم من مقامك ، فغيرُك أولىٰ به منك .

وقال ابن المبارك : قيل لسفيان : لو دخلت عليهم ؟ فقال : إني أخشىٰ أن يسألني الله عز وجل عن مقامي : ما قلت فيه ؟ فقيل له : تقول وتتحفظ ، قال : أفتأمرونني أن أسبَح في البحر ولا تبتل ثيابي ، والله ؛ ليس أخاف ضربهم ، وإنما أخاف أن يَميلوا عليَّ بدُنياهم ، ثم لا أرىٰ سيئتهم سيئة ، أو قال : سيئهم سيئاً .

وقال سفيان : أدخلت علىٰ أبي جعفر المنصور ، فقلت له : اتق الله ؛ فإنما أُنزِلْتَ هـٰذه المنزلة وصرت في هـٰذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار ، وأبناؤهم يموتون جوعاً ، حج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فما أنفق إلا خمسة عشر ديناراً ، وكان ينزل تحت الشجر ، فقال لي : أتريد أن أكون مثلك ؟ قلت : لا تكن مثلي ، ولـٰكن كن دون ما أنت فيه ، وفوق ما أنا فيه ، فقال لي : اخرج .

وعن محمد بن عاصم بن يزيد قال : سمعت أَبي يقول : كتب سفيان معي كتاباً إلى المهدي وإلىٰ وزيره أبي عبيد الله يعقوب بن داوود ، فلما دخلت عليه . . جرى الكلام بيني وبينه ، فقال المهدي : لو جاءنا أبو عبد الله . . لوضعنا أيدينا في يده ، وارتدينا برداء ، واتزرنا بآخر ، وخرجنا إلى السوق ، فأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، فإذا توارىٰ عنا مثل أبي عبد الله . . كيف أصنع ؟ لقد جاءني قُرَّاؤكم الذين هُمْ قراؤكم ، فأمروني ونهوني ، ووعظوني ، وبكوا ـ والله ـ لي ، وتباكيت لهم ، ثم لم يَفْجَأْني من أحدهم أن أَخرَجَ من كمه رقعة ، افعل لي كذا ، وافعل لي كذا ، ففعلت ذلك لهم ، ومقتُّهُم عليه ، وإنما كتب سفيان إليه أن يعطيه الأمان ؛ لأنه طال مهربه ، فكتب إليه بالأمان ، فمات قبل وصول الأمان .

وفي رواية أخرىٰ عنه قال : قلت : يا أبا عبد الله ؛ إنك توجهني إلى المهدي ، وأنا غلام غر لَعَلِّي أسقط بشيء ، فلا يكون مرضياً عندك ، فقال لي : قل ما تعلم ، ولا تقل ما لا تعلم .

قال محمد : قال أبي : فلما رجعت إلىٰ سفيان . . قلت له : لأي شيء تهرب من هـٰذا الرجل ؟ والرجل يقول : لو جاءنا . . لخرجت معه إلى السوق ، فأمرْنا ونهَيْنا ، فقال : يا ناعس ؛ حتىٰ يتقي الله عز وجل ، ويدفع الحق إلىٰ أربابه ، فإذا فعل ذلك . . اجتمعت به .

وقال يحيى بن سعيد : أملىٰ عليَّ سفيان الثوري كتاباً كتبه إلى المهدي ، فقال : اكتب :

من سفيان بن سعيد إلىٰ محمد بن عبد الله ، فقلت : إذا كتبت هـٰذا . . لم يقرأه ، فقال : اكتب كما تريد ، فكتبت ، ثم قال : اكتب : بأني أحمد الله إليك الذي لا إلـٰه إلا هو تبارك وتعالىٰ :

أما بعد : فإنك طردتني وشردتني وخوفتني ، والله ُبيني وبينك ، وأرجو أن يخِير الله عز وجل لي قبل مرجوع الكتاب ، قال : فرجع الكتاب وقد مات رحمه الله .

وقال سفيان : أُدخِلت على المهدي فقال : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت : قد ملأتَ ظهر الأرض ظلماً وجَوراً ، فاتق الله ، وأزل هـٰذه المظالم ، فطأطأ رأسه ، ثم رفعه ، وقال : أرأيت إن لم أستطع رفعه ؟ قال : قلت : تخليه لغيرك ، قال : فطأطأ رأسه ، ثم قال : ارفع إلينا حاجتك ، قال : قلت : أبناء المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان بالباب ، فاتق الله ، وأوصل إليهم حقوقهم ، قال : فطأطأ رأسه ، فقال أبو عبيد الله وزيره : أيها الرجل ؛ ارفع إلينا حاجتك ، فقلت : وما أرفع ؟ حدثني إسماعيل بن خالد قال : حَجَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال لخادمه : كَمْ أنفقتَ ؟ قال : بضعة عشر ديناراً ، وأرىٰ هـٰهنا أموراً لا تطيقها الجبال .

وقال يوسف بن أسباط : قال سفيان : من دعا لظالم بالبقاء . . فقد أحب أن يُعصى الله عز وجل .

وقال : قال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : تقرَّبوا إلى الله سبحانه وتعالىٰ ببغض أهلِ المعاصي ، والتمسوا رضوانه بالتباعد منهم ، قالوا : فمَن نجالِس ؟ قال : مَن يذكِّركم الله تعالىٰ رؤيتُه ، ويرغبكم في الآخرة عملُه ، ويزيد في فهمكم منطقُه .

وقال عبد الله بن الفرج ـ مولىٰ معن بن زائدة ـ قال : طُلِبَ الثوري ، فصار إلى اليمن ، فأخبرت معن بن زائدة بقدومه ، فأمَّنَه ، وأمر له بألف دينار ، فأبىٰ أن يقبلها ، فلما كان أوان الحج . . ترك عندي عباءة له ، كان يتمسح فيها للصلاة ، فلم ألقه إلا بالموقف ، فقال لي : ما فعلت العباءة ؟ قلت : حاضرة ، قال : هاتها ، فأعطيته إياها ، فلما قضىٰ حجه . . سار إلى البصرة ، فنزل علىٰ بَقَّالٍ في جوار يحيى بن سعيد ، وعبد الرحمـٰن بن مهدي ، قال عبد الله : فقال لي البَقَّال : ما زال ليلة مات يقوم ويتمسح للصلاة حتىٰ عددت له خمسين مرة ، ثم مات من آخر الليل رحمه الله .

ولقي سفيان الثوري شُريكاً بعدما ولي قضاء الكوفة ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ بعد الفقه

والخير تلي القضاء وصرت قاضياً ؟! فقال له شريك : يا أبا عبد الله ؛ لا بد للناس من قاض ، فقال له سفيان : لا بد للناس من شرطي!

وعن محمد بن سابق قال : كنت جالساً عند سفيان حين استُقضِي شريك ، فقال : أيما رجل أفسد ، لـٰكن منصور بن المعتمر أخذه داوود بن علي ، فأقامه حتىٰ ورمت قدماه ، فدفع إليه العهد ، فوضعه في كوة بيته ، فلم يخرجه حتىٰ مات رحمه الله .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : سمعت يحيى بن يمان يقول : تقاوم سفيان وإبراهيم بن أدهم ليلة إلى الصبح ، وكانا يتذاكران ، فقيل : يا أبا نصر ؛ في أي شيء ؟ قال : في أمور المسلمين .

وقال سفيان : ينبغي لأهل الميت أن يلقنوه الشهادة ؛ فإنه إذا سقي شربة الموت لو وجد بيده سيفاً وقدر أن يضرب أباه . . لفعل .

وقال عطاءٌ الخفاف : ما لقيت سفيان الثوري إلا باكياً ، فقلت : ما شأنك ؟ فقال : أخاف أن أكون في أم الكتاب شقياً .

وعن عبد العزيز ابن أبي خالد قال : مر سفيان بالغاضري وهو يتكلم ببعض ما يُضحك الناسَ ، فقال له : يا شيخ ؛ أما علمت أن لله يوماً يخسر فيه المبطلون ؟ قال : فما زالت تُعرف في وجه الغاضري حتىٰ لقي الله عز وجل .

وعن أبي بكر بن محمد العابد قال : قلت لسفيان : دلني علىٰ رجل أجلس إليه ، فقال : تلك ضالة لا توجَد .

وسئل سفيان : بمَ عرفت ربك سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : بفسخ العزم ، وترك الهمة .

وجاء سفيان إلىٰ صيرفي بمكة ، اشترىٰ منه دراهم بدينار ، فأعطاه الدينار ، وكان معه دينار آخر ، فسقط من سفيان ، فطلبه ؛ فإذا دينار إلىٰ جانبه ، فقال له الصيرفي : خذ دينارك ، قال : ما أعرفه ، قال : الناقص ، قال : فلعله الزائد ، فتركه ومضىٰ .

وقال يوسف بن أسباط : قال لي سفيان ونحن في المسجد الحرام : يا يوسف ؛ ناولني المطهرة أتوضأ ، فناولته ، فأخذها بيمينه ووضع يساره علىٰ خده ، ونمت ، فاستيقظت وقد طلع الفجر ، فنظرت إليه ، فإذا المطهرة في يده علىٰ حالها ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ قد طلع الفجر ، قال : لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الآخرة إلىٰ هـٰذه الساعة .

وقال سفيان : بصر العينين من الدنيا ، وبصر القلب من الآخرة ، وإن الرجل ليبصر

بعينيه فلا ينتفع ببصره ، وإذا أبصر بالقلب. . انتفع .

وقال سفيان : إن أقبح الرغبة أن تطلب الدنيا بعمل الآخرة .

وقال سفيان : يقال للميت وهو علىٰ سريره : اسمع ثناء الناس عليك .

وقال يوسف بن أسباط : كنت بالكوفة أطبع اللَّبِن ، فقال لي سفيان : يا يوسف ؛ لا تشكر من الناس إلا مِن رجل عرف موضع الشكر ، فقلت : وما موضع الشكر ؟ قال : إذا أوليتك معروفاً ، فكنت أنا أسَرَّ به منك ، وأشد استحياء منك. . فاشكر .

وقال رجل لسفيان : أوصني ، قال : اعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها . والسلام .

وقال الثوري : ما وجدنا شيئاً أنفع في دين ولا دنيا من أخ موافق .

وعن علي بن الفضيل قال : رأيت سفيان الثوري ساجداً حول البيت ، فطفت سبعة أسابيع(١) قبل أن يرفع رأسه .

وقال سفيان : إنما العلم بالآثار .

وقال حفص بن غياث وذكر الثوري فقال : كنا نتعزىٰ بسفيان وبمجلس سفيان عن الدنيا .

وقال سفيان : سلوني عن التفسير والمناسك ؛ فإني بهما عالم .

وعن عبد الرزاق قال : كنت إذا لقيت سفيان الثوري. . لم أستوحش إلىٰ أحد .

وقال سفيان : خذ من الناس اليوم هـٰذه الصفحة الظاهرة ، ولا تفتش عما وراء ذلك .

وقال عارم أبو النعمان : أتيت أبا منصور أعوده ، فقال لي : بات سفيان في هـٰذا البيت ، وكان هـٰهنا بلبل لابني ، فقال : ما بال هـٰذا الطير محبوساً ؟ لو خُلِّيَ عنه ؟ فقلت : هو لابني وهو يهبه لك ، فقال : لا ، ولـٰكني أعطيه ديناراً ، قال : فأخذه ، فخلىٰ عنه ، وكان يذهب فيرعىٰ ثم يجيء بالعشي ، فيكون في ناحية البيت ، فلما مات سفيان رحمه الله. . تبع جنازته ، فكان يضطرب علىٰ قبره ، ثم اختلف بعد ذلك ليال إلىٰ قبره ، فكان ربما بات عليه ، وربما رجع إلى البيت ، ثم وجدوه ميتاً عند قبره ، فدفن إلىٰ جنب قبره .

---

(١) طاف أسبوعاً : أي طاف حول الكعبة سبعة أشواط .

وقال ابن مهدي : ما عاشرت في الناس رجلاً هو أرق من سفيان ، وكنت أرمقه الليلة بعد الليلة ، فما كان ينام إلا أول الليل ، ثم ينتفض فزعاً مرعوباً ، ينادي : النارَ النارَ ، شغلني ذِكر النار عن النوم والشهوات ، كأنه يخاطب رجلاً في البيت ، ثم يتوضأ ، ويقول علىٰ إثر وضوئِه : اللهم ؛ إنك عالم بحاجتي غير مُعْلَم بما أطلب ، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار .

إلـٰهي ؛ إن الجزع قد أرقني ، والخوف لم يُؤَمِّنّي ، وكل هـٰذا من نعمك السابغة عليَّ ، وكذلك فعلتَ بأوليائك وأهل طاعتك ، إلـٰهي ؛ قد علمتَ أنه لو كان لي عذر في التخلِّي . . لما أقمت مع الناس طرفة عين . ثم يقبل علىٰ صلاته ، وكان البكاء يمنعه من القراءة حتىٰ إني لا أستطيع أن أسمع قراءته من كثرة بكائِه ، وما كنت أقدر أن أنظر إليه استحياء وهيبة منه .

وقال ابن المبارك : سألت سفيان الثوري : الرجل يقوم من الليل ، أي شيء ينوي بصلاته ؟ قال : ينوي أنه يناجي ربه عز وجل .

وقال بشر بن الحارث : قال قاسم الجوعي : سمعت سفيان الثوري يقول : يُكتب للرجل من صلاته ما عقل منها .

وكان سفيان يقول : سترك الجميل الذي لم يزل ، سترك الجميل الذي لم يزل .

وقال : ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نفسي .

وقال القاسم بن الحكم : لما مات سفيان . . جاء شيخ أبيض الرأس واللحية ، حتىٰ قام علىٰ قبره وهو يُدفن ، فقال : يا سفيان ؛ أمنت مما كنت تخاف ، وقدمت على الله عز وجل الذي كنت تعبده سبحانه وتعالىٰ ، ووالله ؛ ما يسُرُّنا أن يَلِيَ حسابَنا غداً أحد غير الله عز وجل ، ثم لم يُرَ ، فكانوا يرونه الخضر عليه الصلاة والسلام .

ونفدت نفقة سفيان الثوري بمكة ، فقدم عليه رجل من قومه ، فقال لسفيان : إن لك معي عشرة دراهم ، قال : من أين ؟ قال : من غزل فلانة ـ يعني : ابنته ـ قال : ائتني بها ؛ فإني منذ ثلاث أَسْتَفُّ الرمل .

وقيل لسفيان : إنك إذا أخذت في الحديث . . نشطت وأنكرناك ، وإذا كنت في غير الحديث . . كأنك ميت ، فقال سفيان : أما علمتَ أن الكلام فتنة ؟

وقال بشر بن الحارث : قال سفيان : وددت أني إذا جلست إليكم . . أقوم كما جلست ، لا عليَّ ولا لي .

وقال أحمد بن عاصم : اِلتقىٰ سفيان الثوري والفضيل بن عياض ، فتذاكرا ، فبكيا ، فقال سفيان : إني لأرجو أن يكون مجلسنا هـٰذا أعظم مجلس جلسناه بركة ، فقال له الفضيل : نرجو ، لـٰكني أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه علينا شؤماً ، أليس نظرت إلىٰ أحسن ما عندك فتزينت لي به وتزينت لك بمثله ، وتَصنَّعَ كل منا لصاحبه ؟ فبكىٰ سفيان حتىٰ علا نحيبه ، ثم قال : أحييتني أحياك الله .

وقال سفيان الثوري : الرجل إلى العلم أحوج منه إلى الخبز واللحم .

وقال : أَوْحَشَتْ هـٰذه البلاد ، واستوحشت ، ولا أراها تزداد إلا وحشة .

وجاء رجل إلىٰ سفيان فقال : السلام عليك يا أبا عبد الله ورحمة الله وبركاته ، كيف أنت ؟ وكيف حالك ؟ فقال سفيان : عافانا الله وإياك ، لسنا أصحابَ تطويل .

وقال سفيان : أفضل الذكر . . تلاوة القرآن في الصلاة ، ثم تلاوة القرآن في غير الصلاة ، ثم الصوم ، ثم الذِّكر .

وقال سفيان : **يأتي على الناس زمان لا ينجو فيه إلا من تحامَق** .

وقال : لما جاء البشير إلىٰ يعقوب عليه الصلاة والسلام . . قال له : علىٰ أي دين تركت يوسف ؟ قال : على الإسلام ، قال : الآن تمت النعمة .

وقال : ما بُسطت الدنيا علىٰ أحد . . إلا اغتراراً ، ولا زُويت عن أحد . . إلا اختباراً .

وقال سفيان : انظر درهمك من أين هو وصَلِّ في الصف الأخير .

وقال بشر بن الحارث : كلمتان لم يكن يتركهما سفيان : سلِّمْ سلِّمْ ، عفوَكَ عفوَكَ .

وقال : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وأول الزهد في الناس زهدك في نفسك .

وقيل لسفيان : لو أتيت الخليفة فأمرته ونهيته ، فقال : بلغني أنه يَسخط الله عز وجل علىٰ عبده بالمقام الواحد والكلمة الواحدة ، فأكره أن أقوم مقاماً أو أتكلم بكلام أُسخط الله عز وجل فيه .

وقال : لو كان معكم مَن يرفع الحديث إلى السلطان ، أكنتم تتكلمون بشيء تخشون منه فيه ؟ قلنا : لا ، قال : فإنَّ معكم مَن يرفع الحديث إلى الله عز وجل ، وهو أعلم به قبل رفعه سبحانه وتعالىٰ .

وكتب سفيان إلى ابن المبارك : بث علمك ، واحذر الشهرة .

وقال وكيع : رئِي سفيان وهو يأكل الطباهج[1] ، فكأنه قيل له في ذلك ، فقال : إني لم أنهكم عن الأكل ، ولـٰكن انظر من أين تأكل ، وادخل وانظر علىٰ من تدخل ، وتكلم وانظر كيف تتكلم ، كيف أنهاكم عن الأكل والله سبحانه وتعالىٰ يقول : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ ﴾ ؟!

وقال سفيان لرجل رآه قريباً من المنبر : شغلتَني يا فلان بقربك من المنبر ، أما خفت أن يقولوا قولاً فيجبَ عليك ردُّه ؟ فقال له الرجل : أليس يقال : ادن واستمع ؟ قال : ذاك لأبي بكر وعمر والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، وأما هـٰؤلاء . . فتباعد عنهم حتىٰ لا تسمع كلامهم ولا ترىٰ وجوههم .

وقال أبو عصمة : شهدت فضيلاً وسفيان الثوري يلتقيان في المسجد الحرام بعد المغرب ، فما يتذاكرانِ إلا النعم حتىٰ يفترقا ، يقول الفضيل لسفيان : إنه أَنعم علينا بكذا ، إنه أَنعم علينا بكذا سبحانه وتعالىٰ .

وقال سفيان : إني لأكتب الحديث من سبعة أوجه والمعنىٰ واحد .

وقال سفيان : من بلغ سن النبي صلى الله عليه وسلم . . فليَرْتَدِ لنفسه كفناً .

وعن عبد الرزاق قال : قال ابن المبارك : إني لما أقعد إلىٰ سفيان فيحدث ، فأقول : ما بقي من علمه شيء إلا كتبته وسمعته ، ثم أقعد عنده مجلساً آخر فيحدث ، فأقول : ما سمعت من علمه شيئاً .

وقال سفيان : كان علىٰ طريقي إلى المسجد كلب يعقر الناس ، فأردت الصلاة يوماً والكلب على الطريق ، فتنحَّيتُ عنه ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ جُزْ فإنما سلطني الله عز وجل علىٰ من يشتم أبا بكر وعمر . أو كما قال .

وقال أبو حاتم الرازي : سمعت قبيصة يقول : رأيت سفيان الثوري في النوم ، فقلت : ما فعل بك ربك ؟ فقال :

نظرت إلىٰ ربي كفاحاً وقال لي	هنيئاً رضائي عنك يابن سعيدِ
فقد كنتَ قوَّاماً إذا أقبل الدجىٰ	بعبرة مشتاق وقلب عميدِ
فدونك فاختر أي قصر أردته	وزرني فإني منك غير بعيدِ

---

(١) الطباهج : اللحم المُشرَّح .

وسئل سفيان عن معنى الحديث : « إن الله يُبغِض أهل البيت اللحميين »[1] قال : هم الذين يأكلون لحوم الناس .

وقال سفيان : قال الله عز وجل لجبريل عليه الصلاة والسلام في مقامه الذي يقوم بين يديه : أُدْنُ ، فدنا ثم انتفض ، فقال له : أُدْنُ ، فدنا ثم انتفض ، فقال له : أُدْنُ ، فدنا ثم انتفض (ثلاثاً) ، فقال له الجليل جل جلاله : ألم أكرمك ؟ ألم أأتمنك ؟ ألم أرسلك ؟ قال : بلىٰ ؛ ولٰكن ـ وعزتك وجلالك ـ لا آمن مكرَك ، فقال له الحق جل جلاله ولا إلٰه غيره : كذلك فكن .

وقال سفيان الثوري في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ : معناه : أنه لا يقدر أن يوقعهم في ذنب لا يغفره الله عز وجل .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ قال : معناه : أيكم أزهد في الدنيا .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ قال : القوة : العشير ، والناصر : الحليف .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ قال : هُمْ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ قال : الخوف الدائم في القلب .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ قال : من ثواب الفرائض ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ قال : كانوا متطوعين .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ قال : استئذان الملائكة عليهم .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ : إذا أراد الرجل من أهل الجنة يدعو بالشيء . . قال : سبحانك اللهم ، فيأتيه الذي دعا به .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ قال : تطبق النار علىٰ أهلها .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ قال : يغفر لمن يشاء بالذنب العظيم ، ويعذب من يشاء بالذنب اليسير .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥/ ٣٣) .

وقال سفيان : ما أضرهم ما أصابهم في الدنيا ، جبر الله عز وجل لهم كل مصيبة بالجنة .

وقال سفيان : من أحب الدنيا وسُرَّ بها . . نزع الله حب الآخرة من قلبه .

وقال سفيان : إني أحب للرجل إذا وسع الله عز وجل عليه . . أن يوسع علىٰ نفسه .

وقال عبد الرزاق : لما قدمنا مع سفيان من اليمن ـ وكان قد أقام عندهم أربعين يوماً ـ جاء سفيان بن عيينة ، فسلم عليه ، فرد عليه السلام وهو متكىء علىٰ عصاه ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ عاب الناس عليك خروجك إلى اليمن ، فقال : عابوا غير معيب ، طلب الحلال شديد ، خرجت أريده .

وكان سفيان كثيراً ما يدعو بهـٰذه ، فيقول : اللهم ؛ أبرم لهـٰذه الأمة أمراً رشيداً ، يعز فيه وليك ، ويذل فيه عدوك ، ويُعمل فيه بطاعتك ورضاك ، ثم يتنفس ، ويقول : كم من مؤمن قد مات بغيظه .

وكان لسفيان درس من الحديث .

وقال سفيان : إذا ترأَّس الرجل سريعاً . . أضر بكثير من العلم ، وإذا طَلَبَ وطَلَبَ . . بلغ .

وقال سفيان : كان يقال : يأتي على الناس زمان تموت فيه القلوب وتحيا فيه الأبدان .

وقال : لَنعمةُ الله عز وجل عليَّ فيما زوىٰ عني من الدنيا . . أعظم من نعمه عليَّ فيما أعطاني منها .

وقال سفيان من جملة وصية أوصىٰ بها بعض إخوانه : إياك أن تفارق الدسم ؛ فإنه أتم لعقلك ، ولا تمنعن نفسك من الحلاوة ؛ فإنه يزيد في الحلم ، وعليك باللحم ، ولا تدم عليه ولا تدعه أربعين يوماً ؛ فإنه يسيء خلقك ، ولا ترد الطيب ؛ فإنه يزيد في الدماغ ، وعليك بالعدس ؛ فإنه يغزر الدموع ويرق القلب ، وعليك باللباس الخشن . . تجد حلاوة الإيمان ، وعليك بقِلَّةِ الأكل . . تملك سهر الليل ، وعليك بالصوم . . يسد عنك باب الفجور ، ويفتح عليك باب العبادة ، وعليك بقِلَّةِ الكلام . . يلين قلبك ، وعليك بطول الصمت . . تملك الورع ، ولا تكونن حريصاً على الدنيا ، وارض بما قسم الله عز وجل لك . . تكن غنياً ، وتوكل على الله سبحانه وتعالىٰ ، ولا تنازع أهل الدنيا في دنياهم . . يحبك الله ، ويحبك أهل الأرض ، ولا تدع أيامك ولياليك وساعاتك تمر عليك باطلاً ،

وقدم من نفسك لنفسك ليوم العطش ؛ فإنه لا يَروىٰ يوم القيامة. . إلا من رضي الله عز وجل عنه ، ولا يحصُل رضوانُه. . إلا بطاعته ، وأكثر من النوافل ؛ فإنها تقربك إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وشاور في أمر دينك الذين يخشون الله عز وجل ، وأكثر من ذِكر الله عز وجل. . يزهدْك في الدنيا ، واذكر الموت. . يهن عليك أمر الدنيا ، واشتقْ إلى الجنة. . يوفقك الله سبحانه وتعالىٰ لطاعته ، وأشفق من النار. . يهون الله عليك المصائب ، وأَحِبَّ أهل الجنة. . تكن معهم يوم القيامة ، وأَبغِض أهل المعاصي. . يحبك الله عز وجل ، وأَوْلِ أمرك تقوى الله عز وجل في السر والعلانية ، واخش الله عز وجل خشية من قد عَلِمَ أنه ميت ومبعوث ، ثم الحشر ، ثم الوقوف بين يدي الجبار جل جلاله ، وأنك محاسَب بأعمالك ، ثم المصير إما إلىٰ جنة ، وإما إلىٰ نار ، وارجُ رجاء من قد علم أنه يعفىٰ عنه أو يعاقبه الله سبحانه وتعالىٰ(1) .

ثم قال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : وكلام سفيان الثوري وأحواله وألفاظه ومواعظه تكثر وتتسع ، وفي دون ما ذكرناه فوائد لمن رُزق العمل ووفق له ، وللإمام أبي عبد الله سفيان من مسانيد الحديث ما لا يُضبَط كثرة ، سبق إلىٰ جمع حديثه الأئمة الماضون من أسلافنا وعلمائهم .

فمن مسانيد حديثه رحمه الله : ما رواه عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من موجبات المغفرة. . إدخالك السرور علىٰ أخيك المسلم ، وإشباع جوعته ، وتنفيس كربته »(2) .

وعنه عن إبراهيم بن مسلم البَطين ، عن أبي عبد الرحمـٰن السلمي ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال يوماً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتغير وجهه ، ثم قال : قريباً من ذا أو نحو ذا(3) .

ومن روايته عن إسماعيل بن خالد : عن قيس ابن أبي حازم ، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشرك أخفىٰ في أمتي من دبيب النمل على الصفا » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ؛ وكيف النجاة والمخرج ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا أعلمك شيئاً إذا قلتَه. . برئتَ من الشرك ؟ قل : اللهم ؛ إني

---

(1) الحلية (٧/ ٣٤ـ٨٥) .

(2) أخرجه الهيثمي في « زوائد الحارث » (٢/ ٨٥٧) .

(3) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) .

أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم ، وأعوذ بك أن أشرك بك وأنا لا أعلم ، وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم »[١] حديث غريب .

وعنه عن أفلح بن حميد ، عن القاسم قال : **كان اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة لهـٰؤلاء الناس . حديث غريب .**

وعنه عن إسرائيل ، عن شبيب ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عينان لا يريان النار : عين بكت في خلاء من خشية الله عز وجل ، وعين باتت تكلأ في سبيل الله سبحانه وتعالىٰ »[٢] حديث غريب .

وعنه عن منصور ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الجنة أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك »[٣] حديث غريب .

وعنه عن منصور ، عن ربعي ، عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيأتي علىٰ أمتي زمان لا يكون فيه شيء أعز من ثلاثة : أخ يستأنس به ، أو درهم من حلال ، أو سنة يُعمل بها »[٤] حديث غريب . انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٨٥-١٢٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال ابن مهدي : بات سفيان عندي ، فلما اشتد به الأمر . . جعل يبكي ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ؛ أراك كثير الذنوب ، فرفع شيئاً من الأرض ، وقال : والله ؛ لَذنوبي أهون عليَّ من ذا ، إني أخاف أن أُسلب الإيمان قبل أن أموت .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : إن ليلة مات سفيان توضأ تلك الليلة للصلاة ستين مرة ، فلما كان وجه السحر . . قال لي : يابن مهدي ؛ ما أشد الموت! ما أشد كرب الموت! فخرجت لأُعلم حماد بن سلمة وأصحابه ، فإذا هُمْ قد استقبلوني ، فقالوا : آجرك الله ، فقلت : من أين علمتم ذلك ؟ فقالوا : ما منا من أحد إلا أُتي البارحة في منامه ، فقيل له : ألا إن سفيان قد مات رحمه الله تعالىٰ .

وقال ابن أبجر : لما حضرت سفيان الوفاة . . قال : يابن أبجر ؛ قد نزل بي ما نزل بي

(١) أخرجه بنحوه المقدسي في « المختارة » (١/ ١٥٠) .
(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٢/ ٩٢) ، والترمذي (١٦٣٩) .
(٣) أخرجه البخاري (٦١٢٣) .
(٤) أخرجه بنحوه الديلمي (٢/ ٣٢٠) .

وما ترىٰ ، فانظر من يحضرني ، فأتيته بقوم فيهم حماد بن سلمة ، وكان حماد من أقربهم إلىٰ رأسه ، قال : فتنفس سفيان ، فقال له حماد : أبشر ، فقد نجوت مما كنت تخاف ، وتقدم علىٰ رب غفور ، فقال : يا أبا سلمة ؛ أترىٰ أن الله عز وجل يغفر لمثلي ؟ قال : إي والله الذي لا إلـٰه إلا هو ، قال : فكأنما سُرِّيَ عنه .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : رأيت سفيان الثوري في المنام ، فقلت : ما فعل الله عز وجل بك ؟ قال : لم يكن إلا أن وُضعت في اللحد حتىٰ وقفت بين يدي الله عز وجل ، قال : فحاسبني حساباً يسيراً ، ثم أمر بي إلى الجنة ، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حساً ولا حركة ؛ إذ سمعت قائلاً يقول : سفيان بن سعيد ؟ فقلت : سفيان بن سعيد ، فقال : أتحفظ أنك آثرت الله عز وجل علىٰ هواك يوماً ؟ قلت : إي والله ، قال : فأخذتني صواني النثار (١) من جميع نواحي الجنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٧٣-٧٤] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وفي حفظي من رواية أخرىٰ : أن سفيان رحمه الله لما رئي في المنام ، وقيل له : ما فعل الله عز وجل بك . . قال : أول قدم وضعته على الصراط ، والثاني في الجنة .

هنيئاً له رضي الله عنه ، وأرضاه ، وأكرم نزله ومثواه .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **صواني النِّثَار** : الصواني : هي الأواني ، والنِّثَار : ما نثر في حفلات السرور من حلوىٰ أو نقود ، والمعنىٰ : أنه استُقبل بكل فرح وسرور ، والله أعلم .

ومنهم إمامنا :

الإمام محمد بن إدريس الشافعي
رضي الله عنه وأرضاه

قال شيخ الإسلام في عصره الإمام محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي القرشي ، المطلبي ، الشافعي ، الحجازي المكي .

ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يلتقي معه في عبد مناف . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٤٤] .

قال مؤلفة محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : ابن عبد مناف اجتمع في الآباء ثمّ افترق في الأولاد ؛ فإنَّ القاضي أبا الطيب قدس الله روحه قال : الشافعي ابن عمٍّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، افترق من عبد مناف فزوّج المطلب ابنه هاشماً للشفاء بنت هاشم بن عبد مناف وولدت له عبد يزيد جدّ الشافعي .

وقد وَلَدَ الشافعيَّ هاشمان : هاشم بن المطلب وهاشم بن عبد مناف ، فهو ابن عمٍّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ؛ لأنَّ المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والشفاء بنت هاشم بن عبد مناف أخت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أسلم السائب مِنْ أَجداد الشافعي يوم بدر ، وكان صاحب راية بني هاشم . انتهىٰ .

وقال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : وقد أكثر العلماء رحمهم الله تعالىٰ من المصنفات في مناقب الشافعي وأحواله من المتقدمين والمتأخرين ؛ كداوود الظاهري والساجي وخلائق من المتقدمين ، وأما المتأخرون . . فكالدارقطني والآجري والرازي والصاحب ابن عباد والبيهقي ونصر المقدسي وخلائق لا يحصون ، وكتبهم في مناقبه مشهورة ، ومن أحسنها وأنفسها : كتاب البيهقي ، وهو مجلدان ضخمان ، اشتملا علىٰ

نفائس من كل فن ، استوعب فيه معظم أحواله ومناقبه بالأسانيد الصحيحة والدلائل الصريحة ، وكتابنا هـٰذا مبني على الاختصار ، فلا يليق به البسط بالتطويل والإكثار ، فأقتصر فيه ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ على الإشارة إلىٰ نبذ من تلك المقاصد ، والرمز إلىٰ جمل من تلك الكليات والمعاقد ، فأقول مستعيناً بالله تعالىٰ ، متوكلاً عليه ، مفوضاً أمري إليه :

الشافعي رحمه الله قرشي مطلبي بإجماع أهل النقل من جميع الطوائف ، وأمه أزدية ، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة في فضل قريش ، وانعقد الإجماع علىٰ تفضيلهم علىٰ جميع قبائل العرب وغيرهم .

وفي « الصحيحين » : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش »[1] .

وفي « صحيح مسلم » [١٨١٩] : عن جابر رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الناس تبع لقريش في الخير والشر » ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية . . خيارهم في الإسلام إذا فَقُهوا »[2] .

وفي « صحيح مسلم » [٢٢٧٦] أيضاً : عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفىٰ قريشاً من كنانة ، واصطفىٰ من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

وفي « صحيح البخاري » [٢٩٧١] : عن جبير بن مطعم رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد » .

وفي « الترمذي » [٣٩٣٧] : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأزد أُسْد الله تعالىٰ في الأرض ، يريد الناس أن يضعوهم ، ويأبى الله إلا أن يرفعهم ، وليأتين على الناس زمان يقول الرجل : يا ليتني كنت أزدياً ، يا ليت أمي كانت أزدية » ، قال الترمذي : وروي موقوفاً عن أنس ، وهو عندنا أصح .

---

(١) أخرجه الطيالسي (١/ ١٢٥) ، والحاكم (٤/ ٨٥) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٣/ ٤٦٧) ، والطبراني في « الأوسط » (٤/ ٢٦) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٣/ ١٢١) ، وقال المناوي في « تلخيص الحبير » (٣/ ٤٩) : قد جمعت طرقه في « جزء » مفرد عن نحو أربعين صحابياً ، وفي الباب : رواه البخاري عن أبي هريرة (٣٤٩٥) ، ومسلم (١٨١٨) ، بلفظ : « الناس تبع لقريش في هـٰذا الشأن ، مسلمهم لمسلمهم ، وكافرهم لكافرهم » .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٣٨) .

وفي « الترمذي » أيضاً [٣٩٣٦] : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الملك في قريش ، والقضاء في الأنصار ، والأذان في الحبشة ، والأمانة في الأزد » يعني : اليمن ، قال الترمذي : وروي موقوفاً علىٰ أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو أصح .

فصل

في مولد الشافعي رحمه الله ووفاته وذكر نبذة من أموره وحالاته

أجمعوا [علىٰ] أنه ولد في سنة خمسين ومئة ، وهي السنة التي توفي فيها أبو حنيفة رحمه الله ، وقيل : إنه اليوم الذي توفي فيه أبو حنيفة .

قال البيهقي : ولم يثبت اليوم .

ثم المشهور الذي عليه الجمهور : أن الشافعي ولد بغزة ، وقيل : بعسقلان ، وهُما من الأرض المقدسة التي بارك الله تعالىٰ فيها ؛ فإنهما علىٰ نحو ميلين من بيت المقدس ، ثم حُمل إلىٰ مكة وهو ابن سنتين ، وتوفي بمصر ، سنة أربع ومئتين ، وهو ابن أربع وخمسين سنة .

قال الربيع : توفي الشافعي ليلة الجمعة بعد المغرب وأنا عنده ، ودفن بعد العصر يوم الجمعة آخر يوم من رجب ، سنة أربع ومئتين ، وقبره رحمه الله بمصر ، عليه من الجلالة وله من الاحترام ما هو لائق بمنصب ذلك الإمام .

وقال الربيع : رأيت في النوم أن آدم عليه الصلاة والسلام قد مات ، فسألت عن ذلك ، فقيل : هـٰذا موت أعلم أهل الأرض ؛ لأن الله تعالىٰ قال ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ، فما كان إلا يسيراً ، فمات الشافعي رحمة الله عليه .

ورأىٰ غيره ليلة موت الشافعي رحمه الله قائلاً يقول : الليلة مات النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبح . . وجد الشافعي رحمه الله تعالىٰ قد مات ، وحزن الناس لموته الحزن الذي يوازي رَزِيَّتَهم[1] به .

ونشأ يتيماً في حجر أمه في قلة عيش وضيق حال .

---

(١) رَزِيَّتهم : أي علىٰ قدر مصيبتهم التي استشعروها بموته .

وكان في صباه يجالس العلماء ، ويكتب ما يستفيده في العظام ونحوها ؛ لعجزه عن الورق ، حتىٰ ملأ منها حِباباً[١] .

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري : كان الشافعي في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام العرب والأدب ، ثم أخذ في الفقه ، وكان سبب أخذه فيه : أنه كان يوماً يسير علىٰ دابة له ، وخلفه كاتب لأُبي ، فتمثل الشافعي رحمه الله بيت شعر ، فقرعه كاتب أُبي بسوط ، ثم قال له : مِثْلُك يَذهب بمروءته في مثل هـٰذا ؟! أين أنت من الفقه ؟! فهزه ذلك ، فقصد مجالسة مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة ، ثم قدم علينا ـ يعني المدينةَ ـ فلزم مالكاً رحمه الله تعالىٰ .

وعن الشافعي رحمه الله قال : كنت أنظر في الشعر ، فارتقيت عَقَبة[٢] بمنىٰ ؛ فإذا بصوت من خلفي : عليك بالفقه .

وعن الحميدي قال : قال الشافعي رحمه الله : خرجت أطلب النحو والأدب ، فلقيني مسلم بن خالد الزنجي ، فقال : يا فتىٰ ؛ مِن أين أنت ؟ قلت : من أهل مكة ، قال : أين منزلك ؟ قلت : شعب الخيف ، قال : من أي قبيلة ؟ قلت : من عبد مناف ، قال : بخ بخ! لقد شرفك الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالىٰ ، ألا جعلت فهمك هـٰذا في الفقه فكان أحسنَ بك ؟!

فلما أخذ الشافعي رحمه الله في الفقه وحصَّل منه علىٰ مسلم بن خالد الزنجي وغيره من أئمة مكة ما حصَّل . . رحل إلى المدينة قاصداً الأخذ عن الإمام مالك ، ورحلته مشهورة فيها تصنيف معروف مسموع .

وأكرمه الإمام مالك رحمه الله تعالىٰ ؛ لنسبه ، وعلمه ، وفهمه ، وعقله ، وأدبه ، بما هو لائق بهما .

وقرأ « الموطأ » علىٰ مالك حفظاً ، فأعجبته قراءته ، وكان مالك رحمه الله يستزيده من القراءة ؛ لإعجابه بقراءته .

ولازم مالكاً رحمه الله ، فقال له : اتق الله تعالىٰ ؛ فإنه سيكون لك شأن .

---

(١) **الحِباب** ـ جمع حُبٍّ ـ : الجرار الكبيرة .
(٢) **عَقَبة** : جبل .

وفي رواية أنه قال له : إن الله سبحانه وتعالىٰ قد ألقىٰ علىٰ قلبك نوراً ، فلا تطفئه بالمعصية .

وكان سن الشافعي حين أتىٰ إلىٰ مالك ثلاث عشرة سنة .

ثم ولي باليمن ، واشتُهر من حسن سيرته وحَمْلِه الناس على السُّنة والطرائق الجميلة بأشياء كثيرة معروفة .

ثم رحل إلى العراق ، وجَدَّ في الاشتغال بالعلم ، وناظر محمد بن الحسن وغيره ، ونشر علم الحديث ، وأقام مذهب أهله ونصر السُّنة .

وشاع ذِكره وفضله وتزايد تزايداً ملأ البقاع .

وطلب منه عبد الرحمـٰن بن مهدي إمام أهل الحديث في عصره أن يصنف كتاباً في أصول الفقه ، فصنف « الرسالة » ، فهي أول مصنف في أصول الفقه .

وكان عبد الرحمـٰن ويحيى بن سعيد القطان يعجبان بكتاب « الرسالة » ، وكذلك أهل عصرهما ومَن بعدهما .

وكان القطان وأحمد ابن حنبل يدعوان للشافعي في صلاتهما ؛ لِمَا رأَيا من اهتمامه بإقامة الدين ، ونصر السنة ، وفَهْمِها ، وإخراج الأحكام منها ، وأجمع الناس على استحسان « رسالته » ، وأقوالُ السلف رحمهم الله في ذلك مشهورة .

قال المزني : قرأت « الرسالة » خمس مئة مرة ، ما من مرة إلا واستفدت منها فائدة جديدة .

وقال المزني : أنا أنظر في « الرسالة » من خمسين سنة ، ما أعلم أني نظرت فيها مرة إلا استفدت منها شيئاً لم أكن أعرفه .

ولما اشتُهرت جلالة الشافعي رحمه الله بالعراق ، وسار ذِكره بالآفاق ، وأذعن لفضله الموافقون والمخالفون ، واعترف به العلماء أجمعون ، وعظمت عند الخلائق وولاة الأمور مرتبته ، واستقرت عندهم جلالته وإمامته ، وظهر من فضله ـ في مناظراته أهلَ العراق وغيرَهم ـ ما لم يظهر لسواه ، وأظهر من بيان القواعد ومهمات الأصول ما لا يعرف لمن عداه ، وامتُحن في مواطن كثيرة مما لا يحصىٰ من المسائل فكان جوابه فيها من الصواب والسداد بالمحل الأعلىٰ والمقام الأسنىٰ . عكف عليه للاستفادة منه الأصاغر والأكابر والأئمة والأخيار من أهل الحديث والفقه وغيرهم ، ورجع كثير منهم عن مذاهب كانوا عليها

إلىٰ مذهبه ، وتمسكوا بطريقته ؛ كأبي ثور ، وخلائق من الأئمة ، وترك كثير منهم الأخذ عن شيوخه وكبار الأئمة ؛ لانقطاعهم إلى الشافعي حين رأوا عنده ما لا يجدونه عند غيره .

وبارك الله الكريم له ولهم في تلك العلوم الباهرة ، والمحاسن المتظاهرة ، والخيرات المتكاثرة ، فلله الحمد والمِنة علىٰ ذلك ، وعلىٰ سائر نعمه التي لا تحصىٰ .

وصنف في العراق كتابه القديم ، ويسمىٰ : « كتاب الحجة » ، ويرويه عنه أربعة من كبار أصحابه العراقيين ، وهم : أحمد ابن حنبل ، وأبو ثور ، والزعفراني ، والكرابيسي ، وأَتقَنُهم له روايةً : الزعفراني .

ثم خرج الشافعي رحمه الله إلىٰ مصر ، سنة تسع وتسعين ومئة .

قال أبو عبد الله حرملة بن يحيىٰ : قدم الشافعي مصر سنة تسع وتسعين ومئة ، وقال الربيع : سنة مئتين ، ولعله قدم آخر سنة تسع جمعاً بين الروايتين .

وصنف كتبه الجديدة كلها بمصر وسار ذِكره في البلدان ، وقصده الناس من الشام واليمن والعراق وسائر النواحي والأقطار ؛ للتفقه عليه ، والرواية عنه ، وسماع كتبه منه ، وأخذها عنه ، وساد أهل مصر وغيرهم ، وابتكر كتباً لم يسبق إليها ، منها : أصول الفقه ، وكتاب القسامة ، وكتاب الجزية ، وكتاب قتال أهل البغي ، وغيرها .

قال الإمام أبو الحسين محمد بن عبد الله بن جعفرٍ الرازي في كتابه « مناقب الشافعي » : سمعت أبا عمرو أحمد بن علي بن الحسن البصري قال : سمعت محمد بن حمدان بن سفيان الطرائفي البغدادي يقول : سمعت الربيع بن سليمان يوماً وقد حط علىٰ باب داره سبع مئة راحلة في سماع كتب الشافعي رحمه الله .

فَصْلٌ

في تلخيص جملة من أحوال الشافعي رحمه الله

اعلم : أنه رحمه الله كان من أنواع المحاسن بالمحل الأعلىٰ والمقام الأسنىٰ ؛ لما جمعه الله الكريم له من الخيرات ، ووفقه له من جميل الصفات ، وسهله عليه من أنواع الكرامات .

فمن ذلك : شرف النسب الطاهر والعنصر الباهر ، واجتماعه هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم في النسب ، وذلك غاية الأمل والشرف ونهاية الحسب .

ومن ذلك : شرف المولد والمنشأ ؛ فإنه ولد بالأرض المقدسة ، ونشأ بمكة .

ومن ذلك : أنه جاء بعد أن مُهدت الكتب وصنفت ، وقُررت الأحكام ونُقحت ، فنظر في مذاهب المتقدمين ، وأخذ عن الأئمة المبرزين ، وناظر الحذاق والمتقنين ، فبحث في مذاهبهم ، وسَبَرَها ، وتحققها ، وخَبَرَها[1] ، فلخص منها طريقة جامعة للكتاب والسنة والإجماع والقياس ، ولم يقتصر علىٰ بعض ذلك كما وقع لغيره ، وتفرغ للاختيار والتكميل والتنقيح ، مع كمال قوته ، وعلو همته ، وبراعته في جميع أنواع الفنون ، واضطلاعه منها أشد اضطلاع ، وهو المبرز في الاستنباط من الكتاب والسنة ، البارع في معرفة الناسخ والمنسوخ والمجمل والمبين والخاص والعام ، وغيرها من تقاسيم الخطاب ، فلم يسبقه أحد إلىٰ فتح هـٰذا الباب ؛ لأنه **أول من صنف أصول الفقه** بلا خلاف ولا ارتياب .

وهو الذي لا يساوىٰ بل لا يدانىٰ في معرفة كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ورَدِّ بعضها إلىٰ بعض .

وهو الإمام الحجة في لغة العرب ، فقد اشتغل في العربية عشرين سنة ، مع بلاغته وفصاحته ، ومع أنه عربي اللسان والدار والعنصر ، وبها يُعرف الكتاب والسنة .

وقد قال عبد الملك بن هشام صاحب « المغازي » إمام أهل مصر في عصره في اللغة والنحو : الشافعي رحمه الله تعالىٰ حجة في اللغة .

وكان إذا شك في شيء من اللغة . . بعث إلى الشافعي فسأله عنه .

وقال أبو عبيد رحمه الله : كان الشافعي ممن يؤخذ عنه اللغة .

وقال أيوب بن سويد : خذوا عن الشافعي اللغة .

وقال أبو عثمان المازني : الشافعي عندنا حجة في النحو .

وقال الأصمعي : صححت أشعار الهذليين علىٰ شاب من قريش ، يقال له : محمد بن إدريس .

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : سمعت الشافعي يقول : أروي لثلاث مئة شاعر مجنون .

---

(١) خبرها : امتحنها .

وقال الزبير بن بكار : أخذتُ شعر هذيل ووقائعها وأيامها من عمي مصعب ، وقال : أخذتها من الشافعي حفظاً .

وأقاويل العلماء في هـٰذا كثير .

وهو الذي قلد المنن الجسيمة لأهل الآثار وحملة الأحاديث ونقلة الأخبار بتوقيفه إياهم علىٰ معاني السنن وتبيينها .

وقد قال محمد بن الحسن : إن تكلم أصحاب الحديث يوماً . . فبلسان الشافعي رحمه الله ؛ يعني : لِمَا وضع من كتبه .

وقال الحسن بن محمد الزعفراني : كان أصحاب الحديث رقوداً ، فأيقظهم الشافعي ، فتيقظوا .

وقال أحمد ابن حنبل رحمه الله : ما أحد مس محبرة ولا قلماً إلا وللشافعي في رقبته منَّة .

فهـٰذا قول إمام أصحاب الحديث وأهله ومن لا يختلف الناس في ورعه وفضله .

ومن ذلك : أن الشافعي رحمه الله مكنه الله سبحانه وتعالىٰ من أنواع العلوم حتىٰ عجز لديه المناظرون من الطوائف وأصحاب الفنون ، وأذعن الموافقون والمخالفون في المحافل الكثيرة المشهورة بتقدمه علىٰ أئمة عصره في البلدان ، وهـٰذه المناظرات موجودة في كتب العلماء ، وفي كتاب « الأم » للشافعي رحمه الله تعالىٰ من هـٰذه المناظرات جمل من العجائب والنفائس الجليلات والقواعد المستفادات ، وكم من مناظرة واقعة فيه يقطع كل من وقف عليها وأنصف أنه لم يُسبق إليها .

ومن ذلك : أنه تصدر في عصر الأئمة المبرزين للإفتاء والتدريس والتصنيف ، وقد أمره بذلك شيخه مسلم بن خالد الزَّنْجي إمام أهل مكة ومفتيها ، وقال له : أفتِ يا أبا عبد الله ؛ فقد ـ والله ـ آن لك أن تفتي ، وكان سنه إذ ذاك خمس عشرة سنة ، وأقاويل أهل عصره في هـٰذا كثيرة مشهورة .

وأُخِذ عن الشافعي العلم في سن الحداثة مع توفر العلماء في ذلك العصر ، وهـٰذا من الدلائل الصريحة لعُظم جلالته وعلو مرتبته ، وهـٰذا كله مشهور في مناقبه وغيرها .

ومن ذلك : شدة اجتهاده في نصرة الحديث واتِّباع السنة ، وجمعه في مذهبه بين أطراف الأدلة مع الإتقان والتحقيق ، والغوص التام على المعاني والتدقيق ، حتىٰ لقب حين قدم العراق بناصر الحديث .

وغَلب في عُرف العلماء المتقدمين والفقهاء الخراسانيين علىٰ متبعي مذهبه لقب أصحاب الحديث في القديم والحديث .

وقد رُوِّينا عن إمام الأئمة أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة ـ وكان من حِفْظ الحديث ومعرفة السنة بالدرجة العالية ـ أنه سئل : هل تَعرف سُنةً صحيحة لم يودِعْها الشافعي كتبه ؟ قال : لا ، ومع هـٰذا فاحتاط الشافعي رحمه الله ؛ لكون الإحاطة ممتنعة على البشر ، فقال ما هو ثابت عنه من أوجه من وصيته بالعمل بالحديث الصحيح وترك قوله المخالف للنص الثابت الصريح .

وقد امتثل أصحابنا رحمهم الله تعالىٰ وصيته ، وعملوا بها في مسائل كثيرة ، وقد أوضحت ذلك في مقدمة « شرح المهَذب » .

ومن ذلك : تمسكه بالأحاديث الصحيحة ، وإعراضه عن الأخبار الواهية والضعيفة ، ولا أعلم أحداً من الفقهاء اعتنىٰ في الاحتجاج بالتمييز بين الصحيح والضعيف كاعتنائه ، ولا قريباً منه ، وهـٰذا واضح جلي في كتبه ، وإن كان أكثر أصحابه لم يسلكوا طريقته في هـٰذا .

ومن ذلك : أخذه بالاحتياط في مسائل العبادات ، وسلوك طرائق الورع والسخاء والزهادة ، وهـٰذا من خُلُقه وسيرته مشهور .

وكان رحمه الله بالمحل الأعلىٰ من متانة الدين ، وهـٰذا مقطوع لمعرفته عند الموافقين والمخالفين .

وليس يصح في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النهارُ إلىٰ دليلِ

وأما سخاؤه وشجاعته وكمال عقله مع براعته : فإنه مما اشترك في معرفته الخاص والعام ، فلا أستدل عليه لشهرته .

ومن ذلك : ما جاء في الحديث المشهور : أن عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً(١) ،

---

(١) أخرج الطيالسي (١/ ٣٩) : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبوا قريشاً ؛ فإن عالم قريش يملأ الأرض علماً ، اللهم ؛ إنك أذقت أولها عذاباً ، فأذق آخرها نوالاً » .

وحمله العلماء المتقدمون والمتأخرون على الشافعي ، واستدلوا له بأنه لم يُنقل عن الصحابة رضي الله عنهم إلا مسائل معدودة ؛ إذ كانت فتاويهم مقصورة على الوقائع ، بل كانوا ينهون عن السؤال عما لم يقع ، وكانت هممهم مصروفة إلىٰ جهاد الكفار لإعلاء كلمة الإسلام وإلىٰ مجاهدة النفوس بالعبادة ، فلم يتفرغوا للتصنيف ، وكذلك التابعون لم يصنفوا ، وأما من جاء بعدهم وصنف الكتب . . فلم يكن فيهم قرشي يتصف بهـٰذه الصفة قبل الشافعي ولا بعدَه إلا هو .

وقد قال الساجي في كتابه المشهور في « اختلاف العلماء » : إنما بدأت بالشافعي رحمه الله قبل جميع الفقهاء وقدمته عليهم ـ وإن كان فيهم من هو أقدم منه ـ اتباعاً للسنة ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قدموا قريشاً ، وتعلموا من قريش »[١] .

وقال الإمام أبو نعيم عبد الملك محمد بن عدي الاستراباذي صاحب الربيع بن سليمان المرادي : في هـٰذا الحديث علامة بينة ، إذا تأمله الناظر المميز . . علم أن المراد به رجل من علماء هـٰذه الأمة من قريش ، ظهر علمه ، وانتشر في البلاد ذِكره ، وكتب كما تكتب المصاحف ، ودرسه المشايخ والشبان في مجالسهم ، وأجروا أقواله في مجالس الحكام والأمراء والقراء وأهل الآثار وغيرهم ، قال : وهـٰذه صفة لا نعلمها في أحد غير الشافعي ، قال : فهو عالم قريش الذي دوَّن العلم ، وشرح الأصول والفروع ، ومهد القواعد .

وقال البيهقي بعد روايته كلام أبي نعيم : وإلىٰ هـٰذا ذهب أحمد ابن حنبل في تأويل الخبر .

ومن ذلك : مصنفات الشافعي رحمه الله في الأصول والفروع التي لم يُسبق إليها كثرة وحسناً ، وهي كثيرة مشهورة كـ « الأم » في نحو خمسة عشر مجلداً[٢] ، وجامعَي المزني « الكبير » و« الصغير » ، و« مختصريه » ، و« مختصر الربيع » و« البويطي » ، وكتاب « حرملة » ، وكتاب « الحجة » وهو القديم ، و« الرسالة الجديدة » ، و« القديمة » ، و« الأمالي » ، و« الإملاء » ، وغير ذلك مما هو معروف ، وقد جمعها البيهقي في « مناقب الشافعي » .

قال القاضي الإمام أبو محمد الحسين بن محمد المروزي في خطبة تعليقه : قيل : إن الشافعي رحمه الله صنف مئة وثلاثة عشر كتاباً في التفسير والفقه والأدب وغير ذلك .

وأما حُسنها : فأمر مدرك بمطالعتها ، فلا يتمارىٰ فيه موافق ولا مخالف .

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٣/ ٢٠٤) .

(٢) في نسخة : (خمسة مجلدات) .

وأما كتب أصحابه التي هي شروح لنصوصه ومخرجة علىٰ أصوله مفهومة من قواعده. . فلا يحصرها إلا الله تعالىٰ ، مع عُظْم فوائدها ، وكثرة عوائدها ، وكبر حجمها ، وحسن تدوينها ونظمها ؛ كتعليق الشيخ أبي حامد الاسفراييني وصاحبيه القاضي أبي الطيب الطبري ، والماوردي صاحب « الحاوي » ، و« نهاية المطلب » لإمام الحرمين ، وغيره مما هو معروف ، وكل هـٰذا مصرِّح بغزارة علمه ، وجزالة كلامه ، وبلاغته ، وبراعة فهمه ، وصحة نيته ، وحسن طويته .

وقد نقل عنه في صحة نيته نقول كثيرة مشهورة ، وكفىٰ بالاستقراء في ذلك دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً .

قال الساجي في كتابه « الاختلاف » : سمعت الربيع يقول : سمعت الشافعي يقول : وددت أن الخلق تعلموا هـٰذا العلم علىٰ ألاَّ يُنسب إليَّ منه حرف . وهـٰذا إسناد لا نماري في صحته .

وقال الشافعي رحمه الله : وددت أني إذا ناظرت أحداً أن يُظهر الله تعالى الحق علىٰ يديه . ونظائر هـٰذا كثير مشهور .

ومن ذلك : مبالغته في الشفقة على المتعلمين ، ونصيحته لله تعالىٰ وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وذلك هو الدِّين كما صح عن سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

وهـٰذا الذي ذكرته من أحواله وإن كان كله مشهوراً فلا بأس بالإشارة إليه ؛ ليعرفه من لم يقف عليه .

فَصْلٌ

في نوادر من حكم الشافعي رحمه الله

قال : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة .

وقال : من أراد الدنيا. . فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة. . فعليه بالعلم .

وقال : ما تُقُرِّب إلى الله تعالىٰ بشيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم .

وقال : ما أفلح في العلم. . إلا من طلبه في القلة ، ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر عليَّ .

وقال : لا يطلب أحد هـٰذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولـٰكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلم وتواضع النفس . . أفلح .

وقال : تفقه قبل أن تَرْأَس ، فإذا رَأَسْتَ . . فلا سبيل إلى التفقه .

وقال : من طلب علماً . . فليدقق ؛ لئلا يضيع دقيق العلم .

وقال الشافعي رحمه الله : من لا يحب العلم . . لا خير فيه ، ولا يكن بينك وبينه صداقة ولا معرفة .

وقال : زينة العلماء التوفيق للعمل ، وحليتهم حسن الخلق ، وجمالهم كرم النفس .

وقال : زينة المعلم الورع والحلم .

وقال : لا عيب بالعلماء أقبحُ مِن رغبتهم فيما زهدهم الله تعالىٰ فيه ، ومِن زهدهم فيما رغبهم الله تعالىٰ فيه .

وقال : ليس العلم ما حُفظ ؛ العلم ما نفع .

وقال : فقر العلماء اختيار ، وفقر الجهال اضطرار .

وقال : المِراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن .

وقال : الناس في غفلة عن هـٰذه السورة : ﴿ وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ .

وكان قد جزَّأ الليل ثلاثة أجزاء ، الثلث الأول يكتب ، والثاني يصلي ، والثالث ينام .

وقال الربيع : نمت في منزل الشافعي رحمه الله ليالي ، فلم يكن ينام من الليل إلا يسيراً .

وقال بحر بن نصر : ما رأيت ولا سمعت كان في عصر الشافعي أتقىٰ لله عز وجل ولا أورع ولا أحسن صوتاً بالقرآن منه .

وقال الحميدي : كان الشافعي رحمه الله يختم في كل يوم ختمة .

وقال حرملة : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : وددت أن كل علم أعلمه أؤجر عليه ولا يحمدوني .

وقال أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالىٰ : كان الشافعي رحمه الله قد جمع الله تعالىٰ فيه كل خير .

وقال : ما كذبت قط ، ولا حلفت بالله تعالىٰ صادقاً ولا كاذباً ، وما تركت غُسل الجمعة في برد ولا سفر ولا غيره .

وقال : ما شبعت منذ ستة عشر سنة إلا شبعة واحدة طرحتها من ساعتي ، وفي رواية : من عشرين سنة .

وقال : من لم تُعِزَّه التقوىٰ . . فلا عِزَّ له .

وقال : ما فزعت من الفقر قط .

وقال : طلب فضول الدنيا عقوبة عاقب الله تعالىٰ بها أهل التوحيد .

وقيل للشافعي : ما لَكَ تدمن إمساك العصا ولست بضعيف ؟ فقال : لأذكر أني مسافر من الدنيا .

وقال : من شهد الضعف من نفسه . . نال الاستقامة .

وقال : من غلبته شدة الشهوة للدنيا . . لزمته العبودية لأهلها ، ومن رضي بالقنوع . . زال عنه الخضوع .

وقال : خير الدنيا والآخرة في خمس خصال : غنى النفس ، وكف الأذىٰ ، وكسب الحلال ، ولباس التقوىٰ ، والثقة بالله تعالىٰ علىٰ كل حال .

وقال للربيع : عليك بالزهد .

وقال : أنفع الذخائر التقوىٰ ، وأضرها العدوان .

وقال : من أحب أن يفتح الله قلبه وينوره . . فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه ، ويجتنب المعاصي ، ويكون له ورد من الأعمال فيما بينه وبين الله تعالىٰ .

وفي رواية : فعليه بالخلوة ، وقلة الأكل ، وترك مخالطة السفهاء ، وبغض أهل العلم الذين لا يريدون بعلمهم إلا الدنيا ، وليس معهم إنصاف ولا أدب .

وقال : يا ربيع ؛ لا تتكلم فيما لا يعنيك ؛ فإنك إذا تكلمت بالكلمة . . ملَكَتْك ولم تملكها .

وقال ليونس بن عبد الأعلىٰ : لو اجتهدت كل الجهد علىٰ أن ترضي الناس كلهم . . فلا سبيل إليه ، فأخلص عملك ونيتك لله عز وجل .

وقال : لا يعرف الرياء إلا المخلصون .

وقال : **لو أُوصي بشيء لأعقلِ الناس . . صرف إلى الزهاد .**

وقال : سياسة الناس أشد من سياسة الدواب .

وقال : العاقل : مَن عَقَلَه عَقْلُه عن كل مذموم .

وقال : لو علمت أن شرب الماء البارد ينقص من مروءتي . . ما شربته ، ولو كنت اليوم ممن يقول الشعر . . لرثيت المروءة .

وقال : للمروءة أربعة أركان : حسن الخلق ، والسخاء ، والتواضع ، والنسك .

وقال : المروءة : عفة الجوارح عما لا يعنيها .

وقال : أصحاب المروءات في جهد .

وقال : من أحب أن يختم الله تعالىٰ له بالخير . . فليحسن الظن بالناس .

وقال : لا يكمل الرجل في الدنيا إلا بأربع خصال : الديانة ، والأمانة ، والصيانة ، والرزانة .

وقال : أقمت أربعين سنة أسأل إخواني الذين تزوجوا عن أحوالهم في تزوجهم ، فما منهم من أحد قال إنه رأىٰ خيراً .

وقال : ليس بأخيك مَن احتجْتَ إلىٰ مداراته .

وقال : مَن صدق في أُخوَّة أخيه . . قَبِل علله ، وسد خلله ، وغفر زلله .

وقال : مِن علامة الصديق : أن يكون لصديق صديقه صديقاً .

وقال : ليس سرور يعدل صحبة الإخوان ، ولا غم يعدل فراقهم .

وقال : لا تقصِّر في حق أخيك اعتماداً علىٰ مودته .

وقال : لا تبذل وجهك إلىٰ من يهون عليه ردك .

وقال : مَن برَّك . . فقد أوثقك ، ومن جفاك . . فقد أطلقك .

وقال : من نَمَّ لك . . نَمَّ عليك ، و[دع] من إذا أرضيته . . قال فيك ما ليس فيك ، وإذا أغضبته . . قال فيك ما ليس فيك .

وقال : الكيِّس العاقل : هو الفطن المتغافل .

وقال : من وعظ أخاه سراً . . فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية . . فقد فضحه وشانه .

وقال : من سام بنفسه فوق ما يساوي . . رده الله تعالىٰ إلىٰ قيمته .

وقال : الفتوة حلية الأحرار .

وقال : من تزين بباطل . . هتك ستره .

وقال : التواضع من أخلاق الكرام ، والتكبر من شيم اللئام .

وقال : التواضع يورث المحبة ، والقناعة تورث الراحة .

وقال : أرفع الناس قدراً : من لا يرىٰ قدره ، وأكثرهم فضلاً : من لا يرىٰ فضله .

وقال : إذا كثرت الحوائج . . فابدأ بأهمها .

وقال : من كتم سره . . كانت الخِيَرة في يده .

وقال : الشفاعات زكاة المروءات .

وقال : ما ضُحِك من خطأِ رجلٍ . . إلا ثبَّت [الله] صوابه في قلبه .

وقال : أَبْيَنُ ما في الإنسان ضعفه ، فمن شهد الضعف من نفسه . . نال الاستقامة مع الله تعالىٰ .

وقال : قال رجل لأُبي بن كعب رضي الله عنه : عظني ، فقال : وَاخِ الإخوان علىٰ قدر تقواهم ، ولا تبذل علمك لمن لا يرغب فيه ، ولا تغبط الحي إلا بما تغبط به الميت .

وقال : من صدق الله تعالىٰ . . نجا ، ومن أشفق علىٰ دينه . . سلم من الردىٰ ، ومن زهد في الدنيا . . قرت عيناه بما يرىٰ من ثواب الله تعالىٰ غداً .

وقال : كن في الدنيا زاهداً ، وفي الآخرة راغباً ، واْصدُقِ الله تعالىٰ في جميع أمورك . . تنج غداً مع الناجين .

وقال : من كان فيه ثلاث خصال . . فقد أكمل الإيمان : يأمر بالمعروف ويأتمر به ، وينهىٰ عن المنكر وينتهي عنه ، ويحافظ علىٰ حدود الله تعالىٰ .

وقال لأخ له في الله تعالىٰ يعظه ويخوفه : يا أخي ؛ إن الدنيا دَحَضٌ[1] مزلة ، ودارٌ مُذِلَّة ، عُمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملُها على الفرقة موقوف ،

---

(١) الدَّحَضُ : الزَّلَقُ .

وغناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار منها إعسار ، والإعسار فيها يسار ، فافزع إلى الله تعالىٰ ، وارض برزق الله عز وجل ، ولا تستلف من دار بقائك في دار فنائك ؛ فإن حياتك فيها فيءِ زائل ، وجدار مائل ، أكثر من عملك ، وقصِّر من أملك .

وقال : أرجىٰ حديث للمسلمين . . حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة . . دفع [الله] إلىٰ كل مسلم يهودياً أو نصرانياً ، وقيل : يا مسلم ؛ هـٰذا فداؤك من النار » رواه مسلم في « صحيحه » [٢٧٦٧] .

وقال الشافعي رحمه الله : الانبساط إلى الناس . . مجلبة لقرناء السوء ، والانقباض عنهم . . مكسبة للعداوة ، فكن بين المنقبض والمنبسط .

وقال : ما أكرمتُ أحداً فوق قدره . . إلا نقص من مقداري عنده بقدر ما زدت في إكرامه .

وقال : لا وفاء لعبد ، ولا شكر للئيم ، ولا صنيعة عند نذل .

وقال : صحبة من لا يخاف العار . . عار يوم القيامة .

وقال : عاشر كرام الناس . . تَعش كريماً ، ولا تعاشر اللئام . . فتنسب إلى اللؤم .

وقال له رجل : أوصني ، فقال : إن الله تعالىٰ خلقك حراً ، فكن كما خلقك .

وقال : من تسمَّع بأذنه . . صار حاكياً ، ومن أصغىٰ بقلبه . . صار واعياً ، ومن وَعَظ بفِعله . . كان هادياً .

وقال : من الذل حضور مجلس العلم بلا نسخة ، وعبور الجسر بلا قطعة ، ودخول الحمام بلا سطل ، وتذلل الشريف للدني لينال منه شيئاً ، وتذلل الرجل للمرأة لينال من مالها شيئاً ، ومداراة الأحمق ؛ فإن مداراتَه غاية لا تدرك .

وقال : من ولي القضاء فلم يفتقر . . فهو لص .

وقال : لا بأس على الفقيه أن يكون معه سفيه يسافه به .

وقال : إذا أخطأتك الصنيعة إلىٰ من يتقي الله عز وجل . . فاصطنعها إلىٰ من يتقي العار .

* * *

فَصْلٌ

في أحرف من المنقولات في سخائه رحمه الله

اعلم : أن سخاء الشافعي مما اشتُهر حتىٰ لا يتشكك فيه من له أدنىٰ أُنس بعلم أو مخالطة الناس ، ولـٰكني أنثر منه أحرفاً .

قال الحميدي رحمه الله : قدم الشافعي رحمه الله من صنعاء إلىٰ مكة بعشرة آلاف دينار ، فضرب خباء خارجاً من مكة ، فكان الناس يأتونه ، فما برح حتىٰ فرقها كلها .

وقال عمرو بن سواد : كان الشافعي رحمه الله أسخى الناس بالدينار والدرهم والطعام .

وقال البويطي : قدم الشافعي مصر وكانت زُبيدة ترسل إليه برزم الثياب والوشي[1] ، فيقسمها بين الناس .

وقال الربيع : كان الشافعي راكباً علىٰ حمار ، فمر علىٰ سوق الحدادين ، فسقط سوطه من يده ، فوثب إنسان ، فمسحه بكفيه ، وناوله إياه ، فقال لغلامه : ادفع إليه الدنانير التي معك ، فما أدري كانت سبعة أو تسعة .

وقال : كنا يوماً مع الشافعي رحمه الله ، فانقطع شسع نعله ، فأصلحه له رجل ، فقال : يا ربيع ؛ أمعك من نفقتنا شيء ؟ قلت : نعم ، قال : كم ؟ قلت : سبعة دنانير ، قال : ادفعها إليه .

وقال أبو سعيد : كان الشافعي رحمه الله من أجود الناس وأسخاهم كفّاً ، كان يشتري الجارية الصَّنَاعَ التي تطبخ وتعمل الحلوىٰ ، ويقول لنا : تَشَهَّوْا ما أحببتم ، فقد اشتريت جارية تحسن أن تعمل ما تريدون ، فيقول بعض أصحابنا : اعملي اليوم كذا ، وكنا نحن الذين نأمرها .

وقال الربيع : كان الشافعي رحمه الله إن سأله إنسان شيئاً . يَحْمارُّ وجهه حياء من السائل ، ويبادر بإعطائه رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه .

* * *

---

(١) أي : كانت ترسل إليه بأنواع الثياب ، الموشية وغيرها .

فَصْلٌ

في شهادة أئمة الإسلام المتقدمين فمَن بعدهم للشافعي رحمه الله بالتقدم في العلم ، واعترافهم له به ، وحسن ثنائهم عليه ، وجميل دعائهم له ، ووصفهم له بالصفات الجميلة والخلال الحميدة

وهٰذا الباب ربما يتسع جداً ، لٰكنا نرمز إلىٰ أحرف منه ؛ تنبيهاً بها علىٰ ما سواها .

فمِن ذلك : ما قال له شيخه الإمام مالك بن أنس رحمه الله : إن الله عز وجل قد ألقىٰ علىٰ قلبك نوراً ، فلا تطفئه بالمعصية .

وقال الشافعي رحمه الله : لما رحلت إلىٰ مالك فسمع كلامي . . نظر إلي ساعة ـ وكانت لمالك رحمه الله فراسة ـ قال : ما اسمك ؟ قلت : محمد ، قال : يا محمد ؛ اتق الله ، واجتنب المعاصي ؛ فإنه سيكون لك شأن عظيم ، فقلت له : نَعم ، وكرامة ، ثم قال : إذا كان تجيء . . فجىء بمن يقرأ لك « الموطأ » فقلت : إني أَقرؤُهُ ظاهراً ، فغدوت إليه وابتدأت ، فكلما تهيبت مالكاً وأردت أن أقطع . . أعجبته قراءتي وإعرابي ، فيقول : يا فتىٰ ؛ زد ، حتىٰ قرأته عليه في أيام يسيرة . . . ثم ذكر خروجه إلى اليمن .

وفي رواية : فقرأت عليه ، وربما قال لي في شيء قد مر : أعد حديث كذا ، فأعيده حفظاً ، فكان يعجبه ذلك ، فقال : أنت تحب[1] أن تكون قاضياً ، وفي هٰذه الرواية : أتيته وأنا ابن ثلاث عشرة سنة .

وقال شيخه سفيان بن عيينة : وقد قرىء عليه حديثٌ في الرقائق ، فغشي على الشافعي ، فقيل : قد مات الشافعي ، فقال سفيان رحمه الله : إن كان قد مات . . فقد مات أفضل أهل زمانه .

وقال ابن بنت الشافعي : سمعت أبي وعمي يقولان : كان ابن عيينة إذا جاءه شيء من التفسير والفتيا . . التفت إلى الشافعي ، وقال : سلوا هٰذا .

وقال علي بن المَديني : عرفت الشافعي عند ابن عيينة ، وكان ابن عيينة يعظمه ويبجله ، وفسر الشافعي بحضرة سفيان بن عيينة حديثاً أشكل علىٰ سفيان ، فقال له سفيان : جزاك الله خيراً ، ما يجيئُنا منك . . إلا ما نحب .

وقال الحميدي صاحب سفيان : وكان سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد وسعيد بن سالم

---

(١) كذا في النسخ ، وفي « تهذيب الأسماء واللغات » : (يجب) .

وعبد الحميد بن عبد العزيز وشيوخ مكة يصفون الشافعي ، ويعرفونه من صغره مقدَّماً عندهم بالذكاء والعقل والصيانة ، ويقولون : لم نعرف له صبوة .

وقال الحميدي : سمعت مسلم بن خالد يقول للشافعي : أَفْتِ ؛ فقد ـ والله ـ آن لك أن تفتي ، والشافعي ابن خمس عشرة سنة .

وقال يحيى بن سعيد القطان إمام المحدثين في زمانه : أنا أدعو الله تعالىٰ للشافعي في صلاتي من أربع سنين .

وقال القطان حين عُرض عليه كتاب « الرسالة » للشافعي : ما رأيت أعقل وأفقه منه .

وقال ابن مهدي المقدم في عصره في علمي الحديث والفقه حين جاءته « رسالة الشافعي » رحمه الله ـ وكان قد طلب من الشافعي أن يصنف كتاب « الرسالة » ـ فلما وقف عليها . . أثنىٰ عليه ثناء جميلاً ، وأُعجب بـ « الرسالة » إعجاباً شديداً ، وقال : ماأصلي صلاة إلا وأنا أدعو للشافعي .

وقال أبو حسان الرازي : ما رأيت محمد بن الحسن يعظم أحداً من أهل العلم تعظيمه للشافعي .

وقال أيوب بن سويد الرملي ـ وهو أحد شيوخ الشافعي رحمه الله ، ومات قبل الشافعي بإحدىٰ عشرة سنة ـ : ما ظننت أني أعيش حتىٰ أرىٰ مثل الشافعي .

وقال البويطي : قال يحيى بن حسان : ما رأيت مثل الشافعي . وكان شديد المحبة للشافعي ، قدم مصر ، وقال : إنما جئت للسلام على الشافعي .

وقال محمد بن علي المديني : قال لي أبي : لا تترك للشافعي حرفاً . . إلا تكتبه .

وقال يحيى بن مَعين ـ وقد سئل : عمن تُكتَبُ كتب الشافعي ؟ فقال : عن الربيع .

وقال قتيبة بن سعيد : مات الثوري ومات الورع ، ومات الشافعي وماتت السنن ، وبموت أحمد ابن حنبل تظهر البدع .

وقال قتيبة : لو وصلتني كتب الشافعي . . لكتبتها ، ما رأت عيناي أكيس منه .

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري : ما رأيت أحداً أعلم بأيام الناس من الشافعي .

وقال أحمد ابن حنبل : إذا جاءتني المسألة وليس فيها أثر . . فإنما أُفتي فيها بقول الشافعي رحمه الله .

وقال أحمد أيضاً : ما تكلم أحد في العلم أقل خطأً ولا أشد أخذاً بسُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم من الشافعي .

وقال أحمد ابن حنبل رحمه الله وقد سئل عن الشافعي رحمه الله : لقد مَنَّ الله به علينا ، لقد كنا تعلمنا كلام القوم ، وكتبنا كتبهم ، حتىٰ قدم علينا الشافعي ، فلما سمعنا كلامه. . علمنا أنه أعلم من غيره ، وقد جالسناه الأيام والليالي ، فما رأينا منه إلا كل خير رحمه الله تعالىٰ .

وقال الزعفراني : ما حضرت للشافعي مجلساً قط. . إلا وجدت أحمد ابن حنبل فيه .

وقال صالح بن أحمد ابن حنبل : ركب الشافعي رحمه الله حماره ، فسار أبي يمشي إلىٰ جانبه وهو يذاكره ، فبلغ ذلك يحيى بن معين ، فبعث إلىٰ أبي في ذلك ، فبعث إليه أبي : إنك لو كنت في الجانب الآخر من الحمار. . لكان أنفعَ لك .

وقال الفضل بن زياد : قال أحمد ابن حنبل : هـٰذا الذي ترون كله أو عامته من الشافعي ، ما بِتُّ منذ أربعين سنة ـ أو قال : ثلاثين سنة ـ إلا وأنا أدعو الله تعالىٰ للشافعي وأستغفر له .

وفي رواية غير الفضل : إني لأدعو للشافعي في صلاتي من أربعين سنة ، أقول : اللهم ؛ اغفر لي ، ولوالدي ، ولمحمد بن إدريس الشافعي ، فما كان فيهم أتبعَ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منه .

وفي رواية : ما أعلم أحداً أعظمَ مِنَّةً على الإسلام في زمن الشافعي من الشافعي .

وقال أحمد : ما أحد مس بيده محبرة ولا قلماً. . إلا وللشافعي في عنقه مِنَّة .

وقال محفوظ ابن أبي توبة : كنا بمكة وأحمد ابن حنبل جالس عند الشافعي ، فقيل له : إن سفيان بن عيينة يحدِّث ، فقم بنا إليه ، فقال : إن هـٰذا يفوت وذاك لا يفوت وجلس عند الشافعي .

وقال أحمد لإسحاق بن راهويه : تعال حتىٰ أريك رجلاً لم تر عيناك مثله .

وقال أحمد ابن حنبل : كان الفقه قفلاً علىٰ أهله حتىٰ فتحه الله تعالىٰ بالشافعي .

وقال أحمد لمحمد بن مسلم ابن وارة حين قدم من مصر : أكتبتَ كتب الشافعي ؟ قال : لا ، قال : فرَّطْتَ .

وقال أحمد : لما قدم علينا الشافعي من صنعاء . . صيَّرَنا على المحجة البيضاء ، وكانت أقفيتنا لأصحاب أبي حنيفة حتىٰ رأينا الشافعي ، وكان أفقه الناس في كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا يستغني ـ أو لا يشبع ـ صاحبُ حديث عن كتب الشافعي .

وقال : ما كان أصحاب الحديث يعرفون معاني أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبيَّنها لهم الشافعي .

وقال إسحاق بن راهويه : الشافعي إمام العلماء ، وما تكلم أحد بالرأي . . إلا والشافعي أقل خطأً منه .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : ما رأيت رجلاً أعقل ولا أورع ولا أفصح ولا أنبل رأياً من الشافعي .

وقال الربيع : جاءني أبو عبيد ، فأخذ كتب الشافعي ؛ يعني : ليكتبها .

وقال يحيى بن أكثم : ما رأيت أحداً أعقل من الشافعي ، وما رأيت رجلاً أحسن استنباطاً منه .

وقال أبو ثور : كنت أنا وإسحاق بن راهويه والحسين الكرابيسي وجماعة من العراقيين علىٰ بدعة ، فما تركنا بدعتنا حتىٰ جاء الشافعي ، وما رأينا مثل الشافعي ، ولا رأى الشافعي مثل نفسه .

وقال الزعفراني : أنا راوية كتب الشافعي القديمة ، وما رأيت مثل الشافعي أفضل ولا أكرم ولا أتقىٰ ولا أعلم منه ، وما رأيته لَحَن قط ، وكان يقرأ عليه من كل شعر[1] ، فيعرفه ، وما حمل أحد محبرة . . إلا وللشافعي عليه مِنَّة ، ما كان الشافعي إلا بحراً .

وقال الكرابيسي : ما فهمنا استنباط أكثر السنن . . إلا بتعليم الشافعي إيانا .

وقال الكرابيسي أيضاً : ما كنا ندري ما الكتاب والسنة والإجماع حتىٰ سمعناه من الشافعي ، وما رأيت مثل الشافعي ، وما رأى الشافعي مثل نفسه ، وما رأيت أفصح منه ، ولا أَعْرَفَ ، ولا رأيت مجلساً قط أنبل من مجلس الشافعي ، كان يحضره أهل الحديث وأهل الفقه وأهل الشعر ، وكان يأتيه كبراء أهل الفقه والشعر ، فكل يتعلم منه .

---

(١) في نسخة : (شيء) .

وقال أبو بكر الحميدي المكي : قال أحمد ابن حنبل ونحن بمكة : الزم الشافعي ، فلزمته حتىٰ خرجت معه إلىٰ مصر .

وقال الحميدي : كنا نريد أن نَرُدَّ علىٰ أهل الرأي ، فلا نحسن ، حتىٰ جاءنا الشافعي رحمه الله ، ففتح لنا الأقفال .

وقال الحميدي : سيد علماء زمانه الشافعيُّ .

وكان الحميدي إذا جرىٰ عنده ذِكر الشافعي . . يقول : حدثنا سيد الفقهاء الشافعي .

وقال الحميدي : كان الشافعي ربما ألقىٰ عليَّ وعلىٰ غيري المسألة ، ويقول : أيكما أصاب . . فله دينار .

وقال هارون بن سعيد الأيْلي أحد شيوخ مسلم في « صحيحه » : ما رأيت مثل الشافعي .

وقيل لأحمد بن صالح : أجالست الشافعي ؟ فقال : سبحان الله! أكنت أقصِّر في مجالسته ؟!

وقال علي بن معبد المصري : ما عرفنا الحديث حتىٰ جالسنا الشافعي .

وقال المزني : قدم الشافعي مصر وبها عبد الملك بن هشام النحوي صاحب « المغازي » ، وكان علامة أهل مصر في العربية والشعر ، فذهب إلى الشافعي ، ثم قال : ما ظننت أن الله تعالىٰ خلق مثل الشافعي ، ثم اتخذ قول الشافعي حجة في اللغة .

وقال الربيع : قال البويطي : ما عرفنا قدر الشافعي حتىٰ رأيت أهل العراق يذكرونه ويصفونه بوصف ما نحسن نصفه ، فقد كان حذاق العراق بالفقه والنظر ، وكل صنف من أهل الحديث وأهل العربية والنظار يقولون : إنهم لم يروا مثل الشافعي رحمه الله .

قال الربيع : وكان البويطي يقول : قد رأيت الناس ، فو الله ؛ ما رأيت مثل الشافعي ، ولا رأيت أحداً يشبهه ولا يقاربه في صنف من العلوم ، والله ؛ إن الشافعي كان عندي أورع من كل من رأيته ينسب إلى الورع ، ومِن كثرة ما كنت أرى البويطي يتأسف على الشافعي وما فاته ، قلت له : يا أبا يعقوب ؛ قد كان الشافعي محباً لك ، يقدمك علىٰ أصحابه ، وكنت أراك شديد الهيبة له ، فما منعك أن تسأله عن كل ما تريد ؟ فقال لي : قد رأيت الشافعي ولينه وتواضعه ، والله ؛ ما كلمته في شيء قط . . إلا وأنا كالمقْشَعِرِّ من هيبته ، وقد رأيت ابن هرمز وكل من كان في زمن الشافعي كيف كانوا يهابونه ، وقد رأيت هيبة السلاطين له .

وقال محمد بن عبد الحكم : ما رأيت مثل الشافعي ، ولا هو رأىٰ مثله .

وقال محمد بن عبد الحكم : ليس فلان عندنا بفقيه ؛ لأنه يجمع أقوال الناس ، ويختار بعضها ، قيل : مَنِ الفقيه ؟ قال : الذي يستنبط أصلاً من كتاب أو سنة لم يُسبق إليه ، ثم يشعب من الأصل مئة شعب ، قيل له : فمن يقوَىٰ علىٰ ذلك ؟ قال : محمد بن إدريس .

وقال علي الرازي : حج بشر المريسي ، فلما قدم . . قيل له : من لقيت بمكة ؟ قال : رأيت رجلاً إن كان منكم . . لن تُغلَبوا ، وإن كان عليكم . . فتأهبوا وخذوا حذركم ، وهو محمد بن إدريس الشافعي .

وقال بشر المريسي : مع الشافعي رحمه الله نصف عقل أهل الدنيا .

وقال : ما رأيت أعقل من الشافعي ولا أمهر منه .

وقال : رأيت بمكة فتىً ، لئن بقي . . ليكونن رجلَ الدنيا .

وقال المزني : لو كنا نفهم عن الشافعي كل ما قاله . . لأتيناكم بصنوف العلم ، أي علم كان يذهب على الشافعي ؟! ولـٰكن لم نكن نفهم ، فقصرنا وعاجله الموت .

وقال الربيع : لو رأيتم الشافعي . . لقلتم : ما هـٰذه كتبه ، كان ـ والله ـ لسانه أكبر من كتبه .

وقال حرملة : كان أبي قد رتب معي كاتباً ، وقال للكاتب : اكتب كل ما تكلم به الشافعي .

وقال داوود بن علي الظاهري : كان الشافعي سراجاً لحملة الآثار ونقلة الأخبار ، من تعلق بشيء من بيانه . . صار محجاجاً ، ومن فضائل الشافعي رحمه الله : حفظه لكتاب الله عز وجل ، وجمعه للسنن ، وآثار الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين ، ومعرفته بأقسام الخطاب ، وتقديمه ذلك على الرأي ، وكشفه عن تمويه المخالفين ، وما أبطله من زيوفهم ، وقذف به علىٰ باطلهم فدمغه ، ثم ما بَيَّن من الحق الذي سهل له بتوفيق الله سبحانه وتعالىٰ معرفته حتى استطال ، ثم ما مَنَّ الله تعالىٰ به عليه من منطقه الذي لا يدانىٰ فيه ، وما وقاه من شح نفسه ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ، وسماحته ، وجوده ، وجميل سيرته ، وورعه ، ونسبه . . . ثم ساق الكلام إلىٰ أن قال : وما علمت أحداً كان في عصره أَمَنَّ على الإسلام منه ؛ لما نشر من الحق ، ودفع من الباطل ، وأظهر من الحجج ، وعَلَّم من الخير رحمة الله تعالىٰ عليه ورضوانه ، وشكر له

جميع ذلك ، وجمع بيننا وبينه في جنته مع جميع الأحبة ، إنه لطيف خبير .

وقال إبراهيم الحربي : قدم الشافعي بغداد وفي الجامع الغربي عشرون حلقة لأصحاب الرأي ، فلما كانت الجمعة . . لم يثبت منها إلا ثلاث حلق أو أربع .

وقال هلال بن العلاء : أصحاب الحديث عيال على الشافعي ؛ فتح لهم الأقفال .

وأقوال السلف في مدحه غير منحصرة .

فصل

فيمن روىٰ عنهم الشافعي من علماء الحجاز واليمن ومصر والعراق

وهم جمع غفير :

الأول : الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس إمام المدينة ، ومالك بن أنس عن ربيعة عن أنس ، ونافع عن ابن عمر رضي الله عنهم ، كلاهما عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم .

والثالث : أبو خالد مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة وإمام العلماء ، ومسلم عن أبي الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وابن جريج عن عطاء ابن أبي رباح ، وعطاء عن عبد الله بن العباس .

وقد جمعهم البيهقي في كتاب « المناقب » .

وأما الذين سمعوا منه وتفقهوا عليه . . فمنهم خلائق لا يحصون من أعلام الأئمة وغيرهم ؛ كأحمد ابن حنبل ، وأبي ثور ، والحميدي ، والبويطي ، والمزني ، وغيرهم .

ولما حضرت الشافعيَّ الوفاة . . أوصىٰ أن يكون القاعد في حلقته والخليفة بعده البويطي وهو أبو يعقوب يوسف بن يحيىٰ .

فصل

كان الشافعي رحمه الله يخضب لحيته بالحناء حمراء قانئة ، وتارة بصفرة ؛ اتباعاً للسنة ، وكان طويلاً ، سائل الخدين ، قليل لحم الوجه ، خفيف شعر العارضين ، طويل العنق ، طويل القصب ، آدم ، حسن الصوت ، حسن السمت ، عظيم العقل ، حسن الوجه ، حسن الخلق ، مهيباً ، فصيحاً ، إذا أخرج لسانه . . بلغ أنفه ، وكان كثير الأسقام .

وقولهم : (طويل القصب) : قال الأصمعي : هو عظم العضد والفخذ والساق ، وكل عظم فيه قصبة ، وقولهم : (سائل الخدين) أي : رقيقهما ، مستطيلهما ، والقانئة ـ بالهمز ـ : هي شدة الحمرة .

وقال يونس بن عبد الأعلىٰ : ما رأيت أحداً لقي من السقم ما لقي الشافعي رحمه الله ، وسبب هـٰذا ـ والله أعلم ـ : لُطف الله تعالىٰ به ومعاملتُه بمعاملة الأولياء ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشرَ الأنبياء أشد بلاء ثم الأمثل فالأمثل »[1] .

وقال الربيع : كان الشافعي رحمه الله حسن الوجه ، حسن الخلق ، مهيباً ، محبباً لكل من كان بمصر في وقته من الفقهاء والنبلاء والأمراء ، كلهم يجل الشافعي ويعظمه ، وكان مقتصداً في لباسه ، ويتختم في يساره ، نقش خاتمه : كفىٰ بالله ثقة لمحمد بن إدريس .

وكان مجلسه مصوناً ، وإذا خيض في مجلسه في الكلام . . نهىٰ عنه .

وكان ذا معرفة تامة بالطب والرمي ، حتىٰ كان يصيب عشرة من عشرة .

وقال الربيع : كان الشافعي أشجع الناس ، وأفرسَهم ، وكان يأخذ بأذنه وأذن الفرس والفرس تعدو ، وكان ذا معرفة بالفراسة ، وكان مع حسن خلقه مهيباً .

وقال الربيع ـ وهو صاحبه ـ : والله ؛ ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي ؛ هيبة له .

وقال : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام قبل حُلمي ، فقال لي : « يا غلام » فقلت : لبيك يارسول الله ، فقال : « ممن أنت ؟ » فقلت : من رهطك ، قال : « ادن مني » ، فدنوت منه ، ففتح فمي ، فأمرَّ من ريقه المبارك صلى الله عليه وسلم علىٰ لساني وفمي وشفتي ، وقال : « امض بارك الله تعالىٰ فيك » ، فما أذكر أني لحنت في حديث بعد ذلك ولا شِعر .

وعن أبي الحسن علي بن أحمد الدينوري الزاهد قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : يا رسول الله ؛ بقول مَن آخذ ؟ فأشار إلىٰ علي بن أبي طالب ، قال : « خذ بيد هـٰذا فأت به ابن عمنا الشافعي ؛ ليعمل بمذهبه ، فيُرشَد ويبلغ الجنة » .

وكان يقول بعد ذلك : الشافعي بين العلماء كالبدر بين الكواكب .

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم (١/ ٩٩) ، وابن حبان (٢٩٠٠) .

وقال الشافعي رحمه الله : ما ناظرت أحداً قط على الغلبة .

وفي رواية : ما ناظرت أحداً قط إلا على النصيحة .

وقال الربيع : رأيت الشافعي رحمه الله ما لا أحصي ، وكان إذا انصرف . . اتشح برداء ، ووضعت له منارة قصيرة ، وأتكأ علىٰ وسادة وتحته مُضَرِيَّتان ، ويأخذ القلم ، فلا يزال يكتب .

وقال الربيع : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : رأيت في المنام كأن آتياً أتاني ، فحمل كتبي ، فبثها في الهواء ، فسألت بعض العابرين ، فقال : إن صدقت رؤياك . . لم يبق بلد من بلاد الإسلام . . إلا ودخل علمك فيه .

وقال حرملة : رأيت الشافعي يقرىء الناس في المسجد الحرام وهو ابن ثلاث عشرة سنة .

وقال بحر بن نصر : كنا إذا أردنا أن نبكي . . قمنا إلى الشافعي ، فإذا أتيناه . . استفتح القراءة حتىٰ يتساقطوا ويكثر عجيجهم بالبكاء ، فإذا رأىٰ ذلك . . أمسك عن القراءة ؛ لحسن صوته .

وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .

وقال : أحب أن تكثر الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الإمام الحافظ محمد بن مسلم ابن وارة ـ بالراء المهملة ـ : لما مات أبو زرعة الرازي . . رأيته في المنام ، فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : قال لي الجبار سبحانه وتعالىٰ : ألحقوه بأبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله ، الأول : مالك ، والثاني : الشافعي ، والثالث : أحمد ابن حنبل .

وقال أبو عبد الله محمد بن يعقوب الهاشمي : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال : « الشافعي في الجنة ، أو من أهل الجنة » .

وقال أبو العباس : رأيت عبد الله بن صالح في المنام وذكرت الشافعي ، فأشار عبد الله بيده نحو السماء ، وقال : ليس ثَمَّ أكبر منه .

ثم قال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : هـٰذا آخر ما يتعلق بترجمة الإمام الشافعي رحمه الله ، وهي وإن كان فيها طول بالنسبة إلىٰ هـٰذا الكتاب . . فهي مختصرة جداً

بالنسبة إلىٰ ما ذكره البيهقي وغيره من المتقدمين والمتأخرين في مناقبه ، وبالنسبة إلىٰ ما أحفظه من أحواله التي اطلعت عليها في غير كتب المناقب مفرقة في كتب العلماء ، ولـٰكن نبهت بما ذكرته علىٰ ما حذفته ، رضي الله عنه ، وأرضاه ، وأكرم نزله ومثواه ، وجمع بيننا وبينه مع أحبابنا في دار كرامته ، ونفعني بانتسابي إليه وانتمائي إلىٰ صحبته ، وحشرنا في زمرته ، والمرء مع من أحب ، وأنا من أهل محبته . انتهىٰ [من أول الترجمة إلىٰ هنا من « التهذيب » ١/ ٤٤ـ٦٧] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ بإسناده : عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للقرشي مِثْلا قوة الرجلين من غيرهم » ، فسأل ابنَ شهاب سائلٌ : ما معنىٰ ذلك ؟ قال : نُبْلُ الرأي(١) .

وعن علي رضي الله عنه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجحفة ، فقال : « أيها الناس ؛ ألست أولىٰ بكم من أنفسكم ؟ » قالوا : بلىٰ ، قال : « فإني كائن لكم على الحوض فرطاً ، وسائلكم عن اثنتين : عن القرآن ، وعن عترتي ، لا تَقَدَّموا قريشاً فتهلكوا ، ولا تَخَلَّفوا عنها فتضلوا ، قوة الرجل من قريش قوة الرجلين ، لاتفاقهوا قريشاً ؛ فَهُمْ أفقه منكم ، لولا أن تبطر قريش . . لأخبرتها بما لها عند الله ، خيار قريش . . خيار الناس ، وشرار قريش . . خير شرار الناس »(٢) .

وعن عطاء ، عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ اهد قريشاً ؛ فإن علم العالم منهم يسع طباق الأرض ، اللهم ؛ أذقت أولها نكالاً ، فأذق آخرها نوالاً » .

وعن مجاهد في قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ قال : يُقال : ممن هـٰذا الرجل ؟ فيقال : من العرب ، فيقال : من أيهم ؟ فيقال : من قريش .

وعن سعيد بن المسيِّب ، عن جبير بن مطعم قال : لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوي القربىٰ بين بني هاشم وبني المطلب . . أتيت أنا وعثمان بن عفان ، فقلنا : يا رسول الله ؛ هـٰؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله تعالىٰ منهم ، أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم ومنعتنا ، وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة ؟ فقال

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان (٦٢٦٥) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (١/ ٣٨٦) .
(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة (٣٢٣٨١) .

صلى الله عليه وسلم : « إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام ، وإنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد » ثم شبك بين أصابعه[1] .

وقال الشافعي : ما نظرت في « موطأ مالك » . . إلا ازددت فَهْماً .

وقال : ما كتاب بعد كتاب الله عز وجل أنفع من « الموطأ » .

وقال : لولا مالك وابن عيينة . . لذهب علم الحجاز .

وقال : إذا جاء الأثر . . فمالك النجم .

وقال الشافعي رحمه الله : جئت إلىٰ مصعب بن عبد الله ، فكلمته أن يكلم بعض أهلنا ، فيعطيَني شيئاً من الدنيا ؛ فإنه كان بي من الفقر والفاقة ما الله به عليم ، فقال لي مصعب : أتيتُ فلاناً ، فكلمته ، فقال لي : كيف تكلمني في رجل كان منا فخالفنا ؟ يعني : لأجل قراءتي علىٰ مالك ، ثم أعطاني مصعب مئة دينار ، وقال لي : إن هارون الرشيد قد كتب إلي أن أصير إلى اليمن قاضياً ، فاخرج معنا لعل الله تعالىٰ يعوضك ، فخرج قاضياً على اليمن وخرجت معه ، فلما صرنا باليمن وجالسنا الناس . . كتب مطرف بن مازن إلىٰ هارون الرشيد : إن أردت اليمن لا يَفسُد عليك ولا يخرج من يديك . . فأخرج عنه محمد بن إدريس ، وذكر أقواماً من الطالبيين ، قال : فبعث إلىٰ حماد البربري ، فأُوثقت بالحديد حتىٰ قدمنا علىٰ هارون بالرقة ، قال الشافعي : وقدمت ومعي خمسون ديناراً ، فأنفقتها علىٰ كتب محمد بن الحسن .

وسمعته غير مرة يقول : إنْ تابعكم الشافعي . . فما عليكم من حجازي كلفة ، فجلست إليه وأنا من أشد الناس همّاً وغمّاً ، فلما جلست إليه . . أقبل محمد بن الحسن يطعن على الحُكْم بالشاهد واليمين ، فسألته عن ذلك ، قال : لأنه مخالف لكتاب الله تعالىٰ ، فقلت له : فكل خبر يأتيك مخالف لكتاب الله عز وجل أتسقطه ؟ فقال : كذا يجب ، فقلت له : ما تقول في الوصية للوالدين ؟ فتفكر ساعة ، فقال : لا تجوز ، قال : فقلت له : هـٰذا مخالف لكتاب الله تعالىٰ ، لِمَ قلت : إنه لا يجوز ؟ قال : لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا وصية لوارث »[2] .

قال : فقلت له : أخبرني عن الشاهدين حتم من الله عز وجل ، فإن قلت : إنه حتم

---

(١) أخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (٣/ ٤٥) .

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي (٢١٢٠) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٦/ ٢١٢) .

من الله عز وجل . . فكان ينبغي لك أن تقول : إذا زنىٰ فشهد عليه شاهدان : إن كان محصَناً . . رجمته ، وإن كان غير محصَن . . جلدته ، وإن قلت : إنه ليس حتماً من الله عز وجل . . فنزِّل الأحكام منازلها ؛ في الزنا أربعة ، وفي غيره شاهدان ، وفي غيره رجل وامرأتان .

ثم قلت له : ما تقول في الرجل والمرأة إذا اختلفا في متاع البيت ؟ فقال : أصحابي يقولون فيه : ما كان للرجال . . فهو للرجال ، وما كان للنساء . . فهو للنساء ، فقلت : أبكتاب الله تعالىٰ هـٰذا ، أم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

وما تقول في الرجلين إذا اختلفا في الحائط ؟ فقال : في قول أصحابنا : إذا لم يكن له بينة . . ننظر إلى العقد من أين هو البناء ؟ فأَحْكُم لصاحبه ، فقلت : أبكتاب الله تعالىٰ هـٰذا ، أم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟!

وما تقول في رجلين بينهما خص ، فيختلفان ؟ لمن نحكم إذا لم يكن لهما بينة ؟ قال : أنظر إلىٰ معاقده من أي وجه هو فأَحْكُم له ، قلت : أبكتاب الله تعالىٰ هـٰذا ، أم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟!

وما تقول في ولادة المرأة إذا لم يكن بحضرتها إلا امرأة واحدة وهي القابلة ، فقال : الشهادة جائزة بشهادة القابلة وحدها ، فقلت : أبكتاب الله تعالىٰ ، أم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟!

ثم قلت : من كانت هـٰذه أحكامه . . فلا يطعن علىٰ غيره ، ثم قلت : أتعجب من حُكمٍ حَكَمَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم وقضىٰ به شريح ؟!

قال الشافعي : وكان خلفي رجل يكتب ألفاظي وأنا لا أعلم ، فأدخل إلىٰ هارون وقرأ عليه ، قال : فقال هرثمة بن أعين : كان الخليفة متكئاً فاستوىٰ جالساً ، فقال : اقرأ عليَّ ثانياً ، فلما قرأ . . قال هارون : صدق الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، صدق الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، صدق الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، « تَعَلَّمُوا من قريش ولا تُعَلِّمُوها ، قدموا قريشاً ولا تقدموها » ، أَما عَلم محمد بن الحسن أنه إذا ناظر رجلاً من قريش . . أنه يقطعه ، سائلاً كان أو مجيباً ؟! وما أنكر أن محمد بن إدريس أعلم من محمد بن الحسن ، قال الشافعي : وأمر لي بخمس مئة دينار ، فخرج بها هرثمة ،

وأشار إلي ، فتبعته ، فحدثني بالقصة ، فقال : قد أمر لك بخمس مئة دينار ، وقد أضفنا إليها مثلها ، قال الشافعي رحمه الله : فما كنت ملكت قبلها ألف دينار .

وقال الحميدي : عن الشافعي قال : كنت يتيماً في حجر أمي ، ولم يكن معها ما تعطي المعلم ، وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام ، فلما ختمت القرآن. . دخلت المسجد ، فكنت أجالس العلماء ، فأحفظ الحديث أو المسألة ، وكان منزلنا بمكة في شعب الخَيف ، فكنت أنظر إلى العظم يلوح ، فأكتب فيه الحديث والمسألة ، وكانت لنا جرة قديمة ، فإذا امتلأ العظم. . تركته في الجرة .

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم : سمعت الشافعي يقول : قال لي محمد بن الحسن : صاحبنا أعلم ، أم صاحبكم ؟ يعني مالكاً ، قلت : تريد المكابرة أو الإنصاف ؟ قال : بلِ الإنصاف ، قال : قلت : فما الحجة عندكم ؟ قال : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، فقلت : أنشدك الله ؛ أصاحبنا أعلم بكتاب الله عز وجل ، أم صاحبكم ؟ قال : إذ أنشدتني بالله ، فصاحبكم ، قلت : فصاحبنا أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم صاحبكم ؟ قال : صاحبكم ، قلت : فصاحبنا أعلم بأقاويل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم صاحبكم ؟ قال : صاحبكم ، قلت : فهل بقي شيء غير القياس ؟ قال : لا ، قلت : فنحن نراعي القياس أكثر مما تراعونه ، وإنما يقاس على الأصول ، فيُعرف القياس منها .

وقال الشافعي : قال لي محمد بن الحسن : أقمت علىٰ مالك بن أنس ثلاث سنين وكسوراً .

وكان يقول : إنه سمع منه لفظاً أكثر من سبع مئة حديث .

قال : وكان إذا حدثهم عن مالك. . امتلأ منزله وكثر الناس عليه ، حتىٰ يضيق عليهم الموضع ، وإذا حدث عن غير مالك. . لم يجئه إلا اليسير .

وكان يقول : ما أعلم أحداً أسوَأَ ثناءً علىٰ أصحابكم منكم ، إذا حدثتكم عن مالك. . ملأتم عليَّ الموضع ، وإذا حدثتكم عن أصحابكم. . إنما تأتون متكارهين .

وقال الشافعي : كنت أكتب العلم في العظام وعلى الخرق ، وأطرحه في الزير حتى امتلأ[1] .

---

(١) الزِّير : الخابية والحُب ـ الذي يجعل فيه الماء ـ من الفخار .

وكنت يتيماً ولم يكن لأمي شيء ، فولي عم لي ناحية اليمن على القضاء ، فخرجت معه ، فلما قدمت من اليمن . . أتيت مسلم بن خالد الزنجي ، فسلمت عليه ، فلم يرد عليَّ السلام ، وقال : أحدهم يجيئنا حتىٰ إذا ظننا أنه يصلح . . أفسد نفسه ، قال : فسرت إلىٰ سفيان بن عيينة ، فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام ، وقال : قد بلغني يا أبا عبد الله ما كنت فيه ، وما بلغني إلا خيراً ، فلا تَعُدْ .

وقال الشافعي : قال لي محمد بن الحسن : ما تقول في رجل غصب من رجل عموداً وبنىٰ عليه قصراً ، فجاء المستحِق ، فأقام شاهدين ، واستحقه ؟ قلت : يخير بين العمود وبين قيمته ، فإن اختار العمود . . هُدم القصر ، وأُخرج العمود ، ورُدَّ إلىٰ صاحبه .

قال : فما تقول فيمن غصب خشبة وأدرجها في سفينة ، ثم لجَّجَ بها في البحر ، فجاء صاحبها ، فاستحقها ؟ قلت : يقدم إلىٰ أقرب المراسي ، فيخير بين القيمة والخشبة ، فإن أخذ قيمتها ، وإلا . . أخرجت من السفينة ، وردت علىٰ صاحبها .

قال : فما تقول فيمن غصب خيط إبريسم[1] فخاط به جرحه ، واستحقه صاحبه ؟ قلت : له قيمته .

فقال : الله أكبر ، نقضت قولك ، وقال أصحابه : الله أكبر ، نقضت قولك يا حجازي .

فقلت : علىٰ رِسْلك لا تعجل ، أرأيت لو أن صاحب القصر أراد أن يهدم قصره ويرد العمود إلىٰ صاحبه ولا يعطيه قيمته ، أكان للسلطان أن يمنعه من ذلك ؟ قال : لا .

فقلت : أرأيت لو أن صاحب السفينة أراد أن ينقض سفينته ويرد الخشبة إلىٰ صاحبها ، أكان للسلطان أن يمنعه ؟ قال : لا .

قلت : أرأيت الخيط الذي خاط به جرح نفسه لو أراد أن يخرج الخيط ويرده علىٰ صاحبه ، أكان للسلطان أن يمنعه ؟ قال : نعم .

قلت : فكيف تقيس ما هو محظور بما ليس بمحظور ؟

وفي رواية : هـٰذا مباح له ، وهـٰذا محظور عليه ، فأنىٰ يقاس هـٰذا بهـٰذا ؟

قال : فكيف تصنع بمن في السفينة ؟ قال : آمره أن يقرب إلىٰ أقرب المراسي السليمة

---

(١) الإبريسم : حرير .

إلىٰ موضع لا يهلك فيه ولا أصحابه ، فأنزع اللوح ، وأدفعه إلىٰ أصحابه ، وأقول له : أصلح سفينتك واذهب .

قال : أليس قد قال صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار »[١] ؟ ، فقلت : مَنْ ضارَّه ؟ هو ضر نفسه .

ثم قلت له : فما تقول في رجل غصب من رجل جارية ، فأولدها عشرة من الولد ، كلهم قد قرأ القرآن ، وخطب على المنابر ، وقضىٰ بين المسلمين ، فأثبت صاحب الجارية شاهدين عدلين أن هٰذا غصب هٰذه الجارية وأولدها هٰؤلاء الأولاد ، بِمَ كنت تحكم ؟ قال : أحكم بأولاده أرقاء لصاحب الجارية ، وأرد الجارية عليه .

فقلت له : نشدتك بالله ؛ أيهما أعظم ضرراً ؛ إن رددت أولاده أرقاء ، أو إن قلعت الساجة ؟[٢]

وقال هارون الرشيد يوماً للفضل بن الربيع وهو واقف علىٰ رأسه : يا فضل ؛ عليَّ بهٰذا الحجازي وهو كالمغضب ، فخرجت[٣] وبي من الغم والحزن لمحبتي للشافعي لفصاحته وبراعته وبلاغته وعقله ، فجئت إلىٰ بابه ، فأمرت من دق عليه وكان يصلي ، فتنحنح ، فوقفت حتىٰ فرغ من صلاته وفتح الباب ، فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : سمعاً وطاعة ، وجدد الوضوء ، وارتدىٰ ، وخرج يمشي ، حتى انتهينا إلى الدار ، فمن شفقتي عليه قلت له : يا أبا عبد الله ؛ قف حتىٰ أستأذن لك ، فدخلت علىٰ أمير المؤمنين ، فإذا هو علىٰ حالته كالمغضب ، فقال : أين الحجازي ؟ قلت : عند الستر ، فجئت إليه ، فقام يمشي رويداً وهو يحرك شفتيه ، فلما أبصر به أمير المؤمنين . قام إليه ، واستقبله ، وقبل بين عينيه ، وهش ، وقال : لِمَ لا تزورنا وتكون عندنا ؟ ثم أجلسه وتحادثا ساعة ، ثم أمر له ببدرة[٤] دنانير ، فقال : لا أَرَب لي فيه ، قال : فأومأت إليه ، فسكت ، وأمرني أمير المؤمنين أن أرده إلىٰ منزله ، فخرجت والبدرة تُحمل معه ، فجعل يعطي يمنة ويسرة ، حتىٰ رجع إلىٰ منزله وما معه دينار ، فلما دخل منزله . قلت له : قد عرفت محبتي لك ، فبالذي سكَّنَ غضبَ أمير المؤمنين إلاَّ عَلَّمتني ما كنت تقول في دخولك معي عليه ، فقال : حدثني

---

(١) أخرجه بنحوه مالك (١٤٢٩) ، والحاكم (٢/ ٦٦) .

(٢) **الساج** : خشب تصنع منه السفن يجلب من الهند ، واحدُه : ساجة .

(٣) أي : الفضل بن الربيع .

(٤) **البدرة** : كيس فيه دنانير .

مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ يوم الأحزاب : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ ، ثم قال : « وأنا أشهد بما شهد به الله ، وأستودع الله هـٰذه الشهادة ، وهـٰذه الشهادة وديعة لي عند الله عز وجل يؤديها إليَّ يوم القيامة »[1] .

اللهم ؛ إني أعوذ بنور قدسك ، وعظيم ركنك ، وعظمة طهارتك ، وبركة جلالك ، من كل آفة وعاهة ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير . اللهم ؛ أنت عياذي فبك أعوذ ، وأنت غياثي فبك أستغيث ، وأنت ملاذي فبك ألوذ ، يا من ذلَّت له رقاب الجبابرة ، وخضعت له أعناق الفراعنة ؛ أعوذ بك من خزيك ، ومن كشف سترك ، ونسيان ذكرك ، والانصراف عن شكرك ، أنا في حرزك وكنفك ليلي ونهاري ، ونومي وقراري ، وظعني وأسفاري ، وحياتي ومماتي ، ذكرك شعاري ، وثناؤك دثاري ، لا إلـٰه إلا أنت سبحانك وبحمدك ، تشريفاً لعظمتك ، وتنزيهاً لسبحات وجهك ، أجرني من خزيك ، ومن شر عبادك ، وقني سيئات عذابك ، وجللني بسترك ، واضرب علي سرادقات حفظك ، وأدخلني في حفظك وعنايتك يا أرحم الراحمين .

قال الفضل : فحفظت هـٰذا الدعاء ، فلم يجرؤ عليَّ الرشيد بعد ذلك ، فهـٰذا أول بركة الشافعي رحمه الله .

وفي رواية أخرىٰ : فكتبته ، وجعلته في قبائي ، وكان الرشيد كثير الغضب عليَّ ، فكان كلما همَّ أن يغضب . . أحركها في وجهه ، فيرضىٰ . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٦٤ـ٨٠] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : إن الحافظ أبا نعيم ـ قدس الله روحه ـ روىٰ بإسناده من طرق كثيرة : أن الشافعي رحمه الله لما حُمل من اليمن إلى العراق ، وأدخل إلىٰ هارون الرشيد . . وقعت له في مجلسه مناظرة عظيمة مع محمد بن الحسن وأبي يوسف القاضي ، وتلك المناظرة مشهورة ، مشتملة علىٰ نفائس وفوائد جليلة بعد ظهوره علىٰ خصمه ، غير أن هـٰذه الرواية التي رواها الحافظ أبو نعيم هنا وقع فيها تحريف كثير ، وكأنه ـ والله أعلم ـ من الناسخين ، أو سبق قلم ؛ فإن الحافظ أبا نعيم ـ قدس الله روحه ـ أملى الكتاب إملاء ، فهو معذور ، فما وقع في روايته تحريف كونه ذكر أن أبا يوسف القاضي ناظر

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٩٩) .

الشافعي في مجلس هارون الرشيد ببغداد وهـٰذا وَهَمٌ ظاهر[1] ؛ فإن أبا يوسف توفي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ سنة اثنتين وثمانين ومئة ، وقدوم الشافعي بغداد أول مرة سنة ثلاث وثمانين ومئة باتفاق المؤرخين .

وأما المرة الثانية . . فكانت في خلافة المأمون ، فلم يلق الشافعي أبا يوسف رحمهما الله في بغداد ، وإنما كانت مناظرة الشافعي في مجلس الخليفة هارون الرشيد مع محمد بن الحسن رحمهما الله تعالىٰ ، وها أنا أذكر منها ما عساه يصح إن شاء الله تعالىٰ .

فمن ذلك : أن الشافعي رحمه الله لما دخل إلى الرشيد وكان محمد بن الحسن حاضراً . . أمرهما ـ مع لَبَقه[2] ـ بالمناظرة ، فتناظرا طويلاً ، وفي كل ذلك المجلس يظهر الشافعي عليه ، فالتفت بعد ذلك الخليفة إلى الشافعي وقد أعجبه إعجاباً شديداً ، وأقبل [عليه] إقبالاً كثيراً ، وقال له : يابن إدريس ؛ كيف بصرك بكتاب الله تعالىٰ ؟ فقال له الشافعي : عن أي كتاب الله تسألني ، فإن الله تبارك وتعالىٰ أنزل ثلاثة وسبعين كتاباً علىٰ خمسة أنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأنزل كتاب موعظة لنبي وحده ، فكان سادساً ، أولهم : آدم عليه الصلاة والسلام ، وعليه أنزل ثلاثين صحيفة كلها أمثال ، وأنزل علىٰ أخنوخ ـ وهو إدريس ـ عليه الصلاة والسلام ست عَشْرة صحيفة كلها حكم وعلم الملكوت الأعلىٰ ، وأنزل علىٰ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثمانيَ صحف كلها حِكَم مفصلة فيها فرائض ونذر ، وأنزل علىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام التوراة كلها تخويف وموعظة ، وأنزل علىٰ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام الإنجيل ليبين لبني إسرائيل ما اختلفوا فيه من التوراة ، وأنزل علىٰ داوود عليه الصلاة والسلام كتاباً كله دعاء وموعظة لنفسه ، وأنزل علىٰ سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم الفرقان ، وجمع فيه سائر الكتب ، فقال تعالىٰ : ﴿ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ ﴿ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ .

فقال له الرشيد : قد أحسنت في تفصيلك ، لـٰكن قصدي كتاب الله المنزل علىٰ سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي دعانا إلىٰ قبوله ، وأمرنا بالعمل بمحكمه ، والإيمان بمتشابهه ، فقال الشافعي : عن أيِّ آية تسألني ، عن محكمه ، أم عن متشابهه ؟ أم تقديمه ، أم تأخيره ؟ أم ناسخه ، أم منسوخه ؟ أم عن ما ثبت حكمه وارتفعت تلاوته ، أم عن ما ثبتت تلاوته وارتفع حكمه ؟ أم عن ما ضُرب به مثلاً ، أم عن ما ضرب الله به اعتباراً ؟

---

(١) في نسخة : (وهـٰذا ليس بصحيح باتفاق المؤرخين) .

(٢) رجل لَبِق : أي حاذق رفيق بكل عمل .

أم عن ما أحصىٰ فيه من أفعال الأمم السالفة ، أم عن ما قصَدَنا الله تعالىٰ به من فعلهم تحذيراً ؟ فما زال يَعُدُّ حتىٰ عد له الشافعي ثلاثةً وسبعين حكماً في القرآن .

فقال له الرشيد : ويحك يا شافعي! أفكل هٰذا يحيط به علمك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ المحنة على القائل كالنار على الفضة ، تُخرج جودتها من رداءتها .

فقال الرشيد : ما أحسن أن أعيد ما قلت ، فأسألك عنه بعد هٰذا المجلس إن شاء الله تعالىٰ ، فكيف بصرك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال الشافعي : إني لأعرف منها ما خرج علىٰ وجه الإيجاب ، لا يجوز تركه كما لا يجوز ترك ما أوجبه الله تعالىٰ في القرآن ، وما خرج علىٰ وجه التأديب ، وما خرج علىٰ وجه الندب ، وما خرج علىٰ وجه الخاص لا يشترك فيه العام ، وما خرج علىٰ وجه العموم يدخل فيه الخصوص ، وما خرج جواباً عن سؤال سائل ليس لغيره استعماله ، وما خرج منه ابتداء لازدحام العلوم في صدره الجليل صلى الله عليه وسلم ، وما فعله في خاصة نفسه صلى الله عليه وسلم واقتدىٰ به الخاصة والعامة ، وما خص به نفسه صلى الله عليه وسلم دون الناس .

قال الرشيد : أجدت الترتيب يا شافعي لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بارك الله فيك ، فأحسنت موضعها .

ثم قال : كيف بصرك بالعربية ؟ قال : هي ميداننا ، وطباعنا بها تقدمت ، وألسنتنا بها جَرَت ، فصارت كالحياة لا تتم إلا بالسلامة ، لقد ولدت ولا أعرف اللحن .

فقال له الرشيد : أكثر الله تعالىٰ في أهلي مثلك ، ثم أمرهما بالمناظرة ، فتناظرا كما هو مشهور معروف ، فلما انفصل المجلس . أمر له بجائزة ، فلم يقبلها ، ثم إنه عاد إليه في مجلس آخر ، فأمر له بألف دينار ، فقبلها ، فضحك الرشيد ، وقال : لله درك ما أفطنك وأعلمك ، قاتل الله عدوك ؛ لقد أصبح لك ولياً ، وأمر خادمه أن يتبعه لينظر ما يصنع بالمال ، فما زال يفرقه قبضة قبضة حتىٰ وصل إلى الباب وما معه إلا قبضة دفعها إلى الخادم ، فعرَّف الخادمُ الرشيدَ بذلك ، فقال الرشيد : لهٰذا فرغ همُّه وقويت مِنَّتُه . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٨٧-٩١] .

ثم روى الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بإسناده : عن إبراهيم بن محمد الشافعي قال : كنا في مجلس سفيان بن عيينة والشافعي حاضر ، فحدث ابن عيينة عن الزهري ، عن علي بن الحسين رضي الله عنهم : أن النبي صلى الله عليه وسلم مر به رجل في بعض الليل وهو مع

امرأته صفية ، فقال صلى الله عليه وسلم : « هـٰذه صفية » ، فقال الرجل : سبحان الله يا رسول الله! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم »[1] .

فقال سفيان بن عيينة للشافعي : ما فقه هـٰذا الحديث يا أبا عبد الله ؟

فقال الشافعي : إنما هـٰذا من النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ وجه التعليم والتأديب لنا ولمن بعدنا ، فكأنه صلى الله عليه وسلم قال : إذا كنتم هـٰكذا . . فافعلوا هـٰكذا ، حتىٰ لا يُظَنَّ بكم ظن السوء ، فهو علىٰ وجه التأديب ، فكأنه صلى الله عليه وسلم يقول : إذا مر أحدكم علىٰ رجل يكلم امرأة وهي منه بسبب . . فليقل : إنها فلانة ، ومعاذ الله أن يُتَّهَمَ النبي صلى الله عليه وسلم وهو أمين الله في أرضه ؛ فإن القوم لم يتهموه ، إذ لو اتهموه . . لصاروا كفاراً بتهمتهم إياه صلى الله عليه وسلم[2] .

فقال ابن عيينة : جزاك الله عنا خيراً يا أبا عبد الله ، ما يجيئنا منك إلا كل خير وكل ما نحب .

وقال يحيى بن سعيد : أنا أدعو الله تعالىٰ للشافعي في صلاتي منذ أربع سنين .

وقال أحمد بن محمد الشافعي : كانت الحلقة في الفتيا بمكة في المسجد الحرام لابن عباس رضي الله عنهما ، وبعد ابن عباس لعطاء ابن أبي رباح ، وبعد عطاء لعبد الملك [بن عبد العزيز] بن جريج ، وبعد ابن جريج لمسلم بن خالد الزنجي ، وبعد مسلم لسعيد بن سالم القداح ، وبعد سعيد لمحمد بن إدريس الشافعي وهو شاب .

وقال الشافعي : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عبيد الله ابن أبي يزيد ، عن أبيه ، عن سباع بن ثابت ، عن أم كُرز رضي الله عنهم قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (١٩٣٣) ، ومسلم (٢١٧٤) .
ومعنىٰ « يجري من الإنسان مجرى الدم » : قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٤/ ٢٨٠) : قيل : هو علىٰ ظاهره وإن الله تعالىٰ أقدره علىٰ ذلك ، وقيل هو علىٰ سبيل الاستعارة من كثرة إغوائه ، وكأنه لا يُفارَق كالدم ، فاشتركا في شدة الاتصال وعدم المفارقة .

(٢) قال الحافظ في « الفتح » (٤/ ٢٨٠) : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينسبهما إلىٰ أنهما يظنان به سوءاً ؛ لما تقرر عنده من صدق إيمانهما ، ولـٰكن خشي عليهما أن يوسوس لهما الشيطان ذلك ؛ لأنهما غير معصومين ، فقد يفضي بهما ذلك إلى الهلاك ، فبادر إلىٰ إعلامهما حسماً للمادة ، وتعليماً لمن بعدهما إذا وقع له مثل ذلك .

فسمعته يقول : « أَقِرُّوا الطير علىٰ مكناتها »[1] ، فقال الشافعي رحمه الله : إن العرب كان أحدهم إذا غدا من منزله يريد أمراً . . نظر أول طائر يراه ، فإن سنح عن يساره ، فاجتاز عن يمينه . . قال : هـٰذا طير الأيامن ، فمضىٰ لحاجته ، ورأىٰ أنها ستنجح ، وإن سنح عن يمينه ، فمر علىٰ يساره . . قال : هـٰذا طير الأشائم ، فيرجع ، ويقول : هـٰذه حاجة مشؤومة ، وكان العربي في الجاهلية إذا لم ير طائراً سانحاً ، ورأىٰ طيراً في وكره . . حركه من وكره ؛ ليطير فينظر أيسلك طريق الأيامن أم طريق الأشائم ، فيشبه أن يكون ذلك معنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أقروا الطير علىٰ مَكِناتها » أي : لا تحركوها ؛ فإن تحريكها وما تعملون به من الطِّيَرة لا يصنع شيئاً ، وإنما يقع لكم فيما توجهون له ما قضاه الله عز وجل .

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الطيرة ، فقال : « إنما ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه ، فلا يصدنكم »[2] .

وكان ابن عيينة رحمه الله بعد ذلك إذا سئل عن تفسير هـٰذا الحديث . . يفسره علىٰ نحو ما فسره الشافعي .

قال ابن مهاجر : سألت الأصمعي عن تفسير هـٰذا الحديث ، فقال مثل ما قال الشافعي رحمه الله ، قال : وسألت وكيعاً ، فقال : إنما هي عندنا علىٰ صيد الليل ، فذكرت له قول الشافعي ، فاستحسنه ، وقال : ما ظننته إلا علىٰ صيد الليل .

وقال أبو عثمان الخوارزمي : حدثنا أبو عبد الله التُّسْتَري ، عن أبي ثور قال : لما ورد الشافعي العراق . . جاءني حسين الكرابيسي ـ وكان يختلف معي إلىٰ أصحاب الرأي ـ فقال : قد ورد رجل من أصحاب الحديث يتفقه ، فقم بنا إليه ، فذهبنا حتىٰ دخلنا عليه ، فسأله الحسين عن مسألة ، فلم يجبه عنها إذ ذاك ، واندفع يتكلم في العلم ، فلم يزل الشافعي

---

(١) أخرجه بنحوه أبو داوود (٢٨٣٥) ، والحاكم (٤/ ٢٦٥) عن أم كرز رضي الله عنها ، وجاء من غير وجه : « أقِرُّوا الطَّير علىٰ وُكْناتِها » .
والمَكِنات في الأصل : بيض الضب ، ويجوز أن يستعار مَكْنُ الضِّباب فيجعل للطير ، وقيل : المَكِنات : بمعنى الأمكنة ، ويروىٰ « مُكُناتِها » بنفس المعنىٰ ؛ أي : مكان ، وقيل المَكِنة : من التمكن ، كالطلبة والتَّبعة ، من التطلب والتتبع ، فكأن من ينفِّر الطير يطلب ويتتبع ما ستفعله الطير .
وأما الوُكْن : فهو عش الطائر ووكره ، وقيل : الوُكنات : مواقع الطير حيثما وقعت .
وحاصل الكلام : أنه يجوز فيها الوجهان ، والله أعلم .

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (٥٣٧) .

يقول : قال الله عز وجل ، وقال رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ أظلم علينا البيت ، فتركنا بدعتنا واتبعناه .

وقال أبو زكريا : أخبرنا محمد قال : ما رأيت أحداً يناظر الشافعي . . إلا رحمته .

قال : وقال هارون بن سعيد : لو أن الشافعي ناظر علىٰ هـٰذا العمود الذي من حجارة أنه من خشب . . لغَلَب ؛ مِن اقتداره على المناظرة .

وقال الشافعي : ناظرت رجلاً بالعراق ، فجعل كلما جاء بمعنىٰ . . أدخلت عليه معنىٰ آخر ، فيبقىٰ ، فتناظرنا في شيء ، فقلت له : مَن قال بهـٰذا ؟ فقال : أمسك ؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، فلم يزل يعد حتىٰ عد العشرة رضي الله عنهم ، فبلغ مني كل مبلغ ، وكان حولنا قوم لا معرفة لهم بالرواية ، فاجتمعنا بعد ذلك المجلس ، فقلت له : الذي رويت لي عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي . . . رضي الله عنهم من حدَّثك به ؟ قال : لم أروِ لك شيئاً ، ولم يحدثني أحد ، إنما قلت لك : أمسك ؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم .

وقال الشافعي : ناظرت يوماً محمد بن الحسن ، فاشتدت مناظرتي إياه ، فجعلت أوداجه تنتفخ وأزراره تنقطع زراً زراً .

وقال أبو محمد ابن أخت الشافعي : قالت لي أمي : ربما قدَّمنا في ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أكثر أو أقل المصباحَ إلىٰ بين يدي الشافعي ، وكان يستلقي ويتفكر ، ثم ينادي : يا جارية ؛ هلمي المصباح ، فتقدمه ، فيكتب ما يكتب ، ثم يقول : ارفعيه ، فقلت لأبي محمد : ما أراد بِرَدِّ المصباح ، فقال : الظلمة أجلىٰ للقلب .

وقال الشافعي في تفسير قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »[(١)] قال : يتحزن به ، يترنم به .

وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : إذا رأيتُ رجلاً من أصحاب الحديث . . كأني رأيت رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٩٢-١٠٩] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : روي عن محمد بن يزيد بن حكيم قال : رأيت الشافعي في المسجد الحرام وقد جُعلت له طنافس ، فجلس عليها وهو يقول : سلوني

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٨٩) .

عما شئتم . . أخبركم من كتاب الله تعالىٰ ، فأتاه رجل من أهل خراسان ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ من أين تأخذ من كتاب الله تعالىٰ أن المحرم له أن يقتل الزنبور ؟ فقال : نعمْ ؛ من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ ، هـٰذا من كتاب الله تعالىٰ ، وحدثنا سفيان ، عن زائدة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن مولى الربعي ، عن حذيفة رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اقتدوا باللَّذَين من بعدي أبي بكر وعمر »[1] رضي الله عنهما ، هـٰذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحدثونا عن إسرائيل ، قال أبو بكر المستملي : حدثنا أبو أحمد ، عن إسرائيل ، عن إبراهيم بن عبد الأعلىٰ ، عن سويد بن غفلة : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر المُحْرِم بقتل الزنبور .

هـٰذا هو المروي عن الشافعي رحمه الله ولا ينبغي أن تعتبر بما رواه الحافظ أبو نعيم في كتابه « الحلية » في هـٰذه الواقعة ؛ فإنه غلط صريح[2] . انتهىٰ .

وروى الحافظ الخطيب البغدادي ـ قدس الله روحه ـ بسنده عن سفيان بن وكيع قال : رأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت ، والناس في أمر عظيم ؛ إذ بدر إليَّ أخي ، فقلت : ما حالكم ؟ فقال : عُرِضنا علىٰ ربنا تبارك وتعالىٰ ، فقلت : فما حال أبي ؟ قال : غفر له ، وأمر به إلى الجنة ، قلت : فمحمد بن إدريس ؟ قال : حُشر إلى الرحمـٰن وفداً ، وأُلبس حلل الكرامة ، وتُوِّجَ بتاج البهاء . انتهىٰ .

ثم روى الحافظ بإسناده : عن يونس بن عبد الأعلىٰ قال : سمعت الشافعي يقول : لئن يبتلى المرء بكل ما نهى الله عز وجل عنه ما عدا الشرك . . خير له من النظر في الكلام[3] ؛

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٧٩) .

(٢) وما رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ١٠٩) : فأتاه رجل من أهل خراسان فقال : يا أبا عبد الله ؛ ما تقول في أكل فرخ الزنبور ؟ قال : حرام .
فما رواه أبو نعيم في هـٰذه المسألة أكل فرخ الزنبور ، والصواب : هو حكم قتل الزنبور علىٰ ما قاله الواسطي رحمه الله ، والله أعلم .

(٣) قصد الشافعي رحمه الله علم الكلام المذموم ، الذي انتحله حفص الفرد الذي يقول بخلق القرآن وأمثاله من أهل البدع الذين كان لهم مع الإمام الشافعي مناظرات مشهورة ، ولم يقصد علم الكلام عند أهل السنة والجماعة ؛ لأنه من أوائل من تكلم فيه ، وناظر أهل البدع به ، وكشف شبهاتهم وأباطيلهم به ، والله أعلم بالصواب .

فإني والله ؛ اطلعت من أهل الكلام علىٰ شيء ما ظننته قط .

وفي رواية : ما ارتدىٰ أحد بالكلام فأفلح .

وفي رواية : لو علم الناس ما في الكلام والأهواء . . لفروا منه كما يفرون من الأسد .

وكان مالك رحمه الله إذا جاءه بعض أهل الأهواء . . قال : أما أنا : فعلىٰ بينة من ربي ومن ديني ، وأما أنت : فشاكٌّ ، اذهب إلىٰ شاكٍّ مثلِك فخاصِمْهُ .

وعن حرملة بن يحيىٰ قال : سمعت الشافعي يقول : البدعة بدعتان : بدعة محمودة ، وبدعة مذمومة ، فما وافق السنة . . فهو محمود ، وما خالف السنة . . فهو مذموم ، واحتج بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قيام رمضان : نِعمتِ البدعة هي(١) .

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : سمعت الشافعي رحمه الله يقول في قول الله عز وجل : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قال : في العبرة عندكم إنما يقول لشيء لم يكن : كن ، فيخرج مفصلاً بعينيه ، وأذنيه ، وأنفه ، وسمعه ، ومفاصله ، وما خلق الله فيه من العروق والعظام ، فهـٰذا في العبرة أشد من أن تقول لشي قد كان : عد إلىٰ ما كنت ، فهـٰذا إنما هو أهون عليه في العبرة عندكم ، ليس أن شيئاً يعظم على الله عز وجل .

---

(١) وزاد الإمام النووي ـ رحمه الله ـ هـٰذا الكلام تحريراً فقال في « التهذيب » (٣/ ٢٢) : البدعة ـ بكسر الباء ـ في الشرع : هي إحداث ما لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي منقسمة إلىٰ حسنة وقبيحة ، ثم نقل عن الشيخ العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ قوله : البدعة منقسمة إلىٰ واجبة ومحرمة ومندوبة ومكروهة ومباحة .

قال : والطريق في ذلك . . أن تعرض البدعة علىٰ قواعد الشريعة : فإن دخلت في قواعد الإيجاب . . فهي واجبة ، أو في قواعد التحريم . . فمحرمة ، أو الندب . . فمندوبة ، أو المكروه . . فمكروهة ، أو المباح . . فمباحة .

وللبدع الواجبة أمثلة ، منها : الاشتغال بعلم النحو الذي يفهم به كلام الله تعالىٰ وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وللبدع المحرمة أمثلة ، منها : مذاهب القدرية والجبرية والمجسمة ، والرد علىٰ هـٰؤلاء من البدع الواجبة .

وللبدع المندوبة أمثلة ،منها : إحداث الرُّبط والمدارس وكل إحسان لم يعهد في العصر الأول ، ومنها : التراويح والكلام في دقائق التصوف .

وللبدع المباحة أمثلة ، منها : المصافحة عقب الصبح والعصر ، وقد يختلف في بعض ذلك فيجعله بعض العلماء من البدع المكروهة ويجعله آخرون من السنن المفعولة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فما بعده .

وقال الشافعي رحمه الله : ما ساق الله هـٰؤلاء الذين يتكلمون في علي وأبي بكر وعمر وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. . إلا ليجري لهم الحسنات وهم أموات .

وحضر الشافعي رحمه الله ميتاً ، فلما نظر إليه . . قال : اللهم ؛ بغناك عنه وفقره إليك . . اغفر له .

وقال يونس بن عبد الأعلىٰ : قال الليث بن سعد : لو رأيتُ صاحب هوىً يمشي على الماء . . ما قَبِلتُه ، فقال الشافعي : أما إنه قصَّر ، لو رأيته يمشي في الهواء . . ما قَبِلتُه .

وقال الشافعي : طلب العلم يحتاج إلىٰ ثلاث خصال : حسن ذات اليد ، وطول العمر ، وأن يكون ذكياً .

وقال يونس بن عبد الأعلىٰ : قال لي الشافعي : يا يونس ؛ إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه . . فإياك أن تبادر بالعداوة وقطع الولاية ، فتكون ممن أزال يقينه بشك ، ولـٰكن . . اْلقَهُ ، وقل له : بلغني عنك كذا وكذا ، واحذر أن تسمي له المبلِّغ ، فإن أنكر ذلك . . فقل له : أنت أصدق وأبر ، ولا تزيدن علىٰ ذلك شيئاً ، وإن اعترف بذلك ، فرأيت له في ذلك وجهاً يعذر فيه . . فاقبل منه ، وإن لم تر ذلك . . فقل له : ماذا أردت بما بلغني عنك ؟ فإن ذكر ماله وجه من العذر . . فاقبله ، وإن لم تر له وجهاً لعذر وضاق عليك المسلك . . فحينئذ أثبتها عليه سيئة أتاها ، ثم أنت في ذلك بالخيار : إن شئت . . كافأته بمثلها من غير زيادة ، وإن شئت . . عفوت عنه ، والعفو أقرب للتقوىٰ ، وأبلغ في الكرم ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ، فإن نازعتك نفسك بالمكافأة . . فأَفكِرْ بما سبق له لديك من الإحسان فعُدَّها ، ثم أبدر له حسنة بهـٰذه السيئة ، ولا تبخس باقي إحسانه السالف لهـٰذه السيئة ؛ فإن ذلك الظلم بعينه ، وقد كان الرجل الصالح يقول : رحم الله من كافأني علىٰ إساءتي من غير أن يزيد ولا يبخس حقاً لي .

يا يونس ؛ إذا كان لك صديق . . فشُدَّ يديك به ؛ فإن اتخاذ الصديق صعب ، ومفارقته سهل ، وقد كان الرجل الصالح يشبه سهولة مفارقة الصديق بصبي يطرح في البئر حجراً عظيماً ، فيسهل طرحه عليه ، ويصعب إخراجه على الرجال البُزَّل[1] ، فهـٰذه وصيتي لك . والسلام .

---

(١) أي : ذوو الشدة .

وقال الشافعي : قبول السعاية. . شر من السعاية ؛ لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من دل علىٰ شيء كمن قبل وأجاز ، والساعي ممقوت إذا كان صادقاً ؛ لهتكه العورة وإضاعته الحرمة ، ومعاقب إن كان كاذباً بالمبارزة لله عز وجل بقول البهتان وشهادة الزور .

وقال الشافعي : يا ربيع ؛ رضا الناس غاية لا تدرك ، فعليك بما يصلحك فألزمه ؛ فإنه لا سبيل إلىٰ رضاهم ، واعلم : أن من تعلم القرآن. . جَلَّ في أعين الناس ، ومن تعلم الحديث. . قويت حجته ، ومن تعلم النحو. . هِيْبَ ، ومن تعلم العربية. . رق طبعه ، ومن تعلم الحساب. . جَزُلَ رأيه ، ومن تعلم الفقه. . نبُل مقداره ، ومن لم يصن نفسه. . لم ينفعه علمه ، وملاك ذلك كله. . التقوىٰ .

وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : لا يحل لأحد أن يكتني بأبي القاسم ، سواء كان اسمه محمداً أم غيره[1] .

وكان الشافعي من أجود الناس وأسمحهم كفّاً ، كان يشتري الجارية الصَّنَاع التي تطبخ وتعمل الحلوىٰ ، ويشرط عليها أنه لا يقربها ؛ لأنه كان عليلاً لا يمكنه أن يقرب النساء في وقته ذلك لِنَاسورٍ[2] به ، ويقول لأصحابه : تَشَهَّوا ما أحببتم ؛ فقد اشتريت جارية تحسن أن تعمل ما تريدون ، فيقول لها بعض أصحابنا : اعملي لنا كذا وكذا ، فكنا نأمرها بما نريد وهو مسرور بذلك .

---

(١) قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في « الأذكار » في (باب النهي عن التكني بأبي القاسم) : اختلف العلماء في التكني بأبي القاسم علىٰ ثلاثة مذاهب :
ـ ذهب الشافعي ـ رحمه الله ـ ومَنْ وافقه إلىٰ أنه لا يحل لأحد أن يتكنىٰ أبا القاسم ، سواء كان اسمه محمد أو غيره .
ـ مذهب مالك ـ رحمه الله ـ : أنه يجوز التكني بأبي القاسم لمن اسمه محمد ولغيره ، ويجعل النهي خاصاً بحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ـ المذهب الثالث : لا يجوز لمن اسمه محمد ويجوز لغيره ، قال الإمام أبو القاسم الرافعي من أصحابنا : يشبه أن يكون هٰذا الثالث أصح ؛ لأن الناس لم يزالوا يكتنون به في جميع الأعصار من غير إنكار ، وهٰذا الذي قاله صاحب هٰذا المذهب فيه مخالفة ظاهرة للحديث .
وإما إطباق الناس علىٰ فعله ـ مع أن في المتكنين به والمكنين الأئمة الأعلام ، وأهل الحل والعقد ، والذين يقتدىٰ بهم في مهمات الدين ـ ففيه تقوية لمذهب مالك في جوازه مطلقاً ، ويكونون قد فهموا من النهي الاختصاص بحياته صلى الله عليه وسلم كما هو مشهور من سبب النهي في تكني اليهود بأبي القاسم ، ومناداتهم يا أبا القاسم ؛ للإيذاء ، و هٰذا المعنىٰ قد زال ، والله أعلم .
(٢) **النَّاسور** : قرحة تمتد في أنسجة الجسم ، وكثيراً ما تكون حول المقعدة .

وقال الشافعي : السخاء والكرم يغطيان عيوب الدنيا والآخرة بعد ألاَّ يلحقهما بدعة .

وكان الشافعي رحمه الله يختم في شهر رمضان ستين ختمة ، ما منها شيء إلا في صلاة .

وعن إبراهيم بن محمد قال : ما رأيت أحداً أحسن صلاة من الشافعي ، وذلك أنه أخذ من مسلم بن خالد الزنجي ، وأخذ مسلم من ابن جريج ، وأخذ ابن جريج من عطاء ، وأخذ عطاء من عبد الله بن الزبير ، وأخذ ابن الزبير من أبي بكر الصديق رضي الله عنهم ، وأخذ أبو بكر الصديق من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم من جبريل عليه الصلاة والسلام .

وقال الربيع : كان الشافعي إذا حدث . . فكأنما يقرأ سورة من القرآن ، وكان فصيحاً ، فمرض مرضة شديدة ، فقال : اللهم ؛ إن كان هـٰذا لك رضاً . . فزد ، فبلغ ذلك إدريس بن يحيى الخولاني ، فبعث إليه : يا أبا عبد الله ؛ لست أنا ولا أنت من رجال البلاء ، اِسألِ الله تعالى العافية ، فبعث إليه : يا أبا عمرو ؛ ادع الله تعالىٰ لي بالعافية .

وقال يونس بن عبد الأعلىٰ : كان الشافعي يكلمنا بقدر ما نفهم عنه ، ولو كلمنا بقدر فهمه . . ما عقلنا عنه .

وقال الشافعي رحمه الله : لم أر أنفع للوباء من التسبيح .

وقال الشافعي رحمه الله : نزل قوم بٱمرأة من أهل اليمن ، فأخرجت لهم شيئاً ، فقالوا لها : إن معنا ما يكفينا ، قالت : فما تريدون ؟ أتنزلون عندي وتأكلون طعامكم ؟ والله ؛ لا كان هـٰذا أبداً ، والله ؛ لو فعلتم . . لرأيتم متاعكم في الصحراء .

وقال الشافعي رحمه الله : سمعت رجلاً يمدح أخاً له فقال : إن كان ليملأ العين جمالاً والأذن بياناً .

وقال الشافعي : من استغضب فلم يغضب . . فهو حمار ، ومن استرضي فلم يرض . . فهو شيطان .

وقال حرملة : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : احذروا الأعور ، والأحول ، والأعرج ، والأقرع ، والأحدب ، والأشقر ، والكوسج[1] ، وكل من به عاهة في بدنه ؛ فإن فيه التواء ، ومعاملته عسرة .

---

(١) الكَوْسَج : الذي لا شعر علىٰ عارضيه .

وقال الشافعي رحمه الله : كتب حكيم إلىٰ حكيم : يا أخي ؛ قد أوتيت علماً ، فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب ، فتبقىٰ في الظلمة يوم يسعىٰ أهل العلم بنور علمهم .

وقال الربيع : كنت عند الشافعي ؛ إذ جاءه رجل برقعة ، فقرأها ، ووقَّعَ فيها ، فمضى الرجل ، فتبعته إلىٰ باب المسجد ، فقلت : والله ؛ لا تفوتني فتوى الشافعي ، فأخذت الرقعة من يده ، فوجدت فيها :

سَلِ العالمَ المكيَّ هل في تَزاورٍ ... وضمَّـةِ مشتـاقِ الفـؤاد جُنـاحُ

فإذا الشافعي رحمه الله قد وقع فيها :

فقلـت معـاذَ الله أن يُـذهِـبَ التقـىٰ ... تـلاصـقُ أكبـاد بهـن جـراحُ

قال الربيع : فرجعت إلى الشافعي رحمه الله وسألته ، كيف أفتىٰ لحَدَثٍ بمثل هـٰذا ؟ فقال : يا أبا محمد ؛ هـٰذا رجل هاشمي قد أعرس في هـٰذا الشهر شهر رمضان ، وهو حدث السن ، فسأل هل عليه من جناح أن يقبل أو يضم من غير وطء ، فأفتيته بهـٰذه الفتوىٰ ، قال الربيع : فسألت الشاب بعد ذلك ، فذكر لي مثل ما قال الشافعي رحمه الله ، فما رأيت أصدق من فراسته .

وعن المزني قال : دخلت على الشافعي رحمه الله في علته التي مات فيها ، فقلت له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، ولإخواني مفارقاً ، ولكأس المنية شارباً ، ولسوء أعمالي ملاقياً ، وعلى الله الكريم سبحانه وتعالىٰ وارداً ، فلا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنئها ؟ أو إلى النار فأعزيها ؟ ثم بكىٰ ، وأنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلتُ الرجا مني لعفوك سُلَّما
تعـاظَمَنـي ذنبـي فلمـا قـرنتُـهُ ... بعفـوك ربـي كـان عفـوك أعظمَـا
وما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجـود وتعفـو مِنَّـةً وتكـرُّمَـا
فإن تعف عني تعف عن ذي إساءة ... ظلـوم غشـوم لا يـزايـل مـأثَمَـا
وإن تنتقـم منـي فلسـتُ بـآيـسٍ ... ولو دخلَتْ روحي بجُرمِيْ جَهَنَّمَا(١)

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال الشافعي رحمه الله : حُملت إلىٰ مكة وأنا ابن سنتين ، ولم يكن لي مال ، وكنت أطلب العلم في الحداثة ، أذهب إلى الديوان فأستوهب

(١) الحلية (٩/١١١ـ١٥٠) .

الظهور أكتب فيها ، قال : كنت أطلب الشعر وآتي البوادي فأسمع منهم ، فخرجت من مكة وأنا أتمثل شعر لبيد وأضرب قدمي بالسوط ، فضربني رجل من ورائي من الحَجَبة ، وقال لي : رجل من قريش ثم من بني المطلب رضي من دينه ودنياه أن يكون شاعراً!! ما الشعر ؟ الشعر إذا استحكَمْت فيه . . قصاراه أن تكون معلِّماً ، تَفَقَّهْ . . تَعْلُ ، قال : فنفعني الله عز وجل بكلام ذلك الحجبي ، فرجعت إلىٰ مكة ، ولزمت سفيان بن عيينة ، وكتبت عنه ما شاء الله ، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد الزنجي ، ثم قدمت علىٰ مالك ، فكتبت « موطأه » ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ أَقْرَؤُهُ عليك ؟ قال : يابن أخي ؛ ائت برجل يقرؤُهُ ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ أقرأ عليك ، فتَسْمَع إلىٰ قراءتي ، قال : اقرأ ، فلما سمع قراءتي . . قال : اقرأ ، حتىٰ بلغت كتاب السِّيَر ، فقال : اطوِ يابن أخي ، تفقَّهْ . . تَعْلُ .

وفي رواية أخرىٰ : كان كثيراً ما يخرج إلى البدو ، فيحمل ما فيه من الأدب ، فبينا هو في حي من أحياء العرب ؛ إذ جاءه بدوي ، فقال له : ما تقول في امرأة تحيض يوماً وتطهر يوماً ؟ فقال : لا أدري ، فقال : يابن أخي ؛ الفريضة أولىٰ بك من النافلة ، فقال : إنما أُرِيدَ هـٰذا لذاك ، وعليه قد عزمت ، وبالله التوفيق .

وقال الشافعي رحمه الله : حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين ، و« الموطأ » وأنا ابن عشر .

وقال عبد الله بن أحمد : قلت لأبي : يا أبت ؛ أي رجل كان الشافعي ؛ فإني رأيتك تكثر من الدعاء له ؟ فقال : يا بني ؛ كان الشافعي كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس ، فانظر ، هل لهـٰذين من خَلَف ، أو لهما من عِوَض ؟!

وقال الشافعي رحمه الله : ما ناظرت أحداً . . إلا وأحببت أن يكون الحق علىٰ لسانه .

وفي رواية : إلا وأحببت ألاَّ يخطىء .

وفي رواية : إلا وأحببت أن يوفَّق ، ويسدَّد ، ويعان ، ويكون عليه رعاية من الله عز وجل ، وحفظ ، وما ناظرت أحداً . . إلا ولم أبال تَبيَّن الحق علىٰ لسانه أو علىٰ لساني .

وقال الربيع : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : أشد الأعمال ثلاثة : الجود من قلة ، والورع في خلوة ، وكلمة حق عند من يرجىٰ ويُخاف .

وقال الشافعي رحمه الله : وددت أن هـٰذا الخلق تعلموا مني هـٰذا العلم ، ولا يُنسَبُ إلي منه شيء .

وقال الشافعي رحمه الله : من طلب الرئاسة . . فرَّت منه ، وإذا تصدَّىٰ يحدِّث قبل وقته . . فاته علم كثير .

وقال الربيع : سئل الشافعي عن سنه ، فقال : ليس من المروءة أن يُخبِر الرجل بسنه ، سأل رجل مالكاً عن سنه ، فقال له : أقبل علىٰ شأنك .

وفي رواية أخرىٰ : ليس من المروءة أن يخبر الرجل بسنه ؛ لأنه إن كان صغيراً . . استحقروه ، وإن كان كبيراً . . استهرموه .

ودخل الشافعي يوماً علىٰ بعض حُجَر هارون الرشيد ليستأذن له ، ومعه سراجٌ الخادم ، فأقعده عند أبي عبد الصمد مؤدب أولاد الرشيد ، فقال سراج للشافعي : يا أبا عبد الله ؛ هـٰؤلاء أولاد أمير المؤمنين ، وهـٰذا مؤدبهم ، فلو أوصيتَه بهم ، فأقبل عليه ، وقال : ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاحك نفسك ؛ فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحَسَن عندهم ما استحسنتَه ، والقبيح عندهم ما تكرهه ، علِّمهم كتاب الله عز وجل ، ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم رَوِّهم من الشعر أعفَّه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم مِن علم إلىٰ غيره حتىٰ يُحكموه ؛ فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم .

وقال الشافعي : من نظف ثوبه . . قل همه ، ومن طاب ريحه . . زاد عقله .

وقال : لِنْ لِمَنْ يجفو ؛ فقلَّ من يصفو .

وقال ابن بيان الأصفهاني : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت له : يا رسول الله ؛ محمد بن إدريس ابن عمك هل خصصته بشيء ؟ قال : « نعم ، سألت ربي عز وجل ألاَّ يحاسبه » ، فقلت له : بماذا يا رسول الله ؟ فقال : « إنه كان يصلي عليَّ صلاة لم يُصَلَّ عليَّ بمثلها » ، فقلت : وما تلك الصلاة يا رسول الله ؟ قال : « كان يقول : اللهم ؛ صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد ، كلما ذكره الذاكرون ، وصل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد ، كلما غفل عن ذكره الغافلون » انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٤٧-١٥٣] .

وقال الربيع : رأيت الشافعي رحمه الله في المنام بعد موته ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ ما صنع الله عز وجل بك ؟ فقال : أجلسني علىٰ كرسي من ذهب ، ونثر عليَّ اللؤلؤ الرطب .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال الشافعي رحمه الله : العلم بين أهل العلم والعقل . . رحم متصل .

وقال : لا يعرف الرياء إلا المخلصون .

وقال : إذا خفت علىٰ عملك من العجب. . فاذكر رضا من تطلب ، وفي أي نعيم ترغب ، وأي عافية تشكر ، وأي بلاء تذكر ؛ فإنك إذا فكرت في إحدىٰ هـٰذه الخصال. . صغر عملك عندك .

قال الغزالي : انظر كيف ذكر الشافعي رحمه الله حقيقة الرياء وعلاج العجب ، وهما من كبائر آفات القلوب .

قال : وكان الشافعي رحمه الله يُسأل عن مسائل كثيرة في الورع ، فكان يقبل على السائل ويجيبه بأحسن جواب ، وقيل له : أيّما أفضل : الصبر مع المحنة ، أو التمكين ؟ فقال الشافعي رحمه الله : التمكين درجة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، والتمكين لا يكون إلا بعد المحنة ، ألا ترىٰ أن الله عز وجل امتحن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ثم مكنه ، وموسىٰ عليه الصلاة والسلام ثم مكنه ، وأيوب عليه الصلاة والسلام ثم مكنه ، وهـٰكذا سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟ فالتمكين أفضل الدرجات .

قال الغزالي : فهـٰذا الكلام يدل علىٰ تبحر علم الشافعي في أسرار القرآن ، واطلاعه علىٰ مقامات السائرين إلى الله عز وجل .

وأما قوله : (وددت أن الناس أخذوا هـٰذا العلم ولا ينسب إلي منه حرف) فانظر كيف اطلع الشافعي علىٰ آفة العلم وطلب الاسم به ، وكيف كان منزَّه القلب عن الالتفات إليه ، متجرد النية فيه لله عز وجل .

وقال الشافعي رحمه الله : ما أوردت علىٰ أحد الحجة فقبلها مني. . إلا هبته واعتقدت مودته ، ولا كابرني أحد على الحق. . إلا سقط من عيني ورفضته .

وقال : من شرف العلم أن كل من نُسِب إليه ولو في شيء يسير. . فرح ، ومن دُفِع عنه. . حزن . انتهىٰ [« الإحياء » ١/٢٦ و٤٧] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رُوِّينا عن الحافظ الخطيب البغدادي ـ قدس الله روحه ـ بإسناده إلى الربيع بن سليمان قال : كنا جلوساً في حلقة الشافعي رحمه الله بعد موته ، فجاء أعرابي ، فوقف علينا وسلم ، ثم قال : أين قمر هـٰذه الحلقة وشمسها ؟ فقلنا له : مات رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه ، قال : فبكىٰ بكاء شديداً ، ثم قال : رحمه الله وغفر له ، فلقد كان يفتح ببيانه منغلِق الحجة ، ويسد علىٰ خصمه واضح المحجة ، ويغسل

من العار وجوهاً مسودة ، ويوسع بالرأي أبواباً منسدة . ثم انصرف .

ورُوِّينا عن الحافظ العلامة أبي عمرو بن الصلاح ـ قدس الله روحه ـ قال : سأل بعض ملوك الشام عن حلية الإمام الشافعي ، فلم يكن ببلده من يقوم بها ، فورد حلب وأَنَا بِها ، فسألني ، فأجبته عن ذلك بعون الله تعالىٰ : حليته مع ما كان فيه من الفضائل : كان طويلاً ، سائل الخدين ، قليلَ لحم الوجه ، طويل العنق ، طويل القصب ، أسمرَ ، خفيف العارضين ، يخضب لحيته بالحناء حمراء قانئة ، حسن الصوت ، حسن السمت ، عظيم العقل ، حسن الوجه ، حسن الخلق ، مهيباً ، فصيحاً ، من أذرب الناس لساناً ، إذا أخرج لسانه . . بلغ أنفه ، وكان وارد الأرنبة ؛ أي : طويلها ـ والأرنبة : مقدم الأنف ـ علىٰ أنفه أثر جدري ، بادي العنفقة[1] ، أبلج ، مفلج الأسنان ، أما الأبلج : فهو المقرون الحاجبين علىٰ ما جاء في صفة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان أبلج ؛ أي : مقرون الحاجبين ، لـٰكن الشافعي لم يكن مقرون الحاجبين ، فالمراد بالأبلج في صفة الشافعي : أنه أبلج الوجه ؛ أي : مضيئه ، لا أبلج الحاجبين ، وأما مفلج الأسنان : فالمراد به منفرج الأسنان . والله أعلم . انتهىٰ .

وعن قتيبة بن سعيد قال : مات الشافعي وماتت السنن ، ومات الثوري ومات الورع ، ويموت أحمد ابن حنبل وتظهر البدع .

وحكي عن الشافعي أنه قال : ما رأيت كأهل مصر ، اتخذوا الجهل علماً ؛ فإنهم سألوا مالكاً عن مسائل ، فقال : لا أعلمها ، فهم يقبلونها ممن يعلمها ؛ لأن مالكاً قال : لا أعلمها .

وقال الربيع بن سليمان : ناظر الشافعي محمد بن الحسن بالرقة ، فقطعه ، فبلغ هارون الرشيد ، فقال : أمَا علم محمد بن الحسن أنه إذا ناظر رجلاً من قريش أنه يقطعه ، سائلاً كان أو مجيباً ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « قدِّموا قريشاً ولا تَقَدَّموها ، وتعلموا منها ولا تعلموها ؛ فإن عِلْمَ العالم منهم يسع طباق الأرض » .

وقال شيخنا شيخ الإسلام برهان الدين الفزاري ـ قدس الله روحه ـ : قال في كتاب الساجي : قال أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم : سمعت الربيع بن سليمان يقول : كان

---

(١) **رجل بادي العنفقة** : إذا عري موضعها من الشعر ، **والعنفقة** : شعيرات بين الشفة السفلىٰ والذقن .

الشافعي رحمه الله إذا قال : أخبرنا الثقة . . يريد به يحيى بن حسان ، وإذا قال : أخبرنا من لا أتَّهم . . يريد به إبراهيم ابن أبي يحيىٰ ، وإذا قال : أخبرنا بعض الناس . . يريد به أهل العراق ، وإذا قال : أخبرنا بعض أصحابنا . . يريد به أهل الحجاز .

قال الحافظ الحاكم أبو عبد الله : قد أخبر الربيع عن غالب هٰذه الروايات بأن أكثر ما رواه الشافعي عن الثقة هو يحيى بن حسان ، وقد قال في كتبه : أخبرنا الثقة ، والمراد به : غير يحيىٰ ، وقد فصل لذلك تفصيلاً علىٰ غالب الظن ، فذكر في بعض ما قال أخبرنا الثقة : أنه أراد به إسماعيل ابن عُلَيَّة ، وفي بعضه : أخبرنا أسامة ، وفي بعضه : عبد العزيز بن محمد ، وفي بعضه : هشام بن يوسف الصنعاني ، وفي بعضه : أحمد ابن حنبل أو غيره من أصحابه ، ولا يكاد يُعرف ذلك باليقين إلا أن يكون قد أطلقه في موضع وسماه في آخر .

قال شيخنا ـ قدس الله روحه ـ : نقلت ذلك من كتاب « الشافي في مناقب الإمام الشافعي » قال : قال الربيع بن سليمان رحمه الله : إذا قال الشافعي : أخبرنا الثقة عن حميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه . . قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرون العِشاء ، فينامون ـ أحسبه قال : قعوداً ـ حتىٰ تخفِقَ رؤوسهم ، ثم قال : الثقة في هٰذا الحديث هو إسماعيل ابن عُلية .

وقال الحاكم رحمه الله : إذا قال الشافعي : أخبرنا الثقة عن حميدٍ الطويل . . فإنما يريد بالثقة إسماعيل ابن عُلية .

وقال القاضي الماوردي في « الحاوي » : كل موضع يقول فيه الشافعي : قال بعض الناس . . يريد به أبا حنيفة ، وكل موضع يقول فيه قال بعض أصحابنا . . يريد به مالكاً ، وإذا أراد غيره . . ذكره باسمه . انتهىٰ ما قاله شيخنا قدس الله روحه .

وقال أبو القاسم محمد عبد المحسن بن عثمان في كتابه المسمىٰ بـ« الواضح النفيس في فضائل الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس » : قال الربيع : إذا قال الشافعي : أخبرنا الثقة عن ابن أبي ذئب . . فهو يريد مسلم بن خالد الزنجي ، وإذا قال : أخبرنا الثقة عن الأوزاعي . . فهو عمرو ابن أبي سلمة ، وربما كان أيوب بن سويد ، وإذا قال : أخبرنا الثقة عن أيوب . . فهو ابن علية ، وإذا قال : أخبرنا الثقة عن معمر . . فهو هشام بن يوسف ، وإذا قال : أخبرنا الثقة عن يحيى بن سعيد . . فهو الدراوردي ، وإذا قال : أخبرنا الثقة عن ابن

شهاب . . فهو مالك بن أنس ، وربما كان إبراهيم بن سعد ، وإذا قال : أخبرنا الثقة عن الوليد ابن أبي كثير أو هشام بن عروة أو عبد الله بن عمر . . فإنه حماد بن أسامة ، وإذا قال : حدثنا الثقة عن سفيان الثوري أو يوسف بن يزيد أو أسامة بن زيد[1] . . فإنه أيوب بن سويد .

قال الربيع : إذا قال الشافعي في حديث : أخبرني من لا أتهم . . فهو يريد به إبراهيم ابن أبي يحيىٰ ، وإذا قال : بعض الناس . . فهو يريد أهل العراق ، وإذا قال : بعض أصحابنا . . فهو يريد أهل الحجاز ، وفي رواية أخرىٰ : فهو يريد أصحاب مالك . انتهىٰ .

ورُوِّينا عن الحافظ أبي القاسم بن عساكر ـ قدس الله روحه ـ بسنده إلى الربيع قال : كنت عند الشافعي أنا والمزني وأبو يعقوب البويطي ، فنظر إلينا ، فقال لي : أنت تموت في هـٰذا الحديث ، وقال للمزني : هـٰذا لو ناظر الشيطان . . قطعه ، أو جدله ، وقال للبويطي : أنت تموت في الحديد ، قال الربيع : فدخلت على البويطي أيام المحنة ، فرأيته مقيداً إلىٰ أنصاف ساقيه مغلولةً يده إلىٰ عنقه . قال الحافظ البيهقي ـ قدس الله روحه ـ : فكان كما تفرس رحمه الله . انتهىٰ [« تاريخ دمشق » ٥١/٤٠٧] .

وقال الربيع : حججنا مع الشافعي رحمه الله ، فما ارتقىٰ ربوة ، ولا هبط وادياً . . إلا وهو يبكي وينشد :

آل النبـــــي ذريعتــــــي	وهُــــمُ إليـــــه وسيلتــــي
أرجـــو بـــأن أُعطـــىٰ غـــداً	بيـــدي اليميـــنِ صحيفتـــي

وكان من دعائه رحمه الله : اللهم ؛ إني أعوذ بك من مقال الكذابين ، وإعراض الغافلين ، إلـٰهي ؛ لك خضعت قلوب العارفين ، وولهت بك فهوم المشتاقين ، إلـٰهي ؛ هب لي جودك ، واسترني بسترك ، واعف عني بكرمك يا أرحم الراحمين .

وسأل بعض العلماء رُوَيماً رحمه الله فقال له : بِمَ ظهر الشافعي رحمه الله ؟ فقال : بثلاث :

الأولىٰ : أنه جهر ببسم الله الرحمـٰن الرحيم ، فجهر الله عز وجل باسمه .

والثانية : أنه ما أحب أن يكون له مذهباً ، بل جعل مذهبه الحديث حيث صح .

---

(١) في نسخة : (بن يزيد) .

والثالثة : محا نفسه ، فأثبته الله عز وجل .

وقد حكي : أنه وجد تحت فراش الشافعي رحمه الله لما مات التفويض إليه بقضاء مصر من الخليفة المأمون ، وأنه لم يقبل الولاية ، ولا أظهر الرد ، وأخفى التفويض .

فانظر إلىٰ هـٰذا المقصود العظيم الذي فعله من الرد وإخفاء الرد ، وما فيه من تقوى الله عز وجل ، والإخلاص بأعماله كلها لله سبحانه وتعالىٰ ، والله أعلم .

واعلم : أن هـٰذا العلم الذي يؤخذ عنه ـ وقد ملأ الدنيا شرقاً وغرباً ـ صنفه في أربع سنين أو نحوها ؛ لأن كتبه القديمة رجع عنها ، وكتبه الجديدة هي التي صنفها بمصر ، ومقامه بمصر إنما كان هـٰذه المدة .

وقد قيل : إن الحكمة من قصر عمر الشافعي رحمه الله ـ والله أعلم ـ : أنه لو طال عمره . . لارتفع الخلاف ؛ إذ كان يرجع خلائق عن مذاهبهم إلىٰ مذهبه ، وهـٰكذا هـٰكذا فيرتفع الخلاف ، لـٰكن ما شاء الله . . كان ، وما لم يشأ . . لم يكن ، وللإمام الشافعي رحمه الله في هـٰذا المعنىٰ أبيات ، فمنها قوله :

فمـا شئـتَ كـان وإن لـم أشَـأْ ... ومـا شئـتُ إن لـم تشَـأْ لـم يكـنْ
خلقـتَ العبـاد علـىٰ مـا أردت ... فمنهـم شقـي ومنهـم حَسَـنْ
علـىٰ ذا مننـتَ وهـٰـذا خـذلـت ... وهـٰـذا أعنـتَ وذا لـم تُعِـنْ

وجملة ما أقول : إنه كان في عصره إمامَ الأنام ، ونظام الإسلام ، أحدَ الأئمة الأربعة الأطواد ، أفضل العلماء ، وأعلم الفضلاء ، وصدر البدور ، وبدر الصدور ، وهاديَ الدعاة ، وداعيَ الهداة ، عقائد الأصول منقدِحة من زناد كلماته ، وقواعد الفروع مقترَحة من عداد نغماته[1] ، فاز بطهارة الأعراق ، ودماثة الأخلاق ، درة الأصداف ، وغرة الألطاف ، من صميم آل عبد مناف ، كشف الغمة عن الأمة ، وصرف عنهم الملمة المدلهمة[2] ، بعلم كالبحر اللجي ، ورأي كالبدر في الليل الدجوجي[3] ، مذهبه مؤيَّد بنصوص القرآن وسنة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، قد أسس بنيانه علىٰ تقوىٰ من الله عز وجل

(١) في نسخة : (منتخبة من عداد نعمائه) .
(٢) **المُدْلَهِمَّة** : المظلمة .
(٣) **الدَّجوجي** : من الدُّجَّة ، وهي شدة الظلمة في الليل .

ورضوان ، واتفق كل مَن قَرُب من الإنصاف ، وبعد عن الاعتساف من الأئمة العالِمين العاملين ، والعلماء الراسخين الربانيين ، أنه المعني في الحديث الثابت من غير ما طريق ، منها : ما رواه وهب بن كيسان ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللهم ؛ اهد قريشاً ، فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً » إنما هو الشافعي رحمه الله ، المطلبي ، سيد فقهاء عصره ، وما راموا شططاً ، ولا حاولوا فرطاً ، بل قالوا حقاً ، وفاهوا صدقاً ، وتَبيَّن ذلك لمن نظر بالاستدلال ، وبصر بالاستقلال ، وتيقن أن العلماء القرشيين من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، كانت هممهم مقصورة في الاجتهاد علىٰ إعلاء كلمة الله العليا في الغزو والجهاد ، ولم يُرزَقوا خُلُوَّ بال ، ولا نُمُوَّ حال ، ولا فراغاً للتصدي للتصنيف والتدريس ، ولا للتحري لنشر ما عندهم من فنون العلم وتشييد قواعده والتأسيس ، وإنما يُذكر عنهم مسائلُ معدودة من قضايا مقصودة وحوادث مشهودة ، وهي غيض من فيض ، وهلم جراً إلىٰ زمان الشافعي رحمه الله ، فلما آن أوانه ، وبرق للشائمين[1] بروقه ، وشرق للناظرين شروقه ، وهدرت شقاشق فصاحته[2] ، وزهرت شقائق صباحته ، وكشفت أستارَ الأسرار علومُه ، وعُرفت في دقائق الحقائق رسومه . . فاق العالمين فطنة وذكاء ، وصارت المشكلات بإيضاحه منحلَّة العُقَد منقلة العدد ، وعادَ ليل المعضلات المسدف[3] المُغدِر[4] بأنوار أدلته كالنهار المشرق المسفر ، رموزه مفاتيح الكنوز ، وكنوزه مصابيح الرموز ، دلائله نفائس الأدلة ، وفضائله عرائس الأكِلَّة[5] ، نشر العلوم الشرعية ، وطوى الرسوم البدعية ، وانتشر مذهبه في الآفاق ، فصار كالنور في الأحداق ، بلغ في غُلَواءِ[6] الشباب رتبة الاجتهاد ، بملابسة الجد والاجتهاد ، مصنفاته في علوم التوحيد ، ومؤلفاته في قواعد الفقه والتمهيد ، وأماليه في الأصول والفروع ، وأحكام

---

(١) **الشائم** : الذي ينظر البرق من بعيد ، ويرىٰ أين يقصد ، وأين يمطر .

(٢) **الهدير** : ترداد الصوت ، **الشقاشق** : جمع شَقْشِقَة ، وهي : شيء كالرئة يخرجه البعير إذا هاج ، ثم بعد ذلك شبهوا الخطيب المكثار البليغ به فقالوا : الخطباء الشقاشق .

(٣) **المسدف** : المظلم .

(٤) **المغدر** : المظلم .

(٥) أي : كالعرائس المخبَّأة تحت الأكلة ، **والأكِلَّة** : جمع إكليل ، وهو : ما يوضع علىٰ رأس العروس ليلة عرسها ، وهو هنا كناية عن المسائل التي أتىٰ بها الإمام الشافعي .

(٦) **غُلَواءُ الشباب** : أوله وسرعته .

العبادات والجراح والبيوع ، وتوضيح الأسانيد ، وتوشيح المسانيد[1] ، وتعديل الرجال النَّقَلة ، وتضعيف الرواة الحَمَلة ، كل ذلك بالنظر والاستدلال ، ومناقشة الكماة الأبطال ، والمحاورات في العلوم ، والمناظرات مع الخصوم ، فاستحق بهـٰذه الفواضل والفضائل ، أن يكون هو المراد ـ والله أعلم ـ بهـٰذا الحديث ، كما أولته الأفاضل ، دون غيره من سائر العلماء الأماثل ، ممن رزق علماً غزيراً ، ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) **توشيح المسانيد** : تزيينها ؛ لأن الأصل في الوشاح أنه من حلي المرأة .

ومنهم الإمام :

مالك بن أنس

رضي الله عنه

قال شيخ الإسلام في عصره محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ :

هو أبو عبد الله ، مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان ـ بالغين المعجمة ، والياء المثناة تحت ـ بن خُثَيل ـ بالخاء المعجمة المضمومة ، وفتح الثاء المثلثة ـ بن عمرو بن الحارث[1] ، الأصبحي ، المدني ، إمام دار الهجرة ، وأحد أئمة المذاهب المتبوعة ، وهو من تابعي التابعين .

سمع نافعاً مولى ابن عمر رضي الله عنهما ، ومحمد بن المنكدر ، وأبا الزبير ، والزهري ، وعبد الله بن دينار ، وأبا حازم ، وخلائق آخرين .

روىٰ عنه يحيى الأنصاري ، والزهري ، وهما من شيوخه ، وابن جريج ، ويزيد بن عبد الله بن الهاد ، والأوزاعي ، والثوري ، وابن عيينة ، وشعبة ، والليث بن سعد ، وابن المبارك ، وابن علية ، والشافعي ، وابن وهب ، وإبراهيم بن طهمان[2] ، والقعنبي ، وعبد الله بن يوسف ، وعبد الله بن نافع ، ويحيى القطان ، وابن مهدي ، ومعن بن عيسىٰ ، وعبد الرحمٰن بن القاسم المصري ، وأبو عاصم النبيل ، وروح بن عبادة ، والوليد بن مسلم ، ويحيى بن يحيى النيسابوري ، ويحيى بن عبد الله بن بكير ، وعبد العزيز الأويسي ، وقتيبة ، وسعيد ابن أبي مريم ، وسعيد بن كثير ، ومطرف بن عبد الله اليساري ، وورقاء بن عمر ، وخلائق آخرون .

وأجمعت العلماء علىٰ إمامته ، وجلالته ، وعظيم سيادته ، وتبجيله ، وتوقيره ، والإذعان له في الحفظ والتثبت ، وتعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) وهو ذو أصبح الأصبحي ، والأصبحيين من حمير ، وحمير من قحطان ، فهو عربي أصبحي بالاتفاق .

(٢) في « التهذيب » : (ابن هميان) .

وقد قال البخاري : أصح الأسانيد : مالك عن نافع عن ابن عمر .

وفي هٰذه المسألة خلاف ، قال الإمام أبو منصور التميمي : فعلىٰ هٰذا : أصحها : الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر ؛ لأنه أجلُّ من روىٰ عن مالك .

وقال سفيان : ما كان أشد انتقاد مالك للرجال .

وقال ابن المديني : لا أعلم مالكاً ترك إنساناً إلا مَنْ في حديثه شيء .

وقال أحمد ابن حنبل وابن معين وابن المديني : أثبت أصحاب الزهري مالك .

وقال أبو حاتم : مالك ثقة ، وهو إمام أهل الحجاز ، وهو أثبت أصحاب الزهري .

وقال الشافعي : إذا جاء الأثر . . فمالك النجم ، ومالك وابن عيينة القرينان .

وقال الشافعي : لولا مالك وسفيان بن عيينة . . لذهب علم الحجاز .

وكان مالك إذا شك في شيء من الحديث . . تركه كله .

وقال أيضاً : مالك معلمي ، وعنه أخذنا العلم .

وقال حرملة : لم يكن الشافعي يُقدِّم علىٰ مالك أحداً في الحديث .

وقال وهب بن خالد : ما بين المشرق والمغرب رجل آمَنُ علىٰ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من مالك .

ورُوِّينا بالإسناد الصحيح في « الترمذي » [٢٦٨٠] وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن يضرب الناس آباط المُطِيِّ في طلب العلم ، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » قال الترمذي : حديث حسن ، قال : وقد روي عن سفيان بن عيينة أنه قال : هو مالك بن أنس .

ورُوِّينا عن أبي سلمة الخزاعي قال : كان مالك إذا أراد أن يخرج يُحدِّثَ . . توضأ وضوءه للصلاة ، ولبس أحسن ثيابه ، ومشط لحيته ، فقيل له في ذلك ، فقال : أُوَقِّرُ به حديثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورُوِّينا عن معن بن عيسىٰ قال : كان مالك إذا أراد أن يجلس للحديث . . اغتسل ، وتبخر ، وتطيب ، وإن رفع أحدٌ صوته في مجلسه . . قال : قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ فمن رفع صوته عند حديث النبي صلى الله عليه وسلم . . فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورُوِّينا عن حبيب الوراق قال : دخلت علىٰ مالك ، فسألته عن ثلاثة رجال ، لِمَ لم تروِ عنهم ؟ فأطرق ، ثم رفع رأسه ، وقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ـ وكان كثيراً ما يقولها ـ فقال : يا حبيب ؛ أدركتُ هـٰذا المسجد وفيه سبعون شيخاً ممن أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورووا عن التابعين ، ولم نحمل الحديث إلا عن أهله .

وقال بشر بن عمر : سألت مالكاً عن رجل ، فقال : أرأيته في كتبي ؟ قلت : لا ، قال : لو كان ثقة . . لرأيته في كتبي .

ورُوِّينا عن عبد الله بن يوسف ، عن خلف بن عمر قال : كنت عند مالك ، فأتاه ابن كثير قارىء الحديث(١) ، فناوله رقعة ، فنظر فيها مالك ، ثم جعلها تحت مصلاه ، فلما قام مَن عندَه . . ذهبتُ أقوم ، فقال : اجلس يا خلف ، وناولني الرقعة ، فإذا فيها : رأيت الليلة في منامي كأنه يقال لي : هـٰذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس والناس حوله يقولون له : يا رسول الله ؛ أعطنا ، يا رسول الله ؛ مر لنا ، فقال لهم : « إني قد تركت تحت المنبر كنزاً ، وقد أمرت مالكاً أن يقسمه فيكم ، فاذهبوا إلىٰ مالك » ، فانصرف الناس ، وبعضهم يقول لبعض : ما ترون مالكاً فاعلاً ، فقال بعضهم : يعمل ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَرَقَّ مالك وبكىٰ ، ثم خرجت من عنده وتركته علىٰ تلك الحال .

وروى ابن أبي حاتم ، عن عبد الرحمـٰن بن مهدي قال : أئمة الناس في زمانهم أربعة : سفيان الثوري بالكوفة ، ومالك بالحجاز ، والأوزاعي بالشام ، وحماد بن زيد بالبصرة .

وبإسناده الصحيح عن الشافعي رحمه الله قال : ما في الأرض كتاب من العلم أكثرُ صواباً من « موطأ مالك » ، قال العلماء : إنما قال الشافعي هـٰذا قبل وجود صحيحي « البخاري » و« مسلم » فهُما أصح من الموطأ باتفاق العلماء .

وعن أيوب بن سويد الرملي قال : ما رأيت أحداً قط أجود حديثاً من مالك بن أنس .

وعن القعنبي قال : كنا عند حماد بن زيد ، فجاءه نعي مالك بن أنس ، فقال : رحم الله أبا عبد الله ما خلَّف بعده مثلَه .

وعن عبد الرحمـٰن بن مهدي قال : ما أُقدِّم علىٰ مالك في صحة الحديث أحداً .

وعن يحيى بن سعيد القطان قال : ما في القوم أصح حديثاً من مالك .

---

(١) في « التهذيب » و« تهذيب الكمال » : (قارىء المدينة) .

وعن أحمد ابن حنبل قال : مالك أثبت أصحاب الزهري في كل شيء .

وكذا قال يحيى بن معين وعمرو بن علي ، قالوا : أثبت أصحاب الزهري مالك .

وقيل لأحمد ابن حنبل : الرجل يحب أن يحفظ حديث رجل بعينه ؟ قال : يحفظ حديث مالك ، قيل : فالرأي ؟ قال : رأي مالك .

وقال أبو حاتم الرازي : مالك ثقة ، إمام أهل الحجاز ، وهو أثبت أصحاب الزهري ، وإذا اختلفوا . . حُكِمَ لمالك ، ومالك نَقّى الرجال ، نَقّى الحديث ، وهو أتقن حديثاً من الأوزاعي والثوري .

قال : وحدثنا أحمد بن سنان قال : سمعت عبد الرحمـٰن بن مهدي يقول : كنا عند مالك ، فجاءه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ جئتك من مسيرة ستة أشهر ، حمَّلني أهل بلدي مسألة أسألك عنها ، قال : اسأل ، فسأله ، فقال : لا أحسن ، فقُطِع[1] بالرجل كأنه قد جاء إلىٰ من يعلم كل شيء ، قال : فأي شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم ؟ قال : قل : قال لي مالك بن أنس : لا أحسن .

وعن خالد بن نزار الأيلي قال : ما رأيت أحداً أقرأ لكتاب الله عز وجل من مالك رحمه الله .

وعن ابن وهب قال : قيل لأخت مالك : ما كان شغله في بيته ؟ قالت : المصحف والتلاوة .

وعن علي بن المديني قال : لم يكن بالمدينة أعلم بمذهب تابعيهم من مالك بن أنس .

وعن شعبة قال : دخلت المدينة ونافع حي ، ولمالك حلقة .

وعن أبي مصعب قال : رأيت معن بن يحيىٰ جالساً على العتبة ، وما ينطق مالك بشيء . . إلا كتبه .

وعن أبي مصعب أيضاً قال : كانوا يزدحمون علىٰ باب مالك ، فيقتتلون على الباب من الزحام ، وكنا نكون عند مالك فلا يكلم هـٰذا هـٰذا ، ولا يلتفت ذا إلىٰ ذا ، والناس مائلون برؤوسهم هـٰكذا ، وكانت السلاطين تهابه وهم قائلون ومستمعون .

وكان يقول في المسألة : لا ، أو نعم ، فلا يقال له : مِن أين قلت هـٰذا ؟

---

(١) قُطِعَ به : انقطع رجاؤه .

وعن محمد بن رمح قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم من أربعين سنة في المنام ، فقلت : يا رسول الله ؛ مالك والليث يختلفان في مسألة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مالك ، مالك ، مالك ورث جَدي » يعني : إبراهيم صلى الله علىٰ نبينا وعليه وسلم .

وعن بكر قال : رأيت في النوم أني دخلت الجنة ، فرأيت الأوزاعي وسفيان الثوري ، ولم أر مالكاً ، فقلت : وأين مالك ؟ قالوا : وأين مالك ؟ وأين مالك ؟ رُفِع مالك ، فما زال يقول : وأين مالك ؟ رفع مالك ، حتىٰ سقطت قلنسوته .

وقال الإمام أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين الدولعي في كتابه « الرسالة المصنفة في بيان سبيل السنة المشرفة » : أخذ مالك عن تسع مئة شيخ ، فيهم ثلاث مئة من التابعين ، وست مئة من تابعيهم ، ممن اختاره وارتضىٰ دينه وفِقْهَهُ وقيامه بحق الرواية وشروطها ، وحصلت الثقة به ، وتَرَكَ الروايةَ عن أهل دين وصلاح لـٰكن لا يعرفون بالرواية .

وأحوال مالك ومناقبه كثيرة مشهورة .

توفي بالمدينة في صفر ، سنة تسع وسبعين ومئة . قاله محمد بن سعد .

وقال إسماعيل بن عبد الله بن أبي أويس : مرض مالك أياماً يسيرة ، وتوفي صبيحة أربع عشرة من شهر ربيع الأول ، سنة تسع وسبعين ومئة ، وصلىٰ عليه عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، وهو يومئذ والٍ على المدينة .

ودفن بالبقيع ، وقبره بباب البقيع عليه قبة .

وولد مالك سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ، وقيل : سنة إحدىٰ وتسعين ، وقيل : سنة أربع وتسعين ، قالوا : وحُمل به في البطن ثلاث سنين .

وقال عند وفاته رحمه الله : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ . انتهىٰ[1] [« التهذيب » ٢/٧٥ـ٧٩] .

---

(١) هـٰذا هـٰذا : الأول : فاعل ، والثاني مفعول .
يقال في الليلة التي مات فيها : إن رجلاً من الأنصار رأىٰ قائلاً ينشد :

لقد أصبح الإسلام زُعزع رُكْنُه ... غداةَ ثوى الهادي لدىٰ مَلْحدِ القبرِ
إمامُ الهُدىٰ ما زال للعلم صائِناً ... عليهِ سلامُ الله في آخرِ الدَّهرِ

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال مالك رحمه الله : قد يكون الحمل ثلاث سنين ، وقد حُمل ببعض الناس ـ يعني : نفسه ـ ثلاث سنين .

وقال مطرف بن عبد الله : كان مالك طويلاً ، عظيم الهامة ، أصلع ، أبيض الرأس واللحية ، شديد البياض ، ولباسه الثياب العَدَنِيَّة الجياد .

وكان يكره حلق الشارب ، ويعيبه ، ويراه من المُثْلة .

وقال [أبو] مصعب : سمعته يقول : ما أفتيت حتىٰ شهد لي سبعون أني أهل لذلك .

وقال خَلَف بن عمر : سمعت مالكاً يقول : ما أجبت في الفتيا حتىٰ سألت من هو أعلم مني ، هل يراني موضعاً لذلك ؟ لقد سألت ربيعة ، وسألت يحيى بن سعيد ، فأمراني بذلك ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ لو نهوك ؟ قال : كنت أنتهي ، لا ينبغي للرجل أن يرىٰ نفسه أهلاً لشيء حتىٰ يسأل من هو أعلم منه .

وكان يكره أن يحدِّث في الطريق وهو قائم أو مستعجل ، وقال : أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال عبد الله بن وهب : سمعت مالكاً يقول : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما هو نور يضعه الله عز وجل في القلب .

وقيل له : ما تقول في طلب العلم ؟ فقال : حسن جميل ، ولـٰكن انظر إلىٰ ما يلزمك من حين تصبح إلىٰ حين تمسي . . فالزمه .

وسئل مالك عن مسألة ، فقال : لا أحسنها ، فقال الرجل : إني ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عنها ، فقال له : فإذا رجعت إلىٰ مكانك . . فأخبرهم أني قلت : لا أحسنها .

وقال حنبل بن إسحاق : سألت أبا عبد الله عن مالك ، فقال : مالك سيد من سادات أهل العلم ، وهو إمام في العلم والفقه ، ثم قال : ومَن مثل مالك ؟! متبع لآثار من تقدم مع أدب وعقل ، ومسانيده أشهر من أن تذكر ، وهو النجم الثاقب عند أهل النقل .

وقال ابن أبي أويس : اشتكىٰ مالك أياماً يسيرة ، فسألت بعض أهلنا عما قال عند الموت ؟ فقال : تشهَّدَ ، ثم قال : ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ ، وبلغني أنه قرأ هـٰذه الآية تفاؤلاً بما بعدها ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٠٣ـ١٠٥] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال محمد[1] بن أحمد بن راشد : سمعت أبا داوود يقول : ضرب جعفر بن سليمان مالك بن أنس في طلاق المكره[2] .

وحكىٰ لي بعض أصحاب ابن وهب عن وهب : أن مالكاً لما ضُرِب . . حمل علىٰ بعير ، فقيل له : ناد علىٰ نفسك ، قال : فقال : ألا مَن عرفني . . فقد عرفني ، ومن لم يعرفني . . فأنا مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي ، وأنا أقول : إن طلاق المُكْرَه ليس بشيء ، قال : فبلغ جعفر بن سليمان أنه ينادي علىٰ نفسه بذلك ، فقال : أدركوه ، أنزلوه .

وقال سهل[3] بن مزاحم المروزي ـ وكان من أصحاب ابن المبارك من العُبَّاد ـ قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : يا رسول الله ؛ من نسأل بعدك ؟ قال : « مالك بن أنس » .

وقال أبو عبد الله مولى الليث : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد قاعداً والناس حوله ، ومالك قائم بين يديه صلى الله عليه وسلم ، وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مسك ، وهو يأخذ منه قبضة قبضة ، فيدفعه إلىٰ مالك ، ومالك رحمه الله ينثرها على الناس ، قال مطرف : فأوَّلْتُ ذلك العلم واتباع السنة .

ومر مالك بن أنس علىٰ أبي حازم وهو يحدث ، فجازه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني لم أجد موضعاً أجلس فيه ، وكرهت أن آخذ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قائم .

وقال معن بن عيسىٰ : كان مالك بن أنس رحمه الله يتقي في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الياء والتاء ونحوها[4] .

وقال أبو يونس المدني : أنشدني بعض أصحابنا المدنيين في مالك بن أنس رحمه الله :

يَدَعُ الجوابَ فلا يُراجَعُ هيبةً والسائلونَ نواكسُ الأذقانِ

---

(١) في « الحلية » : (قال أبو بكر ابن محمد بن أحمد بن راشد) .

(٢) وكانت هـٰذه محنة الإمام مالك ـ رحمه الله ـ وسببها الحسد ؛ لشهرته بين الناس بعلمه ورأيه ، فسعىٰ به الحاسدون إلىٰ والي المدينة ـ جعفر بن سليمان ـ ونقلوا إليه أنه لا يرىٰ أيمان بيعتكم بشيء ، فهو يقول بعدم وقوع طلاق المُكْرَه والمضطهد ، فغضب جعفر ، ودعا مالكاً ، واحتج عليه بما رُفع إليه ، فأمر بتجريده ، وضربه بالسياط ، قال راوي الخبر : فوالله ؛ ما زال مالك بعدُ في رِفعة وعلو . انظر « السير » (٨/ ٨٠) .

(٣) في « الحلية » : إسماعيل بن مزاحم المروزي .

(٤) **الياء والتاء** : أي مثل : يعملون ، وتعملون .

أدب الوقار وعز سلطان التقىٰ فهو المطاع وليس ذا سلطان[1]

وقال شعبة : أتيت المدينة بعد موت نافع بسَنة ، فإذا الحلقة لمالك بن أنس .

وقال قتيبة بن سعيد : قدمت المدينة ومالك حي ، فتقدمت إلىٰ فامي[2] ، فقلت له : عندكم خَلُّ خمرٍ ؟ فقال : يا سبحان الله! في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! قال : ثم قدمت المدينة مرة ثانية بعد موت مالك بن أنس ، فذكرت لهم ذلك ، فلم ينكروا عليَّ .

وقال خالد بن خداش : ودعت مالك بن أنس ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ أوصني ، قال : تقوى الله ، وطلب الحديث من عند أهله .

وقال ابن مهدي : عن رجل ، عن مالك بن أنس ، قال مالك : بلغني أن العلماء يُسألون يوم القيامة عما يُسأل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وسئل مالك بن أنس رحمه الله عن الرجل يدعو فيقول : يا سيدي ، فقال : يعجبني أن يدعو بدعاء الأنبياء : ربنا ، ربنا .

وقال مصعب بن وهب : سمعت مالكاً يقول : قال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : تأتي أمة محمد صلى الله عليه وسلم علماءَ حكماء ، كأنهم من الفقه أنبياءُ ، قال مالك : أراهم صدر هـٰذه الأمة ، قال : وحق علىٰ من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية ، والعلم حَسَن لمن رُزق خيرَه ، وهو قَسْم من الله تعالىٰ ، فلا تمكِّن الناس من نفسك .

وقال : من سعادة المرء أن يوفَّق للخير ، وإن من سعادة المرء ألاَّ يخطىء[3] ، ولا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيعه ؛ فإنه ذل وإهانة للعلم .

وقال مالك رحمه الله : بلغني أن لقمان قال لابنه : يا بني ؛ ليس غنىً كصحة ، ولا نعيم كطيب نفس ، يا بني ؛ إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون ، وهُمْ إلى الآخرة سراع

---

(١) ذكر في « السير » (٨/١١٣) برواية أخرىٰ :

عــزُّ الــوقـارِ ونـورُ سلطـانِ التُّقـىٰ فهــو المهيــبُ وليــس ذا سلطــانِ

(٢) **الفامي** : البقال .

(٣) في « الحلية » : (وإن من شقوة المرء ألاَّ يزال يخطىء) ، وفي نسخة : (وإن من شقاوة المرء ألاَّ يخطىء) .

يذهبون ، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت وصرت إليها ، واستقبلت الآخرة ، وإن داراً تسير إليها . . أقربُ من دار تخرج منها .

وقال القعنبي : سمعت مالكاً رحمه الله يقول : كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنة يتعلم منه .

وقال عبد الله بن نافع : جالست مالكاً أربعين سنة أو خمساً وثلاثين سنة ، كل يوم أبكِّر وأهجِّر وأروح ، ما سمعته يقرأ علىٰ إنسان قط . [« الحلية » ٦/٣١٦ـ٣٢١] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : روى ابن الأثير في « جامع الأصول » : عن الشافعي أنه يقول : رأيت علىٰ باب مالك كراعاً(١) من أفراس خراسان وبغال مضر ، ما رأيت أحسن منه ، فقلت له : ما أحسنه!! فقال : هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله ، فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها ، فقال : أنا أستحي من الله عز وجل أن أطأ تربة فيها قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة . انتهىٰ [١/ ١٨٤] .

وقال أرباب السير : وقع في زمان الإمام مالك واقعة غريبة ، وهي أن امرأة غسلت امرأة ، ثم ضربت بيدها علىٰ فرجها ، وقالت لها : قاتلك الله ما كان أزناك ، فلصقت يد الغاسلة علىٰ فرج الميتة ، وتحير الناس في خلاصها ، فسألوا مالكاً ، فقال : هـٰذه الغاسلة قذفت الميتة ، فخذوا منها حد القذف ، فأخذ منها حد القذف فخلصت يدها .

وكم مثل هـٰذه المناقب لهـٰذا الطود الأشم ، والبحر الزاخر الخِضَم .

قال أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : [قال عبد الله بن نافع] : وسمعت معن بن عيسىٰ يقول : ما من حديث أحدثُ به عن مالك . . إلا وقد سمعته منه نحواً أو أكثر من ثلاثين مرة .

وقال مالك : إذا لم يكن للإنسان في نفسه خير . . لم يكن للناس فيه خير .

وعن مطرِّف قال : قال لي مالك : ما يقول الناس فيَّ ؟ قال : قلت : أما الصديق فيثني ، وأما العدو فيقع ، فقال : ما زال الناس هـٰكذا لهم صديق وعدو ، ولـٰكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها .

وقال عبد الرحمـٰن بن القاسم : إنما أقتدي في دِيني برجلين : مالك بن أنس في علمه ، وسليمان بن القاسم في ورعه .

---

(١) **الكُراع** : اسم لجميع الخيل .

وقال القعنبي : أتينا سفيان بن عيينة ، فرأيته حزيناً ، فسألت عن ذلك ، فقيل : بلغه موت مالك ، ثم قال سفيان : ما تَرك على الأرض مثلَه .

وقال مالك : لو كان لي سلطان علىٰ من يفسر القرآن برأيه . . لضربت رأسه(١) .

وسئل أحمد ابن حنبل عن كتاب مالك ، فقال : ما أحسنه لمن تدبر به!

وقال الشافعي : إذا جاء الحديث عن مالك . . فاشدد يديك به .

وكان مالك ينتقي الرجال ، ولا يحدث عن كل أحد .

وكان يقول : لا يؤخذ العلم إلا عمن يعرف ما يقول .

وقال مطرف المديني : قال مالك : أَوَيُكتب عن مثل عطَّاف بن خالد ؟ لقد أدركت في هـٰذا المسجد سبعين شيخاً أو نحوه ، ما كتبت عنهم حديثاً ، إنما يُكتب الحديث عن أهله ، قوم جرىٰ فيهم الحديث ، مثل عبيدِ الله بن عمر ، وأشباهه .

وفي راوية : ما أخذت العلم . . إلا عن الثقات المأمونين .

وكان كثيراً ما يقول : لا أدري ؛ لشدة ورعه ، وتحفظه فيما يقول .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي رحمه الله : رأيت رجلاً جاء إلىٰ مالك يسأله عن شيء أياماً ما يجيبه ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ إني أريد الخروج ، قال : فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه ، وقال : ما شاء الله يا هـٰذا ، إني إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير ، وليس أُحسن مسألتك هـٰذه .

وقال سعيد بن سليمان : ما سمعت مالكاً يُفتي في شيء . . إلا تلا هـٰذه الآية : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ .

وقيل له : يا أبا عبد الله ؛ يأتيك ناس من بلدان شتىٰ قد أَنضَوا مطاياهم(٢) ، وأنفقوا نفقاتهم ، يسألونك عما جعل الله عز وجل لهم عندك من العلم ، تقول : لا أدري! فقال مالك : يأتيني الشامي من شامه ، والعراقي من عراقه ، والمصري من مصره ، فيسألوني عن الشيء لعلي أن يبدو لي فيه غير ما أجيب فيه ، فأُخبر الليث بن سعد بذلك ، فبكىٰ ، وقال : مالك أقوىٰ عليه من الليث ، واللهِ ؛ إن الليث أضعف .

---

(١) لعل هـٰذا الكلام يُحمل على التفسير بالرأي الذي لا دليل عليه ، والله أعلم .

(٢) أَنضَوا مطاياهم : أي أتعبوها في السَّير حتىٰ هزلت .

قال مالك : لو أن رجلاً ركب الكبائر كلها بعد ألاَّ يشرك بالله شيئاً ، ثم تخلىٰ من هـٰذه الأهواء والبدع . . لرجوت أن ينجو إن شاء الله تعالىٰ[1] .

وقال جعفر بن عبد الله : كنا عند مالك رحمه الله ، فجاءه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ كيف استوىٰ ؟ قال : فما وَجَدَ مالك من شيء ما وَجَدَ من مسألته ، فنظر إلى الأرض ، وجعل ينكت بعود في يده حتىٰ علاه الرُّحَضاء ـ يعني : العرَق ـ ثم رفع رأسه ، ورمىٰ بالعود ، وقال : الكيف منه غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأظنك صاحبَ بدعة ، وأَمر به فأُخرج .

وقال محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة[2] : قال : سمعت وكيعاً يقول : سمعت مالكاً يقول : واعجباه ، يسأل جعفر وأبو جعفر عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وعن عبد الله بن وهب قال : حدثني مالك بن أنس رحمه الله قال : بلغه أن راهباً كان بالشام ، فلما رأىٰ أوائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قدموا إلى الشام رضي الله عنهم منهم معاذ بن جبل ونظراؤه . . قال : والذي نفسي بيده ؛ ما بلغ حواريو عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام الذين صلبوا على الخشب ونشروا بالمناشير من الاجتهاد . . ما بلغ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قال عبد الله بن وهب : فقلت لمالك : تسميهم لي ؟ فسمىٰ أبا عبيدة ، ومعاذاً ، وبلالاً ، وسعد بن عبادة ، رضي الله عنهم .

وقال مالك : قدم صالح بن عليٍّ الشام ، فسأل عن قبر عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فلم يجد أحداً يخبره حتىٰ دُلَّ علىٰ راهب ، فأتىٰ إليه ، فسأله عنه ، فقال : أقبر الصدِّيق تريدون ؟ هو في تلك المزرعة .

وقال مالك رحمه الله : بلغني أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام كان يقول : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالىٰ . . فتقسو قلوبكم ؛ فإن القلب القاسي بعيد من الله عز وجل ، ولـٰكن لا تعلمون ، إنما الناس رجلان : مبتلىٰ ومعافىٰ ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله تعالىٰ على العافية .

---

(١) وفي هـٰذا القول إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ .

(٢) في نسخة : (أبي زرعة) .

وقيل للقمان الحكيم : ما الذي بلغ بك ما نرى ؟ قال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وتَرْكِيْ ما لا يعنيني .

وقال مالك : عن هشام ، عن عروة ، عن أبيه ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنهم : أيها الناس ؛ اليأس هو الغنىٰ ؛ فإنه من يئس من شيء . . فقد استغنىٰ عنه .

وكان نقش خاتم مالك بن أنس رحمه الله : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فقيل له في ذلك ، فقال : ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ❁ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقال الشافعي رحمه الله : قالت لي عمتي ونحن بمكة : رأيتُ في هٰذه الليلة عجباً ، فقلت لها : وما هو ؟ قالت : رأيت كأن قائلاً يقول : مات الليلةَ أعلمُ أهل الأرض ، قال الشافعي : فحسَبْنا ذلك ؛ فإذا هو يومَ مات مالك بن أنس رحمه الله .

وقال مالك لفتىً من قريش : يا بن أخي ؛ تعلَّم الأدب قبل أن تتعلم العلم .

وقال نعيم بن حماد : سمعت ابن المبارك يقول : ما رأيت رجلاً ارتفع مثل مالك بن أنس ، ليس له كثير صلاة ولا صيام ، إلا أن يكون له سريرة .

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي : قلت لمالك يوماً ـ وأردت أن أرققه علىٰ نفسي في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : يا أبا عبد الله ؛ قد غبت عن أهلي وما أدري ما حدث عليهم بعدي ، قال : فتبسم ، ثم قال : وأنا قد غبت عن أهلي هاهُمْ في الدار الأخرىٰ ، لا أدري ما حدث عليهم .

وقال : ليس شيء أشبه بثمار الجنة من الموز ؛ لأنك لا تطلبه في شتاء ولا صيف . . إلا وجدته ، وقال تعالىٰ : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ ﴾ .

وقال مالك : لا يبلغ أحد ما يريد من العلم حتىٰ يُضِرَّ به الفقر ، ويؤثره علىٰ كل حاجة .

وقال أبو زرعة : سمعت أبا مسهر يقول : سأل هارونُ الرشيد مالكَ بن أنس : هل لك من دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، وقال : اشتر بها داراً ، ثم أراد الرشيد الرجوع إلىٰ بغداد ، فقال لمالك : تعال معنا ؛ فإني قد عزمت أن أحمل الناس علىٰ « الموطأ » ، فقال له مالك : ليس إلىٰ هٰذا سبيل ؛ وذلك لأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تفرقوا بعده في الأمصار ، وحدثوا ، وعند كل أهل مِصر علم ، ولا سبيل إلى الخروج

معك ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون »(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد »(٢) ، وهـٰذه دنانيركم ، إن شئتم . . فخذوها ، وإن شئتم . . فدعوا .

وقال أبو حاتم الرازي : سمعت أحمد بن سنان الواسطي يقول : سمعت عبد الرحمـٰن بن مهدي يقول : سفيان الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السُّنَّة ، والأوزاعي إمام في السُّنَّة وليس بإمام في الحديث ، ومالك بن أنس إمام فيهما جميعاً .

وقال عبد الله بن عبد الحكم : سمعت مالكاً يقول : شاورني هارون الرشيد في ثلاثة : في أن يعلق « الموطأ » في الكعبة ويَحمِل الناسَ علىٰ ما فيه ، وفي أن ينقض منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجعله من جوهر وذهب وفضة ، وفي أن يقدم نافع ابن أبي نعيم إماماً يصلي بالناس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ أما تعليق « الموطأ » في الكعبة . . فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في الآفاق ، وكل مجتهد مصيب ، وأما نقض منبر النبي صلى الله عليه وسلم واتخاذك إياه من جوهر وذهب وفضة . . فإني لا أرىٰ أن يُحْرَم الناس أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما تقديمك نافعاً . . فإن نافعاً إمام في القراءة ، ولا يؤمَن أن يبدر منه بادرة في المحراب ، فتُحفَظَ عليه ، فقال : وفقك الله يا أبا عبد الله . انتهىٰ [« الحلية » ٦/ ٣٢١ـ٣٣٢] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : في حفظي : أن هارون الرشيد استفتىٰ مالكاً : أيما المصيب في بناء الكعبة : عبد الله بن الزبير ، أو الحجاج ؟ فقال : عبد الله بن الزبير ، فقال : أنا أبني البيت علىٰ ما كان عليه في زمن عبد الله بن الزبير ، فقال : لا أرىٰ ذلك ؛ لئلا يصير بيت الله عز وجل عرضة للخراب ، فتركه ، والله أعلم . انتهىٰ .

وقال أبو القاسم القشيري : لما توفي الإمام مالك رحمه الله تعالىٰ . . رآه بعض أصحابه في المنام ، فقال له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة : سبحان الحي الذي لا يموت .

وعن بكر بن سليم الصواف قال : دخلنا علىٰ مالك بن أنس في العشية التي قبض فيها ،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (١٧٧٦) ، ومسلم (١٣٨١) .
(٢) أخرجه بنحوه البخاري (١٧٨٤) ، ومسلم (١٣٨٣) .

فقلنا : يا أبا عبد الله ؛ كيف تجدك ؟ فقال : ما أدري ما أقول لكم ، إلا أنكم ستُعاينون من لطف الله عز وجل ما لم يكن لكم في حساب ، ثم ما برحنا حتىٰ أغمضناه ، رحمه الله تعالىٰ . [انتهىٰ « الرسالة » ٣٠٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو حنيفة
رضي الله عنه

قال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : هو الإمام البارع ، أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطىٰ ، بضم الزاي وفتح الطاء .

قال الشيخ أبو إسحاق في « الطبقات » : هو النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه ، مولىٰ تيم الله بن ثعلبة .

ولد سنة ثمانين من الهجرة ، وتوفي ببغداد سنة خمسين ومئة ، وهو ابن سبعين سنة .

أخذ الفقه عن حماد ابن أبي سليمان ، قال : وكان في زمنه أربعة من الصحابة : أنس بن مالك ، وعبد الله ابن أبي أوفىٰ ، وسهل بن سعد ، وأبو الطفيل رضي الله عنهم ، ولم يأخذ عن أحد منهم : [انتهىٰ « التهذيب » ٢/٢١٦ـ٢١٨] .

قال الخطيب البغدادي في « التاريخ » : هو أبو حنيفة التيمي ، إمام أصحاب الرأي ، وفقيه أهل العراق .

رأىٰ أنس بن مالك ، وسمع : عطاء ابن أبي رباح ، وأبا إسحاق السبيعي ، ومحارب بن دثار ، والهيثم بن حبيب الصواف ، وقيس بن مسلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافعاً مولى ابن عمر ، وهشام بن عروة ، ويزيد الفقير ، وسماك بن حرب ، وعلقمة بن مرثد ، وعطية العوفي ، وعبد العزيز بن رفيع ، وعبد الكريم أبا أمية ، وغيرهم .

وروىٰ عنه : أبو يحيى الحِمَّانيُّ ، وهشيم بن بشير ، وعباد بن العوام ، وعبد الله بن المبارك ، ووكيع بن الجراح ، ويزيد بن هارون ، وعلي بن عاصم ، ويحيى بن نصر ، وأبو يوسف القاضي ، ومحمد بن الحسن ، وعمرو بن محمد العَنْقَزي ، وهوذة بن خليفة ، وأبو عبد الرحمـٰن المقرىء ، وعبد الرزاق بن همام ، وآخرون .

قال الخطيب : هو من أهل الكوفة ، نقله أبو جعفر المنصور إلىٰ بغداد ، فأقام بها حتىٰ

مات ، ودفن بالجانب الشرقي منها في مقبرة الخيزران ، وقبره هناك ظاهر معروف .

ثم روى الخطيب البغدادي رحمه الله بإسناده عن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الإمام الحافظ رحمه الله قال : كان أبو حنيفة رحمه الله خزازاً يبيع الخز .

وعن إسماعيل بن حماد ابن أبي حنيفة قال : لما ولد ثابت والد جدي أبي حنيفة . . ذهب به أبوه إلىٰ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو صغير ، فدعا له بالبركة ولذريته ، ونحن نرجو من الله تعالىٰ أن يكون الله عز وجل قد استجاب ذلك من علي بن أبي طالب فينا .

وبإسناده عن عبد الله بن عمرو الرَّقِّي قال : كلم ابن هبيرة أبا حنيفة أن يلي قضاء الكوفة ، فأبىٰ عليه ، فضربه مئة سوط وعشرة أسواط ، في كل يوم عشرة أسواط ، وهو على الامتناع ، فلما رأىٰ ذلك . . خلىٰ سبيله .

وكان زيد بن عمر بن هبيرة عاملاً على العراقين : البصرة والكوفة في أيام مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية .

وعن أبي بكر بن عياش رحمه الله قال : ضُرِب أبو حنيفة رحمه الله على القضاء .

وعن الربيع بن عاصم قال : أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة ، فقدمت بأبي حنيفة ، فأراده علىٰ بيت المال . . فأبىٰ ، فضربه أسواطاً .

وعن يحيى بن عبد الحميد ، عن أبيه قال : كان أبو حنيفة رحمه الله كل يوم أو يومين من الأيام يُضرَب ليدخل في القضاء ويأبىٰ ، ولقد بكىٰ في بعض الأيام ، فلما أطلق . . **قال : كان غم والدتي أشد علي من الضرب** .

وعن إسماعيل بن سالم البغدادي قال : أُكره أبو حنيفة رحمه الله على الدخول في القضاء . . فلم يقبل .

وكان أحمد ابن حنبل رحمه الله إذا ذكر ذلك . . بكىٰ وترحم عليه .

وبإسناده عن بشر بن الوليد الكندي قال : أشخص[1] المنصور أبو جعفر أمير المؤمنين أبا حنيفة ؛ يعني : من الكوفة إلىٰ بغداد ، فأراده علىٰ أن يوليه القضاء فأبىٰ ، فحلف عليه ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة رحمه الله ألاَّ يفعل ، فحلف المنصور ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة

---

(١) **أشخص** : سار به من بلدٍ إلىٰ بلدٍ .

ألاَّ يفعل ، فقال الربيع الحاجب : ألا ترىٰ أمير المؤمنين يحلف ؟ فقال أبو حنيفة رحمه الله : أمير المؤمنين علىٰ كفارته أقدَرُ مني علىٰ كفارة أيماني ، فأمر به إلى الحبس في الوقت ، والصحيح : أنه توفي وهو في السجن .

وبإسناده عن مغيث قال : قال خارجة بن يزيد : دعا أبو جعفر أبا حنيفة إلى القضاء ، فأبىٰ عليه ، فحبسه ، ثم دعا به ، فقال : أترغب عما نحن فيه ؟ فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، لا أصلُحُ للقضاء ، فقال له : كذبت ، ثم عرض عليه الثانية ، فقال أبو حنيفة : قد حكم علي أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء ؛ لأنه نسبني إلى الكذب ، فإن كنت كاذباً . فلا أصلح ، وإن كنت صادقاً . . فقد أخبرت أمير المؤمنين بأني لا أصلح ، فرده إلى الحبس .

وبإسناده عن الربيع بن يونس قال : رأيت أمير المؤمنين المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء وهو يقول له : اتق الله ولا تترك في أمانتك إلا من يخاف الله ، والله ؛ ما أنا مأمون الرضىٰ ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ فلا أصلح لذلك ، فقال له : كذبت ، أنت تصلح ، فقال : قد حكمت علىٰ نفسك ، كيف يحل لك أن تولي قاضياً علىٰ أمانتك وهو كذاب ؟!

وقيل : إنه قعد في القضاء يومين وبعض الثالث ، فلما كان بعد يومين . . اشتكىٰ ، فمرض ستة أيام ، ثم توفي رحمه الله .

زاد في رواية صاحب « المختصر » : قال له أبو حنيفة : ولو اتجه الحكم عليك ثم تهددني أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم . . لاخترت أن أغرق ، ولك حاشية يحتاجون إلىٰ من يكرمهم لك ولا أصلح لذلك . انتهىٰ [« تاريخ بغداد » ١٣/ ٣٢٣ـ٣٢٩] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : قال أبو نعيم : كان أبو حنيفة حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، حسن المجلس ، كثير الكرم ، حسن المواساة لإخوانه .

وقال أبو يوسف : كان أبو حنيفة ربعة من الرجال ، ليس بالقصير ، ولا بالطويل ، وكان أحسن الناس منطقاً ، وأحلاه نغمة ، وأنبهه علىٰ ما يريد .

وقال محمد بن جعفر بن إسحاق بن عمر بن حماد ابن أبي حنيفة : كان أبو حنيفة طَوالاً ، تعلوه سمرة ، وكان لبَّاساً ، حسن الهيئة ، كثير التعطر ، يعرف بريح الطيب إذا أقبل وإذا خرج من منزله .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : قدمت البصرة وظننت أني لا أُسأل عن شيء . . إلا أَجبت فيه ، فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب ، فجعلت علىٰ نفسي ألاَّ أفارق حماداً حتىٰ يموت ، فصحبته ثماني عشرة سنة .

وقال أبو حنيفة : ما صليت صلاة منذ مات حماد . . إلا استغفرت له مع والديَّ ، وإني لأستغفر لمن تعلمت منه علماً أو علمته علماً .

وقال أبو حنيفة : دخلت علىٰ أبي جعفر أمير المؤمنين ، فقال لي : يا أبا حنيفة ؛ عمن أخذت العلم ؟ فقلت : عن حماد ؛ يعني : ابن أبي سليمان ، عن إبراهيم النخعي ، عن عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، فقال أبو جعفر : بخ بخ ! استوفيت يا أبا حنيفة . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٢١٨-٢١٩] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ في كتاب « عقلاء المجانين » : دعا المنصور أبا حنيفة والثوري ومسعراً وشريكاً ليوليِّهم القضاء ، فقال أبو حنيفة : أنا أخمن فيكم تخميناً ، أما أنا . . فأحتال وأتخلص ، وأما مسعر . . فيتحامق فيتخلص ، وأما سفيان . . فيهرب ، وأما شريك . . فيقع ، فلما أُدخلوا عليه . . قال أبو حنيفة : أنا رجل مولىٰ ولست من العرب ، ولا تكاد العرب ترضىٰ بأن يكون عليهم مولىٰ ، ومع ذلك فإني لا أصلح لهـٰذا ، فإن كنت صادقاً في قولي . . فلست أصلح لهـٰذا ، وإن كنت كاذباً . . فلا يجوز لك أن تولي كاذباً دماء المسلمين وفروجهم ، وأما سفيان : فأدركه الشخص في طريق ، فذهب لحاجته وانصرف ، والشخص ينتظر فراغه ، فبصر سفيان بسفينة ، فقال للملاح : إن مكنتني من سفينتك وإلا أذبح ، تأول قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من ولي القضاء . . ذبح بغير سكين »(١) ، فأخفاه الملاح تحت الساري ، وأما مسعر : فدخل على المنصور ، فقال : هات يدك ، كيف أنت ؟ وكيف أولادك ودوابك ؟ فقال : أخرجوه ؛ فإنه مجنون ، وأما شريك : فقال له المنصور : تقلد القضاء ، فقال : أنا رجل خفيف الدماغ ، فقال : تقلد القضاء وعليك بالعصيد والأطعمة الدسمة حتىٰ يرجح عقلك ، فتقلد ، فهجره الثوري ، وقال : أمكنك الهرب ، فلم تهرب . انتهىٰ [٣٧-٣٨] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ، ونوّر ضريحه ـ : ودخل أبو حنيفة يوماً على المنصور ، فقال المنصور : هـٰذا عالم الدنيا اليوم .

---

(١) أخرجه أبو داوود (٣٥٧١) ، والترمذي (١٣٢٥) .

وعن هشام بن مهران قال : رأىٰ أبو حنيفة في النوم كأنه نبش قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث من يسأل له محمد بن سيرين ، فقال محمد بن سيرين : مَن صاحب هٰذه الرؤيا ؟ ولم يجبه عنها ، ثم سأله الثانية ، فقال مثل ذلك ، ثم سأله الثالثة ، فقال : صاحب هٰذه الرؤيا يثور علماً لم يسبقه إليه أحد قبله .

وعن ابن عيينة قال : ما مَقَلَت عيناي مثل أبي حنيفة .

وعن ابن المبارك قال : كان أبو حنيفة آية في الخير ؛ فإنه يقال : آية في الخير وغاية في الشر ، ثم تلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ .

وعن ابن المبارك قال : ما كان أوقرَ من مجلس أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ .

وعن سهل بن مزاحم قال : بُذِلت الدنيا لأبي حنيفة ، فلم يُرِدْها ، وضُرِب عليها بالسياط ، فلم يقبلها .

وعن روح بن عبادة قال : كنت عند ابن جريج سنة خمسين ومئة ، فأتاه موت أبي حنيفة ، فاسترجع وتوجع ، وقال : أيُّ علم ذهب ؟!

وعن مسعر بن كِدَام قال : ما أحسد أحداً بالكوفة إلا رجلين : أبا حنيفة في فقهه ، والحسن بن صالح في زهده .

وعن الفضيل بن عياض قال : كان أبو حنيفة فقيهاً ، معروفاً بالفقه ، مشهوراً بالورع ، واسع المال ، معروفاً بالإفضال علىٰ من يطيف به ، صبوراً علىٰ تعليم العلم بالليل والنهار ، كثير الصمت ، قليل الكلام ، حتىٰ تَرِدَ مسألة في حلال أو حرام ، وكان يحسن أن يدل على الحق ، هارباً من السلطان .

وعن أبي يوسف قال : إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبوَيَّ ، ولقد سمعت أبا حنيفة يقول : إني لأدعو لحماد مع والدي .

وعن أبي بكر ابن عياش قال : مات أخو سفيان الثوري ، فاجتمع الناس إليه لعزائه ، فجاء أبو حنيفة ، فقام إليه سفيان ، وأكرمه ، وأقعده مكانه وقعد بين يديه ، فلما تفرق الناس . . قال أصحاب سفيان : رأيناك فعلت شيئاً عجباً ، قال : هٰذا رجل من العلم بمكان ؛ فإن لم أقم لعلمه . . قمت لسنه ، وإن لم أقم لسنه . . قمت لفقهه ، وإن لم أقم لفقهه . . قمت لورعه .

وعن ابن المبارك قال : ما رأيت في الفقه مثل أبي حنيفة .

وقال ابن المبارك أيضاً : قد رأيت مسعراً في حلقة أبي حنيفة جالساً بين يديه يسأله ويستفيد منه ، وما رأيت أحداً قط تكلم في الفقه أحسن من أبي حنيفة .

وعن أبي نعيم قال : كان أبو حنيفة صاحب غوص في المسائل .

وعن وكيع قال : ما لقيت أفقه من أبي حنيفة ، ولا أحسن صلاة منه .

وعن النضر بن شميل قال : كان الناس نياماً عن الفقه حتىٰ أيقظهم أبو حنيفة بما فَتَقَهُ وبيَّنه ولخصه .

وعن الشافعي قال : الناس عيال علىٰ أبي حنيفة في الفقه .

وعن جعفر بن الربيع قال : أقمت علىٰ أبي حنيفة خمس سنين ، فما رأيت أطول صمتاً منه ، فإذا سئل عن الشيء من الفقه . . تفتَّح وسال كالوادي .

وعن إبراهيم بن عكرمة قال : ما رأيت أورع ولا أفقه من أبي حنيفة .

وعن سفيان بن عيينة قال : ما قدم مكة في وقتنا رجل أكثرُ صلاة من أبي حنيفة .

وعن يحيى بن أيوب الزاهد قال : كان أبو حنيفة لا ينام الليل .

وعن أبي عاصم النبيل قال : كان أبو حنيفة يسمى الوَتِد ؛ لكثرة صلاته .

وعن زافر بن سليمان قال : كان أبو حنيفة يحيي الليل بركعة يقرأ فيها القرآن .

وعن أسد بن عمرو قال : صلىٰ أبو حنيفة صلاة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة ، وكان عامة الليل يقرأ القرآن في ركعة ، وكان يُسمَعُ بكاؤه حتىٰ ترحمه جيرانه ، وحُفِظ عليه أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة .

وعن الحسن بن عمارة : أنه غسَّل أبا حنيفة حين توفي ، وقال : غفر الله لك ، لم تفطر منذ ثلاثين سنة ، ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنةً ، وقد أتعبت مَن بعدك .

وعن ابن المبارك : أن أبا حنيفة صلىٰ خمساً وأربعين سنة الصلوات الخمس بوضوء واحد ، وكان يجمع القرآن في ركعتين .

وعن أبي يوسف قال : بينما أنا أمشي مع أبي حنيفة ؛ إذ سمع رجلاً يقول لرجل : هـٰذا أبو حنيفة لا ينام الليل ، فقال أبو حنيفة : والله ؛ لا يتحدث عني بما لا أفعله ، فكان يحيي الليل صلاة ودعاء وتضرعاً .

وعن مسعر بن كدام قال : دخلت ليلةً المسجدَ ، فرأيت رجلاً يصلي ، فاستحليت

قراءته ، فقرأ سُبْعاً ، فقلت : يركع ، ثم قرأ الثلث ، ثم النصف ، فلم يزل يقرأ القرآن حتىٰ ختمه كله في ركعة ، فنظرت ؛ فإذا هو أبو حنيفة .

وعن زائدة قال : صليت مع أبي حنيفة في مسجده العشاء وخرج الناس ولم يعلم أني في المسجد ، فأردت أن أسأله مسألة ، فقام ، فافتتح الصلاة ، قرأ حتىٰ بلغ هٰذه الآية : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ ، فلم يزل يرددها حتىٰ أذن المؤذن للصبح وأنا أنتظره .

وعن القاسم بن معن : أن أبا حنيفة قام ليلة بهٰذه الآية : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ ، يرددها ويبكي ويتضرع .

وعن مكي بن إبراهيم قال : جالست الكوفيين ، فما رأيت فيهم أورع من أبي حنيفة .

وعن وكيع قال : كان أبو حنيفة قد جعل علىٰ نفسه ألاَّ يحلف بالله تعالىٰ في عرض كلامه . . إلا تصدق بدرهم ، فحلف ، فتصدق به ، ثم جعل علىٰ نفسه إن حلف . . أن يتصدق ديناراً ، فكان إذا حلف صادقاً في عرض كلامه ، تصدق بدينار ، وكان إذا أنفق علىٰ عياله نفقة . . تصدق بمثلها ، وكان إذا اكتسىٰ ثوباً جديداً . . كسا بقدر ثمنه للشيوخ من العلماء ، وكان إذا وُضع بين يديه الطعام . . أخذ منه ضعف ما يأكل ، فجعله على الخبز ، ثم يعطيه الفقير .

وعن وكيع أيضاً قال : كان أبو حنيفة عظيم الأمانة ، وكان يؤثر رضى الله تعالىٰ علىٰ كل شيء ، ولو أخذته السيوف في الله تعالىٰ . . لاحتملها .

وعن ابن المبارك قال : ما رأيت أورع من أبي حنيفة ، قد جرب السياط والأموال .

وعن قيس بن الربيع رحمه الله قال : كان أبو حنيفة رحمه الله ورعاً ، فقيهاً ، كثير البر والصدقة لكل من لجأ إليه ، كثير الإفضال علىٰ إخوانه ، وكان يبعث البضائع إلىٰ بغداد ، فيشتري بها الأمتعة وتجلب إلى الكوفة ، ويجمع الأرباح من سنة إلىٰ سنة ، ثم يشتري بها حوائج الأشياخ من المحدِّثين لإقواتهم وكسوتهم وما يحتاجون إليه ، ثم يعطيهم باقي الدنانير من الأرباح ، فيقول : أنفقوها في حوائجكم ، ولا تحمدوا إلا الله عز وجل ؛ فإني ما أعطيتكم من مالي شيئاً ، ولٰكن من فضل الله تعالىٰ عليَّ فيكم ، وهٰذه أرباح بضائعكم ؛ فإنه والله مما يجريهِ الله لكم علىٰ يدي .

وعن حفص بن حمزة القرشي قال : كان أبو حنيفة ربما مر به الرجل ، فيجلس إليه لغير

قصد ولا مجالسة ، فإذا قام . . سأل عنه ، فإن كان به حاجة . . وَصَلَهُ ، وإن مرض . . عاده حتىٰ يجره ذلك إلىٰ مواصلته ، وكان أكرم الناس مجالسة .

وعن أبي يوسف قال : **كان أبو حنيفة رحمه الله لا يكاد يُسأل حاجة . . إلا قضاها** .

وعن إسماعيل بن حماد : أن أبا حنيفة رحمه الله وهب لمُعلِّمِ ابنهِ حماد خمس مئة درهم حين حذِق حماد .

وعن جعفر بن عون قال : أتت امرأةٌ أبا حنيفة تشتري منه ثوب خز ، فأخرج لها ثوباً ، فقالت : أنا ضعيفة ، وإنها أمانة ، فبعني هـٰذا الثوب بما يقوم عليك ، فقال : خذيه بأربعة دراهم ، فقالت : لا تسخر بي وأنا عجوز كبيرة ، فقال لها : إني اشتريت ثوبين ، فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم ، فبقي هـٰذا بأربعة دراهم .

وعن ابن المبارك قال : قلت لسفيان الثوري : ما أبعد أبا حنيفة من الغِيبة ، ما سمعته يغتاب عدواً له قط ، فقال : هو والله أعقل من أن يسلِّط علىٰ حسناته ما يَذْهَب بها .

وعن علي بن عاصم قال : لو وزن عقل أبي حنيفة بعقل نصف أهل الأرض . . لرجح بهم .

وعن عبد الواحد بن غياث قال : كان أبو العباس الطوسي يسيء الرأي في أبي حنيفة ، وكان أبو حنيفة يعرف ذلك ، فدخل أبو حنيفة علىٰ أمير المؤمنين المنصور حين كان مجلسه حافلاً ، فقال الطوسي : اليوم أقتل أبا حنيفة ، فقال لأبي حنيفة بحضرة الناس : إن أمير المؤمنين يأمر بضرب عنق الرجل ما ندري ما هو ، فهل لنا قتله ؟ فقال أبو حنيفة : يا أبا العباس ؛ إن أمير المؤمنين يأمر بالحق أو بالباطل ؟ قال : بالحق ، قال : فاتبع الحق حيث كان ولا تسأل عنه ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٢١٩-٢٢٢] .

قال في « مختصر كتاب الإيمان » : قال أبو يوسف : دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة ، فقال الربيع حاجب المنصور ـ وكان يعادي أبا حنيفة ـ : يا أمير المؤمنين ؛ هـٰذا أبو حنيفة يخالف جدك عبد الله بن عباس ؛ لأنه كان يقول : إذا حلفت يميناً ثم استثنيت بعد ذلك بيوم أو يومين . . جاز الاستثناء ، وقال أبو حنيفة : لا يجوز الاستثناء إلا متصلاً باليمين ، فقال أبو حنيفة : يا أمير المؤمنين ؛ هـٰذا الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جندك بيعة ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنهم يحلفون عندك ، ثم يرجعون إلىٰ منازلهم فيستثنون ، فتحل أيمانهم ، فضحك المنصور وقال : ألم أقل لك ـ يا ربيع ـ لا تتعرض لأبي حنيفة ؟!

وقال الشافعي لمالك رحمهما الله : رأيتَ أبا حنيفة ؟ قال : نعم ، رأيتُ رجلاً لو كلمته في هـٰذه السارية أن يجعلها ذهباً . . لقام بحجته .

وقال يحيى بن معين : القراءة قراءة حمزة ، والفقه فقه أبي حنيفة ، علىٰ هـٰذا أدركت الناس .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وقفت علىٰ تأليف في مناقب الإمام أبي حنيفة رحمه الله ، تأليف أبي القاسم عبد الله بن محمد بن يحيى بن الحارث السعدي[1] ، المعروف بابن أبي العوام ، قاضي مصر رحمه الله تعالىٰ ، فأحببت أن أذكر أحسن ما فيه إن شاء الله تعالىٰ .

قال المؤلف رحمه الله تعالىٰ : سمعت أبا جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي يقول : سمعت أبا حازم عبد الحميد بن عبد العزيز القاضي يقول : سألت ابن إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة ، فقلت : لمن ولاؤكم ؟ فقال : سُبِيَ ثابت أبو أبي حنيفة من كابل شاه ، فاشترته امرأة من بني تيم الله بن ثعلبة ، فمنت عليه بالعتق ، فولاؤنا لها .

وعن خارجة بن مصعب قال : خرجت إلى الحج وخلفت جارية لي عند أبي حنيفة ، فمكثت أربعة أشهر ، ثم رجعت إلى الكوفة ، فقلت لأبي حنيفة : كيف وجدت الجارية في خدمتها ؟ فقال : سبحان الله! أتوهمت أني أستحل خدمتها ؟ والله ؛ ما رأيتها ولا أَخَذَتْها عيني منذ خرجت إلىٰ أن رجعت ، قال خارجة : واستخبرت الجارية عنه وعن أخلاقه في منزله ، فقالت : والله ؛ ما رأيت في الدنيا ولا سمعت بمثله ، والله ؛ لقد رصدته ، فما اطلعت علىٰ أنه اغتسل من جنابة طول ما كنت في منزله ، ولقد قالت لي حرته ـ أي : زوجه ـ : إنه لا يستحل أن يقرب النساء من أجلِكِ خشية أن تميلي إلىٰ مثل ذلك من الرجال .

وقال محمد بن جابر : كان أبو حنيفة قليل الكلام إلا عما يُسأل عنه ، قليل الضحك ، كثير الفكر ، دائم القطوب ، كأنه حديث عهد بمصيبة ، وكان يتفقد أحوال إخوانه في منازلهم ، فكان يقرض الرجل الخمسين ديناراً أو الأقل والأكثر علىٰ قدر مؤونته ، وهو لا يعلم ، فيشتري له بها الخز الخام ، ويقصره ، ويجعلها كالبضاعة ، فيديرها ، ثم يشتري له بها الكسوة ولعياله ، ثم يقول : أي أخي ؛ هـٰذا ربحك ، فاحمد الله سبحانه وتعالىٰ ؛

---

(١) في نسخة : (البغدادي) .

فإني لم أعطك من مالي شيئاً ، وإنما هو رزق مولاك سبحانه وتعالىٰ علىٰ يدي ، فاحمده جل جلاله وتباركت أسماؤه ولا إلـٰه غيره .

وأودع دهقانٌ أبا حنيفة مئة ألف درهم وسبعين ألف درهم ومات من غير وصية ، ولا أَعلَمَ بها أحداً من أهله ، وترك صبية صغاراً ، فلما كبروا وآنس منهم الرشد . . دفع إليهم المال ، ولم يُشهِد عليهم ، وقال : لا أحب أن يعلم بهـٰذا أحد .

وقال المثنى بن رجاء : عن أم حميد حاضنة ولد أبي حنيفة قالت : قالت لي أم ولد أبي حنيفة : ما توسد أبو حنيفة فراشاً بليل منذ عرفته ، وإنما كان نومه بين الظهر والعصر في الصيف ، وفي الشتاء في مسجده أول الليل .

وقال علي بن الحسن المؤذن : رأيت أبا حنيفة من وراء باب المسجد بعد عشاء الآخرة قد قام وأخذ بلحيته ، وهو يقول : يا من يجزي بمثقال ذرة خيرٍ خيراً ، ويا من يجزي بمثقال ذرة شرٍّ شراً ؛ تغمد النعمان بعفوك ، واجعل زلله في سعة رحمتك يا أرحم الراحمين ، قال : فلم يزل يرددها حتىٰ طلع الفجر وهو علىٰ تلك الحالة يبكي .

وقال حسين : أخبرني من شهده في مسجده وهو يردد هـٰذه الآية : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ وهو يبكي ، ويقول : اللهم ؛ مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم يا رحمـٰن يا رحيم .

وكان لو قيل له : إنك تموت إلىٰ خمسة أيام . . لم يكن عنده ما يزيد في عمله ، وما سمعت سفيان الثوري ذكره . . إلا وترحم عليه .

وقال رجل لأبي حنيفة رحمه الله : اتق الله ، فانتفض أبو حنيفة انتفاض رجل كأنه قد صرع ، واصفر لونه ، وطأطأ رأسه ، وقال : يا أخي ؛ نعم ، جزاك الله خيراً ، فهـٰكذا قل لي ، ما أحوج الناس إلىٰ من يقول لهم في كل وقت مثل هـٰذا .

وفتح غلام لأبي حنيفة يوماً رزمة الخز ، فإذا الأحمر والأصفر والأخضر ، فقال الغلام : نسأل الله تعالى الجنة ، فبكىٰ أبو حنيفة حتى اختلج صدغاه ، وأمر بغلق الدكان ، وقام مغطى الرأس مسرعاً في مشيه ، فلما كان الغد . . جلست إليه وقد اصفر ، فأطرق طويلاً وكان قليل الكلام ، ثم التفت إلي ، وقال : يابن أخي ؛ ما أجرأنا! يقول أحدنا : نسأل الله تعالى الجنة ، إنما يسأل الله تعالى الجنة مَن رضي نفسه ؛ يعني : لها ، إنما يريد مثلنا أن يسأل الله تعالى العفو .

وكان إذا سئل عن مسألة . . يقول : ربِّ ؛ سلِّم ، ربِّ ؛ سلِّم .

وكان يقول : لولا الفَرَق من الله عز وجل . . ما أفتيت ، وأخْوَف ما أخاف من الفتوىٰ .

وكان كثيراً ما يتمثل بهٰذا البيت :

كفىٰ حَزَناً أن لا حياةَ هنيئةٌ ولا عملٌ يرضىٰ به الله صالحُ

ونال منه رجل وسَفُه عليه ، فقال له أبو حنيفة رحمه الله : غفر الله لك ، هو سبحانه وتعالىٰ يعلم مني خلاف ما تقول ، والله ما عبدتُ غيره ، ولا رجوت قط سواه .

وفي رواية : ولا رجوت قط إلا عفوه ، ولا خشيت قط إلا عقابه ، ثم بكىٰ عند ذكر العقاب حتى اختلج صدغاه وتحرك منكباه ، فقام إليه ذلك الرجل ، فقال : اجعلني في حل رحمك الله ، فقال : نعم ، أنت في حل وسعة ، وكل من نسبني إلىٰ ما تقول ، يا أخي ؛ ما أضر الشهرة ، يا أخي ؛ ما أضر الشهرة .

وأخذ ابن هبيرة أبا حنيفة ، فأراده علىٰ ولاية القضاء ، فأبىٰ ، فحبسه ، فقيل لأبي حنيفة : إنه قد حلف ألاَّ يخرجك حتىٰ تلي له ، وإنه يريد بناء ، فتول له عدد اللَّبِن ، فقال : لو سألني أن أعد له أبواب المسجد . . لم أفعل .

ولقد ابتلي أبو حنيفة رحمه الله بالضرب علىٰ رأسه بالسياط لأجل القضاء ، فما أجاب ، واحتمل ذلك في الله عز وجل ، وصبر عليه ، وعُرضت عليه الدنيا والأموال العظيمة ، فنبذها ، وكان شديداً في دين الله عز وجل .

وقال أبو يوسف : اجتمعنا عند أبي حنيفة رحمه الله في يوم مطير في نفر من أصحابه ، منهم : داوود الطائي ، والقاسم بن معن المسعودي ، وعافية بن زيد الأودي ، وحفص بن غياث النخعي ، ووكيع بن الجراح ، ومالك بن مغول البجلي ، وزفر بن هذيل التميمي ، قال : فأقبل علينا بوجهه وقال لنا : أنتم مسار قلبي ، وجلاء حزني ، وقد أسرجت لكم الفقه ، وألجمت ، فإذا شئتم . . فاركبوا ، فقد تركت الناس يطَؤُون أعقابكم ، ويلتمسون ألفاظكم ، ما منكم من أحد . . إلا وهو يصلح للقضاء ، ومنكم عشرة يصلح أن يكونوا مؤدبي القضاة ، فسألتكم بالله تعالىٰ وبقدر ما وهب الله عز وجل لكم من جلالة العلم . . لَمَا صنتموه عن ذل الاستئجار ، وإن بُلي أحدكم بالدخول في القضاء ، فعلم من نفسه شيئاً يحب أن ستره الله تعالىٰ عليه من العباد . . لم يجز قضاؤه ، ولم يطب له رزقه ؛ فإنه لايحل له أخذ الرزق علىٰ ذلك ، وإن كانت سريرته مثل علانيته . . جاز قضاؤه ، وطاب له رزقه ، فإن

دفعته ضرورة إلى الدخول فيه. . فلا يجعلن بينه وبين الناس حجاباً ، وليصل الصلوات الخمس في مسجده ، وينادي عند كل صلاة : من له حاجة ؟ فإذا صلىٰ صلاة العشاء الآخرة. . نادىٰ ثلاثة أصوات : من له حاجة ؟ ثم يدخل إلىٰ منزله ، فإن مرض مرضاً لا يستطيع الجلوس[1] معه. . أسقط مِن رزقه بقدر مرضه ، وأيما إمام غل فيئاً أو جار في حكمه. . بطلت إمامته ولم يجز حكمه ، وإن أذنب ذنباً بينه وبين ربه عز وجل يستوجب به الحد. . درىء الحد عنه ؛ لأنه ولي إقامته ، وإن كان شيء بينه وبين الناس. . أقامه عليه أقرب القضاة إليه ، وإذا ارتشى القاضي. . فهو معزول وإن لم يعزل .

وقال أحمد بن علي بن الحسن بن شعيب المدائني : سمعت إسماعيل بن يحيى المزني يقول : سمعت الشافعي يقول : الناس عيال علىٰ أبي حنيفة في الفقه .

وعن معبد بن شداد قال : حدثنا عبد الله بن عمر قال : كنا عند الأعمش ، فسئِل الأعمش عن مسألة ، فقال لأبي حنيفة : أفته يا نعمان ، فأفتاه أبو حنيفة ، فقال له الأعمش : من أين قلت هـٰذا ؟ فقال : لحديث أنت حدثتناه ، ثم ذكر له الحديث ، فقال له الأعمش : أنتم الأطباء ونحن الصيادلة .

وعن عبد العزيز الدراوردي ابن أبي سلمة قال : رأيت أبا حنيفة ومالكاً بعد صلاة العشاء الآخرة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يتذاكران ويتدارسان ، حتىٰ إذا وقف أحدهما على القول الذي قال به. . أمسك الآخر من غير تعنيف ولا تخطئة حتىٰ يصليا الغداة في مجلسهما ذلك .

وقال عبد الواحد بن زياد : قدمت الكوفة فرأيت أبا حنيفة يناظر حماد ابن أبي سليمان ، وعلىٰ حماد طويلة[2] سوداء ، فجعل أبو حنيفة يحتج عليه حتىٰ تقطعت أزرار حماد ، وأخذ الطويلة ، فضرب بها الأرض ، وحماد ابن أبي سليمان أحد من روىٰ عن أبي حنيفة[3] .

وقيل لأبي حنيفة : أيما أفضل : علقمة ، أو الأسود ؟ فقال : والله ؛ ما نحن بأهل أن نذكرهم ، فكيف نفاضل بينهم ؟!

---

(١) أي : للقضاء .

(٢) **طويلة** : ثوب مفتوح من الأمام ، ويسمى الجبَّة .

(٣) كذا في النسخ ، ولعله وَهَم من النساخ ، والصحيح : أن حماد ابن أبي سليمان أحد من روىٰ عنه أبو حنيفة . انظر « سير أعلام النبلاء » (٥/ ٢٣١) .

وسئل أبو حنيفة عند مرجعه من الحج : كيف رأيت أهل المدينة ؟ قال : رأيت بها علماً مبثوثاً ، فإن يكن أحد يجمعه . . فالفتى الأبيض ؛ يعني : مالكاً .

وكان أبو حنيفة لا يرىٰ أن يروي من الحديث إلا ما حفظه عن الذي سمعه منه .

وقال أبو قَطَن عمرو بن الهيثم : قال لي أبو حنيفة : اقرأ علي ، وقل حدثني ، وقال لي مالك بن أنس مثل ذلك .

وقال إسحاق بن الحسن الكوفي : كنت قاعداً عند أبي حنيفة ، فأورد عليه رجل كتاباً بشفاعة ليحدثه ، فقال : ما هٰكذا يُتعلم العلم ، ولا ينبغي للعالم أن يكون ذلك حظه منه .

وقال أبو عاصم : أخبرني ابن جريج وابن أبي ذئب والأوزاعي والثوري ومالك وأبو حنيفة أنهم كانوا : يقولون : لا بأس إذا قرأت على العالِم . . أن تقول أخبرنا .

وأتت امرأة إلىٰ أبي حنيفة رحمه الله بثوب ، فعرضته عليه في السوق ، فقال لها : بكم ؟ قالت : بمئة درهم ، فقال لها : هو خير من ذلك ، فقولي غير هٰذا القول ، فقالت : مئتين ، فقال : هو خير من ذلك ، فقالت : بثلاث مئة ، قال : هو خير من ذلك ، فقالت : أربع مئة ، قال : هو خير من ذلك ، وأنا آخذه بأربع مئة درهم .

وجاءه رجل فقال له : أبا حنيفة ؛ أُرشِدت إليك تبيعني ثوبين أريدهما لأمي وزوجتي ، فأحسن بيعي ، فقال له : أي لون تريد ؟ قال : فوصفه له ، فقال له : أنظِرني جمعتين ، قال : نعم ، فذهب ، ثم جاء بعد ذلك ، فدفع إليه ثوبين وديناراً واحداً ، وقال : إني لم أخسر عليك ، إني جعلت لك بضاعة ، فرزقت من عند الله عز وجل ، فاحمده سبحانه وتعالىٰ ، فقلت له : هل كان بينكما معرفة قديمة ؟ فقال : لا ، ألم تسمع إلىٰ قول الرجل : أحسِن بيعي ؟ وقد حدثنا ابن السائب عن سعيد بن جبير قال : إذا قال الرجل للرجل : أحسن بيعي . . فقد ائتمنه ، فلم أكن أبقي من الإحسان شيئاً . . إلا أتيته ؛ لتسلم لي أمانتي .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هٰذا هو الفقه في الدين ، الذي يدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيراً . . يفقهه في الدين »[1] .

وقال الحسن بن زياد : دخلت أنا وحماد ابن أبي حنيفة علىٰ داوود الطائي ، فأخرج من كمه صرة فيها أربع مئة درهم ، فقال : يا أبا سليمان ؛ خذ هٰذه فانتفع بها ، فقد بلغني

---

(١) أخرجه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) .

ما أنت فيه من الضيق ، وقد عرفت ما بيني وبينك من الصداقة ، فقال له داوود : ما لي إليها حاجة ، فقال له حماد : إنها من ميراثي عن أبي ، أبي حنيفة ، فقال له داوود : هـٰذه من ميراثك عن أبيك أبي حنيفة! وجعل يردد الكلام كالمتعجب من طيبها ، ثم قال : لو قبلت شيئاً . . لقبلتها ، وجعل ينظر إليها وإليه بالتعظيم ، ولم يقبل منها شيئاً ، رضي الله عنهم أجمعين .

وقال أبو حنيفة : دخلت أنا وعلقمة بن مرثد علىٰ عطاء ابن أبي رباح ، فقلنا له : يا أبا محمد ؛ إن ببلادنا قوماً يكرهون أن يقولوا نحن مؤمنون ، فقال عطاء : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأنهم يقولون : إن قلنا : نحن مؤمنون . . قلنا : نحن من أهل الجنة ، فقال عطاء : فليقولوا : نحن مؤمنون ولا يقولوا : نحن من أهل الجنة ؛ فإنه ليس من ملك مقرب ولا نبي مرسل . . إلا ولله عز وجل عليه الحجة ، إن شاء . . عذبه ، وإن شاء . . غفر له ، ثم قال عطاء : يا علقمة ؛ إن أصحابك كانوا يُسمَّون أهل الجماعة ، حتىٰ كان نافع بن الأزرق ، فهو الذي سماهم المرجئة ، قال القاسم : قال أبي : وإنما سماهم المرجئة فيما بلغنا أنه كلم رجلاً من أهل السنة ، فقال له : وأين ينزل الكفار في الآخرة ؟ قال : النار ، قال : فأين ينزل المؤمنون ؟ قال : المؤمنون علىٰ ضربين : مؤمن برٌّ تقي . . ففي الجنة ، ومؤمن فاجر ردي . . فأمره إلى الله عز وجل ؛ إن شاء . . عذبه بذنوبه ، وإن شاء . . غفر له بإيمانه ، قال : فأين منزله ؟ قال : لا أنزله ، ولـٰكني أرجىءُ أمره إلى الله عز وجل ، قال : فأنت مرجىء .

وكان لأبي حنيفة جار سوء يكنىٰ أبا حماد ، طول ليله يغني ويقول :

أضاعوني وأي فتىٰ أضاعوا[1]

وكان أبو حنيفة يسمع حسه ، ففقده ذات ليلة ، فسأل عنه ، فقالوا : حبس ، فقال : ما علمت ، فلما أصبح . . أرسل إلى الوالي ، فخلصه ، ثم قال له : يا أبا حماد ؛ ما أضعناك ، ووهب له مئة درهم .

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين : دخلت على الحسن بن صالح فرأيته يستعظم حديثاً من رجل ويضحك ، فقلت له : سبحان الله يا أبا محمد! تدفن أخاك علياً غدوة وتضحك آخر النهار ، فقال : إنه ليس علىٰ أخي من بأس ، قلت : وكيف ذاك ؟ فقال : دخلت عليه صدر

---

(١) صدر بيت ، وعجزه : ليوم كريهة وسداد ثغر .

نهاره ، فقلت له : يا أخي ؛ كيف تجدك ؟ قال : مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولـئك رفيقاً ، فتوهمت أنه قرأ آية من القرآن ، فتركته ساعة ، ثم قلت : يا أخي ؛ كيف تجدك ؟ قال : مع الذين أنعم الله عليهم. . . وأعاد الآية إلىٰ آخرها ، قال : فقلت له : يا أخي ؛ تقرأ القرآن ، أم ترىٰ شيئاً ؟ قال : أو ما ترىٰ ما أرى ؟ قلت : لا ، فما ترىٰ يا أخي ؟ قال ـ وقد رفع يده يشير بها ـ : هـٰذا نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم يضحك إلي ويبشرني بالجنة ، وهـٰؤلاء الملائكة عليهم السلام معه كذلك ، بأيديهم حلل السندس والاستبرق وأطباق الطيب ، وهـٰؤلاء الحور العين متحليات متزينات ينتظرن متىٰ أصير إليهن . فقال هـٰذا وقضىٰ إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، فلماذا أحزن عليه وقد صار إلىٰ هـٰذا النعيم ؟!

قال القاسم : فحدثني أبي قال : حدثني أبو نعيم قال : فلما كان بعد أيام. . صرت إلى الحسن بن صالح ، فقال لي حين رآني : يا أبا نعيم ؛ أعلمت أني البارحة رأيت أخي في المنام كأنه قد صار إلي وعليه ثياب خضر ؟ فقلت له : يا أخي ؛ أليس قد مِتَّ ؟ قال : بلىٰ ، قلت : فما هـٰذه الثياب التي عليك ؟ قال : السندس والاستبرق ، ولك عندي يا أخي مثلها ، قلت : فماذا فعل بك ربك ؟ قال : غفر لي وباهىٰ بي وبأبي حنيفة الملائكةَ ، قلت : أبو حنيفة النعمان بن ثابت ؟ قال : نعم ، قلت : وأين منزله ؟ قال : نحن وهو في أعلىٰ عليين .

قال القاسم : وكان أبو نعيم إذا ذكر أبا حنيفة رحمه الله أو ذُكر بين يديه. . يقول : بخ بخ! ذلك في أعلىٰ عليين ، ثم يذكر هـٰذا الحديث .

وقال محمد ابن أبي رجاء : سمعت أبي يقول : رأيت محمد بن الحسن في المنام ، فقلت له : ماذا فعل بك ربك ؟ فقال : غفر الله عز وجل لي ، قلت : بماذا ؟ قال : قال لي الحق جل جلاله : لم أجعل هـٰذا العلم فيك وأريد أن أعاقبك ـ وفي رواية : إلا وأريد أن أغفر لك ـ قال : قلت : فما فعل بأبي يوسف ؟ قال : فوقنا بدرجة ، قال : قلت : وأبو حنيفة ، ماذا فعل الله به ؟ قال : في أعلىٰ عليين .

وقال جعفر بن الحسن : رأيت أبا حنيفة في المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك يا أبا حنيفة ؟ قال : غفر لي ، قلت له : أَبِالعلم ؟ فقال : ما أضر الفتوىٰ علىٰ صاحبها ، قلت له : فَبِمَ ؟ قال : بقول الناس فيَّ ما لم يعلموه مني وما ليس فيَّ .

وقال عباد الثمَّار : رأيت أبا حنيفة في المنام ، فقلت له : يا أبا حنيفة ؛ إلىٰ ماذا صرت ؟ قال : إلىٰ سعة رحمة الله عز وجل ، قلت : أبالعلم ؟ قال : هيهات! للعلم شروط وآفات ، قَلَّ من ينجو منها ، قلت : فبِمَ ذاك ؟ قال : بقول الناس عني ما لم أكن عليه .

وقال محمد بن الحسن ـ رحمه الله ـ : قال أبو حنيفة رحمه الله : اسم الله الأعظم هو (الله) ، ألا ترىٰ إلى الرحيم اشتق من الرحمة ، والرب من الربوبية ، والله عز وجل غير مشتق من شيء .

وقال : قال أبو حنيفة رحمه الله : لا ينبغي للقاضي أن يترك على القضاء أكثر من سنة ؛ لأنه إذا ترك أكثر من سنة . . ذهب فقهه .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض الكتب : أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله قال : رأيت رب العزة جل جلاله في المنام تسعاً وتسعين مرة ، قال : فقلت في نفسي : إن رأيته سبحانه وتعالىٰ تمام المئة . . لأقول : يا رب ؛ بعزتك وجلالك بِمَ ينجو الخلائق يوم القيامة ؟ قال : فرأيته سبحانه وتعالىٰ ، فقلت : يا رب ؛ عز جارك ، وجل ثناؤك ، وتقدست أسماؤك ، ولا إلـٰه غيرك ، بم ينجو الخلائق يوم القيامة ؟ فقال سبحانه وتعالىٰ : من قال بالغداة والعشي : سبحان الأبدي الأبد ، سبحان الواحد الأحد ، سبحان الفرد الصمد ، سبحان رافع السماء بغير عمد ، سبحان من بسط الأرض على الماء فجمد ، سبحان من خلق الخلق فأحصاهم عدداً ، سبحان من قسم الرزق ولم ينس أحداً ، سبحان الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، سبحان الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد . . نجا من عذابي .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام المبجل :

أحمد ابن حنبل
رضي الله عنه

قال الشيخ العالم الرباني محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : أحمد ابن حنبل ، هو الإمام ، البارع ، المجمَع علىٰ جلالته ، وإمامته ، وورعه ، وزهادته ، وحفظه ، ووفور علمه ، وسيادته ، أبو عبد الله أحمد ابن حنبل الشيباني المروزي ، ثم البغدادي ، جيء به من مرو حَمْلاً إلىٰ بغداد بعد وفاة أبيه بمرو ، فولد ببغداد في ربيع الأول ، سنة أربع وستين ومئة ، ودخل مكة ، والمدينة ، والشام ، واليمن ، والكوفة ، والبصرة ، والجزيرة(١) .

رُوِّينا من طرق عن إبراهيم الحربي قال : رأيت ثلاثة لم يُرَ مثلُهم أبداً : أبا عبيد القاسم ، ما مثلته إلا بجبل يُنفخ فيه الروح .

وبشر بن الحارث ، ما شبهته إلا برجل عُجن من قرنه إلىٰ قدمه عقلاً .

وأحمد ابن حنبل ، كأن الله عز وجل جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف .

ورُوِّينا عن أبي مسهر رحمه الله أنه قال : ما أعلم أحداً يحفظ علىٰ هـٰذه الأمة أمر دينها . . إلا شاباً بالمشرق ؛ يعني : أحمد ابن حنبل .

ورُوِّينا عن علي بن المديني رحمه الله قال : قال لي سيدي أحمد ابن حنبل : لا تحدِّث إلا من كتاب .

ورُوِّينا عن إبراهيم بن جابر رحمه الله قال : كنا نجلس إلىٰ أحمد ابن حنبل ، فيذكر لنا الحديث ويحفظه ويتقنه ، فإذا أردنا أن نكتبه . . قال : الكتاب أحفظ ، فيثب ويجيء بالكتاب .

---

(١) **الجزيرة** : هي التي بين دجلة والفرات ، تشتمل علىٰ ديار مضر وديار بكر ، سميت بذلك لوقوعها بين هـٰذين النهرين .

ورُوِّينا عن الهيثم بن جميل أنه قال : وددت أن يُنقَص من عمري ويزاد في عمر أحمد ابن حنبل .

وذكر ابن أبي حاتم في كتابه « الجرح والتعديل » أبواباً في مناقب أحمد ابن حنبل ، **منها** :

ـ عن أبي عبيد قال : انتهى العلم إلىٰ أربعة : أحمد ابن حنبل وهو أفقههم فيه ، وعلي بن المديني وهو أعلمهم به ، ويحيى بن مَعين وهو أكتبهم له ، وأبي بكر ابن أبي شيبة وهو أحفظهم .

ـ وسئل أبو حاتم عن أحمد وعلي بن المديني فقال : كانا في الحفظ متقاربين ، وكان أحمد أفقه .

ـ وقال أبو زرعة : ما رأيت أحداً أجمع من أحمد ابن حنبل ، وما رأيت أحداً أكمل منه ، اجتمع فيه زهد وفقه وفضل ومحاسن كثيرة مثله .

ـ وقال قتيبة : أحمد إمام الدنيا .

ـ وعن الهيثم بن جميل قال : إن عاش هـٰذا الفتىٰ . . فسيكون حجة علىٰ أهل زمانه .

ـ وقال عمرو بن محمد الناقد : إذا وافقني أحمد علىٰ حديث . . فلا أبالي من خالفني .

ـ وقال الشافعي : ما رأيت أعقل من أحمد ابن حنبل وسليمان بن داوود الهاشمي .

ـ وقال أبو حاتم : كان أحمد بارع الفهم بمعرفة صحيح الحديث وسقيمه .

ـ وقيل : إنه أمسك عن مكاتبة إسحاق بن راهويه ؛ لكونه أدخل كتابه إلىٰ عند ابن طاهر وقرأه .

ـ وقال قتيبة وأبو حاتم : إذا رأيت الرجل يحب أحمد . . فاعلم أنه صاحب سنة .

ـ وقال الميموني : ما رأيت مصلياً قط أحسن صلاة من أحمد ابن حنبل ، ولا أشد اتباعاً للسنن منه .

وعن الحسين بن الحسن الرازي قال : حضرت بمصر عند بقَّال ، فسألني عن أحمد ، فقلت : كتبت عنه ، فلم يأخذ مني ثمن المتاع ، وقال : أنا لا آخذ ثمناً ممن يعرف أحمد . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ١١٠ـ١١٢] .

وقال أبو الفرج : قال خلف : جاءني أحمد ابن حنبل يسمع حديث أبي عوانة ،

فاجتهدت أن أرفعه ، فأبىٰ ، وقال : لا أجلس إلا بين يديك ، أُمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه .

وقال عبد الله بن أحمد : سمعت أبا زرعة يقول : كان أحمد ابن حنبل رحمه الله يحفظ ألف ألف حديث ، فقيل له : وما يدريك ؟ فقال : ذاكرته وأخذت عليه الأبواب .

وقال أبو جعفر التُّستَري : قيل لأبي زرعة : من رأيت من المشايخ المحدِّثين أحفظ ؟ فقال : أحمد ابن حنبل ، حزرت كتبه في اليوم الذي مات فيه ، فبلغت اثني عشر حملاً وعدلاً ، ما كان علىٰ ظهر كتاب منها حديث فلان ، ولا في بطنه حديث فلان ، كل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلب .

وقال إبراهيم الحربي : رأيت أحمد ابن حنبل كأن الله عز وجل قد جمع له علم الأولين والآخِرين من كل صنف ، يقول ما شاء ، ويمسك ما شاء .

وقال أحمد بن سنان : ما رأيت يزيد بن هارون أشد تعظيماً منه لأحمد ابن حنبل ، وما رأيته أكرم أحداً إكرامه له ، كان يقعده إلىٰ جنبه إذا حدثنا ، وكان يوقره ، ولا يمازحه ، ومرض أحمد ، فركب إليه وعاده .

وقال عبد الرزاق : ما رأيت أفقه ولا أورع من أحمد ابن حنبل .

وقال وكيع وحفص بن غياث : ما قدم الكوفة مثل أحمد ابن حنبل .

وكان ابن مهدي يقول : ما نظرت إليه . . إلا تذكرت به سفيان الثوري ، ولقد كاد هٰذا الغلام أن يكون إماماً في بطن أمه .

وقال يحيى بن سعيد : ما قدم علينا مثل أحمد ابن حنبل .

وقال أبو عاصم ـ وقد ذكر طلب العلم ـ : ما رأينا في القوم مثل أحمد ابن حنبل .

وقال أبو بكر : كنت مع الإمام أحمد ابن حنبل نحواً من أربعة أشهر بالعسكر ، وكان لا يدع قيام الليل ، وفي كل يوم وليلة ختمة ، وكان يُسِرُّ ذلك .

وقال أبو عصمة : بت ليلة عند أحمد ، فجاءني بماء ، فوضعه ، فلما أصبح . . نظر إلى الماء كما كان ، فقال : سبحان الله! رجل يطلب العلم لا يكون له من الليل ورد .

وقال أبو داوود : لم يكن أحمد يخوض في شيء مما الناس فيه من أمر الدنيا ، فإذا ذُكر العلم . . تكلم .

وقال أبو عبيد القاسم : جالست أبا يوسف ومحمد بن الحسن ويحيى بن سعيد وعبد الرحمـٰن بن مهدي ، فما هِبْتُ أحداً منهم ما هبت أحمد ابن حنبل ، ولقد دخلت عليه في السجن لأُسلم عليه ، فسألني رجل كان عنده عن مسألة ، فلم أجبه ؛ هيبة له .

وقال عبد الملك الميموني : **ما أعلم أني رأيت أحداً أنظف ثوباً ولا أنقىٰ بياضاً ولا أشد تعاهداً لنفسه في شاربه وشعر رأسه وبدنه من أحمد .**

وقال علي بن المديني : قال لي أحمد : إني أحب أن أصحبك إلىٰ مكة ، وما يمنعني من ذلك . . إلا أني أخاف أن تملَّني أو أمَلَّكَ ، قال : فلما ودعته . . قلت له : يا أبا عبد الله ؛ أَتوصيني بشيء ؟ قال : نعم ، أَلْزِمِ التقوىٰ قلبَك ، وٱنصِب الآخرة أمامك .

وقال أبو داوود : كانت مجالسة أحمد رحمه الله مجالسة الآخرة ، لا يُذكَر فيها شيء من أمر الدنيا ، وما رأيته ذاكراً للدنيا قط .

وكان أحمد يأتي العرس والإملاك والختان ؛ يجيب ويأكل(١) .

وقال إسحاق : لما خرج أحمد إلىٰ عبد الرزاق . . انقطعت به النفقة ، فأكرىٰ نفسه من بعض الجمالين إلىٰ أن وافىٰ صنعاء ، وكان أصحابه قد عرضوا عليه المواساة ، فلم يقبل من أحد شيئاً .

وقال الزيادي : سمعت عبد الرزاق وقد ذكر أحمد فدمعت عيناه ، وقال : قدم علينا وبلغني أن نفقته قد نفدت ، فأخذت عشرة دنانير وأقمته خلف الباب وما عندنا أحد ، وقلت له : إنه لا تجتمع عندنا الدنانير كل وقت ، وقد وجدت الساعة عشرة دنانير ، فخذها ؛ فإني أرجو أنك لا تنفقها حتىٰ يتهيأ عندنا غيرها ، فتبسم ، وقال : يا أبا بكر ؛ لو قبلت من الناس شيئاً . . لقبلت منك ، ولم يأخذها .

وقال صالح بن أحمد : جاءتني أم حسن ، فقالت : يا مولاي ؛ قد جاء رجل ومعه سلة فيها فاكهة يابسة وهـٰذا الكتاب ، قال : فقرأت الكتاب ؛ فإذا فيه : يا أبا عبد الله ؛ أبضعت لك بضاعة إلىٰ سمرقند ، فربحت كذا وكذا ورددتها ، فربحت كذا وكذا ، وقد بعثتها إليك أربعة آلاف درهم ، والفاكهة أنا لقطتها من بستان ورثته عن أبي ، وأبي عن أبيه ، قال صالح : وجمعت الصبيان وجئت إليه ، فلما علم بما في الكتاب . . أبىٰ قَبول ذلك ، قلت

---

(١) **الإملاك** : التزويج .

له : يا أبت ؛ أما ترق لي من أكل الزكاة ، ثم أريته حال الصبيان وما هم فيه من العري ، فقال لي : من أين علمت حال هـٰذا المال ؟ دعني حتىٰ أستخير الله تعالى الليلة ، فلما كان من الغد . . قال : يا صالح ؛ صُنّي ؛ فإني قد استخرت الله عز وجل الليلة ، فكان ألاَّ آخذها ، ثم فتح السلة ، وفرق ما فيها على الصبيان ، وكان عندي ثوب عشاري[1] ، أخذه مني ، وبعث به إلىٰ صاحب السلة ، وردَّ المال ، قال صالح : فبلغني أن الرجل اتخذ ذلك الثوب كفناً .

وقال علي بن الجهم : كان لنا جار ، فأخرج إلينا كتباً ، وقال : أتعرفون هـٰذا الخط ؟ قلنا : نعم ، هـٰذا خط أحمد ابن حنبل ، كيف كتب لك ؟ فقال : كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ، ففقدنا أحمد أياماً ، فجئنا لنسأل عنه ، فقال لنا أهل الدار التي هو فيها : هو في ذلك البيت ، فجئنا إليه والباب مردود ، وإذا عليه خلقان ، فقلنا : يا أبا عبد الله ؛ ما خبرك ؟ لنا أيام لم نرك ، فقال : سُرِقت ثيابي ، فقلت له : معي دنانير ، فإن شئت . . فخذها قرضاً ، وإن شئت . . فهبة ، فأبىٰ أن يفعل ، ثم قلت له : أتكتب لي بأجرة ؟ قال : نعم ، فأخرجت ديناراً ، فلم يأخذه ، وقال : اشتر لي ثوباً ، واقطعه نصفين ، وأشار إلىٰ أنه يرتدي بنصفه ويأتزر بالآخر ، وجئني ببقيته ، ففعلت ما أمرني ، وجئته بورق ، فكتب لي ، فهـٰذا خطه رحمة الله تعالىٰ عليه .

وقال صالح : دخلت علىٰ أبي في أيام الواثق بالله[2] ، ونحن في حالةٍ اللهُ بها عليمٌ ، وقد خرج لصلاة العصر ، وكان له لِبْد يجلس عليه قد أتت عليه سنون كثيرة حتىٰ لقد بلي ؛ فإذا تحته كتاب فيه : يا أبا عبد الله ؛ قد بلغني ما أنت فيه من الضيق ، وما عليك من الدَّين ، وقد بعثت إليك بأربعة آلاف درهم لوفاء الدين والسعة على العيال ، وما هي من صدقة ، ولا زكاة ، وإنما هي شيء ورثته عن أبي ، فقرأت الكتاب ، ووضعته ، فلما دخل . . قلت : يا أبت ؛ ما هـٰذا الكتاب ؟ فاحمر وجهه ، وقال : لِمَ رفعته ؟ ثم قال : تذهب بجوابه ، فكتب إلى الرجل : وصل كتابك إلي ، ونحن في عافية والحمد لله تعالىٰ ، وأما الدَّين فهو لرجل لا يرهقنا ، وأما عيالنا فهم في نعمة والحمد لله رب العالمين ، فذهبت بالجواب إلى الرجل الذي جاء بالكتاب ، فقال لي : ويحك! لو أن أبا عبد الله قَبِلَ هـٰذا المال ورمىٰ به مثلاً

---

(١) **عشاري** : طوله عشرة أذرع .

(٢) **أيام الواثق** : أيام محنته ، لِمَا أظهره الواثق من الميل إلىٰ أحمد ابن أبي دؤاد وأصحابه القائلين بخلق القرآن .

في دجلة. . كان مأجوراً ؛ لأن صاحب هـٰذا المال لا يُعرف له معروف قط ، فلما كان بعد حين. . ورد كتاب الرجل بمثل ذلك ، فرد عليه الجواب بمثل ذلك ، فلما مضت سنة أو أكثر. . ذكرناها ، فقال أبي : لو كنا قبلناها. . كانت قد ذهبت وبقي علينا سؤالها .

وقال محمد بن موسىٰ : حُمل إلى الحسن بن عبد العزيز ميراثه من مصر مئة ألف دينار ، فحَمَل إلىٰ أحمد ثلاثة أكياس في كل كيس ألف دينار ، وقال : يا أبا عبد الله ؛ هـٰذا ميراث حلال فخذه واستنفق به علىٰ عيالك ، قال : لا حاجة لي فيه ، أنا في كفاية . ولم يقبل منها شيئاً .

وقال السري بن محمد : جاء أحمد بن صالح يوضىء أبا عبد الله وقد بل خرقة وألقاها علىٰ رأسه ، فقال له : يا جدي ؛ أنت محموم ، فقال له : وأنىٰ لي بالحُمىٰ .

وقال ابن جبلة : كنت واقفاً علىٰ باب أحمد والباب مجاف ، وأم ولده تكلمه ، وتقول : أنا معك في ضيق عيش ومنزل ، وصالحٌ وأولاده يأكلون ويفعلون ، وهو يقول لها : قولي خيراً ، ثم خرج والصبي معه ، فبكىٰ ، فقال له : أي شيء تريد ؟ قال : زبيباً ، قال : اذهب فخذ من البقَّال حبة .

وقال أبو بكر : سمعت أبا عبد الله أحمد يقول : إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وإنها أيام قلائل .

وسمعته أيضاً يقول : أَسَرُّ أيامي إليَّ يومٌ أصبح وليس عندي شيء .

وقال صالح : ربما رأيت أبي يأخذ الكسرة ، فينفض عنها الغبار ، ثم ينثرها في قصعة ويصب عليها الماء حتىٰ تبتل ، ثم يأكلها بالملح ، قال صالح : وما رأيته قط اشترىٰ رماناً ولا سفرجلاً ولا شيئاً من الفاكهة ، اللهم إلا أن يشتري بطيخة ، فنأكلها بخبز ، أو عنباً ، أو تمراً ، فأما غير ذلك. . فما رأيته اشتراه ، وربما خبزوا في البيت ، فيجعل له في فخارة عدساً وشحماً ، وكان كثير الائتدام بالخل ، وكان يُشترىٰ له شحم بدرهم يأكل منه شهراً ، ولما قدم من عند المتوكل. . أدمن على الصوم ، وجعل لا يأكل الدسم ، فتوهمت أنه جعل علىٰ نفسه إن سلم أن يفعل ذلك .

وقال أبو بكر : قال لي النيسابوري صاحب إسحاق بن إبراهيم : قال لي الأمير : إذا جاء وقت إفطاره. . فأرنيه ، قال : فجاؤوا برغيفين وخيارة ، فأريته الأمير ، فقال : هـٰذا لا يخافنا إذا كانت هـٰذه نفقته .

وقال الحسن بن خلف : جاءني المروزي في علة أبي عبد الله أحمد ، فقال : إن أبا عبد الله عليل ، فذهبنا إليه ومعي المتطبب ، فلما دخلنا . . قال له : ما حالك ؟ أي شيء صنعت ؟ قال : احتجمت أمس ، قال : وأي شيء أكلت ؟ قال : خبزاً وكامخاً ، قال : يا أبا عبد الله ؛ أتحتجم وتأكل خبزاً وكامَخاً ؟ قال : فما آكل ؟!

وقال محمد بن هارون : رأيت أبا عبد الله إذا مشىٰ في الطريق . . يكره أن يتبعه أحد .

وقال أبو بكر : سمعت أبا عبد الله يقول : الخوف يمنعني من أكل الطعام ، فما أشتهيه .

وكان قد قاء أبو عبد الله في مرضه دماً ، فأريته المتطبب ، فقال : هـٰذا رجل قد فتت الغم والخوف كبده .

وكان أحمد وهو غلام يحيي الليل كله .

وكان يقول : إني أجد البَرد في أطرافي ، وما أرىٰ ذلك إلا من إدامة أكل الخل والملح .

وقال فُوْران : كنا عنده قبل موته بليلتين ، وثَمَّ غلام أسود ، فأخذ المروحة يروِّح أحمد ، فنهاه ولم يَدَعْه .

وقال سليمان بن داوود : رهن أحمد سطلاً عند فامي ، وأخذ منه شيئاً يتقوت به ، ثم جاء ليفكه ، فأعطاه ما كان له ، فأخرج الفامي سطلين ، وقال : انظر أيهما سطلك فخذه ، فقال : لا أدري ، أنت في حل منه ومما أعطيتك ، ولم يأخذه ، قال الفامي : والله ؛ إني أعرف سطله ، وما أردت إلا أن أمتحنه فيه .

وقال أحمد بن محمد : ذكروا أن أبا عبد الله أحمد أتىٰ عليه ثلاثة أيام ما طعم فيها ، فبعث إلىٰ صديق له ، فاستقرض شيئاً من الدقيق ، فعرفوا في البيت شدة حاجته إلى الطعام ، فخبزوا سريعاً ، فلما وضع بين يديه . . تعجب من سرعة ذلك ، وقال : كيف وقع هـٰذا ؟ فقيل له : كان التنور في دار ابنك صالح مسجوراً ، فقال : ارفعوا ، ولم يأكل ، وأمر بسد بابه الذي إلىٰ دار صالح(١) .

وقال عبد الله بن أحمد : كان أبي رحمه الله أصبر الناس على الوحدة ، لم يره أحد إلا في مسجد أو جنازة أو عيادة مريض ، وكان يكره المشي في الأسواق .

وكان يصلي في كل يوم وليلة ثلاث مئة ركعة ، فلما ضُرب تلك الأسواط . . أضعفته ،

---

(١) وما ذاك إلا لأن ابنه صالحاً قبل جائزة المتوكل .

فكان يصلي بعد ذلك في كل يوم وليلة مئة وخمسين ركعة ، وكان قد قرب من الثمانين .

وكان يقرأ في كل يوم سُبْعاً ، يختم في كل سبعة أيام ، وكانت له ختمة في كل سبع ليال سوىٰ صلاة النهار .

وكان ساعةَ يصلي عشاء الآخرة . . ينام نومة خفيفة ، ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو .

وحج خمس حجات ، ثلاثاً منها ماشياً ، وأنفق في بعض حجاته عشرين درهماً ، أو قال : ثلاثين درهماً .

وكان من دعاء أحمد رحمه الله : **اللهم ؛ من كان علىٰ هوىً أو رأي وهو يظن أنه الحق وليس هو على الحق . . أسألك أن ترده إلى الحق ، حتىٰ لا يضل من هـٰذه الأمة أحد .**

اللهم ؛ لا تشغل قلوبنا بما تكفلت لنا به ، ولا تجعلنا في رزقك خَوَلاً[1] لغيرك ، ولا تمنعنا خير ما عندك لشر ما عندنا ، ولا تَرَنا حيث نهيتنا ، ولا تفقدنا من حيث أمرتنا ، وأعزنا ولا تذلنا ، أعزنا بالطاعة ، ولا تذلنا بالمعصية .

ويروىٰ : أن شخصاً كانت أمه مقعدة منذ عشرين سنة ، فقالت له ذات يوم : يا ولدي ؛ اذهب إلىٰ أحمد ، فاسأله أن يدعو الله عز وجل لي بالعافية ، قال : فمضيت ، ووقفت علىٰ باب أحمد ، ثم دققته ، فقال : مَن هـٰذا ؟ قلت : رجل من أهل ذلك الجانب ، سألتني أمي وهي زمنة مقعدة أن تدعو الله عز وجل لها بالعافية ، قال : فسمعت كلام رجل مغضَب ، وهو يقول : نحن أحوج إلى الدعاء وإلىٰ من يدعو لنا ، قال : فوليت منصرفاً ، فخرجت عجوز من داره ، وقالت : أنت الذي سألت أبا عبد الله الدعاء لأمك ؟ قلت : نعم ، قالت : قد تركته يدعو لها ، قال : فرجعت من فوري إلى البيت ، فدققت الباب ، فخرجت أمي علىٰ رجليها تمشي ، وفتحت الباب ، وقالت : يا ولدي ؛ قد وهب الله تعالىٰ لي العافية بدعاء أحمد .

وقال ميمون بن الأصبغ : كنت ببغداد فسمعت صيحة ، فقلت : ما هـٰذا ؟ فقالوا : أحمد ابن حنبل يمتحن ، فدخلت ، فلما ضُرب سوطاً . . قال : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، فلما ضرب الثاني . . قال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فلما ضرب الثالث . . قال : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، فلما ضرب الرابع . . قال : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا

---

(١) خَوَلاً : خدماً وعبيداً .

كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ ، فضُرب تسعة وعشرين سوطاً ، وكانت تكّتُه[1] حاشية ثوب ، فانقطعت ، فنزل السراويل إلىٰ عانته ، فرمىٰ بطرْفه إلى السماء وحرك شفتيه ، فما كان بأسرع من أن بقي السراويل متماسكاً علىٰ حاله لم ينزل ، فدخلت إليه بعد سبعة أيام ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ رأيتك وأنت تحرك شفتيك ، فأي شيء قلت ؟ قال : قلت : اللهم ؛ إني أسألك باسمك الذي ملأت به أركان عرشك ، إن كنتُ على الحق . . فلا تهتك ستري .

وقال عبد الله : كنت أسمع أبي كثيراً ما يقول : رحم الله أبا الهيثم ، فقلت له : هـٰذا الذي تكثر من ذِكره من هو ؟ فقال : يا بني ؛ لما جُرِّدت للسياط ومُدَّت يداي للعقاب . . إذا أنا بشاب يجذب ثوبي من ورائي ، وهو يقول لي : أتعرفني ؟ قلت : لا ، قال : أنا أبو الهيثم العَيَّار ، اللص الطرار ، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق ، وكان ذلك الضرب كله في طاعة الشيطان لأجل الدنيا ، فاصبر أنت في طاعة الرحمـٰن جل جلاله لأجل الدين ، قال أبي : فلما مسني حر السوط . . ذكرت كلامه ، قال أبي : فضُربت ثمانية عشر سوطاً بدل ما ضُرب ثمانية عشر ألف سوط ، وخرج الخادم ، وقال : قد عفا عنه أمير المؤمنين ، والله ـ يا بني ـ لقد أعطيت المجهودَ من نفسي .

قال عبد الله : وكتب أهل المطامير إلىٰ أبي : يا أبا عبد الله ؛ إن رجعت عن مقالتك . . ارتددنا عن الإسلام .

وقال أحمد بن سنان : بلغني أن أحمد ابن حنبل جعل المعتصم في حلٍّ يوم فتح بابك أو فتح عمورية ، وقال : هو في حل من ضربي .

وقال إبراهيم الحربي : جعل أحمد ابن حنبل رحمه الله جميع من ضربه أو حضره أو ساعد عليه في حلٍّ ، إلا ابن أبي دؤاد ، فقال : لولا أنه ذو بدعة داعية . . لأحللته ، ولو تاب عن بدعته . . لأحللته .

وقال صالح : ورد كتاب علي بن الجهم علىٰ أبي ، فيه أن أمير المؤمنين المتوكل قد وجه إليك يعقوب المعروف بقوصرة ، ومعه جائزة ، ويأمرك بالخروج ، فالله الله أن تستعفي ، أو ترد المال ، فيشيع القول لمن يُبغِضك ، فلما كان الغد . . ورد يعقوب ، فدخل علىٰ أبي ، وقال له : يا أبا عبد الله ؛ أمير المؤمنين يُقرِئُكَ السلام ، ويقول لك : قد أحببت أن آنس بقربك ، وأن أتبرك بك وبدعائك ، وقد وجه إليك معي عشرة آلاف درهم معونة لك علىٰ

---

(١) **التِّكَّةُ** : رباط السراويل .

سفرك ، وأخرج بَدْرَةً فيها صرة نحو مئتي دينار ، والباقي دراهم صحاح ، فلم ينظر أبي إليها ، ثم شدها يعقوب ، وقال : أعود إليك غداً حتىٰ أنظر ما تعزم عليه ، ثم انصرف ، قال : فجئت بإِجَّانة[1] خضراء ، فكببتها على البدرة ، فلما كان عند المغرب . . قال : يا صالح ؛ خذ هـٰذا المال اجعله عندك الليلة ، فصيرته عند رأسي فوق السطح ، فلما كان سَحَراً . . ناداني : ياصالح ، ياصالح ، فقمت وجئت إليه ، فقال : ما نمت ليلتي هـٰذه ، فقلت : لِمَ يا أبي ؟ وجعل يبكي ، وهو يقول : سلِمت من هـٰؤلاء ، حتىٰ إذا كان آخر عمري . . بُليت بهم ، قد عزمت علىٰ أن أفرق المال إذا أصبحت ، فقلت : ذاك إليك ، فلما أصبح . . قال : يا صالح ، جئني بميزان ، ثم قال : وجهوا إلىٰ أبناء المهاجرين والأنصار ، ثم إلىٰ فلان ، ثم إلىٰ فلان ، فلم يزل حتىٰ فرق الجميع ، ونفض الكيس ، ونحن في حالةٍ اللهُ بها عليم ، فجاء ابن لي صغير ، فقال : يا أبي ؛ أعطني درهماً ، فنظر إلي ، فأخرجت قطعة ، فأعطيته .

وكتب صاحب البريد إلى المتوكل : أن أحمد تصدق بجميع المال من يومه حتىٰ تصدق بالكيس ، فلما بلغه الخبر . . قال له علي بن الجهم : يا أمير المؤمنين ؛ حيث تصدق أحمد بالمال ، فقد قبله منك ، وما يصنع أحمد بالمال وإنما قوته رغيف ؟ فقال : صدقت يا علي ، قال صالح : فخرجنا ليلاً ومعنا حرس معهم النَّفَّاطات[2] ، فلما أضاء الفجر . . قال : يا صالح ؛ أمعك دراهم ؟ قلت : نعم ، قال : أعطهم درهماً درهماً ، فأعطيتهم ودخلنا العسكر وأبي منكس الرأس ، فلما وصلنا . . وجدنا داراً قد هُيِّئَت لنا ، فنزلنا فيها ، وجاء علي بن الجهم ، وقال : قد أمر لك أمير المؤمنين بعشرة آلاف مكان التي فرقها والدك ، وأمر ألاَّ يعلم بذلك شيخهم ـ يعني : والدك ـ فيغتم .

ثم جاءه أحمد بن معاوية ، وقال له : إن أمير المؤمنين يُكثر ذِكرك ، ويشتهي قربك ، ويقول : يقيم هـٰهنا يحدِّث ، فقال أبي : أنا ضعيف ، ثم حُمل إلىٰ دار الخليفة ، فأخبرني بعض الخدم : أن المتوكل كان قاعداً وراء ستر ، فلما دخل إلى الدار . . قال الخليفة لأمه : يا أماه ؛ قد أنارت الدار ، ثم جاء خادم بمنديل فيه ثياب ، فألبسه إياها وهو لا يحرك يده ، فلما صار إلى الدار . . نزع الثياب عنه ، ثم جعل يبكي ، ويقول : سلِمتُ من هـٰؤلاء منذ

---

(١) **الإِجَّانة** : إناء تغسل فيه الثياب .

(٢) **النَّفَّاطات** : نوع من السرج يرمىٰ بها النفط والنار .

ستين سنة ، حتىٰ إذا كان في آخر عمري . . بُليت بهم ، ثم قال : يا صالح ، وجِّه هـٰذه الثياب إلىٰ بغداد ؛ لتباع ويُتصدق بثمنها ، ولا يشتر أحد منكم منها شيئاً ، وأُجريَت لنا مائدة وثلج وضُرِبَ الخيش ، فلما رأىٰ ذلك . . شق عليه ، وتنحىٰ ، ورمىٰ نفسه علىٰ مضربة له ، وجعل يواصل ويفطر في كل ثلاثة أيام علىٰ تمر وسويق ، ومكث علىٰ ذلك خمسة عشر يوماً ، ثم جعل يفطر ليلة ، وليلة لا يفطر إلا علىٰ رغيف واحد ، وكان إذا جيء بالمائدة . . توضع في الدِّهليز[1] ؛ لئلا يراها ، فيأكل منها كل من حضره ، وكان المتوكل أمر أن تشترىٰ له دارٌ ، فقال أبي : يا صالح ؛ لئن أقررت لهم بشراء دار . . لتكونن القطيعة بيني وبينك ، ولم يزل أبي يدفع شراء الدار حتى اندفع ، ثم إني انحدرت إلىٰ بغداد ، وأقام أخي عبد الله عنده ، فلم أشعر إلا وعبد الله قد قدم ومعه ثيابي التي كانت عنده ، فقلت له : ما الخبر ؟ فقال : أمرني والدي بالانحدار إليك ، وهو يقول لك : لا تسافر إليه ؛ فإنكم أنتم كنتم آفتي ، والله ؛ لولا أني أخذتكم معي . . لما كانت توضع هـٰذه المائدة ، ولو لم أخرجكم معي . . لكان خيراً لي .

وفي رواية أخرىٰ : أن أبا عبد الله أحمد مرض ، فاستأذن المتوكل في العود إلىٰ بغداد ، فأذن له ، ثم إنه توفي رحمه الله سنة إحدىٰ وأربعين ومئتين ، وقد استكمل سبعاً وسبعين سنة .

وقال أبو بكر : مرض أحمد ليلة الأربعاء ، وأقام مريضاً تسعة أيام ، وتسامع الناس به ، فأقبلوا لعيادته ، ولزموا بابه ليلاً ونهاراً يبيتون ، وربما أذن للناس ، فيدخلون أفواجاً يسلمون عليه ، فيرد بيده .

ولقد وضأته يوماً فقال : خلل الأصابع ، فلما كان يوم الجمعة . . اجتمع الناس حتى امتلأت الشوارع والدروب ، فلما كان صدر النهار . . قبض ، فصاح الناس ، وعلت الأصوات بالبكاء ، وارتجت الدنيا لموته .

وقال إسحاق : مات أبو عبد الله أحمد ولم يخلف إلا ست قطع أو سبعاً ، كانت في خرقة له يمسح بها وجهه قدر دانقين .

وقال : كان عنده ثلاث شعرات من شعر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأوصىٰ عند موته أن يجعل علىٰ كل عين شعرة ، وشعرة علىٰ لسانه ، ففعل به ذلك .

---

(١) الدِّهليز : ما بين الباب والدار ، فارسي معرب .

وقال صالح : قال لي أبي : جئني بالكتاب الذي فيه حديث أبي إدريس عن ليث ، عن طاووس أنه كان يكره الأنين ، فجئت به ، وقرأته عليه ، فلم يئن إلا في الليلة التي توفي فيها .

قال : ولما حضرت أبي الوفاة . . جلست عند رأسه وبيدي الخرقة لأشد بها لحييه ، فجعل يعرق ، ثم يفيق ، ثم يفتح عينيه ، ويقول بيده هٰكذا : لا بعدُ لا بعدُ ، فعل ذلك ثلاثاً ، فقلت له : يا أبت ؛ ما هٰذا الذي قد لهجت به في هٰذا الوقت ؟ تعرق حتىٰ نقول قد قبضت ، ثم تعود ، فتقول : لا بعدُ لا بعدُ ، فقال له : يا بني ؛ ما تدري إبليس قائم حذائي ، عاضٌّ علىٰ أنامله ، وهو يقول : يا أحمد ؛ فُتَّني ، فأقول : لا بعدُ لا بعدُ حتىٰ أموت .

وقال بنان بن أحمد : حضرت جنازة أحمد ، فكانت الصفوف من الميدان إلى القنطرة التي بباب القطيعة ، وحُزر من حضر من الرجال ثمان مئة ألف ، ومن النساء ستون ألف امرأة .

وقال موسى بن هارون : لما مات أحمد . . مسحت الأمكنة المبسوطة التي وقف الناس فيها للصلاة عليه ، فجاء مقادير الناس بالمساحة ست مئة ألف وأكثر ، سوىٰ من كان في الأطراف والأسطحة والمواضع المتفرقة تبلغ أكثر من ألف ألف .

زاد في رواية أخرىٰ : عن أبي زرعة قال : بلغني أن المتوكل أمر أن يمسح الموضع الذي وقف الناس فيه للصلاة علىٰ أحمد ابن حنبل ، فبلغ ألفي ألف وخمس مئة ألف .

وقال الوركاني : أسلم يوم وفاة أحمد عشرون ألفاً من اليهود والنصارىٰ والمجوس ، ووقع المأتم في أربعة أصناف : المسلمين ، واليهود ، والنصارىٰ ، والمجوس .

وقال أبو بكر المروزي : رأيت أحمد في المنام كأنه في روضة ، وعليه حلتان من السندس الأخضر ، وعلىٰ رأسه تاج من النور ، وهو يمشي مِشية لم أكن أعرفها له ، فقلت له : يا أحمد ؛ ما هٰذه المِشية التي لا أعرفها لك ؟ فقال : هٰذه مشية الخدام في دار السلام ، فقلت : ما هٰذا التاج الذي أراه علىٰ رأسك ؟ فقال : إن ربي عز وجل أوقفني وحاسبني حساباً يسيراً ، وحباني ، وقربني ، وأباحني النظر إليه ، وتوجني بهٰذا التاج وقال لي : يا أحمد ؛ هٰذا تاج الوقار ، توجتك به كما قلت إن القرآن كلامي غير مخلوق .

وقال أبو يوسف بن بختان : لما مات أحمد . . رأىٰ رجل في منامه كأن علىٰ كل قبر

قنديلاً ، فقال : ما هـٰذا ؟ فقيل له : أما علمت أنه نوِّر لأهل القبور قبورهم بنزول هـٰذا الرجل بين أظهرهم ؟ وقد كان فيهم من يعذب فرُحم .

وقال أبو علي بن البنا : لما ماتت أم ولدي . . دفنتها في جوار أحمد ، فرآها ولدها بعد ليال ، فقال : يا أماه ؛ ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقالت : يا بني ؛ رضي الله عنك ، فلقد دفنتموني في جوار رجل ينزل علىٰ قبره كل ليلة ـ أو قالت : كل ليلة جمعة ـ رحمة تعم جميع أهل المقبرة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٠٤ـ٢١٦] .

قال في « بهجة الأسرار » : قال عبد الله بن أحمد : قلت لأبي يوماً : أوصني ، فقال : يا بني ؛ اِنوِ الخير ما عشت ؛ فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير .

وقال محمد بن يوسف الجوهر : كنت مع أصحابنا عند الإمام أحمد ابن حنبل يوم مات بشر [الحافي] رحمه الله ، فسأله رجل عن مسألة ، فقال : ليس هـٰذا يوم مسائل ، هـٰذا يوم حزن .

وقيل لأحمد ابن حنبل : إن الناس يقولون إنك قد زهدت في الناس ، فقال : ومَن أنا حتىٰ أزهد في الناس ؟ ينبغي للناس أن يزهدوا فيَّ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن الإمام أحمد ابن حنبل ـ رحمه الله ـ لما امتُحن . . كان من ملخص أمره أن هارون الرشيد لم يقل بخلق القرآن مدة خلافته ، ولهـٰذا السبب كان الفضيل بن عياض رحمه الله يتمنىٰ طول عمر الرشيد ؛ لأنه ـ والله أعلم ـ كان قد كشف له بأن فتنة تحدث بعد موت الرشيد ، ولم يحدث في مدة خلافته فتنة ، ولـٰكن كان الأمر في زمن ولايته بين أخذ وترك إلىٰ أن ولي ابنه المأمون ، فقال بخلق القرآن ، وبقي يقدم رِجْلاً ويؤخر أخرىٰ في دعواه الناس إلىٰ ذلك ، إلىٰ أن قوي عزمه في السَّنة التي مات فيها ، فطلب الإمامَ أحمد وجماعته ، وحُمل إليه ، فلما كان في بعض الطريق . . توفي المأمون وعَهِد إلىٰ أخيه المعتصم ، وأن يَحمِل الناس علىٰ ذلك ، وأُخذ أحمد ، وحبس ، واستمر محبوساً ، إلىٰ أن بويع المعتصم ، فأحضر أحمد إلىٰ بغداد ، وعُقد له مجلس مناظرة ، وفيه عبد الرحمـٰن بن إسحاق والقاضي أحمد ابن أبي دؤاد وغيرهما ، فناظروه ثلاثة أيام ، فلم يزل معهم في جدال إلىٰ بعد ثلاثة أيام ، أُمر به ، فضُرب بالسياط ، ولم يزِلَّ عن الصراط إلىٰ أن أغمي عليه ، ونخسه[1] عجيف بالسيف ،

---

(١) النخس : الطعن .

ورمي علىٰ بارية[1] ، وديس عليه ، ثم حُمل وصار إلىٰ منزله .

وكان مدة مكثه في السجن ثمانية وعشرين شهراً ولم يزل بعد ذلك يحضر الصلوات والجمعات ويفتي ويحدث إلىٰ أن مات المعتصم ، وولي الواثق ، فأظهر ما أظهر من المحنة ، وقال لأحمد ابن حنبل : لا تجمعن إليك أحداً ، ولا تساكِنِّي في بلد أنا فيه ، فأقام الإمام أحمد مختفياً لا يخرج إلىٰ صلاة ولا [إلىٰ] غيرها حتىٰ مات الواثق ، وولي المتوكل ، فرفع المحنة ، وأمر بإحضار أحمد وإكرامه وإعزازه ، وأطلق له مالاً كثيراً ، فلم يقبله ، لـٰكن فرقه على الفقراء والمساكين ، وأجرى المتوكل علىٰ أهله وولده في كل شهر أربعة آلاف درهم ، فلم يرض الإمام أحمد بذلك ، وأُظهرت السُّنَّة ، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة وإظهار السُّنة ، وبسط أهلها ، ونصرهم ، وتكلموا في مجلسه بالسُّنة ، وخمدت المعتزلة ، ولم تزل المعتزلة في قوة ونماء إلىٰ أيام المتوكل ، فخمدوا ، ولم يكن في هـٰذه الملة الإسلامية أهل بدعة شر منهم ، نعوذ بالله تعالىٰ من شر مقالتهم ، ونسأله الإماتة على الكتاب والسنة ، إنه علىٰ كل شيء قدير .

وأما مبسوط القول في ما جرىٰ له من المحنة : فقد روى الحافظ أبو نعيم بإسناده : عن أبي معمر القطيعي قال : لما حضرنا في دار السلطان أيام المحنة ، وكان الإمام أحمد ابن حنبل قد أُحضر ، فلما رأى الناس يجيئون إليه . . انتفخت أوداجه ، واحمرت عيناه ، وذهب ذلك اللِّين الذي كان فيه ، فقلت في نفسي : إنه قد غضب لله عز وجل ، قال أبو معمر : فلما رأيت ما به . . قلت له : يا أبا عبد الله ؛ أبشر .

وبإسناده قال : حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان ، عن الوليد بن عبد الله بن جميع ، عن أبي سلمة ابن عبد الرحمـٰن بن عوف قال : كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مَن إذا أريد علىٰ شيء من دينه . . رأيت حماليق[2] عينيه في رأسه تدور كأنه مجنون .

وقال أبو عبد الله محمد بن نوح : قلت لأبي عبد الله أحمد ابن حنبل في الطريق ـ ونحن موكَّل بنا في محمل علىٰ جمل إلى المأمون ـ : إن رأيتني ضعفت أو خذلت . . فلا تضعف أنت ، فلست أنا مثلك ، فقال أحمد : أبشر ؛ فإنك علىٰ إحدىٰ ثلاث : إما ألاَّ تراه

---

(١) الباريَّة : الحصير من القصب .
(٢) الحماليق : جمع حملاق ، وهو : ما غطت الجفونُ من بياض المقلة .

ولا يراك ، وإما تراه فتصدعه بالحق فيقتلك فتكون من أفضل الشهداء ، وإما أنك إذا صدعته بالحق . . يحُول الله تعالىٰ بينك وبينه .

وقال أحمد بن غسان : حُملت أنا وأحمد ابن حنبل رحمه الله في محمل علىٰ جمل يراد بنا المأمون ، فلما صرنا قرب حانة . . قال لي أحمد : قلبي يُحِس بأن رجاء الحِضاري[1] يأتي في هـٰذه الليلة ، فإن أتىٰ وأنا نائم . . فأيقظني ، وإن أتىٰ وأنت نائم . . أيقظتك ، فبينا نحن نسير ؛ إذ قرع قارع المحمل ، فأشرف أحمد ، فإذا رجل يعرفه أحمد بالوصف ، وذلك الرجل لا يأوي المدائن والقرىٰ ، وعليه عباءة قد شدها علىٰ عنقه ، فقال له : يا أبا عبد الله ؛ إن الله عز وجل قد رضيك له وافداً ، فانظر ألاَّ يكون وفودك على المسلمين وفوداً مشؤوماً ، واعلم : أن الناس إنما ينتظرون ما تقول فيقولون به ، واعلم : أنما هو الموت والجنة ، ثم مضىٰ .

فلما أشرفنا علىٰ البَذَنْدون[2] . . قال لي : يا أحمد بن غسان ؛ إني موصيك بوصية فاحفظها عني ، راقب الله تعالىٰ في السراء والضراء ، واشكره على الشدة والرخاء ، وإن دعانا هـٰذا الرجل إلىٰ أن نقول : القرآن مخلوق . . فلا تقل ، وإن أنا قلت ـ والعياذ بالله تعالىٰ ـ فلا تركن إليَّ ، وتأوَّلْ قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ .

ثم لم يكن بأسرع من أن جاء إلينا رجاء الحضاري ، فقال : هـٰؤلاء الأشقياء ؟ فقال له أحمد ابن حنبل : يا عدو الله ؛ أنت تقول القرآن مخلوق ونكون نحن الأشقياء ؟! ثم أُنزلنا من المحامل وصرنا في خيمة ، فلم يكن بأسرع من أن جاءنا خادم وهو يمسح الدموع عن وجهه وعينيه ، ويقول : عز عليَّ يا أبا عبد الله ، قد جرد أمير المؤمنين سيفاً لم يجرده قط ، وبسط نطعاً لم يبسطه قط ، ثم قال : وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا رفعتُ السيف عن أحمد وصاحبه حتىٰ يقولا القرآن مخلوق ، قال : فنظرت إلىٰ أحمد وقد جثا علىٰ ركبتيه ولحظ السماء بعينيه ، ثم قال : إلـٰهي وسيدي ؛ علا عن هـٰذا الفاجر حلمك حتىٰ يتجرأ علىٰ أوليائك بالقتل ؟! اللهم ؛ فإن يكن القرآنُ كلامك منزل غير مخلوق . . فاكفنا أمره ، قال : فوالله ؛ ما مضى الثلث الأول . . إلا ونحن بصيحة وضجة ، وإذا رجاء الحضاري قد أقبل علينا ، وقال : صدقت يا أبا عبد الله ، القرآن كلام الله غير مخلوق ، قد مات ـ والله ـ أمير المؤمنين .

---

(١) **رجاء بن أيوب الحِضاري** : أحد قوّاد الدولة العباسية في زمن المأمون وخلفائه .

(٢) **البذندون** : قرية بينها وبين طرسوس يوم ، مات بها المأمون ، فنقل إلىٰ طرسوس .

وقال يوسف بن يعقوب بن الفرج : سمعت علي بن محمد القرشي قال : لما قدم أحمد ابن حنبل ليُضرب بالسياط ، وجُرِّد فلم يبق عليه سوى السراويل ، فبينا هو يضرب. . إذ انحل السراويل ، فجعل يحرك شفتيه ، فرأيت يدين خرجتا من تحته وهو يُضرب ، فشدتا السراويل ، قال : فلما كان بعد ذلك. . سألته ما الذي كان يحرك به شفتيه حين انحل السراويل ، فقال : قلت : يا من لا يعلم العرش منه أين هو إلا هو ؛ إن كنت أنا على الحق. . فلا تُبْدِ عورتي .

وقال صالح : لما جاء نعي المأمون. . رُدَّ أبي ومحمد بن نوح إلى الرَّقَّة ، وأخرجنا من الرَّقَّة في سفينة ، فلما كان [في] بعض الطريق. . توفي محمد بن نوح ، فتقدم أبي وصلىٰ عليه ، ثم حُمل أبي إلىٰ بغداد وهو مقيد ، فمكث أياماً في دار ، ثم صير إلى الحبس في دار ، ثم حمل إلىٰ حبس العامة في درب الموصلية ، فمكث في السجن ـ من حين أخذ وحمل إلىٰ أن ضُرب ، وخلي عنه ـ ثمانية وعشرين شهراً ، قال أبي : وكنت أصلي بهم وأنا مقيد ، وكنت أرىٰ بوران يحمل إليه الماء البارد في دورق[1] ، ويجيء به إليه في السجن ، قال صالح : قال أبي : فلما كان شهر رمضان لسبع عشرة خلت منه. . حُوِّلْتُ من السجن إلىٰ دار إسحاق بن إبراهيم وأنا مقيد بقيد واحد ، يُبعث إليَّ في كل يوم رجلان سماهما أبي ، وهما : أحمد بن رباح ، وأبو شعيب الحجام ، فيكلماني ويناظراني ، فإذا أرادا الانصراف. . دعي بقيد آخر قيدت به ، فمكثت علىٰ هـٰذه الحال ثلاثة أيام ، وصار في رجلي أربعة أقياد .

فقال لي أحدهما في بعض الأيام في كلام دار بيننا ، وسألته عن علم الله تعالىٰ ، فقال : علم الله تعالىٰ مخلوق ، فقلت له : يا كافر ؛ كفرت ، فقال لي الرسول الذي كان يحضر معهم من قبل إسحاق : هـٰذا رسول أمير المؤمنين ، فقلت له : هـٰذا قد كفر ، وكان صاحبه الذي يجيء معه خارجاً ، فلما دخل. . قلت له : إن هـٰذا زعم أن علم الله تعالىٰ مخلوق ، فنظر إليه كالمنكِر عليه ، ثم قاما وانصرفا .

قال أبي : فلما كانت الليلة الرابعة بعد العشاء الآخرة. . بعث المعتصم مملوكاً له اسمه بغا إلىٰ إسحاق بن إبراهيم يأمره بحملي ، فأُدخلت إلىٰ إسحاق ، فقال : يا أحمد ؛ إنها والله نفسك ، فانظر لها ، إنه قد حلف أنه لا يقتلك بالسيف بل يضربك ضرباً بعد ضرب ،

---

(١) الدورق : إناء للشراب ، فارسي معرَّب .

ويلقيك في موضع لا ترىٰ فيه الشمس ، أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ ؟ أفيكون مجعولاً إلا مخلوقاً ؟ فقال له أبي : قد قال الله عز وجل : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾ أفخلقهم ؟ قال إسحاق : اذهبوا به .

قال أبي : فأُنزلت إلىٰ شاطىء دجلة ، وأُخذت إلى الموضع المعروف بباب البستان ومعي بغا الكبير ورسول من قبل إسحاق ، قال : فقال بغا لمحمد المحاربي بالفارسية : ما تريدون من هٰذا الرجل ؟ فقال : يريدون منه أن يقول القرآن مخلوق ، فقال : أنا ما أعرف شيئاً من هٰذا ، ما أعرف إلا قول : لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وقرابة أمير المؤمنين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما وصلنا أُخرجت من السفينة ، وجُعلت علىٰ دابة والأقياد في رجلي ، وما معي أحد يمسكني ، فبقيت كأني أُجرُّ علىٰ وجهي حتى انتهينا إلى الدار ، فأُدخلت ، ثم عُرج بي إلىٰ حجرة ، فصُيِّرت في بيت منها ، وأُغلق الباب ، وأُقعد عليه رجل ، وكان ذلك في جوف الليل ، وليس عندي سراج ، فاحتجت إلى الوضوء ، فمددت يدي أطلب شيئاً ، فإذا أنا بإناء فيه ماء وطست ، فتوضأت وقمت أصلي .

فلما أصبحت . . جاءني الرسول ، فأخذ بيدي وأدخلني الدار ، وإذا الخليفة جالس وابن أبي دؤاد حاضر ، وقد جمع أصحابه والدار غاصة بأهلها ، فلما دنوت منه . . سلمت ، فقال لي : ادنه ادنه ، فلم يزل يدنيني حتىٰ قربت منه ، ثم قال لي : اجلس ، فجلست ، وقد أثقلتني الأقياد ، فلما مكثت ساعة . . قلت : أتأذن لي في الكلام ؟ قال : تكلم ، فقلت : إلىٰ أي شيء دعا الله عز وجل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : إلىٰ شهادة أن لا إلٰه إلا الله ، فقلت : أنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، ثم قلت له : إن جدك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما روىٰ : أن وفد عبد القيس لما قدموا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال : « أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم »(١) ، فقال المعتصم : لولا أني وجدتك في يد من كان قبلي . . ما تعرضت لك ، ثم التفت إلىٰ عبد الرحمٰن بن إسحاق ، فقال له : يا عبد الرحمٰن ؛ ألم آمرك برفع المحنة ؟ قال أبي : فقلت في نفسي : الله أكبر ، إن في هٰذا لفرجاً على المسلمين ، ثم قال المعتصم : ناظروه ، كلموه ، ثم قال :

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان (١٧٢) .

يا عبد الرحمـٰن ؛ كلمه ، فقال لي عبد الرحمـٰن : ما تقول في القرآن ؟ فقلت : ما تقول في علم الله تعالى ؟ قال : فسكت ، قال أبي : وجعل يكلمني هـٰذا وهـٰذا ، فأرد علىٰ ذا وأكلم ذا ، ثم أقول : يا أمير المؤمنين ؛ أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أقول به ، قال : فيقول ابن أبي دؤاد : وأنت لا تقول إلا ما في كتاب الله تعالىٰ أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟!

ثم قال ابن أبي دؤاد : هـٰذا ـ والله ـ يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع ، وهـٰؤلاء قضاتك والفقهاء ، فسلهم ، فيقول لهم : ما تقولون ؟ فيقولون : يا أمير المؤمنين ؛ هو ضال مضل مبتدع ، ثم إنهم لم يزالوا معي في جدال ، وجعل صوتي يعلو علىٰ أصواتهم ، فقال لي إنسان منهم : قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ ، أفيكون محدثاً إلا مخلوقاً ؟ فقال : فقلت له : ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ، فالذِّكر هنا هو القرآن ، وهناك ليس فيه ألف ولام ، فليس هو القرآن ، قال : فجعل ابن سماعة لا يفهم ما أقول ، فجعل يقول : ما الذي تقولون ؟ فقالوا : إنا نقول كذا وكذا ، فقال لي إنسان : ما تقول في حديث خباب : « تقرب إلى الله تعالىٰ ما استطعت ؛ فإنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه »[1] ؟ فقال لهم أبي : وما الذي يلزم من هـٰذا ؟ وجعل ابن أبي دؤاد ينظر إلىٰ أبي نظر الغيظ والغضب .

فقال بعضهم : أليس قد قال تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ؟ فقلت : وقد قال الله تعالىٰ : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ، فدمرت كل شيء إلا ما أراد الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال بعضهم : ما تقول في حديث عمران بن الحصين : « أن الله تعالىٰ خلق الذكر » ؟ قلت : هـٰذا خطأ ، حدثنا غير واحد : « أن الله تعالىٰ كتب الذكر »[2] .

وكان إذا انقطع الرجل منهم ؛ اعترض ابن أبي دؤاد ، فتكلم ، فلما قارب الزوال ؛ قال لهم : قوموا ، ثم احتبس عبد الرحمـٰن بن إسحاق ، وخلا بي وبعبد الرحمـٰن ، وجعل يقول لي : أما تعرف صالحاً الرَّشِيدي ؟ وكان مؤدبي ، وكان في هـٰذا الموضع جالساً ، وأشار إلىٰ ناحية من الدار ، وذكر القرآن ، فخالفني ، فأمرت به ، فسُحب ووُطىء إلىٰ أن مات ، ثم إن عبد الرحمـٰن جعل يقول : يا أمير المؤمنين ؛ إني أعرفه منذ ثلاثين سنة ، وهو يرىٰ طاعتك وطاعة مَن قبلك والحج والجهاد معك ، وهو لازم لمنزله ، فقال المعتصم :

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٩) .
(٢) أخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » (٤/ ٣٠٥) .

والله ؛ إنه لفقيه ، وإنه لعالم ، ويسرني أن يكون مثله معي يرد علىٰ أهل الملل ، ولئن أجابني إلىٰ شيء له فيه أدنىٰ فرج ؛ لأطلقن عنه بيدي ، ولأطأن عقبه ، ولأركبن إليه بجندي ، ثم يلتفت إلي ويقول : ويحك يا أحمد! ما تقول ؟ فأقول : يا أمير المؤمنين ؛ أعطوني شيئاً من كتاب الله تعالىٰ أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فلما طال بنا المجلس ؛ ضجر وقام ، ورددت إلى الموضع الذي كنت فيه ، ثم وجه إلي برجلين من أصحاب ابن أبي دؤاد يناظراني إلىٰ وقت الفطر ، فإذا حان وقت الفطر ؛ بعث إلينا مائدة ، فأكلا منها ، وأنا أتعلل حتىٰ ترفع المائدة ، ثم يقيمان عندي طول الليل ، وفي خلال ذلك يجيء ابن أبي دؤاد ، فيقول : يا أحمد ؛ أمير المؤمنين يقول لك : ما تقول في القرآن ؟ فأقول : أعطوني شيئاً من كتاب الله تعالىٰ أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أقول به ، فقال لي : والله ؛ لقد كتب اسمك في السبعة فمحوته ، ولقد ساءني أخذهم إياك ، إنه ـ والله ـ ليس يقتلك بالسيف ، وإنما هو ضرب بعد ضرب ، ثم يقول : ما تقول ؟ فأرد عليه كما رددت أولاً ، فيمضي من عندي ، ثم يأتيني رسوله ، فيقول : إن أمير المؤمنين يقول لك : ما تقول ؟ فأرد عليه كالأول ، ولا تزال رسله تختلف فيما بيني وبينه ، وهم يقولون : أمير المؤمنين يقول : أجبني حتىٰ أطلق عنك بيدي .

فلما كان في اليوم الثاني ؛ أُدخلت عليه ، فقال : ناظروه وكلموه ، قال : فشرعوا في الكلام من كل ناحية ، يتكلم هـٰذا من هنا وهـٰذا من هنا ، فأرد عليهم ، فإذا شرعوا في شيء مما ليس من الأدلة الشرعية ؛ أقول لهم : ما أدري ما تقولون ، فيقولون : يا أمير المؤمنين ؛ إذا توجه له الحجة علينا ؛ وثب ، وإذا كلمناه بشيء من الكلام ؛ يقول : لا أدري ، ما هـٰذا ؟ فيقول الخليفة : ناظروه ، ثم يلتفت الخليفة إلي ويقول : يا أحمد ؛ إني عليك شفيق ، ويقول ابن أبي دؤاد : والله يا أمير المؤمنين ؛ لئن أجابك إلىٰ ما تقول ؛ لهو أحب إلي من مئة ألف دينار ومئتي ألف دينار ، ويعد ما شاء الله .

ثم من بعد ذلك أمرهم الخليفة بالانصراف ، وخلا بي وبعبد الرحمن ، فدار بيننا كلام كثير وفي خلال ذلك يقول : أتدعو ابن أبي دؤاد ، فأقول : ذاك إليكم ، فيطلبه ، فيجيء ويدور بيننا كلام كثير ، إلىٰ أن طال المجلس وضجر الخليفة ، فقام ، ورُددت أنا إلى الموضع الذي كنت فيه ، وجاءني الرجلان اللذان كانا عندي بالأمس ، وجعلا يتكلمان وأنا أرد عليهما إلىٰ وقت الإفطار ، فلما جيء بالطعام ؛ أفطرا ، وأنا أتعلل ، ورسل الخليفة تأتيني كالليلة الماضية .

ثم جاء ابن أبي دؤاد فقال : إن الخليفة قد حلف أنه لا يزال يضربك ضرباً بعد ضرب ويحبسك في موضع لا ترىٰ فيه الشمس ، ولم يزل يكلمني وأنا أرد عليه إلىٰ قريب الفجر ، ثم مضىٰ ، فقلت : إن يحدث في هٰذا اليوم من أمري شيء ، وكنت قبل ذلك قد أخرجت تكتي من سراويلي شددت بها الأقياد أحملها بها إذا توجهت إليه ، فقلت لبعض الموكَّلين بي : أريد خيطاً ، فجاءني بخيط فشددت به الأقياد ، وأعدت التكة إلىٰ سراويلي ؛ خيفة أن يحدث شيء فتبدو عورتي ، فلما أصبحنا في اليوم الثالث ؛ أُدخلت عليه والمجلس غاص محفل ، وجعلوا يدخلوني من دار إلىٰ دار ، وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط إلىٰ غير ذلك من الأسلحة ، وقد امتلأت الدار بالجند بخلاف اليومين الماضيين ، فلما وصلت إليه ؛ قال : ناظروه ، كلموه ، فشرعوا في المناظرة ، ولم نزل في حِجَاج وجدال إلىٰ أن ارتفع النهار ، وجاء الوقت الذي يخلو معي ، نحاني ، وجمعهم ، وشاورهم ، ثم نحاهم ، ودعاني ، فلما جئت ؛ خلا بي وبعبد الرحمـٰن ، وقال لي : ويحك يا أحمد! أنا ـ والله ـ عليك شفيق ، وإني لأشفق عليك مثل شفقتي على ابني هارون ، فأجبني ، فأرد عليه كما رددت أولاً .

وفي رواية أخرىٰ : قال لي : من أين قلت هٰذا ؟ قلت : من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : استدِلَّ علىٰ ذلك ، فقلت : حدثني عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، عن سالم ، عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله سبحانه وتعالىٰ كلم موسىٰ عليه الصلاة والسلام بمئة ألف كلمة وعشرين ألف كلمة وثلاث مئة كلمة وثلاث عشرة كلمة ، وكان الكلام من الله عز وجل والاستماع من موسىٰ عليه الصلاة والسلام » ، فقال الخليفة : كذبت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أحمد : قال الله عز وجل في محكم كتابه العزيز : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، قال : فالتفت الخليفة إلى ابن أبي دؤاد وابن الزيات ، وقال : ناظروه ، كلموه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ اقتله ، ودمُه في أعناقنا ، قال : فرفع الخليفة يده ولطم بها وجه أحمد ابن حنبل رحمه الله ، فخر مغشياً عليه ، قال : فتعرق وتمعر وجوه قواد خراسان ، وكان عمه فيهم ، فخاف الخليفة علىٰ نفسه ، ودعا بماء فرش منه علىٰ وجهه ، فلما أفاق ؛ رفع رأسه إلىٰ عمه وهو واقف بين يدي الخليفة ، فقال له : يا عم ؛ لعل هٰذا الماء الذي رُش منه علىٰ وجهي غصب عليه صاحبه ، فقال الخليفة عند ذلك : ويحكم! أما ترون ما يهجم عليَّ من هٰذا ؟ وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لا رفعت السوط

عنه حتىٰ يقول : القرآن مخلوق ، ثم التفت إلىٰ أحمد ، وأعاد عليه القول ، فرد أحمد كالأول ، ولا زال كذلك حتىٰ ضجر وطال المجلس ، فعند ذلك قال : عليك لعنة الله ، لقد كنت طمعت فيك ، خذوه ، خَلِّعوه ، اسحبوه[1] .

قال أحمد : فأخذت وسجنت ، ثم خُلِّعت ، ثم قال الخليفة : عليَّ بالعُقَابَيْن[2] والسِّياط ، فجيء بالعقابين والسياط ، قال أحمد : وكان عندي شعرات من شعر النبي صلى الله عليه وسلم ، فصررتها في كم قميصي ، فنظر إسحاق بن إبراهيم إلى الصرة ، فقال : ما هـٰذا ؟ فقلت : شعر من شعر النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاء بعض القوم إلىٰ قميصي ليحرقه ، فقال لهم الخليفة : لا تحرقوه ، انزعوه عنه ، وإنما درىء عن القميص الحَرْق ببركة شعر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لكونه فيه ، ثم صيرت بين العقابين ، وشدت يداي ، وجيء بكرسي ، فجلس عليه المعتصم ، وابن أبي دؤاد قائم ، والناس أجمعون قيام ، ثم قال لي إنسان : أمسك رأس الخشبتين بيديك ، وشد عليهما ، فلم أفهم مقاله ، فلم أفعل ، فتخلعت يداي لما شُدَّت ، ولم أكن أحسن أن أمسك الخشبتين كما قيل لي ، فلم يزل أحمد رحمه الله يتوجع منهما إلىٰ أن مات .

ثم قال الخليفة للجلادين : تقدموا ، ونظر إلى السياط ، فقال : ائتوني بغيرها ، ثم قال لهم : تقدموا ، وقال لأحدهم : ادنه ، أوجع قطع الله يدك ، فتقدم ، فضربني سوطين ، ثم تنحىٰ ، ثم قال لآخر : ادنه ، وشد قطع الله يدك ، فتقدم ، فضربني سوطين ، ثم تنحىٰ ، ولم يزل يستدعي جلاداً بعد جلاد ، فيضربني كل واحد سوطين ويتنحىٰ ، ثم قام المعتصم ، وجاءني ، وهم محدقون بي ، فقال لي : ويحك يا أحمد! تقتل نفسك ، أجبني حتىٰ أطلق عنك بيدي .

قال : وجعل بعضهم يقول لي : إمامك علىٰ رأسك قائم ، وعجيف ينخسني بقائم سيفه ، ويقول : أتريد أن تغلب هـٰؤلاء كلهم ، وإسحاق بن إبراهيم يقول : ويلك! الخليفة قائم علىٰ رأسك ، وبعضهم يقول : يا أمير المؤمنين ؛ دمه في عنقي ، قال : فرجع المعتصم إلى الكرسي ، ثم قال للجلادين : ادنه قطع الله يدك ، شد قطع الله يدك ، ثم لم يزل يدعو بجلاد بعد جلاد ، فيضربني كل واحد سوطين ويتنحىٰ ، وهو يقول له : شد قطع الله يدك ، ثم جاء إلي ثانياً ، وقال لي : يا أحمد ؛ أجبني ، وعبد الرحمـٰن بن إسحاق

---

(١) في نسخة : (اسجنوه) .

(٢) **العقابان** : خشبتان تغزران بالأرض بينهما جِلْد ، يلقىٰ عليه الرجل المضروب ممدوداً .

يقول : مَن صنع بنفسه من أصحابك مثل ما صنعت أنت بنفسك ؟ هـٰذا فلان ، وهـٰذا فلان ، يعد عليَّ مَن أجاب ، والمعتصم يقول : ويحك! أجبني حتىٰ أطلق عنك بيدي ، فأرد كالأول ، فرجع وجلس على الكرسي ، ثم قال للجلادين : شد قطع الله يدك .

قال أحمد : فذهب عقلي ، وما عقلت إلا وأنا في حجرة مطلق عني الأقياد ، فقال لي إنسان ممن حضر : إنا كببناك علىٰ وجهك ، وطرحنا علىٰ ظهرك بارية ، ودسناك ، فقلت : والله ؛ ما شعرت بذلك ، ثم جاؤوني بسويق ، وقيل لي : اشرب وتقيَّأ ، فقلت : لا أفطر .

ثم جيء بي إلىٰ دار إسحاق بن إبراهيم ، ونودي لصلاة الظهر ، فصلينا الظهر ، فقال لي ابن سماعة : أصليت والدم يسيل من ضربك ؟ فقلت له : قد صلىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجرحه يثعب(١) دماً ، فسكت .

ثم خُلِّيَ عني ، فجئت إلى المنزل ، ثم وجَّه إلي المعتصم رجلاً ينظر الضرب والجراحات ، ويعالج ، فنظر ، وقال : والله ؛ لقد رأيت مَن ضُرب ألف سوط ، وما رأيت ضرباً أشد من هـٰذا ، ثم أدخل مِيلاً في بعض تلك الجراحات ، ومكث زمانا يتردد إليه ويعالجه ، وكان قد أصاب وجهه غيرما ضربة ، واستمر ما شاء الله يعالج فيه ، ثم قال : إن هـٰهنا شيئاً لا بد من قطعه ، فجاء بحديدة ، وجعل يعلق اللحم بها ، ويقطع مواضع ، وبقي أثرُ الضرب بيِّناً في ظهره إلىٰ أن مات رحمه الله .

قال صالح : سمعت أبي يقول : والله يا بني ؛ لقد أعطيت المجهود من نفسي ، ولوددت أني أنجو من هـٰذا الأمر كفافاً لا علي ولا لي .

قال صالح : وأخبرني أحد الرجلين اللذين كانا معه قال : والله ؛ ما رأيت أحداً بعيني كان يشبهه ، ولقد كنت أقول له لما يجيء الطعام : يا أبا عبد الله ؛ أنت صائم وعطشان ، وهـٰذا الماء والثلج ، فينظر إليه ولا يشرب منه ، وكنت أعجب من صبره على الجوع والعطش ، وما هو فيه من الهول .

قال صالح : وكنت أحتال أن أوصل إليه طعاماً أو رغيفاً ، فلم أقدر علىٰ ذلك ، وأخبرني رجل ممن حضره ، قال : لقد ترصدته في أيام المناظرة وهو في تلك المحنة ، فما لحن في كلمة ما ، وما ظننت أن أحداً يكون في شجاعة هـٰذا وشدة قلبه .

وقال صالح : دخلت علىٰ أبي يوماً ، فقلت له : بلغني أن رجلاً جاء إلىٰ فضل

---

(١) يثعب : يسيل .

الأنماطي ، فقال له : اجعلني في حل إذ لم أقم بنصرك ، فقال فضل : لا جعلت أحداً في حل ممن قدر على نصرتي وتأخر ، فتبسم أبي وسكت ، فلما كان بعد ثلاثة أيام ؛ قال لي أبي : قد مررت بهذه الآية الكريمة : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فنظرت في تفسيرها ؛ فإذا هو ما حدثني به هاشم بن القاسم بن المبارك ، حدثني من سمع الحسن قال : (إذا جثت الأمم بين يدي رب العالمين يوم القيامة ؛ نودوا : ليقم من أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا)[1] ، قال أبي : فجعلت الميت في حلٍّ من ضَرْبِه إياي ، ثم جعل أبي يقول : وما على رجل ألا يعذِّب اللهُ عز وجل بسببه أحداً ؟

قال : ثم إن إسحاق بن إبراهيم وجه إلى أحمد ، وقال له : الزم بيتك ، ولا تخرج إلى جمعة ولا جماعة ، وإلا . . نزل بك ما نزل في أيام المعتصم ، ثم إن أحمد أقام مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا إلى غيرها إلى أن مات الواثق ، وولي المتوكل ، ورفع المحنة ، وأظهر العدل والسنة .

وقال عبد الله بن أحمد : قال أبي : أول سماعي من هُشيم سنة تسع وسبعين ومئة ، وكان ابن المبارك قد قدم في هذه السَّنة ، وهي آخر قَدْمةٍ قَدِمَها ، فذهبت إلى مجلسه ، فقالوا : قد خرج إلى طرسوس ، فتوفي سنة إحدى وثمانين ومئة .

قال عبد الله : وخضب أبي رأسه ولحيته ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وطلب الحديث وهو ابن ست عشرة سنة ، ومات هشيم وقد بلغ أبي من العمر عشرين سنة .

وقال محمد بن عبد الملك : رأيت يزيد بن هارون يصلي ، فجاء إليه أحمد ابن حنبل ، فلما فرغ من الصلاة ؛ التفت إلى أحمد ، وقال له : يا أبا عبد الله ؛ ما تقول في العارية ؟ قال : مؤداة ، فقال يزيد بن هارون : أخبرنا حجاج بن الحكم أنه قال : ليست بمضمونة ، فقال له أحمد : قد استعار النبي صلى الله عليه وسلم من صفوان بن أمية أدراعاً ، فقال له : عارية مؤداة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « عارية مؤداة »[2] ، فسكت يزيد بن هارون ، وصار إلى قول أحمد .

وقال قتيبة بن سعيد : لولا سفيان الثوري ؛ لمات الورع ، ولولا أحمد ابن حنبل ؛ لأُدخِل في الدِّين .

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٢/ ٢٨٥) .

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٤) .

وقال نوح بن حبيب : رأيت أبا عبد الله أحمد ابن حنبل في مسجد الخَيف في سنة ثمان وتسعين ومئة ، وهو مستند إلى المنارة ، وقد جاءه أصحاب الحديث ، فجعل يعلمهم الفقه والحديث ، ويفتي الناس في المناسك وقد ازدحموا عليه .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : أحمد ابن حنبل أعلم الناس بحديث سفيان الثوري .

وقال صالح : قال أبي : جاء رجل إلىٰ باب ابن علية ومعه كتب هُشَيم ، فجعل يلقيها عليَّ وأنا أقول : هـٰذا إسناده كذا ، وهـٰذا إسناده كذا ، فجاء المعيطي ـ وكان يحفظ ـ فقلت له : أجبه ، فبقي[1] ، قال أبي : وأعرف من حديثه ما لم أسمع ، وكتبت عنه في سنة تسع وسبعين ومئة ، غير أني لا أعتقد بعض سماعي ، ولزمناه من حين سمعنا عليه إلىٰ سنة ثلاث وثمانين ، وفيها مات ، وكتبنا عنه كتاب الحج نحواً من ألف حديث ، وبعض التفسير والقضاء ، وكتباً صغاراً ، قال : قلت : يا أبت ؛ أيكون نحواً من ثلاثة آلاف حديث ؟ قال : أكثر .

وقال أبو زرعة : ما رأيت مثل أحمد في فنون العلم ، وما قام أحد مثل ما قام أحمد به .

وقال أحمد : كل شيء سمعته من هشيم . . حفظته وهشيم حي .

وقال علي بن المديني : ليس في أصحابنا أحفظ من أحمد ابن حنبل ، وبلغني أنه لا يحدث إلا من كتابه ، ولنا فيه أسوة .

وقال يحيى بن سعيد القطان : ما قدم عليَّ مثل هـٰذين الرجلين : أحمد ابن حنبل ، ويحيى بن مَعين .

وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي : أئمة الناس : سعيد بن المسيب في زمانه ، وسفيان الثوري في زمانه ، وأحمد ابن حنبل في زمانه .

وقال الهيثم بن جميل : إن لكل زمن رجلاً يكون حجة على الخلق ، وإن الفضيل بن عياض حجة علىٰ أهل زمانه ، وأظن إن عاش هـٰذا الفتىٰ ـ أعني أحمد ابن حنبل ـ سيكون حجة علىٰ أهل زمانه .

وقال أبو زرعة : سمعت قتيبة بن سعيد يقول : يموت أحمد ابن حنبل وتظهر البدع ، ومات الشافعي وماتت السنن ، ومات الثوري ومات الورع .

---

(١) أي : أسقط في يده ولم يجب .

وقال يحيى بن معين : أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد ابن حنبل ، لا والله ؛ ما نقوىٰ علىٰ ما يقوىٰ عليه ، ولا علىٰ طريقه .

وقال أبو زرعة : لم أزل أرى الناس يذكرون أحمد ويقدمونه علىٰ يحيى بن معين وأبي خيثمة .

وقال أبو يحيى الناقد : قد كنا عند إبراهيم بن عرعرة ، فذكروا عَلِيَّ بن عاصم ، فقال رجل : أحمد ابن حنبل يضعفه ، فقال رجل آخر : وما يضره من ذاك إذا كان ثقة ، فقال إبراهيم بن عرعرة : والله ؛ لو تكلم أحمد ابن حنبل في من هو أكبر منه ؛ لضره . أو كما قال .

وقال أحمد ابن حنبل : كنت مقيماً علىٰ يحيى بن سعيد القطان ، ثم خرجت إلىٰ واسط ، فسأل يحيى بن سعيد عني ، فقالوا : خرج إلىٰ واسط إلىٰ يزيد بن هارون ، قال : وأي شيء يصنع عند يزيد بن هارون ؛ يعني : هو أعلم منه .

وقال خلف بن سالم : كنا في مجلس يزيد بن هارون ، فمزح يزيد مع مستمليه ، فتنحنح أحمد ، فقال يزيد : مَنِ المتنحنح ؟ قالوا : أحمد ابن حنبل ، فضرب بيده وقال : ألا أعلمتموني أن أحمد هـٰهنا ؛ لئلا أمزح ؟

وقال محمد بن الحسين الأنماطي : كنا في مجلس فيه يحيى بن معين وأبو خيثمة وزهير بن حرب وجمع آخرون ، فشرعوا في الثناء علىٰ أحمد وذِكر فضائله ، فقال رجل : لا تكثروا ، فقال يحيى بن معين : أتحسب أن كثرة الثناء علىٰ أحمد تُستَكْثَر ؟ لو جلسنا مجالسنا بالثناء عليه ؛ ما ذكرنا فضائله جميعها .

وقال عبد الله بن أحمد : سمعت أبي يقول : قال لي محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله : يا أبا عبد الله ؛ إذا صح عندكم الحديث ؛ فأخبرونا به حتىٰ نرجع إليه .

وفي رواية أخرىٰ : قال الشافعي لأحمد : أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا ، فإذا كان خبر صحيح ؛ فأعلمني به حتىٰ أذهب إليه ، كوفياً كان أو بصرياً أو شامياً .

وقال عبد الله : جميع ما قال الشافعي في كتابه : حدثني الثقة أو أخبرني الثقة ؛ فهو أبي .

وقيل لبشر بن الحارث رحمه الله : لو قمت وتكلمت أيام محنة أحمد ، فقال بشر :

أتأمروني أن أقوم مقام الأنبياء ، إن أحمد قام مقام الأنبياء ، ثم قال : إن أحمد أُدخِلَ الكير[1] ، فخرج ذهبة حمراء .

وقال زهير بن حرب : ما رأيت مثل أحمد ، ولا أشد قلباً منه حين قام ذلك المقام ، ورأىٰ ما يمر به من الأهوال والقتل والضرب ، وثبت علىٰ ذلك ، وما رأيت أحداً صبر علىٰ ما صبر عليه ، أو كما قال .

وقال إسحاق بن راهويه : لولا أحمد وبَذْل نفسه لَمَّا بذلها ؛ لذهب الإسلام .

وقال شجاع بن مخلد : كنت عند أبي الوليد الطيالسي ، فورد عليه كتاب أحمد ، فسمعته يقول : ما بالبصرتين ـ يعني : البصرة والكوفة ـ أحب إلي من أحمد ، ولا أرفع قدراً منه .

وقال مهنا بن يحيىٰ : رأيت يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري حين أخرج أحمد ابن حنبل من الحبس وهو يقبل جبهته ووجهه ، وكذلك سليمان بن داوود الهاشمي .

وقال أحمد بن منصور : قال لي أبو عاصم حين أردت أن أودعه : أقرىء الرجل الصالح أحمد السلام .

وقال يحيى بن الجلا ـ وكان من أفاضل الناس ـ : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم واقفاً في صينية الكرخ ، وأحمد ابن حنبل جالس عن يمينه ، وابن أبي دؤاد عن يساره ، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم وأشار إلى ابن أبي دؤاد ، فقال : « ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ » ، وأشار إلىٰ أحمد ابن حنبل [انتهىٰ « الحلية » ٩/ ١٦٢ـ١٧٢ و ١٩٤ـ٢٠٧] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد حكي أن الشافعي رحمه الله لما كان بمصر ؛ رأىٰ في المنام سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم وهو يقول له : « بشر أحمد ابن حنبل بالجنة علىٰ بلوىٰ تصيبه ؛ فإنه يُدْعىٰ إلى القول بخلق القرآن فلا يجيب إلىٰ ذلك ، بل يقول : هو منزل غير مخلوق » ، فلما أصبح الشافعي ؛ كتب صورة ما رآه في منامه ، وأرسله مع الربيع إلىٰ بغداد إلىٰ أحمد ، فلما وصل الربيع إلىٰ بغداد ؛ قصد منزل أحمد ، واستأذن ، فلما دخل عليه ؛ قال : هٰذا كتاب أخيك الشافعي ، فقال له : هل تعلم ما فيه ؟ قال : لا ، قال : ففتحه وقرأه وبكىٰ ، وقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ثم أخبرني بما فيه ، فقلت له : الجائزة ، وكان عليه قميصان ، أحدهما : علىٰ جسده ،

(١) الكِير : آلة يستخدمها الحديد في النفخ لإذكاء النار .

والآخر : فوقه ، فنزع الذي علىٰ جسده ودفعه إلي ، قال : فأخذته ورجعت إلى الشافعي ، فقال لي : بما أجازك ؟ فقلت : أعطاني القميص الذي علىٰ جسده ، فقال : أمَا إني لا أفجعك فيه ، ولٰكن اغسله وَأْتِني بمائِه ، فغسلته وأتيته بالماء ، فأفاضه علىٰ سائر جسده . انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم : عن محمد بن زياد قال : أخبرنا ابن هانىء قال : كنت عند أحمد ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ؛ إني قد اغتبتك ، فاجعلني في حل ، فقال : أنت في حل إن لم تَعُدْ ، فقلت له : لِمَ جعلته في حل وقد اغتابك ؟ فقال : ألم ترني كيف اشترطت عليه ؟!

وقال علي بن المديني : دخلت منزل أحمد ، فما شبهت بيته إلا بما وصف من بيت سويد بن غفلة من زهده وتواضعه .

وقال إسماعيل ابن أبي الحارث : مر بنا أحمد ابن حنبل في قطيعة الربيع ، فقلنا لشخص عندنا : اتبعه وانظر أين يذهب ، فتبعه ، ثم جاء ، فقال : إنه راح إلى المروزي ـ شيخ كان عندنا ـ فلم يكن إلا ساعة ، ثم رجع أحمد ، فقلت للمروزي : في أي شيء جاء أبو عبد الله ؟ فقال : هو صديقي وبيني وبينه أُنس ، فألحجنا عليه ، فقال : إنه كان قد استقرض مني مئتي درهم ، فجاء بها ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ ما دفعتها إليك وأنا أريد أن آخذها منك ، فقال : وأنا ما أخذتها إلا وأنا قد نويت ردها عليك .

وكان رجل صيرفي يتردد إلىٰ أحمد ابن حنبل ، فأعطاه أحمد درهمين ، وقال : اشتر لي بها كاغداً ، فاشترىٰ له الكاغد ، وجعل في جوف الكاغد خمس مئة دينار ، وشده وأوصله إلىٰ بيت أحمد ، ولم يكن أحمد حاضراً ، فلما جاء ؛ قال لأهله : هل حُمل إليكم شيء من البياض ؟ قالوا : نعم ، فلما وضعوه بين يديه وفتحه ؛ تناثرت الدنانير ، فردها إلىٰ مكانها ، وسأل عن منزل الرجل حتىٰ دُلَّ عليه ، فقصده أحمد ، ووضع الكاغد بما فيه بين يديه ، فتبعه الرجل وهو يقول : يا سيدي ؛ الكاغد اشتريته بدراهمك ، خذه ، فلم يلتفت إليه ولم يأخذ الكاغد أيضاً .

وقال أبو جعفر بن دريج العكبري : قصدت أحمد لمسألة عرضت لي في سنة ست وثلاثين ومئتين ، فقالوا لي : إنه خرج إلى الصلاة ، فجلست علىٰ باب الدرب حتىٰ جاء ، فسلمت عليه ، فرد السلام ، وكان شيخاً مخضوباً طَوِيلاً أسمر شديد الأدمة ، فدخل الزقاق

وأنا معه ، فلما بلغنا آخر الدرب ؛ دفع باباً وصار خلفه ، وقال : اذهب عافاك الله ، فكلمته ، فقال : اذهب عافاك الله ، فالتفتُّ ، فإذا مسجد علىٰ باب داره وفيه شيخ مخضوب يصلي بالناس ، فجلست حتىٰ فرغ ، فسألت بعض من خرج من المسجد عن أحمد ، وعن السبب في أنه لم يحدثني ، فقال لي : إن أحمد قيل عنه عند السلطان : إن علوياً اختفىٰ عنده ، وجاء محمد بن نصر وأحاط بالمحلة وفتش ، فلم يجد شيئاً مما ذُكر ، فأحجم أحمد عن كلام العامة لذلك ، فقلت له : فهٰذا الشيخ الذي يصلي بالناس مَن هو ؟ قال : إسحاق عم أحمد ، قلت : فلِمَ لا يصلي خلفه ؟ قال : إنه لا يكلمه ولا يكلم ولديه ؛ لأنهم قبلوا جائزة السلطان وأخذوها .

وقال أحمد ابن حنبل : عرض علي يزيد بن هارون خمس مئة درهم أو أكثر ، فلم أقبل منه ، وكان قد أعطىٰ يحيى بن معين وأبا مسلم المستملي ، فأخذا منه .

وقال أحمد بن سنان الواسطي : قدم علينا أحمد ومعه جماعة ، فنفدت نفقاتهم ، فبررتهم ، فأخذوا ، قال : جاءني أحمد بفروة ، وقال : قل لمن يبيع لي هٰذه ، قال : فأخذت صرة دراهم وجئت بها إليه ، فلم يقبلها ، فقالت امرأتي : هٰذا رجل صالح ، لعله لم يرضها ، فأضعِفْها له ، فأضعفتُها ، فلم يقبل ، وأخذ الفروة من يدي وخرج .

وقال صالح : بعث رجل من الصين جائزة إلى المحدثين منهم يحيىٰ وغيره ، ووجه إلىٰ أبي بقِمَطْرٍ[1] ، فرده ، وجاء يحيى بن يحيى النيسابوري ـ وما خرج من خراسان بعد ابن المبارك مثل يحيى بن يحيىٰ ـ وقال : إن أبي أوصىٰ لك بهٰذه المبطنة التي له ، وقال : تذكرني بها ، فقال له أحمد : نعم ، فأخرج رزمة ثياب معها ، فقال : اذهب رحمك الله ، ولم يقبل شيئاً .

وقال الحافظ أبو نعيم رحمه الله تعالىٰ : قال صالح : قلت لأبي : بلغني أن أحمد الدورقي أُعطي ألف دينار ، فقال : يا بني ؛ ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ، وذكر رجل عنده بمال ، فقال : يا بني ؛ الفائز من فاز غداً ، ولم يكن لأحد عليه تبعة .

وقال : إنما هٰذه أيام قلائل ، فاجتهد فيها بما ينجيك .

وكان قد مكث عند الخليفة ستة عشر يوماً بالعسكر ، ولم يذق في تلك الأيام إلا شيئاً يسيراً من السويق ، كل ليلة يستفُّ حفنة من السويق ، فلما رجع إلىٰ بغداد ؛ لم ترجع إليه

---

(١) **القمطر** : الوعاء الذي يحفظ فيه الكتب .

نفسه إلىٰ ستة أشهر ، ورأيت مُوقَيه[1] قد دخلا في حدقتيه .

وقال عمر بن صالح : وقع من يد أحمد مقراض في البئر ، فجاء شخص ، فأخرجه ، فناوله أحمد نصف درهم ، فقال ذلك الرجل : يا أبا عبد الله ؛ المقراض يساوي قيراطاً ، لا آخذ عليه أجرة ، ثم خرج ، فلما كان بعد أيام ؛ لقيه ، فقال له : كم اجتمع عليك من أجرة الحانوت ؟ فقال : ثلاثة أشهر تسعة دراهم ، فضرب علىٰ حسابه ، وقال : أنت في حل .

وقال عبد الله : نزلنا بمكة في دار فيها شيخ من أهل مكة ، فقالت له أمه : الزم هـٰذا الرجل واخدمه ؛ فإنه رجل صالح ، فكان ذلك الشيخ يخدم أبي ، فخرج يطلب الحديث ، فسُرق متاعه وقماشه ، فلما جاء أبي ؛ قالت له أم ذٰلك الشيخ : قد دخل السُّرَّاق وسرقوا قماشك ، فقال لها : فما فعلت الألواح ؟ قالت له : في الطاق ، وما سأل عن شيء غيرها ، ولقد أتته الدنيا بحذافيرها ، فدفعها عنه ، وصبر على الفقر سبعين سنة .

وقال إبراهيم بن هانىء : اختفىٰ عندي أحمد ثلاثة أيام ، ثم قال : اطلب لي موضعاً غير هـٰذا أنتقل إليه ، فقلت : لا آمَنُ عليك يا أبا عبد الله ، قال : افعل ، فإذا فعلتَ ؛ أفدتُك ، فطلبتُ له موضعاً ، فلما انتقل إليه ؛ قال لي : قد اختفىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ثلاثة أيام ، ثم تحول وليس ينبغي أن يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرخاء فقط ، بل يتبع صلى الله عليه وسلم في جميع حالاته من الرخاء والشدة .

وقال هلال بن العلاء : شيئان لو لم يكونا في الدنيا ؛ لاحتاج الناس إليهما : محنة أحمد ابن حنبل ، لولاها ؛ لصار الناس جهمية ، ووجود الشافعي ؛ فإنه فتح للناس الأقفال .

وقال يحيى بن معين : ما رأيت مثل أحمد ، لقد صحبناه خمسين سنة ، فما افتخر علينا يوماً بشيء مما كان فيه من الصلاح والزهد والخير .

وقال إسحاق بن موسىٰ : دفع المأمون مالاً ، وقال : اقسموه علىٰ أصحاب الحديث ، فكل أخذ منه إلا أحمد ؛ فإنه لم يأخذ منه شيئاً .

وكان أحمد شديد الورع ، اشتهىٰ يوماً بعضُ أهله زبداً ، فأعطىٰ أحمد لرجل قطعة ، وقال : اشتر بها زبداً ، فاشترىٰ وجاء به علىٰ ورق سلق ، فلما نظر إليه ؛ قال له : من أين

---

(١) الموق : طرف العين مما يلي الأنف .

هٰذا الورق ؟ فقال : أخذته من البقال ، قال : فهل استأذنته في ذلك ؟ قال : لا ، قال : رده .

وكان كثيراً ما يقول : اللهم ؛ سلِّم سلِّم .

وكان سعيد بن المسيب يقول : اللهم ؛ سلِّم سلِّم .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول : اللهم ؛ سلِّم سلِّم .

وكان سفيان الثوري يقول : اللهم ؛ سلِّم سلِّم .

وقال أبو حفص عمر بن صالح الطرسوسي : ذهبت أنا ويحيى بن الجلاء ـ وكان يقال : إنه من الأبدال ـ إلىٰ أبي عبد الله أحمد ، فسألناه : بِمَ تلين القلوب ؟ فقال : بأكل الحلال ، فمررنا من عنده إلىٰ أبي نصر بشر بن الحارث ، فسألناه : بِمَ تلين القلوب ؟ فقال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ ، فقلت له : إن أحمد سألته ، فقال : هيه! أيش قال لك أبو عبد الله ؟ فقلت : قال : بأكل الحلال ، فقال بشر : جاء بالأصل ، جاء بالأصل ، فمررت إلىٰ أبي الحسن عبد الوهاب ، فقلت له : يا أبا الحسن ؛ بِمَ تلين القلوب ؟ قال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ ، قلت له : فإني جئت من عند أحمد ، فاحمرَّت وجنتاه من الفرح ، وقال لي : أيش قال لك أبو عبد الله ؟ فقلت : قال : بأكل الحلال ، فقال : جاء بالجوهر ، الأصل ما قال ، الأصل ما قال .

وسئل عبد الله بن أحمد فقيل : هل عقل أبوك عند المعاينة ؟ فقال : نعم ، كنا نوضئه ، فجعل يشير بيده ، فقال لي أخي صالح : أيش يقول ؟ قلت : إنه يقول : خللوا أصابعي ، فخللنا أصابعه ، فترك الإشارة ومات من ساعته ، ضحوة يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، سنة إحدىٰ وأربعين ومئتين ، ودفن ببغداد ، وقبره بها مشهور ظاهر يُتبرك به ، رحمه الله تعالىٰ .

ولما طلبه الخليفة المتوكل وأمر بإكرامه وإعزازه والقرب منه والتبرك بدعائه ؛ قال عبد الله ابنه : لقد سمعته يقول : لقد تمنيت الموت في أيام المحنة وهٰذا أشد علي من ذاك ؛ لأن ذاك فتنة الدنيا الضرب والحبس ، كان الله عز وجل يحمله عني ، وهٰذا فتنة الدِّين ، نسأل الله تعالى العافية والسلامة .

وقال عبد الله : نظر أبي إلىٰ رِجْلَيَّ وهما لينتان ليس فيهما شقاق ، فقال : يا بني ؛ لِمَ لا تمشي حافياً حتىٰ تصير رجلاك خشنتين ؟

وكان أبي قد خرج إلىٰ طرسوس ماشياً ، ولما قدم من رحلته إلىٰ عبد الرزاق ؛ وجدت به تغيراً وضعفاً ، وقد تبين عليه أثر التعب والمشقة ، فقيل له : يا أبا عبد الله ؛ لقد شققت علىٰ نفسك في خروجك إلىٰ عبد الرزاق ، فقال : ما أهون هـٰذه المشقة في جنب ما استفدنا من عبد الرزاق ، لقد كتبنا عنه حديث الزهري عن سالم عن أبيه رضي الله عنهم ، وحديث الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنهم ، ثم قال : وما كتبنا عن عبد الرزاق من حفظه شيئاً ؛ إلا المجلس الأول ، وذلك أنا دخلنا عليه ليلاً ، فرأيناه جالساً ، فأملىٰ علينا سبعين حديثاً ، ثم التفتَ إلى القوم ، وقال : لولا هـٰذا ؛ ما حدثتكم .

وكان عبد الرزاق قد جالس مَعْمَراً تسع سنين ، وكتب عنه جميع ما قال ، ولما أُدخل أحمد على الخليفة المعتصم ـ وكان عنده ابن أبي دؤاد وخلائق ، منهم : أبو عبد الرحمـٰن ابن بنت الشافعي ، وكانوا قد هولوا عليه وأرجفوه ، فإنهم ضربوا عنق رجلين قدامه ـ فنظر أحمد إلىٰ أبي عبد الرحمـٰن وقال له : أي شيء تحفظ عن الشافعي في المسح ؟ فقال ابن أبي دؤاد : انظروا رجلاً يُقدَّم لضرب العنق وهو يناظر في الفقه .

وقال صدقة : رأيت في النوم كأنَّا بعرفة ، وكأن الناس ينتظرون الصلاة ، فقلت : لِمَ لا تصلون ؟ فقال لي قائل منهم : إنهم ينتظرون الإمام ، فجاء أحمد وصلىٰ بالناس ، فكان صدقة بعد ذلك إذا سئل عن شيء ؛ يقول : سلوا الإمام .

وقال محمد بن عمار : رأيت الخضر عليه الصلاة والسلام ، فسألته ، فقلت له : أخبرني عن أحمد ، فقال : صِدِّيق .

وفي رواية أخرىٰ : عن بلالٍ الخواص ، قلت له : ما تقول في بشر بن الحارث ؟ قال : لم يخلق[1] بعده مثله ، قلت : فما تقول في أحمد ؟ قال : صِدِّيق ، قلت : فما تقول في أبي ثور ؟ قال : رجل طالب حق ، قلت : فأنا بأي وسيلة رأيتك ؟ قال : ببِرِّك لأمك .

وقال إسحاق بن حكيم : رأيت أحمد في المنام ؛ فإذا بين كتفيه سطران مكتوبان كأنهما من نور : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

وقال عبد الله بن إسحاق المدائني : سمعت أبي يقول : رأيت في النوم كأن الحجر قد انصدع وخرج منه لواء ، فقلت : ما هـٰذا ؟ فقيل : أحمد ابن حنبل ، بايع الله عز وجل ، وكان ذلك في صبيحة اليوم الذي ضُرب فيه .

---

(١) في بعض النسخ : (نخلف) .

وقال علي بن سهل السجستاني : رأيت أحمد في النوم ، وكأن القيامة قد قامت ، وكأن الناس جاؤوا إلىٰ موضع فيه قنطرة لا يُتْرَكُ أحدٌ ، ولا يُمكَّن من العبور ، حتىٰ يجيء بخاتم ، ورجل ناحية يعطي الناس الخواتيم ، فمن جاء بخاتم ؛ جاز ، فقلت : مَن هـٰذا الذي يعطي الناس الخواتيم ؟ فقالوا : أحمد ابن حنبل .

وعن سلمة بن شبيب قال : كنا في أيام المعتصم عند أحمد ابن حنبل ، فدخل رجل ، فقال : مَن منكم أحمد ابن حنبل ؟ فسكتنا ، فأعاد ثانياً وثالثاً ، فقال أحمد : ما حاجتك ؟ قال : أنت هو ؟ قال : نعم ، قال : جئتك من مسيرة أربع مئة فرسخ براً وبحراً لرؤيا رأيتها ، كنت في ليلة جمعة نائماً ، وأتاني آت ، فقال لي : أتعرف أحمد ابن حنبل ؟ قلت : لا ، قال : فأت بغداد واسأل عنه ؛ فإذا رأيته ؛ فقل له : إن الخضر يقرئك السلام ، ويقول لك : إن الله عز وجل راض عنك ، والملائكة راضون عنك ؛ بما صبَّرت به نفسك لله سبحانه وتعالىٰ ، فقال أحمد : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ثم قال له أحمد : هل من حاجة ؟ فقال : ما جئتك إلا لهـٰذه الرؤيا ، ثم انصرف .

وقال أحمد بن المخلد(1) : لما كان اليوم الذي مات فيه أحمد كان يوم جمعة ، فلما أردت أن أنام ؛ قلت : اللهم ؛ أرنيه هـٰذه الليلة في منامي ، فرأيته كأنه بين السماء والأرض علىٰ نجيب من نور ، وبيده خطام من نور ، فضربت بيدي في الخطام ، فقال لي : قِر(2) ، ليس الخبر كالمعاينة ، ليس الخبر كالمعاينة ، فتركته ، وانتبهت .

وقال عبد الله بن الورد(3) : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في منامي ، فقلت : يا رسول الله ؛ ما شأن أحمد ابن حنبل ؟ فقال : « سيأتيك موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، فسله » فإذا أنا بموسىٰ عليه الصلاة والسلام ، فقلت : يا نبي الله ؛ ما بال أحمد ابن حنبل ؟ فقال : أحمد ابن حنبل بُلي في السراء والضراء ، فوُجِد صادقاً ، فأُلحق بالصديقين . [« الحلية » ٩/ ١٧٤-١٨٩] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : الحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أمور :

منها : بيان فضيلة أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الأمم ، حتىٰ إن موسىٰ عليه الصلاة والسلام هو الذي يبين ذلك ويقرره .

---

(١) في « الحلية » : (أحمد بن الجلد) .

(٢) قِرْ : اسكن .

(٣) في « الحلية » : (حبيش بن الورد) ، وفي « السير » : (حبيش بن أبي الورد) .

ومنها : أنه يعرف بذلك قدر محنة أحمد ، وما جرىٰ عليه حتىٰ يشهد بعظيم فضله نبيان عليهما الصلاة والسلام .

ومنها : أن محنة أحمد إنما هي في كون القرآن مخلوقاً ، وكلم الله عز وجل موسىٰ تكليماً ، وهو يعرف أن القرآن ليس بمخلوق ، فيعرف الناس ذلك ؛ ليزداد يقينهم بأنه منزل غير مخلوق . انتهىٰ .

وقال الغزالي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كان بين أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين صحبة طويلة ، فهجره أحمد ؛ إذ سمعه يقول : إني لا أسأل أحداً شيئاً ، ولو أعطاني السلطان شيئاً ؛ لأكلته ، حتى اعتذر يحيىٰ ، وقال : كنت أمزح ، فقال : تمزح بالدِّين ؟ أما علمت أن الأكل من الدين قدمه الله تعالىٰ على العمل الصالح فقال تعالىٰ : ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ ؟ . [انتهىٰ « الإحياء » ٣/ ٩١] .

وقال الحافظ : قال [إبراهيم بن] جعفر المروزي : رأيت أحمد ابن حنبل في النوم يمشي مشية يختال فيها ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ ما هٰذه المشية ؟! قال : هٰذه مشية الخدام في دار السلام .

وقال عبد الله بن القاسم القرشي : سمعت المروزي يقول : رأيت أحمد في المنام وعليه حلتان خضراوان ، وفي رجليه نعلان من الذهب الأحمر ، شراكهما من الزمرد الأخضر ، وعلىٰ رأسه تاج من النور مرصع بالجوهر ، وإذا هو يخطر في مشيته ، فقلت له : حبيبي يا أبا عبد الله ؛ ما هٰذه المشية التي لا أعرفها لك في دار الدنيا ؟! قال : هٰذه مشية الخدام في دار السلام ، فقلت : ما هٰذا التاج الذي أراه علىٰ رأسك ؟ فقال : إن الله عز وجل غفر لي ، وأدخلني الجنة ، وحباني ، وكساني ، وتوجني بيده ، وأباحني النظر إليه ، وقال لي : يا أحمد ؛ فعلتُ بك هٰذا لقولك القرآن كلامي غير مخلوق .

وقال أبو عبد الله محمد بن خزيمة بالإسكندرية : لما مات أحمد ؛ اغتممت غماً شديداً ، فبتُّ من ليلتي ، فرأيته في المنام وهو يتبختر في مشيته ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ ما هٰذه المشية ؟! قال : مشية الخدام في دار السلام ، قال : فقلت : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ قال : غفر لي ، وتوجني ، وألبسني نعلين من ذهب ، وقال لي : يا أحمد ؛ هٰذا بقولك القرآن كلامي ، ثم قال : يا أحمد ؛ ادعني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفيان الثوري التي كنت تدعو بهن في دار الدنيا ، قال : فقلت : يا ربَّ كل شيء ؛ أسألك بقدرتك

علىٰ كل شيء ، لا تسألني عن شيء ، واغفر لي كل شيء ، فقال لي : يا أحمد ؛ هٰذه الجنة ، قم فادخل إليها ، فدخلت ؛ فإذا أنا بسفيان الثوري ، وله جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلىٰ نخلة ، وهو يقول : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ .

قال : فقلت : فما فعل بعبد الوهاب الورَّاق ؟ قال : تركته في بحر من نور في زلالة من نور يزور ربه الملك الغفور ، فقلت له : فما فعل بشر بن الحارث ؟ فقال لي : بخ بخ! ومن مثل بشر ؟ تركته بين يدي الجليل جل جلاله ، وبين يديه مائدة من الطعام ، والجليل جل جلاله مقبل عليه ، وهو يقول له : كل يا من لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب ، وانعم يا من لم ينعم . أو كما قال .

وقال [ابن] مُجَمِّع بن مُسْلِمٍ : كان لنا جار قُتِل بقزوين ، فلما كانت الليلة التي مات فيها أحمد ؛ خرج إلينا أخوه ، فقال : إني رأيت رؤيا عجيبة ، رأيت أخي البارحة ، فقلت : يا أخي ؛ أليس قد قتلت ؟ فما جاء بك ؟ فقال لي : إن الله عز وجل أمر الشهداء وأهل السماوات أن يحضروا أحمد ابن حنبل ، وكنت ممن أُمر بالحضور ، فأرَّخنا تلك الليلة ، فإذا أحمد ابن حنبل كان قد مات إذ ذاك .

وعن حجاج بن يوسف قال : رأيت عمي في النوم ، وكان قد كتب عن هشيم ، فسألته عن أحمد ابن حنبل ، فقال : ذاك من أصحاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقال يعقوب بن عبد الله : رأيت سرياً السقطي في النوم ، فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : أباحني النظر إلىٰ وجهه الكريم ، فقلت : فما فعل أحمد ابن حنبل وأحمد بن نصر ؟ فقال : شُغِلا بأكل الثمار في الجنة .

وقال [أبو] عبد الرحمـٰن بن الصباح : رأيت في المنام كأني علىٰ شيء مرتفع ، وكأن بين يدي رجلان وهما يتكلمان ، قال أحدهما لصاحبه : قد أُخذ صاحب ابن عمر يُمتحَن ، فقال له الآخر : لا تحزن عليه ، وإذا قد أقبل رجل من بعيد مخضوب الرأس واللحية ، فقال أحدهما لصاحبه : هـٰذا جليس ابن عمر رضي الله عنهما حتىٰ نسأله ، فلما قرب الرجل ؛ إذا هو أحمد ابن حنبل ، قال : فالتفتُّ إلىٰ يساري في الموضع المرتفع ؛ فإذا ابن عمر واقف وهو ينفض لحيته وهو مصفر ، فسمعته يقول : أبناء الأنجاس ـ أو أبناء الأرجاس ـ ما لهم ولهـٰذا ؟ وما كلامهم في هـٰذا ؟ لا يقوون عليه . ثم انتبهت ، وكنت قد رأيت هـٰذه الرؤيا

قبل أن أرىٰ أحمد في اليقظة ، ثم رأيت أحمد ابن حنبل بعد ذلك ، فكان كما رأيته في المنام .

ولما قدم حمدون البردعي علىٰ أبي زرعة لكتابة الحديث : فلما دخل داره ؛ رأىٰ فيها أواني وفرشاً كثيرة ـ وكان ذلك لأخيه ـ فهَمَّ أن يرجع ولا يكتب عنه ، فلما كان من الليل ؛ رأىٰ كأنه علىٰ شاطىء دجلة ، وكأن ظِلَّ شخص في الماء ، فقال له : أأنت الذي زهدت في أبي زرعة ؟ ما علمت أن أحمد ابن حنبل كان من الأبدال ، فلما أن مات أحمد ابن حنبل ؛ أبدل الله عز وجل مكانه أبا زرعة .

وقال عمار ـ وكان رجلاً ورعاً ـ : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقلت : يا رسول الله ؛ ادع الله تعالىٰ لي بالمغفرة ، فدعا لي ، فلما كان بعد ذلك ؛ رأيت الخضر عليه السلام في النوم ، فقلت له : أخبرني عن بشر بن الحارث ، فقال : لقد مات يوم مات وما علىٰ وجه الأرض أتقىٰ لله تعالىٰ منه ، قلت : فأحمد ابن حنبل ، قال : ذاك صدِّيق ، قلت : فحسين الكرابيسي ، فغلظ فيه حتىٰ كاد يخرجه من الإسلام ، قلت : أخبرني عن القرآن ، قال : كلام الله عز وجل ، وليس بمخلوق .

وعن أبي بكر بن حماد المقري قال : كنت نائماً في مسجد الخَيف ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ؛ ما فعل بشر بن الحارث ؟ فقال لي : « أُنزل وسط الجنة » ، قلت : يا رسول الله ؛ فأحمد ابن حنبل ؟ قال : « أما سمعت حديث عبد الله بن عمر : أن الله عز وجل إذا أدخل أهل الذكر الجنة ؛ ضحك إليهم » .

وقال عبد الله : رأيت كأن ملكاً نزل من السماء ومعه سبع تيجان ، فأول من توج أحمد ابن حنبل ، ثم بدأ بصدقة فتوَّجَهُ ، قال لي : فحدثت بالرؤيا صدقة بن إبراهيم ، فقص عليَّ رؤيا [فقال : رأىٰ صاحب الرؤية] كأن النبي صلى الله عليه وسلم واقف عند الجسر الثاني ، وأول من صافحه وعانقه أحمد ابن حنبل .

وقال يحيى بن أيوب المقدسي : رأيت كأن النبي صلى الله عليه وسلم نائم وهو مغطىٰ بثوب ، وأحمد ويحيىٰ يذبان عنه .

ولما حُبس أحمد ابن حنبل في المحنة قبل أن يُضرب وكان معه بعض أصحابه ؛ قال أحمد : فلما كان الليل ؛ تفكرت في أمري ، وإذا أنا برجل طويل يتخطى الناس ، حتىٰ دنا مني ، فقال : أنت أحمد ابن حنبل ؟ قال : فسكتُّ ، فأعاد ثانياً وثالثاً ، فقلت : نعم ، قال

لي : اصبر ولك الجنة ، قال أحمد : فلما مسني حر السوط ؛ ذكرت قول الرجل .

وقال أبو يوسف يعقوب ابن أخي معروف : بينا أنا نائم في أيام المحنة ؛ إذ دخل عليَّ رجل عليه جبة صوف بلا كُمين ، فقلت : من أنت ؟ قال : أنا موسى بن عمران ، فقلت : أنت موسى بن عمران الذي كلمك الله عز وجل وما بينك وبينه ترجمان ؟ فبينا أنا كذلك ؛ إذ هبط علينا رجل من السقف ، عليه حلتان ، جعد الشعر ، فقلت : من هٰذا ؟ فقال : عيسى ابن مريم ، ثم قال لي : أنا موسى بن عمران الذي كلمني الله عز وجل ما بيني وبينه ترجمان ، وهٰذا عيسى ابن مريم ونبيكم محمد صلى الله عليه وسلم وأحمد ابن حنبل وحملة العرش وجميع الملائكة يشهدون أن القرآن كلام الله عز وجل غيرُ مخلوق(1) .

ثم قال الحافظ : وقد جرىٰ علىٰ أحمد محنة أخرىٰ ، وذلك : أنه لما خَلَص من المحنة ومات الواثق وولي المتوكل ؛ قام جمع من أهل البدع وجاؤوا إلى المتوكل وقالوا له : إن علوياً عنده مختفياً ، فهجموا علىٰ منزله ومنزل أولاده ، وفتشوا فلم يروا شيئاً ، حتىٰ إنهم جاؤوا بنساء معهم ، ففتشن النساء ، وكان الخليفة قد أرسل مظفر حاجبه وابن الكلبي ، وحضر معهم صاحب البريد ، وقال له ابن الكلبي : أمرني أمير المؤمنين أن أحلفك أن ما عندك طلبته علوياً ، فأحلفه بالله عز وجل وبالطلاق أن ما عنده طلبة أمير المؤمنين علوياً ، ثم إنهم اجتهدوا في التفتيش والفحص عن ذلك ، حتىٰ إنهم أدلوا شمعة في البئر فلم يجدوا شيئاً ، فخرجوا ، فلما كان بعد يومين ؛ ورد كتاب علي بن الجهم فيه : قد صح عند أمير المؤمنين براءتك عما قيل عنك ، وقد كان أهل البدع مدوا أعناقهم قِبَلك ، فالحمد لله الذي لم يشمتهم بك ، وقد وجه إليك أميرُ المؤمنين يعقوبَ ـ المعروف بقوصرة ـ ومعه جائزة يأمرك بالخروج إليه ، فالله الله أن تستعفي أو ترد الجائزة .

قال صالح : ثم ورد من الغد يعقوب ، فدخل إلىٰ أبي ، وقال له : يا أبا عبد الله ؛ أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : قد صح عندي براءة ساحتك ، وقد أحببت أن آنس بقربك وأتبرك بدعائك ، وقد وجه إليك عشرة آلاف درهم معونة لك علىٰ سفرك ، وأخرج الدنانير والدراهم وذكر الحكاية كما تقدم ، وفيها : أن يعقوب قال لأحمد وهو سائر معه في الطريق : يا أبا عبد الله ؛ بلغني أن ابن البلخي كان ممن وَشىٰ بك إلىٰ أمير المؤمنين ، فقال له أحمد : يا أبا يوسف ؛ سل الله تعالى العافية ، فقال يعقوب : يا أبا

---

(1) الحلية (٩/ ١٨٩ـ ١٩٣) .

عبد الله ؛ أريد أن أؤدي عنك رسالة إلىٰ أمير المؤمنين ، فسكت أحمد ، قال صالح : فالتفت يعقوب إلي وقال : ما رأيت أعجب من حال أبي عبد الله ، أسأله أن يطلق لي كلمة أخبر بها أمير المؤمنين فلا يفعل ، قال صالح : فلما وصلنا إلىٰ قريب من العسكر ؛ قال لنا يعقوب : أقيموا هنا ، ثم بعث إلى الخليفة يعلمه ، فمررنا بالعسكر وأبي منكس الرأس ورأسه مغطىٰ ، فقال له يعقوب : يا أبا عبد الله ؛ اكشف الغطاء عن رأسك ، ثم جاء وصيف في حاجة ، فرأى الناس وجمعهم ، فقال : ما هٰؤلاء ؟ قالوا : أحمد ابن حنبل ، فدخل الوصيف دار الوزير وأخبره بقدوم أحمد ، فأرسل الوزير إلىٰ أحمد يحيى بن هرثمة ، فقال له : الأمير يقرئك السلام ويقول لك : الحمد لله الذي لم يشمت بك أهل البدع ، وقد علمت ما كان من فعل ابن أبي دؤاد ، وها هو اليوم تحت العقوبة والمصادرة ينبغي أن تتكلم فيه بما ينبغي لله عز وجل ، فسكت أبي ، ومضىٰ يحيىٰ ، ثم أُنزل أبي في دار إيتاخ[1] ، فجاء علي بن الجهم ، فقال : قد أمر لكم أمير المؤمنين بعشرة آلاف مكان التي فرقها أبوك ، وقد أمرنا ألاَّ نُعْلِم الشيخ بها ؛ لئلا يغتم بذلك ، ثم جاء محمد بن معاوية ، وقال لأبي : أمير المؤمنين يكثر ذكرك ، ويقول لك : تقيم عندنا تحدِّث ، فقال أبي : أنا ضعيف ، ووضع أبي يده علىٰ أسنانه ، وقال : إن بعض أسناني يتحرك ، وما أخبرت بذلك ولدي ، ثم جاء يحيى بن خاقان ، وقال : يا أبا عبد الله ؛ قد أمرني أمير المؤمنين بالمجيء إليك لتركب معي ، وقال [أمير المؤمنين] : أريد أن يصير [ابني] المعتز في حجره ، وقد أمرني أن أقطع لك سواداً وطيلساناً وقلنسوة ، وقد أمرني أن أجري علىٰ أولادك وأقاربك أربعة آلاف درهم في كل شهر ، ثم خرج ، وقال : أعود إليك في الغد .

فلما كان من الغد ؛ عاد ، وقال : يا أبا عبد الله ؛ متىٰ تركب معي إلىٰ أبي عبد الله المعتز ليصير في حجرك ؟ قال : ذاك إليكم ، فقال : اركب معي الآن ، فقال : أستخير الله تعالىٰ ، ثم لبس إزاره وخفيه ، وكان له خف قد مضىٰ عليه خمس عشرة سنة مرقوع بعدة رقاع ، وأشار يحيىٰ بأن يلبس قلنسوة ، فقال له صالح : ما له قلنسوة ، فقال : كيف يدخل علىٰ أبي عبد الله حاسراً ؟! ثم جيء بدابة يركبها ، فركب ونحن معه ، فأُدخل دار المعتز ، وأجلس في بيت منها ، ثم جاء يحيىٰ ، وأخذ بيد أبي ، ورفع الستر ونحن ننظر ، والمعتز جالس في الدار ، وكان يحيىٰ قد قال لأبي : لا تمد يدك إلى المعتز ، فلما دخل الدار ؛

---

(١) إيتاخ : تركي مملوك اشتراه المعتصم شفقةً لما رأىٰ من حاله الفقر ثم رفعه ، وبع ذلك ولاه الواثق الأعمالَ الجليلة .

جلس ، فقال له يحيىٰ : يا أبا عبد الله ؛ إن أمير المؤمنين إنما جاء بك ليُسَرَّ بقربك ، ويكون ابنه المعتز في حجرك .

وأخبرني بعض الخدام : أن الخليفة المتوكل كان جالساً من وراء الستر ، فلما دخل إلى الدار ؛ قال المتوكل لأمه : يا أماه ؛ قد أنارت الدار ، ثم جاء خادم بمنديل ، فأخذ يحيى المنديل ، وأخرج منه مبطنة فيها قميص ، فأدخل يده في جيب القميص والمبطنة ، ثم أخذ بيد أبي وأقامه ، ثم أدخل جيب القميص والمبطنة في رأسه ، ثم أدخل يده ، فأخرج يده اليمنىٰ ثم اليسرىٰ وأبي لا يحرك يده ، ثم أخذ قلنسوة ، فوضعها علىٰ رأسه وألبسه طيلساناً وألحفه به ، ثم قام أبي وخرج ، فلما وصل إلىٰ منزله ؛ نزع الثياب وجعل يبكي ، ويقول : قد سلِمْتُ من هـٰؤلاء منذ ستين سنة ، حتىٰ إذا كان آخر عمري ؛ بُليت بهم ، ما أحسبني سلِمْتُ من دخولي علىٰ هـٰذا الغلام ، فكيف بمن يجب علي نصحه من حين تقع عيني عليه إلىٰ أن أخرج من عنده ؟! ثم إن أبي أرسل الثياب إلىٰ بغداد لتباع ويتصدق بثمنها ، وقال : لا تشتروا منها شيئاً ، ثم إنه علم أن الدار التي هو نازل فيها لإيتاخ ، فقال لي : اكتب إلىٰ محمد بن الجراح ليستعفي لي من هـٰذه الدار ، فكتب رقعة ، فلما بلغ الخليفة ؛ أعفاه منها ، ثم اكترِيت لنا دار غيرها ، وأجري لنا مائدة وبلح ، وضرب الخيش ، وفُرِش الطبري(١) ، فلما رأىٰ أبي ذلك ؛ نَحَّىٰ نفسه عن ذلك الموضع ، ثم اشتكت عيناه ، ثم برئت سريعاً ، فقال : ألا تعجب ؟ كانت عيني إذا اشتكت ؛ تمكث مدة حتىٰ تطيب ، والآن قد برئت سريعاً .

وكان إذا جيء بالمائدة ؛ توضع في الدهليز ؛ لئلا يراها ، فيأكل من حضر .

وكان إذا جَهِدَهُ الحر يَبُلُّ خرقة ويضعها علىٰ صدره ، وفي كل يوم يوجه الخليفة ابن ماسويه الطبيب ، فينظر إليه ، ويقول له : يا أبا عبد الله ؛ إني أميل إليك وإلىٰ أصحابك وما بك علة ، والضعف الذي بك من قلة الدَّرِّ(٢) ، وكانوا يجيئون إليه بالشراب الذي يوصف له فلا يشربه ، وبقي يعقوب وغياث يترددان إليه ويقولان له : إن أمير المؤمنين يقول لك : ما تقول في ابن أبي دؤاد ؟ وما تقول في ماله ؟ فلا يجيب علىٰ ذلك بشيء ، وجعلا يخبرانه بما يحدث في أمر ابن أبي دؤاد كل يوم ، ثم إن ابن أبي دؤاد أُخذ إلىٰ بغداد بعد أن أُشهد عليه ببيع ضِياعه وسائر أملاكه .

---

(١) **الفرش الطبري** : نوع من البسط والفرش الثمينة ، نسبة إلىٰ طبرستان .

(٢) **الدَّرُّ** : اللبن ، ولعل المراد والله أعلم : أنه مرض من قلة السوائل .

وكان يحيىٰ إذا جاء إلىٰ أبي وهو يصلي ؛ جلس في الدهليز حتىٰ يتم الصلاة .

وكان علي بن الجهم إذا جاء إلىٰ أبي ؛ ينزع عنه سيفه وقلنسوته ، ثم يدخل عليه ، ثم إن رسل المتوكل تأتي إلىٰ أبي يسألونه عن خبره وهو ضعيف ، وفي خلال ذلك يقولون : يا أبا عبد الله ؛ لا بد للخليفة من أن يراك ، فيسكت أبي ، فإذا خرجوا ؛ يقول لي : ألا تعجب من قولهم : لا بد له من أن يراك ؟! وما يعلمهم من أنه لا بد له من أن يراني ؟!

وكان في داره حجرة صغيرة ، فقال لنا : أدخلوني فيها ولا توقدوا فيها سراجاً ، فأدخلناه فيها ، فجاء يعقوب ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ أمير المؤمنين مشتاق إليك ، ويقول لك : انظر اليوم الذي تجيء إلي فيه أي يوم هو ؟ فقال : ذاك إليكم ، فقال : يوم الأربعاء يوم خال ، ثم خرج يعقوب ، فلما كان من الغد ؛ جاء ، وقال : البشرىٰ لك يا أبا عبد الله ، أمير المؤمنين يقرئك السلام ، ويقول لك : قد أعفيتك عن لبس السواد وعن الركوب إلىٰ ولاة العهود وإلى الدار ، فإن شئت ؛ فالبس القطن ، وإن شئت ؛ فالبس الصوف ، فجعل يحمد الله تعالىٰ علىٰ ذلك .

وكان يختم في كل جمعة ، فإذا ختم ؛ دعانا ، فيدعو ونُؤَمِّنُ علىٰ دعائه ، فلما كان في جمعة ؛ دعانا ودعا ، فلما فرغ ؛ جعل يقول : أستخير الله تعالىٰ ـ مراراً ـ قال صالح : فجعلت أقول : ما تريد ؟ ثم قال : إني أعطي الله تعالىٰ عهداً ﴿ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ وقد قال عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾ إني لا أحدث حديثاً تاماً أبداً حتىٰ ألقى الله عز وجل ، ولا أستثني منكم أحداً ، فخرجنا ، وجاء علي بن الجهم ، فأخبرناه بذلك ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وأخبر المتوكل بذلك أيضاً ، فعَظُم ذلك عليه .

وكان أبي يقول إنما يريدون أن أحدث فيصير هـٰذا البلد حبسي ، وسبب الذين أقاموا بهـٰذا البلد إنما كان لأنهم أُعطوا ؛ فقبلوا ، وأُمروا ؛ فحدثوا .

وكانوا يدخلون عليه ، فيتكلمون وهو مغمض العينين يتعلل ، وضعف ضعفاً شديداً ، فكانوا يخبرون المتوكل بذلك ، فيتوجع .

وقال أبي : والله ؛ لقد تمنيت الموت في الأمر الذي كان ، وإني لأتمنى الموت في هـٰذا وذلك ، لأن هـٰذا فتنة الدنيا وذلك فتنة الدين ، ثم جعل يضم أصابعه ويقول : لو كانت نفسي في يدي ؛ لأرسلتها ، ثم يفتح أصابعه ، والمتوكل يوجه إليه في كل وقت يسأله عن حاله ويأمر لنا بالمال ، ويقول : يوصل إليهم ولا يُعلَم شيخهم .

وقيل للمتوكل : إنه لا يأكل من طعامك ، ولا يجلس علىٰ فرشك ، فقال لهم : لو نشر لي المعتصم ؛ لم أقبل منه فيه .

وكان يُصدِّرُ كتبه بعد البسملة : أحسن الله تعالىٰ عاقبتك ، ودفع عنك كل مكروه ومحذور ، الذي حملني على الكتاب إليك كذا وكذا .

وقال صالح : أوصىٰ أبي وصية ، فيها : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، هـٰذا ما أوصىٰ به أحمد بن محمد بن حنبل ، أوصىٰ أنه يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدىٰ ودين الحق ؛ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وأوصىٰ من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدين ، ويحمدوه في الحامدين ، وينصحوا لجماعة المسلمين ، وأوصىٰ : إني قد رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً ، وأوصىٰ : إن لعبد الله فلاناً عليَّ نحواً من خمسين ديناراً ، وهو مصدق فيما قال ، فيقضىٰ ما له عليَّ من غلة الدار إن شاء الله تعالىٰ ، فإذا استوفىٰ ؛ أعطي أولاد صالح وعبد الله كل ذكر وأنثىٰ عشرة دراهم بعد وفاء مال أبي محمد .

وقال صالح : ثم سأل أبي أن يحول من الدار التي اكتُرِيت له ، فأجيب إلىٰ ذلك ، فاكترينا له داراً ، فسأل المتوكل عنه ، فقيل له : إنه ضعيف ، فقال : كنت أحب أن يكون في قربي ، ولـٰكن نحن نؤثر مراده ، وقد أذنت له في السفر إلىٰ بغداد ، يا عبيد الله ؛ احمل إليه ألف دينار ، وقل لسعيد يهيىء له حرَّاقة[1] ينحدر فيها ، فجاءه علي بن الجهم بالليل ، وأخبره ، ثم جاء عبد الله ومعه ألف دينار ، فقال : إن أمير المؤمنين قد أذن لك ، وقد أمر لك بهـٰذه الألف دينار ، فقال : قد أعفاني أمير المؤمنين عن كل ما أكره ، وهـٰذا مما أكره ، فردها ، وأما الحراقة ؛ فأنا رقيق على البرد ، والظهر أرفق بي ، فكتب له جواباً ، وكتب إلىٰ محمد بن عبد الله في بِرِّه وتعاهُدِهِ ، فقدم بغداد فيما بين الظهر والعصر ، ثم مكث قليلاً ، وقال : يا صالح ؛ قلت : لبيك ، قال : أحب أن تدع هـٰذا الرزق ولا تأخذه ولا توكل فيه أحداً ، فقد علمت أنكم إنما تأخذونه بسببي ، فسكت ، فقال : ما لك ؟ فقلت : أكره أن أعطيك شيئاً بلساني وأخالف إلىٰ غيره ، فأكون قد كذبتك ونافقتك ، وليس في القوم أكثر عيالاً مني ، ولا أعذر ، وقد كنت أشكو إليك ، فتقول لي : أمرك منعقد بأمري ، ولعل الله تعالىٰ أن يحل عني هـٰذه العقدة ، وقد كنت تدعو لي ، فأرجو أن يكون الله عز وجل قد

---

(١) **الحرَّاقة** : ضرب من السفن ، والمقصود هنا : سفينة خفيفة المر ، والله أعلم .

استجاب لك ، قال : أو لا تقبل ؟ قلت : لا ، قال : قم ، فعل الله بك وفعل ، وأمر بسد الباب بيني وبينه ، فلقيني أخي عبد الله ، فسألني ، فأخبرته ، فقال : ما أقول ؟ قلت : ذاك إليك ، فقال له مثل مقالته لي ، فقال : لا أفعل ، فكان منه إليه مثل ما فعل بي ، فلقينا عمه ، فقال : كنتم تقولون له : نعم ، في الظاهر ، وما يُعلمه إذا أخذتم شيئاً ؟ فدخل عليه عمه ، فقال له مثل ما قال لنا ، فقال عمه : يا أبا عبد الله ؛ لست آخذ شيئاً من هـٰذا ، فقال : الحمد لله ، وهجرنا وسد الأبواب بيننا وبينه ، وتحامىٰ منزلنا أن يدخل منه شيء إلىٰ منزله .

وكان قد حدثني أبي أن يحيى ابن أبي وائل لما استُعمل علىٰ قضاء الكناسة ؛ قال أبو وائل لجاريته : يا بركة ؛ لا تأخذي شيئاً مما يجيء به يحيىٰ من الكناسة .

قال صالح : فلما مضىٰ نحو شهرين ؛ كُتب لنا بشيء ، فأول من أخذ عمه ، فأُخبر أبي ، فجاء إلى الباب الذي كان سده بيني وبينه وقد فتح الصبيان فيه كوة ، فقال : ادعوا لي صالحاً ، فجاء الرسول ، فقلت له : لست أجيء ، فوجه إليَّ لِمَ لا تجيء ؟ فقلت له : هـٰذا الرزق يرتزقه جماعة كثيرة ، وأنا واحد منهم ، وليس فيهم أعذر مني ، وإذا كان توبيخ ؛ خصصت به وحدي ؟ ولما نادىٰ عمه بالأذان ؛ خرج أبي إلى المسجد ، فلما فرغ من الصلاة ؛ قال لعمه : نافقتني وكذبتني ، وكان غيرُك أعذرَ منك ، وزعمت أنك لا تأخذ من هـٰذا شيئاً ، ثم أخذته وأنت تستغل مئتي درهم ، وعمدت إلىٰ طريق المسلمين تستغله ، وإنما أنا أشفق عليك أن تطوق يوم القيامة بسبع أرضين(١) ، فقال له : قد تصدقت ، فقال : تصدقت بنصف درهم ، ثم هجره وترك الصلاة خلفه في المسجد ، وخرج إلىٰ مسجد آخر .

قال صالح : وكان أبي قد حدثني أن بعض أمراء البصرة استعمل عبد الله بن محمد بن واسع على القضاء ، فأخبر محمد بن واسع ، فجاء إلى الأمير ، فقال قائل لي : جاء يتشكر ، وقال قائل : جاء يستعفي لابنه ، فلما دخل على الأمير ؛ قال له : بلغني أنك استعملت ولدي ، وإني أحب أن تعفيه ، استرنا سترك الله تعالىٰ ، فقال : قد أعفيناه .

وكان أبي إذا بلغه أنا قبضنا شيئاً ؛ طوىٰ تلك الليلة ، فلم يفطر ، ثم مكث أشهراً لا أدخل إليه ، ثم فتح الصبيان الباب ودخلوا ، ثم توجهت إليه ، يا أبت ؛ قد طال هـٰذا

---

(١) روى البخاري (٢٣٢٠) عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ظلم من الأرض شيئاً . . طوّقه من سبع أرضين » .

الأمر ، وقد اشتقت إليك ، فسكت ، فدخلت إليه ، فأكببت عليه ، وقلت : يا أبت ؛ تدخل علىٰ نفسك هـٰذا الغم ؟! فقال : يا بني ؛ يأتيني ما لا أملكه ، ثم مكثنا مدة لا نأخذ شيئاً ، ثم كُتب لنا بشيء ، فقبضناه ، فلما بلغه ؛ هجرنا أشهراً ، فتشفعت إليه ، فقيل له : صالح وحبك له ، فقال : والله ؛ لقد كان أعز الخلق عليَّ ، وأي شيء أردتُ له ؟! ما أردتُ له إلا ما أردتُ لنفسي ، فقلت : يا أبت ؛ هل رأيت أحداً قوي علىٰ ما قويتَ أنت عليه ؟ قال : وتحتجُّ عليَّ ؟ ثم كتب أبي إلىٰ يحيى بن خاقان يسأله ويعزم عليه ألاَّ يعيننا علىٰ شيء من أمر أرزاقنا ولا يتكلم فيها ، فلما وصل رسوله بالكتاب إلىٰ يحيىٰ ؛ أخذه صاحب الخبر ، وكتب نسخته ، وأوصلت إلى المتوكل ، فقال المتوكل لعبد الله : كم لولد أحمد من شهر ؟ فقال : عشرة أشهر ، فقال : تُحمل إليهم الساعة أربعون ألف درهم من بيت المال صحاحاً ، ولا يُعلَم بها شيخهم ، فوصل الخبر إلىٰ أبي ، فسكت قليلاً ، ووضع يده علىٰ لحيته ساعة ، ثم رفع رأسه ، وقال : ما حيلتي إذا أردت أمراً وأراد الله عز وجل غيره ؟!

وجاء رسول المتوكل إلىٰ أبي ، وقال : أمير المؤمنين يسلم عليك ، ويقول لك : لو سَلِمَ أحد من الناس ؛ سلِمْتَ أنت ، وقد رفع إلي في وقت كذا وكذا أن علوياً قدم من خراسان ، وأنك وجهت إليه من تلقَّاه ، وقد حبست الذي قال ، وأردتُ ضربه ، فكرهت أن يبلغك ، فتغتم لأجله ، فما الذي تأمر فيه ؟ فقال : هـٰذا باطل ، تخلي سبيله .

قال صالح : وكان إذا جاء رسول المتوكل بالسلام والسؤال عن حاله ؛ نفرح نحن ، وأما هو ؛ فتأخذه رعدة حتىٰ ندثره[1] ، ثم يقول : والله ؛ لو أن نفسي في يدي ؛ لأرسلتها ، ويضم أصابعه ثم يفتحها .

قال صالح : وقدم المتوكل بغداد ، فقال لي أبي : يا صالح ؛ أحب ألاَّ تذهب إليهم ولا تنبِّهْ عليَّ ، فلما كان بعد يوم إذا يحيى بن خاقان قد جاء في يوم مطير ، وقد بلله المطر ، وهو في موكب عظيم ، فقال لي : يا سبحان الله! لِمَ لم تجيء إلينا حتىٰ تبلغ أمير المؤمنين السلام عن شيخك حتىٰ وَجَّهَ بي الساعة ؟ ثم نزل خارج الدرب ، فجهدت أن يدخل راكباً ، فلم يفعل ، وجعل يخوض الماء ، فلما صار إلى الباب ؛ نزع جرموقهُ[2] ودخل ، وكان أبي في زاوية البيت ، فسلم عليه ، وقبَّل جبهته ، وسأله عن حاله ، وقال : أمير المؤمنين

---

(١) ندثره : نغطيه ونلفه .

(٢) الجُرموق : ما يلبس فوق الخف .

يقرئك السلام ، ويقول لك : كيف أنت في نفسك ؟ وكيف حالك وقد أنست بقربك ؟ ويسألك أن تدعو له ، فقال : ما يأتي علي يوم ؛ إلا وأنا أدعو الله تعالىٰ له ، ثم قال له : قد وجه معي ألف دينار تفرقها علىٰ أهل الحاجة ، فقال : يا أبا زكريا ؛ أنا في البيت منقطع عن الناس ، وقد أعفاني أمير المؤمنين عن كل ما أكره ، وهـٰذا مما أكره ، فقال له : يا أبا عبد الله ؛ الخلفاء لا يحتملون ذلك ، فقال : تلطَّفْ أنت في الرد ، ثم قام ، فلما صار في الدهليز . . قال : قد أمرني الخليفة أن أدفعها إليك تفرقها أنت ، فقلت له : اتركها عندك إلىٰ أن تمضي هـٰذه الأيام .

وقال محمد بن مسلم ابن وارة : رأيت أبا زرعة في المنام ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : أحمدُ الله سبحانه وتعالىٰ على الأحوال كلها ، إني أُوقفت بين يدي ربي عز وجل ، فقال لي : يا عبيد الله ؛ لم تذرعت القول في عبادي ؟ فقلت : يا رب ؛ إنهم حاولوا دِينك ، فقال : صدقت ، ثم أُتي بطاهر الخُلْقاني ، فاستعديت عليه إلىٰ ربي ، فضُرب الحدَّ مئة ، ثم أُمر به إلى الحبس ، ثم قال سبحانه وتعالىٰ : أَلْحقوا عبيدَ الله بأصحابه ، بأبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله ، سفيان الثوري ومالك بن أنس وأحمد ابن حنبل .

وسمع أحمد : سفيان بن عيينة ، وإبراهيم بن سعد ، ويحيى القطان ، وهُشَيماً ، ووكيعاً ، وابن علية ، وابن مهدي ، وعبد الرزاق ، وخلائق .

وروىٰ عنه : شيخه عبد الرزاق ، ويحيى بن آدم ، وابن مهدي ، ويزيد بن هارون ، وعلي بن المديني ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داوود ، وأبو زرعة الرازي ، وأبو زرعة الدمشقي ، وإبراهيم الحربي ، وخلائق لا يُحصَون .

ثم قال الحافظ أبو نعيم : حدثنا أبو علي عيسى بن محمد الجريجي قال : سمعت عبد الله بن أحمد يقول : كنت أسمع أبي كثيراً ما يقول في سجوده : اللهم ؛ كما صنت وجهي عن السجود لغيرك ؛ فصن وجهي عن المسألة لغيرك ، فقلت له : أسمعك تكثر من هـٰذا في سجودك ، أفعندك فيه أثر ؟ قال لي : نعم ؛ كنت أسمع وكيع بن الجراح يكثر من ذلك ، فسألته كما سألتني ، فقال : كنت أسمع سفيان الثوري يكثر من هـٰذا في سجوده ، فسألته كما سألتني ، فقال : نعم ؛ كنت أسمع منصور بن المعتمر يكثر من ذلك . انتهىٰ [« الحلية » ٩/٢٠٧ـ ٢٢١ و٢٣٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو محمد سفيان بن عيينة
رضي الله عنه

روىٰ عنه الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بإسناده : عن سفيان بن عيينة أنه قال : إذا جمعتُ هاتين ؛ كمل أمري : إذا صبرت على البلاء ، ورضيت بالقضاء ، ثم قال : وبلغني عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : ما أبالي علىٰ ما أصبحت ، علىٰ ما أحب أو علىٰ ما أكره ؛ لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره .

وقال ابن عيينة : كان رجل يقول : علمي بصلاح نفسي : علمي بفسادها ، وبحسب امرىء من الشر أن يرىٰ من نفسه فساداً لا يصلحها .

وقال : قال رجل من العلماء : ثنتان أنا أعالجهما منذ ثلاثين سنة ، ترك الطمع فيما بيني وبين الناس ، وإخلاص العمل لله عز وجل .

وقال : من تزين للناس بشيء يعلم الله عز وجل منه غيرَه ؛ شانَهُ الله سبحانه وتعالىٰ .

وكان يقول: إذا كان نهاري نهار سفيه وليلي ليل جاهل ؛ فما أصنع بالعلم الذي كتبت ؟!

وقال : إنما أرباب العلم الذين هم أهله الذين يعملون به .

وقال : من زِيدَ في عقله ؛ نقص من رزقه .

وقال : من كانت معصيته في الشهوة ؛ فأرْجُ له التوبة ؛ فإن آدم عليه الصلاة والسلام عصىٰ مشتهياً ، فغفر له ، وإذا كانت معصيته في كِبْر ؛ فأخش علىٰ صاحبه اللعنة ؛ فإن إبليس عصىٰ مستكبراً ، فلعن .

وقال : يقال : لا إلـه إلا الله في الآخرة بمنزلة الماء في الدنيا لا يحيىٰ شيء في الدنيا إلا على الماء ؛ قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، لا إلـه إلا الله بمنزلة الماء في الدنيا ، من لم تكن معه لا إلـه إلا الله ؛ فهو ميت ، ومن كانت معه ؛ فهو حي .

وقال : ما أنعم الله على العباد نعمة . . أفضل من أن عرَّفهم لا إلـه إلا الله .

ثم قال : لا إلـه إلا الله في الآخرة كالماء في الدنيا .

وقال ابن عيينة : قال عثمان : لو أن قلوبنا طهرت ؛ ما شبعت من كلام الله عز وجل .

وقال عثمان : ما أحب أن يأتي عليَّ يوم ولا ليلة إلا وأنا أنظر في كتاب الله سبحانه وتعالىٰ ؛ يعني : المصحف .

وقال ابن عيينة : الزهد في الدنيا : الصبر وارتقاب الموت .

وقال حرملة بن يحيىٰ : أخذ سفيان بن عيينة بيدي ، فأقامني في ناحية ، وأخرج من كمه رغيف شعير ، وقال : دع يا حرملة ما يقول الناس ، هـٰذا طعامي منذ ستين سنة .

وقيل لابن عيينة : يا أبا محمد ؛ من هو الزاهد في الدنيا ؟ قال : من إذا أنعم الله تعالىٰ عليه نعمة ؛ شكر ، وإذا ابتلي ببلية ؛ صبر ، فذلك الزاهد ، قلت له : يا أبا محمد ؛ فرجل أُنعم عليه فسلَّم فشكر ، وابتلي ببلية فصبر وهو ممسك للنعمة ، كيف يكون زاهداً ؟ قال : اسكت ، فمن لم تمنعه البلية من الصبر والنعمة من الشكر ؛ فذلك الزاهد .

وقال ابن عيينة : ليس من حب الدنيا طلبك ما لا بد منه .

وقال ابن عيينة : كأنك بالدنيا ولم تكن ، وبالآخرة ولم تَزَل ، وكأنك بآخر من يموت وقد مات .

وقال : إن للدنيا أجلاً كأجل ابن آدم ، إذا جاء أجلها ؛ ماتت .

وقال : أول العلم الاستماع ، ثم الإنصات ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر .

وقال : كنت أخرج إلى المسجد ، فأتصفح الخلق ، فإذا رأيت كهولاً ومشيخة ؛ جلست ، فأنا اليوم قد اكتنفني هـٰؤلاء الصبيان ، ثم ينشد :

خلت الديار فَسُدْتُ غير مسوَّد ... ومن الشقاءِ تفرُّدي بالسؤددِ

وقال : إذا ترك العالم (لا أدري) ؛ أصيبت مقاتله .

وكان إذا سئل عن شيء ؛ يقول : لا أحسن ، فيقول السائل : لمن أسأل ؟ فيقول : سل العلماء ، واسأل الله تعالى التوفيق .

وأتي بماء زمزم ، فشرب وسقى الذي عن يمينه ، وقال : ماء زمزم بمنزلة الطيب لا يرد .

وقال : الغِيبة أشد من الدَّين ، الدَّين يُقضىٰ ، والغِيبة لا تقضىٰ .

وقال : خلقت النار رحمة يخوف الله عز وجل بها عباده ؛ لينتهوا .

وقال : رأيت أعرابياً يطوف بالبيت ، فتبعته ، فقلت : لعله لا يحسن فأعلمه ما يقول ، فجاء ، فتعلق بأستار الكعبة ، وقال : اللهم ؛ إليك خرجت وأنت أخرجتني ، وإليك جئت وأنت جئت بي ، وبفنائك أنخت وأنت حملتني ، اللهم ؛ فقد عجَّتْ إليك الأصوات بصنوف اللغات يسألونك الحاجات ، وحاجتي إليك أن تذكرني علىٰ طول البِلىٰ إذا نسيني أهل الدنيا .

وكان سفيان بن عيينة ينشد :

كم من قويٍّ قويٌّ في تقلُّبه ... مهذَّب الرأي عنه الرزقُ منحرفُ
وكم ضعيفٍ ضعيفُ العقل مختلطٌ ... كأنه من خليج البحر يغترفُ

وقال : العلم إن لم ينفعك . . ضرك .

وقال رجل : يا أبا محمد ؛ أحدث الناس أموراً في أمر الدين والدنيا ، قال سفيان : أحدثوا ولا مرتع ولا مفزع(١) .

وقال : كان يقال : إن العاقل إذا لم ينتفع بقليل الموعظة ؛ لم يزدد على الكثرة منها إلا شراً .

وقال : إنكم لن تبلغوا ذروة هـٰذا الأمر حتىٰ لا يكون شيء أحبَّ إليكم من الله عز وجل ، ومن أحب القرآن ؛ فقد أحب الله عز وجل .

وقال : كان رجل يقول : اللهم ؛ إني أسألك حسن الظن وشكر العافية .

وقال لرجل : عليك بالنصح لله عز وجل في خلقه ؛ فإنك لن تلقاه بعمل أفضل منه ، ولو نادىٰ مناد من السماء : إن الناس كلهم يدخلون الجنة ، وأنا وحدي في النار ؛ لكنت بذلك راضياً .

وقال : إن من شكرِ اللهِ تعالىٰ على النعمة أن يحمده عليها ويستعين بها على الطاعة ، وما شكر اللهَ عز وجل عبدٌ استعان بنعمته علىٰ معصيته .

وقال : لو أن رجلاً أصاب من مال رجل شيئاً ثم تورع عنه بعد موته فجاء به إلىٰ ورثته ؛

---

(١) **المرتع** : موضع اللهو واللعب والنعيم ، **المفزع** : الملجأ .

لَكُنَّا نرىٰ أن ذلك كفارةٌ له ، ولو أنه اغتابه ثم تورع وجاء بعد موته إلىٰ ورثته وإلىٰ جميع أهل الأرض ، فجعلوه في حل ؛ ما كان في حل ، فعِرض المؤمن أشد من ماله .

وقال : الأواب الحفيظ : الذي لا يقوم من مجلسه حتىٰ يستغفر الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال ابن عيينة لرجل : أبشر ؛ فإنك إلىٰ خير ، أتدري من دعا لك ؟ قال : لا ، قال : حملة العرش ، ونوح ، وإبراهيم ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ، وقال تعالىٰ عن نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال تعالىٰ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ ، وقال تعالىٰ لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ، فكان أطوع لله سبحانه وتعالىٰ وأرأف بنا وأرحم أن يأمره الله عز وجل بشيء ثم لا يفعله .

وقال : ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلة تغشاه ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ ، فهي لكل مفتر ومبتدع إلىٰ يوم القيامة .

وقال ابن عيينة : مَثَلُ العلم مَثَلُ دار الكفر ودار الإسلام ، فإن ترك أهل الإسلام الجهاد ؛ جاء أهل الكفر فأخذوا الإسلام ، وإن ترك الناس العلم ؛ صار الناس جهالاً .

وقال : كان بعض العلماء إذا فرغ من صلاته ؛ يقول : اللهم ؛ اغفر لي ما كان منها .

وقال : عن بعض العلماء قال : لم يُعبَدِ اللهُ سبحانه وتعالىٰ بمثل العقل ، ولا يكون عاقلاً حتىٰ يكون فيه عشر خصال ، فعَدَّ منها تسعة : أن يكون الكِبْر منه مأموناً ، والرشد منه مأمولاً ، والذل أحب إليه من العز ، والفقر أحب إليه من الغنىٰ ، ويستكثر قليل المعروف من غيره ، ويستقل كثير المعروف من نفسه ، ويرضىٰ من الدنيا بالقوت ، ويكون طالباً للعلم طول عمره ، ولا يرىٰ أحداً من المسلمين . . إلا رأىٰ نفسه دونه .

وقال سفيان بن عيينة : العمل الصالح هو الذي لا تحب أن يحمدك عليه إلا الله عز وجل .

وقال : إذا أظهر العبد لباس سريرته بمثل علانيته ؛ كتب من أهل العدل ، فإن زل فيما بينه وبين ربه عز وجل بذنب لم يطلع الناس عليه ؛ كتب من الجائرين ، وإذا أظهر العبد لباساً

وسريرته أحسن من علانيته ؛ كتب من أهل الفضل ، فإن زل فيما بينه وبين ربه عز وجل بذنب لم يطلع الناس عليه ؛ رد عن الفضل إلى العدل ، ولم يكتب من الجائرين ؛ لأن ذنبه مخالف للباسه ، فكم من شخصين متجاورين ، هـٰذا يظهر للناس التجارة ويطلع الله عز وجل علىٰ قلبه أنه زاهد في الدنيا ، وهـٰذا يظهر للناس الزهد ويطلع الله عز وجل علىٰ قلبه أنه محب للدنيا .

وسئل ابن عيينة فقيل : يا أبا محمد ؛ أخبرني عن قول مطرِّف : لئن أُعافىٰ فأَشكُر ؛ أحب إلي من أن أُبتلىٰ فأصبر ، أهو أحب إليك ، أم قول أخيه أبي العلاء : اللهم ؛ رضيت لنفسي ما رضيتَ لي ؟ قال : فسكت سكتة ، ثم قال : قول مطرف أحب إلي ، فقال الرجل : كيف وقد رضي هـٰذا لنفسه ما رضيه الله تعالىٰ له ؟ فقال سفيان : إني قرأت القرآن ، فوجدت صفة سليمان عليه الصلاة والسلام مع العافية التي كان فيها ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ، ووجدت صفة أيوب عليه الصلاة والسلام مع البلاء الذي كان فيه ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ، فاستوت الصفتان ، وهـٰذا مبتلىٰ وهـٰذا معافىٰ ، فوجدت الشكر قد قام مقام الصبر ، فلما اعتدلا ؛ كانت العافية مع الشكر أحبَّ إليَّ من البلاء مع الصبر .

وكان يقول : دع الكبر والفخر ، واذكر طول الثواء في القبر .

وقال سفيان بن عيينة : قال أبو الدرداء : إنكم لن تزالوا بخير ما أحببتم خياركم ، وقيل فيكم بالحق فعُرف .

وكان يقول : اللهم ؛ متعنا بخيارنا ، وأعنا علىٰ شرارنا ، واجعلنا خياراً كلنا ، واجعل أمرنا عند خيارنا ، وإذا ذهبتَ بالصالحين ؛ فلا تُبْقِنا بعدهم .

وقال سفيان : كان يقال : الجهاد عشرة ، فجهادك العدو واحد ، وجهادك نفسك تسعة .

وسئل عن قوله تعالىٰ : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ، فقال : هو أن تعمل به ، وتدعو إليه ، وتعين فيه ، وتدل عليه .

وقال بشر بن الحارث : قال ابن عيينة : إنما سموا المتقين ؛ لأنهم اتقَوا ما [لا] يُتَّقَىٰ .

وقال : إنما عُرفوا ؛ لأنهم أحبوا ألاَّ يُعرفوا .

وقال : إني لأغضب علىٰ نفسي إذا رأيتكم تأتوني ، أقول : إنما يأتيني هـٰؤلاء ؛ لأنهم يظنون بي خيراً .

وقال : **عند ذكر الصالحين . . تنزل الرحمة .**

وقال : إن من أبر البر . . كتمان المصائب .

وقال : **لا تكن مثل العبد السوء ، لا يأتي حتىٰ يُدعىٰ ، ائت الصلاة قبل النداء .**

وقال : من توقير الصلاة . . أن تأتي إليها قبل الإقامة .

وقال : ليس أحد إلا ولله عليه الحجة البالغة ، إما في ذنب ، وإما في نعمة هو مقصر عن شكرها .

وسئل ابن عيينة عن فضل العلم ، فقال : ألم تسمع قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ؟ فبدأ بالعلم ، ثم أمره بعد ذلك بالعمل فقال تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ ، وهي شهادة أن لا إلـه إلا الله ، لا يغفر إلا بها .

وقال سفيان بن عيينة : عن فضيل بن عياض قال : يُغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفر للعالِم ذنب .

وقال ابن عيينة : قال أيوب عليه الصلاة والسلام : اللهم ؛ إنك تعلم أنه لم يعرض لي أمران قط ، أحدهما لك فيه رضىً ، والآخر لي فيه هوىً ؛ إلا آثرت الذي فيه رضاك على الذي لي فيه هوىً ، قال : فنودي من غمامة من عشرة آلاف صوت : يا أيوب ؛ من فعل ذلك بك ؟ قال : فوضع التراب علىٰ رأسه ، ثم قال : أنت يا رب .

وقال سفيان بن عيينة : ما أخلص عبد لله عز وجل أربعين يوماً ؛ إلا أنبت الله تعالى الحكمة في قلبه نباتاً ، وأطلق لسانه بها ، وبصَّره بعيوب الدنيا دائها ودوائها .

وقال : ما عليك من شيء أضر من علم لا تعمل به .

وقال ابن عيينة : لَشِرارُ مَن مضىٰ عامَ أول . . خيرٌ من خياركم اليوم .

وقال : قال هارون الرشيد لأبي إسحاق الفزاري : أيها الشيخ ؛ إنك في موضع من العرب ، قال : إن ذلك لا يغني عني من الله سبحانه وتعالىٰ يوم القيامة شيئاً .

وقال : أشد الناس حسرة يوم القيامة ثلاثة :

ـ رجل له عبد ، جاء العبد يوم القيامة أفضلَ عملاً من مولاه .

ـ ورجل له مال فلم يتصدق منه ، فورثه غيره فتصدق منه .

ـ ورجل عالم لا ينتفِع بعلمه ، فعلَّم غيره فانتفع به .

وروىٰ سفيان بن عيينة عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : بر الإخوان.. حصن من عداوتهم .

وقال ابن عيينة : لا يصيب عبد حقيقة التقوىٰ ؛ حتىٰ يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال ، وحتىٰ يدع الإثم وما تشابه منه .

وقال ابن عيينة : كان مالك بن مِغْوَل يقول لي : يا سفيان ؛ إن الزمان الذي يُحتاج إليك فيه لَزَمانُ سوء .

وقال سفيان : شهدت ثمانين موقفاً .

وقال : قال لي بشر بن منصور الزاهد : يا سفيان ؛ أقلل من معرفة الناس ؛ لعله أن يكون غداً في القيامة أقلَّ لفضيحتك إذا نودي عليك بسوء عملك .

وقال ابن عيينة : سمعت مساوراً الوراق يقول : ما كنت أقول لرجل إني أحبك في الله عز وجل ثم أمنعه شيئاً من الدنيا .

وكان ابن عيينة يقول : أُحِب للرجل أن يعيش عيش الأغنياء ويموت موت الفقراء ، وقَلَّ ما يكون هـٰذا .

وقال : أوحى الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام : إن أول من مات إبليس ، وذلك أنه أول من عصاني ، وإنما أَعُدُّ من عصاني من الموتىٰ .

وقال ابن عيينة : رأيت في الطواف أعرابياً يطوف ، فلما فرغ من ركعتي الطواف ؛ قام بحذاء البيت وقال : إلـٰهي ؛ من أولىٰ بالزلل والتقصير مني وقد خلقتني ضعيفاً ، ومَن أولىٰ بالعفو منك وأنت القادر علىٰ كل شيء ، وعلمك محيط وسابق بكل الأشياء ، أطعتك إذ أطعتك بإذنك ولك المنة عليَّ ، وعصيتك إذ عصيتك بعلمك والحجة لك ، فأسألك بوجوب حجتك علىٰ خلقك أجمعين ، وانقطاع حجتهم ، وفقرِهم إليك ، وغناك عنهم ؛ إلاَّ ما غفرت لي .

قال سفيان : ففرحت بهـٰذه الكلمات فرحاً عظيماً .

وكان ابن عيينة يتمثل :

إذا المرء كانت له فكرةٌ ... ففي كل شيء له عبرةٌ

أسند ابن عيينة عن جماهير التابعين ، أدرك ستة وثمانين نفساً من أعلام التابعين

وأركانهم ، وحدث عنه الأئمة سفيان الثوري ، وشعبة ، والأعمش ، والأوزاعي .

فمن أحاديثه : عن الزهري ، عن سالم ، عن أبيه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر كانوا يمشون أمام الجنازة)[1] .

وعنه : عن علي بن زيد بن جدعان ، قال : سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : كان أبو طلحة ينثل[2] كنانته بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، ويجثو علىٰ ركبتيه ، ويقول : وجهي لوجهك يا رسول الله الوقاء ، ونفسي لنفسك يا رسول الله الفداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَصوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة »[3] انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٢٧١ـ٣٠٩] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : سفيان بن عيينة ولد بالكوفة ، وسكن مكة ، ولد سنة سبع ومئة .

وقال ابن عيينة : لما بلغت خمس عشرة سنة ؛ دعاني أبي ، فقال : يا سفيان ؛ قد انقطعت عنك شرائع الصبا ، فاحفظ الخير ؛ تكن من أهله ، ولا يغرنك من اغتر بالله عز وجل ، فيمدحك بما تعلم أنت من نفسك خلافه ؛ فإنه ما من أحد يقول في شخص شيئاً من الخير إذا رضي ؛ إلا قال مثله من الشر إذا سخط ، فاستأنس بالوحشة عن جلساء السوء ، ولا تنقل حسن ظني بك إلىٰ غير ذلك ، ولن يسعد بالعلماء إلا من أطاعهم ، قال سفيان : فجعلت وصية أبي قِبلةً أميل إليها ولا أميل عنها .

وقال سفيان : أرفع الناس منزلة مَن كان بين الله سبحانه وتعالىٰ وبين عباده ، وهم الأنبياء والعلماء .

وقال بكر العابد : قلت لسفيان : يا أبا محمد ؛ أَبَلغك أن الناس يزدحمون يوم القيامة ؟ فقال : الأقدام يوم القيامة هـٰكذا ـ ووضع يده فوق الأخرىٰ ـ ثم قال : يا بكر ؛ بلغَني أن الناس يخرجون من قبورهم يقولون : الماء الماء ، العطش العطش .

وقال سفيان بن عيينة : أصابتني ذات يوم رقة ، فبكيت ، فقلت في نفسي : لو كان بعض

---

(١) أخرجه ابن حبان في « الإحسان » (٣٠٤٧) .

(٢) أي : يستخرج نبلها وينثرها .

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٣/ ٢٦١) ، والحميدي (٢/ ٥٠٦) .

أصحابنا حاضراً ؛ لرق معي ، ثم غفوت ، فأتاني آت في منامي ، فرفسني ، وقال : يا سفيان ؛ خذ أجرك ممن أحببت أن يراك .

وقال ابن عيينة : إنما منزلة الذي يطلب العلم لينتفع ؛ بمنزلة العبد يطلب كل شيء لرضىٰ سيده ، ويطلب التحبب والتقرب إليه والمنزلة عنده ؛ لئلا يجد عنده شيئاً يكرهه ، أو يطرده عنه . أو كما قال .

وقال : ليس يضر المدحُ من عرف نفسه .

وقال : اسلكوا سبل الحق ، ولا تستوحشوا من قلة أهلها .

وسئل ابن عيينة عن حد الرضا عن الله سبحانه وتعالىٰ ، فقال : الراضي عن الله عز وجل لا يتمنىٰ سوى المنزلة التي هو فيها .

وقال عبد الله بن ثعلبة لسفيان : يا أبا محمد ؛ واحزناه على الحزن ، فقال : يا عبد الله ؛ هل حزنت قط علىٰ سابق علم الله تعالىٰ فيك ؟ فقال عبد الله : آه تركتَني الدهرَ لا أفرح أبداً .

وقال الحسن بن عمران : حججت مع عمي سفيان آخر حجة حجها سنة سبع وتسعين ومئة ، فلما كنا بجَمْع وصلىٰ ؛ استلقىٰ علىٰ فراشه ، ثم قال : وافيت هـٰذا الموضع سبعين[1] عاماً ، أقول في نفسي كل سنة : اللهم ؛ لا تجعله آخر العهد بهـٰذا المكان ، وإني قد استحييت من الله عز وجل من كثرة ما أسأله ذلك ، فرجع ، فتوفي في السنة الداخلة يوم السبت أول يوم من رجب ، سنة ثمان وتسعين ومئة ، ودفن بالحجون ، وهو ابن إحدىٰ وتسعين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٣٧ـ١٤١] .

وقال في « بهجة الأسرار » : كان رجل من السلف يلقى الأخ من إخوانه ، فيقول له : يا هـٰذا ؛ اتق الله ، وإن استطعت ألاَّ تسيء إلىٰ من تحب ؛ فافعل ، فقال له رجل يوماً : وهل يسيء الإنسان إلىٰ من يحب ؟! قال : نعم ؛ نفسك التي هي أعز الأنفس عليك ، فإذا عصيت الله تعالىٰ ؛ فقد أسأت إليها .

قال : وكتب رجل إلىٰ أخ له : **أما بعد** : فإن استطعت أن تدع ما أحل الله عز وجل لك

---

(١) في النسخ : (ثمانين عاماً) ، والمثبت من كتب التراجم كما في « الطبقات » (٥/٤٩٨) ، و« تهذيب الكمال » (١١/١٩٥) ، و« الصفوة » (٢/١٤١) ، والله أعلم بالصواب .

ما يكون حاجزاً بينك وبين ما حرم الله عز وجل عليك ؛[فافعل] ؛ فإن من استوعب الحلال كله ؛ تاقت نفسه إلى الحرام .

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله : كنت أتفكر في معنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن فقراء أمتي يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ؛ . »[1] الحديث ، فلم أقف عليه حتىٰ رأيت في منامي كأن قائلاً يقول لي : إن الغني إذا نابته نائبة ؛ التجأ إلىٰ ماله وجاهه وقدرته وإخوانه ، والفقير إذا نابته نائبة لم يلتجىء إلا إلى الله عز وجل ، فيبقىٰ كل واحد مع من التجأ إليه ، الغني مع ماله ، والفقير مع الله عز وجل ، ثم إن الفقير مع هـٰذا يستر حاله ويخفي أمره ؛ غَيرة منه على المحبة ، والمحبوب جل جلاله يفعل ما يشاء . انتهىٰ .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله تعالىٰ روحه ، ونور ضريحه ـ : سفيان بن عيينة بضم العين والسين على المشهور ، وكان بنو عيينة عشرة خزازين ، حدَّث منهم خمسة : محمد ، وإبراهيم ، وسفيان ، وآدم ، وعمران ، وأشهرهم وأجلهم : سفيان ، سكن مكة ، وبها توفي ، وهو من تابعي التابعين .

روىٰ عنه : الأعمش ، والثوري ، ومسعر ، وابن جريج ، وشعبة ، وهمام ، ووكيع ، وابن المبارك ، وابن مهدي ، والقطان ، وحماد بن زيد ، وقيس بن الربيع ، والحسن بن صالح ، والشافعي ، وابن وهب ، وأحمد ابن حنبل ، وابن المديني ، وابن معين ، وابن راهويه ، والحميدي ، وخلائق لا يحصون من الأئمة .

وروى الثوري عن : القطان عن ابن عيينة ، واتفقوا علىٰ جلالته وإمامته وعظيم مرتبته .

ورُوِّينا عن ابن وهب قال : ما رأيت أعلم بكتاب الله تعالىٰ من ابن عيينة .

وقال الثوري : ابن عيينة أحد الأحدين[2] .

وقال أبو حاتم : أَثبَتُ أصحاب الزهري مالك وابن عيينة ، وكان أعلم بحديث عمرو بن دينار من شعبة .

وقال يحيى القطان : سفيان إمام من أربعين سنة ، وذلك في حياة سفيان الثوري .

---

(١) أخرج أحمد (٢/٥١٩) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم » قال : وتلا : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

(٢) أي : ليس له نظير .

وقال يحيىٰ : أَثبَتُ الناس في عمرو بن دينار ؛ ابن عيينة .

وقال القطان : ما رأيت أحسن حديثاً من ابن عيينة .

وقال الشافعي : ما رأيت أحداً جمع الله فيه من آلة العلم ما في سفيان ، وما رأيت أحداً أَكَفَّ عن الفتيا منه ، وما رأيت أحداً أَنَصَّ لتفسير الحديث منه .

وقال أحمد بن عبد الله : كان ابن عيينة حسن الحديث ، وكان يُعَدُّ من حكماء أصحاب الحديث ، وكان حديثه نحو سبعة آلاف حديث ، ولم يكن له كتب .

ورُوِّينا عن سعدان بن نصر قال : قال سفيان بن عيينة : قرأت القرآن وأنا ابن أربع سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن سبع سنين .

ومناقبه كثيرة مشهورة ، وهو أحد أجداد الشافعية في طريق الفقه .

وكان يقول في تفسير هـٰذا الحديث « من غشنا ؛ ليس منا ، ومن حمل علينا السلاح ؛ فليس منا »[1] : مَن تأوله علىٰ أن المراد ليس علىٰ هدينا وحسن طريقتنا ؛ فقد أساء ، ومراده أن يبقىٰ تفسيره مسكوتاً عنه ؛ ليكون أبلغ في الزجر عن هـٰذه المعاصي . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٢٤_٢٢٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٨٧٤) ، ومسلم (١٠١/ ١٦٤) .

ومنهم الإمام أمير المؤمنين في الرواية والحديث :

شُعبة بن الحجَّاج
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : هو أبو بسطام ، شعبة بن الحجاج رحمه الله .

قال بعض العلماء : ما رأيت أعبَدَ لله عز وجل من شعبة ، لقد عَبَدَ اللهَ سبحانه وتعالىٰ حتىٰ جف جلده علىٰ عظمه ليس بينهما لحم .

وقال عمر بن هارون : كان شعبة يصوم الدهر كله لا يُرىٰ عليه ، وكان سفيان الثوري يصوم ثلاثة أيام في الشهر يُرىٰ عليه .

وكان شعبة يقول : إذا كان عندي دقيق وقصب ؛ فلا أبالي ما فاتني من الدنيا .

وقال أبو نوح : رأىٰ عليَّ شعبةُ قميصاً ، فقال : بِكَمِ اشتريت هـٰذا ؟ فقلت : بثمانية دراهم ، فقال : ويحك! أمَا تتقي الله عز وجل ؟! تلبس قميصاً بثمانية دراهم ؟ ألا اشتريت قميصاً بأربعة دراهم . . وتصدقت بأربعة دراهم . . كان خيراً لك ؟! قلت : يا أبا بسطام ؛ إنا مع قوم نتجمل لهم ، قال شعبة : أيش نتجمل لهم ؟!

وكان شعبة من أرق الناس قلباً ، يمر به السائل ، فيدخل بيته ، ويعطيه ما أمكنه .

وكان يقول غير مرة : لولا حوائج لي إليكم ؛ ما جلست معكم ، وكانت حوائجه أن يسأل لجيرانه الفقراء .

وقال أبو قَطَن : كان ثياب شعبة لونها لون التراب .

وكان كثير الصلاة والصيام ، سخيَّ النفس .

وكان إذا حك جلده ؛ انتثر منه التراب .

وركب شعبة حماراً له ، فلقيه سليمان بن المغيرة ، فشكا إليه حاجة ، فقال له شعبة : والله ؛ ما أملك إلا هـٰذا الحمار ، ثم نزل عنه ، ودفعه إليه .

وقال أبو داوود الطيالسي : كنا عند شعبة ، فجاء سليمان بن المغيرة يبكي ، فقال له

شعبة : ما يبكيك ؟ فقال : مات حماري ، وذهبت مني الجمعة ، وذهبت حوائجي ، قال : بِكَمْ أخذتَهُ ؟ قال : بثلاثة دنانير ، قال : فعندي ثلاثة دنانير ، والله ؛ ما أملك غيرها ، يا غلام ؛ هات تلك الصرة ، فإذا فيها ثلاثة دنانير ، فدفعها إليه ، وقال : اشتر بها حماراً ولا تبك .

وكان إذا قعد في زورق ؛ أعطى الأجرة عن جميع من فيه .

وكان إذا وقف في مجلسه سائل ؛ يترك الحديث ولا يحدث حتىٰ يُعطىٰ ، فقام يوماً سائل ، ثم جلس ، فقال شعبة : ما شأنه ؟ قالوا : ضمن عبد الرحمـٰن بن مهدي أن يعطيه درهماً .

وقال عبدان بن عثمان عن أبيه : قوَّمْنا حمار شعبة وسرجه ولجامه بسبعة عشر درهماً .

وقال محمد بن عمرو : سمعت أصحابنا يقولون : وهب الخليفة المهدي لشعبة ثلاثين ألف درهم ، فقسمها وفرقها ، وأقطعه ألف جريب(1) بالبصرة ، فقدم البصرة ، فلما فحص عنها ؛ لم يجد فيها شيئاً يطيب له ، فتركها .

وقال شعبة : اختلفت إلىٰ عمرو بن دينار خمس مئة مرة ، وما سمعت منه إلا مئة حديث ، في كل خمسة مجالس حديثاً .

وقال أبو الوليد : سألت شعبة عن حديث ، فقال : والله ؛ لا أحدثك به ، فإني لم أسمعه إلا مرة .

وقال سفيان بن عيينة : لقيت شعبة في طريق مكة ، فقلت : أين تريد ؟ فقال : أريد الأسود بن قيس ، أستفيد منه حديثاً .

وقال ابن عيينة : لقيت شعبة في يوم مَطير علىٰ حمار أبتر(2) ، فقلت له : إلىٰ أين ؟ قال : أذهب إلى الأسود بن قيس ، فقد حدَّثَنا في العام الماضي بأحاديث أَبْصُرُ أنحفظها في هـٰذا العام ؟

وقال أبو داوود الطيالسي : قال شعبة : كل حديث ليس فيه حدَّثَنا وأخبرَنا ؛ فهو خلٌّ وبقل(3) .

---

(١) **الجريب** : المساحة من الأرض ، والمراد هنا : المزرعة .

(٢) أي : مقطوع الذنب .

(٣) **خلٌّ وبقل** : أي غير معتبر عند أهل الفن .

وقال يحيى بن سعيد القطان : لزمت شعبة عشرين سنة ، فأكثر ما كنت أسمع منه في كل يوم ثلاثة أحاديث إلىٰ عشرة .

وعن حماد بن زيد قال : لقيني شعبة ، فقلت : يا أبا بسطام ؛ أين تريد ؟ قال : إلىٰ أبان بن عياش أدعوه إلى القاضي ؛ فإنه يكذب علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : إني أخاف عليك عبد القيس ، وكلمته في ذلك ، فانصرف ، قال : ثم لقيني شعبة بعد ذلك ، فقال لي : إني نظرت في ذلك ، فلا يسعني السكوت .

وفي رواية حماد بن زيد أيضاً : قال : كلَّمْنا شعبةَ في أبان بن عياش ، وسألناه الكف عنه ، فقال : إنه وإنه ، فقلنا : نحب أن تمسك عنه ، فقال : نعم ، قال حماد : فبينا أنا في المنزل في يوم مَطير ؛ إذا شعبة يخوض الماء ، ثم نادىٰ : يا أبا إسماعيل ؛ مرتين ، فأجبته ، فقال : إني أمضي الآن أستعدي علىٰ أبان ، فقلت : ألم تضمن لنا أنك تمسك عنه ؟ فقال : لا أصبر ، لا أصبر ، ثم مضىٰ .

وقال شعبة : لا يزال المرء في فسحة من دِينه . . ما لم يطلب الإسناد .

وكان شعبة يأتي عمران بن حدير فيقول له : تعال يا عمران نغتاب في الله عز وجل ساعة ؛ نذكر مساوىء أصحاب الحديث(١) .

وقيل لشعبة : لِمَ تركت حديث أبي الزبير ؟ قال : رأيته يزن بميزان ، فاسترجح في الميزان ، فتركته .

وسأل رجل شعبة عن حرف ، فقال : لأَن أَخِرَّ من السماء إلى الأرض ؛ أحب إلي من أن أدلس(٢) .

وكان شعبة معتنياً بالحديث ، يأتي الشيخَ يكرر عليه .

وكان سليمان بن المغيرة إذا ذكر شعبة ؛ قال : سيد المحدثين ، وكان شعبة إذا ذكر سليمان ؛ قال : سيد القراء .

---

(١) أراد شعبة ـ رحمه الله ـ أن يتذاكرا في حال الرواة حرصاً علىٰ سلامة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس المقصود هو الغيبة المحرمة ، ولا سيما هو أول من تكلم في الجرح والتعديل ، كما سيأتي في آخر الترجمة .

(٢) ومن المعروف عن شعبة ـ رحمه الله ـ أنه أشد الناس ذماً للتدليس .
والتدليس : هو رواية المحدث عمن لقيه ما لم يسمعه منه موهماً أنه سمعه منه ، أو عمن عاصره ولم يلقه موهماً أنه قد لقيه وسمعه منه .

قال يحيى بن سعيد القطان : كنت عند شعبة ، فسأله رجل عن حديث ، فامتنع ، فقلت : لِمَ لا تحدثه ؟ فقال : هـٰؤلاء قُصَّاص يزيدون في الحديث .

وقال : لولا الحياء من الناس ؛ ما صليت علىٰ أبان بن عياش .

وصلىٰ شعبة الغداة يوماً ، ثم سكت حتىٰ أطال السكوت ، ثم أقبل علينا ، وقال : أتحسبون أني كنت أسبِّح ؟ إنما كان اليومَ درسي في حديث قتادة ؛ فإنه تفلَّتَ عليَّ حديثان ، فجعلت أستذكرهما حتىٰ ذكرتهما .

وقال شعبة : كنت أجيء إلىٰ قتادة ، فأسأله عن حديثين ، ثم يقول لي : أزيدك ؟ فأقول : لا ، حتىٰ أحفظهما وأتقنهما .

وعن حماد بن زيد قال : قال لنا أيوب : الآن يقدم عليكم رجل من أهل واسط ، يقال له : شعبة ، هو فارس الحديث ، فإذا قدم ؛ فخذوا عنه ، قال حماد : فلما قدم شعبة ؛ أخذنا عنه .

وقال شعبة : كل من سمعت منه حديثاً . . فأنا له عبد[1] .

وقال عبد الوارث : حدثنا شعبة قال : أخبرنا محمد بن سالم ، عن الشعبي : أن علياً وزيداً رضي الله عنهما كانا لا يُوَرِّثان الجَدَّة وابنُها حي ، وأن ابن مسعود رضي الله عنه كان يُوَرِّثها ، ويقول : (إن أول جدة أطعمت في الإسلام . . أطعمت وابنها حي) انتهىٰ [« الحلية » ٧/١٤٤ـ١٦٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ :

قال مسلم بن إبراهيم : ما دخلت علىٰ شعبة قط في وقت صلاة ؛ إلا رأيته قائماً يصلي .

وقال سليمان بن حرب : لو نظرتَ إلىٰ ثياب شعبة ؛ لم تكن تساوي عشرة دراهم إزاره وقميصه ورداؤه ، وكان كثير الصدقة .

أدرك شعبة الحسن ، وابن سيرين ، زماناً لا سماعاً ، وسمع من قتادة ، ويونس ، وأيوب ، وخالدِ الحذَّاءِ ، وخلق كثير من التابعين .

توفي بالبصرة ، سنة ستين ومئة ، وهو ابن سبع وسبعين سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٢٠٦ـ٢٠٧] .

---

(١) أي : خادم .

وقال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : شعبة بن الحجاج بن الورد العَتَكي الأزدي مولاهم ، الواسطي ، ثم البصري ، مولىٰ عبدة بن الأعز ، وعبدة مولىٰ يزيد بن المهلب الأزدي .

كان شعبة من واسط ، ثم انتقل إلى البصرة ، فاستوطنها ، وهو من تابعي التابعين ، وأعلام المحدثين ، وكبار المحققين .

رأى الحسن وابن سيرين ، وسمع من أنس بن سيرين ، وعمرو بن دينار ، والسَّبيعي ، وخلائق لا يحصون من التابعين وتابعي التابعين .

رویٰ عنه : الأعمش ، وأيوب السَّختياني ، ومحمد بن إسحاق التابعيون ، والثوري ، وابن مهدي ، ووكيع ، وابن المبارك ، ويحيى القطان ، وخلائق لا يُحصَون من كبار الأئمة .

وأجمعوا علىٰ إمامته في الحديث ، وجلالته ، وتحريه ، واحتياطه ، وإتقانه .

قال أحمد ابن حنبل : لم يكن في زمن شعبة مثله في الحديث ، ولا أحسن حديثاً منه ، قُسِم له منه حظ .

وروىٰ عن ثلاثين رجلاً من الكوفة لم يروِ عنهم سفيان الثوري .

وقال الشافعي : لولا شعبة ؛ ما عُرف الحديث بالعراق .

وقال : وكان يجيء إلى الرجل ؛ يعني : الذي ليس أهلاً للحديث ، فيقول له : لا تحدث ، وإلا . . اشتكيت عليك إلى السلطان .

وقال أبو الوليد الطيالسي : اختلفت إلىٰ حماد بن سلمة ، فقال : إذا أردت الحديث ؛ فالزم شعبة .

وقال حماد بن زيد : ما أبالي من خالفني إذا وافقني شعبة ؛ لأن شعبة لا يرضىٰ أن يسمع الحديث مرة ، وإذا خالفني شعبة في شيء ؛ تركته .

وقال يحيى القطان : شعبة أسن من الثوري بعشر سنين ، والثوري أسن من ابن عيينة بعشر سنين .

وقال أحمد ابن حنبل : كان شعبة أمة واحدة في هـٰذا الشأن ؛ يعني : علم الحديث وأحوال الرواة .

ورُوِّينا عن ابن مهدي قال : كان سفيان الثوري يقول : شعبة أمير المؤمنين في الحديث .

ورُوِّينا عن الثوري ـ أيضاً ـ : أنه قال لمسلم بن قتيبة حين قدم من البصرة : ما فعل أستاذنا شعبة ؟

ورُوِّينا عن صالح بن محمد أنه قال : أول من تكلم في الرجال شعبة ، ثم تبعه يحيى القطان ، ثم أحمد ابن حنبل وابن معين .

وقال عبد الصمد : أدرك شعبة من أصحاب ابن عمر رضي الله عنهما نيفاً وخمسين رجلاً .

توفي شعبة بالبصرة في أول سنة ستين ومئة ، وهو ابن سبع وسبعين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٤٥ـ٢٤٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

مسعر بن كِدام
رضي الله عنه

قال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : هو بكسر الكاف ، وكنيته : أبو سلمة العامري الهلالي الكوفي .

روىٰ عن : عمير بن سعيد النخعي ، وأبي إسحاق السبيعي ، وعبد الملك بن عمير ، والأعمش ، وخلائق غيرهم من التابعين .

روىٰ عنه : سليمان التيمي ، ومحمد بن إسحاق ، والثوري ، وشعبة ، ومالك بن مِغْوَل ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، ويحيى القطان ، ووكيع ، ويزيد بن هارون ، وخلائق غيرهم ، واتفقوا علىٰ جلالته .

قال هشام بن عروة : ما قدم علينا من العراق أفضل من أيوب السختياني ومسعر .

وقال يحيى بن سعيد : ما رأيت مثل مسعر ، كان من أثبت الناس .

وقال سفيان الثوري : كنا إذا شككنا في شيء ؛ سألنا مسعراً عنه .

وقال شعبة : كنا نسمي مسعراً : المُصْحَف(١) .

وقال أبو حاتم : مسعر أتقَنُ وأجود حديثاً ، وأعلىٰ إسناداً من سفيان ، وأتقن من حماد بن زيد .

وقال إبراهيم بن سعد : كان شعبة وسفيان إذا اختلفا في شيء ؛ قال : اذهب بنا إلى الميزان ؛ يعني : مسعراً .

توفي سنة خمس وخمسين ومئة رحمه الله . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٨٩] .

---

(١) **المُصْحَف** : لفظ من ألفاظ التعديل عند أهل الفن ، وتدل علىٰ توثيق الرجل ، وقيل : كان مسعر يسمىٰ : المصحف ؛ لحفظه وقلة خطئه .

وقال مسعر بن كدام : سألت سعد بن إبراهيم : مَن أفقه أهل المدينة ؟ قال : أفقههم أتقاهم .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال سفيان بن عيينة : ما رأيت أحداً أُفضِّلُه علىٰ مسعر .

وقال سفيان الثوري : لم يكن في زماننا مثله .

وقال أبو خالد الأحمر : لم يكن في أقرانه أكثرُ صمتاً منه .

وقال ابنه : كان أبي لا ينام حتىٰ يقرأ نصف القرآن ، فإذا فرغ من ورده ؛ لف رداءه ، ثم هجع عليه هجعة خفيفة ، ثم يثب كالرجل ضل منه شيء فهو يطلبه ، وإنما هو السواك والطهور ، ثم يستقبل المحراب . . كذلك إلى الفجر ، وكان يجتهد علىٰ إخفاء ذلك .

وقال أبو أسامة : سمعته يقول : أشتهي أن أسمع صوت باكية حزينة .

وقال محمد بن كناسة : سمعته يقول : من أهمته نفسه ؛ تبيَّن ذلك عليه .

وقال سفيان : قال رجل لمسعر : أتحب أن يخبرك الرجل بعيوبك ؟ قال : إن كان ناصحاً ؛ فنعم ، وإن كان يريد أن يؤنبني ؛ فلا .

وقال الفيض : حدثني جار لمسعر قال : بكىٰ مسعر ، فبكت أمه ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : يا بني ؛ رأيتك تبكي فبكيت ، فقال : يا أماه ؛ لمثل ما يهجم علينا غداً ، فَلْيَطُلِ البكاء ، قالت : وما ذاك ؟ فانتحب ، وقال : القيامة وما فيها ، ثم قام .

وكان يقول : لولا أمي ؛ ما فارقت المسجد إلا لما لا بد منه .

وكان إذا دخل ؛ بكىٰ ، وإن خرج ؛ بكىٰ ، وإن صلىٰ ؛ بكىٰ ، وإن جلس ؛ بكىٰ .

وقال يحيى بن آدم : لما حضرت مسعر الوفاة ؛ دخل عليه سفيان الثوري ، فوجده جزعاً ، فقال له : لِمَ تجزع ؟ فوالله ؛ لوددت أني مِتُّ الساعة ، فقال مسعر : أقعدوني ، كيف قلت ؟ فأعاد عليه سفيان الكلام ، فقال : إنك إذاً لواثق بعملك يا سفيان ، لٰكني والله ؛ لكأني علىٰ شاهقة جبل ، لا أدري أين أهبط ، فبكىٰ سفيان ، وقال : أنت أخوف لله عز وجل مني .

وقال مصعب بن المقدام : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وسفيان الثوري آخذ بيده ، وهو يطوف مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال سفيان : يا رسول الله ؛ مات

مسعر ابن كدام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ، واستبشر به أهل السماء » .

أسند عن أعلام التابعين ، وتوفي بالكوفة ، سنة خمس وخمسين ومئة ، وقيل : سنة اثنتين وخمسين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٦٣-٦٤] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال سفيان بن عيينة : كان مسعر من معادن الصدق .

وقيل له : مَن أفضلُ مَن رأيت ؟ قال : مسعر بن كدام ، وقيل لمسعر : مَن أفضلُ مَن رأيت ؟ قال : عمرو بن مرة .

وقال ابن عيينة ـ وذكر مسعراً ـ فقال : أخبَروني عن سفيان الثوري أنه حيث كان يقول : (حدثنا أبو سلمة) يعني به : مسعراً ، كان يستحي أن يقول : حدثنا مسعر . ما رأىٰ مثل مسعر قط .

وقال إسحاق بن الضيف : سألت يعلى بن عبيد ، قلت له : يا أبا يوسف ؛ مَن أدركت من أهل زمانك ، فقد أدركت الناس ؟ قال : سفيان الثوري . قلت : سبحان الله! فقد أدركت محمد بن سوقة ، وموسى الجهني ، وعبد الملك ابن أبي سليمان ، وقد حَمَل عنهم سفيان الثوري ، فجلس ـ وكان قائماً ـ فقال : يا بني ؛ إن سفيان الثوري كان قد جمع ورعاً وعلماً . [قلت] : ثم مَن ؟ فناولني يده وقام ، وقال : مسعر .

وقال معن بن عبد الرحمن : ما رأيت مسعراً في يوم ؛ إلا قلت : هو أفضل منه قبل ذلك .

وقال ابن عيينة : رأيت كأن قناديل المسجد الأعظم ـ يعني : مسجد الكوفة ـ قد طفئت ، فمات مسعر .

وعن أبي وكيع الجراح قال : قال لي ليث ابن أبي سليم : أفضل شبابنا أربعة ، قال : قلت : أمسِك حتىٰ أعدهم : عمرو بن قيس الملائي ، والمغيرة بن أيوب ، وخلف بن حوشب ، ومسعر بن كدام .

وقال أبو عبيدة الحداد : سألت شعبة عن مسعر ، فقال : ذاك عند الكوفيين مثل ابن عون عند البصريين .

وقيل للأعمش : إن مسعراً يشك في حديثه ، قال : شكُّ مسعر كيقين غيره .

وقال شعبة : شكُّ مسعر أحب إليَّ من يقين غيره .

وقال يزيد بن هارون : قدمت الكوفة ، فما رأيت بها أحداً ؛ إلا يدلِّس ، ما خلا مسعراً وشريكاً .

وقال ابن عيينة : قال مسعر : التدليس دناءة .

وقال ابن عيينة : قلت لمسعر : إن إنساناً كلمني أن أكلمك أن تحدثه ، قال : قل له يجيء ، قلت : أفأجيء أنا معه ؟ قال : أما أنت ؛ فبِتْ عندنا .

وكان مسعر يقول : والله ؛ ما أدري كيف أصنع بالرجلين يأتياني ، يخف عليَّ أن أحدث أحدهما ، ويثقل عليَّ الآخر .

قال سفيان : يخاف أن يكون جوراً حتىٰ يعدل بينهما .

وقال خالد بن عمرو : رأيت مسعراً كأن في وجهه ركبة عنز من أثر السجود .

وأثنىٰ رجل علىٰ مسعر ، فقال له مسعر : تثني عليَّ وأنا أبني بالأجر وأقبض جوائز السلطان ؟!

وقال ابن عيينة : قال مسعر : دخلت علىٰ أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين ، فقال لي بعد كلام كثير دار بيني وبينه : لو كان الناس كلهم مثلك ؛ لخرجت فمشيت معهم في الطريق ، أو بين أظهرهم ، ثم إنه بعد ذلك دعاني ، وأراد أن يوليني القضاء ، فقلت : أَصلحَ الله أمير المؤمنين ، إن أهلي يريدون شراء شيء بدرهمين ، فأقول : أعطوني أشتري لكم ، فيقولون : لا ، والله ؛ لا نرضىٰ بشرائك ، فأهلي لا يرضون بشرائي الشيء بدرهمين ، وأمير المؤمنين يوليني القضاء ؟! أصلحك الله ؛ إن لنا قرابة وحقاً ، فقال المنصور : أما والله ؛ ما لنا في العرب قرابة أحب إلينا منك ، ثم أعفاه .

وطلبت أم مسعر من ابنها ماء في بعض الليل لتشرب ، فذهب وجاء بقربة من ماء ، فوجدها نائمة ، فثبت بالشربة علىٰ يده حتىٰ طلع الفجر .

وقال مسعر : قدمت مكة وبها الزهري ، فمثلت بين لقائه والطواف ، فاخترت الطواف علىٰ لقائه .

وعن ابن عيينة ، عن مسعر قال : إن الجنة والنار لُقِّنَتا السمع من بني آدم ، فإذا قال العبد : اللهم ؛ إني أسألك الجنة ؛ قالت الجنة : اللهم ؛ بلغه ، وإذا قال : اللهم ؛ إني أعوذ بك من النار ؛ قالت النار : اللهم ؛ أعذه ، فإذا لم يذكرهما ؛ قالت الملائكة عليهم السلام : المساكين أغفلوا العظيمتين .

وعن أبي أسامة قال : قال لي مسعر : من رضي بالخل والبقل ؛ لم تستعبده الناس .

ومما رواه مسعر عن عطية : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة ؛ وُضِعت منابر من ذهب ، عليها قِباب من فضة ، مفصصة بالدر والياقوت والزمرد ، خلالها السندس والإستبرق ، ثم ينادي منادي الرحمـٰن عز وجل : أين من حَمل إلىٰ أمة محمد صلى الله عليه وسلم علماً يريد به وجه الله سبحانه وتعالىٰ ؟ فيُجاء بالعلماء الذين أرادوا بعلمهم وجه الله تعالىٰ ـ وهو سبحانه أعلم بهم ـ فيقال لهم : اجلسوا علىٰ هـٰذه المنابر ، فلا خوف عليكم اليوم حتىٰ تدخلوا الجنة » .

وعنه عن عطية قال : كنت مع ابن عمر رضي الله عنهما جالساً ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ؛ لوددت أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ابن عمر : فكنت تصنعُ ماذا ؟ قال : كنت ـ والله ـ أؤمن به وأقبِّل قدميه وأطيعه صلى الله عليه وسلم في جميع ما يأمر ، فقال له ابن عمر : ألا أبشرك ؟ قال : بلىٰ ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما اختلط حبي بقلب عبد فأحبني ؛ إلا حرم الله تعالىٰ جسده على النار » ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « ليتني أرىٰ إخواني وردوا عليَّ الحوض ، فأسقيهم من حوضي قبل أن يدخلوا الجنة » ، فقيل له : يا رسول الله ؛ أَوَلسنا إخوانك ؟ قال : « أنتم أصحابي ، إخواني من آمن بي ولم يرني ، إني سألت ربي عز وجل أن يقر عيني بِكُمْ وبمن آمن بي ولم يرني » غريب من حديث مسعر .

وعن مسعر قال : حدثني فراس عن الشعبي ، عن كعب بن عجرة قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يكون بعدي أمراء ، فمن دخل عليهم وصدقهم بكذبهم وأعانهم علىٰ ظلمهم ؛ فليس مني ولست منه ، ولن يرد عليَّ الحوض »(١) . غريب من حديث مسعر .

وعنه عن قتادة ، عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن عند كل ختمة دعوة تستجاب »(٢) .

وعنه عن أبي يحيىٰ ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : لو أن رجلين جلس أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب ، ومع أحدهما الذهب يضعه في سبيل الله سبحانه

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان في « الإحسان » (٢٧٩) .

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٢/ ٣٧٤) .

وتعالىٰ ، والآخر يذكر الله عز وجل حتىٰ يلتقيا ؛ كان الذي يذكر الله سبحانه وتعالىٰ أفضلهما ، أو قال : أعظمهما أجراً .

وعنه عن القاسم بن عبد الرحمـٰن عن سعيد بن المسيب ، عن زيد بن ثابت قال : نام رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ حصير ، فأثر في جنبه ، فقالت له عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ؛ هـٰذا كسرىٰ وقيصرُ في ملك عظيم ، وأنت رسول الله لا شيء لك ، تنام على الحصير ، وتلبس الثوب الضعيف! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة ؛ لو شئتُ أن تسير معي الجبال ؛ لسارت ذهباً وفضة ، ولقد أتاني جبريل عليه السلام بمفاتيح خزائن الأرض ، فلم أُرِدْها » انتهىٰ [« الحلية » ٧/٢٠٩ـ٢٦٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الامام :

أبو سليمان داوود بن نُصَير الطَّائي
رضي الله عنه

روى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن سلمة بن سعيد قال : لقي داوود الطائي رجل ، فسأله عن حديث ، فقال له : دعني ، فإني أبادر خروج نفسي .

وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ إذا ذكر داوود الطائي ؛ قال : أبصَرَ الطائي أمره .

وقال عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ : وهل الأمر إلا ما كان عليه داوود الطائي .

وكان داوود يقول : سبقني العابدون وقُطِع بي ، وا لهفاه .

وسأله رجل عن الرمي فقال : إني أحب أن أتعلم الرمي ، فقال : إنه لحَسن ، ولٰكن هي أيامك ، فانظر بم تقطعها .

ومن كلام ابن السماك رحمه الله في زهد الطائي ـ بعد موته وقبل أن يُدفن عند قبره ـ : يا داوود ؛ ما أعجبَ شأنَك ؛ فإنك كنت قد ألزمت نفسك الصمت حتىٰ قومتها على العدل ، وأهنتها وإنما تريد كرامتها ، وأذللتها وإنما تريد عزها ، ووضعتها وإنما تريد تشريفها ، وأتعبتها وإنما تريد راحتها ، وأجعتها وإنما تريد شبعها ، وأظمأتها وإنما تريد ريها ، وخشَّنت الملبس وإنما تريد لينه ، وأَمتَّ نفسك قبل أن تموت ، وقبرتها قبل أن تقبر ، وعذبتها قبل أن تعذب ، وغيبتها عن الناس لكي لا تُذكَر ، ورغبت بنفسك عن الدنيا ، فلم تر لها قدراً ولا خطراً ، فَقُهت في دينك ، ثم تركت الناس ، آنس ما تكون إذا كنت بالله عز وجل خالياً ، وأوحش ما تكون إذا كنت مع الناس جالساً ، ما أحسبك إلا قد أتعبت العابدين ، فما أصغر ما بذلت ، وما أحقر ما تركت في جنب ما أمَّلت أو طلبت ، أما أنت ؛ فقد ظفرت بروح العاجل ، وسعدت بعبادة الله عز وجل في الآجل ، فلما مُتَّ ؛ شهرك ربك وألبسك رداء عملك ؛ لأنك لم تنشر ما عملت في سرك ، فأظهر الله اليوم ذلك ، فلو رأيت اليوم كثرة من تبعك ؛ عرفت أن ربك سبحانه وتعالىٰ قد أكرمك وشرفك ، فقل لعشيرتك

اليوم تتكلم بألسنتها ، فقد أظهر الله عز وجل اليوم فضلها ، إن ربك سبحانه وتعالىٰ لا يضيع مطيعها ، ولا ينسىٰ صنيعاً شكراً لخلقه ، ما صنع هو بهم فيما أنعم عليهم أكثر من شكرهم إياه ، فسبحانه شاكراً مجازياً مثيباً .

ولما فرغ ابن السماك ؛ قام أبو بكر النهشلي ، فحمد الله تعالىٰ وأثنىٰ عليه ، ثم قال : يا رب ؛ إن الناس قد قالوا مبلغ ما عندهم مما علموا ، اللهم ؛ فاغفر له برحمتك ، ولا تكله إلىٰ عمله .

وفي رواية أخرىٰ : قال أبو بكر بن عياش أيضاً علىٰ شفير القبر : اللهم ؛ لا تكل داوود إلىٰ عمله ، فأعجَبَ الناسَ ما قال أبو بكر .

وقال حفص بن عمر : اشتكىٰ داوود الطائي ـ رحمه الله ـ أياماً ، وكان سبب علته أنه مر بآية فيها ذِكر النار ، فكررها مراراً في ليلته ، فأصبح مريضاً ، فلما مات ؛ وجدوا رأسه علىٰ لبنة وهو على التراب ، قال ابن السماك : فبكيت لما رأيت من حاله ، ثم ذكرت ما أعد الله سبحانه وتعالىٰ لأوليائه ، فقلت : يا داوود ؛ سجنت نفسك قبل أن تسجن ، وعذبت نفسك قبل أن تعذب ، فاليوم ترىٰ ثواب ما كنت تعمل له .

وقال محمد بن عيسى الوابشي : رأيت الناس هاهنا باتوا ثلاث ليال ؛ مخافة أن تفوتهم جنازة داوود ، ورأيت الناس كلهم يبكون عليه ، ما شبهته إلا يوم الخروج .

وقال أبو داوود الطيالسي : شهدت جنازة داوود ، وحضرته عند الموت ، فما رأيت أشد نزعاً منه ، أتيناه من العشاء ونحن نسمع نزعه قبل أن ندخل ، ثم غدونا عليه وهو في النزع ، فلم نبرح حتىٰ مات .

وقال الحسن بن بشر : حضرت جنازة داوود ، كان ينعىٰ ساعة بعد ساعة ثم يكذب ، وحمل علىٰ سريرين أو ثلاثة تكسرت من زحام الناس عليه ، فيغير السرير ، وصلي عليه كذا وكذا مرة ، ولقد رأيته يوضع على القبر ، فيجيء قوم ، فيحملونه ، فيذهبون به ، ثم يعيدونه إلىٰ موضع قبره .

وقيل : كان سبب تعبد داوود الطائي رحمه الله : أنه كان يجالس أبا حنيفة رحمه الله ، فقال له أبو حنيفة : يا أبا سليمان ؛ أما الأداة : فقد أحكمناها ، قال داوود : فأي شيء بقي ؟ قال : العمل بما علمناه لله عز وجل ، قال داوود رحمه الله : فنازعتني نفسي إلى العزلة ، فقلت : حتىٰ تجلسي معهم سنة ولا تجيبي في شيء ، فكنت أجالسهم وتجيء

المسألة فأجد شهوة الجواب فيها أكثر مما يجد العطشان إلى الماء ، فلا أجيب ، فلما مضت سَنة ؛ اعتزلتهم .

وكان إذا خرج ؛ مشىٰ في طريق خالية بعيدة فيقال له : الطريق من هنا أقرب ، فيقول : فِرَّ من الناس فرارَك من الأسد ، إنه ما خالط أحد الناس إلا نسي العهد .

وقال أبو أسامة رحمه الله : جئت أنا وابن عيينة إلىٰ داوود الطائي رحمه الله ، فقال : قد جئتماني مرة فلا تعودا إلي .

وكان لايخرج من منزله حتىٰ يقول المؤذن : قد قامت الصلاة ، فيخرج ، فيصلي ، فإذا سلم الإمام ؛ أخذ نعله ودخل منزله .

قال أبو الربيع رحمه الله تعالىٰ : كنت أحب أن أجتمع معه ، وكان ذلك دأبه ، فلما طال ذلك علي ؛ أدركته يوماً ، فقلت : أبا سليمان ؛ علىٰ رِسْلك ، فوقف لي ، فقلت : أبا سليمان ؛ أوصني ، قال : اتق الله ، وإن كان لك والدان ؛ فبرهما (ثلاث مرات) ثم قال في الرابعة : ويحك! صم الدنيا ، واجعل الفطرَ موتَك ، واجتنب الناس غير تارك لجماعتهم . [انتهىٰ « الحلية » ٧/ ٣٣٥ـ٣٤٣] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قال داوود الطائي رحمه الله : رأيت ولياً من أولياء الله سبحانه وتعالىٰ ، فقلت له : ما غاية بلوغ محبة الله عز وجل من قلبك ؟ فقال : لو جعل حساب الخلق كلهم معي ؛ لسرني ذلك ، ورغبت فيه ، فقلت : ولِمَ ذلك ؟ قال : يا داوود ؛ وهل للعبد مقام أشرف من وقوفه بين يدي رب العالمين جل جلاله وهو يشاهده ويخاطبه ؟! واللهِ العظيم ؛ إن ذلك عندي أشرف من الدرجات ، فإن في وقوفه بين يديه سبحانه وتعالىٰ لغيب عن نفسه وحسه ، فيبقىٰ بلا نفْس ولا هوىً ولا أغراض[1] ، بل متفكراً في ميدان العظمة والجلال ، والجليل جل جلاله يفعل ما يشاء سبحانه وتعالىٰ .

وقد ذكرت في ترجمة الشبلي رحمه الله مثل هـٰذا ، فإنه كان يقول : كل الناس يفرون من الحساب وأنا أتمناه ، فقيل له في ذلك ، فقال : أليس حبيبي ومالكي وربي رب العالمين جل جلاله مخاطبي ؟! ما ألذ كلام الحبيب الرحيم ، ولو بالأمر إلىٰ نار الجحيم ، جل الله العظيم الديان ، سبحانه وتعالىٰ ، لا إلـٰه إلا هو له الملك وهو رب العرش العظيم . انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال عبد الله بن إدريس : قلت لداوود : أوصني ،

---

(١) في بعض النسخ : (إعراض) .

قال : أقلل من معرفة الناس ، قلت : زدني ، قال : ارض باليسير من الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بالدنيا مع فساد الدين ، قلت : زدني ، قال : اجعل الدنيا كيوم صُمْتَه ، ثم أفطر على الموت .

وقال أحمد بن ضرار العجلي : أتيت داوود ، فوجدته في دار واسعة خربة ليس فيها إلا بيت ، وليس علىٰ بيته باب ، فقلت له : يا أبا سليمان ؛ أنت في دار وحشة ، فلو اتخذت لبيتك هـٰذا باباً ، أما تستوحش ؟ فقال : حالت وحشة القبر بيني وبين وحشة الدنيا .

وكان يقول : كفىٰ باليقين زهداً ، وكفىٰ بالعلم عبادة ، وكفىٰ بالعبادة شغلاً .

وقال عمير بن صدقة : كان داوود الطائي صديقاً لي ، وكنا نجلس جميعاً في حلقة أبي حنيفة حتى اعتزل وتعبد ، فأتيته ، فقلت : يا أبا سليمان ؛ جفوتنا ، فقال : يا أبا محمد ؛ ليس مجلسكم ذاك من أمر الآخرة في شيء ، ثم قال : أستغفر الله ، أستغفر الله ، ثم قام وتركني .

وقيل له : لو جالست الناس ؟ فقال : إنما أنت بين اثنين : صغير لا يوقرك ، أو كبير يحصي عليك عيوبك .

وقال : من علامة المريدين الزاهدين في الدنيا . . ترك كل جليس لا يريد ما يريدون .

وجاء رجل يريد لقاء داوود ، فلم يمكنه ؛ لأنه كان يخرج متقنعاً بثوبه كأنه خائف ، فإذا سلم الإمام ؛ خرج مسرعاً كأنه رجل هارب حتىٰ يدخل بيته .

وقال منصور السلولي : دخلت أنا وصاحب لي علىٰ داوود الطائي وهو على التراب ، فقلت لصاحبي : هـٰذا رجل زاهد ، فقال داوود : إنما الزاهد من قدر فترك .

وجاء رجل يسأل عن مسألة ، فتوسل برجل من الطائيين ، فدخل علىٰ داوود وهو معه ، فسأله عن المسألة ، وداوود ساكت لا يرد عليه شيئاً ، فأعاد السؤال مراراً ، فلم يرد ، فقام وخرج ، فقيل له : يجيئك ابن عم لك يسألك عن مسألة لا تجيبه ؟! فلما أكثر عليه من ذلك ؛ قال : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ .

وقال رجل من أهل داوود : يا أبا سليمان ؛ قد عرفت الرحم بيننا ، فأوصني ، فدمعت عيناه ، ثم قال : يا أخي ؛ إنما الليل والنهار مراحل ينزل الناس مرحلة مرحلة حتىٰ ينتهي بهم ذلك إلىٰ آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها ؛ فافعل ؛ فإن انقطاع السفر عن قريب ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزود لسفرك ، واقض ما أنت قاض من

أمرك ، فكأنك بالأمر قد بغتك ، وإني لأقول لك هـٰذا وما أعلم أحداً أشد تضييعاً مني لذلك .

وقال له رجل : أوصني ، فقال : اصحب أهل التقوىٰ ؛ فإنهم أيسر أهل الدنيا مؤونة عليك ، وأكثرهم معونة لك .

وقال داوود لسفيان الثوري : إذا كنت تشرب الماء المبرد ، وتأكل اللذيذ المطيب ، وتمشي في الظل ؛ فمتىٰ تحب الموت والقدوم على الله عز وجل ؟! فبكىٰ سفيان .

وعن حفص بن عمر الجعفي قال : كان داوود قد ورث عن أمه أربع مئة درهم ، فمكث يتقوتها ثلاثين عاماً ، فلما نفدت ؛ جعل ينقض سقوف الدويرة فيبيعها ، حتىٰ باع الخشب والبواري واللبن ، حتىٰ بقي نصف سقف ، وكان حائط داره من هـٰذا اللبِن العرزمي[1] الذي يُجعل منه الكناسات ، وباب خلاف[2] مرقوع قصير ، لو أن غلاماً وثب ؛ سقط إلى الدار .

وجاءه صديق له ، فقال له : يا أبا سليمان ؛ لو أعطيتني هـٰذه الدنانير فأبضعتها[3] لك لعلها تربح ، فما زال به حتىٰ دفعها إليه ، ثم فكر فيها ، فلقيه بعد العشاء الآخرة ، فقال : ارددها عليَّ ، فقال : ولِمَ يا أخي ؟ قال : أخاف أن يدخل فيها شيء غير طيب ، فأخذها .

وقال عطاء بن مسلم : عاش داوود الطائي عشرين سنة بثلاث مئة درهم ينفقها علىٰ نفسه ، فأتاه ابن أخيه ، فقال : يا عم ؛ هل تكره التجارة ؟ قال : لا ، قال : فأعطني شيئاً أتَّجِرُ به ، قال : فأعطاه ستين درهماً ، قال : فمكث شهراً ، ثم جاءه بعشرين ومئة درهم ، فقال : هـٰذه ربحها ، فقال : أنت كل شهر تربح للدرهم درهماً ؟ ينبغي أن يكون عندك بيت مال ، أردت أن تخدعني ؟ ثم رمىٰ بها إليه ، وقال : رد علي رأس مالي .

وقال عبد الرحمـٰن بن عمرو : استشارني محمد بن عامر في ترك التجارة ، فأشرت عليه أنا ومحمد بن النعمان ألاَّ يترك ، قال : فكتب إلىٰ أخ له ببغداد ما أشرنا عليه ، فكتب له أن أخويك لم ينصحاك ، إن داوود الطائي باع عقدةً له ، فقيل له : لو جعلتها في التجارة يدخل عليك منها شيء ، قال : فقال : لا ، إما أن تسبقني ، وإما أن أسبقها ، فجعل ينفق منها

(١) **العرزمي** : منسوب إلىٰ موضع في الكوفة ، يعرف بجبّانة عرزم ، وعرزم اسم رجل كان يصنع اللَّبِن ، ولبنه رديء .

(٢) **خلاف** : مصنوع من شجر الخلاف ، وهو الصفصاف .

(٣) **أبضعتها** : اشتريت بها وجعلتها بضاعة .

ديناراً ديناراً ، قال : فمات وقد بقي منها دينار ، فكفن به .

وعن صالح بن مسلم العجلي قال : دخلت علىٰ داوود الطائي في مرضه الذي مات فيه ، وليس في بيته إلا دنٌّ مقيَّرٌ[1] يكون فيه خبز يابس ، ومطهرة ، ولبنة كبيرة على التراب يجعلها وسادة ، وليس في بيته بارية[2] ولا قليل ولا كثير .

وكان من جيران داوود امرأة كبيرة بينها وبينه رضاع ، فصنعت المرأة يوماً ثريدة بسمن ، ثم بعثت بها إلىٰ داوود حين إفطاره مع جارية لها ، قالت الجارية : فأتيته بالقصعة ، فوضعتها بين يديه ، قالت : فسعىٰ ليأكل منها ، فجاء سائل على الباب ، فقام إليه ، ودفعها إليه ، وجلس معه على الباب حتىٰ أكلها ، ثم دخل ، فغسل القصعة ، ثم عمد إلىٰ تمر كان بين يديه ، قالت الجارية : ظننت أنه كان أعده لعشائه ، فوضعه في القصعة ، ودفعه إلي ، وقال : أقرئيها السلام ، قالت الجارية : فدفع للسائل ما جئناه به ، ودفع إلينا ما أراد أن يفطر عليه ، قالت : وأظنه ما بات إلا طاوياً ، وكان قد نحل جداً .

وقال أبو سليمان الداراني : أقام داوود رحمه الله أربعاً وستين سنة عزباً ، فقيل له : كيف صبرت عن النساء ؟ قال : قاسيت شهوتهن عند إدراكي سنة ، ثم ذهبت شهوتهن من قلبي ، قال أبو سليمان : فمن صبر عنهن عند إدراكه سنة ؛ لم يعرفهن حلالاً ولا حراماً . . فإنه يُكفىٰ مؤونتهن بعد ذلك .

وقال الوليد بن عقبة : كان يُخبز لداوود ستون رغيفاً يعلقها بشريط ، يفطر كل ليلة علىٰ رغيفين بملح وماء ، فجاءته ليلة من الليالي مولاة له بتمر علىٰ طبق ، فأفطر ، ثم قام ، فأحيا ليلته ، فلما جاء وقت الإفطار ؛ قال جار له : جعلت أسمعه يحدث نفسه يقول : اشتهيتِ البارحة تمراً ، فأطعمتك ، واشتهيتِ الليلة تمراً ؟ لا ذاق داوود تمرة ما دام في دار الدنيا ، فما ذاق تمراً حتىٰ مات .

وقال عامر بن إسماعيل : قلت لداوود : بلغني أنك تأكل الخبز اليابس تطلب به الخشونة ، فقال : سبحان الله! كيف وقد ميزت بين أكل الخبز اليابس وبين الليِّن ؛ فإذا هو قراءة مئتي آية ، ولـٰكن ليس لي من يخبز لي ، فربما يبس عليَّ . [انتهىٰ « الحلية » ٧/٣٤٣ـ٣٥١] .

---

(١) مقيَّرٌ : مرفت .
(٢) البارية : الحصير المنسوج من القصب .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : دخل رجل علىٰ داوود الطائي ، فقال له : ما حاجتك ؟ قال : زيارتك ، فقال : أما أنت ؛ فقد عملت خيراً حين زرت ، ولـٰكن انظر ماذا ينزل بي أنا إذا قيل لي : من أنت فتُزارَ ؟ أمِنَ الزهاد أنت ؟ لا والله ، أمِنَ العباد أنت ؟ لا والله ، أمِنَ الصالحين أنت ؟ لا والله ، ثم أقبل يوبخ نفسه ، ويقول : كنت في الشبيبة فاسقاً ، فلما كبرت ؛ صرت مرائياً ، واللهِ لَلمرائي شر من الفاسق . [انتهىٰ « الإحياء » ٢/١٦١] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قالت مولاة لداوود : لو طبخت لك دسماً ، قال : فافعلي ، فطبخت له شحماً ، ثم جاءته به ، فقال لها : ما فعل أيتام بني فلان ؟ قالت : علىٰ حالهم ، قال : اذهبي به إليهم ، فقالت له : فديتك إنما تأكل هـٰذا الخبز بالماء! فقال : إني إذا أكلته ؛ كان في الحش ، وإذا أكله هـٰؤلاء الأيتام ؛ كان عند الله عز وجل مذخوراً .

وكان يقول : إنما سجنت نفسي حتىٰ يخرجني مولاي سبحانه وتعالىٰ من سجن الدنيا إلىٰ رَوح الآخرة ، وإني لأستحيي من الله عز وجل أن يراني أخطو خطوة ألتمس فيها راحة لنفسي في الدنيا حتىٰ يكون مولاي عز وجل هو الذي يريحني من الدنيا وأهلها .

وقال حفص بن عمر : كان داوود الطائي ومحمد بن النضر الحارثي من العمال لله عز وجل بالطاعة ، المجدين في العبادة ، فلما ماتا ؛ رأىٰ رجل من عُبَّاد أهل الكوفة منادياً ينادي : ألا إن داوود الطائي ومحمد بن النضر الحارثي طلبا أمراً فأدركاه .

وقيل له : لو أصلحت سقف هـٰذا البيت ؟ فقال : أمَا علمت أنهم كانوا يكرهون فضول النظر ؟ ثم قال : نبئت أن مجاهداً رحمه الله تعالىٰ كان في سقف داره خشبة مكسورة لم يشعر بها مدة سنين .

وقال حماد لداوود : يا أبا سليمان ؛ لقد رضيتَ من الدنيا باليسير ، قال : أفلا أدلك علىٰ من رضي بأقل مما رضيتُ ؟ مَن رضي بالدنيا كلها عوضاً عن الآخرة ؛ فقد رضي بأقل مما رضيت به .

وجاءه الفضيل بن عياض يوماً ، فلم يفتح له ، وجلس الفضيل خارج الباب يبكي ، وداوود داخل الباب يبكي ، فقيل لمحمد بن بشر : كيف لم يفتح له الباب ؟ فقال : قد كان يفتح لهم ، فكثروا عليه ، فغموه ، فحجبهم كلهم ، فمن جاء ؛ كلمه من وراء الباب .

وجاءه بعض أصحابه بألفي درهم ، فقال : يا أبا سليمان ؛ هـٰذا شيء جاءك الله تعالىٰ به لمْ تطلبه ، وهو ـ كما علمت ـ حلال ، قال : إنه لَمِنْ أَمثلِ ما تأخذون ، قال : فما يمنعك منه ؟ قال : لعل تركه أن يكون أنجىٰ .

ودخل مسعر علىٰ داوود الطائي ومعه رجل ، فشكا إليهما شأنه ، فقالا له : لو احتجمت ؟ فقال : ابعثوا لي الحجام ، فخرجا ، فقالا لحجام : ٱئت داوود ، فأتاه ، فحجمه ، ثم رجع ، فسألاه ، فقال : حجمته ، فأعطاني هـٰذا الدينار ، فقال أحدهما : أما إنه لم يكن عنده شيء غير هـٰذا ، كان فَضُلَ عنده من ثمن جارية باعها .

وفي رواية : قال له الحجام : يا أبا سليمان ؛ أجرة هـٰذا دانق ، فقال : إن لم تقبل ؛ لا أحتجم .

وفي رواية : قال الحجام : هـٰذا إسراف ، فقال : لا عبادة لمن لا مروءة له .

وقيل له : لو خرجت إلى الشمس وكان يوماً بارداً ، فقال : إني لأَشْتَهيه ، ولـٰكنها خطىً لا أحتسبها ، ولم يخرج .

قال عبد الله بن الفرج رحمه الله تعالىٰ : رُئِي داوود الطائي يعدو في صحراء الحِيرة ، فقيل له : ما هـٰذا ؟ فقال : الساعة خرجت من السجن ، فنظروا ؛ فإذا هو قد مات في ذلك الوقت .

وقال داوود : ما أخرج الله عز وجل عبداً من ذل المعاصي إلىٰ عز التقوىٰ ؛ إلا أغناه بلا مال ، وأعزه بلا عشيرة ، وآنسه بلا أنيس .

وقال له رجل : دلني علىٰ رجل أجلس إليه ، قال : تلك ضالة لا توجد .

وسأله رجل فقال : أوصني ، فقال : عسكر الموتىٰ ينتظرونك .

وقال : كل نفس تُرَدُّ إلىٰ همها ، فمهموم بخير ، ومهموم بِشر .

وعوتب داوود في التزويج ، قال : كيف بقلب ضعيف ليس يقوم بهمه يجتمع عليه همان ؟!

وقال داوود لعقبة بن موسىٰ ـ وكان صديقاً له ـ : يا عقبة ؛ كيف يتسلىٰ من الحزن من تتجدد عليه المصائب في كل وقت ؟ فخرَّ عقبة مغشياً عليه . انتهىٰ [« الحلية » ٧/٣٥١ـ٣٥٦] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في مناقب الإمام أبي حنيفة ومناقب أصحابه رحمهم الله : عن محمد بن الحسن قدس الله روحه قال : كنت إذا جئت إلىٰ داوود الطائي في بيته أسأله عن المسألة ، فإن وقع في قلبه أنها مما أحتاج إليه في أمر ديني ؛ أجابني عنها ، وإن وقع في قلبه أنها من مسائلنا هـٰذه ؛ تبسم في وجهي ، وقال : إن لنا شغلاً .

وعن بشر بن الحارث رضي الله عنه قال : قيل لداوود الطائي بعدما انقطع واعتزل الناس ولزم بيته : كنت تلازم أبا حنيفة وأصحابه ، ثم اعتزلت ، فقال : إذا كنا دهرَنا في جمع الآلة ؛ فمتىٰ يكون البناء .

وقال داوود : إنما بغية الأكياس . . ملك لا زوال له ، وعيش لا موت فيه .

وقال أبو أسامة : ذهبت أنا وسفيان بن عيينة إلىٰ داوود ، فلما دخلنا عليه ؛ جلسنا عنده ، فلما أردنا الانصراف ؛ قال : ما أحب أن تأتوني ، وما أحب أن تجيئوني ، قال أبو أسامة : وإنما أعطي غباراً من الخوف ، فكيف لو أعطي من الخوف أكثر من ذلك ؟!

وقيل لداوود رحمه الله : لِمَ لا تسرح لحيتك ؟ قال : الدنيا دار مأتم .

وقيل لداوود : ما تشتهي الخبز ؟ فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية .

وقال حماد ابن أبي حنيفة : جئت أنا والحسن بن زياد إلىٰ داوود ، فقرعت الباب ، فخرجت عجوز ، ثم ردت الباب ورجعت تستأذن ، فسمعتُه يقول من داخل الدار : ما أنا والناس ؟ ومن أنا حتىٰ يأتيني الناس ؟ ثم أذن لنا ، فلما دخلنا عليه ؛ قلت له : بلغني يا أبا سليمان أنك تقول : إذا صلىٰ وهو جنب بقوم ؛ أعاد ولم يعيدوا ، قال : كذا أقول ، قال : قلت : إن أبي وأصحابنا يقولون : عليه وعليهم الإعادة ، فقال داوود : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يعيد ولا يعيدون ، وما أبالي إذا وافقت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمن خالفت من أهل الأرض بعده .

وكان داوود رحمه الله يقول : إني لأستحيي من ربي عز وجل أن يراني أخطو خطوة ألتمس بها راحة نفسي في الدنيا ، حتىٰ يكون الله عز وجل هو الذي يريحني من الدنيا وأهلها ، ويخرجني من سجن الدنيا إلىٰ رَوح الآخرة .

وقال له رجل أوصني : فقال له : صم الدنيا وأفطر على الموت ، حتىٰ إذا كان عند

المعاينة ؛ أتاك رضوان خازن الجنان بشربة من ماء الجنة ، تشربها علىٰ فراشك ، فتخرج من الدنيا وأنت ريان ، وتمكث في القبر وأنت ريان ، وينفخ إسرافيل في الصور فتخرج من القبر وأنت ريان ، ويمكث الناس يترددون في ظلمة القيامة أربعين يوماً ، اليوم منها ألف سنة جياعاً عطاشاً وأنت ريان ، حتىٰ تدخل الجنة وأنت ريان .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : عزيت داوود الطائي في أخ له ، فقلت له : ألهمك الله الصبر والاحتساب ، ووهب له ولك المغفرة والرحمة والهدىٰ ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال : سبيل الناس كلهم إلى الموت ، فمن أبغض الدنيا ؛ تبعته ، ومن أحبها ؛ أخلفته وقتلته ، ومن وثق بها ؛ خذلته ، فٱتق الدنيا ؛ فإنها أسحر من هاروت وماروت .

وعن شعيب بن طلحة قال : قلت لداوود : أريد أن أشتري داراً بقربك ؛ ليكثر لقائي لك ، فقال داوود : إن مودة يغيرها قلة اللقاء . . إنها لمودة مدخولة .

ومر داوود يوماً بموضع ، فلما وقع نظره عليه ؛ خر مغشياً عليه ، فحمل إلىٰ منزله ، فلما أفاق ؛ سئل عن ذلك ، فقال : ذكرت أني في هـٰذا الموضع كنت قد اغتبت رجلاً ، فذكرت مطالبته إياي بين يدي الله رب العالمين جل جلاله ، فلم أملك نفسي لأجل ذلك ، والله أعلم . انتهىٰ .

روى الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : رُئِي داوود الطائي رحمه الله يوماً علىٰ شاطىء الفرات واقفاً مبهوتاً ، فقيل له : ما يوقفك هـٰهنا ؟ قال : أنظر إلى الفلك كيف تجري في البحر مسخرات بأمر الله سبحانه وتعالىٰ .

وكان عامة ليله لا يهدأ ، يقول في جوف الليل : اللهم ؛ همُّك عَطَّل علي الهموم ، وخالف بيني وبين السُّهَاد ، وشوقني إلى النظر إليك ، ومنع مني اللذات والشهوات ، فأنا في سجنك أيها الكريم .

وربما ترنم بشيء من القرآن في السحر ، فيرىٰ أن جميع نعيم الدنيا جمع في ترنمه تلك الساعة .

وكان لا يسرج سراجاً .

وكان يقول : ما نُعوِّلُ إلا علىٰ حسن الظن بالله عز وجل ، فأما التفريط ؛ فهو المستولي على الأبدان .

ومر داوود علىٰ رجل عنده رطب دعته نفسه إليه ، فقال له : أعطني بدرهم ، فقال :

وأين الدرهم ؟ قال : غداً أعطيك ، فقال له : انصرف ؛ فإني لا أسلف شيئاً ، فرآه بعض من يعرف داوود ، فجاء إلى البائع ، فسأله عنه ، فأخبره ، فأخرج له صرة فيها مئة درهم ، وقال : الحقه ، فإن أخذ منك بدرهم ؛ فهـٰذه الدراهم لك ، فلحقه ، فسمعه وهو يقول : أنتِ لا يسلفونك درهماً في دار الدنيا ، وأنت تريدين الجنة ؟ فجهد به أن يرجع ويأخذ فأبىٰ ، وقال : إنما أردت أن أجرب هـٰذه النفس .

وقال أبو محمد صدقة الزاهد : خرجنا مع داوود الطائي في جنازة بالكوفة ، فقعد ناحية وهي تدفن ، فجاء الناس ، فقعدوا قريباً منه ، فقال : من خاف الوعيد ؛ قصر عليه البعيد ، ومن طال أمله ؛ ضعف عمله ، وكل ما هو آت ؛ قريب ، واعلم يا أخي : أن كل شيء يشغلك عن ربك ؛ فهو عليك مشؤوم ، واعلم : أن أهل الدنيا جميعاً من أهل القبور ، وإنما يفرحون بما يقدِّمون ، ويندمون علىٰ ما يخلِّفون ، ما عليه أهل القبور ندموا ؛ عليه أهل الدنيا يقتتلون ، وفيه يتنافسون .

وقال إسحاق بن خلف : كان داوود الطائي في ليلة مقمرة ، فتفكر ، فقام يمشي على السطح وهو شاخص حتىٰ وقع في دار جار له ، قال : فوثب صاحب الدار عرياناً من الفراش ، وأخذ السيف ، وظن أنه لص ، فلما رأىٰ داوود ؛ رجع ، ولبس ثيابه ، ووضع السيف ، وأخذ بيد داوود حتىٰ رده إلىٰ داره ، فقيل لداوود ذلك ، فقال : ما دريت ، أو ما شعرت .

وقال ابن السماك : أوصاني أخي داوود الطائي فقال : انظر ألاَّ يراك الله عز وجل حيث نهاك ، وألاَّ يفقدك من حيث أمرك ، وٱستَحْيِهِ في قربه منك وقدرته عليك .

وقيل له : ما تقول في رجل دخل علىٰ هـٰؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ؟ فقال : أخاف عليه السوط ، قال : إنه يقوىٰ ، قال : أخاف عليه السيف ، قال : إنه يقوىٰ ، قال : أخاف عليه الداء الدفين : العجب .

وقال أحمد بن شراعة : كنت أُسبِّلُ الماء بالليل ، فرأيت عند قبر داوود سراجاً ، قال : فذهبت أنظر إليه ، فإذا هو قد ذهب ، ثم عدت إلىٰ تسبيل الماء ، فإذا بالسراج ، فذهبت ، فغاب ، حتىٰ فعلت ذلك ثلاثاً ، قال : ثم نمت ، فرأيت في المنام كأن إنساناً يقول : لا تُسبِّلِ الماء عند القبر ، ولا تدن منه ، قال : فلم أقبل . قال : فابتُلِيَ بالسُّل إلىٰ أن مات .

وبلغ داوود رحمه الله تعالىٰ أنه ذُكر عند بعض الأمراء ، فأُثني عليه ، فقال : إنما فُعل

هـٰذا بستر الله تعالىٰ بين خلقه ، ولو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ؛ ما ذَلَّ لنا لسان بذِكر خيرٍ أبداً .

وقال : اليأس سبيل أعمالنا هـٰذه ، ولـٰكن القلوب تحن إلى الرجاء .

وقال محمد بن بشر : قدم علينا داوود الطائي من السواد ، فكنا نضحك منه ، فما مات حتىٰ سادنا .

وقال عبد العزيز بن محمد : رأيت في المنام كأن قائلاً يقول : من يحضر ؟ من يحضر ؟ فأتيته ، فقال : ما تريد ؟ قلت : سمعتك تقول : من يحضر ؟ من يحضر ؟ فأتيتك أسألك عن معنىٰ كلامك ، فقال لي : أوما ترى القائم الذي يخطب على الناس ويخبرهم عن أعلىٰ مراتب الأولياء فأَدرِكْه ؛ فلعلك تلحقه وتسمع كلامه قبل انصرافه ؟ فأتيته ؛ فإذا الناس حوله وهو يقول :

ما نال عبدٌ من الرحمـٰن منزلةً أعلىٰ من الشوق إن الشوق محمودُ

قال : ثم سلم ونزل ، فقلت لرجل إلىٰ جنبي : مَن هـٰذا ؟ قال : أَمَا تعرفه ؟! قلت : لا ، قال : هـٰذا داوود الطائي ، فعجبت في منامي مما رأيت منه ، فقال لي : أتعجب مما رأيت ؟ والله ؛ إن الذي لِداوود عند الله عز وجل من الزلفىٰ أكثر من هـٰذا وأكبر .

وقال علي الطنافسي : سمعت أخي الحسن يقول : عن أبي نعيم قال : رأيت داوود الطائي تدور في وجهه نملة عرضاً وطولا لا يَفطن لها ؛ يعني : من الهم .

أسند داوود الطائي رحمه الله عن جماعة من التابعين ، وتوفي سنة ست ـ وقيل : خمس ـ وستين ومئة .

فمن أحاديثه : عن الأعمش ، عن يحيى بن وثاب ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم ؛ أفضل من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم »[1] .

وعنه عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأيته يصلي في ثوب واحد متوشحاً به)[2]

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٥٠٧) .

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٣٤٧) ، ومسلم (٥١٧) .

انتهىٰ [« الحلية » ٧/٣٥٦ـ٣٦٥ و٨/ ١٢٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : صام داوود أربعين سنة لا يعلم به أهله ، وكان خزازاً ، وكان يحمل غَداءَه معه ، ويتصدق به في الطريق ، ويرجع إلىٰ أهله ، فيفطر عشياً ، فكان أهله لا يعلمون أنه صائم .

وقالت له أمه : لو اشتهيت شيئاً ؛ اتخذته لك ؟ فقال : أجيدي يا أماه ، فإني أريد أن أدعو إخواناً لي ، وقال : فاتخذَتْ أمه طعاماً ، وأجادت ، قال : فقعد داوود على الباب ، لا يمر به سائل ؛ إلا أدخله وقدمه إليهم ، فقالت له أمه : لو أكلت منه ، قال : فمَن أكله غيري ؟!

قال : وإنما جد واجتهد من حين ماتت أمه ، فقسَّم كل شيء تركت له حتىٰ لصق بالأرض ، وكانت أمه موسرة .

وقال محمد بن بشر : قال داوود لمولاة له : أشتهي لبناً ، فخذي رغيفاً ، فأْتي به البقال فاشتري به لبناً ، ولا تُعلمي البقال لمن هو ، فذهبت ، فجاءت به ، فأكل ، وفطن البقال بعد ذلك أنها تريد اللبن لداوود ، فطيَّبَهُ له ، فقال لها : علم البقال لمن هو ؟ قالت : نعم ، قال : ارفعيه ، فما عاد فيه .

وقال أبو خالد : مررت أنا وسفيان الثوري بمنزل داوود ، فقال لي سفيان : ادخل بنا إليه نسلم عليه ، فدخلنا عليه ، فما احتفل بسفيان ولا انبسط إليه ، فلما خرجنا ؛ قلت : يا أبا عبد الله ؛ غاظني ما صنع بك ، قال : أي شيء صنع بي ؟ قلت : لَمْ يحتفل بك ولم ينبسط إليك ، فقال : إن أبا سليمان لا يُتَّهم في مودته ، أما رأيت غيبته عن نفسه ؟! هـٰذا في شيء غير ما نحن فيه .

وقال خزيمة : دخل أبو يوسف القاضي علىٰ داوود الطائي فقال : ما رأيت أحداً رضي من الدنيا بمثل ما رضيت به ، فقال : يا يعقوب ؛ من رضي بالدنيا كلها عوضاً عن الآخرة ؛ فذاك الذي رضي بأقل مما رضيت . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٦٦ـ٦٨] .

وقال أبو القاسم القشيري : قال أبو علي الدقاق : كان سبب زهد داوود الطائي أنه كان ماراً يوماً ببغداد فنحاه المطرقون من بين يدي حميد الطوسي ، فالتفت داوود ، فرأىٰ حميداً الطوسي ، فقال داوود : أف لدنيا سبقك إليها حميد ، ثم أخذ في الزهادة والعبادة . انتهىٰ [« الرسالة » ٢١] .

وقال أرباب السير : قال بعض أصحاب داوود : رأيت في ليلة موت داوود الطائي رحمه الله نوراً كثيراً في السماء ، وملائكة صاعدين وملائكة نازلين ، فقلت : ما هـٰذا ؟ فقيل لي : قد مات داوود الطائي ، وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه ، قال : ثم استيقظت ؛ فإذا به قد مات في تلك الليلة .

ويقال : إن الأرض التي كان يمشي عليها داوود تفتخر علىٰ بعض البقاع .

وقال داوود : لو أملت أن أعيش شهراً ؛ لرأيتني قد أتيت عظيماً ، وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار ؟ انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال داوود الطائي : ماتت امرأة في جواري ، ولم يكن لها كثير طاعة في الظاهر ، فرأيت في النوم كأن قائلاً يقول لي : يا داوود ؛ اطلع في قبرها ، فاطلعت ، فرأيت في قبرها ضوءاً عظيماً ، وفرشاً وطيئة ، وسرراً عالية ، فقلت : يا رب ؛ بماذا استوجبت هـٰذه المنزلة ؟ فنوديْتُ : يا داوود ؛ استأنست بنا في سجدتها ، فآنسناها في وحدتها .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال محمد بن حسان رحمه الله : قال لي عمي : قدم محمد بن قحطبة الكوفة ، فقال : أحتاج إلىٰ مؤدب يؤدب أولادي ، حافظٍ للقرآن ، وعارف بالسنن والآثار ، والفقه ، والنحو ، والتفسير ، والأصول ، والشعر ، وأيام الناس ، فقيل له : ما يجمع هـٰذه العلوم كلها ؛ إلا داوود الطائي ، وكان محمد بن قحطبة ابن عم داوود ، فأرسل إليه يعرض عليه ذلك ويسنيْ[1] له الأرزاق ، فلم يقبل ، فأرسل إليه بَدْرة ـ عشرة آلاف درهم ـ صلة ، فلم يقبلها ، فأرسل إليه بَدْرَتين مع مملوكين له ، وقال لهما : إن قبل البدرتين فأنتما حُرَّان ، فلم يقبلهما ، فقالا له : إن في قبولهما عتقنا ، فقال : لـٰكن في قبولهما رقِّي ورهن رقبتي في النار ، ارجعا بهما إليه ، وقولا له أن يردهما إلىٰ من أخذهما منه .

توفي في خلافة المهدي رحمه الله في سنة ست وخمسين ومئة[2] . انتهىٰ .

---

(١) **يسني** : يرفع .
(٢) الصحيح : أنه توفي سنة خمس وستين ومئة كما في « السير » ، و« الصفوة » ، و« الطبقات » وغيرهما ، ولعله وهم من الناسخ فقلبه وقال : ست وخمسين ومئة .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ رضي الله عنهما ـ : قد ذكرت بعض مناقبه في ترجمة الإمام أبي حنيفة رحمهما الله ، ومناقبه كثيرة مشهورة ، وإنما ذكرت منها أحرفاً ؛ تبركاً ، رضي الله عنه وأرضاه ، ونفع به ديناً ودُنيا .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : قال إبراهيم بن بشار ـ وكان خادم إبراهيم بن أدهم ـ : قلت لإبراهيم : يا أبا إسحاق ؛ كيف كان بدء أمرك ؟ فقال لي : غير ذا أولىٰ بك ، فقلت له : هو كما تقول رحمك الله ، ولـٰكن أخبِرني لعل الله تعالىٰ أن ينفعنا به يوماً ، ثم سألته الثانية ، فقال : ويحك! اشتغل بالله تعالىٰ ، فسألته الثالثة ، فقال : كان أبي من أهل بَلْخ ، وكان من ملوك خراسان ، وكان من المياسير ، وحبب إلينا الصيد ، فخرجت راكباً فرسي وكلبي معي ، فبينا أنا كذلك ؛ فثار أرنب أو ثعلب ، فحركت فرسي ، فسمعت نداء من ورائي : ليس لذا خُلقتَ ، ولا بذا أُمرت ، فوقفت أنظر يمنة ويسرة ، فلم أر أحداً ، فقلت : لعن الله إبليس ، ثم حركت فرسي ، فسمعت نداء أجْهَر من ذلك : يا إبراهيم ؛ ليس لذا خلقت ولا بذا أمرت ، فوقفت أنظر يمنة ويسرة ، فلم أر أحداً ، فقلت : لعن الله إبليس ، ثم حركت فرسي ، فأسمع نداء من قَرَبوس(1) : يا إبراهيم ؛ ما لذا خلقت ، ولا بذا أمرت ، فوقفت وقلت : انتهيت انتهيت ، جاءني نذير من رب العالمين ، والله ؛ لا عصيت الله تعالىٰ بعد يومي هـٰذا ما عصمني ربي عز وجل ، فرجعت إلىٰ أهلي ، فخليت عن فرسي ، ثم جئت إلىٰ أحد رعاة أبي ، فأخذت منه جبة وكساء ، وألقيت ثيابي إليه ، ثم أقبلت إلى العراق ترفعني أرض ، وأرض تضعني ، حتىٰ وصلت إلى العراق ، فعملت بها أياماً ، فلم يصفُ لي فيها شيء من الحلال ، فسألت بعض المشايخ عن الحلال ، فقال : إن أردت الحلال ؛ فعليك ببلاد الشام ، فسرت إلىٰ بلاد الشام ، إلىٰ مدينة يقال لها : المنصورة ، وهي المصيصة ، فعملت بها أياماً ، فلم يصفُ لي الحلال ، فسألت بعض المشايخ ، فقال : إن أردت الحلال الصافي ؛ فعليك بطرسوس ؛ فإن فيها المباحات والعمل الكثير .

---

(1) القَرَبوس : ما اعوَجّ من السرج ، والمراد : ظهر السرج .

فتوجهت إلىٰ طرسوس ، فعملت بها أياماً أنطر البساتين وأحصد الحصاد ، فبينا أنا قاعد علىٰ باب البحر ؛ جاءني رجل ، فاكتراني أنطر له بستاناً ، فكنت في البستان أياماً كثيرة ؛ فإذا أنا بخادم قد أقبل ومعه أصحابه ، فقعد في مجلسه ، ثم صاح : يا ناطور ؛ فقلت : نعم ، قال : اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه ، وأطيبهِ ، فذهبت ، فأتيته بأكبر رمان ، فأخذ رمانة ، فكسرها ، فوجدها حامضة ، فقال : يا ناطور ؛ أنت في بستاننا منذ كذا وكذا تأكل فاكهتنا وتأكل رماننا لا تعرف الحلو من الحامض ؟ قال إبراهيم رحمه الله : فقلت له : والله ؛ ما أكلت من فاكهتك شيئاً ، ولا أعرف الحلو من الحامض ، فأشار الخادم إلىٰ أصحابه ، فقال : ألا تسمعون إلىٰ كلام هـٰذا ؟! ثم قال لي : أتراك لو أنك إبراهيم بن أدهم ما زاد علىٰ هـٰذا ؟ ثم انصرف ، فلما كان من الغد ؛ ذكر صفتي في المسجد ، فعرفني بعض الناس ، فجاء الخادم ومعه جمع من الناس ، فلما رأيته قد أقبل مع أصحابه ؛ اختفيت خلف الشجر والناس داخلون ، فاختلطت معهم ، وهم داخلون وأنا هارب .

وفي رواية أخرىٰ : زاد في القصة : بينما أنا علىٰ فرسي أركضه ؛ إذ سمعت صوتاً من فوقي : يا إبراهيم ؛ ما هـٰذا العبث ؟! ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ، اتق الله ، وعليك بالزاد ليوم الفاقة ، فنزل عن دابته ، ورفض الدنيا ، وأخذ في عمل الآخرة . انتهىٰ [« الحلية » ٧/٣٦٨ـ٣٦٩] .

زاد في « **لوامع أنوار القلوب** » : قال إبراهيم : فنزلت عن فرسي ، وصادفت راعياً لأبي ، فأخذت جبته الصوف ، فلبستها ، ثم دفعت إليه الفرس وما كان معي ، وتوجهت إلىٰ مكة ، فبينا أنا في البادية وإذا برجل يسير وليس معه إناء ولا زاد ، فلما أمسىٰ وصلى المغرب ؛ حرك شفتيه بكلام لم أفهمه ، وإذا أنا بإناء فيه ماء وآخر فيه طعام ، فأكلت معه وشربت ، وكنت معه علىٰ هـٰذه الحالة أياماً ، وعلمني اسم الله الأعظم ، ثم غاب عني ، وبقيت وحدي .

فبينا أنا ذات يوم مستوحش من الوحدة ؛ دعوت الله عز وجل به ؛ فإذا أنا بشخص أخذ بحجزتي يقول لي : سل تعط ، فراعني قوله ، فقال لي : لا تُرَع ، فلا خوف عليك ولا بأس ، أنا أخوك الخضر ، وإن أخي داوود عليه السلام علمك اسم الله الأعظم ، فلا تدعو به علىٰ أحد بينك وبينه شحناء ؛ فتهلكه هلاك الدنيا والآخرة ، ولـٰكن ادع بأن يكثِّر خيرك ، ويقوّي ضعفك ، ويؤنس وحشتك ، ويجدد به في كل ساعة رغبتك ، ثم قال لي : يا إبراهيم ؛ اعبد ربك سبحانه وتعالىٰ علىٰ تحقيق المشاهدة والمراقبة ، واعلم : أنه أقرب إليك من حبل الوريد ، ثم انصرف . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال عبد الله بن الفرج : حدثني إبراهيم بن أدهم رحمه الله بابتداء أمره كيف كان ، قال : كنت يوماً في مجلس له منظرة إلى الطريق ، وإذا بشيخ عليه أطمار رثة ، وكان يوماً حاراً ، فجلس في فيء القصر ليستريح ، فقلت للخادم : اخرج إلىٰ هـٰذا الشيخ فأقرئه مني السلام ، واسأله أن يدخل إلينا ، فقد أخذ بمجامع قلبي ، فخرج إليه ، فقام معه ودخل إلي وسلم ، فرددت عليه السلام ، واستبشرت بدخوله ، وأجلسته إلىٰ جانبي ، وعرضت عليه الطعام ، فأبىٰ أن يأكل ، فقلت له : مِن أين أقبلت ؟ قال : من وراء النهر ، قلت : أين تريد ؟ قال : الحج إن شاء الله تعالىٰ ، وكان ذلك في أول يوم من العشر أو الثاني منه ، فقلت : في هـٰذا الوقت ؟ فقال : يفعل الله سبحانه وتعالىٰ ما يشاء ، قلت : فالصحبةَ ، قال : إن أحببت ذلك ، حتىٰ إذا كان الليل ؛ قال لي : قم ، فقمت ، وأخذ بيدي ، وخرجنا من بلخ ، فمررنا بقرية لنا ، فلقيني فلاح من القرية ، فأوصيته ببعض ما أحتاج إليه ، ثم قدَّم إلينا خبزاً وبيضاً ، وسألنا أن نأكل ، فأكلنا وشربنا ، فقال الشيخ بسم الله ، قم ، فأخذ بيدي ، فجعلنا نسير ، وأنا أنظر إلى الأرض تُجذَب من تحتنا كأنها الموج ، فمررنا بمدينة بعد مدينة ، وهو يقول : هـٰذه مدينة كذا ، هـٰذه مدينة كذا ، هـٰذه مدينة الكوفة ، ثم قال لي : الموعد هـٰهنا في مكانك هـٰذا في الوقت ؛ يعني : من الليل .

فلما جاء الوقت ؛ جاء ، فأخذ بيدي ، وقال : بسم الله ، وجعل يقول : هـٰذا منزل كذا ، هـٰذا منزل كذا ، هـٰذه قباء ، هـٰذه المدينة المشرفة ، وأنا أنظر إلى الأرض تجذب من تحتنا كأنها الموج ، فدخلنا ، فزرنا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم فارقني ، وقال : الموعد هـٰهنا .

فلما جاء الوقت ؛ جاء ، فأخذ بيدي ، وفعل كفعله ، حتىٰ أتينا مكة ، ففارقني ، فقلت : الصحبة ، فقال : إني أريد الشام ، فقلت : وأنا معك ، فقال : إذا انقضى الحج ؛ فالموعد هـٰهنا عند زمزم .

فلما انقضى الحج ؛ إذا به عند زمزم ، فأخذ بيدي ، فطفنا بالبيت ، ثم خرجنا ، ففعل كفعله ، وإذا نحن ببيت المقدس ، فلما دخل المسجد ؛ قال : السلام عليك ، أنا علىٰ عزم المقام هـٰهنا إن شاء الله عز وجل ، ثم فارقني ، فما رأيته بعد ذلك ولا عرَّفَني اسمه .

قال إبراهيم : فرجعت إلىٰ بلدي أسير سير الضعفاء ، منزلاً بعد منزل ، حتىٰ قدمت بَلْخ ، فكان هـٰذا أولَ أمري . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١١٩ـ١٢٠] .

وروىٰ **أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ بسنده عن أحمد بن خضرويه قال** : قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله لرجل في الطواف : **اعلم** : أنك لا تنال درجة الصالحين حتىٰ تجوز ست عقبات :

أولها : تغلق باب النعمة ، وتفتح باب الشدة .

والثانية : تغلق باب العز ، وتفتح باب الذل .

والثالثة : تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجهد .

والرابعة : تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر .

والخامسة : تغلق باب الغنىٰ ، وتفتح باب الفقر .

والسادسة : تغلق باب الأمل ، وتفتح باب الاستعداد للموت .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالىٰ : إن الحر الكريم مَن يَخرُج من الدنيا قبل أن يُخرَج منها(١) .

وقال : لا تصحب إلا حراً كريماً ، يسمع ولا يتكلم .

وكان إبراهيم رحمه الله إذا صحبه أحد ؛ شارطه علىٰ ثلاثة أشياء :

أن تكون الخدمة والأذان له ، وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله عز وجل عليه من الدنيا كَيَدِهم .

فقال له يوماً رجل من أصحابه : أنا لا أقدر علىٰ هـٰذا ، فقال : أعجبني صدقك(٢) .

ثم قال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : قال شقيق البلخي : لقيت إبراهيم بن أدهم رحمه الله في بلاد الشام ، فقلت : يا إبراهيم ؛ تركت خراسان! فقال : ما تهنيت بالعيش إلا في بلاد الشام ، أفر بديني من شاهق إلىٰ شاهق ، ومن جبل إلىٰ جبل ، فمن يراني يقول : مُوَسْوَس ، ومن يراني يقول : هـٰذا جمَّال .

ثم قال : يا شقيق ؛ لم ينبل عندنا من نبل بالحج ولا بالجهاد ، إنما نبل من كان يعقل ما يدخل جوفه ـ يعني : الرغيفين ـ من حله .

ثم قال : يا شقيق ؛ انظر ماذا أنعم الله عز وجل على الفقراء ، لا يسألهم يوم القيامة

---

(١) الرسالة القشيرية (١٧٢) .

(٢) الرسالة القشيرية (٢٢٩) .

لا عن زكاة ، ولا عن حج ، ولا عن جهاد ، ولا عن صلة رحم ، إنما يسأل هـٰؤلاء المساكين ؛ يعني : الأغنياء .

وفي رواية إبراهيم بن بشار خادم إبراهيم : قال : أمسينا مع إبراهيم ذات ليلة وليس عندنا ما نفطر عليه ، فرآني مغتماً ، فقال : يا إبراهيم بن بشار ؛ انظر ماذا أنعم الله تعالىٰ على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة في الدنيا والآخرة ، لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة ، ولا عن حج ، ولا عن صدقة ، ولا عن صلة رحم ، ولا عن مواساة ، وإنما يسأل ويحاسب عن هـٰذا هـٰؤلاء المساكين ، أغنياء في الدنيا فقراء في الآخرة ، أعزة في الدنيا أذلة يوم القيامة ، لا تغتم ولا تحزن ، فرِزْقُ الله سبحانه وتعالىٰ مضمون سيأتيك ، نحن ـ والله ـ الملوك الأغنياء ، نحن الذين تعجلنا الراحة في الدنيا ، لا نبالي علىٰ أي حال أصبحنا وأمسينا إذا أطعنا الله عز وجل ، ثم قام إلىٰ صلاته وقمت إلىٰ صلاتي ، فما لبثنا إلا ساعة وإذا نحن برجل قد جاء بثمانية أرغفة وتمر كثير ، فوضعه بين أيدينا ، وقال : كلوا رحمكم الله تعالىٰ ، قال : فسلم ، وقال : كل يا مغموم ، فجاء سائل ، فقال : أطعموني شيئاً ، فأخذ ثلاثة أرغفة مع تمر ، فدفعه إليه ، وأعطاني ثلاثة أرغفة ، وأكل رغيفين ، وقال : المواساة من أخلاق المؤمنين .

وقرب أبو يوسف الغسولي كُسَيرات يابسة ، وكان هو وإبراهيم بن أدهم وغيره ، فأكلوا وحمدوا الله عز وجل ، ثم قام أبو يوسف وقام بعضنا يجيء بالماء لإبراهيم حتىٰ يشرب ، فسبق إبراهيم ودخل النهر حتىٰ بلغ الماء ركبتيه ، ثم قال : بسم الله ، ثم شرب ، ثم قال : الحمد لله ـ فعل ذلك ثلاثاً ـ ثم خرج ، فمد رجليه ، وقال : يا أبا يوسف ؛ لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور ؛ إذاً لجالَدونا علىٰ ما نحن فيه بأسيافهم أيام الحياة علىٰ ما نحن فيه من لذة العيش وقلة التعب ، فقلت : يا أبا إسحاق ؛ طلب القوم الراحة والنعيم فأخطؤوا الطريق المستقيم ، فتبسم ، وقال : من أين لك هـٰذا الكلام ؟!

وقال عباس أبو الفضل[1] المرعشي : لقيت عبد العزيز ابن أبي رَوَّاد ، فتذاكرنا أمر إبراهيم بن أدهم ، فقال عبد العزيز : رحم الله تعالىٰ إبراهيم بن أدهم ، لقد رأيته بخراسان إذا ركب ؛ حضر بين يديه نحواً من عشرين شاكرياً[2] ، ولـٰكنه ـ رحمه الله ـ طلب بحبحة الجنة .

---

(١) في « الحلية » : (ابن الفضل) .
(٢) الشاكري : الأجير والمستخدم ، معرَّب .

وكان والد إبراهيم بن أدهم رجلاً صالحاً ، فولد إبراهيم بمكة ، فأخذه ورفعه في خرقة ، وجعل يتتبع به أولـئك العباد والزهاد ، ويقول : ادعوا الله تعالىٰ له ، فيُرىٰ أنه قد استجيب لبعضهم فيه .

وقال سهل بن بشر : مر بي إبراهيم بن أدهم وأنا أكسر عوداً من حطب قد أعياني ، فقال لي : يا أبا محمد ؛ قد أعياك ؟ قلت : نعم ، قال : تأمر لنا به ؟ قلت : نعم ، قال : وتعيرنا الفأس ؟ قلت : نعم ، قال : فأخذ العود ووضعه علىٰ رقبته ، وأخذ الفأس ومضىٰ ، فبينما أنا علىٰ ذلك ؛ فإذا بالباب قد فتح والحطب يطرح في دهليز الدار مكسراً ، وألقى الفأس وأغلق الباب ومضىٰ .

وكان إبراهيم رحمه الله إذا صلى العشاء الآخرة ؛ وقف بين الدور ، فينادي بأعلىٰ صوته : من يريد يطحن ؟ فكانت المرأة تخرج القفة فيها القمح ، وكذلك الشيخ الكبير ، فينصب الرحىٰ بين رجليه ، فلا ينام حتىٰ يطحن جميع ذلك وبِلا أجرة ، ثم يأتي أصحابه .

وقال علي بن بكار : كان الحصاد أحب إلىٰ إبراهيم من اللقاط(١) ، وكان سليمان الخواص لا يرىٰ باللقاط بأساً ويلقط ، وكانت أسنانهما(٢) قريبة ، وكان إبراهيم أفقه ، وكان من العرب ، من بني عجل ، كريم الحسب ، وكان إذا عمل ؛ ارتجز ، قال : وكان يلبس في الشتاء فرواً وليس تحته قميص ، ولم يكن يلبس خفين ولا عمامة ، وفي الصيف شقتين بأربعة دراهم ، يتزر بواحدة ويرتدي بأخرىٰ ، ويصوم سفراً وحضراً ، ولا ينام الليل ، وكان كثيراً ما يتفكر ، فإذا فرغ من الحصاد ؛ أرسل بعض أصحابه ، فيحاسب صاحب الزرع ، ويجيء بالدراهم لا يمسها بيده ، ويقول لأصحابه : اذهبوا كلوا بها شهواتكم ، فإن لم يكن حصاد ؛ أجَّر نفسه في حفظ البساتين والمزارع ، وكان يجلس فيطحن بيد واحدة مُدَّي قمح ؛ يعني : قفيزين .

وقال خلف بن تميم : قلت لإبراهيم : منذ كم نزلْتَ الشام ؟ قال : منذ أربع وعشرين سنة ما نزلتها لجهاد ولا لرباط ، فقلت : لأي شيء نزلتها ؟ قال : لأشبع من خبز حلال .

وقال علي بن بكار : حدثني رفيق إبراهيم بن أدهم قال : خرجت معه من بيت

---

(١) أي : جمع السنابل التي اخطأها المنجل .
(٢) أعمارها .

المقدس ، فنفد زادنا في الطريق ، فجعلنا نأكل الخُرنوب[1] وقلوب الشجر ، حتىٰ خشنت حلوقنا ، وبلغ منا الجهد ، فقلت : ندخل القرية عسىٰ نطلب عملاً ؛ فإذا في القرية نهر ، فتوضأ ، ثم صلىٰ ، فدخلت القرية ألتمس عملاً ، فتقبَّلت من قوم حائطاً قد سقط بأربعة دراهم ، فجئت وأخبرته ، فقام يعمل عمل الرجال ، وأنا أعمل عملاً ضعيفاً ، فجاؤونا بغداء ، فغسلت يدي أبادر إلى الطعام ، فقال لي : أهـٰذا في شرطك ؟ قلت : لا ، قال : فاصبر حتىٰ تأخذ أجرتك ، فلما فرغنا ؛ أخذنا الأجرة واشترينا وأكلنا ، ثم خرجنا ، فأصابنا في الطريق جوع ، فأتينا قرية من قرىٰ حمص ؛ فإذا ساقية ماء ، فتوضأنا وصلينا ، وإلىٰ جانبنا دار فيها غرفة ، فأرسل إلينا صاحب الغرفة جفنة فيها ثريد وخبز وعُراقٌ[2] ، فوضعت بين أيدينا ، فانفتل من الصلاة ، وقال : من بعث هـٰذه ؟ قلت : صاحب هـٰذه الغرفة ، قال : ما اسمه ؟ قلت : فلان بن فلان ، فأكل وأكلت .

ثم أتينا أنطاكية وقد حضر الحصاد ، فحصدنا بنحو ثمانين درهماً ، فقلت في نفسي : آخذ نصف هـٰذه وأرجع ؛ ما لي قوة علىٰ صحبته ، فقلت : إني أريد الرجوع إلىٰ بيت المقدس ، فقال : [ما أنت] لي مصاحباً ؟ ثم دخل أنطاكية ، واشترىٰ ملاءتين من تلك الدراهم ، وقال لي : إذا أتيت قرية كذا وكذا التي أُطعمنا فيها كذا ؛ فسل عن فلان بن فلان ، وادفع إليه الملاءتين ، ودفع إلي بقية الدراهم ، ولم يبق معه شيء ، فسافرت حتىٰ أتيت القرية ودفعت الملاءتين إلى الرجل ، فقال : من بعث بها ؟ قلت : إبراهيم بن أدهم ، وأخبرته أنه كان أحد الرجلين الذين بعثتَ إليهما بالطعام ، فأخذها ، ومضيت إلىٰ بيت المقدس ، وأقمت حيناً ، ثم رجعت ، فسألت عنه ، فقيل لي : إنه مات وكفن في الملاءتين .

وقال علي بن محمد المعلم : خرج إبراهيم بن أدهم إلى السوق ، فلقيه شخص يعرفه من أهل خراسان كان يكنىٰ بأبي سليمان ، فقال له : أين تريد ؟ قال : بيت المقدس ، قال إبراهيم : وأنا ، قال أبو سليمان : فالصحابةَ يا أبا إسحاق ، قال : نعم ، قال أبو سليمان : فمضيت معه إلىٰ بيته ، فأخرج دورقاً[3] مشدود الرأس فيه كِسَرُ خبز ، فأخرج الكسر ووضعها في مخلاته ، ورد الدورق ، وأغلق الباب ، وقال : امض بنا ، فمضينا ، حتىٰ إذا كنا قريباً

---

(١) **الخُرنُوبُ** : شجر مثمر ، ثماره قرون ، تؤكل وتعلفها الماشية .

(٢) **العُراق** : العظم الذي ليس عليه لحم .

(٣) **الدَّورق** : وعاء يكال به ، فارسي معرَّب .

من خارج السوق ؛ قال إبراهيم : إني أريد أن أحتجم ، قال : فاحتجم علىٰ بركة الله تعالىٰ ، فلما فرغ ؛ قال : يا أبا سليمان ؛ هل معك شيء ؟ قلت : نعم ، وأخرجت صرة فيها ثمانية عشر درهماً ، قال : ادفعها إلى الحجام ، قلت : يا أبا إسحق ؛ كلها ؟! قال : نعم ؛ ادفعها كلها ـ وكان إبراهيم لا يُرَاجَع في شيء ـ فدفعتها وخرجنا .

فلما سرنا قدر ميلين ؛ قلت : يا أبا إسحاق ؛ تلك الدراهم كنا حملناها لنشتري بها من بيت المقدس بعض ما ندخل به على الصبيان ، فقلتَ : أعطها كلها للحجام ، فأعطيتها وخفت منك ، والله ؛ ما معي شيء غيرها ، قال : فسكت ، فما أجابني ، قال : فأعدت عليه القول مرة أخرىٰ ، فسكت ، ولم يجبني .

ثم لاحت لنا قرية ناحية عن الطريق ، فقال : يا أبا سليمان ؛ إن من رأيي أن أبيت في هـٰذه القرية ، فأعجبني ذلك ، فجئنا القرية وقد غربت الشمس ، فدخلنا المسجد ، فقال إبراهيم للمؤذن : أنت من هـٰهنا ؟ قال : نعم ، قال : هل تعلم بهـٰذه القرية من يريد الحصاد ؟ فقال المؤذن : قد حصد أهل القرية ولم يبق إلا حقلين كبيرين لنصراني ، قال إبراهيم : إذا صلينا إن شاء الله تعالى امض بنا إليه ، فلما فرغوا من الصلاة ؛ قال إبراهيم للمؤذن ولأبي سليمان : امض بنا إليه ، فلما رأياه ؛ ذكرا له أمر الحصاد ، وقال له المؤذن : قد تأبَّىٰ عليك أهل القرية ، وإني لأرجو أن يحصدا لك كما تحب ، فأرِهما الموضع واشترط ما شئت ، فدخل النصراني ، فأراهما الحقلين ، وكانت ليلة مقمرة ، فقال النصراني : إني أعطيكم ديناراً ، فقال إبراهيم : قد رضينا ، فرجع إبراهيم إلى المسجد ، فلما صلى العشاء الآخرة ؛ قال إبراهيم لأبي سليمان : امض بنا إلى الحقل ، فلما دخلنا فيه ؛ ركع إبراهيم أربع ركعات ، ثم قال : يا أبا سليمان ؛ أما يقبح بنا شيخين من أهل الإسلام نذهب ليلتنا في عمل نصراني ولا نصلي لله عز وجل في هـٰذا الموضع ؟ فإني لا أحسب أنه صلي في هـٰذا الموضع قط ، أيما أحب إليك أن تصلي أنت هـٰهنا وأحصد أنا ؟ أو تذهب أنت فتحصد وأصلي أنا ؟ فقلت : أصلي أنا واذهب أنت فاحصد ، قال : فشمر .

قال أبو سليمان : وركعت ركعتين ، ثم وضعت رأسي ونمت ، قال : فجاءني في آخر الليل ، فقال : أراك نائماً ، هـٰذا الصبح قد قارب ، وقد فرغت من الحقلين ، قلت : فرغت منهما ؟! قال : قد أعاننا الله سبحانه وتعالىٰ ، ثم جلسنا ساعة حتىٰ طلع الفجر ، فصلينا في المسجد ، فلما فرغنا ؛ أخبر إبراهيم المؤذن بفراغه من حصاد الحقلين ، فأطرق المؤذن ، وقال : ما أحسب إلا أن تكون قد أهلكت النصراني ؛ فإن هـٰذا عمل لا يفرغ منه في خمسة

أيام ولياليها ، فقال إبراهيم : امض بنا إليه وانظر ، فقال المؤذن : أشهد أن الله عز وجل فعَّال لما يريد ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، ثم جاؤوا إلى النصراني وأخبروه ، فجعل النصراني يبكي ، وأخذ التراب ، ووضعه علىٰ رأسه ، وجعل ينتف لحية نفسه ، ويقول للمؤذن : غررتني ، فقال إبراهيم : يا نصراني ؛ لا تعجل ، امض إليه ، فإن رأيت ما تحب ، وإلا ؛ فافعل ما تريد ، قال : امضوا ، فدخل الحقل الأول ، فإذا هو قد حُصِد حصاداً جيداً ، وإذا جرز مربوطة مكومة جيدة ، ثم الحقل الآخر كذلك ، فتعجب المؤذن والنصراني ، ثم دفع إليهما الأجرة ، وقال : أريد أن أزيدكما ديناراً آخر ، قال إبراهيم : لا حاجة لنا بالزيادة ، ثم قال إبراهيم لأبي سليمان : خذ هٰذا الدينار ، واعلم أنه لا يمكنني أن تصحبني إلىٰ بيت المقدس ، إما أن أرجع إلىٰ عسقلان وتمضي أنت إلىٰ بيت المقدس ، وإما أن أمضي وترجع أنت إلىٰ عسقلان ، قال أبو سليمان : فبكيت ، وقلت : يا أبا إسحاق ؛ الصحبة ، قال : لا ، كَرَّرتَ عليَّ : الدراهم الدراهم ، انصرف إلىٰ أهلك بارك الله لك ، فرجعت إلىٰ عسقلان ومضىٰ هو إلىٰ بيت المقدس .

وعن أبي إسحاق الفزاري قال : كان إبراهيم في شهر رمضان يحصد الزرع بالنهار ويصلي بالليل ، فمكث ثلاثين يوماً لا ينام بالليل ولا بالنهار .

وقال أبو يوسف الغَسولي : كنا مع إبراهيم في الحصاد في رمضان ، فقيل : يا أبا إسحاق ؛ لو دخلت بنا إلى المدينة ، فنصوم العشر الأواخر بالمدينة ؛ لعلنا ندرك ليلة القدر ، فقال : أقيموا هٰهنا وأجيدوا العمل ، ولكم بكل ليلة ليلة القدر .

وعن خلف بن تميم قال : سألت إبراهيم بن أدهم : منذ كم أنت هٰهنا بأرض الشام ؟ فقال : منذ أربع وعشرين سنة ، وقال : دُفِعت إلىٰ شباب من العرب يحصدون وقد ضربوا خباء لهم ، فقالوا : يا فتىٰ ؛ ادن فاحصد معنا ، قال : فحصدت معهم وكانوا يعطونني من الأجرة ما يعطون واحداً منهم من الأستاذين[1] ، فقلت ـ بيني وبين نفسي ـ : ما أرىٰ هٰذا يسعني ، هٰؤلاء الأستاذون ، وأنا لا أحسن أحصد ، قال : فكنت أدعهم ، حتىٰ إذا أخذوا مضاجعهم وناموا ؛ أخذت المنجل ، فحصدت ، قال : فأُصبح وقد حصدت شيئاً صالحاً ، فسمعتهم يتوَشْوَشون فيما بينهم ، يقولون : أليس هٰذا الزرع كان البارحة قائماً ؟ فمن حصده ؟ فيقول بعضهم لبعض : هٰذا نراه بالليل يقوم فيحصد ، فأسمعهم يقولون :

---

(١) **الأستاذون** : لقب فرقة من الخدم مهمتها الخدمة في جيش الخليفة .

ما يسعنا ذا ، يعمل بالليل والنهار ، وإنما يأخذ أجر رجل واحد[1] .

وعنه قال : الزهد ثلاثة أصناف : زهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد سلامة ، فالفرض : الزهد في الحرام ، والفضل : الزهد في الحلال ، والسلامة : الزهد في الشبهات[2] .

وعن عيسى بن حازم قال : قال إبراهيم : ما يمنعني من طلب العلم أني لا أعلم ما فيه من الفضل ، ولٰكن أكره أن أطلبه مع من لا يعرف حقه .

وروى الأصفهاني عن أشعث قال : ذكر هارون رفيق إبراهيم بن أدهم قال : كنا مع إبراهيم بغزة نحصد ، فقال : يا هارون ؛ تنح بنا عن هٰذا الموسم ، فقلت : لِمَ ؟ قال : بلغني أن بعثاً بعثوا إلىٰ إفريقية ، قال : فقلت : وما عليك من البعث ؟ قال : إن الطريق الذي يأخذون فيه قريب منا ، وأنا لا آمَن أن يأتينا بعضهم فيقول : نأخذ إلىٰ موضع كذا وكذا فندله ، ليس لنا خير من أن نتباعد فلا نراهم ولا يرونا .

وقال علي بن بكار : كان إبراهيم بن أدهم يعمل بفلسطين بأجرة ، فإذا مر به الجيش إلىٰ مصر وهو يستقي الماء ؛ قطع الدلو وألقاه في البئر ؛ لئلا يسقيهم ، وكان يضربون رأسه يسألونه عن الطريق ، وهو يتخارس عليهم ؛ لئلا يدلهم ، قال علي بن بكار : هٰذا هو الورع ، ليس ما أنا وأنت عليه .

وقال أحمد بن داوود : مر جندي بإبراهيم بن أدهم وهو ينطر كرماً ، فقال : ناولني من هٰذا العنب ، فقال : ما أذن لي صاحبه ، قال : فقلب السوط وأمسك بموضع الشيب ، فجعل يقنع رأسه بالسوط ، فطأطأ إبراهيم رأسه ، وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله عز وجل ، قال : فأعجز الرجل عنه .

وعن بعض رفقاء إبراهيم : إن إبراهيم حين عاين العدو ـ وكانوا من وراء البحر ـ رمىٰ نفسه في البحر يسبح نحوهم ومعه رجل آخر ، فلما رأى العدو ذلك ؛ انهزموا .

وعن بقية قال : قلت لبعض أصحاب إبراهيم : أخبرني عن أشد شيء مر بكم منذ صحبته ، قال : نعم ؛ كنا صياماً ، فلما كان عند الإفطار ؛ لم يكن عندنا شيء نفطر عليه ، فقلت له : يا أبا إسحاق ؛ هل لك في خصلة أن نأتي باب الرستن[3] فنكري أنفسنا مع هٰؤلاء

---

(١) الحلية (٧/ ٣٦٩ـ٣٧٨) .

(٢) الحلية (٨/ ٢٦ـ٢٧) .

(٣) الرستن : بلدة علىٰ نهر العاصي ، بين حمص وحماة .

الحصادين ؟ قال : أنت وذاك ، فأتينا باب الرستن ، فجاء رجل ، فاكتراني بدرهم ، قال : فقلت له : ألا تكتري صاحبي ؟ قال : إنه ضعيف لا أريده ، فما زلت به حتى اكتراه بأربعة دوانق ، ونحن صيام ، فلما كان عند المساء ؛ أخذت الأجرة منه ، وأتيت السوق ، واشتريت شيئاً نفطر عليه ، وتصدقت بالباقي ، فلما جئته ؛ قال إبراهيم : أمَّا نحن : فقد استوفينا أجرنا ، فليت شعري أَوَفيناه حقه أم لا ؟ فلما رأيت ذلك ؛ غضبت ، فلما رأىٰ غضبي ؛ قال : لا بأس ، تضمن لي أنَّا وفَّيناه عمله ؟ قلت : لا ، قال : فاذهب فتصدق بهـٰذا الطعام ، فهـٰذا أشد شيء رأيته منذ صحبته .

وعن ضمرة قال : كنا مع إبراهيم بصور في بيته ، قال : وكان يحصد ، وكان سليمان أبو إلياس جالساً على الباب عليه جبة صوف ، فقال له إبراهيم : يا سليمان ؛ ادخل ادخل لا يمر بك إنسان ، فيظن أنك سائل ، فيعطيك شيئاً .

وعن بقية قال : سمعت إبراهيم بن أدهم يقول : عالجت العبادة ، فما وجدت شيئاً أشد علي من نزاع النفس إلى الوطن .

وعن مضاء بن عيسىٰ قال : قال إبراهيم بن أدهم : ما قاسيت فيما تركت من الدنيا أشد علي من إلقاء الكتب .

وقال غير مضاء : قال إبراهيم : ما قاسيت شيئاً فيما تركت أشد عليَّ من مفارقة الأوطان .

وفي رواية أخرىٰ : عن إبراهيم بن بشار قال : ما قاسيت شيئاً أَمَرَّ علي من نفسي ، مرة عليَّ ومرة لي ، وأما هواي : فقد ـ والله ـ استعنت بالله تعالىٰ عليه ، فأعانني ، واستكفيته سوء مغالبته ، فكفاني ، فوالله ؛ ما آسىٰ علىٰ ما أقبل من الدنيا ولا ما أدبر منها .

وقال إبراهيم : ما كانت لي مؤونة قط علىٰ أصحابي ولا علىٰ غيرهم إلا في شيء واحد ، فقيل : يا أبا إسحاق ؛ ما هو ؟ قال : ما كنت أحسن أكري نفسي في الحصاد ، فيحتاج أصحابي أن يكروني ويأخذون لي الأجرة ، فهـٰذه كانت مؤونتي عليهم .

وعن سعيد بن حرب قال : قدم إبراهيم مكة ، فنزل علىٰ عبد العزيز ابن أبي روَّاد ، ومعه جراب من جلد ظبية ، فعلقه علىٰ وتد ، ثم خرج إلى الطواف ، فدخل سفيان الثوري دار عبد العزيز ، فقال : لمن هـٰذا الجراب ؟ قالوا : لأخيك إبراهيم بن أدهم ، فقال سفيان : لعل فيه شيئاً من فاكهة الشام ، قال : فأنزله ، فحلَّه ، فإذا هو محشو بالطين ، فشدَّه ورده

إلىٰ موضعه ، وخرج سفيان ، فرجع إبراهيم ، فأخبره عبد العزيز بفعل سفيان ، فقال : أمَا إنه طعامي منذ شهر .

وعن عطاء بن مسلم قال : ضاعت لإبراهيم بن أدهم نفقة بمكة ، فمكث خمسة عشر يوماً يستفُّ الرمل .

وعن أبي معاوية الأسود قال : رأيت إبراهيم بن أدهم يأكل الطين عشرين يوماً ، ثم قال : يا أبا معاوية ؛ لولا أن أتخوف أن أعين علىٰ نفسي ؛ ما كان لي طعام إلا الطين حتىٰ ألقى الله عز وجل ؛ حتىٰ يصفو لي الحلال من أين هو .

وعن أبي إسحاق الفزاري قال : أخبرني إبراهيم بن أدهم أنه أصابته مجاعة ، فمكث أياماً يبل الرمل بالماء ، فيأكله .

وعن سهل بن إبراهيم قال : صحبت إبراهيم بن أدهم في سفر ، فأنفق عليَّ نفقته كلها ، قال : ثم مرضت ، فاشتهيت شهوة ، فباع حماره واشترىٰ شهوتي وجاءني بها ، فقلت له : يا إبراهيم ؛ أين الحمار ؟ فقال : يا أخي ؛ بعناه ، قال : قلت : يا أخي ؛ فعلىٰ أي شيء أركب ؟ قال : يا أخي ؛ اركب علىٰ عنقي ، فحملني علىٰ عنقه ثلاثة منازل .

وعن أحمد بن الفضل العكي قال : سمعت أبي يقول : مر إبراهيم بن أدهم بقيسارية[١] وقد تعجل[٢] ديناراً من الكرم ، فسمع صوت امرأة تصيح ، فقال : ما لهـٰذه ؟ قالوا : تلد ، قال : وأي شيء يعمل للمرأة ؟ قالوا : يشترىٰ لها طحين وزيت ولحم وعسل وسمن ، فصرف ديناره واشترىٰ زنبيلاً[٣] ، وملأه طحيناً ، واشترىٰ زيتاً وسمناً وعسلاً ولحماً ، وحمله علىٰ رقبته إلىٰ بابهم ، وقال : خذوا ، فنظر فيهم ، فإذا هم أفقر أهل بيت في قيسارية وأعبدهم .

وفي رواية أخرىٰ : قالت المرأة : علىٰ يد مَن جاء هـٰذا ؟ قيل لها : علىٰ يد إبراهيم بن أدهم ، فقالت : اللهم ؛ لا تضيع هـٰذا اليوم لإبراهيم بن أدهم .

وقال علي بن بكار : كنا جلوساً عند الجامع بالمصيصة وفينا إبراهيم بن أدهم ، فقدم رجل من خراسان ، فقال : أيكم إبراهيم بن أدهم ؟ فقال القوم : هـٰذا ، فقال : إن إخوتك

---

(١) **قيسارية** : بلد علىٰ ساحل بحر الشام ، كانت تعد في أعمال فلسطين .
(٢) أي : أخذ من أجرته ديناراً من صاحب البستان .
(٣) **الزنبيل** : القفة .

بعثوني إليك ، فلما سمع ذِكر إخوته ؛ قام فأخذ بيده ونحاه عن القوم ، وقال : ما جاء بك ؟ قال : أنا مملوكك معي فرس وبغلة وعشرة آلاف دينار ، بعثني بها إليك إخوتك ، فقال : إن كنت صادقاً ؛ فأنت حر ، وما معك فلك ، اذهب فلا تخبر أحداً .

وكان إبراهيم يطحن وإحدىٰ رجليه مبسوطة والأخرىٰ قد كفها ، فلا يكف تلك المبسوطة ولا يبسط تلك المكفوفة حتىٰ يفرُغ من مُدٍّ ، فإذا فرغ من مُدٍّ ؛ بسط تلك وكف هـٰذه ، فيطحن مُدّاً آخر .

وعن عيسى بن حازم قال : بينا إبراهيم يحصد حقلاً مزروعاً أخذه جزافاً ؛ إذ وقف عليه رجلان معهما ثقل ووطاء[1] مع كل واحد منهما نفقة ، فقالا له : أنت إبراهيم ؟ قال : نعم ، قالا : إنا مملوكان لأبيك ، ومعنا مال ووطاء ، فقال : ما أدري ما تقولان ، إن كنتما صادقين ؛ فأنتما حُرَّان ، وما معكما لكما ، لا تشغلاني عن عملي .

وعن عيسى بن حازم قال : كان لإبراهيم أخ في الله عز وجل من عسقلان ، اسمه : أزهر ، فسأل عن إبراهيم ، فأُخبر أنه ضعيف في حصن على الساحل ، فأخذ أزهر كساء من صوف ، وجاء به إليه ، وإذا هو علىٰ بارية ليس تحته شيء ، فقال له : يا أبا إسحاق ؛ أحب أن تأخذ هـٰذا الكساء ، فقال : ما تخف علي ، فقال أزهر : لو فعلتَ ذلك ؛ سررتَني ، قال : ضعه ، قال : فوضعته ومضيت سريعاً ؛ مخافة أن يبدو له ، قال عيسىٰ : فجاء إبراهيم إلىٰ أزهر بعد أيام ، ورفع رداءه ، ودس تحته شيئاً ومضىٰ ، قال أزهر : فرفعت ردائي ، فإذا عمامة جديدة ونعل جديد ، فمضيت وهُما معي حتىٰ لحقته ، فقلت : يا أبا إسحق ؛ ما هـٰذا ؟ فقال لي : هـٰكذا أدركت الناس يأخذون ويعطون ، انصرِف بما معك ، فانصرفت .

وعن أحمد ابن أبي الحواري ، حدثني أخي محمد قال : دخل داوود الرملة علىٰ برذونٍ بلا سرج ، فقيل له : أين السرج ؟ فقال : ذهب به سخاء إبراهيم بن أدهم ، كان أهدي إليه طبق تين وعنب ، فأخذ السرج ووضعه على الطبق ، ومرة أخرىٰ أهدي له سلة ، فنزع فروته ، فوضعها على الطبق .

قال روَّاد بن الجراح : رأيت في المنام كأني وإبراهيم بن أدهم اجتمعنا في لحاف ،

---

(١) الوِطاء : ما يقعد عليه .

فغمني ذلك ، فلما كان بعد ذلك ؛ أتاني رجل ، فقال : إبراهيم يقرئك السلام ، ويقول لك : هـٰذا الإزار فالبسه ، فأخذته وذكرت رؤياي .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : قلت لمراون : بِمَ فاق عليكم إبراهيم ؟ قال : بالصدق والسخاء .

وقال أحمد أيضاً : سمعت أبا الوليد صاحب إبراهيم قال : كان إبراهيم إذا بقي في الغرارة[1] من الدقيق شيء قليل ؛ تركه ويعمل بالأجرة .

وقال أبو الوليد : قال رفقاء إبراهيم : تعالَوا نأكل كل الخبز الذي في الجونة ، حتىٰ إذا لم يجد إبراهيم شيئاً ؛ عجل إلينا ليلة أخرىٰ[2] ـ يعني : قبل أن يفنى الخبز ـ وكان عادته يبطىء بعد العشاء الآخرة ، فأكلوا كل شيء في الجونة ، وأطفؤوا السراج ، ورقدوا ، فجاء إبراهيم ، فنظر في الجونة ، فلم يجد فيها خبزاً ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، رقدوا بلا عَشاء ، قال : فقدح وأسرج ، وعجن وخبز لهم سلة ، ثم نبههم ، وقال : اجلسوا اجلسوا ، ما كنتم تعملون لكم عشاء قبل أن ترقدوا ؟! فنظر بعضهم إلىٰ بعض ، فقالوا : انظروا أي شيء أردنا به ، وأي شيء عمل هو .

وعن أبي الوليد قال : ربما جلس إبراهيم بن أدهم من أول الليل إلىٰ آخره يكسر الصنوبر يطعمنا .

وقال أبو الوليد رحمه الله : كان إبراهيم بن أدهم وصاحب له رحمهما الله يطحنان ، وكان في العود الذي يطحن به عقدة ، فوضع يده على العقدة ، وترك الموضع الأملس لصاحبه ، ومد رجله حين طحن ، قال : فما قبضها حتىٰ فرغ من الطحن . [انتهىٰ « الحلية » ٧/٣٧٩ـ٣٨٥] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله لبعض إخوانه بطرسوس : تحب أن تكون لله عز وجل ولياً ويكون لك محباً ؟ قال : نعم ، قال : دع الدنيا والآخرة لله عز وجل ، قال : فماذا أصنع ؟ قال له : أقبل علىٰ ربك عز وجل بقلبك ، واعبده حتىٰ يأتيك اليقين امتثالاً لأمره ونهيه ، وابتغاء مرضاته ؛ يقبل عليك سبحانه وتعالىٰ بوجهه ؛ فإنه بلغني أن الله تبارك وتعالىٰ أوحىٰ إلىٰ يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام : (يا يحيىٰ ؛ إني

---

(١) **الغرارة** : وعاء من خيش يوضع فيه القمح ونحوه .
(٢) أي : جاء مبكراً حتىٰ يأكل معنا .

قضيت علىٰ نفسي ألاَّ يحبني أحد من خلقي أعلمُ ذلك من نفسه ؛ إلا كنت سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، وفؤادَه الذي يعقل به ، فإذا كنت له كذلك ؛ بغَّضت عليه الاشتغال بأحد غيري ، وأدَمْتُ فكرته ، وأسهرت ليله ، وأظمأت نهاره ، أَطَّلِعُ عليه كل يوم سبعين نظرة ، فأرىٰ قلبه مشتغلاً بي ، فيزداد من حبي في قلبه ، ولا يزال كذلك في زيادة حتىٰ أملأ قلبه نوراً وأقربه مني .

يا يحيىٰ ؛ امسح رأسه ، وضع يده علىٰ ألمه ، فإنه لا يشكو إلي ألمه ؛ لأنه مشغول بحبي عن ألمه وأوجاعه ، وإنما يعرف الألم إذا فقدني من قلبه ، فعندها يطلبني كما تطلب الوالدة المشفقة ولدها إذا غاب عنها ، أسمع خفقان فؤاده ، فأقول : ما بال قلبك خافقاً ـ وأنا أعلم به منه ـ فيقول : وعزتك وجلالك حقيق علىٰ قلبي ألاَّ يسكن إذ مننتَ عليه بحبك ، فكيف يسكن قلبه ـ يا يحيىٰ ـ وأنا جليسه وغاية أمنيته ؟ وعزتي وجلالي لأنعتَنَّهُ مَنعتاً تغبطه فيه الخلائق ، ثم آمر منادياً ينادي : هـٰذا حبيب الله عز وجل وصفيُّه ، دعاه الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ زيارته ، فإذا جاءني ؛ رفعت عنه الحجاب ، فنظر إلىٰ وجهي الكريم) قال : فلما ذكر الحجاب ؛ صاح يحيىٰ صيحة عظيمة ، وخر مغشياً عليه ، فلم يفق ثلاثة أيام ، والله أعلم . انتهىٰ .

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : وأُخبِرت عن عبد الله بن أحمد بن سوادة ، أخبرنا أبو سعيد البكَّاءُ أحمد بن محمد ، حدثني جامع بن أعين الفراء قال : وجهني أخي إلىٰ إبراهيم بن أدهم وهو يرعى الخيل في الملون[1] ، وملأ جراباً من السويق والتمر ، وأعطاني لحماً مشوياً ، وقال : امض إلىٰ إبراهيم بن أدهم ، وأقرئه مني السلام ، قال : فجئته بعد العصر ؛ وإذا هو في الغابة ، فنظرت إلىٰ فرسنا وقعدتُ ، حتىٰ خرج إبراهيم عند اصفرار الشمس وعليه عباءة علىٰ كتفيه وجبة صوف ، وهو يُسبِّح ، فقالوا : قد أقبل إبراهيم ، وقد رضضوا له[2] كفاً من شعير وعجنوه بقشوره ، وهيؤوا له منها ثلاثة أقراص ، فقمت ، وسلمت عليه ، وأقرأته سلام أخي ، فقال لهم : أروه فرس أخيه ؛ يفرح ، فقلت : قد رأيته ، ووضعت الجراب بين يديه ، وقلت : فيه هدية أخي لك ، فقال لأصحابه : متىٰ جاء هـٰذا ؟ قالوا : بعد العصر ، قال : فهلا أكلتموه ؟ ثم قال : ابسطوا العباءة ، ونفض الجراب

---

(١) اسم موضع .
(٢) أي : طحنوا له .

عليها ، ثم جعل يقول : ادعوا فلاناً ، ادعوا فلاناً ، ثم قال لهم : كلوا ، وهو قائم يقول لهم : كلوا كلوا ، فقلت لأصحابه : إن أخي يحب أن يأكل إبراهيم من هـٰذا ، فقالوا : إنه ليس يأكل إلا ثلاثة أقراص من شعير بملح جريش ، ثم صلىٰ بنا العتمة ، ثم ما زال راكعاً وساجداً حتى الصبحِ ، ثم صلى الصبح علىٰ وضوء العشاء .

وعن خلف بن تميم : حدثني رفيق لإبراهيم قال : غزا إبراهيم في البحر ، فأتي بثلاثة دنانير سهمه ، فقال للرسول : ضعها علىٰ هـٰذه الحصير ، فوضعها ، ثم قال لبعض أصحابه : خذ هـٰذه الدنانير واذهب بها إلىٰ أبي محمد الخياط ، فقل له يقضي بها دينه ، فأتيته بها ، فأبىٰ أن يقبلها ، وقال : إني قد رحمته من كثرة القمل الذي أكله في ثيابه ، فجئت بها إليه وأخبرته بأنه قد أبىٰ أن يقبلها ، قال : ضعها على الحصير ، وكان هناك شيخ من أصحابه ، فقال : يا أبا إسحاق ؛ لي عيال ، وقال : أنا أحتاج إليها ، قال : خذها ، فأخذها الشيخ .

وقال الفزاري : شيعت إبراهيم وهو متوجه إلىٰ مرعش ، فعرضت عليه نفقة كانت معي ، فقال : ما كنت أحسبك تفعل معي هـٰذا ، ولو فعل هـٰذا غيرك بي ؛ لكان ينبغي لك أن تنهاني عنه ، ثم خلع جبة ، وخلع قميصاً ، ولبس الجبة علىٰ جلده ، وناولني القميص ، وقال : بلِّغ هـٰذا فلاناً ؛ فإنه كان أولانا معروفاً .

وعن عطاء بن مسلم قال : سمعت رجلاً صحب إبراهيم قال : خرجنا إلى الجبل ، فاكترانا قوم يقطعون الخشب يعملون منه القصاع والأقداح ، قال : فحملنا المتاع إلىٰ سوق سلمية ، فنزل إبراهيم القرية ، وحملت أنا المتاع وبعته بثلاثين ديناراً ، فبينا هي في كمي ؛ إذ ذهبَتْ ، فلقيني خصي لأسماء امرأة عبيد الله بن صالح ، فعرفني ، وقال لي : ما تصنع هـٰهنا ؟ فأخبرته ، فقام مسرعاً ، ثم جاءني بمئتي دينار ، وقال : أين إبراهيم ؟ فقلت : في القرية ، قال : انطلق بنا إليه ، فأتيناه ؛ فإذا رأسه في الظل ورجلاه في الشمس ، فجئته فقلت له : إن الدنانير قد ذهبت ، قال : الحمد لله الذي عافانا منها ، فقال الخصي : هـٰذه مئتا دينار بعثت بها إليك أسماء ، فزبره[1] ، ثم رفع رأسه ، وقال : والله ؛ إن لله عز وجل علي نعمة في ذهابها .

وقال أحمد ابن أبي الحواري حدثني بعض أصحابنا قال : أصاب إبراهيمَ بنَ أدهم

---

(١) زبرَه : زجره .

وأصحابه رحمهم الله الثلج بأرض الروم ، فدخل أصحابه الخباء ، وبقي هو خارج الخباء[1] ، فسألوه أن يدخل ، فأبىٰ ، ثم أدخل رأسه في فروة له ، فلما كثر الثلج ؛ نفضه ، فلما أصبحوا وطلعت الشمس ؛ خرجوا من الخباء ، وقالوا له : يا أبا إسحاق ؛ أي ليلة مرت بنا ؟ نسأل الله عز وجل ألاَّ يبتلينا بليلة أخرىٰ مثلها ، فقال إبراهيم : وكيف لنا بليلة أخرىٰ مثلها ؟

وقال أبو قتادة : قدم عليَّ إبراهيم بن أدهم وأبو عثمان المرجي ـ مرج حماد ـ ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي ، وأقاموا عندي أياماً ، ثم قالوا : اطلب لنا قَراحاً[2] نحصده ، فأتيت دهقاناً ، فتقبلت منه قراحاً خمسين جريباً[3] بخمسين درهماً ، فدخلوا إليه يحصدون ، وقعدت عندهم إلى الغروب ، ثم أردت أن أبيت عندهم ، فمنعوني ، فرجعت ، وتركتهم عند القراح ، فلما كان الغد . . غدوت إليهم ؛ وإذا القراح قد حصد ، فجاء الدهقان ، وقال : جودتم العمل جزاكم الله خيراً ، أتتقبلون قراحاً آخر ؟ قالوا : لا ، فدفعوا إلي أربعين درهماً ، وأخذوا عشرة ، والله ؛ أعلم إن كانوا حصدوا بأيديهم سنبلة .

وأُخبِرت عن أبي طالب قال : أخبرنا عبد الله بن محمد بن بكر ، أخبرنا الحسن بن محمد ، عن سالم الخواص قال : مررت علىٰ رصيف أنطاكية في يوم مطير ، فنظرت إنساناً نائماً ، فلما قربت منه . . كشف رأسه ؛ فإذا هو إبراهيم بن أدهم في عباءة ، قال : يا أبا محمد ؛ طلب الملوك شيئاً ففاتهم ، وطلبناه فوجدناه ، ما تجاوز همي كسائي ، رضي الله عنه وأرضاه .

وقال أبو الوليد : غزوت أنا وإبراهيم ومعي فرس وهو علىٰ رجليه ، فأردته أن يركب ، فأبىٰ ، فحلفت ، فركب ، فلما استوىٰ على السرج ؛ قال : قد أبررتُ يمينك ، ثم نزل ، فسرنا في تلك السرية ستة وثلاثين ميلاً وهو علىٰ رجليه ، فلما نزلنا ؛ أتى البحر ، فأنقع رجليه ، ثم استلقىٰ ورفع رجليه على الحائط .

وقال إبراهيم : لقد أدركت أقواماً ما كانوا يحمدون علىٰ ترك هـٰذا الفضول ، وصار اليوم عند أهل هـٰذا الزمان مَن ترك شيئاً من الدنيا ؛ كأنه ترك شيئاً .

وقال علي بن بكار : غزا معنا إبراهيم في غزاتين عظيمتين ، إحداهما غزاة عياش

---

(١) **الخباء** : ما يعمل من وبر أو صوفو وقد يكون من شَعَر ، والجمع : أخبية .
(٢) **القَراح** : المزرعة .
(٣) **الجريب** : مساحة من الأرض تعادل عشرة آلاف متر مربع .

الأنطاكي ، وغزاة أخرىٰ ، فلم يأخذ سهماً ولا نفلاً[(١)] ، وكان لا يأكل من متاع الروم ، ويقول : إني لأعلم أنه مِن أحل شيء يكون ، ولـٰكن الزهد إنما يكون في الحلال ؛ فإن الحرام واجب الترك .

ومات إبراهيم بن أدهم رحمه الله في صائفة السفر بالبطن .

وعن إبراهيم بن بشار : سمعت إبراهيم بن أدهم يقول : ذهب السخاء والكرم والجود والمواساة ، فمَن لم يواس الناس بماله وطعامه وشرابه ؛ فليواسهم ببسط الوجه وحسن الخلق ، ولا تكونوا بكثرة أموالكم تتكبرون علىٰ فقرائكم ، وتميلون عن ضعفائكم ، ولا تنبسطوا إلىٰ مساكينكم .

وقال إبراهيم : قال لقمان لابنه : ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن :

لا يعرف الحليم ؛ إلا عند الغضب ، ولا يعرف الشجاع ؛ إلا في الحرب عند ملاقاة الأقران ، ولا يعرف الإخوان ؛ إلا عند الحاجة إليهم .

وقال خلف بن تميم : كنت أجيء إلىٰ إبراهيم ، فأسلم وأجلس ، فلا يكلمني ، فمللت ، فقلت لأبي إسحاق الفزاري : يا أبا إسحاق ؛ إني أجيء إلىٰ إبراهيم فلا يكلمني ، وقد بلغني أنك تجالسه ، فأوصه أن يكلمني ، فقال أبو إسحاق : وإنك لتأتيه ؟ قال : قلت : نعم ، فقال : إني أنا ومخلد نأتيه فنتعلم من آدابه وأخلاقه ، فامض إليه ، قال : فمضيت إليه وقلت له : إني أحب أن تفطر عندي أنت وأبو إسحاق الفزاري الليلة ، فلما ذكرت أبا إسحاق ؛ أنِس بي ، وقال : نعم ، فانطلقت إلىٰ أبي إسحاق ، وأعلمته ، وقلت له : أحب أنك إذا صليت المغرب أن تأخذ بيد إبراهيم وتجيء به إلى المنزل ، قال : نعم ، ثم انطلقت ودعوت إخواناً لي نحو عشرة ، فجاء إبراهيم وأبو إسحاق الفزاري ، ووضعت جفنة فيها ثريد وعَراق ، فجعل إبراهيم يتعلل ولا يأكل ، فساءني ذلك ، فلما رفعت الجفنة ؛ قلت : يا غلام ؛ هات ذلك الطبق ، فيه زبيب وتين وقَسْب[(٢)] ، فلم يأكل أيضاً ، ثم قاموا ، فأُخبِرت أن إبراهيم لما أتىٰ رفقاءه ؛ وجدهم قد تعشوا وفضل في الجفنة قليل من خل وزيت ، فجعل يأكل ويشرب من الجفنة .

قال خلف : فلما كان بعد مدة طويلة ؛ انبسط معي ، فقلت له : أخبرني ، انطلقتَ من

---

(١) النَّفْل : الغنيمة .

(٢) أي : التمر اليابس .

عندي تلك الليلة ولم تأكل شيئاً ، وأتيت رفقاءك بعد ما تعشوا ، وأخذت الجفنة وفيها بقية من خل وزيت ، فكرعت فيها ، فقال لي : وأنت فأخبرني عنك ، لما دعوتَ أصحابك هلا اشتريت لحماً بدرهمين ؟ وكان اللحم يومئذ خمسة عشر رطلاً أو عشرون رطلاً بدرهم ، فعرفت عذره ، وأن قصده كان إيثار أصحابه ، ثم حكيت هـٰذه الحكاية لجماعة من أصحابي ، ثم قدر أني دعوتهم وأتيتهم بلحم كثير وثريد ، فأكلوا ، ثم قالوا : هـٰذا أدب إبراهيم بن أدهم ؛ فإنه هو الذي أدبك .

وقال إبراهيم بن أدهم : بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (لؤم بالرجل أن يرفع يديه من الطعام قبل أصحابه) .

وفي رواية : صنع إبراهيم طعاماً ودعا إخوانه ، وكان فيهم رجل ، فلما أكل ؛ قال : الحمد لله رب العالمين ، ثم قام ، فقال إبراهيم : لقد أساء في خصلتين ، لقد قام بغير إذن ، ولقد حشم[(١)] أصحابه[(٢)] .

وعن إبراهيم بن بشار قال : سمعت ابن أدهم يقول : خالفتم الله فيما أنذر وحذر ، وعصيتموه فيما نهىٰ وأمر ، وكذبتموه فيما وعد وبشر ، وكفرتموه فيما أنعم وقدر ، وإنما تحصدون ما تزرعون ، وتجنون ما تغرسون ، وتكافؤون بما تفعلون ، وتُجزَون بما تعملون ، فاعملوا إن كنتم تعقلون ، وانتبهوا من وسن[(٣)] رقدتكم لعلكم تفلحون[(٤)] .

وقال مضاء بن عيسىٰ : ما فاق إبراهيم أصحابه بكثرة صوم ولا صلاة ، ولـٰكن بالصدق والسخاء .

وقال إبراهيم بن قديد : بينا أنا جالس عند إبراهيم بن أدهم ؛ إذ دخل عليه رجل ، فقال : أستودعك الله يا إبراهيم ، فقال : أين تريد ؟ فقال : أريد ساحل كذا وكذا ، قال : خذ جرابَ ابنِ قديدٍ اجعل فيه زادك ، قال إبراهيم بن قديد : فقلت له : يا أبا إسحاق ؛ ليس هـٰذا جرابي ، هـٰذا جراب رفيقي ، قال : فأنت تريد أن تصحب من يكون بشيئه أولىٰ منك به ؟!

---

(١) حشم : جعلهم يستحون .
(٢) الحلية : (٧/ ٣٨٥ـ ٣٩١) .
(٣) الوَسَن : النعاس .
(٤) الحلية : (٨/ ٣٥) .

قال ابن قديد : وكنت عنده يوماً جالساً ، فأهديت إليه فاكهة ونحن جماعة في البيت ، فقال : يابن قديد ؛ دعه ، لا آكل أنا ولا أنت شيئاً ، وإنما يأكله أصحابنا ، فأكله أصحابنا ولم نذقه .

وعن أبي يحيىٰ رفيق إبراهيم بن أدهم قال : سألت إبراهيم عن سقف المنزل الذي كنا فيه ، أهو بحجارة ، أم بخشب ؟ فقال : ما أدري ، وسألته عن الجارية التي كانت تخدمنا ، أسوداء هي ، أم بيضاء ؟ فقال : ما أدري .

وعن أبي محمد قال : ورد إبراهيم بن أدهم رحمه الله المصيصة ، فأتىٰ منزل أبي إسحاق الفزاري ، فطلبه ، فلم يجده ، فقال : أعلموه أن أخاه إبراهيم طلبه ، ثم ذهب إلىٰ مرج كذا وكذا يرعىٰ فرسه ، ثم مضىٰ إلىٰ ذلك المرج ، فوجد فيه أناساً يرعَون دوابهم ، فرعىٰ عندهم حتىٰ أمسىٰ ، فلما أمسىٰ ؛ قال له أولـٰئك : ضم فرسك إلىٰ دوابنا ؛ فإن السباع تأتي هـٰهنا ، فأبىٰ وتنحىٰ عنهم ، فأوقدوا النيران حولهم ، ثم عمدوا إلىٰ فرس لهم صَؤُولٍ[1] ، فأتوه به ، وفيه شكالان[2] ، يقودونه بينهم ، فقالوا له : إن في دوابنا رماكاً[3] أو حجوراً ، فاجعل هـٰذا عندك وديعة ، فقال لهم : وما نصنع بهـٰذه الحبال ؟ ثم مسح وجهه وأدخل يده بين فخذيه ، فوقف لا يتحرك ، فعجبوا من ذلك ، ثم قال لهم : اذهبوا ، فجلسوا يرمقون ما يكون منه ومن السباع ، فقام إبراهيم يصلي وهم ينظرون ، فلما كان في بعض الليل ؛ أتته أُسد ثلاثة ، يتلو بعضها بعضاً ، فتقدم الأول ، فشمه ودار به ، ثم تنحىٰ ناحية فربض ، وفعل الثاني والثالث كذلك ، ولم يزل إبراهيم يصلي ليلته تلك ، فلما كان من السحر ؛ قال للأُسدِ : ما جاء بكم ؟ أتريدون أن تأكلوني ؟ امضوا ، فقامت الأُسدُ فذهبت ، فلما كان الغد ؛ جاء الفزاري إلىٰ أولـٰئك ، فسألهم ، فقال : هل جاءكم رجل ؟ قالوا : نعم ، وأخبروه بالقصة ، فقال لهم : هـٰذا إبراهيم بن أدهم ، ثم جاء الفزاري إليه ، فمرَّا برجل عنده مقود[4] ، فقال إبراهيم للفزاري : تريد هـٰذا المقود ؟ فاشتراه الفزاري بأربعة دوانق ، فقال إبراهيم : أنا كنت دفعت إليه درهماً ودانقين ، فهـٰذه الأربعة دوانق في دِين من هو ؟!

وعن أبي خالد يزيد بن سفيان : أن إبراهيم بن أدهم كان قاعداً في مشرفة بدمشق ؛ إذ مر

---

(١) **الصؤول** : الهائج ، يصول على الناس .
(٢) **الشِّكال** : العقال .
(٣) **رماكاً** : جمع رمكة ، وهي : الفرس والبرذونة التي تُتَخَذُ للنسل .
(٤) **المِقوَدُ** : الحبل الذي يشد في اللجام ليقاد به البعير .

به رجل علىٰ بغلة ، فنزل ، وقال : يا أبا إسحاق ؛ إن لي إليك حاجةً أحب أن تقضيها ، فقال إبراهيم : إن أمكنني ؛ قضيتها ، وإلا ؛ أخبرتك بعذري ، فقال له : إن برد الشام شديد ، وإني أريد أن أبدل ثوبين جديدين ، فقال : إن كنت علىٰ شرطي ؛ قبلت منك ، قال : وما شرطك ؟ قال : إني لا أقبل إلا من غني ، فقال الرجل : أنا ـ والله ـ كثير المال كثير الضِّياع ، فقال : إبراهيم : فما بالك تغدو وتروح علىٰ بغلتك ؟ فقال : أعطي هـٰذا ، وآخذ من هـٰذا ، وأستوفي من هـٰذا ، قال : تبغي الزيادة ؟ قال : نعم ، قال : قم عني ؛ فإنك فقير ، فلست علىٰ شرطي ، ولم يقبل منه شيئاً .

وعن إبراهيم : أنه مر بغلام معه تين في سلة ، فقال : أعطنا بدانق من هـٰذا التين ، فأبىٰ عليه ، فمضىٰ إبراهيم ، ونظر رجل إلىٰ صاحب التين ، فقال له : أيش قال لك هـٰذا الرجل ؟ فقال : قال لي : أعطني من هـٰذا التين بدانق ، فقال : الحقه ، فادفع إليه ما يريد ، وخذ مني الثمن ، فلحقه ، فقال : يا عم ؛ خذ من هـٰذا التين ما تريد ، قال إبراهيم : لا يبتاع التين بالدِّين .

وعن أبي الوليد صاحب إبراهيم قال : كان إبراهيم وأصحابه يمنعون أنفسهم أربعاً : لذة الماء ، والحمامات ، والحذاء ، ولا يجعلون في الملح أبزاراً(١) .

وعن خلف بن تميم قال : كان إبراهيم بن أدهم في البحر ، فعصفت الريح واشتدت ، وإبراهيم ملفوف في كسائه ، فجعل أهل السفينة ينظرون إليه ، فقال له رجل منهم : يا هـٰذا ؛ ما ترىٰ ما نحن فيه من هـٰذا الهول وأنت نائم في كسائك ؟! قال : فكشف إبراهيم رأسه ، فأخرجه من الكساء ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، فقال : اللهم ؛ قد أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك ، قال : فسكن البحر حتىٰ صار كالدهن .

وقال عدي الصياد من [أهل] جبلة : سمعت يزيد بن قيس يحلف بالله أنه كان ينظر إلىٰ إبراهيم وهو علىٰ شط البحر وقت الإفطار ، فيرىٰ مائدة توضع بين يديه لا يدري مَن وضعها ، ثم يراه يقوم وينصرف حتىٰ يدخل جبلة وما معه شيء .

وقال عبد الصمد بن الفضل : سمعت مكي بن إبراهيم يقول : كان إبراهيم بن أدهم بمكة ، فَسُئِل عن ما يبلغ المؤمن من كرامة الله عز وجل ، فقال : يبلغ من كرامته على الله

---

(١) الحلية (٧/ ٣٩١ـ ٣٩٤) ، والأبزار : التوابل .

سبحانه وتعالىٰ أن لو قال للجبل تحرك ؛ لتحرك ، فتحرك الجبل ، فقال : ما إياك عنيت ، وضربه برجله ، وقال له : اسكن ؛ إنما ضربتك مثلاً لأصحابي .

وعن خلف بن تميم قال : كنا مع إبراهيم بن أدهم في سفر ، فأتاه الناس ، وقالوا : إن الأسد قد وقف علىٰ طريقنا ، قال : فأتاه ، وقال له : يا أبا الحارث ؛ إن كنت أُمرت فينا بشيء ؛ فامض لما أمرت به ، وإلا ؛ فتنح عن طريقنا ، قال : فمضى الأسد وهو يهمهم[1] ، فقال لنا إبراهيم : وما علىٰ أحدكم إذا أصبح وإذا أمسىٰ أن يقول : **اللهم ؛ احرسنا بعينك التي لا تنام ، واحفظنا بركنك الذي لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، ولا نهلك وأنت الرجاء** ، قال إبراهيم : إني لأقولها علىٰ ثيابي ونفقتي ، فما فقدت منها شيئاً قط .

زاد في رواية أخرىٰ : ولا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا .

وقال أبو زكرياء[2] : كنا مع إبراهيم بن أدهم في سفينة في غزاة في البحر ، فعصفت الريح ، وأشرف القوم على الغرق ، فخافوا ، ثم سمعوا هاتفاً يهتف في البحر بأعلىٰ صوته : **أتخافون وفيكم إبراهيم ؟!**

وقال عيسى بن حازم : كان إبراهيم بن أدهم إذا غزا ؛ اشترط علىٰ أصحابه الخدمة والأذان ، فحضرت غزاة ، فقال في نفسه : أستقرض من فلان ، قد لا يخف عليه ، حتىٰ عد جماعة ، ثم خر ساجداً ، وصبت دموعه علىٰ خديه ، وقال : واسوأتاه منك يا مولاي ، طلبت من العبيد ، وتركت الطلب من مولى العبيد سبحانه وتعالىٰ ، ثم تقدم وصلىٰ ركعتين ، وقال : اللهم ؛ إنك تعلم ما كان وقع في نفسي وكان ذلك من خطئي وجهلي ، فإن عاقبتني ؛ فببعض ما أستحق ، وإن عفوت ؛ فأنت أهل التقوىٰ ، وأهل المغفرة ، وولي الخيرات في الدنيا والآخرة ، ثم نظر عن يمينه ، فإذا دنانير نحو أربع مئة دينار ، فأخذ منها ديناراً ، ثم راح إلى الغزاة مع أصحابه .

وقال أبو مهلهل سعيد بن صدقة ـ وكان يقال : إنه من الأبدال ـ : جاء إبراهيم بن أدهم إلىٰ قوم قد ركبوا سفينة للغَزاة ، فأراد الغَزاةَ معهم ، فقال له صاحب السفينة : هات دينارين ، قال : أعطيك إن شاء الله تعالىٰ ، فركب ، فلما وصلوا إلىٰ جزيرة ؛ طالبه ،

---

(١) يهمهم : يردد الزئير في صدره .

(٢) في نسخة : (رجاء) .

فقال : نعم ، ثم قام ، فخرج إلى الجزيرة ، وصلىٰ ركعتين والرجل ينظر إليه من حيث لا يشعر ، ثم قال : يا رب ؛ إن هـٰذا قد طلب حقه ، وأنت أعلم ، فأسألك أن تعطيه عني ، ثم رفع رأسه ؛ فإذا جميع ما حوله دنانير ، وإذا الرجل واقف ، فقال : جئتَ إلىٰ هُنا ؟ خذ حقك ولا تزد عليه ، ولا تذكر هـٰذا لأحد ، فلما مضوا ؛ أصابتهم عَجَاجة[1] ، فقال الملاح : يا سيدي إبراهيم ؛ ما ترىٰ ما نحن فيه ؟ ادع الله عز وجل لنا ، فأرخىٰ عينيه ودعا ، فسكن وزال ، ثم ساروا .

وقال الحسن بن عبد العزيز الفزاري : قدم علينا ابن أدهم من مرعش ، فقرع الباب ، فقال أبي : انظر مَن هـٰذا ، فخرجت ؛ فإذا رجلٌ آدم[2] ، عليه عباءة ، ففزعت منه ، ثم دخلت ، وقلت : يا أبتاه ؛ رجل لا أعرفه ، فخرج أبي واعتنقه ، ثم دخلا ، ووقفت بين أيديهما ، فقال له أبي : يا أبا إسحاق ؛ إن ابني هـٰذا بليد في حفظ القرآن ، فادع الله تعالىٰ له أن يرزقه حفظه ، وأن يرزقه رزقاً حلالاً ، فأخذني وأقعدني في حجره ومسح علىٰ رأسي ، ثم قال : اللهم ؛ علمه كتابك ، وارزقه رزقاً حلالاً ، فعلَّمني الله عز وجل القرآن ، ورُزقت رزقاً حلالاً كثيراً طيباً .

ورأىٰ إبراهيم بن أدهم بصور سنة ست وثمانين ومئة[3] كأن الجنة فتحت ؛ فإذا فيها مدينتان ، إحداهما : من ياقوتة بيضاء ، والأخرىٰ : من ياقوتة حمراء ، فقيل له : اسكن أَيَّتما شئت ؛ فإنك تراهما في الدنيا كما رأيتهما في الجنة ، فلما أصبح ؛ ركب في طلبهما ، فرأىٰ رباطات خراسان ، فقال : ما أراهما ، ثم جاء إلىٰ قزوين ، ثم ذهب إلى المصيصة والثغور ، حتىٰ أتى الساحل في ناحية صور ، فلما صار بالنواقير ـ وهي نواقير نقرها سليمان عليه الصلاة والسلام علىٰ جبل على البحر ـ فلما صعد عليها ؛ رأىٰ صور ، فقال : هـٰذه إحدى المدينتين ، فأقام بها ، وكان يغزو ، فإذا رجع ؛ نزل يَمنة المسجد ، ثم غزا غزوة ، فمات في الجزيرة ، فحمل إلىٰ صور ، ودفن في موضع يقال له : مدفلة ، وكان إذا دعي إلىٰ طعام ؛ أكل ولم يقل إني صائم .

---

(١) **العَجَاج** : الدخان ، والمراد : أنه أصابتهم عاصفة في البحر .

(٢) **آدم** : شديد السُّمْرة .

(٣) هـٰذه العبارة مضطربة في النسخ بذكر التاريخ وذلك لأن إبراهيم بن أدهم توفي سنة إحدىٰ وستين مئة هجرية ، والتاريخ المذكور بعده ، وصواب العبارة من الحلية (٨/٩) : (. . . حدثنا فرج مولىٰ إبراهيم بن أدهم بصور سنة ست وثمانين ومئة ، وكان أسود ، قال : كان إبراهيم بن أدهم رأىٰ في المنام . . .)

وكان يقول :

نـرقِّـع دنيـانـا بتمـزيـق ديننـا ... فـلا دينُنـا يبقـىٰ ولا مـا نـرقِّـعُ

وكان إبراهيم بن أدهم إذا رأيته كأنه أعرابي لا يشبع من الخبز اليابس والماء ، إنما هو جلد علىٰ عظم ، لا تراه مجالساً أحداً ولا محدثه ، حتىٰ يأتي منزله ، فيجلس إليه إخوانه ، فيضاحكهم ويباسطهم .

وكان يقول : يا نفس ؛ إياك والغرة بالله عز وجل ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ ، وكان كثيراً ما يتمثل بهـٰذه الأبيات :

لَمَا تُوعِد الدنيا به من شرورها ... يكون بكاء الطفل ساعةَ يوضَعُ

وإلا فمـا يبكيـه منهـا وإنهـا ... لأَرْوَحُ ممـا كـان فيـه وأوسـعُ

إذا أبصـر الـدنيـا استهـل كـأنمـا ... يرىٰ ما سيَلقىٰ من أذاها ويسمعُ

وعن إبراهيم بن بشار قال : وقف رجل صوفي علىٰ إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، فقال : يا أبا إسحاق ؛ لِمَ حُجبتِ القلوب عن الله سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : لأنها أحبت ما أبغض الله سبحانه وتعالىٰ ، أحبت الدنيا ومالت إليها ، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد ، لا يزول نعيمها ولا ينفد .

وعن أحمد بن يحيىٰ : أن إبراهيم بن أدهم قال : إن الصائم القائم المصلي الحاج المعتمر الغازي ؛ مَن أغنىٰ نفسه عن الناس .

وقال : المسألة مسألتان : مسألة علىٰ أبواب الناس ، ومسألة يقول [الرجل] : ألزم المسجد ، وأصلي وأصوم وأعبد الله عز وجل ، فمن جاءني بشيء ؛ قبلته ، فهـٰذه شر المسألتين ، وهـٰذا قد ألحف[1] في المسألة .

وقال إبراهيم بن أدهم : نظرت إلىٰ قاتل خالي بمكة ، قتله وهو ساجد ، قال : فوجس في قلبي عليه شيء ، فلم أزل أدافع قلبي إلىٰ أن أجاب أني إن لقيته ؛ سلمت عليه ، فوجدته ، فسلمت عليه ، وأهديت له شيئاً ، فسلَّىٰ ذلك عن قلبي .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : من أراد الآخرة ؛ كان الناس منه في راحة ؛ فإنه لا يجزع من ذلها ، ولا ينافسهم في عزها ، هو في نفسه في شغل شاغل عما الناس فيه ،

---

(١) ألحف السائل : ألحَّ في المسألة وهو مستغنٍ عنها .

والناس منه في راحة ، فاتق الله عز وجل وعليك بالسداد ؛ فإن من مضىٰ إنما قدِموا علىٰ أعمالهم ولم يقدموا على الشرف والرئاسة ، نسأل الله تعالى العافية .

وقال شريك : سألت إبراهيم بن أدهم عما كان بين أمير المؤمنين علي وبين معاوية ، فبكىٰ ، فندمت علىٰ سؤالي إياه ، ثم رفع رأسه إلي ، وقال : إنه من عرف نفسه ؛ اشتغل بنفسه عن غيره ، ومن عرف ربه ؛ شغل بربه عز وجل عن غيره .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : الفقر مخزون عند الله عز وجل في السماء بعدل الشهادة ، لا يعطيه الله عز وجل إلا لمن أحب .

وعن شقيق بن إبراهيم : مر إبراهيم بن أدهم في أسواق البصرة ، فاجتمع إليه الناس ، فقالوا له : يا أبا إسحاق ؛ إن الله تعالىٰ يقول في كتابه : ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ ، ونحن ندعوه منذ دهر فلا يستجيب لنا ، قال : فقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : يا أهل البصرة ؛ قد ماتت القلوب في عشرة أشياء :

- عرفتم الله عز وجل ؛ ولم تؤدوا حقه سبحانه وتعالىٰ .
- وقرأتم كتاب الله عز وجل ؛ ولم تعملوا به .
- وادعيتم حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وتركتم سنته .
- وادعيتم عداوة الشيطان ؛ ووافقتموه .
- وقلتم : نحب الجنة ؛ ولم تعملوا لها .
- وقلتم : نخاف النار ؛ وأنتم قد رهنتم أنفسكم بها .
- وقلتم : إن الموت حق ؛ ولم تستعدوا له .
- واشتغلتم بعيوب الناس ؛ وتركتم عيوبكم .
- وأكلتم نعمة ربكم عز وجل ؛ ولم تشكروها .
- ودفنتم موتاكم ؛ ولم تعتبروا بهم .

وسئل : بم يتم الورع ؟ قال : بتسوية جميع الناس في قلبك ، واشتغالك عن عيوبهم بذنبك ، وعليك باللفظ الجميل ، من قلب ذليل ، للرب الجليل سبحانه وتعالىٰ ، وفكر في ذنبك ، وتب إلى الله عز وجل منه ، يَنبُتِ الورع في قلبك ، واحسم الطمع من كل أحد إلا من ربك سبحانه وتعالىٰ .

وقيل له : إن فلاناً يتعلم النحو ، فقال : هو إلىٰ تعلم الصمت أحوج .

وقال : يا ابن بشار ؛ مثِّل لقلبك حضور ملك الموت عليه الصلاة والسلام وأعوانه لقبض روحك ، فانظر كيف تكون ، ومثِّل له هول المطلع ومساءلة منكر ونكير عليهما الصلاة والسلام ، فانظر كيف تكون ، ومثِّل له القيامة وأهوالها وأفزاعها والعرض والحساب والوقوف ، فانظر كيف تكون ، ثم صرخ صرخة ، ووقع مغشياً عليه .

وقال : حبُّ لقاء الناس من حب الدنيا ، وتركهم ترك للدنيا ، ولم يصدق الله تعالىٰ في أعماله من أحبَّ الشهرة .

وقال بقية بن الوليد : قال لي إبراهيم : يا بقية ؛ كن ذنَباً ولا تكن رأساً ؛ فإن الذنَب ينجو والرأس يهلك ، فقلت له : لِمَ لا تتزوج ؟ فقال : ما تقول في رجل عرَّى امرأة وجوَّعها ؟ قلت : ما ينبغي هٰذا ، قال : فأتزوج امرأة تطلب ما يطلب النساء ، ولا حاجة لي في النساء ؟! قال : فجعلت أثني عليه ، فقال : مه ، ألك عيال ؟ قلت : نعم ، قال : لعل روعة تروعك عيالُك بها أفضل مما أنا فيه .

وقال بقية بن الوليد : مررت مع إبراهيم ، فانتهىٰ إلىٰ موضع فيه ماء وحشيش ، فقال لرفيقه : أمعك في المِخْلاة[1] شيء ؟ قال : نعم ، فنثرها عن كسر يابسة ، فجعل إبراهيم رحمه الله يأكل ، ثم شرب ماء ، ثم تمدد في كسائه ، وقال : ما أغفلَ أهلَ الدنيا عنا ، ما في الدنيا أنعمَ عيشاً منا ، لا أهتم لشيء من أمر الدنيا إلا لأمر المسلمين .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : إذا بات الملوك على اختيارهم ؛ فبِتْ على اختيار الله عز وجل لك وارض به .

وقال : كثرة النظر إلى الباطل . . تَذهَب بمعرفة الحق من القلب .

وعن مخلد بن الحسين رحمه الله قال : ما انتبهت من الليل قط ؛ إلا وجدت إبراهيم بن أدهم رحمه الله يذكر الله عز وجل ، فأَغتمُّ ، ثم أتعزىٰ بهٰذه الآية : ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ .

وصلىٰ إبراهيم بن أدهم رحمه الله خمس عشرة صلاة بوضوء واحد .

وقال خلف بن تميم : رأىٰ محمد بن عجلان إبراهيم بن أدهم ، فحين رآه ؛ استقبل

(١) **المِخْلاة** : شبه كيس يجعل فيه الطعام ونحوه .

القبلة وسجد ، وقال : أتدري لم سجدت ؟ إنما سجدت شكراً لله عز وجل علىٰ رؤية إبراهيم بن أدهم .

وقال محمد بن عجلان : المؤمن يحب المؤمن حيث كان .

وقال إبراهيم بن أدهم : وجدت في بعض الكتب : من أصبح حزيناً على الدنيا ؛ فقد أصبح ساخطاً على الله سبحانه وتعالىٰ ، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به ؛ فإنما يشكو ربه عز وجل ، وأيُّما فقير جلس إلىٰ غني فتضعضع له لدنياه ؛ ذهب ثلثا دِينه .

وقال : لولا ثلاث ؛ ما باليت أن أكون يعسوباً(١) : ظمأ الهواجر ، وطول ليل الشتاء ، والتهجد بكتاب الله عز وجل .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : كنت ماراً في بعض المدن ، فرأيت نفسين من الزهاد السائحين في الأرض ، فقال أحدهما للآخر : يا أخي ؛ ما ورث أهل المحبة من محبوبهم ؟ قال : ورثوا النظر بنور الله سبحانه وتعالىٰ ، والتعطف علىٰ أهل معاصي الله تعالىٰ ، قال : فقال له الآخر : كيف تَعطِف علىٰ قوم قد خالفوا أمر مالكهم سبحانه وتعالىٰ ؟ فنظر إليه الآخر ، ثم قال له : مَقَتَ أعمالهم وعطَّف عليهم القلوب ؛ ليربيهم بالمواعظ عن أفعالهم ، وأشفق علىٰ أبدانهم من النار ؛ فإن المؤمن لا يكمل إيمانه حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ثم غابوا ، فلم أرهم .

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله تعالىٰ : إني أحب أن أسلك طريق إبراهيم بن أدهم ، فقال له بشر : إنك لا تقوىٰ علىٰ ذلك ، فقال : ولِمَ ؟ قال له : لأن إبراهيم عمل ولم يقل ، وأنت قلت ولم تعمل .

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم : قصدتك يا أبا إسحاق من خراسان لأصحبك ، فقال له إبراهيم رحمه الله : علىٰ أن أكون بمالِكَ أحق به منك ، قال : لا ، قال إبراهيم : قد صدقتني ، فنعم الصاحب أنت .

وقال ابن مهدي : لقي سفيان الثوري إبراهيم بن أدهم ، فتسامرا ليلتهما حتىٰ أصبحا .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : أطب مطعمك ولا عليك ألاَّ تقوم بالليل ولا تصوم بالنهار .

---

(١) اليعسوب : السيد والرئيس ، يقال : هو يعسوب قومه وكبيرهم ومقدَّمُهم .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : **نعم القوم السُّؤَّال ؛ يحملون زادنا إلى الآخرة** .

زاد في رواية : يجيء أحدهم إلىٰ بابك ، فيقول لك : هل توجهون بشيء إلى الآخرة .

وكان عامة دعائه : اللهم ؛ انقلني من ذل معصيتك إلىٰ عز طاعتك .

وقيل له : إن اللحم قد غلا ، فقال : أرخصوه بالترك .

وقال : ما بالُنا نشكو فقرنا إلىٰ مثلنا ، ولا نطلب كشفه من ربنا سبحانه وتعالىٰ ، ثكلته أمه عبد أحب عبداً لدنياه ، ونسي ما في خزائن مولاه .

وقال إبراهيم بن بشار رحمه الله : كنت ماراً مع إبراهيم بن أدهم في صحراء ، فأتينا علىٰ قبر مُسَنَّمٍ ، فترحم عليه ، وبكىٰ ، فقلت له : قبر مَن هـٰذا ؟ فقال : هـٰذا قبر حميد بن جابر أمير هـٰذه المدن كلها ، كان غارقاً في بحار الدنيا ، ثم أخرجه الله تعالىٰ منها واستنقذه ، ولقد بلغني أنه سُرَّ ذات يوم بشيء من ملاهي ملكه ودنياه ، ثم نام في مجلسه ذلك مع من يخصه من أهله ، فرأىٰ رجلاً واقفاً علىٰ رأسه ، بيده كتاب ، فناوله ، ففتحه ؛ فإذا هو مكتوب بالذهب : لا تؤثِرَنَّ فانياً علىٰ باقٍ ، ولا تغترَّنَّ بملكك وقدرتك وسلطانك وخدمك وعبيدك ولذاتك وشهواتك ؛ فإن الذي أنت فيه جسيم لولا أنه عديم ، وهو مُلْك لولا أن بعده هُلْك ، وهو فرح وسرور لولا أنه لهو وغرور ، فسارع إلىٰ أمر الله تعالىٰ ؛ فإن الله تبارك وتعالىٰ يقول : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، قال : فانتبه فزعاً مرعوباً ، وقال : هـٰذا تنبيه من الله عز وجل وموعظة ، فخرج من ملكه لا يُعلم به ، وقصد هـٰذا الجبل ، وتعبَّد فيه ، فلما بلغني أمره ؛ قصدته وسألته عن أمره ، فحدثني ببدء أمره ، وحدثته ببدء أمري ، ثم ما زلت أقصده حتىٰ مات ودفن هـٰهنا ، فهـٰذا قبره رحمه الله تعالىٰ .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : أقلوا معرفتكم من الناس ، ولا تعرَّفوا إلىٰ من لم تعرفوا ، وأنكروا من عرفتم .

وكان يقول : اهربوا من الناس هَرَبَكم من السبع الضاري ، ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : لا تجعل بينك وبين الله عز وجل عليك منعماً ، وعُدَّ نعمةً مِن غيره مغرماً .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله لرجل : ما ترىٰ غاية العابدين من الله عز وجل في

أنفسهم ؟ فقال : أظن سكنى الجنة ، فقال إبراهيم : لقد ظننت ظناً والله إني لأرىٰ أن أكبر الأمر عندهم ألاَّ يعرض بوجهه الكريم سبحانه وتعالىٰ عنهم .

وقال لرجل : تريد تدعو ؟ كُلِ الحلالَ وادع ؛ يُستَجَبْ لك .

ورأىٰ إبراهيم بن أدهم رحمه الله في منامه كأن ملكاً نزل من السماء ، فقال له : لِمَ نزلت ؟ فقال : لأكتب أسماء المحبين ؛ مثل : مالك بن دينار ، وثابت البناني ، وأيوب السختياني ، وعَدَّ جماعة ، فقال له إبراهيم : هل أنا منهم ؟ قال : لا ، فقلت له : إذا كتبتهم ؛ فاكتب تحتهم محب المحبين ، قال : فقال لي الملَك : إن الله عز وجل قد أمرني في هـٰذه الساعة أن أكتبك في أولهم ، ثم انتبهت .

وقال إبراهيم بن أدهم : قلة الحرص والطمع ؛ تورث الصدق والورع ، وكثرة الحرص والطمع ؛ تُكثِر الغم والجزع .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ، قال : السابق مضروب بسوط المحبة ، مقتول بسيف الشوق ، مضطجع علىٰ باب الكرامة ، والمقتصد مضروب بسوط الندامة ، مقتول بسيف الحسرة ، مضطجع علىٰ باب العفو ، والظالم لنفسه مضروب بسوط الغفلة ، مقتول بسيف الأمل ، مضطجع علىٰ باب العقوبة .

وقال إبراهيم لشقيق البَلخي حين اجتمعا في الطواف : كيف حال أصحابك ؟ قال : إن رُزقوا ؛ أكلوا ، وإن مُنعوا ؛ صبروا ، فقال إبراهيم له : هـٰكذا عندنا كلاب بلخ ، إن رزقوا ؛ أكلوا ، وإن منعوا ؛ صبزوا ، فقال له شقيق : يا أبا إسحاق ؛ فكيف حال أصحابكم ؟ قال : إن رزقوا ؛ آثروا ، وإن منعوا ؛ حمدوا وشكروا ، فقام شقيق ، وجلس بين يديهِ ، وقال : يا أستاذ الأستاذين .

وقال حذيفة المرعشي رحمه الله تعالىٰ : صحبت إبراهيم في طريق الكوفة ، فكان يمشي ويدرس ويصلي عند كل ميل ركعتين ، فبقينا بالبادية حتىٰ بليت ثيابنا ، فدخلنا الكوفة وأوينا إلىٰ مسجد خراب ، فنظر إليَّ إبراهيم ، وقال : يا حذيفة ؛ أرىٰ بك الجوع ، فقلت : هو ما رأى الشيخ ، فقال : عليَّ بدواة وقرطاس ، فجئته بهما ، فكتب : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، أنت المقصود بكل حالٍ ، والمشار إليه بكل معنىٰ ، ثم كتب أبياتاً منها :

[أنا حاضر أنا ذاكر أنا شاكر ... أنا جائع أنا حاسر أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين بنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا باري

مدحي لغيرك لفح نار خضتها فأجر فديتك من دخول النار]

ودفع إلي الرقعة ، وقال : اخرج ولا تعلّق سرَّك بغير الله تعالىٰ ، وأعطها أول من تلقىٰ ، فخرجت ، فاستقبلني رجل علىٰ بغلة ، فأعطيته الرقعة ، فقرأها وبكىٰ ، فقال : أين صاحب هٰذه الرقعة ؟ فقلت : في المسجد الفلاني ، فأخرج من كمه صرة فيها دنانير وأعطاني ، فسألت عنه ، فقيل : إنه نصراني ، فرجعت إلىٰ إبراهيم وأخبرته ، فقال : الساعة يجيء ، فما كان بأسرع من أن وافى النصراني ، فأكب علىٰ يد إبراهيم ، وأسلم ، وحسن إسلامه .

وقال إبراهيم بن بشار : ما رأيت أحداً يُبغِض الدنيا والنظر إليها مثل إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، ربما مررنا علىٰ قوم قد هدموا حائطاً ، فيحول وجهه ولا يملأ عينيه من النظر إليه ، ويقول : يابن بشار ؛ لا تنظر إليه ، ألم تسمع قول الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ؟ ولم يقل : لنبلوكم أيكم أحسن عمارة للدنيا وأكثر مالاً وذخراً وجمعاً لها ، ثم يبكي .

وكان يقول : قد رضينا من أعمالنا بالمعاني ، ومِن طلبِ التوبة بالتواني ، ومِن العيش الباقي بالعيش الفاني .

وكان يقول : ينبغي للعبد أن يزن نفسه قبل أن يوزن ، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، ويتزين ويتهيأ للعرض الأكبر على الله سبحانه وتعالىٰ .

وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : لِمَ لا تكتب العلم ؟ فقال : قد شغلني ثلاث : شكر النعمة ، وخوف العاقبة ، والعمل لما بعد الموت .

روىٰ إبراهيم بن أدهم عن جماعة من التابعين وتابعي التابعين مسنِداً ومرسِلاً .

فمما رواه بإسناده إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الفتنة تجيء فتنسف العباد نسفاً ، وينجو العالم منها بعلمه »(١) .

وبإسناده قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ؛ ما تفسير حسن الخلق ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسن الخلق : أن تكون راضياً إن أَصبت من الدنيا وإن لم تُصِب »(٢) حديث غريب .

---

(١) أخرجه بنحوه القضاعي (٢/ ١٣٩) .
(٢) أخرجه بنحوه الديلمي (١/ ٣٤٣) .

وعن إبراهيم بن أدهم ، عن أيوب ، عن حميد بن هلال ، عن أبي بردة قال : أخرجت إلينا عائشة رضي الله عنها كساءً ملبداً وإزاراً غليظاً ، وقالت : في هـٰذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم[(1)] .

وعنه عن إبراهيم الصائغ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك زينة الدنيا ، ووضع ثياباً خشنة تواضعاً لله عز وجل ، وابتغاء وجهه ؛ كان حقاً على الله تعالىٰ أن يكسُوَه من عبقري الجنة في تخات الياقوت »[(2)] .

وعنه عن مقاتل بن حيان ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة ، والصلاة في مسجدي هـٰذا بعشرة آلاف صلاة ، والصلاة في مسجد الرباطات بألف صلاة »[(3)] غريب لم نكتبه إلا من حديث عبد الرحيم عن داوود .

وبإسناده إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن يسير المؤونة »[(4)] غريب .

وعنه عن محمد بن عجلان ، عن علي بن الحسين ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلىٰ عليَّ يوم الجمعة مئة مرة ؛ جاء يوم القيامة ومعه نور ، لو قسم ذلك النور بين الخلق كلهم ؛ لوسعهم »[(5)] غريب من حديث إبراهيم وابن عجلان .

وبإسناده إلىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من ترك اللباس وهو قادر عليه تواضعاً لله عز وجل ؛ دعاه الله عز وجل علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة ، حتىٰ يخيره من حلل الإيمان يلبس من أيها شاء »[(6)] .

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٩٤١) .
(٢) **العبقري** : نسبة إلىٰ عَبْقر ، وهو صيغة لكل ما بولغ في وصفه ، والمراد هنا : الدِّيباج ، **التخات** : أمكنة مرتفعة للنوم أو الجلوس .
(٣) أخرجه بنحوه البخاري (١١٣٣) ، ومسلم (١٣٩٤) .
(٤) أخرجه بنحوه القضاعي (١/ ١٠٧) ، والديلمي (٤/ ١٧٩) ، **والمؤونة** : القوت .
(٥) أخرجه بنحوه مسلم (٣٨٤) .
(٦) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٨٠) .

وبإسناده إلىٰ عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غشيتكم السكرتان : سكرة حب العيش ، وحب الجهل ، فعند ذلك لا تأمرون بالمعروف ولا تنهَون عن المنكر ، والقائمون بالكتاب والسنة كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار »[1] غريب .

زاد في رواية أخرىٰ : « القائمون بالكتاب والسنة لهم أجر خمسين صدِّيقاً » قالوا : يا رسول الله ؛ منا ، أو منهم ؟ قال : « بل منكم »[2] .

وبإسناده إلىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا استقر أهل الجنة في الجنة ؛ اشتاق الإخوان إلى الإخوان ، فيسير سرير ذا إلىٰ سرير ذا ، فيلتقيان يتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا ، ويقول : يا أخي ؛ تذكر يوم كذا في دار الدنيا ، كنا في مجلس كذا ، فدعونا الله تعالىٰ فغفر لنا »[3] .

وبإسناده إلىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من علمائهم وكبرائهم وذوي أسنانهم ، فإذا أتاهم العلم من صغارهم وسفهائهم ؛ فقد هلكوا) .

وقال عيسى بن حازم : دخل إبراهيم بن أدهم وسفيان الثوري بيت المقدس ، فلما صلوا في المسجد وصاروا في الصحن[4] ؛ انحرف سفيان يريد الصخرة ، فقال إبراهيم : يا أبا عبد الله ؛ ارجع ؛ فإنك قد ابتليت وصرت لنا إماماً ، فيراك الناس تفعل هـٰذا ، فيقتدون بك ويرونه حتماً ، فانصرف سفيان ، وقال : صدقت ، ثم خرجا .

وروىٰ إبراهيم بن أدهم عن بحر السقَّا البصري قال : حدثني بعض الفقهاء قال : الحياء خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعلم دليله ، والعمل فقهه ، والصبر أمير جنوده ، والرفق والده ، والبر أخوه ، والعقل قيِّمه .

وعن إبراهيم بن أدهم ، عن عمران بن مسلم قال : إن الحكمة لتكون في المنافق

---

(١) أخرجه بنحوه البزار (٧/ ٨٠) .

(٢) أخرج الطبراني في « الأوسط » (٣/ ٢٧٢) عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن وراءكم أيام الصبر ، المتمسك فيهم يومئذ بمثل ماأنتم عليه . . له كأجر خمسين منكم » ، قالوا : يا نبي الله ؛ أو منهم ؟ قال : « لا ، بل منكم » قالوا : يا نبي الله ؛ أو منهم ؟ قال : « لا ، بل منكم » ثلاث مرات أو أربع) .

(٣) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٤٢١) وعزاه للبزار .

(٤) **الصحن** : ساحة المسجد .

تتلجلج ، فلا يصبر عليها حتىٰ يلقيها ، فيتلقاها المؤمن ، فينفعه الله تعالىٰ بها .

وقال إبراهيم بن أدهم : كان قتادة يقول : أفضل الناس أعظمهم عن الناس عفواً ، وأسلمهم لهم صدراً .

وقال : قال أبو حاتم المديني : مِن أعظم خصلةٍ للمؤمن . . أن يكون أشدَّ الناس خوفاً علىٰ نفسه ، وأرجاهم لكل مسلم . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٣-٥٤] .

وقال في « المختار » : وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : أنا منذ عشرين سنة في طلب أخ ، إذا غضب عليَّ ؛ لم يقل إلا الحق ، فلم أجده .

ودخل إبراهيم إلىٰ طرسوس ، ثم قال لصاحبه : خذ هـٰذه الكتيبات ارهنها وجئنا بشيء نأكله ، فخرج صاحبه لِمَا أمره ، فرأىٰ في طريقه خادماً وبين يديه حماران وحبل وبغال عليها صناديق ، والخادم يقول : الذي أنعته صفته كذا وكذا ، ويعرف بإبراهيم بن أدهم ، فقال له صاحب إبراهيم : الرجل الذي تطلبه ما يحب هـٰذه الشهرة ، أنا أدلك عليه ، فقال للغلام : كن معه ، فلما ضرب خيمته ؛ أخذ بيده ، فجاء به إلىٰ إبراهيم ، فلما رآه الخادم في زي الحصادين ؛ بكىٰ بكاء شديداً ، ثم قال : يا مولاي ؛ بعد ملك خراسان صرت في هـٰذه الحال ، فقال له إبراهيم : اسكت ، أيش وراءك ؟ فقال له الخادم : مات الشيخ ، فقال إبراهيم : رحمه الله ، فأيش الذي تريد ؟ قال : أنا غلامك ، ولما مات الشيخ ؛ ركب كل وحش هواه ، وأخذوا من المملكة ما استوىٰ لهم ، وأخذت أنا ما ترىٰ معي ، وأنا عبد لك ، جئت أطلب الثغر أقيم فيه ، فقال لي العلماء : ما يقبل الله منك صرفاً ولا عدلاً حتىٰ ترجع إلىٰ مواليك فيحكموا فيك وفيما معك ، فمُرْني بما أحببت ، فقال له إبراهيم : إن كنت صادقاً فيما تقول ؛ فأنت حر لوجه الله تعالىٰ ، وكل ما معك فهو لك ؛ أي : حيث تنفقه في هـٰذا الوجه ، ثم التفت إلىٰ صاحبه بعد أن قال للخادم قم فاخرج عني : ويحك يا أخي! خذ هـٰذه الكتيبات ارهنها وجئنا بشيء نأكله!!

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : بلغني أنه كان لبني إسرائيل رجل ذبح عجلاً بين يدي أمه ، فأيبس الله تعالىٰ يده ، فبينا هو ذات يوم جالس ؛ إذا هو بفرخ قد سقط من وكره وهو يبصبص[(١)] إلىٰ أبويه ، وأبواه يبصبصان إليه ، فأخذه ، فرده إلىٰ وكره رحمة له ، فرحمه الله تعالىٰ لرحمته لهم ، ورد عليه يده لما صنع .

---

(١) بَصْبَص : يتحرك باضطراب متملقاً ويريد العودة للعش .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال إبراهيم بن بشار : قال إبراهيم بن أدهم : ما كانت لي مؤونة قط علىٰ أصحابي ولا علىٰ غيرهم إلا في شيء واحد ، فقلت : أي شيء هو يا أبا إسحاق ؟ فقال : ما كنت أحسن أكري نفسي في الحصادين ، فيحتاجون أن يكروني ويأخذون لي الأجرة ، هٰذه كانت مؤونتي عليهم .

قال : ومضيت معه إلىٰ طرابلس ، ومعي رغيفان ما لنا شيء غيرهما ؛ فإذا سائل يسأل ، فقال لي : ادفع إليه ما معك ، فتوقفت ، ثم دفعت ، فقال لي : إنك تلقىٰ غداً ما لم يلقه أحد ، واعلم : أنك تلقىٰ ما أسلفت ، ولا تلقىٰ ما خلفت ، فمهد لنفسك ؛ فإنك لا تدري متىٰ يفجؤك أمر ربك ، قال : فأبكاني كلامه ، فلما رآني أبكي ؛ قال : هٰكذا فكن .

وقال شقيق : بينا نحن ذات يوم عند إبراهيم ؛ إذ مر به رجل ، فقال إبراهيم : أليس هٰذا فلان ؟ فقيل : نعم ، فقال لرجل : أدركه ، وقل له : يقول لك إبراهيم : لِمَ لم تسلم ؟ فقال : قل له : إن امرأتي وضعت وليس عندي شيء ، فخرجت شبه المجنون ، قال : فرجعت إلىٰ إبراهيم وأخبرته ، فقال : إنا لله ، كيف غفلنا عن صاحبنا حتىٰ نزل به هٰذا الأمر ، ثم قال : يا فلان ؛ ائت صاحب البستان ، فاستسلف منه دينارين ، ثم ادخل السوق ، فاشتر له ما يصلحه بدينار ، وادفع إليه الدينار الآخر ، فدخلت السوق ، فأوفرت بدينار كل شيء يحتاج إليه ، وتوجهت إليه ، فدفعت الباب ، فقالت امرأته : مَن هٰذا ؟ فقلت : أنا أردت فلاناً ، قالت : ليس هو هٰهنا ، قلت : فمُري بفتح الباب وتنحي ، ففتحت الباب ، فأدخلت ما على البعير ، وألقيته في صحن الدار ، وناولتها الدينار ، فقالت : علىٰ يد مَن جاء هٰذا ؟ قلت : قولي له : علىٰ يد أخيك إبراهيم بن أدهم ، فقالت : اللهم ؛ لا تنس هٰذا لإبراهيم بن أدهم .

قال أبو الفرج : وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : أعربنا الكلام فلا نلحن ، ولَحَنَّا في الأعمال فلا نُعرِب .

وقال عبد الله بن الفرج : اطلعت علىٰ إبراهيم بن أدهم بالشام في بستان وهو نائم ، وعند رأسه أفعىٰ في فيها طاقة(١) نرجس تذب عنه .

وقال إبراهيم بن أدهم : وجدت يوماً راحة ، فطاب قلبي لصنع الله عز وجل بي ، فقلت : اللهم ؛ إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم قبل لقائك ؛

---

(١) **الطاقة** : الشعبة أو الحزمة .

فأعطني ذلك ؛ فقد أضرَّ بي القلق ، قال إبراهيم : فرأيت في المنام كأن الحق جل جلاله أوقفني بين يديه ، وقال : يا إبراهيم ؛ أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي ؟! وهل يسكن قلب المشتاق إلىٰ غير حبيبه ، أم هل يستريح المحب إلىٰ غير من اشتاق إليه ؟! فقلت : يا رب ؛ تهت في الحب ، فلم أدر ما أقول ، قال : قل : اللهم ؛ رضني بقضائك ، وصبرني علىٰ بلائك ، وأوزعني شكر نعمائك .

توفي بالجزيرة ، وحمل إلىٰ صور ودفن هنالك ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٠٢ـ١٠٥] .

وقال ابن الأشتر : توفي إبراهيم بن أدهم في إحدىٰ وستين ومئة ، رحمه الله .

ومناقبه ومآثره كثيرة ومشهورة .

وقال القشيري : قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : بت ليلة تحت صخرة بيت المقدس ، فرأيت في الليل كأنه نزل ملكان ، فقال أحدهما لصاحبه : مَن هـٰذا ؟ قال : إبراهيم بن أدهم ، فقال : ذلك الذي حط الله عز وجل درجة من درجاته ، فقال : لِمَ ؟ فقال : لأنه اشترىٰ بالبصرة تمراً ، فوقعت تمرة من تمر البقال علىٰ تمرِهِ ، قال إبراهيم : فمضيت واشتريت تمراً من ذلك البقال ، وطرحت تمرة علىٰ تمره ، واستحللت منه ، ثم رجعت إلىٰ بيت المقدس ، فبت في الصخرة ، فإذا أنا بالملكين قد نزلا ، فقال أحدهما لصاحبه : مَن هـٰهنا ؟ فقال الآخر : هـٰذا إبراهيم بن أدهم ، الذي رد الله عز وجل عليه مكانه ورفع درجته . انتهىٰ [« الرسالة » ٨٩] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : حكي أن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أمسىٰ ذات ليلة في مسجد ، فقصد المبيت فيه ، فمنعه قيم المسجد ، وأخرجه منه قهراً ، حتىٰ يقال : إنه أخذ برجله وإبراهيم رحمه الله ساكت صابر ، فلما صار خارج المسجد ؛ قال لنفسه : يا إبراهيم ؛ هـٰذا عقوبة بعض الذي فعلت في الدنيا من المعاصي ، ثم بكىٰ وراح إلىٰ أَتُّونِ الحمام[1] ، وقال : أنت ما تستحق إلا أتون الحمام ، فلما دخله ؛ وجد فيه وقاداً ، وهو يلتفت يمنة ويسرة ، فقال له : سلام عليكم ، فلم يردَّ السلام على الفور ، ثم رد السلام بعد لحظة ، فقال له إبراهيم : لِمَ لم ترد أولاً جواب السلام ثم بعد ذلك رددت ؟ فقال : إني كنت في إجارة عمل لقوم ، فخشيت إن رددت السلام ؛ أن أشتغل بذلك عن

---

(١) **الأتون** : الموقد .

عملهم ، فلا أكون قد وفيتهم حقهم ، فلما فرغت من إجارتهم ؛ رددت السلام ، فقال له : وما لي أراك تلتفت يمنة ويسرة ؟ قال : أنظر ملك الموت عليه الصلاة والسلام من أين يأتي إلي ؟ فقال له : أرىٰ لك حالاً مع الله عز وجل ، فادعُ لي ، قال : دعني ؛ فإني منذ أربعين سنة أدعو الله عز وجل أن يجمع بيني وبين إبراهيم بن أدهم ، وإلى الآن ما رأيته ، فبكىٰ إبراهيم ، وقال له : ما جاءك إبراهيم إلا مسحوباً . [انتهىٰ] .

وعن إبراهيم قال : كان يقول هـٰذا الكلام في كل جمعة إذا أصبح عشر مرات ، وإذا أمسىٰ ؛ يقول مثل ذلك : مرحباً بيوم المزيد ، والصبح الجديد ، والكاتب والشهيد ، يومنا هـٰذا يوم عيد ، اكتبا لنا ما نقول فيه ، باسم الله الحميد المجيد ، الرفيع الودود ، الفعال في خلقه ما يريد ، أصبحت بالله مؤمناً ، وبلقاء الله مصدقاً ، وبحجته معترفاً ، ومن ذنبي مستغفراً ، ولربوبية الله خاضعاً ، ولسوى الله من الآلهة جاحداً ، وإلى الله تعالىٰ فقيراً ، وعلى الله متوكلاً ، وإلى الله منيباً ، أُشهد الله وملائكته وأنبياءه ورسله وحملة عرشه ومن خلق ومن هو خالقه بأنه هو الله ، لا إلـٰه إلا هو وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، ومنكراً ونكيراً حق ، ولقاءك حق ، ووعدك حق ، والساعةَ آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، علىٰ ذلك أَحْيَا وعليه أموت ، وعليه أبعث إن شاء الله .

اللهم ؛ أنت ربي لا رب لي إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك ـ اللهم ـ من شر كل ذي شر .

اللهم ؛ إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ذنوبي ؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق ؛ فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها ؛ فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك ، أنا لك وإليك ، أستغفرك وأتوب إليك ، آمنت ـ اللهم ـ بما أنزلت من كتاب ، وصلى الله علىٰ محمد النبي ، وعلىٰ آله وسلَّم كثيراً ، وخاتم كلامي ومفتاحه ، وعلىٰ أنبيائه ورسله أجمعين ؛ آمين يا رب العالمين .

اللهم ؛ أوردنا حوضه ، واسقنا بكأسه مشرباً روياً سائغاً هنيئاً لا نظمأ بعده أبداً ، واحشرنا في زمرته غير خزايا ، ولا ناكثين ، ولا مرتابين ، ولا مقبوحين ، ولا مفتونين ، ولا مغضوبٍ عليهم ، ولا ضالين .

اللهم ؛ اعصمني من فتن الدنيا ، ووفقني لما تحب من العمل وترضىٰ ، وأصلح لي

شأني كله ، وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولا تضلني وإن كنتُ ظالماً ، سبحانك سبحانك ، يا علي ، يا عظيم ، يا بارىء ، يا رحيم ، يا عزيز ، يا جبار .

سبحان من سبحت له السماوات بأكنافها[1] ، وسبحان من سبحت له الجبال بأصواتها ، وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها ، وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها ، وسبحان من سبحت له النجوم في السماء بإبراقها ، وسبحان من سبحت له الشجر بأصولها ونضارتها .

سبحان من سبحت له السماوات السبع والأرضون السبع ، ومن فيهن ، ومن عليهن ، سبحانك سبحانك يا حي يا حليم ، سبحانك لا إلـٰه إلا أنت وحدك لا شريك لك ، تحيي وتميت ، وأنت حي لا تموت ، بيدك الخير ، وأنت علىٰ كل شيء قدير .

روى ابن أدهم عن جماعة من التابعين وتابعي التابعين مسنِداً مرسِلاً ، ولقي من الكوفيين والبصريين وغيرهم عدةً ، ولم تكن الرواية من شأنه ، فلذلك يقل حديثه [انتهىٰ « الحلية » ٨/٣٨ـ٤١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) **الأكناف** : الجوانب والنواحي .

ومنهم الإمام :

الليث بن سعد
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عمرو بن سلمة : تكلم الليث بن سعد في مسألة ، فقال له رجل : يا أبا الحارث ؛ في كتابك غير هٰذا ، قال : في كتابي ـ أو في كتبنا ـ ما إذا مر بنا ؛ هذبناه بألسنتنا وعقولنا .

وقال حرملة بن يحيىٰ : سمعت الشافعي يقول : الليث بن سعد أَتبعُ للأثر من مالك بن أنس .

وقال أبو صالح : كنا علىٰ باب مالك بن أنس ، فامتنع علينا ، فقلنا : ليس يشبه صاحبنا ، فسمع مالك كلامنا ، فأدخَلَنا عليه ، فقال : مَن صاحبكم ؟ قلنا : الليث بن سعد ، فقال : أتشبهوني برجل كتبنا إليه في قليل عُصفر نصبغ به ثياب صبياننا ، فأنفذ إلينا ما صبغنا به ثيابنا وثياب صبياننا وثياب جيراننا ، وبعنا الفضلة بألف دينار ؟!

وقال قتيبة بن سعيد : قفلنا مع الليث بن سعد من الإسكندرية ، وكان معه ثلاث سفائن ، سفينة فيها مطبخه ، وسفينة فيها عياله ، وسفينة فيها أضيافه .

وقال [سليم بن] منصور بن عمار : سمعت أبي يقول : جاءت امرأة إلى الليث ومعها قدح ، فقالت : يا أبا الحارث ؛ إن زوجي يشتكي ، وقد وُصِف له العسل . فقال : اذهبي إلىٰ وكيلي فلان ، فقولي له يعطيك مطراً من عسل ـ والمطر مئة وعشرون رطلاً ـ فذهبت إليه ، فجاء الوكيل فسارَّهُ بشيء ، فقال له : اذهب فأعطها مطراً ، إنها سألت بقَدْرها ، فأعطيناها بقَدْرنا ، وحق ذلك لي ، إني امرؤ من أهل أصبهان .

وقال منصور بن عمار : كان الليث إذا تكلم بمصر أحدٌ . . نفاه ، فتكلمت في المسجد الجامع يوماً ؛ فإذا رجُلان قد دخلا من باب المسجد ، فوقفا على الحلقة ، ثم قالا : مَن المتكلم ؟ فأشاروا إلي ، فقالا : أجب أبا الحارث الليث ، فقمت وأنا أقول : واسوأتاه أنفىٰ من بلد هٰكذا ، فلما دخلت على الليث . . قال لي : أنت المتكلم في المسجد ؟ قلت :

نعم ، رحمك الله ، فقال لي : اجلس رد عليَّ الكلام الذي تكلمتَ به ، فأخذت في ذلك المجلس بعينه ، فرقَّ الشيخ وبكىٰ وسُرِّي عني ، وأخذت في صفة الجنة والنار ، فبكى الشيخ حتىٰ رحمته ، ثم قال لي بيده اسكت ، ما اسمك ؟ قلت : منصور بن عمار ، قال : أنت أبو السري ، قلت : نعم ؛ قال : الحمد لله الذي لم يمتني حتىٰ رأيتك ، ثم قال : يا جارية ؛ علي بكيس كذا وكذا ، فجاءت بكيس فيه ألف دينار ، فقال : يا أبا السري ؛ خذ هـٰذا وصن هـٰذا الكلام أن تقف به علىٰ أبواب السلاطين ، ولا تمدحَنَّ أحداً من المخلوقين بعد مدحك لرب العالمين جل جلاله ، ولك علي في كل سنة مثلُها ، قلت : رحمك الله ، إن الله سبحانه وتعالىٰ قد أحسن إلي وأنعم عليَّ ، فقال : لا تردَّنَّ عليَّ شيئاً أصلك به ، فقبضتها وخرجت ، فقال : لا تبطىء عليَّ .

فلما كان في الجمعة الثانية ؛ أتيته ، فقال لي : اذكر شيئاً ، فأخذت في مجلس لي وتكلمت ، فبكى الشيخ وكثر بكاؤه ، فلما أردت أن أقوم ؛ قال لي : انظر ما في ثَنْي الوسادة ؛ فإذا خمس مئة دينار ، فقلت : رحمك الله ، عهدي بصلتك بالأمس ، قال : لا تردن عليَّ شيئاً أصلك به ، متىٰ رأيك في السفر ؟ قلت : الجمعة الداخلة ، قال : كأنك فتَّتَّ عضواً من أعضائي .

فلما كانت الجمعة الداخلة ؛ أتيته مودعاً ، فقال لي : خذ في شيء أذكرك به ، فتكلمت ، فبكى الشيخ وكثر بكاؤه ، وقال لي : يا منصور ؛ انظر ما في ثَنْي الوسادة ، فإذا ثلاث مئة دينار قد أعدها للحج ، ثم قال : يا جارية ؛ هاتي ثياب إحرام منصور ، فجاءت بإزار فيه أربعون ثوباً ، فقلت : رحمك الله ، أنا أكتفي بثوبين ، فقال لي : أنت رجل كريم ، فيصحبك قوم ، فأعطهم ، وقال للجارية التي جاءت بالثياب : وهـٰذه الجارية تحمل معك الثياب ، وهي لك ، ودفع إلي ألف دينار ، ثم قال لي : لا تُعلِم بهـٰذا ابني فتهونَ عليه .

وقال عبد الله بن صالح : صحبت الليث عشرين سنة ، فكان لا يتغدىٰ ولا يتعشىٰ وحده ، وكان لا يأكل اللحم إلا أن يمرض ، وكان دَخْلُ الليث بن سعد في كل سنة ثمانين ألف دينار ، وما أوجب الله تعالىٰ عليه الزكاة قط .

وفي رواية أخرىٰ : يحول عليه الحول وعليه دَين .

وقال الليث : قال لي هارون الرشيد : يا ليث ؛ ما صلاح بلدكم ؟ قلت : يا أمير

المؤمنين ؛ صلاح بلدنا بإجراء النِّيل وصلاح أميرها ، ومِن رأس العين يأتي الكدر ، فإذا صفا رأس العين ؛ صفت السواقي ، فقال : صدقت يا أبا الحارث .

وقال يحيى بن بكير : سمعت أبي يقول : وصل الليث بن سعد ثلاثة أنفس بثلاثة آلاف دينار : أحرقت دار ابن لهيعة فبعث إليه بألف دينار ، ولما حج أهدىٰ إليه مالك بن أنس رطباً علىٰ طبق فرد إليه الطبق وعليه ألف دينار ، ووصل منصور بن عمار بألف دينار ، وقال : لا تُسمِع بهـٰذا ابني ، فتهون عليه ، فبلغ ذلك شعيب بن الليث ، فوصله بألف دينار إلا ديناراً ، وقال : إنما نقصتك هـٰذا الدينار ؛ لئلا أساوي الشيخ في عطيته .

وقال الحسن بن مليح الطرائفي بمصر : أخبرنا لؤلؤ خادم الرشيد قال : جرىٰ بين هارون الرشيد وبين ابنة عمه زبيدة مناظرة وملاحاة في شيء ، فقال هارون في عرض كلامه : أنت طالق ثلاثاً إن لم أكن من أهل الجنة ، ثم ندم ، واغتمَّا جميعاً بهـٰذه اليمين ، ونزلت بهما مصيبة لموضع ابنة عمه منه ، فجمع الفقهاء وسألهم عن هـٰذه اليمين ، فلم يُفْتِهِ أحد بما له فيه مخرج أو مخلص ، قال : فأرسل إلى البلاد تحمل إليه بالفقهاء ، فلما أحضروا بين يديه ؛ سألهم عن اليمين وكيف المخرج منها ، فاختلفت الأجوبة منهم ، وليس فيها ما يشفي الغليل ، وكان الليث بن سعد ساكتاً لا يتكلم ، فقال له الخليفة : ما تقول أنت ؟ فقال : أنشدك بالله الذي لا إلـٰه إلا هو أتخاف مقام الله تعالىٰ ؟ فقال : إي والله ، فقال : قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقال هارون الرشيد : بارك الله تعالىٰ فيك ، ثم أمر له بصلة ، فلم يقبل . انتهىٰ [« الحلية » ٧/٣١٩ـ٣٢٤] .

وقال أبو الفرج : ولد الليث سنة ثلاث وتسعين ، واستقل بالفتوىٰ والعلوم[(١)] بمصر .

وقال الحارث بن مسكين : اشترىٰ قوم من الليث ثمرة ، ثم سألوه الإقالة فيها ، فأقالهم ، ثم أعطاهم خمسين ديناراً ، فقال له ابنه : ما هـٰذا ؟ فقال : اللهم ؛ غفراً ، إن هـٰؤلاء لما اشتروا هـٰذه الثمرة. . أَمِلُوا فيها أملاً ، فأحببت أن أعوضهم عن أملهم بهـٰذه الدنانير .

ودفع الليث رحمه الله إلىٰ بعض أصحابه[(٢)] دفتراً وقال له : اكتب فيه أسماء الملازمين للمسجد الذين لا معلوم لهم ، قال الراوي : فأخذت الدفتر وقلت له : جزاك الله خيراً ، ثم

---

(١) في « الصفوة » : (واستقل بالفتوىٰ والكرم) .
(٢) وهو سعيد الآدم .

خرجت إلىٰ منزلي لأكتب ، فلما كتبت بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، وأنا أقول في نفسي فلان بن فلان وفلان بن فلان ؛ هجم علي النوم ، فنمت ، فأتاني آت في منامي ، فقال لي : يا سعيد ؛ أتأتي إلىٰ قوم عاملوا الله عز وجل سراً تكشفهم لآدمي ؟ مات الليث ومات ابن الليث ، أليس مرجعهم إلى الله سبحانه وتعالى الذي عاملوه ؟! فاستيقظت ولم أكتب بعد ذلك شيئاً ، ثم أتيته ، فلما رآني ؛ تهلل وجهه فرحاً ، فناولته الدفتر ، ففتحه ، فلم ير فيه غير البسملة ، فقال : ما الخبر يا سعيد ؟ فأخبرته ، فصاح صيحة عظيمة وغُشي عليه ، فلما أفاق ؛ قال : صدقت يا سعيد ، مات الليث ، ومن هو الليث ؟ أليس مرجعهم وإيانا إلى الله سبحانه وتعالىٰ ؟ قال علي بن محمد : وكان سعيد هـٰذا يُقال : إنه من الأبدال .

أسند الليث عن خلائق من التابعين ؛ كعطاء ابن أبي رباح ، ونافع ، والزهري ، ويُقال : إنه أدرك نيفاً وخمسين تابعياً .

وروىٰ عن الليث جمع من الأئمة الأعلام ؛ كعبد الله بن المبارك ، وغيره .

وتوفي يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شعبان ، سنة خمس وسبعين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢١٨ـ٢٢١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمامان :

علي والحسن ابنا صالح بن حي
رضي الله عنهما

قال الحافظ أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال وكيع بن الجراح : كان علي والحسن وأمهما قد جزَّؤوا الليل ثلاثة أجزاء ، فكان علي يقوم الثلث ثم ينام ، ويقوم الحسن الثلث ثم ينام ، وتقوم أمهما الثلث ، فماتت ، فجزَّءا الليل بينهما ، وكانا يقومان حتى الصباح ، ثم مات علي ، فقام الحسن الليلَ كلَّه .

وقال صالح العجلي : كانوا يختمون القرآن في كل ليلة ، أمهما ثلث ، وعلي ثلث ، والحسن ثلث ، فماتت أمهما ، فكانا يختمان به ، ثم مات علي ، فكان الحسن يختم كل ليلة .

وقال يحيى بن آدم : قال لي الحسن بن صالح بن حي : قال لي علي في الليلة التي توفي فيها : يا أخي ؛ اسقني ماء ـ وكنت قائماً أصلي ـ فلما قضيت صلاتي ؛ أتيته بماء ، فقلت : يا أخي ؛ فقال : لبيك ، فقلت : هـٰذا ماء ، فقال : قد شربت الساعة ، فقلت له : مَن سقاك وليس في الغرفة غيري وغيرك ؟ فقال : أتاني مَلَكٌ الساعة بماء فسقاني ، وقال لي : أنت وأبوك وأخوك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وخرجَت روحه .

وقال عبد الرحمـٰن بن مطرف : كان الحسن بن صالح إذا أراد أن يعظ أحداً ؛ كتب له في لوح وناوله إياه .

وقال عبد القدوس بن بكر : كان الحسن وأخوه علي ، وكان علي يفضل عليه ، وكانا وأمهما يتعاونون على العبادة ، بالليل لا ينامون ، وبالنهار لا يفطرون ، فلما ماتت أمهما ؛ تعاونا على العبادة والصيام والقيام عن أمهما ، فلما مات عليٌّ ؛ قام الحسن عن أمه وأخيه .

وكان يُقال للحسن : حية الوادي ؛ يعني : أنه لا ينام بالليل .

وكان يقول : إني لأستحيي من الله عز وجل أن أنام تكلفاً حتىٰ يكون النوم هو الذي يصرعني ، فإذا أنا نمت ثم استيقظت ثم عدت نائماً ؛ فلا أرقَدَ الله عيني .

وكان لا يقبل من أحد شيئاً ، فيجيء إليه ولده المسجد ، فيقول له : أنا جائع ، فيعلله حتىٰ يروح .

وكان يأكل مما تغزله جارية له ، فيباع الغزل ويشترىٰ به من الشعير ومن القطن ، ثم يُخبَز له من الشعير ، فيأكل الأولاد ويؤخَّر له ما يفطر عليه ، فلم يزل علىٰ ذلك حتىٰ مات رحمه الله تعالىٰ .

وقال أبو سليمان الداراني : ما رأيت أحداً الخوف أظهرُ علىٰ وجهه والخشوع من الحسن بن صالح ، قام ليلة حتى الصباح بـ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ بآية فيها ، ثم غشي عليه ، ثم عاد إليها ، فغشي عليه ولم يختمها حتىٰ طلع الفجر .

وقال عباد : بِعنا جارية للحسن بن صالح ، فقال : أخبروهم أنها تنخمت[1] عندنا مرة دماً .

وقال الحسن : فتشنا عن الورع . . فلم نجده في شيء أقل منه في اللسان .

وأُتي الحسن بسمكة ، فلما وضع يده في سرة السمكة ؛ اضطربت يده ، فأمر برفعها ، ولم يأكل منها شيئاً ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني لما وضعت يدي في سرتها ؛ ذكرت أن أول ما ينتن من الإنسان بطنه ، فلم أقدر أن أذوقها .

وقال خلف بن تميم : كان الحسن بن صالح يصلي إلى السحر ، ثم يجلس يبكي في مصلاه ، ويجلس عليٌّ يبكي في حجرته ، وكانت أمهما تبكي الليل والنهار ، قال : فماتت ، ثم مات عليٌّ ، ثم مات الحسن ، فرأيت حسناً في منامي ، فقلت : ما فعل الله عز وجل بالوالدة ؟ قال : بدلت بذلك البكاء سرور الأبد ، قلت : وعلي ؟ قال : وعلي نقل إلىٰ خير ، قلت : فأين تمضي أنت ؟ قال : فولىٰ وهو يقول : وهل نتَّكل إلا علىٰ عفوه سبحانه وتعالىٰ ؟!

وقال عبيد الله بن موسىٰ : كان الحسن إذا صعد المنارة ؛ أشرف على المقابر ، فإذا نظر إلى الشمس تحوم على القبور ؛ صرخ حتىٰ يحمل مغشياً عليه ، فيُنزَل به .

---

(١) نَخَم : دفع بشيء من صدره أو أنفه .

قال : ورأيته ذات يوم قد شهد جنازة ، فلما قُرِّب الميت ليدفن ؛ نظر إلى اللحد ، فارفضَّ عرقاً ، ثم صاح ، فغشي عليه ، فحمل على السرير الذي كان عليه الميت إلىٰ منزله .

وقال إسحاق بن منصور : نظر الحسن إلى المقابر وهو قائم يؤذن ، فصرخ وقطع أذانه ، وسقط مغشياً عليه .

قال : وحدثني رجل من جيرانه قال : كنا نسمع صراخه ونحيبه إذا سمع الأذان كما نسمع صراخ أهل المصيبة ، قال : وكثيراً ما كان يغشىٰ عليه وهو في الأذان حتىٰ يؤذِّن عنه غيره .

أسند الحسن وعلي عن جماعة من التابعين ، ولٰكن حديث الحسن أكثر .

ومات علي سنة أربع وخمسين ومئة ، ومات أخوه الحسن بعده بثلاث عشرة سنة ، رضي الله عنهم أجمعين ونفع بهم . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٢٧٤-٢٧٧] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال إسحاق بن خلف : دخل الحسن بن صالح السوق وأنا معه ، فرأىٰ هٰذا يخيط وهٰذا يصبغ ، فبكىٰ ، ثم قال : انظر إليهم يُعَلَّلون حتىٰ يأتيهم الموت .

وكان الحسن بن صالح يقول : ربما أصبحت وليس عندي درهم ، وكأن الدنيا حيزت لي وهي في كفي .

وعن الحسن بن صالح رحمه الله قال : بلغني أنه لما قيل لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ؛ أنه تزايلت[1] مفاصله .

وقال الحسن بن صالح رحمه الله : العمل بالحسنة . . قوة في البدن ، ونور في القلب ، وضوء في البصر ، والعمل بالسيئة . . وَهْنٌ في البدن ، وظلمة في القلب ، وعمًى في البصر .

وقال الحسن بن صالح رحمه الله : إنك لا تفقه حتىٰ لا تبالي في يد مَن كانت الدنيا . انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٣٢٩-٣٣١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) تزايلت : تحركت بشدة .

ومنهم الإمام :

أبو علي شقيقُ البَلْخيُّ
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال علي بن محمد بن شقيق : كان لجدي ثلاث مئة قرية يوم قتل بواشكرد[1] ولم يكن له كفن يكفن فيه ، قدَّمه كله بين يديه ، وثيابه وسيفه إلى الساعة يُتبرك بهما .

وكان قد خرج إلىٰ بلاد الترك لتجارة ـ وهو حدث ـ إلىٰ قوم يقال لهم : الخصوصية ، وهم يعبدون الأصنام ، فدخل إلىٰ بيت أصنامهم ، فوجد كبيرهم وعالمهم قد حلق رأسه ولحيته ، ولبس ثياباً حمراء أرجوانية ، فقال له شقيق : إن هـٰذا الذي أنت فيه باطل ، وللخلق جميعهم إلـٰه واحد سبحانه وتعالىٰ خالق ورازق ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ، له الدنيا والآخرة وما فيهما ، قادر علىٰ كل شيء ، رازق كل شيء ، فقال له كبيرهم : ليس يوافق قولك فعلك ، فقال له شقيق : وكيف ذاك ؟ قال : لأنك زعمت أن لك خالقاً ورازقاً قادراً علىٰ كل شيء ، وقد تعنَّيتَ إلىٰ هـٰهنا لطلب الرزق ، ولو كان كما تقول ؛ كنت تعلم أن الذي يرزقك هـٰهنا هو الذي يرزقك في بلادك فتربح التعب والعناء ، قال شقيق : فكان سبب تركي للدنيا كلام ذلك التركي . فرجع وتصدق بجميع ما ملك ، وطلب العلم[2] .

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري : كان شقيق من مشايخ خراسان ، وله لسان في التوكل ، وكان أستاذ حاتم الأصمِّ .

قال حاتمٌ الأصمُّ : كان شقيق بن إبراهيم موسراً ، وكان يتفتىٰ ويعاشر الفتيان ، وكان علي بن عيسى بن ماهان أمير بَلْخ ، وكان يحب كلاب الصيد ، ففقد كلباً من كلابه ، فسُعيَ

---

(١) اسم موضع في بلاد الترك .

(٢) الحلية (٨/ ٥٩) .

برجلٍ أنه عنده ، وكان الرجل في جوار شقيق ، فطُلب الرجل فهرب[1] ، فدخل دار شقيق مستجيراً ، فمضىٰ شقيق إلى الأمير ، وقال : خلوا عنه ؛ فإن الكلب عندي أرده إليكم إلىٰ ثلاثة أيام ، فخلَّوا سبيله وانصرف شقيق مهتماً لما صنع ، فلما كان اليوم الثالث ؛ كان رجلاً[2] غائباً من بلخ رجع ، فوجد في الطريق كلباً عليه قلادة ، فأخذه ، وقال : أهديه إلىٰ شقيق ؛ فإنه يشتغل بالتفتي ، فحمله إليه ، فنظر شقيق ؛ فإذا هو كلب الأمير ، فسُرَّ به ، وحمله إلى الأمير ، وتخلص من الضمان ، ورزقه الله الانتباه ، وتاب مما كان فيه ، وسلك طريق الزهد .

وقال شقيق : تُعرف تقوى الرجل في ثلاثة أشياء : في أخذه ، ومنعه ، وكلامه . [انتهىٰ « الرسالة » ٢٢ـ٢٣] .

وقال أبو عبد الله : سمعت شقيقاً يقول : كنت شاعراً ، فرزقني الله عز وجل التوبة ، وإني خرجت من ثلاث مئة ألف درهم لله عز وجل ، وكنت مرابياً ، فتاب الله عليَّ ، ثم لبست الصوف عشرين سنة وأنا لا أعلم ، حتىٰ لقيت عبد العزيز ابن أبي روَّاد ، فقال لي : يا شقيق ؛ ليس الشأن في أكل الشعير ولا في لباس الصوف والشعر ، الشأن في أمور :

منها : معرفة الله عز وجل ، وهو أن تعبده لا تشرك به شيئاً .

والثانية : الرضا عن الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ كل حال .

والثالثة : أن تكون بما في يد الله عز وجل أوثق منك بما في أيدي المخلوقين .

قال شقيق : فقلت له : فسِّرْ لي هٰذا ، قال : أما قولي : تعبد الله تعالىٰ لا تشرك به شيئاً : فأن يكون جميع ما تعمله خالصاً لله عز وجل من صوم ، وصلاة ، وحج ، وغزو ، وعيادة مريض ، وغير ذلك من جميع أعمال البر ، ثم تلا هٰذه الآية : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾[3] .

وعنه : قال : سبعة أبواب يسلك فيها طريق الزهاد :

ـ الصبر على الجوع بالسرور لا بالفتور ، بالرضا لا بالجزع .

---

(١) كذا في « الرسالة » ، وفي النسخ : (وضُرب) .

(٢) العبارة في « الرسالة » : (كان رجل من أصدقاء شقيق غائباً من بلخ ، رجع إليها فوجد . . .) .

(٣) اقتصر المؤلف رحمه الله علىٰ إيراد شرح واحدة من الثلاثة ، تبعاً للأصل الذي ينقل منه ـ أي : « الحلية » ـ والمعنىٰ ظاهر ، والله أعلم .

ـ والصبر على العري بالفرح لا بالحزن .

ـ والصبر علىٰ طول الصيام بالتفضل[1] لا بالتقشف كأنه طاعم ناعم .

ـ والصبر على الذُّل بطيبة النفس لا بالتكره .

ـ والصبر على البؤس بالرضا لا بالسخط .

ـ وطول الفكرة فيما يودع بطنه من المطعم والمشرب .

ـ و[طول الفكرة فيما] يكسو به ظهره من أين وكيف ولعل وعسىٰ .

فإذا كان في هٰذه الأبواب السبعة ؛ فقد سلك طريقاً من طريق الزهاد ، وذلك الفضل العظيم .

وقال حاتم الأصم : سمعت شقيقاً يقول : عملت في القرآن عشرين سنة حتىٰ ميزت الدنيا من الآخرة ، فأصبته في حرفين ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

وقال شقيق : لو أن رجلاً عاش مئتي سنة لا يعرف هٰذه الأربعة ؛ لم ينج من النار :

إحداها : معرفة الله سبحانه وتعالىٰ .

والثاني : معرفة نفسه .

والثالث : معرفة أمر الله سبحانه وتعالىٰ ونهيه .

والرابع : معرفة عدو الله عز وجل وعدو نفسه .

وتفسير معرفة الله تعالىٰ : أن تعرف بقلبك أنه لا معطي غيره ، ولا مانع غيره ، ولا ضار غيره ، ولا نافع غيره .

وأما معرفة النفس : فأن تعرف نفسك أنك لا تنفع ولا تضر ولا تستطيع شيئاً .

وأما معرفة أمر الله سبحانه وتعالىٰ ونهيه : فهو أن تعلم أن أمر الله تعالىٰ عليك واجب ، وأن رزقك على الله عز وجل ، وتكون واثقاً بالرزق مخلصاً في العمل ، وعلامة الإخلاص : ألاَّ يكون فيك خصلتان : الطمع والثناء .

ومعرفة عدو الله عز وجل : أن تعلم أن لك عدواً لا يقبل الله تعالىٰ منك شيئاً إلا بمحاربته

---

(١) المثبت من « الحلية » وفي النسخ : (بالتصقل) .

وعداوته ومحاربته بالقلب ؛ بأن تكون مجاهداً متعِباً لعدوك مهما أمكن .

وقال شقيق : من المعرفة بالله تعالىٰ : أن يعلم العبد أن أعماله كلها إنما كانت بإقدار الله عز وجل عليها ، ويتيقن أن الله سبحانه وتعالىٰ مطلع عليه في حركاته وسكناته ، وأن الحجة عليه قائمة لله عز وجل في جميع أفعاله ، وأن يثق بالله تعالىٰ في جميع أموره ، ولا يرجو غيره ، ولا يخاف سواه سبحانه وتعالىٰ ، وأن يرضىٰ بجميع ما يقدره الله له وعليه ، وأن يكون متوكلاً في المال والنفس والناس .

أما في المال : فلا يقول : ما دام هـٰذا المال في يدي ؛ فلا أحتاج إلىٰ أحد ، بل يعلم يقيناً أن الذي رزقه هـٰذا المال يرزقه غيره ، فلا يتعلق قلبه بسواه سبحانه وتعالىٰ .

وأما في النفس : فلا يقول : ما دمت صحيحاً ؛ فإني لا أحتاج ، فقد توكل علىٰ نفسه ، بل يعلم يقيناً أن الذي وهب له الصحة هو الذي يرزقه سبحانه وتعالىٰ .

وأما التوكل على الناس : فهو أن يقول : ما دام فلان حياً ؛ فإني لا أحتاج إلىٰ أحد ، فذلك توكل على الناس ، ومن كان علىٰ هـٰذا ؛ فهو جاهل ، بل تعلم يقيناً أن الله تعالىٰ هو الذي خلقك ، وهو يرزقك ، ولا ينبغي أن تقول بلسانك هو الذي يطعمني ويسقيني ، ويكون في ضميرك غير ذلك ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وإذا علم منك الصدق ؛ كفاك كل الكفاية ، فنسأله سبحانه وتعالى الكفاية عن الناس ، وأن يوفقنا لما يحب ويرضىٰ ، إنه علىٰ كل شيء قدير[1] .

قال في « المناقب » : قال شقيق : العامل لا بد له من هـٰذه الثلاثة :

الأولىٰ : أن يكون خائفاً لما سلف له من الذنوب .

الثانية : أن يكون دائم الخوف لا يدري ما ينزل به ساعة بعد ساعة .

الثالثة : يخاف من العاقبة لا يدري بما يختم له .

والفقير : هو الذي يخشى الغنىٰ ويغتنم الفقر .

والزاهد : هو الذي يقيم زهده بفعله .

والمتزهد : هو الذي يقيم زهده بلسانه .

---

(١) الحلية (٨/ ٥٩ـ٦١) بتصرف .

وإذا كان العبد يريد الراحة ؛ فيأكل مما أصاب ، ويلبس مما وجد ، ويرضىٰ بما قضى الله تعالىٰ عليه .

وقال : جعل الله تعالىٰ أهل طاعته أحياءً في مماتهم ، وأهل المعاصي أمواتاً في حياتهم .

وقال : إنما دخلت الآفة على العامة من الخاصة : من العلماء والزهاد والسلاطين .

أما العلماء : فهم ورثة الأنبياء ، فإذا كان العالم طامعاً وجامعاً ؛ فالجاهل بمن يقتدي ؟!

وأما الزهاد : فهم ملوك الأرض ، فإذا كان الزاهد يرغب فيما في أيدي الناس ؛ فالراغب بمن يقتدي ؟!

وأما السلاطين : فهم الرعاة ، فإذا كان الراعي هو الذئب ؛ فالذئب كل ما يجده يأكله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقال شقيق : لما دخلت الري ؛ أتاني قاضيها محمد بن مقاتل وقال : أحب أن تجعل طعامك عندي طول مقامك أنت وأصحابك ، فقلت : لا أفعل ؛ لأني أخاف أن تشرف مني علىٰ عيب ، فتبعدني ، ثم أرجع إليك فلا تقبلني ، وأنا عبده سبحانه وتعالىٰ يرزقني ويستر علي عيوبي كلها بلطفه وكرمه سبحانه وتعالىٰ .

وقال حاتم الأصم : سمعت شقيقاً البلخي يقول : ميز بين من تعطيه وبين من يعطيك ؛ إن كان من يعطيك أحب إليك ؛ فأنت محب للدنيا ، وإن كان من تعطيه أحب إليك ؛ فأنت محب للآخرة .

وقال الحافظ أبو الفرج : قال حاتم الأصم : كنا مع شقيق البلخي ونحن مصافُّو الترك ، في يوم لا ترىٰ فيه إلا رؤوساً تَندُر[1] وسيوفاً تقطع ورماحاً تُقَصَّد[2] ، ونحن بين الصفين ، فقال لي : يا حاتم ؛ كيف ترىٰ نفسك في هـٰذا اليوم ؟ أتراه مثله في اليوم الذي زفت إليك امرأتك ؟ قلت : لا ، قال : لـٰكني والله ؛ أرىٰ نفسي في هـٰذا اليوم مثله في الليلة التي زفت إلي امرأتي فيها ، قال : ثم نام بين الصفين ودرقته[3] تحت رأسه حتىٰ سمعت غطيطه .

---

(١) **تندر** : تسقط .

(٢) **تقصَّدت الرماح** : تكسرت .

(٣) **الدرقة** : هي الترس المصنوع من الجلد بلا خشب .

قال حاتم : فقلت : إن قلبه ساكن مع الحق جل جلاله ، خال من الأسباب والأكوان .

[انتهىٰ « الصفوة » ٤/١٠٧] .

قال حاتم : ورأيت رجلاً من أصحابنا في ذلك اليوم يبكي ، فقلت : ما لك ؟ قال : قتل أخي ، قال : قلت : لا تجزع ، صار إلى الله عز وجل وإلىٰ رضوانه ، فقال : والله ؛ ما أبكي أسفاً عليه ولا علىٰ قتله ، وإنما أبكي له ؛ فإني ما دريت كيف كان صبره لله عز وجل عند وقوع السيف به ، وأرجو أن يكون من الصابرين إن شاء الله تعالىٰ .

قال حاتم : وأخذني في ذلك اليوم تُركي ، فأضجعني للذبح ، فلم يكن قلبي به مشغولاً ، إنما كان قلبي مشغولاً بالله عز وجل ، أنظر ماذا يأذن الله تعالىٰ له فيَّ ، فبينا هو يطلب السكين من حُقِّه(١) ، وكنت أنا ـ والله ـ قلبي عند خالقي ومالكي سبحانه وتعالىٰ ، أنظر ماذا يأمره فيَّ ، وقلت في نفسي : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ إن قضيت علي أن يذبحني هـٰذا ؛ فعلى الرأس والعين ، ولك الرضا والغنىٰ حتىٰ ترضىٰ ، إنما أنا عبد من عبيدك ، فبينا أنا أخاطب نفسي وهو قاعد علىٰ صدري آخذ بلحيتي ليذبحني ؛ إذ جاءه سهم عائر(٢) فذبحه ، فألقاه عني ، فقمت أنا ، فما هو إلا أن تجعلوا قلوبكم عند الله عز وجل حتىٰ تروا من عجائب لطفه ما لم تروه من الآباء والأمهات .

وقال شقيق : من أراد أن يعرف قَدْر معرفته بالله عز وجل ؛ فلينظر إلىٰ ما وعده الله سبحانه وتعالىٰ وإلىٰ ما وعده الناس ، فإلىٰ أيهما كان قلبه أوثق ؛ فذلك قدر معرفته .

وقال شقيق : ستر خوفَ جهنم على الناس . . خوفُهم من الفقر ، وستر عنهم خوفَ سؤال رب العالمين والتفكر فيه ؛ اشتغالُهم بما يقول الناس فيهم ؛ فإنهم إذا فعلوا شيئاً ؛ نظروا وقالوا : أيش يقول الناس عنا في هـٰذا ؟ ويا ليت الناس لم يعلموا بهـٰذا ، ولم ينظروا فيما يقول بهم رب العالمين جل جلاله ؛ قال تعالىٰ : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . [انتهىٰ « الحلية » ٨/ ٦٤] .

وقال في « اللوامع » : قال شقيق : قال بعض العارفين : **اعلم** : أن صفاء الحلال لا يُنال إلا بصفاء معرفة أربعة أشياء : معرفة الرب جل جلاله ، ومعرفة النفس ، ومعرفة الموت ، ومعرفة ما بعد الموت من وعد ووعيد ؛ فإن من عرف الله عز وجل ؛ قام بحقه ، ومن عرف

---

(١) **الحُقُّ** : وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيره .

(٢) **السهم العائر** : الذي لا يعرف راميه .

نفسه ؛ قام علىٰ مخالفتها ، ومن عرف الموت ؛ استعد لوروده ، ومن شهد وعد الله سبحانه وتعالىٰ ؛ امتثل أمره ، ومن شهد وعيده ؛ انزجر عن نهيه ، **وقانون الجميع** : الوفاء والأدب والمروءة .

فأما الوفاء : فهو انفراد القلب بفردانيته ، والثبات علىٰ مشاهدة وحدانيته ، والمؤانسة بنور أولويته .

وأما الأدب : فمراعاة الخطوات والخطرات ، وحفظ الأوقات ، والانقطاع عن المخالفات .

وأما المروءة : فالمقام على الذكر بالصفاء قولاً وفعلاً ونية ، مع صيانة النفس عن المحرمات والشبهات ظاهراً وباطناً ، وحفظ الأدب ؛ لمراعاة ما هو آت ، واستدراك ما فات ، قل ذلك أم كثر ، فإذا اجتمعت هـٰذه الخصال ؛ وجد لذة الوصال ، وحذر حرقة البين ، وهيج قلبه نار الاشتياق . انتهىٰ .

وقال السلمي في « الطبقات » : قال شقيق البلخي رحمه الله تعالىٰ : احذر أن تهلكك الدنيا ، ولا تهتم أن يعطي رزقك أحداً سواك ، أو أن ينقص منه شيئاً[1] .

وقال : احذر إذا جاءك الموت أن تسأل الرجعة .

وسئل : بأي شيء يعرف الفقير أنه أصاب من الله عز وجل حفظ الفقر ؟ فقال : إذا خشي الغنىٰ وعدَّه بلاء ، وعد الفقر نعمة وغنيمة .

وقال : طهر قلبك من عروض الدنيا حتىٰ تُدخل فيه الآخرة . انتهىٰ [« الطبقات » ٦٣ـ٦٦] .

وقال الحافظ أبو نعيم : وقال شقيق رحمه الله : إذا أصبحت ؛ فلا يكن همك إلا في طلب رضوان الله سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنه تبارك وتعالىٰ إذا علم من عبده ذلك وهو سبحانه وتعالىٰ هو الذي يعطيه ذلك ؛ فيهون عليك رضا الخلق وسخطهم ، ولا يكونن خوفك إلا علىٰ ما قدَّمت من الذنوب ، حتىٰ لا تجترىء أن تزيد عليها ، ولا يكن استعدادك إلا للموت ، فإذا كنت كذلك ؛ لو جُعلت لك الدنيا بحذافيرها ؛ لم ترغب فيها .

وقال شقيق : مَثَل المؤمن كمَثَل رجل غرس نخلة وهو يخاف أن تحمل شوكاً ، ومَثَلُ المنافق كمَثَل رجل زرع شوكاً وهو يطمع أن يحصد رطباً ، هيهات! هيهات! كل من عمل

---

(١) كذا في النسخ ، وفي « الطبقات » : (احذر ألا تهلك بالدنيا ، ولا تهتم ؛ فإن رزقك لا يعطىٰ لأحدٍ سواك) .

حسناً . فإن الله سبحانه وتعالىٰ لا يجزيه إلا حسناً ، ولا ينزل الأبرار منازل الفجار أبداً .

وقال : ينبغي للعبد أن يكون قلبه أبداً مع الله سبحانه وتعالىٰ ، فيقول : يا رب ؛ أعطني الإيمان ، وتوفني عليه ، واحفظه علي ، وعافني من البلاء ، واستر عيوبي ، وارزقني ، واجعل نعمك علي متوالية ، واجعلني لأنعمك من الشاكرين ، ويكون أبداً متفكراً في نعم الله عز وجل عليه ؛ فإن التفكر في نعم الله سبحانه وتعالىٰ شكر ، والغفلة عنها شهوة وشقاوة ، نسأل الله العظيم أن يجعلنا لأنعمه من الشاكرين .

وقال شقيق رحمه الله : مَن دار حول العُلُوِّ في الدنيا ؛ فإنما يدور حول النار في الآخرة ، ومن دار حول الشهوات في الدنيا ؛ فإنما يدور حول درجاته في الآخرة ، حتىٰ لا تبقىٰ له درجة .

وقال : ليس شيء أحب إليَّ من الضيف ؛ لأن رزقه على الله سبحانه وتعالىٰ ، وأجره لي بفضل الله تعالىٰ وكرمه .

وقال : اتق الأغنياء والقرب منهم ؛ فإنك متىٰ ما عقدت قلبك معهم وطمعت فيهم ؛ فقد اتخذتهم رباً من دون الله عز وجل . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٦٩-٧١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال حاتم الأصم رحمه الله : قال لي شقيق : اصحَبِ الناس كما تَصحَب النار ، خذ منها منفعتها ، واحذر أنْ تحرقك .

أسند شقيق البلخي عن عباد بن كثير ، وغيره ، وصحب إبراهيم بن أدهم . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٠٧] .

وقال القشيري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كان سبب زهد شقيق بن إبراهيم : أنه رأىٰ مملوكاً يلعب ويمزح في زمان قحط ، وكان الناس في شدة مهتمين ، فقال شقيق رحمه الله لذلك الغلام : ما هـٰذا النشاط الذي فيك ؟ أما ترىٰ ما الناس فيه من الحزن والقحط ؟ فقال الغلام : وما علي من ذلك ولمولاي قرية خالصة يدخل إليه منها ما نحتاج إليه ، فلِمَ أهتم أو أحزن ؟ فانتبه عند ذلك شقيق ، وقال لنفسه : إذا كان لمولاه قرية ومولاه مخلوق فقير ، وثق به ولم يهتم لرزقه ؛ فكيف يهتم المسلم لرزقه ومولاه الله تبارك وتعالىٰ خالق الخلائق ورازقهم أجمعين سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الرسالة » ٢٢] .

وقال الغزالي ـ رحمه الله ـ : حكي أنه جاء شقيق البلخي إلىٰ أستاذ له يقال له : أبو هاشم الرماني ، وفي طرف كسائه شيء مصرور ، فقال له أستاذه : أيش هـٰذا معك ؟ فقال له :

هـٰذا شيء أعطانيه أخ لي لأفطر عليه ، فقال له : يا شقيق ؛ وأنت تحدث نفسك أنك تبقىٰ إلى الليل ؟!! لا كلمتك مدة كذا[1] ، ثم أغلق الباب في وجهي ودخل . [انتهىٰ « الإحياء » ٤/٤٥٤] .

وقال في « المناقب » : [قال شقيق] : من خرج من النعمة ووقع في القلة : فإن لم تكن القلة عنده نعمة ؛ فهو في غمين : غم في الدنيا ، وغم في الآخرة ، وإن كانت القلة عنده أعظم من النعمة ؛ فهو في فرحين : فرح في الدنيا ، وفرح في الآخرة ، وهو أعظم .

وقيل له : بأي شيء يُعرف أن العبد واثق بالله تعالىٰ ؟ فقال : إذا فاته شيء من الدنيا ؛ يكون عنده أحب إليه مما لو أتته .

وقال : حفظ الفقير : أن يرىٰ منة الله عز وجل عليه في الفقر .

وقال : بينا أنا نائم حيال الكعبة في المسجد الحرام ؛ إذ رأيت ملكين أتياني ، فوقفا عند رأسي ، فقال أحدهما لصاحبه : كم حج العام ؟ فقال له صاحبه : ثلاثة : فلان وفلان وفلان ، فقال له : شقيق منهم ؟ فقال : لا ، شقيق عليه فضل ثوب ، قال : فلما كان العام الآتي ؛ حججت في عباء ، فبينا أنا راقد في المسجد الحرام رأيتهما في منامي ، فقال أحدهما لصاحبه : كم حج العام ؟ قال : ثلاثة : فلان وفلان وشقيق ، إلا أن الله عز وجل شفعهم في كل من حج .

وقال : العبادة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الهرب من الناس ، وواحد في قلة الشيء . [انتهىٰ] .

وقال السلمي : قال شقيق : إذا أردت أن تكون في راحة ؛ فكُلْ ما أصبت ، والبس ما وجدت ، وارض بما قضى الله عز وجل . [انتهىٰ « الطبقات » ٦٦] .

وعنه قال : من عمل بثلاث خصال ؛ أعطاه الله الجنة :

أولها : معرفة الله عز وجل بقلبه ولسانه وسمعه وجميع جوارحه .

والثاني : أن يكون بما في يد الله أوثق بما في يديه .

والثالث : يرضىٰ بما قسم الله له .

قال : وتفسير المعرفة بالله عز وجل : ألاَّ يعمل عملاً سراً ولا علانية إلا وهو مستيقن

---

(١) في « الإحياء » : (لا كلمتك أبداً) .

أن الله عز وجل مطلع عليه ، ولا يحرك من جوارحه شيئاً إلا بإقامة الحجة عند الله ، فذلك حق المعرفة .

وتفسير الثقة بالله : ألاَّ يسمع في طمع ، ولا يتكلم في طمع ، ولا يرجو دون الله سواه ، ولا يخاف دون الله سواه ، ولا يحرك من جوارحه شيئاً دون الله ؛ يعني : في طاعته واجتناب معصيته .

قال : وتفسير الرضا علىٰ أربع خصال[1] :

أولها : أمن من الفقر .

والثاني : حب القلة .

والثالث : خوف الضمان .

قال : وتفسير الضمان : ألاَّ يخاف إذا وقع في يده شيء من أمر الدنيا ؛ أن يقيم حجته بين يدي الله تعالىٰ في أخذه وإعطائه علىٰ أي الوجوه كان .

وعن شقيق قال : ثلاث خصال هن تاج الزاهد :

الأولىٰ : أن يميل على الهوىٰ ولا يميل مع الهوىٰ .

والثانية : ينقطع إلى الزهد بقلبه .

والثالثة : أن يذكر كلما خلا بنفسه كيف مدخله في قبره ، وكيف مخرجه ، ويذكر الجوع ، والعطش ، والعري ، وطول القيامة ، والحساب ، والصراط ، وطول الحساب ، والفضيحة البادية ، فإذا ذكر ذلك ؛ شغله عن ذكر دار الغرور ، فإذا كان كذلك ؛ كان من محبي الزهاد ، ومَن أحبهم كان معهم .

وعنه : قال شقيق : ما من يوم . . إلا ويستخبر إبليس خبر كل آدمي سبع مرات ، فإذا سمع خبر عبد تاب إلى الله عز وجل من ذنوبه ؛ صاح صيحة تجتمع إليه ذريته كلهم من المشرق والمغرب ، فيقولون له : ما لك يا سيدنا ؟ فيقول : قد تاب فلان بن فلان ، فما الحيلة في فساده ؟ ويقول لهم : هل من قرابته أو أصدقائه أو من جيرانه معكم أحد ؟ فيقول بعضهم لبعض : نعم ، وهو من شياطين الإنس ، فيقول لأحدهم : اذهب إلىٰ قرابته ، وقل له : ما أشد ما أخذ فيه ، قال : فإن لإبليس خمسة أبواب ، فيقول له قرابته : إنك أخذت

---

(١) ذكر المؤلف رحمه الله ثلاث خصال وسكت عن الرابعة ، وكذا في « الحلية » .

بالشدة ، فإن أخذ بقوله ؛ رجع وهلك ، ويقول له الآخر من قرابته : هـٰذا الذي أخذت فيه لا يتم ، فإن أخذ بقوله ؛ رجع وهلك ، وإلا ؛ هلك الآخر ، ويقول له الثالث : كما أنت حتىٰ تُفنِي ما في يديك من الحطام ، فإن أخذ بقوله ؛ رجع وهلك ، وإلا ؛ هلك الآخر ، ويقول الرابع : تركت العمل فلا تعمل ، وأنت ليلك ونهارك في راحة لا تعمل ، فيقول له الخامس : جزاك الله خيراً حين تبت وأخذت في عمل الآخرة ، ومن مثلك والحق في يديك ، فإذا أجابهم فقال : إنك أخذت بالشدة ؛ يرد عليه ، ويقول : إني كنت قبل اليوم في شدة ، فأما أنا اليوم . . ففي راحة ، كنت في الشدة حين أردت أن أرضي ربي وأرضي الناس ، فمتىٰ ما أرضيت ربي ؛ أسخطت الناس ، ومتىٰ ما أرضيت الناس ؛ أسخطت ربي ، فأخذت اليوم في رضا ربي الواحد القهار ، وتركت الناس ، فصرت اليوم حراً ، وهوَّنتُ عليَّ أمري حيث أعبد ربي وحده لا شريك له .

فإذا قال : إنك لا تتمه ؛ فقل : إنما الإتمام على الله عز وجل ، وعليَّ أن أدخل في العمل ، وتمامه على الله تعالىٰ .

فإذا قال : كما أنت حتىٰ تفني ما في يديك من الحطام ؛ فقل له : ففيم تخوفني ؟ وقد استيقنت أن كل شيء ليس هو لي ، فإني لا أقدر عليه ، وما كان لي : فلو دخلت في الأرضين السبع ؛ لدخل علي إذ فرَّغت نفسي واشتغلت بعبادة ربي ، ففيم تخوفني ؟

فإذا قال : إنك لا تعمل وصرت بلا عمل ؛ فقل : إني في عمل شديد قد استبان لي عدو في قلبي ، ولن يرضىٰ عني ربي إلا بكسر هـٰذا العدو الذي في قلبي ، فأكون ناصراً عليه في كل ما ألقىٰ في قلبي ، فأي عمل أشد من هـٰذا ؟

فإذا أجبته بهـٰذا ، واستقمت علىٰ طاعة الله ؛ يجيء إليك من قبل العُجب بنفسك ، فيقول : مَن مثلك جزاك الله خيراً وعافاك ، فيريد أن يوقع في قلبك العجب ، فقل له : إذا استبان لك أن الحق هـٰذا والصواب في هـٰذا العمل ؛ فمن يمنعك أن تأخذ فيه قبل أن يأتيك الموت .

فإذا أجبتهم بهـٰذا ؛ تفرقوا عنك ، ولا يكون لهم عليك سبيل ، فيأتون إبليس ، فيخبرونه ، فيقول لهم : إنه قد أصاب الطريق والهدىٰ ؛ فليس لكم عليه سبيل ، ولـٰكن لا يرضىٰ بهـٰذا حتىٰ يدعو الناسَ إلىٰ عبادة الله عز وجل ، فامنعوا الناس عنه ، وقولوا لهم : إنه لا يحسن شيئاً ، فلا تختلفوا إليه .

عن حاتم قال : سمعت شقيقاً يقول : من لم يعرف الله بالقدرة ؛ فإنه لا يعرفه ، فقيل : وكيف يعرفه بالقدرة ؟ قال : يعرف أن الله قادر إذا كان معه شيء . . أن يأخذه منه فيعطيه غيره ، وإذا لم يكن معه شيء . . أن يعطيه .

وعنه : سمعت شقيقاً يقول : المؤمن مشغول بخصلتين ، والمنافق مشغول بخصلتين ، المؤمن : بالعبر والتفكر ، والمنافق : مشغول بالحرص والأمل . [انتهىٰ « الحلية » ٨/ ٦١ـ٦٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو علي الفضيل بن عياض

رضي الله عنه

روى الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن إبراهيم بن الأشعث قال : ما رأيت أحداً كان الله عز وجل في صدره أعظمَ من الفضيل ، كان إذا ذكر الله سبحانه وتعالىٰ ، أو ذُكِرَ عنده ، أو سمع القرآن . . ظهر به الخوف والحزن ، وفاضت عيناه ، ولا يزال يبكي حتىٰ يرحمه من بحضرته .

وكان دائم الخوف ، شديد الفكرة ، ما رأيت رجلاً يريد الله عز وجل بعلمه ، وعمله ، وأخذه ، وعطائه ، ومنعه ، وبذله ، وبغضه ، وحبه ، وخصاله كلها . . غير الفضيل بن عياض .

وقال : كنا إذا خرجنا مع الفضيل في جنازة . . فلا يزال يعظ ويذكِّر ويبكي حتىٰ كأنه يودع أصحابه ، وهو ذاهب إلى الآخرة ، حتىٰ يصل إلى المقبرة ، فيجلس حتىٰ كأنه بين الموتىٰ من زمان ، فما نجد فيه من الحزن والكآبة والبكاء حتىٰ يقوم ، فيرجع كأنه رجع من الآخرة يخبر عنها .

قال محمد بن حاتم : قال الفضيل : لو خُيِّرت بين أن أُبعث فأدخل الجنة وبين ألاَّ أُبعث . . لاخترت ألاَّ أُبعث ، فقيل لمحمد بن حاتم : هـٰذا من الحياء ؟ قال : نعم ، هـٰذا من طريق الحياء من الله عز وجل .

وفي رواية أخرىٰ : لو خيرت بين أن أعيش كلباً وأموت كلباً ولا أَرىٰ يوم القيامة . . لاخترت أن أعيش كلباً وأموت كلباً ولا أَرىٰ يوم القيامة .

عن سفيان بن عيينة قال : ما رأيت أحداً أخوف من الفضيل وابنه[1] .

وقال الفيض بن إسحاق : سمعت فضيلاً يقول : والله ؛ لأن أكون هـٰذا التراب ، أو هـٰذا

---

(١) علي بن الفضيل ، ستأتي ترجمته إن شاء الله تعالىٰ .

الحائط . . أحب إلي من أن أكون مثل أفضل أهل الأرض اليوم ، وما يسرني أن أعرف الأمر حق معرفته ، إذ لو عرفت ذلك . . لطاش عقلي ، ولو أن أهل السماء والأرض طلبوا أن يكونوا تراباً فشُفِّعوا وأُعطوا ذلك . . لكانوا قد أُعطوا عظيماً ، ولو أن جميع أهل الأرض من جن وإنس ، والطير الذي في الهواء ، والوحش الذي في البر ، والحيتان التي في البحر علموا الذي يصيرون إليه ، ثم حزنوا لذلك ، وبكوا طول عمرهم . . كانوا موضع ذلك .

ابن آدم ؛ أنت تخاف الموت أو تعرف الموت ؟! لو أخبرتني أنك تخاف الموت . . ما قبلتُ منك ، لو خفتَ الموت . . ما نفعك طعام ولا شراب ولا شيء من الدنيا .

وقد سأل داوود عليه الصلاة والسلام ربه أن يلقي الخوف في قلبه ، ففعل ، فلم يحتمله قلبه وطاش عقله ، حتىٰ ما كان يعقل صلاة ولا ينتفع بشيء ، ثم قيل له : أتحب أن تترك علىٰ ما أنت عليه الآن أو نردك إلىٰ ما كنت عليه ؟ قال : ردوني ، فرُدَّ ، فرجع إلىٰ عقله .

عن أبي جعفر محمد بن عبد الله الحذَّاء يقول : وقفنا للفضيل علىٰ باب المسجد الحرام ونحن شباب علينا الصوف ، فخرج علينا ، فرآنا ، فقال : وددت أني لم أركم ولم تروني ، أتروني سلمت منكم أن أكون مرائياً لكم حين رأيتكم وتراءيتم لي ؟ لأن أحلف عشراً أني مراءٍ وأني مخادعٌ . . أحب إلي من أن أحلِف واحدة أني لست كذلك .

عن علي بن يحيىٰ : سمعت الفضيل بن عياض يقول لأصحاب الحديث : إني لأذكركم بالليل ـ أو جوف الليل ـ فيقع عليَّ التقطير[1] .

عن إسحاق بن إبراهيم الطبري قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : أنت تخاف الموت ؟ لو قلت : إنك تخاف الموت . . ما قبلت منك ، ولو خفت الموت . . ما نفعك طعام ولا شراب ولا شيء من الدنيا ، ولو عرفت الموت حق معرفته . . ما تزوجت ولا طلبت الولد .

وقال الفضيل : ما يسرني أن أعرف هـٰذا الأمر حق معرفته ، إذاً لطاش عقلي ولم أنتفع بشيء .

وقال إسحاق بن إبراهيم : قال رجل للفضيل : كيف أصبحت يا أبا علي ؟ وكان يثقل عليه كيف أصبحت وكيف أمسيت ، فقال : في عافية ، فقال : كيف حالك ؟ فقال : عن أي

(١) لعل المراد بالتقطير : قوله في رواية أخرىٰ ستأتي : (وإني لأسمع صوت أصحاب الحديث ، فيأخذني البول فَرَقاً منهم) .

حال تسأل ؛ عن حال الدنيا أو حال الآخرة ؟ إن كنتَ تسأل عن حال الدنيا . . فإنها قد مالت بنا وذهبت بنا كل مذهب ، وإن كنت تسأل عن حال الآخرة . . فكيف ترىٰ حال من كثرت ذنوبه ، وضعف عمله ، وفني عمره ، ولم يتزود لمعاده ، ولم يتأهب للموت ، ولم يتضع للموت ، ولم يتسم للموت ، ولم يتزين للموت ، وتزين للدنيا هيبة ، وقعد يحدث نفسه : واجتمعوا حولك يكتبون عنك الحديث ؟! فقال : بخ بخ! قد تفرغتَ للحديث ، ثم قال : هاه! وتنفس طويلاً ، وقال : ويحك! أَوَأنت تحسن تحدث أو تتكلم ؟! أَوَأنت أهل أن تتحدث أو تتكلم ؟! أَوَأنت أهل أن يُحمَل عنك ؟! استحيي يا أحمق بين الحمقىٰ ، لولا قلة حيائك وصفاقة[1] وجهك . . ما جلستَ تحدث وأنت أنت ، أما تعرف نفسك ؟! أما تذكر ما كنت وكيف كنت ؟! أمَا لو عرفوك . . ما جلسوا إليك ، ولا سمعوا منك شيئاً أبداً .

ثم يأخذ في مثل هـٰذا ويقول : ويحك! أما تذكر الموت ؟! أما للموت في قلبك موضع ؟! أما تدري متىٰ تؤخذ فيرمىٰ بك في القبر وضيقه ووحشته ، وما ينبغي لك أن تتكلم بفمك كله ـ يعني نفسه ـ تدري من يتكلم بفمه كله ؟ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطعمهم الطيِّب ويأكل الخبيث ، ويكسوهم الليِّن ويلبس الغليظ الخشن ، وكان يعطيهم حقوقهم ويزيدهم ، أعطىٰ رجلاً أربعة آلاف درهم وزاده ألفاً ، فقيل له : ألا تزيد ابنك كما زدت هـٰذا ؟ فقال : إن أبا هـٰذا ثبت يوم أحد ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه أكثر من ابني هـٰذا ، فقدمت حُبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ حُبِّي .

وقال إسحاق بن إبراهيم : ما رأيت أحداً كان أخوف علىٰ نفسه ولا أرجىٰ للناس . . من الفضيل ، كانت قراءته حزينة شهية مرتلة ، كأنه يخاطب إنساناً ، وإذا مر بآية فيها ذكر الجنة . . تردد فيها وسأل ، وكان ينام من أول الليل ساعة ، ثم يقوم ، فإذا غلبه النوم . . نام ساعة أخرىٰ ، ثم يقوم إلى الصباح ، وكان صحيح الحديث ، صدوق اللسان ، شديد الهيبة للحديث إذا حدَّث .

وكان يثقل عليه الحديث جداً ، وربما قال لي : لو أنك طلبت مني الدراهم أو الدنانير . . كان أيسر علي من أن تطلب مني الحديث ، ثم يقول : أمَا والله ؛ لو عملت بما سمعت . . لكان لك في ذلك شغل عما لم تسمع ، ثم قال : إذا كان بين يديك طعام تأكله ، فتأخذ اللقمة وترمي بها خلف ظهرك ، وكلما أخذت لقمة رميت بها خلف ظهرك . . متىٰ تشبع ؟

---

(١) صفاقة : وقاحة .

وقال الفضيل : لا تجعل الرجال أوصياءك ، فإن ضيعوا ما أوصيتهم به . . لمتهم ، وكيف تلومهم إذا ضيعوا وصيتك وأنت قد ضيعتها قبلهم في حياتك ؟! ثم تعلم أنك تصير إلىٰ بيت الوحشة وبيت الظلمة وبيت الدود ، ويكون زائرك منكر ونكير ، وقبرك إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، ثم بكىٰ ، وقال : أعاذنا الله وإياكم من النار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقال : لم نر أقر عيناً ممن خرج من شدة إلىٰ رخاء ، يقدم علىٰ خيرِ مَقْدَم ، وينزل علىٰ خير منزل ، إذا شاهد ما له من الكرامة . . يقول : لو علمت . . ما سألتك إلا الموت ، ولم يُر يوم القيامة أقرَّ عيناً ممن خرج من الضيق والشدة والجوع والعطش ، ثم نزل على الجنة ، يقال لهم : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، ولم يُر يومئذ أسخن عيناً ممن خرج من الروح والسعة والرخاء والنعمة ، ثم نزل على النار ، ويقال لهم : ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : إذا مات الفضيل . . ارتفع الحزن .

وقال الفضيل رحمه الله : إن قدرت ألاَّ تُعرَف . . فافعل ، وما عليك إن لم يُثنَ عليك ، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت عند الله تبارك وتعالىٰ محموداً .

وقال : مَن أحب أن يُذكَر . . لم يُذكر ، ومن كره أنْ يُذكر . . ذُكر .

وقال : إذا أحب الله عبداً . . أكثر غمه ، وإذا أبغض الله تعالىٰ عبداً . . وسَّع عليه دنياه .

وقال : ليس من عبد أعطي شيئاً من الدنيا . . إلا كان نقصاناً له من الدرجات في الجنة ، وإن كان على الله سبحانه وتعالىٰ كريماً .

وقال : عاملوا الله عز وجل بالصدق في السر ؛ فإن الرفيع . . من رفعه الله تعالىٰ ، وإذا أحب الله تعالىٰ عبداً . . أسكن محبته في قلوب العباد .

وقال : من خاف الله سبحانه وتعالىٰ . . لم يضرَّه شيء ، ومن خاف غير الله تعالىٰ . . لم ينفعه أحد .

وقيل له : يا أبا علي ؛ كيف الخلاص مما نحن فيه ؟ فقال له : أخبرني ؛ من أطاع الله عز وجل . . هل تضره معصية أحد ؟ قال : لا ، قال : فمن عصى الله تعالىٰ . . هل تنفعه طاعة أحد ؟ قال : لا ، قال : فهو الخلاص إن أردت الخلاص .

وقال : وعزته وجلاله ؛ لو أدخلني النار فصرت فيها . . ما آيسته .

وقال إسحاق بن إبراهيم : وقفت مع الفضيل بعرفات ، فلم أسمع من دعائه شيئاً إلا أنه واضعاً يده اليمنىٰ علىٰ خده ، وواضعاً رأسه يبكي بكاء خفياً ، فلم يزل كذلك حتىٰ أفاض الإمام ، فرفع رأسه إلى السماء ، وقال : واسوأتاه والله منك وإن عفوت (ثلاث مرات) .

وقال : إن رهبة العبد من الله عز وجل علىٰ قدر علمه بالله سبحانه وتعالىٰ ، وإن زهادته في الدنيا علىٰ قدر رغبته في الآخرة .

وقال : لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي حلالاً لا أحاسب بها في الآخرة . . لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٨٤ـ٨٩] .

وقال في « مناقب الأبرار » : قال الفضيل بن عياض رحمه الله : لو كانت الدنيا ذهباً يفنىٰ ، والآخرة خزفاً يبقىٰ . . لاخترنا خزفاً يبقىٰ علىٰ ذهب يفنىٰ ، فكيف إذا كان بالعكس ؟ . انتهىٰ .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كان بعضهم إذا مرض . . أغلق بابه ، فلم يدخل عليه أحد حتىٰ يطيب[1] ، فيخرج إليهم ، منهم الفضيل بن عياض ووهيب وبشر رحمهم الله .

وقال الفضيل رحمه الله : إنما تقاطَع الناس بالتكلف ، يزور أحدهم أخاه . . فيتكلف له ، فيقطعه ذلك عنه . [انتهىٰ « الإحياء » ٢/ ١٠ وَ٤/ ٢٩٣] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال علي بن الحسن : بلغ فضيلاً : أن جريراً يريد أن يأتيه ، فأقفل الباب من خارج ، فجاء جرير ، فرأى الباب مقفلاً ، فرجع ، فلما قيل له[2] . . قال : ما يصنع بي ؟! يظهر لي محاسن كلامه ، وأظهر له محاسن كلامي ، فإذا لم نجتمع . . لا يتزين لي ولا أتزين له .

قال علي : وما رأيت أخوف منه ، ولا أنصح منه للمسلمين ، ولقد رأيته في المنام قائماً علىٰ صندوق وهو يعطي المصاحف ، والناس حوله ، فيهم سفيان بن عيينة وهارون الرشيد .

قال : وما رأيته يودع أحداً فيقدر أن يتم وداعه ، ولقد ودع جريراً فقال له : أوصيك بتقوى الله ، فلما أراد أن يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ خنقته العبرة ،

---

(١) **يطيب** : أي يبرأ من المرض .

(٢) أي : للفضيل .

فترك يده ومضىٰ ، فما زال ينشج من موضعه إلى المسجد .

وعن شعيب بن حرب قال : بينا أنا أطوف بالبيت ؛ إذا برجل يشد ثوبي من خلفي ، فالتفت ؛ فإذا فضيل يقول : لو شَفَع فيَّ وفيك أهل السماء . . ما كنا أهلاً أن يُشْفَع فينا ، قال شعيب : ولم أكن رأيته قبل ذلك بسَنة ، قال : فكسرني ، وتمنيت أني لم أكن رأيته .

وقال : ليست الدنيا دار إقامة ، وإنما أهبط آدم إليها عقوبة ، ألا ترىٰ كيف يزويها عنه ؟! يمررها عليه مرة بالجوع ، ومرة بالعري ، ومرة بالحاجة ؛ كما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها ، تسقيه مرة حُضَضاً[1] ، ومرة صَبِراً ، وإنما تريد بذلك ما هو خير له .

وقال الفيض بن إسحاق : قال لي الفضيل : تريد الجنة مع النبيين والصديقين ، وتريد أن تقف الموقف مع نوح وإبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بأي عمل عملته ؟ وبأي شهوة تركتها لله عز وجل ؟ وأي قريب باعدته في الله عز وجل ؟ وأي عدو قربته في الله تعالىٰ ؟!

وقال الفضيل : لا يَسْلم لك قلبك حتىٰ لا تبالي من أكل الدنيا .

وقال : جُعل الخير كله في بيت ، وجُعل مفتاحه الزهد في الدنيا .

وقال الفضيل : قال الله عز وجل : (إذا عصاني من يعرفني . . سلطت عليه من لا يعرفني) .

وقال : لو أن لي دعوةً تستجاب . . ما صيرتها إلا في الإمام العادل ؛ لأني إن صيرتها في نفسي . . لم تتعدَّني ، وإن صيرتها في الإمام . . فصلاح الإمام صلاح البلاد والعباد ، فقام ابن المبارك ، وقبَّل جبهته ، وقال : يا معلم الخير ؛ من يحسن هـٰذا غيرك .

وقال الفضيل : إن كثيراً من علمائكم زيُّه أشبه بزي كسرىٰ وقيصر ، ومَن أعظم خسارة ممن لم يتابع سُنَّةَ سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ؟! إن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يضع لبنة علىٰ لبنة ، ولا قصبة علىٰ قصبة ، ولـٰكن رُفع له عَلَم ، فشمر إليه .

وقال الفضيل : ما من ليلة . . إلا والجليل جل جلاله يقول : (مَن أعظم مني جوداً ، والخلائق لي عاصون ، وأنا لهم مراقب ، وأَكْلَؤُهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني ، وأتولىٰ حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم ، أَجُود على العاصي ، وأتفضل على

(١) **الحُضَض** : دواء من عصارة الشجر .

المسيء ، من ذا الذي دعاني فلم أجبه ؟! أو من ذا الذي سألني فلم أعطه ؟! أم من ذا الذي أناخ ببابي فنحيته ؟! أنا الفضل ومني الفضل ، أنا الجواد ومني الجود ، أنا الكريم ومني الكرم ، ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي ، ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني ، وأعطيه ما لم يسألني ، ومن كرمي أني أجعل التائب كأنه لم يعصني ، فأين عني تهرب الخلائق ؟! وأين عن بابي يتنحى العاصون ؟!) .

وصنع ابن أخي الفضيل لعمه خبيصاً(١) ، وقدمه إليه ، وقال : يا عمي ؛ كُلْ معي ، قال له : يابن أخي ؛ إن الثكلىٰ لا تجد طعم ما تأكل .

وقال الفضيل : لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتىٰ يَعُدَّ البلاء نعمة ، والرخاء مصيبة ، وحتىٰ لا يبالي مَن أَكَل الدنيا ، وحتىٰ لا يحبَّ أن يُحمَد علىٰ عبادة الله عز وجل .

وكان يقول : حرام علىٰ قلوبكم أن تصيبوا حلاوة الإيمان حتىٰ تزهدوا في الدنيا .

وقال الفضيل : لو قيل لك : يا مرائي . . غضبت وشق عليك ، وأنت تعلم في نفسك أنك مراءٍ ؛ لأن من ريائك أنك تزينت للدنيا وتصنعت لها ، ولـٰكن أنت لا تشعر بريائك ، بل تهيأت وتصنعت حتىٰ عرفك الناس ، فقالوا : هـٰذا رجل صالح ، فأكرموك ، وقضوا لك الحوائج ، ووسعوا لك في المجلس ، وإنما عرفوك بالله تعالىٰ ، ولولا ذلك . . لهنت عليهم كما هان عليهم الفاسق .

وقال : لو حلفت أني مراءٍ . . كان أحبَّ إلي من أن أحلف أني لست بمراءٍ .

وقال : لو رأيت رجلاً اجتمع الناس حوله . . لقلت : هـٰذا مجنون ، ومن ذا الذي إذا اجتمع الناس حوله لا يحب أن يجوِّد لهم كلامه ؟!

وكان كثيراً ما يقول : احفظ لسانك ، وأَقبِل علىٰ شأنك ، واعرف زمانك ، وأَخفِ مكانك .

وقال الحسين بن زياد : دخلت على الفضيل يوماً فقال لي : عساك ترىٰ أن في المسجد الحرام رجلاً شراً مني ومنك ، إن كنت ترىٰ أن فيه شراً مني ومنك . . فقد ابتُليت بعظيم .

وقال الفيض بن إسحاق : سمعت الفضيل يقول : إني لأسمع صوت حلقة الباب ، فأكره ذلك ، قريباً كان أم بعيداً ، لوددت أنه طار في الناس إني قَدْ مِتُّ حتىٰ لا يُسمع لي بذِكر ،

---

(١) **الخبيص** : نوع من الحلوىٰ مصنوع من تمر وسمن .

وإني لأسمع أصحاب الحديث ، فيأخذني البول فَرَقاً منهم .

وكان يقول لأصحاب الحديث : لِمَ تُكرِهوني علىٰ أمر[1] تعلمون أني كاره له ؟! لو كنت عبداً لكم وكرهتكم. . كان ينبغي لكم أن تبيعوني ، ولو أعلم أني إذا دفعت ردائي هـٰذا لكم ذهبتم عني. . لدفعته إليكم .

وكان يقول : ما أرىٰ إخراجك[2] من الحل إلى الحرم إلا ليُضْعف عليك الذنب ، أمَا تستحي كيف تذكر الدينار والدرهم وأنت حول البيت ؟! إنما كان يأتيه التائب والمستجير .

وقال : المؤمن يستر ويعظ وينصح ، والفاجر يهتك ويعيِّر ويُفشي .

وقال : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله عز وجل منهما .

وكان يقول : إذا لم تقدر علىٰ قيام الليل وصيام النهار. . فاعلم أنك محروم مكبل ، كبلتك خطيئتك .

وقال الفضيل : حدثني منصور ، عن مجاهد قال : إن المؤمن إذا مات. . بكت عليه الأرض أربعين صباحاً .

وقال : إذا خالطت. . فخالط حَسَنَ الخُلُق ؛ فإنه لا يدعو إلا إلىٰ خير ، وصاحبُه منه في راحة ، ولا تخالط سيء الخلق ؛ فإنه لا يدعو إلا إلىٰ شر ، وصاحبه منه في عناء .

وقال : أنا لا أعتقد أخا الرجل في الرضا ، ولـٰكن أعتقد أخاه في الغضب .

وقال : إذا نظرت إلىٰ رجل من أهل البيت. . كأني نظرت إلىٰ رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : قال الفضيل : أشتهي إذا مرضت. . لا أُعاد .

وقال الفضيل : إذا ظهرت الغِيبة. . ارتفعت الأخوة في الله سبحانه وتعالىٰ ، ويكون مَثَلُكم في ذلك الزمان. . مَثَلَ شيء مطلي بالذهب والفضة ، داخله خبيث وخارجه حسن .

وقال : درجة الرضا عن الله عز وجل درجة المقربين ، ليس بينهم وبين الله عز وجل إلا روح وريحان .

---

(١) يقصد الرواية للحديث .

(٢) يخاطب نفسه .

وقال : الرضا : هو ألاَّ تحب أن تكون علىٰ غير المنزلة التي أقامك الله عز وجل فيها .

وكان يقول : إذا قيل لك : أتحب الله سبحانه وتعالىٰ ؟ أو تخاف الله عز وجل ؟ فاسكت ؛ فإنك إن قلت : لا . . كفرت ، وإن قلت : نعم وليس وصفك وصف المحبين والخائفين . . فاحذر المقت . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٩٠ـ٩٧] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قال الفضيل ـ وقد رأى الناس بعرفات وكثرتَهم وما هم عليه من التضرع ـ : أرأيتم لو أن هـٰؤلاء جاؤوا إلىٰ رجل وسألوه دانقاً أكان يردهم ؟ قالوا : لا ، قال : فلرحمة الله عز وجل لهـٰؤلاء أقل من ذلك الدانق .

وقال الفضيل : نظرُ الرجل إلىٰ وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة .

وقال الفضيل في بعض كلامه : هاه ، هاه! تريد أن تسكن الفردوس ، وتجاور الرحمـٰن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بأي عمل عملته ؟! بأي شهوة تركتها ؟! بأي غيظٍ كظمته ؟! بأي رحم وصلتها ؟! بأي زلة لأخيك غفرتها ؟! بأي قريب باعدته في الله ؟! بأي بعيد قاربته في الله ؟! .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الفضيل : قال داوود : المؤمن قليل الكلام كثير العمل ، والمنافق كثير الكلام قليل العمل .

وقال : رجل لا يخالط السلطان ولا يزيد على المكتوبة . . أفضل عندنا ممن قام الليل وصام النهار وحج واعتمر وجاهد في سبيل الله عز وجل وهو يخالطهم .

وكان يقول : أسألك الحياةَ الطيبة ؛ الإسلامَ والسُّنة .

وقال : ما بكت عين عبد قط حتىٰ يضع الرب جل جلاله يده علىٰ قلب عبده ، ولا بكت عين إلا من فضل رحمة الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : حُزن الدنيا للدنيا يُذهب همَّ الآخرة ، وفرح الدنيا للدنيا يذهب حلاوة العبادة .

وقال إسحاق بن عباد : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ، فما رأيته ضاحكاً ولا متبسماً إلا يوم مات ابنه علي ، فقلت له في ذلك ، فقال : إن الله عز وجل أحب أمراً ، فأحببت ما أحب الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال الفضيل : كل حزن يَبلىٰ إلا حزن التائب .

وقال الفضيل : أخذت بيد سفيان بن عيينة في هٰذا الوادي[1] ، فقلت له : إن كنت تظن أنه بقي علىٰ وجه الأرض شر مني ومنك . . فبئس ما تظن .

وقال الفيض بن إسحاق : اشتريت داراً وكتبت كتاباً وأشهدت عدولاً ، فبلغ الفضيل ذلك ، فأرسل يدعوني ، فجئته ، فقال : يا أبا يزيد ؛ بلغني أنك اشتريت داراً وكتبت كتاباً وأشهدت عدولاً ، قلت : قد كان ذلك ، قال : فإنه يأتيك من لا ينظر في كتابك ، ولا يسأل عن بينتك حتىٰ يخرجك منها شاخصاً ، ويسلمك إلىٰ قبرك خالصاً ، فانظر ألاَّ تكون اشتريت هٰذه الدار من غير مالك ، أو ورثت مالاً من غير حله ، فتكون قد خسرت الدنيا والآخرة ، ولو كنت حين اشتريت كتبت علىٰ هٰذا الوصف : هٰذا ما اشترىٰ عبد ذليل ميت من ميت قد أزعج بالرحيل ، اشترىٰ منه داراً تعرف بدار الغرور ، حُدَّ منها في زقاق الفناء إلىٰ عسكر الهالكين ، ويجمع هٰذه الدار حدود أربعة :

الأول : ينتهي منها إلىٰ دواعي العاهات .

والثاني : ينتهي إلىٰ دواعي المصيبات .

والثالث : ينتهي إلىٰ دواعي الآفات .

والرابع : ينتهي إلى الهوى المُردي والشيطان المغوي ، وفيه يُشرَع باب هٰذه الدار على الخروج من عز الطاعة إلى الدخول في ذل الطلب .

وقال الفضيل رحمه الله : ليكن شغلك في نفسك ، ولا يكن شغلك في غيرك ، فمن كان شغله في غيره . . فقد مُكِر به .

وقال : من أحب صاحب بدعة . . فقد أحبط الله تعالىٰ عمله ، وأخرج نور الإسلام من قلبه .

وقال : لا يرتفع لصاحب بدعة إلى الله عز وجل عمل ، وإذا رأيت مبتدعاً في طريق . . فخُذ في طريق آخر .

وقال : من أعان صاحب بدعة . . فقد أعان علىٰ هدم الإسلام .

وقال : من زوج كريمته من مبتدع . . فقد قطع رحمها .

وقال : النظر إلىٰ صاحب البدعة يورث العمىٰ .

---

(١) أي : عرفات .

وقال : لأن آكل عند اليهودي والنصراني . . أحب إلي من أن آكل عند صاحب بدعة ، إني أحب أن يكون بيني وبين صاحب البدعة حصن من حديد ، وما قل عمل في سُنَّة ، ولا ارتفع عمل في بدعة ، ومن جلس إلىٰ صاحب بدعة . . فاحذره ، وإذا علم الله عز وجل من عبد أنه يُبغِض صاحب بدعة . . رجوت أن يغفر الله له وإن قل عمله .

قال : وأدركت خيار الناس كلَّهم أصحاب سُنَّة ، وهم ينهون عن أصحاب البدعة .

وقال : أحق الناس بالرضا عن الله عز وجل . . أهل المعرفة بالله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : مَن مقت نفسه . . أمَّنه الله عز وجل من مقته .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ قال : أخلصوا الهَمَّ للآخرة .

وقال : إذا أراد الله عز وجل أن يتحف العبد . . سلط عليه من يظلمه .

وقال الفضيل رحمه الله : ما علىٰ ظهر الأرض أحد أبغضَ إلي من هارون الرشيد ، ولا أحد أحبَّ إلي بقاءً منه ، لو قيل لي : أينقص من عمرك ويزيد في عمره . . لاخترت ذلك ، ولو خيرت بين موته أو موت ابني ـ يعني أبا عبيدة ، قال : وأحبه ؛ لأنه جاءني على الكبر ـ لاخترت موت ابني هـٰذا ، فسبحان الله العظيم الذي جمع هاتين الخصلتين في قلبي ، وما ذاك إلا لما يحدث بعد هارون من البلاء .

وقال الفضل بن الربيع : حج أمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله ، فأتاني مسرعاً ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ لو أرسلت إلي . . أتيتك ، فقال : ويحك! قد حاك في نفسي شيء ، فانظر لي رجلاً أسأله ، فقلت : هـٰهنا سفيان بن عيينة ، فقال : امض بنا إليه ، فأتيناه ، فقرعت الباب ، فقال : مَن ذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو أرسلت إلي . . أتيتك ، فقال له : خذ لما جئناك له رحمك الله ، فحدثه ساعة ، ثم قال له : عليك دَين ؟ قال : نعم ، قال : أبا عباس ؛ اقض دَينه .

فلما خرجنا . . قال لي : ما أغنىٰ عني صاحبك شيئاً ، انظر لي رجلاً أسأله ، فقلت : هـٰهنا عبد الرزاق بن همام ، قال : امض بنا إليه ، فأتيناه ، فقرعت الباب ، فقال : من هـٰذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو أرسلت إلي . . أتيتك ، فقال : خذ لما جئناك له رحمك الله ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دَين ؟ قال : نعم ، قال : أبا عباس ؛ اقض دَينه .

فلما خرجنا . . قال : ما أغنىٰ عني صاحبك شيئاً ، انظر لي رجلاً أسأله ، قلت : هـٰهنا الفضيل بن عياض ، قال : امض بنا إليه ، فأتيناه ؛ فإذا هو قائم يصلي ، يتلو آية من القرآن يرددها ، فقال : اقرع الباب ، فقرعت الباب ، فقال : من هـٰذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : ما لي ولأمير المؤمنين ؟ فقلت : سبحان الله! أما عليك طاعة ؟ فنزل ، ففتح الباب ، ثم ارتقىٰ إلى الغرفة ، فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلىٰ زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف هارون قبلي إليه ، فقال : يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل!! فقلت في نفسي : ليُكلِّمنَّه الليلة بكلام نقي من قلب تقي ، فقال له : خذ لما جئناك له رحمك الله تعالىٰ ، فقال له : إن عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما ولي الخلافة . . دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : إني قد ابتُليت بهـٰذا البلاء ، فأشيروا علي ، فعَدَّ الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة .

فقال له سالم بن عبد الله رحمه الله : إن أردت النجاة من عذاب الله سبحانه وتعالىٰ . . فصم عن الدنيا ، وليكن إفطارك منها الموت .

وقال له محمد بن كعب رحمه الله : إن أردت النجاة . . فليكن كبير المسلمين عندك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً ، فوقِّر أباك ، وأكرِم أخاك ، وتحنَّنْ علىٰ ولدك .

وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة . . فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إذا شئت .

وإني أقول لك هـٰذا وأنا خائف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام ، فهل معك ـ رحمك الله ـ مثل هـٰؤلاء أو ممن يشير عليك بما أشاروا به ؟ فبكىٰ هارون بكاء شديداً حتىٰ غُشي عليه ، فقلت له : ارفق بأمير المؤمنين ، فقال : يابن أم الربيع ؛ تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا ؟! ثم أفاق هارون ، فقال له : زدني رحمك الله ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شُكِيَ إليه منه ، فكتب إليه عمر : يا أخي ؛ اذكر طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد ، وإياك أن يُنصرَف بك من عند الله عز وجل ، فيكون ذلك آخر العهد وانقطاع الرجاء ، قال : فلما قرأ الكتاب . . طوى البلاد حتىٰ قدم علىٰ عمر ، فقال له عمر : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبي بكتابك ، لا أعود إلىٰ ولاية أبداً حتىٰ ألقى الله

عز وجل ، قال : فبكىٰ هارون بكاء شديداً ، ثم قال له : زدني رحمك الله ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن العباس رضي الله عنه عم المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله ؛ أمِّرني إمارة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت ألاَّ تكون أميراً . . فافعل »[1] ، فبكىٰ هارون بكاء شديداً ، ثم قال له : زدني رحمك الله ، فقال : يا حَسَنَ الوجه ؛ أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هـٰذا الخَلْق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقي هـٰذا الوجه من النار . . [فافعل] ، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أصبح لهم غاشاً . . لم يَرَحْ رائحة الجنة »[2] ، فبكىٰ هارون الرشيد .

زاد في رواية : قال له : زدني ، قال : هـٰذا كتاب الله تعالىٰ ، انظر ماذا أعد لمن أطاعه ، وماذا أوعد لمن عصاه ، وإني رأيت الناس يُعرَضون على النار عرضاً شديداً ، ويطلبونها طلباً حثيثاً ، أما والله ؛ لو طلبوا الجنة مثلها أو أيسر . . لنالوها ، فبكىٰ هارون ، ثم قال له : هل عليك دَين ؟ قال : نعم ، دَين لربي عز وجل لم يحاسبني عليه ، فالويل لي إن سألني ، والويل لي إن ناقشني ، والويل لي إن لم يلهمني حجتي ، قال : إنما أعْنِي من دَين العِباد ، قال : إن ربي عز وجل لم يأمرني بهـٰذا ، إنما أمرني أن أعبده ، وعليه أن يرزقني ، فقال تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ ، فقال له : هـٰذه ألف دينار ، خذها انتفع بها وتقوَّ بها علىٰ عبادتك ، فقال له : سبحان الله! أنا أدلك علىٰ طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هـٰذا ، سلمك الله تعالىٰ ووفقك ، ثم صمت ، فلم يكلمنا ، فخرجنا من عنده ، فلما صرنا على الباب . . قال هارون : يا أبا عباس ؛ إذا دللتني علىٰ رجل . . فدلني علىٰ مثل هـٰذا ، هـٰذا سيد المسلمين اليوم .

فدخلت عليه امرأة من نسائه ، وقالت : يا هـٰذا ؛ أما ترىٰ ما نحن فيه من ضيق الحال ؟! فلو قبلت هـٰذا المال فانفرجنا به ؟ فقال لها : مَثَلي ومَثَلُكم . . كمَثَل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه ، فلما كبر . . نحروه ، فأكلوا لحمه ، فلما سمع هارون هـٰذا الكلام . . قال : ندخل عسىٰ أن يقبل المال ، فلما علم الفضيل . . صعد السطح ، وجلس علىٰ باب

---

(١) تقدم في ترجمة سيدنا عمر بن عبد العزيز رحمه الله .
(٢) تقدم أيضاً في نفس الترجمة المشار إليها .

الغرفة ، فجاء هارون ، فجلس إلىٰ جنبه ، وجعل يكلمه ، فلا يجيبه ، فبينا نحن علىٰ ذلك . . إذ خرجت جارية سوداء ، فقالت : يا هـٰذا ؛ قد آذيت الشيخ منذ الليلة ، فانصرِف رحمك الله ، قال : فانصرفنا .

وفي رواية أخرىٰ ، قال أبو عبد الله الحسين بن نصر بن خميس الموصلي الشافعي ـ قدس الله روحه ـ في كتابه « المختار من مناقب الأبرار » : قال سفيان بن عيينة : قال لي الرشيد : أريد أن ألقى الفضيل بن عياض ؛ لعل الله تعالىٰ أن يحدث لي عظة أنتفع بها ، فقلت له : والله ؛ إن ذلك لحَبيب إلىٰ قلبي ، ولـٰكنه رجل قد أخذ نفسه لخدمة الله تعالىٰ ، فما لأحد فيه حظ ، وأكره أن تراه منصرفاً في بعض حالاته من عبادة الله تعالىٰ ، فيُتَوهم عليه حقاً ، وإن كنت والله أعرفه الرجل الكريم العشرة الحسن الخلق ، توهم مَن شاهده ـ من لينه ودماثة أخلاقه ـ أنه داخل في حكم العامة ، فقال لي : ما عزمت علىٰ لقائه حتىٰ وطَّنت نفسي على احتمال مشاهدتي أخلاقه ، ثم قال : ويحك يا سفيان! إن شرف التقوىٰ شرف لا يزاحم عليه بإمرة ولا خلافة ، فأديت ذلك إلى الفضيل ، فقال : إنه لحسن العقل ، لولا ما ضُرب به من فتنة هـٰذه العاجلة ، ويسرني أن يلقاني ويسوؤني أيضاً ، فأما ما يسرني من لقائه . . فأرجو أن يكون له فيه بعض رجوع عن غيِّه ، وأما الذي يسوؤني منه . . فلم أر مثله يرفل في سوابغ النعم ، وهو غرقان من السكر ، ثم قطب بين عينيه ، وقال : ما قدَّر الله ، من كان عاصياً لا حاجة لي في لقائه ، فلم أزل أرفق حتىٰ أذِن له ، فرجعت إلى الرشيد وأعلمته .

وكان انتظاره كاختطاف الطائر هبة ، فركب الرشيد ، ولبس مبطنة وطيلساناً ، وغطىٰ رأسه ، ومعه مسرور الخادم وأنا ، فدفعت عليه الباب ، فنزلت ، وفتح ، ودخل الرشيد ودخلت معه ، فسلم على الرشيد قائماً ، فشم منه رائحة المسك ، وقال الفضيل : اللهم ؛ إني أسألك رائحة الخلد التي أعددتها لأوليائك المتقين في جنات النعيم ، ثم تنادت دموعه علىٰ لحيته ، فقلت : يا أبا علي ؛ هـٰذا أمير المؤمنين واقف ليسلم عليك ، فرفع رأسه ، وقال : وإنك هو يا حسن الوجه ؟ فنظرت إلى الرشيد ؛ فإذا هو يبكي ، والفضيل يعظه بموعظة بعد موعظة ، وهارون الرشيد في البكاء ، ثم نهض وقام ، وقال : الله أكبر ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ أما إذا افتتح الصلاة . . فليس فيه حيلة ، فانصرفنا ، فقال لي الرشيد وهو خارج : لولا خجلي منك . . لقبَّلت بين عينيه ، فقلت له : والله ؛ لوددت أَن فعلت . أو كما قال . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٩٨ـ١٠٨] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الفضيل : إني لأستحي من الله عز وجل أن أشبع حتىٰ

أرى العدل قد بُسط ، وأرى الحق قد قام ، ومن علامة البلاء : أن يصاحب الرجل صاحب بدعة .

وقال بشر بن الحارث : قال الفضيل لابنه علي عندما كان يصيبه من الجوع : لعلك ترىٰ أنك في شيء ، الجُعَل[1] أطوع لله عز وجل منك .

ورأى الفضيل رجلاً يضحك فقال له : لا تفرح ؛ إن الله لا يحب الفرحين .

وقال : ما تزيَّن العباد بشيء . . أفضل من الصدق ، واللهُ عز وجل يسأل الصادقين عن صدقهم ، منهم عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، فكيف بالكاذبين المفترين ؟ ثم بكىٰ .

وقال : أتدرون في أي يوم يسأل الله عز وجل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ؟ يوم يجمع فيه الأولين والآخرين ، آدم فمَن دونَه ، ثم قال : أوه! كم من قبيح تكشفه القيامة غداً ؟!

وقال : إنما جُعلت العلل ليُؤدَّب بها العباد ، ليس كل من مرض مات .

وقال له رجل : إن فلاناً يغتابني ، قال : لقد جلب لك الخير جلْباً .

وقال : أدركت أقواماً يستحيون من الله تعالىٰ في سواد الليل من طول الهجعة ، إنما هو على الجنب ، فإذا تحرك . . قال : قومي خذي حظك من الآخرة ، ليس لكِ أن تنامي .

وقال : قيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : إنك تطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ العمل .

وقال الفضيل : قال الحسن : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .

وقال الفضيل رحمه الله : أصلح ما أكون أفقر ما أكون ، وإني لأعصي الله عز وجل فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي .

وقال محمد الهباري : اعتل الفضيل بن عياض ، فاحتبس عليه البول ، فقال : بحبي إياك إلا ما أطلقته ، قال : فشفي في الحال

وقال إبراهيم بن الأشعث : سمعت الفضيل رحمه الله يقول في مرضه الذي مات فيه : ارحمني بحبي إياك ، فليس شيء أحب إلي منك .

---

(١) **الجُعَل** : دويبة صغيرة كالخنفساء .

وقال : سمعته وهو يقول : مسني الضر وأنت أرحم الراحمين .

وقال : وسمعته كثيراً ما يقول : ارحمني ؛ فإنك بي عالم ، ولا تعذبني ؛ فإنك عليَّ قادر .

وكان يقول : اللهم ؛ زهدنا في الدنيا ؛ فإنه صلاح قلوبنا وأعمالنا ، وجماع طلباتنا ، ونجاح حاجاتنا .

وقال : أي حسرة على امرىء أكبر من أن يؤتيه الله علماً ، فلم يعمل به ، فسمعه منه غيره فعمل به ، فيرىٰ منفعته يوم القيامة لغيره ؟!

وقال : لا حج ولا جهاد ولا رباط أشد من حبس اللسان .

وقال رحمه الله : مكتوب في التوراة : (ابن آدم ؛ أطعني فيما أمرتك به ، ولا تُعلِمني بما يصلحك) .

وكان الرجل من بني إسرائيل لا يُفتي ولا يحدِّث حتىٰ يتعبد قبل ذلك أربعين[1] سنة .

وقال الفضيل : ما رأيت أحسن من ثكلىٰ مع ثكلىٰ .

وقال : إنما يهابك الخلق علىٰ قدر هيبتك لله عز وجل .

وقال لشخص : أنت لا تُرىٰ خائفاً ، فكيف تُخاف ؟!

وقيل له : يا أبا علي ؛ ما بال الميت تنزع نفسه وهو ساكت ، وابن آدم يضطرب من القرصة ، قال : لأن الملائكة عليهم الصلاة والسلام توثقه ، ثم تلا : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال : معناه : ولا تغفلوا عن أنفسكم ؛ فإن من غفل عن نفسه . . فقد قتلها .

وكان يقرأ ذات ليلة ، فمر بهٰذه الآية : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ، فجعل يقول : ﴿ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ، ويردد : ﴿ وَنَبْلُوَاْ ﴾ ، ويقول : إن بلوت أخبارنا . . فضحتنا وهتكت أستارنا ، إنك إن بلوت أخبارنا . . هتكتنا وعذبتنا ، ويبكي .

وقال : العلم دواء الدِّين ، والمال داء الدِّين ، فإذا جرَّ العالم الداء إلىٰ نفسه . . كيف يصلح غيره ؟! .

---

(١) في « نسخة » : (سبعين) .

وقال : إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً . . فقل له : يا أخي ؛ اعف عنه ، فإن العفو أقرب للتقوىٰ ، فإن قال : لا يحتمل قلبي العفو ، ولـٰكن أريد أن أنتصر . . فقل : انتصر كما أمرك الله عز وجل ، فإن كنت تحسن تنتصر مِثْلاً بمِثْل ، وإلا . . فارجع إلىٰ باب العفو ؛ فإنه باب واسع ، فإنه من عفا وأصلح . . فأجره على الله تعالىٰ ، وصاحب العفو ينام بالليل علىٰ فراشه ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور .

وقال : صبر قليل ، ونعيم طويل ، وعجلة قليلة ، وندامة طويلة ، رحم الله تعالىٰ عبداً أخمل ذِكره ، وبكىٰ علىٰ خطيئته قبل أن يُرتَهن بعمله .

وقال مليح بن وكيع : سمعتهم يقولون : خرجنا من مكة في طلب الفضيل إلىٰ رأس الجبل ، فقرأنا القرآن ؛ فإذا هو قد خرج علينا من شعب لم نره ، فقال لنا : أخرجتموني من منزلي ومنعتموني الصلاة والطواف ، ففررت منكم إلىٰ هـٰهنا ، فجئتم تقصدوني ، أما إنكم لو أطعتم الله عز وجل ، ثم شئتم أن تزول الجبال معكم . . زالت ، ثم دق الجبل بيده ، فرأينا الجبال ـ أو الجبل ـ قد اهتزت وتحركت .

وسئل : متىٰ يبلغ الرجل غايته من حب الله سبحانه تعالىٰ ؟ فقال : إذا كان عطاؤه ومنعه عنده سواء . . فقد بلغ الغاية من حبه عز وجل .

وقال الفضيل لرجل : كم أتت عليك سنون ؟ قال : ستون سَنة ، قال : فأنت منذ ستين سنة تسير إلىٰ ربك توشك أن تبلغ ، فقال الرجل : يا أبا علي ؛ إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال له الفضيل : تعلم ما تفسيرها ؟ قال : لا ، قال : قولك : (إنا لله) معناه : أنا عبد لله ، وأنا إلى الله عز وجل راجع ، فمن علم أنه عبده وأنه إليه راجع . . فليعلم أنه موقوف ومسؤول ، فليُعِدَّ للسؤال جواباً ، فقال الرجل : فما الحيلة ؟ قال : يسيرة ، تحسن فيما بقي يغفر الله عز وجل لك ما مضىٰ وما بقي ، وإن أسأت فيما بقي . . أُخذت بما مضىٰ وما بقي .

قال بشر بن الحارث : قال الفضيل : قَدِمت شعوانة رحمها الله ، فأتيتها وشكوت إليها وسألتها أن تدعو لي بدعاء ، فقالت شعوانة : يا فضيل ؛ أمَا بينك وبين الله سبحانه وتعالىٰ ما إن دعوته استجاب لك ؟ قال : فشهق الفضيل شهقة خر مغشياً عليه .

وقال الفضيل : ما حليتِ الجنة لأمة من الأمم ما حليت لهـٰذه الأمة ، ثم ما نرىٰ لها عاشقاً .

أسند الفضيل عن أعلام التابعين وعلمائهم .

فمن غريب أحاديثه : بإسناده عن جابر رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتىٰ يقرأ : (الم تنزيل الكتاب) ، و(تبارك الذي بيده الملك)[1] .

وبإسناده إلىٰ أبي الدحداح قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يا أيها الناس ؛ من ولي منكم عملاً فحجب بابه عن ذي حاجة المسلمين . . حجبه الله عز وجل أن يلج باب الجنة ، ومن كانت الدنيا أكبر همه . . حرم الله تعالىٰ عليه جِواري ؛ فإني بعثت بخراب الدنيا ، ولم أبعث بعمارتها »[2] غريب من حديث الفضيل والثوري .

وبإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا توضع النواصي إلا لله عز وجل في حج أو عمرة ، وما سوىٰ ذلك . . فمُثلة »[3] غريب من حديث الفضيل . انتهىٰ [« الحلية » ٨/١٠٨ـ١٣٩] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال منصور بن عمار : تكلمت يوماً في المسجد الحرام ، فذكرت شيئاً من صفة النار ، فرأيت الفضيل صاح حتىٰ غشي عليه وطرح نفسه .

وقال يونس بن محمد : قال الفضيل لرجل : ألا أعلمك كلمة هي خير لك من الدنيا وما فيها ؟ فقال : أن تخرج الآدميين من قلبك حتىٰ لا يكون في قلبك مكان لغير الله عز وجل ، فإذا علم الله تعالىٰ منك ذلك وهو الذي يعطيك ذلك . . لا تسأله شيئاً إلا أعطاك .

وقال الفضيل رحمه الله : لأَنْ أطلب الدنيا بطبل ومزمار . . أحب إلي من أن أطلبها بالعبادة .

توفي بمكة سنة سبع وثمانين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٤٢ـ١٤٦] .

وقال القشيري : قال الفضيل بن موسىٰ : كان الفضيل بن عياض رحمه الله شاطراً يقطع الطريق ، وكان سبب توبته : أنه عشق جارية ، فبينما هو يرتقي الجدران إليها . . سمع تالياً يتلو : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ؟ فقال : يا رب ؛ قد آن ، قد آن ، فرجع ، فآواه الليل إلىٰ خربة ، فوجد فيها قافلة ، وبعضهم يقول : نرحل ، وبعضهم يقول : لا ، حتىٰ نصبح ؛ فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا ، فتاب الفضيل ، وجاء

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٠) ، والحاكم (٢/ ٤٤٦) .
(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٣٠١) .
(٣) ذكره بنحوه الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٣/ ٢٦١) .

إليهم ، وأمَّنهم ، ثم راح إلىٰ مكة وجاور بها إلىٰ أن مات رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الرسالة » ١٥] .

وقال في « المناقب » : قال الفضيل بن عياض : من أظهر لأخيه الود والصفاء بلسانه وأضمر له البغض والعداوة بقلبه . . لعنه الله ، وأصمه ، وأعمىٰ بصر قلبه .

وقال لبعض إخوانه : ليتني أموت وأنا مُخَلِّطٌ ، وأخاف أني أموت وأنا مراءٍ يُدعىٰ بي علىٰ رؤوس الخلائق : يا فضيل ؛ خذ ثواب عملك ممن عملت له ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وعسىٰ من الله واجب .

وقال : إن الله يحب العالم المتواضع ، ويبغض العالم الجبار ، ومن تواضع لله عز وجل . . أورثه الله الحكمة .

وقال : من استحوذت عليه الشهوات . . انقطعت عنه مواد التوفيق .

وقال : كفىٰ بالله محباً ، وبالقرآن مؤنساً ، وبالموت واعظاً ، اتخِذِ اللهَ صاحباً ، ودعِ الناس جانباً ، إنما أمسِ مَثَلٌ ، واليوم عمل ، وغداً أمل .

وسأله رجل فقال له : يا أبا علي ؛ ادع لي ، فقال : متعك الله بقربه ، ونعَّمك بحبه ، وجعلك في ستره ، ولا شغلك بغيره .

وقال : إذا أحب الله عبداً . . أكثر غمه في الدنيا ، وإذا أبغض عبداً . . وسع عليه في دنياه ، وقال : إنما أرزاق المتقين من حيث لا يَحسبون . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال الفضيل بن عياض : أتىٰ عليَّ وقت لم أطعم فيه ثلاثة أيام شيئاً ، فبينا أنا قاعد في المسجد ؛ إذا بمجنون قد أقبل وفي عنقه غل ، وبيده حجر ، فجعل يلايمني حتىٰ خشيت علىٰ نفسي منه ، فأنشأ يقول :

محلُّ بيان الصبر منك غريزةٌ   فيا ليت شعري هل لصبرك من أجر

قال الفضيل : فغيب عني جنونَه ما سمعت من كلامه ، وقلت له : يا فتىٰ ؛ لولا الرجاء . . لم أصبر ، فقال : وأين موضع الرجاء منك ؟ فقلت : بموضع مستقَر هموم العارفين ، فقال : أحسنت والله ، إنما هي قلوبٌ . . الهمومُ عمرانُها والأحزانُ أوطانُها ، عرفته فاستأنست به ، وأحببته فارتحلت إليه ، قال : فسمعت من كلامه ما قطعني عن جوابه ، فقلت له : رحمك الله ، عظني وأوجز ، فقال لي : يا فضيل ؛ مثلك يقول هـٰذا ؟!

أما علمت أن لله عز وجل عباداً قطعهم الجزع عن كلف الألسن ، فكَلَّت ألسنتهم من غير عِيٍّ عن محاسن الوصف لخوف العقاب ، واغتبطوا عند الله عز وجل ، وإن حاجة أحدهم لتتردد في صدره ، ولا يأذن لنفسه في إطلاقها ؛ خوفاً من شر نفسه ، فأصبحوا ـ مع حسن هٰذه الصفة ـ في الدنيا محزونين مغمومين ، عقول صحيحة ، ويقين ثابت ، وألسنٌ ذاكرة ، وأرواح في الملكوت سارحة ، ثم ولىٰ ، وهو يقول :

أَحسنتَ ظنك بالأيام إذ حَسُنت ... ولم تَخَف سوءَ ما يأتي به القدَرُ

وسالمتك الليالي فاغتررتَ بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : روي عن الفضيل بن عياض قال : كنت في بعض أسفاري ومعي جماعة ، فمُطرنا أياماً ، فآوينا إلىٰ غار من المطر ، فأظهر بعض من كان معي ضجراً بالحال ، وإذا بصوت من داخل الغار يقول : استحِ يا بطال ، واجمع قلبك بالرضا ، ولا تقسمه على الاعتراضات ؛ فإنها فضول ، وهو فعال لما يريد سبحانه وتعالىٰ ، فتأملته ؛ فإذا هو شيخ عليه خلع الرضا والقبول ، فاستحييت وتأدبت ، وانصرفت .

وقال الفضيل : حقيقة المحبة . . إيثار المحبوب على الكونين في القرب والبعد ، ولهٰذا سئل بعضهم عن معنى التقوىٰ فقال : هو إيثار الحق في جميع الأحوال ، فتراعي الحق علىٰ جلاله في غير القبلة كما تراعيه في حال الخدمة في القبلة ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ بالمرصاد في القرب والبعد ، ولهٰذا قال أبو عبد الله المغربي : من ادعى العبودية وله مراد باق . . فقد كذب في دعواه ، وإنما تصح العبودية لمن أفنىٰ مراداته وهواه ، وقام بمراد مالكه وسيده ومولاه ـ أعني : أوامره ونواهيه جل جلاله ـ سواء أبعده أو أدناه ، أو طرده أو آواه .

وقال الفضيل : من شرط المحبة . . إخفاء المحبة والمحبوب في ابتدائها ، ثم اشتهار المحبة والمحبوب في انتهائها[1] ، ألا ترىٰ إلىٰ زليخا ؟ قالت في الابتداء : ﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ ، فلما تناهت المحبة . . كشفت قناع أستارها ، فنادت علىٰ نفسها بنفسها ، قالت : ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ .

وقال أيضاً : المحبة : الرضا على الأحوال جميعها ، وألاَّ يبقىٰ للمحب مراد ولا تصرف .

---

(١) في النسخ : (أثنائها) .

قال القاضي أبو المعالي مؤلف كتاب « **لوامع أنوار القلوب** » : ويدلك علىٰ هـٰذا ما قال الشبلي رحمه الله : آفة الخلق في شيئين : الخروج من حد العبودية ، وعدم معرفة كمال الربوبية ، وإن حد العبودية . . ضرورة البشرية ، ومعرفة كمال الربوبية . . نفاذ المشيئة .

وقال الفضيل أيضاً : المحبة : الاستئناس بالمحبوب والاستيحاش ممن سواه ؛ يعني : الاستئناس بذِكره والاستيحاش من ذِكر غيره .

وقال : قال العارفون : الأنس بالمحبوب : هو انبساط المحب إلى المحبوب برفع الحشمة ، ووجود الهيبة ، ورعاية الحرمة علىٰ بساط المحبة ، ألا ترىٰ أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لما قال علىٰ بساط الأنس : ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ . . وقع في سره : يا خليلي ؛ هـٰذا ترك للخدمة ، ثم نزل قوله تعالىٰ في الظاهر : ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ .

ولما قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام علىٰ بساط الأنس : ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ . . وقع في سره : يا كليمي ؛ هـٰذا ترك للحرمة ، ثم نزل قوله تعالىٰ في الظاهر : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ .

ولما قال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام علىٰ لسان قومه : ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ . . وقع في سره : يا عيسىٰ ؛ هـٰذا ترك للمحبة ، ثم نزل في حق قومه في الظاهر : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

ولما وقف الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم علىٰ بساط الأنس . . حفظ الحرمة ، فكان كما قال تعالىٰ : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ ، فنودي في الباطن : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ ، وجازاه بأن ناداه في الظاهر : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ ، ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ فإن قال . . فعن حبيبه سبحانه وتعالىٰ ، وإن أمر . . فعن حبيبه يأمر ، وإن نهىٰ . . فعن حبيبه ينهىٰ ، فطاعته طاعة حبيبه ، ومحبته محبة حبيبه بلا أين ولا كيف ، ولا ثَمَّ ولا حيث . [انتهىٰ] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وما أحسن ما قال الشيخ زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد ابن أبي ظافر[1] ابن عبد الله ابن أبي الأصبع رحمه الله تعالىٰ :

لقد منَّ الإلـٰه على البرايا بِبَعْث محمدٍ رَبِّ الشفاعةْ

(١) في نسخة : (بن غافر) .

وإنـا عـاجـزون وإن بـذلنـا ... لـه فـي الأمـر جهـد الاستطـاعـه
فـأرسـلَ أحمـداً فينـا رسـولاً ... وأَلْهَمَنـا ـ لـه الحمـدُ ـ اتبـاعـه
وقـال لنـا أطيعـوه جميعـاً ... فطـاعـة أحمـدٍ لـي أيُّ طـاعـه
ألـم تسمـع كتـاب الله يتـلا ... ومـن يطـع الـرسـول فقـد أطـاعـه

وإنما قال في حق الخليل عليه الصلاة والسلام : هٰذا تَرْكٌ للخدمة ؛ لأن من شرط الخليل ألاَّ يشتغل عن خدمة خليله بشيء ، فنظره إلىٰ كيفية إحياء الموتى اشتغال عن الخدمة .

وقال في سؤال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : هٰذا تَرْكٌ للحرمة ، ومعناه ظاهر .

وفي عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : تَرْكٌ للمحبة ؛ لأن العمل إذا كان بعوض . . كان تركاً للمحبة ، والله أعلم . انتهىٰ .

وكان الفضيل يقول : مشىٰ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام على الماء ، فقيل له : يا رُوح الله ؛ إنك تمشي على الماء ؟ فقال : نعم ، باليقين بالله تعالىٰ ، قالوا : فنحن أيضاً موقنون ، قال : فامشوا ، فمشوا ، فغرقوا وطلبوا الساحل ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : خفنا الموت ، قال : فما معكم اليقين ، لو كنتم في طريق فرأيتم الدُّرَّ والحجر . . أيما كنتم تأخذون ؟ قالوا : الدُّرَّ ، فقال : لا ، حتىٰ تكون الحجارة والدُّرُّ عندكم سواء ، فعند هٰذا يحصل لكم اليقين . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال الفضيل لرجل رآه مغموماً : يا أخي ؛ أتخشىٰ أن يكون لك رزق لا تستوفيه ؟ قال : لا ، قال أفتخشىٰ أن يكون غير ما شاء الله ؟ قال : لا ، قال : فلأي شيء غَمُّك ؟!

وقال الفضيل : قال ابني عليٌّ : علمت أن الدنيا ستفارقني اضطراراً ، ففارقتها اختياراً . انتهىٰ .

وقال السلمي رحمة الله عليه : قال الفضيل : أحق الناس بالرضا عن الله عز وجل . . أهل المعرفة بالله تعالىٰ .

وقال : إن مِن شكر النعمة أن تحدِّثَ بها .

وقال : إن الله عز وجل جعل أرزاق المتقين من حيث لا يحتسبون .

وقال : من أقام نفسه في موقف ذل في طلب الحلال. . حشره الله تعالىٰ مع الصديقين ، ورفعه إلى الشهداء يوم القيامة . انتهىٰ [« الطبقات » ١٠-١٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

وُهَيْب بن الورد المكي
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن وهيب بن الورد قال : بينا أنا واقف في بطن الوادي ؛ إذ أنا برجل قد أخذ بمنكبي ، فقال : يا وهيب ؛ خَفِ الله تعالىٰ لقدرته عليك ، واستحيي منه لقربه منك ، قال : فالتفتُّ ، فما رأيت أحداً .

وعن بشر بن الحارث رحمه الله قال : أربعة رفعهم الله تعالىٰ بطيب المطعم : وهيب بن الورد ، وإبراهيم بن أدهم ، ويوسف بن أسباط ، وسالم الخواص .

وكان سفيان الثوري رحمه الله إذا حدث الناس في المسجد الحرام وفرغ من الحديث . . قال : قوموا بنا إلى الطبيب ؛ يعني : وهيباً .

وقال وهيب رحمه الله : الزهد في الدنيا : ألاَّ تأس علىٰ ما فاتك منها ، ولا تفرح بما أتاك منها .

وقال وهيب : لو أن علماءنا ـ عفا الله عنا وعنهم ـ نصحوا لله عز وجل في عباده ، فقالوا : يا عباد الله ؛ اسمعوا ما نخبركم به عن نبيكم سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وصالح سلفكم من الزهد في الدنيا ، فاعملوا به ، ولا تنظروا إلىٰ أعمالنا هـٰذه الفشلة . . كانوا قد نصحوا لله تعالىٰ في عباده ، ولـٰكنهم يأبون إلا أن يجرُّوا عباد الله تعالىٰ إلىٰ فتنتهم وما هم فيه .

وعن محمد بن يزيد رحمه الله قال : حلف وهيب ألاَّ يراه الله تعالىٰ ولا أحد من خلقه ضاحكاً حتىٰ تأتيه الرسل من قِبَل الله عز وجل عند الموت ، فيخبرونه بمنزلته عند الله تعالىٰ .

قالوا : وكانوا يرون له الرؤيا أنه من أهل الجنة ، فإذا أخبر بها . . اشتد بكاؤه ، وقال : قد خشيت أن يكون هـٰذا من الشيطان .

زاد في رواية : فلما حضرته الوفاة . . سمعوه يقول : عز علي يا صادق الوعد ، ويا وفي العهد ؛ وفيتَ لي وما وفيتُ لك .

وقال وهيب : عجباً للعالم كيف تجيبه دواعي قلبه إلى ارتياح الضحك واللعب ، وقد علم أن له في القيامة روعات ووقفات وفزعات ، ثم غشي عليه .

وقال وهيب رحمه الله : قال حكيم من الحكماء : العبادة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت ، وواحدة في العزلة ، فأردت نفسي على الصمت ، فلم أقدر عليه ، فصرت إلى العزلة ، فحصلت لي التسعة .

وعن زهير بن عباد رحمه الله قال : كان الفضيل بن عياض ووهيب بن الورد وعبد الله بن المبارك رحمهم الله جلوساً ، فذكروا الرطب ، فقال وهيب : أوَ قد جاء الرطب ؟ فقال ابن المبارك : يرحمك الله ، هـٰذا آخره ، أوَلَمْ تأكله ؟ قال : لا ، قال : ولِمَ ؟ قال وهيب : بلغني أن عامة جني مكة من الصوافي[1] والقطائع[2] ، فكرهتها ، فقال ابن المبارك : يرحمك الله ، أوَ ليس قد رخص في الشراء من السوق إذا لم يعرف الصوافي والقطائع منه ؟ وإلا ضاق على الناس خبزهم ، أوَ ليس عامة ما يأتي من قمح مصر إنما هو من الصوافي والقطائع ، ولا أحسبك تستغني عن القمح ؟ فسهِّل عليك ، قال : فصعق وهيب ، فقال الفضيل لابن المبارك : ما صنعت بالرجل ؟ فقال ابن المبارك : ما علمت أن هـٰذا الخوف كله قد أعطيه ، فلما أفاق وهيب . . قال : يابن المبارك ؛ دعني من ترخيصك ، لا جرم أني لا آكل من القمح إلا كما يأكل المضطر من الميتة ، فزعموا أنه نحل جسمه حتىٰ مات هزالاً ، رحمه الله تعالىٰ .

وقال وهيب : لما عاتب الله سبحانه وتعالىٰ نوحاً عليه الصلاة والسلام بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ . . بكىٰ ثلاث مئة عام ، حتىٰ صار تحت عينيه مثل الجدول من البكاء .

وقال وهيب رحمه الله : بلغني أنه في التوراة ـ أو في بعض الكتب ـ : ابن آدم ؛ اذكرني

---

(١) **الصوافي** : الأملاك والأراضي التي جلا عنها أهلها ، أو ماتوا ولا وارث لها ، ويقال للضيع التي يستخلصها السلطان لخاصته : الصوافي .

(٢) **القطائع** : الأراضي التي يعطيها لبعض خاصته لينتفع بها .

إذا غضبتَ . . أذكرك إذا غضبتُ ؛ فلا أمحقك فيما أمحق ، وإذا ظُلمتَ . . فارض بنصرتي لك ؛ فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك .

وقيل لوهيب : أيجد طعم العبادة من يعصي الله تعالىٰ ؟ قال : لا ، ولا مَن هَمَّ بالمعصية .

وقال وهيب رحمه الله : بنىٰ نوح عليه الصلاة والسلام بيتاً من قصب ، فقيل له : لو بنيت غير هـٰذا ؟ فقال : هـٰذا كثير علىٰ من يموت .

وعن وهيب رحمه الله تعالىٰ قال : بلغني أن موسىٰ عليه الصلاة والسلام قال : يا رب ؛ أخبرني عن آية رضاك عن عبدك ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : يا موسىٰ ؛ إذا رأيتني أهيىء له طاعتي وأصرفه عن معصيتي . . فذلك آية رضاي عنه .

وعن محمد بن يزيد قال : سمعت وهيباً يقول : ضُرب لعلماء السوء مَثَلٌ فقيل : إنما مَثَلُ عالم سوء . . كمَثَل الحجر في الساقية ، لا هو يشرب الماء ، ولا هو يخلي الماء يصل إلى الشجر فيحيا به .

وقال وهيب : بينا أنا نائم خلف المقام ؛ إذ رأيت فيما يرى النائم كأن داخلاً دخل من باب بني شيبة ، وهو يقول : يا أيها الناس ؛ وُلِّيَ عليكم كتاب الله تعالىٰ ، فقلت : مَن ؟ فأشار إلىٰ ظفره ؛ فإذا مكتوب (ع م ر) فجاءت بيعة عمر بن عبد العزيز رحمه الله .

وقال وهيب : خالطت الناس خمسين سنة ، فما وجدت رجلاً غفر لي ذنباً فيما بيني وبينه ، ولا وصلني إذا قطعته ، ولا ستر عليَّ عورة ، ولا ائتمنته إذا غضب ، فالاشتغال بهـٰؤلاء حمق كبير .

وقال وهيب : يقول الله تعالىٰ : (وعزتي وجلالي ؛ ما من عبد آثر رضاي علىٰ هواه . . إلا أقللت همومه ، ونزعت الفقر من قلبه ، وما من عبد آثر هواه علىٰ رضاي . . إلا أكثرت همومه ، ونزعت الغنىٰ من قلبه ، وجعلت الفقر بين عينيه ، ثم لا أبالي في أي واد من أوديتها هلك) .

ودخل وهيب علىٰ محمد بن المنكدر بذي طوىً يعوده ، قال : فمسح يده عليه وقال : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، فشفي ، وقال : لو قرأها صادق علىٰ جبل . . لزال .

وقال وهيب : كان يحيى بن زكريا في وجهه خطان من البكاء ، فقال له أبوه : يا بني ؛ إني سألت الله عز وجل ولداً تقر به عيني ، فقال : يا أبت ؛ إن جبريل عليه الصلاة والسلام

أخبرني : أن بين الجنة والنار مفازة[1] لا يقطعها إلا كل بكَّاء .

وقال سفيان الثوري : رأىٰ وهيب قوماً يضحكون يوم الفطر ، فقال : إن كان هـٰؤلاء يُقبَل منهم صيامهم . . فما هـٰذا فعل الشاكرين ، وإن كان لم يقبل . . فما هـٰذا فعل الخائفين . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ١٤٠ـ١٤٩] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ : اجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط ، فقال الثوري : كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم ، وأما اليوم . . فوددت أني مِتُّ ، فقال له يوسف : لِمَ ؟ قال : لما أتخوف من الفتنة ، فقال يوسف : لـٰكني ما أكره طول البقاء ، فقال سفيان : لِمَ ؟ قال : لعلِّي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً ، فقيل لوهيب : أيش تقول أنت ؟ فقال : أنا لا أختار شيئاً ، أَحَبُّ ذلك إلي . . أَحَبُّه إلى الله عز وجل ، فقبَّل الثوري بين عينيه وقال : روحانية ورب الكعبة .

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل مقامات ثلاثة : رجل يحب الموت شوقاً إلىٰ لقاء الله عز وجل ، ورجل يحب البقاء لعبادة الله عز وجل ، ورجل قال : لا أختار شيئاً ، أرضىٰ بما اختاره الله عز وجل ، رفعت هـٰذه المسألة إلىٰ بعض العارفين ، فقال : صاحب الرضا أفضلهم . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ٣٥٥] .

وقال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتىٰ يتراءىٰ له ملكاه اللذان كانا يحفظان عليه عمله في الدنيا ، فإن كان صحبهما بطاعة الله تعالىٰ . . قالا له : جزاك الله عنا من جليسٍ خيراً ، فرب مجلسِ صدقٍ قد أجلستناه ، وعمل صالح قد أحضرتناه ، وكلام حسن قد أسمعتناه ، فجزاك الله عنا من جليس خيراً ، وإن كان صحبهما بغير ذلك . . قلبا الثناء عليه ، فقالا : لا جزاك الله عنا من جليس خيراً ، فرب مجلس سوء قد أجلستناه ، وعمل غير صالح قد أحضرتناه ، وكلام قبيح قد أسمعتناه ، فلا جزاك الله عنا من جليس خيراً ، قال : فذلك شخوص بصر الميت إليهما ، ولا يرجع إلى الدنيا أبداً .

وقال : لا يكن هَمُّ أحدكم في كثرة العمل ، ولـٰكن ليكن هَمُّه في إحكامه وتحسينه ؛ فإن العبد قد يصلي وهو يعصي الله تعالىٰ في صلاته ، وقد يصوم وهو يعصي الله تعالىٰ في صيامه .

---

(١) المفازة : المَهْلكة ، وفي نسخة : (عقبة) .

وقال : لو أن المؤمن لا يُبغِض الدنيا إلا لأن الله تعالىٰ يُعصىٰ بها . . لكان حقاً عليه أن يبغضها .

وقال : احذر أن تكون صديق إبليس في السر وتظهر عداوته في العلانية .

وصلىٰ وهيب العصر ، فلما فرغ . . جعل يقول : اللهم ؛ إن كنت نقَّصتُ منها شيئاً أو قصَّرتُ فيها . . فاغفر لي ، كأنه قد أذنب ذنباً عظيماً وهو وجل منه مستغفر .

وكان وهيب يشتهي الشيء ، فيجده في بيته في إناء قد كفىء عليه ، وكان له سويق في جراب ، فأتت فأرة ، فخرقت الجراب ، فقال : اللهم ؛ اخزها ، فقد أفسدت علينا ، فخرجت ، فاضطربت بين يديه حتىٰ ماتت .

وقال وهيب : إذا أَردتَ الدِّين . . فأبنِ علىٰ ثلاث : الزهد ، والورع ، والفقه ، ثم أقلَّ العمل ؛ فإنك إذا بنيت علىٰ غير هـٰؤلاء . . انهدم البناء ، فقيل له : أيما أفضل الورع ، أو النية ؟ قال : النية .

وقال : لو قمتَ مقام هـٰذه السارية . . ما نفعك حتىٰ تنظر ما يدخل بطنك حلال أو حرام .

وسجد وهيب علىٰ جبل أبي قبيس ، فنودي من الشجر : يا وهيب ؛ ارفع رأسك ، فقد غفر لك .

هنيئاً له ، اللهم ؛ ارزقنا ما رزقته .

وقال وهيب : رُبَّ عالم يقال له فقيه ، وهو مكتوب عند الله تعالىٰ من الجاهلين .

وقال : من الدعاء المستجاب إن شاء الله تعالىٰ : أن تصلي اثنتي عشرة ركعة بأم القرآن وآية الكرسي و(قل هو الله أحد) ، فإذا فرغ . . خر ساجداً ، ثم يقول : سبحان الذي لبس العز[1] وقال به ، سبحان الذي تعطف بالمجد وتكرم به ، سبحان الذي أحصىٰ كل شيء علمه ، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له ، سبحان ذي الفضل والمن ، سبحان ذي العز والتكرم ، سبحان ذي الطول[2] والجلال والإكرام ، اللهم ؛ إني أسألك بمعاقد العز من عرشك ، وبمنتهى الرحمة من كتابك ، وباسمك الأعظم ، وجَدِّك[3] الأعلىٰ ، وكلماتك

---

(١) في نسخة : (سبحان الذي له العز والكبرياء) .
(٢) **الطَّول** : الفضل والغنىٰ واليسر .
(٣) **الجَدُّ** : المكانة والمنزلة عند الناس .

التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر . . أن تصلي علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد ، كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم ، في العالمين إنك حميد مجيد ، ثم يسأل الله تعالىٰ حاجته .

أدرك وهيب بن الورد جماعة من التابعين زماناً ، وروىٰ عن بعضهم .

فمما رواه : عن عطاء ابن أبي رباح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالىٰ أيدني بأربعة وزراء » ، قلنا : يا رسول الله ؛ من هٰؤلاء ؟ قال : « اثنان من أهل السماء ، واثنان من أهل الأرض ، جبريل وميكائيل من أهل السماء ، وأبو بكر وعمر من أهل الأرض »[(١)] .

وبإسناده إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالىٰ عند لسان كل قائل ، فليتق الله عبد ولينظر ما يقول »[(٢)] انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ١٥١ـ١٦٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : وهيب بن الورد ، كنيته : أبو أمية ، واسمه : عبد الوهاب ، فصُغِّر .

قال ابن المبارك رحمه الله : ما جالست أحداً كان أنفع لي من مجالسة وهيب .

وكان لا يأكل من الفواكه ، فإذا انقضت السَّنة وذهبت الفواكه . . يكشف عن بطنه ، وينظر إلىٰ جسده ، ويقول : يا وهيب ؛ ما أرىٰ بك بأساً ، ما أرىٰ تركك الفواكه ضرك شيئاً .

وقال ابن أبي روَّاد : انتهيت إلىٰ رجل ساجد خلف المقام في ليلة باردة مطيرة يدعو ويبكي ، فطفت أسبوعاً ، ثم عدت ، فوجدته علىٰ حاله ، فقعدت قريباً منه الليل كله ، فلما كان في جوف الليل . . سمعت هاتفاً يقول : يا وهيب بن الورد ؛ ارفع رأسك فقد غفر لك ، قال : فالتفتُّ فلم أر شيئاً ، فلما طلع الفجر . . رفع رأسه ، ومضىٰ ، فاتبعته ، وقلت له : أما سمعت الصوت ؟ قال : وأي صوت ؟ فأخبرته ، فقال : لا تخبر أحداً ، فما حدثت أحداً حتىٰ مات رحمه الله .

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (١١/ ١٧٩) .

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٤/ ٢٦٥) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٢/ ١٦٩) .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : كان وهيب تبين خضرة البقل من بطنه من الهزال .
وكان مشغولاً بالتعبد عن الرواية ؛ لذلك قلَّتْ أحاديثه .
ومات في سنة ثلاث وخمسين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٣٠ـ١٣٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الله بن المبارك
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : روىٰ عبد الله بن المبارك بإسناده عن محمد ابن الحنفية رحمه الله قال : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد بُداً من معاشرته ، حتىٰ يجعل الله تعالىٰ له فرجاً ، أو قال : ومخرجاً ، وقال عبد الله بن المبارك : هـٰذا مثَلي ومثَلكم .

وقال عطاء بن مسلم لعبيد بن جناد : يا عبيد ؛ رأيت عبد الله بن المبارك ؟ قال : نعم ، قال : ما رأيت مثله ، ولا يُرىٰ مثله .

وعن عبيد بن جناد قال : قال العُمَري : ابن المبارك يصلح لهـٰذا الأمر ، فقال له رجل : أي شيء ؟ قال : الإمامة .

وفي رواية أخرىٰ عنه أيضاً قال : ما رأيت في دهرنا هـٰذا أحداً يصلح لهـٰذا الأمر إلا رجلاً أتاني إلىٰ منزلي ، أقام عندي ثلاثاً يسألني عن غير ما يسألني عنه أهل هـٰذا الزمان ، فصيح اللسان ، يكنىٰ بأبي عبد الرحمن ، فقلنا له : هـٰذا عبد الله بن المبارك ، قال : هـٰكذا ينبغي إن كان بقي أحد يصلح لهـٰذا الأمر ، فقال عبيد : يعني : الاقتداء بالعلم .

وقال أبو إسحاق الفزاري : ابن المبارك إمام المسلمين ، قال : ورأيته قاعداً بين يديه يسائله .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : ما رأت عيناي مثل سفيان الثوري ، ولا أُقدِّم علىٰ عبد الله بن المبارك أحداً .

وقال ابن مهدي أيضاً : ابن المبارك آدبُ عندنا من سفيان .

وقال المعتمر بن سليمان : ما رأيت مثل ابن المبارك ؛ تجد عنده الشيء الذي لا تجده عند غيره .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : لو جهدت جهدي أن أكون في السَّنة ثلاثة أيام علىٰ ما عليه ابن المبارك . . لم أقدر .

وعن محمد بن المعتمر بن سليمان قال : قلت لأبي : يا أبت ؛ مَن فقيه العرب ؟ قال : سفيان الثوري ، فلما مات سفيان . . قلت لأبي : مَن فقيه العرب ؟ قال : عبد الله بن المبارك .

وورد على الرشيد كتاب صاحب الحيرة في شهر رمضان ، سَنة إحدىٰ وثمانين ومئة مِن هيت[1] ، أنه مات بها رجل غريب ، فاجتمع الناس علىٰ جنازته ، فسألت عنه ، فقالوا : عبد الله بن المبارك الخراساني ، فقال الرشيد : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا فضل ـ للفضل بن الربيع وكان وزيره ـ ائذن للناس يعزُّونا في عبد الله بن المبارك ، فأظهر الفضل تعجباً ، فقال له : ويحك! إن عبد الله هو الذي يقول :

الله يــدفــع بــالسلطــان معضلــة	عــن ديننــا رحمــة منــه ورضــوانــا
لــولا الأئمــة لــم تــأمــن لنــا سبــلٌ	وكــان أضعفنــا نهبــاً لأقــوانــا

فمن سمع هٰذا القول من مثل ابن المبارك ـ مع فضله وزهده وعظمته في صدور العامة ـ ولا يعرف حقنا ؟!

وفي رواية أخرىٰ : قال الرشيد بعد ذلك : أمَا إنه ما خلف بعده مثله .

وقال شقيق البلخي رحمه الله : قلت لابن المبارك : إذا صليت معنا . . لِمَ لم تجلس معنا ؟ قال : أذهب أجلس مع الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، أنظر في أعمالهم وآثارهم ، ما أصنع معكم ؟ ثم قال : إذا كان سَنة مئتين . . فالبعد عن كثير من الناس أقرب إلى الله تعالىٰ ، وفِرَّ من الناس فرارَك من الأسد ، وتمسك بدينك . . يسلم لك .

وسأله رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ؛ في أي شيء أجعل فضل قوَّتي ؟ في تعلم القرآن أو في طلب العلم ؟ فقال : هل تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك ؟ قال : نعم ، قال : فاجعله في طلب العلم الذي تعرف به القرآن .

وقال أبو أسامة : مررت بعبد الله بن المبارك بطرسوس وهو يحدث ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن ؛ إني لأنكر هٰذه الأبواب والتصنيف الذي وضعتموه ، ما هٰكذا أدركنا

(١) هِيت : بلدة على الفرات من نواحي بغداد ، فوق الأنبار ، ذات نخل كثير وخيرات واسعة .

المشيخة ، قال : فأضرَبَ عن الحديث نحواً من عشرين يوماً ، ثم مررت به وقد احتوشوه[1] وهو يحدث ، فسلمت عليه ، فقال : يا أبا أسامة ؛ شهوة الحديث .

وقال ابن المبارك : مَن بَخِل بالعلم . . ابتلي بواحدة من ثلاث : إما موت فيذهبَ علمه ، وإما نسيان ، وإما يلزم السلطان فيذهب علمه .

وقال بشر بن الحارث : سأل رجل ابن المبارك عن حديث وهو يمشي ، فقال : ليس هـٰذا من توقير العلم ، قال بشر : فاستحسنته جداً .

وقيل لابن المبارك : الرجل يطلب الحديث لله ، أيشتد في سنده ؟ قال : إذا كان لله . . فهو أولىٰ أن يشتد في سنده .

قيل لابن المبارك : هل بقي مَن ينصح ؟ قال : وهل بقي من يقبل ؟ [انتهىٰ « الحلية » ١٦٢/٨ـ١٦٦] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال ابن المبارك رحمه الله : قد طفت الشرق والغرب ، فما رأيت بلداً شراً من بغداد ، قيل له : وكيف هو ؟ قال : هو بلد تزدرىٰ فيه نعمة الله ، وتستصغر فيه معصية الله .

ولما رجع إلىٰ خراسان . . قيل له : كيف رأيت بغداد ؟ فقال : لا ينبغي أن تُسكن ـ أو ما هـٰذا معناه ـ كان قصده بذلك تحذير الناس عن المقام بها .

وكان يخرج إلىٰ مكة ويقيم ببغداد مدة استعداد القافلة عشرة أيام يتصدق منه بعشرة دنانير ، لكل يوم دينار ؛ كفارة لمقامه .

قال الغزالي : وقد ذم العراقَ جماعةٌ ، منهم : عمر بن عبد العزيز ، وكعب الأحبار ، وأما بشر بن الحارث . . فإنه كان يقول : لا تقتدوا بي في المقام بها ، وكان أحمد ابن حنبل يقول : لولا تعلق هـٰؤلاء الصبيان بنا . . كان الخروج من هـٰذا البلد أبر في نفسي ، قيل : وأين تختار السكنىٰ ؟ فقال : الثغور ، فهـٰذا يدل علىٰ أن من يكون ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير . . فلا عذر له في المقام فيها ، بل ينبغي أن يهاجر ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ ، فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة[2] . . فلا ينبغي أن يكون راضياً بحاله ، مطمئن النفس بالمقام فيها ، بل ينبغي أن يكون

---

(١) **احتوشوه** : اجتمعوا حوله .

(٢) **العَلاقَة** : ما تعلق به الإنسان من صناعة وغيرها .

منزعج القلب منها قائلاً على الدوام : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ ، وذلك لأن الظلم إذا عم . . نزل البلاء ، ومر على الجميع ، وشمل المطيعين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

فإذاً : ليس في شيء من أسباب نقصان الدين ألبتة رضاً مطلقاً إلا من حيث إضافتها إلىٰ فعل الله ، فأما هي في نفسها . . فلا وجه للرضا بها بحال . انتهىٰ [الإحياء » ٤/٣٥٣ـ٣٥٥] .

وقال الحافظ : قال ابن المبارك : ينبغي للعالم أن يرفع نفسه عن الدنيا ، فلا تكون منه علىٰ بال .

وقال : أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يطعموا أطيب ما فيها ، قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : معرفة الله عز وجل .

وقيل له : مَن الناس ؟ قال : العلماء العاملون ، قيل : فمَن الملوك ؟ قال : الزهاد ، قيل : فمَن الغوغاء ؟ قال : خزيمة وأصحابه(١) ، قيل : فمَن السَّفِلة ؟ قال : الذين يعيشون بدِينهم .

قال عبد الله بن عمر السرخسي : أكلت عند صاحب بدعة أكلة ، فبلغ ابن المبارك ، فقال : لا كلمتك ثلاثين يوماً .

وقال الفضيل : قال لي ابن المبارك : أكثركم علماً . . ينبغي أن يكون أشدَّكم خوفاً .

وقال ابن المبارك : قد جمعت علم العلماء ، فليس فيما جمعت أحب إلي من علم الفضيل بن عياض ، وما أعياني شيء كما أعياني أني لا أجد أخاً في الله عز وجل .

وقال : إذا عرف الإنسان قدر نفسه . . يصير عند نفسه أذل من الكلب .

وقال عبيد بن جناد : ما رأيت مثل ابن المبارك ، إذا ذكر أصحابه . . فخَّمهم ، يقول : وأين مثل فلان ؟ وأين مثل فلان ؟ ثم يقول : الرفيع : من رفعه الله عز وجل بطاعته ، والوضيع : من وضعه الله عز وجل لمعصيته .

ورأىٰ رجل سهل بن علي في المنام ، فقال له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : نجوت بكلمة علمنيها ابن المبارك ، فقال له : وما تلك الكلمة ؟ قال : قول الرجل : يا رب ؛ عفوك عفوك .

---

(١) يعني : من أمراء الظلمة .

وسئل ابن المبارك عن الرباط فقال : رابط نفسك على الحق حتىٰ تقيمها على الحق ، فذلك أفضل الرباط .

وقال ابن المبارك : لا يقعُ موقعَ الكسب على العيال شيء ولا الجهادُ في سبيل الله .

ولما حضر ابن المبارك الموت في سفره . . قال : أشتهي سويقاً ، فطلبناه له ، فلم نجده إلا عند رجل كان يعمل عمل السلطان ، فقلنا له : لم نجد إلا عند هـٰذا الرجل ، فقال : دعوه ، ثم قال بعد ساعة : ويحكم! أشتهي سويقاً ، فطلبناه ، فلم نجده إلا عند ذلك الرجل ، فقلنا له ، فقال : دعوه ، فمات ولم يشربه .

وبعث رجل من سَرْخَسَ إلىٰ منزل ابن المبارك شيئاً ، وكان عليه خيط قدر شبر ، فلما لقيه السرخسي . . أخرج الخيط من تكته ، ورده إليه ، وقال له : إنك لم تكتب إلي في أمر الخيط ، وأنا أقبل ما هو أكثر من هـٰذا ، ثم رده عليه .

وقال : من ختم نهاره بذِكر . . كُتب نهارَه ذاكراً ، وكان يتحرىٰ ذلك .

وكان يقول : رُبَّ عمل صغير تعظِّمه النية ، ورب عمل كبير تصغِّره النية .

وقال ابن المبارك : قال داوود لابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام : يا بني ؛ إنما يُستدَل علىٰ تقوى الرجل بثلاثة أشياء : بحسن توكله على الله عز وجل فيما يأتيه ، وبحسن رضاه فيما أتاه ، وبحسن صبره فيما فاته .

وقال نوفل : رأيت ابن المبارك في النوم ، فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ قال : غفر لي برحلتي في الحديث ، وعليك بالقرآن (مرتين) فقلت له : ما فعل سفيان الثوري ؟ قال : ذاك عندهم في مكان رفيع ، قلت : فأين أنت اليوم ؟ قال : أنا في روضة دهناء[1] .

وقال الفضيل بن عياض : رأيت ابن المبارك في النوم ، فقلت : ما فَعل بك ربك ؟ فقال : غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة ، وكلمتني امرأة من الحور العين وامرأة من أهل الجنة .

وقال الحافظ : قال ابن المبارك : مررت في مسيري بالشام بطبيب ؛ فإذا بين يديه جمع كثير ، وإذا هو يصِفُ لكل واحد منهم ما يجب ، فدنوت منه ، فقلت له : يا طبيب ؛ عندك دواء للذنوب ؟ فقال لي : نعم ؛ اجلس ، فجلست إلىٰ أن تفرق الناس ، ثم قال لي : قم ،

---

(١) أي : واسعة .

فقمت إليه ، فقال لي : يا هٰذا ؛ عليك بورق الفقر ، وعروق الصبر ، وإهليلج الصفاء ، وبليلج الرضا ، وغاريقون الكتمان ، وسقمونيا[1] الأحزان ، فامرسه بماء الأجفان ، ودعه في طنجير القلق ، واجعل تحته نار الفَرَق ، وصَفِّه بمنخل الأرق ، واشربه على الحَرَق ؛ فإن فيه شفاءك يا مريض ، قال : ثم أنشأ يقول :

يـا طبيبـاً بـذكـره نتـداوىٰ   وصفـوه لكـل داء غـريـب
ليس حزنـي عليـك شيئاً عجيباً   إنما الصبر عنك شيء عجيب[2]

قال مؤلفه : ونظير هٰذه الحكاية : أن بعض الأطباء وصف لذي النون فقال : خذ عروق الفقر ، مع ورق الصبر ، مع إهليلَج التواضع ، مع بليلج الخضوع ، وألقه في هاون التوبة ، واسحقه بيد التوفيق ، ثم ألقه في طنجير النقاء ، ثم صبَّ عليه ماء الخوف ، ثم أوقد تحته نار المحبة ، ثم حركه بمحراك المعرفة ، حتىٰ ترغي زبد الحكمة ثم صفِّه بمنخل التفكر ثم هَدِّئْهُ في جام[3] الرجا ، ثم روِّحه بمروحة الخير ، وصفه في قدح المناجاة ، ثم امزجه بماء التوكل ، وذقه بملعقة الاستغفار ثم اشربه وتمضمضْ بعده بالورع ، والزم بعده حِمية الموافقة ؛ فإنك لا تعود بعد استعماله إلىٰ معصية أبداً إن شاء الله تعالىٰ .

وقيل لابن المبارك : الرجل يسمع الحديث فيه اللحن ، أيقومه ؟ قال : نعم ؛ كان القوم لا يلحنون .

وسئل عن كتابة العلم فقال : لولا الكتابة . . ما حفظنا .

وقال : الحبر في الثوب خلوق[4] العلماء .

أنشد ابن المبارك رحمه الله من جملة أبيات :

وهـل بـدَّل الـديـن إلا الملـوك   وأحبـار سـوء ورهبـانُهـا
لقـد رتـع القـوم فـي جيفـة   يبيـن لـذي العلـم إنتـانُهـا

وقال ابن المبارك : مروءة القناعة بالصبر أفضل من مروءة السخاء بالبذل .

وقال ابن المبارك : عن ابن جريج قال : الملكان الحافظان أحدهما عن يمينه والآخر عن

---

(١) **السقمونيا** : نبات يستخرج من جذوره راتينج مُسْهِل .
(٢) الحلية (٨/ ١٦٧ـ ١٧١) .
(٣) **الجام** : إناء للطعام والشراب من فضة أو نحوها .
(٤) **الخلوق** : الطيب .

يساره ، والذي عن يمينه يكتب الحسنات ، والذي عن يساره يكتب السيئات ، والذي عن يمينه يكتب من غير شهادة من صاحبه ، والذي عن يساره لا يكتب إلا بشهادة من صاحبه ، فإذا قعد . . فأحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وإذا مشىٰ . . فأحدهما أمامه والآخر خلفه ، وإن رقد . . فأحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه .

قال عبد الله بن المبارك : قد وكل به خمسة أملاك : ملكان بالليل ، وملكان بالنهار يجيئان ويذهبان ، والخامس لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً .

وقال ابن المبارك : مر رجل براهب عنده مقبرة ومزبلة ، فناداه وقال : يا راهب ؛ إن عندك كنزين هما كنوز الدنيا ، فيهما معتبر : كنز الأموال وكنز الرجال .

ودعا ابن المبارك أصحابه ، فقدم إليهم اثني عشر لوناً ، وكان إذا اشتهىٰ شيئاً . . لم يأكله حتىٰ يشتهيه بعض أصحابه ، فيأكله معهم .

وفي رواية أخرىٰ : كان إذا اشتهىٰ شيئاً . . دعا ضيفاً له ليأكل معه ؛ من أجل حديث حدثناه عن الأوزاعي قال : ثلاثة لا حساب عليهم في مطعمهم : المتسحر ، والصائم حين يفطر ، وطعام الضيف .

وكانت سفرة عبد الله بن المبارك تحمل علىٰ عجلة أو عجلتين ، العجلة تحمل خمسة جوالق[1] .

وفي رواية أبي إسحاق الطالقاني : رأيت بعيرين مملوءين دجاجاً مشوياً لسفرة ابن المبارك .

وعن محمد بن سهم الأنطاكي قال : كنت مع ابن المبارك ، وكان كل يوم يشوىٰ له جدي غير الدجاج ، ويتخذ له فالوذج ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن ؛ كل يوم ؟! قال لي : إني دفعت إلىٰ وكيلي ألف دينار ، وأمرته أن يوسع علينا النفقة .

ودخل أبو أسامة على ابن المبارك ، فرأى ابن المبارك علىٰ وجه أبي أسامة أثر الضيق ، فلما خرج من عنده . . وجه إليه ابن مبارك أربعة آلاف فضة درهم ورزمة ثياب .

وكان يصل العلماء ويعطيهم .

وكان له غلام مفرغ لضرب الفالوذج ، يتخذه ويطعمه لأصحاب الحديث .

---

(١) **الجوالق** : وعاء من صوف أو شعر .

و[قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ] : قال المسيب بن واضح : كنت عند ابن المبارك ، فكلموه في رجل يقضي عنه سبع مئة درهم دَيناً ، فكتب إلىٰ وكيله : إذا جاءك كتابي هـٰذا وقرأته وفهمته. . فادفع إلىٰ صاحب الكتاب سبعة آلاف درهم ، فلما ورد الكتاب على الوكيل. . قرأه والتفت إلى الرجل ، فقال له : أي شيء قصتك ؟ فأخبره ، فقال الوكيل : قد وجدت في الكتاب غلطاً ، ولـٰكن اقعد موضعك حتىٰ أجري عليك من مالي وأبعث إلىٰ صاحبي ، فأؤامره فيك ، فكتب إلىٰ عبد الله بن المبارك : أتاني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ، وسألت صاحب الكتاب ، فذكر أنه كلمك في سبع مئة درهم ، وهـٰهنا في الكتاب سبعة آلاف درهم ، فإن يكن منك غلط. . فاكتب إلي حتىٰ أعمل علىٰ حَسَب ذلك ، فكتب إليه : إذا أتاك كتابي هـٰذا وقرأته وفهمت ما فيه. . فادفع إلىٰ صاحب الكتاب أربعة عشر ألف درهم ، فكتب إليه : إن كان علىٰ هـٰذا الفعال. . ما أسرع ما تبيع الضيعة .

وفي رواية أخرىٰ : كتب الوكيل إليه : أن الغلات قد فنيت ، فكتب إليه ابن المبارك : إن كانت الغلات قد فنيت. . فإن العمر أيضاً قد فني ، فأجرِ له ما سبق قلمي به .

وفي رواية : فكتب إليه عبد الله : إن كنت وكيلي. . فأنفِذْ ما آمرك به ، وإن كنت أنا وكيلك. . فتعال إلىٰ موضعي حتىٰ أصير أنا إلىٰ موضعك ، فأُنفِذُ ما تأمرني به ، فإني سمعت سفيان الثوري يقول : سمعت ليثاً يقول : سمعت مجاهداً يقول : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فاجأ من أخيه المسلم فرحة علىٰ فرحه. . غفر له » ، فأحببت أن أفاجئه فرحة علىٰ فرحه .

وقال مخلد بن الحسين : ما أرىٰ خلة من خلال الخير إلا وقد جعلها الله سبحانه وتعالىٰ في ابن المبارك ، لقد بلغني أنه كان يطعم أصحابه في السفر الخبيص ، وهوالدهرَ صائم .

وقال زكريا بن عدي : سمعت أبا خالد الأحمر يقول : ما هُدَّت الأرض بعد موت سفيان الثوري بموت أحدٍ كما هُدَّت بموت ابن المبارك رحمه الله .

أدرك جماعة من التابعين ، وأكثر روايته عن الأئمة والأعلام .

فمن أحاديثه : عن عاصم ، عن أنس رضي الله عنه أنه قال : (من لم يؤمن بالشفاعة. . لم تنله شفاعة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم) .

وعنه عن موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن أبيه قال : أكثر ما رأيت النبي صلى الله عليه

وسلم يحلف بهٰذه اليمين : « لا ومقلب القلوب »[1] .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق . . أمرهم بالصلاة ، ثم قرأ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الآية[2] .

وبإسناده إلىٰ معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يقول الله عز وجل للمؤمنين يوم القيامة : هل أحببتم لقائي ؟ فيقولون : نعم يا ربنا ، وأنت أعلم ، فيقول : لِمَ ؟ فيقولون : رجونا عفوك ورحمتك ، وأنت أعلم ، فيقول الله جل جلاله : إني قد أوجبت لكم رحمتي »[3] أو كما قال . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٩٥] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : ولد عبد الله بن المبارك سنة ثمان عشرة ومئة .

قال الحسن : أخبرني غير واحد من أهله أنه ما دخل الحمَّام[4] قط .

وكانت داره بمرو كبيرة ، صحن الدار منها نحو خمسين ذراعاً ، وكانت داره لا تخلو من صاحب علم ، أو صاحب عبادة ، أو رجل له مروءة وقدر .

وكانوا يجتمعون في كل يوم حلقاً يتذاكرون حتىٰ يخرج إليهم ابن المبارك ، فينضمون إليه ، فلما صار ابن المبارك بالكوفة . . نزل في دار صغيرة ، فكان يخرج إلى الصلاة ثم يرجع إلىٰ منزله لا يكاد يخرج منه ، ولا يأتيه أحد ، فقلت له : يا أبا عبد الرحمن ؛ ألا تستوحش هٰهنا مع الذي كنت فيه بمرو ؟ فقال : إنما فررت من مرو من الذي أراك تحبه لي ، وأحببت هٰهنا الذي أراك تكرهه لي ، كنت في مرو ولا يكون أمر من الأمور إلا أتاني فيه الناس ، ولا مسألة إلا قالوا : اسألوا ابن المبارك عنها ، وأنا هٰهنا في عافية من ذلك .

قال : وكنت مع ابن المبارك يوماً ، فأتينا علىٰ سقاية والناس يشربون منها ، فدنا منها ليشرب ، ولم يعرفه الناس ، فزحموه ، ودفعوه ، فلما خرج . . قال : ما العيش إلا هٰكذا ، يعني : حيث لم تُعرَف ولم تُوقَّر .

قال : وبينا هو بالكوفة يُقرأ عليه كتاب المناسك . . انتهىٰ إلىٰ حديث ، وفيه : قال عبد الله : وبه نأخذ ، فقال : مَن كتب هٰذا من قولي ؟ فقلت : أنا الذي كتبته ، فأخذ

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٩٥٦) .
(٢) أخرجه المقدسي في « المختارة » (٩/ ٤٦٠) .
(٣) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٢٥) .
(٤) أي : حمَّام السوق .

السكين ، وكشطه حتىٰ لم يبق له أثر ، وقال : مَن أنا حتىٰ يُكتب قولي ؟!

وقال الحسن : وصحبته من خراسان إلىٰ بغداد ، فما رأيته أكل وحده .

قال : وزوَّج النضر بن محمد ولده ، فدعا ابن المبارك ، فلما جاء. . قام ليخدم الناس ، فأبى النضر أن يدعه ، وحلَّفه حتىٰ جلس .

وقال ابن المبارك : كن محباً للخمول ، كارهاً للشهرة ، ولا تظهرن من نفسك أنك تحب الخمول ، فترفع نفسك ؛ فإن دعواك الزهد من نفسك يخرجك من الزهد ؛ لأنك تجر إلىٰ نفسك الثناء والمدح .

وقال أشعث بن شعبة : قدم هارون الرشيد الرقة ، فانجفل[1] الناس خلف عبد الله بن المبارك ، وتقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج من قصر الخشب ، فلما رأت الناس وكثرتهم. . قالت : ما هـٰذا ؟ قالوا : عالم من أهل خراسان يقال له : عبد الله بن المبارك ، فقالت : هـٰذا والله المُلك ، لا مُلك هارون الرشيد ، الذي يجمع الناس بالسوط والعصا وشرط وأعوان .

وقال سويد بن سعيد : رأيت ابن المبارك بمكة أتىٰ إلىٰ زمزم ، فاستقىٰ منها ، ثم استقبل الكعبة وقال : اللهم ؛ إن ابن أبي المَوالي حدثنا عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ماء زمزم لما شرب له »[2] ، وهـٰذا أشربه لعطش القيامة ، ثم شربه .

وقال نعيم بن حماد : كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقائق. . كأنه بقرة منحورة من البكاء ، لا يجترىء أحد منا أن يدنو منه ولا يسأله عن شيء .

وقال عمران بن موسىٰ : جاء رجل فسأل سفيان الثوري عن مسألة ، فقال له : مِن أين أنت ؟ فقال : من أهل المشرق ، قال : أوَ ليس عندكم أعلم أهل المشرق ؟ قال : ومَن هو ؟ قال : عبد الله بن المبارك ، قال الرجل : أهو أعلم أهل المشرق ؟ قال : نعم ؛ وأهل المغرب .

وعوتب عبد الله بن المبارك فيما يفرق من المال في أهل البلدان ، ولا يقعد في بلد ،

---

(١) انجفل الناس : ذهبوا مسرعين .

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٥٧) ، والحاكم (١/٦٤٦) ، وابن ماجه (٣٠٦٢) ، ولابن حجر العسقلاني كتاب فيه .

فقال : إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق ، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب ، فاحتاجوا ، فإن تركناهم . . ضاع علمهم ، وإن أَعَنَّاهم . . بثوا العلم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم .

وقيل له : إلىٰ متىٰ تكتب الحديث ؟! فقال : لعل الكلمة التي أنتفع بها ما كتبتها بعد .

وقال علي بن الحسن بن شقيق(١) : سمعته يقول : لأَن أرد درهماً من شبهة . . أحب إلي من أن أتصدق بمئة ألف ومئة ألف ، حتىٰ بلغ ست مئة ألف .

وقال ابن الحسين : قيل لابن المبارك : ما التواضع ؟ قال : التكبر على الأغنياء .

وقال ابن المبارك : لو أن رجلاً اتقى الله تعالىٰ مئة سنة ، ولم يتق شيئاً واحداً . . لم يكن من المتقين ، ولو تورع عن مئة شيء ولم يتورع عن شيء واحد . . لم يكن ورعاً ، ومن كانت فيه خلة من الجهل . . كان من الجاهلين .

وقال أحمد بن جميل المروزي : قيل لابن المبارك : إن إسماعيل بن علية قد ولي الصدقات ، فكتب إليه ابن المبارك :

يا جاعلَ العلم له بازياً ... يصطاد أموال المساكينِ
احتَلْتَ للدنيا ولذاتها ... بحيلة تَذهَب بالدِّينِ
فصرت مجنوناً بها بعد ما ... كنت دواء للمجانينِ
أين رواياتك [في سردها] ... عن ابن عونٍ وابن سيرينِ
أين رواياتك فيما مضىٰ ... في ترك أبواب السلاطينِ
إن قلتَ أُكرِهْتُ فما ذا كذا ... زل حمار العلم في الطينِ(٢)

فلما قرأ الكتاب . . بكىٰ واستعفىٰ .

وقال علي بن الحسن بن شقيق : كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج . . اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو ، فيقولون : نصحبك يا أبا عبد الرحمن ؟ فيقول لهم : هاتوا نفقاتكم ، فيأتون بها ، فيجعلها في صندوق ، ويقفل عليها ، ويكتب أسماء أصحابها علىٰ كل صرة ،

---

(١) في النسخ : (علي بن الحسين) ، ولعل الصحيح ما أثبت .

(٢) جاء في نسخة :

(إن قلت أكرهت فذا باطل ... زل حمار العلم في الطين)

وفي أخرىٰ : (حمار الشيخ) .

ثم يكتري لهم ، ويخرجهم من مرو إلىٰ بغداد ، ولا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلواء ، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأجمل مروءة ، حتىٰ يصلوا إلىٰ مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا صاروا إليها . . قال لكل واحد منهم : ما أَمَرَكَ عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طُرَفها ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيشتريَه لهم ، ثم يخرجهم إلىٰ مكة ، فإذا قضوا مناسكهم . . قال لكل واحد منهم : ما أمرك عيالك أن تشتري من متاع مكة ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيشتريه لهم ، ويخرجهم من مكة ، فلا يزال ينفق عليهم حتىٰ يرجعوا إلىٰ مرو ، فإذا وصلوا إليها . . جصص دورهم ، فإذا كان بعد ثلاثة أيام . . صنع لهم وليمة وكساهم ، فإذا أكلوا وشربوا . . دعانا بالصندوق ، ففتحه ، ودفع إلىٰ كل واحد منهم صرته ، واسمه مكتوب عليها .

وقال خادمه : آخر سفرة سافر بها عمل دعوة ، فقدَّم إلى الناس خمسة وعشرين خواناً[1] فالوذجاً .

وقال ابن المبارك للفضيل بن عياض : لولاك وأصحابك . . ما اتَّجرتُ .

وكان ينفق على الفقراء في كل سنة مئة ألف درهم .

وقال محمد بن عيسىٰ : كان عبد الله بن المبارك كثير الاختلاف إلىٰ طرسوس ، وكان ينزل الرقة في خان ، وكان هناك شاب يختلف إليه ، ويقوم بحوائجه ، ويسمع منه الحديث ، قال : فقدم ابن المبارك مرة ، فلم ير ذلك الشاب ، وكان مستعجلاً ، فخرج في النفير إلى الغزو ، فلما قدم من غزوته . . رجع إلى الرقة ، فسأل عن ذلك الشاب ، فقالوا : إنه محبوس لدَين ركبه ، فقال : وكم مبلغه ؟ قالوا : عشرة آلاف درهم ، فلم يزل يستقصي حتىٰ دُلَّ علىٰ صاحب المال ، فدعا به ليلاً ، ووزن له عشرة آلاف درهم عن ذلك الشاب ، وأحلفه : أنه لا يخبر أحداً ما دام عبد الله بن المبارك حياً ، وقال : إذا أصبحت . . فأخرج الرجل من الحبس ، فلما أصبح . . أخرجه من الحبس ، قيل له : إن عبد الله بن المبارك كان هٰهنا وهو يذكرك ، وقد خرج ، فخرج الفتىٰ علىٰ أثره ، فلحقه علىٰ مرحلة أو مرحلتين من الرقة ، فقال له عبد الله : يا فتىٰ ؛ إني لما كنت في الرقة . . لم أرك في الخان ، فقال الفتىٰ : يا أبا عبد الرحمن ؛ كنت محبوساً بدَين ، قال : وكيف كان سبب خلاصك ؟ قال : جاء رجل فقضىٰ عني دَيني ، ولم أعلم به ، فأُخرجت من الحبس ، فقال له عبد الله : احمدِ الله

---

(١) الخوان : ما يؤكل عليه .

عز وجل علىٰ ما وفق لك من قضاء دَينك . ولم يخبر ذلك الرجل أحداً بأمر عبد الله بن المبارك إلا بعد موته رضي الله عنه وأرضاه .

هنيئاً له ، اللهم ؛ ارزقنا رؤياه في الآخرة ، واجمع بيننا وبينه في دار كرامتك يا أرحم الراحمين .

وقال ابن وهب : مر ابن المبارك برجل أعمىٰ ، فقال له : أسألك أن تدعو الله عز وجل أن يرد علي بصري ، قال : فدعا الله عز وجل ، فرد عليه بصره وأنا أنظر .

وقال الحسن بن عرفة : قال ابن المبارك : استعرت قلماً بأرض الشام ، فذَهَبَ عَلَيَّ أن أرده إلىٰ صاحبه ، فلما قدمت مرو . . نظرت ؛ فإذا هو معي في متاعي فرجعت ـ يا أبا علي ـ إلىٰ أرض الشام حتىٰ رددته علىٰ صاحبه .

وقال ابن المبارك : كاد الأدب أن يكون ثلثي الدِّين .

وقال : طلبنا العلم للدنيا ، فدلنا العلم علىٰ ترك الدنيا .

وقال : إن الصالحين فيما مضىٰ كانت أنفسهم تواتيهم على الخير ، فعفوا وعَفُّوا ، وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلا علىٰ كُره ، فينبغي أن نُكرِهَها . انتهىٰ .

وقال الحسن بن الربيع : ذكرت لعبد الله بن المبارك يوسفَ بن أسباط وما كان عليه من العبادة ، فقال : لقد ذكرت قوماً يستسقىٰ بذِكرهم ، ولـٰكن إن فعل الناس جميعهم ذلك . . فمَن لسُنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! ومَن لعيادة المرضىٰ وشهود الجنائز ؟! وعد أنواعاً من القرب .

وقيل لعبد الله بن المبارك رحمه الله : كيف تعلم الملائكة عليهم السلام أن الإنسان قد هَمَّ بحسنة ؟ قال : يجدون ريحها .

وقال أحمد ابن حنبل : كان عبد الله بن المبارك يطوف بالبيت وهو يقول : فلان قوي وفلان ضعيف .

وقال أبو معاذ القاري : رأيت في المنام كأني أخرج إلىٰ جبانة ، ورأيت جمعاً عظيماً ، فقلت : ما هـٰذا ؟ فقالوا : رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرض للناس ، فدنوت منه ، فقلت : يا رسول الله ؛ افرض لي ، فقال : « اذهب إلىٰ كاتبي عبد الله بن المبارك » ، فأتيته ، فقلت له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك أن تفرض لي ، قال : فكتب اسمي ، قال : فانتبهت وبي من السرور ما الله به عليم . أو كما قال .

وقال ابن المبارك : سمعت محمد بن النصر الحارثي وهو يقول : ثلاث كلمات نفعني الله عز وجل بهن ، إذا ذُكر الصالحون . . كنت عنهم بمعزل ، ولا يستقيم طلب الآخرة إلا بالمبادرة إليها ، وإنما تنتظرون ثلاثاً فما تخلفكم عن العمل ؟! إما نعمة تزول ، وإما مصيبة تنزل ، وإما منية تقضىٰ ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : عجبت لمن يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلىٰ مكرمة دنيوية ؟!

وكان يقول : إن الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/٨٩ـ٩٧] .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ رحمه الله ـ : عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي مولاهم ، المَرْوزي ، أبو عبد الرحمن ، الإمام المجمَع علىٰ إمامته وجلالته في كل شيء ، الذي تستنزل الرحمة بذِكره ، وترجى المغفرة بحبه ، وهو من تابعي التابعين .

سمع من هشام بن عروة ، ويحيى الأنصاري ، وسليمان التيمي ، وخلائقَ غيرهم من التابعين ، وخلائقَ من أتباع التابعين ، منهم السفيانان ، ومالك ، وشعبة ، والحمَّادان ، ومسعر ، وآخرون لا ينحصرون .

روىٰ عنه الثوري ، وداوود العطار ، وجعفر بن سليمان ، والفضيل بن عياض ، وأبو إسحاق الفزاري ، وأبو داوود الطيالسي ، ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، ويحيى القطان ، وابن مهدي ، وابن وهب ، وعبد الرزاق ، وخلائقُ غيرهم .

وكان أبوه تركياً مملوكاً لرجل من همذان ، وأمه خوارزمية .

وقال أبو أسامة : ما رأيتُ أَطْلَبَ للعلم من ابن المبارك .

رُوِّينا عن الحسن بن عيسىٰ قال : اجتمع جماعة فقالوا : تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير ، فقالوا : جمع العلم ، والفقه ، والأدب ، والنحو ، واللغة ، والزهد ، والشعر ، والفصاحة ، والورع ، والإنصاف ، وقيام الليل ، والعبادة ، والسخاء ، والسداد في الرواية ، وقلة الكلام فيما لا يعنيه ، وقلة الخلاف علىٰ أصحابه .

وكان كثيراً ما يتمثل :

وإذا صاحبتَ فاْصْحَب ماجداً ... ذا عفاف وحياء وكرمْ
قائلاً للشيء لا ، إن قلتَ لا ... وإذا قلتَ نعم قال نعم

وقال العباس بن مصعب : جمع ابن المبارك الحديث ، والفقه ، والعربية ، وأيام الناس ، والشجاعة ، والتجارة ، والسخاء ، والمحبة عند الفرق .

وقال سفيان بن عيينة حين توفي ابن المبارك رحمه الله : لقد كان فقيهاً ، عالماً ، عابداً ، زاهداً ، سخياً ، شجاعاً .

وقال عمار بن الحسن يمدحه :

إذا سار عبد الله من مَرْوَ ليلةً فقد سار منها نورها وجمالُها
إذا ذكر الأخيار من كل بلدة فهم أنجمٌ فيها وأنت هلالُها

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : كان ابن المبارك نسيج وحده .

وقال أيضاً : الأئمة في زمانهم أربعة : الثوري بالكوفة ، ومالك بالحجاز ، وحماد بن زيد بالبصرة ، وابن المبارك بخراسان .

وقال الأوزاعي لأبي عثمان الكلابي : لو رأيتَ ابن المبارك . . لقرَّتْ عينك .

وقال أبو أسامة : ابن المبارك في أصحاب الحديث كأمير المؤمنين في الناس .

وقال أحمد ابن حنبل : لم يكن في زمن ابن المبارك أَطْلَب للعلم منه ، رحل إلى اليمن ، ومصر ، والشام ، والبصرة ، والكوفة .

وكان من رواة العلم ، وأهل لذلك ، كتب عن الصغار والكبار ، وجمع أمراً عظيماً ، وكان صاحب حديث حافظاً .

وقال عبد الرحمـٰن ابن أبي جميل : قلنا لابن المبارك : يا عالم المشرق ؛ حدثنا ، فسمعنا سفيانُ الثوري فقال : ويحكم! عالم المشرق والمغرب وما بينهما .

وقال شعيب بن حرب : كنا نأتي ابن المبارك نحفظ عنه ، فما نستطيع أن نتعلق عليه بشيء .

وقال أسود بن سالم : كان ابن المبارك إماماً يقتدىٰ به ، وهو مِن أثبت الناس في السُّنَّة .

وقال محمد بن سعد : طلب ابن المبارك العلم ، وروىٰ روايات كثيرة ، وصنف كتباً كثيرة في أبواب العلم وصنوفه ، وقال الشعر في الزهد والحث على الجهاد ، وسمع علماً كثيراً ، وكان ثقة ، مأموناً ، حجة ، كثير الحديث .

توفي بهِيت لما قفل من الغزو ، سَنة إحدىٰ وثمانين ومئة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وقال البخاري رحمه الله : توفي في رمضان من السَّنة المذكورة .

قلت : (هِيت) : مدينة معروفة على الفرات فوق الأنبار .

قال الخطيب : حدث عن ابن المبارك معمر والحسين بن داوود ، وبين وفاتِهِما مئة واثنتان وثلاثون سَنة ، وقيل : مئة وثلاثون . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٨٥-٢٨٧] .

وقال أبو الفرج في كتابه « مناسك الحج » : كان عبد الله بن المبارك في بعض الثغور ، فكتب إلى الفضيل بن عياض وهو مجاور بمكة :

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتنا ... لعَلِمتَ أنَّك في العبادة تَلعبُ
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تَتخضَّبُ
أو كان يُتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رَهَجُ السنابك والغبارُ الأطيبُ(١)
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يُكْذَبُ
لا يستوي غبار خيل الله في ... أنف امرىءٍ ودخان نار تَلْهَبُ
هـٰذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

فلما قرأ الفضيل كتابه.. ذرفت عيناه ، ثم قال : صدق أبو عبد الرحمـٰن ونصحني . انتهىٰ .

وسئل عبد الله بن المبارك عن مسألة بحضرة الإمام سفيان الثوري رحمه الله فقال : أنا لا أجيب بحضرة الأستاذِين .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **رهج السنابك** : الغبار الذي تثيره أطراف حوافز الخيل وجوانبها .

ومنهم الإمام :

عبد العزيز ابن أبي رَوَّاد
رضي الله عنه

قال النووي ـ رحمه الله ـ : اسم أبي رواد : ميمون ، وعبد العزيز ، يكنىٰ : أبا عبد الرحمن ، وهو خراساني ، ثم مكي أزدي ، مولى المغيرة بن المهلب ابن أبي صفرة .

سمع نافعاً ، وسالماً ، وعكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما ، ومحمد بن زياد ، وغيرهم .

روىٰ عنه ابنه ، وسفيان الثوري ، وحسين الجعفي ، وأبو عاصم النبيل ، وآخرون .

قال ابن عدي : في بعض حديثه ما لا يتابع عليه ، روىٰ له البخاري حديثاً واحداً .

وقال ابن أبي حاتم : قال يحيى القطان : هو ثقة في الحديث ، لا ينبغي أن يترك حديثه لرأي أخطأ فيه .

وقال أحمد ابن حنبل : هو رجل صالح ، وكان مرجئاً[1] ، وليس هو في التثبت كغيره .

---

(١) قد يطلق الإرجاء علىٰ مذاهبَ :
أ ـ مذهب أبي حنيفة وأصحابه ـ سماهم بذلك المحدثون ـ : عدم دخول الأعمال في الإيمان ، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص .
ب ـ مذهب أهل السنة والجماعة ـ سماهم بذلك المعتزلة ـ : تفويض الأمر إلى الله عز وجل في شأن مرتكب الكبيرة إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له .
ج ـ مذهب المرجئة المذمومة : وهو لا تضر المعصية مع الإيمان ، ولا تنفع الطاعة مع الكفر .
ويقول الإمام الذهبي في « لسان الميزان » (٦/ ٤٠٩) : الإرجاء مذهب لعدة من جلة العلماء لا ينبغي التحامل علىٰ قائله . اهـ
ولعل عبد العزيز ابن رواد من هـٰؤلاء الذين قيل فيهم الإرجاء وهو بمعنىٰ ما قاله أبو حنيفة وأصحابه ، ولا أدل علىٰ ذلك مما أورده الذهبي في « السير » (٧/ ١٨٦) قال : سمعت ابن أبي رواد يسأل هشام بن حسان في الطواف : ما كان الحسن يقول في الإيمان ؟ قال : كان يقول : قول وعمل ، قال : فما كان ابن سيرين يقول ؟ قال : كان يقول مفوضاً : آمنا بالله وملائكته ، فقال عبد العزيز مستنكراً : كان ابن سيرين ، وكان ابن سيرين . فقال هشام : بيَّن أبو عبد الرحمـٰن ـ عبد العزيز ـ الإرجاء ، بيَّن أبو عبد الرحمـٰن الإرجاء .

وقال ابن معين : هو ثقة .

وقال أبو حاتم : هو صدوق ، ثقة ، متعبد . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٣٠٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال شقيق : ذهب بصر عبد العزيز ابن أبي رواد عشرين سنة ، فلم يعلم به أهله ولا ولده ، فتأمل ابنه ذات يوم إحدىٰ عينيه ، فقال : يا أبت ؛ ذهبت عينك ؟ فقال : نعم يا بني ، الرضىٰ عن الله عز وجل أذهب عين أبيك منذ عشرين سنة .

وقال شعيب بن حرب : جلست إلىٰ عبد العزيز خمس مئة مجلس ، ما أحسب أن صاحب الشمال كتب عليه شيئاً .

وقال يوسف بن أسباط : مكث عبد العزيز أربعين سنة لم يرفع طَرْفه إلى السماء ، فبينا هو يطوف حول الكعبة ؛ إذ طعنه المنصور بإصبعه في خاصرته ، فالتفت إليه ، وقال : قد علمت أنها طعنة جبار .

وقال عبد العزيز : كان يقال : مِن رأس التواضع الرضىٰ بالدون من شرف المجالس .

وكان يقول : في رأس كل إنسان حكمة آخذ بها مَلَك ، فإن تواضع لربه عز وجل . . رفعه ، وإن تكبر . . وضعه .

وقال رجل لعبد العزيز : كيف أصبحت ؟ فبكىٰ ، فقال : أصبحت ـ والله ـ في غفلة عظيمة عن الموت مع ذنوب كثيرة قد أحاطت بي ، وأَجَلُ كل يوم يُسرع في عمري ، ومنقلب لست أدري علىٰ ما يكون من جنة أو نار ، ثم بكىٰ . أو كما قال .

وقال سعيد بن سالم : سمعته قال لرجل : من لم يتعظ بثلاث . . لم يتعظ بشيء : الإسلام ، والقرآن ، والمشيب .

أسند عبد العزيز عن جماعات من كبار التابعين .

وتوفي بمكة سنة تسع وخمسين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٣٥ـ١٣٦] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : استقرض عبد العزيز من رجل خمسة آلاف درهم ، فقال له بعد الإقراض : يا أبا عبد الرحمن ؛ جئت أشاورك في أن تقبل مني هـٰذا المال ولا يكون في ذمتك ؛ فإني أحب أن تمُنَّ علي بقَبولك هـٰذا المال ، قال له : جزاك الله خيراً ، هـٰذا المال استقرضناه على الله عز وجل ، فكلما اغتممنا به . . كفَّر الله به عنا ، فإذا جعلتنا في حل . .

كأنه سقط ، ولا أحب أن يسقط من أجرنا شيء ، فذهب ، ثم بعد مدة توفي رَبُّ المال إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، فجاء أولاده يطلبون المال ، فقال لهم : إلى الموسم إن شاء الله تعالىٰ ، ثم سأل ربه عز وجل أن يقضيه عنه ، فما كان بأسرع من أن قَدِم غلام له كان غائباً ، ومعه عشرة آلاف درهم ، فدفعها إلىٰ أولاد رَبِّ المال ، فقالوا : نحن ما لنا إلا خمسة ، فقال : صدقتم ، خمسة دَين أبيكم ، وخمسة لإخائه لي ، وألزمَهم بقَبولها ، فقبلوها ، وقال للغلام : اذهب ، فأنت حر لوجه الله سبحانه وتعالىٰ ، وما معك . . لك .

وقال عبد العزيز : دخلت على المغيرة بن حكيم في مرض موته ، فقلت له : أوصني ، فقال : اعمل لهـٰذا المضجع .

ومن أحاديثه : عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعرض عن صاحب بدعة بوجهه بغضاً له لله سبحانه وتعالىٰ . . ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً ، ومن أشهر صاحب بدعة . . أمَّنه الله يوم القيامة الفزع الأكبر ، ومن سلم علىٰ صاحب بدعة ولقيه بالبشرىٰ واستقبله بما يسر . . فقد استخفَّ بما أنزل علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم »(١) زاد في رواية أخرىٰ : « من أهان صاحب بدعة . . رفعه الله تعالىٰ درجة في الجنة » .

وعنه عن عطاء ، عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المتمسك بسُنتي عند فساد أمتي . . له أجر شهيد »(٢) حديث غريب . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ١٩١ـ٢٠٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٣/ ٥٦٧) .

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في « الزهد » (٢/ ١١٨) .

ومنهم الإمام :

محمد بن صبيح بن السماك
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال ابن السماك ليحيى بن خالد : إن الله عز وجل ملأ الدنيا من اللذات ، وحشاها بالآفات ، ومزج حلالها بالمؤونات ، وحرامها بالتبعات .

وقال ابن السماك : الناس ثلاثة : زاهد ، وصابر ، وراغب .

فأما الزاهد : فإنه لا يفرح بما أوتي فيها ، ولا يحزنُ علىٰ ما فاته منها .

وأما الصابر : فهو في الظاهر زاهد ، وفي الباطن ليس بصابر ولا زاهد .

وأما الراغب : فأولـئك في خِوض يلعبون ، مفتضحون لا يشعرون .

وقال : همة العاقل في النجاة والهرب ، وهمة الأحمق في اللهو والطرب .

وقال محمد بن سعيد الأصبهاني : سمعت ابن السماك يقول في مجلسه : حتىٰ متىٰ يبلغنا الواعظون أعلام الآخرة ؟ حتىٰ والله لكأن الأنفس منا عليها واقفة ، وكأن العيون إليها ناظرة ، أفما منتبه من نومته ؟ ولا مستيقظ من غفلته ؟ ولا مفيق من سكرته ؟ ولا خائف من صرعته ؟ الوحا الوحا[1] ، أما تجعل للآخرة منك حظاً ، أقسم بالله ؛ لو رأيت القيامة تخفق بزلازل أهوالها ، وقد علت النار مشرفة علىٰ أهلها ، وقد وضع الكتاب ، ونصب الميزان ، وجيء بالنَّبِيِّين والشهداء . . لسرَّك أن يكون لك في ذلك الجمع يومئذ منزلة وزلفىٰ ، أَبَعْدَ الدنيا دار معتمل أم إلىٰ غير الآخرة منتقل ؟ هيهات هيهات! كلا والله ، ولـكن صمَّت الآذان عن المواعظ ، وذهلت القلوب عن المنافع ، فلا الواعظ يُتَّبع ، ولا الموعوظ ينتفع بما يسمع .

وكتب ابن السماك إلىٰ أخ له في الله عز وجل : كتبت إليك وأنا مسرور مستور ، وأنا بهما مغرور ، ذنب قد ستره الله سبحانه وتعالىٰ عليَّ فقد طابت النفس به كأنه مغفور ، ونِعَمٌ أبلاها

---

(١) **الوحا** : الإسراع .

فأنا بها مسرور، كأني فيها علىٰ تأدية الحقوق مشكور ، فليت شعري ما عواقب هٰذه الأمور ؟

وقال ابن السماك : يابن آدم ؛ ألم يأن لك أن تطيع الله سبحانه وتعالى الذي من كرمه لم يُبلِّغ الحاسدين لك آمالهم فيك ؟ أمَا وعزته وجلاله ؛ لو بَلَّغ الحاسدين لك آمالهم فيك . . لجعلك نكالاً وعبرة . أو كما قال .

وقال : هب أن الدنيا كلها في يديك ، ودنيا أخرىٰ مثلها ضمت إليك ، هب أن المشرق والمغرب يجيء إليك ، فإذا جاءك الموت . . فماذا في يديك ؟!

وقال : كم من مذكِّر لله عز وجل ناسٍ له! وكم من مخوِّف من الله عز وجل جريء على الله سبحانه وتعالىٰ! وكم من داعٍ إلى الله عز وجل فارٍّ من الله عز وجل! وكم من تالٍ لكتاب الله تعالىٰ وهو منسلخ من آيات الله تعالىٰ! والسلام .

وقال : استر أعمالك عن نفسك ، ثم قبحها جهدك بعقلك ، لعلك تدعوك بقبيحها إلىٰ ترك معاودتها ، **واعلم** : أنك لو قبحتها جهدك . . فليس تبلغ غاية قبحها عند ربك سبحانه وتعالىٰ ، فسله أن يمُنَّ عليك بعفوه وتمام ستره .

وكان يقول : تغدو وتروح في كسب الأرباح ، فاجعل نفسك مما تكسبه ؛ فإنك ـ والله ـ لن تكسب مثلها .

وقال : لا يغرنك سكون هٰذه القبور ، فما أكثر المغمومين فيها! ولا يغرنكم استواؤها ، فما أشد تفاوتهم فيها!

وقال ابن السماك : خرجت من العراق إلىٰ بعض الثغور ، فرأيت في جبل لكام عابداً ، فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام ، ثم تأوَّه ، فقلت : ممَّ تأوُّهك ؟ فقال : ذكرت عيش المستريحين ، وفرحة قلوب الواصلين ، فقلت له : ما دليل الخوف ؟ قال : الحزن ، قلت : فما دليل الشوق ؟ قال : الطلب ، قلت : فما دليل الرجاء ؟ قال : العمل ، قلت : فمِن أين ضعُفْنا ؟ قال : لأنكم وثقتم بعفو الله عز وجل عنكم ، ولو عاجلكم بالعقوبة . . لهربتم من معصيته إلىٰ طاعته ، ولٰكن حلمه وستره سبحانه وتعالىٰ حملكم علىٰ معصيته ، ثم أنشأ يقول :

إن كنت تفهم ما أقول وتعقلُ ... فارحل بنفسك قبل أن بك يُرحَلُ
وذر التشاغل بالذنوب وخَلِّها ... حتىٰ متىٰ وإلىٰ متىٰ تتعللُ

وقال ابن السماك : أصبحت الخليقة علىٰ ثلاثة أصناف :

ـ تائب من الذنب موطِّن نفسه علىٰ هجران ذنبه ، لا يريد أن يرجع إلىٰ شيء من سيئه ، فذلك المبرز[1] .

ـ وصنف يُذنِب ، ثم يندم ويحزن ، ويذنب فيبكي ، فهـٰذا يرجىٰ له ، ويُخاف عليه .

ـ وصنف يذنب ، ولا يندم ولا يحزن ، ويذنب فلا يبكي ، فهـٰذا الخائن الجائز عن طر يق الجنة إلى النار .

وقال ابن السماك : دخلت البصرة ، فقلت لرجل : دُلَّني علىٰ رجل ، فقال : هـٰهنا ابن عجوز ، فدخلت علىٰ شاب منكِّس الرأس ، طويل الصمت ، فقالت لنا عجوز : لا تذكروا لابني شيئاً من جنة ولا نار ، فتقتلوه ، فرفع الشاب رأسه إلينا ، ونظر ، ثم قال : إن للناس موقفاً لا بد أن يقفوه ، قال : قلت : بين يدي مَن رحمك الله تعالىٰ ؟ قال : فشهق شهقة ، فمات ، قال ابن السماك : فقالت العجوز : قتلتم ولدي ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فجهزناه ، وصلينا عليه رحمه الله تعالىٰ .

وعزَّى ابن السماك رجلاً فقال له : إن المصيبة واحدة ، إن جزع أهلها وإن صبروا ، ولـٰكن المصيبة بذهاب الأجر أعظِم من المصيبة بالميت .

وبعث هارون الرشيد إلى ابن السماك ، فدخل عليه وعنده يحيى بن خالد البرمكي ، فقال يحيىٰ : إن أمير المؤمنين أرسل إليك لِمَا بلغه من صلاح عنك في نفسك ، وكثرة ذِكر منك لربك عز وجل ، ودعائك للعامة ، فقال ابن السماك : أمَّا ما بلغ أمير المؤمنين من صلاح عنا في أنفسنا . . فذلك بستر الله عز وجل علينا ، فلو اطلع الناس علىٰ ذنب من ذنوبنا . . لما أَقدَم قلب لنا علىٰ مودة ، ولا جرىٰ فينا لسان بمدح ، وإني لأخاف أن أكون بالستر مغروراً ، وبمدح الناس لي مفتوناً ، وإني لأخاف أن أهلك بهما وبقلة الشكر عليهما ، فدعا الرشيد بدواة ، وكتب هـٰذا الكلام .

وقال ابن السماك : من أذاقته الدنيا حلاوتها لميله إليها . . جرَّعته الآخرة مرارتها ؛ لتجافيه عنها .

ولما حضرت ابن السماك الوفاة . . قال : اللهم ؛ إني وإن كنت أعصيك . . لقد كنت أحب فيك من يطيعك ، وأنت أعلم . أو كما قال .

أسند ابن السماك عن عدة منَ التابعين . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٢٠٣ـ٢١١] .

---

(١) المبرز : الفائق علىٰ أقرانه ، وفي نسخة : (الفائز) .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال يحيى بن خالد البرمكي لابن السماك : إذا دخلت علىٰ أمير المؤمنين هارون الرشيد. . فأوجز ، ولا تكثر عليه ، فلما دخل. . قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن لك بين يدي الله عز وجل مقاماً ، وإن لك من مقامك منصرفاً ، إما إلىٰ جنة ، وإما إلىٰ نار ، فانظر كيف يكون منصرفك ، فبكىٰ هارون بكاء شديداً .

وقال : من امتطى الصبر. . قوي على العبادة ، ومن أجمع اليأس. . استغنىٰ عن الناس ، ومن أهمَّته نفسه. . لم يُوَلِّ مَرَمَّتَهَا(1) غيره ، ومن أَحب الخير. . وُفِّق له ، ومن كره الشر. . جُنِّبَهُ ، ومن رضي بالدنيا من الآخرة حظاً. . فقد أخطأ حظ نفسه .

وكتب إلىٰ أخ له في الله عز وجَلَّ :

أما بعد : فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي هو نجيك في سريرتك ، ورقيبك في علانيتك ، فاحذره كل الحذر ، وخَفْ منه سبحانه وتعالىٰ بقدر قربه منك وقدرته عليك سبحانه وتعالىٰ .

وقال ابن السماك : إن استطعت أن تكون كرجل قد ذاق الموت ، وعاين ما بعده ، ثم سأل الرجعة ، فأُسعف بطلبته ، فهو متأهب مبادر. . فافعل ؛ فإن المغبون : من لم يقدم عملاً صالحاً وماله بين يديه .

توفي بالكوفة سَنة ثلاث وثمانين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٨٩ـ٩٠] .

وقال ابن السماك : بلغنا أن الميت إذا عُذب أو أصابه بعض ما يكره. . ناداه جيرانه من الموتىٰ : أيها المخلَّف بعدنا في الدنيا وبعد جيرانه وإخوانه وأهله ؛ أمَا كان لك فينا معتَبَراً ؟! أمَا كان لك في تقدمنا إياك فكرة ؟! أما رأيت انقطاع أعمالنا وأنت في مهلة ؟! قال : وتناديه بقاع القبور : أيها المغتر بظاهر الدنيا ؛ هلا اعتبرت بمن غُيِّبَ من أهلك في بطن الأرض ممن غرته الدنيا قبلك ، ثم سبق به أجله إلى القبور ، وأنت تراه محمولاً يهادىٰ بين أحبته إلى المنزل الذي لا بد له منه .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(1) مَرَمَّتها : إصلاحها .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الرحمـٰن محمد بن النَّضر الحارثي

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أبو أسامة : كان محمد بن النضر من أعبَدِ أهل الكوفة .

وقال محمد بن النضر : قرأت في بعض الكتب : أيها الصديقون ؛ بي فافرحوا ، وبذِكري فتنعموا .

وقال : أول العلم الإنصات له ، ثم الاستماع له ، ثم حفظه ، ثم العمل به ، ثم بثه .

وقال عبد الله بن المبارك : كنت مع محمد بن النضر في سفينة ، فقلت : بأي شيء أستخرج منه الكلام ؟ فقلت : ما تقول في الصوم في السفينة ؟ فقال : إنما هو المبادرة[1] ، قال : فجاء بفتوىٰ غير فتوى النخعي والشعبي .

قال شهاب بن عباد : صحبت محمد بن النضر إلىٰ عبادان ، فلم يتكلم إلا بثلاث : إحداهن : قال لرجل : أحسن صلاتك .

وقال : شغل الموت قلوب المتقين عن الدنيا ، فو الله ؛ ما رجعوا إليها في سرور بعد معرفتهم بكربه وغصصه .

وكان إذا ذكر الموت . . اضطربت مفاصله حتىٰ تتبين الرعدة فيه .

وكان كثير العبادة والصلاة سفراً وحضراً ، لا يكاد يفتر عنها ، راقبه شخص أربعين يوماً وليلة ، فما رآه نائماً ليلاً ولا نهاراً ، وكان قد جعل علىٰ نفسه ألاَّ ينام قبل موته بثلاث سنين ، إلا ما غلبته عيناه .

وقال يوسف بن أسباط : شهدت غسله حين مات ، فلو كُشط كل لحم عليه . . ما بلغ رطلاً بالعراقي .

---

(١) أي : أن يصوم ولو كان في السفينة مسافراً .

وكان محمد بن النضر إذا أصبح . . يقول : غدا كل امرىء إلىٰ سوقه ، والتمس المتقون فضل الربح لديك يا أكرم الأكرمين .

وكان لا يخرج من مسجده حتىٰ يتعالى النهار ، فيقال له : إن للناس إليك حوائج ، فيقول : وأنا لي إلى الله سبحانه وتعالىٰ حوائج .

وقال : ما من عامل يعمل لله عز وجل في دار الدنيا . . إلا وله عامل يعمل في الدرجات في الآخرة ، فإذا أمسك . . أمسكوا ، فيقال لهم : مالكم قصرتم ؟ فيقولون : صاحبنا لاهٍ .

وقال في قوله عز وجل : ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ قال : يقول الله سبحانه وتعالىٰ : أنا أهل أن يتقيني عبدي ، فإن لم يفعل . . كنت أهلاً أن أغفر له .

وقال المعافى بن عمران رحمه الله : قال رجل لمحمد بن النضر : أين أعبُدُ الله عز وجل ؟ قال : أصلِح سريرتك ، واعبده حيث شئت .

وكان يقول في الركوع : سبحان ربي العظيم وبحمده ، حمداً خالداً مع خلودك ، حمداً لا انتهاء له دون علمك ، حمداً لا ابتداء له دون مشيئتك ، حمداً لا جزاء لقائله دون رضاك .

وكان من المجدين في العبادة ، فقلَّتْ روايته ، وحُفظ عنه أحاديث لم يَذكُر لها إسناداً ، وإنما ذكرها إرسالاً .

فمما رواه : عن الأوزاعي قال : كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ إني أسألك التوفيق لمحابّك من الأعمال ، وصدق التوكل عليك ، وحسن الظن بك »(١) . انتهىٰ

[« الحلية » ٨/٢١٧ـ٢٢٤] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أبو أسامة : قلت لمحمد بن النضر : كأنك تكره أن نراك ، قال : أجل ، قلت : أما تستوحش ؟ قال : كيف أستوحش وهو سبحانه وتعالىٰ يقول : أنا جليس من ذكرني ؟!!

وقال محمد بن النضر : الجوع يبعث على البر كما تبعث البطنة على الأشر . انتهىٰ

[« الصفوة » ٣/٧٩ـ٨٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه المقريزي في « مختصر كتاب الوتر » (١/١٤٦) .

ومنهم الإمام :

محمد بن يوسف الأصبهاني

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال يحيى بن سعيد القطان : ما رأيت رجلاً أفضل من محمد بن يوسف الأصبهاني .

وعن عطاء بن مسلم قال : كان محمد بن يوسف يختلف إلي عشرين سَنة لم أعرفه ، يجيء إلى الباب فيقول : رجل غريب يسأل عن شيء ، ثم يخرج ، حتىٰ رأيته يوماً في المسجد ، فقيل لي : هـٰذا محمد بن يوسف ، فقلت : هـٰذا يختلف إلي منذ عشرين سَنة لم أعرفه .

وقال ابن المبارك لابن إدريس : إني أريد الثغر ، فدلني علىٰ أفضل رجل بها ، فقال : عليك بمحمد بن يوسف ، قلت : فأين يسكن ؟ قال : المصيصة ، ويأتي السواحل ، فقدم ابن المبارك المصيصة ، فسأل عنه ، فلم يُعرف ، فقال ابن المبارك : من فضله أنه لا يُعرف ، قال : ثم طلبه في المسجد ، فوجده .

وقال أحمد بن عصام : بلغني أن ابن المبارك كان يسمي محمد بن يوسف : عروس الزهاد والعباد .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : سمعت محمد بن يوسف يقول : ما يسرني أن أراضيكم هـٰذه كلها لي بفلسين .

قال : وخرج إلىٰ مكة ومعه مئة دينار ، وما كان معه في محمله إلا كساء[1] .

وقال محمد بن يوسف : كنت بقزوين أو بالري ، فلما أردت الخروج منها . . جاءني رجل وقال : لي إليك حاجة ، قلت : ما حاجتك ؟ قال : إن لي بنتاً ومالي من ولد غيرها ، ولي هـٰذه الضياع ، وقد أردت أن أزوجك ابنتي وأُشهِد لك بجميع ضِياعي ، ثم أخرج أنا

---

(١) في نسخة : (كتباً) .

وأنت إلىٰ أي بلد شئت ، إن شئت مكة ، وإن شئت المدينة ، حتىٰ تقيم بها ، قلت : عافاك الله ، لو أردتُ هـٰذا الأمر . لفعلته منذ زمان ، فقيل لمحمد بن يوسف : وما الذي منعك من ذلك ؟ قال : كرهت أن يشغلني عما هو أنفع منه ، قال : وما كنت أصنع بضِياعه وأنا قد تركت ما ورثت عن أبي من ضياعه ؟!

وقال ابن مهدي : انحدر محمد بن يوسف إلىٰ عبادان في غير شهر رمضان ، فوجدها خالية ، فجعل يقول :

خلا لك الجو فبيضي واصفري

وكان يقول لنفسه : هب أنك قاض ، فكان ماذا ؟ هب أنك مُفتٍ ، فكان ماذا ؟ هب أنك محدِّث ، فكان ماذا ؟

وقال محمد بن يوسف : ما واردٌ يرد علي أحب إلي من الموت .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : كان محمد بن يوسف لا يضع جنبه بالليل .

وقال صالح بن مهران : كنت مع محمد بن يوسف ، فلقيه نصراني ، فسلم عليه وأكرمه ، فأنكرت عليه ، فلما ذهب . . قلت له : أتصنع مثل هـٰذا الصنيع بنصراني ؟! فقال : إنك لا تدري ما صنع هـٰذا بأخي ، قلت : وما الذي صنع ؟ قال : هـٰذا رجل من أهل الرقة ، نزل أخي ومعه تسعة من العُبَّاد قرية لهم ، فقال لغلامه : انظر من في القرية ، فنظر ، ثم رجع إليه ، وقال : في القرية قوم في وجوههم سيما الخير ، قال : فجاء ، فنظر إليهم ، فتوسم فيهم الخير ، فراح إلىٰ منزله ، وحمل إليهم مئة ألف درهم ، فوصلهم بها ، وقال : استعينوا بها علىٰ ما أنتم فيه ، قال : فأبىٰ كل واحد منهم أن يقبل منه شيئاً ، فلعل الله عز وجل أن يهديه للإسلام بهـٰذه النية .

وكان محمد بن يوسف مجاب الدعوة ، يأتيه من عند أهله كل سَنة سبعون ديناراً أو نحوها ، فيأخذ علىٰ طريق الساحل ، ويأتي مكة ، ثم يرجع إلى الثغر فينفقها .

وسأل محمد بن يوسف عن جماعة منهم محمد بن النضر وابن المبارك ، فقيل له : ماتوا ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، مضىٰ هـٰؤلاء لسبيلهم إلىٰ رحمة الله عز وجل ، وبقينا نحن في حشوش هـٰذه الدنيا .

وقدم محمد بن يوسف المصيصة ، وكان قد مات أبو إسحاق الفزاري رحمه الله ، فسأل عن قبره ، فدلوه عليه ، فوقف علىٰ قبره ورأىٰ فرجة بين قبره وقبر مخلد بن الحسين ،

فقال : ما أحسن موضع هٰذا القبر لمؤمن أو مسلم ، إن مِتُّ . . فادفنوني إلىٰ جنبه ، قال : فما بات ليلته تلك إلا محموماً ، فما أتت عليه عشرة أيام أو نحوها ، حتىٰ دفن في ذلك الموضع الذي أشار إليه .

وكان محمد بن يوسف كثيراً ما يقول :

ومُـرَّ بـدار المُتـرَفيـن وقـل لهـم ... ألا أيـن أربـاب المـدائـن والقـرىٰ

ومُـرَّ بـدار العـابـديـن وقـل لهـم ... أَلاَ قَطَع الموتُ التنصُّبَ والأذىٰ(١)

وقال الحسن بن عمرو مولىٰ عبد الله بن المبارك : ما رأيت ابن المبارك أعجبه إنسان قط ممن كان يأتيه مثل إعجابه بمحمد بن يوسف ، كان كالعاشق له .

وقال أحمد بن عصام : بلغني أن ابن المبارك أتاه قوم بمكة ، فسألوه عن حديث ، فامتنع ، وقال : نهاني عنه محمد بن يوسف .

وكان محمد بن يوسف في سفر ، فلدغت العقرب بعض أصحابه ، فجعل يصيح ويتمرغ ، فوضع محمد يده علىٰ ذلك الموضع ، وقرأ عليه شيئاً ، فسكن في الحال ، فسئل : ما الذي قرأ عليه ؟ فقال : (فاتحة الكتاب) .

وكان لا يشتري زاده من خباز واحد ، ولا بقال واحد ، وقال : لعلهم يعرفوني ، فيحابوني ، فأكون ممن يعيش بدِينه .

وقال : الدنيا عصمة الله أو الهلكة ، والآخرة عفو الله أو النار .

وذكروا الإخوان عند محمد بن يوسف فقال : وأين مِثْلُ الأخ الصالح ؟! أهلك يقتسمون ميراثك ، وهو قد تفرد بحزنك يدعو لك وأنت بين أطباق الثرىٰ .

وقال له شخص : أوصني ، فقال : إن استطعت ألاَّ يكون شيء أهم إليك من ساعتك . . فاغتنمها ولا تغفل عنها ، إنك إن اغتنمتها . . اشتغلت عن غيرها .

وقال : لقد خاب من كان حظه من الله عز وجل الدنيا .

وأوصىٰ بعضَ أصحابه فقال : إن استطعت أن تختم عمرك بحجة . . فافعل ؛ فإن أدنىٰ ما يروىٰ في الحج أنه يرجع كيوم ولدته أمه .

---

(١) جاء في رواية أخرىٰ (العنىٰ) بدل (الأذىٰ) .

وفي رواية أخرىٰ : أنه قال : لم يبق علىٰ وجه الأرض عمل أفضل من الطواف بهٰذا البيت .

وكان محمد بن يوسف لا يُوقَد في بيته سراج ، وكان جيرانه يرون من خارج البيت الضوء عنده ، وهو لا يعلم أنهم رأوه ، فلما علم أنهم قد عرفوا . . انتقل من تلك الدار .

وكان الفضيل يشتهي لقاء محمد بن يوسف ، ومحمد بن يوسف يشتهي لقاء الفضيل بن عياض ، فالتقيا في بعض أزقة البصرة ، فقال الفضيل : محمد بن يوسف ؟ وقال محمد بن يوسف : الفضيل بن عياض ؟ فشهق ذا شهقة ، وشهق ذا شهقة ، فخرَّا مغشيّاً عليهما ، فعُرف الفضيل فحمل ، ومحمد بن يوسف لم يُعرف ، فما زال مغشياً عليه حتىٰ حميت عليه الشمس ، فأفاق .

وكتب إلىٰ أخ له : **أما بعد** : فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل ، جعلنا الله تعالىٰ ـ يا أخي ـ وإياك من المتقين ، خذ من دنياك القوت الذي لا بد منه ، وبادر الفوت ، وقصِّر الأمل ، وبالغ في العمل ؛ فإن بين أيدينا أهوالاً أفزعت الأنبياء والرسل . والسلام .

وقال : إذا كان يحزنك ما ترىٰ من نفسك . . فقلبك حي بعد .

وقال : ليس هٰذا زمان ينبغي فيه الفضل ، هٰذا زمان ينبغي فيه السلامة .

زاد في راوية : أنهم بعثوا إليه بمال ليفرقه في المجاهدين ، فلم يفعل ، ثم قال هٰذا الكلام .

وقال : لو أن رجلاً سمع برجل أطوع لله عز وجل منه أو عرفه . . لكان ينبغي أن يحزنه ذلك .

وفي رواية : فانصدع قلبه . . لم يكن ذلك بعجب .

وكتب محمد بن العلاء بن المسيب من البصرة إلىٰ محمد بن يوسف كتاباً أعجبه كثيراً ، وإذا فيه : يا أخي ؛ من أحب الله عز وجل . . أحب ألاَّ يعرفه أحد .

وكان لا ينام شتاء ولا صيفاً بالليل ، لٰكن في ليالي الشتاء حين يطلع الفجر يتمدد من جلوس ، ثم يقوم ويتوضأ ، وكنت تنظر في وجهه بعدما يصبح كأنه وجه عروس .

وكان يقول : الحقد والدِّين لا يجتمعان .

وقال لرجل ـ وقد رآه في الحرم ـ : احذر أن يراك الله عز وجل وأنت تخدع الناس في حرمه ، فيمقتك .

وقال يوسف بن محمد لمحمد بن يوسف : لِمَ لا تقيم بمكة ؟ فقال محمد بن يوسف : لأَن تشتاق إليها . . أحب إلي من أن تشتاق منها .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : حج ابني إبراهيم ، فلقي محمد بن يوسف ، فقال له : أقرىء أباك السلام ، وقل له : هُنْ ، قال : فلما رجع ابني . . أخبرني بقوله ، فصرت كذا وكذا شهراً شبه المريض من مقالة محمد ، أقول في نفسي : رجل مثل هـٰذا عسىٰ أن يكون بلغه عني شيئاً ، أو رأىٰ رؤيا ، ولا زلت كذا حتىٰ قدم علينا ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ أخبرني ابني بكذا ، فقال محمد : بلغني أنك جلست تحدث الناس ، قال : فقلت له : إن أحببتَ . . حلفتُ لك ألاّ أحدث بحديث أبداً ، فقال : حدث الناس وعلمهم ، ولـٰكن انظر إذا اجتمع الناس حولك . . كيف يكون قلبك .

وقال : قال عبد الله بن مسعود : عنوان صحيفة المؤمن يوم القيامة . . هو الثناء الحسن .

ووقف محمد بن يوسف علىٰ قاض يَحِيد(١) ، فجعل يتغير وينقطع لونه ، وهو يردد دموعه بجهده ، فدنوت منه ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ لو أرسلت ؟ فقال : هو للحزن أكمَدُ ، وكان يتمثل بهـٰذا البيت :

إذا كنت في دار الهوان فإنما … يُنَجِّيك من دار الهوان اجتنابها

وكتب إلىٰ أخ له : سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلـٰه إلا هو .

أما بعد : فإني محذرك متحوَّلك من دار مهلتك إلىٰ دار إقامتك وجزاء أعمالك ، فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها ، فيأتيك منكر ونكير عليهما الصلاة والسلام من الله عز وجل ، فيقعدانك وينهرانك ، فإن يكن الله معك . . فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة ، وإن يكن غير ذلك . . فأعاذني الله تعالىٰ وإياك من سوء مصرع ، وضيق مضجع ، ثم تتبعك صيحة الحشر والنفخ في الصور ، وبروز الجبار جل جلاله لفصل القضاء بين الخلائق ، فخلت الأرض من أهلها ، والسماوات من سكانها ، وسعرت النيران ، ووضع الميزان ، وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضي بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله رب العالمين ، فكم من مفتضح

(١) في نسخة : (قاصّ يعظ الناس) .

ومستور ؟! وكم من هالك وناج ؟! وكم من معذَّب ومرحوم ؟! فيا ليت شعري ما حالي وحالك يومئذ ، ففي هـٰذا ما هدم اللذات ، وسَلَّىٰ عن الشهوات ، وقصر الأمل ، وأيقظ النائم ، وحذر الغافل ، أعاننا الله تعالىٰ وإياك علىٰ هـٰذا الخطر العظيم ، وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعها من قلوب المتقين ، فإنما نحن به وله السلام .

وكان محمد بن يوسف ممن عظمت عنايته ، فقلَّتْ روايته .

وروىٰ عن يونس بن عبيد ، والأعمش ـ وهما من التابعين ـ والحمَّادَين ، والثوري ، ولم يسند عن أحد منهم بل أرسل عنهم إرسالاً . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٢٥ـ٢٣٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : توفي محمد يوسف سنة أربع وثمانين ومئة ، ولم يبلغ أربعين سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٥٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

يوسف بن أَسباط

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : دخل طبيب علىٰ يوسف بن أسباط وهو ضعيف ، فقال : ليس عليك بأس ، فقال له : وددت أن الذي تخافه كان الساعة .

وقيل ليوسف بن أسباط : ما غاية الزهد ؟ فقال : ألاَّ تفرح بما أقبل ، ولا تأسف علىٰ ما أدبر ، قلت : فما غاية التواضع ؟ قال : أن تخرج من بيتك ، فلا تلقىٰ أحداً . . إلا رأيت أنه خير منك .

وقال يوسف : لو أن رجلاً في ترك الدنيا مثل أبي ذر وسلمان وأبي الدرداء . . ما قلتُ : إنه زاهد ؛ لأن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض ، والحلال المحض لا يُعرف اليوم .

وقال : إن طلب الحلال فريضة ، والصلاة في الجماعة سُنة .

وقال : الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا .

وقال : يُرزق الصادق ثلاث خصال : الحلاوة ، والملاحة ، والمهابة .

وأقام أربعين سنة لم يملك سوىٰ قميصين .

وقال يوسف بن أسباط : مكث الحسن ثلاثين سَنة لم يضحك ، وأربعين سَنة لم يمزح .

قال : وكان الحسن يقول : لقد أدركت أقواماً ما أنا عندهم إلا لص .

وقال : من دعا لظالم بالبقاء . . فقد أحب أن يُعصى الله تعالىٰ .

وقال : إن الدنيا لم تخلق ليُنظَر إليها ، إنما خلقت ليُنظَر بها إلى الآخرة .

وقال أحمد بن يوسف : قلت لأبي : يا أبت ؛ أكان مع حذيفة المرعشي علم ؟ قال : يا بني ؛ كان معه العلم الأكبر ، خشية الله عز وجل .

وقال : لا يقبل الله عز وجل عملاً فيه مثقال حبة من رياء .

وقال : كانوا يستحيون أن يسألوا الله عز وجل الرضا عنهم ، إنما يسألون الله عز وجل العفو .

وكان يقول : اللهم ؛ عرفني نفسي ، ولا تقطع رجاءك من قلبي .

وقال : العارف بنفسه : الذي يخاف من حسناته ألاَّ تقبل منه ، قال الله عز وجل : ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ قال : يعطون ما أعطوا وهم يخافون ألاَّ تقبل منهم . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٣٧ـ٢٤١] .

وقال في كتاب « التوابين » : قال يوسف بن أسباط : ورثت عن أبي ضِياعاً بخمس مئة ألف بالكوفة ، فجرىٰ بيني وبين عمومتي كلام ، فشاورت الحسن بن صالح ، فقال لي : ما أرىٰ لك أن تحاكمهم ، إنها من أرض الخراج . فتركتها لله عز وجل ، وأنا محتاج إلىٰ فلس . أو كما قال .

قال : وحصل له ضعف ، فدعَا الطبيب ـ وكان يعالج الملوك ـ فعالجه حتىٰ صح في مدة يسيرة ، فقال يوسف لأصحابه وأهله : أي شيء تعطونه ؟ قالوا : قد قال إنه لا يأخذ منك شيئاً ، فقال : سبحان الله! جئتم بطبيب الملوك ، ولا أعطيه شيئاً ؟! فقالوا : نعطيه ديناراً ، فقال : لا ، ولـٰكن خذ هـٰذا ، فادفعه إليه ، وأعلمه : أني لا أملك غيره ، إذ لو كان عندي غيره . . لأعطيته ؛ لئلا يتوهم أني أقل مروءة من الملوك ، فدفع إليَّ صرة فيها خمسة عشر ديناراً ، قال : فأخذتها ، فدفعتها إليه ، قال : وجعل يعمل الخوص بيده حتىٰ مات .

وكتب محمد بن سمرة السائح إلىٰ يوسف بن أسباط : يا أخي ؛ لا تؤمِّرنَّ التسويف علىٰ نفسك ، ولا تمكنه من قلبك ؛ فإنه محل الضلال ، وبه تنقطع الآمال ، وفيه تنقطع الآجال ، فبادر ـ يا أخي ـ فإنك مبادَر بك ، وأسرع فإنك مسرَع بك ، وجِدَّ فإن الأمر جِدٌّ ، وتيقظ من رقدتك ، وانتبه من غفلتك ، وتذكر ما أسلفت وقصرت وفرطت ؛ فإنه مثبت عليك ، فكأنك بالأمر وقد بغتك فاغتبطت بما قدمت ، وندمت علىٰ مافرطت ، وعليك بالحياء والمراقبة والعزلة وقلة الملاقاة ؛ فإن السلامة في ذلك موجودة ، وفقنا الله وإياك لأرشد الأمور ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . [انتهىٰ « التوابين » ٢٨٢ـ٢٨٣] .

وقال الحافظ ـ [رحمه الله ـ : قال أبو جعفر الحذاء : كتبت إلىٰ يوسف بن أسباط أُشاوره في المُقام بالحجاز ، فكتب إلي : ليكن همُّك خيرك ، وما أرىٰ موضعك إلا أضبط للخير ، وما أحسب أحداً يفر من الشر إلا وقع في أشد منه ، وإنما يطيب الموضع بأهله ، فقد ذهب

من يؤنس به ويستراح إليه ، وإذا علم الله عز وجل منك الصدق. . رجوتُ أن ينفعك الله تعالىٰ بذلك ، ولـٰكن الصدق قد رفع من الأرض .

وقال شعيب بن حرب : البر عشرة أجزاء ، تسعة منها في طلب الحلال ، وباقي البر جزء واحد ، وقد أخذ يوسف بن أسباط التسعة ، وأشرك الناس في العاشر .

وقال يوسف : من قرأ القرآن ، ثم آثر الدنيا . . فهو ممن اتخذ آيات الله تعالىٰ هزواً ، ومن كان طلبُ الفضائل أَهَمَّ إليه من ترك الذنوب . . فهو مخدوع ، وقد خشيت أن يكون خير أعمالنا أضر علينا من ذنوبنا .

وجاء بعض الأمراء إلىٰ يوسف بن أسباط يسأله عن مسألة ، وكان علىٰ رأس الأمير قلنسوة ، فقال يوسف : إن أستاذي سفيان كان لا يفتي مَن علىٰ رأسه قلنسوة مثل هـٰذه ، قال : فوضعها على الأرض ، فأفتاه .

وقال موسى بن طريف : كنت بمكة مع شعيب بن حرب ، فنعي إليه يوسف بن أسباط فقال : يا موسىٰ ؛ قل لمن أراد أن يكذب فليكذب فقد مات يوسف ، ما بقي أحد يُستَحَىٰ منه بعد يوسف .

وقال يوسف : لي أربعين سَنة ما حاك في صدري شيء . . إلا تركته .

وقال : تعلموا صحة العمل من سقمه ؛ فإني تعلمته في اثنتين وعشرين سَنة .

وقال يوسف : خرجت من بلدي راجلاً حتىٰ أتيت المصيصة وجرابي علىٰ عنقي ، فقام ذا من حانوته يسلم عليَّ ، وذا يسلم عليَّ ، فطرحت جرابي ، ودخلت المسجد أصلي ركعتين ، فأحدقوا بي ، فنظر رجل في وجهي ، فقلت في نفسي : كيف بقاء قلبي علىٰ هـٰذا ؟! فقمت ورجعت من ساعتي إلىٰ بلدي ، فما رجع إليَّ قلبي إلىٰ سنتين .

أدرك يوسف بن أسباط من الأئمة الأعلام جماعةً ، منهم : سفيان الثوري . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٤٣ـ٢٤٤] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قالت زوجة يوسف بن أسباط : قال لي يوسف : أشتهي من ربي ثلاث خصال : أن أكون حين أموت لا أملك ديناراً ولا درهماً ، ولا يكون علي درهم ، ولا علىٰ عظمي لحمة ، قال : فأُعطي ذلك كلَّه .

ولقد قال لي في مرضه : أبَقي عندكِ نفقة ؟ قلت : لا ، فقال : ماذا تريدين أن تصنعي ؟ قلت : أخرج هـٰذه الخابية للبيع ، قال : يعلم الناس بحالنا ، ويقولون : ما باعوها إلا من

الحاجة ، ثم أخرج شيئاً كان أهداه إليه بعض إخوانه ، فباعوه بعشرة دراهم ، وقال : اتركي درهماً منها لحنوطي[1] ، وأنفقي الباقي ، قالت : فمات يوم مات ، وما كان بقي غير ذلك الدرهم .

وتوفي قبل المئتين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٨٦] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال أبو علي الروذباري رحمه الله : كان أربعة في زمانهم :

واحد : كان لا يقبل من الإخوان ، ولا من السلطان ، وهو : يوسف بن أسباط رحمه الله ، وورث سبعين ألف درهم غير الضياع لم يأخذ منها شيئاً ، وكان يعمل الخوص بيده .

وآخرَ : كان يقبل من الإخوان والسلطان جميعاً ، وهو : أبو إسحاق الفزاري رحمه الله ، فكان ما يأخذه من الإخوان ينفقه في المستورين الذين لا يتحركون ، والذي يأخذه من السلطان كان يخرجه إلىٰ أهل طرسوس[2] .

والثالث : كان يأخذ من الإخوان ، ولا يأخذ من السلطان ، وهو : عبد الله بن المبارك رحمه الله ، يأخذ من الإخوان ويكافىء عليه .

والرابع : يأخذ من السلطان ، ولا يأخذ من الإخوان ، وهو : مخلد بن الحسين رحمه الله ، كان يقول : السلطان لا يَمُنُّ ، ولنا في المال حق ، والإخوان يمنون . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **الحنوط** : كل ما يُطَيِّبُ به الميت .

(٢) في نسخة : (إلىٰ طرسوس للمرابطين) .

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفزاري
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال سفيان بن عيينة : قال هارون الرشيد أمير المؤمنين لأبي إسحاق الفزاري : أيها الشيخ ؛ إنك في موضع من العرب ، قال : إن ذلك لا يغني عني يوم القيامة من الله عز وجل شيئاً .

وقال أبو أسامة : سمعت الفضيل بن عياض يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، وإلىٰ جنبه فرجة ، فذهبت لأجلس ، فقال صلى الله عليه وسلم : « هٰذا مجلس أبي إسحاق الفزاري » ، فقيل لأبي أسامة : أيهما أفضل ؟ فقال : كان الفضيل رجل نفسه ، وكان أبو إسحاق رجل عامة .

وقال أبو يحيىٰ : سمعت عبيداً يقول : لما مات أبو إسحاق الفزاري . . بكىٰ عطاء ، ثم قال : ما دخل علىٰ أهل الإسلام من موت أحد في هٰذا الزمان ما دخل عليهم من موت أبي إسحاق .

وحدث الأوزاعي بحديث ، فقال رجل : يا أبا عمرو ؛ مَن حدثك ؟ قال : حدثني الصادق المصدوق أبو إسحاق الفزاري .

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي : كان الأوزاعي والفزاري إمامين في السُّنة ، إذا رأيت الشامي يذكر الأوزاعي والفزاري . . فاطمئن إليه ، وكان هٰؤلاء أئمة في السُّنة .

وقال الفزاري : إن من الناس من يَحسُن الثناء عليه وما يساوي[1] عند الله عز وجل جناح بعوضة .

وقال : من قال : الحمد لله علىٰ كل حال . . فقد أحسن في الثناء . أو كما قال .

---

(١) المثبت من الحلية وفي النسخ : (يسوىٰ) .

أسند الفزاري عن جماعة من التابعين ، رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٢٥٣ـ٢٥٦] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو صالح : لقيت الفضيل بن عياض ، فعزاني بأبي إسحاق وقال : ربما اشتقت إلى المصيصة ، لا لأجل الرباط إلا أن أرىٰ أبا إسحاق .

وحدث عنه الثوري ، والأوزاعي .

توفي في المصيصة ، سَنة ثمان وثمانين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٨٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

مخلد بن الحسين
رضي الله عنه وأرضاه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الوليد بن مسلم : أفضل من بقي من علماء أهل المغرب : أبو إسحاق الفزاري ، ومخلد بن الحسين ، وعيسى بن يونس .

وذُكر عند مخلد بن الحسين أخلاقٌ من أخلاق الصالحين فقال :

لا تَعرِضَنَّ لِذِكرنا في ذِكرهم ليس الصحيح إذا مشىٰ كالمُقعَد

وشكىٰ رجل إلىٰ مخلد بن الحسين رجلاً من الكوفة ، فقال له مخلد : أين أنت من المداراة ؟ إني أُداري حتىٰ أداري هـٰذه ـ جارية حبشية تغربل شعير الفرس له ـ ثم قال : ما تكلمت بكلمة أريد أن أعتذر منها منذ خمسين سنة .

أسند مخلد عن هشام بن حسان ، فأكثر عنه . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٢٦٦] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان مخلد بن الحسين كنيته : أبو محمد ، وهو من أهل البصرة فتحول فنزل المصيصة ، ومات بها سنة إحدىٰ وتسعين ومئة رحمة الله عليه . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/١٨٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

حذيفة بن قتادة المرعشي

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال حذيفة المرعشي : لو جاءني رجل فقال لي : والله الذي لا إلـٰه إلا هو يا حذيفة ؛ ما عملُك عملَ من يؤمن بيوم الحساب . . لقلت له : يا هـٰذا ؛ لا تكفِّرنَّ عن يمينِك ؛ فإنك لا تحنث .

وقال يوسف بن أسباط : سمعت حذيفة يقول : لو وجدت من يُبغِضني علىٰ حقيقة في الله عز وجل . . لأوجبت علىٰ نفسي حبه .

وقال حذيفة : إن لم تخش أن يعذبك الله عز وجل علىٰ أفضل عملك . . فأنت هالك .

وقال : لو خُيرت بين أن أرى النار بعيني ، وبين أن أصيرَ إلى الجنة إلا أني أوقف بين يدي الله عز وجل يسألني ، ثم أصير إلى الجنة . . لاخترت ألاَّ أقف ذلك الموقف ؛ حياء من الله عز وجل .

ثم قال : إن عبداً يعمل لطلب النجاة لعبدُ سوء ، وإن عبداً يعمل للجنة لعبد سوء ، كلاهما عندي سواء ، إنما يُعبَد لذاته جل جلاله وابتغاء رضوانه سبحانه وتعالىٰ .

وقال حذيفة : ما أصيب أحد بمصيبة . . أعظم من قساوة قلبه .

وقال حذيفة : إياكم وهدايا الفجار والسفهاء ؛ فإنكم إذا قبلتموها . . ظنوا أنكم قد رضيتم فعلهم .

وقال : الخير كله في حرفين : مداراة الخبز من حِلِّه ، وإخلاص العمل لله عز وجل .

زاد في رواية أخرىٰ خصلة ثالثة : وتحب للناس ما تحب لنفسك .

وقال رجل : أتينا علي بن بكار فقلنا له : حذيفة المرعشي يقرأ عليك السلام ، فقال : وعليكم وعليه السلام ، إني لأعرفه يأكل الحلال منذ ثلاثين سنة ، ولولا خشيتي أن أتصنع له ويتصنع لي فأتزين لغير الله عز وجل ، وأسقط من عين الله عز وجل . . لأحببت لقاءه ،

ولـٰكن منعني من ذلك خشية التزين لغير الله عز وجل . أو كما قال .

وقال حذيفة : بلغنا أن مطرف بن الشخير سمع رجلاً بعرفة وهو يدعو ويقول : اللهم ؛ لا ترد القوم من أجلي ، فقال : هـٰذا هو العارف بنفسه .

وعن بشر بن الحارث رحمه الله قال : سمعت المعافى بن عمران يقول : كان عشرة من أهل العلم ينظرون في الحلال النظر الشديد ، ولا يُدخلون في بطونهم إلا ما يعرفون ولو استفوا التراب ، منهم : إبراهيم بن أدهم ، وسليمان الخواص ، وعلي بن الفضيل ، ويمان أبو معاوية الأسود ، ويوسف بن أسباط ، ووهيب بن الورد ، وداوود الطائي ، وحذيفة المرعشي .

وقال حذيفة : قال لي سفيان الثوري : لأَن أخلِّف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله تعالىٰ عليها . . أحب إلي من أن أحتاج إلى الناس . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٢٦٨ـ٢٧١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال حذيفة : إنما هي أربعة أشياء : عيناك ، ولسانك ، وهواك ، وقلبك ، فلا تنظر بعينيك إلىٰ ما لا يحل لك ، ولا تقل بلسانك شيئاً يعلم الله عز وجل خلافه من قلبك ، ولا يكن في قلبك غل ولا دغل[١] علىٰ أحد من المسلمين ، ولا تهوَ شيئاً غير مراد الله عز وجل ، فما لم تكن فيك هـٰذه الأربع خصال . . فالرماد علىٰ رأسك .

وقال : كان يقال : إذا رأيتم الرجل قد جلس وحده . . فانظروا إلىٰ أي شيء جلس ، فإن كان جلس ليُجلَس إليه . . فلا تجلسوا إليه .

وقال الفيض بن إسحاق : ذكر عند حذيفة الوحدة وما يكره منها ، فقال : إنما تكره للجاهل ، فأما عالم يعلم ما يأتي وما يذر . . فلا .

وقال : لا أعلم من أعمال البر أفضل من لزومك بيتك ، ولو كانت لك حيلة لهـٰذه الفرائض . . لكان ينبغي لك أن تحتال لها .

وقال بشر بن الحارث : كتب حذيفة إلىٰ يوسف بن أسباط[٢] : يا أخي ؛ أخاف أن يكون بعض محاسننا[٣] أضر علينا في القيامة من مساوئنا ، فكتب إليه[٤] أيضاً : لا ، حتىٰ

(١) **الدَّغَل** : الفساد .
(٢) في نسخة : (إلىٰ سفيان) .
(٣) في نسخة : (مجالسنا) .
(٤) في بعض النسخ : (قال : وكتب إليه أيضاً : لا . . .) .

تكون في موضع إذا جئت إلى البقال فقلت له : أعطني مطهرتك . . قال : هات كساءك .

وقال ابن أبي الدرداء : قلت لحذيفة : أوصني ، فقال : انظر خبزك من أين تأكله ، ولا تجالس من يرخص لك ويطغيك ، ثم قال : إن أطعت الله تعالىٰ في السر . . أصلح قلبك ، شئت أو أبيت .

وقال نبهان بن المغلس : قال حذيفة : كنت في مركب ، فانكسر بنا ، فوقعتُ أنا وامرأة علىٰ لوح من ألواح المركب ، فمكثنا سبعة أيام ، فقالت المرأة : قد عطشت ، فسألت الله عز وجل أن يسقينا ، فنزلت علينا سلسلة معلق بها كوز فيه ماء ، فشربت منه ، ثم رفعت رأسي أنظر إلى السلسلة ، فرأيت رجلاً جالساً في الهواء متربعاً ، فقلت له : مَن أنت ؟ قال : من الإنس ، قلت : فما الذي بلَّغك هـٰذه المنزلة ؟ قال : آثرت مراد الله عز وجل علىٰ هواي ، فأجلسني كما تراني .

توفي حذيفة سنة سبع ومئتين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٨٩ـ١٩٠] .

وقال في « اللوامع » : وعن حذيفة المرعشي رحمه الله قال : نظر رجل إلىٰ رجل يبكي بكاء شديداً ، فقال له : يا أخي ؛ ما يبكيك ؟ فقال : ذكرت ما أسلفت من الذنوب ، وأياماً تأتي علي لا أعلم ما حكم لي في الغيوب ، فمَن أولىٰ بالبكاء مني علىٰ ما فات وعلىٰ ما هو آت ، وفي أفراحي وأتراحي ؟! فبكىٰ حذيفة معه ، وتعانقا ، ولم يزالا يبكيان حتى ارتفع ضجيجهما ، وأنشدوا في معناه :

وردَ الكتاب من الحبيب بأنه	سيزورني فاستعبَرَتْ أجفاني
هجم السرور عليَّ حتىٰ إنه	من عُظم ما قد سرني أبكاني
يا عين صار الدمع عندك عادة	تبكين في فرحي وفي أحزاني

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

اليمان أبو معاوية الأسود
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ :

غزا أبو معاوية حصناً فيه عِلْج[1] لا يرمي بحجر ولا نشاب إلا أصاب ، فشكوا إليه ، وسألوه أن يدعو الله سبحانه وتعالىٰ عليه ، فقال لهم : أين تريدون أن يقع السهم فيه ؟ قالوا : مذاكيره ، قال : يا رب ؛ أعطني ما سألوني ، ثم قال : باسم الله ، ثم رمىٰ ، وقال : المذاكير بإذن الله تعالىٰ ، فمر السهم إلىٰ مذاكيره ، فوقع العلج ميتاً ، فقال أبو معاوية : شأنكم به .

ووجد اليمان في طريق خمسة عشر حبة باقلاء مسلوقة ، فلقطها ، ثم ولىٰ وجهه إلى القبلة ، فحمد الله تعالىٰ ، وأثنىٰ عليه ، ثم قال : يا رب ؛ ارزقني شكر ما أنعمت عليَّ ؛ فإني لو حمدتك من يوم خلقتني إلىٰ قيام الساعة . . ما أديتُ شكر هـٰذا اليوم .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : قلت لأبي معاوية : ما أعظم النعمةَ علينا في التوحيد ، نسأل الله عز وجل ألاَّ يسلبناه ، فقال : يحق على المنعم أن يتم نعمته علىٰ من أنعم عليه .

وقال أبو معاوية يوماً لأصحابه : إخواني ؛ كلكم خير مني ، فقيل له في ذلك ، فقال : كلهم يرى الفضل لي علىٰ نفسه ، ومن فضَّلني علىٰ نفسه . . فهو خير مني .

وخرج أبو معاوية من طرسوس إلىٰ مكة يعزي الفضيل بن عياض في ابنه علي ، ولم يحج في تلك السَّنة ، فقال الفضيل : ما وافىٰ مكة رجلٍ أغبَطُ عندي من أبي معاوية ، وكلب ميت يُجَر برجله أغبط عندي منه ؛ يعني : أنه يحاسَبُ ، والكلب لا يحاسب .

وكان أبو معاوية إذا قام من الليل يستقي الماء . . يقول : ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا ؛ جبر الله لهم كل مصيبة بالجنة .

---

(١) **العِلْج** : الرجل من كفار العجم .

وقال أبو معاوية : كل من سعىٰ للدنيا . . فإنه يسعىٰ في أقل من جناح بعوضة ؛ لأنها لا تَسْوىٰ عند الله عز وجل جناح بعوضة . أو كما قال . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٧١_٢٧٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو حمزة : كان أبو معاوية قد ذهب بصره ، فكان إذا أراد أن يقرأ في المصحف وفتحه . . رَدَّ الله عز وجل عليه بصره ، فإذا أطبق المصحف . . ذهب بصره .

واستطال رجل علىٰ أبي معاوية ، فقال له رجل : مه ، فقال أبو معاوية : دعه يشتفي ، ثم قال : اللهم ؛ اغفر لي الذنب الذي سلطت عليَّ به هـٰذا .

وقال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية وهو يلتقط الخرق من المزابل ، فيغسلها ، ثم يخيطها ، فقيل له في ذلك ، فقال : ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا ؛ جبر الله تعالىٰ لهم كل مصيبة بالجنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٩٢] .

زاد في رواية الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله ـ : رأيت أبا معاوية الأسود يلتقط الخرق من المزابل ، [يغسلها] ويلفقها[1] ، ويلبسها ، فقيل له : يا أبا معاوية ؛ إنك تُكسىٰ خيراً من هـٰذه ، فقال : ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا ، جبر الله لهم كل مصيبة بالجنة ، فجعل يحيى بن معين يحدث بهـٰذا ويبكي .

وكان يقول : بادر قبل نزول ما تحاذر ، وقدِّم صالح الأعمال ، ودَعْ كثرة الاشتغال ، ولا تهتم برزق ؛ فإن الله هو الرزاق .

وكان يقول : من كانت الدنيا أكبر همه . . طال غداً في القيامة غمه ، ومن خاف الوعيد . . لهىٰ في الدنيا عما يريد، ومن خاف ما بين يديه . . ضاق ذرعه بما في يديه ، إن كنت ـ يا أبا معاوية ـ تريد لنفسك الجزيل . . فلا تنم الليل ولا تَقِل ، ثم جعل يبكي ، ويقول : حتىٰ إذا بلغت الحلقوم، وأنت في سكرات الموت مغموم ، وقد انقطع منك إلىٰ أهلك حاجتك ، وأملك فيما سوىٰ ذلك ، ثم قال : أواه! من يوم يتغير فيه لوني ، ويتلجلج فيه لساني ، ويقل فيه زادي .

وعن أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله قال : جاء قوم إلىٰ أبي معاوية ، فقالوا : ادع الله لنا ، فقال : اللهم ؛ ارحمني بهم ، ولا تحرمهم بي . انتهىٰ [« التاريخ » ٦٧/ ٢٤٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **يُلَفِّقُها** : يضم إحداها إلى الأخرىٰ .

ومنهم الإمام :

سليمان الخواص
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال مضاء بن عيسىٰ : مر سليمان الخواص بإبراهيم بن أدهم وهو عند قوم قد أضافوه وأكرموه ، فقال : نِعْمَ الشيء هٰذا يا إبراهيم ، إن لم يكن تكرمة علىٰ دِين .

ودخل سعيد بن عبد العزيز علىٰ سليمان الخواص ، فقال له : أراك في ظلمة ، فقال : ظلمة القبر أشد ، قال : أراك وحدك ، فقال : إن للصاحب على الصاحب حقاً ، فخشيت ألاَّ أقوم بحقه ، فأخرج سعيد صرة فيها شيء ، فقال : أنفق هٰذا ، وأنا أحلف لك بين يدي الله عز وجل أنها حلال ، قال : لا حاجة لي فيها ، فقال له : رحمك الله ، ما ترىٰ ما الناس فيه ؟ لعل أن تدعو لهم دعوة ، قال : فصرخ سليمان وقال : يا سعيد ؛ فتنتني بالدنيا وتَفتِنِّي بالدِّين ؟ ما لي وللدعاء ؟ ومن أنا ؟ [انتهىٰ « الصفوة » ٤/١٩٢ـ١٩٣] .

وفي رواية الحافظ : أبىٰ أن يأخذها ، وقال : يا سعيد ؛ إن نفسي لم تجبني إلىٰ هٰذا الذي أجابتني إلا بعد كَدٍّ ، فأنا أكره أن أُعوِّدها مثل دراهمك ، لا حاجة لي فيها ، فخرج سعيد ، فأخبر بما كان للأوزاعي ، فقال : دعوا سليمان ، فلو كان سليمان من السلف . . لكان علاَّمة . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٢٧٧] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الفريابي : كنت في مجلس فيه الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وسليمان الخواص ، فذَكَر الأوزاعي الزهاد ، فقال الأوزاعي : كنا نريد أن نرىٰ في زماننا مثل هٰؤلاء ، فقال سعيد بن عبد العزيز : سليمان الخواص ما رأيت أزهد منه ، وكان سليمان في المجلس ، وسعيد لا يعلم ، فقنَّع سليمان رأسه ، وقام ، فخرج ، فأقبل الأوزاعي علىٰ سعيد وقال : ويحك! لا تعقل ما يخرج من رأسك ، تؤذي جليسنا ، تزكيه في وجهه ؟!

وقيل لسليمان : إن الناس قد شكوك أنك تمر فلا تسلم عليهم ولا تجلس معهم ، فقال :

والله ؛ ما ذاك لفضل أراه عندي عليهم ، ولـٰكني شِبْهُ الحُشِّ ، إن ثوَّرته . . ثار ، وإن قعدت مع الناس . . جاء مني ما أريد وما لا أريد .

ومات لرجل ابن ، فحضر عمر بن عبد العزيز ليعزيه ، وكان هناك جماعة ، وكان الرجل حسن العزاء ، فقال رجل من القوم : هـٰذا ـ والله ـ الرضا ، فقال عمر بن عبد العزيز : أو الصبر ، فقال سليمان : الصبر دون الرضا ، الرضا : أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راضياً بأي ذلك كان ، والصبر : أن يكون بعد نزول المصيبة صابراً . انتهىٰ [في « الحلية » ٨/٢٧٦ـ٢٧٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

سَلْم بن ميمون الخواص
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : هو من أهل طبرية ، وبها مات .

قال إسماعيل بن مسلمة : رأيت كأن القيامة قد قامت ، وكأن منادياً ينادي : ليقم السابقون ، فقام سفيان الثوري ، ثم نادى الثانية : ليقم السابقون ، فقام سَلْم(١) الخواص ، ثم نادى الثالثة : ألا ليقم السابقون ، فقام إبراهيم بن أدهم . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/١٩٣] .

زاد في رواية الحافظ أبي نعيم : فأوَّلت ذلك ما حدثنا حماد بن سلمة ، عن حميد ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل قرنٍ سابقٌ » .

وقال أحمد بن ثعلبة رحمه الله : سمعته يقول : كنت أقرأ القرآن ، فلا أجد له حلاوة ، فقلت لنفسي : اقرئيه كأنكِ تسمعيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءت حلاوته ، ثم أردت زيادة ، فقلت : اقرئيه كأنكِ تسمعيه من جبريل عليه الصلاة والسلام ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم ، فازدادت الحلاوة ، ثم قلت : اقرئيه كأنك تسمعيه من رب العالمين سبحانه وتعالىٰ ، فجاءت الحلاوة كلها .

وقال قاسم الجوعي : قصدت زيارة سَلْم الخواص ، فلما دخلت عليه . . قدَّم إلي نصف بطيخة ونصف رغيف ، وقال لي : كُلْ يا قاسم ، نزلتُ علىٰ أخ لي ، فقدَّم إلي نصف خيارة ونصف رغيف ، وقال لي : كُلْ يا سَلْم ؛ فإن الحلال لا يحتمل السرف ، ومَن درىٰ من أين يكتسب . . درىٰ كيف ينفق .

أسند سَلْم عن مالك بن أنس ، وابن عيينة ، وأقرانهما . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٢٧٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) ورد اسمه في « الحلية » : (سالم) وفي نسخة : (مسلم) وفي نسخة : (مسلم) وما أثبت من « السير » و« الجرح والتعديل » و« الصفوة » ولعله الصواب ، والله أعلم .

ومنهم الإمام :

أبو عبيدة الخواص
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : اسمه : عباد بن عباد ، وكنيته : أبو عبيدة .

وكان قد كتب عباد بن عباد إلىٰ إخوانه : إنكم في زمان قد رق فيه الورع ، وقلَّ فيه الخشوع ، وحَمَل العلمَ مفسدوه ، فأحبوا أن يُعرفوا بحمله ، وكرهوا أن يعرفوا بإضاعة العمل به ، فنطقوا فيه بالهوىٰ ؛ ليزينوا ما دخَّلوا فيه من الخطأ ، فذنوبهم ذنوب لا يُستغفر منها ، وتقصيرهم تقصير لا يعفىٰ عنه .

وقال عبد الأعلى بن سليمان : رأيت أبا عبيدة الخواص وعلىٰ سوءته خرقة ، وعلىٰ رقبته خرقة ، وهو يمشي في البصرة ، وهو يقول : واشوقاه لمن يراني ولا أراه!

وقال أحمد ابن أبي الحواري : دخل عباد الخواص علىٰ إبراهيم بن صالح ، وهو أمير فلسطين ، فقال له : يا شيخ ؛ عظني ، قال : بِمَ أعظك أصلحك الله ؟! بلغني : أن أعمال الأحياء تعرض علىٰ أقاربهم من الموتىٰ ، فانظر ماذا يعرض علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عملك ، قال : فبكىٰ إبراهيم حتىٰ سالت الدموع علىٰ لحيته .

أقام أبو عبيدة الساحلي لم يضحك أربعين سنة ، فقيل : لِمَ لا تضحك ؟ فقال : كيف أضحك وفي أيدي المشركين من المسلمين أحَد ؟! انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٩٤] .

قال الحافظ أبو نعيم : وكان يدعو بهـٰذا الدعاء ـ وهو دعاء شريف ، يُروىٰ أنه من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : اللهم ؛ اجعل حبك أحب الأشياء إلي ، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندي ، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلىٰ لقائك ، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم . . فأَقِرَّ عيني بعبادتك يا أرحم الراحمين . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٨٢] .

ثم قال أبو الفرج : وقال بشر بن الحارث : رأيت علىٰ جبال عرفة رجلاً قد ولع به الوله ، وهو يقول :

سبحان من لو سجدنا بالعيون لَهُ ... علىٰ شبا الشوك والمُحمىٰ من الإبَر[1]
لم نبلغ العُشْرَ من معشار نعمته ... ولا العشيرَ ولا جزءاً من العُشُرِ
هو الرفيع فلا الأبصار تدركه ... سبحانه من مليك نافذ القَدَرِ
سبحان من هو أُنسي إن خلوتُ به ... في جوف ليلي وفي الظلماء والسَّحَرِ
أنت الحبيب وأنت الحِبُّ يا أملي ... من لي سواك ومَن أرجوه يا ذخري

ثم أنشأ يقول :

كم قد زللتُ فلم أذكرك في زللي ... وأنت يا سيدي في الغيب تذكرني
كم أكشف الستر جهلاً عند معصيتي ... وأنت تلطف بي حقاً وتسترني
لأبكيَنَّ بدمع العين من أسف ... لأبكين بكاء الواله الحَزِنِ

قال : ثم غاص في الناس فلم أره ، فسألت عنه ، فقيل لي : هٰذا أبو عبيدة الخواص ، منذ سبعين سنة لم يرفع رأسه إلى السماء ؛ حياء من الله عز وجل .

وقال عقبة بن فضالة : سمعت أبا عبيدة بعد ما كبر وهو آخذ بلحيته وهو يبكي ويقول : قد كبرت سني ، فأعتقني . رضي الله عنه .

أسند أبو عبيدة عن الأوزاعي ، وابن أبي مريم ، وغيرهما . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٩٤ـ١٩٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **شبا الشوك** : حده من الأعلىٰ .

ومنهم الإمام :

المُعَافى بن عِمْران

رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو مسعود الأزدي : المعافى بن عمران[1] جمع العلم ، والتقوىٰ ، والورع .

وقال علي بن خشرم : سمعت بشر بن الحارث وقد قال له رجل : ما أراك إلا عاشقاً للمعافى بن عمران ؟! فقال : وما لي لا أعشقه ؟ وكان سفيان الثوري يسميه : الياقوتة .

قال : وحَضَرْتُه يوماً ، وقد نعي إليه ابناه ، فما حل حبوته حتىٰ قال : مظلومَين ، أو ظالمَين ؟ قيل : مظلومين ، فحل حبوته وخر لله عز وجل ساجداً ، ثم رفع رأسه وقال : كيف كانت قصتهما .

وفي رواية أخرىٰ : قتل للمعافى ابنان في وقعة الموصل ، فجاء إخوانه يعزونه من الغد ، فقال لهم : إن كنتم جئتم لتعزوني . . فلا تعزوني ، ولٰكن هنئوني ، قال : فهنؤوه ، ثم ما تركهم حتىٰ غدَّاهم وغلفهم بالغالية[2] .

وقال بشر : سمعته يقول : عِز المؤمن . . استغناؤه عن الناس ، وشرفه . . قيامه بالليل .

وسئل المعافى بن عمران : أيما أحب إليك : أن أسهر في قيام الليل صلاة ، أو أسهر في كتابة الحديث ؟ فقال : كتابة حديث واحد أحب إلي من صلاة ليلة .

نظير هٰذا : ما قاله عبد الله بن أحمد ابن حنبل رحمه الله : قلت لأبي : أجلس بالليل أنسخ ، أو أصلي ؟ قال : إذا نسخت . . عرفتَ به أمر دِينِكَ ، فهو أحب إلي .

---

(١) هو المعافى بن عمران الأزدي الموصلي الحافظ ، وكنيته أبو مسعود ، تمييزاً له عن المعافى بن عمران الحمصي الحميري ، فهو غير المترجم له ، وكنيته أبو عمران .

(٢) **غَلَّفَهم** : طيَّبهم ، **الغالية** : أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر .

وكان بشر بن الحارث يقول : إني لأنظر إلى المعافى بن عمران نظرة . . فأَتقَوَّىٰ على العبادة أسبوعاً .

أسند المعافىٰ عن المغيرة بن زياد ، وأسامة بن زيد [اللَّيثي] ، والثوري ، وابن أبي ذئب ، ومالك ، وابن جريج ، ومسعر ، والليث ، وغيرهم .

وأكثر ملازمته للثوري ، وتأدب بآدابه ، وصنف كتباً[1] في السنن ، والزهد ، والأدب .

وتوفي سنة أربع وثمانين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٢١ـ١٢٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) في نسخة : (كتاباً) .

ومنهم الإمام :

فتح بن سعيد الموصلي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان فتح بن سعيد إذا كانت ليالي الشتاء.. جمع عياله، وقال بكسائه عليهم : اللهم ؛ أفقرتني وأفقرت عيالي، وجوعتني وجوعت عيالي، وأعريتني وأعريت عيالي، بأي وسيلة توسلتها إليك ؟ وإنما تفعل هـٰذا بأوليائك وأحبائك، فهل أنا منهم حتىٰ أفرح ؟

وقال إبراهيم بن نوح : رجع فتح الموصلي إلىٰ أهله بعد العتمة، وكان صائماً، فقال : عشوني، فقالوا له : ما عندنا شيء نعشيك به، قال : فما لكم جلوساً في الظلمة ؟ قالوا : ما عندنا شيء نسرج به، فجلس يبكي من الفرح، ويقول : إلـٰهي ؛ مثلي يترك بلا عشاء ولا سراج، بأي يد كانت مني ؟ فما زال يبكي حتى الصباح ؛ شكراً لله تعالىٰ علىٰ ما أولاه من هـٰذه النعم .

وقال بشر بن الحارث : بلغني عن فتح أنه كان يتجزىٰ بفلس في اليوم، يشتري به نخالة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٢٣ـ١٢٤] .

وقال في « بهجة الأسرار » :

جاء فتحُ الموصلي إلىٰ سالم الحداد بمسحاة(١)، فقال له : بعها ؛ فإن الصبيان ما عندهم شيء، فنظر إليه سالم نظرة منكرة، ثم قال : يا فتح ؛ تدري مَن شكوتَ ؟ قال : فترك فتحُ المسحاة بين يدي سالم، ومر باكياً، ولم يعد إليه، ولا سأله عنها، فباعها سالم بعد ذلك، وبعث ثمنها إلىٰ عياله .

وكان سالم رحمه الله يقال : إنه من الأبدال .

كان إذا سمع الأذان.. اضطرب واصفر، ثم وثب، وترك الحانوت مفتوحاً، فيأتي

---

(١) **المِسحاة** : أداة من حديد كالمجرفة، وفي نسخة : (بفأس) .

المسجد ، فإذا صلىٰ ورجع . . يجد قد سرق له سكة أو فأس أو مسحاة ، هـٰكذا دائماً ، فعاتبه بعض إخوانه ، فقال له : لو اتخذت أجيراً يحفظ عليك الحانوت عند الصلاة ؟ فقال : ليس علىٰ ما حفظه الله عز وجل ضيعة .

وكان كثيراً ما يقول سالم لحشيش : ما تشتهي ؟ فيقول حشيش : أشتهي ألاّ يكون بأرض الموصل أهل بيت أفقر منا ، ونُرزق الصبر علىٰ ذلك ، فنموت كراماً ، ونحن عن الله عز وجل راضون ، فقال له سالم : تدري أي شيء تشتهي ؟ أنت تشتهي أن تكون من أولياء الواحد القهار ، ومرافقة الأبرار ، ومن لا يشتهي الفقر ـ يا حشيش ـ والصبر عليه ؟! فقال : ويحك يا سالم! ربما أصاب أهلي من خفض العيش شيء فتبكي عيالنا ويقولون : يا أبت ؛ ما هـٰذا الطرد ؟ ما نرىٰ هـٰذا الخير يراد بك ولا يراد بنا .

وكان حشيش رحمه الله صياداً ، وربما مكث الأيام لا يصطاد شيئاً ، فيروح من العشي وبه من السرور الظاهر ، حتىٰ كأنه قد حمل إليه خراج الجزيرة .

وكانوا يظلون الليالي الكثيرة بلا عشاء ، فاجتمعت أنا وسالم وهو مرة ، فقلت : يا أبا محمد ؛ بلغني أنكم ربما طويتم الليالي بغير عشاء ، فسكت حشيش ولم يرد علينا ، وغضب سالم ، فقال : مه مه ، وما عسىٰ أن يكونوا فيبيتوا جياعاً بلا عشاء طاوين ، إن باتوا طاوين . . فقد بات من هو خير منهم الليالي الكثيرة طاوياً هو وأزواجه صلى الله عليه وسلم ، وهو خير الخلق صلى الله عليه وسلم ، وذلك مدخور لهم في الآخرة ، ثم قال : يابن أخي ؛ أفيريد حشيش أن يكون هو وأهله وعياله مثل البهائم ، همتهم بطونهم وفروجهم ؟!

وقال فتح : إني لأفرح بما منعني الله عز وجل من الدنيا أعظم مما آتاني منها ، وينبغي للعبد أن يشهد عظيم منة الله عز وجل عليه في المنع من عروض الدنيا والحماية عنها ، وما الدنيا ؟! وهل في الدنيا من خير إلا ما اتصل العبد به إلى الآخرة ؟! وإن الفقر ليغشى المؤمن فيستبشر لذلك قلبه ويفرح به فؤاده ، ولهو أشد فرحاً منه بكل ما رُزق من غرور الدنيا ومتاعها ؛ لأن الله عز وجل قال : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ ، فأي نفس تطمئن إليها بعد أن أخبر الله عز وجل عنها بهـٰذا ؟! والله أعلم . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج : قال بشر : قال فتح : من أدام النظر بقلبه . . أورثه ذلك الفرح بالمحبوب ، ومن آثره علىٰ هواه . . أورثه ذلك حبه إياه ، ومن اشتاق إليه وزهد فيما سواه

ورعىٰ حقه وخافه بالغيب . . أورثه ذلك النظرَ إلىٰ وجهه الكريم .

وقال أبو جعفر ابن أخت بشر : كنت يوماً واقفاً ببابنا ؛ إذ أقبل شيخ ثائر الشعر ، ملتف بعباءة ، فقال لي : أَبِشْرٌ بالبيت ؟ قلت : نعم ، فقال : ادخلْ وقل : فَتْحٌ بالباب ، فدخلت ، فقلت : يا خالي ؛ شيخ بالباب ، قال لي : قل لبشر : فتح بالباب ، قال : فخرج خالي مسرعاً ، وصافحه ، واعتنقه ، فقال له الشيخ : يا أبا نصر ؛ إني ذكرتك البارحة ، فاشتقت إلىٰ لقائك ، قال : فدفع إلي خالي درهماً ، وقال : خذ بأربعة دوانق خبزاً ـ ويكون جيداً ـ وبدانقين تمراً ، فقال له الشيخ : قل له : يكون كذا وكذا ، فجئت به كما وصف ، فقال : كُلْ معنا ، فأكلت معهم ، فلما أكلنا . . أخذ ما فضل في طرف العباءة ومضىٰ ، فخرج خالي معه ليشيعه إلىٰ باب حرب[1] ، فلما رجع . . قال : يا بني ؛ أتدري من هو ؟ قلت : لا ، قال : هـٰذا فتحٌ الموصلي .

وقال محمد بن الصلت : كنت عند بشر ، فجاء رجل فسلم عليه ، فقام بشر إليه ، فقمت لقيامه ، فمنعني ، فلما جلس الرجل . . أخرج بشر درهماً صحيحاً ، وقال : اخرج فاشتر خبزاً وزبداً وتمراً برنياً ، قال : فاشتريت ووضعته بين يديه ، فأكل الرجل ، وحمل الباقي ، وخرج ، فلما خرج . . قال لي بشر : يا بني . . أتدري لِمَ منعتك من القيام له ؟ قلت : لا ، قال : لأنه لم يكن بينك وبينه معرفة ، فكان قيامك لقيامي ، فأردت أن يكون قيامك لله عز وجل خالصاً ، وتدري لِمَ دفعت إليك الدرهم ، وقلت : اشتر كذا وكذا ، قلت : لا ، قال : لأن طيب الطعام يُستخرَج به خالصُ الشكر لله عز وجل ، وتدري لِمَ حمل الباقي ؟ قلت : لا ، قال : ليعرفنا أنه إذا صح التوكل . . لا يضر الادخار ، وهـٰذا فتح الموصلي جاء زائراً .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : سمعت شيخاً من أصحاب فتح يقول : كانت لفتح بضاعة عند أخ له يعمل بها في البر والبحر ، فبعث فتح ، فاستردها وأنفقها ، وقال : رأيت قلبي يميل إليها ، فكرهت أن تكون ثقتي بغير الله عز وجل .

وقال إبراهيم بن موسىٰ : رأيت فتحاً الموصلي يوم عيد وقد رأىٰ ما على الناس من الطيالس والعمائم ، قال : فقال لي : يا إبراهيم ؛ إنما ترىٰ ثوباً يبلىٰ وجسداً يأكله الدود

---

(١) باب حرب : أحد أبواب بغداد ، وعنده مقبرة مشهورة .

غداً ، هـٰؤلاء أنفقوا خزائنهم علىٰ بطونهم وظهورهم ، ويقدمون علىٰ ربهم مفاليس .

وقال عبد الله بن الفرج : قال فتح : قد كثرت خطاياي حتىٰ قد كدت أن أهلك ، ولـٰكن الرجاء لعفوه عز وجل قائم ؛ فإنه ولي كل نعمة ، ومؤَمَّلٌ لكل فضل ومعروف .

وقال عمران بن موسىٰ : رأىٰ فتح صبيين مع أحدهما كسرة عليها عسل نحل ، ومع الآخر كسرة عليها كامخ[1] ، فقال الذي معه الكامخ للذي معه العسل : أطعمني من خبزك ، قال : إن كنت كلباً لي . . أطعمتك ، قال : نعم ، فأطعمه من خبزه ، وجعل في فمه خيطاً ، وجعل يقوده ، ويقول له : أنت كلبي ، فقال فتح : لو رضيتَ بخبزك . . ما صرت كلباً لهـٰذا ، قال أبو موسىٰ : فهـٰكذا الدنيا .

وقال عثمان بن عمارة : غبت غَيبة ، فلما قدمت . . لقيت فتحاً في حانوت سالم الدورقي ، فقال لي : يا بَصْري ؛ أيَّ شيء رأيت في سفرتك هـٰذه ؟ فقلت : رأيت عجائب كثيرة وأخباراً مختلفة ، فصاح صيحة ، فقلت : أنت تصيح من الخبر ، فكيف لو شاهدت القيامة أو شاهدت صاحب القيامة سبحانه وتعالىٰ وهو يحكم بين الخلق ؟! فشهق شهقة ، ووثب من الحانوت ، فخر مغشياً عليه ، فحملناه ، فأدخلناه الحانوت ، فما زال مغشياً عليه إلى العصر ، فلما صليت العصر . . تنفس ، ثم فتح عينيه .

وجاء فتح الموصلي إلىٰ منزل صديق له يُقال له : عيسى التمار ، فلم يجده في المنزل ، فقال للخادم : أخرج إليَّ كيس أخي ، فأخرجه ، فأخذ منه درهمين ، فلما جاء عيسىٰ . . أخبره الخادم بالحال ، فقال : إن كنت صادقاً . . فأنت حر لوجه الله عز وجل ، ثم نظر في الكيس ، فوجده صادقاً ، فقال : قد عَتَقت .

وقال عبد الرحمـٰن بن حبيب : دخلت علىٰ فتح وهو يوقد الآجُرَّ ، وكان فتح رجلاً من العرب ، وكان شريفاً زاهداً .

وقال عبد الله بن الفرج العابد : كان بالموصل رجل نصراني يكنىٰ : أبا إسماعيل ، قال : فمر ذات ليلة برجل وهو يتهجد علىٰ سطحه ، وهو يقرأ : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ، فصرخ أبو إسماعيل صرخة خر مغشياً عليه ، فلم يزل علىٰ حاله تلك حتىٰ أصبح ، فلما أصبح . . أسلم ، ثم أتىٰ فتحاً ، فاستأذنه في

---

(١) الكامخ : نوع من الإدام .

صحبته ، فكان يصحبه ويخدمه كثيراً ، واجتهد في العبادة ، ولقد بكىٰ حتىٰ ذهبت إحدىٰ عينيه ، وعَشيت الأخرىٰ ، فقلت له ذات يوم : حدثني ببعض أمر فتح ، قال : فبكىٰ ، ثم قال : أخبرك عنه ، كان ـ والله ـ كهيئة الروحانيين ، معلق القلب بما هنالك ، ليست له في الدنيا راحة قلب .

قال : وشهد العيد ذات يوم بالموصل ، ورجع بعدما تفرق الناس ، ورجعت معه ، فنظر إلى الدخان يفور من نواحي المدينة ، فبكىٰ ، ثم قال : قد قرَّب الناس قربانَهم ، فليت شعري ما فعلت في قربان عبدك جل جلالك أيها المحبوب ، ثم سقط مغشياً عليه ، فجئت بماء ، فمسحت به وجهه ، فأفاق ، ثم مضىٰ حتىٰ دخل بعض أزقة المدينة ، ورفع رأسه إلى السماء ، ثم قال : قد علم الله سبحانه وتعالىٰ طول غمي وحزني وترددادي في أزقة الدنيا ، فحتىٰ متىٰ تحبسني أيها المحبوب جل جلالك ؟ ثم سقط مغشياً عليه ، فجئت بماء ، فمسحت علىٰ وجهه ، فأفاق ، فما عاش بعد ذلك إلا أياماً حتىٰ مات رحمة الله تعالىٰ عليه .

وقال بعض أصحابه : دخلت عليه يوماً وقد مد كفيه وهو يبكي ، حتىٰ رأيت الدموع بين أصابعه تنحدر ، فوقفت ، ثم دنوت منه لأنظر إليه ؛ فإذا دموعه قد خالطها صفرة ، فقلت له : بالله يا فتح بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنك أحلفتني بالله . . ما أخبرتك ، نعم ؛ بكيت دماً ، فقلت له : علىٰ ماذا بكيت الدمع ؟ وعلىٰ ماذا بكيت الدم ؟ فقال : بكيت الدموع علىٰ تخلفي عن واجب حق الله عز وجل ، وبكيت الدم عن الدموع ؛ خوفاً ألاَّ تكون صحَّت ليَ الدموع ، يعني : ما قُبلت مني .

وقال : فرأيت فتحاً بعد موته في المنام ، فقلت له : ما صنع الله تعالىٰ بك ؟ فقال : غفر لي ، قلت : فما صنع في دموعك ؟ قال : قربني ربي عز وجل ، وقال : يا فتح ؛ بكيت الدمع علىٰ ماذا ؟ قلت : يا رب ؛ علىٰ تخلفي عن واجب حقك وأنت أعلم ، قال : فالدم لماذا ؟ قلت : يا رب ؛ خوفاً ألاَّ تصحَّ لي الدموع وأنت أعلم ، فقال لي : يا فتح ؛ ما أردت بهـٰذا كله ؟ وعزتي وجلالي ؛ لقد صعد إلي حافظاك أربعين سنة بصحيفتك وليس فيها خطيئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٢٤ـ١٢٧] .

وقال أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : جاءت صرة إلىٰ فتح الموصلي فيها خمسون درهماً فقال : قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أتاه رزق من غير

مسألة ولا استشراف نفس . . فلا يرده »[1] . ثم فتح الصرة ، فأخذ منها درهماً ورد الباقي[2] .

وقال عبد الله بن الجلاء : كنت عند السَّري ببغداد ، فبينما نحن جلوس بعد عشاء الآخرة في غرفته ؛ وإذا به قد قام وأخذ ثوبه ونعليه ، وخرج من باب الغرفة ، فقلت : إلىٰ أين في هـٰذا الليل ؟ فقال : إلى الموصل أزور فتحاً ، وأرجع في هـٰذه الليلة إن شاء الله .

فبينما هو يمشي في بعض الأزقة ؛ وإذا بالعسس قد مسكه ومضىٰ به إلى الحبس ، فلما أصبح الصبح وطلعت الشمس . . ذهبوا به إلى الأمير ، وقالوا : قد وجدنا هـٰذا الرجل يمشي في الليل فمسكناه ، فقال : جردوه من ثيابه ، ثم قال : اضربوه ، فرفع السَّيَّاط يده ليضربه فوقفت يده ، ولم يستطع الضرب ، فقال له الأمير : ما يمنعك عن الضرب ؟ فقال : إن بجانبي شيخاً يقول لي : لا تضربه ، فلم أستجر أن أضربه ، فنظروا ؛ فإذا هو فتح الموصلي ، فأخذ بيده ورجع به إلى البيت . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرج أحمد (٤/ ٢٢٠) عن خالد الجهني رضي الله عنه : « من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس . . فليقبله ولا يرده ؛ فإنما هو رزق ساقه الله عز وجل » .
وفي « البخاري » (١٤٠٤) ، و« مسلم » (١٠٤٥) في حديث سيدنا عمر رضي الله عنه : « ما أتاك من هـٰذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل . . فخذه » .

(٢) الإحياء (٤/ ٢٠٧) .

ومنهم الإمام :

فتح بن محمد الأزدي الموصلي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان فتح يكنىٰ : أبا محمد .

قال محمد بن الوليد : سمعت فتحاً يقول في جوف الليل : رب ؛ أجعتني وأعريتني ، وفي ظلمة الليل أجلستني ، فبأي وسيلة أكرمتني هـٰذه الكرامة ؟

وكان يبكي ساعة ، ويفرح ساعة .

وقال المعافى بن عمران : دخلت علىٰ فتح بن محمد الموصلي ، فرأيته جالساً في الشمس ، وبنية له عريانة ، وابن له مريض ، فقلت له : ائذن لي حتىٰ أكسو هـٰذه البنية ، قال : لا ، قلت : ولِمَ ؟ قال : دعها حتىٰ يرى الله عريها وصبرها وصبري عليها ، فيرحمنا ، قال : فتجاوزت إلى الصبي ، فقعدت عند رأسه ، فقلت له : حبيبي ؛ ما تشتهي حتىٰ أحمله إليك ؟ قال : ومن أنت رحمك الله ؟ قلت : المعافى بن عمران ، فرفع رأسه إلى السماء ، وقال : إلـٰهي وسيدي ؛ مني الصبر ومنك البلاء ، فأغنني عمن سواك يا أرحم الراحمين .

وقال أبو غسان المؤذن : خرجنا حُجاجاً ، فأردنا غسل ثيابنا بمكة ، فأرشدونا إلىٰ رجل له صلاح ودِين من أهل فارس يغسل للناس ثيابهم ، ويقصد الضعفاء فيغسل ثيابهم بغير أجرة ، فأتيناه ، فقال : مِن أين أنتم ؟ قلنا : من أهل الموصل ، قال : أتعرفون فتحاً ؟ قلنا : نعم ، فقال : ما فعل ؟ قلنا له : مات رحمه الله تعالىٰ ، قال : فتوجع عليه ، وأظهر حزناً عظيماً ، فقلنا له : كيف تعرفه وأنت رجل من أهل فارس وهو بالموصل ؟ فقال : رأيت في منامي عدة ليالٍ أن ائت فتحاً الموصلي ؛ فإنه من أهل الجنة ، قال : فخرجت من فارس حتىٰ أتيت الموصل ، فسألت عنه ، فقيل لي : هو على الشط ، فأتيته ؛ فإذا رجل ملتف بكسائه ، وقد ألقىٰ شِصاً[1] له في ماء ، فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام ، فقلت له :

(١) الشص : حديدة عَقْفاء يصاد بها السمك .

أتيتك زائراً ، فلف الشص ، وقام ، فدخلنا المسجد ، وغربت الشمس ، وصلينا ، وتفرق الناس ، فأُتي بطعام ، فأكلنا ، ثم نودي بالعِشاء الآخرة ، فصلينا ، وتفرق الناس ، ثم قام فتح في مصلاه ، ورميت بنفسي ، وإذا رجل قد دخل علينا المسجد ، فسلم عليَّ ، وصلىٰ إلىٰ جنب فتح ركعتين ، وقعد ، فسلم عليه فتح ، وسأله عن حال أبي السري ومتىٰ عهده به ، فقال : ما لي به عهد منذ أيام ، فقال : قم بنا إليه ؛ فإنه عليل ، قال : فخرجا من المسجد وأنا أنظر إليهما حتىٰ مضيا إلىٰ دجلة ، فرأيتهما يمشيان على الماء ، فقعدت أنتظر رجوعهما ، فجاء أحدهما في آخر الليل ؛ فإذا هو فتح ، فقمت ودخلت المسجد ، فرميت بنفسي كأني كنت نائماً ، فلما أسفر الصبح وصلينا وتفرق الناس. . قمت إليه ، وقلت : أبا محمد ؛ قد قضيتُ من زيارتك وطري ، وقد رأيت الرجل الذي أتاك البارحة ، فجعل يعارضني ، فلما علم أني قد علمت الخبر. . أخذ عليَّ العهد ألا أحدث بذلك أحداً ما دام حياً ، ثم قال لي : ذاك الخضر عليه السلام ، وأبو السري : حمزة الخولاني ، وهو رجل صالح في هـٰذه القرية ، وأشار بيده إليها ، وقال : اجعل طريقك عليه ، فمضيت إليه وسلمت عليه .

وقال أبو نصر التمار : توفي فتح الموصلي سَنة سبعين ومئة رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٢٢ـ١٢٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

علي بن الفضيل بن عياض
رضي الله عنهما

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عبد العزيز بن يزيد : قال الفضيل بن عياض : بكىٰ عليٌّ ابني يوماً ، فقلت له : ما لَك يا بني ؟ فقال : أخاف ألاَّ تجمعنا القيامة .

وقال الفضيل : أشرفت ليلة على ابني علي وهو في صحن الدار ، وهو يقول : النار ، النار ، ومتى الخلاص من النار .

وقال إسماعيل الطوسي : بينا نحن ذات يوم عند الفضيل ، فقرأ رجل : ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، فسقط علي بن الفضيل مغشياً عليه ، فقال الفضيل رحمه الله : شكر الله تعالىٰ لك ما قد علمه منك .

وكان علي بن الفضيل يصلي حتىٰ يزحف إلىٰ فراشه ، ثم يلتفت إلىٰ أبيه ، ويقول : يا أبت ؛ سبقني المتعبدون .

وقال سفيان بن عيينة : ما رأيت أحداً أخوف من الفضيل وابنه .

وقال الفضيل : قلت لابني علي : لو أعنتنا علىٰ دهرنا ؟ قال : فأخذ قفة ومضىٰ إلى السوق ليحمل ، فأتاني رجل ، فأعلمني ، فمضيت إليه ، فرددته ، وقلت له : يا بني ؛ لست أريد هـٰذا ، أو لمْ أرد هـٰذا كله .

وعن الفضيل أن علياً ابنه كان يحمل علىٰ أباعر كانت لفضيل ، فنقص الطعام الذي حمله ، فحبسوا عليه الكراء ، فجاء الفضيل إليهم وقال : أتفعلون هـٰذا بعَليٍّ ، ولقد كانت لنا شاة بالكوفة أكلت شيئاً يسيراً من علف لبعض الأمراء أو الملوك ، فما شرب لها لبناً بعد ذلك ؟! قالوا : يا أبا علي ؛ لمْ نعلم أنه ابنك .

وعن الفضيل قال : اشترينا شعيراً بدينار ، وكان ذلك في غلاء السعر ، فقالت أم علي

للفضيل : قوّته لكل إنسان قرصين في اليوم والليلة ، فكان علي يأخذ واحداً ويتصدق بالآخر ، حتىٰ كاد يصيبه الخواء[1] ، أو أصابه بعض ذلك .

وقال الفضيل : قال لي ابني علي : يا أبت ؛ سل الذي وهبني لك في الدنيا أن يهبني لك في الآخرة ، ثم بكىٰ ولم يزل منكسر القلب حزيناً ، فبكى الفضيل بعد موته ، وقال : حبيبي ؛ من كان يساعدني على الحزن والبكاء غيرك يا ثمرة قلبي ؟! شكر الله تعالىٰ لك ما علمه منك .

وقال ابن عباد : كانوا يعودون علي بن الفضيل وهو بمنىٰ ، فقال لهم : لو ظننت أني أبقىٰ إلى الظهر . . لشقَّ علي .

وقال الفضيل لعَليٍّ ابنه : يا بني ؛ أمير المؤمنين قد أخلي له البيت للطواف ، فقم نغتنم الطواف خلوة ، فقال : يا أبت ؛ نغتنم خلوة الجور .

وقال الفضيل : اللهم ؛ إني اجتهدت أن أؤدب علياً ، فلم أقدر ، فأدبتَه أنت لي تباركت وتعاليت .

وقال عمران بن موسىٰ : قال علي بن الفضيل : ويحي من يوم ليس كالأيام! ثم قال : أوَّه! كم من قبيحة تكشفها القيامة غداً ؟!

وقال أحمد ابن أبي الحواري : سمعت أبا سليمان يقول : كان علي بن الفضيل لا يستطيع أن يقرأ (القارعة) ولا أن تقرأ عليه .

أسند عن : عبد العزيز ابن أبي رواد ، وعن سفيان بن عيينة ، وغيرهما . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٩٧ـ٢٩٩] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : سُرق من علي بن الفضيل دينار وهو يطوف بالبيت ، فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن ، فقال : أعلى الدينار تبكي ؟ فقال : لا والله ؛ ولـٰكن على المسكين الذي أخذه ؛ فإنه يسأل يوم القيامة ولا تكون له حجة .

وهـٰذا كما قيل لبعضهم : ادع علىٰ مَن ظلمك ، فقال : إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه .

---

(١) **الخواء** : خلو الجوف من الطعام ، ولعل المراد هنا : أنه يصيبه مرض من كثرة ما تكون معدته فارغة ، والله أعلم .

وشكا بعض الناس إلىٰ عالم أنه قد قُطِعَ عليه الطريق وأُخِذَ مالُه ، فقال : إن لم يكن غَمُّك أنه قد صار في المسلمين من يفعل هـٰذا أكثر من غمك بما سُرق لك . . فما نصحت المسلمين . [انتهىٰ « الإحياء » ٤/٢٨٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو بكر بن عياش

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال بشر بن الوليد : سمعت أبا بكر بن عياش يقول : جئت ليلة إلىٰ زمزم ، فاستقيت منه دلواً ، فشربت منه لبناً وعسلاً .

وقال الهيثم بن خارجة : رأيت أبا بكر بن عياش في المنام وقدامه طبق فيه رطب[1] وسكر ، فقلت له : يا أبا بكر ؛ ألا تدعونا إليه وقد كنت سخياً على الطعام ؟ فقال لي : يا هيثم ؛ هـٰذا طعام أهل الجنة ، لا يأكله أهل الدنيا ، قال : قلت : وبِمَ نلت هـٰذا ؟ قال : تسألني عن هـٰذا وقد مضت عليَّ ست وثمانون سنة أختم القرآن في كل ليلة[2] .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : سمعت أبا بكر بن عياش يقول وهو يدعو : أيا مَلَكيَّ ؛ ادعُوَا الله سبحانه وتعالىٰ لي ولكما ؛ فإنكما أطوع لله عز وجل مني[3] .

وقال أبو بكر بن عياش : لو سقط من أحدهم درهم . لظل يومه يقول : إنا لله ، ذهب درهمي ، وهو يذهب يومه ولا يقول : ذهب يومي ما عملت فيه .

وقال أبو بكر بن عياش : الخلق أربعة : معذور ، ومخبور ، ومجبور ، ومثبور ، فأما المعذور : فالبهائم ، وأما المخبور[4] : فابن آدم ، وأما المجبور : فالملائكة ؛

---

(١) في نسخة : (لبن) .

(٢) قال الإمام النووي في كتابه « التبيان » (٨٠) : والاختيار ـ [أي في مدة ختم القرآن] ـ أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص ، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف . . فليقتصر علىٰ قدرٍ يحصل له به كمال فهم ما يقرؤه ، وإن لم يكن . . فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلىٰ حد الملل والهذرمة . انتهىٰ باختصار . وكذلك قال في موضع آخر (٧٧) : فمن الذين يختمون الختمة في اليوم والليلة : عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وتميم الداري ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والشافعي ، وآخرون ، ولعل الأمر في ذلك راجع إلى البركة في الزمان والمكان ، والله أعلم .

(٣) لعله يقصد الملكين الحافظين ، وهـٰذا من نتائج المراقبة الصادقة .

(٤) **المخبور** : المختبر والمسؤول .

جبرت على الطاعة ، وأما المثبور[1] : فإبليس .

وقال : أدنىٰ نفع السكوت . . السلامة ، وكفىٰ بالسلامة عافية ، وأدنىٰ ضرر المنطق . . الشهرة ، وكفىٰ بالشهرة بلية .

وقال أبو بكر بن عياش أيضاً : رأيت في النوم عجوزاً حدباء مشوهة تصفق بيديها ، وخلفها خلق يتبعونها يصفقون ويرقصون ، فلما كانت بحذائي . . أقبلَت عليَّ ، وقالت : آه! لو ظفرتُ بك . . لصنعت بك ما صنعت بهٰؤلاء ، قال : ثم بكىٰ ، وقال : رأيت هٰذه الرؤيا قبل أن أقدم بغداد .

وقال : قال لي رجل مرة وأنا شاب : خلِّص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رق الآخرة ؛ فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبداً ، قال أبو بكر : فما نسيتها أبداً .

وقال : وددت أنه صُفح لي عما كان مني في الشباب ، وأن يديَّ قطعتا .

ولما حضرت أبا بكر بن عياش الوفاة . . بكت أخته ، فقال لها : لا تبكي ، وأشار إلىٰ زاوية في البيت ؛ فقد ختم أخوك القرآن في تلك الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة ، واعتماده ليس إلا علىٰ فضل الله الكريم سبحانه وتعالىٰ ورحمته .

أسند كثيراً عن الأئمة ، منهم : عاصم ، والأعمش .

فمن أحاديثه : عن عاصم ، عن زر بن حبيش ، عن عبد الله قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الغنىٰ ما هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « اليأس مما في أيدي الناس »[2] . غريب من حديث عاصم ، تفرد به أبو بكر بن عياش فيما أرىٰ ، والله أعلم .

وعنه عن عاصم ، عن زر بن حبيش ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعلكم ستُدركون أقواماً يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فصلوا في بيوتكم ، واجعلوا الصلاة معهم سبحة »[3] غريب من حديث عاصم ، لم يَرْوِهِ عنه إلا أبو بكر .

وبه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تَلِجوا على المغيَّبات ؛ فإن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم »[4] .

---

(١) **المثبور** : الخاسر .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠/١٣٩) .

(٣) أخرجه بنحوه ابن خزيمة في « الصحيح » (٣/٦٨) .

(٤) أخرجه بنحوه الترمذي (١١٧٢) ، **والمغيبات** : النساء اللاتي غاب عنهن أزواجهن .

وبه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي والحسن والحسين يلعبان ويقعدان على ظهره ، فأخذ المسلمون يميطونهما ، فلما انصرف. . قال : « ذروهما بأبي وأمي ، ومن أحبني . . فليحب هـٰذين »[1] غريب من حديث عاصم ، لم يروِهِ إلا أبو بكر .

وعنه عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل أهل الجنة يرىٰ مقعده من النار ، فيقول : لولا أن الله عز وجل هداني . . لكنت فيها ، فيزداد لله سبحانه وتعالىٰ شكراً ، وكل أهل النار يرىٰ مقعده من الجنة ، فيقول : لو أن الله تعالىٰ هداني ، فتكون عليه حسرة »[2] غريب .

وعنه عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عمرو ابن أبي سلمة : أنه رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في ثوب واحد مشتملاً به[3] . صحيح ثابت . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٣٠٣ـ٣١٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : توفي أبو بكر بن عياش رحمه الله سَنة ثلاث وتسعين ومئة ، وله ثلاث وتسعون سَنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٨٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان في « الإحسان » (٦٩٧٠) .
(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٢/ ٤٧٣) .
(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٣٤٨) ، ومسلم (٥١٧) .

ومنهم الإمام :

أبو الحكم سَيَّار
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن هشيم قال : دخلنا علىٰ سيار وهو يبكي ، فقلنا له : ما يبكيك ؟ قال : ما أبكى العابدين من قبلي .

وقال : الدنيا والآخرة يجتمعان في قلب العبد ، فأيهما غلب . . كان الآخر تبعاً له .

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : كان سيار يحب أن يأتينا ، فقدم سيار البصرة ، وكان له ثياب حسان يلبسها أحياناً ، فدخل يوماً علىٰ مالك بن دينار وعليه وعلىٰ أصحابه الصوف ، فحدث مالك بن دينار ، ووعظ أصحابه ، وتفرقوا ، وبقي هو ومالك ، وهو لا يعرفه ، فقال له مالك : أيها الشيخ ؛ إني لأرغب بك عن هـٰذا اللباس ، فقال له سيار : أيضعني هـٰذا عندك ؟ قال : نعم ، **فقال سيار : نِعْمَ الثوب ثوب يضع صاحبه عند الناس** ، ولـٰكن أخاف أن يكون ثوباك هـٰذان اللّذان عليك قد بلغا بك من الناس ما لم يبلغك من الله عز وجل ، فقام مالك من مجلسه حتىٰ جاء فجلس بين يديه ، وقال : مَن أنت يرحمك الله تعالىٰ ؟ فقال : سيار .

ثم قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان سيار هـٰذا من التابعين ، واسطي الأصل ، تأخر ذِكره عن طبقته .

روىٰ عن طارق بن شهاب ، وقيل : إن طارقاً من الصحابة رضي الله عنهم ، وأكثَرَ الرواية عن الشعبي .

فمن أحاديثه : عن طارق ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من نزلت به حاجة فأنزلها بالناس . . لم تُسَدَّ فاقته ، وإن أنزلها بالله عز وجل . . أوشك الله له بالغنىٰ ، إما أجر آجل ، أو غنىٰ عاجل »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٨/٣١٣ـ٣١٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٣٢٦) .

ومنهم الإمام :

شيبان الراعي

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان شيبان الراعي إذا أجنب وليس عنده ماء . . دعا ربه عز وجل ، فجاءت سحابة ، فأظلته ، فاغتسل منها .

وكان يذهب إلى الجمعة ، فيخط علىٰ غنمه بعصاه خطاً ، فإذا جاء . . وجدها علىٰ حالها لم تتحرك . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٣١٧] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : حكي أن أحمد ابن حنبل كان عند الشافعي رحمه الله ، فجاء شيبان الراعي ، فقال أحمد : أريد ـ يا أبا عبد الله ـ أن أنبه هـٰذا علىٰ نقصان علمه ؛ ليشتغل بتحصيل العلم ، فقال له الشافعي : لا تفعل ، فلم يقنع ، ثم قال لشيبان : ما تقول في مَن نسي صلاة من الخمس صلوات في اليوم والليلة لا يدري أي صلاة نسيها ؛ ما الواجب عليه يا شيبان ؟ فقال شيبان : يا أحمد ؛ هـٰذا قلب غفل عن الله سبحانه وتعالىٰ ، فالواجب أن يؤدب حتىٰ لا يغفل عن مولاه جل جلاله بعد ذلك ، فغشي علىٰ أحمد ، فلما أفاق . . قال له الشافعي : ألم أقل لك لا تحرك هـٰذا .

وكان شيبان أمياً ، فإذا كان هـٰذا حال الأمي . . فما ظنك بالأئمة منهم ؟!

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض المجاميع : أن الشافعي رحمه الله كان يجلس إلىٰ شيبان الراعي ، ويسأله عن مسائل ، فيقال له : مثلك يسأل هـٰذا البدوي ؟! فيقول لهم : إن هـٰذا وفق للعمل لما[1] عَلَمْنَاه .

وقد كان الأئمة المجتهدون رحمهم الله يعترفون بوفور فضل علماء الباطن .

وقد قال الإمامان الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله : إذا لم يكن العلماء أولياءَ الله تعالىٰ . . فليس لله عز وجل ولي .

---

(١) في نسخة : (بما) .

وقد حكىٰ غير واحد من الحفاظ : أن أبا العباس بن سريج رحمه الله كان إذا عجب الحاضرون مما يبديه لهم من العلوم . . يقول لهم : تدرون مِن أين لي هـٰذا ؟ هـٰذا إنما حصل لي من بركة مجالستي أبا القاسم الجنيد .

وكان من دعائه رحمه الله : يا ودود ، يا ودود ، يا ذا العرش المجيد ؛ أسألك بعزك الذي لا يرام ، وبملكك الذي لا يضام[1] ، وبنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك . . أن تكفيني شر الظالمين أجمعين .

ونظم بعضهم قصيدة ذكر فيها أسماء جماعة من الأولياء رضوان الله عليهم ، فمنها :

شيبان قد كان راعي وسر سره ما اختفىٰ
فاجْهَدْ وخل الدعاوي إن كان لك شيء ثاني

وقال في « **لوامع أنوار القلوب** » : قال أبو عبد الله محمد بن عبد الخالق الدينوري رحمه الله : حقيقة المحبة . . أرقٌ بلا رقاد ، وجسم بلا فؤاد ، وتهتك في العباد ، وتشرد في البلاد ، كما روي أنه حج سفيان الثوري وشيبان الراعي رحمهما الله ، فعرض لهما سبع في الطريق ، فقال سفيان : أما ترى السبع ؟ فقال شيبان : لا تخف يا أبا عبد الله ، فلما سمع الأسد كلام شيبان . . بصبص[2] له ، فأخذ شيبان أذنيه ، فعركهما فحرك السبع ذنبه ومضىٰ ، فقال سفيان : ما هـٰذه الشهرة ؟! فقال : يا أبا عبد الله ؛ لولا الشهرة . . لوضعت زادي علىٰ ظهره إلىٰ مكة ؛ ليُعلَم التهتك في العباد والتشتت في البلاد كيف يكون . انتهىٰ .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : ورأيت في المجلد الخامس من « بهجة الأسرار » : عن أبي سعيد الخراز رحمه الله قال : حدثني محمد بن منصور قال : أراد شيبان الحج في أيام العشر ، فقال لخاله خلف : لك حاجة إلىٰ مكة ؟ فربط في طرف كسائه خمسة دراهم ، وقال : استعن بهـٰذه ، فحج شيبان ورجع ولم يمسها ، فقال له خاله خلف : لِمَ لا أنفقتها ؟ فقال : لم يكن الله عز وجل يدعني أكثر من ثلاثة أيام ، ويطعمني في اليوم الرابع ، فقال له : فلَمْ تجد أحداً تعطيه هـٰذه الدراهم ؟ فقال : يتولىٰ إنفاقها من تولىٰ كسبها . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) في بعض النسخ : (يزول) .

(٢) بصبص : حرك ذنبه ، وذلك إما من خوف أو طمع والتبصبص : التملق .

ومنهم الإمام :

أبو علي الحسن بن يحيى الخشني
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : سئل الخشني رحمه الله : ما علامة أولياء الله ؟ فقال : هم الذين يوَفِّقهم في دار الدنيا للأعمال الصالحة التي يرضىٰ بها عنهم .

وقال في قوله عز وجل : ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قال : لنرزقنه طاعة يجد لذتها في قلبه .

وقال : ما في جهنم من دار ولا مغار[1] ولا قيد ولا غل ولا سلسلة . . إلا واسم صاحبها عليه مكتوب ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، قال أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله : فحدثت به أبا سليمان ، فقال : فكيف به إذا جمع هـٰذا كله عليه ، فجعل القيد في رجله ، والغل في يده ، والسلسلة في عنقه ، ثم أدخل النار ، ثم أدخل المغار ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . [انتهىٰ « الحلية » ٨/٣١٨] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : ورأيت في بعض المجاميع : قال الحسن الخشني وقد سئل عن آداب الصحبة : حدثت أن لقمان قال لابنه : يا بني ؛ عليك بخلال ، إن تمسكت بهن . . لم تزلْ سيداً : ابسط حلمك للبعيد والقريب ، وامسك جهلك عن الكريم واللئيم ، واحفظ إخوانك ، وصِلْ أقاربك ، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك . . لم تعبهم ولم يعيبوك .

وخصلتان يزِينانك : **اعلم** : أنه لا يطأ بساطك إلا راغب فيك أو راهب منك :

فأما الراهب منك : فأدنِ مجلسه ، وتهللْ في وجهه ، وإياك والغمز من ورائه .

وأما الراغب فيك : فأظهر له البشاشة مع صفاء الباطن له أيضاً ، وابدأه بالنوال قبل السؤال ؛ فإنك متىٰ تلجئه إلى السؤال منك . . تأخذ من حر وجهه ضِعفَي ما أعطيته .

---

(١) **المغار** : الكهف في الجبل .

وأنشدوا على هـٰذا المعنىٰ :

إذا أعطيتنـــي وأخـــذت مِنِّـــي فمِـن مَنِّـك أيضـاً ثـم مَنِّـي[1]
إذا أعطيتنـــي بســـؤال وجـــهٍ فقـــد أعطيتنـــي وأخـــذت منـــي

وقال : قال بعض العارفين رحمهم الله : تذاكرنا في هـٰذا العلم الدقيق يوماً مع بعض أصحابنا ، فرأيت في النوم كأنا نتذاكر ما كنا فيه من العلم يقظة ، وكأن قائلاً يقول : يا إبراهيم ؛ قد سمعت كلامكم بالأمس ، وخوضكم في تلك المعاني الدقيقة ، وإدخالكم أمثال الجبال من الكلام في مثل سم الخياط من المعاني ، وتخلفكم عن أمثال الجبال من الأعمال ، مهلاً مهلاً أيها القوم ، فالطريق ما هو هـٰهنا ، إنما يراد من العلم العمل ، وكلما ازددتم علماً . . كانت الحجة عليكم أقوم وأقوىٰ .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) المَنُّ : العطاء .

ومنهم الإمام :

أبو نصر بشر بن الحارث

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال محمد بن الصلت : سمعت بشر بن الحارث وسئل ما كان بدء أمرك ؟ فإن اسمك بين الناس كأنه اسم نبي ، قال : هـٰذا من فضل الله سبحانه وتعالىٰ ، وما أقول لكم كنت رجلاً عياراً[1] صاحب عصبة ، فخرجت يوماً ؛ فإذا أنا بقرطاس في الطريق ، فرفعته ؛ فإذا فيه : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، فمسحته وجعلته في جيبي ، وكان عندي درهمان وما كنت أملك غيرهما ، فذهبت إلى العطارين ، فاشتريت بهما غالية ، ومسحته في القرطاس ، فنمت تلك الليلة ، فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي : يا بشر بن الحارث ؛ رفعت اسمنا عن الطريق وطيبته . . لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة ، ثم كان ما كان .

وقال سفيان بن محمد المصيصي : رأيت بشر بن الحارث في النوم ، فقلت : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ قال : غفر لي ، وأباحني نصف الجنة ، وقال لي : يا بشر ؛ لو سجدت لي على الجمر . . ما أديت شكر ما جعلت لك في قلوب عبادي .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : ليس أحد يحب الدنيا . . إلا لم يحب الموت ، وليس أحد يزهد في الدنيا . . إلا أحب الموت ، حتىٰ يلقىٰ مولاه سبحانه وتعالىٰ .

وقال بشر : العجب أن تستكثر عملك وتستقل عمل الناس أو عمل غيرك .

وكان بشر بباب حرب ، فأراد الدخول إلى المقبرة ، فقال : الموتىٰ داخل السور أكثر منهم خارج السور .

وقال : من أراد أن يُلَقَّن الحكمة . . فلا يعص الله عز وجل .

وقال في جنازة أخته : إن العبد إذا قصر في طاعة الله عز وجل . . سلبه من يؤنسه .

---

(١) العيَّار من الرجال : الذي يخلّي نفسَه وهواها لا يردعُها ولا يزجرُها .

وقال الحسين بن محمد البغدادي : سمعت أبي يقول : زرت بشر بن الحارث ، فقعدت معه ملياً ، فما زادني علىٰ كلمة ؛ قال : ما اتقى الله عز وجل من أحب الشهرة .

وقال : لا تعمل لتُذْكر ، وَرِدِ الله تعالىٰ بما يريد .

وقال : إذا أعجبك الكلام . . فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت . . فتكلم .

وقال : إذا ذكرت الموت . . ذهبت عنك صفوة الدنيا وشهواتها ، وذهبت عنك شهوة الجماع .

وكان أسفل قدمي بشر قد اسود من التراب من المشي حافياً .

وقال : إنما أنت متلذذ تسمع وتحكي ، إنما يراد من العلم العمل ، اسمع ، وتعلَّم ، واعمل ، وعلِّم ، واهرب ، ألم تر إلىٰ سفيان الثوري كيف طلب العلم فعلم وعمل وعلَّم وهرب ؟! وطلبُ العلم إنما يدل على الهرب من الدنيا ، ليس يدل علىٰ حبها .

وقال : إن لم تعمل . . فلا تعص .

وقال : من عامل الله عز وجل بالصدق . . استوحش من الناس .

وقال : اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٣٣٦ـ٣٤٨] .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : قال الفتح بن شخرف : تعلق شخص بامرأة في الطريق وبيده سكين ، لا يدنو منه أحد إلا عقره ، والمرأة تصيح ، فمر بشر بن الحارث ، ودنا منه ، وحك كتفه ، فوقع الرجل على الأرض ، ومضت المرأة ، ومضىٰ بشر ، وأقام الناس ينظرون متىٰ يفيق ، فوجدوه وهو يرشح عرقاً ، فلما أفاق . . سألوه ، فقال : ما أدري إلا أن شخصاً حك كتفه كتفي ، وقال لي : إن الله عز وجل ناظر إليك وإلىٰ عملك ، فضعفَت لقوله قدماي ، وسقطتُ ، وهبتُه هيبة شديدة ، فلا أدري من هو ، قالوا : هو بشر بن الحارث ، فقال : واسوأتاه! كيف ينظر إلي بعد ذلك ، ثم إنه راح إلىٰ منزله ، فحُمَّ ومات بعد سبعة أيام .

وقال بشر : مَثل الذي يأكل الدنيا بالدِّين . . مثَل الذي يغسل يديه من الزهومة[1] بالسمك . انتهىٰ .

ثم قال الحافظ : قال إبراهيم الحربي : حملني أبي إلىٰ بشر بن الحارث ، فقال : يا أبا

---

(١) **الزهومة** : الدسم .

نصر ؛ ابني هـٰذا يحب كتابة الحديث والعلم ، فقال له بشر : يا بني ؛ هـٰذا العلم ينبغي أن تعمل به ، فإن لم تعمل به كلِّه . . فمِن كل مئتي حديث بخمسة أحاديث مثل [زكاة] الدراهم ، فقال له أبي : يا أبا نصر ؛ تدعو له ؟ فقال : دعاؤك له أبلغ ؛ فإن دعاء الوالد لولده . . كدعاء النبي لأمته ، قال إبراهيم : فاستحليت كلامه واستحسنته .

فلما كان يوم الجمعة وقد دخلت الجامع ؛ فإذا ببشر يصلي في قبة الشعراء ، فقمت وراءه أركع إلىٰ أن نودي بالأذان ، فقام رجل رث الحال والهيئة ، فقال : يا قوم ؛ احذروا أن أكون صادقاً ، وليس مع الاضطرار اختيار ، ولا يسع السكوت عند العدم ، ولا السؤال مع الوجود ، وثَمَّ فاقة رحمكم الله تعالىٰ ، قال : فرأيت بشراً أعطاه قطعةً قدر دانق ، قال إبراهيم : فقمت إليه ، فأعطيته درهماً ، وقلت : أعطني القطعة ، قال : لا أفعل ، قلت : هـٰذان درهمان ، قال : لا أفعل ، قال إبراهيم : وكان معي عشرة دراهم صحاحاً ، فقلت : هـٰذه عشرة دراهم ، فقال لي : يا هـٰذا ؛ وأي شيء رغبتك في دانق تبذل فيه عشرة صحاحاً ؟ قال : قلت : هـٰذا رجل صالح ، فقال لي : فأنا في معروف هـٰذا أرغب ، ولست أستبدل بالنعم نقماً ، وإلىٰ أن آكل هـٰذه فرج عاجل ، أو منية قاضية ، قال إبراهيم : فقلت : أنظر معروف مَنْ بيد مَنْ ، فقلت : يا شيخ ؛ دعوة ، فقال لي : أحيا الله قلبك ، ولا أماته حتىٰ يميت جسمك ، وجعلك ممن يشتري نفسه بكل شيء ولا يبيعها بشيء .

وقال بشر بن الحارث : لا ينبغي لأحد أن يذكر شيئاً من الحديث في موضع حاجة يكون له من حوائج الدنيا يريد أن يتقرب به ، ولا يذكر العلم في موضع الدنيا ، وقد رأيت مشايخ طلبوا العلم للدنيا ، فافتضحوا ، وأُخَرَ طلبوه فوضعوه مواضعه ، وعلموه وقاموا به ، فأولـٰئك سلموا ونفعهم الله تعالىٰ به .

وقال حفص بن غياث : كنا نستغني بمجلس سفيان عن الدنيا ، وكان الفقراء في مجلس سفيان الثوري هم الأمراء .

قال بشر : وكان سفيان يقول : من كان عنده شيء من معاش . . فليتمسك به ؛ فإنه سيأتي على الناس زمان أول ما يلقى الرجل الرجل . . يلقاه بدينه .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : لو تفكر الناس في عظمة الله عز وجل . . لما عصوا الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال بشر : مَن يسأل الله تعالى الدنيا . . فإنما يسأله طول الوقوف يوم القيامة .

قيل لبشر : إن فلاناً جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ، لـكنه كان يصنع ويصنع ، وذكروا أبواباً من البر ، فقال بشر : ما ينفع هـٰذا وهو يجمع الدنيا ؟!

وقال الحسن بن سعد[1] : كنا عند بشر رحمه الله ، فجاءه رجل خراساني ، فجلس بين يديه ، وقال : يا أبا نصر ؛ أنا من خراسان ، حدثني بخمسة أحاديث أذكرك بها بخراسان ، فقال له بشر : المحدثون كثير ، فلم يزل الخراساني يتذلل له ، وبشر يقول : المحدثون كثير ، فلما أكثر عليه وهو لا يقبل . . قال : يا أبا نصر ؛ أليس تروي عن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام أنه قال : من علِم وعمل وعلَّم . . فذلك الذي يدعىٰ عظيماً في ملكوت السماء ؟ قال له بشر : كيف قلت ؟ أعد عليَّ ، فأعاد عليه القول ، فقال له : صدقت ، قد علمنا حتىٰ نعملَ ثم نُعلِّمَ . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٣٣٧-٣٤٩] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وفي حفظي : أن جماعة من أهل بغداد كانوا في مجلس لهو وشرب ، فأرسلوا غلاماً يشتري لهم خضرة وما يتم به مجلسهم بعشرين درهماً ، فغاب عنهم زماناً طويلاً ، ثم رجع إليهم وهو يضحك وما معه شيء ، لـٰكن بيده بطيخة ، فقالوا له : ما كفىٰ أنك أبطأت ، ومع ذلك فقد جئتَ بغير شيء[2] ، فقال : جئتكم بأعجوبة ، هـٰذه البطيخة وضع بشر بن الحارث يده عليها ، فتزايد الناس فيها إلىٰ عشرين درهماً ، وقد اشتريتها بعشرين درهماً ، فجعل كل واحد منهم يقبّلها ، وقال بعضهم لبعض : بأي شيء بلغ بشر إلىٰ هـٰذه المنزلة ؟ فقالوا : بالتقوىٰ ، فتابوا من وقتهم ، وصاروا ناسكين ، كل ذلك ببركة بشر رحمه الله .

وقد أحببت أن أذكر في ترجمته رحمه الله قاعدة عامة النفع إن شاء الله عز وجل ، وهي في إبراز بعض الأسرار والحكم المودعة في أقوال العارفين رحمهم الله وأفعالهم ، لا سيما بشر ، بحسب ما أفاضه الله عز وجل علينا من عرفانهم ، ورزقنا من بركاتهم ، فأقول وبالله التوفيق :

اعلم : أنه قد مر في ترجمة بشر عدم إجابته إلىٰ إسماع الحديث ، وكذا امتناعه عن كثير من تناول الشهوات ، ومنع نفسه عنها كل المنع ، وقد وقع ذلك أيضاً لجماعة من العارفين ؛ كداوود الطائي ، وسري السقطي ، رحمهما الله تعالىٰ ، وغيرِهما .

---

(١) في نسخة : (سعيد) .
(٢) في نسخة : (ببطيخة) .

فإذا وقف العامي علىٰ ظاهر هـٰذا . . ظنه خلاف الأولىٰ ، وربما يزيد في الغباوة ، فيظنه غير مباح ، والبصير يعرف أن ذلك من محض التقوىٰ وشدة الورع ، **بيان ذلك في مقامين ، أحدهما : في جانب التعليم ، وثانيهما : في عدم تناول بعض الشهوات .**

أما الأول : فلهم في ذلك أعذار :

منها : خشية العجب وغير ذلك ، ويرون أن غيرهم يقوم بذلك فلا يتعين عليهم ، ولهـٰذا قال بشر رحمه الله : المحدثون كثير ، فعلَّل بأن هـٰذا لا يتعين عليَّ ، وخشي علىٰ نفسه العجب أو غيرَه ، فأحجم عن إسماع الحديث لذلك ، ولا شك أن للنفس دفينة في نشر العلم ، فلهـٰذا ينبغي للعالم أن يجاهد نفسه ويدفع عنها الأسباب المؤدية إلى العجب وغيره ؛ لئلا يلحقه الإثم الكبير ، والعارف ـ لشدة خوفه وورعه ـ يمتنع عن كثير من أعمال البر ؛ خشية أن يدخل عليه ما يفسد عمله ، فلا يفي الربح[1] بالخسران ، فلا يأتي إلا عن بصيرة ، ولا يذر إلا عن بصيرة ، هـٰكذا شأن العارفين ؛ ليحصل لهم الإخلاص الذي هو سر العبادة وروحها ، فتصفو لهم المعاملة مع الله عز وجل ، وتصلح لهم قلوبهم ؛ لأن بصلاحها صلاح الجسد كله ؛ كما جاء في الحديث الثابت في الصحيح[2] : وتَخَلُّص الأعمال على العمال أشد عليهم من العمل ، ومن تتبع أحوال العارفين وأقوالهم سلفاً وخلفاً . . وجدها علىٰ ذلك ، وهـٰذا باب غامض لا يدركه إلا البصير الناقد من سماسرة[3] العلماء .

ومما يدل علىٰ أنه قصد هـٰذا المعنىٰ : ما رواه الخطيب عن أيوب العطار قال : سمعت بشراً يقول : حدثنا حماد بن زيد ، ثم قال : **أستغفر الله ، إن لذِكر الإسناد في القلب خيلاء .**

ومنها ـ وقد علل به بشر ـ : أنه ينبغي أن يَعمَل بما عَلِم أولاً ، ثم بعد ذلك يعلِّم ثانياً ، وإلا . . يكون حجة عليه ، والعارف كلما ازداد علماً . . ازداد وجعاً[4] .

ولهـٰذا قال سفيان الثوري رحمه الله : لو لم أتعلم هـٰذا العلم كله . . لكان أقل لحزني ، وكلما ازددت علماً . . ازددت وجعاً ، ولا شك أن حجة الله عز وجل على العالم أقوىٰ منها علىٰ غيره .

---

(١) في نسخة : (الورع) .

(٢) البخاري (٥٢) .

(٣) **السمسار** : القيم بالأمر ، الحافظ له .

(٤) في نسخة : (ورعاً) .

ومعلوم أن العلم إنما يراد للعمل ، فإذا لم يُعمل به . . فترْكه أفضل ، هـٰذا مع كونه كما تقدم أنه ليس مما قد تعين عليه فيه التعليم حتىٰ يخرج بتركه ، ولهـٰذا ذكروا عند بشر طلب العلم وتعلمه وتعليمه ونشره ، فقال : إذا لم نعمل به . . فتركه أفضل ، والعلم هو العمل ، فإذا أطعت الله تعالىٰ . . علّمك ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، وإذا عصيته . . لم يعلمك .

وهكذا قال سفيان الثوري وغيره من الأئمة سلفاً وخلفاً رضوان الله عليهم ، ومن تتبع أقوالهم وأفعالهم . . وجد من ذلك شيئاً كثيراً .

ومما يدل علىٰ أنه قصد هـٰذا : ما قاله أبو بكر ابن أبي داوود ، قال : قلت لعلي بن خشرم لما أخبرني أن سماعه وسماع بشر بن الحارث من عيسىٰ واحد ، قلت له : فأين حديث أم زرع[1] ؟ فقال : سماعي معه ، وكتبت إليه أن يوجه به إلي ، فكتب إلي : هل عملت بما عندك حتىٰ تطلب ما ليس عندك ؟ ثم قال بشر : لا أعلم أفضل من طلب الحديث والعلم لمن اتقى الله عز وجل وحسنت نيته فيه ، وأما أنا . . فأستغفر الله عز وجل من كل خطوة خطوت فيه .

ومنها : أن المعلم شريك المتعلم في الأجر والوزر ، يقال له : ومعلمك شريكك ؛ يعني : في الخير والشر ، والعلم لا يراد به الدنيا ، ولهـٰذا قال بشر رحمه الله : العلم أداة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إلىٰ أممهم ، فتمسكوا به وَحَفِظوه وَعَمِلوا به ، ثم أَدَّوه إلىٰ قوم ، فعَمِلوا به . . . وهـٰكذا ، وقد صار العلم اليوم إلىٰ قوم يأكلون به الدنيا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وهـٰذا مشرب جميع العارفين سلفاً وخلفاً ؛ فإنهم اجتهدوا في صيانة علمهم عن أن يريدوا به الدنيا ، ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن داوود الطائي رحمه الله ، لما كان يجيء إليه محمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة رحمه الله ، قال : كنت إذا جئت إلىٰ داوود . . أسأله عن المسألة ، قال : فإن وقع في نفسه أنها مما أحتاج إليه في أمر ديني . . أجابني ، وإلا . . تبسم في وجهي ، وقال : إن لنا شغلاً .

---

(١) جاء في الحديث كما رواه البخاري (٤٨٩٣) : أن السيدة عائشة رضي الله عنها روت أن إحدىٰ عشرة امرأة تكلمن عن أزواجهن ، وكانت من بينهن امرأة اسمها أم زرع ، وكان زوجها حسن المعاشرة معها فقال النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة عائشة : « كنت لك كأبي زرع لأم زرع » ومن أراد التعرف إلىٰ ما تكلمت كل زوجة في زوجها . . فلينظر الحديث بطوله ؛ ففيه فوائد كثيرة ، والله أعلم .

فتورُّع بشر عن إسماع الحديث قد يكون لذلك ، ولهٰذا قال : **لا تطلب علماً تهينه للناس ؛ أي : تريد به الناس**[1] ، هٰذا هو الداء الأكبر ، ويمتزج هٰذا بعذر آخر ، وهو قصد المباهاة والمماراة مع قصد الدنيا ، وكل ذلك بمفرده من السموم القاتلة ، ففرار العارف منها أشد من فراره من الأسد .

ومنها : أن هَمَّ العارف ومقصوده كلَّه إنما هو الله سبحانه وتعالىٰ ، فكل ما يقطعه عن ذلك . . يجتهد في إزالته ودفعه عنه بكل طريق ، وأقوال العارفين وأحوالهم دلت علىٰ ذلك دلالة واضحة .

ألا ترىٰ إلىٰ قول غير واحد من العارفين ، منهم : أبو الحسين النوري رحمه الله قال : أعلىٰ مقامات الحقائق . . الانقطاع عن العلائق .

وقال قبله أبو سليمان الداراني رحمه الله : كل ما شغلك عن الله عز وجل من أهل ومال وولد . . فهو عليك مشؤوم .

والله عز وجل يختص برحمته من يشاء ، فوهب لبعض عباده ، وأفاض عليهم من العرفان بحسب ما شاء وأراد ، فربَّ شخص لا يقطعه الاشتغال بالتعليم عن الله تعالىٰ ـ وهٰذا حال الأكثرين ـ ورب شخص يقطعه الاشتغال بالتعليم عن الله تعالىٰ ؛ فإن مواهب الله سبحانه وتعالىٰ لأوليائه وتمكينهم لا تنحصر ، ودرجاتهم متفاوتة ، فلذلك اختلفت مشاربهم ، ومعلوم أن أعمالهم غامضة لطيفة ، يحاسبون أنفسهم على الحركات والسكنات والخطوات والخطرات ، حتىٰ أن يحيى بن يحيى النيسابوري رحمه الله شرب دواء لضعف أصابه ، فلم يجبه[2] ، فقالت له امرأته : لو ترددتَ في الدار خطوات ؟ فقال : لي أربعين سنة ما أمشي إلا فيما أحتسبه ، وهٰذه المشية لا أدري ما هي .

فلا يأتون عملاً إلا بنية ، والنية ليست مما يحصل وجودها في كل وقت ، فقد تصح وقد لا تصح ، ومعرفة ذلك والوقوف علىٰ تحصيل النية وعزة تحصيلها وأسرارها . . قد استوفيته في ترجمة الإمام حاتم الأصم رحمه الله ، فلتطلب منه ويعمل بمقتضاها ، فيتضح المقصود إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها : عذر آخر خاص ، وهو مشرب جميع الصحابة وكثير من الأئمة التابعين لهم

---

(١) أي : بذل العلم طلباً لأمور دنيوية .

(٢) أي : لم ينفعه .

بإحسان رضي الله عنهم ، وهو أنه إذا لم تقع تلك المسألة . . لا يجيبون عنها ، ألا ترىٰ أن الصحابة رضوان الله عليهم كانو إذا سئلوا عن مسألة . . يقولون للسائل : هل كان هـٰذا ؟ فإن قال : نعم . . أجابوا ، وإن قال : لا . . يقولون : حتىٰ تقع ، إذا وقعت . . تجشمناها[١] لكم ، كل ذلك محافظة على التقوىٰ ، وشدة الورع ولزومه ، رضي الله عنهم ، ونظراً إلىٰ أن العلم إنما المراد منه العمل به ، ومن ثَمَّ فُضِّل ، لـٰكن هـٰذا إنما هو عذر بالنسبة إلىٰ سائل مستفت لا إلىٰ طالب العلم القاصد تحصيله ؛ فإن ذاك لا يكون عذراً في عدم التعليم ، فإذاً العذر بالنسبة إلىٰ من يقصد الاشتغال بالعلم ووفور تحصيله : إنما هو عدم التعين على المطلوب منه مع حصول بعض تلك الأعذار السالفة أو جميعها ، والله أعلم .

وأما المقام الثاني : وهو عدم تناول بعض الشهوات .

فاعلم أولاً : أن المباح لا إنكار في تناوله ولا استعماله قال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ، ومعلوم أن المباح ليس بمذموم ، والله سبحانه وتعالىٰ لا يبيح ما يُذَم فاعلُه ، ألا ترىٰ إلىٰ قول غير واحد من العارفين رحمهم الله ، منهم الإمام أبو القاسم النصر آباذي ، حيث قال : **مَدُّ اليد إلى المباح حسن ، والإمساك عنه أحسن** .

وكل هـٰذا واضح غني عن البيان ؛ إذ هو مجمَع عليه ، وإنما الشأن في كونه مباحاً وفي حصوله ، فمتىٰ صح كونه مباحاً وحصل . . جاز استعماله ما لم يكن سرفاً ، هـٰذا باعتبار أصل الجواز .

وأما باعتبار الورع وخشونة العيش والاقتداء بالسلف الصالحين من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم رضوان الله عليهم أجمعين . . فالأولىٰ عدم تناوله واستعماله إلا في مقدار الضرورة ، وهو ما لا بد منه ، ومَنِ استَقرَأَ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ، وما كانوا عليه من خشونة العيش مع قدرتهم علىٰ خلاف ذلك . . علم يقيناً صحة ما قلناه .

ثم إن خشونة عيشهم وزهدهم وعزوفهم عن الدنيا هو بحسب قربهم من الله سبحانه وتعالىٰ ، وما أفاضه عليهم من العرفان ، واستقراء صنيعهم دل علىٰ ذلك دلالة واضحة ،

---

(١) تجشم : الأمر تكلفه علىٰ مشقة .

لا يتمارىٰ فيه مَن له أدنىٰ أنس بمعرفة أحوالهم رضوان الله عليهم .

ثم إن الأئمة من التابعين لهم بإحسان وتابعيهم ومَن بعدهم . . سلكوا منهاجهم ، واقتفوا آثارهم ، واتبعوا طريقتهم أشد المتابعة ، حتىٰ إن أحدهم إذا قيل له في ذلك . . يقول : أخشىٰ إن عدلت عن طريقهم في الدنيا . . أن يعدل بي عن طريقهم في الآخرة ، ألا ترىٰ إلىٰ قول سيدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قالت له ابنته حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : لو لبستَ ثوباً ألين من هـٰذا ، وصنعت طعاماً غير هـٰذا ، فقد وسع الله عليك من الرزق ، فقال لها الحديث السابق في ترجمته ، ثم قال في آخره : أخاف أني إن لم أشاركهما في عيشهما الشديد في الدنيا . . ألاَّ أدرك معهما العيش الرخي في الآخرة ، وما زال يذكِّرها حتىٰ أبكاها .

وأصل ذلك مأخوذ من قول سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم لما قالت له عائشة رضي الله عنها في ذلك فكان جوابه صلى الله عليه وسلم أن قال : « يا عائشة ؛ إن إخواني أولي العزم من الرسل صبروا علىٰ ما هو أشد من هـٰذا ، فقدموا علىٰ ربهم ، فأجزل ثوابهم ، وأكرم مآبهم . . . » ثم ذكر باقيه .

فالعارفون علموا أن متابعة السلف من أقرب الطرق إلى الله زلفىٰ ، والحلال المحض لا يكاد يحصل إلا بجهد شديد ، وإذا حصل . . فلا يحتمل السرف ؛ لأنه يكون قليلاً ، فكيف يحتمل السرف ؟! فلذلك كانوا يمتنعون عن كثير من الشهوات ؛ لأنه لم يَصْفُ لهمُ الحلال المحض ، ومعلوم أن أصل كلِّ خير هو من أكل الحلال ، ألا ترىٰ إلىٰ قول سيدي خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما استفرغ[1] ذلك اللبن ، حيث قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل جسد نبت علىٰ الحرام . . فالنار أولىٰ به »[2] ، فخشيت أن ينبت شيء من جسدي علىٰ ذلك ، وقد ذكرنا سر ذلك في ترجمته رضي الله عنه .

والحاصل : أن الأصل المعتبر عند جميع العارفين سلفاً وخلفاً استعمال الحلال .

واتفق العارفون وسائر الأئمة رضوان الله عليهم علىٰ أن أصل العبادات كلها أكل الحلال ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ ، فالأكل من

---

(١) استفرغ : أخرج ما في جوفه .

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٤/ ١٤١) .

الحلال . . من الدِّين ، قدمه الله عز وجل على العمل الصالح .

والتوحيد : له ظاهر وباطن وحقيقة ، فظاهرُ التوحيد : الإسلام ، وباطنه : الإيمان ، وحقيقته : التقوىٰ والعمل الصالح ، ولا يتم جميعُ ذلك ولا يحصل إلا بأكل الحلال ، فصحة الإسلام بالإيمان ، وصحة الإيمان بالتقوىٰ والعمل الصالح ، فالتقوىٰ هي لباس المؤمن ، وحصولها وكثرة الازدياد منها بحسب التورع في المأكل والاجتهاد في طيبه ، كما كان حال سيدنا السري رحمه الله وغيرِه من الأئمة سلفاً وخلفاً يبالغون في ذلك ، حتىٰ إن السري لشدة ورعه واجتهاده في أكل الحلال وطلبه . . صار يُعرف بطيِّب الغذاء ، كما عرَّفه الإمام أحمد ابن حنبل بذلك لما سئل عنه ، فقال : تسألني عن الشيخ المعروف بطيب الغذاء .

وقد كان الأئمة الأعلام من العارفين يجتهدون في تحصيل الحلال كلَّ الاجتهاد ، ويبالغون فيه كل المبالغة ، حتىٰ إن سفيان الثوري رحمه الله خرج إلى اليمن بسبب طلب الحلال ، فلما قيل له في ذلك . . فقال : طلب الحلال شديد ، خرجت أريده ، ولهـٰذا إنه إذا لم يحصل لهم الحلال . . يطوي أحدهم ولو بقي أياماً .

قالوا : بقي سفيان الثوري ثلاثة أيام لم يطعمْ شيئاً ، فدعته نفسه إلىٰ دخول دار فيها عرس ، ثم عصمه الله تعالىٰ بالورع ، فدخل إلىٰ دار ابنته ، فقدمت له كسرة يابسة ، فأكلها وشرب عليها الماء ، فتجشأ[1] ، وفي وقت آخر بقي أياماً يستفُّ الرمل ؛ لأنه لم يَصْفُ له الحلال ، وكل ذلك قد استوفيناه في ترجمته ، وحكايَتُه مع إبراهيم بن أدهم رحمه الله لما قدم إبراهيم مكة ، وعلق جرابه في بيت بعض أصحابه ، وخرج إلى الطواف ، فدخل سفيان ، فقال : ما هـٰذا الجراب ؟ فقالوا : لإبراهيم ، فقال : لعل أن يكون فيه شيئاً من فاكهة الشام ، ففتحه ، فوجد فيه طيناً ، فشده وأعاده ، فلما جاء إبراهيم . . قيل له : إن سفيان فتح هـٰذا الجراب ، فوجد فيه طيناً ، فقال : أما إنه طعامي منذ شهر ، ولذلك تغيَّر عليَّ باطني[2] .

وبشر رحمه الله كان ممن لا تمتد يده إلى الحرام أصلاً ، وبعضهم كان في يده عِرق إذا مد

---

(١) تجشأ الرجل : أخرج صوتاً ، هو تنفس المعدة من الامتلاء .

(٢) باطني : داخلي ، وليس المراد هنا السر الباطن ، بل المقصود : الجسد الباطن .

يده إلى الحرام . . ضرب ذلك العرق عليه ، فلا تمتد يده إليه[1] ، واستيفاء ما ورد عنهم من ذلك قولاً وفعلاً يطول ، وقد تقدم بعضه في تراجمهم .

ومع ذلك فقد كان بشر من المبالغين في الورع ، حتىٰ إن الإمام أحمد ابن حنبل استفتي في مسألة في الورع ، فبكىٰ ، وقال : لو كان بشر حياً . . لصلح أن يجيبك عنها ؛ فإنه كان لا يأكل من غلة بغداد ، ولا من طعام السواد ، وأنا أستغفر الله ، لا يحل لي أن أتكلم في الورع وأنا آكل من غلة بغداد ومن طعام السواد .

وكان يقال لبشر : مِن أين تأكل ؟ فيقول : آكل من حيث تأكلون ، ولـٰكن ليس من يأكل وهو يبكي كمن يأكل وهو يضحك ، ثم قال : يد أقصر من يد ، ولقمة أصغر من لقمة .

ومن المشهور عن الإمام أحمد ابن حنبل أنه كان يقول : إن بشر بن الحارث جلس علىٰ مثل حد السِّنان ، فلم يترك لأحد معه فضلٌ رحمهما الله ونفعني بهما .

وقد أقام بشر نحواً من أربعين يوماً يأكل الطين ، حتىٰ تغير تغيراً كثيراً ، فسئل عن ذلك ، فقال : لأنه لم يَصْفُ لي الحلال ببغداد ، فأنا منذ أربعين يوماً آكل الطين ، فلذلك تغير عليَّ باطني ، وقد ذكرنا ذلك في ترجمته ، وأنه قال لأخته يوماً : جوفي وَجِعٌ وخواصري تضرب عليَّ ، فقالت له أخته : لو صنعت لك قليل حسو بكف دقيق ـ يعني : حريرة ـ ليَرُمَّ جوفك ؟ فقال : ويحك! أخاف أن يسألني الله عز وجل عن ذلك ، فيقول لي : مِن أين لك هـٰذا الدقيق ؟ فلا أدري ما أقول له سبحانه وتعالىٰ .

وقد كان حماد بن سلمة رحمه الله يفتح حانوته ، فإذا ربح حبة أو حبتين . . رفع سفطه[2] ، وانصرف ، قال الراوي : أحسب أن ذلك يقوته .

وملخص ما يقال : أن أصل كل خير ـ كما تقدم ـ هو أكل الحلال ، وأن من أكل الحرام . . عصت جوارحه ، شاء أم أبىٰ .

فلما رأى الأئمة كبشر بن الحارث وسري السقطي وغيرهما أنهم لا يصلون إلى الحلال الخالص . . أخذوا من الدنيا قدر ما يسد الرمق وتقوم به البنية لا غير ؛ لأن المأخوذ إن كان

---

(١) منهم : الحارث المحاسبي رحمه الله كما ذكره الإمام القشيري في « الرسالة » (٢٠) قال : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول : كان الحارث المحاسبي إذا مد يده إلىٰ طعام فيه شبهة . . تحرك أعلىٰ أصبعه عرق ، فكان يمتنع منه .

(٢) **السفط** : وعاء يحفظ به المتاع .

حراماً . . ساغ لهم أخذ قدر الضرورة لا غير ، وإن كان فيه شبهة . . فالتبعة فيه أخف ، وإن كان حلالاً . . فالورع والزهد إنما يصح في الحلال ، ولن يصل العبد إلى الحلال حتىٰ يترك بعض الحلال ؛ ليكون بينه وبين الحرام حاجزاً ، ألا ترىٰ إلىٰ قول الإمام سفيان بن عيينة رحمه الله حيث قال : لا يصيب عبد حقيقة التقوىٰ حتىٰ يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال ، وحتىٰ يدع الإثم وما تشابه منه .

وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله : لا تصح التوبة لأهل التوبة حتىٰ يتركوا كثيراً من الحلال الذي أحله الله تعالىٰ لهم ، ويمنعوا نفوسهم مهناها من الحلال ؛ مخافة أن تخرجهم إلىٰ غيره ، والتائب الذي يتوب من عمله في الطاعات في كل ساعة ولمحة وطرفة .

فالعارفون لما فتح الله عز وجل عليهم بخروج الدنيا من قلوبهم وعزوفهم عنها . . أخرج عنهم أيضاً جميع الشهوات ، حتىٰ إن أحدهم يود أن لو كفي مؤونة الطعام .

ولقد هَمَّ أبو يزيد البسطامي رحمه الله أن يسأل الله تعالىٰ كفاية ذلك ، ثم قال في سره : كيف يجوز لي أن أسأل ما لم يسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

وكان أحدهم إذا أكل . . يقول : وددت أن هـٰذه الأكلة تبقىٰ في جوفي كالآجُرَّة[1] في الماء ، وبلغنا أن الآجُرَّة تبقىٰ في الماء ثلاث مئة سنة ، هـٰذا إلىٰ ما ينضم إلىٰ ذلك من الأسرار الشريفة ، والفوائد اللطيفة الحاصلة بالجوع من الحكمة ، والعِبرة ، وتصفية القلب ، وحصول العلم الدقيق ، إلىٰ غير ذلك ، وكيف لا ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه »[2] ؟ .

فالبطنة تُعمي عن الفطنة ، والجوع يورث النور والحكمة والعِبرة وصفاء الباطن كما مر .

لـٰكن هـٰذا يختلف باختلاف المشارب ، فمِن العارفين مَن الجوع يضره ويظهر أثره عليه ، ومنهم من لا يضره ولا يظهر أثره عليه .

كان شعبة رحمه الله يصوم ثلاثة أيام فأكثر ، فلا يُرىٰ عليه أثر ذلك .

وكان سفيان الثوري رحمه الله يصوم ثلاثة أيام فما دونها فيُرىٰ عليه أثر ذلك .

وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله يقول : لأن أترك لقمة من عشائي . . أحب إلي من

---

(١) **الآجُرَّةُ** : واحدة الآجُرّ ، وهو الطوب الذي يبنىٰ به ، فارسي معرب .

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ١٣٥) .

قيام ليلة ، وغيره يقوم إلى الصباح ولا يقدر أن يترك لقمة من عشائه .

وهـٰذا كما قلنا : إن مواهب الله عز وجل لأوليائه لا تنحصر .

وقد قال الإمام أبو بكر الشبلي رحمه الله : ما جعت لله يوماً . . إلا رأيت في باطني من الحكمة والعِبرة ما لم أره قبل ذلك .

وقال بشر رحمه الله : إن الجوع يصفي الفؤاد ، ويورث العلم الدقيق ، وقال : طوبىٰ لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غَيْبٍ لم يره .

ومعلوم أن القلوب المعلقة بالشهوات محجوبة عن الله سبحانه وتعالىٰ ، ويأبى الله سبحانه وتعالىٰ إلا أن يطهر بواطن أوليائه وقلوبهم عن جميع الشهوات ، فمَنْعُ من منع نفسه عن تناول شيء من الشهوات إنما كان لشيء من هـٰذه الأمور :

إما باعتبار الجواز من جهة الحلال وعدم حصوله له .

وإما باعتبار التقوىٰ وشدة الورع اقتداء بالسلف الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين .

أو بالاعتبارين جميعاً .

أو لأنه رأىٰ أن قلبه لا يصلح إلا بترك تلك الشهوة ، وصلاح قلبه عنده وعند كل ذي بصيرة . . متعين ، فهو أهم إليه من تناول تلك الشهوة ، والله عز وجل عند قصد عبده لا عند حاصله .

واستعمال من استعمل بعض الشهوات إنما كان لزوال تلك الأعذار ، بأن وجد الحلال ، ورأىٰ أن قلبه يصلح علىٰ ذلك ، ومع ذلك فإنه لا يسرف فيه ، بل يكون مقتصداً ؛ محافَظة علىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم : « البذاذة من الإيمان »[1] ، مع قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله جميل يحب الجمال »[2] .

ومن استَقْرَأَ صنيع العارفين سلفاً وخلفاً وأحوالهم وأقوالهم . . علم ذلك يقيناً .

ألا ترىٰ أن الحسن البصري ومَن هو علىٰ مشربه من القوة والتمكين ؛ كسفيان الثوري وغيره يأكل كل واحد منهم ما وجد من قليل وكثير ، ولا يرون الامتناع من ذلك ؛ لأن

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥١) ، والبَذاذَةُ : رثاثة الهيئة .

(٢) أخرجه مسلم (٩١) .

مقامهم مقام التمكين ، فلا يؤثر عندهم الإكثار والإقتار ، ولا اليسار والإعسار ، بل محافظتهم إنما هي علىٰ تحصيل الحلال المحض ، وإنه متىٰ حصل لهم . . استعملوه ، وإن تعذر . . صبروا ، ولهم في ذلك مقاصد صالحة غامضة شريفة ، وتعاليل مختلفة .

منهم مَن تعلل بأنه إذا شبع . . تفرغت نفسه لعبادة الله تعالىٰ واطمأنت ، فيقوم إلى الصباح ، كسفيان الثوري ، يقول : أَشْبِعِ الزنجيَّ وكُدَّهُ ، ثم يقوم إلى الصباح .

والحسن البصري رحمه الله كان يرىٰ أن الدسم أتم للعقل ، وأن القلب لا يصلح إلا بذلك ، فيستعمل ثوباً يستر زهده به ، وقوتاً يصلح به قلبه ، ثم يقول لفرقد السبخي : أما علمت أن أصحاب الأكسية من أهل النار ؟! ويشير بذلك إلى الرهبان ، ويقول مرة أخرىٰ : لا رغيفَيْ مالك ، ولا صِحناة[1] فرقد ، إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ .

وكان معروف الكرخي تهدىٰ إليه طيبات الطعام ، فيأكل ، فيقال له : إن أخاك بِشراً لا يأكل من هـٰذا ، فيقول : إن أخي بِشراً قبضه الورع ، وأنا بسطتني المعرفة ، ثم قال : إنما أنا ضيف في دار مولاي سبحانه وتعالىٰ ، إذا أطعمني . . أكلت ، وإذا جوعني . . صبرت ، مالي وللاعتراض والتمييز ؟!

قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : والبصير بأسرار العلم يعلم أن كل ذلك حق ، ولـٰكن بالإضافة إلى اختلاف الأحوال .

وهـٰذا كله بعد محافظتهم علىٰ تحصيل الحلال المحض ورعاية ما فيه صلاح قلوبهم ، وبعضهم كان يشتهي الشيء سنين ، فلا يصل إليه ؛ لعدم حصول الحلال المحض له ، كما قال بشر في شهوة الباذنجان ، لما اشتهاه زماناً طويلاً ، وقيل له في ذلك ، قال : حتىٰ تصفو لي حبة الباذنجان .

وبعضهم كان يجد ما يشتهيه ، فيدافع نفسه عنه زماناً طويلاً ، فإذا غلبته نفسه . . اشترىٰ تلك الشهوة ، وآثر بها ، ولم يذقها ليدخل تحت قوله تعالىٰ : ﴿ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ ، فإذا قيل له في ذلك . . يقول : لو أكلته . . كان في الحش ، وأما الآن : فهو باق عند الله عز وجل .

فعل ذلك غير واحد من العارفين سلفاً وخلفاً ؛ كسيدي وابن سيدي عبد الله بن عمر بن

---

(١) إدام يتخذ من السمك .

الخطاب رضي الله عنهما ، والربيع بن خُثَيم ، ومالك بن دينار ، وداوود الطائي ، وعتبة الغلام ، وسري السقطي ، رضي الله عنهم ، وغيرهم .

ولكل قوم مشرب وقصد صالح جليل جميل بحسَب قُوَّته وتمكنه في مقامه وصبره ، وذلك بحسب ما أفاضه الله تعالىٰ عليه من العرفان ، وقسم له من الأزل .

وقد استوفيت الكلام علىٰ بعض مقامات العارفين رحمهم الله ومشاربهم في ترجمة الإمام أبي حفص النيسابوري رحمه الله .

وملاك ما أقول في ذلك راجع إلىٰ أصلين لا بد من اعتبارهما ، وهما : حصول الحلال ، وصلاح القلب ، فأكل الحلال عنه ينشأ صلاح القلب ، وبصلاح القلب صلاح الجسد كله ، فهو قانون الصلاح والفساد ، ولهـٰذا قال غير واحد من العارفين ـ منهم : الحسن البصري ، وابن سمعون رحمهما الله ـ : كُلُّ ما يَصلُح قلبك عليه . . فاستعمله .

وسئل بشر بن الحارث : بِمَ تلين القلوب ؟ فقال : بأكل الحلال ، فلما بلغ الأئمة ـ كأحمد وغيره ـ مقالته هـٰذه قالوا : جاء بالأصل ، جاء بالأصل ، فاعتبار هـٰذين الأصلين أمر مجمع عليه .

ولتحصيل المال وإمساكه أسباب أخر عندهم كلها راجعة إلىٰ محض التقوىٰ وشدة الورع ، ولهـٰذا قال سفيان الثوري ، وقبله سعيد بن المسيب ، وغيرهما : من كان معه شيء من المعاش . . فليتمسك به ؛ لأنه إن احتاج إلىٰ شيء . . أول ما يبذل فيه دِينه ، فصح في الحقيقة أن ذلك الإمساك إنما كان للتقوىٰ وشدة الورع ؛ لأنه علل أنه عند الحاجة إلىٰ شيء من الدنيا قد يبذل دِينه فكان ذلك الإمساك مانعاً لذلك البذل ، فبقي الدِّين سالماً ولم يُبذل ، وحُفظ علىٰ صاحبه .

وسعيد بن المسيب رحمه الله علل إمساك المال بمعنىً آخر راجع أيضاً إلى التقوىٰ وشدة الورع ، فقال : لولا هـٰذه الدنانير . . لتمندل[1] بنا هـٰؤلاء الملوك .

وعبد الله بن المبارك رحمه الله يبقى الدهر صائماً ، وينفق على الأئمة في كل عام مئة ألف درهم ، ويطعمهم الخبيص والفالوذج وأنواع الأطعمة ، ويقول : لولا هـٰؤلاء الأئمة الذين انقطعوا إلى العلم والعمل . . لما اتَّجرْتُ .

---

(١) تمندل : أراد ابن المسيب ـ رحمه الله ـ أن يكون مستغنياً بدينه ودنياه عن دنيا الملوك وأموالهم ، وإلا . . تسلط الملوك بأموالهم على العلماء .

فقد اتفق الجميع ـ كما رأيت ـ علىٰ أن مراعاة دِينهم أهَمُّ إليهم من كل شيء ، فإن أخذوا . . عرفوا كيف يأخذون ، وإن أمسكوا . . عرفوا كيف يُمسِكون ، وإن امتنعوا . . عرفوا كيف يمتنعون ، وإن أَعْطَوا . . عرفوا كيف يعطون ، كل ذلك فضل من الله ونعمة ، ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ونسأله من فضله العظيم أن يرزقنا ما رزقهم ، إنه قريب مجيب .

وبالجملة : فأعمالهم سديدة ، والوقوف علىٰ أسرار أعمالهم عزيز جداً ، فلا يُظَن أن الوقوف عليها يدرك بالهوينىٰ ، هيهات هيهات! إن ذلك لا مطمع لنا فيه ، وما فهمناه فهو من بركاتهم ، وهو كالقطرة من بحار أقوالهم وأفعالهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وجملة ما أقول ـ مما يشترك فيه الجواب عن المقامين ، وهما : نشر العلم وتعليمه ، والامتناع عن تناول الشهوات ـ : أن الأَولىٰ بالعالِم رفض الدنيا ورفض كل ما يستغنىٰ عنه من المباحات ؛ لئلا يستكثر منها ، فيجره ذلك إلى الحرام ، ولئلا يقتدي به من ليس عالماً ، فيستكثر منها ، ولا يعرف كيفية استعمال العالِم لها .

وهٰذا كالطبيب الحاذق ؛ فإنه قد يستعمل شيئاً لا يضره ؛ لمعرفته بكيفية استعماله ، وفي وقت استعماله وقَدْره ، ويستعمل الجاهل ذلك الشيء بعينه ، فيضره ؛ لعدم معرفته بكيفية استعماله وقَدْره .

علىٰ أن الاستكثار من المباحات يوجب الأنس بها والألفة لها ، ولا تكاد تنال إلا بشبهات ، وعند ذلك قد يورثه ذلك حب البقاء في الدنيا ، ولهٰذا قالت رابعة العدوية رَحِمها الله لبعض العارفين : إذا كنت تشرب الماء المبرَّد وتأكل اللذيذ المطيَّب . . فمتىٰ تحب القدوم على الله عز وجل .

وهٰذا إنما قالته لشدة شوقها إلىٰ لقاء الله عز وجل ، فكلُّ ما يقطع عن ذلك الشوق . . يجتهد العارف في إزالته ، ولأجل هٰذا قلنا : إن مقاصدهم كالبحر ، وهي ـ علىٰ كثرتها ـ غامضة لطيفة ، وتحتها حِكَمٌ شريفة ، وإذا عُلم ذلك كله . . فقد عُلم أن شأن العارفين العزوف عن الدنيا وكل ما يقطع عن الله سبحانه وتعالىٰ بكل طريق .

ومِن هنا تعلم أن المباح لا يذم لعينه مطلقاً ، وإنما بتناول الشهوات والإكثار منها نُحجَب ، فلذلك امتنع عنها العارفون ، والله أعلم . [انتهىٰ « الإحياء » ٣/ ٩٧] .

خاتمة

قال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ في « جواهر القرآن »[1] :

الأصل السابع في طلب الحلال : قال الله تعالىٰ : ﴿ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ ، والحرام خبيث ليس بطيب ، فقد قَرَنَ أكل الطيبات بالعبادات ، والأكل من الدِّين ، قدمه الله على العمل الصالح .

وقال صلى الله عليه وسلم : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة »[2] أي : بعد فريضة الإيمان والصلاة .

وقال الأئمة : من أكل من الحلال أربعين يوماً . . نور الله قلبه ، وأجرىٰ ينابيع الحكمة علىٰ قلبه ولسانه ، وفي رواية : وزهده الله في الدنيا .

وقالوا : إن لله تعالىٰ ملَكاً علىٰ بيت المقدس ، ينادي كل ليلة : من أكل حراماً . . لم يقبلِ الله منه صرفاً ولا عدلاً .

(الصرف) : النافلة ، و(العدل) : الفريضة .

وقالوا : من اشترىٰ ثوباً بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام . . لم يقبل الله عز وجل منه صلاته ما دام عليه منه شيء .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لو صليتم حتىٰ تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتىٰ تكونوا كالأوتار . . ما تُقُبِّلَ منكم إلا بورع حاجز .

وقيل : العبادة مع أكل الحرام . . كالبناء على السِّرجين[3] .

واعلم : أن لِطيب المطعم خاصية عظيمة في تصفية القلب وتنويره ، وتأكيد استعداده لقبول أنوار المعرفة ، وفيه سر لا يحتمل في هـٰذا الكتاب ذِكره .

ولكن ينبغي أن تفهم أن درجات الورع أربع :

---

(١) والمراد هنا هو كتاب « الأربعين في أصول الدين » وهو الجزء الثالث من « جواهر القرآن » ، غير أن المؤلف أوصى بأن يكون مستقلاً برأسه عن « الجواهر » ، وقد صدر كتاب « الأربعين » عن دار المنهاج بعناية الأستاذ بوجمعة مكري .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٧٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٦/ ٤٢٠) .

(٣) السرجين : الزبل .

الأولىٰ : هي التي يصير فاسقاً باقتحامها ، وتزول العدالة بزوالها ؛ يعني : بزوال الدرجة ، وهو[1] الذي تحرِّمه فتوى الفقهاء . انتهىٰ .

الثانية : ورع الصالحين ، وهو الحذر عما يتطرق إليه احتمال التحريم ، وإن أفتى المفتي بحله بناء على الظاهر ، وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دع ما يَريبك إلىٰ ما لا يَريبك »[2] .

الثالثة : ورع المتقين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتىٰ يترك ما لا بأس به ؛ مخافة ما به بأس » .

وقال عمر رضي الله عنه : كنا ندع تسعة أعشار الحلال ؛ مخافة الوقوع في الحرام .

ولهٰذا كان بعضهم إذا استحق مئة درهم . . اقتصر علىٰ تسعة وتسعين ، وترك الواحد حاجزاً بينه وبين النار ؛ لخوف الزيادة .

وكان بعضهم يأخذ ما يأخذ بنقصان حبة ، ويعطي ما يعطي بزيادة حبة ، وسيأتي في ترجمة أحمد ابن أبي الحواري أنه كان لا يأخذ كَسْراً ولا يعطي كَسْراً ، مثاله : إذا كان له درهم ونصف . . أخذ درهماً وترك النصف ، وإذا كان عليه درهم ونصف أعطىٰ درهمين .

وكذلك إن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أمسك أنفه من ريح المسك الذي لبيت المال حين كان يوزن بين يديه ، وقال : هل يُنتفع إلا بريحه ؟!

ومن ذلك : أن يتورع عن الريبة[3] وأكل الشهوات المباحة ؛ خيفة من أن تجمح نفسه ، فتدعوه إلى الشهوات المحظورة .

ومن ذلك : ترك النظر إلىٰ تجمُّل أهل الدنيا ؛ فإنه يحرك دواعي الرغبة في الدنيا ، ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

ولذلك قال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : لا تنظروا إلىٰ أموال أهل الدنيا ؛ فإن بريق أموالهم يَذْهَب بحلاوة إيمانكم .

ولذلك قال السلف رضي الله عنهم : من رق ثوبه . . رق دِينه ، فالحلال المطلق

---

(١) أي : الورع .
(٢) أخرجه أحمد (٣/١٥٣) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٥/ ٣٣٥) .
(٣) في نسخة : (الدَّنِيَّة) .

الطيب . . كل حلال آتيك[1] عن مثل هـٰذه المخافة ، ولم تحذر فيه آفة .

الرابعة : ورع الصديقين ، وهو الحذر عن كلِّ ما لا يراد بتناوله القوة علىٰ طاعة الله عز وجل ، أو كان قد تطرق إلىٰ بعض أسبابها معصية .

فمن ذلك : ما حكي أن ذا النون كان محبوساً جائعاً ، فبعثت إليه امرأة صالحة من طيب مالها طعاماً علىٰ يد السجَّان ، فلم يأكل ، واعتذر بأنه قد جاءني علىٰ يد ظالم ؛ أي : السجَّان .

وطاووس منع بغلته أن تشرب من نهرٍ أَكراهُ السلطان ، وكان لا يشرب في السفر إلا من تلك المياه القديمة الجاهلية .

وكذلك بشر بن الحارث كان لا يشرب من الأنهار التي حفرها الملوك .

وأطفأ بعضهم سراجاً أشعله غلامه من بيت ظالم .

وسفيان الثوري كان إذا رأىٰ نيران صاحب الشرطة . . ذهب في طريق آخر .

ويحيى بن يحيى النيسابوري شرب دواء لضعف ، فلم يجبه ، فأشارت عليه امرأته بالتردد والمشي خطوات في داره ، فقال : هـٰذه مشية لا أعرف لها وجهاً ، وأنا أحاسِب نفسي علىٰ جميع حركاتي .

وفي رواية : لي أربعين سنة لا أمشي إلا فيما أحتسبه .

ثم قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ :

وهـٰذه رتبة قوم أوفوا بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ فرأوا كل ما لم يكن لله عز وجل حراماً ، وليس هـٰذا من عشك[2] وعش صاحبك ، فادرج واجتهد أن تفي بورع العدول الذي يُفتي به الفقهاء ، لـٰكن بشرطين ، وهما : عدم الرُّخَص ، وعدم استعمال الحيل ، وأصله : ألاَّ تستحل مال غيرك إلا برضىً مطلق صاف .

وينبغي ألاَّ تأكل من السؤال ، وإن سألت . . فاحذر أن تسأل على الملأ ، فربما تُعطىٰ على الحياء ، وذلك ليس مقروناً بالرضىٰ ، وإن المعطي بالحياء يتألم بإزالة ملكه عن ماله أكثر ممن يُضرَب ويؤخذ ماله قهراً ؛ إذ لا فرق بين أن يأخذ ماله بضرب ظاهره بالسوط ،

---

(١) في نسخة : (انفك) .

(٢) **العش** : الطلب ، وفي نسخة : (عيشك وعيش صاحبك) .

وبين أن يضرب باطنه بسوط الحياء ، فالكل مصادرة ، واحذر أيضاً أن يعطيك لأجل الدِّين ؛ بأن يعطيك لظنه أنك ورع تقي فتأكل بالدِّين .

ومن شرط حله أيضاً[1] : ألاَّ يكون في باطنك ما لو اطلع عليه المعطي . . لامتنع من العطاء ، فلا فرق بين من يأخذ بالتصوف والتقوىٰ وليس متصفاً به باطناً ، وبين من يزعم أنه عَلَوي وهو كاذب ، فكل ذلك حرام عند ذوي البصائر ، وإن أفتى الفقيه بالحل بناء على الظاهر .

الثاني : أن تراجع قلبك ، وإن أفتوك ؛ فإن الإثم ما حاك في القلوب ، قال صلى الله عليه وسلم : « استفت قلبك ، وإن أفتوك وأفتوك »[2] ، ولهـٰذا سرٌّ يطول ذِكره .

واعلم على الجملة : أن المحذور من الحرام . . إظلام القلب ، والمطلوب من الحلال . . تنويره ، وذلك ينشأ من اعتقادك لا من نفس المعتَقَد ؛ فإن من وطىء امرأة علىٰ ظن أنها أجنبية ، فإذا هي زوجته . . حصل إظلام القلب ، ولو وطىء أجنبية علىٰ ظن أنها زوجته . . لم يحصل ذلك ، وكذلك في النجاسة والطهارة المؤثرة في تنوير القلب ، وهمك واعتقادك ، فإنك ما أُمرت أن تصلي وثوبك طاهر ، بل أمرت أن تصلي وأنت تعتقد أنه طاهر ، فاستشعار الطهارة يؤثر في إشراق القلب وتنويره ، وإن لم يكن علىٰ وفق ذلك الحال .

وكذلك نقول : إن من صلىٰ ثم تذكر أنه كان معه نجاسة . . فليس عليه الإعادة على الأصح ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم خلع نعليه في أثناء صلاته لمَّا أخبره جبريل أن فيهما قذراً ، واستمر في صلاته ، ولذلك يتشدد الأمر على الموسوس ؛ فإنه لا يطمئن قلبه إلا باعتقاد الطهارة ، فيستقصي ويعاود ، أولـٰئك قوم شددوا علىٰ أنفسهم ، فشدد الله عليهم ، وهلكوا باستقصائهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « هلك المتنطعون »[3] ، فكذلك في الحلال ، أنت متعبد بما يطمئن إليه قلبك ، لابما يفتي المفتي[4] ، فاستفت قلبك ، والله أعلم . [انتهىٰ « جواهر القرآن » ٣٩ـ٤٣] .

---

(١) أي : السؤال .

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٤/٢٢٨) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) .

(٤) ومعناه : أن يحتاط المرء لدينه ولو أفتاه المفتي ، وفي نسخة : (إلا ما يفتي المفتي) والمعنىٰ : أنه ليس كل ما يطمئن إليه القلب صواب ، بل الصواب : تتبع الفقهاء ، والله أعلم .

وأما نشر العلم وتعليمه : فهو من أفضل الأعمال إذا صحت فيه النية ، ولهٰذا قال غير واحد من العارفين ـ منهم : سفيان الثوري رحمه الله ـ : لو علمت الذي يَطلب العلم بنية . . لأتيته ولو في بيته ، قيل : يا أبا عبد الله ؛ ما النية ؟ قال : أن يكون لله عز وجل خالصاً .

وأيضاً : فإن العلم من عمل القلب بخلاف غيره من الأعمال ؛ فإنه من عمل الجوارح .

ومعلوم أن ما كان من عمل القلب . . فهو أفضل من عمل الجوارح ، وحينئذ فتعلُّم العلم وتعليمه ونشره إذا صحت النية فيه . . أفضل من جميع النوافل ، وهٰذا يكاد أن يكون مجمَعاً عليه ؛ إذ لا أعلم في ذلك خلافاً .

وقد نص علىٰ ذلك الأئمة المجتهدون أرباب المذاهب المتبوعة رضوان الله عليهم ، وهم : سفيان الثوري ، والشافعي ، ومالك ، وأبو حنيفة ، وأحمد ابن حنبل ، رضوان الله عليهم ، كل واحد منهم قال : إن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة إذا صحت فيه النية ، وهٰذا معروف مشهور[1] .

ومما ينبغي أن يتنبه إليه : أن النية إذا صحت في طلب العلم . . فليست شهوة النفس لنشر العلم وتعليمه مانعة من ذلك ؛ إذ النفس لها دسائس ، وهي أمارة بالسوء ، والشيطان مسلَّط على الإنسان ، فإذا أيس منه من باب المعاصي . . أتاه من باب الخيرات في معرض التلبيس

---

(١) ورأيت في هٰذه المسألة فتوىٰ لصاحب كتاب (فيض الغفار) العلامة الإمام محمد بن أحمد الشنقيطي وهي عبارة عن سؤال من النظم وجوابه كذلك أما السؤال فهو :

يـا خـائضيـن بحـور العلـم مسـألـةً ... عنهـا أجيبـوا بـأفهـام ذكيَّـاتِ
عـن اشتغـال شبـاب العصـر كلِّهـم ... عـن العلـوم بـأورادٍ سنيَّـاتِ
هـل هـٰذه نعمـةٌ فـي الـديـن نحمـدهـا ... أم هـي فـي ديننـا إحـدى المصيبـاتِ

وأما الجواب فهو :

هـٰـذا وأوراد أهـل الـديـن قـاطبـةً ... لنعمـةٌ والعلـومُ نعمـةٌ تـاتـي
ليسـا بـأختيـن كـان الجمـع قـد حـرمـا ... إن اجتمـاعهمـا أسنـى العطيـاتِ
لكنهـم فـرَّقـوا فـي البـدء بينهمـا ... فـي ثـالـثٍ بعـد بعـثٍ واختـلافـات
فـالبـدء بـالعلـمِ لِلَّـذْ نفسـه طَهُـرتْ ... أولـىٰ وذاك كـأدراع حصينـاتِ
ومـن تكـن نفسـه بـالانهمـاك عصـت ... فـالبـدء أولـىٰ بـأوْرادٍ سنيَّـاتِ
وبعـد ذا فـالـرجـوع الحـق مكـرمـةٌ ... للعلـم إذ علمنـا أسنـى العطيَّـات

وهٰذه المسألة فيها اختلاف كثير كما تقدم ومال كثيرون إلىٰ قول الإمام الزهري : وخلاصته أن تعلّم العلم أولىٰ للجاهل والعمل به أولىٰ للعالم اهـ وانظر « أدب الدنيا والدين » للماوردي .

والنصيحة له ، فيقول له : امنع نفسك عن هٰذا الأمر ؛ لأنك تشتهيه ، وهٰذا ـ كما قلنا ـ بمجرده تعليل عليل ؛ لأن فرح النفس بالإمرة أمر جِبِلِّي لا يمكن دفعه ، فالإمرة فضيلة ، وكذلك الإمامة في العلم ، وميل النفس إلىٰ هٰذه الأشياء معين علىٰ تحصيلها ، لا سيما في الابتداء ؛ إذ لولا ذلك . . لما حصلت ، ولا يمكن محو أثر هٰذه الأشياء من النفس ، فإن من تخيل أنه يمكن أن يجامع ولا يلتذ أو يُحدِّث ولا يفرح بالرئاسة . . فقد تخيل الممتنع ، وليس في وجود ذلك ما يضر بالدِّين أصلاً ، وإنما الذي ينبغي أن تكون المجاهدة فيه ـ كما تقدم ـ قَصْدَ دفع الرئاسة ؛ كالعُجب والكبر وغيرهما من الآفات المانعة السالف ذِكرها .

وأما أن العلم يترك تعليمه ونشره لمجرد شهوة النفس . . فلا ، فاعتمد ذلك واعرفه .

واعلم : أن جميع ما يشكل ظاهره عليك من قول أو فعل صدر عنهم . . فابحث عن صحته أولاً ، فإذا صح . . فاعلم يقيناً من حيث الجملة : أن ذلك إنما صدر عن محض التقوىٰ وشدة الورع ثانياً ، فإن هٰؤلاء أئمة مجمَع علىٰ ولايتهم ، فدقائق العلوم والورع يستنبطها العارف من أقوالهم وأفعالهم ، لٰكن إنما يقع له ذلك الاستنباط ومعرفة تلك الدقائق بعد الجهد الشديد والغوص التام ، وبعد أن يكون ممن أيده الله تعالىٰ بتوفيق إلٰهي ومع ذلك فلا يُدرك جميع ما أرادوه من فعل أو قول ؛ لما قلناه من غموض أفعالهم وأقوالهم ودقتها .

ألا ترىٰ أن بشر بن الحارث لما زاره فتح الموصلي . . قام له ، وقام ابن أخت بشر فأمسكه بشر بيده ، ومنعه من إتمام القيام له ، فلما انصرف فتح . . قال بشر لابن أخته : تدري لِمَ منعتك من القيام له ؟ قال : لا ، قال : لأنه لم يكن بينك وبينه معرفة ، فكان قيامك له لقيامي ، فأردت أن يكون قيامك لله عز وجل خالصاً .

وكذلك سفيان الثوري رحمه الله لبس ثوبه مقلوباً ، فلما قيل له في ذلك . . مد يده ليصلحه ، ثم أمسك ، وقال : إني لبسته لله ، فلا أصلحه لغير الله ؛ يعني : للزينة .

وسهل التستري رحمه الله جاءه شخص في عشية عرفة وهو يحرث أرضاً له ، فسارَّه بشيء ، فقال : لا ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنه عرض عليَّ الحج في هٰذا العام ، فقلت : لا أفعل ، فقيل له : ما منعك ؟ قال : إني نويت أن أزرع هٰذه الأرض لله عز وجل ، فأخاف إن حججت معه لأجله . . أن يكون عملي لغير الله خالصاً ، فمقامي علىٰ هٰذه النية أفضل من كذا وكذا حجة .

وأبو القاسم الجنيد رحمه الله ورد عليه في وقت السماع وارد ، فغيَّبه ، فسقط طرف

ردائه ، فوطئه ، ثم مد يده ، فرفعه ، فقيل له في ذلك ، فقال : غبت ، ثم حضرت ، فاستحييت من الله تعالىٰ أن أدَّعي الغَيبة في حال الحضور .

ومِثل هـٰذا كثير يدق نظر العارف عنه ، ولولا تصريح الأئمة بمرادهم في ذلك. . لما عرف .

ألا ترىٰ أن بشر بن الحارث قال : ما سألت أحداً شيئاً إلا سرياً السقطي ، وعلل ذلك بأنه قد صح عندي زهده ، فهو يحب إخراج ما عنده ، ويتبرم ببقائه عنده ، فأحب أن أكون عوناً له علىٰ ما يحب ، إلىٰ غير ذلك مما يطول تتبعه من أفعالهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

هـٰذا ما ينبغي أن تعتمده أولاً وثانياً .

وأما ثالثاً : فاسأل العلماء العاملين ، واعتمد خمسة أصول ، وهي : الحلال ، والإخلاص ، والنية ، والصدق ، وما فيه صلاح القلوب ؛ فإن أعمالهم راجعة إليها ، ومِن هنا يُعلَم عذرُ من امتنع عن نشر العلم وتعليمه ، وحُسْنُ قصد من فعل ذلك .

وكيف لا ؟! ودرجة العالم العامل لا درجة فوقها إلا النبوة ، لا سيما إذا عمل به ونشره ، وقصد بذلك وجه الله تعالىٰ ، ودعه يفرح ألف ألف فرح إذا كان الأمر علىٰ ما ذكرناه ؛ فإن ذلك الفرح لا يضره في دِينه أصلاً ؛ لأنه علىٰ هـٰذا الوجه ليس بمذموم ، بل قد صرح غير واحد من الأئمة المتقدمين والمتأخرين بكون ذلك الفرح مطلوباً ، وأنه إحدىٰ شعب الإيمان ، هـٰذا مما لا يُتمارىٰ فيه .

ألا ترىٰ إلىٰ أئمة الدين من الصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم ، ومَن بعدهم من سائر فقهاء الأمصار رضوان الله عليهم أجمعين ، هل فيهم من امتنع عن نشر العلم وتعليمه لأجل هـٰذا الخاطر ؟

فقد كان الإمام مالك وغيره من الأئمة قبله وبعده يجلسون للحديث ، ولا يلتفت أحد منهم إلىٰ ما يقال : إنَّ (حدثنا) باب من أبواب الدنيا ، ولو اعتبروا ذلك. . لاندرس العلم وانطوىٰ ، وبقي الناس في عماءٍ يتهالكون ، ونحن لا ننكر أن للنفس دسيسة في نشر العلم ، ولـٰكن هو كما قلنا : ينبغي أن يجاهد نفسه ، ويدفع عنها الأسباب المؤدية إلى العجب والمماراة ، وغير ذلك كما تقدم .

ومن الدليل علىٰ كون هـٰذا الفرح مطلوباً للشارع ، وأنه إحدىٰ شعب الإيمان : ما رواه غير واحد من الأئمة الحفاظ ، ومنهم : البخاري ومسلم ، وغيرهما ، أما البخاري : فقد

روينا عنه [٩] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الإيمان بضع وسبعون شعبة . . . » الحديث .

وإن إحدىٰ شعب الإيمان سرور المؤمن بالحسنة واغتمامه بالسيئة

وبوَّبوا علىٰ ذلك باباً ، وممن بوَّب لذلك : الحافظ أبو عبد الله الحليمي أحد أئمة أصحابنا[١] ، وشيخنا شيخ الإسلام قاضي القضاة علاء الدين القونوي قدس الله روحه ؛ فقال في كتاب « مختصر شعب الإيمان » للحليمي قدس الله روحه : الباب السادس والأربعون في السرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة .

فجعلها الشعبة السادسة والأربعين ، وقد صرح بهـٰذا جماعات من الأئمة المتقدمين والمتأخرين .

ثم روىٰ بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سرته حسنته وساءته سيئته . . فهو مؤمن »[٢] .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم ؛ اجعلني من الذين إذا أحسنوا . . استبشروا ، وإذا أساؤوا . . استغفروا »[٣] أي : مَن عمل حسنة فسره أن وفقه الله سبحانه وتعالىٰ لها فجلس كما يجلس المهنأ مسروراً بما يرجوه من فضل الله تعالىٰ ورحمته ، ومن عمل سيئة فساءه أن خلاه الله سبحانه وتعالىٰ ونفسه حتىٰ عمل ما سول له الشيطان فجلس كما يجلس المصاب مهموماً بما يخافه من عقوبة الله تعالىٰ . . فذاك دليل علىٰ صدق إيمانهِ ؛ فإن الثقة بالوعد والوعيد لا تكون إلا من قوة التصديق بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء هـٰذا المعنىٰ عنه صلى الله عليه وسلم بلفظ آخر موجز ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن إذا عمل حسنة . . رجا ثوابها ، وإن عمل سيئة . . خاف عقابها » .

وأما من سرته حسنته من حيث يُثنىٰ عليه بها وتذكر عنه . . فقد جاء فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ إني أعمل العمل أُسِرُّه لله ، فإذا اُطُّلِع عليه . . سرني ، فقال : « لك أجران : أجر السر ، وأجر العلانية »[٤] .

---

(١) في « شعب الإيمان » ٣/١١٧ .

(٢) أخرجه الحاكم (١/٥٩) .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٨٢٠) .

(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥/٣٧٦) .

وفي حديث آخر : قيل له صلى الله عليه وسلم : إن أحدنا يعمل العمل ، فإذا اطُّلِع عليه . . سره ، فقال : « ذاك عاجل بشرى المؤمن »[١] .

وقد روي عن الإمام الحافظ عبد الرحمـٰن بن مهدي ـ قدس الله روحه ـ أحدِ الأحدين[٢] ، أنه قال : معناه : إذا اطلع عليه . . سره ؛ ليُقتدىٰ ويُعمل مثل عمله ، لا لأنه يُزكَّىٰ ويُثنىٰ عليه ، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة حسنة . . فله أجرُها وأجر من عمل بها »[٣] ، كما روي : أن رجلاً قام من الليل يصلي ، فرآه جار له ، فقام يصلي ، فغفر للأول ؛ يعني : لاقتداء الثاني به ، وهـٰذا محتمَل ، ويُحتَمل أيضاً : أنه إذا عمل خيراً . . سره أن يُذكَر به ، فيكون محموداً في الناس لا مذموماً ، ولا حمدَ أبلغ من أن يقال : إنه قوَّام بحق ربه عز وجل ، فإن مدحوه . . مدحوه بعبادته لله تعالىٰ لا بغير ذلك مما يمدح به أبناء الدنيا ، فليس ذلك برياء ، يدل عليه : أن الله سبحانه وتعالىٰ ذم قوماً يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فدل ذلك علىٰ أن من أحب أن يمدح بما فعل . . لا ذمَّ عليه ، وكيف يُذَم من أراد أن يكون نسبته إلى الله تعالىٰ لا إلىٰ غيره لَمَّا جعل همه مقصوراً علىٰ عبادته عز وجل دون غيرها .

فإن قلت : قد جاء في الحديث ما يقتضي كراهة أن يُزكَّى الرجل في وجهه ؛ روي أنه صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يثني علىٰ آخر فقال : « قطعت ظهره ، لو سمعها . . ما أفلح »[٤] .

قلت : اعلم : أن هـٰذا فيمن يورثه الثناء عجباً وبذخاً واستهانة بغيره ، وهـٰذا غير ما نحن فيه من سرور الرجل بما يسمع من إضافته إلى الله تعالىٰ ، وبأن الله سبحانه وتعالىٰ قد أنزله منزل الكرامة من نفسه ، وجمع له بين الحسنيين بتوفيقه لعبادته ، وجعله ممن إذا مُدح . . مُدح بنسبته إلىٰ ما يرجعه إليه من عبادته ، ولم يجعله يُمدح بما يُمدح به أبناء الدنيا ، وبين هـٰذا وبين ما تقدم فرق عظيم بعيد ، ولولا أن الأمر كذا . . لما كان ذلك عاجل بشرى المؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ ما لخصه شيخنا شيخ الإسلام قاضي القضاة علاء الدين القونوي قدس الله روحه في كتابه « مختصر شعب الإيمان » للحليمي رحمهما الله تعالىٰ .

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٢٦٤٢) .
(٢) أي : ليس له نظير .
(٣) أخرجه مسلم (١٠١٧) .
(٤) أخرجه بنحوه أحمد (٥/٤٦) .

واعلم : أنه لا حسنة أعظم من نشر العلم وتعلمه وتعليمه وتدوينه ؛ فإنه مما يدوم نفعه ، ويبقىٰ علىٰ ممر السنين ، ويتعدىٰ إلىٰ خلائق ، فلا شيء يعدل ذلك إذا صحت النية فيه كما تقدم .

وظهر أيضاً بأن السرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة. . إحدىٰ خصال الإيمان بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما ما يروىٰ عن الإمام سفيان الثوري رحمه الله وأحمد ابن أبي الحواري من غسل كتبهم أو دفنها . . فأقول :

أولاً : أما سفيان : فإنه لا يصح ذلك عنه بطريق صحيح معتبر ، وقد تتبعت سيرته أشد التتبع ، فلم أجد في ذلك طريقاً صحيحاً أنه فعل ذلك .

وأَمَّا علىٰ تقدير الصحة . . فله أعذار ، منها : أنه حدث عن قوم ضعفاء ومدلسين ، ولم يتبين له أمرهم إلا بعد ذلك ، فاختلط بعض حديثه بشيء من ذلك ، فدفن تلك الكتب المختلطة كلها لا غير ، وهـٰذا عذر مسوِّغ ، بل يجب عليه ذلك ، وهو ـ رحمه الله ـ كان بالمحل العالي من العلم والورع ، عارفاً بما يأتي وبما يذر ، وناهيك به جلالة وعلماً وورعاً واضطلاعاً[1] ؛ فإنه عالم الأمة وعابدها ، وسنذكر في ترجمة أحمد ابن أبي الحواري إن شاء الله تعالى الجواب عن غسل كتبه في الفرات ، ونستدل لما فعله بأدلة كثيرة ، ويتبعها أيضاً أدلة لما فعله سفيان بتقدير صحة النقل عنه ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . انتهىٰ .

وعن المازني رحمه الله قال : فقدت بشر بن الحارث ، فسألت عنه ، فقيل : إنه عليل ، فدخلت عليه ، فوجدت عنده جماعة وهو في حالة شديدة من الفاقة ، فقلت له : يا أبا نصر ؛ أنت لا تسأل الناس من دنياهم ، وإن أعطوك. . لم تأخذ منهم ، فهمَّ بي أصحابه يزجروني ، فكفهم عني وقال : يا هـٰذا ؛ الفقراء ثلاثة :

ـ فقير لا يسأل الناس شيئاً من دنياهم ، وإن أعطي. . لم يأخذ ، فذاك في حضرة القدس يوم القيامة .

ـ وفقير لا يسأل ، وإن أعطي. . يأخذ ، فذاك تحت ظل عرش الرحمـٰن جل جلاله يوم لا ظل إلا ظله .

---

(١) **اضطلع** : من الضلاعة ، وهي القوة .

ـ وفقير يسأل عند الفاقة ، فإن أعطي . . أخذ قدر الكفاية ، وكفارة مسألته صدقه .

قال المازني رحمه الله : فالتفت إلىٰ أصحابه وقلت لهم : لو لم أمخض هـٰذا السقاء . . لم يخرج هـٰذا الزُّبد .

ويروىٰ : أنه كان من دعائه في كل يوم : اللهم ؛ لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، اللهم ؛ لك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ، اللهم ؛ لك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن ، لك الحمد أنت الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنشور[1] حق .

ثم يقول : يا حي ، يا قيوم ، يا بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ؛ لا إلـٰه إلا أنت ، برحمتك أستغيث ، ثم يقرأ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[2] ثم يقول : وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت به ملائكته وأولو العلم من عباده ، وأستودع الله هـٰذه الشهادة عنده حتىٰ ألقاه غير مبدِّل تبديلاً ، اللهم ؛ إني أستودعك هـٰذه الشهادة ، اللهم ؛ فتوفني عليها ، واحفظها لي عندك يا أرحم الراحمين ، ثم يقول : قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ؛ مئة إلا واحداً ، مَن أحصاها . . دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر ، هو الله الذي لا إلـٰه إلا هو ، الرحمـٰن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الصمد ، القادر ،

---

(١) في بعض النسخ : (والنبيون حق) .

(٢) والآية هي : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور ، الذي ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، نِعم المولىٰ ونِعم النصير »[1] .

ثم يقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا نبي الله ، السلام عليك يا حبيب الله ، السلام عليك يا خليل الله ، السلام عليك يا خير خلق الله ، السلام عليك يا سيد المرسلين ، وخاتِمَ النبيين ، وإمام المتقين ، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين ، السلام عليك وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين ، السلام عليك وعلىٰ آلك وأصحابك وأزواجك أجمعين ، جزاك الله يا رسول الله عنا أفضل ما جزىٰ نبياً ورسولاً عن أمته ، وصلى الله عليك كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون ، أفضل وأكمل ما صُلِّي علىٰ أحد من الخلق أجمعين .

أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أنك عبده ورسوله وخيرته من خلقه وعباده ، وأشهد أنك قد بلَّغت الرسالة ، وأدَّيت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وجاهدت في الله حق جهاده ، وعبدت ربك حتىٰ أتاك اليقين .

اللهم ؛ آته الوسيلة والفضيلة ، والدرجة العالية الرفيعة ، اللهم ؛ وابعثه المقام المحمود الذي وعدته ، وآته نهايةَ ما ينبغي أن يسأله السائلون يا أرحم الراحمين .

والله سبحانه أعلم . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال الفتح بن شخرف : قال لي بشر : يا فتح[2] ؛ إن قوماً غرهم ستر الله عز وجل ، وفتنهم حسن ثناء الناس عليهم ، فلا يغلبن جهل غيرك بك[3] عن علمك بنفسك ، أعاذنا الله وإياك من الاغترار بالستر ، والاتكال علىٰ حسن الذِّكر .

وقال داوود بن رشيد رحمه الله : قلت لبشر : أيش خبرك يا أبا نصر ؟ وأيش خبر

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٥٨٥) ، ومسلم (٢٦٧٧) ، وأخرج الحديث وذكر الأسماء ابن حبان في « الإحسان » (٨٠٨) ، وقد وقع بعض الخلاف في ذكر الأسماء ، انظر « فتح الباري » (١١/ ٢١٦) .

(٢) في النسخ : (يا أحمد) ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) في نسخة : (فلا يغرنك جهل غيرك بنفسه عن علمك بنفسك) .

أهلك ؟ فقال : أما خبري . . فهـٰذا الليل والنهار ينهبان عمري ، وأما خبر أهلي . . فالماضي منهم لا يرجع إلى الدنيا ، والباقي لاحق بهم ، قال : فقلت له : عظني ، فقال : يا هـٰذا ؛ إن الليل والنهار حثيثان يعملان فيك ، فاعمل فيهما .

وسأل رجل بشر بن الحارث عن التوكل ، فقال : إن المتوكل لن يتوكل على الله عز وجل ليُكفىٰ ، ولو حلَّت هـٰذه الصفة لقلوب المتوكلين . . لضجوا إلى الله سبحانه وتعالىٰ بالندم والتوبة منها ، ولـٰكن المتوكل تحل بقلبه الكفاية من الله عز وجل ، فيصدِّق اللهَ فيما ضمن .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : أفضل ما يُتَعبَّد به إلى الله عز وجل سكون القلب إلىٰ روح ترك الرزق ، وأفضل أعمال البر الصبر على الفقر .

وحكي في « **بهجة الأسرار** » **أيضاً** : عن خيرٍ النساج ، عن أبي العباس المؤدِّب[1] رحمهما الله قال : ضقت يوماً ، وركبني هَمٌّ في أمر العيال ، فقمت أنقض ما أنا فيه ، فلم أقدر علىٰ ذلك من ثقله ، فوقع في نفسي بشر بن الحارث ، فتوضأت وصليت ركعتين ومضيت نحو بشر ؛ فإذا هو نحو الباب ينتظرني ، فلما قربت منه . . قام إلي ومَدَّ يده وقال : يعين الله ما أنت فيه ، أَفْكَرْتُ في الخلق فأثقلني ذلك ، والتجأت إلى الله عز وجل ، فنسيتُ ذلك كلَّه ، وبقيتَ أنت علىٰ قلبي ، فنفيتك ، فلم تنتف ، فعلمت أن الهم بك وقع لي ، وسنجتمع بالأجساد كما اجتمعنا بالقلوب إن شاء الله عز وجل ، وقد خرجت إليك ثلاث مرات ، وهـٰذه الرابعة ، ولولا مجيئك . . لأتيتك ، فأيش تجد ؟ وما حالك ؟ وما طَرَقك ؟ وفي أي شيء كنت في يومك وليلتك ؟ فقلت : يا أبا نصر ؛ قد تقدمت إليك بذلك ، ولو تكلمتُ . . لما تكلمتُ إلاَّ بما قد قلتَ ، فقال لي عن حالٍ ، فأخبرته ، فقال لي : سألتك بالله ، إن أبديت هـٰذا الحديث . . فوالله إن شاء الله ؛ لأسألنك في الجنة عن حديث قبل هـٰذا ، وعليك بالسكون تحت أثقال أحكامه سبحانه وتعالىٰ ، واعلم : أن مَن قبلك حمل أثقل منك بأضعاف هـٰذا ، ولو عُرض بلاؤك علىٰ بلاء مَن قبلك . . لكان نعيماً في ذلك ، فاحمَدِ الله عز وجل ، وعليك بتقوى الله سبحانه وتعالىٰ ، فكأنك بالروح[2] قد أسفر[3] ، وكأنك في الجنة برحمة الله عز وجل إن شاء الله تعالىٰ . انتهىٰ .

---

(١) في نسخة : (عن أبي العباس ابن المؤذن) .
(٢) **الرَّوح** : الرزق .
(٣) **أسفر** : أشرق وسطع .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال بشر الحافي رحمه الله : حقيقة المحبة : ترك مخالفة المحبوب بكل حال ، والتسليم إليه في الحال والمآل .

وروىٰ عبد الصمد قال : جمعتني وبشر الحافي طريق العمرة ، ومعنا شاب تائب ، سريع الدمعة ، قليل الكلام ، كثير التفكر ، فقلت له : هـٰذا بشر الحافي ، فتبرَّكْ به ، فقال : يا أبا نصر ؛ ما جزاء من خالف محبوبه ؟ فقال : يقتل بسيف العتاب ، ثم يحرق بنار المحبة ، ثم يُذَرُّ في هواء الذل ، فإن شاء . . جمعه ، وإن شاء . . تركه ، قال : فشهق الشاب لما سمع ذلك ، ووقع ، ولم يزل يئن ويرتعد إلىٰ أن مات ، فندمت علىٰ ذلك ، وواريناه في مكانه في ثوبَي إحرامه .

وقال أيضاً : المحبة ذل في عز المحبوب ، ومشاهدة للحتف المجلوب مع امتناع المطلوب .

وقال بشر : لقيت علياً الجرجاني علىٰ عين ماء ، فلما نظر إليَّ . . عدا وقال : القرب من الأغيار بُعْدٌ من الحبيب ، والأنس بهم وحشة منه ، وأنشد :

يا واديَ القصرِ نعم القصرُ والوادي ... من منزل حاضر إن شئت أو بادي
تـروا قـراقيـره[1] والعيـس واقفـة ... والبيت والنوق والمَلَّاح والحادي

قال بشر : فعدوت خلفه وقلت له : أوصني ، فقال : عانق الفقر ، وتوسد الصبر ، وعادِ الهوىٰ ، وخالف الشهوات ، وضيِّق الدنيا عليك كحلقة خاتم ، واجعل بيتك أخلىٰ من لحدك يوم تنقل إليه ، فعلىٰ هـٰذا طاب المسير إلى الله تعالىٰ ، ثم أنشأ يقول :

كـأن فـؤاديْ فـي مخـاليـب طـائـرٍ ... إذا ذُكِـرت ليلـىٰ يشـد بهـا قبضـا
كَـأَنَّ فجـاجَ الأرض حلقـةُ خـاتَـمٍ ... عليَّ فما تزداد طولاً ولا عرضا

وقال في « كتاب التوابين » : حكي أن بشراً كان في زمن لهوه في داره وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون[2] ، فاجتاز بهم رجل من الصالحين ، فدق الباب ، فخرجت إليه جارية ، فقال : صاحب هـٰذه الدار حر ، أو عبد ؟ فقالت : حاشا أن يكون عبداً ، بل هو حر ، فقال : صدقتِ ، لو كان عبداً . . لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو والطرب ، فسمع بشر

---

(١) **القراقير** : السفن الكبيرة .

(٢) **يطيبون** : يتمازحون .

محاورتهما ، فسارع إلى الباب حافياً حاسراً ، وقد ولى الرجل ، فقال للجارية : ويحك! مَن كلمك على الباب ؟ فأخبرته بما جرىٰ ، فقال : أي ناحية أخذ الرجل ؟ فقالت : كذا ، فتبعه بشر حتىٰ لحقه ، فقال له : يا سيدي ؛ أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية ؟ قال : نعم ، قال : أعد عليَّ الكلام ، فأعاده عليه ، فمرَّغ بشر خديه على الأرض ، وقال : بل عبد ، عبد ، عبد ، ثم هام علىٰ وجهه حافياً حاسراً حتىٰ عُرف بالحفاء ، فقيل له : لم لا تلبس نعلاً ؟ فقال : لأني ما صالحني مولاي جل جلاله إلا وأنا حافٍ ، فلا أزول عن هـٰذه الحالة حتى الممات .

وقال بشر رحمه الله : اعترضتُ عكبر الكردي ، فقلت له : أيش كان أصل رجوعك إلى الله عز وجل ؟ فقال : كنت في البرية أقطع الطريق ، فرأيت ثلاث نخلات ، نخلة منهن لا تحمل ، وإذا بعصفور يأخذ من حمل النخلة التي تحمل رطبة ، فيدعها في التي لا تحمل ، فلم أزل أعد عليه عشر مرات ، فخطر بقلبي : قم وانظر ، فقمت ، وإذا في رأس النخلة حية عمياء ، وهو يضع الرطبات في فيها ، فبكيت ، وقلت : سيدي ومولاي ؛ عز جارك ، وجل ثناؤك ، هـٰذه حية قد أمر رسولك صلى الله عليه وسلم بقتلها ، أعميتَها وأقمتَ لها عصفوراً يقوم لها بالكفاية ، وأنا عبدك أقرُّ بأنك واحدٌ أحدٌ ، أقمتني لقطع الطريق وإخافة السبيل ، فوقع في قلبي : يا عكبر ؛ بابي مفتوح ، فكسرت سيفي ، ووضعت التراب علىٰ رأسي ، وصِحْتُ : الإقالةَ ؛ الإقالةَ ؛ فإذا بهاتف يقول : قد أقلناك ، فانتبه رفقائي ، فقالوا : ما لك أزعجتنا ؟ فقلت : قد كنت مهجوراً ، وقد صولحت ، فقالوا : ونحن أيضاً قد كنا مهجورين وقد صولحنا ، فرمينا ثيابنا ، وأحرمنا كلنا ، فما زلنا كذلك ثلاثة أيام نصيح ونبكي ، ونحن سكارىٰ حيارىٰ ، فوردنا في اليوم الثالث علىٰ قرية ؛ وإذا بامرأة عمياء جالسة علىٰ باب القرية ، فقالت : أيكم عكبر الكردي ؟ فقال أحدنا : ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، لي ثلاث ليال أرى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، وهو يقول : « أعط عكبر الكردي ما خلفه ولدك » ، فأخرجت لنا ستين شُقَّة ، فاتزرنا ببعضها ، ودخلنا البادية إلىٰ أن أتينا البيت الحرام . انتهىٰ [« التوابين » ٢١١ و٢٢٢ـ٢٢٣] .

وقال في « **بهجة الأسرار** » : قيل لأحمد ابن حنبل : مات بشر ، فقال : مات رحمه الله وما له نظير ، وكان بشر من أولاد الرؤساء والكتبة .

وسئل الدارقطني عنه ، فقال : زاهد ، ثقة ، ليس يروي إلا حديثاً صحيحاً ، وقد روىٰ له أبو داوود في كتاب « المسائل » ، والنسائي في « مسند علي رضي الله عنه » .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : قال بشر بن الحارث : عِز المؤمن . . استغناؤه عن الناس ، وشرفه . . قيامه بالليل .

وقال بشر : ما أنا بشيء من عملي أوثق مني بحب أصحاب سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل لبشر رحمه الله وكان في الشمس : لو استظليت عن هـٰذه الشمس بفيء هـٰذه الدار ـ دار ربيعة ، رجل من أعوان السلطان ـ فقال : هـٰذا فيء سوء ، أو فيء رديء . أو كما قال .

وقال بشر : الصدقة أفضل من الحج والعمرة والجهاد ، ثم قال : ذاك يركب ويرجع ويراه الناس ، وهـٰذا يعطي سراً لا يراه إلا الله عز وجل .

وقال رجل لبشرٍ : عظني ، فقال : انظر خبزك من أين هو ، ولا تعرض لحمك[١] للنار .

وقال محمد بن غزوان : قال لي بشر بن الحارث : عليكم بالرفق والاقتصاد في النفقة ، فلأَن تبيتوا جياعاً ولكم مال . . أحب إلي من أن تبيتوا شباعاً وليس لكم مال ، وكان ذلك القول في سنة خمس وعشرين ومئتين .

وقال محمد بن غزوان : بَكَّرت أنا وأخي في غداة باردة إلىٰ بشر ، فألفيناه علىٰ بابه ومعه خليل الخياط ، فسلمنا عليه ، ثم قام يمشي أمامنا ، وعليه فرو خَلَقٌ ، وفي رجليه خف قصير فوق عقبه ، وعليه إزار لطيف ، فكان كلما مرَّ بواحد أو أكثر . . رفع صوته بالسلام عليه ، فلما خرج إلى السوق . . وقف علىٰ رجل دقاق ، فسأله عن سعر الدقيق بالأمس ، فقال : ناقص ، فأبشر يا أبا نصر[٢] .

قال : وآخر ما سمعت من كلام بشر ، وكان قد أرجف الناس بموته بباب الطاق في يوم مطير ، فجئت في المطر والطين حتىٰ بلغت بابه ، وإذا علىٰ بابه ؛ نحو من ثلاث مئة فتىٰ وشيخ ، منهم من يقول : يا أبا نصر ؛ إنما جئناك نعودك ، فقال لهم بشر وهو يبكي : لا حاجة لي في عيادتكم ، اذهبوا عني ، فقد آذيتموني ، وهو يبكي ، ثم قال : قال الفضيل : أشتهي إذا مرضت ألاَّ أعاد .

---

(١) في نسخة : (ولا تتعرَّض لحمٍّ النار) .

(٢) في هـٰذا إشارة إلىٰ أن السعر اليوم أرخص عنه بالأمس ، والصالحين من اهتمامهم بأمور المسلمين يسألون الله للمسلمين أن يرخصَ أسعارهم ، وأن يغزر أمطارهم ، فلهـٰذا استبشر بشر بن الحارث ، والله أعلم .

وقال بشر : من أكل كل شيء . . ذهب دِينه .

وقال بشر : أتىٰ جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يا محمد ؛ سل ربك سبحانه وتعالىٰ تهنئة العيش ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ إني أسألك تهنئة العيش » .

وكان قد ذُكر العلم وفضيلة طلبه عند بشر ، فقال : إذا لم تعمل به . . فتركه أفضل ، والعلم هو العمل ، فإذا أطعت الله سبحانه وتعالىٰ . . علَّمك ، وإذا عصيته . . لم يُعلِّمك ، والعلم أداة الأنبياء صلوات الله تعالىٰ عليهم وسلامه إلىٰ أممهم فتمسكوا به وحَفِظوه وعملوا به ، ثم أدوه إلىٰ قوم ، فعملوا به . . . وهـٰكذا حتىٰ صار العلم اليوم إلىٰ قوم يأكلون به ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقال بشر : لا تطلب علماً تهينه للناس ، هـٰذا هو الداء الأكبر .

قال بشر : قال الفضيل بن عياض : لا تكمل مروءة الرجل حتىٰ يسلم منه عدوه ، كيف والآن لا يسلم منه صديقه ؟!

وقال بشر : الصبر هو الصمت ، والصمت من الصبر ، ولا يكون المتكلم أورع من الصامت ، إلا رجل عالم يتكلم في موضعه ، ويسكت في موضعه .

وقال بشر : حب لقاء الناس . . حب الدنيا ، وترك لقاء الناس . . ترك الدنيا .

وقال بشر : لا يجد رجل حلاوة العبادة وهو يحب أن يعرفه الناس .

وقال بشر : سكون النفس إلىٰ قَبول المدح لها . . أشد عليها من المعاصي .

وقال : إذا قلَّ عمل العبد . . ابتلي بالهمِّ .

وقال بشر : من حُرِم معرفة الله عز وجل . . لم يجد للطاعة حلاوة ، ومن لا يعرف ثواب الأعمال . . ثقلت عليه في جميع الأحوال ، ومن زهد في الدنيا علىٰ حقيقة . . كانت مؤونته خفيفة ، ومن وُهِب له الرضا . . فقد بلغ أفضل الدرجات ، والمؤمن إذا عاش . . عاش حزيناً ، ولن يرِدَ القيامةَ أفضلُ من الراضين عن الله عز وجل .

وقال بشر : النظر إلىٰ من تكره حمّىٰ باطنة .

وقال بشر : ما أعلم أحداً من الناس إلا مبتلىً ، رجل بسط الله سبحانه وتعالىٰ له في رزقه . . فلينظر كيف شكرُه ، ورجل قبض الله عز وجل عنه رزقه . . فلينظر كيف صبره .

وقال بشر : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : يا رب ؛ إني جائع ، وأنت أعلم ، فأطعمني ، فقال عز وجل له : (حتىٰ أشاء) .

وسأل المازني بشر بن الحارث عن التوكل ، فقال بشر : اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب ، فقال المازني : ليس نفقه هـٰذا ، ففسِّرْهُ لنا يا أبا نصر ، فقال : اضطراب بلا سكون : رجل يضطرب بجوارحه وقلبه ساكن إلى الله عز وجل لا إلىٰ عمله ، وسكون بلا اضطراب : فرجل ساكن إلى الله عز وجل بلا حركة ، وهـٰذا عزيز ، وهو من صفات الأبدال .

وقال عمار : رأيت الخضر عليه السلام ، فسألته عن بشر بن الحارث ، فقال : لقد مات يوم مات وما على الأرض أتقىٰ لله عز وجل منه .

وقال بشر : قل لمن يطلب الدنيا : تهيأ للذل .

وكان ببغداد رجل له مال كثير من التجار ، يقع في الصوفية كثيراً ، قال أبو عبد الله القاضي : فرأيته بعد ذلك يصحبهم ، وأنفق عليهم جميع ماله ، فسألته عن ذلك ، فقال : ليس الأمر علىٰ ما توهمت ، وذلك أني صليت جمعة وخرجت ، فرأيت بشر بن الحارث قد خرج من المسجد مسرعاً ، فقلت في نفسي : أنظر إلىٰ هـٰذا الرجل الموصوف بالزهد ليس يستقر في المسجد ، وقلت في نفسي : أتبعه حتىٰ أنظر إلىٰ أين يذهب ، قال : فتبعته ، فجاء إلى الخبَّاز ، فاشترىٰ بدرهم خبزاً ، قال : قلت : انظر إلى الرجل يشتري خبزاً! وتقدم إلى الشَّوَّاء ، وأعطاه درهماً وأخذ الشِّوَاء ، قال : فزادني عليه غيظاً ، وقال : وتقدم إلى الحلاوي ، فاشترىٰ فالوذجاً بدرهم ، فقلت في نفسي : والله ؛ لأنغصن عليه حين يجلس ويأكل ، قال : فخرج إلى الصحراء ، وأنا أقول : يريد الخضرة والماء ، قال : فما زال يمشي إلى العصر وأنا خلفه ، فدخل قرية ، وفي القرية مسجد ، وفيه رجل مريض ، قال : فجلس عند رأسه ، وجعل يلقمه ، قال : فقمت لأنظر إلى القرية ، قال : فبقيت ساعة ، ثم رجعت ، فقلت للعليل : أين بشر ؟ قال : ذهب إلىٰ بغداد ؟ قال : فقلت : وكم بيني وبين بغداد ؟ فقال : أربعون فرسخاً ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أيش عملت بنفسي ، وليس معي ما أكتري ، ولا أقدر على المشي ، ولا أعرف الطريق ؟ قال : اجلس حتىٰ يرجع ، قال : فجلست إلى الجمعة القابلة ، قال : فجاء بشر في ذلك الوقت ومعه شيء يأكله المريض ، فلما فرغ . . قال له العليل : يا أبا نصر ؛ هـٰذا رجل صحبك من بغداد ،

وبقي عندي منذ الجمعة ، فرُدَّه إلىٰ موضعه ، قال : فنظر إلي كالمُغضَب وقال : لِمَ صحبتني ؟ قال : فقلت : أخطأت ، قال : قم فامش ، قال : فمشيت إلىٰ قرب المغرب ، فلما قربنا . . قال لي : أين محلتك في بغداد ؟ قلت : في موضع كذا ، فقال : اذهب ولا تعد ، ولا تقل رأيت شيئاً ، قال : فتبت إلى الله عز وجل ، وصحبتهم وأنا علىٰ ذلك .

وقال محمد بن الهيثم : كنت أدخل علىٰ أخت بشر في صغري ، فأعطتني يوماً كبة غزل ، وقالت : بع هـٰذه الكبة ، واشتر خبزاً وسمكاً ، ففعلت ، فلما دخل بشر . . رأى الخبز والسمك ، فقال : ما هـٰذا الطعام ؟ قالت أخته : رأيت أمي وأمك في المنام وهي تقول لي : إن أردتِ فرحي وإدخالكِ السرور عليَّ . . فبيعي غزلكِ واشتري خبزاً وسمكاً ، فإن أخاك بشر يشتهيهما ، قالت : فلما ذكرت أمي وأمه . . بكىٰ ، وقال : رحمهما الله تعالىٰ ، تغتم لي حية وميتة ، وإني لأشتهيه منذ خمس وعشرين سنة ، وما كان الله عز وجل يراني أن أرجع في شيء تركته لله سبحانه وتعالىٰ .

ثم قال : رأيت بشراً متغير اللون ، فقلت : نشدتك الله إلا ما أخبرتني ، فقال : أنا منذ أربعين يوماً آكل الطين في الصحراء ، ليس يصفو لي الأكل ببغداد ، فتغير عليَّ بطني ، ولهـٰذا تغيرت .

وقال محمد بن خفيف : وكان ذلك الغزل الذي تغزله أخته فيما ذكر أنها قصدت أحمد ابن حنبل ، قالت : يا أبا عبد الله ؛ إنا قوم نغزل بالليل ومعاشنا منه ، فربما مر بنا مشاعل بني طاهر ولاة بغداد ، ونحن على السطح نغزل ، فنغزل في ضوئها الطاقة والطاقتين[1] ، أفيحل لنا ، أم يحرم ؟ قال لها : مَن أنت عافاكِ الله تعالىٰ ؟ فقالت : أخت بشر ، فقال : آه . . يا آل بشر ما عدمتكم ، لا أزال أسمع الورع الصافي من قِبَلكم .

وقال بشر : لا يجد العبد حلاوة العبادة حتىٰ يجعل بينه وبين الشهوات حائطاً من حديد .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ : الدعاء . . ترك الذنوب .

وقال بشر : لو سقطت قلنسوة من السماء . . لما سقطت إلا علىٰ رأس من لا يريدها .

وجاء رجل يسأل أبا نصر أن يحدثه ، فأبىٰ ، فألحَّ عليه ، فأبىٰ ، فلما أيس منه . . قال له : يا أبا نصر ؛ ما تقول غداً لله عز وجل إذا لقيته وسألك لِمَ لمْ تحدث ؟ قال : فقال له بشر

---

(١) **الطاقة** : الحزمة من الخيوط أو الحبال .

ـ وهو يبكي ـ : أقول له : يا رب ؛ كانت نفسي تشتهي أن تحدِّث ، فامتنعت من أن أحدث ، ولم أعطها شهوتها ، وأنت أعلم .

وقال بشر بن الحارث : سمعت المعافى بن عمران عن الأوزاعي قال : كان يُقال : يأتي على الناس زمان أقل شيء في ذلك الزمان أخ مؤنس ، أو درهم من حلال ، أو عمل في سُنَّة .

وقال بكر بن عبد الله المزني : لا يكون العبد تقياً حتىٰ يكون تقي الطمع تقي الغضب .

وعن بشر قال : حدثنا يحيى بن اليمان ، عن سفيان ، عن حبيب ابن أبي عمرة قال : إذا ختم الرجل القرآن . . قَبَّل المَلَكُ بين عينيه .

أسند بشر عن أعلام الرواة مع كراهيته للرواية ورغبته عنها .

فمن أحاديثه : قال : رحلت إلىٰ عيسى بن يونس ماشياً ، فأكرمني وأدناني ، وقال : ما الذي أقدمك ؟ قلت : أحببت لقاءك والنظر إليك ، فقال : يا أخي ؛ ومن أنا ؟ وأي شيء عندي ؟ وما أُحسِن ؟ ثم قال : أمعك شيء تسأل عنه ؟ قلت : نعم ، حديث عبد الله بن عراك بن مالك ، فقال عيسىٰ : نعم ، حدَّثَنا عبد الله بن عراك بن مالك ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٨/٣٣٨ـ٣٥٦] .

وقال أبو الفرج : ولد بشر بن الحارث سنة خمسين ومئة ، وتوفي سنة سبع وعشرين ومئتين .

وقال محمد بن بشار : سمعت بشراً يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، عشت إلىٰ زمان إن لم أعمل فيه بالخفاء . . لم يسلم لي دِيني .

وقال محمد بن بشار : زرت بشراً ، فجلست معه ملياً ، فما زادني علىٰ كلمة ، قال : ما اتقى اللهَ عَبدٌ أَحبَّ الشهرة .

وقال أحمد بن نصر : كنا قعوداً مع بشر بن الحارث ، فجاءه رجل ثالث ، فقام وفارقنا .

وقال أحمد بن الفتح : سمعته يقول : بعث إليَّ عاصم بن علي ، فقال : يا أبا نصر ؛ إن أبا الحسن يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : قد اشتد شوقي إليك ، حتىٰ لقد كدت أن آتيك

---

(١) أخرجه مسلم (٩٨٢) .

من غير إذن ، فعلمت كراهيتك لمجيء الرجال ، فإن رأيت أن تأذن لي لأُسلم عليك . . فلعل الله تعالىٰ أن ينفعني برؤيتك ، قال : فقلت للرسول : أبلِغْه السلام ، وقل له : لا تأتني ؛ فإن مجيئك إلي شهرة عليَّ وعليك .

وقال عمر بن موسىٰ : سمعت بشراً يقول : لقد شهرني ربي عز وجل في الدنيا ، فليته لا يفضحني في القيامة ، ما أقبح بمثلي ، يُظن به ظن وأنا علىٰ خلافه! إنما ينبغي أن أكون أكثر مما يُظن بي ، إني أكره الموت ، وما يكره الموت إلا مريب ، وإلا . . فلأي شيء أكره الموت .

وقال أحمد بن الصلت : سمعت بشراً يقول : غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه ، وإخفاء مكانه عنهم .

وكان يقول في دعائه : اللهم ؛ استر ، واجعل تحت الستر ما تحب ، فربما سترت عليَّ ما تكره ، ثم التفت إلىٰ شخص يقال له : زريق الدلال ، وقال : يا أخي ؛ بادر بادر ؛ فإن ساعات الليل والنهار تنهب الأعمار .

وقال محمد بن قدامة : كان بشر يوماً عابراً في طريق ، فرآه رجل سكران ، فأقبل السكران إلىٰ بشر وجعل يقبِّله ، ويقول : يا سيدي يا أبا نصر ، ولا يدفعه بشر عن نفسه ، فلما ولى السكران . . تغرغرت عينا بشر بالدموع ، وقال : رُبَّ رجل أحب رجلاً علىٰ خير توهمه فيه ، ولعل المحبَّ نجا والمحبوب لا يدري ما حاله .

وقال رجل : رأيت بشراً واقفاً علىٰ صاحب الفاكهة ، فجعل ينظر ، فقلت : يا أبا نصر ؛ لعلك تشتهي مِن هـٰذا شيئاً ؟ قال : لا ، ولـٰكن نظرت في هـٰذا ، إذا كان سبحانه وتعالىٰ يطعم هـٰذا من يعصيه . . فكيف من يطيعه ؟!

وقال أبو بكر : أُهدي إلىٰ أستاذي رطباً ، وكان بشر يقيل في دكاننا في الصيف ، فقال له أستاذي : يا أبا نصر ؛ هـٰذا من وجه طيب ، فإن رأيت أن تأكل منه ، قال : فجعل يمسه بيده ، ثم ضرب بيده إلىٰ لحيته ، وقال : ينبغي لي أن أستحيي من الله تعالىٰ ، إني عند الناس تارك لهـٰذا ، وآكله في السر!

وقال ابن أخت بشر : سمعت خالي يقول : ما شبعت منذ خمسين سنة .

وقال : قدم بشر من عبادان ـ أو من سفر ـ وهو متزر بحصير .

وقال يحيى بن عثمان : كان لبشر في كل يوم رغيف .

وقال أبو بكر بن عثمان : قال بشر : إني لأشتهي شواء ، منذ أربعين سنة ما صفا لي درهم .

وقال أبو عمران : تخرَّق إزار بشر ، فقالت له أخته : يا أخي ؛ قد تخرق إزارك ، وهـٰذا البرد ، فلو جئت بقطن حتىٰ أغزل لك ؟ قال : فكان يجيء بالإِستارَين[1] والثلاثة ، فقالت له : إن الغزل قد اجتمع ، أفلا تسلم إزارك ؟ قال لها : هاتيه ، قال : فأخرجته إليه ، فوزنه ، وأخرج ألواحه[2] ، وجعل يحسب الأساتير ، فلما رآها قد زادت فيه . . قال لها : كما أفسدتيه فخذيه .

وقال الحسن بن عمرو : سمعت أبا نصر التمار يقول يوم مات بشر : لولا أن بشراً قد مات . . ما حدثتكم بهـٰذا ، أتاني ليلة ، فقلت : الحمد لله الذي جاء بك ، جاءنا قطن من خراسان ، وغزلته ابنتي وباعته لفلان ، واشتريت لحماً وشيئاً نفطر عليه ، فالحمد لله الذي جاء بك ، فقال لي : لا تكثر عليَّ ، فلو أكلتُ عند أحد من أهل الدنيا . . لأكلت عندك ، ثم قال : إني لأشتهي الباذنجان منذ ثلاثين سنة ، قلت : فإن فيها باذنجاناً ، فقال : حتىٰ تصفوَ لي حبة الباذنجان من أين هي .

وقال عمر ابن أخت بشر : سمعت خالي يقول لأمي : جوفي وجع وخواصري تضرب عليَّ ، فقالت له أمي : ائذن لي حتىٰ أصنع لك قليل حساء بكف دقيق من عندي ؛ لتتحساه يَرُمُّ جوفك ، فقال لها : ويحك! إني أخاف أن يقول الله عز وجل لي : مِن أين لك هـٰذا الدقيق ؟ فلا أدري أي شيء أقول له ، فبكت أمي وبكىٰ معها وبكيت معهما .

قال : ورأته أمي ليلة وما به من الجوع ، وجعل يتنفس نفساً ضعيفاً ، فقالت له أمي : يا أخي ؛ ليت أمك لم تلدني ، فقد ـ والله ـ تقطع كبدي مما أرىٰ بك ، فسمعته يقول : وأنا فليت أمي لم تلدني ، وإذ ولدتني . . لم يَدِرَّ لها ثدي عليَّ ، قال : وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار .

وقال رجل لبشر : ما لي أراك مغموماً ؟ فقال : وما لي لا أكون مغموماً وأنا رجل مطلوب .

---

(١) **الإِستار** : وزن أربعة مثاقيل ونصف .

(٢) **ألواحه** : هي التي كتب عليها ما كان يعطيه لأخته من الأساتير .

وقال محمد الزعفراني : قال بشر : ربما رفعت يدي في الدعاء ، فأردهما ـ أو قال : فأرسلهما ـ وأقول : إنما يفعل هـٰذا من له وجه .

وقال الفتح بن شخرف : كنت جالساً عند بشر ، فجاءه رجل ، فسأله عن مسألة ، فأطرق ملياً ، ثم رفع رأسه ، ثم قال : اللهم ؛ إنك تعلم أني أخاف أن أتكلم ، اللهم ؛ إنك تعلم أني أخاف أن أسكت ، اللهم ؛ إنك تعلم أني أخاف أن تأخذني فيما بين السكوت والكلام .

وقالت أخت بشر : دخل عليَّ ليلة من الليالي ، فوضع إحدىٰ رجليه داخل الدار والأخرىٰ خارج الدار ، وبقي كذلك متفكراً حتىٰ أصبح ، فلما أصبح . . قلت له : فيم تفكرت طول الليل ؟ قال : تفكرت في بشر النصراني ، وبشر اليهودي ، وبشر المجوسي ، وفي نفسي واسمي بشر ، فقلت لها : ما الذي سبق منك حتىٰ خصك الله سبحانه وتعالىٰ بالإسلام ، فتفكرت في فضل الله سبحانه وتعالىٰ عليَّ وحمِدته وشكرته إذ جعلني من خاصته ، وألبسني لباس أحبابه وأهل طاعته .

وقال أبو نصر التمار : سمعته يقول : ربِّ ؛ أحمَدك حمداً تاماً ، ربِّ ؛ لا تجعل حظي منك هـٰذا الذي يقول الناس : بشر بشر ، قال : وقد رأيت أشفار عينيه وقد ذهبت من البكاء .

وقال الحسن بن عمرو : سمعته يقول : لو علمت أن رضاه سبحانه وتعالىٰ في أن أشد في رجلي حجراً ، ثم ألقي نفسي في البحر . . لفعلت .

وقال عباس بن دهقان : قلت لبشر : أحب أن أخلو بك ، فقال : إذا شئت ، فبكرتُ يوماً ، فرأيته قد دخل قبة ، فصلىٰ فيها أربع ركعات لا أحسن أن أصلي مثلها ، فسمعته يقول في سجوده : اللهم ؛ إنك تعلم أن الذل أحب إلي من الشرف ، اللهم ؛ إنك تعلم أن الفقر أحب إلي من الغنىٰ ، اللهم ؛ إنك تعلم أني لا أؤثر علىٰ حبك شيئاً ، قال : فلما سمعته يقول ذلك . . أخذني الشهيق والبكاء ، فلما سمعني . . قال : اللهم ؛ إنك تعلم أني لو أعلم أن هـٰذا هـٰهنا . . لم أتكلم .

وقال أحمد ابن حنبل : والله ؛ إن بين أظهركم رجلاً ما هو عندي بدون عامر بن عبد الله[1] ؛ يعني : بشر بن الحارث .

---

(١) وهو عامر بن عبد الله بن عبد قيس ، وقد مرت ترجمته .

وقال أحمد بن عبد الله : سئل أحمد ابن حنبل عن مسألة في الورع ، فقال : أستغفر الله تعالىٰ ، لا يحل لي أن أتكلم في الورع وأنا آكل من غلة بغداد ، ولو كان بشر بن الحارث حياً . لصلح أن يجيبك عنها ؛ لأنه كان لا يأكل من غلة بغداد ولا من طعام السواد ، فيصلح أن يتكلم في الورع .

وقال أحمد بن عبد الرحمن : سمعت بشراً يقول : إن الجوع يصفِّي الفؤاد ويورث العلم الدقيق .

وسمعته يقول : طوبىٰ لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غائب لم يره .

وقال أحمد بن الصلت : سمعت بشراً يقول : حاربوا الآمال بفوت الآجال .

وقال : سمعته يقول : ليس من المروءة أن تحب ما يُبغِض حبيبُك .

وقال عمر بن موسىٰ : رأيت بشراً ومعه رجل ، فتقدم إلىٰ بئر ليشرب منها ، فجذبه بشر ، وقال : نشرب من البئر الأخرىٰ ، حتىٰ جاوز ثلاثة آبار ، فقال له الرجل : يا أبا نصر ؛ أنا عطشان ، فقال له بشر : اسكت ، فهٰكذا تدفع الدنيا .

وقال إبراهيم الحربي : سمعته يقول : بحسبك أن أقواماً موتىٰ تَحْيَا القلوب بذِكرهم ، وأن أقواماً أحياء تعمى الأبصار بالنظر إليهم .

وقال عمر بن موسىٰ سمعته يقول : يكون الرجل مرائياً في حياته ، مرائياً بعد موته ، قلت : كيف ذاك ؟ قال : يحب أن يكثر الناس علىٰ جنازته .

وقال : ما أقبح أن يُطلَب العالِم . فيقال : هو بباب الأمير .

وقال يحيى بن عبد الحميد : رأيت أبا نصر التمار وعلي بن المديني في جنازة بشر بن الحارث يصيحان : هٰذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة ، وذلك أن بشراً أُخرجت جنازته بعد صلاة الصبح ، ولم يصِلْ إلى المقبرة إلا في الليل ، وكان نهاراً صائفاً ، ولم يستقر في القبر إلى العتمة .

وقال الكندي : رأيت بشر بن الحارث في النوم ، فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : غفر لي ، وأقعدني في طيارة من لؤلؤة بيضاء ، وقال لي : سِرْ في ملكي .

وقال الحسن بن مروان : رأيت بشراً في النوم ، فقلت له : يا أبا نصر ؛ ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : غفر لي ولكل من تبع جنازتي ـ زاد في رواية الخطيب : ولكل من أحبني إلىٰ

يوم القيامة ـ قال : قلت : ففيمَ العمل ؟ قال : افتقد الكسرة . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/١٩٧ـ٢٠٣] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض المجاميع : أن بشراً رحمه الله صنف كتاباً سماه « الزهد » ، وهو كتاب نفيس ، اشتمل علىٰ دقائق كثيرة ومعارف غزيرة .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قيل : إن بعض أصحاب بشر بن الحارث رآه في النوم بعد موته ، فقال له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : لما رأيت ربي سبحانه وتعالىٰ . قال لي : مرحباً بك يا بشر ، لقد توفيتك يوم توفيتك وما علىٰ ظهر الأرض أحبَّ إلي منك[1] .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : رأيت أمير المؤمنين علياً كرم الله وجهه في منامي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ عظني ، فقال : ما أَحسَنَ عطفَ الأغنياء على الفقراء رجاءً لثواب الله عز وجل ، وأحسنُ من ذلك : تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله تعالىٰ ، فقلت : زدني ، فقال :

قد كنتَ مَيْتاً فصرتَ حيّاً وعن قريب تصير مَيْتا
عَزَّ بدارِ الفَناءِ بيتٌ فابْنِ بدار البقاءِ بيتا[2]

وقال بشر بن الحارث : نحن لأهل البدع . . خير لهم من أنفسهم ؛ لأنا نحذر الناس عنهم ؛ لئلا تكثر آثامهم .

وقال في « المناقب » : قال بشر بن الحارث رحمه الله : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : « يا بشر ؛ تدري لم رفعك الله من بين أقرانك ؟ » فقلت : لا يا رسول الله ، قال : « باتباعك لسنتي ، واحترامك الصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي ، هو الذي بلغك منازل الأبرار » .

وروي أن رجلاً جاءه في يوم عيد فقال : رأيت البارحة كأن القيامة قد قامت ، والناس في كرب وشدة ، حتىٰ رأيت دموع الناس تجري دماً ؛ إذ خرج مناد ينادي : أين بشر ؟ وأين أحمد ابن حنبل ؟ فأخذوكما ، فأدخلوكما على الله عز وجل ، فقال بعض أهل الموقف : إن حوسب هٰؤلاء . . هلكنا ، وإذا قد خرج ملك ، فقيل له : ما فُعل ببشر وأحمد ؟ فقال :

---

(١) الرسالة القشيرية (٣١٣) .
(٢) الرسالة القشيرية (٣٠٧) .

يحاسبان علىٰ قيام الشكر بما مَنَّ الله عليهما مِن ستره[1] ، فقال بشر : أمَّا أحد الاثنين : فالتقصير قرينه ، وأما الآخر : فتشهد له الحقائق والخلائق بقيام الشكر ، ثم بكىٰ بشر وقال : ويحك يا بشر! شد حيازيمك[2] ؛ فإنك مطلوب .

وقيل : أتىٰ بشر بن الحارث باب المعافى بن عمران بالموصل ، فدق عليه الباب ، فقيل : مَن بالباب ؟ فقال : بشر الحافي ، فقالت ابنته من داخل الدار : لو اشتريت نعلاً بدانقين . . لذهب عنك هـٰذا الاسم .

وقال بشر بن الحارث : يأتي على الناس زمان تكون الدولة فيه للحمقىٰ على الأكياس .

وقال : النظر إلى الأحمق سخنة[3] عين ، والنظر إلى البخيل يقسي القلب .

وقال : هب أنك ما تخاف ، أما تشتاق ؟! ثم قال : المتقلب في جوعه كالمتشحط في دمه في سبيل الله ، وثوابه رفع الدرجات في الجنة .

وقال بشر : إني لأُجِلُّ الله عز وجل أن أذكره عند من لا يعرفه .

وقال بشر : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : أرني ـ يا ربِّ ـ ولياً من أوليائك ، فأوحى الله إليه : أُطلبه في خربة كذا وكذا ، فلما طلبه . . رأىٰ عظام رجل قد أكله السبع ، فقال : يا رب ؛ ما أرىٰ غير العظام ، قال : هي عظام ولي ، قال : يا رب ؛ فأرسلت عليه السباع ، قال : نعم ، وعزتي وجلالي ؛ ما أخرجته من الدنيا بعد ذلك إلا جائعاً ظمآناً ، قال : يا رب ؛ كيف هـٰذا ؟! قال : لمنزلته عندي ، ولو رأيتَ منزلته . . هفَتْ[4] نفسك شوقاً إليها ، إني لا أرضى الدنيا لولي من أوليائي .

وكان بشر عديم النظير زهداً وورعاً وصلاحاً ، كثير الحديث ، إلا أنه كان من شغله بالآخرة يكره الرواية ، ويخاف من شهوة النفس في ذلك حتىٰ قيل له : ألا تحدث ؟ فقال : أنا أشتهي أن أحدث ، وإذا اشتهيت شيئاً . . تركته .

وقال إبراهيم الحربي : سمعت بشر بن الحارث يقول : ليس طلب الحديث من عدة

---

(١) في نسخة : (من سيرهما) .

(٢) شدّ حيازيمك : هـٰذه كناية عن التشمير للأمر ، والاستعداد له .

(٣) **السُّخنة** : الحر أو الحمَّىٰ ، وأسخن الله عينه : أبكاه ؛ لأن دموع الحزن تكون ساخنة ، ودموع الفرح تكون باردة ، وسُخْنَةُ العين ضد قرة العين .

(٤) في نسخة : (زهت) .

الموت ، فقلت له : قد ذهبت إلىٰ أبي نعيم ؟ فقال : أتوب إلى الله تعالىٰ من ذهابي إليه .

وقال أحمد بن خزيمة : لما مات أحمد ابن حنبل. . بت من ليلتي تلك ، فرأيته في النوم ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، وتوَّجَني ، وألبسني نعلين من ذهب ، وقال لي : يا أحمد ؛ هـٰذا بقَولك القرآن كلامي غير مخلوق ، فقلت : ما فعل ببشر الحافي ؟ فقال : بخ بخ! ومَن مِثل بشر ، تركته بين يدي الحق جل جلاله ، وبين يديه مائدة من الطعام ، والجليل جل جلاله مقبل عليه ، وهو يقول له : كُلْ يا من لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب ، وأنعم يا من لم يتنعم . انتهىٰ .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : قال بشر بن الحارث رحمه الله : أشد الأعمال ثلاثة : الجود من قلة ، والورع في خلوة ، وكلمة حق عند من يُخاف ويُرجىٰ .

وقال بشر : الزهد مَلَك لا يسكن إلا في قلبٍ مخلىٰ . انتهىٰ [« الرسالة » ٩١ و٩٦] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : حكىٰ لي من أثق به من الصالحين البكريين : أنه وقف علىٰ ترجمة بشر بن الحارث في بعض المصنفات ، فرأىٰ ما صورته أن ابتداء أمر بشر أنه كان مشغولاً باللذات واللهو ، وله جار رجل صالح ، فرأىٰ جاره في بعض الليالي في المنام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول له : « أقرىء بشر بن الحارث السلام مني ، وعرفه أن الله تبارك وتعالىٰ عنه راض » ، قال : فلما استيقظت. . تفكرت في هـٰذه الرؤيا ، وتعجبت ، ولم أذكر لبشر شيئاً ، فلما كان في الليلة الثانية. . رأىٰ في منامه قائلاً يقول له : لِمَ لا أبلغت رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فلما أصبح. . لم يذكر لبشر شيئاً ، فلما كان في الليلة الثالثة. . رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول له : « أقرىء بشراً مني السلام ، وقل له : إن الحق جل جلاله قال : رفعتَ اسمي عن الطريق وطيَّبتَهُ ، لأرفعن ذِكرك في الدنيا والآخرة » ، قال : فلما أصبح. . جاء إلىٰ بشر ، فلما رآه بشر. . فرح به فرحاً عظيماً ، حيث إن هـٰذا الرجل الصالح جاء إليه ، ثم قص عليه رؤياه في الليالي الثلاث ، فصاح بشر صيحة عظيمة ، وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق. . قال له : يا بشر ؛ أي شيء صنعت حتىٰ قيل لك : لأرفعن ذِكرك في الدنيا والآخرة ؟ فحكىٰ له أنه كان ماراً في الطريق ، ووجد ورقة فيها اسم الله عز وجل ، فأخذها ، ومسحها ، وطيَّبَها ، ووضعها علىٰ رأسه ، ثم إنه في تلك الساعة خرج عن جميع ما كان له ، وأعتق كل رقيق كان له ، ثم أقبل علىٰ عبادة الله سبحانه وتعالىٰ ، وكان من أمره ما كان ، ولقد بلغ من رفيع قدره أن الخليفة المأمون تشفع بأحمد ابن حنبل أن يأذن له بشر في زيارته ، فلم يأذن له .

زاد في رواية : قال القاضي أحمد بن أكثم : قال لي المأمون : لم يبق في هاذه الكورة[1] أحد يستجاب منه غير هاذا الشيخ ، يعني : بشر بن الحارث ، وأراد المأمون زيارته فلم يبلغه ذلك ، وقال : لئن ذكرني بعد هاذا بزيارة . . لأخرجن من جواره ببغداد .

ولقد حكى البغداديون إلىٰ زماننا هاذا أن الدواب إذا مشت في الطريق . . تمشي سرايا سرايا[2] على العادة ، فإذا عرض لها البول . . خرجت عن الطريق وبالت في غيرها ، فيقول الناس : هاذه طريق بشر التي مشىٰ فيها حافياً ، الدواب لا تروث فيها ، بل تعدل عنها ثم تروث ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال في « المناقب » : دعي بشر إلىٰ دعوة ، فوضِع بين يديه طعام ، فجهد أن تمتد يده إليه ، فلم تمتد ، فعل ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل يعرف ذلك منه : إن يده لا تمتد إلىٰ طعام فيه شبهة .

وقال أحمد بن الهيثم : قال لي بشر : قل لأخي معروف : إذا صليتُ . . جئتُك ، فأديتُ رسالته ، وانتظرته إلىٰ بعد عشاء الآخرة ، فما جاء ، فلما كان الهوي من الليل ؛ إذا به قد جاء وعلىٰ رأسه سجادة ، فتقدم إلىٰ دجلة ، ومشىٰ على الماء ، وعبر ، وجاء إلىٰ معروف ، وعاد إليَّ وقت السحر وعبر على الماء ، فرميت بنفسي في سطح قريب ، وجئت إليه ، وقبَّلت يديه ورجليه ، وقلت له : ادع لي ، فدعا لي ، وقال لي : لا تقل شيئاً ، فلم أذكر ذلك إلا بعد موته .

وقال بشر : تُدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم الصلاة والسلام ، فيقال : يا أمة موسىٰ ، يا أمة عيسىٰ ، يا أمة محمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ويقال للمحبين : يا أولياء الله ؛ هلموا إلى الله عز وجل ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً .

هنيئاً لهم ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، وأعاد علينا من بركاتهم ، ونفعنا بمحبتهم ، إنه قريب مجيب . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) الكورة : مجموعة من القرىٰ .

(٢) سرايا : جماعات .

ومنهم الإمام :

أبو محفوظٍ معروفُ الكرخي

رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال معروف الكرخي لرجل : توكل على الله عز وجل حتىٰ يكون هو معلمك وأنيسك وموضع شكواك ، وليكن ذكر الموت جليسك لا يفارقك ، واعلم : أن شفاء كل بلاء نزل بك.. كتمانه ؛ فإن الناس لا ينفعونك ، ولا يضرونك ، ولا يمنعونك ، ولا يُعطونك .

وقال أبو بكر الخياط : رأيت في النوم كأني دخلت المقابر ؛ وإذا أهل القبور جلوس علىٰ قبورهم ، بين أيديهم الريحان ، وإذا أنا بمعروف قائماً بينهم يذهب ويجيء ، فقلت له : أبا محفوظ ؛ ما صنع بك ربك عز وجل ؟ أوليس قد مِتَّ ؟ قال : بلىٰ ، ثم أنشأ يقول :

مــوتُ التقــيِّ حيــاةٌ لا نفــاد لهــا　　　قد مات قوم وهُمْ في الناس أحياءُ

وقال أبو بكر ابن أبي طالب : دخلت مسجد معروف وكان في منزله ، فخرج إلينا ونحن جماعة ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرددنا عليه السلام ، فقال : حياكم الله بالسلام ، ونعَّمَنا الله وإياكم في الدنيا بالأحزان ، ثم أَذَّن ، فلما أخذ في الأذان.. اضطرب وارتعد حين قال : أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، فقام شعر حاجبيه ولحيته ، واضطرب ، حتىٰ خفت ألاَّ يتم أذانه ، وانحنىٰ حتىٰ كاد أن يسقط .

وقال أبو بكر : سمعت معروفاً وهو يدعو ويقول : يا من بلَّغ أهل الخير الخيرَ ، وأعانهم عليه.. بلِّغْنا منازلَهم ، وأصلحنا ، وأعنَّا عليه .

وقال علي بن الموفق : سمعت معروفاً الكرخي يدعو ويقول : يا ملك ، يا قدير ، يا من ليس له شبيه ؛ لا إله إلا أنت ، أصلحنا بما أصلحت به عبادك الصالحين .

وكان من دعائه : اللهم ؛ لا تجعلنا بثناء الناس مغرورين ، ولا بالستر مفتونين ،

اللهم ؛ اجعلنا ممن يؤمن بلقائك ، ويرضىٰ بقضائك ، ويقنع بعطائك ، ويخشاك حق خشيتك .

قال : وحضرت الصلاة ، فقال معروف لأبي توبة : صلِّ بنا ، فقال : إن صليت بكم هـٰذه الصلاة . . لا أصلي بكم الصلاة الثانية ، فقال له معروف : وأنت تطمع أن تعيش إلى الصلاة الثانية ؟ نعوذ بالله تعالىٰ من طول الأمل ؛ فإنه يمنع من خير العمل .

وقال في « المناقب » : قال رحمه الله : ليست المحبة من تعليم الخلق ، إنما هي من مواهب الحق وفضله سبحانه وتعالىٰ .

ودخل معروف مرة إلى الشط ليتوضأ ، ووضع مصحفه وملحفته ، فجاءت امرأة ، فأخذتهما ، فتبعها معروف ، وقال : يا أختي ؛ أنا معروف ، ولا بأس عليك ، ألك ابن يقرأ القرآن ؟ قالت : لا ، قال : فزوج يقرأ القرآن ؟ قالت : لا ، قال : فهاتي المصحف ، وخذي الملحفة . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٣٦٠ـ٣٦١] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال معروف : إنما الدنيا قِدر يُغلىٰ ، وكنيف يُملأ .

وقال معروف : إذا أراد الله بعبد خيراً . . فتح عليه باب العمل ، وأغلق عنه باب الجدل .

وقال : كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله عز وجل .

وجاء حجّام يأخذ من شارب معروف ، وكان معروف يسبِّح ، فقال الحجام : لا يمكن أخذ الشارب وأنت تسبِّحُ ، فقال معروف : أنت تعمل وأنا لا أعمل ؟!

وقال خلف بن المرزبان : سمعت أبي يقول : كنا عند معروف ، فجاءه رجل ومعه بعير ، فقال : يا أبا محفوظ ؛ هـٰذا بعيري ، ولي جماعة من العيال أعمل عليه ، وأعود به عليهم ، وليس لي غيره ، وقد مُنِع البولَ من ثلاثة أيام ، فلم يَبُلْ ، ادع الله تعالىٰ أن يطلقه ، قال : فالتفت إلينا ، فقال لنا : ادعوا الله سبحانه وتعالىٰ لأخيكم لعله عز وجل أن يفرج عنه ، قال : فرفع يديه ودعا ودعونا ، قال : فتفاج(١) الجمل ، فبال في الحال .

وقال أبو بكر الزجاج : قيل لمعروف في مرض موته : أوصِ ، فقال : إذا مِتُّ . . فتصدقوا بقميصي هـٰذا ؛ فإني أحب أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلت إليها عرياناً حافي القدم .

---

(١) **تفاج الجمل** : بالغ في الفتح ما بين رجليه .

وقال أبو سليمان الرومي : سمعت خليلاً الصياد ـ وكفاك به ـ يقول : غاب ابني محمد ، فجزعت أمه عليه جزعاً شديداً ، فأتيت معروفاً ، فقلت : أبا محفوظ ، قال : ما تشاء ؟ قلت : ابني محمد قد غاب ، وقد جزعت عليه أمه جزعاً شديداً ، فادع الله تعالىٰ أن يرده عليها ، فقال : **اللهم ؛ إن السماء سماؤك ، والأرض أرضك ، وما بينهما لك ، فاجمعه علىٰ أهله** ، قال خليل : فأتيت باب الشام ؛ فإذا ابني محمد قائماً منبهراً ، قلت : محمد! قال : يا أبت ؛ كنت الساعة بالأنبار ، فلم أشعر إلا وأنا قد صرت هـٰهنا .

وقال أبو محمد الضرير جار مردويه : أرسل إليَّ مردويه الصائغ ، فلما جئته . . قال لي : غاب ابني منذ أيام ، وضيقَتْ عليَّ النساء من كثرة بكائهن ، فجئت أنا وهو مع جماعة إلىٰ معروف ، فوجدناه في المسجد ، فقال : ما الذي جاء بك يا أبا بكر ؟ قال : فقلت : يا أبا محفوظ ؛ قد غاب عنا ابني ، وقد ضيقَتْ عليَّ النساء من البكاء ، فقال معروف : اللهم ، يا من هو عالم بكل شيء ، ويا من لا يخفىٰ عليه شيء ، ويا من علمه محيط بكل شيء ؛ أوضح لنا أمر ذا الغلام (ثلاث مرات) وقال : ثم انصرفنا من عنده ، فلما أن أصبحت قبل صلاة الفجر ؛ إذا رسول مردويه قد جاءني يدعوني ، فقلت : أيش الخبر ؟ فقال : قد جاء فلان ، فقمت معه وجئت ، فإذا الغلام قاعد بين يدي مردويه ، فقال لي : اسمع العجب ، فقال الغلام : كنت أمشي بالكوفة ، فجاءني رجلان ، فأخذا بيدي ، وأخرجاني من الكوفة ، وقالا : امض إلىٰ بيتكم ، فلم أقعد ، ولم آكل ، ولم أشرب ، وبينا أنا في الطريق . . رأيت أسدين ، فلم يتحركا حتىٰ أتيتكم ، فأطعِموني ؛ فإني ما أكلت شيئاً حتىٰ جئتكم .

وقال القاسم بن نوح(١) : سمعت عيسىٰ أخا معروف يقول : قلت لأخي : لو قعدت على الدقيق لأمضي في حاجة ؟ فقال لي : بشرط ألاَّ أمنع سائلاً ، قلت : نعم ؛ وأنا أظن أنه يعطي الكف والأكثر والأقل ، قال : فرجعت ؛ وإذا هو قد تصدق بشيء كثير ما بين المكوك(٢) وزيادة ، قال : فاحمرت وجنتاي ، فلما نظر إلي . . قال : يا أخي ؛ لست عائداً إلىٰ هـٰذا الموضع ، فلما تقدمت إلى الصندوق ؛ فإذا المجرىٰ(٣) قد امتلأت دراهم .

وقال أبو الحجاج المقري : ولد لي مولود وليس عندي شيء ، فأتيت معروفاً ، فقلت

---

(١) في « الحلية » : (القاسم بن روح) .

(٢) **المكوك** : مكيال معين .

(٣) **المجرىٰ** المراد هنا : المكان الذي يضع فيه المال .

له : يا أبا محفوظ ؛ ولد لي مولود وليس عندي شيء ، فقال : يا أخي ؛ ادع الله عز وجل ، قال : فجعلت أدعو ويؤمن ، ويدعو وأنا أؤمن ، فلما طال علي . . قمت ، وانسللت ؛ فإذا راكب ينادي من خلفي : يا فلان ؛ فالتفت ، فإذا معه صرة ، فقال لي : يقول لك أبو محفوظ : أنفق هـٰذه الصرة في الأمر الذي ذكرت لي ؛ فإذا فيها مئة دينار ، أو نحوها ، وصنع الرجل وليمة ، وسأل معروفاً أن يحضرها ، فحضرها ومعه صاحب له ، فلما رأىٰ صاحبه تلك الألوان من الأطعمة . . أنكرها ، وقال : يا أبا محفوظ ؛ أما ترىٰ ما هـٰهنا ؟ قال : ما أمرتهم بشرائه ، فلما رأىٰ تلك الحلوىٰ . . قال : سبحان الله يا أبا محفوظ ؛ أما ترىٰ ما هـٰهنا ؟ فقال : ما أمرتهم بصنيعه ، فلما رأىٰ كثرة الأطعمة وغيرها . . قال : أما ترىٰ ما هـٰهنا ؟ فقال له معروف : قد أكثرت عليَّ ، أنا عبد مدبَّر ، آكل ما يطعمني ، وأنزل حيث ينزلني .

وقال ابن أخت معروف : يا خالي ؛ ما لي أراك تجيب كل من دعاك ؟ فقال : يا بني ؛ خالك ضيف ينزِل حيث يُنزَل . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٣٦١ـ٣٦٤] .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قد كان معروف الكرخي رحمه الله يُهدىٰ إليه طيبات الطعام ، فيأكل ، فيقال له : إن أخاك بشراً لا يأكل من هـٰذا ، فيقول : **أخي بشر قبضه الورع ، وأنا بسطتني المعرفة** ، قال : إنما أنا ضيف في دار مولاي سبحانه وتعالىٰ ، إذا أطعمني . . أكلت ، وإذا جوعني . . صبرت ، ما لي وللاعتراض والتمييز .

ثم قال الغزالي : والبصير بأسرار العلم يعلم أن كل ذلك حق ولـٰكن بالإضافة إلى اختلاف الأحوال . انتهىٰ [« الإحياء » ٣/ ٩٧] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : وقال [محمد بن] منصور الطوسي : رآني معروف ومعي ثوب ، فقال لي : يا محمد ؛ ما تصنع بهـٰذا الثوب ؟ قلت : أقطعه قميصاً ، فقال : اقطعه قصيراً تربح فيه ثلاث خصال : اللحوق بالسنة ، ويكون ثوبك نظيفاً ، وتربح فضله .

وقال لبعض إخوانه : اشتر وبع ولو برأس المال ؛ فإنه ينمو كما ينمو الزرع .

وكان يقول عند ذِكر السلطان : اللهم ؛ لا ترنا وجوه من لا تحب النظر إليهم .

وقال موسى بن إبراهيم : حضرت معروفاً وعنده رجل يغتاب رجلاً ، فجعل معروف يقول له : اذكر القطن إذا وضعوه علىٰ عينيك ، اذكر القطن إذا وضعوه علىٰ عينيك . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٣٦٤] .

وقال أبو القاسم القشيري : قال يعقوب ابن أخي معروف اللهم ؛ : جاء صدقة بن إبراهيم والأسود بن سالم إلىٰ عمي معروف ، وكان عمي مؤاخياً لهما ، فقالا له : إن بشر بن الحارث يحب أن يؤاخيك في الله تعالىٰ ، وهو يكره كثرة اللقاء ؛ خوفاً من ألاَّ يقدر أن يقوم بما يجب عليه من حقوق الأخوة ، فإن أنت قبلتَه علىٰ ألاَّ تلتقيا . . فاعقد له ذلك ، فقال معروف : أما أنا : فإني إذا واخيت رجلاً . . أحببت ألاَّ أفارقه ، وأشركه في أعمالي كلها ، ولو أدخلت الجنة . . لأحببت أن يدخلها قبلي ؛ لأني إنما أحبه لله عز وجل ، وقد عقدت له الأخوة برسالتكما ، وإني أوصيه بالله تعالىٰ ومراقبته له ، واعلما : أن العالم إذا عمل بعلمه . . استوت له قلوب المؤمنين ، وما أَحبَّ رجل رجلاً لله تعالىٰ . . إلا وجب دعاء بعضهم لبعض ، وإذا صدق في سره لمن أحبه لله تعالىٰ . . أصلح الله له سره وعلانيته ، وشفع بعضهم في بعض ، وقد ورد : « أن من أحب لله تعالىٰ وأبغض لله تعالىٰ . . فقد استكمل أوثق عرى الإيمان »[1] انتهىٰ .

ثم قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عبيد : جاء رجل من الشام إلىٰ معروف ، فسلم عليه ، وقال : إني رأيت في المنام قائلاً يقول لي : اذهب إلىٰ معروف ، فسلم عليه ؛ فإنه معروف في أهل الأرض معروف في أهل السماء .

وقال عبيد بن محمد الوراق : كنا مع أبي محفوظ في المجلس[2] وهو قاعد يتفكر ، ثم يفزع ، ويقول : واغوثاه! يالله! قال : وكنا نجالسه وليس فيه فضل من التفكر .

قال : وما رأيته متنفلاً قط إلا يوم الجمعة ركعتين خفيفتين ، كان يصون أعماله أن يراها أحد من الناس .

ومر بسَقَّاء وهو يقول : رحم الله من دنا وشرب ، فتقدم وشرب ، فقيل له : أما كنت صائماً ؟ فقال : بلىٰ ، ولـٰكني رجوت دعاءه .

وقال معروف : كيف يكون تقياً من لا يدري ما يتقي ؟! ثم قال : إذا كنت لا تحسن تتقي . . أكلت الربا ، ولقيتك امرأة لم تغض بصرك ، إلىٰ غير ذلك من المسائل ، ثم قال : ينبغي لنا أن نتقي مجلسنا هـٰذا ، ومجيئكم معي إلى البيت من المسجد ينبغي لنا أن نتقيه ،

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم (٢/ ١٧٨) .
(٢) في نسخة : (المسجد) .

أليس قد جاء في الحديث : « فتنة للمتبوع وذلة للتابع »[1] ؟!

وقدِم جمع إلىٰ مكة ، فقال لهم ابن عيينة : مِن أين أنتم ؟ فقالوا : من بغداد ، فقال : فما فعل ذلك الحبر ؟ قالوا : مَن هو ؟ قال : معروف ؛ فإنكم لا تزالون بخير ما دام فيكم .

وقال الأنصاري : رأيت معروفاً الكرخي في النوم كأنه تحت العرش ، والله تعالىٰ يقول لملائكته : مَن هـٰذا ؟ فقالت الملائكة عليهم السلام : ربنا ؛ أنت أعلم ، فقال : هـٰذا معروف ، قد سكر من حبي ، فلا يفيق إلا بلقائي .

وفي رواية : قالت الملائكة : أنت أعلم ، هـٰذا معروف ، قد سكر من حبك ، فلا يفيق إلا بلقائك .

وقال معروف : من قال في كل يوم عشر مرات : اللهم ؛ أصلح أمة محمد ، اللهم ؛ فرج عن أمة محمد ، اللهم ؛ ارحم أمة[2] محمد صلى الله عليه وسلم . . كتب من الأبدال .

وقال معروف : ودَّع رجل البيت فقال : اللهم ؛ لك الحمد عدد عفوك عن خلقك ، ثم رجع من قابل ، فقالها ، فسمع صوتاً : يا هـٰذا ؛ ما أحصيناه منذ قلتها عام أول .

وقال : مَن قال حين يتعار[3] من الليل من فراشه : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر ، وأستغفر الله ، اللهم ؛ إني أسألك من فضلك ورحمتك ، فإنهما بيدك لا يملكهما أحد سواك . . إلا قال الله عز وجل لجبريل عليه السلام ـ وهو موكل بقضاء حوائج العباد ـ : يا جبريل ؛ اقض حاجة عبدي .

وسئل معروف عن حقيقة الوفاء فقال : إفاقة السر عن رقدة الغفلات ، وفراغ الهَمِّ عن فضول الآفات .

وقال معروف : طلب الجنة بلا عمل . . ذنْب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب . . نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع . . جهل وحمق .

وسئل : بمَ تخرج الدنيا من القلب ؟ قال : بصفاء الود ، وحسن المعاملة .

وللفتيان علامات ثلاث : وفاء بلا خلف ، وعطاء بلا سؤال ، ومدح بلا جود .

---

(١) أخرجه الدارمي (١/ ١٤٤) .
(٢) في نسخة : (اغفر لأمة) .
(٣) يتعارّ : يستيقظ .

وعلامة الأولياء ثلاثة : همومهم بالله عز وجل ، وشغلهم فيه سبحانه وتعالىٰ ، وفرارهم إليه تبارك وتعالىٰ .

وقال : ليس للعارف نعمة ، وهو في كل نعمة .

وكان كثيراً ما يعاتب نفسه ويقول: يا مسكين ؛ كم تبكي وتندب ؟ أخلص وتخلَّص[1] .

وقال : السخاء إيثار ما تحتاج إليه عند الإعسار .

وكان معروف رحمه الله قد وعى العلم الكثير ، فشغلته الرعاية عن الرواية ، ومما وقع لنا من مسانيد حديثه : قال خلف المقري : كنت أسمع معروفاً يقول في دعائه كثيراً : اللهم ؛ إن قلوبنا وجوارحنا بيدك ، لم تملِّكنا منهما شيئاً ، فإذا فعلت ذلك بهما . . فكن أنت وليهما ، فقلت : يا أبا محفوظ ؛ أسمعك تدعو بهـٰذا الدعاء كثيراً ، هل سمعت فيه حديثاً ؟ قال : نعم ؛ حدثني بكر بن خنيس ، عن سفيان الثوري ، عن أبي الزبير ، عن جابر رضي الله عنهم : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو بهـٰذا الدعاء .

وروىٰ معروف عن بكر بن خنيس ، عن ضرار بن عمرو ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : دلني علىٰ عمل يدخلني الجنة ، قال : « لا تغضب » ، قال : فإن لم أطق ذاك يا رسول الله ؟ قال : « تستغفر الله عز وجل كل يوم بعد صلاة الصبح سبعين مرة . . يغفر لك ذنوب سبعين عاماً » ، قال : فإن لم يأت عليَّ ذنوب سبعين عاماً ؟ قال : « يُغفر لأمك » ، قال : فإن ماتت أمي ولم يأت عليَّ ذنوب سبعين عاماً ؟ قال : « يُغفر لأقاربك » هـٰذا حديث غريب .

وروىٰ معروف عن عبد الله بن موسىٰ ، عن عبد الأعلى بن أَعيَنَ ، عن يحيى ابن أبي كثير ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنهما قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشرك في أمتي أخفىٰ من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب علىٰ شيء من الجور ، أو تُبغِض علىٰ شيء من العدل ، وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله عز وجل ؛ قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[2] هـٰذا أيضاً غريب . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٣٦٥ـ٣٦٨] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : معروف الكرخي منسوب إلىٰ كرخ بغداد .

---

(١) في نسخة : (أَخْلِصْ تَخْلُصْ) .

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٢/ ٣١٩) .

قال عبد الله بن صالح : كان معروف قد ناداه الله بالاجتباء في الصِّبا ، فذُكِر لي أن أخاه عيسىٰ قال : كنت أنا وأخي معروف في كُتَّاب النصارىٰ ، وكنا نصارىٰ ، وكان المعلم يعلم الصبيان أب وابن ، فيصيح أخي معروف ، ويقول : أحدٌ أحدٌ ، فضربه المعلم يوماً علىٰ ذلك ضرباً شديداً ، فهرب علىٰ وجهه ، فكانت أمي تبكي ، وتقول : لئن رد الله تعالىٰ عليَّ ابني . . لاتَّبعنَّه علىٰ أي دِين كان ، فقدم عليها بعد سنين ، فقالت له : أي بُني ؛ علىٰ أي دِين أنت ؟ فقال : علىٰ دين الإسلام ، فقالت : أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال : فأسلمَتْ وأسلمنا كلنا .

وقال عيسىٰ أخو معروف : دخل رجل علىٰ أخي معروف في مرضه الذي مات فيه ، فقال : يا أبا محفوظ ؛ أخبِرني كيف كان صومك ؟ فقال له : دع عنك هـٰذا ، فقال له : سألتك بالله ، فقال معروف : كنت أصبح دهري صائماً ، فإن دعيت إلىٰ طعام . . أكلت ولم أَقُل : إني صائم .

وقال سري السَّقَطي : سألت معروفاً رحمه الله عن الطائعين لله عز وجل ، بأي شيء قدروا على الطاعة ؟ فقال : بخروج الدنيا من قلوبهم ، فلو كانت الدنيا في قلوبهم . . لما صحت لهم سجدة .

وقال إبراهيم الأطروش : كان معروف ماراً علىٰ دجلة بغداد ؛ إذ مر بنا أحداث في زورق يضربون الملاهي ، وهم يشربون ، فقال له أصحابه : ألا ترىٰ إلىٰ هـٰؤلاء يجاهرون في المعاصي ، ادع الله تعالىٰ عليهم ، فرفع يديه ، وقال : إلـٰهي وسيدي ؛ كما فرحتهم في الدنيا . . ففرحهم في الآخرة ، فقال له أصحابه : قلنا : ادع الله تعالىٰ عليهم ، ولم نقل ادع لهم ، فقال : إذا فرحهم في الآخرة . . تاب عليهم في الدنيا ، ولم يضرهم شيء ، فعلم القوم بدعاء معروف لهم ، فألقوا ما معهم في دجلة ، وجاؤوا تائبين في الحال .

وقال ابن شيرويه : كنت أجالس معروفاً كثيراً ، فلما كان ذات يوم . . رأيت وجهه قد خلا ، فقلت له : يا أبا محفوظ ؛ بلغني أنك تمشي على الماء ، فقال : ما مشيت قط على الماء ، ولـٰكن إذا هممت بالعبور يجمع إلي طرفاها فأتخطاها .

وقال محمد بن منصور : مضيت يوماً إلىٰ معروف ، ثم عدت إليه من غد ، فرأيت في وجهه أثر شجة ، فهبت أن أسأله عنها ، وكان عنده رجل أجرؤ عليه مني ، فقال له : كنا عندك البارحة ولم نر في وجهك هـٰذا الأثر ، فقال له معروف : خذ ما تنتفع به ، فقال له :

أسألك بحق الله تعالىٰ ، قال : فانتفض معروف ، وقال له : ويحك! ما حاجتك إلىٰ هـٰذا ؟ مضيت البارحة إلىٰ بيت الله الحرام ، ثم صرت إلىٰ زمزم ، فشربت منها ، فزلّت رجلي ، فبطح الباب وجهي ، فهـٰذا الذي ترىٰ من ذلك .

وقال سري السقطي رحمه الله : هـٰذا الذي أنا فيه من بركات معروف ، انصرفت من صلاة العيد ، فرأيت مع معروف صبياً شعثاً ، فقلت له : مَن هـٰذا ؟ فقال : رأيت الصبيان يلعبون ، وهـٰذا واقف منكسر القلب حزيناً ، فسألته عن حاله ، فقال : أنا يتيم ، قال السري : فقلت له : ماذا ترىٰ أنك تعمل معه ؟ قال : لعلّيْ أخلو فأجمع له نوىٰ يشتري به جوزاً يفرح به ، فقلت له : أعطِنيه أُغيِّرُ من حاله ، فقال : أوَ تفعل ؟ قلت : نعم ، فقال : خذه ، أغنى الله قلبك ، فسُوِّيَت الدنيا عندي أقل من كذا .

وفي رواية : قال له : بغَّض الله إليك الدنيا ، وأراحك مما أنت فيه ، قال : فقمت ولا شيء أبغض إلي من الدنيا .

زاد في رواية : قال : فكسوت ذلك الصبي واشتريت له جوزاً ودفعته إليه ، وقلت : اذهب فافرح مع الصبيان فرفع وجهه إلي وقال : يا عم ؛ جبر الله كسرك بين يديه .

وقال أحمد بن الفتح : رأيت بشر بن الحارث في المنام ، وهو قاعد في بستان ، وبين يديه مائدة ، وهو يأكل منها ، فقلت له : يا أبا نصر ؛ ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ قال : رحمني ، وغفر لي ، وأباحني الجنة ، وقال لي : كُلْ من جميع ثمارها ، واشرب من جميع أنهارها ، وتمتَّعْ بما فيها كما كنت تمنع نفسك الشهوات في دار الدنيا ، فأين أخوك أحمد ابن حنبل ؟ فقال : هو قائم علىٰ باب الجنة يشفع لأهل السُّنة ممن يقول القرآن كلام الله تعالىٰ غير مخلوق ، فقلت له : فما فعل معروف الكرخي ؟ فحرك رأسه ، ثم قال : هيهات! حالت ما بيننا وبينه الحجب ، إن معروفاً لم يعبد الله تعالىٰ شوقاً إلى الجنة ، ولا خوفاً من النار ، وإنما عبده ـ تبارك وتعالىٰ ـ شوقاً إليه ، فرفعه الله تعالىٰ إلى الرفيع الأعلا ، ورفع الحجب بينه وبينه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٩٢ـ١٩٦] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض التصانيف في ترجمة معروف الكرخي رحمه الله : أن الإمام أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين كانا يختلفان إليه ويسألانه ، وكانا أعلم منه في علم الظاهر .

وعن محمد بن حسان قال : قال لي معروف : ألا أعلمك عشر كلمات ؛ خمس كلمات

للدنيا وخمس كلمات للآخرة ، من دعا بهن . . وجد الله تعالىٰ عندهن ؟ فقلت : بلىٰ ، قال : قل : حسبي الله لديني ، حسبي الله لدنياي ، حسبي الله الكريم لما أهمني ، حسبي الله الحليم القوي لمن بغىٰ عليَّ ، حسبي الله الشديد لمن كادني بسوء ، حسبي الله الرحيم عند الموت ، حسبي الله الرؤوف عند المساءلة في القبر ، حسبي الله العظيم الخبير عند الحساب ، حسبي الله اللطيف عند الميزان ، حسبي الله القوي عند الصراط ، حسبي الله لا إلـٰه إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ، من قال ذلك صباحاً ومساء . . كفاه الله عز وجل ما أهمه من أمر دنياه وأخراه .

ثم قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال محمد بن منصور الطوسي : جئت مرة إلىٰ معروف الكرخي ببغداد ، فعض علىٰ أنامله ، وقال : هاه! لو لحقت عندنا الآن أبا إسحاق الدولابي كان عندنا الساعة ، فذهبت لأقوم فألحقه ، فقال : اجلس ؛ فإنك لا تدركه لعله قد بلغ منزله بالرَّي .

توفي معروف الكرخي رحمه الله ببغداد ، سنة مئتين ، ودفن بها ، وقبره ظاهر مشهور .

وقال إبراهيم الحربي : قبر معروف هو الترياق المجرَّب[1] ، رحمه الله .

وقال علي بن الموفق : رأيت في النوم كأني دخلت الجنة ، فرأيت رجلاً قائماً علىٰ مائدة ، وملَكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات ، وهو يأكل ، ورأيت رجلاً قائماً علىٰ باب الجنة يتصفح وجوه قوم ، فيُدخِل بعضاً ، ويرد بعضاً ، قال : ثم جاوزتهما إلىٰ حضرة القدس ، فرأيت في سرادق العرش رجلاً وقد شخَصَ بصره ينظر إلى الله عز وجل لا يَطرِف ، قال : فقلت لرضوان : مَن هـٰذا ؟ قال : معروف الكرخي ، عَبَدَ اللهَ لا خوفاً من ناره ، ولا شوقاً إلىٰ جنته ، بل حباً له ، فأباحه الله عز وجل النظر إليه ، وذكر أن الآخَرَين بشر بن الحارث وأحمد ابن حنبل ؛ ولذلك قال أبو سليمان الداراني : من كان اليوم مشغولاً بنفسه . . فهو غداً مشغولٌ بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولاً بربه . . فهو غداً مشغولٌ بربه . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) قال الذهبي في « السير » (٩/ ٣٤٣ـ٣٤٤) يفسر كلام إبراهيم الحربي : يريد إجابة دعاء المضطر عنده ؛ لأن البقاع المباركة يستجاب عندها الدعاء ، كما أن الدعاء في السحر مرجو ، ودبر المكتوبات ، وفي المساجد ، بل دعاء المضطر مجاب في أي مكان اتفق . انتهىٰ .

ومنهم الإمام :

أبو سفيان وكيع بن الجراح

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال جرير : جاءني ابن المبارك ، فقلت له : يا أبا عبد الرحمن ؛ مَن رجل الكوفة ؟ فسكت عني ، ثم قال لي : رجل المِصرَين وكيع بن الجراح .

وقال أحمد ابن حنبل : حدثنا وكيع ، ولو رأيتَ وكيعاً . . رأيتَ عجباً ، رجل لم تر عيناك مثله قط .

وقال يحيى بن معين : سمعت وكيعاً يقول : ذهبت إلىٰ أبي بكر ابن عياش ، ومعي ابني أحمد ، وكنت أنتخب لابني أحاديث ، فلما حدَّثَنا وقمنا . . قال أبو بكر لإنسان : أتدري من انتخب هـٰذه الأحاديث ؟ انتخبها رجل ، أيُّ رجل .

ونظر سفيان الثوري إلىٰ وكيع فقال : إن هـٰذا الرؤاسي[1] لا يموت حتىٰ يكون له شأن ، قال يحيىٰ : وذهب سفيان وقعد وكيع مكانه .

وقال أبو السائب : جالست وكيعاً سبع سنين ، فما رأيته بصق ، ولا رأيته مس ـ والله ـ حصاة بيده ، وما رأيته جلس مجلساً وتحول عنه ، وما رأيته إلا مستقبل القبلة ، وما رأيته يحلف بالله سبحانه وتعالىٰ .

وقال الحسين ابن أبي زيد : صاحبت وكيعاً إلىٰ مكة ، فما رأيته متكئاً ، ولا رأيته نائماً في محمله .

وقال الحسن بن محمد : كان وكيع بن الجراح إذا أراد أن يحدث . . احتبىٰ ، ثم يسأله أصحاب الحديث ، فإذا نزع الحبوة[2] . . لم يسألوه .

---

(١) أي : من بني رؤاس ، وفي نسخة : (الرباني) .

(٢) **الحبوة** في الأصل : الثوب الذي يحتبىٰ به ، ثم استخدم في الجلسة التي يكون محتبياً فيها ، والاحتباء : أن=

وكان إذا حدث . . استقبل القبلة ، وقال : مَن تهاون بالتكبيرة الأولىٰ . . فاغسل يديك منه .

وجاء رجل إلىٰ وكيع فسأله عن شيء من الورع ، فقال وكيع : مِن أين تأكل ؟ فقال : من ميراث ورثته عن أبي ، فقال له : لو نذر رجل ألاَّ يأكل إلا حلالاً ، ولا يلبس إلا حلالاً ، ولا يمشي إلا في حلال . . لقلنا له : اخلع ثيابك ، وارم نفسك في التراب ، ولـٰكن لا نجد إلا السعة ، ثم قال : لو أن رجلاً بلغ في ترك الدنيا مثل سلمان وأبي ذر وأبي الدرداء رضي الله عنهم . . ما قلنا له زاهد ؛ لأن الزهد لا يكون إلا في ترك الحلال المحض ، والحلال المحض لا نعرفه اليوم ، فالدنيا عندنا حلال وحرام وشبهات ، فالحلال حساب ، والحرام عذاب ، والشبهات عتاب ، فأنزل الدنيا منزلة الميتة ، خذ منها ما يقيمك ، فإن كانت حلالاً . . كنت قد زهدت فيها ، وإن كانت حراماً . . كنت قد أخذت منها ما يقيمك ؛ لأنه لا يحل لك من الميتة إلا قدر ما يقيمك ، وإن كانت شبهات . . كان فيها عتاب يسير .

وقال وكيع : إنما العاقل من عقل عن الله سبحانه وتعالىٰ أمر دينه ، ليس من عقل أمر دنياه .

وسئل عن الحديث ، فقال : هـٰذه بضاعة لا يرتفع فيها إلا صادق .

وقال يحيى بن معين : والله ؛ ما رأينا أحداً يحدث لله عز وجل غير وكيع ، وما رأيت أحفظ منه ، ووكيع في زمانه كالأوزاعي في زمانه .

أسند عن الأئمة الأعلام ما لا يُحَد ، وله من المصنفات الحميدة ما لا يُعَد . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٣٦٨ـ٣٧١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أحمد ابن حنبل : لو رأيت وكيعاً . . لعلمت أنك ما رأيت مثله ، يحفظ الحديث جيداً ، ويذاكر بالفقه فيحسن ، مع ورع واجتهاد ، ولا يتكلم في أحد ، ومَن مثل وكيع في العلم والحفظ والحلم مع خشوع وورع ؟!

وقال يحيى بن أكثم : صحبته سفراً وحضراً ، فكان يصوم الدهر ، ويختم القرآن في كل ليلة .

= يرفع الرجل رِجليه ، ويجلس علىٰ أليتيه ، يضمهما معاً في ثوب واحد إلىٰ ظهره ، وفي نسخة : (إذا أراد أن يحدث . . جثا علىٰ ركبتيه ، ثم يسأله أصحابه الحديث ، فإذا غيَّر قعدته . . لم يسألوه) .

وقال يحيى بن أيوب : حدثني بعض أصحاب وكيع الذين كانوا يلزمونه : أنه كان لا ينام حتىٰ يقرأ ثلث القرآن ، ثم يقوم في آخر الليل ، فيقرأ المفصل ، ثم يجلس ، فيأخذ في الاستغفار حتىٰ يطلع الفجر ، فيصلي ركعتين .

وقال ابنه : كان أبي يصلي الليل ، فلا يبقىٰ في دارنا أحد إلا صلىٰ ، حتىٰ جارية لنا لَتُصَلِّي .

وقال محمد بن أحمد : أغلظ رجل علىٰ وكيع القول ، فدخل وكيع بيتاً ، وعفَّر وجهه في التراب ، ثم خرج إلى الرجل ، وقال : زد وكيعاً بذنبه ، فلولاه . . ما سُلِّطتَ عليه .

وقال وكيع : زكاة الفطر لشهر رمضان . . كسجدتي السهو في الصلاة ، تجبر نقصان الصوم كما يجبر السجود نقصان الصلاة .

وحدَّث وكيع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وجلس بعد موت الثوري في مكانه .

وكان مولده سنة تسع وعشرين ومئة ، وحج سنة ست وتسعين ، ولما رجع . . توفي في طريق العراق في محرم سنة سبع وتسعين ومئة ، وهو ابن ست وستين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٨٦ـ٨٧] .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : وكيع بن الجراح هو الكوفي الإمام في الحديث وغيره ، وهو من تابعي التابعين ، سمع خلائق من التابعين ، وروىٰ عنه خلائق ، وأجمعوا علىٰ جلالته ، ووفور علمه ، وحفظه ، وإتقانه ، وورعه ، وصلاحه ، وعبادته ، وتوثيقه ، واعتماده .

قال أحمد ابن حنبل : ما رأيت أوعىٰ للعلم ولا أحفظ من وكيع ، ما رأيته شك في حديث إلا يوماً واحداً ، ولا رأيت معه كتاباً ولا رقعة قط .

وقال : هو أحب إلي من يحيى بن سعيد ، فقيل له : كيف فضلت وكيعاً ؟ فقال : كان وكيع صديقاً لحفص بن غياث ، فلما ولي القضاء . . هجره وكيع ، وكان يحيى بن سعيد صديقاً لمعاذ بن معاذ ، فلما ولي معاذ القضاء . . لم يهجره يحيى بن سعيد .

وقال أحمد : ما رأيت رجلاً قط مثل وكيع في الحفظ والعلم والإسناد والأبواب ، ويحفظ الحديث جيداً ، ويذاكر بالفقه ، مع ورع واجتهاد ، ولا يتكلم في أحد .

وقال ابن معين : ما رأيت أحداً يحدث لله عز وجل غير وكيع ، وهو أحب إلىٰ سفيان من

ابن مهدي ، وأحب إلي من أبي نعيم ، وما رأيت رجلاً قط أحفظ من وكيع ، ووكيع في زمانه كالأوزاعي في زمانه .

وقال أحمد بن عبد الله : وكيع كوفي ، ثقة ، عابد ، صالح ، من حفاظ الحديث[1] ، وكان يفتي .

وقال ابن عمار : ما رأيت بالكوفة في زمن وكيع أفقه ولا أعلم بالحديث من وكيع ، وكان جهبذاً[2] رضي الله عنه . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ١٤٤ـ١٤٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) روي : أنه ما رئي كتاب بيد وكيع قط ، إنما هو الحفظ ، فسأله رجل عن أدوية الحفظ ، فقال : ترك المعاصي ، ما جربت مثله للحفظ .

(٢) **الجِهبذ** : النَّقَّاد الخبير بغوامض الأشياء .

ومنهم الإمام :

يحيى بن سعيد القطان

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال يحيى بن سعيد : ما كتبت عن سفيان الثوري عن الأعمش أحب إلي مما سمعت من الأعمش .

وقيل ليحيى بن سعيد : رأيتَ أحداً أحسن حديثاً من شعبة ؟ قال : لا ، وقد صحبته عشرين سنة .

وقال يحيىٰ : أخاف أن يضيق على الناس تتبع الألفاظ ؛ لأن القرآن أعظم حرمة ، ووسع أن يُقرأ علىٰ وجوه إذا كان المعنىٰ واحداً(١) .

وذُكر التيمي ـ يعني : سليمان ـ عند يحيى بن سعيد فقال : ما جلست إلىٰ رجل أَخْوَفَ لله عز وجل منه .

وقال يحيىٰ : مات موسى الصغير خلف المقام وهو ساجد .

وقال أحمد ابن حنبل : الثبت عندنا بالعراق ثلاثة : يحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمـٰن بن مهدي ، ووكيع بن الجراح .

وقيل ليحيى بن سعيد في مرض موته : يعافيك الله ، فقال : أَحَبُّه إلي أحبه إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

وسمع قارئاً يقرأ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، فصعق ، وخر مغشياً عليه ، وارتفع صدره من الأرض ، وما أفاق إلا بعد حين ، فلما أفاق.. جعل يقول : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وما زالت به تلك القرحة حتىٰ مات رحمه الله تعالىٰ .

أسند يحيى بن سعيد عن الأئمة الأعلام . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٣٨٠ـ٣٨٢] .

---

(١) المراد منه ـ والله أعلم ـ علم القراءات ، وليس المراد منه قراءة القرآن بالمعنىٰ ، فهـٰذا مما لا يجيزه أحد من علماء الأمة .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : يحيى بن سعيد البصري القطان الإمام ، من تابعي التابعين ، سمع خلائق ، وروىٰ عنه خلائق ، واتفقوا علىٰ إمامته ، وجلالته ، ووفور عقله وحفظه ، وعلمه ، وصلاحه .

وقال أحمد ابن حنبل : ما رأيت مثل يحيى بن سعيد القطان في كل أحواله .

وقال يحيى بن معين : أقام يحيى ابن القطان عشرين سنة يختم القرآن في كل يوم وليلة ، ولم يفته الزوال في المسجد أربعين سنة ، وما رُئِيَ يطلب جماعة قط ـ يعني : ما فاتته ـ فيحتاج إلىٰ طلبها .

وقال أحمد ابن حنبل : يحيى ابن القطان إليه المنتهىٰ في التثبت بالبصرة ، وهو أثبت من وكيع ، وابن مهدي ، وأبي نعيم ، ويزيد بن هارون .

وقد روىٰ عن خمسين شيخاً ، ممن روىٰ عنهم سفيان ، قال : ولم يكن في زمان يحيىٰ مثله .

وقال أبو زرعة : هو من الثقات الحفاظ .

وقال يحيى بن معين : قال لي ابن مهدي : لا ترىٰ بعينيك مثل يحيى ابن القطان .

وقال ابن منجويه : كان يحيى ابن القطان من سادات أهل زمانه حفظاً ، وورعاً ، وفهماً ، وفضلاً ، وديناً ، وعلماً ، وهو الذي مهد لأهل العراق رسم الحديث ، واجتهد في البحث عن الثقات وترك الضعفاء .

وقال بندار : كتب عبد الرحمـٰن بن مهدي عن يحيى ابن القطان ثلاثين ألف حديث وحفظها .

وقال زهير : رأيت يحيى القطان بعد وفاته في النوم ، وعليه قميص مكتوب بين كتفيه : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، براءة ليحيى بن سعيد من النار .

وقال ابن سعد : توفي يحيى ابن القطان في صفر ، سنة ثمان وتسعين ومئة ، وكان مولده سنة عشرين ومئة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ١٥٤ـ١٥٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الرحمـٰن بن مهدي
رضي الله عنه

قال الشيخ محي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ :

عبد الرحمـٰن بن مهدي إمامُ أهل الحديث في عصره ، والمعوَّل عليه في علوم الحديث ومعارفه ، سمع خلائق من الأعلام ، وروىٰ عنه خلائق من الأعلام .

ورُوِّينا عن علي بن المديني أنه قال غير مرة : والله ؛ لو أخذت فحلفت بين الركن والمقام . . لحلفت بالله تعالىٰ أني لم أر قط أعلم بالحديث من عبد الرحمـٰن بن مهدي .

ثم قال ابن المديني : كان ابن مهدي يختم القرآن في كل ليلتين ، فكان ورده في كل ليلة نصف القرآن .

وقال ابن معين : ما رأيت رجلاً في الحديث أثبت من ابن مهدي .

ورُوِّينا عن محمد ابن أبي صفوان قال : سمعت عبد الرحمـٰن بن مهدي يقول : كُتب عني الحديث وأنا في حلقة مالك بن أنس .

ورُوِّينا عن البخاري قال : سمعت علي بن المديني يقول : جاء رجل إلى ابن مهدي ، فقال له : يا أبا سعيد ؛ إنك تقول هـٰذا ضعيف وهـٰذا قوي ، فمن أين لك هـٰذا ؟ وما دليلك عليه ؟ فقال له ابن مهدي : لو أتيت الناقد فأريته دراهم ، فقال : هـٰذا جيد وهـٰذا بهرج[1] . . أكنت تسأله عن دليله في ذلك ، أم كنت تسلم الأمر إليه ؟ قال : بل كنت أسلم الأمر إليه ، فقال ابن مهدي : فهـٰذا كذلك ، هـٰذا بطول المجالسة والمناظرة والمذاكرة والعلم به[2] .

ورُوِّينا عن يحيى بن عبد الرحمـٰن بن مهدي ، قال : كان أبي يحيي الليل كله .

---

(١) بَهْرَج : رديء .

(٢) فهي مَلَكَة أو سر الصنعة كما يقال حالياً عند أرباب المهن المختلفة .

ومناقبه كثيرة مشهورة ، ولد سنة خمس وثلاثين ومئة ، وتوفي سنة ثمان وتسعين ومئة . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٣٠٤ـ٣٠٥] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عبيد الله بن عمر القواريري : أملىٰ عليَّ عبد الرحمٰن بن مهدي عشرين ألف حديث حفظاً .

وقال أحمد ابن حنبل : كأن عبد الرحمٰن بن مهدي خلق للحديث .

وسئل أحمد ابن حنبل عن عبد الرحمٰن بن مهدي وعن يحيى بن سعيد القطان ، أيهما أفقه ؟ فقال : عبد الرحمٰن بن مهدي .

وقال ابن مهدي : ربما كنت أماشي عبد الله بن المبارك ، فأذاكره بالحديث ، فيقول : لا برحت حتىٰ أكتبه .

وقال ابن مهدي : لا يجوز أن يكون الرجل إماماً حتىٰ يعلم ما يصح مما لا يصح ، وحتىٰ لا يحتجَّ بكل شيء ، وحتىٰ يعلم مخارج العلم .

وقال : يحرم على الرجل أن يقول في أمر الدِّين إلا شيئاً سمعه من ثقة .

وقال : كان يقال : إذا لقي الرجل الرجل فوقه في العلم . . كان يوم غنيمته ، وإذا لقي من هو مثله . . دارسه وتعلم منه ، وإذا لقي من هو دونه . . تواضع له وعلَّمه ، ولا يكون إماماً في العلم من يحدث بكل ما سمع ، ولا من يحدث عن كل أحد ، ولا من يحدث بالشاذ من العلم ، والحفظ : الإتقان .

وقال : يحرم على الرجل أن يروي حديثاً في أمر الدِّين حتىٰ يتقنه ويحفظه كالآية من القرآن .

وسئل عن رجل محدِّث ، أثقة هو ؟ فقال : دعه ، لا نريده ، ولا تحدثني عنه ، قيل له : لِمه ؟ قال : تولدت أحاديثه ؛ يعني : زادت .

وذُكر عنده المحدِّثون ، فقال : لهٰذا الأمر قوم .

وقال : العلم كثير ، والعلماء قليل (١) .

وقال : الرجل إلى العلم أحوج منه إلى الأكل والشرب .

---

(١) في نسخة : (كثير) .

وقال : معرفة الحديث إلهام ، قال ابن نمير : صدق ، لو قلت : مِن أين ؟ لم يكن له جواب .

وكان علم عبد الرحمـٰن بن مهدي في الحديث كالسِّحْر .

وقال نعيم بن حماد : قلت لابن مهدي : كيف تعرف صحيح الحديث من سقيمه ؟ قال : كما يعرف الطبيب المجنون .

وقال ابن مهدي : لأن أعرف علة حديث . . أحب إلي من أن أستفيد عشرة أحاديث .

وقال : ما تركت حديث رجل . . إلا دعوت الله عز وجل له ، وأسميه .

وقال زياد بن أيوب : كنا في مجلس هشيم ، فلما قام . . أخذ أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين وخلف بن سالم بيد فتىً منا ، فأدخلوه مسجداً وكتبنا عنه ؛ فإذا هو عبد الرحمـٰن بن مهدي .

وقال خالد بن خداش : كنت عند حماد ، فجاء عبد الرحمـٰن بن مهدي ، فقال حماد : هـٰذا من الذين لو أدركهم أيوب . . لأكرمهم .

وقال الحسن بن محمد : أخبرني غير واحد : أنهم كانوا عند حماد بن زيد ، فسئل عن مسألة ، فقال : أين ابن مهدي ؟ مَن لهـٰذا إلا ابن مهدي ؟ فأقبل ابن مهدي ، فسألوه ، فأجاب ، فلما قام . . قال : هـٰذا سيد ـ أو فتىٰ ـ البصرة منذ ثلاثين سنة ، أو نحو هـٰذا .

وقال ابن مهدي : كنا في جنازة فيها عبيد الله بن الحسن العنبري ، وهو يومئذ قاضي البصرة ، وموضعه في قومه وقَدْرُه عند الناس ، فتكلم في شيء ، فأخطأ ، فقلت يومئذ ـ وأنا حدث السن ـ : ليس هـٰكذا يأتي ، عليك بالأثر ، فزبرني[1] الناس ، فقال عبيد الله : دعوه ، كيف هو ؟ فأخبرته ، فقال : صدقت يا غلام ، إذاً أرجع إلىٰ قولك وأنا صاغر .

وضحك رجل في مجلس عبد الرحمـٰن بن مهدي ، فسمعه ، فقال : مَن هـٰذا الذي يضحك ؟ فأعاد مراراً ، فأشاروا إلىٰ رجل ، فأقبل عليه ، وهو يقول له : تطلب العلم وأنت تضحك!! (مرتين) لا حدثتكم شهرين ، فقام الناس وانصرفوا ، قال عبد الرحمـٰن بن عمر : لا أعلم أني رأيت ابن مهدي ضاحكاً شديداً بقهقهة إلا التبسم ، فإن خشي أن يغلبه . . أمسك علىٰ فيه .

---

(١) زبرني الناس : زجروني .

وسأله رجل عن شيء ، فقال : لا أفعل ، فأعاد عليه السؤال ، فقال : قد قلت : لا أفعل ، فقال الرجل : إنك لم تحلف ، فقال : هـٰذا أشد ، لو حلفت . . لكفَّرت .

وقال : فتنة الحديث أشد من فتنة المال والولد ، كم من رجل يُظَن به الخير قد حملته فتنة الحديث على الكذب ؟!

وقال محمد بن المثنىٰ : رأيت في حجر عبد الرحمـٰن بن مهدي كتاباً فيه حديث رجل قد ضَرَب عليه ، فقلت له : يا أبا سعيد ؛ لم ضربت علىٰ حديثه ؟ قال : أخبرني يحيىٰ أنه يرىٰ رأي جهم[1] ، فضربت علىٰ حديثه .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : لولا أني أكره أن يعصى الله عز وجل . . لتمنيت ألاَّ يبقىٰ في هـٰذا المصر أحد إلا وقع فيَّ واغتابني ، وأي شيء أهنأ من حسنة يجدها الرجل في صحيفته يوم القيامة لم يعملها ولم يعلم بها ؟!

وقال عبد الرحمـٰن بن عمر : أراد ابن مهدي أن يبيع أرضاً له ، فقال الدلاَّل : قد أُعطِيتُ بالجريب[2] خمسين ومئتي دينار ، ولـٰكن الأرض خراب ، والنخل بادية العروق ، فلو كانت مسمدة . . رجوت أن أبيع الجريب بفضل خمسين ديناراً ، وهـٰذا كثير ، أربعة آلاف دينار تكون مئة ألف درهم ، أذهب أنا وغلامك حتىٰ نسمدها ونبيعها ، ولعلك لا تنظر إليها ولا تراها ، قال : فغضب ، وقال : أربعة آلاف دينار! أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، لا ، ولا كذا ، أظنه قال : ولا مئة ألف دينار .

وقال ابن مهدي : كنت أجلس يوم الجمعة في الجامع ، فيجلس إلي الناس ، فإذا كانوا كثيراً . . فرحت ، وإذا كانوا قليلاً . . حزنت ، فسألت بشر بن منصور ، فقال : هـٰذا مجلس سوء ، لا تعد إليه ، قال : فما عدت إليه .

وقام يوماً من المجلس وتبعه الناس ، فقال : يا قوم ؛ لا تطؤوا عقبي ، ولا تمشوا خلفي ، ووقف فقال : حدثنا أبو الأشهب عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (إن خفق النعال خلف الأحمق قَلَّ ما يبقي من دِينه) .

وقام ليلة ـ وكان يحيي الليل كله ـ فلما طلع الفجر . . رمىٰ بنفسه على الفراش ، فنام عن

---

(١) **جهم بن صفوان** : مبتدع ، علىٰ رأس الجهمية ، وهي مرجئة الخوارج ، قال أتباعها بالجبر والإرجاء .
(٢) **الجريب** المراد هنا : المزرعة .

صلاة الصبح حتىٰ طلعت الشمس ، فقال : هـٰذا مما جناه عليَّ الفراش ، فجعل علىٰ نفسه ألاَّ ينام علىٰ فراش شهرين .

ولما كانت صبيحة ابنة عبد الرحمـٰن علىٰ زوجها . . خرج عبد الرحمـٰن فأذَّن ، ثم مشىٰ إلىٰ بابهما ، فقال للجارية : قولي لهما يخرجان إلى الصلاة ، فخرجت النساء والجواري ، فقلن : سبحان الله! أي شيء هـٰذا ؟ فقال : لا أبرح حتىٰ يخرجا ، فخرجا بعد ما صلىٰ عبد الرحمن ، فبعث بهما إلىٰ مسجد خارج من الدرب .

وقال : ما خصلة تكون في المؤمن بعد الكفر بالله عز وجل أشد من الكذب ، وهو أصل النفاق الذي بني عليه النفاق .

وسئل : الرجل يتمنى الموت ؟ فقال : ما أرىٰ بذلك بأساً أن يتمنى الرجل ؛ مخافة الفتنة علىٰ دينه ، ولـٰكن لا يتمناه من ضر أو فاقة أو شيء مثل هـٰذا ، قد تمنىٰ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ومَن دونهما الموت خوف الفتنة .

وكان يقول : وهو مقبل من جنازة عبد الوهاب : إني لأشم ريح فتنة ، وإني لأَدعو الله تعالىٰ أن يسبقني بها .

وكان يقول : كان لي إخوان ، فماتوا ودُفع عنهم شرُّ ما نرىٰ ، وبقينا بعدهم ، وما بقي لي أخ إلا هـٰذا الرجل يحيى بن سعيد ، وما يُغبَط اليوم إلا مؤمن في قبره .

وكان يحج في كل سنة ، فمات أخوه وأوصىٰ إليه ، فقَبِل وصيته ، وأقام علىٰ أيتامه ، وترك الحج .

وقال ابن مهدي : كنت ربما أمرت صاحب الكُربُج(١) أن يعطي السائل درهماً ، فأنسىٰ أن أرده إليه ، فأسهر لذلك .

وقد ابتُليت بهـٰؤلاء الأيتام ، واستقرضت من يحيى بن سعيد أربع مئة دينار ، احتجت إليها في مصلحة أراضيهم وغيرها ، وما أحب أن يخلو مني الموسم ، فكان يجهِّز ويعطي في الحج . انتهىٰ .

أدرك جماعة من التابعين .

فمن روايته عن يحيى بن سعيد : عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن

---

(١) **الكُرْبُج** : الحانوت .

عمرو بن شرحبيل قال : رأيت في المنام قِباباً في رياضٍ ، فقلت : لمَن هٰذا ؟ فقالوا : لعمارٍ وأصحابه ، ورأيت قباباً في رياض ، فقلت : لمَن هٰذا ؟ فقالوا : لذي الكلاع وأصحابه ، فقلت : هٰذا وقد قَتَل بعضهم بعضاً ؟! فقال : إنهم وجدوا الله تعالىٰ واسع المغفرة سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الحلية » ٩/٣-٦٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسن محمد بن أسلم الطوسي
رضي الله عنه

روى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : عن إسحاق بن راهويه في حديث يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إن الله عز وجل لم يكن ليجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم علىٰ ضلالة ، فإذا رأيتم الاختلاف . . فعليكم بالسواد الأعظم** »[1] ، قال رجل : يا أبا يعقوب ؛ مَن السواد الأعظم ؟ قال : محمد بن أسلم وأصحابه ومن تبعه .

ثم قال : سأل رجل عبد الله بن المبارك فقال : يا أبا عبد الرحمٰن ؛ من السواد الأعظم ؟ قال : أبو حمزة السكري .

ثم قال إسحاق في ذلك الزمان : وفي زماننا محمد بن أسلم ومن تبعه .

ثم قال : لو سألتَ الجهال مَن السواد الأعظم . . لقالوا : جماعة المسلمين ، ولا يعلمون أن الجماعة هو عالم مستمسك بأثر النبي صلى الله عليه وسلم وسنته وطريقته ، فمَن كان معه وتبعه . . فهو الجماعة ، ومَن خالفه فيه . . ترَك الجماعة .

ثم قال إسحاق : لم أسمع عالماً منذ خمسين سنة كان أشد تمسكاً بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وأثره من محمد بن أسلم .

وقال أبو عبد الله[2] : سمعت أبا يعقوب المروزي ببغداد ، وقلت له : قد صحبتَ محمد بن أسلم وأحمد ابن حنبل ، أي الرجلين عندك أرجح وأبصر بالدِّين ؟ فقال : يا أبا عبد الله ؛ لِمَ تقول هـٰذا ؟ إذا ذكرتَ محمد بن أسلم في أربعة أشياء . . فلا تقرن معه أحداً : البصر بالدِّين ، واتباع أثر النبي صلى الله عليه وسلم ، والزهد في الدنيا ، وفصاحة لسانه بالقرآن والنحو ، ثم قال لي : نظر أحمد ابن حنبل في كتاب « الرد على الجهمية » الذي وضعه محمد بن أسلم ، فتعجب منه .

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم (١/ ١٩٩) ، وابن ماجه (٣٩٥٠) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم الطوسي خادم ابن أسلم .

ثم قال : يا أبا يعقوب ؛ رأت عيناك مثل محمد بن أسلم ؟ فقلت : يا أبا عبد الله ؛ رأىٰ محمد في أستاذيه ورجاله مثله ؟ فتفكر ساعة ، ثم قال : لا ، قد رأيتُهم وعرفتهم ، فلم أر فيهم علىٰ صفة محمد بن أسلم .

وقال أبو عبد الله : وسألت يحيى بن يحيىٰ ، وكان يُعَد بعد ابن المبارك بخراسان عن ست مسائل ، فأفتىٰ فيها ، وكنت سمعت أن محمد بن أسلم أفتىٰ فيها بغير ما أفتىٰ به يحيى بن يحيىٰ ، واحتج للمسائل بحديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبرت يحيى بن يحيىٰ ، فقال : يا بني ؛ أطيعوا أمره ، وخذوا بقوله ؛ فإنه أبصر منا ، ألا ترىٰ أنه يَحتج بحديث النبي صلى الله عليه وسلم في كل مسألة ، وليس ذاك عندنا .

قال : وسمعت شيخاً من أهل مرو يكنىٰ بأبي عبد الله قال : صحبت سفيان بن عيينة ووكيعاً ، وكان صديقاً ليحيى بن يحيىٰ وإسحاق بن راهويه ، قال : كنت عند يحيى بن يحيىٰ ، فقال لي : يا أبا عبد الله ؛ قد رأيتَ محمد بن أسلم وصحبت إسحاق بن راهويه ، فأي الرجلين أبصر عندك أو أرجح ؟ فقلت : يا أبا زكرياء ؛ ما لَك إذا ذكرت محمد بن أسلم . . تذكر معه غيره ؟!

وفيه : إنما يَعرِف محمد بن أسلم رجل بصير بالعلم ، قد عرف الحديث ، ينظر في شمائل هـٰذا الرجل فيعلم بأي حديث يعمل ، هـٰذا الرجل اليوم غريب في هـٰذا الخلق ؛ لأنه يعمل بما عمل به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين ، وهو عند الناس مُنكَر ؛ لأنهم لم يروا أحداً يعمل به ، فلا يعرفه إلا بصير بالسُّنة ، فقال يحيى بن يحيىٰ : صدقت ، هو كما تقول .

وقال إسحاق بن راهويه : **أما أمر محمد بن أسلم** : **فأمر سماوي ؛ لأنه كلما أخذ في شيء . . تم له** ، ونحن عبيد بطوننا لا يتم لنا أمر نأخذ فيه ، ونحن عند محمد بن أسلم مثل السُّرَّاق .

وقال أبو عبد الله : كتب إليَّ أحمد بن نصر أن اكتب إلي بحال محمد بن أسلم ؛ فإنه ركن من أركان الإسلام .

وقال : وأخبرني محمد بن مطرف ـ وكان قد رحل إلىٰ صدقة الماوردي[1] ـ قال : قلت

---

(١) في بعض النسخ : (الباوردي) .

لصدقة : ما تقول في رجل يقول : القرآن مخلوق ؟ فقال : لا أدري ، فقلت له : إن محمد بن أسلم قد وضع فيه كتاباً ، فقال : أهو معكم ؟ قلت : نعم ، فقال : عليَّ به ، فأتيته به ، فلما كان من الغد . . قال : ويحكم! كنا نظن أن صاحبكم لم يصل إلىٰ هٰذه المنزلة والمعرفة بالعلم ، فلما نظرت كتابه . . فإذا هو قد فاق أصحابنا ، قد كنت قبل اليوم لو ضُرِبتُ سوطين . . لقلت القرآن مخلوق ، وأما اليوم : فلو ضربت عنقي . . لم أقل ذلك .

وقال : كنت جالساً عند أحمد بن نصر بنيسابور بعد موت محمد بن أسلم بيوم ، فدخل عليه جماعة من العلماء فيهم أصحاب الحديث وغيرهم من مشايخ وشبان ، فقالوا له : جئناك من عند أبي النضر[1] وهو يقرئك السلام ، ويقول لك : ينبغي لنا أن نجتمع في موضع ، فيعزي بعضنا بعضاً بموت هٰذا الرجل الذي لم نعرف من عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله رجلاً مثله .

وقيل لأحمد بن نصر : يا أبا عبد الله ؛ صلَّىٰ عليه ألفُ ألفٍ ، وقال بعضهم : ألف ألف ومئة ألف ، يقول صالحهم وطالحهم : لم نر لهٰذا الرجل نظيراً ، فقال أحمد بن نصر : يا قوم ؛ أصلحوا سرائركم فيما بينكم وبين الله عز وجل ، ألا ترون رجلاً دخل بيته بطوس فأصلح سريرته لله عز وجل ، ثم نقله الله تعالىٰ إلينا ، فصلح علىٰ يديه ألف ألف ومئة ألف .

وقال أبو عبد الله : دخلت علىٰ محمد بن أسلم منزله بنيسابور قبل وفاته بأربعة أيام ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ تعال أُبشِّرك بما صنع الله تعالىٰ بأخيك من الخير ، قد نزل بي الموت ، وقد مَنَّ الله تعالىٰ وأنعم عليَّ أنه ليس عندي درهم يحاسبني الله عليه ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ قد علم ضعفي ، وأني لا أطيق الحساب ، فلم يدع عز وجل لي شيئاً يحاسبني عليه ، ثم قال لي : أغلق الباب ، ولا تأذن لأحد عليَّ حتىٰ أموت ، واعلم : أني أخرج من الدنيا وليس أدع سوىٰ كسائي ، ولبدي ، والإناء الذي أتوضأ منه ، وكتبي هٰذه ، وهٰذه صرة فيها نحو ثلاثين درهماً لابني ، أهداها إليه قريب له ، ولا أعلم شيئاً أحل منها ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنت ومالُك لأبيك »[2] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وولدُهُ من كسبه »[3] ، فكفنوني منها ، فإن أصبتم بعشرة دراهم

---

(١) في نسخة : أبي نصر .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢٩٢) ، وابن حبان في « الإحسان » (٤١٠) .

(٣) أخرجه أبو داوود (٣٥٢٨) ، والنسائي (٤٤٤٩) .

كفناً . . فلا تشتروا بخمسة عشر ، وابسطوا علىٰ جنازتي لبدي وكسائي ، ولا تؤذنوا أحداً بموتي ، وتصدقوا بإنائي ؛ أعطوه مسكيناً .

ثم مات في اليوم الرابع ، فلما أخرجت جنازته . . جعل النساء يقلن مِن فوق السطوح : **يا أيها الناس ؛ هـٰذا هو العالم الذي خرج من الدنيا ، وهـٰذا ميراثه ، ليس مثل علمائنا هـٰؤلاء الذين هم عبيد بطونهم ، يجلس أحدهم للعلم ، فيشتري الضياع ويحصِّل الأموال** ، فتعجبت من ذلك ؛ فإنه قال ذلك بيني وبينه ، ولم يكن عندنا أحد ، فمِن أين عرف الناس أن هـٰذا ميراثه فقط ؟ لـٰكن عالم الخفيات سبحانه وتعالىٰ يظهر أسرار أوليائه .

وقال محمد بن أسلم : كيف ينبغي للعبد أن يكتسب الذنوب وهو يعلم أن الله كان علىٰ كل شيء رقيباً .

وقال أبو عبد الله : صحبت محمد بن أسلم نيفاً وعشرين سَنة ، فلم أره يصلي شيئاً من النوافل بحيث يراه أحد إلا يوم الجمعة ، ولا يسبح ولا يقرأ حيث يراه أحد ، وسمعته يحلف غير مرة : لو قدرت أن أتطوع حيث لا يراني الملكان . . لفعلت .

وكان يدخل بيته وعنده كوز فيه ماء ، فلا أدري ما يصنع ، إلا أني سمعت ابناً له صغيراً يحكي بكاءه ، فنهرته أمه ، فسألت : ما هـٰذا البكاء ؟ فقالت : إن أبا الحسن يدخل هـٰذا البيت يقرأ القرآن ويبكي ، فيسمعه الصغير ، فيحكيه ، وكان إذا خرج . . غسل وجهه واكتحل ، فلا يرىٰ عليه أثر البكاء .

وكان يَصِل قوماً ويعطيهم ويكسوهم ، ويقول للرسول : لا تُعلِمْهم مَن بعث هـٰذا إليهم ، ويأتيهم بالليل أحياناً ويعطيهم ويخفي نفسه غاية الإخفاء ، حتىٰ أن ثيابهم تبلىٰ ، ويفرغ ما عندهم ولا يدرون مَن الذي أعطاهم .

ولا أعلم منذ صحبته أنه وصل أحداً بأقل من مئة درهم ، إلا ألاَّ يمكنه ذلك ، ولقد أكلت عنده ثريداً بارداً ، فقلت له : يا أبا الحسن ؛ ما بال هـٰذا الثريد بارداً ؟ فقال : يا أبا عبد الله ؛ إني إنما طلبت العلم لأعمل به ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس في الحار بركة »[1] ، وكنت أخبز له دقيقاً ، فما نخلت له دقيقاً قط .

وقال : كان يقول لي : اشتر لي شعيراً أسود قد تركه الناس ؛ فإنه يصير إلى الكنيف[2] ،

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم (٤/ ١٣٢) .

(٢) الكنيف : أي الحمام .

ولا تشتر إلا قدر كفاية يوم ، وأردت أن أخرج إلىٰ بعض القرىٰ ولا أرجع إلىٰ أربعة أشهر ، فاشتريت له عدل شعير أبيض ونقيته وطحنته ، ثم أتيته به ، فقلت له : إني أريد الخروج إلىٰ بعض القرىٰ ، فاشتريت هـٰذا لتأكل منه حتىٰ أرجع ، فقال لي : نقَّيتَه لي وجَوَّدته ؟ فقلت له : نعم ، قال : فتغير لونه ، وقال : إن كنت نقَّيتَه . . فأطعمه نفسك ، فلعل لك عند الله عز وجل من الأعمال ما يحتمل أن تطعم نفسك النقي ، أما أنا : فقد سرت في الأرض شرقاً وغرباً ، فوالله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ ما رأيت نفساً تصلي إلى القبلة شراً عندي من نفسي ، فبمَ أحتج عند الله عز وجل إن أطعمتها النقي ؟ خذ هـٰذا الطعام ، لا حاجة لي فيه .

وكان يشتري في كل يوم شعيراً أسود رديئاً ، ويقول : إنه إنما يصير إلى الكنيف ، ثم يقول : ويحكم! أنتم لا تعرفون الكنيف ؛ لأنكم لو أبصرتم بقلوبكم . . لعرفتم الكنيف ، لو أن إنساناً يبيع شيئاً فجاءه آخر بدراهم ، وقال : أحب أن تعطيني من جيد ما عندك ؛ لأني أريد أن أضعه في الكنيف . . لكُنتُم تضحكون منه ، وتقولون : هـٰذا مجنون ، فكيف لا تضحكون من أنفسكم ؟! بطونكم هي الكنيف ، وإلا . . فاحفروا حفرة ، وضعوا فيها طعاماً مدة أيام ، وانظروا هل ينتن في شهر ، وأنتم تضعون الطعام في بطونكم فينتن في يوم وليلة ، فالكنيف هو البطن .

وقال محمد بن أسلم لأبي عبد الله : يا أبا عبد الله ؛ اشتر لي رحىً وشعيراً أسود حتىٰ أطحنه بيدي ؛ لعلِّيْ أبلغ ما كان فيه علي وفاطمة رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين .

وقال أبو عبد الله : ووُلِد لمحمد بن أسلم ابن ، فدفع إلي دراهم وقال : اشتر كبشين عظيمين ، وغال بهما ؛ فإنه كلما كان أعظم . . كان أفضل ، فاشتريت ، وأعطاني عشرة دراهم وقال : اشتر دقيقاً واخبزه ، فاشتريت ونخلت الدقيق وخبزته ، ثم أتيته به ، فقال لي : أنخلت الدقيق ؟ قلت : نعم ، فقال : خذه لنفسك ، ثم أعطاني عشرة دراهم أخرىٰ ، وقال : اشتر دقيقاً ولا تنخله واخبزه ، ففعلت ذلك ، ولما أتيته به . . قال : يا أبا عبد الله ؛ العقيقة سُنَّة ، ونخل الدقيق بدعة ، ولا ينبغي أن يكون في السُّنَّة بدعة ، فلم أُحبَّ أن يكون ذلك الخبز في بيتي .

ثم قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : كتاب محمد بن أسلم المترجم بـ« الرد على الجهمية » قد اشتمل علىٰ أكثر من جزأين مشحوناً[1] بالآثار المسندة ، وأقوال الصحابة

---

(١) في النسخ : (خزائن مشحونة) والمثبت من « الحلية » (٩/٢٤٨) .

والتابعين ، رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين .

أدرك محمد بن أسلم من التابعين : الأعمش ، وإسماعيل ابن أبي خالد ، لٰكنه لم يسمع منهما ، وسمع جمعاً من الأئمة الأعلام من تابعي التابعين ، رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٢٣٨ـ٢٤٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

يحيى بن يحيى النيسابوري
رضي الله عنه

قال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه : قال الحسن بن سفيان : كنا إذا رأينا رواية ليحيى بن يحيىٰ(1) عن يزيد بن زريع . . قلنا : ريحانة خراسان عن ريحانة العراق .

وقال إسحاق بن راهويه : مات يحيى بن يحيىٰ وهو إمام أهل الدنيا .

وقال محمد بن أسلم : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : يا رسول الله ؛ عن مَن أكتب ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « عن يحيى بن يحيىٰ » .

ووصفوه بأنه كان زاهداً ، صالحاً ، خيِّراً ، فاضلاً ، صائناً لنفسه ، حسن الوجه ، طويل اللحية .

روىٰ عنه : إسحاق بن راهويه ، ويحيى بن معين ، ومحمد بن رافع ، ومحمد بن أسلم الطوسي ، ومحمد بن عبد الوهاب ، والبخاري ومسلم في « صحيحيهما » ، وخلائق ، واتفقوا علىٰ توثيقه وجلالته .

وقال ابن راهويه : هو أثبت من عبد الرحمـٰن بن مهدي ، وقال : ما رأيت مثله ، ولا هو رأىٰ مثل نفسه . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/١٥٩ـ١٦٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : يحيى بن يحيىٰ أحد شيوخ مسلم رحمه الله ، وكان يكنىٰ : أبا زكريا .

---

(١) وجد في هامش نسخة : (انظر ترجمة يحيى بن يحيىٰ صاحب الإمام مالك رحمهما الله ، و هو شيخ البخاري) اهـ
لعل الناسخ أراد ـ والله أعلم ـ أن يبين أن يحيى بن يحيى النيسابوري هو غير يحيى بن يحيى بن كثير ، فالثاني صاحب الإمام مالك ، وهو غير المترجَم له .

وذكر الإمام أحمد ابن حنبل عبد الله بن المبارك ، فأثنىٰ عليه ، ثم قال : ما أخرجت خراسان مثل عبد الله بن المبارك ، ولا بعد ابن المبارك مثل يحيى بن يحيىٰ ، شرب مرَّة دواء فلم يجبه ، فقالت له امرأته : لو قمت وترددت في الدار خطوات لعله يجيب ، فقال لها يحيىٰ : ما أدري ما هـٰذه المشية ، وأنا أحاسب نفسي منذ أربعين سنة ما أمشي إلا علىٰ ما أحتسبه .

وقال الحسن بن علي : كان يحيى بن يحيىٰ يحضر مجلس الإمام مالك رحمه الله ، فانكسر يوماً قلمه ، فناوله المأمون قلماً من ذهب ومقلمة ذهب ، فامتنع من قَبوله لهما ، فقال له المأمون : ما اسمك ؟ فقال : يحيى بن يحيىٰ ، فقال : أتعرفني ؟ قال : نعم ، أنت المأمون بن الرشيد أمير المؤمنين ، قال : فكتب المأمون علىٰ ظهر جزء ، ناولت يحيىٰ قلماً في مجلس مالك فلم يقبله ، ثم إنه لما أَفْضَتِ الخلافة إليه . . بعث إلىٰ عامله بنيسابور أن يفوض القضاء إلىٰ يحيى بن يحيىٰ ، قال : فبعث العامل يستدعيه ، فقال له بعض الحاضرين : إن يحيى بن يحيىٰ يمتنع من الحضور إليك ، وليته يأذن للرسول في الدخول إليه ، ولـٰكن أرسل إليه كتاب أمير المؤمنين ، فأرسل إليه الكتاب ، فلما قرىء عليه . . امتنع وأبىٰ قَبول ذلك ، فلما بلغ العامل . . حضر إليه بنفسه وراجعه ، وهو لا يقبل ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد أمرك بشيء ، وأنت من رعيته ، فكيف تأبىٰ عليه ولا تقبل ولايته ؟! فقال يحيى بن يحيىٰ : قل لأمير المؤمنين : ناولتني قلماً وأنا شاب فلم أقبله ، أفتكرهني الآن على القضاء وأنا شيخ ؟ فرفع العامل الخبر إلىٰ المأمون ، فقال : صدق ، قد علمت أنه لا يقبل ، ولـٰكن قل له يختار شخصاً نولِّيه القضاء ، فبعث إليه العامل يخبره بما قال أمير المؤمنين ، فاختار لهم رجلاً وعيَّنه ، فلما ولوه القضاء . . جاء إلىٰ يحيى بن يحيىٰ ليسلم عليه وعليه سواد ، فلما دخل علىٰ يحيى بن يحيىٰ وكان جالساً علىٰ فراش ، فنحىٰ ذلك الفراش ؛ كراهية أن يجمعه وإياه فراش واحد ، فقال له القاضي : أيها الشيخ ؛ ألم تخترني ؟ قال : نعم ، إنما قلت لهم اختاروه ، وما قلت لك تتقلد القضاء .

روىٰ يحيى بن يحيىٰ عن مالك ، والليث ، وغيرهما .

وتوفي يوم الأربعاء ، سلخ صفر ، سنة ست وعشرين ومئتين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٧٨ـ٧٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

محمد بن إسماعيل البخاري

رضي الله عنه

هو الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ[1] الجُعْفيُّ مولاهم ، البخاريُّ ، صاحب « الصحيح » والتصانيف ، جبلٌ في هـٰذا العلم شامخ ، وعالم بالصناعة راسخ ، إمام هـٰذا الشأن ، والمعوَّل عليه وعلىٰ كتابه في سائر الأزمان ، تُستنزَل الرحمة عند ذِكره ، ويستسقى الغيث بقراءة كتابه ، طاف وجال ، ووسع في الطلب المجال .

وقال شيخ شيخنا شيخ الإسلام محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : رُوِّينا عن الخطيب الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي قال : بَرْدِزْبَةُ : مجوسي مات عليها ، وابنه أسلم علىٰ يد اليمان البخاري الجعفي والي بخارىٰ ، ويمانٌ هـٰذا : هو أبو عبد الله محمد بن جعفر بن يمان المُسْنَدي ـ بفتح النون ـ شيخ البخاري ، وإنما قيل للبخاري جعفي ؛ لأنه مولىٰ يمانٍ الجعفي وَلاء إسلام .

واتفقوا علىٰ أن البخاري ولد ببخارىٰ بعد صلاة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شوال ، سنة أربع وتسعين ومئة ، وتوفي ليلة السبت عند صلاة العشاء ليلة عيد الفطر ، سنة ست وخمسين ومئتين ، ودفن بخرتنك قرية علىٰ فرسخين من سمرقند .

ورُوِّينا من أوجه : عن الحسن بن الحسين البزاز ـ بزايين ـ قال : رأيت محمد بن إسماعيل البخاري نحيف الجسم ، ليس بالطويل ولا بالقصير .

ورُوِّينا عن أبي عبد الله محمد بن يوسف الفِرَبْرِي ـ راوية « صحيح البخاري » ـ قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال : « أين تريد ؟ » قلت : أريد محمد بن إسماعيل البخاري ، فقال : « أقرئه مني السلام » .

---

(١) بردزبة بالبخارية ، وبالعربية : الزَّرَّاع .

ورُوِّينا عن الفربري أيضاً قال : رأيت أبا عبد الله البخاري في النوم خلف النبي صلى الله عليه وسلم يمشي ، كلَّما رفع قدمه . . وضع البخاري قدمه في ذلك الموضع .

ورُوِّينا عن أبي عبد الله البخاري أنه قال : المادح والذام عندي سواء .

وقال : أرجو أن ألقى الله تعالىٰ ولا يطالبني أني اغتبت أحداً .

وقال : ما توليت شراء شيء ولا بيعه قط ، قيل له : فمَن كان يشتري لك في الأسفار ؟ قال : كنت أُكفىٰ ذلك .

وعن محمد بن حمدويه قال : سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول : أحفظ مئة ألف حديث صحيح ، ومئتي ألف حديث غير صحيح .

ورُوِّينا عن أحمد ابن حنبل قال : ما أخرجَت خراسان مثل محمد بن إسماعيل .

وعنه قال : انتهى الحفظ إلىٰ أربعة من أهل خراسان : أبو زرعة الرازي ، ومحمد بن إسماعيل البخاري ، وعبد الله بن عبد الرحمـٰن السمرقندي الدارمي ، والحسن بن شجاع البلخي .

وعن الحافظ أبي علي صالح بن محمد جزرة قال : ما رأيت خراسانياً أفهم من البخاري .

وعنه قال : أعلمهم بالحديث البخاري ، وأحفظهم أبو زرعة ، وهو أكثرهم حديثاً .

وعن محمد بن بشار ـ شيخ البخاري ـ قال : حفاظ الدنيا أربعة : أبو زرعة بالرَّي ، ومسلم بن الحجاج بنَيسابور ، وعبد الله بن عبد الرحمـٰن الدارمي بسمرقند ، ومحمد بن إسماعيل ببخارىٰ .

وعنه قال : ما قدم علينا البصرة مثل البخاري .

وعنه أنه قال حين دخل البخاري البصرة : دخل اليوم سيد الفقهاء .

وفي رواية أخرىٰ عنه : أنه قام إليه وأخذ بيده وعانقه ، وقال : مرحباً بمن أفتخرُ به منذ سنين .

ورُوِّينا عن إسحاق بن أحمد بن خلف قال : سمعت البخاري غير مرة يقول : ما تصاغَرَتْ نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني ، فذُكر لعليٍّ بن المديني قول البخاري هـٰذا ، فقال : ذروا قوله ، هو ما رأىٰ مثل نفسه .

ورُوِّينا عن محمد بن عبد الله بن نمير وأبي بكر ابن أبي شيبة قالا : ما رأينا مثل البخاري .

رُوِّينا عن عمرو بن علي الفلاس قال : حديث لا يعرفه البخاري . . ليس بحديث .

ورُوِّينا عن عَبْدان شيخ البخاري قال : ما رأيت شاباً أبصر من هٰذا ، وأشار إلى البخاري .

ورُوِّينا عن عبد الله بن محمد المُسْنَدي شيخ البخاري أنه قال : البخاري إمام ، فمَن لم يجعله إماماً . . فاتهمه .

ورُوِّينا عن الإمام أبي محمد عبد الله الدارمي قال : رأيت العلماء بالحرمين والحجاز والشام والعراق ، فما رأيت فيهم أجمع من البخاري .

ورُوِّينا عن أبي سهل محمود بن النضر قال : دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة ، ورأيت العلماء بها ، كلما جرىٰ ذكر البخاري . . فضلوه علىٰ أنفسهم .

ورُوِّينا عن علي بن حُجْر قال : أخرَجَت خراسان ثلاثة : أبا زرعة بالرَّي ، والبخاري ببخارىٰ ، والدارمي بسمرقند ، قال : والبخاري عندهم أعلمهم وأبصرهم وأفهمهم .

ورُوِّينا عن أبي حامد الأعمشي قال : رأيت البخاري في جنازة ، ومحمد بن يحيى الذُّهلي شيخ البخاري وإمام نيسابور يسأله عن الأسماء والكنىٰ وعلل الحديث ، والبخاري يمر فيها مثل السهم ، كأنه يقرأ : (قل هو ٱلله أحد) .

ورُوِّينا عن حاشد ـ بالحاء المهملة ، وكسر الشين المعجمة ـ ابن إسماعيل قال : رأيت إسحاق بن راهويه جالساً على السرير ، ومحمد بن إسماعيل البخاري معه ، فأنكر عليه البخاري شيئاً ، فرجع إسحاق إلىٰ قول محمد بن إسماعيل البخاري .

وقال إسحاق : يا قوم ، يا معشر أصحاب الحديث ؛ اكتبوا عن هٰذا الشاب ؛ فإنه لو كان في زمن الحسن البصري . . لاحتاج الناس إليه ؛ لمعرفته بالحديث وفهمه .

ورُوِّينا عن أبي عمرو أحمد بن نصر الخفاف قال : حدثني محمد بن إسماعيل البخاري التقي النقي العالم ، الذي لم أر مثله .

ورُوِّينا عن أبي عيسى الترمذي قال : لم أر بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من البخاري .

ورُوِّينا عن عبد الله بن حماد الآملي[1] ـ وهو شيخ البخاري ـ قال : وددت أني شعرة في صدر محمد بن إسماعيل .

ورُوِّينا عن محمد بن يعقوب الحافظ ، عن أبيه قال : رأيت مسلم بن الحجاج بين يدي البخاري يسأله سؤال الصبي المتعلم .

ورُوِّينا عن مسلم أيضاً أنه قال للبخاري : لا يُبغِضك إلا حاسد ، وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك .

وروى الحاكم أبو عبد الله في « تاريخ نيسابور » بإسناده عن أحمد بن حمدون قال : جاء مسلم بن الحجاج إلى البخاري ، فقبَّل ما بين عينيه ، وقال : دعني أقبِّل رجليك يا أستاذَ الأستاذِين ، وسيِّدَ المحدثين ، ويا طبيب الحديث في عِلَله .

ورُوِّينا عن حاشد بن إسماعيل قال : كان أهل البصرة يَعْدُون خلف البخاري في طلب الحديث وهو شاب فتىً ، يغلبوه علىٰ نفسه ، ويجلسوه في بعض الطريق ، ويجتمع عليه ألوف ، أكثرهم ممن يكتب عنه ، وكان البخاري إذ ذاك لم يخرج وجهه .

ورُوِّينا عن أبي بكر الأغر قال : كتبنا عن البخاري علىٰ باب محمد بن يوسف الفريابي وما في وجهه شعرة .

ورُوِّينا عن الحافظ صالح بن محمد جَزَرَة قال : كان البخاري يجلس ببغداد ، وكنت أستملي منه ، ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفاً .

ورُوِّينا عن محمد بن يوسف بن عاصم قال : كان للبخاري ثلاثة مستملين ، واجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفاً .

ورُوِّينا عن إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة قال : ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من البخاري .

قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي : وحسبك بإمام الأئمة ابن خزيمة يقول فيه هـٰذا القول مع لُقِيِّه المشايخ والأئمة شرقاً وغرباً .

قال أبو الفضل : ولا عجب فيه ؛ فإن المشايخ قاطبة أجمعوا علىٰ تقدمته ، وقدموه علىٰ أنفسهم في عنفوان شبابه ، وابن خزيمة إنما رآه عند كبره وتفرده في هـٰذا الشأن .

---

(١) في نسخة : (عبد الله بن حماد الآيلي) ولعل الصواب ما أثبت .

ورُوِّينا عن إبراهيم بن محمد بن سلام ـ بتخفيف اللام على الأصح ، وقيل : بتشديدها ـ قال : إن الرُّتُوت من أصحاب الحديث مثل : سعيد ابن أبي مريم المصري ، ونعيم بن حماد ، والحُميدي ، والحجاج بن منهال ، وإسماعيل ابن أبي أويس ، والعدني[1] ، والحسن الخلال ، ومحمد بن ميمون صاحب ابن عيينة ، ومحمد بن العلاء ، وإبراهيم بن المنذر الحزامي ، وإبراهيم بن موسى الفراء ، كلهم كانوا يهابون البخاري ، ويقضون له علىٰ أنفسهم في النظر والمعرفة .

قلت : الرتوت : الرؤساء ، قاله ابن الأعرابي ، وغيره .

وقال الحاكم أبو عبد الله الحافظ في « تاريخ نيسابور » : محمد بن إسماعيل البخاري إمام أهل الحديث بلا خلاف ، أعرفه بين أئمة أهل النقل .

واعلم : أن وصف البخاري بارتفاع المحل والتقدم في هٰذا العلم على الأماثل والأقران . . متفَق عليه فيما تقدم وتأخر من الأزمان ، ويكفي في فضله أن معظم من أثنىٰ عليه ونشر مناقبه شيوخه الأعلام المبرزون والحذاق المتقنون .

فَصْلٌ

في الإشارة إلىٰ بعض شيوخه ، والآخذين عنه ، والمنتمين إليه ، والمستفيدين منه

هٰذا الباب واسع جداً لا يمكن استقصاؤه .

رُوِّينا عن الخطيب البغدادي أنه قال : رحل البخاري إلىٰ سائر محدثي الأمصار ، وكتب بخراسان ، والجبال ، ومدن العراق كلها ، والحجاز ، والشام ، ومصر ، وورد بغداد دفعات ، وروىٰ عن جماعات من الأئمة لا يحصون كثرة .

ورُوِّينا من جهات عن جعفر بن محمد القطان قال : سمعت البخاري يقول : كتبت عن ألف شيخ من العلماء وزيادة ، وليس عندي حديث إلا وأذكر إسناده .

وأما الآخذون عنه : فأكثر من أن يحصروا ، وأشهر من أن يذكروا .

وقد رُوِّينا عن الفربري أنه قال : سمع « الصحيحَ » من البخاري تسعون ألف رجل ، فما بقي منهم أحد يرويه غيري ، وقد روىٰ عنه خلائق غيرُ ذلك .

وقد قدَّمنا أنه كان يحضر مجلسه أكثر من عشرين ألفاً يأخذون عنه .

---

(١) **العدني** : محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني .

وممن روىٰ عنه من الأئمة الأعلام : الإمام مسلم بن الحجاج صاحب « الصحيح » ، وأبو عيسى الترمذي ، وأبو عبد الرحمـٰن النسائي ، وأبو حاتم وأبو زرعة الرازيان ، وأبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي الإمام ، والحافظ صالح بن محمد جزرة ، وأبو بكر بن خزيمة ، ويحيى بن محمد بن صاعد ، وآخرون من الأئمة الحفاظ .

وقال الخطيب : آخر من حدث ببغداد عن البخاري : الحسين بن إسماعيل المحاملي .

فصل

في اسم « صحيح البخاري » ، وتعريف محله ، وسبب تصنيفه ، وكيفية جمعه ، وتأليفه

أما اسمه : فسماه مؤلفه البخاري : « الجامع المسنَد الصحيح المختصر من أمور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسننِهِ ، وأيامِهِ » .

وأما محله : فقد قال العلماء : هو أول مصنف صنف في الصحيح المجرد .

واتفق العلماء علىٰ أن أصح الكتب المصنفة « صحيحا البخاري ومسلم » .

واتفق الجمهور علىٰ أن « صحيح البخاري » أصحُّهما صحيحاً ، وأكثرهما فوائد .

وقال الحافظ أبو علي النيسابوري وبعض علماء المغرب : إن « صحيح مسلم » أصح ، وأنكر العلماء ذلك عليهم ، والصواب ترجيح « صحيح البخاري » .

وقد قرر الحافظ الإمام أبو بكر الإسماعيلي في كتابه « المدخل » ترجيح « صحيح البخاري » علىٰ مسلم وذكر دلائله .

وقال النسائي : أجوَد هـٰذه الكتب « كتاب البخاري » ، وأجمعت الأمة علىٰ صحة هـٰذين الكتابين ، ووجوب العمل بأحاديثهما .

وأما سبب تصنيفه وكيفية تأليفه : فرُوِّينا عن إبراهيم بن معقل النسفي ، قال : قال البخاري : كنت عند إسحاق بن راهويه ، فقال لنا بعض أصحابنا : لو جمعتم كتاباً مختصراً في الصحيح لسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوقع ذلك في قلبي ، وأخذت في جمع هـٰذا الكتاب .

ورُوِّينا من جهات عن البخاري قال : صنفت « كتاب الصحيح » لست عشرة سنة ، خرجته من ست مئة ألف حديث ، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله عز وجل .

ورُوِّينا عنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فكأني واقف بين يديه

وبيدي مروحة أذب عنه ، فسألت بعض المعبرين ، فقالوا : أنت تذب عنه الكذب ، فهو الذي حملني علىٰ إخراج « الصحيح » .

ورُوِّينا عنه قال : ما أدخلت في « كتاب الجامع » إلا ما صح ، وتركت من الصحاح لحال الطول .

ورُوِّينا عن الفربري قال : قال البخاري : ما وضعت في « كتاب الصحيح » حديثاً . . إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين .

ورُوِّينا عن عبد القدوس بن همام قال : سمعت عدة من المشايخ يقولون : حوَّل(1) البخاري تراجم « جامعه » بين قبر النبي صلى الله عليه وسلم ومنبره ، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين .

وقال آخرون ـ منهم أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي ـ : صنفه ببخارىٰ ، وقيل : بمكة ، وقيل : بالبصرة ، وكل هٰذا صحيح ، ومعناه : أنه كان يصنف في كل بلد من هٰذه البلدان ؛ فإنه بقي في تصنيفه ست عشرة سنة كما سبق .

قال الحاكم : حدثنا أبو عمرو إسماعيل ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي قال : سمعت البخاري يقول : أقمت بالبصرة خمس سنين ، ومعي كتبي أصنف ، وأحج في كل سنة ، وأرجع من مكة إلى البصرة ، قال البخاري : وأنا أرجو أن يبارك الله تعالىٰ للمسلمين في هٰذه المصنفات .

وبلغني عن الشيخ أبي زيد المروزي من أصحابنا ـ وهو أجلُّ من روىٰ « صحيح البخاري » ـ عن الفربري قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال : « إلىٰ متىٰ تدرس الفقه ولا تدرس كتابي ؟ » ، قلت : وما كتابك يا رسول الله ؟ قال : « جامع محمد بن إسماعيل البخاري » أو كما قال .

فَصْلٌ

جملة ما في « صحيح البخاري » من الأحاديث المسندة : سبعة آلاف ومئتان وخمسة وسبعون حديثاً بالأحاديث المكررة ، وبحذف المكرر : نحو أربعة آلاف ، وقد ذكرتها مفصلة مختصرة في أول شرح « صحيح البخاري » ، وذكرت فيه جملة من أحوال البخاري

---

(1) حوَّل : أبقاها حولاً .

وورعه وتعظيمه للعلم ، وما يتعلق بـ« صحيحه » من كونه يذكر الحديث الواحد في أبواب ويعيده ، وذكرت فائدة ذلك ، وذكرت فائدة تحديثه عن واحد في موضع ، ثم يروي في موضع آخر عن رجل أو رجلين عنه ، وذكرت فائدة بيان التعليق الذي فيه ، وغير ذلك .

فَصْلٌ

رُوِّينا عن محمد ابن أبي حاتم ـ وراق البخاري ـ قال : كان البخاري إذا كنت معه . . أراه يقوم في كل ليلة خمس عشرة مرة إلىٰ عشرين مرة ، في كل مرة يأخذ القداحة ، فيوري ناراً بيد ويسرج ، ثم يخرج أحاديث يعلمها ، ثم يضع رأسه ، وكان يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة ، ثم يوتر منها بواحدة ، ورأيته استلقىٰ علىٰ قفاه يوماً ونحن بفِرَبْر في تصنيف كتاب التفسير ، وكان قد أتعب نفسه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ سمعتك تقول : ما أتيت شيئاً بغير علم قط منذ عقلت ، فأي علم في هـٰذا الاستلقاء ؟ فقال : أتعبنا أنفسنا في هـٰذا اليوم ، وهـٰذا ثغر قد خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو ، فأحببت أن أستريح وآخذ أهبة ذلك ، فإن غافَصَنا[1] عدوٌّ . . كان بنا حراك ، فهـٰذه الحكاية وإن اشتملت علىٰ نفائس فمقصودي منها التنبيه علىٰ قوله : ما أتيت شيئاً بغير علم ، والله تعالىٰ أعلم . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٦٧ـ٧٦] .

وقال شيخ الإسلام تقي الدين بن محمد بن علي القشيري المعروف بابن دقيق العيد في كتابه « شرح الإلمام » : قال الحاكم : سمعت يحيى بن عمرو بن صالح يقول : سمعت أبا العباس محمد بن إبراهيم الفقيه يقول : كتب إليَّ محمد بن إسماعيل البخاري من بغداد :

المسلمـون بخيـر مـا بقيـتَ لهـم وليـس بعـدك خيـرٌ حيـن تُفْتَقَـدُ

وقال الحافظ أبو أحمد في كتابه « الأسماء والكنىٰ » : كان البخاري أحد الأئمة في معرفة الحديث وجمعه ، ولو قلت : إني لم أر تصنيفاً يفوق تصنيفه في المبالغة والحسن ، أو لم أسمع بأذني في باب الحديث مثله . . رجوت أن أكون صادقاً في قولي .

ثم قال الشيخ تقي الدين : قلت : روايةُ « صحيح البخاري » من جهة الفربري هي المشهورة شرقاً وغرباً ، وللمَغاربة رواية أخرىٰ من جهة إبراهيم بن معقل النسفي عن البخاري موجودة في فهارسهم ، وغيرها لا أعلمها اليوم في جهة أهل المشرق . انتهىٰ .

---

(١) أي : فاجأنا وأخذنا علىٰ غرة .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال محمد ابن أبي حاتم الوراق ، قلت لأبي عبد الله البخاري : كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث ؟ فقال : أُلهِمْتُ حفظ الحديث وأنا في الكُتَّاب ، قلت : وكم كان سِنُّك إذ ذاك ؟ قال : عشر سنين أو أقل ، ثم خرجت من الكُتَّاب ، فكنت أختلف إلى الداخلي وغيره ، فقال يوماً ـ فيما كان يقرأ للناس ـ : سفيان عن أبي الزبير ، عن إبراهيم ، قلت : إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم ، فانتهرني ، فقلت له : ارجع إلى الأصل إن كان عندك ، فدخل ، فنظر فيه ، ثم خرج ، فقال : كيف هو يا غلام ؟ قلت : هو الزبير بن عدي ، عن إبراهيم ، فأخذ القلم مني ، وأحكم كتابه ، وقال : صدقت ، فقال له بعض أصحابه : كم كان سِنُّك إذ رددت عليه ؟ فقال : إحدىٰ عشرة سَنة .

وقال البخاري : لما طَعَنتُ في ست عشرة سنة[1] حفظت كتب ابن المبارك ، ووكيع ، ثم خرجت مع أخي وأمي إلىٰ مكة ، فلما حججت . . رجع أخي ، وأقمت بمكة ؛ لطلب الحديث ، فلما بلغت ثمان عشرة سَنة . . جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم ، وصنفت « كتاب التاريخ » عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليالي المقمرة .

وقال محمد بن عبد الرحمن : سمعت أبا عبد الله يقول : كتبت عن أكثر من ألف رجل من أهل العلم .

وحُمل إلى البخاري بضاعة أنفذها إليه ابنه ، فاجتمع إليه بعض التجار ، فطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم ، فقال لهم : انصرفوا الليلة ، فجاءه من الغد تجار آخرون ، فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف درهم ، فقال : إني نويت بيعها للذين أتوا البارحة ، ولا أحب أن أنقض نيتي .

وكان إذا جاء شهر رمضان . . يجتمع إليه أصحابه ، فيصلي بهم ، ويقرأ في كل ركعة عشرين آية ، ويقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث ، ويختم عند السحر في كل ثلاث ليال ، ويقول : إن عند كل ختمة دعوة مستجابة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١١٣ـ١١٤] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وفي حفظي أن أبا عبد الله البخاري جاءت جاريته يوماً لتدخل إليه في منزله ، فعثرت علىٰ محبرة بين يديه ، فقال لها : كيف تمشين ؟! فقالت : إذا لم يكن طريق كيف أمشي ؟! فقال لها : اذهبي فقد أعتقتك ، فقيل

---

(١) في النسخ : (لما طعنت في العاشرة) ، وما أثبت من « الصفوة » وكذا في « تهذيب الكمال » (٢٤/ ٤٣٩) .

له : يا أبا عبد الله ؛ قد أغضبتك الجارية ، فقال : إن كانت أغضبتني . . فإني قد أرضيت نفسي بما فعلت .

وكان يقول : خرجت إلىٰ آدم ابن أبي إياس ، فتخلَّفَت عني نفقتي حتىٰ جعلت أتناول الحشيش ولا أخبر بذلك أحداً ، فلما كان ثالث يوم . . أتاني آت لم أعرفه ، فدفع إلي صرة فيها دنانير وقال : أنفق هٰذه علىٰ نفسك .

وكان البخاري في سَعة من الدنيا ؛ فإنه ورث من أبيه مالاً ، وكان يعطيه لمن يتجر له فيه مقارضة ، وكان أبوه يقول : ما أعلم من مالي درهماً حراماً ، ولا من شبهة . انتهىٰ .

ثم قال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : اعلم : أني قد ذكرت أحرفاً من عيون مناقبه وصفاته ودرر شمائله وحالاته ، أشرت إليها إشارات ؛ لكونها من المعروفات الواضحات ، ومناقبه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ لا تستقصىٰ ؛ لخروجها عن أن تحصىٰ ، وهي منقسمة إلىٰ حفظ ، ودراية ، واجتهاد في التحصيل ، ورواية ، ونسك ، وعرفان ، وإفادة ، وورع ، وزهادة ، وتحقيق ، وإتقان ، وأحوال ، وكرامات ، وغيرها من أنواع المكرمات ، ويوضح ذلك ما أشرت إليه من أقوال الأئمة الأعلام أولي الفضل والورع والدِّين ، والحفاظ النقاد المتقنين ، الذين لا يجازفون في العبارات ، بل يتأملونها ويحررونها ، ويحافظون علىٰ صيانتها أشد المحافظات ، وأقاويلهم ـ بنحو ما ذكرته ـ غير منحصرة ، وفيما أشرت إليه أبلغ كفاية للتبصرة ، رضي الله عنه وأرضاه ، وجمع بيننا وبينه وبين جميع أحبابنا في دار كرامته مع من اصطفاه ، وجزاه الله تعالىٰ عنا وعن سائر المسلمين أكمل الجزاء ، وحباه الله تعالىٰ من فضله أبلغ الحِباء . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٧٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسين مسلم بن الحجاج

رضي الله عنه

قال الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : أما مسلم رحمه الله : فهو أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، أحد الأئمة في هٰذه الصناعة ، والفائزين بالربح في هٰذه البضاعة ، قد أعظم الله سبحانه وتعالىٰ به النفع للمسلمين ، ورفع له وللبخاري ذِكراً صالحاً في الغابرين ، وجعل أفئدة في المسلمين بعدهما تهوي إليهما ، وربط علىٰ قلوبهم الوثوق بهما ، والاعتماد عليهما ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

قال أبو علي الحسين بن علي النيسابوري : ما تحت أديم السماء كتاب أصح من كتاب مسلم بن الحجاج .

وقال الحاكم : سمعت أبا عبد الله محمد بن يعقوب غير مرة يقول : إنما أخرجت نيسابور هٰذه من رجال الحديث ثلاثة : محمد بن يحيىٰ ، ومسلم بن الحجاج ، وإبراهيم ابن أبي طالب[1] .

وقال : حدثنا أبو الفضل محمد بن إبراهيم ، قال : سمعت أحمد بن مسلمة يقول : رأيت أبا زرعة وأبا حاتم يقدمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح علىٰ مشايخ عصرهما .

وقال : قرأت بخط أبي عمرو المستملي : أملىٰ علينا إسحاق بن منصور سَنة إحدىٰ وخمسين ومئتين ، ومسلم بن الحجاج يُنتخب عليه ، وأنا المستملي ، فنظر إسحاق بن

---

(١) في نسخة : (يحيى بن يحيىٰ ، ومسلم بن الحجاج ، وإبراهيم ابن أبي طاهر) ، وفي بعض النسخ : (محمد بن يحيىٰ ، ومسلم بن الحجاج ، وإبراهيم بن طاهر) ، وفي « السير » : (١٢/ ٥٦٥ وَ ١٣/ ٥٤٨) ، و« تذكرة الحفاظ » (٢/ ٦٣٨) ، و« تهذيب التهذيب » (١٠/ ١١٤) : (محمد بن يحيىٰ ، ومسلم بن الحجاج ، وإبراهيم ابن أبي طالب) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

منصور إلىٰ مسلم فقال : لن يَعدَم الخيرُ ما أبقاك الله تعالىٰ للمسلمين .

وقال الحاكم : الإمام مسلم حجة في التمييز بين الصحيح والسقيم .

وذكر الحاكم مصنفاته :

- كتاب « المسند الكبير على الرجال » ، قال : وما أرىٰ أنه سمعه منه أحد .
- كتاب « الجامع الكبير » على الأبواب .
- كتاب « الأسامي والكنىٰ »(١) .
- كتاب « المسند الصحيح » .
- كتاب « التمييز » .
- كتاب « العلل » .
- كتاب « الوحدان » .
- كتاب « الأقران » .
- كتاب « سؤالات أحمد ابن حنبل »(٢) .
- كتاب « الانتفاع بأهب السباع »(٣) .
- كتاب « عمرو بن شعيب »(٤) ، يذكر فيه كل من يحتج بحديثه ، وما الخطأ فيه .
- كتاب « مشايخ مالك بن أنس » .
- كتاب « مشايخ الثوري » .
- كتاب « مشايخ شعبة » .
- كتاب « من ليس له إلا راوٍ واحد من رواة الحديث » .
- كتاب « المخضرمين » .
- كتاب « تفصيل(٥) الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

---

(١) ورد اسمه في تذكرة الحفاظ (٢/ ٥٩٠) : « الأسماء والكنىٰ » .

(٢) ورد اسمه في المرجع السابق و« سير أعلام النبلاء » (١٢/ ٥٧٩) : « سؤالاته أحمد ابن حنبل » .

(٣) اسمه في « كشف الظنون » (٢/ ١٣٩٩) : « الانتفاع بجلود السباع » .

(٤) ورد اسمه في « تذكرة الحفاظ » : « حديث عمرو بن شعيب » .

(٥) في بعض النسخ : (تفضيل) .

ـ كتاب « طبقات التابعين » .

ـ كتاب « إفراد السامعين من الرواة لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم »[1] .

ـ كتاب « المعرفة » .

ـ كتاب « ما أخطأ فيه مَعْمر » انتهىٰ .

وقال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : هو الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري ـ من بني قشير ، قبيلة من العرب معروفة ـ النيسابوري ، إمام أصحاب الحديث .

سمع : قتيبة بن سعيد ، والقعنبي ، وأحمد ابن حنبل ، ويحيى بن يحيىٰ ، وخلائق من الأئمة وغيرهم .

وروىٰ عنه : الترمذي ، ويحيى بن صاعد ، ومحمد بن مخلد ، وإبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الزاهد ـ وهو راوية « صحيح مسلم » ـ ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ، وخلائق آخرون .

وأجمعوا علىٰ جلالته ، وإمامته ، وعلو مرتبته ، وحذقه في هـٰذا الشأن ، وتقدمه فيه ، وتضلعه منه .

ومن أكبر الدلائل علىٰ جلالته وورعه وحذقه في علوم الحديث : كتابه « الصحيح » ، الذي لم يوجد في كتابٍ قبله ولا بعده مثله ، من حسن الترتيب ، وتلخيص طرق الحديث بغير زيادة ولا نقصان ، والاحتراز في التحويل في الأسانيد عند اتفاقها من غير زيادة ، وتنبيهه علىٰ ما في ألفاظ الرواة من الاختلاف في متن أو إسناد ولو في حرف ، واعتنائه بالتنبيه على الروايات المصرحة بسماع المدلِّسين ، وغير ذلك مما هو معروف في كتابه .

وقد ذكرت في مقدمة شرحي لـ « صحيح مسلم » جُملاً من التنبيه علىٰ هـٰذه الأشياء مبسوطة واضحة ، ثم نبهت علىٰ تلك الدقائق والمحاسن .

وعلى الجملة : فلا نظير لكتابه في هـٰذه الدقائق وصنعة الإسناد ، وهـٰذا عندنا من

(١) جاء اسمه في بعض النسخ : (إفراد السامعين من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، كما جاء اسمه في « تذكرة الحفاظ » (٢/ ٥٩٠) ، و« سير أعلام النبلاء » (١٢/ ٥٧٩) : « أفراد الشاميين » .

المحققات التي لا شك فيها للدلائل الواضحة ، ومع هـٰذا فـ « صحيح البخاري » رحمه الله تعالىٰ أصح وأكثر فوائد ، هـٰذا مذهب جمهور العلماء ، وهو الصحيح المختار ، لـٰكن « كتاب مسلم » في دقائق الأسانيد ونحوها أجود .

وينبغي لكل راغب في علم الحديث أن يعتني به ، ويتفطن إلىٰ تلك الدقائق ، فيرىٰ فيها العجائب من المحاسن ، وإن ضعف عن الاستقلال باستخراجها . . استعان بالشرح المذكور .

وقد ذكرت في مقدمة « شرح مسلم » جُملاً من المهمات التي لا بد للراغب فيه من معرفتها ، مع بيان جملة من أحوال مسلم ، وأحوال رواة الكتاب عنه .

واعلم : أن مسلماً أحد أعلام أئمة هـٰذا الشأن ، وكبار المبرزين فيه ، وأهل الحفظ والإتقان ، والرحالين في طلبه إلىٰ أئمة الأقطار والبلدان ، والمعترف له بالتقدم فيه بلا خلاف عند أهل الحذق والعرفان ، والمرجوع إلىٰ كتابه والمعتمد عليه في كل الأزمان .

روىٰ عنه جماعات في درجته ، منهم : أبو حاتم الرازي ، وموسى بن هارون ، وأحمد بن سلمة ، والترمذي ، وغيرهم .

ومن حقق نظره في « صحيح مسلم » واطلع علىٰ ما أودعه في أسانيده ، وترتيبه ، وحسن سياقه ، وبديع طريقه من نفائس التحقيق ، وجواهر التدقيق ، وأنواع الورع ، والاحتياط ، والتحري في الروايات ، وتلخيص الطرق ، واختصارها ، وضبط متفرقها ، وانتشارها ، وكثرة اطلاعه ، واتساع روايته ، وغير ذلك من المحاسن واللطائف الظاهرات والخفيات . . علم أنه إمام لا يلحقه من بعد عصره ، وقَلَّ من يساويه ـ بل يدانيه ـ من أهل دهره .

وقد مَنَّ الله الكريم وله الحمد أجمع بـ « صحيح مسلم » على المسلمين ، وأبقىٰ لمصنفه به ذِكراً جميلاً وثناءً حسناً إلىٰ يوم الدِّين ، مع ما أعد له من الأجر الجزيل في دار القرار .

وقد اقتصرت من أحواله علىٰ هـٰذا القدر ؛ فإن أحواله ومناقبه ومناقب كتابه لا تستقصىٰ ؛ لبعدها عن أن تحصىٰ ، وقد دللت بما ذكرت علىٰ بعض مناقبه وجميل طريقته .

واللهَ الكريمَ أسأل أن يجزل في مثوبته ، ويجمع بيننا وبينه مع أحبابنا في دار كرامته بفضله وجوده ورحمته .

قال الحاكم أبو عبد الله في كتاب « المزكين » : سمعت أبا عبد الله بن الأخرم الحافظ يقول : توفي مسلم بنيسابور عشية الأحد ، ودفن يوم الإثنين لخمس بقين من رجب ، سنة إحدىٰ وستين ومئتين ، وهو ابن خمس وخمسين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٨٩ـ٩٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو داوود السِّجِسْتاني

رضي الله عنه

قال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : أبو داوود السِّجِستاني : بكسر السين وفتحها ، والكسر أشهر ، والجيم مكسورة فيهما ، سمع : عبد الله بن سلمة القعنبي ، وأبا الوليد الطيالسي ، وخلائقَ كثيرين .

وروىٰ عنه : الترمذي ، والنسائي ، وأبو عوانة في آخرين ، منهم : أبو علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي ، ومحمد بن بكر بن عبد الرزاق بن داسة التمار ، وهما اللذان يرويان عنه كتاب « السنن » ، وخلائق غيرهما .

ويقال لأبي داوود : السجستاني ، والسجزي ، وسجز هي سجستان .

واتفق العلماء على الثناء عليه ، ووصفه بالحفظ التام ، والعلم الوافر ، والإتقان ، والورع ، والفهم الثاقب في الحديث وغيره .

ورُوِّينا عن الحافظ أحمد بن محمد بن ياسين الهروي قال : كان أبو داوود أحد حفاظ الإسلام لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلمِهِ وعلله وسنده ، وكان في أعلىٰ درجة من العفاف ، والنسك ، والورع ، وكان من فرسان الحديث .

وقال الحاكم أبو عبد الله : كان أبو داوود إمامَ أهل الحديث في عصره بلا مدافعة ، سمع بمصر ، والحجاز ، والشام ، والعراقين ، وخراسان .

وكتب بخراسان قبل خروجه إلى العراق في هراة ، وكتب ببغداد عن قتيبة ، وبالري عن إبراهيم بن موسىٰ ، إلا أن أعلا إسناده موسى بن إسماعيل ، والقعنبي ، ومسلم بن إبراهيم .

قال علان بن عبد الصمد : كان أبو داوود من فرسان هـٰذا الشأن .

ورُوِّينا عن موسى بن هارون قال : خُلِقَ أبو داوود في الدنيا للحديث ، وفي الآخرة للجنة .

وقال أبو حاتم بن حبان : أبو داوود أحد أئمة الدنيا فقهاً ، وعلماً ، وحفظاً ، ونسكاً ، وورعاً ، وإتقاناً ، جمع وصنف وذبَّ عن السنن .

ورُوِّينا عن أبي عبد الله محمد بن مخلد قال : كان أبو داوود يفي بمذاكرة ألف حديث ، فلما صنف كتاب « السنن » وقرأه على الناس . . صار كتابه لأصحاب الحديث كالمصحف يتبعونه ولا يخالفونه ، وأقر له أهل زمانه بالحفظ والتقدم فيه .

وقال محمد بن صالح الهاشمي : قال لنا أبو داوود : أقمت بطرسوس عشرين سنة ، فكتبت أربعة آلاف حديث ، ثم نظرت ؛ فإذا مدار الأربعة آلاف على أربعة أحاديث لمن وفقه الله تعالىٰ :

فأولها : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن »(١) .

وثانيها : « إنما الأعمال بالنيات »(٢) .

وثالثها : « إن الله تعالىٰ طيب لا يقبل إلا طيباً »(٣) .

ورابعها : « من حُسنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »(٤) .

ثم قال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : قلت : وقد قيل : مدار الإسلام على حديث « الدين النصيحة » ، وقيل غير ذلك ، وقد ذكرت ذلك في كتاب « الأربعين » ، والله أعلم . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ٢٢٤ـ٢٢٦] .

وقال الشيخ تقي الدين ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : أما أبو داوود : فهو سليمان بن الأشعث بن بشر بن شداد بن عمرو بن عِمْران ، الأزدي ، السجستاني ، الحافظ ، أحد أئمة أهل الشأن ، والعلماء المرجوع إليهم ، المسؤولين عن أحوال الرجال .

ولأبي عبيد الآجري « سؤالات » مفيدة سأله عنها في هـٰذا الفن ، وكان له حظ من علو الإسناد بعد أبي عبد الله البخاري ، وقد شاركه في جماعة لم يشاركه في الرواية عنهم غيره من

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٤٦) ، ومسلم (١٥٩٩) .
(٢) أخرجه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .
(٣) أخرجه مسلم (١٠١٥) .
(٤) أخرجه ابن حبان في « الإحسان » (٢٢٩) .

أصحاب الكتب الستة ؛ أعني : في الرواية عنهم بدون واسطة ؛ كأبي أيوب سليمان بن حرب الواشحي[1] القاضي ، وأبي عمر حفص بن عمر بن الحارث بن سَخْبَرة النَّمَري البصري المعروف بالحَوْضي ، وأبي العباس حيوة بن شريح بن يزيد الحضرمي الحمصي ، وأبي عثمان سعيد بن سليمان بن نشيط الواسطي سعدويه ، وأبي سلمة موسى بن إسماعيل المنقري ، ونحوهم ممن مات بعد العشرين ومئتين ، وما يقرب من ذلك . انتهىٰ .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : قال إبراهيم الحربي : لما صنف أبو داوود هـٰذا الكتاب . . أُلين لأبي داوود الحديث كما أُلين الحديد لداوود عليه الصلاة والسلام ، ونحوه عن محمد بن إسحاق الصغاني .

وروى الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي بإسناده إلى الصولي قال : سمعت أبا يحيىٰ زكريا بن يحيى الساجي يقول : كتاب الله عز وجل أصل الإسلام ، وكتاب « السنن » لأبي داوود عهد الإسلام .

وروي أيضاً من حديث أبي بكر بن داسة قال : سمعنا أبا داوود يقول : كتبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس مئة ألف حديث ، انتخبت منها هـٰذا الكتاب ـ يعني : كتاب « السنن » ـ جمعت فيه أربعة آلاف وثمان مئة حديث ، ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه ، ويكفي الإنسان لدِينه من ذلك أربعة أحاديث :

أحدها : قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » .

والثاني : قوله صلى الله عليه وسلم : « من حُسن إسلام المرء . . تركه ما لا يعنيه » .

والثالث : قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يكون المرء مؤمناً حتىٰ يرضىٰ لأخيه ما يرضىٰ لنفسه » .

والرابع : قوله صلى الله عليه وسلم : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبين ذلك أمور مشتبهات . . . » الحديث .

وقال الخطابي : اعلموا رحمكم الله تعالىٰ : أن كتاب « السنن » لأبي داوود كتاب مرتب ، لم يصنَّف في حكم الدين كتاب مثله ، وقد رُزق القَبول من كافة الناس ، فصار حَكَماً بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ، ولكلٍّ فيه وِرْدٌ ومنه مشرب ،

---

(١) **الواشحي** : نسبة إلىٰ واشح من الأزد .

وعليه معوَّل أهل العراق ، وأهل مصر ، وبلاد المغرب ، وكثير من مدن أقطار الأرض ، فأما أهل خراسان : فقد أُولِع أكثرهم بكتاب محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج ، ومن يجري نحوهما ممن جمع الصحيح علىٰ شرطهما في السبك(١) والانتقاد ، إلا أن كتاب أبي داوود أحسن وضعاً وأكثر فقهاً ، وكتاب أبي عيسىٰ أيضاً كتاب حسن .

وقال الخطابي : سمعت ابن الأعرابي يقول ونحن نسمع منه هـٰذا الكتاب ـ يعني : كتاب « السنن » ، فأشار إلى النسخة وهي بين يديه ـ : لو أن رجلاً لم يكن عنده من العلم إلا المصحف الذي فيه كتاب الله عز وجل ، ثم هـٰذا الكتاب . . لم يحتج معهما إلىٰ شيء .

وقال الخطابي : وهـٰذا كما قال ؛ لأن الله تبارك وتعالىٰ أنزل كتابه تبياناً لكل شيء ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ ، إلا أن البيان ضربان :

بيان جلي : تناوله القرآن نصاً .

وبيان خفي : تناوله القرآن ضمناً ، وكان تفصيل بيانه موكولاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، فمَن جمع الكتاب والسنة . . فقد استوفىٰ نوعي البيان .

وقد جمع أبو داوود في كتابه من الحديث في أصول العلم ، وأمهات السنن ، وأحكام الفقه ما لا نعلم متقدماً سبقه إليه ولا متأخراً لحقه فيه .

ثم قال الخطابي : إن المصنفين من علماء الحديث قبل أبي داوود كانوا يذكرون في تصانيفهم قصصاً ومواعظ وآداباً ، وأما السنن المحضة في الأحكام . . فلم يقصد أحد منهم جمعها واستيفاءها ، ولم يقدر علىٰ تلخيصها واختصار مواضعها من أثناء تلك الأحاديث الطويلة كما حصل لأبي داوود ، فلهـٰذا حل كتابه عند أهل الحديث وعلماء الأثر محل العجب ، وضُربت فيه أكباد الإبل ، ودانت إليه الرِّحَل . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٢٢٦ـ٢٢٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال محمد بن بكر بن عبد الرزاق : كان لأبي داوود كُمٌّ واسع وكُمٌّ ضيق ، فقيل له في ذلك ، فقال : الواسع للكتب ، والآخر لا نحتاج إليه .

وقال جرير بن عبد الحميد : كان إبراهيم يشبَّه بعلقمة ، وكان منصور يشبَّه بإبراهيم .

وقال غير جرير : كان سفيان يشبَّه بمنصور ، وكان وكيع يشبَّه بسفيان ، وكان أحمد ابن

---

(١) في نسخة : (علىٰ شرطيهما في الشك) .

حنبل يشبَّه بوكيع ، وكان أبو داوود يشبَّه بأحمد ابن حنبل .

وقال أبو داوود : الشهوة الخفية حب الرياسة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٤٥] .

ثم قال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : رُوِّينا عن الحسن بن محمد بن إبراهيم الرازي[1] قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من أراد أن يتمسك بالسنن . فليقرأ كتاب أبي داوود » .

ومناقب أبي داوود وكتابه مشهورة ، وفيما أشرت إليه كفاية .

ولد أبو داوود سنة اثنتين ومئتين ، وتوفي بالبصرة لأربعَ عشرة بقيت من شوال ، سنة خمس وسبعين ومئتين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٢٢٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال الخطابي : حدثني عبد الله بن محمد[2] المسكي قال : حدثني أبو بكر بن جابر ـ خادم أبي داوود ـ قال : كنت معه ببغداد ، فصلينا المغرب ؛ إذ قُرِع الباب ، ففتحته ؛ فإذا خادم يقول : هـٰذا الأمير أبو أحمد الموفق يستأذن ، فدخلت إلىٰ أبي داوود فأخبرته بمكانه ، فأذن له ، فدخل وقعد ، فأقبل عليه أبو داوود وقال له : ما جاء بالأمير في مثل هـٰذا الوقت ؟ فقال : خلال ثلاث ، فقال : وما هي ؟ قال : تنتقل إلى البصرة ، فتتخذها وطناً ؛ لترحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض ، فتُعمَر بك ؛ فإنها قد خربت ، وانقطع عنها الناس ؛ لما جرىٰ عليها من محن الزنج ، فقال : هـٰذه واحدة ، هات الثانية ، قال : وتروي لأولادي كتاب « السنن » ، قال : نعم ؛ هات الثالثة ، قال : وتفرد لهم مجلساً للرواية ؛ فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة ، قال : أما هـٰذه : فلا سبيل إليها ؛ لأن الناس شريفهم ووضيعهم في العلم سواء ، قال ابن جابر : فكانوا يحضرون بعد ذلك ويقعدون في كُمِّ بيت[3] ويضرب بينهم وبين الناس ستر ، فيسمعون مع العامة . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) كذا في النسخ ، وفي « التهذيب » : (المحسن بن محمد إبراهيم الواذاري) .

(٢) في بعض النسخ : (عبد الله بن أحمد) .

(٣) **الكم** : مدخل ومخرج اليد من القميص ، ولعل المراد هنا : مدخل الدار والبيت الذي يجعل فيه سماع الحديث .

ومنهم الإمام :

أبو زُرْعَة الرازي

رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أبو زرعة ، اسمه : عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد الرازي ، كان من كبار الأئمة الحفاظ ، وسادات أهل التقوىٰ .

وقال أحمد ابن حنبل : ما جاوز الجسر أحد أحفظ من أبي زرعة .

وعنه أيضاً أنه كان يقول : صح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع مئة ألف حديث وكسر ، وهـٰذا الفتىٰ ـ يعني : أبا زرعة ـ قد حفظ منها ست مئة ألف حديث .

وقال أبو العباس محمد بن جعفر : سئل أبو زرعة عن رجل حلف بالطلاق أن أبا زرعة يحفظ مئتي ألف حديث ، هل عليه حنث ؟ قال : لا ، ثم قال أبو زرعة : أحفظ مئتي ألف حديث كما يحفظ الإنسان (قل هو ٱلله أحد) وفي المذاكرة ثلاث مئة ألف حديث .

وقال أحمد بن سعيد الدارمي : صلىٰ أبو زرعة في مسجده عشرين سنة بعد قدومه من السفر ، فلما كان في بعض الأيام . . قدم عليه قوم من أصحاب الحديث ، فنظروا ؛ فإذا في المحراب الذي يصلي فيه كتابة ، فسألوه وقالوا : ما تقول في الكتابة في المحاريب ؟ فقال : قد كرهه قوم ممن مضىٰ ، فقالوا : هـٰذا في محرابك كتابة ، أمَا علمت بها ؟ فقال : سبحان الله! رجل يدخل على الله عز وجل ويقف بين يديه جل جلاله ، هل يدري ما قُدَّامَه ؟!

وقال أبو جعفر التُّستَري : حضرنا أبا زرعة عند وفاته ، وكان عنده أبو حاتم ومحمد بن مسلم والمنذر بن شاذان وجماعة من العلماء ، فذكروا حديث التلقين ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « لقنوا موتاكم لا إلـٰه إلا الله »[1] ، فاستحيوا من أبي زرعة ، وهابوا أن يلقنوه ، فقالوا : تعالوا نذكر الحديث .

---

(١) أخرجه مسلم (٩١٦) .

فقال محمد بن مسلم : حدثنا الضحاك بن مخلد عن عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح ، ووقف ولم يجاوز .

وقال أبو حاتم : حدثنا بندار ، أخبرنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، ولم يجاوز .

والباقون سكتوا ، فقال أبو زرعة ـ وهو في النزع ـ : حدثنا بندار ، أخبرنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح بن أبي عَرِيب ، عن كثير بن مرة الحضرمي ، عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان آخر كلامه لا إلـٰه إلا الله . . دخل الجنة »[1] فتوفي عند قوله : الله .

أسند أبو زرعة عن خلائق كثيرين ، وكان يجالس أحمد ابن حنبل ويذاكره ، وكان أحمد يترك النوافل يوم حضور أبي زرعة عنده ؛ فإنه كان يغتنم وقته معه ويشتغل بمذاكرته كأنه ـ والله أعلم ـ يرىٰ أن الاشتغال بالعلم أفضل من صلاة النافلة .

توفي بالرَّي في آخر يوم من ذي الحجة ، سنة أربع وستين ومئتين .

وقال أبو العباس : رأيت أبا زرعة في المنام ، فقلت له : يا أبا زرعة ؛ ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : لقيت ربي عز وجل فقال لي : (يا أبا زرعة ؛ إني أوتىٰ بالطفل فآمر به إلى الجنة ، فكيف بمن حفظ السنن علىٰ عبادي ؟ تبوأْ من الجنة حيث شئت) . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/٥٩ـ٦٠] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وفي حفظي من رواية أخرىٰ : أن الله عز وجل قال لأبي زرعة : (يا عبد الله ؛ لِمَ تذرَّعْت القول في عبادي ؟) فقال : يا رب ؛ لأنهم حاولوا[2] دِينك وأنت أعلم ، فقال : (صدقت) ، ثم قال جل جلاله : (ألحقوه بأضرابه ؛ بأبي عبد الله ، وأبي عبد الله ، وأبي عبد الله) ، الأول : سفيان ، والثاني : مالك ، والثالث : أحمد ابن حنبل ، رضي الله عنهم أجمعين .

ولما قدم حمدون البردعي علىٰ أبي زرعة لأجل كتابة الحديث ، فلما دخل داره . . رأىٰ فيها أواني وفرشاً كثيرة ، وكان ذلك لأخيه ، فهَمَّ أن يرجع ولا يكتب عنه ، فلما كان من

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٥٠٣) .

(٢) أي : أرادوا التغيير في الدين .

الليل . . رأىٰ كأنه علىٰ شاطىء دجلة ، وكأن ظل شخص في الماء ، فقال له : أأنت الذي زهدت في أبي زرعة ؟ أما علمت أن أحمد ابن حنبل كان من الأبدال ، فلما أن مات أحمد ابن حنبل أبدل الله عز وجل مكانه أبا زرعة رضي الله عنه وأرضاه ؟!

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

إسحاق بن راهويه
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : هو إسحاق[(١)] بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم أبو يعقوب الحنظلي ، ويقال له : ابن راهويه[(٢)] ، أحد أئمة الإسلام ، رحل إلى العراق ، والحجاز ، واليمن ، والشام ، وعاد فاستوطن نيسابور .

وقال محمد بن أسلم الطوسي لما مات إسحاق بن راهويه : ما أعلم أحداً كان أخشىٰ لله عز وجل من إسحاق بن راهويه ، وكان من أعلم الناس ، ولو كان الثوري حياً . . لاحتاج إليه في أشياء كثيرة .

وقال الحسن بن عبد الصمد : سمعت إسحاق يقول : أحفظ سبعين ألف حديث ، كلها نصب عيني .

وقال أحمد ابن حنبل وذَكَر إسحاق فقال : لا أعرف لإسحاق في العراق نظيراً .

وقال مرة أخرىٰ : أما إسحاق : فلم يُرَ مثله .

---

(١) جاء في هامش نسخة : (إسحاق بن راهويه ، أبو يعقوب ، المروزي ، الإمام ، الزاهد ، الثقة ، المجتهد ، أمير المؤمنين في الحديث كما قال ابن حنبل رحمه [الله] ، فهو الذي أَحْيا السُّنة بالمشرق ، وما سمع شيئاً . . إلا حفظه ، وما حفظ شيئاً فنسيه ، قال : كأني أنظر إلىٰ مئة ألف حديث في كتبي ، وثلاثين ألف حديث أسوِّدها . « الشهاب على الشفا ») .

(٢) جاء في هامش نسخة : (وراهَوَيْه : لقب أبيه إبراهيم ، لقِّب به لأنه ولد بطريق مكة ، وراه بالفارسية : الطريق ، وهو بالهاء والواو المفتوحتين ، والمثناة التحتية الساكنة ، والهاء المكسورة في المشهور . ويقال [رَاهُوِيَهْ] : بضم الهاء ، وسكون الواو ، وتحتانية مفتوحة ؛ كنَفْطُويَه ، وهو أحب عند المحدثين ، وآخره هاء ، والتاء خطأ ، فما في بعض النسخ من التاء المفتوحة علىٰ أنه ممنوع من الصرف . . خطأ . « نسيم الرياض لشهاب أفندي علىٰ شفاء القاضي عياض » . راهُوِيَه : بضم هاء ثم فتح ياء وتاء على الصحيح ، وهو مروزي ، عالم خراسان ، روىٰ عنه الجماعة إلا ابن ماجه ، « علي قاري على الشفا » ، وبينهما خلاف في التاء في آخره ، فتنبه) .

وقال مرة ثالثة : لم يعبر الجسر مثل إسحاق .

وقال أبو يحيىٰ : ما رأيت بيد إسحاق كتاباً قط ، ما كان يحدث إلا حفظاً ، وكنت إذا ذاكرته العلم . . وجدته فيه فرداً ، فإذا جئت إلىٰ أمر الدنيا . . وجدته لا رأيَ له فيه .

أسند إسحاق عن جرير بن عبد الحميد ، وإسماعيل ابن عُلَيَّة ، وسفيان بن عيينة ، ووكيع ، في خلائقَ لا يحصون .

توفي بنيسابور ليلة النصف من شعبان ، سنة ثمان وثلاثين ومئتين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٧٩/٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

يزيد بن هارون الواسطي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : يزيد بن هارون ، كنيته : أبو خالد ، وهو مولىٰ لبني سليم ، وقيل : أصله من بخارىٰ .

قال علي بن المديني : ما رأيت رجلاً قط أحفظَ من يزيد بن هارون .

وقال أحمد بن سنان : ما رأيت عالماً قط أحسنَ صلاة منه ، يقوم كأنه أسطوانة .

وقال عاصم بن علي : كان يزيد بن هارون إذا صلى العشاء . . لا يزال قائماً يصلي حتى الغداة بوضوء عشاء الآخرة نيفاً وأربعين سنة .

وقال الحسن بن عرفة : رأيته بواسط ، وكان من أحسن الناس عيناً ، ثم رأيته وقد ذهبت عيناه ، فقلت له : يا أبا خالد ؛ ما فعلت العينان الجميلتان ؟ فقال : ذهب بهما بكاء الأسحار .

وقال حويرثة بن محمد : رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته بأربع ليال ، فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : تقبل مني الحسنات ، وعفا عن السيئات ، ووهب لي التبعات .

فقلت له : وما كان بعد ذلك ؟ فقال : وما ترىٰ يكون من الكريم سبحانه وتعالىٰ ؟ هل يكون منه إلا الكرم ؟ غفر لي ذنوبي ، وأدخلني الجنة .

فقلت : بمَ ذاك ؟ فقال : بمجالس الذِّكر ، وقول الحق ، وصدق الحديث ، وطول قيامي في الصلاة ، وصبري على الحق(١) .

فقلت له : منكر ونكير حق ؟ فقال : إي والله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ لقد أقعداني وسألاني : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فجعلت أنفض لحيتي البيضاء من التراب ، وقلت : مِثْلي يُسأل عن هـٰذا وأنا يزيد بن هارون الواسطي ، وكنت في دار الدنيا ستين سنة أُعلِّم الناس ؟! فقال أحدهما للآخر : صدق ، هو يزيد بن هارون ، نم نومة العروس ، فلا

---

(١) في « الصفوة » : (وصبري على الفقر) .

روعة عليك بعد اليوم ، ثم قال لي أحدهما : أكتبت عن حريز بن عثمان[1] ؟ فقلت : نعم ، كان ثقة ، فقال : كان ثقة في الحديث ، ولـٰكنه كان يبغض علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأبغضه الله عز وجل لذلك .

أسند يزيد بن هارون عن خلائق ، منهم : يحيى بن سعيد ، وغيره .

وكان مولده سنة ثمان عشرة ومئة ، وتوفي سنة ست ومئتين ، رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١٠-١١] .

وحكى الحافظ الخطيب البغدادي في « تاريخه » : عن أبي نافع ابن بنت يزيد بن هارون قال : كنت عند أحمد ابن حنبل وعنده رجلان ـ أحسبه قال : شيخان ـ قال : فقال أحدهما : يا أبا عبد الله ؛ رأيت يزيد بن هارون في المنام ، فقلت له : يا أبا خالد ؛ ما فعل الله عز وجل بك ؟ قال : غفر لي ، وشفعني ، وعاتبني .

قال : قلت : غفر لك ، وشفعك ، قد عرفت ، ففيم عاتبك ؟ قال : قال لي : يا يزيد ؛ أتحدِّث عن حريز بن عثمان ؟ قال : قلت : يا رب ؛ ما علمت إلا خيراً .

قال : يا يزيد ؛ إنه كان يبغض أبا حسن علي بن أبي طالب .

قال : وقال الآخر : وأنا رأيت يزيد بن هارون في المنام ، فقلت له : هل أتاك منكر ونكير ؟ قال : إي والله ، وسألاني : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟

قال : فقلت : ألمثلي يُقال هـٰذا وأنا كنت أعلِّم الناس بهـٰذا في دار الدنيا ؟ فقالا لي : صدقت ، فنم نومة العروس لا بؤس عليك .

وفي رواية أخرىٰ قال : قلت : يا أبا خالد ؛ أليس قد مِتَّ ؟ قال : أنا في قبري ، وقبري روضة من رياض الجنة . انتهىٰ [١٤/ ٣٤٧-٣٤٨] .

هنيئاً له رضي الله عنه .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) حَريز بن عثمان الحمصي ، حدَّث بالشام وبالعراق ، ويرمىٰ بالنصب ، وقد قال أبو حاتِم : لا يصح عندي ما يقال في رأيه ، ولا أعلم بالشام أحداً أثبت منه ، وقال علي بن عياش : سمعت حريز بن عثمان يقول : والله ؛ ما سببت علياً قط ، والله أعلم . انظر « سير أعلام النبلاء » (٧/ ٨٠-٨١) .

ومنهم الإمام :

يونس بن عبيد
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : يونس بن عبيد ، كنيته : أبو عبد الله .

قال زهير : وكان خزازاً ، فجاءه يوماً رجل طلب منه حريراً ، فقال لغلامه : انشر الرزمة ، فنشر الغلام الرزمة وضرب بيده عليها ، وقال : صلى الله علىٰ محمد ، فقال يونس بن عبيد للغلام : ارفع الرزمة وأبىٰ أن يبيع ؛ مخافة أن يكون قد مدح السلعة .

وقال مؤمل بن إسماعيل : قدم رجل من الشام إلىٰ سوق الخزازين ، فقال : أريد مُطْرَفاً[١] بأربع مئة ، فقال يونس بن عبيد : عندنا مُطْرَف ثمنه مئتين ، ثم نادى المؤذن بالصلاة ، فقام يونس وانطلق إلى الصلاة في المسجد ، فلما رجع من الصلاة . . وجد ابن أخيه قد باع ذلك المطرف للشامي بأربع مئة ، فقال له يونس : ما هـٰذه الدراهم ؟ فأخبره أنه قد باع المطرف ، فالتفت يونس إلى المشتري وكان واقفاً لم يذهب بعد ، فقال له : يا عبد الله ؛ هـٰذا المطرف هو المطرف الذي قلت لك إن ثمنه مئتي درهم ، فإن شئت . . خذه وخذ من دراهمك مئتي درهم ، وإن شئت . . فدعه وخذ دراهمك ، فقال له الرجل : بالله مَن أنت ؟ فقال : رجل من المسلمين ، فقال : سألتك بالله ما اسمك ؟ فقال : يونس بن عبيد ، قال : والله ؛ إنا لنكون في نحر العدو[٢] وقد اشتد علينا الأمر ، فنقول : **اللهم ؛ رب يونس بن عبيد ؛ فرِّج عنا** ، **فيفرج عنا** ، **فقال له يونس** : **سبحان الله! سبحان الله!**

وقال بشر بن المفضل : جاءت امرأة إلىٰ يونس بن عبيد ومعها مُطْرَف خز ، فدفعته إليه وقصدت بيعه ، فلما نظر إليه . . قال لها : بكم ؟ فقالت : بستين درهماً ، قال : فألقاه إلىٰ جار له ، وقال له : تراه بعشرين ومئة ؟ فقال : أرىٰ ذلك ثمنه أو نحواً من ثمنه ، قال : فقال

---

(١) رداء من خز .

(٢) في نسخة : (والله إنا لنكون في البحر . . .) .

لها : اذهبي فاستأمري أهلك في بيعه بمئة وخمسة وعشرين درهماً ، فقالت : قد أمروني أن أبيعه بستين درهماً ، فقال : ارجعي إليهم ، وأخبريهم الخبر ، ثم استأمريهم في بيعه بمئة وخمسة وعشرين درهماً .

وقال إسماعيل بن عبيد : سمعت يونس بن عبيد يقول : إنهما درهمان ؛ درهم أمسكتَ عنه حتىٰ طاب فأخذتَه ، ودرهم وجب لله عز وجل عليك فيه حق فأديته .

وقال جعفر بن برقان : بلغني عن يونس بن عبيد فضل وصلاح ، فكتبت إليه : يا أخي ؛ بلغني عنك فضل وصلاح ، فأحببت أن أكتب إليك لتكتب إلي ببعض ما أنت عليه ، فكتب إلي : أتاني كتابك تسألني فيه أن أكتب إليك بما أنا عليه ، وأخبرُك أني عرضت علىٰ نفسي أن تحب للناس ما تحب لها ، وأن تكره لهم ما تكره لها ؛ فإذا هي بعيدة من ذلك ، ثم عرضت عليها ترك ذِكرهم إلا من خير ، فوجدت الصوم في الحر الشديد بالبصرة . . أيسر عليها من ترك ذِكرهم ، هـٰذا أمري يا أخي . والسلام .

وقال سلام أو غيره : ما كان يونس بن عبيد بأكثرهم صلاة ولا صياماً ، ولـٰكن ـ والله ـ ما حضر حق من حقوق الله تعالىٰ . . إلا وهو متهيء للقيام به .

وقال إسحاق بن إبراهيم : نظر يونس بن عبيد إلىٰ قدميه عند موته ، فبكىٰ ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : قدماي لم يغبرا في سبيل الله عز وجل .

وقال يونس بن عبيد : إنك لتكاد تعرف ورع الرجل في كلامه إذا تكلم .

وقال : البر كله قد يشوبه شيء ، إلا ما كان من حفظ اللسان ؛ فإنه من البر ولا يشوبه شيء ، وذلك لأن الرجل قد يكثر الصلاة والصيام ويفطر على الحرام ، ويقوم الليل وقد يقع له لغو أو شهادة زور ، وإذا حفظ لسانه . . أرجو أن يبر عمله كله .

وقال حماد بن زيد : شكا رجل إلىٰ يونس بن عبيد وجعاً في بطنه ، فقال له : يا عبد الله ؛ إن هـٰذه الدار لا توافقك ، فالتمس داراً توافقك ؛ يعني : الآخرة .

وقال أمية[1] بن بسطام : جاءت امرأة إلىٰ يونس بن عبيد ومعها جبة من خز ، فقالت له : اشتر هـٰذه مني ، فقال : بكم ؟ فقالت : بخمس مئة درهم ، فقال يونس : هي خير من ذلك ، فقالت : بست مئة ، فقال : هي خير من ذلك ، فلم يزل يقول هي خير من ذلك حتىٰ

(١) في « النسخ » : (يونس) ، ولعل الصواب ما أثبت ، وهو كذلك في « الصفوة » .

بلغ ألفاً ، فقالت المرأة : أنا كنت قد رضيت بخمس مئة ، فاشتراها منها بألف درهم .

قالوا : وكان يونس بن عبيد يشتري الحرير من البصرة ، ثم يرسل إلىٰ وكيله بالسوس يسأله عن سعر الحرير ، وكان وكيله يكتب إليه بالأخبار من جهة السعر في الحرير ، فإذا كتب إليه وكيله أن المتاع عندهم زائد . . لا يبيع من ذلك الحرير لأحد حتىٰ يخبره أن وكيله كتب إليه أن المتاع بالسوس نقص(١) .

وقال أمية : كان يونس بن عبيد إذا طُلب منه المتاع . . أرسل إلىٰ وكيله بالسوس أن أخبر الناس وأعلمهم أن المتاع قد طُلب .

وقال النضر بن شميل وسعيد بن عامر : ارتفع سعر الحرير في موضع ، وكان من عادة ذلك الموضع إذا غلا فيه الحرير . . غلا بالبصرة ، وكان يونس بن عبيد قد علم ذلك ، فاشترىٰ من رجل حريراً بثلاثين ألفاً ، فلما كان بعد عقد البيع وتسلم المبيع . . قال يونس للبائع : هل كنت قد علمت أن الحرير قد غلا بأرض كذا وكذا ؟ فقال : لا ، ولو علمت . . لم أبع ، فقال : ادفع إلي مالي وخذ مالك ، فردَّ إليه الحرير وأخذ منه ماله .

وقال يونس بن عبيد : لو أصبت درهماً حلالاً من تجارة . . لاشتريت به بُرّاً ، ثم صيرته سويقاً ، ثم سقيته للمرضىٰ .

وقال ابن شوذب : اجتمع يونس بن عبيد وعبد الله بن عون ، فكلاهما قال : ما أرىٰ في شيء درهماً حلالاً .

وقال سليمان بن المغيرة : سمعت يونس بن عبيد يقول : ما أعلم شيئاً أعز من درهم طيِّب ينفقه صاحبه في حق ، أو أخ يُسكن إليه في الإسلام ، وما يزدادان إلا قلة .

وقال هشام بن حسان : ما رأيت أحداً يطلب بالعلم وجه الله عز وجل إلا يونس بن عبيد .

وقال يونس بن عبيد : خصلتان إذا صلحتا من العبد . . صلح ما سواهما : أمر صلاته ، ولسانه .

وقال حماد بن زيد : مرض يونس بن عبيد ، فقال أيوب السختياني : ما في العيش بعدك خير .

---

(١) في نسخة : (زائد) .

ودفع يونس بن عبيد إلىٰ رجل شاة وأمره ببيعها ، وقال له : بعها وبيِّن ما فيها من العيوب ، إنها تبدد العلف ، وتقلع الوتد ، وليكن بيانك قبل البيع .

وقال حماد بن سلمة : سمعت يونس بن عبيد يقول : ما أَهَمَّ رجلاً كسبُه . . إلا أَهَمَّه أين يضعه .

وقال سعيد بن عامر : قال يونس بن عبيد : مالي إذا ضاعت لي دجاجة أجد لها همّاً ، وتفوتني الصلاة فلا أجد لها همّاً .

وقال يونس : لا يزال العبد بخير ما دام يبصر ما يفسد عليه عمله .

وقال : ما أحد من الناس يكون لسانه منه علىٰ بال . . إلا أورثه ذلك صلاحاً في سائر عمله .

وقال يونس : إني لأعرف مئة خصلة من البر ما فيَّ واحدة منها .

أسند يونس بن عبيد عن أنس .

وروىٰ كثيراً عن الحسن البصري ، وابن سيرين ، وعطاء ، ونظرائهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وتوفي يونس بن عبيد سنة تسع وثلاثين ومئة ، وقيل غير ذلك . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١٧٦-١٨٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الله بن عَوْن بن أَرْطَبان

رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال بكار : ما رأيت ابن عون يمازح أحداً ، وكان مشغولاً بنفسه ، فإذا صلى الغداة . . مكث في مجلسه مستقبل القبلة يذكر الله عز وجل إلىٰ طلوع الشمس ، ثم يقبل علىٰ أصحابه .

وما رأيته شاتماً أحداً ، لا خادماً ولا شاة ولا دجاجة ولا شيئاً .

وما رأيت أحداً أملك للسانه منه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان طيِّب الريح ، ليِّن الكسوة ، وكان إذا خلا في منزله . . إنما هو التفكر والصمت ، ولا يزيد علىٰ قول : الحمد لله ربنا .

وما رأيته دخل حماماً قط ، وكان يَصِلُ الناس ويعطيهم سراً ، وكان يكره أن يطَّلع أحد علىٰ أعماله من الطاعات .

وقال غير واحد من أصحاب يونس بن عبيد : إن يونس بن عبيد كان يقول : إني لأعرِف رجلاً منذ عشرين سنة يتمنىٰ أن يسلم له يوم من أيام ابن عون . . فلا يقدر علىٰ ذلك .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : ما كان بالعراق أحد أعلَمَ بالسُّنة من ابن عون .

وقال خارجة بن مصعب : صحبت ابن عون أربعاً وعشرين سَنة ، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة واحدة .

وقال روح بن عبادة : ما رأيت أحداً أعبد من ابن عون .

وقال بكار بن محمد : كان ابن عون لا يغضب ، فإذا أغضبه رجل . . قال له : بارك الله فيك .

وقال ابن عون : لو أن رجلاً انقطع إلىٰ هـٰؤلاء ـ ملوك الدنيا ـ في الدنيا . . لانتفع ، فما

ظنك بمن ينقطع إلىٰ مالك الملوك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرىٰ سبحانه وتعالىٰ ؟!

ويقال : إن أم ابن عون نادته يوماً ، فأجابها ، فعلا صوتُهُ صوتَها ، فأعتق من أجل ذلك رقبتين .

وقال قرة بن خالد : كنا نتعجب من ورع ابن سيرين ، فأنساناه ورع ابن عون .

وقال أبو عاصم : سألت ابن عون يوماً فقلت له : حدثني بهـٰذا الحديث إن خف عليك ، فقال : لا تقل إن خف عليك ، فقلت له : لِمَ ؟ فقال : قد أُحدثك ولا يخفُّ عليَّ(1) ، فأكره ذلك ؛ لأنه يكون علىٰ خلاف ما سألت .

وكان ابن عون لا يكري دُورَهُ من المسلمين ؛ خشية أن يروعهم عند طلب الأجرة .

وقال ابن عون : لا يصيب العبد حقيقة الرضا حتىٰ يكون رضاه عند الفقر كرضاه عند الغنىٰ ، وإلا . . كيف ترضىٰ قضاءه إذا وافق هواك ، ولا ترضىٰ إذا خالف هواك ، ولا تدري الخير في ماذا ؟! لعله لو وافق هواك . . كان فيه هلاكك ، ما أنصفتَ من نفسك ، ولا أصبت باب الرضا!

وكان لابن عون غلام يعمل له علىٰ جمل يستقي عليه الماء ، فضرب غلامه الجمل يوماً [فذهب بعينه] ، وبلغ ابن عون ذلك ، فطلب الغلام ، فخشي الغلام من سيده وأُرعب ، فلما دخل عليه ورأىٰ ما به من الرعب . . قال له : اذهب فأنت حر لله عز وجل .

وقال محمد بن عيسىٰ : قدم ابن المبارك قَدْمة ، فقيل له : أين تريد ؟ قال : البصرة ، قيل له : فمَن بقي فيها ؟ قال : ابن عون ، نأخذ من أخلاقه ونتأدب بآدابه .

أدرك ابن عون أنساً وصَحِبه ، ويقال : إنه أسند عنه .

وروىٰ عن : الحسن ، وابن سيرين في جماعة آخرين .

وقال بكار : كان ابن عون في مرضه كل من رآه . . يخبر عنه أنه ما رآه يشكو شيئاً من علته حتىٰ مات في رجب سَنة إحدىٰ وخمسين ومئة ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ١٨٠-١٨٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) في نسخة : (ولا يخف عليك) .

ومنهم الإمام :

أبو سليمان عبد الرحمـٰن بن أحمد بن عطية العنبسي الداراني

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أحمد ابن أبي الحواري : قال أبو سليمان : مَن أحسن في نهاره . . كُفي في ليله ، ومَن أحسن في ليله . . كُفي في نهاره ، والله عز وجل أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تُركت له .

وقال : لا يصف أحد درجة هو فيها حتىٰ يدعها ويجوزها .

وقال : إذا بلغ العبد غاية الزهد . . أخرجه ذلك إلى التوكل .

وسأله رجل عن أقرب ما يتقرب به العبد إلىٰ ربه سبحانه وتعالىٰ ، فبكىٰ وقال : مِثْلي يُسأل عن هـٰذا ؟! أفضل ما يتقرب به العبد إلىٰ ربه عز وجل : أن يطلع الله تعالىٰ علىٰ قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة شيئاً غيره سبحانه وتعالىٰ .

وقال : كلما ارتفعت منزلة القلب . . كانت العقوبة إليه أسرع ، وإذا أصاب شهوة[1] فندم . . ارتفعت عنه العقوبة ، وإن اغتبط وحدث نفسه بالمعاودة . . دامت عليه العقوبة .

وكان يقول : قد أسكنهم الغرف قبل أن يطيعوه ، وأدخلهم النار قبل أن يَعصوه ، سبحانه وتعالىٰ ، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، قد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل الطعام إلى الأصنام ، والله عز وجل يحبه ، وما ضره ذلك عند الله عز وجل ولا طرفة عين .

وقال : القناعة أول الرضا ، والورع أول الزهد .

و[قال] : **لا ينبغي للعاقل أن يعاتب أحداً في زماننا هـٰذا ؛ فإنه إن عاتبه . . أعقبه بأشد مما عاتبه عليه ، بل يدعه بالأمر الأول فهو خير له .**

---

(١) في نسخة : (ذنباً) .

وقال : قد اختلف في الزهد مشايخ العراق ، فقائل : إن الزهد في ترك اللباس ، وقائل : الزهد في ترك الشهوات ، وقائل : في ترك الشبع ، وكلامهم في ذلك قريب ، وأنا أقول : إن الزهد هو أن تترك جميع ما يشغلك عن الله عز وجل .

وقال : ما للرضا حد ، ولا للورع حد ، ولا للزهد حد ، وما أعرف من كل شيء إلا طرفاً .

وقال أحمد : قلت لأبي سليمان : إن ابن داوود قال : ليت الليل أطول مما هو ، فقال : قد أحسن وأساء ، أحسن حيث أنه تمنىٰ طول الليل للطاعة ، وأساء حيث تمنىٰ طول ما قصره الله عز وجل ؛ فإنه إن مضت عنه هـٰذه الليلة . . فله في التي تأتي عوض .

وسئل : من أي وجه أزال العاقل اللائمة عمن أساء إليه ؟ فقال : من جهة كونه علم أن الله عز وجل هو الذي ابتلاه به وسلطه عليه .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان : لَمْ أوتر البارحة ولَمْ أصلِّ الصبح في جماعة ، فقال : ذلك بما كسبت يداك ، وما ربك بظلام للعبيد ، بشهوة أصبتَها .

وقال أبو سليمان : الدنيا تطلب الهارب منها ، وتهرب من الطالب لها ، فإن أدركت الهارب منها . . جرحته ، وإن أدركها الطالب لها . . قتلته .

وكان يقول : واحزناه على الحزن في دار الدنيا !

وقال : مفتاح الآخرة . . الجوع ، ومفتاح الدنيا الشبع ، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة . . الخوف من الله عز وجل .

وقال : كنت أدعو في ليلة باردة ، وخبأت إحدىٰ يدي من البرد ، وبقيت الأخرىٰ ممدودة ، فغلبتني عيناي ، فنمت ، فهتف بي هاتف : يا أبا سليمان ؛ قد وضعنا في هـٰذه ما أصابها ، ولو كانت الأخرىٰ ممدودة . . لوضعنا فيها ما أصابها ، قال : فآليت علىٰ نفسي ألاَّ أدعو إلا ويدي خارجتان[1] حراً وبرداً .

وقال أحمد : قال لي أبو سليمان : يا أحمد ؛ إني محدثك بحديث ، فلا تحدث به حتىٰ أموت ، نمت ليلة عن وردي ؛ فإذا بحوراء تنبهني وتقول : يا أبا سليمان ؛ تنام عني وأنا أربَّىٰ لك في الخدور منذ خمس مئة عام ؟!

---

(١) في نسخة : (ممددتان) .

وكان يقول : إن العيال يضعفون يقين الرجل ؛ لأنه إذا كان وحده فجاع . . صبر ، وإذا كان له عيال . . طلب لهم ، وإذا جاع الطالب . . فقد ضعف اليقين .

وقال : لا ينبغي أن تلبس عباءة بثلاثة دراهم ويكون في قلبك شهوة بخمسة دراهم ، أما يستحيي أحدكم أن تجاوز شهوته لباسه ؟!

قال : وإذا لم يبق في القلب من الشهوات شيء . . جاز له أن يتدرع عباءة بشرط لزوم الطريق ؛ لأن العباءة عَلَمٌ من أعلام الزهد ، ولو أنه ستر زهده بثوبين أبيضين يخلطه بالناس . . لكان أسلم له .

وكان يقول : إذا جاءت الدنيا إلى القلب . . ترحلت الآخرة منه ، وإذا كانت الدنيا في القلب . . لم تجيء الآخرة إليه تزاحمها ؛ لأن الدنيا لئيمة ، والآخرة كريمة .

وقال : شهدت مع أبي الأشهب جنازة بعبادان فسمعته يقول : أوحى الله عز وجل إلىٰ داوود عليه الصلاة والسلام : (يا داوود ؛ حذر أصحابك الدنيا وأنذرهم وازجرهم عن كل الشهوات ؛ فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا . . عقولها محجوبة عني) قال أبو سليمان : فجعلت هـٰذا فائدتي ، وكتبته وارتحلت .

وقال : سمعت صالح بن عبد الجليل يقول : **ينظر أهل البصائر إلىٰ ملوك الدنيا بالتصغير لهم والرحمة والشفقة ، وينظر إليهم أهل الدنيا بالتعظيم لهم والغبطة .**

وقال أحمد : قال لي أبو سليمان : كن كوكباً ، فإن لم تكن كوكباً . . فكن قمراً ، فإن لم تكن قمراً . . فشمساً ، فقلت : يا أبا سليمان ؛ القمر أضوأ من الكوكب ، والشمس أضوأ من القمر ، قال : يا أحمد ؛ الكوكب يطلُع من أول الليل إلى انفجار الصبح ، فقم الليل كله ، فإن لم تقدر . . فكن مثل القمر ؛ يطلع بعضاً ويغيب بعضاً ، فإن لم تقدر . . فكن مثل الشمس ؛ إذا لم تقدر علىٰ قيام بعض الليل . . فلا تعصِ ولا تَنَمْ بالنهار .

وكان يقول : إذا فاتك شيء من التطوع . . فاقضه ؛ فإنه أجدر ألاَّ تعود إلىٰ تركه .

وكان يقول : ربما مَثَّلت نفسي وأنا بين جبلين من نار ، وربما رأيتني وأنا أهوي فيها حتىٰ أبلغ قرارها ، فكيف يهنأ بالدنيا من كانت هـٰذه صفته ؟!

وقال : إنما ارتفعوا بالخوف ، وينبغي للعبد ـ وإن بلغ في ظنه أعلىٰ درجة ـ أن يفزع قلبه بأسفل درجة من ذِكر الموت والقبر والبعث وما بعده من الأهوال .

وكان يقول : هانوا عليه فعصوه ، ولو كَرُموا عليه . . لمنعهم منها .

وكان يقول : إذا وصلوا إليه . . لم يرجعوا أبداً ، وإنما رجع من رجع من الطريق .

وكان يقول : احذر صغير الذنوب ؛ فإن صغيرها يجر إلى الكبير منها .

وكان يقول : ربما بقيت متفكراً في آية واحدة خمس ليال ، ثم أرحل إلىٰ غيرها ولم ينقض فكري منها بعدُ ، ولَربما جاءت الآية تطيِّر العقول ، فسبحان من يثبت قلوب عباده وعقولهم عندها ، ويردها[1] إليهم بعد سماعها .

وقال : الرضا عن الله عز وجل والرحمة للخلق . . من درجات المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقال : ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة ثم تركها فصبر ، إنما العجب ممن وجد لذتها ثم تركها ، كيف يصبر عنها ؟!

وقال : مَن عرف الدنيا . . عرف الآخرة ، ومن لم يعرف الدنيا . . لم يعرف الآخرة ، قال أحمد ابن أبي الحواري : يعني بذلك الزهد .

وقال أحمد : قلت لأبي سليمان : إن فلاناً وفلاناً لا يقعان في قلبي ، فقال : ولا علىٰ قلبي ، ولـٰكن ـ يا أحمد ـ لعلنا إنما أُتينا من قِبَل قلبي وقلبك ؛ لأنه ليس فينا خير ، ولا نحب الصالحين .

وقال أحمد : قلت له : تبيت الليلة عندنا ، قال : ما أجيبكم ، تشغلوني بالنهار ، وتريدون أن تشغلوني بالليل ، فقلت له : إني أغبط بني إسرائيل ، فقال : ويحك! بأي شيء ؟ قلت : بثمان مئة سَنة ، بأربع مئة سنة ، حتىٰ يصيروا كالشنان البالية ، فقال : ظننت أنك جئت بشيء ، لا والله ؛ ما يريد الله سبحانه وتعالىٰ منا أن تجف جلودنا علىٰ عظامنا ، ولا يريد منا إلا صدق النية فيما عنده ، هـٰذا إذا صدق في عشرة أيام . . نال ما نال ذلك في عمره كله .

وكان يقول : كيف يعجب العاقل بعمله ، وإنما عمله عطية من الله عز وجل ونعمة منه عليه ، يجب عليه الشكر فيها ولا يقدر أن يقوم به أبداً ؛ لأن في التوفيق للشكر نعمة يجب لها الشكر ، وهـٰكذا أبداً ، ويؤدي هـٰذا إلىٰ ما لا نهاية له ، فسبحان من نعمه لا تعد ولا تحصىٰ!

---

(١) في النسخ : (يرده) ، ولعل الصواب ما أثبت .

وقال : أرجو أن أكون قد رزقت من الرضا طريقاً ؛ فإنه تعالىٰ لو أدخلني النار . . لكنت بذلك راضياً .

قال أحمد ابن أبي الحواري : رأيت أبا سليمان وهو محرم ، فلما أراد أن يلبي . . غشي عليه ، فلما أفاق . . قال : يا أحمد ؛ بلغني أن الرجل إذا حج من غير حله فقال : لبيك اللهم لبيك . . قال له الرب تبارك وتعالىٰ : لا لبيك ولا سعديك حتىٰ تَرُدَّ ما في يديك ، فما يؤَمِّنُني أن يقال لي هـٰذا ؟ ثم لبىٰ .

وقال : **كيف تأمرون الناس بترك الدينار والدرهم وأنتم إن قدرتم عليها . . أخذتموها ؟ فلذلك لا تنجع**[1] **موعظتكم** .

وقال : لو لم يكن لأهل المعرفة إلا هـٰذه الآية الكريمة . . لاكتفوا بها وافتخروا بها كل الفخار ؛ قوله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، وأي شيء أراد أهل المعرفة ؟ واللهِ ؛ ما أرادوا إلا رؤياه سبحانه وتعالىٰ .

وكان يقول : كل ما شغلك عن الله عز وجل من أهل أو مال أو ولد . . فهو عليك مشؤوم ، قال أحمد ابن أبي الحواري : فحدثت به مروان بن محمد ، فقال : والله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ لقد صدق .

وقال أبو سليمان : قال لقمان لابنه : يا بني ؛ لا تدخل في الدنيا دخولاً يضر بآخرتك ، ولا تتركها تركاً يضر بك ؛ لأنك تصير كَلاًّ[2] على الناس .

وكان يقول : ليس العبادة أن تَصُفَّ قدميك وغيرك يفتُّ لك ، ولـٰكن العبادة أن تبدأ برغيفيك ، فتحرزهما ، ثم تتعبد .

وقال : لا خير في قلب يتوقع قرع الباب ؛ يعني : يتوقع عطية الناس .

وكان يقول : إذا ذكرت الخطيئة . . لم أختر أن أموت ، أقول : لعلِّي أبقىٰ فأتوب .

وقال أحمد : قلت لأبي سليمان : أيجوز للرجل أن يقول : اللهم ؛ اجعلني صدِّيقاً ؟ فقال : إن عرف من نفسه أن فيه من خصالهم شيئاً ، وإلا . . فلا يتعدَّ ؛ فإن من الدعاء ما يكون تعدياً .

---

(١) **لا تنجع** : لا تنفع ولا تؤثر .
(٢) **كلاًّ** : عالةً .

وقال أبو سليمان : ما رأيت صوفياً فيه خير قط إلا رجلاً واحداً ، هو : عبد الله بن مرزوق ، قال : وأنا أرق لهم .

وقيل لأبي سليمان : طوبىٰ للزاهدين ، فقال أبو سليمان : طوبىٰ للعارفين .

وسئل عن رجل يتعبد ، ثم يترك العبادة ، ثم يرجع إليها ، فقال : ليس يبلغ ما كان فيه أبداً إلا أن يشاء الله تعالىٰ ؛ لأنه لما دخلها أولاً . . كان معه آلة من الخوف ، فلما تركها . . زال ، فلما عاد إليها . . لم يرجع إليه ذلك الخوف .

وقيل له : ما تقول في رجل يصيب من الشهوات ؛ هل يجد لذة العبادة أو حلاوة العبادة ؟ فقال : ما أعرفه بوجه ، ولـٰكن الله عز وجل يفعل ما يشاء .

وقال : **من أكل من طعام ليَسُرَّ أخاه . . لم يضرَّه أكله** .

وقال : إن استطعت ألاَّ تُعرف بشيء ولا يشار إليك بشيء . . فافعل .

وقال : إذا فُتح لك باب من الطاعة . . فالزمه .

وقال : الزاهد حقاً لا يذم الدنيا ، ولا يمدحها ، ولا ينظر إليها ، ولا يفرح بها إذا أقبلت ، ولا يحزن عليها إذا أدبرت .

وقال : إن جلساء الرحمـٰن سبحانه وتعالىٰ من كان فيه هـٰذه الخصال : الكرم ، والحلم ، والعلم ، والحكمة ، والرحمة ، والرأفة ، والفضل ، والصفح ، والإحسان ، والعطف ، والبر ، واللطف .

وقال : دواء العجب بالأعمال . . قلة الخلطاء ، ودواء رقة القلب . . مجالسة أهل الخوف ، ودواء نور القلب . . مداومة الحزن ، واستجلابُ الحزن بدوام الفكرة في الخلوات .

وقال : أقمت عشرين سَنة لم أحتلم ، فدخلت مكة ، فأحدثت بها حدثاً ، فاحتلمت ، قيل : فأي شيء كان ذلك الحدث ؟ قال : لم أُصل عشاء الآخرة في المسجد الحرام مع الجماعة .

وقال أحمد : كان الذِّكر يغلب علىٰ أبي سليمان ، فإذا قام . . غشي عليه .

وقال أبو سليمان : إني لأمرض ، فأعرف سبب ذلك ، وأصابني مرة مرض لم أعرف له سبباً ، قال : فجئت إلىٰ أختي ، فقلت لها : هل دعوت الله عز وجل عليَّ أن أمرض حتىٰ

لا أحج ؟ فقالت : نعم ، فقلت لها : لو لم أقدر إلا أني أعترض على الحمار . . لا أترك الحج .

قال أحمد : وخرج إلى الحج في ذلك العام .

وكان يقول : ضِحْكُ العارف التبسم .

وقال : الدنيا بغيضة الله عز وجل من خلقه ، لم ينظر إليها من يوم خلقها ، ولا ينظر إليها إلىٰ يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة . . قال الله عز وجل : (خذوا منها ما كان لي ، وألقوا ما سوىٰ ذلك في النار) ، قال أحمد : فقلت له : لا ينظر إليها بعين الرحمة ، قال : فسكت .

وقال : ليس يفلح قلب يهتم بجمع القراريط[١] .

وقال : إذا وجد العبد طعم الدنيا ثم تركها . . فإنه لا يغتر بها ولا يرجع إليها ، وإن تركها قبل أن يجد طعمها . . لا آمن عليه إذا وجد طعمها أن يرجع إليها .

وكان يقول : ربما وُصِف لي الرجلان ولم أرهما ، يقع علىٰ قلبي أحدهما ولا يقع الآخر .

وكان يقول : لو عمل الرجل إذا عرف كما كان يعمل قبل أن يعرف . . لمشىٰ في الهواء ، والعارف إذا صلىٰ ركعتين . . لا ينصرف عنهما حتىٰ يجد طعمهما .

وقال أحمد : سمعت أبا سليمان يقول : ما أحسب عملاً لا يوجد له لذة في الدنيا يكون له في الآخرة ثواب .

وقال أحمد : خرجت مع أبي سليمان ، فمررنا علىٰ زرع ، وإذا طائران يلتقطان الحب ، فلما شبعا . . أراد الذَّكَرُ الأنثىٰ ، فقال لي : يا أحمد ؛ انظر فيما كانا ، فلما شبعا . . دعته بطنه إلىٰ ما ترىٰ .

وقال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله تعالىٰ : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ قال : أذهب عنها الشهوات .

وقال أبو سليمان : خرج عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام يمشيان ، فصدم يحيى امرأة ، فقال له عيسىٰ : يابن الخالة ؛ لقد أصبت اليوم خطيئة ،

---

(١) القراريط : أجزاء الدنانير .

فقال : وما هي ؟ قال : إنك صدمت امرأة ، فقال : والله ؛ ما شعرت بها ، فقال : سبحان الله! فأين قلبك ؟ فقال : معلق بالعرش ، ولو أن قلبي أطمأن إلىٰ جبريل عليه السلام . . لظننت أني ما عرفت الله عز وجل طرفة عين .

وقال أبو سليمان : لو مر المطيعون في الطرقات ووجدوا المعاصي مطروحة على الطرقات . . ما التفتوا ولا نظروا إليها . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٢٥٥ـ٢٦٩] .

وقال الأستاذ أبو القاسم النيسابوري القشيري في « رسالته » : قال أبو سليمان الداراني : اختلفت إلىٰ مجلس قاصٍّ ، فلما سمعت كلامه . . أثر في قلبي ، فلما قمت من مجلسه . . لم يبق في قلبي منه شيء ، فعدت ثانياً إلىٰ مجلسه ، فأثر كلامه في قلبي إلىٰ أن صرت في بعض الطريق ، ثم زال ، فعدت بالثالثة ، فبقي أثر كلامه في قلبي إلىٰ أن وصلت إلىٰ منزلي ، فكسرت آلات المخالفة ولزمت الطريق ، قيل : فبلغت هـٰذه الحكاية يحيى بن معاذ فقال : عصفور اصطاد كركياً ، يعني بالعصفور القاص والكركي أبا سليمان . انتهىٰ [« الرسالة » ٧٨] .

ثم قال الحافظ : قال أبو سليمان : إن الله سبحانه وتعالىٰ يعرض يوم القيامة على ابن آدم عمره كله ساعة ساعة ، يقول : يابن آدم ؛ أتت عليك ساعة كذا كنتَ تطيعني فيها ، وساعة كذا كنتَ تعصيني فيها ، وساعة كذا كنت تذكرني فيها ، وساعة كذا كنت غافلاً فيها .

وقال أحمد : قلت لأبي سليمان : أيكون في القلوب من يثاب على الطاعة قبل أن يدخل فيها ؟ قال : ويحك يا أحمد! وأين القلب الذي يثاب قبل أن يطيع ؟! ذاك يعاقب قبل أن يعصي ؟

وقال : ما في الأرض أحب إليَّ من أن أُكفَى المؤونة ؛ لكي لا أحتاج إلىٰ أحد .

وكان يقول : ربما حدثني الرجل حديثاً وأنا أعلم به منه ، فأُنصت له كأني ما سمعته ، وربما مشيت إلى الرجل وهو أولىٰ بالمشي مني إليه ، ولقد كنت أنظر إلى الأخ من إخواني ، فما يفارق كفي كفه حتىٰ أجد طعم ذاك في قلبي .

وقال : **من عمل شيئاً من أنواع الخير بلا نية . . أجزأته النية الأولىٰ حين اختار الإسلام ؛ لأن هـٰذا العمل من سنن الإسلام** .

وقال لأحمد : لِترك الشهوات ثواب ، وللمداومة ثواب ، وإنما أنا وأنت ممن يقوم ليلة وينام ليلتين ، ويصوم يوماً ويفطر يومين ، وليس تستنير القلوب علىٰ هـٰذا .

وقال : كم بين من هو في صلاته لا يحس أو لا يشعر مَن مر به وبين آخر يتوقع خفق النعال متىٰ تجيء ؟! مَن ينظر إليه ؟!

وقيل له : بأي شيء تُنال معرفته عز وجل ؟ قال : بطاعته تبارك وتعالىٰ ، قيل : فبأي شيء تُنال طاعته ؟ قال : به سبحانه وتعالىٰ .

وقال : مَن حَسُن ظنه بالله عز وجل . . فقد فُتح عليه باب الرحمة .

وقال : سمعت أبا جعفر المنصور يبكي في خطبته ، قال : فأشغلني الغضب ، وحضرتني نية في أن أقوم إليه فأكلمه بما سمعت من كلامه وبما أعرف من فعله إذا نزل ، قال : ثم تفكرت في أني أريد أن أقوم إلىٰ خليفة ، فأعظه والناس جلوس ، فيرمقوني بأبصارهم ، فيتداخلني التزين ، فيأمر بي فيقتلني ، فأُقتل علىٰ غير تصحيح ، قال : فجلست وسكتُّ .

وقال : إنما يُغضب علىٰ أهل المعاصي عندما يُنظر إليهم وهم يعصون ، أما لو تفكرت فيما يصيرون إليه من عقوبة الله عز وجل . . لدخلت الرحمة لهم في قلبك .

وقال : إن في خلق الله سبحانه وتعالىٰ من لو ذَمَّ لهم الجِنان . . ما اشتاقوا إليها ، فكيف يحبون الدنيا وهو سبحانه وتعالىٰ قد زهَّدهم فيها ؟ قال أحمد : فحدثت به ابنه سليمان ، فقال : قال لك : لو ذمها ؟ قلت : كذا قال أبوك ، قال : والله ؛ لقد شوقهم إليها فما اشتاقوا ، فكيف لو ذمها ؟

وقال : ليس الزاهد من ألقىٰ غم الدنيا واستراح فيها ، إنما الزاهد من ألقىٰ غمها وتعب فيها للآخرة .

وقال : لو اجتمع الناس كلهم علىٰ أن يضعوني كاتِّضاعي عند نفسي . . لَما قدروا علىٰ ذلك .

وقال : من صارع الدنيا . . صرعته .

وكان يقول : اللهم ؛ كُلُّ ما يبعدني عنك . . فأذهبه عني يا أرحم الراحمين .

وقيل لأبي سليمان : يكون الرجل بإفريقية والآخر بسمرقند ، وهما أَخوان ؟ فقال : نعم ، فقلت : كيف ؟ فقال : تكون نيته متىٰ لقيه . . واساه ، فإذا كانت نيته كذلك . . فهو أخوه .

وقال : الورع من الزهد بمنزلة القناعة من الرضا ، هٰذا أوله وهٰذا أوله .

وقال : أهل الزهد علىٰ طبقتين : منهم من يزهد في الدنيا ، فلا يفتح له فيها روح الآخرة ، ومنهم من إذا زهد فيها . . فتح له فيها روح الآخرة ، فليس شيء أحب إليه من البقاء ليطيع .

وقال : لو لم يكن في قلة ترك الأكل شيء إلا قلة دخول الخلاء . . لكفىٰ .

وقال لي : لأَن أترك لقمة واحدة من عشائي . . أحب إلي من أن آكلها وأقوم من أول الليل إلىٰ آخره .

وقال : ما علىٰ ظهر الأرض شيء أشتهيه .

وقال : الثياب ثلاثة : ثوب لله عز وجل ، وثوب لنفسك ، وثوب للناس ، وهو شر الثلاثة .

فما كان لله سبحانه وتعالىٰ . . فهو أن تجد بثلاثين فتتركه وتشتري بعشرين وتقدم عشرة .

وما كان لنفسك . . فهو أن تريد لِينه علىٰ جسدك .

وما كان للناس . . فهو أن تريد حسنه ، وقد يجتمع في الثوب الواحد لله ولنفسك .

وقال : أهل الطاعة في ليلهم . . أشد لذة من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليل . . ما أحببت البقاء في الدنيا .

وقال : لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا علىٰ لذة ما فاته من الطاعة فيما مضىٰ . . لكان ينبغي له أن يبكي حتىٰ يموت .

وقال : ليس العَجَب ممن لم يجد لذة الطاعة كيف تركها ، إنما العجب ممن وجد لذة الطاعة ثم تركها ، كيف صبر عنها ؟!

وقال : يجوز لباس الصوف لمن يريد بلبسه بقاءه ، ويجوز لباسه في السفر ، ومَن لبسه في الدِّين . . فلا يلبسه .

وقال : إن استطعت ألاَّ تلبس لباساً إلا وتريد دونه ويطلع الله عز وجل علىٰ قلبك أن مرادك دونه . . فافعل .

وقال : مَن سالت مِن عينيه قطرة ـ دمعة ـ يوم جمعة قبل الرواح . . أوحى الله تعالىٰ إلىٰ ملك الشمال : (اطو صحيفة عبدي ، فلا تكتب عليه خطيئة إلىٰ مثلها من الجمعة

الأخرىٰ) ، قال أبو سليمان : فلقيت أبا سهل الصَّفَّار بالبصرة ، فحدثته بهـٰذا الحديث ، فقال لي : يا أبا سليمان ؛ إن لم يكن له من بكائه شيء إلا طي الصحيفة من الجمعة إلى الجمعة . . لكفاه[١] .

قال أحمد : قلت لأبي سليمان : إنه بلغني أن مالك بن دينار أهدي له ركوة ، فلما كان في المسجد . . حدثَتْه نفسه بها ـ أي : مخافة أن تُسرق الركوة ـ قال : فجاء ، فأخرجها ، فقال أبو سليمان : هـٰذا من ضعف الصوفيين ، قد زهد في الدنيا فما عليه لو ذهبت الركوة ؟!

وقال : **الجنة قيعان[٢] ، فإذا أخذ ابن آدم في ذكر الله عز وجل . . أخذت الملائكة في غرس الأشجار ، فربما غرس بعضُهم وأمسك بعضُهم ، فيقول الذي يغرس للذي لا يغرس : ما لَكَ يا فلان ؟ قال : فتر صاحبي .**

وقال : ما خلق الله عز وجل خلقاً أهون عليَّ من إبليس ، ولولا أن الله عز وجل أمرني أن أتعوذ منه . . ما تعوذت منه أبداً .

قال أحمد [ابن أبي الحواري] : قلت لأبي سليمان : سمعت سلمة العَوْصِي[٣] يقول : إني لمشتاق إلى الموت منذ أربعين سنة ، منذ فارقت الحسن بن حيٍّ ، قال : لأنه لو لم يشتق العاقل إلا إلىٰ لقاء ربه عز وجل . . لكان ينبغي أن يشتاق إلى الموت ، [وما كراهية رجل للموت ينزل به فيقذفه إلىٰ من لم ير خيراً قط إلا من عنده] ، فقال أبو سليمان : ويحك! لو أعلم أن الأمر كما تقول . . لأحببت أن تخرج نفسي الساعة ، ولـٰكن كيف بانقطاع الطاعة والحبس في البرزخ ، وإنما يلقاه بعد البعث ؟ قال أحمد : فهو في الدنيا أحرىٰ أن تلقاه بالذِّكر له سبحانه وتعالىٰ .

وقال : إن لإبليس شيطاناً يقال له : المتقاضي ، يتقاضى ابن آدم بعد عشرين سنة ليخبر بعمل قد عمله سراً ؛ ليُظهِره ، فيربح عليه ما بين أجر السر والعلانية .

وقال أحمد : سمعت أبا سليمان يقول : دخلنا علىٰ سفيان الثوري في بيت بمكة وهو

---

(١) في نسخة : (فما له شيء) .

(٢) **قيعان** : أرض مستوية مطمئنة لا حزونة ولا ارتفاع فيها .

(٣) سلمة بن عبد الملك العَوْصِي الحمصي ، وهو شيخ أحمد ابن أبي الحواري . انظر « تهذيب الكمال » (١١/ ٢٩٧) ، وفي النسخ : (القرظي ، الغوطي) ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

جالس في الزاوية علىٰ جلد ، فقال : ما جاء بكم ؟ فوالله ؛ لأنا إذا لم أركم . . خير مني إذا رأيتكم ، قال أبو سليمان : ثم لم نبرح حتىٰ تبسم ، قال أحمد : لما جاءه الناس . . جاءته الغفلة .

وقال أحمد : سمعت أبا سليمان يقول : ليست أعمال الخلق بالتي ترضيه أو تغضبه سبحانه وتعالىٰ ، وإنما رضي عن قوم فاستعملهم بأعمال أهل الرضا ، وسخط علىٰ قوم فاستعملهم بأعمال أهل السخط .

وقال أبو سليمان : ما تغرغرت عين مسلم . . إلا لم يرهق وجه صاحبها قَتَر ولا ذلة يوم القيامة ، فإن سالت دموعه . . أُطفىء بأول قطرة منها بحار نيران ، ولو أن رجلاً بكىٰ في أمة . . ما عذبت تلك الأمة .

والبكاء من أربعة : من الخوف ، والرجاء ، والكرب ، والشوق .

وقال أبو سليمان : من شغل بنفسه . . شغل عن الناس ، وهـٰذا مقام العاملين ، ومن شغل بربه . . شغل عن نفسه ، وهـٰذا مقام العارفين ، والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هـٰذين المقامين ، ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوي عنده المدح والذم ، والوجود والعدم ، ولو كان متمسكاً بقليلٍ من المال . . لما أخرجه ذلك عن الزهد .

وقال أبو سليمان : أكل الطيبات . . يورث الرضا عن الله عز وجل .

وقال أبو سليمان : من سره أن يشهد يوم القيامة . . فليقرأ آخر (الزمر) .

وقال : القلب بمنزلة المرآة ، إذا جليت لا يمر بها شيء . . إلا مُثِّل فيها .

وقال أحمد : قلت لأبي سليمان : صليت صلاة فوجدت لها لذة ، فقال : أي شيء لذَّ لَكَ منها ؟ قلت : لم يرني أحد ، قال : أنت ضعيف حين خطر الناس علىٰ قلبك في الخلاء .

وقال أحمد : قلت لأبي سليمان : إني أريد من الدنيا أكثر مما أُعطىٰ منها ، قال : لـٰكني أعطىٰ منها أكثر مما أريد .

وقال أبو سليمان : مَن ترك الدنيا للآخرة . . ربحهما ، ومن ترك الآخرة للدنيا . . خسرهما ، وكل أم يتبعها بنوها ، بنو الدنيا تُسْلِمهم إلىٰ حر شديد ، ومقامع من حديد ، وشراب الصديد ، وبنو الآخرة تسلمهم إلىٰ عيش رغيد ، ونعيم لا يبيد ، في ظل ممدود ، وماء مسكوب ، والفكر في الدنيا . . حجاب عن الآخرة ، وعقوبة لأهل الولاية .

أسند أبو سليمان القليل ، فمن مفاريده : قال : حدثني شيخ بساحل دمشق ، يُقال له : علقمة بن يزيد بن سويد الأزدي ، حدثني أبي ، عن جدي سويد بن الحارث قال : وفدت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم سابعَ سبعة من قومي ، فلما دخلنا عليه وكلمناه صلى الله عليه وسلم . . أعجبه ما رأىٰ من سَمْتنا وزَيِّنا ، فقال : « ما أنتم ؟ » فقلنا : مؤمنون ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : « إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟ » فقال سويد : قلنا : خمس عشرة خصلة ، خمس منها أمَرَتْنا بها رسلك أن نؤمن بها ، وخمس منها أمَرَتْنا رسلك أن نعمل بها ، وخمس منها تخلقنا بها في الجاهلية ، فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئاً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما الخمس التي أمرتكم رسلي أن تؤمنوا بها ؟ » قلنا : أمرتْنا رسلك أن نؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت .

قال : « وما الخمس التي أمَرَتْكم أن تعملوا بها ؟ » قلنا : أمرَتْنا رسلك أن نقول : لا إلـٰه إلا الله وأنك رسول الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤتي الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلاً .

قال : « وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية ؟ » قلنا : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، والرضا بمُرِّ القضاء ، والصبر عند شماتة العداء .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « علماء حكماء ، كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء » ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « وأنا أزيدكم خمساً ، فتتم لكم عشرون خصلة ، إن كنتم كما تقولون . . فلا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً تزولون ، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون » .

قال أبو سليمان : قال لي علقمة بن يزيد : فانصرف القوم من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحفظوا وصيته ، وعملوا بها ، ولا والله يا أبا سليمان ؛ ما بقي من أولـٰئك ولا من أولادهم أحد غيري ، وما بقي إلا أياماً قلائل ، ثم مات رحمه الله تعالىٰ(١) . هـٰذا حديث غريب ، تفرد به أبو سليمان ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . انتهىٰ [« الحلية » ٩/٢٦٩ـ٢٨٠] .

---

(١) انظر كتاب « الروضة الريا فيمن دفن بداريا » (٩٧) .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أبو سليمان : كنت بالعراق أَعْمَلُ ، وأنا بالشام أَعْرَفُ ، قال أحمد : فحدثت ابنه سليمان بذلك ، فقال : أما معرفة أبي [بالله تعالىٰ] بالشام لطاعته لله عز وجل بالعراق ، ولو ازداد لله تعالىٰ طاعة . . لازداد لله عز وجل معرفة .

وقال لي : ما يسرني أن لي من الله عز وجل أجر ما أنفقته في وجوه البر وأني أغفل عن الله عز وجل طرفة عين .

وقال : لو أن الدنيا كلها في لقمة ثم جاءني أخ لي . . لأحببت أن أضعها في فيه .

وقال : كنت أنظر إلى الأخ من إخواني بالعراق ، فأعمل علىٰ رؤيته شهراً .

وقال : إن الأخ هو الذي يعظك برؤيته قبل أن يعظك بكلامه .

وقال أحمد : بات أبو سليمان ذات ليلة ، فلما انتصف الليل . . قام ليتهجد ، فلما أدخل يده في الإناء . . بقي علىٰ حالته حتى انفجر الفجر ، فخشيت أن تفوته الصلاة ، فقلت : الصلاة يرحمك الله ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم قال : يا أحمد ؛ أدخلت يدي في الإناء ، فعارضني معارض في سري : هب أنك غسلت بالماء ما ظهر منك ، فبماذا تغسل قلبك ؟ فبقيت متفكراً وأنا في غموم وأحزان مما يفوتني من الأنس بالله عز وجل .

وقال : ما يسر العاقل أن الدنيا منذ خلقت إلىٰ أن تفنىٰ يتنعم بها حلالاً لا يُسأل عنها يوم القيامة وأنه حجب عن الله عز وجل ساعة واحدة ، فكيف بمن حجب أيام الدنيا والآخرة ؟!

توفي أبو سليمان سَنة خمس ومئتين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٥٥ـ١٦٢] .

قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : سئل أبو سليمان الداراني عن النكاح ، فقال : الصبر عنهن . . خير من الصبر عليهن ، والصبر عليهن خير من الصبر على النار .

وقال أيضاً : الوحيد يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب ما لا يجد المتأهل .

وقال مرة : ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت علىٰ مرتبته الأولىٰ .

وقال أيضاً : ثلاث من طلبهن . . فقد ركن إلى الدنيا : من طلب معاشاً ، أو تزوج امرأة ، أو كتب الحديث .

وقال الحسن : إذا أراد الله بعبد خيراً . . لم يَشغَله بأهل ولا مال .

وكان أحمد ابن أبي الحواري يناظر جماعة في هٰذا الأثر ، فاستقر رأيهم علىٰ أنه ليس معناه ألاَّ يكونا له ، بل معناه أن يكونا له ، لٰكن لا يشغلانه ، وهو إشارة إلىٰ قول أبي سليمان الداراني : كل ما شغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد . . فهو عليك مشؤوم . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/ ٢٤] .

وفي « **تاريخ الخطيب البغدادي** »[1] ـ **رحمه الله** ـ : قال أحمد ابن أبي الحواري : تمنيت أن أرىٰ أبا سليمان الداراني في المنام ، فرأيته بعد سَنة ، فقلت : يا معلم الخير ؛ ما فعل الله عز وجل بك ؟ قال : يا أحمد ؛ دخلت من باب الصغير ، فرأيت حمل شيح[2] ، فأخذت منه عوداً ، فلا أدري تخللت به ، أم رميته ؟ فأنا في حسابه منذ سنة . انتهىٰ .

وقال أبو سليمان : رأيت في المنام حوراء كثيرة الجمال ، قد أضاء نورها حتىٰ ملأ المحراب ، فقلت : من أنت ؟ قالت : أنا حوراء ، قلت : لمن أنت ؟ قالت : لك ، قلت : وبأي شيء نلتِ هٰذا النور العظيم ؟ فقالت : أتذكر الليلة الشديدة البرد ، التي قمتَ فيها وتوضأتَ بماء بارد ، فلما وضعتَ الماء علىٰ وجهك . . قطرت من وجهك قطرة ماء فوقعت علىٰ وجهي ، فهٰذا النور من تلك القطرة .

توفي أبو سليمان الداراني سنة خمس ومئتين رضي الله عنه ونفعنا به آمين .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) الخبر في « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ١٨٥) ، ولم نجدها في « تاريخ البغدادي » .
(٢) **الشِّيحُ** : نبت ينبت في السهول يتخذ من بعضه المكانس .

ومنهم الإمام :

أحمد بن عاصم الأنطاكي

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أحمد بن عاصم : إذا صارت المعاملة إلى القلب . . استراحت الجوارح .

وقال : هاه! غنيمة باردة ، أَصْلِحْ فيما بقي . . يَغفِرْ لك فيما مضىٰ .

وقال : ما أغبِط أحداً إلا من عرف مولاه سبحانه وتعالىٰ ، وأشتهي ألاَّ أموت حتىٰ أعرفه معرفة العارفين الذين يستحيونه ، لا معرفة التصديق .

وقال : الخير كله في حرفين ، قيل : وما هما ؟ قال : يزوي عنك الدنيا ؛ ويمُنُّ عليك بالقنوع ، ويصرف عنك وجوه الناس ؛ ويمُنُّ عليك بالرضا .

وقال : ليس شيء خيراً من ألاَّ تمتحن بالدنيا ؛ أي : لا تتعرض لها .

وقال : أنفع الغنىٰ . . ما نفىٰ عنك الفقر ، وأنفع الفقر . . ما كنت فيه متجملاً وبه راضياً ، وأنفع العلم . . ما ضرك جهله ، وازددت بمعرفته وجعاً ، وكنت به عاملاً .

وقال أحمد بن عاصم : أدركت زماناً عاد فيه الإسلام غريباً كما بدأ ، وعاد وصف الحق غريباً كما بدأ ، إن ترغبْ إلىٰ عالم . . وجدتَه مفتوناً بالدنيا يحب التعظيم والرياسة ، وإن ترغبْ إلىٰ عابد . . وجدتَه جاهلاً في عبادته مخدوعاً ، صريع عدوه إبليس ، قد صعد به إلىٰ أعلا درجة العبادة وهو جاهل بأدناها ، فكيف له بأعلاها ؟!

والتزين اسم لثلاث معاني : متزين بعلم ، ومتزين بجهل ، ومتزين بترك التزين ، وهو أغمضها وأحبها إلىٰ إبليس ، وقد عرض للخلائق عارض من الهوىٰ أقعد المريد وألهى العاقل ، فلا العاقل عرف داءه ، ولا المريد طلب دواءه ، ومن استعصم بالله عز وجل . . عصم ، ومن عُصم . . حُجب عن المعاصي ، ومن توقىٰ . . وُقِي ، ومن الْتمس العافية . . عوفي .

وقال أحمد : كتب رجل إلىٰ أخيه : **أما بعد** : **فالله الله** ، اسمعْ . . **أحدِّثْك عنه سبحانه وتعالىٰ** ، إنه جل جلاله لم يرفع المتواضعين بقدر تواضعهم ، ولـٰكن بقدر كرمه وجوده ، ولم يفرِّحِ المحزونين بقدر حزنهم ، ولـٰكن بقدر رأفته ورحمته ، فما ظنك بالرحمـٰن الرحيم الذي يتودد إلىٰ من يؤذيه ، فكيف بمن يؤذىٰ فيه ؟! وما ظنك بالتواب الرحيم الكريم الذي يتوب علىٰ من يعاديه ، فكيف بمن يُعادىٰ فيه ؟! والذي يتفضل علىٰ من يسخطه ويؤذيه فكيف بمن يترضاه ويختار سخط العباد فيه سبحانه وتعالىٰ ؟!

وقال أحمد بن عاصم : شَرُّ مكسَبَةِ الرجلِ . . البُذاءُ ، وهو : الغِيبة ، وذلك أنه يبغضه عليها المتقون ، ويهجره العاقلون ، وتجتنبه الملائكة ، ويقال : إنها تفطِّر الصائم ، وهو عند العقلاء منقوص ، وعند العامة سفيه ، وعند الأمناء خائن ، وعند الجهال مذموم ، ولا يحتملها إلا من كان فيه نقص أكثر من نقص قائلها ، وما وجدت في الشر نوعاً أكثر ضرراً منها في العاجل والآجل ، ومخرج الغيبة من تزكية النفس ، ومن شدة رضا صاحبها عن نفسه ؛ لأن الرجل إنما ينتقص غيره لفضيلة وجدها لنفسه في نفسه ، وإنما اغتبتَه بما لم تر فيك مثله ، ولو علمتَ أن فيك من العيب أكثر منه . . لحجزك ذلك عن غِيبة غيرك ، ولاستحييت أن تغتاب غيرك بما فيك من العيوب أكثر منه وأنت مصر عليها ، وما يساعدك على القبول إلا من هو أعمىٰ قلباً منك بمعرفة عيوب نفسه ، ولولاه . . لما اجترأت علىٰ ذِكر عيب غيرك عنده ، فاحذر الغيبة كما تحذر عظيم البلاء ؛ فإن الغيبة إذا ثبتت في القلب . . جاءت إليها أخواتها من النميمة ، والبغي ، وسوء الظن ، والبهتان العظيم ، والكذب ، ومن وقع منه الغيبة . . فقد وقع منه الكذب والبهتان ، وهما مجانبان للإيمان ؛ لأن الله عز وجل حرم من المؤمن ماله ودمه وأن يُظَن به ظنُّ السوء ، والظن في القلب ، فكيف بمن يظهر ما في قلبه باللسان ؟! فإن همَّت النفس بشيء من ذلك . . فرُدها عن ذلك بذِكر عيوبها ؛ فإنك لو لقيت عالماً عاملاً ناصحاً واستشرته في ذلك . . فما يزيدك علىٰ أكثر مما أبديناه لك من النصح في تجنب الغيبة ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال : ما من عافية . . إلا وقد تقدمها عفو ، لولا العفو . . لجاءت البلية . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٢٨١ـ٢٩٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

❋ ❋ ❋

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله محمد بن المبارك الصُّورِي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال محمد بن المبارك : أعمال الصادقين لله عز وجل بالقلوب ، وأعمال المرائين بالجوارح للناس ، فمن صدق. . فليقف موقف العمل لله عز وجل ؛ لعلم الله عز وجل به ، لا ليعلم الناس بعمله .

وقال : مهلاً رحمك الله ؛ فإن في قلبك وجعاً لا يبرئه إلا حُبُّه ، وحزناً لا يزيله إلا الأنس به سبحانه وتعالىٰ .

وقال : ليس من المعرفة بالله عز وجل أن تجعل نفسك مطية لهوىٰ غيرك ، أو طريقاً إلىٰ طلب دنيا مخلوق مثلك .

وقال : رأيت في جبال بيت المقدس امرأة عليها مدرعة(١) من صوف وخمار من صوف ، فسلمت عليها ، فقالت : مِن أين أنت ؟ فقلت : رجل غريب ، فقالت : سبحان الله! وهل تجد مع سيدك سبحانه وتعالىٰ وحشة الغربة وهو مؤنس الغرباء ؟ فبكيتُ ، فقالت : مم بكاؤك ؟ ما أسرع ما وجدت طعم الدواء ، ثم قالت : ما خدم القلبَ خادمٌ هو أحب إليه من البكاءِ ، ولا خدم البكاء خادم هو أحب إليه من الشهيق والزفير في البكاء ، فقلت لها : علميني شيئاً ، فقالت : حِبَّ اللهَ عز وجل شوقاً إلىٰ لقائه ؛ فإن له سبحانه وتعالىٰ يوماً يتجلىٰ فيه لأوليائه ، ثم أخذت في البكاء ، ومضت وهي تقول : سيدي ومولاي ؛ اغفر زللي ، واقبضني إليك يا أرحم الراحمين .

وقال محمد بن المبارك : دخلت مسجداً ، فرأيت فيه فتىً قد اكتنفه الناس قياماً وقعوداً يسألونه عن علم طريق الآخرة ، وعن معرفة الآفات الواردة ، فيجيبهم جواب من هو متسع

---

(١) المِدْرعة : الجبة .

في الحكمة والمعرفة ، فبقيت إلىٰ أن خلا ، فقال لي : حياك الله بالسلام ، ونعمنا وإياك بثوب الأحزان ، فقلت له : رحمك الله ، ما هـٰذا السبيل الذي أمر الله عز وجل محمداً صلى الله عليه وسلم بسلوكه واتباعه ؟ فقال : أما السبيل . . فهو الإيمان بالله عز وجل ، طريق ممدود لأهل الإيمان من الدنيا إلى الآخرة ، فمن سلكه . . أوصله إلىٰ رضوانه تبارك وتعالىٰ ، ومن لم يسلكه وعدل عنه . . فهو الذي نهىٰ عنه بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ، قلت : فما الإيمان الموصل إلىٰ رضوانه سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : الإيمان بالله عز وجل : إيمان ظاهر . . وقع به الستر الظاهر ، وإيمان باطن . . وقعت به الخشية الباطنة لله عز وجل . انتهىٰ [« الحلية » ٩/٢٩٨ـ٣٠٠] .

وقال في « المناقب » : قال أبو عبد الله محمد بن المبارك : من ألزم نفسه شيئاً لا يحتاج إليه . . ضيع من أحواله ما يحتاج إليه .

وقال : إذا لم تنتفع بكلامك . . كيف ينتفع به غيرك .

وقال : لم يضيع أحد فريضة من الفرائض . . إلا ابتلاه الله عز وجل بتضييع السنن ، وإلا أوشك أن يبتلىٰ بالبدع .

وروي أن حامداً الأسودَ جاءه فقال : إني رأيت في المنام أنك تموت إلىٰ سَنة ، فاستعدَّ للخروج ، فقال له : لقد أحلتنا علىٰ أمل بعيد ، أعيش إلىٰ سَنة ؟! لقد كان أنسي بهـٰذا البيت :

يا من شَكا شوقه من طول فرقته ... اصبر لعلك تلقىٰ مَن تحب غدا

وسأله رجل عن مسألة ، فأجاب عنها ، فقال له : أعِد عليَّ ، فقال : أنا في ندامة ما جرىٰ .

وقال : مَن دخل في هـٰذا الأمر بضعف . . قوي فيه ، ومن دخله بقوة . . ضعف فيه وافتضح .

وقال : مَن عظم قدره عند الناس . . يجب أن يحتقر قدره عند نفسه .

وقال : لو صح لعبد في عمره نَفَس بغير رياء ولا شرك . . لأَثَّرَ بركات ذلك عليه إلىٰ آخر الدهر .

وقال : **أنت تضمر دعوى العبودية وتظهر أوصاف الربوبية .**

وقال : أفضل أوقاتك وقتٌ تسلم فيه من هواجس نفسك ، ووقت يسلم الناس فيه من ظنونك . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله سعيد بن بُريد النَّباجي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال سعيد بن بُريد[1] : خمس خصال ينبغي للمؤمن أن يعرفها :

إحداهن : معرفة الله عز وجل .

والثانية : معرفة الحق .

والثالثة : إخلاص العمل لله عز وجل .

والرابعة : العمل على السُّنة .

والخامسة : أكل الحلال .

فإن عرف الله تعالىٰ ولم يعرف الحق . . لم ينتفع بالمعرفة ، وإن عرف الحق ولم يخلص العمل لله عز وجل . . لم ينتفع بمعرفة الله تعالىٰ ، وإن عرف ولم يكن علىٰ سنّة . . لم ينفعه ، وإن عرف ولم يكن المأْكَلُ من حلال . . لم ينتفع بالخمس[2] ، فإذا كان من حلال . . صفا له القلب فأبصر به أمر الدنيا والآخرة ، وإن كان من شبهة . . اشتبهت عليه الأمور بقدر المأكل ، وإن كان من حرام . . أظلم عليه أمر الدنيا والآخرة ، وإن وصفه الناس بالبصر ؛ فهو أعمى القلب حتىٰ يتوب .

وقال سعيد لأحمد ابن أبي الحواري : أتدري ما قلتُ البارحة والبارحة الأولىٰ ؟ قلتُ : اللهم ؛ إنك تعلم أنك لو خيرتني بين أن تكون لي الدنيا من يوم خُلِقَتْ إلىٰ قيام الساعة أتنعم فيها حلالاً لا أحاسب عليها يوم القيامة ، وبين أن تخرج نفسي الساعة . . لاخترت أن تخرج

---

(١) في نسخة : (عبد الله بن سعيد) وفي « الحلية » والنسخ : (سعيد بن يزيد) والمثبت من « الإكمال » لابن ماكولا (١/ ٢٣١) ، وَ (٧/ ٢٨٥) ، و« سير أعلام النبلاء » (٩/ ٥٨٦) ، والله أعلم .

(٢) في نسخة : (فإن عرف الله ولم يعرف الحق . . لم ينتفع بالمعرفة ، وإن عرف الحق ولم يخلص . . لم ينفعه ، وإن أخلص ولم يكن علىٰ سنة . . لم ينفعه ، وإن عمل بالسنة ولم يأكل الحلال . . لم ينتفع بالخمس) .

نفسي الساعة شوقاً إليك ، ثم قال : ألا تحب أن تلقىٰ من تطيع ؟!

وقال سعيد : سمعت أبا خزيمة يقول : القصد إلى الله عز وجل بترك الذنوب[1] . . أبلغ من حركات نوافل الأعمال كالصلاة والصيام ونحوهما .

وقال : احذروا لا يغضب الله عز وجل عليكم ، فيعطيكم الدنيا .

وقال : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : يا رب ؛ أين أجدك حتىٰ أصل إليك ؟ فأوحى الله عز وجل إليه : يا موسىٰ ؛ إذا انقطعت إليَّ . . فقد وصلت .

وقال : قال إسحاق بن خلف : ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول ابن آدم : ليت شعري بماذا يختم لي ؟ قال : فعندها ييأس منه ويقول : متىٰ يُعجب هـٰذا بعمله ؟ قال أحمد ابن أبي الحواري : فحدثت به مضاء بن عيسىٰ ، فقال : يا أحمد ؛ عند الخاتمة فظع بالقوم ، فحدثت به أبا عبد الله النباجي ، فقال : واخطَراه!

وقال النباجي : إن أحببتم أن تكونوا أبدالاً . . فأحبوا ما شاء الله ؛ فإن من أحب ما شاءه . . لم ينزل به شيء من مقادير الله تعالىٰ وأحكامِهِ إلا أحبه ، وأوحى الله عز وجل إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام : يا موسىٰ ؛ **ما شيء أسرع لقضاء حاجة عبدي مثل قوله : ما شاء الله ، وحسبي الله ؛ فإنك تعلم أني أحب ما شئت** . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٣١٠-٣١٢] .

وقال أبو الفرج : قال أبو عبد الله النباجي : قال لي قائل في منامي : أوَ يَحْسُن بالحُر المريد أن يتذلل للعبيد ، وهو واجد عند مولاه جل جلاله كل ما يريد ؟!

وقال : اطلبوا النظر في الرضا عن الله عز وجل وتساءلوا عنه بينكم ؛ فإنكم إن ظفرتم به . . يَسَّر عليكم الأعمال كلها .

وقال : لا تستكثروا الجنة للمؤمن ؛ فإنه قد وافىٰ بأعظمَ منها [وهو] معرفة الله تعالىٰ والإيمان به جل جلاله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٩٧] .

ثم قال الحافظ : قال سعيد النَّباجي : ينبغي لنا أن نكون بدعاء إخواننا أوثق منا بأعمالنا ، نخاف أن نكون في أعمالنا مقصرين ، ونرجو أن يكونوا في دعائهم لنا مخلصين .

وقال : إن مِن خلق الله عز وجل خلائق يستحْلُون الصبر ، ولو علموا مواقع أقداره . . لبادروا إليها .

---

(١) في « الحلية » : (القصد إلى الله بالقلوب . . أبلغ) .

وفي رواية أخرىٰ : قال : إن في خلق الله تعالىٰ خلقاً يستحيون من الصبر ، ولو يعلمون مواقع أقداره جل جلاله . . لتلقوها تلقياً .

وقال : ما بقاء عُمُرٍ تقطعه الساعات وسلامة بدن معرض للآفات ؟! ولقد عجبت للمؤمن كيف يكره الموت وهو سبيله إلى الثواب ؟! وما أرانا إلا سيدركنا الموت ونحن أُبّق(١) .

وقال : لما توالىٰ علىٰ يعقوب عليه السلام ذَهاب ابنه [بنيامين] بعد يوسف ، واطلع الله عز وجل علىٰ ما في قلبه من الحزن . . بعث الله عز وجل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام يقول له : قل : **يا كثير الخير ، يا دائم المعروف الذي لا ينقطع أبداً ولا يحصيه غيره ؛ رُدَّ علي ابنيَّ ، فأوحى الله عز وجل إليه : (وعزتي وجلالي لو كانا ميتين . . لنشرتهما لك)** .

وفي رواية أخرىٰ : فما طلع الفجر حتىٰ أتي بقميص يوسف .

وقال : من خطرت الدنيا بباله لغير القيام بأمر الله عز وجل . . حُجب عن الله تعالىٰ .

وقال : إذا ذكرت قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْوَهَّابُ﴾ . . فرحت بذلك .

وقال : يؤتىٰ بالعبد يوم القيامة ، فيغيب في النور ، فيعطىٰ كتاباً ، فيقرأ فيه صغار ذنوبه ولا يرىٰ فيه كبائر كان يعرفها ، قال : ثم يُدعىٰ ملك ، فيُعطىٰ كتاباً مختوماً ، فيقول : انطلِق بعبدي إلى الجنة ، فإذا كان عند آخر قنطرة من قناطر جهنم . . فادفع إليه هـٰذا الكتاب ، وقل له : ربك يقول لك : ما منعني أن أوقفك عليها إلا حياء منك ، فإذا كان عند آخر قنطرة . . دفع إليه الملك الكتاب ، ففض الخاتم وقرأ الكتاب ؛ فإذا فيه الكبائر التي كان يعرفها ، فيقول للملك : هل عرفت ما فيه ؟ فيقول : لا ، إنما دُفع إلي كتاباً مختوماً ، والله عز وجل يقول : ما منعني أن أوقفك عليها إلا الحياءُ منك ، سبحانه وتعالىٰ .

وقال : مَن رزقه الله عز وجل معرفته . . فهو يتنعم في كل أحواله .

وقال : إنما ذكر الله عز وجل درجة الخائفين وأمسك عن درجة المحبين ؛ لأن القلوب لا تحتمل ذلك ، كما أمسك عن درجة النبيين وأظهر ثواب المتقين ، قال في النبيين : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا ﴾ ، و﴿ عِبَادِنَا ﴾ ، وأثنىٰ عليهم : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ ، وقال تعالىٰ :

---

(١) الآبق : العبد الهارب من سيده .

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ * جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾ أي : ذِكري وثنائي عليهم . . أشرف من ثواب المتقين ، وإنما ذَكر ثواب صغار الأمور ولم يذكر ثواب العظيم منها ، فإنه لا تحتمله القلوب ، هل ذَكر في الزكاة والصوم شيئاً ؟!

ويقول سبحانه وتعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

وقال : قال لي رجل : لو جُعِلَتْ لي دعوة مستجابة . . ما سألت الفردوس ، ولـٰكن كنت أسأله الرضا ، فهو تعجيل الفردوس ، والرضا إنما هو في الدنيا ؛ لقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ ، وأعد لهم في الآخرة ما لا عين رأت ، والرضا مُلك يفضي إلىٰ مُلك ، وهُمْ أوجَهُ الخلق عنده بما أعطاهم ، وسبق لهم عنده سبحانه وتعالىٰ في الأزل ، وقد فرغ الله سبحانه وتعالىٰ مما أراد ، وأسعد من أسعد ، فسبحانه وتعالىٰ .

وقال : رأيت في النوم أربعة نفر أتوني ومعهم رجل ، فسألني كتابة دعاء ، فقلت له : اكتب : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، اللهم ؛ إني أسألك يا الله ، اللهم ؛ إني أسألك يا الله ، اللهم ؛ إني أسألك يا الله ، اللهم ؛ إني أسألك يا رباه ، اللهم ؛ إني أسألك يا ذا الجلال والإكرام . . لا تجعل لي هوىً في شيء يخالف أمرك سراً ولا علانية ، اللهم ؛ إني أسألك ألا تراني أخطو خطوة في طلب دنيا تضرُّ بي عندك ، وأسألك أن تكرمني من أن أطمع إلىٰ أحد من المخلوقين أبداً ما أحييتني ، قال : فقال لي النفر الأربعة : كُتب لك خير الدنيا والآخرة .

وقال : رأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي : اِعلم : أن من علامات حب الله عز وجل . . أن تكون بزيادة دِين[1] غيرك أسرَّ منك بزيادة دنياك .

وقال : كيف يتقي من لا يدري ما يُتَّقىٰ[2] ؟!

وقال : من لم يكن عالماً بما يَرِدُ عليه من الله عز وجل ولم يعلم ما يريد الله تعالىٰ منه . . فهو ممن وقع الحجاب بينه وبين الله عز وجل .

---

(١) في نسخة : (أن تكون بزيادة آخرتك أسر عندك من زيادة دنياك) .
(٢) في نسخة : (كيف يتقي من لا يدري كيف يتقي ؟) .

وكان يقول : ما أحسب أن أحداً يكون في الصلاة فيقع في سمعه غير ما يخاطبه الله عز وجل به .

وقال : الغفلة عن الله عز وجل أشد من دخول النار .

وقال : إذا دخل الغضب على العقل . . ارتحل الورع ، فكيف بمن لا عقل له ولا ورع إذا دخل عليه الغضب ؟! انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٣١٢-٣١٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

منصور بن عمار
رضي الله عنه

قال في « المختار » : كان سبب توبة منصور بن عمار : أنه وجد في الطريق رقعة فيها : بسم الله الرحمٰن الرحيم ، فلم يجد لها موضعاً ، فأكلها ، فرأىٰ في المنام كأن قائلاً يقول له : قد فتح الله عليك باب الحكمة ؛ لاحترامك تلك الرقعة . انتهىٰ .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : رُئِيَ منصور بن عمار بعد موته في المنام ، فقيل له : يا منصور ؛ ما فعل بك ربك ؟ فقال : غفر لي ، وقال لي : يا منصور ؛ قد غفرت لك علىٰ تخليط كثير فيك ، إلا أنك كنت تحوش الناس إلىٰ ذِكري .

وقال سليم بن منصور : كنت في مجلس أبي ، فوقعت رقعة في المجلس ؛ فإذا فيها : بسم الله الرحمٰن الرحيم ، يا أبا السري[1] ؛ أنا رجل من إخوانك ، تبت علىٰ يديك ، وإني اشتريت من الله عز وجل حوراء علىٰ صداق ثلاثين ختمة ، ختمت منها تسعاً وعشرين ، فبينا أنا في الثلاثين ؛ إذ غلبتني عيناي ، فرأيت كأن حوراء قد خرجت علي من المحراب ، فلما رأتني أنظر إليها . . أنشأت تقول بصوت رخيم :

أتخطب مثلي وعني تنامْ ... ونوم المحبين عندي حرامْ
لأَنَّا خُلِقنا لكل امرىءٍ ... كثير الصلاة براه الصيامْ

فانتبهت وأنا مذعور .

وقال رجل عابد لمنصور : يا أبا السري ؛ تتكلم بهٰذا الكلام ونرىٰ منك أفعالاً لا توافق ما تقول ؟ فقال له منصور : احسبوني درة وجدتموها علىٰ كناسة ، انتفعوا بالدرة ودعوا الكناسة مكانها .

وقال منصور : خرجت ليلة من الليالي ، فظننت أن النهار قد أضاء ، وإذا الليل بعد ،

(١) أبو السري : هو منصور بن عمار .

فقعدت إلىٰ دهليز مشرف ؛ وإذا بصوت شاب يدعو ويبكي ويقول : وعزتك وجلالك ؛ ما أردت بمعصيتي مخالفتك ، ولقد عصيتك إذ عصيتك بجهلي ، وما أنا بنكالك جاهل ، ولا لعقوبتك متعرض ، ولـٰكن سولت لي نفسي ، وأعانني عليها شقوتي ، وغرني سترك المُرْخىٰ عليَّ ، فعصيتك إذ عصيتك بجهلي ، فمِن عذابك مَن ينقذني ؟! ومن زبانيتك من يخلصني ؟! وبحبل مَن أعتصم إن أنت قطعت حبلك عني ؟! فواسوأتاه إذا قيل للمخفِّين جوزوا ، وللمخطئين حطوا ، ويحي! كلما طال عمري . . كثرت ذنوبي ، ويحي! كلما كبرت سني . . كثرت خطاياي ، فيا ويلي كم أتوب وكم أعود ولا أستحي من ربي ، قال منصور : فلما سمعت كلامه . . قرأت قوله تعالىٰ : ﴿ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ، قال : فسمعت اضطراباً شديداً ، ثم سكن الصوت ، فقلت : إن هـٰهنا لسراً وعلَّمت الباب ، فلما رجعت من الغد ؛ إذا بجنازة وعجوز تدخل الدار وتخرج باكية ، فقلت لها : يا أمة الله ؛ مَا هـٰذا الميت منك ؟ قالت : إليك عني ، لا تجدد علي أحزاني ، هـٰذا ولدي ، كان إذا جن عليه الليل . . قام في محرابه يبكي ، وكان يعمل الخوص يقسم كسبه أثلاثاً ، ثلث يطعمني به ، وثلث للمساكين ، وثلث يفطر عليه ، فمر علينا البارحة رجل لا جزاه الله عنا خيراً ، فقرأ آيات فيها ذِكر النار ، فلم يزل يضطرب ويبكي حتىٰ مات رحمه الله تعالىٰ .

وقال منصور بن عمار : دخلت علىٰ سفيان بن عيينة ، فحدثني ووعظته ، فلما أثارت الأحزان دموعه . . رفع رأسه إلى السماء يرددها في عينيه ، فقلت له : هلا أسبلتها إسبالاً وتركتها تجري ؟ فقال : يا منصور ؛ هـٰذا أَكمَدُ للحزن ، إن الدمعة إذا بقيت في الجفون . . كان الحزن أبقىٰ في الفؤاد .

وقال منصور بن عمار : من جزع من مصائب الدنيا . . تحولت مصيبته في دِينه .

ومما رواه منصور بن عمار بإسناده : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تقول جهنم للمؤمن : يا مؤمن ؛ جز ، فقد أطفأ نورك لهبي »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٩/٣٢٥ـ٣٢٩] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان منصور بن عمار يقول في قصصه ومواعظه شيئاً عجيباً ، لم يُقص على الناس في زمنه مثلُه .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/٢٥٨) .

وقال سليم ابنه : رأيت أبي في المنام فقلت : ما فعل بك ربك ؟ فقال : إن الرب عز وجل قربني وأدناني ، وقال لي : (يا شيخ السوء ؛ أتدري لِمَ غفرتُ لك ؟) فقلت : لا يا إلٰهي وسيدي ، قال : (لأنك جلست للناس يوماً ، فبكَّيتهم ، فبكىٰ فيهم عبد من عبادي لم يبك من خشيتي قط ، فغفرت له ، ووهبت أهل المجلس كلهم له ، ووهبتك فيمن وهبت) .

وقال أبو الحسين : رأيت منصور بن عمار في المنام ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : أُوقِفت بين يديه سبحانه وتعالىٰ ، فقال لي : (أنت الذي كنت تزهد الناس في الدنيا وترغبهم في الآخرة ؟) فقلت : قد كان ذلك ، وأنت يا رب أعلم ، ولٰكن ـ وعزتك وجلالك ـ ما جلست مجلساً . . إلا بدأت بالثناء عليك بتوفيقك إياي ، وثنيت بالصلاة علىٰ رسولك صلى الله عليه وسلم ، وثلثت بالنصيحة لعبادك ، فقال تعالىٰ : (صدقت ، ضعوا له كرسياً في سمائي يمجدني بين ملائكتي كما كان يمجدني في أرضي بين عبادي) .

أسند منصور بن عمار عن [معروف] أبي الخطاب ، والليث ، وابن لهيعة في آخرين ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٨٦ـ١٨٧] .

وقال أبو القاسم القشيري : كان رجل شرِّيب قد جمع قوماً من ندمائه ، ودفع إلىٰ غلام له أربعة دراهم ، وأمره أن يشتري بها شيئاً من الفواكه للمجلس ، فمر الغلام ومنصور بن عمار قائم في مجلسه يعظ الناس ، فأحب الغلام أن يسمع ، فوقف ، فقام سائل يسأل من منصور أربعة دراهم ، فقال منصور : مَن يعطي هٰذا الفقير أربعة دراهم أدعو له أربع دعوات ؟ قال : فألقى الله عز وجل علىٰ قلب الغلام أن يدفع الدراهم إلىٰ ذلك الفقير ، فدفعها إليه ، فقال له منصور : ما الذي تريد من الدعاء ؟ فقال : أنا رقيق أريد أن أتخلص من الرق ، فدعا له منصور ، ثم قال : وأريد أن يخلف الله عز وجل عليَّ نفقتي ، فدعا له ، ثم قال : وأريد أن يتوب الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ سيدي ، فدعا له ، ثم قال : وأريد أن يغفر الله عز وجل لسيدي ولك ولي وللقوم أجمعين ، فدعا له منصور ، ثم رجع الغلام إلىٰ سيده ، فقال له : لِمَ أبطأت ؟ فقص عليه القصة ، فقال له سيده : بِمَ دعا لك ؟ فقال : سألت لنفسي العتق ، فقال : اذهب فأنت حر لوجه الله تعالىٰ ، وأيش الثانية ؟ فقال : أن يخلف الله عز وجل عليَّ دراهمي ، فقال : لك أربعة آلاف[1] درهم ، وأيش الثالثة ؟ فقال : أن يتوب الله عز وجل

(١) في نسخة (أربع مئة) .

عليك ، فقال : قد تبت إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وأمر بإراقة جميع ما عنده ، وقال : أيش الرابعة ؟ فقال : أن يغفر الله عز وجل لي ولك وللشيخ وللقوم أجمعين أهل المجلس ، فقال : هٰذه الرابعة ليست إلي ، فلما كان بعد ذلك . . رأىٰ في تلك الليلة في المنام كأن قائلاً يقول له : أنت فعلت ما كان إليك ، أتراني لا أفعل ما هو إلي ؟! قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين . انتهىٰ [« الرسالة » ١٠٨-١٠٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الله بن عبد العزيز العُمَري
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كنيته : أبو عبد الرحمن .

قال عبد الله بن الحسن(1) : تعبد عبد الله العُمَري(2) وسكن المقابر ، وكان لا يُرىٰ إلا وفي يده كتاب يقرأ فيه ، وترك مجالسة الناس ، فقيل له في ذلك ، فقال : لم أر أَوعَظَ من قبر ، ولا آنَسَ من كتاب ، ولا أسلَمَ من الوحدة ، فقيل له : قد جاء في الوحدة ما جاء ، فقال : لا تُفسدُ إلا جاهلاً .

ورأى العُمَري رجلاً من آل علي رضي الله عنه يمشي وهو يخطر(3) ، فأسرع إليه ، وأخذ بيده ، وقال له : **يا أخي ؛ إن هـٰذا الذي أكرمك الله تعالىٰ به لم تكن هـٰذه مشيته ، فتركها الرجل بعد ذلك واعتذر .**

وقال العُمَري : إن من غفلتك عن نفسك . . إعراضك عن الله عز وجل بأن ترىٰ ما يسخطه فتتجاوزه ولا تأمر فيه ولا تنهىٰ ؛ خوفاً ممن لا يملك لك ضراً ولا نفعاً .

وكان يقول : **مَن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مخافة المخلوقين . . نزعت منه هيبة الله عز وجل عليه ، حتىٰ لو أمر بعض أهله أو مواليه . . لاستخفوا به .**

وقال أبو قدامة : كان العمري ماراً في طريق ، فوجد أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فقال له : اعمل كذا ، واعمل كذا ، فقال له : نعم يا عم .

وقال سعيد بن سليمان : كنت بمكة وإلىٰ جانبي عبد الله العمري ، وقد حج هارون الرشيد ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ؛ هـٰذا أمير المؤمنين في المسعىٰ يسعىٰ ، وقد

---

(1) في « الصفوة » : (عبد الله بن خبيق) .

(2) **العمري** : هي نسبة إلىٰ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهو : عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر رضي الله عنهم أجمعين .

(3) **خطر في مشيه** : اهتز وتبختر .

أخلي له ، فقال له : لا جزاك الله خيراً ، كلفتني أمراً كنت عنه غنياً ، ثم علق نعليه وقام ، فتبعته ، فأقبل هارون الرشيد من المروة يريد الصفا ، فصاح به : يا هارون ؛ فلما نظر إليه . . قال : لبيك يا عم ، فقال : اِرْقَ على الصفا ، فلما رقىٰ . . قال : ارم بطرْفِكَ إلى البيت ، ففعل ، فقال : كم هُمْ ؟ قال : ومن يحصيهم إلا الله سبحانه وتعالىٰ ؟ قال : فكم في الناس مثلهم ؟ فقال : خلق كثير لا يحصيهم إلا الله تبارك وتعالىٰ ، فقال : اعلم ؛ أيها الرجل : أن كل واحد منهم يُسأل عن خاصة نفسه ، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ، قال : فبكىٰ هارون ، وجعلوا يعطونه منديلاً منديلاً للدموع ، فقال العمري : وأخرىٰ أقولها لك ، قال : قل يا عم ، فقال : والله ؛ إن الرجل لَيُسرفُ في ماله ، فيستحق عليه الحَجْر ، فكيف بمن يسرف في مال المسلمين ؟! ثم مضىٰ وهارون يبكي .

وقال محمد بن عبد الرحمن : بلغني أن هارون الرشيد قال : إني لأحب أن أحج كل عام ما يمنعني إلا رجل من ولد عمر ثَمَّ ، يُسمعني ما أكره .

وخرج العُمَري مرة إلى الرشيد ليعظه ، فلما نزل الكوفة . . رجف جميع العسكر ، حتىٰ لو نزل بهم مئة ألف . . ما رجفوا ذلك الرجفان ، ثم رجع ولم يَصِلْ إليه .

وجاءه رجل فقال له : عظني ، فأخذ حصاة من الأرض ، وقال : زنة هـٰذه من الورع يدخل قلبك . . خير لك من صلاة أهل الأرض ، فقال : زدني ، فقال : كما تحب أن يكون الله عز وجل لك غداً . . فكن له اليوم .

وقال عند موته : بنعمة ربي أحدث ، إني لم أصبح أملك سوىٰ سبعة دراهم من لحاء شجر فتلته بيدي . وبنعمة ربي أحدث ، لو أن الدنيا كلها لي وأصبحت تحت قدمي ، لا يمنعني من أخذها إلا أن أزيل قدمي عنها . . ما أزلتها .

أسند العمري الحديث ، وأدرك من التابعين أبا طُوَالة .

وتوفي بالمدينة سنة أربع وثمانين ومئة ، وهو ابن ست وستين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٠٥ـ١٠٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو غياث المكي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال محمد بن جرير : كنت بمكة سنة أربعين ومئتين ، فرأيت خراسانياً ينادي : معاشر الحاج ؛ من وجد هِمياناً[1] فيه ألف دينار فرده . . أضعف الله تعالىٰ له الثواب ، قال : فقام إليه شيخ من أهل مكة من موالي جعفر ، فقال له : يا خراساني ؛ بلدنا فقراء أهله ، شديد حاله ، أيامه معدودة ، ومواسمه منتظرة ، لعله يقع بيد رجل موقن يرغب فيما تبذله حلالاً يأخذه منك ويرده عليك ، فقال الخراساني : فكم يريد ؟ فقال : العشر ؛ مئة دينار ، فقال : لا أفعل ذلك ، ولـٰكنا نحيله على الله تعالىٰ ، قال : فافترقا .

قال ابن جرير : فوقع لي أن الشيخ صاحب القريحة والواجد للهميان ، فتبعته ، فكان كما ظننت ؛ فإنه لما أتىٰ إلىٰ منزله . . نزل إلىٰ دار مستقلة خلقة الباب والمدخل ، فسمعته يقول لامرأته : يا لبابة ؛ قالت : لبيك يا أبا غياث ، قال : وجدت صاحب الهميان ينادي عليه مطلقاً ، فقلت له : قيده بأن تجعل لواجده شيئاً ، فقال : كم ؟ قلت : عُشرَهُ ، فقال : لا ، ولـٰكنا نحيله على الله عز وجل ، فأيش نعمل ولا بد لي ـ والله ـ من رده ؟ فقالت له : نحن نقاسي معك الفقر منذ خمسين سنة ، ولك أربع بنات وأختان وأنا وأمي وأنت تاسع القوم ، أشبعنا واكسنا ، واجعل هـٰذا قرضاً لعل الله عز وجل يغنيك ، فتعطيه ، أو يؤدي الله عز وجل عنك ، فقال لها : لست أفعل ، ولا أحرق حشاشتي بالنار بعد ست وثمانين سنة ، قال : ثم سكت القوم ، فانصرفت .

فلما كان من الغد علىٰ ساعات من النهار . . سمعت الخراساني يقول : يا معاشر الحاج ، وفد الله من الحاضر والباد ، من وجد هميانا فيه ألف دينار فرده . . أضعف الله تعالىٰ له الثواب ، قال : فقام إليه الشيخ ، فقال : يا خراساني ؛ قد قلت لك بالأمس ونصحتك ،

---

(١) الهِيمان : كيس للنفقة يشدُّ في الوسط ، مثل الحزام الذي يستخدمه مريد الحج والعمرة .

وبلدنا قليل الزرع والضرع ، وقد قلت لك تدفع إلى الذي وجده مئة دينار ، لعله أن يقع بيد رجل موقن يخاف الله تعالىٰ فامتنعت وقلت : لا نعطيه شيئاً ، فهل تعطيه عشرة دنانير منها ، هي عشر العشر ويرده عليك ، ويكون له في العشرة ستر وصيانة ؟ فقال الخراساني : لا أفعل ، ولٰكن نحيله على الله عز وجل ، ثم افترقا ، وجلست أكتب كتاب « النسب » للزبير بن بكار ، فلما كان من الغد . . سمعت الخراساني ينادي ذلك النداء بعينه ، فقام إليه ذلك الشيخ ، وقال : يا خراساني ؛ قلت لك العشر فلم تفعل ، وعشر العشر فلم تفعل ، أعطه ديناراً واحداً عشر عشر العشر يشتري بنصف دينار قِربة يستقي عليها الماء بالأجرة وبالنصف الآخر شاة يحلبها ويجعل ذلك لعياله غداء ، فقال : لا أفعل ، ولٰكنا نحيله على الله سبحانه وتعالىٰ .

قال : فجذبه الشيخ وقال : تعالَ خذ هميانك ، ودعني أنام الليل ، وأرحنا من مشاحَّتك[1] ، فقال له : امضِ ، فمضى الشيخ ، وتبعه الخراساني ، وتبعتهما ، فدخل الشيخ ، فنبش ـ تحت درجة له ـ مزبلةً ، فأخرج منها الهميان وهو أسود من خرق غلاظ ، وقال له : هٰذا هميانك ؟ فنظر إليه ، وقال : هٰذا همياني ، قال : ثم حل رأسه من شد وثيق ، ثم صب المال في حِجْر نفسه ، وعدَّه وقلبَه مراراً ، وقال : هٰذه دنانيري ، ثم أمسك فم الهميان ، ورد المال بيمينه إلى الهميان ، ثم شده شداً سهلاً ، ووضعه علىٰ كتفه ، ثم أراد الخروج ، فلما وصل إلىٰ باب الدار . . قال : يا شيخ ، يا شيخ ؛ مات أبي رحمه الله تعالىٰ وترك ثلاثة آلاف دينار ، وقال لي : أخرج ثلثها علىٰ أحق الناس عندك وأحوجهم ، وبع رحلي واجعله في نفقة حجك ، ففعلت ذلك ، وأخرجت الثلث وهو هٰذه الألف دينار ، وشددتها في هٰذا الهميان ، وما رأيت منذ خرجت من خراسان إلىٰ هٰهنا أحق منك ، خذها بارك الله تعالىٰ لك فيها .

قال : ثم ولّىٰ وتركه .

قال : فوليت خلف الخراساني ، فعدا أبو غياث ، فلحقني وردني ، وكان شيخاً مشدود الوسط بشريط ، فقال لي : اجلس ، فقد رأيتك تتبعني في أول يوم ، وعرفت خبرنا بالأمس واليوم ، وقد سمعت أحمد بن يونس اليربوعي يقول : سمعت مالكاً يقول : سمعت نافعاً يقول : عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر وعلي

---

(١) **المشاحة** : المخاصمة والمجادلة .

رضي الله عنهما : « إذا أتاكما الله عز وجل بهدية بلا مسألة ولا استشراف نفس . . فاقبلاها ولا ترداها على الله عز وجل »[1] ، وهـٰذه هدية من الله عز وجل ، والهدية لمن حضر .

ثم قال : يا لبابة ، وفلانة ، وفلانة ؛ فصاح ببناته وأخواته وزوجته وأمها ، وقعدن وأقعدني معهم ، فصرنا عشرة ، فحل الهميان ، وقال : ابسطوا حجوركم ، فبسطت حجري ، وما كان لهن قميص له حِجْر يبسطنه ، فمددن أيديهن ، وأقبل يعد ديناراً ديناراً ، حتىٰ إذا بلغ العاشر إليَّ . . قال : ولك دينار ، حتىٰ فرغ الهميان ، فكانت ألفاً ، فأصابني منه مئة دينار ، فداخلَني من سرور غناهم أكثر مما داخلني في نفسي ، فلما أردت الخروج . . قال لي : يا فتىٰ ؛ إنك لَمُبارَك إن شاء الله تعالىٰ ، وما رأيت هـٰذا المال قط ولا أَمَّلْتُه وإني لأنصحك إنه حلال ، فاحتفظ به ، واعلم أني كنت أقوم فأصلي الغداة في هـٰذا القميص الخَلَق ، ثم أنزَعه ، فيصلِّين فيه واحدة واحدة ، ثم أكتسب إلىٰ ما بين الظهر والعصر ، ثم أعود في آخر النهار بما فتح الله عز وجل لي من أَقِطٍ وتمر وكُسيرات ومِن بقول نُبِذت ، ثم أنزعه ، فيتداولنه ، فيصلين فيه المغرب وعشاء الآخرة .

فنفعهن الله تعالىٰ بما أخذن ، ونفعني وإياك بما أخذنا ، ورحم الله تبارك وتعالىٰ صاحب المال في قبره ، وأضعف الله عز وجل ثواب الحامل للمال ، وشكر الله تعالىٰ له .

قال ابن جرير : فودعته ، وكتبت بها كتب العلم ، وبقيت سنين أتقوت منها وأشتري الورق وأسافر وأعطي الأجرة ، فلما كان بعد سَنة ست وخمسين . . سألت عن الشيخ بمكة ، فقيل لي : إنه قد مات بعد ذلك بشهر ، وتزوجت لبابة مملوكته بمملوك ، وماتت الأُختان وأمهم رحمة الله تعالىٰ عليهم أجمعين ، وكنت أنزل علىٰ أزواجهم وأولادهم ، فأخبرتهم بالحديث الذي جرىٰ لأبيهم مع الخراساني ، فيأنَسُون إلي ويكرموني . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٥٤ـ١٥٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٤٨٢٠) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « إذا ساق الله إليك رزقاً عن غير مسألة ولا استشراف نفس . . فخذه ؛ فإن الله أعطاكه » .

ومنهم الإمام :

أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال ذو النون : إلـٰهي ؛ وسيلتي إليك.. نعمُك عليَّ ، وشفيعي إليك.. إحسانك عليَّ ، أشهد لك بالربوبية والوحدانية ، ابتدأتني برحمتك من قبل أن أكون شيئاً ، فلك الحمد علىٰ جميع إحسانك ، حمداً يوافي نعمك ، ويكافىء مزيدك بعدد عفوك عن خلقك ياذا الجلال والإكرام . [انتهىٰ « الحلية » ٩/ ٣٣٢ـ٣٣٣] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال ذو النون رحمه الله : التوكل بالقلب ، والاكتساب بالبدن ، فإذا اكتسبت ببدنك ، واتكلت على الله عز وجل بقلبك.. فأنت متوكل ، وإذا أردت العمل ببدنك ، وشغلت قلبك بالخلق(١).. فلست بمتوكل ، ولا سلكت طريق المتوكلين قط .

وقال : حقيقة الرضا.. سرور القلب بمُر القضاء .

وكان ذو النون يقول : أنا علىٰ يقين من ربنا عز وجل ، وعلىٰ ثقة منه سبحانه وتعالىٰ ، كَشَف الأغطية عن قلوبنا ، فانجلت عنا الظُّلَم ، وألبسنا حلل النعم ، فارتحلت عنا النقم ، فبأي لسان نشكره واللسان بنعمته نطق ؟! وبأي عمل نتقرب إليه والعمل لا يكون إلا من عطائه وفضله ؟! فلئن قصُرت ألسنتنا عن شكره.. فقد أقررنا به ، ولئن ضعفنا عن القيام بأوامره سبحانه وتعالىٰ.. فإليه نشكو العجز .

اللهم ؛ إن مننك السالفة علينا بل الدائمة علي وعلىٰ سائر خلقك.. هي الباعثة علىٰ حسن الظن بك في مستقبل أحوالنا ، فحقق اللهم آمالنا ، واجعلنا لك من الشاكرين ، وبما مننت به علينا معترفين ، وكمِّل لنا الموهبة بالنظر إلىٰ وجهك الكريم يا أرحم الراحمين ؛ آمين .

---

(١) في نسخة : (بالخوف) .

وقال أبو طاهر القاسم بن عبد الله : سمعت ذا النون يقول : تضاحَكَتِ الأشياء إلىٰ أولياء الله العارفين بأفواه القدرة عن مليكها جل جلاله ؛ لما يرون من آثار صنعته فيها ، ويعاينون من بدائع خلقه معها ، فلهم في كل شيء معتبَرٌ ، وعند كل شيء مُدَّكَر .

وسئل أبو يعقوب يوسف بن الحسين : إلامَ كان يشير إليه ذو النون ؟ فقال : إلىٰ أدنىٰ درجات الطالبين للتوبة .

وسأله رجل فقال له : ما أعون ما يجده العبد في تسكين الشهوة ؟ فقال : صيام النهار ، وقيام الليل ، ووضع الشهوات والإغفال عنها ، وترك محادثة النفس بذِكرها ، فقال له الرجل : يرحمك الله ، فإن الرجل يصوم بالنهار ، ويقوم بالليل ، ولا يأكل الشهوات ، ويجد في نفسه حركة واضطراباً ، فقال : إن ذلك من فضل شهوة مقيمة فيه من الأول ، فليقطع أسباب المادة منها جهده ، ويسكنها عن نفسه بالهموم والأحزان ، ويسكن شيطانها بذِكر الموت ؛ فإن القوم ما وجدوا شيئاً أعون لهم على الزهد فيها والانقطاع عنها والتخلي منها من ذِكر الموت ، وتقريبِ الأجل ، وقصر الأمل وما يشغل القلوب .

ثم قال : اقطع عن نفسك الشهوات ، واشتغل بمراقبة من هو عليك رقيب سبحانه وتعالىٰ ، والمحافظة علىٰ من هو عليك حسيب ، واسألِ الله سبحانه وتعالى التوفيق علىٰ إبلاغ الطريق ، والخروج من كل ضيق بمنه وكرمه ، إنه علىٰ كل شيء قدير .

وعن أبي يوسف الحيري رحمه الله قال : بات عندي ذو النون ليلة ، فلما أصبح . . رأيته هائماً علىٰ وجهه ، فقلت له : إلىٰ أين يرحمك الله تعالى ؟ قال : دعني ؛ فإن لي آمالاً قد تقدمت مني إلى المحبوب جل جلاله ، قلت : وما هـٰذه الآمال ؟ قال : قد علمها الله ، وهو المأمول سبحانه وتعالىٰ ، وحسبي من سؤالي علمه بحالي ، وكفىٰ بالعبد أدباً ألاَّ يكون له هَم ولا إرادة غير الله عز وجل ، فقلت : ألا تزودني كلمات أنتفع بها ؟ فقال : اِرمِ بآمالك كلها عند الدائم الكريم سبحانه وتعالىٰ . . تجده بآمالك قائماً ، وسارِع إلىٰ مرضاته عز وجل بجهدك وقدر استطاعتك ، واعلم : أن لله عز وجل عباداً أحبوه فاستأنسوا به ، وعرفوه فسَمَتْ قلوبهم إليه ، فليس لهم هَمٌّ ولا مأمول غيره سبحانه وتعالىٰ .

وقال ذو النون : لا يزال العباد على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف ، حتىٰ إذا زال عنهم الخوف . . فقد تركوا الطريق وأُخذ بالقوم ذات الشمال .

وسئل ذو النون رحمه الله فقيل له : متىٰ يصح للعالِم حقيقة اسم العلم ؟ فقال : إذا فقه

قلبه ، واعتادت جوارحه العمل وألفته ، ووافق ظاهره باطنه ، مراقباً لله عز وجل في أحواله كلها ، لا يريد بعلمه إلا الله سبحانه وتعالىٰ . فعند ذلك يستحق اسم العالم .

وسئل أيضاً فقيل له : ما أساس قسوة القلب من المريد ؟ فقال : انتخابه لعلوم قد رضي من نفسه بتعلمها ، دون استعمالها والوصول إلىٰ حقائقها .

وقال ذو النون : أنشدني أبو الحسن علي بن عبد الله الحراني لنفسه :

وأعظم ما فينا من العيب أننا ... نعيب سوانا والمعائب عندنا
فماذا العمىٰ عن عيبنا وكأننا ... بكأس حمام الموت فينا وقد دنا ؟
فيا ذا العلىٰ غيّر قبيح فعالنا ... وهيء لنا فيما نؤمل رشدنا

وقال ذو النون رحمه الله : حقيقة المحبة : أن تحب ما أحبه الله عز وجل ، وتبغض ما أبغضه الله ، وتطلب رضاه ، وترفض جميع ما يشغلك عنه جل جلاله ، وألاَّ تخاف فيه لومة لائم ، وألاَّ تغرك نفسك عن رؤيتها وتدبيرها ؛ فإن أشد الحجاب . . رؤية النفس وتدبيرها .

وقال : من علامة المحب . . متابعة المحبوب في جميع أوامره ونواهيه ، لا فزعاً من العقاب ، ولا طمعاً في الثواب ، وإيثار الأنس بالوحدة عن الناس ؛ فإن الأنس بالله عز وجل نور ساطع ، والأنس بغيره هَمٌّ واقع .

وقال : إنما دخل الفساد على الخلق من سبعة أوجه ، منها : أنهم لم يُحكموا أداء الفرائض ، ونبذوا السنن وراء ظهورهم ، ورهنوا أنفسهم بالشهوات ، وغلب عليهم طول الأمل ، واتبعوا أهواءهم .

وقال : احتقار الذنوب عنوان المتكبرين .

وقال لبعض أصحابه وقد مرض : إن العلة يأنس بها أهل الصفاء ، ويأنسون أيضاً بالهَمِّ والضنا ، ومن لم يَعُدَّ البلاء نعمة . . فليس بعارف ، وليكن معك مِن الله عز وجل حياء يمنعك من الشكوىٰ .

وقال : كل ذاكر لله عز وجل . . فالله الذاكر له ، وكل محب لله سبحانه وتعالىٰ . . فالله هو الذي أحبه ، وكل راض عن الله عز وجل . . فالله الراضي عنه .

وقال : لا يزال العارف بالله تعالىٰ ما دام في دار الدنيا بين الفقر والفخر ، فإذا ذَكر الله عز وجل . . افتخر ، وإذا ذَكر نفسه . . افتقر .

وقال يوسف بن الحسين رحمه الله : قال لي ذو النون ذات عشية : يا خراساني ؛ من عرف الله عز وجل . . أحبه ، ومن أحبه . . أطاعه ، ومن أطاعه . . أكرمه ، وكل من أكرمه الله عز وجل . . كان له جليساً وأنيساً ، قال يوسف : فقلت له : يرحمك الله ، من لي بمعرفة الله ؟ ومن لي بحب الله جل جلاله ؟ فقال لي : أهل لا إلـٰه إلا الله كلهم عرفوا الله عز وجل معرفة الثبات علىٰ أن الله تعالىٰ واحد لا شريك له ، ولـٰكن التفاوت في التفصيل : فقوم علىٰ مشاهدة اليقين ومواجيد خواطر القلوب ، وقوم دون أولـٰئك ، وقوم فوقهم علىٰ حسب ما أعطاهم الله سبحانه وتعالىٰ .

وأما الحب . . فعلامته : ألاَّ يكون عندك شيء آثرَ مِن رضا الله عز وجل ، فإذا كنت كذلك . . صرت أميراً مؤمَّراً ؛ فإن كل محب لله عز وجل . . أمير مؤمَّر على الأمراء ، زمرته من أول زمرة يوم القيامة ، ومجلسه من أول مجلس يوم القيامة .

واعلم : أن المحبة منتهى القربة والاجتهاد ، والمحب لا يمل من طول الاجتهاد ، ومِن شأن المحب أن يُحَبِّبَ الله عز وجل إلىٰ خلقه بذِكرِ الآلاء والنعماء ، ويمشي بين عباده بالنصيحة ، ويخاف علىٰ نفسه وعِليهم كلَّ الخوف ، ويرجو لنفسه ولهم كلَّ الرجاء ، أولـٰئك أحِباء الله وأهل صفوته ، لا راحة لهم دون لقائه سبحانه وتعالىٰ .

وقال يوسف بن الحسين : قلت لذي النون : أوصني ، فقال : لا تخاصم لنفسك ؛ فإنها ليست لك ، دعها لمالكها جل جلاله ، **ولا تُؤْثِرْ ضرر أحد من الناس وإن كان مشركاً ، واحذر عاقبته وعاقبتك ؛ فلعلك ـ والعياذ بالله ـ تُسلب المعرفة ويُرْزَقها** .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : ولهـٰذا قال غير واحد من العارفين ـ منهم سيدي السري رحمه الله ـ : ما أعلم أحداً أقول إني أحسن عاقبة منه .

وقد قال علماء السلف رحمهم الله : والله ؛ ما أمن أحد علىٰ إيمانه أن يُسلَب . . إلا سُلِبَه .

ولأجل هـٰذا اشتد خوف الأئمة سلفاً وخلفاً على الإيمان ، ولجؤوا إلى الله سبحانه وتعالىٰ في أن يحفظه عليهم ، ويتوفاهم عليه .

ونحن نتضرع إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، ونسأله أن يحفظ علينا الإيمان ، وأن يتوفانا عليه ، وألاَّ ينزعه منا ، ولا ينزعنا منه ، وهو وديعة لنا عنده سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنه ما استُودع شيئاً إلا حفظه ؛ فالله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين . انتهىٰ .

وقال في « **بهجة الأسرار** » : قال ذو النون رحمه الله : الجوع جلاء القلوب ، والجوع نور القلوب ، ثم أنشأ يقول :

تَجَوَّعْ فإن الجوع من عَلَم التقىٰ ... وإن طويل الجوع يوماً سيشبعُ

فإذا جاع القلب . . أَمطر نورَ الحكمة .

وقال ذو النون : لو علم الناس أن الحياة إنما هي بعد الموت . . لتمنوا الموت ، وما أحد عاش بهوىً . . إلا مات موتاً لا حياة فيه ، وما أحد مات من هواه . . إلا أُحيِيَ بالله عز وجل ، وهي الحياة الكبرى التي وعدها الخلق ، والعلم بالله حياة ، ولا يسمى الإنسان عالماً بالله عز وجل حتىٰ يكون حياً ، ومن ارتفع عنه الهوىٰ . . فهو حي .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هٰذا نظير ما سبق من كلام الشبلي رحمه الله المذكور في ترجمته .

وقال يوسف بن الحسين : سمعت ذا النون يقول : ليس بذي لُبٍّ مَن جد في أمر دنياه وتهاون في أمر آخرته ، ولا مَن سَفِهَ في مواطن حلمه ، ولا مَن تكبر في مواطن تواضعه ، ولا من فُقدت منه التقوىٰ في مواطن طمعه ، ولا من غضب من حق إن قيل له ، ولا مَنْ زهد فيما يرغب العاقل فيه ، ولا من رغب فيما يزهد العاقل فيه ، ولا من طلب الإنصاف من غيره لنفسه ، ولا من نسي الله عز وجل في مواطن طاعته وذَكَر الله في مواطن الحاجة إليه ، ولا من جمع العلم ليُعرف به ثم آثر عليه هواه عند تعلمه ، ولا مَن قَلَّ منه الحياء من الله عز وجل علىٰ جميل ستره ، ولا مَن أغفل الشكر علىٰ إظهار نعمه ، ولا من عجز عن مجاهدة عدوه لنجاته ، إذا صبر عدوه علىٰ مجاهدته لهلكته ، ولا مَن جعل مروءته لباسه ، ولم يجعل لنجاته وورعه وتقواه كياسة[1] ، ولا من جعل علمه ومعرفته تطرفاً وتزيناً في مجلسه ، ثم قال : أستغفر الله العظيم ؛ إن الكلام كثير ، وإن لم نقطعه . . لم ينقطع .

وسأل محمد بن سالم ذا النون المصري عند الفراق أن يوصيه ، فقال : **لا يشغلنك عيوب الناس عن عيوب نفسك ؛ فلست عليهم برقيب ، ثم قال : إنَّ أحب عباد الله إلى الله . . أعقلهم عنه ، وإنما يُستدَل علىٰ تمام عقل المرء وتواضعه في عقله : بحسن استماعه بالحديث وإن كان به عالماً ، وسرعة قبوله للحق وإن كان ممن دونه ، وإقراره علىٰ نفسه بالخطأ إذا وقع منه .**

---

(١) في نسخة : (لم يجعل أدبه وورعه وتقواه لباسه) .

وقال ذو النون : مَن قطع آماله مِن الخلق ثقة بالله سبحانه وتعالىٰ . . وصل إلى الخالق جل جلاله ، ولن يصل عبد إلى الله عز وجل دون قطع الآمال ممن سواه سبحانه وتعالىٰ ، وأنشد ذو النون رحمه الله :

يجول الغِنىٰ والعز في كل موطن ... ليستوطنا قلب امرىءٍ إن توكَّلا
ومَن يتوكَّلْ كان مولاه حسبه ... وكان له فيما يحاول مَعقِلا
إذا رضيَتْ نفسي بمقدار حظها ... تعالت وكانت أكبرَ الناس مَنزلا

وقال أبو الحارث الأولاشي رحمه الله : سمعت بذي النون ، فرحلت إلىٰ لقائه لأجل مسائل أريد أن أسأله عنها ، فلما وصلت إليه . . وجدته قد مات رحمه الله ، فجئت إلىٰ قبره ، وصليت عليه ، وقعدت متفكراً ، ثم نمت عند قبره ، فرأيته في المنام ، فسألته عن تلك المسائل ، فأجابني عنها .

وقال ذو النون : إن الشوق لا يسكن جارحة . . إلا تركها زَمِنةً[(١)] .

وقال : من أحب الله عز وجل . . فبنفسه بدا ، ومَن خافه . . فعلىٰ نفسه توقَّىٰ .

وسئل ذو النون عن صفة المهمومين ، فقال : لو رأيتَهم . . رأيتَ أناساً لهم هموم مكنونة ، خلقت من لباب المعرفة ، فوصلت المعرفة إلىٰ قلوبهم ، فشربوا بكأس المحبة شربة هاموا بالشوق علىٰ وجوههم ، قد نبتت الأحزان في ضمائرهم ، وسكنت الهموم في بواطنهم ، فهِمَمُهم إليه سائرة ، وقلوبهم إليه ناظرة ، قد ذبحهم الرجاء في محل آمالهم ، وطرحهم الشوق علىٰ فرش أسقامهم ، أزعجهم الوعد والوعيد والشوق الشديد ، يتلذذون بكلام الرحمـٰن جل جلاله ، ليس لهم راحة إلا عند لقائه سبحانه وتعالىٰ .

وسئل ذو النون : متىٰ يكون العبد مفوِّضاً ؟ قال : إذا أيس من نفسه وفِعله والتجأ إلى الله سبحانه وتعالىٰ في جميع أموره ، ولم يكن له هَمٌّ ولا مقصود إلا الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال ذو النون : قلت لبعض الرهبان : ما معنى المحبة ؟ فقال : لا يطيق العبد حمل محبتين ، من أحب الله سبحانه . . لا يحب الأغيار ، ومن أحب الأغيار . . لا يحب الله تعالىٰ خالصاً ، فتفكر في حالك من أي القبيلين أنت ، فقلت : صف لي المحبة ، فقال : المحبة عقل ذاهب ، ودمع ساكب ، ونوم طريد ، وشوق شديد ، والحبيب يفعل ما يشاء ، ويحكم

---

(١) زَمِنة : مريضة مرضاً لا دواء له .

ما يريد ، قال ذو النون : فعمل هـٰذا الكلام معي ، فعلمت أنه خرج من المعدن ، وأن الراهب يُسْلِم إن شاء الله عز وجل ، ثم فارقته ، قال : فبينا أنا أطوف بالكعبة . . فإذا بالراهب يطوف وقد نحل ، فقال لي : يا أبا الفيض ؛ تم الصلح ، وانفتح باب المؤانسة ، ومَنَّ عليَّ بالإسلام سبحانه وتعالىٰ ، وحمَّلني ما عجزَتْ عنه السماوات والأرض .

قال ذو النون : حمَّل نفسه محبة الله عز وجل التي عجزت عنها صُم الجبال ، وحملها أجلاد الرجال بلطائف الأحوال ، وأنشد :

حبُّك يا سؤلي ويامنيتي ... قد أنحل الجسم وقد كدَّهُ
لو أن ما بالقلب من حبكمْ ... بالجبل الصلد لقد هدَّهُ

ثم قال : المحبون لا أحياء ولا أموات ، ولا صحاة ولا سكارىٰ ، ولا مقيمون ولا ظاعنون ، ولا مفيقون ولا صرعىٰ ، ولا أصحَّاء ولا مرضىٰ ، ولا منتبهون ولا نيام ، فهم كأصحاب الكهف في فجوة الكهف لا يدرون ما يفعل بهم ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال .

وقال يوسف بن الحسين : سمعت ذا النون يقول : من اتخذ الدنيا طريقاً ولم يتخذها مسكناً . . أبصر الأعلام المنصوبة ، وشاهد الأنوار النيرة ، فيتنوَّر قلبه ، ويعطىٰ من أعلىٰ درجات في الجنة إن شاء الله عز وجل بفضله وكرمه .

وقال أبو القاسم عبد الله بن محمد التميمي(١) رحمه الله : سمعت أبا الفيض ذا النون يقول : من أراد أن يتعلم المروءة والظُّرْف(٢) . . فعليه بسقاة الماء ببغداد ، ومن أراد أن يسمع تجريد التوحيد وخالص التوكيل . . فعليه بالنساء الزمنىٰ بها ، فقيل له : وكيف ذاك ؟ فقال : نعم ، لما حُملت إلىٰ بغداد . . رمي بي علىٰ باب دار السلطان مقيداً ، فمر بي رجل متزر بمنديل مصري ، معتم بمنديل دبيقي(٣) ، بيده كيزان خزف رقاق ، وزجاج مخروط ، فسألت : هـٰذا ساقي السلطان ؟ فقيل : لا ، هـٰذا ساقي العامة ، فأومأت إليه أن اسقني ، فتقدم إلي وسقاني ، فشممت من الكوز رائحة مسك ، فقلت لمن معي : ادفع إليه ديناراً ، فأعطاه الدينار ، فأبىٰ أن يأخذه ، وقال : لست آخذ شيئاً ، فقلت : ولِمَ لا تأخذه ؟ فقال :

---

(١) في نسخة : (عبيد الله بن محمد النهيمي) .
(٢) **الظَّرْفِ** : الكياسة ، والمراد هنا : مكارم الأخلاق .
(٣) دبيقي نسبة إلىٰ دبيق بلد في مصر ، تنسب إليه الثياب ، راجع « معجم البلدان » (٢/ ٤٣٧) .

أنت أسير ، وليس من المروءة أن آخذ منك شيئاً ، فقلت : كمل الظرف في هٰذا ، قال : ثم التفت ؛ فإذا إنسان من ورائي يكلمني أن امض إلىٰ هٰذه المرأة ، فمضيت إليها ؛ فإذا امرأة زَمِنة في كوخ تتصدق علىٰ مسكين ، فعظمت في نفسي ، فقالت : يا شيخ ؛ فلِمَ لا تظرف[1] على الحال التي أوجبَتْ فيك ما أرىٰ ؟! فقلت : أنا مظلوم ، فقالت : وإنما يعرف من الأحوال سلامتك منها ، والذي بسببها صرت ـ كما يقال ـ مظلوماً ، قلت : كذاك هو ، فقالت : فاقبل مني ، إذا دخلت علىٰ هٰذا الرجل . . فلا تهابه ، ولا تريه أنه فوقك ؛ فإنكما مخلوقان من نطفة واحدة ، ومن طينة واحدة ، وهو فقير إلىٰ مَن أنت إليه مفتقر ، ولا تحتج عن نفسك ، محقاً كنت أو غير ذلك ، قلت : ولِمَ ؟ فقالت : إن هبته . . سلط عليك ، وإن احتججت عن نفسك ببُطْل . . لم يزدك ذلك إلا وبالاً ؛ لأنك تباهت[2] الله عز وجل فيما علم منك خلافه ، وإن كنت محقاً . . فاكتف بنصرة الله عز وجل لك ، وادع الله أن ينتصر لك ولا تنتصر أنت لنفسك ، فيَكِلَك الله عز وجل إليها .

قال ذو النون : فلما دخلت عليه . . قال لي : ما تقول فيما قيل عنك ؟ فسكت ، فقال وزيره : هو عندي حقيق بما قيل فيه ، ثم قال الخليفة[3] : ما تقول ؟ فقلت : إن قلتُ : لا . . أكذبت المسلمين ، وأنا لا أُكذِب المسلمين ، وإن قلت : نعم . . كذبت علىٰ نفسي بشيء يعلم الله عز وجل مني خلافه ، فافعل ما بدا لك ؛ فإني غير منتصر لنفسي ، فقال لي الخليفة : أنت بريء مما قيل فيك ، ثم قال : عظنا ، ثم خلىٰ عني ، فجئت إلىٰ تلك العجوز ، فقلت لها : جزاك الله خيراً ، فعلتُ ما أمرتِ . . فنجاني الله تعالىٰ ، ثم سألتها الدعاء ، فقالت : مر ، جعلك الله مسلماً .

وعن يوسف بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم قالا : رأينا ذا النون وفي يده الغل وفي رجله القيد ، وهو يساق إلى المُطْبَق[4] ، والناس يبكون حوله ، وهو يقول : هٰذا من مواهب الله عز وجل ، وهٰذا من عطاياه ، وكل فعاله حسن جميل ؛ فإن مولاي وسيدي سبحانه وتعالىٰ يسوق الأجر والخير إلىٰ من يحب من عباده وخلقه كما يسوق الماء إلى

---

(١) **لا تظرف** : أي لم لا تتحاذق وتخرج مما أنت فيه .

(٢) **تباهت** : تثول على الله تعالىٰ ما لم يعلمه منك .

(٣) لعله المتوكل كما سيأتي في سبب محنته .

(٤) **المُطْبَق** : السجن تحت الأرض .

الأرض الجُرُز[1] ، ثم قال : سبحانك! تباركت وتعاليت ، كل شيء لك ذاكر ، وكل شيء لك شاكر .

وقال سالم : كنت معه ، فبكيت لَمَّا رأيت القيد والغل ، فقال لي : لِمَ تبكي ؟ فقلت : لما أرىٰ في يديك ورجليك ، فقال : يا سالم ؛ إن لله عز وجل عباداً لو أرادوا . . لارتفع عنهم الغل والقيد ، فقلت : لِمَ لا تفعل ؟ فقال : هـٰذا القيد والغل قد سقطا ، قال : فرأيتهما وقد سقطا عنه ، فقلت : لِمَ لا تذهب حيث شئت ؟ فقال : الاستكانة تحت الأوامر أولىٰ بنا . أو كما قال[2] .

وكان يقول : اللهم ؛ إني أعوذ بك من أن تقطعني بك عنك يا أرحم الراحمين .

وكان يقول : من عرف ربه سبحانه . . أحبه ، ومن أحبه . . احتمل في ذاته البلوىٰ .

وروى الحافظ البيهقي ـ رحمه الله ـ بسنده : عن ذي النون قال : ثلاثة من أعلام اليقين : النظر إلى الله عز وجل في كل شيء ، والرجوع إليه في كل شيء ، والاستعانة به في كل حال .

وقال يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : رأيت ذا النون قبل أن أصحبه بعرفات واقفاً شاخصاً ببصره نحو السماء يدعو ، فسمعته يقول : إلـٰهي ؛ لك بهاء الجلال في انفراد وحدانيتك ، والكبرياء والعظمة والكمال في إتقان حكمتك ، ولك سلطان العز في دوام هيبتك ، بَعُدْتَ علىٰ قربك من أوهام الباحثين عن بلوغك ، وقَرُبتَ علىٰ بعدك من أوهام القلوب ، فلم يفت ذلك علمك ، فوعزتك وجلالك ؛ لولا أن ذكرك فَرْضٌ عليَّ . . لما تفوهت به ؛ إجلالاً لك وإعظاماً يا أرحم الراحمين .

وقال يوسف بن الحسين رحمه الله : سمعت ذا النون وهو يوصي أخاه ذا الكفل ، فقال له : يا أخي ؛ كن بالخير موصوفاً ، ولا تكن للخير وصَّافاً .

وقال ذو النون : أدنىٰ منازل المحبة : أنه لو ألقاه محبوبه في النار . . لم يتغير عما هو عليه من المحبة ، ولا يغيب محبوبه عن سره .

---

(١) **الأرض الجُرُز** : التي لا نبات فيها .

(٢) وكان سبب الحبس : أنه امتحن في أمره ؛ فهو أول من تكلم ببلدته في ترتيب الأحوال ، ومقامات الأولياء ، وقيل : إنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف ، وهجروه ورموه بالزندقة ، ولـٰكن ظهرت براءته ، وطلبه المتوكل فولع به وأحبه وكان يقول : إذا ذكر الصالحون . . فحي هلا بذي النون . اهـ بتصرف من « سير أعلام النبلاء » (١١/ ٥٣٤) .

وقال : التوبة سبب الرضا ، والموافقة سبب العصمة ، والخوف سبب الأمن ، والرجوع إليه سبب الإنابة ، والاعتذار سبب العفو ، والإخلاص مع الصدق سبب القبول . انتهىٰ [« السنن الصغرىٰ » ١/ ٢٦] .

وفي « **بهجة الأسرار** » : قال يوسف بن الحسين : كتب رجل إلىٰ ذي النون كتاباً يقول فيه : إن رأيت أن تكتب لي كتاباً تفرِّج به كربتي ؛ فإني كرجلٍ مجرد ، وجلاد واقف ، وسياط قد أُحضرت ، فلا أُضرَب فأموت ، ولا أُترك فأستريح ، فأَعِنِّي قبل خروج التوقيع ، فبكىٰ ذو النون لما قرأ الكتاب ، ثم كتب إليه : قوى الله ضعفك بحقيقة معرفته ، وسقاك من كأس الرضا شربة فيها مزاج محبته ، حتىٰ تدور في جوارحك فتخالط اللحم والدم ، فلا تجد لوقْع السياط ألماً ، ولا في شدة التربط لمباشرة الضرب سقماً ، فتروىٰ بلا عطش بعده ، وتجعل في قلبك وجوارحك نوراً يتلألأ ، حتىٰ تسمع ضجيجَ قلبك وأعضائك بالحنين إلى الله تعالىٰ والشوق إليه ، وجعل قلبك قلباً لا تفزعه الغفلات ؛ استئناساً بالله عز وجل وتوكلاً عليه ، فكأني بك وقد أُوقفت مسؤولاً ، وجُردت ذليلاً ، فأفزع إلى الله سبحانه وتعالىٰ من المعضلات اعتصاماً به . . يَكْفِك المحذورات إن شاء الله . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وقال ذو النون : وكيف لا أبتهج يا رب بك سروراً ولم أزل ألوذ ببابك حتىٰ جعلتني من أهل توحيدك ؟! فقال له رجل : يا أبا الفيض ؛ يمر بأهل الجنة وقت يكونون في نقص ؟ قال : لا ، فقال : أيش أفضلُ نعيمهم ؟ قال : زيارتهم لله تبارك وتعالىٰ ، ونظرهم إليه جل جلاله ، فقال : أليس إذا انصرفوا من عنده ينصرفون إلىٰ نقص ؟ قال ذو النون : لا ؛ لأنهم ينصرفون ومعهم آمال المعاودة .

وقال السلمي في « الطبقات » : سئل ذو النون : ما أشد الحجاب وأخفاه ؟ [قال] : رؤية النفس وتدبيرها .

وقال : الأنس بالله عز وجل . . من صفاء القلب مع الله سبحانه وتعالىٰ ، والتفرد بالله والانقطاع إليه من كل شيء سواه .

وقال : لئن مددتُ يدي إليك داعياً . . لطالما كفيتني ساهياً ، وحسبي من سؤالي علمك بحالي يا ذا الجلال والإكرام .

وقال : مَن أَنِس بالخلق . . فقد استمكن من بساط الفراعنة ، اللهم إلا أن يكونوا من

العارفين ، ومَن غُيِّب عن ملاحظة أفعال نفسه . . فقد استمكن من الإخلاص .

وقال : الصدق سيف الله في أرضه ، ما وقع علىٰ شيء . . إلا قطعه . [انتهىٰ « الطبقات » ١٨ـ٢٣] .

وفي « **بهجة الأسرار** » : عن محمد بن الحسن الجوهري قال : سمعت ذا النون يقول : أيها الناس ؛ هـٰذا أوان يُنصح فيه الأحياء ؛ إذ الأموات في غمرتهم يعمهون ، حتىٰ غدا الدين غريباً منبوذاً ، وغدا أهله غرباء مَهينين ، قد أقبلوا علىٰ أكل الحرام ، وتركوا طلب الحلال ، ورفضوا المعروف ، وأقبلوا على المنكر ، وتركوا الجهاد ، فأظلمت الأرض بعد نورها ، ورضيت العلماء من العلم بعلمهم ، فانتبهوا أيها الأموات أبناء الأموات وجيران الأموات ، قد أخليتم القبور وعمرتم الدُّور ، ألا فقد غاب العلماء ، وقَلَّ الخطباء ، وكثرت الدواهي ، وقَلَّ الناهي ، وكثرت الأشرار ، وقَلَّ الأخيار ، وانتهكوا الآثام ، وقطعوا الأرحام ، وجلس بعضهم مجالس العلماء ، يقولون ما لا يفعلون ، عبيد الدنيا ، فهم لها متضعون[1] ، ولها متخشعون ، غنيهم فقير ، وجارهم ذليل ، لا يبالي غنيهم ما طوىٰ عليه جاره من جوع أو عري .

وقال أبو بكر الجوهري : قلت لذي النون : أكرمك الله ، حدثني بحديث لعلِّيْ أنتفع به وأذكرك ، فرفع رأسه ونظر إليَّ ساعة ، ثم قال : رأيتك تكتب الحديث ؟ فقلت : نعم ؛ وأرجو أن تحدثني حديثاً في الرقائق يكون عوناً لي علىٰ هـٰذا المذهب ، فقال : إن للحديث رجالاً ، ولي شغل بنفسي عن الحديث ، ولولا نقص دخل علىٰ أهل الحديث والفقه . . لكانوا أفضل الناس في زمانهم ، ولـٰكنهم طلبوا الدنيا ، فبذلوا علمهم لأهل الدنيا ، فحجبوهم وتكبروا عليهم ، وجعلوهم خولاً[2] ، وافتتنوا بالدنيا ؛ لِمَا رأوا من حرص أهل العلم عليها ، وتنافسهم في طلبها ، فهـٰؤلاء طلبوا الدنيا بعلمهم ، وموَّهوا على الناس ليظنوا أنهم يطلبون بعلمهم ما عند الله عز وجل ، فجعلوا العلم فخاً للدنيا ، فما أقبح هـٰذا العِلم ؛ لما طلبوا به الفاني وأعرضوا عن الباقي ، ـ اللهم ؛ فلا تجعلنا منهم ـ ولو أنهم طلبوا به ٱبتغاء رضوان الله وما عنده ولزموا بابه سبحانه وتعالىٰ . . لكفاهم كلَّ الكفاية وأعزهم ، ولـٰكنهم انقطعوا إلى المخلوقين ، فوكَلَهم الله عز وجل إليهم ، فأذلهم ، ولو رَجَوُا الله . . لما رَجَوا أحداً سواه ، ولو خافوا الله . . خافهم كل شيء من الناس ، لقد جهلوا بعد علمهم ، وافتقروا

---

(١) **اتضع فلان** : صار وضيعاً ؛ أي : دنيئاً محطوط القدر .

(٢) **الخَوَل** : العبيد والإماء .

بعد غناهم ، وذلوا بعد عزهم ، وصاروا عبيداً لأهل الدنيا بعدما جعلهم الله عز وجل أحراراً ، شربوا بكأس المغرورين شربة فذهبت بعقولهم ، إن العلم سلاح الدِّين ، فإذا طلبت به الدنيا . . صيرته سلاحاً للدنيا .

ثم قال لي : لقيت المسيب بن واضح ؟ فقلت : أريد أن ألقاه إن شاء الله ، فقال : إذا لقيتَه . . فاسأله أن يحدثك عن يوسف بن أسباط عن سفيان الثوري عن الحسن ؛ فإني أكره أن أكون محدثاً ، فقلت له : أريد إن حدثنا . . أسمعه منك ، فهو أَوجَهُ إلي[1] ، ولعلي لا ألقاه ، فقال : انظروا إلى الشاب ما أحرصه علىٰ طلب هـٰذا الشأن ، وإني أجد له موجعاً ورقة ، اللهم ؛ اغفر له وبلغه أمله ، قد طال مجلسنا ونعود إن شاء الله عز وجل ، ثم سكت ، والله أعلم .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال ذو النون : خرجت في طلب المناجاة ، فسمعت صوتاً يقول : اللهم ؛ أنت تعلم أني لأعلم أن الإصرار مع الاستغفار لؤم ، وأن تَركي الاستغفار مع معرفتي بسعة رحمتك لعجز ، إلـٰهي وسيدي ؛ أنت الذي خصصت من شئت بخالص الإخلاص ، وأنت الذي أعطيتهم رعاية المتوكلين ، وأنت تعلم أن سري عندك مكشوف ، وأنا إليك فقير ملهوف ، قال : ثم سكن صوته .

وقال : رأيت مكتوباً في حَجر : يقدِّر المقدرون والقضاء يضحك .

وقال : رأيت في جبال أنطاكية جارية كأنها مجنونة ، فسلمت عليها ، فقالت : وعليك السلام يا ذا النون ، فقلت : عافاكِ الله ، كيف عرفتيني ؟ فقالت : عرفني بك رب العالمين سبحانه وتعالىٰ ، ثم قالت : أسألك مسألة ؟ قلت : نعم ، قالت : أي شيء هو السخاء ؟ قلت : البذل والعطاء ، قالت : هـٰذا السخاء في الدنيا ، فما السخاء في الدِّين ؟ قلت : المسارعة إلىٰ طاعة الله تعالىٰ رب العالمين ، قالت : أفتريد منه أجراً ؟ قلت : نعم ، بالواحدة عشراً ، قالت : مُرَّ يا بَطَّال ، هـٰذا متاجرة ومرابحة ، إنما السخاء أن يطلع الجليل جل جلاله علىٰ أعمالك وأنت لا تريد منه شيئاً بشيء ، ويحك يا ذا النون! إني أريد أن أسأله في طلب شهوة منذ عشرين سنة وأنا أستحيي منه مخافة أن أكون مثل أجير السوء ، إذا عمل . . طلب الأجرة ، ويحك يا ذا النون! اعمل تعظيماً لربوبيته وهيبته وعز جلاله . ثم تركتْني ومضت . [انتهىٰ « الحلية » ٩/٣٣٥ـ٣٤٠] .

---

(١) في نسخة : (أحب إلي) .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن ما ذكرته الجارية من كونه سخاءً . . فليس ذاك من السخاء في شيء ، لا علىٰ سبيل الحقيقة ، ولا علىٰ سبيل المجاز ، وما ذاك إلا لأنه قد علم كل أحد ممن عقل أمرَ الله سبحانه وتعالىٰ أن السخاء إنما هو بما لا يجب على الإنسان بذله وفعله ، ومعلوم أن عبادة الله سبحانه وتعالىٰ لذاته جل جلاله واجبة علىٰ جميع خلقه المكلفين منهم ، وإن أحدهم لو عُمِّر عُمُرَ الدنيا وقام علىٰ جفون عينيه . . ما قضىٰ بعض ما يجب عليه لله عز وجل ، ثم إن تلك الأعمال في الحقيقة من الفرائض أو النوافل ، فإنما هي من فعله وعطائه سبحانه وتعالىٰ ، فللّه تعالىٰ عليهم فيها أعظم المنن ، حتىٰ تغرق عبادتهم في المنة ، فكيف يوصف مثل هـٰذا الفعل بسخاء ؟! وهـٰذا محال في القياس بديع .

ألا ترىٰ إلىٰ ما قال بعض العارفين رحمهم الله أجمعين ـ وهو أبو حفص الحداد ـ قال : ما استحق اسم السخاء مَن ذَكَر العطاء ولا لَمَحَهُ بقلبه ، وإنما يستحقه من نسيه حتىٰ كأنه لم يُعطِ .

قلت : وهـٰذا فيما يصح إطلاق السخاء فيه كغير العبادات ، أما ما لا يصح إطلاق السخاء فيه كالعبادات التي يأتي بها العباد . . فهي ليست من هـٰذا الباب بالكلية ، وهـٰذا أمر واضح غني عن البيان ، والله أعلم .

وقال أبو الفيض في قوله تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ : إن شهادتَه لنفسه : إيجادُه الأشياء دالةً علىٰ وحدانيته ، ناطقة بالشهادة له ؛ فإنه تعالىٰ لما شهد لنفسه . . أنطق كل شيء بشهادته :

ففـي كـل شـيء لـه شـاهـد يـدل علـىٰ أنـه واحـد

وقال أبو القاسم القشيري في « رسالته » : كان ذو النون قد فاق أهل هـٰذا الشأن ، وصار واحداً في وقته ، عِلماً وورعاً وحالاً وأدباً ، سعوا به إلى المتوكل ، فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه . . وعظه ، فبكى المتوكل ، ورده مكرماً ، وكان المتوكل إذا ذُكر عنده أهل الورع . . يبكي ويقول : إذا ذكر أهل الورع . . فحيَّهلاً بذي النون[1] .

زاد في رواية صاحب « المختصر » : قال إسحاق السَّرَخْسي : سمعت ذا النون يقول وهو

---

(١) الرسالة القشيرية (١٤) .

يساق إلى الحبس وفي يده الغل وفي رجليه القيد والناس حوله يبكون وهو يقول : هـٰذا من مواهب الله ، هـٰذا من عطاء الله ، وكل فعاله سبحانه وتعالىٰ عَذْبٌ حسن طيِّب ، ثم أنشد :

لـك مـن قلبـيَ المكـان المصـونُ ... كـل صعـب علـيَّ فيـك يهـون
إن رضيـتَ بـأن أكـون قتيـلاً ... فلـك الحمـد مـا تشـاءُ يكـون

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : وكان رجلاً نحيفاً ، تعلوه حمرة ، ليس بأبيض اللحية .

وقال ذو النون : مدار الكلام علىٰ أربع : حب الجليل جل جلاله ، وبغض الفاني القليل ـ يعني : الدنيا ـ واتباع التنزيل ، وخوف التحويل .

وكان يقول : من علامة الحب لله تعالىٰ . . متابعة حبيب الله سبحانه وتعالىٰ محمدٍ صلى الله عليه وسلم في أخلاقه ، وأفعاله ، وأوامره ، وسننه صلى الله عليه وسلم .

وقال يوسف بن الحسين : حضرت مجلس ذي النون يوماً ، فجاءه سالم المغربي ، فقال : يا أبا الفيض ؛ ما كان سبب توبتك ؟ فقال ذو النون : أردت الخروج من مصر إلىٰ بعض القرىٰ ، فنمت في الطريق في بعض الصحارىٰ ، ففتحت عيني ؛ فإذا بقُنْبُرة[1] عمياء قد سقطت من وكرها إلى الأرض ، فرأيت الأرض قد انشقت وخرج منها سُكُرُّجَتان[2] ، إحداهما ذهب ، والأخرىٰ فضة ، في إحداهما سمسم ، وفي الأخرىٰ ماء ، فجعلت تأكل من هـٰذه وتشرب من هـٰذه ، فقلت : حسبي ، فتبت ولزمت الباب .

وكان يقول : لا تسكن الحكمة جوفاً ملئت من الطعام .

وسئل عن التوبة فقال : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة . انتهىٰ [« الرسالة » ١٤ـ١٥] .

وقال في « المناقب » : قال ذو النون : لم أر شيئاً أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة ؛ لأنه إذا خلا . . لم ير غير الله تعالىٰ ، فإذا لم ير غيره . . لم يجد له إلا حكم الله تعالىٰ ، ومن أحب الخلوة . . فقد تعلق بعمود الإخلاص ، واستمسك بركن وثيق من أركان الصدق .

وقال : إن لله عز وجل عباداً تركوا الذنب استحياء من كرمه بعد ما تركوه خوفاً من عقوبته ، ولو قال لك الباري جل جلاله : اعمل ما شئت فلست أؤاخذك بذنبك . . لكان

---

(١) **القُنْبُرة** : ضرب من الطيور .
(٢) **السُّكُرُّجة** : إناء صغير ، يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم .

ينبغي أن يزدك كرمه استحياءً منه إن كنت حراً كريماً ، فكيف وقد حذرك ؟!

وقال له رجل : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت وبنا من النعم ما لا يُحصىٰ مع كثير ما نعصي ، فلا ندري علىٰ ما نشكر ؛ علىٰ جميل ما نَشَر ، أو علىٰ قبيح ما ستر .

وقال : الشوق أعلى الدرجات ، إذا بُلِّغها العبد . . استبطأ الموت شوقاً إلىٰ ربه عز وجل ، وحباً للقائه سبحانه وتعالىٰ .

وقال ابن الجلاء : سألت ذا النون ؛ متىٰ يكون العبد مفوِّضاً ؟ قال : إذا أيس من نفسه وفعله ، والتجأ إلى الله في جميع أحواله ، ولم يكن له علاقة سوىٰ ربه سبحانه وتعالىٰ .

وقال : كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضاً للدنيا وتركاً لها ، واليوم يزداد بعلمه حباً للدنيا وطلباً لها .

وكان الرجل ينفق ماله كلَّه علىٰ علمه ، واليوم يكتسب الرجل بعلمه مالاً .

وكان يُرىٰ علىٰ صاحب العلم زيادةٌ في باطنه وظاهره ، واليوم يرىٰ علىٰ كثير من أهل العلم الفساد في الباطن والظاهر .

وقال : دخلت إلىٰ سوادٍ بنيل مصر ، فجَنَّني الليل ، فقمت بين زروعها ؛ فإذا أنا بامرأة سوداء قد أقبلت إلىٰ سنبلة ، ففركتها ، ثم تركتها وبكت ، وقالت : يا من بذره حباً يابساً في أرضه ولم يك شيئاً ؛ أنت الذي صيرته حشيشاً ثم جعلته عوداً قائماً ، وجعلت فيه حباً متراكباً ، وكونته بتكوينك ، وأنت علىٰ كل شيء قدير ، ثم قالت : عجبت لمن هـٰذه قدرته كيف يُعصىٰ ؟! وعجبت لمن هـٰذه مشيئته كيف لا يطاع ؟! وعجبت لمن هـٰذا صنعه كيف يُشكىٰ ؟! فدنوت منها ، فقلت لها : مَن يشكو ؟ قالت : أنت يا ذا النون ، إذا اعتللت . . فلا تشكُ علتك إلىٰ مخلوق مثلك ، واطلب دواءك ممن ابتلاك ، وعليك السلام ، فلا حاجة لي في مناظرة البطالين ، ثم أنشأت تقول :

وكيف تنام العين وهي قريرة ... ولم تدر في أي المحَلَّينِ تنزلُ

ثم قال الحافظ ـ [رحمه الله] ـ : قال ذو النون : كل مطيع مستأنس ، وكل عاص مستوحش ، وكل محب ذليل ، وكل خائف هارب ، وكل راج طالب[1] .

وسئل ذو النون : ما علامة إقبال الله عز وجل علىٰ عبده ؟ قال : إذا رأيته صابراً شاكراً

---

(١) الحلية (٩/ ٣٧٦) .

ذاكراً . . فذلك علامة إقباله تعالىٰ عليه ، وإن رأيته ساهياً لاهياً معرضاً عن ذِكر الله عز وجل . . فذاك حين يعرض الله سبحانه وتعالىٰ عنه ، فقيل له : ما علامة الأنس بالله سبحانه تعالىٰ ؟ قال : إذا رأيته عز وجل يؤنسك بخلقه . . فإنه تعالىٰ يوحشك منه عز وجل ، وإذا رأيته يوحشك من خلقه . . فإنه يؤنسك بقربه سبحانه وتعالىٰ .

وسئل : ما الذي أنصب العباد وأضناهم ؟ فقال : ذِكر المقام ، وقلة الزاد ، وطول الحساب ، ثم قال : ولِمَ لا تذوب أكباد العباد وتذهل عقولهم ، والعرض على الله سبحانه وتعالىٰ أمامهم ، وقراءة كتبهم بين أيديهم ، والملائكة وقوف بين يدي الجبار ينتظرون أمره سبحانه وتعالىٰ في الأخيار والأشرار ؟!

وسأل رجل ذا النون عن مسألة ، فقال له ذو النون : إن قلبي لك مقفل ، فإن فتح لك . . أجبتك ، وإن لم يفتح لك . . فاعذرني ، واتهم نفسك[1] .

وقال أحمد بن سلمة النيسابوري : سمعت ذا النون يقول : يا خراساني ؛ احذر أن تنقطع عن الله عز وجل فتكون مخدوعاً ، فقيل له في ذلك ، فقال : كل من نظر إلىٰ عطاياه دون أن ينظر إليه سبحانه وتعالىٰ . . فهو مخدوع ، ثم قال : تَعلَّقَ الناس بالأسباب ، وتَعلَّقَ الصديقون بمسبب الأسباب ، فينبغي أن يكون القلب متعلقاً بولي العطاء سبحانه وتعالىٰ لا بنفس العطاء[2] .

وقال ذو النون : ركبنا مرة في البحر ، ومعنا فتىً من أبناء نيف وعشرين سنة قد ألبس ثوباً من المهابة ، وكنت أحب أن أكلمه فلم أستطع ، لا أراه إلا مصلياً أو قارئاً أو ذاكراً ، إلىٰ أن رقد ذات يوم في المركب ، ووقعت في المركب تهمة ، فجعل الناس يفتش بعضهم بعضاً إلىٰ أن بلغوا إلى الفتى النائم ، فقال صاحب الصرة : لم يكن أحد أقرب إلي من هـٰذا الفتى النائم ، فلما سمعت ذلك . . قلت لهم : أنا أقوم إليه وأتلطف معه في الكلام في ذلك ، فقمت إليه فأيقظته ، فما كلمني حتىٰ توضأ للصلاة وصلىٰ أربع ركعات ، ثم قال لي : هل من حاجة ؟ فقلت له : إن تهمة وقعت في المركب ، وإن الناس لم يزل يفتش بعضهم بعضاً حتىٰ بلغوا إليك ، فالتفت إلىٰ صاحب الصرة فقال : هو كما يقول ؟ فقال : نعم ؛ لمْ يكن أحد أقرب إلي منك ، فرفع الفتىٰ يده يدعو ، وخفت علىٰ أهل المركب من دعائه ، وخيل

(١) الحلية (٩/ ٣٤٣ـ٣٤٧) .
(٢) الحلية (٩/ ٣٥١) .

إلينا أن كل حوت في البحر قد خرج ، وفي فم كل حوت درة ، فقام الفتىٰ إلىٰ جوهرة في فم حوت ، فأخذها وألقاها إلىٰ صاحب الصرة ، وقال له : في هـٰذه عوض مما ذهب منك ، وأنت في حِلٍّ ، ثم وثب من السفينة ، وألقىٰ نفسه في البحر ، وجعل يتبختر ويسبح في البحر ، وأنا أراه وهو يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ حتىٰ غاب عن بصري .

ولما مات ذو النون.. رئي علىٰ جنازته طيور خضر ، ولم يكن بمصر طيور خضر ، وكان موته بمصر رحمه الله تعالىٰ . [انتهىٰ « الحلية » ٩/٣٥٧ـ٣٦٤] .

زاد في رواية صاحب « المناقب » : عن محمد بن ريان قال : لما مات ذو النون ووضع على الجنازة.. رأيت طيوراً خضراً ترفرف على الجنازة ، حتىٰ عطف به إلىٰ عند حمام الغار وغاب عني ، فذكرت ذلك لخالي الحسن بن يحيى بن هلال(١) ، فقال لي : لقد رأيت مثل هـٰذه الطيور علىٰ جنازة أبي إبراهيم المزني رحمه الله ، وذكر أبياتاً كان قد رثىٰ بها أبا إبراهيم المزني رحمه الله ، وهي :

ورأيتُ أعظمَ ما رأيت ولم أكن ... من قبل ذاك رأيتُه لمشيَّعِ
طيراً ترفرف فوقه وتحفُّه ... حتىٰ يوارىٰ في حجاب البلقع(٢)
ثم احتجبن عن العيون ولم أُحِطْ ... علماً بكُنْهِ مصيره في المرجِعِ(٣)
وأظنها رُسُلَ الإلـٰه تنزلت ... ـ والله أعلم ـ فوق ذاك الشرجعِ(٤)

وقال يوسف بن الحسين(٥) : سألت ذا النون عن كمال العقل ، وعن كمال المعرفة ، فقال : إذا كنت قائماً بما أُمرت تاركاً لتكلف ما كُفيت.. فأنت كامل العقل ، وإذا كنت بالله عز وجل متعلقاً في أحوالك لا بأعمالك غير ناظر إلىٰ سواه.. فأنت عارف .

وقال أبو عبد الله بن الجلاء : خرجت إلىٰ شط نيل مصر ، فرأيت امرأة تبكي وتصرخ ، فأدركها ذو النون ، فقال لها : ما لَكِ ؟ قالت : ولدي وقرة عيني كان معي فخرج تمساح فاستلبه مني ، فأقبل ذو النون علىٰ صلاته وصلىٰ ركعتين ودعا ؛ فإذا التمساح قد خرج من

---

(١) في نسخة : (هانىء) .
(٢) في نسخة : (المصنع) ، **والبلقع** : المكان الخالي .
(٣) في بعض النسخ : (المضجع) .
(٤) **الشرجع** : السرير الذي يحمل عليه الميت .
(٥) في « الحلية » : (عبد الله بن ميمون) .

النيل والولد معه ، فدفعه إلىٰ أمه[1] ، قال ابن الجلاء : فأخذتْه أمه ، وأنا أنظره .

وقال ذو النون : قال بعض الحكماء : ما أخلص العبد لله عز وجل إلا أحب أن يكون في جُبٍّ لا يُعرف .

وقال ذو النون : ما خلع الله عز وجل علىٰ عبد من عبيده خلعة أحسن من العقل ، ولا قلده قلادة أجمل من العلم ، ولا زينه زينة أفضل من الحلم ، وكمال ذلك التقوىٰ .

وقال : كن بالخير موصوفاً ، ولا تكن للخير وصَّافاً .

وقال الفتح بن شخرف : دخلت علىٰ ذي النون عند موته ، فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال :

أموت وما ماتت إليك صبابتي ... ولا رَوِيَتْ من صدق حبك أوطاري
أموت وشيكاً فيك يا غاية المنىٰ ... ولم أقض يا ذا الكبريا منك أفكاري
مناي المنىٰ كل المنىٰ أنت لي المنىٰ ... وأنت الغنىٰ كل الغنىٰ عند إقتاري

وسئل : متىٰ تصح عزلة الخلق ؟ فقال : إذا قويت علىٰ عزلة النفس .

وسئل : كيف السبيل إلى التواضع ؟ فقال : افهم ما أُلقي إليك ، من أراد التواضع . . فلينظر إلىٰ فاقة نفسه وحقارتها ، ثم ينظر إلىٰ عظمة الله سبحانه وتعالىٰ ؛ فإن النفوس تذوب وتضمحل عند ذلك ، ومن نظر إلىٰ سلطان الله عز وجل . . ذهب سلطان نفسه ؛ لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته سبحانه وتعالىٰ ، ومِن أشرف التواضع ألاَّ ينظر إلىٰ نفسه إلا بالذلة .

ومعنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من تواضع لله . . رفعه الله »[2] يقول : مَن تذلل لله سبحانه وتعالىٰ بالمسكنة والفقر إليه . . رفعه الله سبحانه وتعالىٰ بعز الانقطاع إليه .

وقيل لذي النون : لِمَ صار الموقف[3] بالجبل ولم يصر بالكعبة ؟ قال : لأن الكعبة بيت الله الحرام والجبل[4] بابه ، فلما قصدوه وافدين . . أوقفهم بالباب يتضرعون ، فقيل له : فالوقوف بالمشعر الحرام كيف صار بالحرم ؟ فقال : لمَّا أذن لهم بالدخول إليه . .

---

(١) في نسخة : (فألقاه على البر) .

(٢) أخرج أحمد (٣/ ٧٦) : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من تواضع لله درجة . . رفعه الله درجة حتىٰ يجعله في عليين ، ومن تكبر على الله درجة . . وضعه الله درجة حتىٰ يجعله في أسفل السافلين » .

(٣) أي : الوقوف علىٰ جبل عرفات .

(٤) كذا في « الحلية » ، وفي النسخ : (والحرم بابه) ، ولعل الصواب ما أثبت .

أوقفهم بالباب الثاني ، وهي المزدلفة ، فلما طال تضرعهم . . أمرهم بتقريب قربانهم ، فتطهروا بها من الذنوب التي كانت عليهم حجاباً دونه سبحانه وتعالىٰ ، وأذِن بالدخول إليه علىٰ طهارة ، فقيل له : فلِمَ حرم صوم أيام التشريق ؟ قال : لأن القوم زوَّار الله وهم في ضيافته ، ولا ينبغي للضيف أن يصوم عند من أضافه ، قيل : فَتَعَلُّقُ الرجل بأستار الكعبة ؟ قال : هو مثل الرجل يكون بينه وبين أخيه جناية ، فيتعلق بثوبه ويتضرع إليه ؛ لِيَهَبَ له جرمه وجنايته .

وقال ذو النون : ما طابت الدنيا إلا بذِكره سبحانه وتعالىٰ ، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه جل جلاله ، ولا طابت الجِنان إلا برؤيته سبحانه وتعالىٰ .

وقال ذو النون : بينا أنا أسير في بعض بلاد الشام ؛ إذا أنا بعابد قد خرج من بعض الكهوف ، فلما نظر إلي . . استتر عني بين تلك الأشجار ، ثم قال : أعوذ بك يا سيدي ممن يشغلني عنك ، يا مأوى العارفين ، وحبيب التوابين ، ومعين الصادقين ، وغاية أمل المحبين ، ثم صاح : واغماه من طول البكاء! واغماه من طول المكث في الدنيا! سبحان من أذاق قلوب العارفين حلاوة الانقطاع إليه ، فلا شيء عندهم ألذ من ذِكره والخلوة بمناجاته ، ثم مضىٰ وهو يقول : قدوس ، قدوس ، فناديته : أيها العابد ؛ قف لي ، فوقف ، وهو يقول : اللهم ؛ اقطع عن قلبي كل علاقة ، واجعل شغله بك دون خلقك ، فسلمت عليه ، وسألته أن يدعو لي ، فقال لي : خفف الله عنك مؤنة السير إليه ، وأدناك إلىٰ رضاه حتىٰ لا يكون بينك وبينه علاقة ، ثم سعىٰ بين يدي كالهارب من السبع .

وقال يوسف بن الحسين ـ قدس الله روحه ـ : جاء رجل إلىٰ ذي النون ، فشكا إليه دَيناً عليه نحو سبع مئة دينار ، فأخذ ذو النون حصاة من الأرض وقال للرجل : خذ هـٰذه ، فأنا أرجو أن يكون فيها قضاء دَينك ، فأخذ الرجل تلك الحصاة ، وجاء بها إلىٰ صديق له جوهري ، فدفعها إليه ، فقال له : ليس هـٰذا وقت بيعها ، إن صبرت عليها . . رجوت أن أبيعها بالضعف من الساعة ، فغاب عنه نحو شهر ، ثم جاء إليه ؛ فإذا هو قد باعها بألف وأربع مئة دينار .

وقال يوسف بن الحسين : سأل رجل ذا النون عن التوحيد ، فقال : هو أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء بلا مزاج ، وصُنْعه الأشياء بلا علاج ، وعلة كل شيء صُنْعُهُ ، ولا علة لصنعه ، ومهما تُصُوِّر في نفسك أو جال في فكرك . . فالله عز وجل بخلافه .

وقال : إن الله يريد من خلقه قرب القلوب لا عمل الجوارح .

وقال ذو النون : إن الله عز وجل لم يمنع الجنة أعداءه بخلاً ـ حاشا كرمه سبحانه وتعالىٰ ـ وإنما منعهم ليصون أولياءه الذين أطاعوه عن أن يجمع بينهم وبين أعدائه الذين عصوه في دار واحدة .

وسئل عن السفلة ، فقال : مَن لا يعرف الطريق إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ولا يتعرفه .

وقال : قل لمن أظهر حب الله عز وجل : احذر أن تذل لغير الله سبحانه وتعالىٰ .

ومِن علامة المحب لله عز وجل : ألاَّ يكون له حاجة إلىٰ غير الله عز وجل .

وقال : البلاء ملح المؤمن ، إذا عدم البلاء . . فسد حاله ، نسأل الله تعالى العفوَ والعافية .

وقال : إذا اطلع الخبير على الضمير ، فلم ير في الضمير غير الخبير سبحانه وتعالىٰ . . جعل فيه سراجاً منيراً .

وقال : أقوىٰ أسباب الإخلاص الوحدة .

وقال في « المناقب » : قال ذو النون ركضَتْ أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في ميدان المعرفة ، فسبقت روحُ نبينا سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم إلىٰ روضة الوصال .

وقال : عليك بمعاشرة العارف ؛ فإنه قد تخلق بخلق من أخلاق سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وهو الاحتمال والحلم .

وقال ذو النون : أعرَف الناس بالله تعالىٰ . . أشدهم تحيراً فيه ، فقيل له : بمَ عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربي بربي ، ولولا ربي . . ما عرفت ربي .

ولكل شيء عقوبة ، وعقوبة العارف . . انقطاعه عن ذِكر الله عز وجل .

وتذاكروا يوماً عند ذي النون المحبة ، فقال : كفوا عن هـٰذه المسألة ؛ كيلا تسمعها النفس ، فتدَّعيها ، وأنشأ يقول :

الخوف أولىٰ بالمسيء إذا تناوله الحزَنْ
والحب يجمل بالتقيِّ وبالنقيِّ من الدَّرَنْ

وقال أحمد : لما دخل ذو النون بغداد . . اجتمع إليه المشايخ ، ومعهم قوال ، فاستأذنوه أن يقول بين يديه شيئاً ، فأذن ، فابتدأ ينشد :

صغيـــرُ هـــواك عَـــذَّبنـــي ... فكيـــف بـــه إذا احتنكـــا[١]
وأنـــت جمعـــت فـــي قلبـــي ... هـــوىً قـــد كـــان مشتـــركـــا
أمـــا تـــرثـــي لمكتئـــب ... إذا ضحـــك الخلـــيُّ بكـــىٰ

قال : فقام إليه ذو النون ، وتواجد ، وسقط علىٰ وجهه والدم يقطر عن جبينه ، ولا يسقط على الأرض ، ثم قام رجل من القوم يتواجد ، فقال له ذو النون : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ، فجلس الرجل في الحال .

وقال يوسف بن الحسين : سألت ذا النون : ما علامة الأخوة في الله تعالى ؟ قال : ثلاث خصال : الصفاء ، والتعاون ، والوفاء ، فالصفاء في الدِّين ، والتعاون في المواساة ، والوفاء عند البلاء . انتهىٰ .

وقال : ليكن آثَر الأشياء عندك وأحبها إليك . . إحكام ما افترض الله تعالىٰ عليك ، واتقاء ما نهاك عنه ؛ فإن ما تعبَّدَك الله به خير لك وأفضل مما تختاره لنفسك من أعمال البر التي لم تجب عليك ، وأنت ترىٰ أنها أبلغ لك فيما تريد ، كالذي يؤدب نفسه بالفقر والتذلل وما أشبه ذلك .

وإنما ينبغي للعبد أن يراعي أبداً ما وجب عليه من فرض ، فيحكمه علىٰ تمام حدوده ، وينظر إلىٰ ما نهي عنه ، فيجتنبه علىٰ إحكام ما ينبغي ، فإن الذي قطع العباد عن ربهم عز وجل ومنعهم أن يذوقوا حلاوة الإيمان وعن أن يبلغوا حقائق الصدق . . تهاونهم عن إحكام ما فرض الله عليهم في قلوبهم ، وأسماعهم ، وأبصارهم ، وبطونهم ، وفروجهم ، ولو أحكموا هـٰذه الأشياء . . لدخل عليهم البر دخولاً تعجز أبدانهم وقلوبهم عن حمل ما أكرمهم الله عز وجل به .

وقال يوسف بن الحسين : بلغني أن ذا النون يعلم اسم الله الأعظم ، فخرجت من مكة قاصداً إليه ، فلما وافيته في جيزة مصر . . سلمت عليه ، فرد السلام ، ولم أر منه تلك البشاشة ، فجلست ، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة . . جاءه رجل من المتكلمين ، فناظره في

---

(١) احتنك : استحكم .

شيء من الكلام ، فاستظهر علىٰ ذي النون ، فاغتنمت ذلك ، وبركت بين أيديهما ، واستملت المتكلم إلي وناظرته حتىٰ قطعته ، ثم ناظرته بشيء لم يفهم فيه كلامي ، فتعجب ذو النون من ذلك ، وكان ذلك الرجل شيخاً وأنا شاب ، فقام من مكانه ، وجلس بين يدي ، وأخذ في الاعتذار : بأني لم أعرف محلك من العلم ، وما زال ذو النون بعد ذلك يجلني ويكرمني ويرفعني علىٰ أصحابه ، فبقيت علىٰ ذلك سَنة ، فقلت له بعد ذلك : يا أستاذ ؛ أنا رجل غريب ، وقد اشتقت إلىٰ أهلي ، وقد خدمتك سَنة ، وقد وجب حقي ، وقد قيل لي : إنك تعرف اسم الله الأعظم ، وقد جربتني وعرفت أني أهل لذلك ، فإن كنتَ تعرفه . . فعلمني إياه ، قال : فسكت عني ولم يجبني إلىٰ ستة أشهر ، ثم قال لي : يا أبا يعقوب ؛ أليس تعرف فلاناً صديقنا بالفسطاط ؟ فقلت : بلىٰ ، قال : فأَخْرَجَ لي من بيته طبقاً فوقه مكبَّة مشدودة بمنديل ، وقال لي : أوصل هـٰذا إلىٰ صديقنا فلان ، قال : فأخذت الطبق لأؤديه ؛ فإذا الطبق خفيف يدل علىٰ أنه ليس فيه شيء ، فلما بلغت الجسر الذي بين الفسطاط والجيزة . . قلت في نفسي : ذو النون يرسل هدية في طبق خفيف ، لأبصرن أيش فيه ، فكشفت الغطاء ، فإذا فأرة قفزت من الطبق وهربت وذهبت ، قال : فاغتظت ، وقلت : سخر بي ، ولم يذهب وهمي إلىٰ ما أراد ، قال : فجئت إليه وأنا مغضب ، فلما رآني . . تبسم وعرف القصة ، وقال : يا مجنون ؛ ائتمنتك علىٰ فأرة . . فخنتني ، فكيف أأتمنك على اسم الله الأعظم ؟! قم فارتحل عني . انتهىٰ .

وقال في « المناقب » : قال العباس بن حمزة : دخلت علىٰ ذي النون وعنده جماعة من المريدين ، وهو يقول : توسدوا الموت إذا نمتم ، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم ، وكونوا كأنكم لا حاجة بكم إلى الدنيا ، ولا بد لكم من الآخرة .

وقال : إن قوماً عبدوا الله سبحانه وتعالىٰ بالخالص من الصدق فأوصل إليهم الخالص من البر .

وقال : متىٰ أردت الخدمة لله عز وجل . . فاعقل لمن تخدُم ثم اخدم .

وقال : الناس كلهم موتىٰ[1] إلا العلماء ، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون ، والعاملون كلهم مغترون إلا المخلصون ، والمخلصون علىٰ خطر عظيم ؛ قال الله عز وجل : ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ . انتهىٰ .

---

(١) في بعض النسخ : (عيال) .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : قال ذو النون : حقيقة السخاء : ألاَّ تلوم من منعك علىٰ ذلك الشيء ؛ لأن لومك إياه يدل علىٰ أن لذلك الشيء حقيقة وقدراً عندك ، ولو كان هيناً عليك . . لَما اشتغلت بلومه علىٰ منعك إياه ، ثم أنشأ يقول :

كريم كصفو الماء ليس بباخلٍ بشيءٍ ولا مُهدي ملاماً لباخلِ(1)

وقال في « المناقب » : رأىٰ ذو النون داراً تبنىٰ شاهقة في الهواء ، وإذا شاب فيها يأمر وينهىٰ ، فقال له ذو النون : أيها المغرور بدار الغرور ، اللاهي عن دار البقاء والسرور . . كيف لا تشتري من مولاك جل جلاله داراً في دار الأمان ، داراً لا ينزعج فيها السكان ، ولا يضيق فيها المكان ، ولا تشعثها حوادث الزمان ، ولا تحتاج إلىٰ بنَّاء وطيَّان ، وتجمع هـٰذه الدار حدود أربع :

فالحد الأول : ينتهي إلىٰ منازل الراجين المحزونين .

والحد الثاني : ينتهي إلىٰ منازل الخائفين .

والحد الثالث : ينتهي إلىٰ منازل المحبين .

والحد الرابع : ينتهي إلىٰ منازل الفائزين .

وشرع لهـٰذه الدار شارع إلىٰ خيام مضروبة ، وقباب منصوبة علىٰ شاطىء أنهار الجنان ، في ميادين قد أشرقت ، وغرف قد رفعت ، فيها فرش علىٰ سرر قد نضدت ، قد جرت فيها أنهار من عسل ، وقد علاها كتائب مسك وزعفران ، قد عانقوا خيرات حسان ، هـٰذا ما اشترى العبد المجبور من الملك العزيز الغفور ، اشترىٰ منه سبحانه وتعالىٰ جميع الدار بالتنقل من ذل المعصية إلىٰ عز الطاعة ، فما أدرك هـٰذا المشتري من نقص فبنقض العهود وحل العقود ، وشهد علىٰ ذلك محكم القرآن : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

وقال ذو النون : أدنىٰ منازل الأنس بالله عز وجل أنه لو ألقىٰ عبده في النار . . لا يغيب همه عن الله سبحانه وتعالىٰ .

---

(1) الحلية (٩/ ٣٩١) ، وفي النسخ : (سلاماً) بدل (ملاماً) .

وقال : الخوف رقيب العمل ، والرجاء شفيع المحن .

وقال : العارف لا يلزم حالة واحدة ، وإنما يلزم ما فيه رضا ربه سبحانه وتعالىٰ في الحالات كلها .

وقال : العارف في كل يوم أخشع ؛ لأنه في كل ساعة أقرب .

أسند ذو النون عن مالك ، والليث بن سعد ، وسفيان بن عيينة ، وغيرهم ، وشغلته الرعاية عن الرواية . انتهىٰ .

وقال القشيري : كلموا ذا النون وهو في النزع ، فقال لهم : لا تشغلوني ؛ فإني متعجب من كثرة لطف الله سبحانه وتعالىٰ بي . انتهىٰ [« الرسالة » ٢٤١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : ذو النون ابن إبراهيم أبو الفيض ، أصله من النوبة ، وكان من إخميم ، فنزل مصر ، ويقال : اسمه الفيض ، وذو النون لقب ، وكان أبوه إبراهيم مولىٰ لإسحاق بن محمد الأنصاري رحمهم الله ، وكان له أربعة بَنين : ذو النون ، وذو الكفل ، وعبد الباري ، والهميسع .

قال ابن الجلاء : لقيت مئة[1] شيخ ، ما لقيت مثل أربعة ، منهم : ذو النون .

وسأله رجل أن يوصيه ، فقال له : لا تشغلك عيوب الناس عن عيوب نفسك ، لست عليهم برقيب ، ثم قال : إن أحب عباد الله إلى الله عز وجل . . أعقلهم عنه .

توفي بالجيزة ، وحُمل في مركب إلىٰ الفسطاط ؛ خوفاً عليه من زحمة الناس على الجسر ، وذلك في يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذي القعدة الحرام ، سَنة ست وأربعين ومئتين رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢٢٢ـ٢٢٧] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض المجاميع : أن ذا النون قال : دخلت المدينة ، فرأيت شيخاً قد اجتمع الناس إليه ، وهو يتكلم عليهم ، فقلت له : عظني ، فقال : الأمر مبني علىٰ أسباب : حفظ اللسان مع الورع ، والخوف والرجاء مع المراقبة ، والرضا والتسليم مع المشاهدة ، وترك الاعتراض ظاهراً وباطناً ، ثم معرفة عظمة الربوبية ، ومعرفة حقارة العبودية ، مع دوام المجاهدة[2] ، ثم الوقوف علىٰ قدم الفقر والذلة

---

(١) في « الحلية » ، و« الصفوة » : (لقيت ست مئة شيخ) .

(٢) في نسخة : (المشاهدة) .

والفاقة في الدياجي[1] ، ثم حفظ الأدب في مناجاة الخلوة ، ثم البكاء دمعاً ودماً علىٰ فوات الحظ من الله سبحانه وتعالىٰ ، ثم التأسف والحسرة علىٰ زمان البطالة .

وكان ذو النون يقول : ثلاثة موجودة ، وثلاثة فيها مفقودة :

- العلم موجود ، والعمل بالعلم مفقود .

- والعمل موجود ، والإخلاص [فيه] مفقود .

- والحب موجود ، والصدق فيه مفقود .

وقال محمد بن الحسن الجوهري رحمه الله : سمعت ذا النون يقول : ينبغي لمن علم أن له مقاماً بين يدي الله عز وجل وأنه يُسأل عما أسلف في هـٰذه الدار . . ألاَّ يؤثر الحقير على الجزيل ، ولا التأني والتقصير على الجد والتشمير ، لا سيما إذا كان ممن أيده الله عز وجل بإتقان العلم ، ولقح عقله بدلالات الفهم ، حتىٰ لا يتحير في ظلمة الغفلة التي يتحير فيها الجاهلون ، والعَجَب كل العجب لأهل هـٰذه الصفة كيف استوحشوا من طاعة الله عز وجل ، وأنسوا بغيره ، وركنوا إلى الدنيا مع تقلب حالاتها وكثرة آفاتها ، وما زادتهم الدنيا إلا هواناً ، ولا ازدادوا لها إلا إكراماً ، فما من مستيقظ من وسنته يقلع ويخلع الغل من عنقه والرين[2] من قلبه ، فما أضر التسويف بعسىٰ ولعل وأرجو ، فكابدوا التسويف بالعزم ، وبادروا التفريط بالحزم ؛ فقد وضح لكم الطريق ، والله المستعان .

وسئل عن أعوَن الأشياء علىٰ تسكين الشهوة ، فقال : قيام الليل ، وصيام النهار ، وصرف الشهوات ، والإعراض عنها ، وقطع مادة الأسباب منها جهده ، وتسليتها بالهموم والأحزان ، وتسكين سلطانها بذِكر الموت ؛ فإن القوم ما وجدوا شيئاً هو أعوَن لهم على الزهد فيها والانقطاع عنها من ذِكر الموت ، وتقريب الأجل ، وقصر الأمل ، وكل ما شغل القلوب ، فاقطع الشهوات ، واستقبل المراقبة لمن هو عليك رقيب ، والمحافظة علىٰ طاعة من هو عليك حسيب ، واسألِ الله التوفيق .

وسئل : أي الأحوال أغلب علىٰ قلب العارف السرور أو الحزن ؟ فقال : ليس هناك حالة يشار إليها دون حالة ، ولا سبب دون سبب .

---

(١) الدياجي : الظلمات .

(٢) الرَّين : الدنس .

ومثال ذلك : أن العارف في هٰذه الدار كمثل رجلٍ قد تُوِّج بتاج الكرامة ، وأجلس علىٰ سرير في بيت ، وعُلِّق علىٰ رأسه سيف معلق بشعرة ، وجُعل على الباب سَبُعانِ ضارِيانِ يشرفانه ساعة بعد ساعة ، فأنَّىٰ له السرور أو الحزن ؟!

قال بعض المشايخ قدس الله روحه : السيف المعلق علىٰ رأسه هو سلوك الاستقامة ، والأسَدان على الباب هما الأمر والنهي . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسن أحمد ابن أبي الحواري
رضي الله عنه

قال في « **بهجة الأسرار** » : قال أحمد : أفضل البكاء . . بكاء العبد علىٰ ما فاته علىٰ غير الموافقة ، أو علىٰ ما سبق له من المخالفة .

وقال : من عمل بلا سُنة . . فباطلٌ عمله .

وقال : من عرف الدنيا . . زهد فيها ، ومن عرف الآخرة . . رغب فيها ، ومن عرف الله عز وجل . . آثر رضاه علىٰ كل شيء سواه .

وقال : من لم يعرف نفسه . . فهو من دِينه في غرور .

وقال : ما ابتلي عبد بشيءٍ أشد من الغفلة والقسوة .

وقال : إذا مرض قلبك بحب الدنيا وكثرة الذنوب . . فداوه بالزهد والتوبة النصوح .

وقال : إذا رأيت من نفسك قسوة . . فجالس الذاكرين ، وأقلل مطعمك ، واجتنب مرادك ، ورُض نفسك على المكاره .

وجاءه رجل فقال : يا أبا الحسن ؛ ولد لي البارحة مولود وما عندي شيء ، فقال له أحمد : ما أصبحتُ أملِكُ من الدنيا غير هـٰذين القميصين ، فانظر أيُّهما أصلح . . فخذه ، وأظن أن التحتاني أَجَدُّ وأَجْوَدُ فخذه ، قال : فاعتزلنا إلىٰ حائط المسجد ، ونزع قميصه ، وأعطاه الرجل .

قال : وخرج أحمد من باب جيرون[1] ، فلما صار على الدرج . . لقيه رجل ، فسلم عليه ، وقال له : عمير بن جوصا[2] يسلم عليك ، ويقول لك : هـٰذه ثلاثون ديناراً انتفع بها ، فقال أحمد : انظر إلىٰ هـٰذا الكرَم العظيم ، أَعطَيتُ قميصاً وَجَّهَ إلي ثلاثين ديناراً ،

---

(١) باب جيرون : باب دمشق ، « معجم البلدان » (٢/ ١٩٩) .

(٢) وهو أحد المحدثين الحفاظ الدمشقيين .

ما هـٰذه الغفلة ؟! ثم صرخ صرخة عظيمة ، وخر مغشياً عليه ، فلو لم نمسكه . . لتهشَّم وجهه .

وقال سعيد بن عبد العزيز الحلبي : كان أحمد ابن أبي الحواري كريم النفس ، حسن الأخلاق ، ليس للدنيا عنده قدر ولا قيمة ، وكان يعطي كثيراً ، ولا يأخذ كثيراً ، مثاله : له علىٰ شخص درهم ونصف يأخذ درهماً ولا يأخذ النصف ، وإن كان عليه درهم ونصف . . يعطي درهمين .

وجاءه مولود وليس عنده شيء ، فقال لبعض أصحابه : اذهب إلىٰ فلان ، فاشتر لنا دقيقاً بنسيئة ، فلما قام ليخرج . . دخل عليه غلام بعض التجار ومعه مئتا درهم ، وقال له : إن أستاذي يسلم عليك ، ويقول : إني نذرت إن سلَّم الله عز وجل بضاعتي . . دفعت إليك مئتي درهم ، وقد سلَّم الله عز وجل بضاعتي ، وهـٰذه مئتا درهم ، فلم يتم الغلام كلامه حتىٰ دخل شخص من أصحاب أحمد ، فقال : يا سيدي ؛ ولد لي مولود وما عندي شيء ، فقال له أحمد : خذ هـٰذه الدراهم كلها ، وقال لتلميذه : امض فاشتر لنا دقيقاً بنسيئة . انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال أحمد ابن أبي الحواري : قال لي أبو سليمان الداراني : هل يكون فوق الصبر منزلة ؟ فقلت : نعم ، قال : فانتفض ، ثم قال : إذا كان الصابرون يُعطَون أجرهم بغير حساب . . فكيف يكون أجر الآخرين ؟!

وقال أحمد : مَن نظر إلى الدنيا نظرَ إرادةٍ وحبٍّ لها . . أخرج الله عز وجل نور اليقين والزهد من قلبه .

وقال : لا دليل على الله عز وجل سواه ، وإنما العلم يُطلَب لآداب الخدمة .

وقال أحمد : سمعت بشر بن السري يقول : ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغضه حبيبك .

قال أحمد : وعلامة حب الله عز وجل . . حب طاعته ، وقيل : حب ذِكر الله سبحانه وتعالىٰ ، وإذا أحب الله تعالىٰ عبداً . . أحب ذكر الله عز وجل ، ولا يستطيع عبد أن يحب الله سبحانه وتعالىٰ حتىٰ يكون الابتداء منه بالحب ، وذلك حين يعلم سبحانه وتعالىٰ من عبده الاجتهاد في مرضاته عز وجل .

وقال أحمد : مَن عرف الدنيا . . زهد فيها ، ومن عرف الآخرة . . رغب فيها ، ومن عرف الله عز وجل . . آثر رضاه ، ومن لم يعرف نفسه . . فهو من دِينه في غرور .

وقال أحمد : إذا حدثتْك نفسك بترك الدنيا عند إدبارها . . فهو خدعة ، وإذا حدثتك بتركها عند إقبالها . . فذاك .

وقال أحمد : ما ثَمَّ رتبة أعلىٰ من أن يجعل العبد حَيْلَه وقوَّته واجتهاده في محبة الله عز وجل وابتغاء رضوانه .

وقال : نعيم أهل الجنة برضوان الله سبحانه وتعالىٰ أفضل من نعيمهم بما في الجنان ، يدل لذلك الحديث الثابت في الصحيح[1] . أو كما قال .

وقال أحمد : ناظرت أبا سليمان في الحديث الذي جاء : « أول زمرة تُحشَر إلى الجنة . . الحمادون لله علىٰ كل حال »[2] ، فقال : ويحك! ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك معتصر عليها ، فإذا كنت كذلك . . فأرج أن تكون من الصابرين ، ولـٰكن أن تحمده وقلبك مسلِّم راض .

وقال أحمد : سمعت محموداً يقول : سبحان من لا يمنعه عظيم سلطانه عن أن ينظر في صغير سلطانه .

وقال أحمد : حدثني عبد الخالق بن جبير قال : سمعت أبا موسى الطرسوسي يقول : ما تفرغ عبد من عبيده لله عز وجل ساعة . . إلا نظر الله تعالىٰ إليه بالرحمة .

وقال يوسف بن الحسين : طلب أحمد ابن أبي الحواري العلم ثلاثين سنة ، فلما بلغ منه الغاية . . جلس للناس ، فخطر بقلبه ذات يوم خاطر من قِبَل الحق جل جلاله ، فحمل كتبه إلىٰ شط الفرات ، وجلس يبكي ساعة طويلة ، ثم قال : نِعم الدليل كنتِ لي علىٰ ربي سبحانه وتعالىٰ ، ولـٰكن لَمَّا ظفرت بالمقصود . . فالاشتغال بعد ذلك بالدليل مَحال ، ثم غسل كتبه في الفرات . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/٦] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : فإن قلتَ : أنا أعلم أن إقدامه علىٰ هـٰذا الفعل ـ وهو غسل كتبه ـ إنما هو لمحض التقوىٰ والمحافظة على الورع ، ولـٰكن كنتُ أودُّ أن

---

(١) أخرج البخاري (١٦٨٣) ، ومسلم (٢٨٢٩) : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تبارك وتعالىٰ يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا نرضىٰ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟! فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : وأي شيء أفضل من ذلك ؟! فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٣/ ٢٤٠) .

أعرف الدليل المسوِّغ له الإقدام علىٰ هٰذا الفعل أولاً ، وعلىٰ كونه لمحض التقوىٰ والورع ثانياً . . **قلتُ** : هٰذان مقامان : **أحدهما** : صعب المرام عزيز المسلك ، **وثانيهما** : سهل المأخذ والمدرك .

وسنتكلم عليهما إن شاء الله عز وجل بحسب ما أفاضه الله عز وجل علينا من عِرفانهم ، وقبل الشروع في بيانهما لا بد من قاعدة يتمهد بها المقصود ويتضح في هٰذا وأمثاله ، وهي : أن كلَّ ما وجدته من قول أو فعل في كلام الأئمة المجمع علىٰ ولايتهم . . فابحث عن طريقه أولاً حتىٰ يصح عنهم ، ولا تغترَّ بما تراه مسطوراً في كتب القوم ؛ لاشتمالها علىٰ ما لا يصح عنهم بطريق .

ثم بعد ذلك ابحث عن الباعث لهم علىٰ ذلك ثانياً(١) .

واعلم على الجملة : أنه متىٰ صح عنهم شيء من هٰذه الأفعال . . فإن الباعث لهم علىٰ ذلك إنما هو محض التقوىٰ لا غير ، وقصور فهمي وفهمك عن دَرَك ذلك لا يضرهم ولا يؤثر في صحة مقصودهم ؛ فإن عدم العلم بالشيء لا يدل على العدم ولا على الوجود ، وكوني أنا مثلاً عجزت عن إقامة الدليل علىٰ مذهب الشافعي رحمه الله في مسألة . . لا يدل علىٰ بطلان ذلك الحكم فيها ، ولا علىٰ كون إمامي الشافعي رحمه الله لا يقدر علىٰ إقامته فيها ، وهٰذا كله واضح غني عن البيان ، إذا عرفت هٰذا . . فاعلم أن الدليل المسوِّغ له ذلك من وجوه :

أولها وأعظمها : ما رُوِّيناه عن البخاري في « صحيحه » [٢١٦٩] في باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها : (وقال الليث : حدثني جعفر بن ربيعة ، عن عبد الرحمٰن ابن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذَكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتني بالشهداء أُشهِدْهم ، فقال : كفىٰ بالله شهيداً ، قال : فأتني بالكفيل ، قال : كفىٰ بالله كفيلاً ، قال : صدقتَ ، فدفعها إليه إلىٰ أجل مسمىٰ ، فخرج في البحر ، فقضىٰ حاجته ، ثم التمس مركباً يقدم عليه

---

(١) وقد نقل عن غيره من الأئمة دفن كتبهم فصار في ذلك التأويل لازماً ، ومما يذكر في هٰذا :
- أن من الأئمة الذين دفنوا كتبهم . . كانوا لا يرون نقل العلم وجادة ، والوجادة : وهي أن يجد الراوي أحاديثاً في كتب أصحابها ومن ثم يرويها .
- خشية هٰؤلاء الأئمة من أن تقع كتبهم في يد إنسان واهٍ ، فيزيد فيها أو يغيرها .
انظر « سير أعلام النبلاء » (١١/ ٣٧٧) وللاستزاده في ذلك تابع ما قاله المؤلف رحمه الله في هٰذا الشأن ، ففيه مزيد تفصيل ، والله أعلم .

للأجل الذي أَجَّله ، فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة ، فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلىٰ صاحبه ، ثم زجج[1] موضعها ، ثم أتىٰ بها إلى البحر ، فقال : اللهم ؛ إنك تعلم أني كنت تسلفت من فلان ألف دينار ، فسألني كفيلاً ، فقلت : كفىٰ بالله كفيلاً ، فرضي بك ، وسألني شهيداً ، فقلت : كفىٰ بالله شهيداً ، فرضي بك ، وأني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر ، وإني استودعتكها ، فرمىٰ بها في البحر حتىٰ ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلىٰ بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله ؛ فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها . . وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذي كان أسلفه ، فأتىٰ بالألف دينار ، فقال : والله ؛ ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك . . فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه ، [قال : هل كنت بعثت إليَّ بشيء ؟ قال : أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه] ، قال : فإن الله قد أدىٰ عنك الذي بعثت في الخشبة ، فانصرِفْ بالألف دينار راشداً) انتهىٰ .

وفي رواية غير البخاري : (فقال : انطلق حتىٰ أدفعها إليك ، فلما جاء بالدنانير ليدفعها . . قال : أمَا إنّ الكفيل سبحانه وتعالىٰ قد أداها إلي) .

قال أبو هريرة : (فكنا نتعجب أي الرجلين أوفىٰ) .

ولا يخفىٰ وجه الدلالة من هـٰذا الحديث الصحيح الصريح ، لـٰكن بشرط الصدق وصحة القصد والاجتهاد في مرضاة الله سبحانه وتعالىٰ ، وهـٰذا مقام عزيز لا يصح إلا لمن اختصه الله عز وجل وأكرمه بولايته ، كصاحب هـٰذه الترجمة وأمثاله من الأئمة المجمع علىٰ ولايتهم ، سواء كانوا في كتابي هـٰذا أو لم يكونوا فيه ؛ فإني لم أستوعب جميع الأولياء فيه ، وقد تقدم بيان العذر عن ذلك في ديباجة الكتاب ، وهو عدم إمكان الإحاطة بهم رضوان الله عليهم أجمعين .

وفي هـٰذا الحديث أيضاً دليل لما فعله خيرٌ النَّسَّاج وإبراهيم الخواص من إلقاء الدرهمين في دجلة ، وإلقاء القفاف في النهر ، لـٰكن علىٰ نهج آخَر أذكره في تراجمهما إن شاء الله عز وجل .

والمعنى الجامع في الكل : حصول الصدق مع الله عز وجل ، وصحة القصد له سبحانه وتعالىٰ ، وهـٰذا كافٍ في مقام التسويغ .

---

(١) زجج : سوىٰ موضع النقر ، وأصلحه .

وأما **المقام الثاني** ـ وهو معرفة الوقوف علىٰ مدارك الأئمة رحمهم الله فيما صدر عنهم من ذلك من قول أو فعل ـ : فهيهات هيهات! فإنه صعب المرام ، عزيز المدرك ، وَعِرُ المسلك ، والوصولُ إليه ليس بالهين علىٰ مثلي وأمثالي ، ولٰكن مجمل ما أقول فيه ـ بحسب فهمي القاصر ، وعقلي الضعيف ـ : أن القوم رضوان الله عليهم لما عزفت نفوسهم عن الدنيا ، وَصَفَّوا سرائرهم ، وقطعوا النظر عما سوى الله سبحانه وتعالىٰ ، بحيث إنهم لم يبق لهم هَمٌّ ولا مقصود إلا الله تعالىٰ ؛ قطعوا كل قاطع يَشغَلهم عن الله سبحانه وتعالىٰ ، وألزموا أنفسهم الاجتهاد في طاعته ولزوم عبادته ـ مع قطعهم النظر عنها ـ ويرون النعمة العظمىٰ عليهم فيها ، والمنة الكبرىٰ لله عز وجل عليهم في تلك العبادة . . أعظم من العبادة ، حتىٰ تغرق عبادتهم في المِنَّة . . لا جرم حفظ الله عز وجل عليهم سرائرهم وجوارحهم وسائر أفعالهم ، حتىٰ إن أحدهم ليصير كما جاء في الحديث الصحيح : « من عادىٰ لي ولياً . . فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل . . حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته . . كنت سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني . . لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ؛ يكره الموت ، وأنا أكره مساءته »(١) .

وفي الحقيقة : أنه سبحانه وتعالىٰ هو الذي أنعم عليهم ووفقهم لأعمال الطاعات ، وأقدَرَهم علىٰ فعلها ، وأسبغ عليهم نعمَه ظاهراً وباطناً ، أولاً وآخراً ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ ، فله الحمد عدد عفوه عن خلقه ، وعدد ما أحصىٰ علمُه ، ونسأله من فضله العميم ـ والله ذو الفضل العظيم ـ أن يفيض علينا مِن عرفانهم وبركتهم ، ويرزقنا ما رزقهم ، إنه قريب مجيب .

ومما يدل علىٰ صحة هٰذا المعنىٰ وأنه هو المراد والله أعلم : ما رأيته في كتاب « بهجة الأسرار » : عن أبي يعلى الموصلي رحمه الله أنه قال : ما أعلم أحداً من أصحاب الحديث انتفع بكتابة الحديث غير صاحب لي ، قيل له : كيف كان ذلك ؟ قال : كان لي رفيق رحلنا جميعاً في طلب العلم ، فدخلنا البصرة وكتبنا كثيراً ، فلما كان في بعض الأيام . . قال لي : يا أخي ؛ هل لك في هٰذه الكتب التي عندي حاجة ؟ قلت : أيش الخبر ؟ قال : كان يبعثني

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٧) .

علىٰ طلب العلم شيء ، وقد وجدته ، فاشتغلَ بالعبادة ، وتركها عندي ، وفارقني . انتهىٰ .

وثانيها ـ مما يشترك فيه الجواز والورع ـ : يحتمل أن يكون أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله إنما غسل تلك الكتب ؛ لأنها كانت مسودات ، ولم يتفرغ لتهذيبها وتحريرها ، وهٰذا عذر آخر أيضاً لسفيان رحمه الله في غسل بعض كتبه إن صح عنه ، لٰكن لم أجد ذلك عنه بسند صحيح .

والمقصود الآن إنما هو بيان عذر أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله في غَسل كتبه ، ولا شك أن مثل هٰذا مما يسوِّغ الإقدام على الغسل ، ومنشؤه الورع علىٰ ما لا يخفىٰ ، فإِنَّ غسل ما لم يتهذب ويتحرر . . أولىٰ مِن إبقائه ، وهو صنيع جميع الأئمة ، وعليه عملهم .

وثالثها : يحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون ذلك الغَسل إنما وقع ؛ لأنه كتب تلك الكتب في الابتداء قبل إحكام باب التقوىٰ ، ويدل علىٰ ذلك قوله : فخطر علىٰ قلبه خاطر من قِبَل الحق سبحانه وتعالىٰ ، كأنه ـ والله أعلم ـ حصول شيء من الرياء أو الإعجاب بها ، أو غير ذلك مما يقدح في الإخلاص ، فرأىٰ تعفية ما هٰذا سبيله أولىٰ وأحرىٰ .

ورابعها : أن حركات الولي كلها بالله سبحانه ولله ، وهو محفوظ في حركاته وسائر أفعاله كما تقدم ، وهٰذه الواقعة لم تعرف الحال فيها كيف هو ؟ والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه إنما أقدم على الغَسل ؛ لابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالىٰ .

هٰذا مما أقطَعُ به وأَدِين الله عز وجل به ، ويدل عليه وقوفه عند الشط ساعة طويلة ، وكثرة بكائه ، وقوله : نِعم الدليل كنتِ لي علىٰ ربي عز وجل ، فوقوفه تلك الساعة الطويلة إنما كان للتفكر(١) فيما يسوِّغ له الإقدام علىٰ ما أراد فعله من غسل الكتب ، فلما صح له الدليل علىٰ ذلك . . أقدم عليه .

وخامسها ـ وهو مشرب جميع العارفين ـ : إنما هو عزوفهم عن الدنيا ، وقطع كلِّ قاطع يقطعهم عن الله سبحانه وتعالىٰ ؛ لتصفو لهم المعاملة مع الله سبحانه وتعالىٰ ، كما قال حارثة رضي الله عنه : (عزفت نفسي عن الدنيا . . .) الحديث ، فشأن العارفين العزوف عن الدنيا بكل طريق ، وقطع كل ما يقطعهم عن الله عز وجل حتىٰ مِن أهل ومال وولد ، ويدل علىٰ أن هٰذا كان مقصود أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله . . قولُهُ عند غسل الكتب : نِعم الدليل كنتِ لي علىٰ ربي ، ولٰكن لما ظفرت بالمقصود . . الاشتغال بعد ذلك بالدليل مَحال ؛

---

(١) في النسخ : (للفكر) ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

أي : فلا أشتغل بالدليل عن المدلول ؛ لأن المدلول مقصود لذاته والدليل وسيلة إليه ، ولا حاجة إلى الوسائل بعد حصول المقاصد ، وهٰذا ـ كما قلنا ـ هو مشرب جميع العارفين رحمهم الله أجمعين .

وسادسها : يحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون ذلك لمعنىً آخر غامض لطيف ، صرح به الإمام أبو القاسم الجنيد رحمه الله ، وفعله في آخر عمره فيما حكاه عنه في كتاب « بهجة الأسرار » ، فإنه روىٰ عن أبي الحسن علي بن محمد بن حاتم قال : لما حضر الجنيدَ الوفاة . . أوصىٰ أن يدفن جميع ما هو منسوب إليه من علمه ، فقيل له : ولِمَ ذاك ؟ فقال : أحببت ألاَّ يراني الله عز وجل وقد تركت شيئاً منسوباً إلي ، وعِلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم .

ويحتمل معنىً آخر ، وهو : أن يكون الباعث لأحمد ابن أبي الحواري رحمه الله علىٰ غسل تلك الكتب ما حكاه لي بعض الصالحين عن والده ـ وكان من علماء خراسان وصلحائها ـ فاتفق أن كتبه غرقت ، فجاء الناس إليه يأخذون بخاطره ويسلونه ، وهو ساكت مطرق الرأس ، لا يرفع رأسه إليهم ، ولا يتكلم ، وكانت له هيبة ، فلم يجسر أحد علىٰ مخاطبته ، ولا الكلام معه ، وكان قاضي قضاة خراسان إذ ذاك من الحاضرين ، فأقدم على الشيخ ، وأخذ في تسليته والكلام معه في ذلك ، فرفع الشيخ رأسه وهو باكٍ وقال : يا قاضي ؛ والله ما ذهبت إلىٰ حيث ذهبتم ، ولا عندي ألم من أجل ذهابها ، وإنما الذي أهمني كأن لسان الحال يقول لي : أنت لا تعمل بما في هٰذه الكتب فاغسلها ، وإلا . . فهي حجة عليك ، وحيث إنك لم تغسلها ، ولم تعمل بها ، وقد أمهلناك مدة طويلة . . فقد غِرْنا عليها وغسلناها بالغرق .

فيجوز أن يكون أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله لمح هٰذا المعنىٰ ، وحاله ـ والله أعلم ـ إنما كان العلم والعمل بما في تلك الكتب ، لٰكن العارف يبلغ في الدرجات إلىٰ أقصاها ، ولا ينزل نفسه تلك المنزلة ، وإنما يرىٰ نفسه في التقصير منغمساً ، هٰذا شأن العارفين ، ومَن تتبع أحوالهم . . وجد من ذلك شيئاً كثيراً ، ألا ترىٰ إلىٰ سيدنا الصديق الأكبر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث قال : (قد وليت أمركم ولست بأخيركم ؟) قال الحسن البصري : بلىٰ ، والله هو خيرهم غير مدافَع ، ولٰكن المؤمن يهضم نفسه .

وسابعها ـ وهو مسلك غير معتبر في مسألتنا هـٰذه على الخصوص ، وإنما هو معتبر من حيث الجملة ـ : وهو أن الصحابة وغالب التابعين رضوان الله عليهم لم يدونوا شيئاً ، وإنما كان العلم محفوظاً في صدورهم ، تتلقاه الرجال عنهم كابراً عن كابر ؛ لشغلهم عن ذلك بالجهاد في إقامة الدِّين ، إلىٰ غير ذلك مما هو أَهَمُّ بهم ، ولهـٰذا قال الأوزاعي رحمه الله : كان العلم كريماً محفوظاً في صدور الرجال ، تتلقاه عنهم كابراً عن كابر ، فلما دخل العلم في الكتب وبطون الأوراق . . دخل فيه غير أهله .

ومما تمسك به الصحابة وغيرهم رضوان الله عليهم في عدم التدوين . . قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن ، ومَن كتب عني شيئاً غير القرآن . . فليَمْحه »[1] .

وتمسك الذين دَوَّنوا بقوله صلى الله عليه وسلم : « اكتبوا لأبي شاه »[2] ، وبقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاصي : « اكتب ـ وأشار إلىٰ لسانه صلى الله عليه وسلم ـ فوالذي بعثني بالحق ؛ إنه لا يخرج منه إلا حق »[3] .

وأجمع المسلمون علىٰ كتابة العلم وإباحته وتدوينه ، وارتفع ذلك الخلاف ، ولولا ذلك . . لاندرس في الأعصر الآخرة .

وبالجملة : فالخوض في مشارب العارفين وبيان مدارك أفعالهم وأقوالهم عزيز جداً ، فلذلك كان الأولىٰ بنا ألاَّ نخوض في بحر لا طاقة لنا بساحله ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : وقال أحمد : حدثنا أبو الموفق الأزدي قال : قال الله عز وجل : لو أن ابن آدم لم يرج غيري . . لَمَا وكلته إلىٰ غيري ، ولو أن ابن آدم لم يخف غيري . . لَمَا أخفته من غيري .

وقال أحمد : بينا أنا ذات يوم في بلاد الشام في قبة من قِباب المقابر ، ليس لها باب ، بل

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٠٢) ، ومسلم (١٣٥٥) .

(٣) أخرجه بنحوه أبو داوود (٣٦٤٦) ، والحاكم (١/ ١٨٧) .
قال ابن الصلاح ـ رحمه الله ـ في « مقدمته » (ص٣٦٧) : ولعله صلى الله عليه وسلم أذن في الكتابة عنه لمن خشي عليه النسيان ، ونهىٰ عن الكتابة عنه مَنْ وثق بحفظه مخافة الاتكال على الكتاب ، أو نهىٰ عن كتابة ذلك عنه حين خاف عليهم اختلاط ذلك بصحف القرآن العظيم ، وأذن في كتابته ين أمن من ذلك .

عليها كساء قد أسبَلْتُه ؛ فإذا أنا بامرأة تدق على الحائط ، فقلت : مَن هـٰذا ؟ فقالت : امرأة ضالة ، دُلَّني على الطريق رحمك الله تعالىٰ ، فقلت لها : رحمك الله سبحانه وتعالىٰ ، عن أي الطريق تسألين ؟ فبكت ، ثم قالت : يا أحمد ؛ عن طريق النجاة ، فقلت لها : هيهات! إن بيننا وبين النجاة عُقاباً[1] ، وتلك العُقاب لا تُقطع إلا بالسير الحثيث ، وتصحيح المعاملة ، وحذف العلائق الشاغلة من أمر الدنيا والآخرة ، قال : فبكت بكاء شديداً ، ثم قالت : يا أحمد ؛ سبحان من أمسَك عليك جوارحك فلم تتقطع ، وحفظ عليك فؤادك فلم يتصدع ، ثم خرت مغشياً عليها ، فقلت لبعض النساء : انظرن أي شيء حال هـٰذه الجارية .

قال أحمد : فقمن إليها ، ففتشنها ؛ فإذا وصيتها في جيبها : كفنوني في أثوابي هـٰذه ، فإنِ كان لي عند الله عز وجل خير . . فهو أسعد لي ، وإن كان غير ذلك . . فبعداً لنفسي ، ثم حرَّكوها ؛ فإذا هي ميتة ، فسألتُ عنها ، فقيل لي : هـٰذه جارية قرشية مصابة ، وكان الذي معها يمنعها من الطعام ، وكانت تشكو إلينا وجعها ، فكنا نقول لها عن متطببي الشام ، فتقول : خلوا بيني وبين الطبيب الراهب ـ تعني : أحمد ابن أبي الحواري ـ أشكو إليه بعض ما أجد من البلاء لعله أن يكون عنده شفائي .

وقال أحمد : كنت أسمع وكيع بن الجراح رحمه الله يبتدىء قبل أن يحدث فيقول : ما هنالك إلا عفوه ، ولا نعيش إلا في ستره سبحانه وتعالىٰ ، ولو كشف الغطاء . . لكشف عن أمر عظيم .

وقال أحمد : قال شعيب بن حرب لرجل : إن دخلت القبر ومعك الإسلام . . فأبشر .

وقال أحمد : حدثنا أبو علي الرحبي قال : فَقَدَ الحسن بن حي شاباً كان ينقطع إليه ، فخرج الحسن حتىٰ أتىٰ منزله ، فدق عليه الباب ، فخرج إليه الشاب ، فقال له : يا أخي ؛ ما لي لم أرك منذ أيام ؟ فقال له : يا أخي ؛ إن هـٰذه الدار ليست بدار لقاء ، إنما هي دار عمل ، واللقاء غداً ، ثم أغلق الباب في وجهه ، قال : فما رآه الحسن بعد ذلك اليوم حتىٰ أخرجت جنازته .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : إن الله عز وجل لِعبدِهِ في أوان معاصيه وإعراضه . . أشدُّ نظراً له وشفقة عليه من العبد الذي يتابع نعمه عليه ، من كمال كرامته ، وعظيم ستره ، وإحسانه سبحانه وتعالىٰ ، ثم قال : وهل يكون من أكرم الأكرمين إلاَّ مثلُ ذلك سبحانه وتعالىٰ ؟!

---

(١) العُقاب : الطريق الوعرة في الجبل .

وقال أحمد : سمعت عبد العزيز بن عمير يقول : إن الرجل لينقطع إلىٰ ملوك الدنيا فيرىٰ أثرهم عليه ، فكيف بمن ينقطع إلى الله رب العالمين سبحانه وتعالىٰ كيف لا يرىٰ أثر نعمه عليه ؟!

وقال أحمد : قال أبو جعفر الحَذَّاء : سمعت فضيلاً يقول : ما اشتد عجبي قط من عبادة مَلَك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا ولي من أوليائه ، وما ذاك إلا لأن الله عز وجل هو الذي أعطاهم وألهمهم ، ولو أراد أن يعطيهم أكثر من ذلك . . لَفَعَل سبحانه وتعالىٰ .

وقال أحمد : سمعت أبا يوسف يقول : يا أخي ؛ وما عليك أن تنقطع إليه تبارك وتعالىٰ في آخر عمرك فتخدمه سبحانه وتعالىٰ ؟!

وقال أحمد : سمعت إبراهيم بن أيوب الحوراني قال : سمعت الوليد بن مسلم يقول : إذا أفنى الله عز وجل الخلق . . أقام يمجد نفسه سبحانه وتعالىٰ قبل أن يبعثهم مثلَ عمر الدنيا أربع مرات ، قال أحمد : وكان يقال : عمر الدنيا سبعة آلاف سَنَة .

وقال أحمد : قلت لأبي طلحة : أي شيء الزهد في الدنيا ؟ قال : بذل المجهود ، وخلع الراحة ، وقطع الآمال .

وقال أحمد : من أيقن بما بعد الموت . . شد مئزر الحذر ، ولم يكن للدنيا عنده خطر ، ولم يقضِ منها وطراً .

وقال أحمد : سمعت أبا سليمان يقول : إن العذاب على العارفين بالله عز وجل أهون عليهم من أن يعصى الله عز وجل .

وقال أحمد : سمعت أبا سليمان يقول : بينا العبد يوم القيامة وهو يرىٰ أنه قد هلك ؛ فإذا بصحف مختومة ، فيقال له : فُضَّ الخاتَم واقرأ ما فيها ، فيقول : يا رب ؛ هـٰذه أعمال لم أعملها ولا أعرفها ، فيقول الله تبارك وتعالىٰ : (هـٰذه نيتك التي كنت تنوي في الدنيا حفظتها لك) ، ثم يؤمر به إلى الجنة ، فسبحان الكريم الحليم ، سبحانه وتعالىٰ .

وقال يحيى بن معين ـ وذكر أحمد ابن أبي الحواري فقال ـ : أظنُّ أنَّ أهل الشام يسقيهم الله تعالى الغيث بأحمد ابن أبي الحواري .

وقال محمود بن خالد : ما أظن بقي علىٰ وجه الأرض مثل أحمد ابن أبي الحواري .

وقال أحمد : الدنيا مزبلة ومجمع الكلاب ، وأقل من الكلاب من عكف عليها ؛ فإن الكلب يأخذ منها حاجته وينصرف ، والمحب لها لا يفارقها بحال .

وقال أحمد : من أحب أن يُعرف بشيء من الخير أو يُذْكر به . . فقد أشرك في عبادته ؛ لأن من عَبَدَ على المحبة . . لا يحب أن يرىٰ خِدْمَتَه إلا مولاه سبحانه وتعالىٰ .

وقال أحمد : إني لأقرأ القرآن ، فأنظر في أيَّة آية ، فيَحَارُ عقلي فيها ، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنئهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلامَ الرحمـٰن جل جلاله ؟! أمَا لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه وتلذذوا به واستحْلَوُا المناجاة به . . لذهب عنهم النوم ؛ فرحاً بما رزقوا ووفقوا .

وقال أحمد : حدثني أخي محمد قال : قال علي بن الفضيل لأبيه : يا أبت ؛ ما أحلىٰ كلامَ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم! فقال : يا بني ؛ أتدري لِمَ حلا ؟ قال : قلت : لا يا أبت ، قال : لأنهم أرادوا به الله عز وجل ، فتكلموا لعز الإسلام ، وإصلاح النفوس ، والنصيحة للمؤمنين .

وقال أحمد : حدثنا سفيان بن عيينة قال : يهون الموقف يوم القيامة على المؤمن كصلاة فريضة صلاها في الدنيا أتم ركوعها وسجودها .

وقال أحمد : سمعت أبا الخضر الوصاف يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال : تفسيره : أن لو وُلِّيَ حسابَ الخلق يوم القيامة غيرُ الله عز وجل . . لم يفصل بينهم في خمسين ألف سَنة ، وهو سبحانه يفصل بينهم في مقدار نصف يوم من أيام الآخرة .

أسند أحمد عن الأعلام والمشاهير ما لا يُعَدُّ كثرةً . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/١٠-٢٤] .

وقال أبو الفرج رحمه الله : أحمد ابن أبي الحواري ، كنيته : أبو الحسن ، واسم أبي الحواري : ميمون ، سكن دمشق ، وكان له ابن يقال له : عبد الله ، من الزهاد ، وأخ يقال له : محمد ، يشابهه في الورع والزهد ، وأبوه أبو الحواري من أهل الورع أيضاً ، فهُم من بيت الورع والزهد .

وكان الجنيد يقول : أحمد ابن أبي الحواري ريحانة الشام .

توفي أحمد ابن أبي الحواري سنة ثلاثين ومئتين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٦٥-١٦٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو يَزيد البِسْطَامي
رضي الله عنه

قال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال أبو يزيد البسطامي : حركات الظواهر توجب بركات السرائر .

وقال محمد بن الحسين رحمه الله تعالىٰ : سمعت محمد بن علي بن جعفر يقول : سمعت الحسن بن عَلُّويَه يقول : قال أبو يزيد : كنت اثنتي عشرة سَنة حداد نفسي ، وكنت خمس سنين مرآة قلبي ، وكنت سنة أنظر إليها ؛ فإذا في وسطي زنار ظاهر ، فعملت في قطعه اثنتي عشرة سنة ، ثم نظرت ؛ فإذا في باطني زنار باطن ، فعملت في قطعه خمس سنين ، ثم بقيت سَنة أنظر كيف أقطع ، فكشف لي بعد ذلك ، فنظرت إلى الخلق ، فرأيتهم موتىٰ ، فكبَّرْتُ عليهم أربع تكبيرات . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٨٢] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قوله : (حداد نفسي) يعني : أن القلب كالحديد ، فكان كالحداد يسنه بنار الخوف عشر سنين ، ثم شرع في غسله عن الأوضار[١] عشر سنين ، ثم بعد هـٰذه الأحوال سقطَتْ من بحار عالَم الجلال قطرة من نور ، فغرق قلبه في تلك القطرة ، ثم بعد ذلك كُشف له ، فنظر إلى الخلق ، فرآهم موتىٰ ؛ أي : غافلين عما يجب عليهم من القيام لله عز وجل . انتهىٰ .

وقال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أبو يزيد البسطامي : ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير ذليل ، وإنما العجب من حبك لي وأنت ملك قدير .

وقال : غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء : توهمت أني أذكره ، وأعرفه ، وأحبه ، وأطلبه سبحانه وتعالىٰ ، فلما انتبهت[٢] . . رأيت أن ذِكره سبحانه وتعالىٰ سبق ذِكري ،

---

(١) **الأوضار** : الأدران والأوساخ .

(٢) في بعض النسخ : (انتهيت) .

ومعرفته عز وجل تقدمت معرفتي ، ومحبته تقدمت محبتي ، وطلبه جل جلاله تقدم طلبي ، قال تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ .

وقال : إن لله عز وجل خواصّاً من عباده ، لو حجبهم في الجنة عن رؤيته . . لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار .

وقال : غبت في ذِكر الله عز وجل ثلاثين سنة ، فكان غيبتي لغفلتي عن ذِكري إياه جل جلاله علىٰ حقيقة التعظيم والحرمة ، فبقيت مستغرقاً غائباً لذلك . أو كما قال .

وقال : لم أزل منذ ثلاثين سَنة كلما أردت أن أذكر الله عز وجل . . أتمضمض وأغسل فمي ولساني ؛ إجلالاً لله سبحانه وتعالىٰ .

وجاء رجل إلىٰ أبي يزيد البسطامي فقال له : بلغني أنك تمرُّ في الهواء ، فقال : وأي أعجوبة في هـٰذا ؟ طير يأكل الميتة يمر في الهواء ، والمؤمن أشرف من الطير .

وقال أبو يزيد : طلَّقت الدنيا ثلاثاً بتاتاً لا رجعة لي فيها ، وصرت إلىٰ ربي وحدي ، فناديته بالاستغاثة : إلـٰهي ؛ أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك ، فلما علم صدق الدعاء من قلبي ، واليأس من نفسي . . كان أول ما ورد علي من إجابة هـٰذا الدعاء أن أنساني نفسي بالكلية ، ونَصَب الخلائقَ بين يدي مع إعراضي عنهم .

وقال أبو يزيد : إن في الطاعات من الآفات ما لا يحتاجون إلىٰ أن يطلبوا المعاصي .

وقال : ما دام العبد يظن أن في المسلمين من هو شر منه . . فهو متكبر .

وقال : عملت في المجاهدة ثلاثين سَنة ، فما وجدت شيئاً أشد علي من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء . . لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة من الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : لا يعرف نفسه من صحبته شهوته .

وقال : الجنة لا خطر لها عند المحبين ، وأهل الجنة محجوبون بمحبتهم .

وقال : عالجت كل شيء ، فما عالجت أصعب من معالجة نفسي ، وما شيء أهون عليَّ منها .

وقال : دعوت نفسي إلى الله عز وجل ، فأبت عليَّ واستعصت ، فتركتها ومضيت إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : أشد المحجوبين عن الله سبحانه وتعالىٰ ثلاثة بثلاثة : الزاهد بزهده ، والعابد

بعبادته ، والعالم بعلمه ، ثم قال : مسكينٌ الزاهد ، قد لبس زهده وجرىٰ به في ميدان الزهاد ، ولو علم المسكين أن الدنيا كلها سمَّاها الله قليلاً . . فكم مَلَكَ من القليل ؟! وفي كم زهد مما مَلَكَ ؟!

ثم قال : إن الزاهد هو الذي يلحظ إليه بلحظه ، فيبقىٰ عنده ، ثم لا يرجع نظره إلىٰ غيره ولا إلىٰ نفسه .

وأما العابد : فهو الذي يرىٰ منة الله عليه في العبادة أكبر من العبادة حتىٰ تغرق عبادته في المنة .

وأما العالم : فلو علم أن جميع ما أبدى الله عز وجل من العلم سطر واحد من اللوح المحفوظ . . فكم عِلمُ هـٰذا العالم من ذلك السطر ؟ وكم عمل مما علم ؟!

وقال : طوبىٰ لمن كان همُّه هَمّاً واحداً ، ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه ، وسمعت أذناه ، مَن عرف الله عز وجل . . فإنه يزهد في كل شيء يَشغَله عنه .

وسئل : متىٰ يبلغ الرجل حد الرجال ؟ فقال : إذا عرف عيوب نفسه ، واشتغل بإصلاحها . . فحينئذ يبلغ مبلغ الرجال .

وسئل : بماذا يستعان على العبادة ؟ فقال : بالله تعالىٰ إن كنت تعرفه .

وقال : ما وجد الواجدون شيئاً من الحضور في هـٰذا الوقت . . إلا كانوا غائبين في حضورهم ، وكنت أنا المخبر عنهم في حضورهم .

وقال : ما ذكروه إلا بالغفلة ، ولا خدموه إلا بالفترة[1] .

وكان يقول : لا تقطعني بك عنك يا ذا الجلال والإكرام .

وقال : أكثر الناس إشارة إليه سبحانه وتعالىٰ . . أبعدهم منه جل جلاله .

وسأله رجل : مَن أصحَبُ ؟ فقال : مَن لا يحتاج إلىٰ أَنْ تكتمه شيئاً مما يعلمه الله عز وجل منك .

وقال : أقربهم من الله عز وجل . . أوسعهم شفقة علىٰ خلقه .

وكان يقول : لا يحمل عطاياه إلا مطاياه المذلَّلة المروَّضة .

---

(١) الفترة : الانكسار والضعف .

وسأله رجل : مَن أُصاحب ؟ فقال : مَن إذا مرضت . . عادك ، وإذا أذنبت . . تاب عليك .

وقال : مَن سمع الكلام ليتكلم مع الناس . . رزقه الله تعالىٰ فهماً يكلم به الناس ، ومن سمعه ليعامل الله عز وجل به . . رزقه الله تعالىٰ فهماً يناجي به ربه تبارك وتعالىٰ .

وكان يقول : هـٰذا فرحي بك وأنا أخافك ، فكيف فرحي بك إذا أمنتُك ؟!

وكان يقول : رب أفهمني عنك ؛ فإني لا أفهم عنك إلا بك .

وسئل : بِمَ نالوا معرفته سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : بالوقوف مع أوامره عز وجل .

وقال : اطلع الله عز وجل علىٰ قلوب أوليائه ، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صِرْفاً ، فشغلهم بالعبادة .

وسئل : ما علامة العارف ؟ فقال : ألاَّ يفتُر مِن ذِكره ، ولا يمل مِن حقه(١) ، ولا يستأنس بغيره عز وجل .

وقال : إن الله عز وجل أمر العباد ونهاهم فأطاعوه ، فأنعم عليهم نعمة من نعمه سبحانه وتعالىٰ ، فاشتغلوا بالنعمة عنه ، وإني لا أريد من الله إلا الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : العارف فوق ما يقول ، والعالم دون ما يقول ، والعارف ما فرح بشيء قط ولا خاف مِن شيء قط ، والعارف يلاحظ ربه سبحانه وتعالىٰ ، والعالم قد يلاحظ نفسه بعلمه .

وقال رجل لأبي يزيد : علمني اسم الله الأعظم ، فقال : ليس له حد محدود ، إنما هو فراغ قلبك لوحدانيته عز وجل ، فإذا كنت كذلك . . فارجع إلىٰ أي اسم شئت ؛ فإنك تصير به إلى المشرق والمغرب ، ثم تجيء وتصف .

وقال : إن الصادق من الزاهدين إذا رأيته . . هِبته ، وإذا فارقته . . هان عليك أمره ، والعارف إذا رأيته . . هِبته ، وإذا فارقته . . هِبته .

وقال : لأَن يقال لي : لِمَ لم تفعل . . أحب إلي من أن يقال لي : لِمَ فعلت .

وقال : الجوع سحاب ، فإذا جاع العبد . . مُطر القلب الحكمة .

وقال : لو صفت لي تهليلة . . ما باليت بعدها بشيء .

---

(١) في بعض النسخ : (ولا يمل من خلقه) ، وفي نسخة : (من خِلَعِهِ)

وقال : إذا وقفتَ بين يدي الله عز وجل . . فاجعل نفسك كأنك مجوسي تريد أن تقطع الزنار بين يديه سبحانه وتعالىٰ .

واجتمع الناس عليه يوماً ، فقال : يا رب ؛ أسألك بعزتك وجلالك ألاَّ تحجبهم وإياي بك عنك . أو كما قال .

وحكي عنه أنه قال : نوديت في سري ، فقيل لي : خزائنُنا مملوءة من الخدمة ، فإن أردتنا . . فعليك بالذِّلة والافتقار .

وقال أبو يزيد قدس الله روحه : أولياء الله عز وجل مُخَدَّرون[1] معه في حجال[2] الأُنس ، لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة إلا من كان مَحْرَماً لهم ، وأما غيرهم : فلا يراهم إلا منتقبين من وراء حجبهم .

وقرىء عند أبي يزيد : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ ، قال : فصاح ، ثم أغمي عليه ، ولم يزل مغمىً عليه زماناً ، فلما أفاق . . جعل يكرر : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٣٤ـ٤٠] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال أبو يزيد : لقد هممت أن أسأل الله عز وجل أن يكفيني مؤنة الأكل ومؤنة النساء ، ثم قلت : كيف يجوز لي أن أسأل الله سبحانه وتعالىٰ هـٰذا وهـٰذا شيء لم يسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! فلا يجوز لي أن أسأله ، فلَمْ أسأله ، ثم إن الله عز وجل كفاني مؤنة النساء ، حتىٰ إني ما أبالي أَستقبلني امرأة أو حائط .

وقال أبو يزيد : لو نظرتم إلىٰ رجل أعطي من الكرامات حتىٰ يُرفع في الهواء . . فلا تغتروا به حتىٰ تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة .

وحكي عن أبي يزيد : أنه ذهب ليلة إلى الرباط ليذكر الله تعالىٰ علىٰ سور الرباط ، فبقي إلى الصباح لَمْ يذكر ، فقيل له في ذلك ، فقال : تذكرت كلمة جرت علىٰ لساني في حال صِباي ، فاحتشمت أن أذكره سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٣ـ٢٤] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال أبو يزيد البسطامي : ما حصل للأولياء بالنسبة إلىٰ ما حصل للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . . إلا كمثل زِقٍّ فيه عسل ، يترشح

---

(١) **مخدَّرون** : محبوسون .

(٢) **الحِجال** : الغرف المستورة .

من ذلك الزق قطرة ، فتلك القطرة حصلت للأولياء ، وما في الظرف للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ثم قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : اقتصرنا علىٰ هـٰذا القدر من كلامه ؛ لِمَا فيه من الإشارة العميقة التي لا يصل إلىٰ معرفتها إلا من غاص في بحره وشرب من سره .

وأما رواية الحديث عنه . . فغير محفوظة ، غير أني رأيت من رواية شيخ واعظ لقيته ببغداد وبالبصرة ، يُعرَف بأبي الفتح الحمصي أحمد بن الحسن بن محمد بن سهل ، فذكر أن علي بن جعفر البغدادي حدثهم قال : قال أبو موسى الديبلي : حدثنا أبو يزيد ، حدثنا أبو عبد الرحمـٰن السدي ، عن عمرو بن قيس الملائي ، عن عطية ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من ضعف اليقين أن ترضيَ الناس بسخط الله عز وجل ، وأن تحمَدهم علىٰ رزق الله سبحانه وتعالىٰ ، وأن تذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله تعالىٰ ، إن رزق الله تعالىٰ لا يجره إليك حرص حريص ، ولا يرده كراهة كاره ، وإن الله تعالىٰ بحكمه وجلاله جعل الفرح والرَّوح في الرضا واليقين ، وجعل الهَمَّ والحزن في الشك والسخط »(١) .

قال الحافظ : هـٰذا الحديث مما ركِّب علىٰ أبي يزيد ، والحَمْل فيه علىٰ شيخنا أبي الفتح ، والله أعلم . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/٤١] .

وقال أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال يحيى بن معاذ الرازي : قال أبو يزيد : رأيت في منامي الحق جل جلاله ، فقال : (سلني) ، قال : قلت : وعزتك وجلالك ؛ إنك لتعلم أنه ليس لي لسان يقدر على النطق الآن ، قال يحيى بن معاذ : فقلت له : لِمَ لا سألته المعرفة ؟ قال : فصاح بي ، وقال : اسكت ، المعرفة معرفتان : معرفة حقيقة ، ومعرفة حق ، أما معرفة الحق . . فقد عرفه المؤمنون بنور الإيقان والإيمان ، وأما معرفة الحقيقة . . فلا سبيل إليها لامتناع الصمدية وتحقيق الربوبية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴾ انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أبو يزيد ، اسمه : طيفور بن عيسى بن سروشان ، وكان سروشان مجوسياً فأسلم ، وكان لعيسىٰ ثلاثة أولاد : أبو يزيد أوسطهم ، وآدم أكبرهم ، وعلي أصغرهم ، وكانوا كلهم عباداً زهاداً .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١/ ٢٢١) .

وقال العباس بن حمزة : صليت خلف أبي يزيد الظهر ، فلما أراد أن يرفع يديه ليكبر . . لم يقدر أن يقول : الله أكبر ؛ إجلالاً لاسم الله عز وجل ، وارتعدت فرائصه[1] حتىٰ سمعت قعقعة عظامه ، فهالني ذلك . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٧٣-٧٤] .

وقال القشيري : قيل : إن ذا النون أرسل إلىٰ أبي يزيد يقول له : إلىٰ متى النوم والراحة وقد جازت القافلة ؟ فقال أبو يزيد : قل لأخي : الرجل من نام الليل كلَّه ، ثم أصبح في المنزل قبل وصول القافلة ، فقال ذو النون : هنيئاً له ، هٰذا كلام لا تبلغه أحوالنا .

ويروىٰ : أن أبا يزيد قال : دعوت الناس إلى الله عز وجل أربعين سنة فما أجابوني ، فلما تركتهم . . وجدتهم قد سبقوني لمعرفته .

والمعنىٰ فيه ـ والله أعلم ـ : أنه كان محجوباً برؤية نفسه ، فلما زالت عنه رؤية نفسه . . عرف أنه قد تأخر ، وأن الناس قد سبقوه . [انتهىٰ] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال عبد الصمد بن محمد : صعد أبو يزيد ليلة سور بسطام ، فلم يزل يدور على السور إلىٰ وقت طلوع الفجر ، وهو يريد أن يقول : لا إلٰه إلا الله ، فيغلبه ما يرد عليه من هيبة الاسم الأعظم ، فلا يستطيع أن ينطق بها لسانه ، فلما كان وقت طلوع الفجر . . نزل فبال دماً . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٧٥] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : **اعلم** : أني وقفت علىٰ تأليف في ترجمة الإمام أبي يزيد البسطامي رحمه الله ، فأحببت أن ألخص أحسن ما فيه ، وأذكر من كلامه ما عساه أن يصح عنه إن شاء الله تعالىٰ ، وبه التوفيق .

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ : قال أبو موسى الديبلي : سمعت أبا يزيد البسطامي قدس الله روحه يقول : رأيت رب العزة جل جلاله في المنام ، فقلت : يا ربِّ ؛ كيف الوصول إليك ؟ فقال : (اترك نفسك وتعال)[2] .

وقال خلف : قصد أبا يزيد رجلٌ من أصحاب ذي النون ، فقال له : مَن تطلب ؟ قال : أبا يزيد ، فقال : يا بني ؛ أبو يزيد يطلب أبا يزيد منذ أربعين سَنَة ، فرجع إلىٰ ذي النون وأخبره ، فغشي عليه .

---

(١) **الفرائص** : جمع فريصة ، وهي : لحمة بين الجنب والكتف ، لا تزال ترعد من الدابة ويكنىٰ به عن الخوف .
(٢) الصفوة : (٤/٧٦) .

وفي رواية أخرىٰ : قال ذو النون : إن أخي أبا يزيد فَقَدَ نفسه في حب الله تعالىٰ ، فصار يطلبها مع الطالبين . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : الذي فهمته من قول أبي يزيد ـ والعلم عند الله سبحانه وتعالىٰ ـ في قوله : (يا بني ؛ أبو يزيد يطلب أبا يزيد منذ أربعين سَنة) معناه : أنه يطلب الزيادة في عبادة الله عز وجل ومعرفته ، وألاَّ يكون له هَمٌّ سواه منذ أربعين سَنة ، وإلى الآن لم يظفر بذلك ، ولم يحصل له زيادة ، بل يرىٰ نفسه في التقصير منغمساً ، وهـٰذا حال العارفين ؛ يشهدون من أنفسهم التقصير ، ولا يرضون عن أنفسهم ولا طرفة عين ، والله سبحانه أعلم .

وقال موسى بن عيسى البسطامي : سمعت أبي يقول : قال لنا يوماً أبو يزيد : قوموا بنا ننظر إلىٰ هـٰذا الرجل الذي قد شَهَرَ نفسه بالولاية ، وكان بقُومِس[١] رجل مشهور بالزهد والورع ، قال : فمضينا معه ، فلما خرج من منزله ودخل مسجده . . رمىٰ ببزاقه نحو القبلة ، فقال أبو يزيد : قوموا بنا ننصرف من غير أن نسلم عليه ؛ فإن هـٰذا رجل ليس بمأمون علىٰ أدب من آداب الشريعة التي أدب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون مأموناً علىٰ ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين ؟!

ويقال : إن أبا يزيد سئل عن ابتداء أمره ، فقال : إن الله تعالىٰ هداني للزراعة ، فزرعت في نفسي أنواع العبادة ، ثم أرشدني للقصارة[٢] ، فلم أزل أغسل بأنواع الطهارات والمياه ، فلم أرها طهرت من الكدورات .

ثم قال : إن النساء أحسن حالة منا ، إن المرأة تصير كل شهر طاهرة ، ونحن لا نكاد نطهر في عمرنا مرة واحدة .

وقيل لأبي يزيد : بماذا نلت هـٰذه الدرجة ؟ فقال : جمعت أسباب الدنيا كلها ، فربطتها بحبل القُنوع ، ووضعتها في منجنيق الصدق ، ورميت بها في بحر الإياس ، فاسترحت .

وقيل له يوماً : بماذا نالوا ما نالوا ؟ فقال : بتضييع ما لَهُم وشهود ما لَهُ عز وجل .

وقال أبو يزيد قدس الله روحه : إن لله عز وجل عليَّ نِعماً :

---

(١) **قُومِس** : كورة كبيرة واسعة ، تشتمل علىٰ قرىٰ ومزارع ، وهي في ذيل جبال طبرستان .
(٢) **القِصارة** : حرفة القصَّار ، وهو الذي يبيض الثياب .

منها : أني رأيت نفسي متأخراً ورأيت الخلق قد سبقوني .

ومنها : أني رضيت بأن أُحرق بالنار بدل خلقه شفقة عليهم .

ومنها : أني لم أُمسِك شيئاً قط .

ومنها : أردت رحمة الله عز وجل بالناس أكثر مما أردتها بنفسي ، وبذلت جهدي في إدخال السرور على المؤمنين وإخراج الغم من قلوبهم ، وبدأت بالسلام من لقيني ، **ولو غفر الله عز وجل لي بفضله وكرمه يوم القيامة وأذن لي بالشفاعة . . لشفعت أولاً فيمن آذاني وجفاني ، ثم ثانياً فيمن برني وأكرمني .**

وأسرجوا السراج عنده في ليلة من الليالي ، فوجد ظلمة ووحشة من ضوء ذلك السراج ، فقال للقوم : فتشوا عن سبب ذلك ، فقالوا له : كنا استعرنا قارورة لنأتي بها الدهن مرة ، فأتينا بها مرتين .

وقالت أم أبي يزيد لابنها ليلة : اسقني ، فخرج في طلب الماء ، فلما رجع . . وجدها نائمة ، فأمسك الكوز في يده حتى استيقظت ، فقالت : أين الماء ؟ فقال لها : ها هو ، فأخذت الكوز من يده وقد جمد الماء الذي فيه ، وتعلق بعض الجمد بأصبعه التي علىٰ عروة الكوز ، فلما رأت ذلك . . قالت : ما هـٰذا ؟ قال لها : هـٰذا جلد أصبعي ، قلت في نفسي : إن وضعتُ الكوز ونمتُ . . فلعلكِ تريدين الماء فلا ترينه ، فأمسكته ابتغاء مرضاتِك ، فقالت له : رضي الله عنك .

وكان يقول : إنما بلغت ما بلغت برضى الأم .

وقال بعض المشايخ : قصد أبو يزيد الجامع يوم الجمعة ، وكان في الطريق وَحْلٌ ، فزلقت رجله ، فوضع أصبعه علىٰ جدار في الطريق ، فأمسك نفسه بسببه ، فلما ثبت . . تفكر في وضع أصبعه على الجدار ، وقال : إن الوقت متَّسِع ، وتفحُّصي عن صاحب الجدار ليجعلني في حِل مما تعاطيت أولىٰ ؛ فإن الصلاة لا تفوتني وفي الوقت سَعة ، فانصرف وتعرف عن صاحب الجدار ، فقيل : إنه مجوسي ، فتقدمَ إلىٰ باب داره وناداه ، فخرج إليه ، فأخبره بالقصة ، وطالبه أن يجعله في حِل من ذلك ، فقال المجوسي : وفي دِينكم هـٰذه الدِّقة ، وكل هـٰذا الاحتياط ؟! آمنت بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وآمَنَ كل من في داره ببركة ذلك الفعل .

وسئل عن الاسم الأعظم ، فقال : في قولك : (لا إلـٰه إلا هو) وأنت لا تكون هناك ،

وقال مرة أخرىٰ : (لا إلـه إلا الله) وكن أنت ثَمَّ[1] .

وسئل عن قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ فقال : هو الأول بكشف أحوال الدنيا حتىٰ لا يرغبون فيها ، والآخر بكشف أحوال الآخرة حتىٰ لا يشكون فيها ، والظاهر علىٰ قلوب أوليائه حتىٰ يعرفوه ، والباطن علىٰ قلوب أعدائه حتىٰ ينكروه .

وقيل له : إن الناس يقولون : إن شهادة أن لا إلـه إلا الله مفتاح الجنة ، فقال : صدقوا ، ولـٰكن لا يفتح المفتاح إلا مغلاق ، ومغلاق لا إلـه إلا الله أربعة أشياء : لسان بغير كذب ولا غيبة ، وقلب بغير مكر ولا خيانة ، وبطن بغير حرام ولا شبهة ، وعمل بغير هوىً ولا بدعة .

وقال أبو يزيد : إن الله عز وجل أمر العباد ونهاهم فأطاعوه ، فخلع عليهم خلعاً من رضوانه ، فاشتغلوا بالخلع عنه ، وإني لا أريد من الله سبحانه وتعالىٰ إلا الله .

وسمع أبو يزيد رجلاً يقول : الله أكبر ، فقال له : ما معنى الله أكبر ؟ فقال الرجل : أكبر من كل شيء سواه سبحانه وتعالىٰ ، فقال له أبو يزيد : إنه عز وجل ليس معه شيء فيكون أكبر منه ، فقال له الرجل : فما معنى الله أكبر ؟ فقال أبو يزيد : أكبر من أن يقاس بالناس ، أو يدخل تحت القياس ، أو تدركه الحواس .

واجتاز شقيق البلخي ببسطام حاجّاً ، فعقد المجلس في مسجد من مساجدها ، وكان الصبيان يلعبون علىٰ بابه وأبو يزيد فيهم ، فكان يجيء إلىٰ باب المسجد ويسمع كلام شقيق ثم ينصرف ، فوقع عليه بصر شقيق ، فقال : سيكون هـٰذا الصبي رجلاً من الرجال ، فصار كما قال ، رحمهما الله .

وسئل عن السُّنة والفريضة ، فقال : السُّنة ترك الدنيا ، والفريضة : عبادة المولىٰ جل جلاله ، فمن يعمل السُّنة والفريضة . . فقد كمل عمله ومعرفته ؛ لأن الكتاب كله يدل علىٰ

---

(١) جاء في هامش إحدى النسخ تعليقاً علىٰ هـٰذا الخبر : (قوله : لا تكون هناك ، يعني به ـ والله أعلم ـ : [زوال كل شيء] من نفسه فلا يرىٰ غير الله عز وجل .
وقوله : (كن أنت ثم) أي : كن عند قولك هـٰذه الكلمة حاضراً غير غافل ، وليكن ذلك من صميم قلبك باليقين الجازم مع صفاء النفس من الكدورات وزوال سوى الله تعالىٰ عن سرك .
وأما قوله : (هو) ، وفي الثاني : (الله) ، فيحتمل ـ والله أعلم ـ أنه أراد بالأول قول أرباب القلوب الواصلين الذين لا يسع في قلوبهم إلا هو سبحانه وتعالىٰ ، وأراد بالثاني : قول الخواص وهما يشتركان في الثاني .

عبادة رب العالمين جلت عظمته ، والسُّنة تدل علىٰ ترك الدنيا .

وقال أبو يزيد قدس الله روحه : إن الله عز وجل قال للكافر : آمِنْ ، وللمنافق : أخلِص ، وللعاصي : ارجع ، وللمحب : ارض ، وللعارف : أبصر .

وقال أبو يزيد : لم أزل أسوق نفسي إلى الله عز وجل وهي تبكي حتىٰ ساقتني إليه وهي تضحك .

وقال أبو يزيد : خصصتَ رجالاً وأكرمتهم فأطاعوك فيما أمرتهم ، ولم يبلغوا ذلك إلا بك ، وكأن رحمتك إياهم قبل طاعتهم لك ، جل جلالك ما أعلىٰ شأنَك وأعظمَ سلطانَك!

وقال : لا يكون العبد محباً لخالقه سبحانه وتعالىٰ حتىٰ يبذل نفسه لله عز وجل في طلب مرضاته سراً وعلانية ، يعلم الله من قلبه أنه لا يريد إلا هو .

وقال : لا يشكو قلبُ العارف ولو قطع بالمقراض ، ولا ييأس منه ألبتة ، ولا يأمن من مكرِه وإن نودي بالغفران ، ولا يدل عليه إلا به ولو مشىٰ على الماء والهواء .

وكان أبو يزيد يقول : هلاك الخلق في شيئين : في ترك الخدمة ونسيان المنة .

وصلىٰ أبو يزيد ليلة ، فأضاء البيت كأنه نهار ، فقال أبو يزيد : إن كنت شيطاناً . . فأنا أعز وأمنع جانباً من أن تطمع فيَّ ، وإن كان من عند الله عز وجل . . فإني أسأله أن يؤخره من دار الخدمة إلىٰ محل الكرامة .

وقال أبو يزيد : حَسْبُ المؤمنِ من عقله أن يعلم أن الله تعالىٰ غني عن عمله .

وقال أبو يزيد : ظاهر الصِّدِّيق وباطنه سواء ، قد اشترك الإيمان والحب في قلب الصِّدِّيق ، فكلما ازداد الإيمان . . ازداد الحب لله ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ فإذا قال ذلك . . رمىٰ قوس الدنيا بالفرقة ، وقطع حلقوم الطمع بسكين الإياس ، وألجم نفسه بلجام الخوف ، وساقها بسوط الرجاء ، ولبس قميص الصبر ، وتردىٰ برداء التصابر ، واستوىٰ عنده المنع والعطاء ، والشدة والرخاء ، والذم والثناء ، فسقط من ظاهره وباطنه التصنع ، فليس عنده بين الدانق والدينار فرق ؛ لِعلمه أنه لو بورك له في الدانق . . كان أعظم بركة من الدينار ، ويعلم أنه لو سلط عليه السِّنَّور[1] . . كان أضر عليه من الأسد ، فإذا كانت هـٰذه حالته . . قالت الجنة : اللهم ؛ اجعل هـٰذا العبد ساكني ، فكانت الجنة طالبة له

(١) السِّنَّور : الهر .

دونه ، وإذا رأته النار علىٰ هـٰذه الحالة . . علمت أن نوره يطفىء شررها ، فتعوذت النار منه ، فلو عُرج بذلك العبد أعلىٰ عليين . . لكان شكره ذلك الشكر الذي كان في أعظم البلاء ، ولو أنزله الله من أعلىٰ عليين فأسكنه الدرك الأسفل من النار . . لكان شكره ذلك الشكر الذي كان في أعلىٰ عليين .

وكان يقول : يا من باع كل شيء بلا شيء ، ويا من اشترىٰ لا شيء بكل شيء ، إن في طاعاتك من الآفات ما يشغلك عن السيئات .

ورأىٰ رجل أبا يزيد في منامه ، فقال له : عظني ، فقال له :

النـــــاس بحـــــر عميـــــق والبعـــــد منهـــــم سفينـــــة
وقـــد نصحتـــك فـــاحفـــظ لنفســـــك المسكينـــــة

وقال أبو يزيد لأمه ؛ يا أماه ؛ هل تناولتِ شيئاً من الحرام بسببي في وقت رضاعي ؟ فإني لا آمن أن يكون قد وصل إلي شيء وأنا لا أعلم ، فحجبني ذلك عن ربي عز وجل ، فقالت له أمه : لا أذكر إلا أني دخلت يوماً إلىٰ بعض جيراننا وأنت في حجري ، فأخذتُ قارورة دُهنهم ، فدهنت رأسك ولم أُعلمهم ، ويوماً آخر كحلتك بكحلهم ولم أستأذنهم ، فقال أبو يزيد : إن الله تعالىٰ يحاسب عباده علىٰ مثقال ذرة ، ثم قال : ألا تري إلىٰ قوله عز وجل : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ؟! وهـٰذا أعظم من ذرة ، فأخشىٰ أن يقطعني عن ربي عز وجل ، ثم قام وسأل عن القوم وطلب ورثتهم ، فاستحل منهم لنفسه ولأمه .

وقال أبو يزيد : ليس للعبد خير من أن يكون أبداً فقيراً ليس معه شيء ، لا التزهد ، ولا التعبد ، ولا العلم ، ولا يجيء إلا بالذلة والافتقار إليه سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو يزيد : بلغني أن الله عز وجل يقول : (مَن أتاني منقطعاً إلي . . جعلت له حياة لا موت فيها ، ومَن أتاني منقطعاً إلي . . جعلت له مُلكاً لا يزول ، ومَن أتاني منقطعاً إلي . . جعلت إرادتي في إرادته) .

وقال أبو يزيد : يقول الله تبارك وتعالىٰ : (إذا كان الغالب علىٰ عبدي الاشتغال بعبادتي وليس له هَمٌّ سواي . . جعلت لذَّتَهُ ونهمته في ذِكري ، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه) .

وكان أبو يزيد يوم الجمعة بحِذاء المنبر ، فصعد الخطيب وخطب ، فلما بلغ هـٰذه الآية : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ وسمع أبو يزيد . . طار الدم من عينيه حتىٰ ضرب المنبر .

وسئل أبو يزيد : متىٰ يبلغ الرجل حد الرجال ؟ فقال : إذا عرف عيوب نفسه . . فحينئذ يبلغ ، ثم يقربه الحق جل جلاله علىٰ قدر همته وإشرافه علىٰ عيوب نفسه الأمارة .

وجلس أبو يزيد في المسجد أربعين سَنة .

قيل : وكانت ثياب أبي يزيد للمسجد علىٰ حده ، وللبيت علىٰ حده ، وللخلاء علىٰ حده ، وكذلك نعلاه .

وقال أبو يزيد : الدنيا للعامة ، والآخرة للخاصة ، فمَن أراد أن يكون من الخاصة . . فحكمه ألاَّ يشارك العامة في دنياهم ، وإنما جعلت الدنيا مرآة للآخرة ، فمَن نظر منها إلى الآخرة . . نجا ، ومن شغل بها عن الآخرة . . هلك وأظلمت مرآته .

وصلىٰ أبو يزيد خلف إمام في بعض المساجد ، فلما كان بعد ساعة . . أخذ الإمام يسائله : من أين تأكل ؟ فقال له أبو يزيد : اصبر حتىٰ أعيد الصلاة التي صليت خلفك ؛ فإنه لا تجوز الصلاة خلف من لا يعرف الرزاق سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو يزيد : ربما أُجيلُ فكري في أشد العقوبات ، فلا أجد شيئاً أشد من الغفلة ؛ لأن الغفلة عن الله عز وجل ـ ولو طرفة عين ـ أشد من النار .

وقال أبو يزيد : منذ أربعين سَنة لم أستند إلىٰ حائط إلا حائط مسجد أو رباط ، فقيل له : لِمَ لا تستند وفي ذلك رخصة ؟ فقال : قال الله عز وجل : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، فهل ترىٰ من رخصة ؟!

وقال أبو يزيد : لم أزل أبكي حتىٰ ضحكت ، ولم أزل أضحك حتىٰ صرت لا أضحك ولا أبكي .

وقال أبو يزيد رحمه الله لرجل صلىٰ في مسجده : إن زعمت أن صلاتك مواصلة . . فهي مفاصلة ، إن تركتها . . كفرتَ ، وإن شاهدتها . . أشركتَ .

وهٰذا نظير ما قاله الشبلي رحمه الله حين قام يصلي ، فوقف طويلاً ثم صلىٰ ، فلما فرغ . . قال : يا ويلاه! إن صليت . . جحدت ، وإن لم أُصلِّ . . كفرت . وسيأتي معنىٰ هٰذا إن شاء الله عز وجل[1] .

وسئل أبو يزيد : متىٰ يكون الرجل عاملاً علىٰ معنى العبودية ؟ فقال : إذا لم تكن له

---

(١) وذلك في ترجمة حاتم الأصم ، عند كلامه على النية والإخلاص .

إرادة ، فقيل له : فكيف يكون ذلك ؟ فقال : تكون إرادته وتمنيه وشهوته تابعة لمحبة الله عز وجل ، ولا تتقدم له إرادة في شيء أبداً حتىٰ يعلم إرادة الله عز وجل ومحبته فيه .

وذُكر عند أبي يزيد الجاه والنفس والمال ، فقال : يا موسىٰ[1] ؛ إن المؤمن بلا نفس ولا مال ، ثم قرأ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ، فمن باع نفسه وماله . . فكيف يكون له نفس أو مال ؟!

وقال أبو يزيد : **مَن نظر إلى الناس بالعلم . . مَقَتَهم ، ومَن نظر إلى الناس بالحقيقة . . عذرهم .**

وقال : **مَن نظر إلى الخلق بالخلق . . أبغضهم ، ومَن نظر إلى الخلق بالخالق جل جلاله . . رحمهم .**

وهٰذا نظير قول العارفين : مَن نظر إلى الخلق بعينه . . طالت خصومته معهم ، ومَن نظر إليهم بعين الحق . . عذرهم فيما هُمْ فيه .

وقال السلمي : قال أحمد بن خضرويه : قلت لأبي يزيد : إني لا أصل إلى التوبة ، فقال أبو يزيد : العزة لله عز وجل ، وأنت تطلب العزة .

وكان يقول : ما شيء أعونُ علىٰ دينكم من تعظيم أخيك المسلم وحفظ حرمته ، ولا شيء أضرُّ بكم في دِينكم من تهاونِكم بإخوانكم من تضييع حرمتهم .

وقال : الدنيا لأهل الدنيا غرور في غرور ، والآخرة لأهل الآخرة سرور في سرور ، ومحبة الله عز وجل لأهل محبته نور علىٰ نور ، فالسرور في الدنيا سرور من غرور ، والسرور في الآخرة سرور من سرور ، والسرور من محبة الله عز وجل سرور من نور .

وقال : من اختار الدنيا على الآخرة . . غلب جهلُه علمَه ، وفضوله ذِكره ، ومعصيته طاعته ، ومن اختار الآخرة على الدنيا . . غلب علمه جهله ، وسكوته كلامه ، وفقرُه غِناه ، وهمه سروره ، ومن اختار رضا الله عز وجل على الدارين . . غلبت نفسه روحه ، وقلبه محبته ، وسرُّه قربَه ، فتصير نفسه مقيدة بقيد الخدمة ، وقلبه أسيراً بتخوُّفِ الفرقة ، وسره مستأنساً بأنس المعرفة .

---

(١) كذا في المخطوط ، ولعل السائل موسى بن عيسى البسطامي .

وسئل عن طلب العلم فقال : إنما حَسَّنَ طلبَ العلم أخبارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن يطلب به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فأما من طلبه ليزين نفسه عند الخلق . . فإنه لا يزداد إلا بعداً من الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : سئل أبو يزيد رحمه الله عن مقام التحير في المحبة ، فقال : إنَّ المحب روَّح نفسه بمراوح الصفاء ، وجلَّل نفسه بأردية الوفاء ، وتميز بمنازل التفكر في ميدان التذكر ، قائماً بين الدهشة والتحير ، إنْ شاهد الملكوت . . قصرت نفسه عليه ، وإنْ شاهد مالك الملكوت جل جلاله . . افتخرت نفسه عليه .

وقال الديبلي رحمه الله : كنا مع أبي يزيد في بعض أسفاره ، فعطفنا إلىٰ مصر في يوم جمعة ، فلما دخلنا الجامع . . وقفنا علىٰ حلقة فقيه وقد سئل عن رجل مات وخلف كذا وكذا من الورثة ، فأخذ الفقيه يصحح المسألة ، ويضرب أعداد الورثة في أصل الفريضة ، ويطلب الموافقات ، فصاح أبو يزيد : يا فقيه ؛ مسألة ، قال : سل ، قال : ما تقول في رجل مات وما لَهُ إلا الله عز وجل ؟ فنظر القوم إليه وبكوا ، فقال أبو يزيد : العبد لا يملك شيئاً ، فإذا مات . . فليس له إلا مولاه كما كان أولاً ؛ فإن آخر العبد يرجع إلىٰ أوله ؛ لأن أوله فرد ومعه شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ، فإذا كان آخره مثل أوله . . لم ير مع الله سوى الله ، ولم يساكن شيئاً دون الله عز وجل ، شاهده قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ثم بكىٰ ساعة ، وقال : يا قوم ؛ إن لله عز وجل عباداً لو بدت لهم الجنة بزينتها مع احتجابهم عن رؤية الله عز وجل . . لضجوا منها ؛ لأنهم ما خدموه لجنَّة ولا نار ، وإنما خدموه محبة وإرادة ، وهو سبحانه أهَّلَهُم لها ، وبدأهم بالمحبة فقال تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ .

وقال الديبلي : قلت لأبي يزيد رحمه الله : بِمَ أستعين علىٰ عبادة الله عز وجل ؟ فقال : بالله ، قلت : فما علامة الصدق ؟ قال : طاعة الله عز وجل ، واعلم : أنه لا خسران أعظم ممن خسر لقاء الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو يزيد : بقيت عشرين سَنة أكابد المجاهدات وأكافح المراقبات ، ولا أجسر أن ألبس المرقعة ، ولا أن أتظاهر بالطريقة ، ثم بعد ذلك تواقحت ولبست .

وقال أبو نوح رحمه الله : قصدت بسطام لأسلم علىٰ أبي يزيد وأسأله عن المحبة ، فلقيني بدامغان رجل صوفي ، فقال : أنت أبو نوح ؟ قلت : نعم ، قال : الشيخ أبو يزيد يقول لك : متىٰ ما وجدت قلبك مستريحاً ودمعك جامداً وعقلك حاضراً . . فاعلم أنك بعيد

من المحبة ، فعلمت أني بعيد من المحبة ورجعت .

وقال أبو العباس : إن أبا يزيد أقام أياماً لم يتكلم مع مخلوق ، فلما خرج إلىٰ حال بسطه . . سئل عن ذلك ، فقال : تذكرت ابتداء حالي وتقلبي في أنواع المراقبات والمجاهدات ، وتفكرت اليوم في انتهاء حالي وتقلبي في أنواع البطالات والغفلات ، فعلمت أني كنت مراداً فصرت مريداً ؛ فإن من أراده . . وَفَّقه ، ومن أحبه . . قرَّبه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبد خيراً . . حبب إليه طاعته ، وبغض إليه معاصيه »[1] .

قال : وصحبته سنين ، فما رأيته نام مضطجعاً إلا يسيراً ، وطالما صلى الصبح بوضوء عشاء الآخرة ، غير أنه يتحسر علىٰ ما مضىٰ من اجتهاده رحمه الله .

وسئل أبو يزيد عن أسباب الوصول فقال : امتثال حقائق المأمورات ، وحفظ الصدق مع الإخلاص في جميع الحالات ؛ فإن الفائز في محشر الساعة من قام بأوامره سبحانه وتعالىٰ ، وتلقاها بالسمع والطاعة :

بالله يا سطوات هجرهْ   لا تعجلي بحلول ضُرِّهْ
لو قال لي مُتْ طاعة   ما عشت بعد سماع أمرهْ

وقال أبو يزيد : المعارف ثلاث : معرفة العوام ، ومعرفة الخواص ، ومعرفة خواص الخواص .

فمعرفة العوام : معرفة العبودية ، ومعرفة الربوبية ، ومعرفة الطاعة ، ومعرفة المعصية ، ومعرفة العدو والنفس .

ومعرفة الخواص : معرفة الإجلال والعظمة ، ومعرفة الإحسان والمنة ، ومعرفة التوفيق .

وأما معرفة خواص الخواص : فمعرفة الأُنس والمناجاة ، ومعرفة اللطف والتلطف ، ثم معرفة القلب ، ثم معرفة السر .

وقال أبو يزيد : خلق الله عز وجل الخلق لإظهار قدرته ، ورزقهم لإظهار جوده ،

---

(١) أخرج الحاكم (١/ ٤٩٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبده خيراً . . استعمله » قيل : كيف يستعمله ؟ قال : « يوفقه لعمل صالح قبل الموت » .

وأماتهم لإظهار قهره ، ويحييهم لإظهار قدرته وعظمته ، ويحاسبهم لإظهار عدله ، ويدخل المؤمنين الجنة لإظهار رحمته .

وقال أبو يزيد : مُحالٌ أن تعرفه ثم لا تحبه .

وقال : مَن لزم العبودية . . لزمه اثنان : يأخذه الخوف من ذنبه ، ويفارقه العُجب من عمله .

وقال : حاصلهم بعد الغاية . . رجوعهم إلىٰ شيء واحد ، وهو طلب العفو .

وقال أبو موسىٰ : أهدىٰ ذو النون المصري إلىٰ أبي يزيد مصلىٰ ، فلم يقبله ، وقال : إنما أريد وسادة .

وكان أبو يزيد إذا ذكر الله عز وجل . . يبول دماً .

وسأل رجل أبا يزيد عن التوحيد فقال : هو اليقين ، فقال له : فما اليقين ؟ قال : معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله عز وجل لا شريك له في شيء ، فإذا عرفت ذلك وتيقنته . . فقد وحَّدته ؛ ومعناه : أنك ترىٰ أن الله سبحانه وتعالىٰ واحد لا شريك له .

وسئل أبو يزيد : ما علامة العارف ؟ فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقال أبو يزيد قدس الله روحه : الزاهد يقول : كيف أصنع ؟ والعارف يقول : كيف يُصنَع [بي] ؟ وأمل الزاهد في الدنيا الكرامات ، وفي الآخرة المقامات ، وأمل العارف في الدنيا بقاء الإيمان معه ، وفي الآخرة العفو وما تأمَّله .

وقال : عملت في المجاهدة ثلاثين سَنة ، فما وجدت شيئاً أشد عليَّ من العلم ، ولولا اختلاف العلماء . . لتعبت ، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد .

وقال : لا يعرف نفسه من صحبته شهوته .

وقال : إن لله عز وجل عباداً لو حجبوا عنه طرفة عين ثم أعطوا الجنان . . ما كان لهم إليها حاجة ، فكيف يركنون إلى الدنيا وزينتها ؟!

وقال : عرفت الله عز وجل بالله سبحانه وتعالىٰ ، وعرفت ما دون الله بنور الله .

وقال : حدثتني أمي أنها لما كانت حاملة بي إذا قدم إليها الطعام : فإن كان من حلال . . امتدت يدها إليه ، وإن كان من حرام . . لم تمتد يدها إليه .

وقال محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما وتوفاه على الإيمان ـ : كانت العناية من الأزل .

وقال علي بن محمد : رأىٰ أبو يزيد تفاحاً أحمر مليحاً ، فقال : هـٰذا تفاح لطيف ، قال : فقيل له في منامه : يا أبا يزيد ؛ أما استحييت أنْ تضع اسمي علىٰ ثمرة ، قال : فنسي اسم الله الأعظم أربعين يوماً ، ثم قال : إلـٰهي ؛ نذرت ألاَّ آكل من ثمار بسطام ما عشت .

وقال أبو يزيد قدس الله روحه لأصحابه : قمت البارحة وأنا أريد أن أذكر الله تعالىٰ ، فلم أقدر علىٰ ذلك ؛ لأني ذكرت وحشة كلمة جرت علىٰ لساني في صباي ، فقلت : كيف أذكره بلسان جرىٰ عليه ما جرىٰ ، ونطق بما نطق ؟!

وقال أبو يزيد : حسبك من التوكل ألاَّ ترىٰ لنفسك ناصراً غيره ، ولا لرزقك رازقاً غيره ، ولا لعملك شاهداً غيره .

وقال أبو يزيد : الخلق يظنون أن الطريق أشهر من الشمس ، وأبْيَنُ منها ، وإنما سؤالي منه سبحانه وتعالىٰ أن يفتح عليَّ من الطريق إليه جل جلاله ولو بمقدار رأس إبرة .

وقيل لأبي يزيد : ما أعظمُ آيات العارف ؟ قال : أن تراه يؤاكلك ، ويشاربك ، ويمازحك ، ويبايعك ، ويشاريك ، وقلبه معلق بالله سبحانه وتعالىٰ ليس له هَمٌّ سواه .

وقال أبو يزيد : النفس تنظر إلى الدنيا ، والروح تنظر إلى العقبىٰ ، والمعرفة تنظر إلى الله عز وجل ، فمَن غلبت نفسه عليه . . فهو من الهالكين ، ومن غلبت روحه عليه . . فهو من المجتهدين ، ومن غلبت معرفته عليه . . فهو من المتقين . انتهىٰ ، والله سبحانه أعلم .

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو يزيد رحمه الله يقول : كل الناس يفِرون من الحساب وأنا أتمناه ؛ لعله سبحانه وتعالىٰ يقول لي فيما بين ذلك : يا عبدي ، فأقول : لبيك ، فقوله لي : (عبدي) أحب إلي من الدنيا وما فيها ، ثم بعد ذلك يفعل بي ما شاء .

وسأل رجل أبا يزيد أن يدله علىٰ عمل يتقرب به إلى الله عز وجل ، فقال : أحبِبْ أولياءه ليحبوك ؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ ينظر في قلوب أوليائه ، فلعله عز وجل ينظر إلى اسمك في قلب وليِّه فيغفر لك .

وكان يعظ نفسه ويقول لنفسه : يا أمارةً بالسوء ؛ إن المرأة إذا حاضت طَهُرت بعد ثلاثة أيام وأكثره عشرة ، وأنت ـ يا نفس ـ قاعدة منذ ثلاثين سَنة بعدُ ما طهُرْتِ ، فمتىٰ تطهرين ؟! إن وقوفك بين يدي الجبار جل جلاله لا بد منه ، فاجتهدي أن تكوني طاهرة .

وقال : عرج قلبي إلى السماء ، فطاف ودار ورجع ، فقلت : بأي شيء جئتَ معك ؟ فقال : بالمحبة والرضا .

وقال أحمد بن خضرويه : رأيت رب العزة سبحانه وتعالىٰ في المنام ، فقال لي : (يا أحمد ؛ كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد ؛ فإنه يطلبني) .

توفي أبو يزيد سَنة إحدىٰ وستين ومئتين ، وله ثلاث وسبعون سنة رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٧٦ـ٧٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أحمد بن الخضر
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : أحمد بن الخضر[1] شيخ خراسان في وقته ، له الفتوَّة المشهورة ، والتجريد الكبير ، كانت زوجته ـ المكتنية بأم علي ـ من بنات الأكابر ، حلَّلَتْ زوجها أحمد من صداقها علىٰ أن يزور بها أبا يزيد البسطامي ، فحملها إلىٰ أبي يزيد ، فدخلت إليه ، وقعدت بين يديه مسفرة عن وجهها ، فقال لها زوجها أحمد بعد خروجها من عند أبي يزيد : رأيت منك عجباً ، أسفرتِ عن وجهك بين يدي أبي يزيد! فقالت : لأني لما نظرت إليه . . فقدتُ حظوظ نفسي ، وكلما نظرت إليك . . رجعَتْ إلي حظوظ نفسي ، فلما خرج . . قال أحمد لأبي يزيد : أوصني ، قال له : تعلم الفتوَّة من زوجتك[2] .

وقال أحمد : مَن أحب أن يكون مع الله عز وجل في جميع الأحوال . . فليلزم الصدق ؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ مع الصادقين .

وقال محمد بن حامد : كنت جالساً عند أحمد بن خضرويه وهو في النزع ، وكان قد أتىٰ عليه خمس وتسعون سَنة ، فسئل عن مسألة ، فدمعت عيناه ، وقال : يا بني ؛ باب كنت أدقُّه خمساً وتسعين سَنة ، هو ذا يُفتح لي الساعة ، لا أدري أيفتح لي بالسعادة أم بالشقاوة ؟ أنَّىٰ لي أوان الجواب ؟

وكان قد ركبه من الدَّين سبع مئة دينار ، وحضر غرماؤه ، فنظر إليهم ، فقال : اللهم ؛ إنك جعلت الرهون وثيقة لأرباب الأموال ، وأنت تأخذ عنهم وثيقتهم ، فأدِّ عنِّي بكرمك يا أرحم الراحمين ، فدق داقٌّ الباب ، وقال : هـٰذه دار أحمد بن خضرويه ؟ فقالوا : نعم ،

---

(١) المعروف بابن خضرويه .

(٢) جاء في هامش نسخة : (وقع مثل هـٰذا لما دخل الشبلي على الجنيد وامرأته مكشوفة الرأس ، فأرادت أن تغطي رأسها ، فقال لها الجنيد : لا عليك ؛ فإنه ليس هو هناك) .

فقال : أين غرماؤه ؟ قال : فخرجوا ، فقضىٰ عنه دَينه ، ثم بعد قضاء الدَّين خرجت روحه رحمه الله . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/٤٢] .

وقال أبو الفرج : توفي أحمد سنة أربعين ومئتين رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١١٠] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال أحمد بن خضرويه : في الحرية . . تمام العبودية ، وفي تحقيق العبودية . . تمام الحرية .

وقال : مَن خدم الفقراء . . أُكرم بثلاثة أشياء : بالتواضع ، وحُسن الأدب ، وسخاء النفس .

وقال : القلوب أوعية ، فإذا امتلأت من الحق . . ظهرت زيادة أنوارها على الجوارح ، وإذا امتلأت من الباطل . . ظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح .[انتهىٰ] .

وقال في « المختار » : استقرض أبو حامد أحمد بن الخضر رحمه الله من رجل مئة ألف درهم ، فقال له المقرض : أليس أنتم الزهاد في الدنيا ؟! فما تصنع بهـٰذه الدراهم ؟! فقال : أشتري بها لقمة وأضعها في فم مؤمن ، ولا أجسر أن أسأل لذلك ثواباً ، فقال له : ولِمَ ؟ قال : لأن الدنيا كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وما مئة ألف درهم من الدنيا في جناح بعوضة وما قدرها ؟!

وقال أبو حامد أحمد : الصبر زاد المضطرين ، والرضا درجة العارفين ، فمن صبر علىٰ صبره . . فهو من الصابرين ، لا من صبر وشكا .

وقال : بلغني أنه استأذن بعض الأغنياء علىٰ بعض الزهاد ، فأذن له ، فرآه يفطر في رمضان على الخبز اليابس والملح ، فعاد إلىٰ منزله ، وبعث إليه ألف دينار ، فردها إليه وقال : هـٰذا جزاء مَن أفشىٰ سره إلىٰ مثلك . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي رحمه الله : حقيقة المحبة المعرفة له سبحانه وتعالىٰ بالقلب ، والذكر له باللسان مع الحضور والاحترام ورفع الهمة عن كل شيء سواه ؛ فإن المَغْبُون من رضي بسواه سبحانه وتعالىٰ .

وكان يقول : لا نوم أثقَل من نوم الغفلة ، ولا رِقَّ أملَك من رِقِّ الشهوة ، ولا غبن أشد من رضى العبد بغير مولاه سبحانه وتعالىٰ .

وقال له رجل : أوصني ، فقال : أمِتْ نفسك بالمجاهدة حتىٰ تحييها بالمشاهدة ، والله أعلم . [انتهىٰ] .

وقال القشيري : أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي من كبار مشايخ خراسان ، صحب أبا تراب النخشبي ، وزار أبا حفص ، وخرج إلىٰ بسطام في زيارة أبي يزيد البسطامي ، وكان كبيراً في الفتوَّة .

وقال أبو حفص : ما رأيت أحداً أكبر همةً ولا أصدق حالاً من أحمد بن خضرويه .

وكان أبو يزيد يقول : أحمد أستاذنا . [انتهىٰ « الرسالة القشيرية » ٢٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق إبراهيم الهروي
المعروف ببَسْتَنْبه
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : إبراهيم بن بستنبه صحب إبراهيم بن أدهم ، وهو من أقران أبي يزيد ، وهو مِن المذكورين بالتوكل والتجريد ، توفي بقزوين ، وهو من أهل هراة ، وكانوا يعظمونه ، فحج متجرداً ، فقيل : إنه كان من دعائه في تلك الحجة أن قال : اللهم ؛ اقطع رزقي عن أموال أهل هراة ، وزهِّدهم فِيَّ ، فكان بعد ذلك تأتي عليه الأيام الكثيرة لا يَطعَم فيها شيئاً ، فإذا مر بسوق هراة . . قالوا : الفاعل ينفق في كل يوم وليلة كذا وكذا درهماً .

وقال إبراهيم بن شيبان : بقي إبراهيم بن بستنبه في البادية ما أكل ولا شرب ، وما اشتهىٰ شيئاً أياماً ، قال : فعارضتني نفسي أن لي عند الله عز وجل حالاً ، فلم أشعر [إلا] أن كلمني رجل عن يميني ، فقال : يا إبراهيم ؛ ترائي الله عز وجل في سركَ ؟! فنظرتُ إليه فقلت له : قد كان ذلك ، فقال : أتدري كم لي هـٰهنا لم آكل ولم أشرب ولم أشته شيئاً وأنا زَمِن مطروح ؟ فقلت : الله تعالىٰ أعلم ، فقال : ثمانين يوماً ، وإنما أستحيي من الله عز وجل أن يقع لي خاطرك ، ولو أقسمت على الله عز وجل أن يجعل هـٰذا الشجر ذهباً . . لجعله ، فكانت بركة رؤيته تنبيهاً لي ورجوعاً إلىٰ حالي الأول .

وقال إبراهيم : مَن أراد ألاَّ يحجب دعاؤه . . فليتعاهد من نفسه خمسة أشياء :

[الأول] : أن يكون أكله غلبة ؛ فلا يأكل إلا ما لا بد له منه .

و[الثاني] : أن يكون لباسه غلبة ؛ فلا يلبس إلا ما لا بد منه .

و[الثالث] : نومه غلبة ؛ فلا ينام إلا ما لا بد منه .

و[الرابع] : كلامه غلبة ؛ فلا يتكلم إلا ما لا بد منه .

والخامس : أن يكون متضرعاً حافظاً لأوامره سبحانه وتعالىٰ ، دائم المحافظة لأعضائه كلها .

قال : وطريق الجنة ثلاثة أشياء :

[الأول] : أن يُسكِّن النفس بموعود الله سبحانه وتعالىٰ .

و[الثاني] : أن يرضىٰ بقضاء الله عز وجل .

والثالث : إخلاص العمل في أعماله كلها لله عز وجل .

ومَن أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف . . فليختر سبعاً علىٰ سبع : يختار الفقر على الغنىٰ ، والجوع على الشبع ، والدون على المرتفع ، والذل على العز ، والتواضع على الكبر ، والحزن على الفرح ، والموت على الحياة .

وقال : كل من أصاب هـٰذه الثلاث . . فقد أصاب الشرف في الدنيا والآخرة :

أولها : فتح القلب ـ يعني : يفتح الله عز وجل قلبَه ـ فيجعله مأوى الذِّكر والمناجاة .

والثاني : غنيمة البر ، فيغتنم كل بر يرزقه الله عز وجل ويرىٰ أنه غنيمة له ، فيقبله بالمنة ، ويحفظه بالخوف ، ويتممه بالخشية ، ويسلمه بالإخلاص ، ويحفظه بالصبر .

والثالث : يستقيم علىٰ طاعة الله عز وجل حتىٰ يرزقه الله عز وجل الظفر بكل عدو له . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/٤٣ـ٤٤] . رضي الله عنه وأرضاه .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

داوود البَلْخي
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : صحبت رجلاً فيما بين الكوفة ومكة ، فإذا صلى العشاء . . صلىٰ ركعتين تجوَّز فيهما ، ثم يتكلم فيما بينه وبين نفسه بشيء ؛ فإذا علىٰ يمينه جفنة ثريد وكوز ماء ، فيأكل ويطعمني ، فذكرت ذلك لبعض المشايخ رحمهم الله ممن له كرامات ، فقال لي : يا بني ؛ ذاك أخي داوود البلخي ، ووصف من حاله ما أبكىٰ مَن حوله .

ومسكنه من وراء نهر بَلْخ ، بقرية يقال لها : الصادر ، تفتخر علىٰ تلك البقاع بسَكَن داوود فيها ، ثم قال لي : يا بني ؛ ماذا علَّمك وقال لك ؟ قلت : علمني اسم الله الأعظم ، فقال الشيخ : وما هو ؟ فقلت له : إنه لَكبير في قلبي أن ينطق به لساني ؛ فإني سألت الله عز وجل به مرة ، وإذا رجل آخذ بحجزتي ، فقال لي : سل تعطه ، فراعني ذلك ، وفزعت منه فزعاً شديداً ، فقال : لا بأس عليك ولا روع ، أنا أخوك الخضر ، ثم قال : إن أخي داوود علمك اسم الله الأعظم ، والله تعالىٰ يثبت به قلبك ، ويقوي به ضعفك ، ويؤنس به وحشتك ، ويؤمن به روعتك ، ويجدد به رغبتك ويقينك(١) .

إن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الرضا عن الله عز وجل لباساً ، وحبه دثاراً ، وإيثار مرضاته وابتغاء وجهه الكريم شعاراً ، فأعطاهم سبحانه وتعالىٰ من فضله ، والله ذو الفضل العظيم . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٤٤ـ٤٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) في نسخة : (ويعينك) .

ومنهم الإمام :

أبو تراب النخشبي
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال أبو عبد الله محمد بن أحمد الكسائي المقري : كنت جالساً عند أبي بكر ابن أبي عاصم وعنده قوم ، فقال رجل : أيها القاضي ؛ بلغنا أن ثلاثة نفر كانوا بالبادية يقلِّبون الرمل ، فقال أحدهم : اللهم ؛ إنك قادر علىٰ أن تطعمنا خبيصاً علىٰ لون هـٰذا الرمل ، قال : فجاءهم في الوقت أعرابي بيده طبق ، فسلم عليهم ، ووضع بين أيديهم طبقاً عليه خبيص حار علىٰ لون ذلك الرمل ، فقال ابن أبي عاصم : قد كان ذاك ، قال أبو عبد الله : وكان الثلاثة : عثمان بن صخر الزاهد أستاذ أبي تراب ، وأبو تراب(١) ، وأحمد بن عمرو ابن أبي عاصم ، وكان هو الذي دعا .

وكان أبو تراب رحمه الله إذا رأىٰ ما يكره من أصحابه من فترتهم في الاجتهاد . . يجدد فيما بينه وبين الله عز وجل توبة ، ويقول : بشؤمي دُفعوا إلىٰ ما دفعوا ؛ لأن الله تعالىٰ قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

وكان يقول لأصحابه : من لبس منكم مرقعة . . فقد سأل ، ومن قعد في خانقاه(٢) أو مسجد . . فقد سأل ، ومن قرأ القرآن في مصحف ؛ كيما يُسمِع الناس . . فقد سأل .

وروىٰ أبو تراب بإسناده عن وهب بن منبه قال : ثلاث مِن العلم : ورع يحجز عن معاصي الله عز وجل ، وخلق يدارىٰ به الناس ، وحلم يرد به جهل الجاهل .

وثلاث من البر : سخاوة النفس ، والصبر على الأذىٰ ، وطيب الكلام .

وثلاث من مناقب الإيمان : الاستعداد للموت ، والرضا بالكفاف ، والتفويض إلى الله عز وجل في جميع الحالات .

---

(١) أبو تراب النخشبي : عسكر بن الحُصَيْن ، والنخْشبي : نسبة إلىٰ نخشب من نواحي بلخ .
(٢) **الخانقاه** : رباط الصوفية .

وقال أبو عبد الله ابن الجلاء : لقيت ست مئة شيخ ما رأيت فيهم مثل أربعة ، أولهم : أبو تراب النخشبي .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال أبو تراب رحمه الله : ما تمنت عليَّ نفسي قط إلا مرة ، تمنت علي خبزاً وبيضاً وأنا في سفر ، فعدلت عن الطريق إلىٰ قرية ، فلما دخلتها . . وثب إلي رجل وتعلق بي ، وقال : إن هـٰذا كان مع اللصوص ، فبطحوني وضربوني سبعين جلدة ، فوقف علينا رجل ، فصرخ ، وقال : هـٰذا أبو تراب ، فأقاموني واعتذروا إلي ، وأدخلني الرجل منزله ، وقدَّم إلي خبزاً وبيضاً ، فقلت : كُلْ بعد سبعين جلدة .

وكان أبو تراب يقول : بيني وبين الله عز وجل عهد ألاَّ أمد يدي إلىٰ حرام إلا قصرت يدي عنه .

وقال : لا أعلم شيئاً أضر بالمريدين من أسفارهم الباطلة ؛ لأنهم يسافرون علىٰ متابعة قلوبهم ، وما فسد من فسد إلا بمتابعة هواه .

وقال ابن الفرحي[١] : رأيت حول أبي تراب من أصحابه مئة وعشرين ركوة[٢] قعوداً حول الأساطين[٣] ، ما مات أحد منهم علىٰ الفقر إلا ابن الجلاء وأبو عبيد البسري . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٤٥ـ٤٨] .

وقال في « المختار » : قال أبو تراب : إن الله تعالىٰ يُنطِق العلماء في كل زمان بما يشاكل أعمال أهل ذلك الزمان .

وقال محمد بن يوسف البنا : كان أبو تراب صاحب كرامات ، سافرت معه سَنة ، وكان في صحبته أربعون نفساً ، فأصابتنا فاقة في بعض الأيام ، فعدل أبو تراب عن الطريق ، وجاء بعذق موز ، فناولَنا ، فأكلناه .

وكان أبو تراب رحمه الله يقول : إذا تواترت علىٰ أحدكم النعم . . فليبكِ علىٰ نفسه ؛ فإنه قد سُلك به غير سبيل الصالحين ؛ لأن سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) في نسخة : (ابن الفرجي) .

(٢) **الركوة** : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء ، والمقصود هنا : أصحاب الرُّكىٰ ، والله أعلم .

(٣) **الأساطين** : جمع أسطوانة ، وهي : السارية .

« إنَّ أشد الناس بلاء . . النبيون ، ثم الأمثل فالأمثل »[1] ، يُبتلى المرء علىٰ حَسَب دِينه ، فإن كان في دِينه صلابة . . شُدد عليه .

وقال أبو تراب : عرض عليَّ طعام ، فامتنعت من أكله ، فابتُليت بالجوع أربعة عشر يوماً ، فعلمت أني عوقبت ، فتبت .

وقال أبو تراب : دخلت البادية ومعي ثلاث مئة تلميذ على التوكل ، فلما صرت في بعض الطريق . . أقام الله عز وجل لنا بالكفاية حتى انتهيت إلىٰ فيد[2] ، فعرفت نفسي بحسن الكلاءة ، فبمجرد وقوع هـٰذا الخاطر وقع المنع ، وضعف أصحابي عن المشي ، فالتجأت إلى الله عز وجل ، فهتف بي هاتف : يا أبا تراب ؛ المنع إنما وقع بسبب ورود الخاطر الذي خطر لك ، ألم تر إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام حيث قال : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ ، فلما ادَّعىٰ مُلْكاً ورأىٰ نفسه . . قال له الحق جل جلاله : ﴿ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ، فلما ألقاها . . قلب الله العصا حية ، فلجأ موسىٰ عليه الصلاة والسلام إلى الله عز وجل وهرب ، فقيل له : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ ، فقال له أبو تراب : جزاك الله خيراً ، لقد بيَّنت لي ، أنشدك الله ، مَن أنت ؟ قال : أنا الخضر الموكل بأولياء الله عز وجل ، أرُدُّ قلوبهم إذا شردت عنه سبحانه وتعالىٰ ، يا أبا تراب ؛ التلف في أول قدم ، والنجاة في آخر قدم ، قال أبو تراب : فأخذني الاستقلال من وقتي ، وحمل أصحابي ، فلا أدري أكنت سائراً ، أم طائراً ؟ انتهىٰ .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أبو عبد الله ابن الجلاء : دخل أبو تراب مكة ، فرأيته طيب النفس ، فقلت : أين أكلت أيها الأستاذ ؟ فقال : جئتَ بفضولك ، أكلت أكلة بالبصرة ، وأكلة بالنباج[3] ، وأكلة هـٰهنا .

وقال أبو عمرو الإصطخري : رأيت أبا تراب ميتاً بالبادية منتصباً لا يمسكه شيء ، فلما رأيت ذلك . . قلت : أشهد أن الله علىٰ كل شيء قدير .

زاد في رواية : عن إبراهيم الخواص قال : مات أبو تراب بين مكة والمدينة ، فنهشَته السباع .

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ١٠٠) ، وأخرجه بنحوه الإمام أحمد (٦/ ٣٦٩) .

(٢) فيد : جاء شرحها في هامش نسخة : (وفَيد : منزلة من منازل العراق) .

(٣) النِّباج : منزلة لحجاج البصرة بين مكة والبصرة ، بينه وبين البصرة عشرة مراحل ، والمرحلة : مسيرة يوم .

وقال رجل لأبي تراب : ألك حاجة ؟ فقال : يوم يكون لي إليك حاجة وإلىٰ أمثالك. . لا يكون لي إلى الله عز وجل حاجة .

وقال أبو تراب : حقيقة الغنىٰ أن تستغني عمن هو مثلك ، وحقيقة الفقر أن تفتقر إلىٰ من هو مثلك ، وإذا صدق العبد في العمل. . وجد حلاوته قبل أن يعمله ، وإذا أخلص فيه. . وجد حلاوته قبل مباشرة العمل .

وقال : مَن شغل مشغولاً بالله عز وجل. . أدركه المقت من ساعته . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/٤٩_٥٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو علي ابن خيران : مَرَّ أبو تراب بمُزيِّن ، فقال له : احلق رأسي لله عز وجل ، فقال : نعم ، فقال له : اجلس ، فبينما هو يحلق رأسه ؛ إذ مر به أمير من أهل بلده ، فقال لبعض حاشيته : أليس هـٰذا أبو تراب ؟ فقالوا : بلىٰ ، فقال لهم : أي شيء معكم من الدنانير ؟ فقال رجل من حاشيته : معي خريطة فيها ألف دينار ، فقال : إذا قام. . فأعطه إياها ، واعتذر إليه ، وقل له : لم يكن معنا غير هـٰذا ، فجاء الغلام إليه وقال له : إن الأمير يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : ما حضر معنا غير هـٰذه الدنانير ، فقال : ادفعها إلى المُزيِّن ، فقال المُزيِّن : يا شيخ ؛ أما تستحي ، تقول : احلق رأسي لله تعالىٰ ، ثم تقول لي : خذ هـٰذه ، أيش أعمل بها ؟! فقال : خذها ، فقال : لا والله ؛ ولو أنها ألف دينار. . ما أخذتها ، فقال الغلام : إنها ألف دينار ، فقال : لا حاجة لي بها ؛ فإني إنما حلقت رأسه لوجه الله عز وجل ، فقال أبو تراب للغلام : امض إلىٰ مولاك ، وقل له : إن المُزيِّن ما أخذها ، وقال : إنه لا يقبلها ، ونحن لا حاجة لنا بها . رحمهم الله .

أسند أبو تراب عن جماعة ، منهم : نعيم بن حماد ، وغيره .

وتوفي سنة خمس وأربعين ومئتين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١١٦_١١٧] .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : حكي أن أبا تراب النخشبي كان معجباً ببعض المريدين ، فكان يداريه ويقوم بمصالحه ، والمريد مشغول بعبادته ومواجدته ، وكان من أرباب البصائر العارفين ، فقال له أبو تراب يوماً : لو رأيت أبا يزيد ؟ فقال له المريد : إني عنه مشغول ، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله : لو رأيت أبا يزيد. . هاج وَجْدُ المريد ، وقال له : ما أصنع بأبي يزيد وإني لا أزال مشاهداً لله عز وجل ؟! قال أبو تراب : فهاج طبعي ، ولم أملك نفسي ، فقلت : إنك لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة. . ازدادت بصيرتك في

مشاهدة الحق جل جلاله ؛ لأن مشاهدتك إنما تظهر لك علىٰ مقدارك ، وأما إذا رأيت أبا يزيد . . فمشاهدتك للحق جل جلاله تظهر لك علىٰ مقداره ، فعرف حقيقة ما قلت ، فقال : احملني إليه .

قال : فذكر قصة قال في آخرها : فوقفنا علىٰ تل ننتظره ليخرج علينا من الغيضة[1] ، وكان يأوي غيضة فيها سباع ، قال : فمر بنا وقد قلب فروة علىٰ ظهره ، فقلت للفتىٰ : هـٰذا أبو يزيد ، فانظر إليه ، فلما نظر إليه الفتىٰ . . صعق ، فحرَّكته ، فإذا هو ميت ، فتعاونَّا علىٰ تجهيزه ودفنه ، ثم قلت لأبي يزيد : يا سيدي ؛ نظرة إليك قتلته ، قال : لا ، ولـٰكن صاحبَك كان صادقاً ، واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بالوصف ، فلما رآنا . . انكشف له سر قلبه ، فضاق عن حمله ؛ لأنه في مقام الضعفاء المريدين ، فلم يحتمل ذلك ، فقتله ذلك . أو كما قال . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/٣٥٦] .

وقال الإمام محمد ابن الإمام أبي بكر الرازي ـ قدس الله روحه ـ : الشاهد في اصطلاح القوم ما كان حاضراً في قلب الإنسان وتغلب عليه ذِكره ، حتىٰ كأنه يراه ويبصره ، فإن كان الغالب علىٰ قلبه العلم . . فهو شاهد العلم ، وإن كان الغالب علىٰ قلبه الوجْد . . فهو شاهد الوجْد ، وإن كان الغالب علىٰ قلبه الحق . . فهو شاهد الحق سبحانه وتعالىٰ ، وكل ما غلب عليك ذِكره . . فهو شاهدك .

وسئل الشبلي رضي الله عنه عن المشاهدة فقال : مِن أين لنا مشاهدة الحق جل جلاله ؟ إنما لنا شاهدُ الحقِّ سبحانه وتعالىٰ ، أراد بذلك ذِكر الحق جل جلاله المستولي علىٰ قلبه ، الغالب عليه .

وكان أبو تراب يقول : ليس شيء أضرَّ على المريدين من أسفارهم علىٰ متابعة هواهم ، وما فسد مَن فسد مِن المريدين إلا بالأسفار الباطلة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

وقيل لأبي تراب ـ وقد أخذ في طريق البادية ـ : لا بد من قوت ، فقال : لا بد ممن لا بد منه .

وكان يقول : أشرف القلوب . . قلب حَيِيَ بنور الفهم عن الله عز وجل .

وقال : الفقير قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث نزل .

---

(١) **الغيضة** : الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتف .

وهٰذا نظير قول الإمام أبي سليمان الداراني رحمه الله حيث قال : ليكن أكلك ما حضر ، ولبسك ما ستر ، ولن تنال المراد إلا بالانفراد ، والخلق أكثرهم حجاب .

وقال أبو تراب : إذا صدق العبد في العمل . . وجد حلاوته قبل أن يعمله .

وقال : احفظ همَّكَ ؛ فإنه مقدمة الأشياء ، فمَن صح له همُّهُ . . صح له ما بعد ذلك من أفعاله وأحواله إن شاء الله تعالىٰ . [انتهىٰ] والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : في حفظي : أن أبا تراب قصد زيارة الأستاذ أبي حفص النيسابوري الحداد رحمه الله ، فلما وقف علىٰ بابه . . استأذن ليدخل ، فلم يأذن له ، قال أبو تراب : فهممت أن أحفر حفيرة عند بابه وأجلس هناك ، قال : فما استتم هٰذا الخاطر في ضميري إلا وقد خرج أبو حفص ، وفتح لي الباب ، وقال : ادخل . [انتهىٰ] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

مُحتوى الكتاب

أبو عبد الرحمن طاووس بن كيسان رضي الله عنه ٥

من مناقبه وثناء الناس عليه ٥

من كلامه رضي الله عنه وأخباره ٥

فائدة جليلة ٦

التوراة والإنجيل والفرقان في كلمة واحدة ٧

يعظ سليمان بن عبد الملك فيبكي ٧

يحدث سليمان بن عبد الملك ٨

من أحاديثه المسندة ٩

كيف كان دخول العلماء على السلاطين وحكاية لطاووس رضي الله عنه ١٠

كلام للإمام الغزالي في سيرة العلماء في الأمر بالمعروف ١١

محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب رضي الله عنه ١٢

من مناقبه وثناء العلماء عليه ١٢

لا يخاف في الله لومة لائم ١٣

أبو بكر أيوب السختياني رضي الله عنه ١٤

من مناقبه وثناء العلماء عليه ١٤

ذكر جماعة ممن روى عنهم أيوب ورووا عنه ١٧

أثبتُ أصحاب نافع ١٨

أبو عبد الله وهب بن منبِّه رضي الله عنه ٢٠

كلامه رضي الله عنه ومعرفته بالكتب المنزلة ٢٠

خلاصة نيفٍ وتسعين من كتب الله عز وجل ٢٠

كلام نفيس في الرزق ٢٠

كونه ﷺ أرجح الناس عقلاً ٢١

موعظة بليغة ٢١
لا يتم عقل امرىء حتى يستكمل عشر خصال ٢٢
رجل من بني إسرائيل غفر له بمحبته لمحمد ﷺ ٢٣
دعاء سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام لما دخل على الملك ٢٣
ثلاثون سطراً وجدها وهب آخر زبور داوود عليه السلام ٢٤
قصة رجل من أفضل أهل زمانه ٢٥
أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم فيها وأجودهم ٢٦
ثلاثة أخلاق يضل بها الشيطان بني آدم ٢٦
قصة سليمان عليه السلام مع الحرّاث ٢٨
الدار البيضاء في السماء السابعة ٢٨
عيسى عليه السلام يخاطب أهل قرية نزل بهم العذاب ٢٩
موعظة بليغة لوهب ٣٠
سطور مشرقة وجدها على حاشية التوراة ٣١
أبو أيوب ميمون بن مهران رضي الله عنه ٣٢
ميمون يزور الحسن البصري رضي الله عنهما ٣٢
من كلامه رضي الله عنه ٣٣
من أحاديثه المسندة ٣٥
أخلاق عالية ٣٦
أبو وائل شقيق بن سلمة رضي الله عنه ٣٧
من مناقبه وثناء العلماء عليه ٣٧
من دعائه رحمه الله ٣٨
من أحاديثه المسندة ٣٨
خيثمة بن عبد الرحمن رضي الله عنه ٣٩
من مناقبه وثناء العلماء عليه ٣٩
من كلامه رضي الله عنه وأقواله ٤٠

أبو أمية شريح القاضي رضي الله عنه ٤٢
من أحاديثه المسندة ٤٢
يقضي بين سيدنا علي كرم الله وجهه ويهودي ٤٢
أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل رضي الله عنه ٤٤
عمرو بن عتبة بن فرقد رضي الله عنه ٤٦
من مناقبه وأحواله رضي الله عنه ٤٦
أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما ٤٨
من كلامه رضي الله عنه ٤٨
من أحاديثه المسندة ٤٩
يزيد بن شريك التيمي وابنه إبراهيم رضي الله عنهما ٥٠
من كلام يزيد رضي الله عنه ٥٠
من كلامه ابنه إبراهيم ٥٠
سبب حبس إبراهيم ووفاته رحمه الله ٥١
مكثه الشهر والشهرين لا يأكل شيئاً ٥٢
من كلامه رضي الله عنه ٥٢
كلام للإمام الغزالي حول قبول الهدية مع المنة وما يتبع ذلك ٥٣
كلام دقيق في علم المعاملة القلبية ٥٣
أبو عمران إبراهيم بن يزيد النخعي رضي الله عنه ٥٤
مناقبه وثناء العلماء عليه ٥٤
من كلامه وأقواله رضي الله عنه ٥٥
كراهية أن يقال: (حانت الصلاة) ٥٦
متى كانوا يختمون القرآن ٥٦
فائدة مهمة ٥٦
من أحاديثه المسندة ٥٨
عون بن عبد الله بن عتبة رضي الله عنه ٦٠
من كلامه رضي الله عنه ٦٠

ذكر الخروج من المنزل ٦٢
من أحاديثه التي رواها ٦٤
أبو عبد الله سعيد بن جبير رضي الله عنه ٦٥
مناقبه وثناء العلماء عليه ٦٥
من كلامه رضي الله عنه ٦٦
أولاد المؤمنين يوم القيامة ٦٧
من أقواله في التفسير ٦٧
قصة القبض على سعيد بن جبير وقتله وما حصل له في ذلك من كرامات ٦٨
من أحاديثه رضي الله عنه ٧١
أبو عمرو عامر بن شراحيل الشعبي رضي الله عنه ٧٣
من كلامه رضي الله عنه ٧٣
مراتب الرجال ٧٤
قول للشعبيِّ ونظْم لآخرَ بمعناه ٧٥
مسألة فَرَضية اختلف فيها خمسة من الصحابة رضي الله عنهم ٧٥
من أحاديثه رضي الله عنه ٧٦
الشعبي والحسن البصري رضي عنهما يجيبان على ابن هبيرة ٧٦
أبو إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي رضي الله عنه ٧٩
مناقبه وثناء العلماء عليه وبعض أقواله ٧٩
من أحاديثه رضي الله عنه ٨٠
أبو عيسى عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه ٨١
من مناقبه رضي الله عنه ٨١
من أحاديثه المسندة ٨١
ثلاثة من فقهاء العراق اختلفوا في حكم بيع وشرط ٨٢
أبو صالح الحنفي ماهان رضي الله عنه ٨٥
من أحاديثه المسندة ٨٦

ربعي بن حراش رضي الله عنه ٨٧
كرامة عجيبة: عيش بعد الموت ٨٧
من أحاديثه رضي الله عنه ٨٨
أبو عبد الله محمد بن سوقة رضي الله عنه ٨٩
من مناقبه وكلامه رضي الله عنه ٨٩
من أحاديثه التي رواها ٩١
أبو محمد طلحة بن مصرِّف رضي الله عنه ٩٢
من مناقبه وأخباره رضي الله عنه ٩٢
أبو عبد الرحمن زُبيد اليامي رضي الله عنه ٩٤
من مناقبه وثناء العلماء عليه ٩٤
من مروياته رضي الله عنه ٩٥
أبو غياث منصور بن المعتمر رضي الله عنه ٩٧
ثناء العلماء عليه ٩٧
سليمان بن مِهران الأعمش ٩٩
مناقبه وثناء العلماء عليه ٩٩
يضرب الجمّال وهو محرم ١٠٠
كلام المؤلف رحمه الله في تأويل صنيع الأعمش ١٠٠
من دعائه إذا قام الليل ١٠١
مجمع بن صمغان التيمي رضي الله عنه ١٠٢
مناقبه وأخباره وثناء العلماء عليه ١٠٢
عمرو بن قيس الملائي رضي الله عنه ١٠٤
كلام الثوري عن شيخه عمرو رضي الله عنهما ١٠٤
ثلاث من رؤوس التواضع ١٠٥
من مناقبه وثناء العلماء عليه ١٠٥
أبو ذر عمر بن ذر رضي الله عنه ١٠٧
ما قاله رحمه الله في وفاة ابنه ذرٍّ ١٠٧

من كلامه رضي الله عنه ١٠٧
من دعائه رضي الله عنه ١٠٨
من أحاديثه المسندة ١٠٩
أبو إدريس الخولاني رضي الله عنه ١١٠
من كلامه رضي الله عنه ١١٠
عبد الله بن محيريز رضي الله عنه ١١١
شواهد على ورعه وخوفه من الرياء ١١١
من مناقبه وكلامه رضي الله عنه ١١١
خصلتان جليلتان كانتا في ابن محيريز ١١٢
عبد الله بن أبي زكريا رضي الله عنه ١١٣
من كلامه رضي الله عنه ١١٣
أبو عبد رب عبيدة بن المهاجر رضي الله عنه ١١٥
حكاية توبته وتصدقه بصامت ماله ١١٥
يزيد بن مرثد رضي الله عنه ١١٨
خوفه من الله عز وجل ١١٨
يتهرب من ولاية القضاء ١١٨
من أحاديثه المسندة ١١٨
رجاء بن حيوة رضي الله عنه ١٢٠
ثناء العلماء عليه ١٢٠
ينصحه رجل لعله الخضر ١٢٠
من بديع حكمه ١٢١
فقيه الشام أبو عبد الله مكحول رضي الله عنه ١٢٢
من كلامه رضي الله عنه ١٢٢
قصة سليمان عليه السلام والحراث ١٢٣
تعليق المؤلف رحمه الله حول القصة ١٢٤
من دعاء داوود عليه السلام ١٢٤

من أحاديثه رضي الله عنه ١٢٥
أبو عثمان عطاء بن ميسرة الخراساني رضي الله عنه ١٢٧
من كلامه ومواعظه رضي الله عنه ١٢٧
طلب الحوائج من الشباب أسهل من الشيوخ ١٢٨
من أحاديثه المسندة ١٢٨
خالد بن معدان رضي الله عنه ١٣٠
من مناقبه رضي الله عنه ١٣٠
من كلامه رضي الله عنه ١٣٠
من أحاديثه رضي الله عنه ١٣١
بلال بن سعد رضي الله عنه ١٣٣
من كلامه ومواعظه رضي الله عنه ١٣٤
من أحاديثه المسندة ١٣٦
أبو يوسف يزيد بن ميسرة رضي الله عنه ١٣٧
من كلامه ومواعظه رضي الله عنه ١٣٧
البكاء من خمسة أشياء ١٣٧
من أحاديثه عن أم الدرداء رضي الله عنها ١٣٨
إبراهيم بن أبي عبلة رضي الله عنه ١٣٩
رفضه ولاية خراج مصر ١٣٩
أبو إسحاق كعب الأحبار رضي الله عنه ١٤١
جملة صالحة من كلامه ومواعظه رضي الله عنه ١٤١
تخويف وتبشير ١٤٢
عصاة هذه الأمة وحالهم يوم القيامة ١٤٣
دعاء داوود عليه السلام إذا أقبل الليل أو النهار ١٤٧
عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي رضي الله عنه ١٤٨
خلافهم في الأوزاع التي نسب إليها ١٤٨
مناقبه وثناء العلماء عليه ١٤٨

من كلامه رضي الله عنه ١٥٠

أبو بكر حسان بن عطية رضي الله عنه ١٥١

من كلامه رضي الله عنه ١٥١

ما يقوله إذا أمسى أو أصبح ١٥١

من دعائه رضي الله عنه ١٥٢

جَمَعَ الإيمان من كان فيه خمس خصال ١٥٢

من أذكار الطعام ١٥٢

أبو عروة القاسم بن مخيمرة رضي الله عنه ١٥٤

من كلامه رضي الله عنه ١٥٤

من أحاديثه التي رواها عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ١٥٥

أبو محمد حبيب العجمي رضي الله عنه ١٥٦

سبب إقباله على الله عز وجل ١٥٦

يضمن لرجل على ربه عز وجل بيتاً في الجنة ١٥٧

من كراماته وأحواله رضي الله عنه ١٥٨

عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه ١٦١

من كلامه وأخباره رضي الله عنه ١٦١

رؤيا له رضي الله عنه ١٦٢

حكايته مع ميمونة السوداء ١٦٢

حثه على البكاء ١٦٤

رؤيا عجيبة ١٦٥

رؤيا أخرى فيها موعظة ١٦٥

أبو بشر صالح المرِّي رضي الله عنه ١٦٧

موعظة بليغة وتوبة نصوح ١٦٧

دواعي البكاء ١٦٨

فائدة لاستجابة الدعاء ١٦٨

من عجائب العبَّاد ١٦٩

تفقد الحلاوة في ثلاث ١٧٠
من كلامه رضي الله عنه ١٧٠
من أحاديثه رضي الله عنه ١٧١
أبو المهاجر رياح بن عمرو القيسي رضي الله عنه ١٧٢
يعاتب نفسه ويوبخها ١٧٢
من أحواله وأخباره رضي الله عنه ١٧٢
أبو بشر حوشب بن مسلم رضي الله عنه ١٧٥
من كلامه عن الحسن البصري رضي الله عنهما ١٧٥
من أحاديثه عن الحسن ١٧٦
أبو مسعود سعيد بن إياس الجريري رضي الله عنه ١٧٧
ملك الموت يقبض روح عبد مؤمن ١٧٧
من أحاديثه رضي الله عنه ١٧٨
عطاء السليمي رضي الله عنه ١٧٩
من مناقبه وأحواله رضي الله عنه ١٧٩
هو في وادٍ والناس في وادٍ آخر ١٨٠
شواهد على شدة خوفه من الله عز وجل ١٨٠
يصف له سعدون دواء عجيباً ١٨٣
عتبة بن أبان الغلامُ رضي الله عنه ١٨٥
سبب تسميته بالغلام ١٨٥
قصة استشهاده والبشارة بذلك ١٨٥
من مجاهداته لنفسه ١٨٦
لباسه رضي الله عنه ١٨٨
سليمان بن علي يزور عتبة ١٨٨
يقطع الليل بثلاث صيحات ١٨٩
من مناقبه وأخباره رضي الله عنه ١٩٠
يدعو الطير فتجيبه ١٩٠

أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري رضي الله عنه ١٩٣
من مناقبه وثناء العلماء عليه ١٩٣
طرف واسع من كلامه وأخباره رضي الله عنه ١٩٥
بيتان في رثائه ٢٠٠
أبيات كان يتمثل بها ٢٠٠
من شِعره رضي الله عنه ٢٠٠
كتابه إلى عباد بن عباد ٢٠٢
لقاؤه بالخليفة المهدي ٢٠٢
كراهته النظر إلى البناء المزوَّق ٢٠٣
كلام المؤلف رحمه الله حول هذا المعنى ٢٠٣
لا يقتدى بصاحب عيال ٢٠٤
المال ترس المؤمن ٢٠٥
عمل الأبطال ٢٠٦
كان يرد ما يُعطى ٢٠٦
بعض المرائي والمبشرات التي رؤيت له ٢٠٧
من أقواله وحكمه رضي الله عنه ٢٠٨
داء المال كبير ٢٠٩
ثلاثة من الصبر ٢١٠
ثلاثة أشياء جعلها على نفسه ٢١١
وصية جليلة ٢١١
من أذكاره عند الأكل ٢١٢
هروبه من المهدي إلى اليمن ٢١٣
اسمه ونسبه رضي الله عنه ٢١٣
من محاسنه وثناء أهل العلم عليه ٢١٤
يزور بنت أم حسان الأسدية رضي الله عنهما ٢١٦
تفسير (لا حول ولا قوة إلا بالله) ٢١٧

موعظة ووصية ٢١٧
مسألة فقهية ٢٢١
حكاية الثوري رحمه الله مع بعض الخلفاء وما كان بينهما ٢٢٢
تعليق المؤلف على هذه الحكاية وأمثالها ٢٢٧
دخوله على أبي جعفر المنصور ٢٢٧
وصية تخشع لها القلوب ٢٢٩
البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ٢٣١
خالفتنا المرجئة في ثلاث ٢٣٢
لا يخاف في الحق لومة لائم ٢٣٥
في روايات وأخبار مختلفة فيما جرى بينه وبين المهدي ٢٣٧
يتعبد ويقوم الليل في ليلة موته ٢٣٨
موضع الشكر ٢٤٠
بلبل يتبع جنازته ويموت على قبره رحمه الله ٢٤٠
ابن مهدي يصف تهجده بالليل ٢٤١
الخضر عليه السلام يحضر دفنه ٢٤١
أفضل الذكر ٢٤٢
كلب سلطه الله على سابِّ الشيخين ٢٤٣
رؤيا مبشرة ومقام عظيم ٢٤٣
من هم اللحميُّون؟ ٢٤٤
من أقواله في التفسير ٢٤٤
وصية جامعة ٢٤٥
من مسانيد حديثه رضي الله عنه ٢٤٦
الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه ٢٤٩
اسمه ونسبه رضي الله عنه ٢٤٩
في من صنفوا في مناقبه رضي الله عنه ٢٤٩
من الأحاديث الواردة في فضل قريش ٢٥٠

فصل: في مولد الشافعي رحمه الله وذكر نبذة من أموره وحالاته ٢٥١
سبب طلبه الفقه ٢٥٢
تصنيفه «الرسالة» وثناء العلماء عليها ٢٥٣
فصل: في تلخيص جملة من أحوال الشافعي رحمه الله ٢٥٤
فصل: في نوادر من حِكم الشافعي رحمه الله ٢٥٩
أرجى حديث للمسلمين ٢٦٤
فصل: في أحرف من المنقولات في سخائه رحمه الله ٢٦٥
فصل: في شهادة أئمة الإسلام المتقدمين فمن بعدهم للشافعي رحمه الله بالتقدم في العلم واعترافهم له به وحسن ثنائهم عليه وجميل دعائهم له ووصفهم له بالصفات الجميلة والخلال الحميدة ٢٦٦
من فضائله رضي الله عنه ٢٧١
فصل: فيمن روى عنهم الشافعي من علماء الحجاز واليمن ومصر والعراق ٢٧٢
فصل: في صفته وحليته رحمه الله ٢٧٢
مناظرة بينه وبين محمد بن الحسن ٢٧٦
أبو حنيفة أعلم أم مالك رضي الله عنهما ٢٧٨
مناظرة أخرى بين الشافعي ومحمد بن الحسن ٢٧٩
دعاء للدخول على السلطان والعصمة منه ٢٨٠
مناظرة عظيمة مشتملة على فوائد نفيسة ٢٨٢
فائدة في فقه حديث عن النبي ﷺ ٢٨٣
تفسير حديث: «أقروا الطير على مكناتها» ٢٨٤
قدرته الفائقة على المناظرة ٢٨٦
حكم قتل الزنبور للمحرم ٢٨٦
كلامه في التحذير من أهل الأهواء والبدع ٢٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ٢٨٨
طلب العلم يحتاج إلى ثلاث ٢٨٩
وصيته ليونس بن عبد الأعلى في معاملة الصديق ٢٨٩

أثر كل علم على النفس ٢٩٠
حكم التكنِّي بأبي القاسم ٢٩٠
إسناده في الصلاة ٢٩١
تحذيره ممن به عاهة في بدنه ٢٩١
فراسة صادقة ٢٩٢
من كلامه في مرض موته ٢٩٢
أحمد ابن حنبل يصف الشافعي رضي الله عنهما ٢٩٣
لا يخبر الرجل عن سنِّه ٢٩٤
وصيته لمؤدب أولاد الرشيد ٢٩٤
صيغة عظيمة في الصلاة على النبي ﷺ ٢٩٤
دواء العُجب والرياء ٢٩٥
الصبر مع المحنة أفضل أم التمكين ٢٩٥
ثناء عاطر ونعت بليغ ٢٩٥
ذكر جملة من اصطلاح الإمام الشافعي في كتبه ٢٩٦
من فراسته رضي الله عنه ٢٩٨
من دعائه رحمه الله ٢٩٨
ظهَر الشافعي بثلاث خصال ٢٩٨
مدة تصنيف مذهبه الجديد ٢٩٩
الحكمة في قصر عمره ٢٩٩
كلام المؤلف رحمه الله في مدح الشافعي والثناء عليه ٢٩٩
الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ٣٠٢
نسبه وذكر من روى عنهم ٣٠٢
مناقبه وثناء العلماء عليه ٣٠٢
رؤيا مبشرة ٣٠٤
صفته رضي الله عنه ٣٠٧
ضربه لقوله في طلاق المكره ٣٠٨

تعظيمه لرسول الله ﷺ	٣١٠
واقعة غريبة	٣١٠
سؤال بدعة وإجابة جليلة	٣١٢
أشبه الثمار بثمار الجنة	٣١٣
لقاؤه بهارون الرشيد	٣١٣
يشاوره الرشيد في ثلاثة	٣١٤
استفتاؤه في بناء الكعبة	٣١٤
ما يقال عند رؤية الجنازة	٣١٤
الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه	٣١٦
من سمع منهم ورووا عنه	٣١٦
محنة توليته القضاء وضربه على ذلك	٣١٧
نعته وحليته رضي الله عنه	٣١٨
حيلة وحُسن تخلُّص	٣١٩
مناقبه وثناؤهم عليه	٣١٩
ما نقله المؤلف رحمه الله عن تأليفٍ لابن أبي العوام	٣٢٤
أخلاق رفيعة	٣٢٤
وصيته لنفر من أصحابه	٣٢٦
أمانته في البيع والمعاملة	٣٢٨
سبب تسمية المرجئة بذلك	٣٢٩
بعض المبشرات والمرائي التي رؤيت له	٣٢٩
رأيه في الاسم الأعظم	٣٣١
فائدة نفيسة فيما ينجي الخلق من عذاب الله تعالى	٣٣١
الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه	٣٣٢
مناقبه وثناء أهل العلم عليه وذكر شيء من أحواله رحمه الله	٣٣٢
شواهد على زهده وتقشفه رضي الله عنه	٣٣٥
من دعائه رضي الله عنه	٣٣٩

مستجاب الدعوة ٣٣٩
يترحم على أبي الهيثم ٣٤٠
يجعل من ضربه في حِل ٣٤٠
وروده على المتوكل وإكرامه له ٣٤٠
في مرض موته ووفاته رضي الله عنه ٣٤٢
محنة خلق القرآن ٣٤٤
رؤيا للإمام الشافعي وتبركه بالإمام أحمد رضي الله عنهما ٣٥٧
بم تلين القلوب ٣٦١
حرص على الطلب ٣٦٢
جملة من المرائي والمبشرات التي رؤيت له ٣٦٢
محنة أخرى للإمام أحمد رضي الله عنه ٣٦٧
إقامته بقرب المتوكل وما جرى في ذلك من الأخبار ٣٦٧
كان كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء ٣٧٤
أبو محمد سفيان بن عيينة رضي الله عنه ٣٧٥
من كلامه وأقواله رضي الله عنه ٣٧٥
الزاهد في الدنيا ٣٧٦
فائدة: ماء زمزم لا يرد ٣٧٦
تسع خصال من العقل ٣٧٨
مفاضلة بين قولين لمطرف وأخيه ٣٧٩
أشد الناس حسرة يوم القيامة ٣٨٠
أول من مات ٣٨١
دعاء ومناجاة بليغة ٣٨١
من أحاديثه رضي الله عنه ٣٨٢
وصية أبيه له ٣٨٢
حد الرضا عن الله عز وجل ٣٨٣
معنى حديث للنبي ﷺ ٣٨٤

ذكر من روى عنه ٣٨٤
من ثناء العلماء عليه ٣٨٤
قوله في تفسير حديث: «من غشنا فليس منا» ٣٨٥
شعبة بن الحجاج رضي الله عنه ٣٨٦
مناقبه وأحواله وثناء العلماء عليه ٣٨٦
فائدة أول من تكلم في الرجال ٣٩١
مسعر بن كدام رضي الله عنه ٣٩٢
مناقبه وأحواله وثناء أهل العلم عليه ٣٩٢
يستعفي من ولاية القضاء ٣٩٥
الجنة والنار يسمعان بني آدم ٣٩٥
من أحاديثه رضي الله عنه ٣٩٦
أبو سليمان داوود بن نصير الطائي رضي الله عنه ٣٩٨
سبب علته التي مات بها ٣٩٩
سبب تعبده وعزلته رضي الله عنه ٣٩٩
من مناقبه وكلامه وأحواله رضي الله عنه ٤٠٠
منزع شريف ومطلب منيف ٤٠٠
من أخبار زهده وورعه وتقشفه رحمه الله ٤٠٢
موعظة وتخويف ٤٠٨
رأيه في الدخول على الأمراء للنصيحة ٤٠٨
من أحاديثه رضي الله عنه ٤٠٩
سبب زهده رحمه الله ٤١٠
أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه ٤١٣
قصة ابتداء أمره ورجوعه إلى الله عز وجل ٤١٣
يلتقي بداوود والخضر عليهما السلام ٤١٤
رواية أخرى في ابتداء أمره رضي الله عنه ٤١٥
لا تنال درجة الصالحين إلا بعد ست عقبات ٤١٦

شروط الصحبة ٤١٦
لو علم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف ٤١٧
شواهد على زهده وورعه وطلبه الحلال ٤١٨
لقد أتعب من صحبه رضي الله عنه ٤١٨
قصة صحبته لأبي سليمان وما جرى له من الكرامة في الحصاد ٤١٩
الزهد ثلاثة أصناف ٤٢٢
غاية الورع ٤٢٢
بعض أصحابه يخبر عن أشد شيء مر في صحبته ٤٢٢
يأكل الطين ويسف الرمل ٤٢٣
كرمه وإنفاقه على قلة ذات يده ٤٢٤
حُسن ظنه ومحبته لرفقائه ٤٢٦
مما أوحى الله عز وجل ليحيى عليه السلام ٤٢٦
يعد فقد المال نعمة ٤٢٨
ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة ٤٣٠
من أدبه في إطعام الطعام ٤٣٠
لا يبتاع التين بالدِّين ٤٣٣
يدعو الله فيسكن البحر ٤٣٣
ذكر شيء من كراماته وأحواله رضي الله عنه ٤٣٣
دعاء للحفظ ٤٣٤
سبب الحجاب عن الله عز وجل ٤٣٦
ذكر شيء من كلامه وحِكمه رضي الله عنه ٤٣٦
المسألة مسألتان ٤٣٦
ماتت القلوب في عشرة أشياء ٤٣٧
بم يتم الورع ٤٣٧
قصة حميد بن جابر وتوبته ٤٤٠
رؤيا عجيبة ٤٤١

السابق والمقتصد والظالم لنفسه ٤٤١
أستاذ الأستاذين ٤٤١
هي الستة وأنا الضمين بنصفها ٤٤١
من أحاديثه رضي الله عنه ٤٤٢
لا يسكن قلب المشتاق لغير حبيبه ٤٤٦
رؤيا عجيبة ٤٤٧
قصة عجيبة ٤٤٧
دعاء عظيم كان يقرؤه كل جمعة ٤٤٨
الليث بن سعد رضي الله عنه ٤٥٠
كرم وعطاء وفير ٤٥٠
من كرمه وسخائه ٤٥٠
صلاح البلد ٤٥١
مسألة عويصة وجواب حسن ٤٥٢
عليّ والحسن ابنا صالح بن حي رضي الله عنهما ٤٥٤
من مناقبهما وأمهما رضي الله عنهم ٤٥٤
أبو علي شقيق البلخي رضي الله عنه ٤٥٧
سبب تركه للدنيا وطلبه العلم ٤٥٧
رواية أخرى في سبب توبته وزهده ٤٥٧
طريق الزهاد في سبعة أبواب ٤٥٨
من كلامه رضي الله عنه ٤٥٩
لم ينج من النار من لم يعرف هذه الأربعة ٤٥٩
لا بد للعامل من هذه الثلاثة ٤٦٠
التميز بين من تعطيه ومن يعطيك ٤٦١
من عجائب لطف الله عز وجل ٤٦٢
صفاء الحلال لا ينال إلا بأربعة ٤٦٢
سبب زهده رضي الله عنه ٤٦٤

العبادة عشرة أجزاء ٤٦٥
من عمل بثلاث خصال أعطي الجنة ٤٦٥
تاج الزهد في ثلاث خصال ٤٦٦
لإبليس على بني آدم خمسة أبواب ٤٦٦
المؤمن والمنافق كلاهما مشغول بخصلتين ٤٦٨
أبو علي الفضيل بن عياض رضي الله عنه ٤٦٩
من مناقبه رضي الله عنه وثناء أهل العلم عليه ٤٦٩
من كلامه رضي الله عليه ٤٦٩
من حِكمه رضي الله عنه ٤٧٦
وثيقة دار صاغها الفضيل رضي الله عنه ٤٧٨
بغضه للرشيد ومحبته لبقائه ٤٧٩
يزوره الرشيد فيعظه وعظاً بليغاً ٤٧٩
من غريب أحاديثه رضي الله عنه ٤٨٦
سبب توبته ٤٨٦
من عقلاء المجانين ٤٨٧
حقيقة المحبة ٤٨٨
من شروط المحبة ٤٨٨
تعريف المحبة ٤٨٨
حقيقة الأنس بالمحبوب ٤٨٩
تعليق المؤلف على كلام الفضيل رحمهما الله ٤٨٩
حكاية جليلة حول حقيقة اليقين ٤٩٠
وُهَيْب بن الورد المكي رضي الله عنه ٤٩٢
من مناقبه وثناء العلماء عليه ٤٩٢
من كلامه وأخباره رضي الله عنه ٤٩٣
شدة ورعه رضي الله عنه ٤٩٣
مَثل علماء السوء ٤٩٤

من فضائل البسملة ٤٩٤
روحانية ورب الكعبة ٤٩٥
صاحب الرضا أفضل ٤٩٥
دعاء مستجاب ٤٩٦
من الأحاديث التي رواها ٤٩٧
عبد الله بن المبارك رضي الله عنه ٤٩٩
من مناقبه وثناء العلماء عليه ٤٩٩
بيتان له في فضل الأئمة والسلاطين ٥٠٠
من كلامه رضي الله عنه ٥٠١
ذم المقام بالعراق ٥٠١
ورعه حتى عند الموت ٥٠٣
دواء عجيب للذنوب ٥٠٣
تركيبة للعلاج من المعاصي ٥٠٤
ثلاثة لا يحاسبون في مطعمهم ٥٠٥
من كرمه وسخائه رضي الله عنه ٥٠٦
من أحاديثه رضي الله عنه ٥٠٦
هذا هو الملك لا ملك هارون ٥٠٨
شربه ماء زمزم لعطش القيامة ٥٠٨
زلَّ حمار العلم في الطين ٥٠٩
كرمه وإحسانه لإخوانه وأصحابه ٥٠٩
من سمع منهم ومن رووا عنه ٥١٢
بيتان كان يتمثل بهما ٥١٢
بيتان في مدحه ٥١٣
أبيات كتبها للفضيل بن عياض ينصحه ٥١٤
عبد العزيز بن أبي روّاد رضي الله عنه ٥١٥
مناقبه وما قاله أهل العلم فيه ٥١٥

من كلامه رضي الله عنه ٥١٦
من أحاديثه رحمه الله ٥١٧
محمد بن صبيح بن السماك رضي الله عنه ٥١٨
طرف من كلامه ومواعظه رضي الله عنه ٥١٨
أقسام الناس ٥١٨
الخليقة على ثلاثة أصناف ٥١٩
من جميل الدعاء ٥٢٠
أبو عبد الرحمن محمد بن النضر الحارثي رضي الله عنه ٥٢٢
من كلامه وثناء أهل العلم عليه ٥٢٢
مما رواه مرسلاً ٥٢٣
محمد بن يوسف الأصبهاني رضي الله عنه ٥٢٤
من مناقبه رضي الله عنه ٥٢٤
كتابه إلى أخ له يعظه ٥٢٨
يوسف بن أسباط رضي الله عنه ٥٣٠
من كلامه وأحواله رضي الله عنه ٥٣٠
غاية التواضع والزهد ٥٣٠
كتاب من بعض إخوانه يعظه ٥٣١
أربعة من الفضلاء في زمانهم ٥٣٣
أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفزاري رضي الله عنه ٥٣٤
مخلد بن الحسين رضي الله عنه ٥٣٦
من أبيات الحكمة ٥٣٦
حذيفة بن قتادة المرعشي رضي الله عنه ٥٣٧
من كلامه رضي الله عنه ٥٣٧
يا عين صار الدمع عندك عادة ٥٣٩
اليمان أبو معاوية الأسود رضي الله عنه ٥٤٠
من مناقبه وأحواله رضي الله عنه ٥٤٠

يعظ نفسه بكلام بليغ ٥٤١
سليمان الخواص رضي الله عنه ٥٤٢
الفرق بين الصبر والرضا ٥٤٣
سَلْم بن ميمون الخواص رضي الله عنه ٥٤٤
حلاوة قراءة القرآن ٥٤٤
أبو عبيدة الخواص رضي الله عنه ٥٤٥
دعاء شريف ٥٤٥
أبيات عظيمة في المحبة والوله ٥٤٦
المعافى بن عمران رضي الله عنه ٥٤٧
فتح بن سعيد الموصلي رضي الله عنه ٥٤٩
من أحواله وأخباره رضي الله عنه ٥٤٩
من مناقب سالم الحداد رضي الله عنه ٥٤٩
بين سالم وحشيش رضي الله عنهما ٥٥٠
يزور بشر بن الحارث رضي الله عنهما ٥٥١
دروس وفوائد في زيارته لِبشر ٥٥١
يبكي الدموع والدم رضي الله عنه ٥٥٣
فتح بن محمد الأزدي الموصلي رضي الله عنه ٥٥٥
يلتقي بالخضر عليه السلام ٥٥٥
علي بن الفضيل بن عياض رضي الله عنهما ٥٥٧
يبكي على السارق لا على المسروق ٥٥٨
أبو بكر بن عياش رضي الله عنه ٥٦٠
يختم القرآن كل ليلة ٥٦٠
الخلق أربعة أقسام ٥٦٠
من كلامه رضي الله عنه ٥٦١
رؤيا عجيبة ٥٦١
من أحاديثه رضي الله عنه ٥٦١

أبو الحكم سيار رضي الله عنه ٥٦٣
من أحاديثه رضي الله عنه ٥٦٣
شيبان الراعي رضي الله عنه ٥٦٤
من مناقبه وكراماته رضي الله عنه ٥٦٤
من دعائه رضي الله عنه ٥٦٥
حكاية تدل على حقيقة المحبة ٥٦٥
أبو علي الحسن بن يحيى الخشني رضي الله عنه ٥٦٦
من كلامه رضي الله عنه ٥٦٦
من تمسك بهذه الخلال لم يزل سيداً ٥٦٦
أبو نصر بشر بن الحارث الحافي رضي الله عنه ٥٦٨
قصة بدء أمره وسلوكه الطريق ٥٦٨
من كلامه رضي الله عنه ٥٦٨
يخلص امرأة من رجل بكلمة عظيمة ٥٦٩
إبراهيم الحربي يروي زيارته لبشر وما حصل فيها ٥٦٩
جماعة من أهل اللهو يتوبون ببركته رضي الله عنه ٥٧١
قاعدة عامة النفع إن شاء الله ٥٧١
أعذارهم في عدم إجابتهم إلى إسماع الحديث والإجابة عن المسائل ٥٧٢
أعذارهم في عدم تناول بعض الشهوات من المباحات ٥٧٥
الأصل المعتبر عند العارفين استعمال الحلال ٥٧٦
كلام نفيس للإمام الغزالي في طلب الحلال ٥٨٤
درجات الورع أربع ٥٨٤
الكلام على نشر العلم وتعليمه والنية فيه وعذر بعضهم في ترك ذلك ٥٨٨
فوائد نفيسة فيما يشكل ظاهره من أقوال وأفعال العارفين رضي الله عنهم ٥٨٩
الدليل على كون الفرح بنشر العلم مطلوباً لا مذموماً ٥٩٠
معنى قوله ﷺ: «ذاك عاجل بشرى المؤمن» ٥٩٢
تأويل ما ورد من كراهة تزكية الرجل في وجهه ٥٩٢

ما يروى عن بعض الأئمة من غسل كتبهم أو دفنها ٥٩٣
الفقراء ثلاثة ٥٩٣
من دعائه في كل يوم ٥٩٤
الهم في أمر العيال ثقيل ٥٩٦
جزاء من خالف محبوبه ٥٩٧
يوصيه علي الجرجاني ٥٩٧
قصة بدء أمره وسبب تسميته (الحافي) ٥٩٧
توبة عكبر الكردي رضي الله عنه ٥٩٨
من أقواله وحكمه رضي الله عنه ٥٩٩
حقيقة التوكل ٦٠١
تغتم له أمه حية وميتة ٦٠٢
من الورع الصافي ٦٠٢
من أحاديثه رضي الله عنه ٦٠٣
شرف الدنيا قبل شرف الآخرة ٦٠٧
موعظة بليغة ٦٠٨
منزلة الجوع عند الله عز وجل ٦٠٩
أشد الأعمال ٦١٠
حكاية يرويها المؤلف في توبة بشر رضي الله عنهما ٦١٠
منقبة جليلة لبشر رضي الله عنه ٦١١
يمشي على الماء ٦١١
أبو محفوظ معروف الكرخي رضي الله عنه ٦١٢
من كلامه رضي الله عنه ٦١٢
من دعائه رحمه الله ٦١٢
من كراماته ودعائه المستجاب رضي الله عنه ٦١٤
مذهبه في أكل الطعام ومذهب بشر رضي الله عنهما ٦١٥
ثلاث خصال مربحة في تقصير الثياب ٦١٥

يعقد الأخوة في الله بينه وبين بشر رضي الله عنهما ٦١٦
دعوات من دعا بهن كتب من الأبدال ٦١٧
فائدة لقضاء الحاجة ٦١٧
حقيقة الوفاء ٦١٧
علامات الفتيان ٦١٧
علامات الأولياء ٦١٨
من مسانيد حديثه رضي الله عنه ٦١٨
عناية الله به في صباه ٦١٩
منقبة رفيعة ٦١٩
منقبة وكرامة أخرى ٦١٩
بدء أمر السريِّ على يد معروف رضي الله عنهما ٦٢٠
رؤيا مبشرة ٦٢٠
خمس كلمات للدنيا وخمس للآخرة ٦٢٠
أبو سفيان وكيع بن الجراح رضي الله عنه ٦٢٢
من مناقبه وأحواله وثناء العلماء عليه ٦٢٢
يحيى بن سعيد القطان رضي الله عنه ٦٢٦
عبد الرحمن بن مهدي رضي الله عنه ٦٢٨
مناقبه وثناء أهل العلم عليه ٦٢٨
من كلامه رضي الله عنه ٦٢٩
من روايته عن يحيى بن سعيد ٦٣٢
أبو الحسن محمد بن أسلم الطوسي رضي الله عنه ٦٣٤
معنى قول النبي ﷺ: «عليكم بالسواد الأعظم» ٦٣٤
مناقبه وأخباره وثناؤهم عليه ٦٣٤
لا يُقرن به أحد في أربعة ٦٣٤
يحدث بنعمة الله عليه قبل وفاته ٦٣٦
الكنيف هو البطن ٦٣٨

يرى أن نخل الدقيق بدعة ٦٣٨

يحيى بن يحيى النيسابوري رضي الله عنه ٦٤٠

قصة عجيبة جرت بينه وبين المأمون ٦٤١

محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه ٦٤٢

مناقبه وثناء العلماء عليه رضي الله عنه ٦٤٢

أخرجت خراسان ثلاثة ٦٤٤

فصل: في الإشارة إلى بعض شيوخه والآخذين عنه، والمنتمين إليه والمستفيدين منه ٦٤٦

فصل: في اسم «صحيح البخاري» وتعريف محله وسبب تصنيفه وكيفية جمعه وتأليفه ٦٤٧

ترجيح «صحيح البخاري» على «مسلم» ٦٤٧

سبب تصنيف «الصحيح» وكيفية تأليفه ٦٤٧

فصل: في جملة ما في «الصحيح» من الأحاديث المسندة ٦٤٨

فصل: في جوانب متفرقة من حياته وأحواله رضي الله عنه ٦٤٩

لم يأت شيئاً بغير علم ٦٤٩

رواية «الصحيح» المشهورة ٦٤٩

قصة بدء أمره في طلب الحديث ٦٥٠

أبو الحسين مسلم بن الحجاج رضي الله عنه ٦٥٢

مصنفاته رضي الله عنه ٦٥٣

من مميزات «صحيح مسلم» ومحاسنه ٦٥٤

أبو داوود السجستاني رضي الله عنه ٦٥٧

مناقبه وثناء العلماء عليه ٦٥٧

أربعة آلاف حديث مدارها على أربعة أحاديث ٦٥٨

فائدة: البيان ضربان ٦٦٠

الناس شريفهم ووضيعهم في العلم سواء ٦٦١

أبو زرعة الرازي رضي الله عنه ٦٦٢
يروي حديث التلقين وهو في النزع ٦٦٢
مرائي مبشرة رؤيت له رضي الله عنه ٦٦٣
إسحاق بن راهويه رضي الله عنه ٦٦٥
يزيد بن هارون الواسطي رضي الله عنه ٦٦٧
رؤيا مبشرة ٦٦٧
رؤيا أخرى وفيها حال حريز بن عثمان رحمه الله ٦٦٨
يونس بن عبيد رضي الله عنه ٦٦٩
شواهد على ورعه وأمانته في التجارة ٦٦٩
من كلامه وأخباره رضي الله عنه ٦٧٠
عبد الله بن عون بن أرطبان رضي الله عنه ٦٧٣
مناقبه وثناؤهم عليه ٦٧٣
حقيقة الرضا ٦٧٤
أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنبسي رضي الله عنه ٦٧٥
طرف من كلامه وحكمه رضي الله عنه ٦٧٥
أفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه ٦٧٥
اختلاف مشايخ العراق في الزهد ٦٧٦
خصال جلساء الرحمن جل جلاله ٦٨٠
عصفور اصطاد كركياً ٦٨٢
أهل الزهد على طبقتين ٦٨٤
الثياب ثلاثة ٦٨٤
لإبليس شيطان اسمه المتقاضي ٦٨٥
مقامات الزهد ٦٨٦
من مفاريد حديثه رضي الله عنه ٦٨٧
عشرون خصلة من خصال الإيمان ٦٨٧
رأيه في النكاح ٦٨٨

رؤيا عجيبة ٦٨٩
أحمد بن عاصم الأنطاكي رضي الله عنه ٦٩٠
الخير كله في حرفين ٦٩٠
كلام نفيس في ذم الغيبة واجتنابها ٦٩١
أبو عبد الله محمد بن المبارك الصوري رضي الله عنه ٦٩٢
من كلامه وحكمه رضي الله عنه ٦٩٢
أبو عبد الله سعيد بن بريد النباجي رضي الله عنه ٦٩٥
طرف من كلامه رضي الله عنه ٦٩٥
دعاء يعقوب عليه السلام لرد ابنيه ٦٩٧
كلام نفيس في الرضا ٦٩٨
دعاء عظيم ٦٩٨
منصور بن عمار رضي الله عنه ٧٠٠
سبب توبته رضي الله عنه ٧٠٠
مما رواه بإسناده ٧٠١
حكاية عجيبة وأربع دعوات ٧٠٢
عبد الله بن عبد العزيز العمري رضي الله عنه ٧٠٤
من أحواله ومواعظه رضي الله عنه ٧٠٤
يعظ الرشيد موعظة بليغة ٧٠٤
أبو غياث المكي رضي الله عنه ٧٠٦
قصته مع الخراساني والهميان الضائع ٧٠٦
أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري رضي الله عنه ٧٠٩
جملة صالحة من نفيس كلامه وحكمه رضي الله عنه ٧٠٩
أعون الأشياء على تسكين الشهوة ٧١٠
متى يستحق العالم اسم العلم ٧١٠
حقيقة المحبة ٧١١
من علامات المحبة ٧١١

كلام نفيس في المحبة ٧١٢
ليس بذي لب من وجدت فيه هذه الخصال ٧١٣
صفة المهمومين ٧١٤
متى يكون العبد مفوِّضاً ٧١٤
قصته مع الساقي والمرأة العجوز لما حمل إلى بغداد ٧١٥
الاستكانة تحت الأوامر أولى بنا ٧١٧
رسالة بليغة وكلام رائق ٧١٨
أشد الحجاب وأخفاه ٧١٨
كلام نفيس حول طلب العلم لله عز وجل ٧١٩
من بليغ المناجاة ٧٢٠
قصته مع جارية وسؤالها عن حقيقة السخاء ٧٢٠
تعليق المؤلف رحمه الله على كلام الجارية ٧٢١
مدار الكلام على أربع ٧٢٢
سبب توبته رضي الله عنه ٧٢٢
أنجع الأشياء في طلب الإخلاص ٧٢٢
متى يكون العبد مفوِّضاً ٧٢٣
قصته مع المرأة السوداء ٧٢٣
علامة إقبال الله عز وجل على عبده وعلامة الأنس به تعالى ٧٢٣
قصة عجيبة ٧٢٤
طيور خضر ترفرف على جنازته ٧٢٥
كمال العقل وكمال المعرفة ٧٢٥
السبيل إلى التواضع ٧٢٦
من حكم وأسرار الحج ٧٢٦
حقيقة التوحيد ٧٢٧
علامة الأخوة في الله تعالى ٧٢٩
حكاية طريفة جرت ليوسف بن الحسن مع ذي النون -حول اسم الله الأعظم ٧٢٩

حقيقة السخاء ٧٣١
صفة دارٍ من دور الجنة ٧٣١
ثلاثة موجودة فيها ثلاثة مفقودة ٧٣٣
أغلب الأحوال على قلب العارف ٧٣٣
أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه ٧٣٥
من كلامه رضي الله عنه ٧٣٥
من علامة حب الله عز وجل ٧٣٦
يغسل كتبه في نهر الفرات ٧٣٧
كلام نفيس للمؤلف تعليقاً على غسله الكتب والمسوغ لذلك ٧٣٧
قصته مع المرأة القرشية ٧٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ٧٤٦
أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه ٧٤٧
جملة من نفيس كلامه وبديع حكمه رضي الله عنه ٧٤٧
أشد المحجوبين عن الله تعالى ٧٤٨
متى يبلغ الرجل مبلغ الرجال ٧٤٩
علامة العارف ٧٥٠
الفرق بين العارف والعالم ٧٥٠
من الأحاديث التي رواها رضي الله عنه ٧٥٢
المعرفة معرفتان ٧٥٢
كلام له يدل على علوٍّ مقامه ٧٥٣
معنى قوله: (أبو يزيد يطلب أبا يزيد) ٧٥٤
يذكر بعضاً من نعم الله عليه ٧٥٤
من بره بأمه وطلبه لرضاها ٧٥٥
ورعه رضي الله عنه سبب إسلام أهلِ بيت من المجوس ٧٥٥
الاسم الأعظم ٧٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ ٧٥٦

معنى (الله أكبر) ٧٥٦
معنى السنة والفريضة ٧٥٦
كلام رائق في مرتبة الصدِّيق ٧٥٧
متى يكون الرجل عاملاً على معنى العبودية ٧٥٩
مقام التحير في المحبة ٧٦١
رجل مات وما له إلا الله عز وجل ٧٦١
أسباب الوصول ٧٦٢
المعارف ثلاثة ٧٦٢
الفرق بين الزاهد والعارف ٧٦٣
عناية الله به من الأزل ٧٦٣
أعظم آيات العارف ٧٦٤
أحمد بن الخضر رضي الله عنه ٧٦٦
مناقبه وبعض كلامه رضي الله عنه ٧٦٦
أبو إسحاق إبراهيم الهروي المعروف ببستنبه رضي الله عنه ٧٦٩
من أراد ألا يحجب دعاؤه فليتعاهد خمسة أشياء ٧٦٩
طريق الجنة ثلاثة أشياء ٧٧٠
أصاب الشرف في الدنيا من أصاب ثلاثاً ٧٧٠
داوود البلخي رضي الله عنه ٧٧١
أبو تراب النخشبي رضي الله عنه ٧٧٢
ثلاث من العلم وثلاث من البر وثلاث من مناقب الإيمان ٧٧٢
من كلامه رضي الله عنه ٧٧٣
هاتف من الخضر عليه السلام ٧٧٤
نظرة إلى أبي يزيد تقتل مريد أبي تراب ٧٧٥
معنى (الشاهد) في اصطلاح القوم ٧٧٦
محتوى الكتاب ٧٧٨